تنوير الأذهان

من

تفسير روح البيان

تأليف

الشيخ إسماعيل حقي البروسوي

المتوفى سنة ١١٣٧ هـ

المجلد الثالث

اختصار وتحقيق

خادم الكتاب والسنة

الشيخ محمد علي الصابوني

الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار القلم

دمشق

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ-١٩٨٨م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

تنوير الأذهان

من

تفسير روح البيان

المجلد الثالث

من تفسير سورة الحج إلى تفسير سورة الشورى



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ أي احذروا من عقوبة مالك أموركم ومربيكم بطاعته ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيءٌ عَظِيمٌ ﴾ الزلزلة التحريك الشديد بطريق التكرير لأن زلزل مضاعف زلَّ ، والساعة عبارة عن القيامة سميت بذلك لسرعة حسابها ، وزلزلة الساعة قيامها ، فيكون معناها إن الزلزلة الواقعة عن قيام الساعة شيء عظيم لا يحيط به الوصف ، فلابد من التقوى لتخليص النفس من العذاب ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ أي وقت رؤيتكم تلك الزلزلة ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ الذهول الذهاب عن الأمر مع دهشة ، والمرضعة المرأة المباشرة للإرضاع أي تغفل مع حيرة عما هي بصدد إرضاعه من طفلها الذي ألقمته ثديها اشتغالاً بنفسها وخوفاً ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ أي تلقي وتسقط جنينها لغير تمام ، من شدة ما غشيها، والحَمْلُ بالفتح : ما كان في البطن ﴿ وَتَرَى النَّاسَ ﴾ أهل الموقف ﴿ سُكَارَىٰ ﴾ أي كأنهم سكارى والسَكر حالة تعرض بين المرء وعقله ومنه سكرات الموت ، قال جعفر رضي الله عنه : أسكرهم ما شاهدوا من بساط العز والجبروت ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ ﴾ حقيقة ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾ فغشيهم هوله وطيَّر عقولهم وسلب تمييزهم وفي الحديث (يقول الله لآدم يوم القيامة يا آدم : أخرجْ بعثَ النار من ذريتك ، فيقول : وكم بعثُ النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، فذلك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى - أي من الخوف - وما هم بسكارى - أي من الخمر (ولكن عذاب الله شديد) فكَبُر ذلك على المسلمين فبكوا وقالوا يا رسول الله أينا ذلك ؟ فقال (أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل ثم قال : والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، فكبروا وحمدوا الله ثم قال : والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة ، فكبروا وحمدوا الله ، ثم قال : والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة ، وإن أهل الجنة مائة وعشرون صفاً ثمانون منها أمتي ، وما المسلمون إلا كالشامة في جنب البعير ، أو كالرقة في ذراع الحمار أو كالشعرة البيضاء في الثور الأسود)[1] ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ أي وبعض الناس وهو « النضر بن الحارث » وكان جَدِلاً يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا بعث بعد الموت ﴿ مَنْ يُجَادِلُ ﴾ الجدال المنازعة والمقاتلة ، وأصله من جدلت الحبل أي أحكمتُ فتله ﴿ فِي اللهِ ﴾ أي في شأنه ويقول مالا خير فيه من الأباطيل ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي يجادل في

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في باب التفسير ، وقال حديث حسن صحيح ، وانظر جامع الأصول ٩ / ١٨٥ .

ذات الله وصفاته بالجهل ، وعدم اتباع البرهان ﴿ وَيتّبِعُ ﴾ في جداله وعامة أحواله ﴿ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴾ متجرد للفساد متعرٍّ من الخيرات ، وهم رؤساء الكفرة الذين يدعون من دونهم إلى الكفر أو إبليس وجنوده ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ أي قضي على كل شيطان من الجن والإنس ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي الشأن ﴿ مَنْ تَوَلاَّهُ ﴾ اتخذه ولياً وتبعه ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ﴾ بالفتح على أنه خبرُ مبتدأ محذوف ، أي فشأن الشيطان أن يضل من تولاه عن طريق الحق ﴿ وَيَهْدِيهِ ﴾ يدله ﴿ إِلىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ بحمله على مباشرة ما يؤدي إليه من السيئات ، أما الشيطان الجني فيضله بالوساوس والتسويلات وإلقاء الشبه ، وأما الشيطان الإنسي فبإيقاعه في مذاهب أهل الأهواء والبدع ، والزنادقة المنكرين للبعث فيستدل بشبههم ويتمسك بعقائدهم حتى يصير من جملتهم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ يا أهل مكة المنكرين للبعث ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ ﴾ البعث : الإخراج من الأرض والتسيير إلى الموقف أي إن كنتم في شك من إمكان الإعادة أو من وقوعها ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أي فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم ، أي خلقنا كل فرد منكم خلقاً إجمالياً ﴿ مِنْ تُرَابٍ ﴾ في ضمن خلق آدم منه ﴿ ثُمَّ ﴾ خلقناكم خلقاً تفصيلياً ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ هي الماء الصافي قلَّ أو كثر ويعبر بها عن ماء الرجل ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ قطعة من الدم جامدة مكونة من المني ﴿ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ﴾ أي قطعة من اللحم مكونة من العلق ﴿ مُخَلَّقَةٍ ﴾ أي مستبينة الخلق مصورة ﴿ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ أي لم يستبن خلقها وصورتها بعد وفي الحديث (إن أحدكم يُجْمع خلقُهُ في بطن أمه أربعين يوماً ثم تكون علقة مثل ذلك ، ثم تكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد)[1] ﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ أي خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم بذلك أمر البعث والنشور ، فإن من قدر على خلق البشر أولاً من تراب لم يشم رائحة الحياة قط ، فهو قادر على إعادته ، ﴿ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ ﴾ أي ونحن نقر في الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقره فيها ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وقت معين هو وقت الوضع ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ ﴾ أي من بطون أمهاتكم بعد إقراركم فيها عند تمام الأجل المسمى ﴿ طِفْلاً ﴾ أطفالاً بحيث لا تقومون لأموركم من غاية الضعف ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ علة لنخرجكم معطوفة على علة أخرى مناسبة لها كأنه قيل ثم نخرجكم لتكبروا شيأ فشيأ ، ثم لتبلغوا كالكم في القوة والعقل والتميز ، وهو فيما بين الثلاثين والأربعين ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ﴾ أي يقبض روحه ويموت بعد بلوغ الأشد أو قبله ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ العُمُرِ ﴾ وهو الهرم والخرف ﴿ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ ﴾ كثير ﴿ شَيْئاً ﴾ أي شيأ من الأشياء أو شيئاً من العلم ، وهو مبالغة في انتقاض علمه وانتكاس حاله ، أي ليعود إلى ما كان أوان الطفولة من ضعف البنية ، وسخافة العقل ، وقلة الفهم ،

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي قريباً من هذا اللفظ ، من حديث عبد الله بن مسعود ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ١١٣ .

فينسى ما علِمَه ، وينكر ما عرفه ، ويعجز عما قدر عليه ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ ﴾ وهو حجة أخرى على البعث ﴿ هَامِدَةً ﴾ ميتة يابسة همدت النار إذا صارت رماداً ﴿ فَإِذَا أَنْزَلنا عَلَيْهَا المَاءَ ﴾ أي المطر ﴿ اهْتَزَّتْ ﴾ تحركت بالنبات ، والاهتزاز الحركة الواقعة على وجه البهجة والسرور ﴿ وَرَبَتْ ﴾ انتفخت وازدادت ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صنف ﴿ بَهِيجٍ ﴾ البهجة حسن اللون وظهور السرور فيه ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ ﴾ أي ذلك الصنع البديع وهو خلق الإنسان على أطوار مختلفة ، وتصريفه في أطوار متباينة ، وإحياء الأرض بعد موتها ، حاصل بسبب أنه تعالى ﴿ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى ﴾ أي شأنه وعادته إحياؤها ، وحاصله أنه تعالى قادر على إحيائها بدأ وإعادة وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة مراراً بعد مرار ﴿ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ مبالغ في القدرة وإلا لما أوجد هذه الموجودات ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ ﴾ أي القيامة ﴿ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾ إذ قد وضح دليلها ، وظهر أمرها ﴿ وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ ﴾ أي بمقتضى وعده الذي لا يقبل الخُلْف ﴿ مَنْ فِي القُبُورِ ﴾ جمع قبر وهو مقر الميت ، والبعث هو أن ينشر الله الموتى من القبور ، بأن يجمع أجزاءهم الأصلية ويعيد الأرواح إليها .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ ﴾ هو أبو جهل ﴿ يُجَادِلُ فِي اللهِ ﴾ حال كون ذلك المجادل ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ضروري أو بديهي فطري ﴿ وَلاَ هُدَىً ﴾ استدلال ونظر صحيح ، هادٍ إلى المعرفة ﴿ وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ وحي مظهر للحق أي يجادل في شأنه تعالى من غير تمسك بحجةٍ نظرية ولا ببرهان سمعي ، بل بمحض التقليد والجدال ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ العِطْف بكسر العين الجانب الذي يعطفه الإنسان ويلويه ويميله عند الإعراض عن الشيء ، وثني العطف كناية عن التكبر أي لاوي عنقه تكبراً ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي ليخرج المؤمنين من الهدى إلى الضلال ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ الخزي : الهوانُ والفضيحة وهو ما أصابه يوم بدر من القتل والصغار ﴿ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القِيٰمَةِ عَذَابَ الحَرِيقِ ﴾ الحريق بمعنى المحرق ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي ذلك الخزي في الدنيا وعذاب الآخرة كائن ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي ﴿ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ أي والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم * واعلم أن جدال المنافق وأهل الأهواء والبدع مذموم ، وأما من يجادل في معرفة الله ودفع الشبه ، وبيان الطريق إلى الله تعالى ، بالعلم بالله وهدى نبيه عليه السلام ، يظهر بنوره الحقُّ من الباطل ، فجداله محمود ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ روي أن الآية نزلت في أعاريب قدموا المدينة ، وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه ، وولدت امرأته ولداً ، وكثر ماله وماشيته ، قال : ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً واطمأن ، وإن كان بخلافه قال : ما أصبت إلا شراً وانقلب،

فنزلت الآية أي وبعض الناس ﴿ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ أي على طرف من الدين ، فلا ثباتَ له فيه كالذي ينحرف على طرف الجيش فإن أحس بظفر قرَّ وإلا فرَّ ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ﴾ أي دنيوي من الصحة والسعة ﴿ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴾ بذلك الخير أي ثبت على ما كان عليه ظاهراً لا باطناً ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أي شيء يفتتن به من مكروه يعتريه في نفسه أو أهله أو ماله ﴿ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ الانقلاب الانصراف والرجوع أي ارتد ورجع إلى الكفر ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ فقدهما وضيَّعهما بذهاب عصمته وحبوط عمله بالارتداد ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ قال بعضهم : الخسرانُ في الدنيا ترك الطاعات ولزوم المخالفات ، والخسران في الآخرة كثرة الخصوم والتبعات ﴿ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أي يعبد متجاوزاً عبادة الله تعالى ﴿ مَالا يَضُرُّهُ وَمَالا يَنْفَعُهُ ﴾ أي جماداً ليس من شأنه الضر والنفع ﴿ ذَلِكَ ﴾ الدعاء ﴿ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾ عن الحق والهدى ، مستعار من ضلال من أبعد في التيه ضالاً عن الطريق فطالت وبعدت مسافة ضلاله ﴿ يَدْعُوْ لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ الدعاء بمعنى القول أي يقول ذلك الكافر يوم القيامة حين يرى تضرره بمعبوده ودخوله النار بسببه : والله لبئس الناصر ، ولبئس الصاحب والمعاشر ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ بيان لكمال حسن حال المؤمنين العابدين ، والجَنَّةُ : الأرض المشتملة على الأشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها ، ووصف الجنات به دلالة على أنها من جنس ما هو أبهى الأماكن التي يعرفونها ، لتميل إليها طباعهم ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ أي يفعل ما يريده من إثباته الموحد الصالح ، وعقاب المشرك ، لا دافع له ولا مانع ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ ﴾ يتوهم ﴿ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ ﴾ أي محمداً ﷺ ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ بإعلاء دينه وقهر أعدائه ﴿ وَالآخِرَةِ ﴾ بإعلاء درجته والانتقام من مكذبيه ، يعني أنه تعالى ناصر رسوله في الدنيا والآخرة ، فمن كان يظن من أعاديه وحُسَّاده خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ أي ليربط بحبل إلى سقف بيته لأن كل ما علاك فهو سماء ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ أي ليختنق ، وسمى الاختناق قطعاً لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه ﴿ فَلْيَنْظُرْ ﴾ أي فليتصور في نفسه ﴿ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ﴾ فعل ذلك بنفسه ﴿ مَا يَغِيظُ ﴾ أي ما يغيظه من النصرة كلا يعني أنه لا يقدر على دفع النصرة وإن مات غيظاً ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحكم البالغة ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ أي القرآن الكريم حال كونه ﴿ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات الدلالة على معانيها اللطيفة ﴿ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴾ أي والأمر أن الله تعالى يهدي بالقرآن من يريد هدايته أو تثبيته وفي الحديث (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين)[1] أي يرفع بالقرآن درجة أقوام وهم من آمن به وعمل بمقتضاه ، ويحط به أقواماً

(١) الحديث أخرجه مسلم في صلاة المسافرين من رواية عامر بن وائلة ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٠٧ .

آخرين وهم من أعرض عنه ولم يحفظ وصاياه ، وكان نظر الصحابة وشغلهم في الأحوال والأعمال ، ولذا كانوا يتعلمون عشر آيات لايجاوزونها إلى غيرها حتى يعملوا بما فيها ، وعن أبي سعيد الخدري أنه قال : جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين ، وإن بعضهم ليستتر ببعض من العُرْي ، وقارىءٌ يقرأ علينا ، إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا فلما قام رسول الله سكت القارىء ، فسلَّم ثم قال : ما كنتم تصنعون ؟ قلنا كنا نستمع إلى كتاب الله فقال (الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم ، أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة ، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم ، وذلك خمسمائة سنة)[1] وذلك لأن الأغنياء يوقفون في العَرَصات ، ويسألون من أين جمعوا المال ؟ وفيم صرفوه ؟ ولم يكن للفقراء مال حتى يوقفوا ويسألوا عنه ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ بكل ما يجب أن يؤمن به ﴿ **وَالَّذِينَ هَادُوْا** ﴾ دخلوا في اليهودية ﴿ **وَالصَّابِئِينَ** ﴾ أي الذين صبأوا عن الأديان واختاروا عبادة الملائكة والكواكب ، من صبأ الرجل عن دينه إذا خرج عنه إلى دين آخر ﴿ **وَالنَّصَارىَ** ﴾ جمع نصران ونصرانة مثل الندامى جمع ندمان وندمانة ﴿ **وَالْمَجُوسَ** ﴾ عبدة النار وليسوا من أهل الكتاب ولذا لا تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم ﴿ **وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾ يعني عبدة الأوثان ﴿ **إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ** ﴾ أي يقضي بين المؤمنين وبين الفرق الخمس ، المتفقة على ملة الكفر ، يعني إن الله تعالى يعامل كلَّ صنف منهم يوم القيامة على حسب استحقاقه ، إما بالنعيم وإما بالجحيم ،وعُلم من الآية أن الأديان ستة واحد للرحمن ، وهو دين الإسلام وخمسة للشيطان ﴿ **إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ** ﴾ قال الإمام الغزالي : الشهيد يرجع معناه إلى العلم فإنه تعالى عالم الغيب والشهادة ، والغيب عبارة عما بطن ، والشهادة عما ظهر ، فإذا اعتبر العلم المطلق فهو العليم مطلقاً ، وإذا أضيف إلى الأمور الباطنة فهو الخبير ، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد ، وفي الآية وعيد وتهديد ، فعلى العاقل أن يذكر يوم الفصل والقضاء ، ويجتهد في الأعمال التي يحصل بها الرضى ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ ألم تعلم يا من من شأنه العلم ﴿ **أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ** ﴾ أي ينقاد لتدبيره ومشيئته الملائكة والجن والإنس ، مطيعاً أو عاصياً وذلك لأن السجود إما سجود باختيار وهو الإنسان ، وإما سجود تسخير وهو للإنسان والحيوان والنبات ، شبه الانقياد بالسجود إيذاناً بكمال التسخير والتذلل ، إذ ليس في كفرة الإنس ومردة الجن والشياطين سجود طاعة وعبادة ، وهو وضع الجبهة على الأرض خصوصاً لله تعالى ﴿ **وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ** ﴾ بالسير والطلوع والغروب لمنافع العباد

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في العلم ، وأحمد في المسند ، وأخرجه الترمذي بلفظ (فقراء أمتي يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة) وانظر جامع الأصول ٤ / ٦٧٤ .

﴿ وَالْجِبَالُ ﴾ بإجراء الينابيع وإنبات المعادن ﴿ وَالشَّجَرُ ﴾ بالظل وحمل الثمار ونحوها ﴿ وَالدَّوَابُّ ﴾ أي بعجائب التركيب ونحوها ، فكل شيء ينقاد له سبحانه على ما خلقه وعلى ما رزقه ، فالبر والفاجر والمؤمن والكافر في هذا سواء ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ، فأهل العرفان يسجدون سجود عبادة بالإرادة ، والجماد وما لا يعقل يسجدون سجود خضوع للحاجة وهؤلاء الكثير من المؤمنين ، قليلون بالنسبة للكافرين ، ولهذا قال بعده :

﴿ وَكَثِيرٌ ﴾ أي من الناس ﴿ حَقَّ ﴾ أي ثبت ﴿ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ بسبب كفره وإبائه عن الطاعة ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ ﴾ يهنه الله بأن كتب عليه الشقاوة في الأزل ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ يكرمه بالسعادة إلى الأبد ﴿ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ من الإكرام والإهانة ، قال الإمام النيسابوري : جعل الله الكفار أكثر من المؤمنين ، ليريهم أنه مستغن عن طاعتهم ، والشيء إذا قلَّ وجوده عزَّ ، ألا ترى أن الذهب لعزته صار مظهراً للعزة !! ﴿ هَذَانِ ﴾ أي فريق المؤمنين وفريق الكفرة ﴿ خَصْمَانِ ﴾ أي فريقان مختصمان ﴿ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ في دينه أو في ذاته وصفاته ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ تفصيل لما أجمل في قوله يفصل بينهم يوم القيامة ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ﴾ المراد هنا قُدِّرت على مقادير جثتهم ﴿ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ أي نيران هائلة تحيط بهم إحاطة الثياب بلابسها ﴿ يُصَبُّ ﴾ صبَّه : أراقه من أعلى ﴿ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ أي الماء الحارُّ الذي انتهت حرارته ، ولو قطرت قطرة منه على جبال الدنيا لأذابتها ، قال الراغب : الحميم الماء الشديد الحرارة ﴿ يُصْهَرُ بِهِ ﴾ أي يذاب بذلك الحميم من فرط الحرارة ﴿ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾ من الأمعاء والأحشاء ﴿ وَالْجُلُودُ ﴾ تشوى جلودهم فتتساقط ، أي إذا صب الحميم على رؤسهم يؤثر من فرط حرارته في باطنهم ، نحو تأثيره في ظاهرهم ، فيذاب به أحشاؤهم كما يذاب به جلودهم ثم يعاد كما كان ﴿ وَلَهُمْ ﴾ للكفرة أي لتعذيبهم وجلدهم ﴿ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ جمع مقمعة وهي سياط منه يجلدون بها وفي الحديث (ولو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلّوها منها)[1] أي رفعوها ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ أي أشرفوا على الخروج من النار ، حسبما يروى أنها تضربهم بلهبها فترفعهم ، حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فَهَوَوْا فيها سبعين خريفاً ﴿ مِنْ غَمٍّ ﴾ أي غم شديد من غمومها يصيبهم ﴿ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ أي في قعرها بأن ردوا من أعلاها إلى أسفلها من غير أن يخرجوا منها ﴿ وَ ﴾ قيل لهم ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ العذاب المحرق كما سبق ، والعدول إلى صيغة الفعيل للمبالغة ﴿ إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه أبو داود في سننه في الجنائز بلفظ متقارب وفيه (لو ضُرب بها جبل لصار تراباً) وانظر جامع الأصول ١١ /١٧٨ .

﴿ مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ الأربعة ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ أي تحليهم الملائكة بأمره تعالى وتزينهم ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ جمع أسورة جمع سوار ﴿ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ بيان للأساور ﴿ وَلُؤْلُؤاً ﴾ كما تجمع نساء الدنيا بين أنواع الحلي ، وما أحسن المعصم إذا كان فيه سواران : سوار من ذهب أحمر ، وسوار من لؤلؤ أبيض وفي الحديث القدسي (أعددتُ لعبادي الصالحين مالا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خَطَر على قلب بشر)[1] قال سعيد بن جبير : يُحلَّى كل واحد منهم ثلاثة أساور واحد من ذهب ، وواحد من فضة ، وواحد من اللؤلؤ واليواقيت ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ يعني أنهم يلبسون في الجنة ثياب الإبريسم - يعني الحرير - وهو الذي حرم لبسه في الدنيا على الرجال ابتلاءً ، على ما روي عن النبي عليه السلام أنه قال (من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة)[2] ولذلك قال أبو حنيفة رحمه الله : لا يحل لرجل أن يلبس حريراً إلا قدر أربع أصابع ، لما روي إنه عليه السلام لبس جبة مكفوفة بالحرير[1] ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ وهو قولهم : « الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » وقيل : هو الإخلاص في قول « لا إله إلا الله » والعمل به ﴿ وَهُدُوْا إلى صِرَاطِ الحَمِيدِ ﴾ أي المحمود نفسه أو عاقبته وهو الجنة واعلم أن علامة الاهتداء إلى الطريق القويم ، السلوك بقدم العمل الصالح ، وهو ما كان خالصاً لله تعالى ، ومجرد الإيمان وإن كان يمنع المؤمن من الخلود في النار ويدخله الجنة ، لكن العمل يزيد نور الإيمان وبه يتنور قلب المؤمن ، قال موسى عليه السلام يارب : أيُّ عبادك أعجز ؟ قال : الذي يطلب الجنة بلا عمل ، قال : وأيُّ عبادك أبخل ؟ قال : الذي سأله سائل وهو يقدر على إطعامه ولم يطعمه ثم قال تعالى منبِّهاً على قدسيّة البلد الأمين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي يمنعون الناس عن طاعة الله والدخول في دينه ﴿ وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ ﴾ المراد به مكة أو يمنعون المؤمنين عن طواف المسجد الحرام أي المحترم من كل وجه ، فلا يُصَاد صيده ، ولا يقطع شوكه ، ولا يسفك فيه الدماء ﴿ الَّذِي جَعَلْنَاهُ ﴾ صيرناه حال كونه معبداً ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ كائناً من كان ﴿ سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ يقال للمقيم بالبادية باد ، والبادية كل مكان في الصحراء ، والعاكفُ : المقيم في البلد ، وفائدة وصف المسجد الحرام بذلك ، زيادة تشنيع على الصادين عنه ، وخبر « إنَّ » محذوف أي معذبون كما يدل عليه آخر الآية ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ حالان مترادفان أي حال كونه مائلاً عن القصد ظالماً ، والإلحاد الميلُ وهو ضربان : إلحاد إلى الشرك بالله ، وإلحاد إلى الشرك بالأسباب ، فالأول ينافي الإيمان ويبطله ، والثاني يوهن عراه ولا يبطله ، ومن هذا النحو الآية ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يعني يجب على من كان فيه أن يعدل في جميع ما يريده ، والمراد بالإلحاد والظلم : صيدُ حمامه

(١) الحديث في الصحيحين وهو من الأحاديث القدسية .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ١٧٩ .

وقطع شجره ، وجميع المعاصي ، لأن السّيئات تضاعف بمكة ، كما تضاعف الحسنات: ولحرمة المسجد الحرام ومسجد الرسول والمسجد الأقصى قال الفقهاء لو نذر أن يصلي في أحد هذه الثلاثة تعين ، بخلاف سائر المساجد ، فإن من نذر أن يصلي في أحدها له أن يصلي في آخر ، واعلم أن الله تعالى قد عفا عن جميع الخواطر إلا بمكة ، لأن الشرع قد ورد أن الله يؤاخذ فيه من يريد فيه بإلحاد وبظلم ، وهذا كان سبب سكنى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بالطائف احتياطاً لنفسه ، لأنه ليس في قدرة الإنسان أن يدفع عن قلبه الخواطر ﴿ **وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ** ﴾ يقال بوأه منزلاً أي أنزله فيه ، والمعنى اذكر وقت جعلنا مكان البيت أي الكعبة مباءة له عليه السلام أي مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة ، روي أن الكعبة الكريمة بنيت خمس مرات ، إحداها بناء الملائكة إياها قبل آدم وكانت من ياقوتة حمراء ثم رفعت إلى السماء أيام الطوفان ، والثانية بناء إبراهيم ، والمرة الثالثة بناء قريش في الجاهلية وقد حضر رسول الله ﷺ هذا البناء ، وكان يومئذ أول رجل يخرج من هذه السكة فكان عليه السلام أول من خرج فقضى بينهم أن يجعلوه في مرط ، ثم يرفعه جميع القبائل كلهم فرفعوه ، ثم ارتقى هو عليه السلام فرفعه إليه فوضعه ، والمرة الرابعة بناء عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، والخامسة بناء الحجاج وهو البناء الموجود اليوم .

﴿ **أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً** ﴾ مفسرة لبوأنا فكأنه قيل : وإذْ تعبدنا إبراهيم فقلنا له لا تشرك بي شيئاً ﴿ **وَطَهِّرْ بَيْتِي** ﴾ من الأوثان والأقذار أن تطرح حوله ﴿ **لِلطَّائِفِينَ** ﴾ لمن يطوف به ﴿ **وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** ﴾ جمع راكع وساجد أي ويصلي فيه ، ولعل التعبير عن الصلاة بأركانها وهي القيام والركوع والسجود للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك فكيف وقد اجتمعت * وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالقائمين المقيمون بالبيت فيكون المراد بالطائفين من يطوف به من أفاقِيٍّ غير مقيم هناك ﴿ **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ** ﴾ التأذين النداء والمعنى ناد فيهم يا إبراهيم ﴿ **بِالْحَجِّ** ﴾ بدعوة الحج والأمر به ، روي أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء البيت ، قال الله تعالى له : أَذِّنْ في الناس بالحج ، قال يارب وما يبلغ صوتي ؟ قال تعالى عليك الأذان وعليَّ البلاغ ، فصعد إبراهيم الصفا وفي رواية أبا قبيس وقال أيها الناس ألا إن ربكم قد بنى بيتاً وكتب عليكم الحج إلى بيته العتيق ، فأجيبوا ربكم وحجوا بيته الحرام ، فسمعه أهل ما بين السماء والأرض ، فما بقي شيء سمع صوته إلا أقبل يقول : لبيك اللهم لبيك ﴿ **يَأْتُوكَ** ﴾ جواب للأمر ﴿ **رِجَالاً** ﴾ أي مشاة على أرجلهم جمع راجل قال الراغب : اشتق من الرجل رجل وراجل ، للماشي بالرجل ﴿ **وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ** ﴾ أي وركباناً على كل بعير ضامر أي مهزول أتعبه بعد السفر فهزل ﴿ **يَأْتِينَ** ﴾ صفة لضامِر لأن المعنى على ضوامر من جماعة الإبل ﴿ **مِنْ كُلِّ فَجٍّ** ﴾

طريق واسع ﴿ عَمِيقٍ ﴾ بعيد ، وأصل العمق البعد سفلاً ، يقال بئر عميق إذا كانت بعيدة القعر ﴿ لِيَشْهَدُوا ﴾ أي ليحضروا ﴿ مَنَافِعَ ﴾ كائنة ﴿ لَهُمْ ﴾ من المنافع الدينية والدنيوية فتنكيرها لأن المراد بها نوع من المنافع مخصوص بهذه العبادة لا يوجد في غيرها من العبادات ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ ﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها ﴿ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾ هي أيام النحر كما يُنبِئُ عنه قوله تعالى ﴿ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ﴾ فإن المراد بالذكر ما وقع عند الذبح ، والبهيمةُ : اسم لكل ذات أربع وهي الإبل ، والبقر ، والضأن ، والمعز ، لأن الهَدْي والذبيحة لا يكونان من غيرها ، قال الراغب : البهيمة مالا نطق له ، وذلك لما في صوته من الإبهام ، والأنعام جمع وهو مختص بالإبل والبقر والغنم ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ التفات إلى الخطاب أي فاذكروا اسم الله على ضحاياكم فكلوا من لحومها ، والأمر للإباحة وكان أهل الجاهلية لا يأكلون من نسائكهم فأعلم الله أن ذلك جائز ، إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل ﴿ وَأَطْعِمُوا البَائِسَ ﴾ والبائس الذي أصابه بؤس وشدة ﴿ الفَقِيرَ ﴾ المحتاج فالبائس الشديد الفقر ، والفقيرالمحتاج الذي أضعفه الإعسار ، وفي الآية إشارة إلى أنه يلزم على الأغنياء أن يشاركوا الفقراء في المآكل والمشارب ، فلا يطعموهم إلا مما يأكلون ، ولا يجعلوا لله ما يكرهون ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾ أي ليزيلوا وسخهم بحلق الرأس ، وقص الشارب والأظفار ، فالتفث الوسخ ، وكلُّ ما يُستقذر من الشعث وطول الظفر ونحوهما تفث ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ المراد بالنذور ما نذروه من أعمال البر في أيام الحج ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا ﴾ طواف الركن الذي به يتم التحلل ، فإنه قرينة قضاء التفث ﴿ بِالبَيْتِ العَتِيقِ ﴾ أي القديم فإنه أول بيت وضع للناس ، أو المعتق من تسلط الجبابرة ، فكم من جبار سار إليه ليهدمه فعصمه الله ، اعلم أن طواف الحجاج ثلاثة : **الأول** : طواف القدوم ، وهذا الطواف سنة لا شيء بتركه . **والثاني** : طواف الإفاضة يوم النحر بعد الرمي والحلق ويسمى أيضاً طواف الزيارة ، وهو ركن لا يحصل التحلل من الإحرام ما لم يأت به **والثالث** : طواف الوداع لا رخصة لمن أراد مفارقة مكة إلى مسافة القصر في أن يفارقها حتى يطوف بالبيت سبعاً فمن تركه فعليه دم ، إلا المرأة الحائضة فإنه يجوز لها ترك طواف الوداع ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي الأمر والشأن ذلك الذي ذكر ، وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ ﴾ جمع حرمة وهي مالا يحل هتكه ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ أي فالتعظيم خير له ثواباً ﴿ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ أي في الآخرة وفي الآية إشارة إلى أن تعظيم حرمات الله ، هو تعظيم لله في ترك ما حرمه الله عليه ﴿ وَأُحِلَّتْ ﴾ جعلت حلالاً وهو من حل العقدة ﴿ لَكُمُ ﴾ لمنافعكم ﴿ الأَنْعَامُ ﴾ وهي الأزواج الثمانية من الضأن ومن المعز ومن الإبل ومن البقر ﴿ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ آية تحريمه كما قال في سورة المائدة ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ وَالدَّمُ ﴾ الآية ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ أي الرجس الذي هو الأوثان يعني عبادتها كما يُجتنب الأنجاس ، والرجسُ :

الشيء القذر إما من حيث الطبع ، وإما من جهة العقل ، وإما من جهة الشريعة ﴿ **وَاجْتَنِبُوْا قَوْلَ الزُّوْرِ** ﴾ تعميم بعد تخصيص ، كأنه قيل : فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور ، واجتنبوا قول الزور كله ولا تقربوا شيئاً منه ﴿ **حُنَفَاءَ للهِ** ﴾ أي حال كونكم مائلين عن كل دين زائغ إلى الدين الحق مخلصين له ، والحنفُ : وهو الميلُ عن الضلال إلى الاستقامة ﴿ **غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ** ﴾ أي شيأ من الأشياء فدخل في ذلك الأوثان دخولاً أولياً ﴿ **وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ قال الراغب : معنى خر سقط سقوطاً يسمع منه خرير وهو صوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو ﴿ **فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ** ﴾ الخطف الاختلاس بالسرعة ﴿ **أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ** ﴾ أي تسقطه وتقذف به من علو إلى سفل ﴿ **فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ أي بعيد ، فالهلاك في الشرك كما أن النجاة في الإيمان ، وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه عليه السلام قال له (هل تدري ما حق الله على العباد ؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيأ ، يامعاذ هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال : أن لا يعذبهم)[1] فلابد من تخصيص العبادة بالله والتخليص من شوب الشرك ليكون العبد على الملة الحنيفية ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي الأمر والشأن ذلك الذي ذكر ، من تعظيم حرمات الله ﴿ **وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ** ﴾ أي الهدايا فإنها من معالم الحج وشعائره جمع شعيرة وهي العلامة ، وتعظيمها : أن يختاروها حساناً سماناً غالية الأثمان ، رُوي أنه عليه السلام أهدى مائة بدنة وأن عمر أهدى نجيبةأي ناقة كريمة طلبت منه بثلاثمائة دينار .

﴿ **فَإِنَّهَا** ﴾ أي فإن تعظيمها ناشيء ﴿ **مِنْ تَقْوَى الْقُلُوْبِ** ﴾ وتخصيصها بالإضافة لأنها مركز التقوى ﴿ **لَكُمْ فِيهَا** ﴾ أي في الهدايا المشعرة ليعرف أنها هديٌ ﴿ **مَنَافِعُ** ﴾ هي درُّها ونسلها وصوفها وظهرها ، فإن للمهدي أن ينتفع بهديه إلى وقت النحر إذا احتاج إليه ﴿ **إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى** ﴾ وهو وقت نحرها والتصدق بلحمها والأكل منه ﴿ **ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ** ﴾ المحل اسم الزمان بتقدير المضاف والمعنى ثم بعد تلك المنافع هذه المنفعة العظمى وهو وقت حلول نحرها ووجوبه ، حال كونها متهيئة إلى البيت العتيق أي إلى الحرم ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ** ﴾ من الأمم ﴿ **جَعَلْنَا مَنْسَكاً** ﴾ متعبداً وقرباناً يتقربون به إلى الله تعالى ، والمراد به إراقة الدماء لوجه الله تعالى ، والمعنى شرعنا لكل أمة مؤمنة أن ينسكوا له تعالى﴿ **لِيَذْكُرُوْا اسْمَ اللهِ** ﴾ خاصة دون غيره ويجعلوا نسكه لوجهه الكريم ، لأن المقصود الأصلي من المناسك تذكر المعبود ﴿ **عَلَى مَارَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ** ﴾ عند ذبحها ﴿ **فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾ أي فإلهكم إله منفرد ، يمتنع أن يشاركه شيء في ذاته ، وصفاته ، وإلا لاختل النظام المشاهد في العالم ﴿ **فَلَهُ أَسْلِمُوْا** ﴾ أي فإذا كان إلهكم إله واحد ، فاجعلوا التقرب أو الذكر خالصاً لوجهه ، ولا تشوبوه

(١) الحديث أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وأحمد ، وانظر الجامع الكبير ٣ / ٤٠١ .

بالإشراك ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ المتواضعين أو المخلصين ، ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الوجل استشعار الخوف أي خافت منه تعالَى ، لإشراق أشعة جلاله عليها ، وطلوع أنوار عظمته .

﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ﴾ الذين صبروا على البلايا والمصائب ، من مفارقة الأوطان ومن تجرع الغصص والأحزان ، في نصر الله وطاعته ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ ﴾ في أوقاتها أصله مقيمين والإضافة لفظية ، قال شاعرهم العابد الزاهد :

إذا ما تمنى الناس رَوْحاً وراحةً * تمنيتُ أن أشكو إليكَ وتسمعُ

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُوْنَ ﴾ في وجوه الخيرات والمراد به إما الزكاة المفروضة لاقترانها بالصلاة أو مطلق ما ينفق في سبيل الله ﴿ وَالْبُدْنَ ﴾ جمع بدنة وهي الإبل والبقر مما يجوز في الهدي والأضاحي ، سمّيت بها لعظم بدنها ﴿ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ﴾ أي من أعلام دينه التي شرعها الله ﴿ لَكُمْ فِيهَا ﴾ في البدن ﴿ خَيْرٌ ﴾ نفع كثير في الدنيا ، وأجرٌ عظيم في العقبى .

﴿ فَاذْكُرُوْا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا ﴾ بأن تقولوا عن ذبحها « بسم الله الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، اللهم منك وإليك » أي عطاء منك ونتقرب بها إليك ﴿ صَوَافَّ ﴾ قائمات والآية دلت على أن الإبل تنحر قائمة ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوْبُهَا ﴾ والمعنى سقطت على الأرض وهو كناية عن الموت ﴿ فَكُلُوْا مِنْهَا ﴾ أي من لحومها ، إن لم يكن دم الجنايةِ والكفارة والنذر ﴿ وَأَطْعِمُوْا الْقَانِعَ ﴾ أي الراضي بما عنده وبما يُعطى ﴿ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ المعتر الفقير المعترض للمعروف من غير أن يسأل ﴿ كَذلِكَ ﴾ مثل ذلك التسخير البديع ﴿ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ ﴾ ذللناها لمنافعكم ، مع عظمها ونهاية قوتها فلا تستعصي عليكم ، ولولا تسخير الله لم تكن أعجز من بعض الوحوش ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ ﴾ لتشكروا إنعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص ﴿ لَنْ يَنَالَ اللهَ ﴾ لن يبلغ ويدرك الله ﴿ لُحُوْمُهَا ﴾ المأكولة والمتصدق بها ﴿ وَلاَ دِمَاؤُهَا ﴾ المهراقة بالنحر ﴿ وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ وهو قصد الائتمار وطلب الرضى ، وفيه دليل على أنه لا يفيد العمل بلا نية وإخلاص ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ تكرير للتذكير والتعليل بقوله ﴿ لِتُكَبِّرُوْا اللهَ ﴾ أي لتعرفوا عظمته بقدرته على مالا يقدر عليه غيره ، فتوحّدوه بالكبرياء ﴿ عَلَى مَا هَدٰكُمْ ﴾ أي على هدايته إياكم أو موصولة بها ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي المخلصين في أمور دينهم بالجنة والمقصود منه الحث والتحريض على استصحاب معنى الإحسان في جميع أفعال الحج مما يصلح لخدمة الرب ، فعجل أيها العبد في تدارك حالك ، وكن سخياً محسناً بمالك ، فإن لم يكن فبالنفس والبدن وإن كان لك قدرة على بذلهما فيهما معاً فافعل ، ألا ترى ان إبراهيم عليه السلام كيف أعطى ماله للضيفانِ ، وبدنه النيران ، وولده

للقربان وقلبه للرحمن حتى تعجب الملائكة من سخاوته فأكرمه الله بالخلة * قالوا للحجاج يوم عيد الأضحى مناسك : الأول الذهاب من منى إلى المسجد الحرام ، ولغيرهم الذهاب إلى المصلى موافقة لهم ، والثاني الطواف ولغيرهم صلاة العيد لقوله عليه السلام (الطواف بالبيت صلاة) وأفضل القربان بذل المجهود ،وتطهير القلب لتجليات الرب المعبود ،قال مالك بن دينار : خرجت إلى مكة فرأيت في الطريق شاباً إذا جنَّ عليه الليل رفع وجهه نحو السماء ، وقال : يامن تسره الطاعات ، ولا تضره المعاصي ، هب لي ما يسرك واغفر لي ما لا يضرك ، فلما أحرم الناس ولبوا قلتُ له : ألا تلبي ؟ فقال ياشيخ : وما تغنى التلبية عن الذنوب المتقدمة والجرائم المكتوبة ، أخشى أن أقول لبيك فيقال لي : لا لبيك ولا سعديك ، ثم مضى ، فما رأيته إلابمنى وهو يقول : اللهم اغفر لي ، إن الناس قد ذبحوا وتقربوا إليك ، وليس لي شيء أتقرب به إليك سوى نفسي فتقبلها مني ، ثم شهق شهقة وخرَّ ميتاً ، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ قال الراغب : الدفع إذا عُدّي بـ« إلى » اقتضى معنى الإنالة ، نحو قوله تعالى ﴿ **فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ** ﴾ وإذا عُدّي بـ « عَنْ » اقتضى معنى الحماية نحو ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ أي يبالغ في دفع ضرر المشركين عن المؤمنين ، ويحميهم أشد الحماية من أذاهم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ** ﴾ بليغ الخيانة في أمانة الله ﴿ **كَفُورٍ** ﴾ بليغ الكفران لنعمته ، فلا يرضى فعلهم ولا ينصرهم * وفي الآية تنبيه على أنه بارتكاب الخيانة والكفران ، يصير بحيث لا يتوب لتاديه في ذلك ، وإذا لم يتب لم يحبه الله ، واعلم أن الخيانة والنفاق واحد ، ومن الخيانة الكفر ، فإنه إهلاك للنفس التي هي أمانة الله عند الإنسان ويجرى في الصلاة والصوم ونحوهما ، إما بتركها أو بترك شرط من شرائطها ، ومن أكل السحور فنام عن صلاة الصبح حتى طلع الشمس فقد كفر بنعمة الله التي هي السحور ، وخانه بالصلاة أيضاً ، فتركُ الفرض من أجل السنة تجارة خاسرة ، روي أن واحدا ضاع له تسعة دراهم فقال من وجدهم وبشرني فله عشرة دراهم فقيل له في ذلك فقال إن في الوجدان لذة لا تعرفونها أنتم ، فأهل الغفلة وجدوا في المنام لذة هي أفضل عندهم من ألف صلاة نعوذ بالله تعالى ، ومن الخيانة النقص في المكيال والميزان ، حكي أنه احتضر رجل فإذا هو يقول : جبلين من نار جبلين من نار ، فسئل أهله عن عمله فقالوا كان له مكيالان ، يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ﴿ **أُذِنَ** ﴾ أي رخص في القتال ﴿ **لِلَّذِينَ** ﴾ للمؤمنين الذين ﴿ **يُقَاتَلُونَ** ﴾ أي يقاتلهم المشركون ﴿ **بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا** ﴾ أي بسبب أنهم ظلموا ، وهم أصحاب النبي عليه السلام كان المشركون يؤذونهم وكانوا يأتونه عليه السلام بين مضروب ومشجوج ، ويتظلمون إليه فيقول عليه السلام لهم (اصبروا فإني لم أومر بالقتال) حتى هاجروا فنزلت ، وهي أول آية نزلت في القتال ﴿ **وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴾ وعد للمؤمنين بالنصر والتغلب على المشركين ، بعد ما وعد بدفع

أذاهم وتخليصهم من أيديهم ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ المراد بديارهم مكة المعظمة ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أي خرجوا بغير موجب استحقوا الخروج به ﴿ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ﴾ أي بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجباً للإقرار والتمكين دون الإخراج ، على طريقة قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلولٌ من قراع الكتائب

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ بتسليط المؤمنين منهم على الكافرين في كل عصر وزمان ﴿ لَهُدِّمَتْ ﴾ أي لخربت باستيلاء المشركين ﴿ صَوَامِعُ ﴾ للرهبانية ﴿ وَبِيَعٌ ﴾ للنصارى جمع صومعة وهي موضع يتعبد فيه الرهبان وينفردون فيه لأجل العبادة والبيع جمع بيعة وهي كنائس النصارى التي يبنونها في البلدان لأجل العبادة ، والصوامع لهم أيضاً إلا أنهم يبنونها في المواضع الخالية كالجبال والصحاري قال الراغب : البيعةُ مصلّى النصارى ﴿ وَصَلَوَاتٌ ﴾ كنائس لليهود ، سميت بالصلوات لأنها يُصلّى فيها ﴿ وَمَسَاجِدُ ﴾ للمسلمين ، وقدم ما سوى المساجد عليها في الذكر ، لكونه أقدم في الوجود ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسمُ اللهِ كَثِيراً ﴾ أي ذكراً كثيراً ووقتاً كثيراً صفة مادحة للمساجد خصت بها دلالة على فضلها وفضل أهلها ، ويجوز أن يكون صفة للأربع لأن الذكر في الصوامع والبيع والصلوات كان معتبراً قبل انتساخ شرائع أهلها ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ أي من ينصر أولياءه أو من ينصر دينه ، ولقد أنجز الله وعده حيث سلّط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب ، وأكاسرة العجم ، وقياصرة الروم ، وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ ﴾ على كل ما يريده ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يمانعه شيء ولا يدافعه ، فإن قلت : فإذا كان الله قوياً غالباً فما وجه انهزام المسلمين في بعض الحروب وقد وعدهم النصرة ؟ قلت : إن النصرة والغلبة منصب شريف فلا يليق بحال الكافر ، لكن الله تعالى تارة يشدد المحنة على الكفار ، وأخرى على المؤمنين ، لأنه لو شدد المحنة على الكفار في جميع الأوقات ، لحصل العلم الاضطراري بأن الإيمان حق وما سواه باطل ، فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الإيمان ، وأخرى على أهل الكفر ، لتكون الشبهات باقية ، ولأن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي فيكون تشديد المحنة عليه في الدنيا كفارة له على معصيته ، وأما تشديد المحنة على الكافر فإنه يكون غضباً من الله كالطاعون مثلاً فإنه رحمة للمؤمنين ورجز أي عذاب وغضب للكافرين ، مر عامر برجل قد صلبه الحجاج ، قال يارب : إن حلمك على الظالمين أضرَّ بالمظلومين ، فرأى في منامه أن القيامة قد قامت وكأنه دخل الجنة ، فرأى المصلوب فيها في أعلى عليين ، فإذا مناد ينادي : حلمي على الظالمين أحلَّ المظلومين في أعلى عليين ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ وصف من الله للذين أخرجوا من ديارهم بما سيكون منهم من حسن السيرة عند تمكينه تعالى إياهم في الأرض ، وإعطائه إياهم زمام الأحكام ﴿ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ لتعظيمي ، قال الراغب : كل موضع مدح الله فيه بفعل الصلاة ، ذكر بلفظ الإقامة ،

ولم يقل المصلّين إلا في المنافقين نحو (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ) وإنما خص لفظ الإقامة تنبيها على أن المقصود من فعلها توفية حقوقها وشرائطها ، لا الإتيان بهيئتها فقط ، ولهذا قيل : إن المصلين كثير ، والمقيمين لها قليل ﴿ وَآتَوُا الزَّكٰوةَ ﴾ لمساعدة عبادي ﴿ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وهو ما عرف حسنه شرعاً وعرفاً ﴿ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ وهو ما يستقبحه أهل العلم والعقل السليم ، قال الراغب : المعروف : اسم لكل فعل يُعرف بالعقل والشرع حُسْنُه ، والمنكر ما يُنكر بها ﴿ وَللهِ ﴾ خاصة ﴿ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه وتقديره وعن ابن عباس رضي الله عنهما (إن من أشراط الساعة إماتة الصلوات ، واتباع الشهوات ، والميل إلى الهوى ، ويكون أمراء خونة ، ووزراء فسقة ، عندها يذوب قلب المؤمن كما يذوب الملح في الماء ، إن تكلم قتلوه ، وإن سكت مات بغيظه) .

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ المقصود تسليته عليه السلام عما يترتب على التكذيب من الحزن المتوقع أي وإن تحزن على تكذيب قومك إياك ، فاعلم أنك لست بأوحد الناس في ذلك ﴿ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ قبل تكذيبهم ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ أي نوحاً ﴿ وَعَادٌ ﴾ أي هوداً ﴿ وَثَمُودُ ﴾ أي صالحاً ﴿ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي إبراهيم ﴿ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ أي لوطاً ﴿ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ﴾ أي شعيباً ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَى ﴾ كذبه القبط وأصروا إلى وقت الهلاك ، وأما بنو إسرائيل فإنهم وإن قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ونحوه فما استمروا على العناد ، بل كلما تجددت لهم المعجزة جددوا الإيمان هكذا ينبغي أن يفهم هذا المقال ، وغيِّر النظم للإيذان بأن تكذيبهم له كان في غاية الشناعة ، لكون آياته في كمال الوضوح ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أمهلتهم إلى أجلهم المسمى ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أي أخذت كل فريق من المكذبين ، بعد انقضاء مدة إمهاله ، بعذاب الطوفان ، والريح الصرصر ، والصيحة ، والخسف والحجارة وعذاب يوم الظلة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري عليهم بتغيير النعمة محنة ألم يكنْ ذلك في غاية الهول والفظاعة ؟ فاصبر أنت إلى هلاك من يعاديك ، ففي هذا تسلية للنبي عليه السلام ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ كاف التشبيه دخلت على أي فصار المجموع بمعنى الخبرية والمعنى فكثير من القرى ﴿ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ جملة حالية من قوله أهلكناها ، والمراد ظلم أهلها بالكفر والمعاصي ، وهو بيان لعدله وتقدسه عن الظلم ، حيث أخبر بأنه لم يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ من خوى النجم إذا سقط أي ساقطة حيطان تلك القرية ﴿ عَلَى عُرُوْشِهَا ﴾ أي سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف ، فالعروش السقوف لأن كل موتفع أظلك فهو عرش ، سقفاً كان أو كرماً أو ظلة أو نحوها ﴿ وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ ﴾ أي وكم بئر عامرة في البوداي فيها الماء ، ومعها آلات الاستقاء ، إلا أنها تركت لا يستقى منها ، لهلاك أهلها ﴿ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ أخليناه عن ساكنيه مشيد

أي مـنَّقٍ مرفـوع البنيـان ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا** ﴾ أي كفـار مكـة أي أغفلـوا فلم يسـافروا ﴿ **فِي الأَرْضِ** ﴾ ليروا مصـارع المهلكين ﴿ **فَتَكُوْنَ لَهُمْ** ﴾ بسبب مـا يشـاهـدونـه من مواد الاعتبـار ﴿ **قُلُوْبٌ يَعْقِلُـوْنَ بِهَا** ﴾ ما يجب أن يُعقل من التوحيـد ﴿ **أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُوْنَ بِهَـا** ﴾ مـا يجب أن يُسمع من أخبـار الأمم المهلكـة ، ممن يجـاورهم من النـاس ، وهم وإن كانوا قـد سـافروا فيهـا ولكنهم حيث لم يسـافروا للاعتبـار جعلوا غير مسافرين ، فحثّوا على ذلك فالاستفهام للإنكار ﴿ **فَإِنَّهَا** ﴾ أي القصـة ﴿ **لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوْبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ أي ليس الخلل في مشـاعرهم وإنمـا هو في عقـولهم ، بـاتبـاع الهوى والإنهماك في الغفلة قـال سهل : اليسيرُ من نور بصر القلب ، يغلب الهوى والشهوة ، فـإذا عمي بصر القلب غلبت الشهوة ، وتواترت الغفلة ، فعند ذلك يصير البدن متخبطـاً في المعـاصي ، غيرَ منقـاد للحق بحال ، فعلى العاقل أن يجتهد في تصفية الباطن ، وكشف الغطـاء عنـه بكثرة ذكر الله تعـالى ، وعن مـالـك بن أنس رضي الله عنه بلغني أن عيسى بن مريم عليهما السلام قال : (لا تكثروا الكلام في غير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، والقلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون) وقال مالك بن دينار « من لم يـأنس بحـديث الله عن حـديث المخلوقين ، فقـد قلَّ فهمُـه ، وعميَ قلبـه ، وضـاع عمره » وقـال أبو عبـد الله الإنطـاكي « دواءُ القلب خمسة أشيـاء : مجـالسـة الصـالحين ، وقراءة القرآن ، وإخلاء البطن ، وقيـام الليل ، والتضرع عنـد السَّحر ، ﴿ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ** ﴾ كانوا يقولون له عليه السلام : ائتنـا بمـا وعـدتنـا إن كنت من الصادقين ﴿ **وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ** ﴾ أبداً فلابد من مجيئه حتماً ، وقد أنجز الله ذلك يوم بدر ، والخلفُ في الوعـد للمؤمنين لا يجوز ، ويجوز الخلف في وعيـد المـؤمنين ، لأنـه سبقت رحمـة الله ، وأحسنَ يحيى بن معـاذ حيث قال : الوعد والوعيد حق ، فالوعد حق العباد على الله ، ضمن لهم إذا فعلوا أن يعطيهم كـذا ، ومن أولى بالوفاء من الله ؟ والوعيدُ حقه على العباد ، قال لا تفعلوا كذا فأعذبكم ففعلوا ، فـإن شـاء عفـا وإن شاء آخَذَ لأنه حقه ، وأولاهما العفو والكرم ، لأنه غفور رحيم * قال السري الموصلي :

إذا وعـــد السّراءَ أنجـزَ وعـــدَه * وإن أوعـد الضَّراء فـالعفـو مـانعـه

ثم ذكر أن لهم مع عذاب الدنيا في الآخرة عذاباً طويلاً وهو قوله ﴿ **وَإِنَّ يَوْمَاً عِنْـدَ رَبِّـكَ** ﴾ أي من أيام عذابهم ﴿ **كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّـا تَعُـدُّوْنَ** ﴾ والخطـاب للرسول ومن معـه من المؤمنين ، كأنـه قيل : كيف يستعجلون بالعذاب ويوم واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنيّكم ؟ إمـا من حيث طول أيام عذابه حقيقه أو من حيث أن أيام الشدائد مستطـالـة ، كما يقـال ليل الفراق طويل ، وأيـام الوصل قصار :

ويـــــــومٌ لا أَرَاكَ كألفِ شَهْرٍ * وشهرٌ لا أراكَ كألفِ عـــــــامِ

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ وكثير من أهل قرية ﴿ أَمْلَيْتُ لَهَا ﴾ أمهلتها بتأخير العذاب كما أمهلت لهؤلاء ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أي والحال أنها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ بالعذاب بعد طول الإمهال ﴿ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ أي إلى حكمي مرجع الكل لا إلى أحد غيري وفيه إشارة إلى أن الإمهال يكون من الله تعالى ، فإنه يمهل ولا يُهمل ، ويدع الظالم في ظلمه ، فيتوهم أنه يفلت من قبضة التقدير ، فيأخذه من حيث لا يرتقب ، فيعلوه ندامة ولات حين ندم ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أنذركم إنذاراً بيناً بما أوحي إليَّ من أخبار الأمم المهلكة ، من غير أن يكون لي دخل في إتيان ما توعدونه من العذاب حتى تستعجلوني به ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ تجاوز لذنوبهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ نعيم الجنة ، والكريمُ من كل نوع ما يجمع فضائله ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا ﴾ أسرعوا واجتهدوا ﴿ فِي آيَاتِنَا ﴾ في رد آياتنا وإبطالها بالطعن فيها ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ ظانين أنهم يعجزوننا فلا نقدر عليهم ، أو معاندين من عاجز فلان فلانا سابقه فعجزه ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بالسعي والمعاجزة ﴿ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ أي ملازمون النار الموقدة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ هذا دليل بين على تغاير الرسول والنبي ، فالرسول إنسان أرسله الله إلى الخلق لتبليغ رسالته ، وقد يشترط فيه الكتاب ، بخلاف النبي فإنه أعم ، ويعضده أنه عليه السلام سئل عن الأنبياء فقال : (مائةُ ألف وأربعةٌ وعشرون ألفاً ، قيل : فكم الرسل منهم ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر ، جماً غفيراً)(١) قال القهستاني : الرسول من بُعث لتبليغ الأحكام ، مَلَكاً كان أو إنساناً ، بخلاف النبي فإنه مختصّ بالإنسان ﴿ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى ﴾ أي قرأ ، قال في القاموس : تمنى الكتاب قرأه ، قال الراغب : التمني تقدير شيء في النفس وتصويره فيها ، والأمنية الصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ أي قراءته ﴿ فَيَنْسَخُ اللهُ ﴾ يزيل ويبطل ﴿ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ من كلمات الكفر ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ ﴾ يثبت ﴿ آيَاتِهِ ﴾ التي تلاها الأنبياء عليهم السلام ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ ﴾ بما أوحى وبما ألقى الشيطان ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ذو الحكمة في تمكينه من ذلك ، يفعل ما يشاء ليميز به الثابت على الإيمان من المتزلزل فيه ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي شك ونفاق لأنه مرض قلبي مؤد إلى الهلاك الروحاني ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي المشركين ، والقسوة غلظ القلب ، وأصله من حجر قاس ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ أي المنافقين والمشركين ﴿ لَفِي شِقَاقٍ ﴾ خلاف ﴿ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق أي لفي عداوة شديدة ومخالفة تامة ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ ﴾ أي القرآن آيات القرآن ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي هو الحق النازل من عنده ليس

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند من حديث أبي ذرّ الغفاري بلفظ (قلتُ يارسول الله : أي الأنبياء كان أول ؟ قال : آدم ، قلت : ونَبيٌّ كان ؟ قال : نعم ، قلت يارسول الله كم المرسلون .. ؟) فذكره .

للشيطان مجال تصرف فيه ﴿ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ﴾ القرآن أي يثبتوا على الإيمان به أو يزدادوا إيماناً برد ما يلقي الشيطان ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ تخشع وتتواضع ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي في الأمور الدينية خصوصاً في المداحض والمشكلات التي من جملتها ما ذكر ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ هو النظر الصحيح الموصل إلى الحق الصريح ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ أي في شك وجدال من القرآن ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ القيامة ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة على غفلة منهم ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ العقيم من النساء التي تلد ، أي عذاب يوم لا يوم بعده ، كأنّ كل يوم يلد ما بعده ، فما لا يوم بعده يكون عقيماً ، واليوم العقيم يوم لا يلد خيراً ، وليس لم فيه فَرَجٌ ولا فَرَحٌ أصلاً ، ولما كان زمان الموت آخر زمان من أزمنة الدنيا وأول زمان من أزمنة الآخرة ، أثبت فيه تخصيص التصرف بالله والحكم بين الفريقين فقال ﴿ الْمُلْكُ ﴾ أي السلطان القاهر والاستيلاء التام والتصرف على الإطلاق ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم إذ تأتيهم الساعة أو العذاب ﴿ لِلهِ ﴾ وحده بلا شريك أصلاً ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ يحكم بين فريقي المؤمنين والمجادلين ، فسَّر هذا الحكم وفصَّله بقوله ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالقرآن ولم يجادلوا فيه ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ امتثالاً بما أمر في تضاعيفه ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ مستقرون فيها ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي أصروا على ذلك واستمروا ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ يهينهم ويذهب بعزهم وكبرهم ، ويلحقهم من الخزي والصغار مالا يحيط به الوصف ، روي أن لقمان وعظ ابنه وقال يا بنيَّ : إن كنت في شك من الموت فادفع عن نفسك النوم ، ولن تستطيع ذلك ، وإن كنت في شك من البعث فإذا نمت فادفع عن نفسك الانتباه ، ولن تستطيع ذلك ، فإنك إذا فكرت في هذا علمت أن نفسك بيد غيرك ، فإن النوم بمنزلة الموت ، واليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت ، فإذا عرف العبد مولاه قبل أمره ، ونال به عزة لا تنقطع أبداً ، وهي عزة الآخرة التي تستصغر عندها عزة الدنيا ، روي أن عابدا رأى سليمان عليه السلام في عزة الملك ، فقال يا ابن داود : لقد آتاك الله ملكاً عظيماً ، فقال سليمان : لتسبيحةٌ واحدةٌ خيرٌ مما فيه سليمان ، فإنها تبقىٰ وملك سليمان يفنى ، فإذا كانت التسبيحة الواحدة أفضل من ملك سليمان ، فما ظنك بتلاوة القرآن الذي هو أفضل الكتب الإلهية ؟ .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ فارقوا أوطانهم ﴿ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ في الجهاد الموصل إلى جنته ورضاه ﴿ ثُمَّ قُتِلُوا ﴾ القتل : إزالة الروح عن الجسد : لكنْ إذا اعتبر بفعل أحد يقال : قَتْلٌ ، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال : مَوْتٌ ﴿ أَوْ مَاتُوا ﴾ أي في تضاعيف الهجرة من الوطن ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾ مرزوقاً حسناً ، والمراد نعيم الجنة الغير المنقطع أبداً ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ فإنه يرزق بغير حساب ، ثم بين مسكنهم بقوله ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ ﴾ لما أنهم يرون فيها ما لا عينٌ رأت ،

ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ ﴾ بأحوال كل الخلق ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجل بعقوبة الأعداء مع غاية الاقتدار ، روي أن إبراهيم عليه السلام رأى عاصياً في معصيته ، فدعا عليه وقال : اللهم أهلكه ، ثم رأى ثانياً وثالثاً ورابعاً فدعا عليه ، فقال الله تعالى : يا إبراهيم لو أهلكنا كل عبد عصى ، ما بقي إلا القليل ، ولكن إذا عصى أمهلناه ، فإن تاب قبلناه ، وإن استغفر أخرنا العذاب عنه ، لعلمنا أنه لا يخرج عن ملكنا ، سوّى في الآية بين المقتول والمتوفى على حاله في الوعد ، لاستوائهما في العقد، وهو التقرب إلى الله ونصرة الدين ، ونظيره ما ورد في الحديث (من خرج حاجاً فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ، ومن خرج معتمراً فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة ، ومن خرج غازياً فمات كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة)[1] روي أن أبا طلحة رضي الله عنه لما غزا في البحر فمات ، طلبوا جزيرة يدفنونه فيها فلم يقدروا عليها إلا بعد سبعة أيام ، وما تغيرَّ جسده ، وهذا من صفة الشهداء ﴿ ذَلِكَ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أي الأمر ذلك الذي قصصنا عليكم وبينا لكم ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوْقِبَ بِهِ ﴾ أي من جازى الظالم بمثل ما ظلم ، ولم يزد في الاقتصاص ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾ ظُلم عليه بالعدوان والمعاودة إلى العقوبة ﴿ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ ﴾ على من بغى عليه لا محالة ﴿ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ مبالغ في العفو والغفران ، فيعفو عن المنتصر ، ويغفر له ما صدر عنده من ترجيح الانتقام على العفو والصبر المندوب إليهما بقوله (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) يقول الفقير : سمعت من حضرة شيخي قدس سره وهو يقول : الإنسان الكامل كالبحر ، فمن آذاه واغتابه أو قصد إليه بسوء فإنه لا يتكدر به ، ألا يرى أن البول إذا وقع في البحر يطهره ، وكذا من أجنب إذا دخل البحر واغتسل فإنه يتطهر ، ولا يتغير البحر لا بالبول ولا بدخول الجنب ، وقال من قال في حقنا قولاً فاحشاً أو فعل فعلاً مكروهاً ، فهو في حلّ ، فنحن لا نلتفت إليه أصلاً ، بل إلى ما قدّر الله لنا من الأمور ، وكل فعله حسن ، وقد أخفى جماله في جلاله ، قال في الخلاصة : رجل قال لآخر يا خبيث ، هل يقول له بل أنت ؟ الأحسن أن يكفَّ عنه ولا يجيب ، ولو رفع الأمر إلى القاضي ليؤدب يجوز ، ومع هذا لو أجاب لا بأس به ، وفي مجمع الفتاوى في كتاب الجنايات لو قال لغيره : يا خبيثُ فجازاه بمثله جاز ، لأنه انتصار بعد الظلم ، وذلك مأذون فيه قال الله تعالى (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فأولَئِك مَا عَلَيهِمْ مِنْ سَبِيلٍ) والعفو أفضل قال الله تعالى (فَمَنْ عَفَا وأَصْلحَ فأَجْرُهُ على اللهِ) ﴿ ذَلِكَ ﴾ النصر ﴿ بِأَنَّ اللهَ يُوْلِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أي بسبب أن القادر على ما يشاء يحدث ظلمة الليل ، في مكان ضياء النهار ، ويجعل زيادة

(١) الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة مرفوعاً ، وانظر جمع الفوائد ١ / ٢٤٦ .

الليل في النهار ، وزيادة النهار في الليل ، وذلك بحسب مطالع الشمس ومغاربها ﴿ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يرى أفعال العباد وأعمالهم ﴿ ذَلِكَ ﴾ الوصف بكمال العلم والقدرة ﴿ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ ﴾ في الألوهية ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُوْنَ ﴾ يعبدون ﴿ مِنْ دُونِهِ هُوَ البَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ ﴾ على جميع الأشياء ﴿ الكَبِيرُ ﴾ عن أن يكون له شريك ، لا شيء أعلى منه شأناً ، وأكبر سلطاناً قال الإمام الغزالي رحمه الله : العبد لا يتصور أن يكون علياً مطلقاً ، إذ لا ينال درجة إلا ويكون في الوجود ما هو فوقها ، وهي درجات الأنبياء والملائكة ، ثم هو قاصر بالإضافة إلى العلو المطلق ، لأنه علو بالإضافة إلى بعض الموجودات ، فالعلي المطلق هو الذي له الفوقية وهو رب العزَّة والجلال ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ قال الراغب : الخضرة أحد الألوان بين البياض والسواد ، وقوله (ألم تر) استفهام تقرير ، ولذلك رفع فتصبحُ عطفاً على أنزل ، إذ لو نصب جواباً ، للاستفهام لدل على نفي الاخضرار ، والمقصود إثباته كما يدل النصب على نفي النظر في قوله (أَفَلَمْ يَسِيروا في الأرضِ فَينظُروا) وأورد تصبح بصيغة المضارع ليدل على بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان ﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ ﴾ يصل لطفه إلى الكل من حيث لا يعلم ولا يحتسب ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بما يليق من التدابير الحسنة ظاهراً وباطناً ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ خلقاً ومُلْكاً وتصرفاً ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغَنِيُّ ﴾ في ذاته عن كل شيء ﴿ الحَمِيدُ ﴾ المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ ﴾ أي جعل ما فيها من الأشياء مذللَّة لكم عمدة لمنافعكم ، تتصرفون فيها كيف شئتم ، فلا أصلب من الحجر ، ولا أشد من الحديد ، ولا أهيب من النار ، وهي مسخرة منقادة لكم ﴿ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ المراد بالأمر التيسيرُ والمشيئة ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ ﴾ من ﴿ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ ﴾ بأن خلقها على صورة متداعية إلى الاستمساك ، والوقوعُ : السقوطُ ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ أي بمشيئته وذلك يوم القيامة ، وفيه رد لاستمساكها بذاتها فإنها مساوية لسائر الأجسام في الجسمية ، فتكون قابلة للميل الهابط كقبول غيرها ﴿ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث هيأ لهم أسباب معاشهم ، وفتح لهم أبواب المنافع ، ودفع عنهم أنواع المضار ، وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية ، والرأفة أشد الرحمة أو أرقها كما في القاموس ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ﴾ بعد أن كنتم جماداً عناصر ونطفاً ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند مجيء آجالكم ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ عند البعث ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ أي لجحود للنعم مع ظهورها ، فلا يعبد المنعم الحقيقي ، وهذا وصف للجنس بوصف بعض أفراده ، اعلم أن الله تعالى كرَّم الإنسان وعظم شأنه ، فنقله من عالم الجماد إلى عالم النبات ، ثم منه إلى عالم الحيوان ، ثم جعله ناطقاً وأفاض عليه نعمة الصورية والمعنوية ، وجعل الموجودات خادمة له ، فلابد من

الشكر لألطافه ، والشكر إظهار النعمة والكشف عنها ، ونقيضه الكفران وهو سترها وإخفاؤها ، وكل نعمة فهي سبيل إلى معرفة المنعم لأنها أثره ، فيلزم الاستدلال بالأثر على المؤثر وهو الإيمان اليقيني ، فعلى العاقل أن لا يغتر بالعزّ والغنى ، ويلاحظ التوفيق في كل حال ، وفي الخبر (قل للقوي لا تعجبنك قوتك فإن أعجبتك قوتك فادفع الموت عن نفسك ، وقلْ للعالم لا يعجبنك علمك فإن أعجبك علمك فأخبرني متى أجلك ؟ وقل للغني لا يعجبنك مالك وغناؤك فإن أعجبك فأطعم خلقي غداء واحداً) فالإنسان عاجزٌ والله على كل شيء قدير ﴿ **لِكُلِّ أُمَّةٍ** ﴾ معينة من الأمم الماضية والباقية ﴿ **جَعَلْنَا مَنْسَكاً** ﴾ أي شريعة خاصة بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها ﴿ **هُمْ نَاسِكُوهُ** ﴾ أي تلك الأمة المعينة ناسكوه والعاملون به ﴿ **فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ** ﴾ أي من يعاصرك من أهل الملل والمنازعة المخاصمة ﴿ **فِي الأَمْرِ** ﴾ أي في أمر الدين ، زعماً منهم أن شريعتهم التوراة والإنجيل ، فإنها شريعتان لمن مضى من الأمم ، وهؤلاء أمة مستقلة منسكهم القرآن المجيد فحسب ﴿ **وَادْعُ** ﴾ الناس كافة ﴿ **إِلَى رَبِّكَ** ﴾ إلى توحيده وعبادته ﴿ **إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ** ﴾ أي طريق موصل إلى الحق سَوِيٍّ ﴿ **وَإِنْ جَادَلُوكَ** ﴾ أي : خاصموك بعد ظهور الحق ولزوم الحجة ﴿ **فَقُلِ** ﴾ لهم على سبيل الوعيد ﴿ **اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ من الأباطيل فيجازيكم عليها ﴿ **اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ** ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين ﴿ **يَوْمَ القِيَمَةِ** ﴾ بالثواب والعقاب ﴿ **فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ من أمر الدين ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ** ﴾ الاستفهام للتقرير أي قد علمت ﴿ **أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء ﴿ **إِنَّ ذَلِكَ** ﴾ أي ما في السماء والأرض ﴿ **فِي كِتَابٍ** ﴾ هو اللوح قد كتب فيه قبل حدوثه ، فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له ﴿ **إِنَّ ذَلِكَ** ﴾ أي ما ذكر من العلم والإحاطة ﴿ **عَلَى اللهِ يَسِيرٌ** ﴾ سهل فإن علمه وقدرته مقتضى ذاته ، فلا يخفى عليه شيء ، ولا يعسر عليه مقدور ﴿ **وَيَعْبُدُونَ** ﴾ أي أهل الشرك ﴿ **مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ أي متجاوزين عبادة الله تعالى ﴿ **مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ** ﴾ أي بجواز عبادته ﴿ **سُلْطَاناً** ﴾ أي حجة وبرهانا ﴿ **وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ حصل لهم من ضرورة العقل أو استدلاله ، فهم إنما يعبدون الأصنام بمجرد الجهل ومحض التقليد ﴿ **وَمَا لِلظَّالِمِينَ** ﴾ أي المشركين الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم العظيم ﴿ **مِنْ نَصِيرٍ** ﴾ يدفع عنهم العذاب الذي يعتريهم بسبب ظلمهم ﴿ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ** ﴾ أي على المشركين ﴿ **آيَاتُنَا** ﴾ من القرآن حال كونها ﴿ **بَيِّنَاتٍ** ﴾ واضحات الدلالة على العقائد والأحكام الإلهية ﴿ **تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ** ﴾ أي الإنكار بالعبوس والكراهة ﴿ **يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا** ﴾ أي يبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب ، ﴿ **قُلْ** ﴾ رداً عليهم ﴿ **أَفَأُنَبِّئُكُمْ** ﴾ أي فأخبركم ﴿ **بِشَرٍّ مِنْ**

﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الذي فيكم من غيظكم على التالين ﴿ النَّارُ ﴾ أي هو النار ﴿ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوْا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي المآب والمرجع ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ أي بين لكم حالة مستغربة أو قصة بديعة حقيقة بأن تسمى مثلاً ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ أي للمثل استماع تدبر وتفكر ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ يعني الأصنام التي تعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى ، وهو بيان للمثل وتفسيرٌ له ﴿ لَنْ يَخْلُقُوْا ذُبَاباً ﴾ أي لن يقدروا على خلقه أبداً مع صغره وحقارته ﴿ وَلَوِ اجْتَمَعُوْا لَهُ ﴾ أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه ، فكيف إذا كانوا منفردين ؟ ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئَاً ﴾ أي أن يأخذ الذباب منهم شَيْئاً ويخطفه ﴿ لاَ يَسْتَنْقِذُوْهُ مِنْهُ ﴾ أي لا يستردوه من الذباب مع غاية ضعفه لعجزهم ، قيل : كانوا يطيبون الأصنام بالطيب والعسل ، ويغلقون عليها الأبواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوْبُ ﴾ أي عابد الصنم ومعبوده ﴿ مَا قَدَرُوْا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته ، أو ما عظموه حق تعظيمه ، حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصر منه ﴿ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ ﴾ على خلق الممكنات بأسرها وإفناء الموجودات عن آخرها ﴿ عَزِيزٌ ﴾ غالب على جميع الأشياء لا يغلبه شيء ، وآلهتهم عَجَزَةٌ مقهورون يعلوهم الذلُّ ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً ﴾ يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحي ، والاصطفاء : تناول صفو الشيء كما أن الاختيار تناول خيره ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ وهم المختصون بالنفوس الزكية ، المؤيدون بالقوة القدسية ، ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق ، عن التبتل إلى جانب الحق ، فيدعونهم إليه تعالى بما أنزل عليهم ، ويعلمونهم شرائعه وأحكامه ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ بجميع المسموعات ﴿ بَصِيرٌ ﴾ مدرك لجميع المبصرات ، فلا يخفى عليه شيء من الأقوال والأفعال ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ أي هو تعالى عالم بواقع الأشياء ، وهو الرقيب عليها ، لا تخفى عليه خافية من شئون العباد .

﴿ وَإِلَى اللهِ ﴾ لا إلى أحد غيره ﴿ تُرْجَعُ ﴾ ترد ﴿ الأُمُوْرُ ﴾ كلها لأنه مالكها بالذات ، لا يسأل عما يفعل من الاصطفاء وغيره وهم يسألون ، روي أنه تكلم رجل في زين العابدين « علي بن الحسين » وافترى عليه ، فقال له زين العابدين : إن كنتَ كما قلتَ فاستغفر الله ، وإن لم أكن كما قلتَ فغفر الله لك ، فقام إليه الرجل وقبَّل رأسه ، وقال جُعِلتُ فداءكَ لستَ كما قلتُ ، فاغفر لي قال غفر الله لك ، فقال الرجل « اللهُ أعلم حيث يجعل رسالته » وخرج يوماً من المسجد فلقيه رجل فسبَّه ، فثارت إليه العبيد والموالي فقال لهم زين العابدين : مهلاً عليَّ بالرجل ، ثم أقبل على الرجل وقال : ما سُتر عنك من أمرنا أكثر ، ألك حاجة نُعينك عليها ؟ فاستحيى الرجل ، فألقى إليه خميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم ، فكان الرجل بعد ذلك يقول : أشهد أنك من أولاد الرسول . ولا يتوهم أنهم كانوا أهل دنيا

ينفقون منها الأموال ، إنما كانوا أهل سخاوة ومروءة ، وجود ومكارم ، كانت تأتيهم الدنيا فيخرجونها في العاجل وفيهم يصدق قول القائل :

تعـوَّدَ بسـطَ الكفِّ حتى لـو أنَّـه * ثناهـا لِقبْضٍ لم تُطِعـه أنـاملُـه
فلـو لم يكنْ في كَفِّـهِ غيرُ نفسِـهِ * لجـادَ بهـا فليتَّـقِ اللهَ سـائلُـه

﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُوْا ارْكَعُوْا وَاسْجُـدُوْا ﴾ أي في صلاتكم ، أمرهم بها لما أنهم كانوا يركعون بلا سجود ، ويسجدون بلا ركوع أو المعنى صلُّوا عبَّر عن الصلاة بها لأنها أعظم أركانها ﴿ وَاعْبُدُوْا رَبَّكُمْ ﴾ بسائر ما تعبَّدكم به ﴿ وَافْعَلُوْا الخَيْرَ ﴾ وتحرَّوا ما هو خيرٌ وأصلح ، كنوافل الطاعات ، وصلة الأرحام ، ومكارم الأخلاق ، قال في المفردات : الخير ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلاً والعدل والفضل ، والشيء النافع ، والشرُّ ضدُّه ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ ﴾ أي افعلوا هذه كلها وأنتم راجون بها الإفلاح ، والفلاحُ : الظفر وإدراك البغية ، وذلك ضربان : دنيوي وأخروي ، فالدنيوي الظفر بالسعادات وهو الغنى والعز والعلم ، والأخروي أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وغنى بلا فقر ، وعز بلا ذل وعلم بلا جهل ، ولذلك قيل : لا عيش إلا عيش الآخرة ﴿ وَجَاهِـدُوْا ﴾ الجهادُ : استفراغ الوسع في مدافعة العدو ﴿ فِي اللهِ ﴾ أي في سبيل الله ﴿ حَقَّ جِهادِهِ ﴾ أي جهاداً فيه حقاً خالصاً لوجهه ، الراغب : الجهادُ ثلاثة أضرب : مجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس ، وفي الحديث (جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم) وعنه ﷺ أنه رجع من غزوة تبوك فقال (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) فجهاد النفس أشد من جهاد الأعداء والشياطين ، وهو حملها على اتباع الأوامر ، والاجتناب عن النواهي ﴿ هُوَ اجْتَبَيكُمْ ﴾ أي هو اختاركم لدينه ونصرته ، وفيه تنبيهٌ على ما يقتضي الجهاد ويدعو إليه ﴿ وَمَـاجَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الـدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي ما جعل فيه من ضيق بتكليف ما يشق عليكم إقامته ، ولذلك أزال الحرج في الجهاد عن الأعمى والأعرج ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي وسَّع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم ، أو اتبعوا ملة أبيكم * قال الراغب : الملة كالدين وهو اسمٌ لما شرع الله لعباده على لسان الأنبياء ، والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي نحو اتبعوا ملة إبراهيم ولا يقال : ملةُ الله ، ولا ملتي وملة زيد ، وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله ، وهو كالأب لأمته من حيث إنه سبب لحياتهم الأبدية ، كما قال النبي ﷺ (إنما أنا لكم كالوالد)(١) ﴿ هُوَ ﴾ أي الله تعالى ﴿ سَمَّـاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي في الكتب المتقدمة ﴿ وَفِي هَذَا ﴾ أي في القرآن ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُوْلُ ﴾ محمد يوم القيامة ﴿ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ﴾ بأنه بلغكم ﴿ وَتَكُوْنُوْا شُهَدَاءَ عَلَى النَّـاسِ ﴾ بتبليغ الرسل إليهم ﴿ فَـأَقِيمُوا الصَّلَوٰةِ وَآتُوا الزَّكَـوٰةَ ﴾

(١) الحديث أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه ولفظه (إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم ، فإذا أتى أحدكم الغائط ، فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ، ولا يستطب بيمينه) الفتح الكبير ١ / ٤٣٧ .

أي فتقربوا إلى الله بأنواع الطاعات ، لما خصكم بهذا الفضل والشرف ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ** ﴾ أي ثقوا به في مجامع أموركم ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه ﴿ **هُوَ مَوْلَيكُمْ** ﴾ ناصركم ومتولي أموركم ﴿ **فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾ إذ لا مثل له في الولاية والنصرة ، بل لا وليَّ ولا نصير في الحقيقة سواه تعالى .

شكا رجل إلى أخيه الحاجة والضيق ، فقال له يا أخي أغير تدبير ربك تريد ؟ لا تسأل الناس وسل من أنت له ، ودخل سليمان بن عبد الملك الكعبة ، فقال لسالم بن عبد الله : ارفع حوائجك ، فقال : والله لا أسأل في بيت الله غير الله ، فينبغي للعبد أن يعتصم به في كل الأمور ويجتهد في رضاه في الخفاء والظهور ، ولا يقول إن هذا الأمر عسير ، فإن ذلك على الله يسير .

انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الحج

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُوْنَ** ﴾ سعد المصدقون ونالوا البقاء في الجنة ، ويدل عليه أن الله تعالى لما خلق جنة عدن بيده قال تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون فقال طوبى لك منزل الملوك أي ملوك الجنة وهم الفقراء الصابرون والفلاح والفوز بالمراد ، والنجاة من المكروه ﴿ **الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُوْنَ** ﴾ الخشوع الخوف والتذلل أي خائفون من الله متذللون له روي أنه عليه السلام أنه رأى مصلياً يعبث بلحيته فقال (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه)[1] وفي الحديث (إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنما هو بين يدي الرحمن ، فإذا التفت يقول الله تعالى إلى من يتلفت ؟ إلى خير مني ؟ أقبل يا ابن آدم إليَّ فأنا خيرٌ ممن تلتفت إليه)[2] وفي التأويلات النجمية خاشعون أي بالظاهر والباطن ، أما الظاهر فخشوع الرأس بانتكاسه ، وخشوع العين فانغماضها عن الالتفات ، وخشوع الأذن بالتذلل للاستماع ، وخشوع اللسان القراءة والحضور والتأني ، وخشوع اليدين وضع اليمين على الشمال بالتعظيم كالعبيد ، وخشوع الظهر انحناؤه في الركوع مستوياً ، وخشوع القدمين بثباتها على الموضع وسكونها عن الحركة ، وأما الباطن فخشوع النفس سكونها عن الخواطر والهواجس ، وخشوع القلب بملازمة الذكر ودوام الحضور وخشوع الروح استغراقه في بحر المحبة ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ** ﴾ أي عما لا يعنيهم من الأقوال والأفعال ، وفي المفردات : اللَّغوُ من الكلام ما لا يعتدُّ به ، وهو الذي يورد لا عن روية وفكر ، وكل ما يشغلك عن الله فهو لغو ﴿ **مُعْرِضُوْنَ** ﴾ أعرض أظهر عرضه أي ناحيته أي معرضون في عامة أوقاتهم كما ينبيء عنه الاسم الدال على الاستمرار ومدار إعراضهم عنه ما فيه من الحالة الداعية إلى الإعراض عنه لا مجرد الاشتغال بالجد في أمور الدين ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُوْنَ** ﴾ للصدقة مؤدون والزكاة إنما وجبت لتزكية النفس عن الصفات الذميمة النجسة ، من حب الدنيا أو غيره كقوله (**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**) فإن الفلاح في تزكية النفس (**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**) وإنما كان لمصلحة إزالة حب الدنيا عن القلب ، ومثل حب الدنيا جميع الصفات الذميمة ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ** ﴾ الفرج والفُرجة : الشقُّ بين الشيئين كفرجة الحائط ، وكني به عن السوءة ، وكثر حتى صار كالصريح فيه ﴿ **حَافِظُوْنَ** ﴾ ممسكون لها من الحرام ولا يرسلونها ولا يبذلونها ﴿ **إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ** ﴾ زوجاتهم فإن الزوج يقع على الذكر والأنثى ﴿ **أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ** ﴾ يعني الإماء فما

---

(١) رواه الحكيم عن أبي هريرة مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٤٤ .

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب بلفظ (إذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت) وأخرجه أحمد ٤ / ١٣٠

ملكت أيمانهم وإن كان عاماً للرجال أيضاً ، لكنه مختص بالنساء إجماعاً ﴿ **فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُوْمِينَ** ﴾ على عدم حفظها منهن ، واللومُ : عذل إنسان بنسبته إلى ما فيه لوم ﴿ **فَمَنِ ابْتَغَى** ﴾ طلب ﴿ **وَرَاءَ ذٰلِكَ** ﴾ الذي ذكر من الحد المتسع ، وهو أربع من الحرائر وما شاء من الإماء ﴿ **فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُوْنَ** ﴾ الكاملون في العدوان والمتعدون من الحلال إلى الحرام ، استدل به بعض المالكية على تحريم الاستمناء لأنه أرشد عند العجز عن التزوج ، إلى الصوم الذي يقطع الشهوة ، وفي بعض حواشي البخاري والاستمناء باليد حرام بالكتاب والسنة قال الله تعالى (**والذين هم لفروجهم حافظون**) إلى قوله (**فأولئك هم العادون**) أي الظالمون المتجاوزون الحلال إلى الحرام ، قال البغوي في الآية دليل على أن لاستمناء باليد حرام ، قال عطاء : سمعت أن قوماً يحشرون وأيديهم حبالى وأظنهم هؤلاء ، والواجب على فاعله التعزير ، نعم يباح عند أبي حنيفة وأحمد إذا خاف على نفسه الفتنة ، قال أبو حنيفة : حسبُه أن ينجو رأساً برأس ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ** ﴾ لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق ، والأمانة اسم لما يؤتمن عليه الإنسان ، والعهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال ﴿ **رَاعُوْنَ** ﴾ أي قائمون عليها وحافظون لها على وجه الإصلاح ﴿ **وَالَّذِين هم عَلَى صَلَواتِهِمْ** ﴾ المفروضة عليهم ﴿ **يُحَافِظُونَ** ﴾ يواظبون عليها بشرائطها وآدابها ويؤدونها في أوقاتها ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ المؤمنون المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿ **هُمُ الوَارِثُوْنَ** ﴾ أي الأحقاء بأن يسموا وُرّاثاً دون من عداهم ، والوراثة انتقال مال إليك من غيرك ﴿ **الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ** ﴾ تفسير لها بعد إبهامها تفخيماً لشأنها ورفعاً لمحلها ﴿ **هُمْ فِيهَا** ﴾ أي في الفردوس وهو البستان الجامع لأصناف الثمر ، روي أنه تعالى بنى جنة الفردوس ، لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وجعل خلالها المسك الأذفر ، وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان ﴿ **خَالِدُونَ** ﴾ لا يخرجون منها ولا يموتون .

وفي تفسير الفاتحة للمولى الفناري رحمه الله : اعلم أن الجنان ثلاث : الأولى جنة « الاختصاص الإلهي » وهي التي يدخلها الأطفال الذين لم يبلغوا حد العمل ، ومن أهلها أهل الفترة ومن لم يصل إليهم دعوة رسول ، والجنة الثانية ميراثٌ ينالها كل من دخل الجنة ممن ذكرنا ومن المؤمنين ، وهي الأماكن التي كانت معينة لأهل النار لو دخلوها ، والجنة الثالثة جنة الأعمال وهي التي ينزل الناس فيها بأعمالهم فمن كان أفضل من غيره في وجوه التفاضل كان له من الجنة أكثر ، ورد في الحديث الصحيح عن النبي عليه السلام أنه قال لبلال (يا بلال بم سبقتني إلى الجنة ، فما وطئت فيها موضعاً إلا سمعت خشخشتك أمامي ؟ فقال : يا رسول الله : ما أحدثت قط إلا توضأت ، وما توضأت إلا صليت ركعتين ، فقال

عليه السلام : بها)[1] فعلمنا أنها كانت جنة مخصوصة بهذا العمل ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ ﴾ اللام جواب قسم أي والله لقد خلقنا جنس الإنسان ﴿ مِنْ سُلاَلَةٍ ﴾ سلّ الشيء من الشيء نزعه منه ، كسلّ السيف من الغمد ، والسلالة اسم ما سُلّ من الشيء واستخرج منه أي من خلاصة سُلّت من بين الكدر ﴿ مِنْ طِينٍ ﴾ من بيانية أي خلقناه من سلالة كائنة من طين ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ ﴾ أي الجنس باعتبار أفراده ﴿ نُطْفَةً ﴾ بأن خلقناه منها ، والنطفة : الماء الصافي ويعبر بها عن ماء الرجل ﴿ فِي قَرَارٍ ﴾ أي مستقر وهو الرحم ﴿ مَكِينٍ ﴾ أي حصين ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ بأن أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء ، قال الراغب : العلق الدم الجامد ، ومنه العلقة التي يكون منها الولد ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ المضغة : قطعة لحم تمضع ، أي فصيرناها قطعة لحم ، لأستبانة ولا تمايز فيها ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ ﴾ أي غالبها ومعظمها ﴿ عِظَاماً ﴾ بأن صلبناها وجعلناها عموداً للبدن ، على هيئآت وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ﴾ من بقية المضغة أي كسونا على عظم من تلك العظام ما يليق به من اللحم ، على مقدار لائق به وهيآت مناسبة له من عروق وأعصاب وأوتار وعضلات ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ ﴾ الإنشاء إيجاد الشيء وتربيته وأكثر ما يقال ذلك في الحيوان ﴿ خَلْقاً آخَرَ ﴾ بنفخ الروح فيه ، خَلَق الله الآدمي أطواراً من نطفة متماثلة الأجزاء ، ومن أشياء كثيرة مختلفة المراتب متفاوتة الدرجات ، من لحم ، وعظم ، ودم ، وجلد ، وشعر وغيرها ، ثم خص كل جزء منها بتركيب عجيب ، وباختصاص غريب من السمع ، والبصر ، واللمس ، والمشي ، والذوق والشم وغيرها ، وهي أبلغ في إظهار كمال الإلهية والقدرة ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ ﴾ فتعالى شأنه ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ أي أحسن الخالقين خلقاً أي المقدرين والمصورين ، لأن المصور يصور الصورة ويشكلها على صورة المخلوق ، لكنّه لا يبلغ في تصويره إلى حد الخالق ، لأنه لن يقدر على أن ينفخ فيها الروح ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ ﴾ أي بعدما ذكر من الأمور العجيبة ﴿ لَمَيِّتُوْنَ ﴾ لصائرون إلى الموت لا محالة ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ﴾ أي عند النفخة الثانية ﴿ تُبْعَثُوْنَ ﴾ تخرجون من قبوركم للحساب ، والمجازاة بالثواب والعقاب ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ جمع طريقة والمراد طباق السموات السبع سميت بها لأنّ بعضها فوق بعض ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ ﴾ عن ذلك المخلوق الذي هو السموات ﴿ غَافِلِينَ ﴾ مهملين أمرها ، بل نحفظها عن الزوال والاختلال ، وندبر أمرها وتعلقت به المشيئة ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ هو المطر ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ بتقدير يسلمون معه من الضرر ، ويصلون إلى النفع ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ ﴾ أي جعلنا ذلك الماء ثابتاً فيها ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ ﴾ أي إزالته بالإفساد أو التغوير ، حتى تهلكوا أنتم ومواشيكم عطشاً ﴿ لَقَادِرُونَ ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله ﴿ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ

(١) الحديث أخرجه الترمذي من حديث بريدة في كتاب المناقب وقال حديث حسن صحيح ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٧٦ .

﴿ بِهِ ﴾ بسبب ذلك الماء ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ بساتين ﴿ مِنْ نَخِيلٍ ﴾ النخل معروف ويستعمل في الواحد والجمع وجمعه نخيل ﴿ وَأَعْنَابٍ ﴾ العنب يقال لثمرة الكرم الواحدة عنبة ﴿ لَكُمْ فِيهَا ﴾ أي في تلك الجنات ﴿ فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ ﴾ تتفكهون بها ﴿ وَمِنْهَا ﴾ أي من الجنات ثمارها وزروعها ﴿ تَأْكُلُونَ ﴾ تغذياً وتحصّلون معايشكم كالجوز واللوز ، والفستق والبندق ، والرمّان والموز ، والرطب والزيتون ، والمشمش والخوخ ، والتفاح والكمثرى ، والسفرجل والتين والعنب كلها من فواكه الجنة ﴿ وَشَجَرَةً ﴾ بالنصب عطف على جنات وهي شجرة الزيتون ﴿ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ هو جبل بين مصر والقدس نودي منه موسى عليه السلام ويقال له « طور سينين » ومعناه الحسن ﴿ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾ أي تنبت ملتبسة به ومستصحبة له ﴿ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ ﴾ أي إدام لهم أي تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهناً يدهن به ، وكونه أدماً يصبغ فيه الخبز أي يغمس للائتدام ويلون به كالدبس والخل مثلاً ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ لآية تعتبرون بحالها ، وتستدلون على عظيم قدرة خالقها ولطيف حكمته ﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ من الألبان ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ غير ما ذكر من أصوافها وأوبارها وأشعارها ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فتنتفعون بأعيانها كما تنتفعون بما يحصل منها ﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ أي على الأنعام وقيل المراد هي الإبل خاصة فإنها سفائن البر ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ ﴾ أي السفينة ويستعمل للواحد والجمع ﴿ تُحْمَلُونَ ﴾ لأن الفلك وعاء لمن يكون فيها حمولة له يستعليها ، ودلت الآية على جواز ركوب البحر للرجال والنساء على ما قاله الجمهور ، وكره ركوبه للنساء لأن التستر فيه لا يمكنهن غالباً ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ﴾ اللام جواب قسم أي وبالله لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴿ فَقَالَ ﴾ داعياً لهم إلى التوحيد ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ أصله يا قومي ﴿ اعْبُدُوا اللهَ ﴾ وحده كما دل عليه التعليل وهو ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ أي ما لكم في الوجود أو في العالم غير الله ﴿ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه أي ألا تعرفون ذلك فتتّقون عذابه ، بسبب إشراككم به ما لا يستحق الوجود ﴿ فَقَالَ الْمَلَؤُا ﴾ أي الأشراف والسادة ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي قالوا لعوامهم مبالغة في وضع الرتبة العالية وحطها عن منصب النبوة ﴿ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أي في الجنس والوصف من غير فرق بينكم وبينه ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي يريد أن يتقدمكم بإدعاء الرسالة مع كونه مثلكم ، قال في الجلالين : يريد أن يتشرف عليكم فيكون أفضل منكم ، بأن يكون متبوعاً وتكونوا له تبعاً ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً ﴾ أي لو شاء الله إرسال الرسول لأرسل رسولاً من الملائكة ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ أي بمثل هذا الكلام الذي هو الأمر بعبادة الله خاصة ﴿ فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ ﴾ أي الماضين قبل بعثته ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ ما هو ﴿ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أي جنون ولذلك يقول ما يقول ، والجنونُ : اختلال حائل بين النفس والعقل ﴿ فَتَرَبَّصُوا بِهِ ﴾ اصبروا عليه وانتظروا ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ إلى وقت يفيق من الجنون

﴿ قَالَ ﴾ نوح بعد ما أيس من إيمانهم ﴿ رَبِّ انْصُرْنِي ﴾ بإهلاكهم بالكلية ﴿ بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ أي بسبب تكذيبهم إياي ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ أي فأعلمناه في خفاء ، فإن الإيحاء والوحي إعلامٌ في خفاء ﴿ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ أن مفسرة والصنع إجادة الفعل ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ملتبساً بحفظنا نحفظه من أن تخطىء في صنعته يقال : فلان بعيني أي أحفظة وأراعيه ، كقولك هو مني بمرأى ومسمع ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ وأمرنا وتعليمنا لكيفيَّةِ صنعها ، روي أنه أوحى إليه أن يصنعها على مثال الجؤجؤ ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي إذا اقترب أمرنا بالعذاب ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ والفور شدة الغليان والتنور تنور الخبز ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا ﴾ أي أدخلْ في الفلك ﴿ مِنْ كُلٍّ ﴾ من كل نوع ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ فردين مزدوجين ﴿ اثْنَيْنِ ﴾ تأكيد والمراد الذكر والأنثى ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ والمراد به امرأته وبنوه ﴿ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ أي القول بإهلاك الكفرة ومنهم ابنه كنعان ﴿ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوْا ﴾ بالدعاء وإنجائهم ﴿ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ مقضيٌّ عليهم بالإغراق لا محالة لظلمهم بالإشراك ، ومن هذا شأنه لا يشفع له ولا يشفع فيه ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ ﴾ أي من أهلك وأشياعك أي اعتدلت في السفينة راكباً ﴿ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أفرد بالذكر لإظهار فضله ، والإشعار بأن في دعائه وثنائه مندوحة عما عداه ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي ﴾ أي في السفينة أو منها ﴿ مُنْزَلاً مُبَارَكاً ﴾ أي إنزالاً أو موضع إنزال يستتبع خيراً كثيراً ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ استجاب الله دعاءه حيث قال (اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ) فبارك فيهم بعد إنزالهم من السفينة حتى كان جميع الخلق من نسل نوح ومن كان معه في السفينة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الذي ذكر مما فعل به وبقومه ﴿ لآيَاتٍ ﴾ جليلة يستدل بها أولو الأبصار ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ أي وإن الشأن كنا مختبرين بهذه الآيات عبادنا ، لننظر من يعتبر ويتذكر ، واعلم أن البلاء كالملح ، وأن أكابر الأنبياء إنما كانوا من أولي العزم ببلايا ابتلاهم الله بها فصبروا ، ألا ترى إلى حال نوح عليه السلام كيف ابتلي ألف سنة إلا خمسين عاماً فصبر حتى قيل له (قُلْ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) ؟ ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي أوجدنا وأحدثنا من بعد إهلاك قوم نوح ﴿ قَرْناً آخَرِينَ ﴾ هم « عَادٌ » لقوله تعالى حكاية عن هود (وَاذْكُروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ) والقرنُ : القوم المقترنون من زمن واحد أي أهل زمان واحد ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُوْلاً مِنْهُمْ ﴾ أي من جملتهم نسباً وهو هود ﴿ أَنْ اعْبُدُوْا اللهَ ﴾ أي قلنا لهم على لسان الرسول أن اعبدوا الله تعالى وحده لأنه ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُوْنَ ﴾ أتشركون بالله فلا تخافون عذابه على الإشراك ؟ ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوْا ﴾ أشراف قومه الكافرين ، وصفوا بالكفر ذماً لهم ﴿ وَكَذَّبُوْا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ ﴾ أي بالمصير إلى الآخرة أو

بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ ﴾ أي نعّمناهم ووسعنا عليهم ، أترفته النعمة أطغته ﴿ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ بكثرة الأموال والأولاد أي قالوا لأعقابهم مضلين لهم ﴿ مَا هَذَا ﴾ أي هود ﴿ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ في الصفات والأقوال البشرية ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ أي تشربون منه وهو تقرير للماثلة ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ ﴾ أي فيما ذكر من الأحوال والصفات أي وبالله إن امتثلتم أوامره ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً ﴾ أي على تقدير الإطاعة ﴿ لَخَاسِرُوْنَ ﴾ عقولكم ومغبونون في آرائكم حيث أذللتم أنفسكم ، انظر كيف جعلوا اتباع الرسول الحق خسراناً ، دون عبادة الأصنام و« إذاً » جواب شرط محذوف أي إنكم إن أطعتموه لخاسرون ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ ﴾ بكسر الميم من مات يمات وقرىء بضمها من مات يموت ﴿ وَكُنْتُمْ ﴾ وصرتم ﴿ تُرَاباً وَعِظَاماً ﴾ نخرة مجردة عن اللحوم والأعصاب ﴿ أَنَّكُمْ ﴾ تأكيد للأول لطول الفصل بينه وبين خبره الذي هو قوله ﴿ مُخْرَجُوْنَ ﴾ أي من القبور أحياء كما كنتم ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ﴾ اسم فعل أي بَعُد الوقوع ﴿ لِمَا تُوْعَدُوْنَ ﴾ أو بَعُدَ ما توعدون واللام لبيان المستبعد ، كأنهم لما نطقوا بكلمة الاستبعاد قيل لماذا هذا الاستبعاد ؟ فقيل لما توعدون ﴿ إِنْ هِيَ ﴾ أي ما الحياة ﴿ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ الدانية الفانية ﴿ نَمُوْتُ وَنَحْيَا ﴾ أي يموت بعضنا ويولد بعض إلى انقراض العصر ، وليس وراء ذلك حياة ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ بمنشرين بعد الموت كما تزعم يا هود ، انظر كيف عميت قلوبهم حتى لم يروا أن الإعادة أهون من الابتداء ، وأن الذي هو قادر على إيجاد شيء من العدم ، يكون قادراً على إعادته ثانياً ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما هود ﴿ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ أي اخترع الكذب على الله فيما يدعيه من الإرسال والبعث .

﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بمصدقين فيما يقول ﴿ قَالَ ﴾ هود بعد ما يئس من إيمانهم ﴿ رَبِّ انْصُرْنِي ﴾ عليهم وانتقم لي منهم ﴿ بِمَا كَذَّبُوْنِ ﴾ أي بسبب تكذيبهم إياي وإصرارهم عليه ﴿ قَالَ ﴾ تعالى إجابة لدعائه ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ أي عن زمان قليل وما مزيدة لتأكيد معنى القلة ﴿ لَيُصْبِحُنَّ ﴾ أي ليصيرن الكفار المكذبون ﴿ نَادِمِينَ ﴾ على الكفر والتكذيب وذلك عند معاينتهم العذاب ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ صيحة جبريل صاح عليهم صيحة هائلة ، تصدعت منها قلوبهم فماتوا ، والصيحة رفع الصوت وفي الجلالين فأخذتهم صيحة العذاب ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالوجه الثابت الذي لا دافع له ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ فصيرناهم ﴿ غُثَاءً ﴾ أي كغثاء السيل لا نفع به ، وهو ما يحمله السيل على وجهه من الزبد والورق والعيدان ﴿ فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ يحتمل الإخبار والدعاء ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا ﴾ خلقنا ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي بعد هلاك القرون المذكورة وهم عاد ﴿ قُرُوناً آخَرِينَ ﴾ هم قوم صالح ،

ولوط ، وشعيب وغيرهم ، وليعلم كل أمة استغناءنا عنهم ، وأنهم إن قبلوا دعوة الأنبياء تعود فائدة انقيادهم لهم ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ أي ما تتقدَّم أمةٌ من الأمم المهلكة ، الوقتَ الَّذي عَيَّن لهلاكهم ﴿ وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ ذلك الأجل بساعة وطرفة عين ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ ﴾ من المواترة وهي التعاقب أي متواترين واحداً بعد واحد ﴿ كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا ﴾ أي جاءهم بالبينات وللتبليغ ﴿ كَذَّبُوهُ ﴾ نسبوا إليه الكذب ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ أي بعض القرون ﴿ بَعْضاً ﴾ في الإهلاك أي أهلكنا بعضهم في إثر بعض ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ بعد إهلاكهم ﴿ أَحَادِيثَ ﴾ لمن بعدهم أي لم يبق منهم عين ولا أثر ، إلا حكايات يُسْمر بها ، ويُتَعجَّب منها ، جمع أحدوثة وهي ما يتحدث به تلهياً وتعجباً وهو المراد ههنا ، كأعاجيب جمع أعجوبة وهي ما يتعجب منها ﴿ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُوْنَ ﴾ بعدوا بعداً أي هلكوا وخصهم بالنكرة لأن القرون المذكورة منكّرة ، بخلاف ما تقدم لأنه في حق قوم معينين ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوْسَى وَأَخَاهُ هٰرُوْنَ بِآيَاتِنَا ﴾ هي الآيات التسع من اليد والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والطاعون ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ حجة واضحة ملزمة للخصم ، وهي العصا وخصصها لفضلها على سائر الآيات ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ ﴾ أي أشراف قومه من القبط ﴿ فَاسْتَكْبَرُوْا ﴾ عن الإيمان والمتابعة ﴿ وَكَانُوْا قَوْماً عَالِينَ ﴾ متكبرين مجاوزين للحد في الكبر والطغيان أي كانوا قوماً عادتهم الاستكبار والتمرد ﴿ فَقَالُوْا ﴾ أي قالوا فيما بينهم بطريق المناصحة ﴿ أَنُؤْمِنُ ﴾ الهمزة للإنكار بمعنى لا نؤمن وما ينبغي أن يصدر منا الإيمان ﴿ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ وصف بالمثل الأثنان لأنه في حكم المصدر ﴿ وَقَوْمُهُمَا ﴾ يعنون بني إسرائيل ﴿ لَنَا عَابِدُوْنَ ﴾ منقادون لنا كالعبيد ، وكأنهم قصدوا بذلك حط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة ﴿ فَكَذَّبُوْهُمَا ﴾ أي فأصروا على تكذيب موسى وهارون ﴿ فَكَانُوْا ﴾ فصاروا ﴿ مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ بالغرق في بحر القلزم ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ﴾ أي بعد إهلاكهم وإنجاء بني إسرائيل ﴿ الكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ لعل بني إسرائيل ﴿ يَهْتَدُوْنَ ﴾ إلى طريق الحق بالعمل بما فيها من الشرائع والأحكام ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ أي عيسى ﴿ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ دالة على عظيم قدرتنا ، بولادته منها من غير مسيس بشر ، قال في العيون : آية عبرة لبني إسرائيل بعد موسى ، لأن عيسى تكلم في المهد وأحيا الموتى ، ومريم ولدته من غير مسيس ، وهما آيتان قطعاً فيكون هذا من قبيل الاكتفاء بذكر إحداهما انتهى .

روي أن رسول الله عليه السلام صلى الصبح بمكة فقرأ سورة المؤمنين ، فلما أتى على ذكر عيسى وأمه أخذته شرقة فركع أي شرق بدمعه فعيّ بالقرآءة ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ﴾ أي أنزلناهما إلى مكان مرتفع من الأرض ، جعلناه مأواهما ومنزلهما وهي إيليا أرض بيت المقدس فإنها مرتفعة وقال الإمام السهيلي : أوت مريم بعيسى طفلاً إلى قرية من دمشق يقال أنها ناصرة ، وبناصرة تسمى النصارى واشتق

اسمهم منها ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ قيل : ذات ثمار وزروع فإن ساكنيها يستقرون فيها لأجلها ، قال الراغب : قرّ في المكان قراراً إذا ثبت ثبوتاً ، وأصله من القر وهو البرد ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ وماء معين ظاهر جارٍ على الأرض ويسمى الماء الجاري مَعِيناً لظهوره وكونه مدركاً بالعيون ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ خطاب لجميع الرسل لا على أنهم خوطبوا بذلك دفعة ، لأنهم أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة ، بل على معنى أن كل رسول منهم خوطب به في زمانه أي وقلنا لكل رسول : كُلْ من الطيبات واعمل صالحاً ﴿ وَاعْمَلُوْا صَالِحاً ﴾ أي عملاً صالحاً فإنه المقصود منكم والنافع عند ربكم ، وفيه رد لما قال بعض أهل الضلال ، من أن العبد إذا بلغ غاية المحبة وصفا قلبه ، سقطت عنه الأعمال الصالحة من العبادات الظاهرة ، وتكون عبادته التفكر ، وهذا كفر وضلال ، فإن أكمل الناس في المحبة والإيمان هم الرسل ، خصوصاً حبيب الله ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿ عَلِيمٌ ﴾ فأجازيكم عليه * وفي الآية دلالة على بطلان ما عليه الرهابنة من رفض الطيبات قال الراغب : أصل الطيب : ما تستلذُّه الحواس والنفس ، والطعام الطيب في الشرع ما كان متناولاً من حيث ما يجوز من المكان الذي يجوز ، فإنه متى كان كذلك كان طيباً ، وفي الحديث (إن الله طيب لا يقبل إلا طيِّباً)[1] وكان عيسى عليه السلام يأكل من غزل أمه ، وكان رزق نبينا عليه السلام من الغنائم وهو أطيب الطيبات ، قال الإمام الغزالي رحمه الله : إذا كان ظاهر الإنسان الصلاح والستر ، فلا حرج عليك في قبول هديّته وصدقته ، ولا يلزمك البحث بأن تقول قد فسد الزمان ، فإن هذا سوء ظن بذلك المسلم ، بل حُسْنُ الظنّ بالمسلمين مأمور به قال أبو الفرج بن الجوزي : ذكر الدنيا في المباحات يحدث له ظلمة ، فكيف تدبير الحرام ؟ إذا غيَّر المسكُ الماءَ منع الوضوء به ، فكيف ولوغ الكلب ؟ ولذا قال بعض الكبار : من اعتاد بالمباحات حرم لذة المناجاة ﴿ وَإِنَّ هَـذِهِ ﴾ أي ملة الإسلام والتوحيد ﴿ أُمَّتُكُمْ ﴾ أي ملتكم وشريعتكم أيها الرسل ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي ملة وشريعة متحدة في أصول الشرائع ، التي لا تتبدل بتبدل الأعصار ، وأما الاختلاف في الفروع فلا يسمى اختلافاً في الدين ، فالحائض والطاهر من النساء دينها واحد ، وإن افترق تكليفها ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴾ من غير أن يكون لي شريك في الربوبية ﴿ فَاتَّقُوْنِ ﴾ أي في مخالفة الكلمة ، والضمير للرسل والأمم جميعاً على أن الأمر في حق الرسل للتهييج والإلهاب ، وفي حق الأمم للتحذير والإيجاب ، وفي التفسير الكبير فيه تنبيه على أن دين الجميع واحد ، فيما يتصل بمعرفة الله تعالى واتقاء معاصيه ﴿ فَتَقَطَّعُوْا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ أي جعلوا أمر دينهم قطعاً متفرقة ، وأديانا مختلفة ﴿ زُبُرَاً ﴾ أي قطعاً جمع زبور بمعنى الفرقة ﴿ كُلُّ حِزْبٍ ﴾ أي جماعة من أولئك المتحزبين ﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ من الدين الذي اختاروه ﴿ فَرِحُوْنَ ﴾ معجبون معتقدون أنه الحق ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ ﴾ شبه ما هم فيه من الجهالة بالماء الذي يغمر القامة ويسترها أي اتركهم يعني الكفار المتفرقة

على حالهم ولا تشغل قلبك بهم وبتفرقهم ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ هو حين موتهم أو عذابهم ، فهو وعيدٌ لهم بعذاب الدنيا والآخرة ، وتسلية لرسول الله ، ونهيٌ له عن الاستعجال بعذابهم ، والجزع من تأخيره ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ ﴾ الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه أي أيظن الكفرة أن الذي نعطيهم إياه ونجعله مدداً لهم ﴿ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ وتخصيص البنين لشدة افتخارهم بهم ﴿ نُسَارِعُ ﴾ به ﴿ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ فيما فيه خيرهم وإكرامهم ؟ ﴿ بَلْ لاَ يَشْعُرُوْنَ ﴾ أي كلا لا نفعل ذلك ، بل هم لا يشعرون بشيء أصلاً ، كالبهائم لا فطنة لهم ولا شعور ، ليتأملوا ويعرفوا أن ذلك الإمداد استدراج واستجرار إلى زيادة الإثم ، وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات ؟ وفي الخبر« أيفرح[1] عبدي أن أبسط له في الدنيا وهو أبعد له مني ؟ أيجزع عبدي المؤمن أن أقبض عنه الدنيا وهو أقرب له مني »؟ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُوْنَ ﴾ أي من خوف عذابه حذرون ، والخشيةُ : خوفٌ يشوبه تعظيم ، وعن الحسن : إن المؤمن جمع إحساناً وخشيةً ، والكافر جمع إساءة وأمناً ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رِبِّهِمْ ﴾ المنصوبة في الآفاق ، والمنزلة على الإطلاق ﴿ يُؤْمِنُوْنَ ﴾ يصدقون ولا يكذبونها بقول وفعل ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُون ﴾ شركاً جلياً ولا خفياً ولذلك عبر عن الإيمان بالآيات ، قال الجنيد : من فتّش سره فرأى فيه شيئاً أعظم من ربه أو أجلَّ منه ، فقد أشرك به أو جعل له مثلاً ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُوْنَ مَا آتَواْ ﴾ أي يعطون ما أعطوه من الزكوات والصدقات ، والخيرات والمبرات ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار ﴿ وَقُلُوْبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أي والحال أن قلوبهم خائفة أشد الخوف ﴿ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمِ رَاجِعُونَ ﴾ أي من أن رجوعهم إليه تعالى ، ينفقون وهم خائفون أن لا يُقبل منهم ذلك ، وأن لا يقع على الوجه اللائق ، لا مجرد رجوعهم إليه تعالى ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿ يُسَارِعُوْنَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ أي في نيل الخيرات ، التي من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة ﴿ وَهُمْ لَهَا سَابِقُوْنَ ﴾ أي ينالونها قبل الآخرة حيث عُجّلت لهم في الدنيا ، وبالمسارعات إلى الخيرات تُبتغى درجة السابقين ﴿ وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً ﴾ من النفوس ﴿ إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ قدر طاقتها قال مقاتل : من لم يستطع القيام فليصل قاعداً ، ومن لم يستطع القعود فليومىء ايماءً ، قال الحريري : لمْ يكلف الله العباد معرفته على قدره ، وإنما كلفهم على أقدارهم ، ولو كلفهم على قدره لما عرفوه لأنه لا يعرفه على الحقيقة أحد سواه ﴿ وَلَدَيْنَا ﴾ عندنا ﴿ كِتَابٌ ﴾ صحائف أعمال ، قد أثبت فيها أعمال كل أحد ﴿ يَنْطِقُ بِالْحَقِ ﴾ بالصدق لا يوجد فيه ما يخالف الواقع ، يظهر الحق ويبينه للناظر كما يبينه النطق ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ في الجزاء بنقص ثواب أو بزيادة عذاب ﴿ بَلْ قُلُوْبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ أي بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة أي ساترة لها ، من هذا الذي بُيِّنَ في القرآن ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ ﴾ خبيثة كثيرة ﴿ مِنْ دُوْنِ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكر ، وهي فنون كفرهم ومعاصيهم التي

من جملتها ما سيأتي من طعنهم في القرآن ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُوْنَ ﴾ معتادون فعلها ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ ﴾ غاية لأعمالهم المذكورة ، أي لا يزالون يعملون أعمالهم إلى حيث إذا أخذنا متنعميهم ورؤساءهم ﴿ بِالعَذَابِ ﴾ الأخروي إذ هو الذي يفاجئون عنده الجؤار ﴿ إِذَا هُمْ يَجْأَرُوْنَ ﴾ أي فاجأوا الصراخ بالاستغاثة يرفعون أصواتهم بها ويتضرعون في طلب النجاة ﴿ لاَ تَجْأَرُوْا الْيَوْمَ ﴾ أي فيقال لهم ، وتخصيص اليوم بالذكر وهو يوم القيامة لتهويله ، والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار ﴿ إِنَّكُمْ مِنَّا لاَ تُنْصَرُوْنَ ﴾ أي لا يلحقكم من جهتنا نصرة تنجيكم مما دهمكم ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ في الدنيا لتنتفعوا بها ﴿ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴾ الأعقاب : جمع عقب وهو مؤخر الرجل ، والنكوص الرجوع القهقرى أي معرضون عن سماعها أشد الإعراض ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ﴾ أي حال كونكم مكذبين بكتابي ﴿ سَامِراً ﴾ معناه سمارا كانوا يجتمعون حول البيت بالليل ، ويسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه وتسميته سحراً وشعراً ﴿ تَهْجُرُوْنَ ﴾ أي تهذون في شأن القرآن ، وفيه ذم لمن يسمر في غير طاعة الله تعالى ، قال القرطبي : اتُّفق على كراهية الحديث بعدها لأن الصلوات قد كفرت خطايا الإنسان فينام على سلامة ، وقد ختم الحفظة صحيفته بالعبادة ، فإن سمر بعد ذلك فقد لغا وجعل خاتمتها اللغو والباطل ، قال الفقيه أبو الليث : السمر على ثلاثة أوجه : **أحدها** : أن يكون في مذاكرة العلم فهو أفضل من النوم ، ويلحق به كل ما فيه خير وصلاح للناس **والثاني** : أن يكون في أساطير الأولين والسخرية والضحك فهو مكروه ، **والثالث** : أن يتكلموا للمؤانسة ويجتنبوا الكذب وقول الباطل فلا بأس به ، والكف عنه أفضل للنهي الوارد فيه ، وإذا فعلوا ذلك ينبغي أن يكون رجوعهم إلى ذكر الله والتسبيح والاستغفار حتى يكون رجوعهم بالخير ، وكان عليه السلام إذا أراد القيام عن مجلسه قال « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ثم يقول علمنيهن جبريل » ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوْا القَوْلَ ﴾ أي أفَعلَ الكفار ما فعلوا من الاستكبار والهجر ، فلم يتدبروا القرآن ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم ، والإخبار عن الغيب ، أنه الحق من ربهم فيؤمنوا به ، فضلاً عما فعلوا في شأنه من القبائح ؟ ﴿ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين حتى استبعدوه فوقعوا في الكفر والضلال ؟ ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوْا رَسُوْلَهُمْ ﴾ أي بل ألم يعرفوه عليه السلام بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق ﴿ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُوْنَ ﴾ أي جاهلون بنبوته ، فحيث انتفى عدم معرفتهم بشأنه عليه السلام ظهر بطلان إنكارهم ﴿ أَمْ يَقُوْلُوْنَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ انتقال إلى توبيخ آخر أي بل أيقولون به جنون مع أنه أرجح الناس عقلاً ، وأثقبهم ذهناً وأوفرهم رزانة ؟ ﴿ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا في حق القرآن والرسول بالصدق الثابت الذي لا ميل عنه ولا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ ﴾ من حيث هو حق أي حق كان لا لهذا الحق فقط

كما ينبيء عنه الإظهار في موقع الإضمار ﴿ كَارِهُوْنَ ﴾ لما في جبلتهم من الزيغ والانحراف ، وتخصيصُ أكثرهم بهذا الوصف لا ينافي كراهتهم لهذا الحق المبين فإن قوم كل نبي أكثرهم معاند، كما قال تعالى (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ) فالأقل وهم المستعدون كالجواهر النفيسة والأزهار الطيبة ، والأكثر وهم غير المستعدين كالأحجار الخسيسة والنباتات اليابسة ، فهذا حال أكثر الخلق ، بخلاف أهل المروءة والصفا الذين لم يزدهم التكليف إلا شرفاً وفي الحديث (عجبَ ربكَ من قوم يُقادون إلى الجنةِ بالسلاسلِ)[1] ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ ﴾ الذي كرهوه من القرآن ﴿ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ مشتهيات الكفرة بأن جاء القرآن موافقاً لمراداتهم ﴿ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ من الملائكة والإنس والجن ، وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلية ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ ﴾ انتقال من تشنيعهم بكراهة الحق إلى تشنيعهم بالإعراض عن القرآن ، الذي فيه فخرهم وشرفهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) أي شرف لك ولقومك والمعنى بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذي يجب عليهم أن يقبلوا عليه أكمل إقبال ﴿ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ ﴾ عن صلاح حالهم وشرف مآلهم ﴿ مُعْرِضُوْنَ ﴾ لا عن غير ذلك ، مما لا يوجب الإقبال عليه والاعتناء به ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ ﴾ انتقال إلى التوبيخ بوجه آخر كأنه قيل أم يزعمون أنك تسألهم على أداء الرسالة ﴿ خَرْجاً ﴾ أي جُعْلاً وأجراً فلأجل ذلك لا يؤمنون بك ﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ﴾ أي لا تسألهم ذلك فإن رزق ربك في الدنيا ، وثوابه في العقبى ، خيرٌ لك من ذلك ، لسعته ودوامه والخرجُ بإزاء الدخل يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أي خير من أعطى عوضاً ، لأن ما يعطيه لا ينقطع ولا يتكدر ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوْهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ تشهد العقول السَّليمة باستقامته لا عوج فيه ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُوْنَ بِالآخِرَةِ ﴾ وصفوا بذلك تشنيعاً لهم لزعمهم أن لا حياة إلا الحياة الدنيا ﴿ عَنِ الصِّرَاطِ ﴾ المستقيم الذي تدعوهم إليه ﴿ لَنَاكِبُونَ ﴾ مَائلون عادلون عنه فإن الإيمان بالآخرة ، من أقوى الدواعي إلى طلب الحق ، يحكى أنه لما انصرف هارون الرشيد من الحج ، أقام بالكوفة أياماً ، فلما خرج وقف بهلول المجنون على طريقه وناداه بأعلى صوته يا هارون ثلاثاً ، فقال هارون تعجباً من الذي يناديني ؟ فقيل له بهلول المجنون ، فوقف هارون وأمر برفع الستر وكان يكلم الناس وراء الستر فقال له أتعرفني ؟ قال نعم أعرفك ، فقال من أنا ؟ قال : أنت الذي لو ظُلم أحدٌ في المشرق وأنت في المغرب سألك الله تعالى عن ذلك يوم القيامة ، فبكى هارون من تأثير كلامه ، وقال كيف ترى حالي ؟ قال اعرضه على كتاب الله وهو (إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم) قال أين أعمالنا ؟ قال (إنما يتقبل الله من المتقين) قال وأين قرابتنا من

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الجهاد بلفظ « عجب الله من قوم يدخلون الجنة بالسلاسل » وأخرجه أبو داود أيضاً ، وانظر جامع الأصول ٢ / ٦٢٣ .

رسول الله ؟ قال : (**فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون**) قال وأين شفاعة رسول الله إيانا ؟ قال (**يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمٰن ورضي له قولاً**) قال هارون هل لك حاجة ؟ قال نعم ، أن تغفر لي ذنوبي ، وتدخلني الجنة ، قال : ليس هذا بيدي ولكن بلغنا أن عليك ديناً فنقضيه عنك ، قال : الدينُ لا يُقضى بدين ، أدّ أموال الناس إليهم ، قال هارون : أنأمر لك برزق يردُ عليك إلى أن تموت ؟ قال نحن عَبْدانِ لله تعالى ، أترى يذكرك وينساني ؟ فَقبلَ نصحَه ومضَى إلى طريقه ﴿ **وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ** ﴾ روى أنه لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ولحق باليمامة ومنع الميرة عن أهل مكة وأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز وهو شيء يتخذونه من الوبر والدم جاء أبو سفيان إلى رسول الله في المدينة فقال : أنشدك الله والرحم ، أي أسألك بالله وبحرمة الرحم والقرابة ، ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ فقال بلى ، فقال : قتلت الآباء بالسيف ، والأبناء بالجوع ، فادعُ اللهَ أن يكشف عنا هذا القحط ، فدعا فكشف عنهم فأنزل الله هذه الآية ﴿ **وَكَشَفْنَا** ﴾ أزلنا عنهم ﴿ **مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ** ﴾ من سوء الحال يعني القحط والجدب الذي غلب عليهم وأصابهم ﴿ **لَلَجُّوْا** ﴾ اللجاج التمادي في الخصومة والعناد والمعنى لتمادوا ﴿ **فِي طُغْيَانِهِمْ** ﴾ أي في إفراطهم في الكفر والاستكبار ، وعداوة الرسول والمؤمنين ﴿ **يَعْمَهُونَ** ﴾ العَمَهُ : التردد في الأمر من التحير ، أي عامهين عن الهدى مترددين في الضلالة ، لا يدرون أين يتوجهون ، كمن يضل عن الطريق في الفلاة ، لا رأي له ولا دراية بالطريق قال الواسطي : للعلم طغيان وهو التفاخر به ، وللمال طغيان وهو البخل ، وللعمل والعبادة طغيان وهو الرياء والسمعة ، وللنفس طغيان وهو اتباع شهواتها ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالعَذَابِ** ﴾ أي وبالله لقد أخذنا أهل مكة بالعذاب الدنيوي ، وهو ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر ﴿ **فَمَا اسْتَكَانُوْا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُوْنَ** ﴾ فما وُجدت منهم استكانة ولا تضرع لربهم ، ومضوا على العتو والاستكبار ، والاستكانة ، : الخضوعُ والذلة ، والتضرعُ : إظهار الضراعة أي الضعف والذلة ﴿ **حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴾ هو عذاب الآخرة ﴿ **إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُوْنَ** ﴾ متحيرون آيسون من كل خير ، أي محناهم بكل محنة من القتل والأسر والجوع ، فما رؤي منهم انقياد للحق ، وتوجه إلى الإسلام ، عن أبي يزيد البسطامي قال : كابدت العبادة ثلاثين سنة ، فرأيتُ قائلاً يقول لي : يا أبا يزيد ، خزائنه مملوءة من العبادة ، من أهل السماء والأرض ، إن أردت الوصول إليه ، فعليك بالذلة والافتقار ، فعلم منه أن العذاب لا ينقطع إلاّ بإفراد العبودية لله تعالى ، نسأل الله سبحانه أن يكشف عنا ظلمة النفس ، وينورنا بنور الأنس والقدس ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ** ﴾ خلق ﴿ **لَكُمُ** ﴾ لمنافعكم ﴿ **السَّمْعَ** ﴾ وهي قوة في الأذن بها تدرك الأصوات ﴿ **وَالأَبْصَارَ** ﴾ جمع بصر يقال للجارحة الناظرة وللقوة فيها ﴿ **وَالأَفْئِدَةَ** ﴾ جمع فؤاد وهو القلب ، وخص هذه الثلاثة بالذكر ، لأن أكثر المنافع متعلق

بها﴿ **قَلِيلاً مَا تَشْكُرُوْنَ** ﴾ أي شكراً قليلاً تشكرون هذه النعم الجليلة ، لأن العمدة في الشكر استعمالها فيما خلقت لأجله ، ثم في الآية إشارة إلى معانٍ ثلاثة : **أحدها** : إظهار إنعامه العظيم بهذه النعم الجليلة ، من السمع والأبصار والأفئدة ، **وثانيها** : مطالبة العباد بالشكر على هذه النعم ، **وثالثها** : الشكاية من العباد إذ الشاكرون منهم قليلٌ كما قال تعالى (**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُوْرُ**) وشكر هذه النعم استعمالها في طاعة المنعم وعبوديته ، فشكرُ السمع حفظه عن استماع المنهيات ، وأن لا يسمع إلا بالله وعن الله ، وشكر البصر حفظه عن النظر إلى المحرمات ، وأن ينظر بنظر العبرة لله وبالله ، وشكر القلب تصفيته عن رين الأخلاق الذميمة ، وقطع تعلقه عن الكونين فلا يشهد غير الله ولا يحب إلا الله ﴿ **وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ** ﴾ خلقكم وبثكم فيها بالتناسل ﴿ **وَإِلَيْهِ** ﴾ تعالى لا إلى غيره ﴿ **تُحْشَرُوْنَ** ﴾ تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ، فالكم لا تؤمنون به ولا تشكرون ؟ ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾ من غير أن يشاركه في ذلك شيء ، ولم يقل أحيا وأمات كما قال أنشأكم وذرأكم ، ولكن جاء على لفظ المضارع ليدل على أن الإحياء والإماتة عادتُه ﴿ **وَلَهُ** ﴾ خاصة ﴿ **اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** ﴾ أي هو المؤثر في تعاقبهما وفي اختلافهما ازدياداً وانتقاصاً ﴿ **أَفَلاَ تَعْقِلُونَ** ﴾ أي أتغفلون عن تلك الآيات ، فلا تعقلون بالنظر والتأمل أن الكل منا ؟ ﴿ **بَلْ قَالُوْا** ﴾ أي كفار مكة ﴿ **مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُوْنَ** ﴾ أي كما قال قبلهم من الكفار ﴿ **قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُوْنَ** ﴾ استبعدوا ولم يتأملوا أنهم كانوا قبل ذلك أيضاً تراباً فخلقوا ﴿ **لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا** ﴾ أي البعث ﴿ **مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي وعد آباؤنا من قبل محمد فلم يروا له حقيقة ﴿ **إِنْ هَذَا** ﴾ ما هذا ﴿ **إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ** ﴾ أكاذيبهم التي سطروها من غير أن يكون لها حقيقة ، جمع أسطورة كالأعاجيب والأضاحيك ، وفيه إشارة إلى أن الناس كلهم أهل تقليد ، إلا من هداه الله بنور الإيمان إلى التصديق بالتحقيق ، فإن المتأخرين ههنا قلدوا آباءهم المتقدمين ، في تكذيب الأنبياء والجحود وإنكار البعث .

﴿ **قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا** ﴾ من المخلوقات ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ** ﴾ شيأ فأخبروني به ﴿ **سَيَقُوْلُوْنَ للهِ** ﴾ لأن بديهة العقل تضطرهم إلى الاعتراف بأنه تعالى خالقها ﴿ **قُلْ** ﴾ عند اعترافهم بذلك تبكيتاً لهم ﴿ **أَفَلاَ تَذَكَّرُوْنَ** ﴾ أي تقولون ذلك فلا تتذكرون أن من فطر الأرض وما فيها ابتداء قادر على إعادتها ثانياً ؟ ﴿ **قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ** ﴾ ترق في الأمر بالسؤال من الأدنى إلى الأعلى ، فإن السموات والعرش أعظم من الأرض ﴿ **سَيَقُوْلُوْنَ للهِ** ﴾ باللام نظراً إلى معنى السؤال ، فإن قولك من ربه ؟ ولمن هو في معنى واحد ﴿ **قُلْ** ﴾ توبيخاً لهم ﴿ **أَفَلاَ تَتَّقُوْنَ** ﴾ أي أتعلمون ذلك فلا تتقون عذابه ، حيث تكفرون به وتنكرون البعث ؟ ﴿ **قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوْتُ كُلِّ شَيءٍ** ﴾ أي ملكه التام ، فإن الملكوت الملك الواسع ، والتاء للمبالغة قال الراغبُ : الملكوت مختص

بملك الله تعالى ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ ﴾ أي يُغيث غيره إذا شاء ﴿ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ أي ولا يُغاث أحد عليه أي لا يمنع أحد منه بالنصر عليه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ﴾ ذلك فأجيبوني ﴿ سَيَقُوْلُوْنَ لله ﴾ أي لله ملكوت كل شيء ، وهو الذي يجير ولا يجار عليه ﴿ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُوْنَ ﴾ أي فمن أين تخدعون وتصرفون عن الرشد إلى الغي ، فإن من لا يكون مسحوراً مختلاً عقله لا يكون كذلك ؟ ﴿ بَلْ أَتَيْنٰهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ من التوحيد والوعد بالبعث ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فيما قالوا من الشرك وإنكار البعث ، بيَّن أنهم أصروا على جحودهم ، وأقاموا على عتوهم ، بعد أن أزيحت العلل ، فلات حين عذر ، وقد انتقم الله منهم ، لأنه يُمهِلُ ولا يُهْمل ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ ﴾ كما يقول النصارى لأنه لم يجانس أحداً ولم يماثله ، حتى يكون من جنسه صاحبةً فيتوالدا ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ ﴾ يشاركه في الألوهية كما يقول عبدة الأصنام وغيرهم ﴿ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ أي ولو كان معه آلهة لا نفرد كل إله بما خلقه ، واستبدّ به دون الإله الآخر ، وامتاز ملكه عن ملك الآخر ﴿ وَلَعَلاَ ﴾ لغلب ﴿ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ كما هو الجاري فيما بين ملوك الدنيا ، والآية دليل على أنه لو كان إلهان ، لوقع التمانع بينهما بالعلم والقدرة ، فإنه إذا أراد أحدهما إحياء زيد والآخر إفناءه ، استوت قدرتها بمنع كل واحد منهما فعل صاحبه ، ومهما ارتفع مراد أحدهما غلب صاحبه بالقدرة ، ونظيره حبلٌ يتجاذبه اثنان ، فإذا استويا في القدرة بقيا متجاذبين ، فإن غلب أحدهما بالجذب لم يبق لفعل الآخر أثر ﴿ سُبْحَانَ اللهِ ﴾ أي نزّهوه تنزيهاً ﴿ عَمَّا يَصِفُوْنَ ﴾ أي يصفونه ويضيفونه إليه من الأولاد والشركاء ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي عالم السر والعلانية ﴿ فَتَعَالَى ﴾ الله وتنزه ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به مما لا يعلم شيئاً من الغيب ، فإن تفرده بذلك موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك * قال يحيى بن معاذ : إن للتوحيد نوراً وللشرك ناراً ، وإن نور التوحيد أحرق سيئات الموحدين ، كما أن نار الشرك أحرقت حسنات المشركين ﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا ﴾ أصله إن ما ، وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ﴿ تُرِيَنِّي ﴾ أي إن كان لابد من أن تريني ﴿ مَا يُوْعَدُوْنَ ﴾ أي المشركون من العذاب الدنيوي المستأصل ﴿ رَبِّ ﴾ يارب ﴿ فَلاَ تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي قريناً لهم في العذاب ، وأخرجني من بين أيديهم سالماً ﴿ وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب ﴿ لَقَادِرُوْنَ ﴾ ولكنا نؤخره لعلمنا بأن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمنون ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي ﴾ بالطريقة التي ﴿ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي أحسن طرق الدفع من الحلم والصفح ﴿ السَّيِئَةَ ﴾ التي تأتيك منهم من الأذى والمكروه ، واستعمل معهم الأخلاق الكريمة والشفقة والرحمة .

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُوْنَ ﴾ بما يصفونك به من السحر والشعر والجنون ، وفيه وعيد لهم بالجزاء

والعقوبة وتسلية لرسول الله وإرشاد له إلى تفويض أمره إليه تعالى ﴿ وَقُلْ رَبِّ ﴾ يارب ﴿ أَعُوذُ بِكَ ﴾ العوذ الالتجاء إلى الغير والتعلق به ﴿ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ أي وساوسهم المغوية ، وأصل الهمز : النَّخْسُ ، شبَّه حثهم للناس على المعاصي ، بهمز الرائض الدواب على الإسراع أو الوثب ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ أي من أن يحضروني ويحوموا حولي في حال من الأحوال ، صلاةً أو تلاوة أو عند الموت أو غير ذلك ، روي أنه اشتكى بعضهم أَرَقاً فقال عليه السلام إذا أردت النوم فقل : (أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه ، وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون)[1] فالمراد من الاستعاذة التحذير من شر الشيطان ، ثم إن الشيطان يوسوس في صدور الناس ، فيغوي كل أحد من الرجال والنساء ، ويوقع الأشرار في البدع والأهواء وفي الحديث (صنفان من أهل النار لم أرهما) يعني في عصره عليه السلام (قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات) يعني في الحقيقة (عاريات) يعني في المعنى لأنهن يلبسن ثياباً رقاقاً تصف ما تحتها (مميلات) أي قلوب الرجال إلى الفساد بهن (مائلات) إلى الرجال (رؤسهنَّ كأسنمةِ البخت) يعني يعظمن شعور رؤسهن حتى تشبه أسنمة الإبل المائلة (لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا)[1] أي من مسيرة خمسمائة عام ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ حتى التي يبتدأ بها الكلام أي يستمرون على سوء الذكر حتى إذا جاء أحد الكفار الموتُ الذي لا مرد له ، وظهرت له أحوال الآخرة ﴿ قَالَ ﴾ تحسرا على ما فرَّط فيه من الإيمان والعمل ﴿ رَبِّ ﴾ يارب ﴿ ارْجِعُونِ ﴾ ردني إلى الدنيا والواو لتعظيم المخاطب ﴿ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ أي لعلي أعمل عملاً صالحاً وأشهد بالتوحيد وقيل : أريد بقوله ﴿ فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ فيما قصَّرتُ كأنهم تمنوا الرجعة ليصلحوا ما أفسدوه ، يقول الفقير : فالمراد بالعمل الصالح هو العمل المبني على الإيمان ، لأنه وإن كان عمل عملاً في صورة الصالح لكنه كان فاسداً في الحقيقة ، حيث أحبطه الكفر فلما شاهد بطلانه رجا أن يرجع إلى الدنيا فيؤمن ويعمل عملاً صالحاً صورةً وحقيقة ، وقال القرطبي : سؤال الرجعة غير مختص بالكافر بل يعمُّ المؤمن المقصِّر ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع عن طلب الرجعة واستبعاد لها أي لا يرد إلى الدنيا أبداً ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي قوله رب ارجعون ﴿ كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ عند الموت لا محالة لتسلط الحزن عليه ولا يجاب لها ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِم ﴾ وأمام ذلك الأحد والجمع باعتبار المعنى ﴿ بَرْزَخٌ ﴾ حائل بينهم وبين الرجعة وهو القبر ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ يوم القيامة وهو إقناط كلي من الرجعة إلى الدنيا ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّوْرِ ﴾ لقيام الساعة وهي النفخة الثانية التي عندها البعث والنشور ﴿ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ تنفعهم لزوال التراحم والتعاطف ، بحيث يفر

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة في صفة الجنة وانظر جامع الأصول ١١ / ٧٨٨ .

المرء « منْ أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه » والنَّسبُ : القرابةُ ﴿ **يَوْمَئِذٍ** ﴾ كما بينهم اليوم ﴿ **وَلاَ يَتَسَاءَلُوْنَ** ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً فلا يقول له ؟ من أنت ؟ ومن أي قبيلة ونسب أنت ؟ ونحو ذلك لاشتغال كل منهم بنفسه لشدة الهول ، ولا يناقضه قوله تعالى (**فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون**) لأن عدم التساؤل عند ابتداء النفخة الثانية قبل المحاسبة ، والتساؤل بعد ذلك ، وأيضاً يوم القيامة يوم طويل فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة ، ففي موطن يشتد عليهم الهول والفزع بحيث يشغلهم عن التساؤل والتعارف ، وفي موطن يفيقون إفاقة فيتساءلون ويتعارفون ، قال الأصمعي : كنت أطوف بالكعبة في ليلة مقمرة ، فسمعت صوتاً حزيناً فتبعتُ الصوت ؛ فإذا أنا بشاب حسن ظريف ، تعلق بأستار الكعبة وهو يقول : نامت العيون ، وغارت النجوم ، وأنت الملكِ الحيُّ القيوم ثم أنشأ يقول :

يا من يجيب دعا المضطر في الظُّلَم * يا كاشف الضُرِ والبلوى مع السَّقَم
قد نام وَفْدُكَ حولَ البيت وانتبهوا * وأنت يا حيُّ يا قيّومُ لم تنم
أدعوكَ ربي حزيناً هائماً قَلِقاً * فارحم بكائي بحق البيت والحرم
إن كان عفوك لا يرجوه ذو سفهٍ * فمن يجود على العاصين بالكرم ؟

فكان يكرر هذه الأبيات حتى سقط على الأرض مغشياً عليه ، فدنوت منه فإذا هو زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، فوضعت رأسه في حجري وبكيت لبكائه ، فأفاق من غشيته وفتح عينه ، فقلت : يا سيدي ما هذا البكاء وما هذا الجزعُ وأنت من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ؟ أليس الله يقول (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطْهِيراً**) قال فاستوى جالساً وقال يا أصمعي : هيهات ، إن الله تعالى خلق الجنة لمن أطاعه وإن كان عبداً حبشيًّاً ، وخلق النار لمن عصاه وإن كان ملكاً قرشياً ، أما سمعتَ قوله تعالى (**فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون**) ؟ ﴿ **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ** ﴾ موزونات حسناته من العقائد والأعمال ﴿ **فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مهروب ﴿ **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ** ﴾ أي ومن لم يكن له من العقائد والأعمال ما له وزن وقدر عند الله تعالى وهم الكفار لقوله تعالى (**فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً**) ﴿ **فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوْا أَنْفُسَهُمْ** ﴾ ضيعوها بتضييع زمان استكمالها ، وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها ، والخسر والخسران انتقاص رأس المال ﴿ **فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ** ﴾ ماكثون أبداً ﴿ **تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ** ﴾ تحرقها يقال : لفحته النار بحرّها أحرقته ، وتخصيص الوجوه بذلك لأنها أشرف الأعضاء ﴿ **وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ** ﴾ من شدة الاحتراق ، والكلوح

تقلص الشفتين عن الأسنان كما ترى الرؤس المشوية ، وفي الحديث (تشويه النار فتقلّصُ شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفتُه السفلى حتى تبلغ سرته)[1] فيقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً وتذكيراً لما به استحقوا ما ابتلوا به من العذاب ﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُوْنَ ﴾ حينئذ ﴿ قَالُوا ﴾ يا ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا ﴾ أي ملكتنا ﴿ شِقْوَتُنَا ﴾ فصارت أحوالنا مؤديةً إلى سوء العاقبة ، قال القرطبي وأحسن ما قيل في معناه : غلبت علينا لذاتنا وأهواؤنا ، فسمى اللذات والأهواء شقوة لأنها تؤديان إليها ﴿ وَكُنَّا ﴾ بسبب ذلك ﴿ قَوْماً ضَالِّينَ ﴾ عن الحق ، ولذلك فعلنا ما فعلنا من التكذيب وسائر المعاصي ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ متجاوزون الحد في الظلم لأنفسنا ﴿ قَالَ ﴾ تعالى بطريق القهر ﴿ اخْسَئُوْا فِيهَا ﴾ اسكتوا في النار سكوت هوان ، فإنها ليست مقام سؤال ، وانزجروا انزجار الكلاب ، من خسأتُ الكلبَ إذا زجرته فخسأ أي انزجر ﴿ وَلا تُكَلِّمُوْنِ ﴾ أي باستدعاء الإخراج من النار والرجوع إلى الدنيا ، فإنه لا يكون أبداً ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي إن الشأن ﴿ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي ﴾ وهم المؤمنون ﴿ يَقُوْلُوْنَ ﴾ في الدنيا ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا ﴾ صدّقنا بك وبجميع ما جاء من عندك ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا ﴾ استر ذنوبنا ﴿ وَارْحَمْنَا ﴾ وأنعم علينا بالفوز بالجنة ، والنجاة من النار ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ لأن رحمتك منبع كل رحمة ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوْهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ مهزوءاً بهم أي اسكتوا عن الدعاء لأنكم كنتم تستهزئون بالداعين وتتشاغلون ﴿ حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ﴾ أي الاستهزاء بهم ﴿ ذِكْرِي ﴾ أي ذكركم إياي والخوف مني من فرط اشتغالكم باستهزائهم ﴿ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُوْنَ ﴾ وذلك غاية الاستهزاء ، وقال مقاتل : نزلت في بلال وعمار وسلمان وصهيب وأمثالهم من فقراء الصحابة ، كان كفار قريش كأبي جهل وعتبة وأبي بن خلف وأضرابهم يستهزؤن بهم وبإسلامهم ويؤذونهم ﴿ إِنِي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوْا ﴾ بسبب صبرهم على أذيتكم ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُوْنَ ﴾ أي جزيتهم فوزهم بمجامع مراداتهم مخصوصين به ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى تذكيراً لما لبثوا ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ يقال : لبث بالمكان أقام به ملازماً له ﴿ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ تمييز ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ استقصاراً لمدة لبثهم فيها بالنسبة إلى دخولهم في النار ﴿ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴾ أي الذين يعلمون عدَّ أيامها فإنا لما نحن فيه من العذاب مشغولون عن تذكرها وإحصائها ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ تصديقاً لهم في تقليلهم لسنيّ لبثهم في الدنيا ﴿ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ﴾ لعلمتم قلة لبثكم فيها كما علمتم اليوم .

ألا إنّما الدُنْيا كظلِ سَحَابةٍ * أظلَّتْكَ يوماً ثم عنكَ اضْمَحَلَّتِ
فلا تكُ فرحاناً بها حينَ أقبلَتْ * ولا تكُ جَزْعاناً بها حين وَلَّتِ

(١) الحديث أخرجه أحمد والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً ، وقال الترمذي : حسن غريب .

قال بعض العارفين : لا تركنَّن إلى الدنيا فإنها لا تُبقي على أحد ، ولا تتركها فإن الآخرة لا تنال إلا بها ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً** ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري ، والمعنى : أفحسبتم من فرط غفلتكم أنا خلقناكم بغير حكمة ﴿ **وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُوْنَ** ﴾ أي وحسبتم عدم رجوعكم إلينا ؟ قال الترمذي الحكيم : إن الله خلق الخلق ليعبدوه ، فيثيبهم على العبادة ويعاقبهم على تركها ، فإن عبدوه فإنهم عبيدٌ أحرار ، كرامٌ من رقّ الدنيا ، ملوكٌ في دار السلام ، وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيدُ إباق سقاط لئام ، وغداً أعداء في السجون بين أطباق النيران ، وعن بهلول قال : كنت يوماً في بعض شوارع البصرة فإذا بصبيان يلعبون بالجوز واللوز ، وإذا أنا بصبي ينظر إليهم ويبكي ، فقلت هذا صبي يتحسر على ما في أيدي الصبيان ولا شيء معه فيلعب به ، فقلت أي بنيّ ما يبكيك ؟ أشتري لك من الجوز واللوز ما تلعب به مع الصبيان ، فرفع بصره إليّ وقال : يا قليلَ العقل ما للّعبِ خلقنا ، فقلت أي بني فماذا خلقنا ؟ فقال للعلم والعبادة فقلت من أين لك ذلك بارك الله فيك ؟ قال من قول الله تعالى ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ**) ؟ قلت له أراك حكيما فعظني وأوجز فأنشأ يقول :

أرى الدنيا تَجهَّزُ بانطِلاَقِ * مُشَمِّرةً على قدمٍ وسَاقِ
فلا الدنيا ببـاقيةٍ لحيّ * ولا حيٌّ على الدنيا ببـاقِ
كأن الموتَ والحَدَثان فيها * إلى نفس الفتى فَرَسَا سِبَاقِ
فيا مغرور بالدُّنيا رويداً * ومنها خذ لنفْسِكَ بالوِثاقِ

﴿ **فَتَعَالَى اللهُ** ﴾ ارتفع وتنزه في ذاته وصفاته وأفعاله ، عن خلو أفعاله عن الحكم والمصالح ﴿ **المَلِكُ الحَقُّ** ﴾ الذي يحق له الملك على الإطلاق إيجاداً وإعداماً ، وكلُّ ما سواه مملوكٌ له مقهور تحت ملكه العظيم ﴿ **لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ فإن كل ما عداه عبيده ﴿ **رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ** ﴾ وإنما وصف العرش بالكريم ، لأنه مقسم فيض كرم الحق ورحمته ، منه تنقسم آثار رحمته وكرمه ﴿ **وَمَنْ يَدْعُ** ﴾ يعبد ﴿ **مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ** ﴾ إفراداً أو اشتراكاً ﴿ **لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ** ﴾ أي بدعائه معه ذلك ﴿ **فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ** ﴾ فهو مجازي له على قدر ما يستحقه ﴿ **إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرُوْنَ** ﴾ أي لا ينجو من كَفَر من سوء الحساب والعذاب ﴿ **وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ** ﴾ أُمِرَ رسولُ الله بالاستغفار والاسترحام ليشير إلى أنه مع كمال محبوبيته ، ورتبة نبوته ورسالته ، محتاج إلى مغفرته ورحمته ، فكيف بمن دونه ؟ ﴿ **وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ يشير إلى أنه إذا رحم عبده لم يسخط عليه أبداً ، لأن رحمته أزلية لا تحتمل التغير ، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : كان عليه السلام إذا نزل عليه الوحي يسمع عنده دويّ كدويّ النحل ، فمكثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يده وقال : (اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ،

وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تُؤْثر علينا ، وارض عنا وأَرضنا ، ثم قال : لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة) ثم قرأ (**قد أفلح المؤمنون**) حتى ختم العشر[1] .

انتهى بعون الله وتوفيقه تفسير سورة المؤمنون



(١) الحديث أخرجه الترمذي والنسائي وأحمد في المسند ، وذكره الحافظ ابن كثير ٢ / ٥٥٨ .



بسم الله الرحمن الرحيم

قال القرطبي : مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والستر ، وكتب عمر رضي الله عنه إلى الكوفة علّموا نساءكم سورة النور ﴿ **سُوْرَةٌ** ﴾ أي هذه سورة ، والتنكير مفيد للفخامة من حيث الذات كما أن قوله تعالى ﴿ **أَنْزَلْنَاهَا** ﴾ مفيد لها من حيث الصفة أي أنزلناها من عالم القدس بواسطة جبريل ﴿ **وَفَرَضْنَاهَا** ﴾ أي أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً ﴿ **وَأَنْزَلْنَا فِيهَا** ﴾ أي في تضاعيف السورة ﴿ **آيَاتٍ** ﴾ هي الآيات التي نيطت بها الأحكام المفروضة ﴿ **بَيِّنَاتٍ** ﴾ واضحات دلالاتها على أحكامها ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ** ﴾ أي تتذكرونها فتعملون بموجبها ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي** ﴾ شروع في تفصيل ما ذكر من الآيات البينات وبيان أحكامها ، والزنى : وطىء المرأة من غير عقد شرعي ، والزانية هي المرأة المطاوعة للزنى الممكنة منه وتقديمها على الزاني لأنها الأصل في الفعل لكون الداعية فيها أوفر ، والشهوة أكثر ، ولولا تمكينها منه لم يقع ﴿ **فَاجْلِدُوْا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ** ﴾ الجَلْد : ضربُ الجِلْدِ بالكسر يقال جَلَده ضرب جلده ، نحو بَطَنه وظَهَره إذا ضرب بطنه وظهره ، وكان هذا عاماً في المحصن وغيره وقد نسخ في حق المحصن ، ويكفينا في حق الناسخ القطع بأنه عليه قد رجم ماعزاً وغيره ، فيكون من باب نسخ الكتاب بالسنة المشهورة ، فحدُّ المحصن هو الرجم ، وحدُّ غير المحصن هو الجلد ، وشرائط الإحصان في باب الرجم ست عند أبي حنيفة : الإسلام ، والحرية ، والعقل ، والبلوغ ، والنكاح الصحيح ، والدخول ، فلا إحصان عند فقد واحدة منها ﴿ **وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ** ﴾ رحمة ورقة ، وتنكيرها للتقليل أي لا يأخذكم بهما شيء من الرأفة قليل فتحفّفوا العقوبة عنها ﴿ **فِي دِينِ اللهِ** ﴾ في طاعته وإقامة حده فتعطلوه، وذلك أن المضروب يتضرع ويستغيث ويسترحم ، وربما يغشى عليه فيرأف به الإمام أو الضارب فلا يستوفي حد الله وحقه ، ولا يكمل جلد مائة ، بل ينقصه بترك شيء منها أو يخفف الضرب ، فنهاهم الله عن ذلك ولم يرد الرأفة الجبلية والرحمة الغريزية ، فإنها لا تدخل تحت التكليف ، وإنما أراد بذلك الرأفة التي تمنع عن إقامة حدود الله ، وتفضي إلى تعطيل أحكام الشرع ، فهي منهي عنها ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ من باب التهييج والتهاب الغضب لله ولدينه ، فإن الإيمان بها يقتضي الجد في طاعته ﴿ **وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ الشهودُ : الحضورُ ، والعذابُ : الإيجاع الشديد ، وفي تسميته عذاباً دليل على أنه عقوبة ، كما سُمّي نكالاً أي عقاباً يردع عن المعاودة ، وقوله ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ لأن الفاسق من صلحاء قومه أخجل ، والمعنى لتحضره زيادة في التنكيل ، ويجلد الرجل قائماً وينزع عنه ثيابه إلا إزاره ، ويفرَّق على بدنه إلا رأسه ووجهه وفرجه ، وتجلد المرأة قاعدة لا ينزع من

ثيابها إلا الحشو والفرو ، ولا يجمع بين جلد ورجم ، ولا بين جلد ونفي إلاَّ سياسةً ، ويرجم مريض زنى ولا يجلد حتى يبرأ ، وحاملٌ زنت تُرْجم حين وضعت ، وتجلد بعد النفاس ، وللعبد نصفها ولا يحده سيده إلا بإذن الإمام خلافاً للشافعي وفي الحديث (إقامة حدٍّ بأرض خيرٌ لأهلها من مطر أربعين ليلة)[1] واعلم أن الزنى حرام وكبيرة ، روى حذيفة رضي الله عنه قال : « يا معشر الناس اتقوا الزنى فإن فيه ست خصال : ثلاث في الدنيا ، وثلاث في الآخرة ، أما التي في الدنيا : فيذهب البهاء ، ويورث الفقر ، ويُنقص العمر ، وأما التي في الآخرة : فسخطُ الله ، وسوءُ الحساب ، وعذاب النار » ﴿ **الزَّانِي لا يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيةً أوْ مُشْرِكَةً ، والزَّانِيةُ لا يَنْكِحُهَا إلاّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ** ﴾ النكاح إنما ورد في القرآن بمعنى العقد أي التزوج لا الوطىء ، قال الراغب : أصل النكاح للعقد ثم استعير للجماع ، ومحال أن يكون في الأصل للجماع ثم استعير للعقد ، لأن أسماء الجماع كلها كنايات لاستقباحهم ذكره كاستقباح تعاطيه ، وهذا حكمٌ مؤسس على الغالب المعتاد ، جيء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزواني ، يعني الغالب أن المائل إلى الزنى لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء ، وإنما يرغب في نكاح فاسقة من شكله أو مشركة ، والمسافحةُ لا يرغب في نكاحها الصلحاء وينفرون عنها ، وإنما يرغب فيها فاسق مثلها أو مشرك ، فإن المشاكلة سبب الائتلاف والاجتماع ، نزلت في فقراء المهاجرين الذين رغبوا في نكاح موسرات كنَّ بالمدينة ، لينفقن عليهم من أكسابهن ، فاستأذنوا رسول الله في ذلك ، فنفّروا عنه ببيان أنه أفعال الزناة وخصائص المشركين ﴿ **وَحُرِّمَ ذَلِكَ** ﴾ أي نكاح الزنى ﴿ **عَلَى المُؤْمِنِينَ** ﴾ لما فيه من التشبيه بالفسقة ، والتعرض للتهمة ، والتسبب بسوء المقالة والطعن في النسب ، وغير ذلك من المفاسد لا يكاد يليق بأحد من الأداني والأرازل فضلاً عن المؤمنين ، والحكمُ إما مخصوص بسبب النزول أو منسوخ بقوله تعالى (**وَأَنْكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنْكُمْ**) فإنه متناول للمسافحات ، ويؤيده ما روي عن ابن عباس أنه سئل عن ذلك فقال (أوله سفاح وآخره نكاحٌ ، والحرامُ لا يحرّم الحلال)[2] .

﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُوْنَ المُحْصَنَاتِ** ﴾ الرمي كناية عن الشتم كالقذف ، فإنه في الأصل الرمي بالحجارة ونحوها مطلقاً ، والمعنى والذين يقذفون العفائف بالزنى وأجمعوا على أن شروط إحصان القذف خمسة : « الحريةُ ، والبلوغ ، والعقل ، والإسلام ، والعفة من الزنى » حتى إن من زنى مرة في أول بلوغه ثم تاب وحسنت حاله ، فقذفه شخص لا حدَّ عليه ، والقذف بالزنى : أن يقول لمحصنة يا زانية ، يا ابن الزاني ، يا ولد الزنى وأمثال ذلك ﴿ **ثُمَّ لَمْ يَأْتُوْا بأرْبَعَةِ شُهَدَاءَ** ﴾ يشهدون عليهن بما رموهن به ، ولا تُقبل

---

(١) الحديث أخرجه النسائي وابن ماجه وأحمد ، وذكره بنحوه السيوطي في الفتح الكبير ١ / ٢١٥ .

(٢) الحديث أخرجه الطبراني والدارقطني ، ورواه ابن أبي حاتم بنحوه في المعنى ، وانظر مختصر ابن كثير ٢ / ٥٨٣ .

فيه شهادة النساء كما في سائر الحدود ﴿ فَاجْلِدُوْهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ أي اضربوا كل واحد من الرامين ثمانين ضربة إن كان القاذف حراً ، وأربعين إن كان عبداً ، لظهور كذبهم وافترائهم بعجزهم عن الإتيان بالشهداء ﴿ وَلاَ تَقْبَلُوْا لَهُمْ شَهَادَةً ﴾ فإنه قد آذى المقذوف بلسانه فعوقب بإهدار منافعه جزاء وفاقاً ، والمعنى لا تقبلوا من القاذفين شهادة من الشهادات ﴿ أَبَداً ﴾ أي مدة حياتهم وإن تابوا وأصلحوا ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُوْنَ ﴾ الكاملون في الفسق والخروج عن الطاعة ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوْا ﴾ استثناء من الفاسقين ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم ﴿ وَأَصْلَحُوْا ﴾ أعمالهم بالتدارك ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لا يؤاخذهم بما فرط منهم ، ولا ينظمهم في سلك الفاسقين ، لأنه مبالغ في المغفرة والرحمة ، وقد شدَّد النبي على من يتَّبع عورات المسلمين ويفشي أسرارهم فقال (يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن قلبه ، لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإنه من يتبع عوراتهم يفضحه الله يوم القيامة على رؤس الأشهاد)[1] وقال عليه السلام (من ستر على مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة)[2] ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُوْنَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ أي والذين يقذفون نساءهم بالزنى بأن يقول لها يا زانية ، أو زنيت ، أو رأيتك تزنين ، قال ابن عباس : لما نزل قوله تعالى (**والَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ**) قال عاصم بن عدي الأنصاري : أرأيتَ إن دخل رجل منا بيته فرأى رجلاً على بطن امرأته، فإن جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك ، فقد قضى الرجل حاجته وخرج ، وإن قتله قُتل به ، وإن قال وجدت فلاناً مع تلك المرأة ضرب ، وإن سكت سكت على غيظ ، اللهم افتح ، وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمرٌ ، فأتى عاصماً فقال لقد رأيت شريك بن السحماء على بطن امرأتي ، فاسترجع عاصم وأتى رسول الله عليه السلام فقال يا رسول الله ما أسرع ما ابتليت بهذا في أهل بيتي ، فقال عليه السلام (وما ذاك ؟ قال أخبرني عويمر ابن عمي أنه رأى شريكاً على بطن امرأته فدعا رسول الله إياهم جميعاً فقال لعويمر : اتق الله في زوجتك وابنة عمك ولا تقذفها ، فقال يا رسول الله تالله لقد رأيت شريكاً على بطنها ، وإني ما قربتها منذ أربعة أشهر ، وأنها حبلى من غيري فقال لها رسول الله : اتق الله ولا تخبري إلا بما صنعت ، فقالت يارسول الله إن عويمراً رجل غيور وإنه رأى شريكاً يطيل النظر إليّ ويحدثني فحملته الغيرة على ما قال فأنزل الله تعالى قوله (**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ**) وبيَّن به أن حكم قذف الزوجة اللعان ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ ﴾ يشهدون بما رموهن من الزنى ﴿ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ ﴾ جعلوا من جملة الشهداء ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ ﴾ أي شهادة كل واحد منهم ﴿ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ ﴾ أي فشادتهم المشروعة أربع شهادات ﴿ بِاللهِ ﴾ متعلق بشهادات ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي فيما رماها به من الزنى

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في الأدب في باب الغيبة ، ورواه أحمد في المسند ، وإسناده صحيح ، وانظر جامع الأصول ٦ / ٦٥٣ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد وابن ماجه بلفظ مقارب ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٩٧ .

﴿ والخَامِسَةُ ﴾ أي الشهادة الخامسة ﴿ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيهِ ﴾ اللعن طردٌ وإبعاد على سبيل السخط ﴿ إِنْ كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ فيما رماها به من الزنى ، فإذا لاَعَنَ الرجل حبست الزوجة حتى تعترف فترجم أو تلاعن ﴿ وَيَدَرَؤُا عَنْهَا العَذَابَ ﴾ أي يدفع عن المرأة المرمية العذاب الدنيوي ﴿ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ ﴾ أي الزوج ﴿ لَمِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ فيما رماها به من الزنى ﴿ وَالخَامِسَةَ ﴾ بالنصب عطفاً على أربع شهادات ﴿ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ ﴾ أي الزوج ﴿ مِنَ الصَادِقِينَ ﴾ أي فيما رماني به من الزنى ، وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها لأن النساء كثيراً ما يستعملن اللعن ، فربما تجترىء على التفوه به لسقوط وقعه على قلوبهن ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ جواب لولا محذوف لتهويله كأنه قيل : لولا تفضله عليكم ورحمته ، وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة ، لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُا بِالإِفْكِ ﴾ أي الكذب والافتراء والمراد به ما أفك على عائشة رضي الله عنها ، وذلك أن عائشة كانت تستحق الثناء ، بما كانت عليه من الأمانة والعفة والشرف ، روي أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيهن خرجت قرعتها استصحبها ، فلما كان « غزوة بني المصطلق » في السنة الخامسة من الهجرة ، خرج سهمها فخرجت عائشة معه عليه السلام ، وكان بعد نزول آية الحجاب قالت : فحملت في هودج فسرنا فلما دنونا من المدينة راجعين ، نزلنا منزلاً ثم نزلت من الرحل ، فقمت ومشيت لقضاء الحاجة ، حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقدٌ لي قد انقطع ، فرجعت فالتمسته فحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرهطُ الذين كانوا يرحلون بي ـ أي يجعلون هودجها على الرحل ـ فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري ، وهم يحسبون أني فيه لخفّتي ، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لقلة أكلهن ، فلم يستنكروا خفة الهودج حين رفعوه ، وذهبوا بالبعير ، فوجدتُ عقدي فجئت منازلهم وليس فيها أحد ، وأقمت بمنزلي الذي كنتُ فيه وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون في طلبي ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت ، وكان « صفوان بن المعطل » السلمي خلف الجيش ، وكان من خيار الصحابة فأصبح عند منزلي فرأى سواداً أي شخص إنسان نائم ، فأتاني فعرفني ، فاستيقظتُ باسترجاعه أي بقوله « إنَّا لله وإنا إليه راجعون » فخمرت وجهي في جلبابي ، والله ما تكلمت بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، وهوى حتى أناخ راحلته فقمت إليها فركبتها ، وانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش قالت : فلما نزلنا هلك فيَّ من هلك بقول البهتان والافتراء ، وكان أول من أشاعه في المعسكر (عبد الله بن أبيّ بن سلول) رئيس المنافقين ، فإنه كان ينزل مع جماعة المنافقين فمرت عليهم فقال من هذه ؟ قالوا عائشة وصفوان ، فقال : فَجَرَ بها ورب الكعبة ، فأفشوه وخاض أهل المعسكر فيه ، فجعل يرويه بعضهم عن بعض ، ويحدّث به بعضهم بعضاً ، قالت فقدمنا المدينة فاشتكيت أي مرضتُ حين قدمتُ شهراً ،

ووصل الخبر إلى رسول الله وإلي أبويّ ، ولا أشعر بشيء من ذلك ، غير أنه يريبني أن لا أعرف من رسول الله العطفَ الذي كنت أرى منه حين اشتكيت ، فلما رأيت ذلك ، قلت يا رسول الله : لو أذنت لي فانقلبُ إليّ أبويّ يُمرِّضاني ؟ قال : لا بأس ، فانقلبت إلى بيت أبويّ وكنت فيه إلى أن برئت من مرضي ، بعد بضع وعشرين ليلة ، فخرجت في بعض الليالي ومعي أم مسطح قبل المناصع ، وهي مواضع يتخلى فيها لبول أو حاجة قالت : فلما فرغنا من شأننا وأقبلنا إلى البيت ، عثرت أم مسطح في مرطها ، فقالت : تعس مسطح تعني ولدها ، فقلت لها أتسبين رجلاً قد شهد بدراً ؟ فقالت : أو لم تسمعي ما قال ؟ قلتُ : وما قال فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً على مرض ، أي عاودني المرض وبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحتُ أبكي ، فاستشار رسول الله في حقي ، فأشار بعضهم بالفرقة ، وبعضهم بالصبر ، وقد لبث شهراً لا يُوحى إليه في شأني بشيء فقام ، وأقبل حتى دخل عليّ وعندي أبواي ثم جلس ، فتشهَّد ثم قال (أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب إلى الله تاب اللهُ عليه) فلما قضى رسول الله كلامه قلص دمعي أي ارتفع حتى ما أحسُّ منه بقطرة ، فقلت لأبي أجبْ عني رسول الله فيما قال ، قال والله لا أدري ما أقول لرسول الله ؟ فقلت لأمي أجيبي عني رسول الله ، قالت والله ما أدري ما أقول لرسول الله ؟ فقلت : لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني ، ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم أني بريئة منه لتصدقوني ، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا ما قال أبو يوسف أي يعقوب **(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللهُ المُسْتَعانُ على ما تَصِفُوْنَ)** قالت : ثم تحولتُ فاضطجعت على فراشي ، وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة ، واللهُ مبّرئي ببراءة ، ولكنّي والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحيٌ يُتلى ، ولشأني كان أحقرَ في نفسي من أن يتكلم فيَّ بأمر يُتلى ، ولكني كنت أرجو أن يرى النبي عليه السلام رؤيا يبرئني الله بها ، قالت : فوالله ما قام رسول الله عن مجلسه ، ولا خرج من البيت ، حتى أخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي أي من شدة الكرب فَسجِّي أي غُطِّي بثوب ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه ، وكان ينحدر منه مثل الجمان من العرق من ثقل القول الذي أنزل عليه فلما سُري عنه وهو يضحك ويمسح العرق من وجهه الكريم ، كان أول كلمة تكلم بها (أبشري يا عائشة أما إن الله قد برأك) فقالت أمي قومي إليه فاحمديه ، فقلت : لا أحمد إلا الله ، فأنزل الله تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُا بِالإِفْكِ** ﴾ الآيات وبعد نزولها خرج عليه السلام وخطبهم وتلاها عليهم ، وأمر بجلد أصحاب

الإفك ثمانين جلدة[١] ﴿ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ العصبة والعصابة جماعة من العشرة إلى الأربعين ، والمراد هنا عبد الله بن أبيّ وزيد بن رفاعة ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم ﴿ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ ﴾ الخطاب لرسول الله وأبي بكر وعائشة وصفوان ولمن ساءه ذلك من المؤمنين تسلية لهم من أول الأمر ، والضمير للإفك ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لاكتسابكم الثواب العظيم لأنه بلاء مبين ومحنة ظاهرة ﴿ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ ﴾ أي من أولئك العصبة ﴿ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ ﴾ بقدر ما خاض فيه ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ ﴾ أي تحمل معظم الإفك ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من العصبة وهو ابن سلوك ، فإنه بدأ به وأذاعه بين الناس ، عداوة لرسول الله كما سبق ﴿ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي لعبد الله نوع من العذاب العظيم ، لأنه معظم الشر كان منه فحصل له من العقاب مثل ما حصل لكل من قال ذلك ، لقوله عليه السلام (من سن سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)[٢] ﴿ لَوْلاَ ﴾ تحضيضية بمعنى « هَلاَّ » ومعناها إذا دخلت على الماضي : التوبيخُ واللومُ على ترك الفعل ، وإذا دخلت على المضارع فمعناها الحض على الفعل والطلب له ، فهي في المضارع بمعنى الأمر ﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ أيها الشارعون في القول الباطل ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ فإن مقتضى الإيمان الظن بالمؤمن خيراً ، وذب الطاعنين فيه ، والمراد (بأنفسهم) أبناء جنسهم ، فإن المؤمنين كنفس واحدة ﴿ وَقَالُوا ﴾ في ذلك الآن ﴿ هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴾ أي ظاهر مكشوف كونه إفكاً ، فكيف بالصدِّيقة بنت الصديق أم المؤمنين حرم رسول الله ؟ ﴿ لَوْلاَ جَاؤُا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ أي هلا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ ﴾ الأربعة ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ المفسدون ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ في حكمه وشرعه ﴿ هُمُ الْكَاذِبُوْنَ ﴾ الكاملون في الكذب المستحقون لإطلاق الاسم عليهم دون غيرهم ﴿ وَلَوْلاَ ﴾ امتناعية ﴿ فَضْلُ اللهِ عَلَيكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ خطاب للسامعين والمسلمين جميعاً ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ من فنون النعم التي من جملتها الإمهال بالتوبة ﴿ وَالآخِرَةِ ﴾ التي من جملتها العفو والمغفرة ﴿ لَمَسَّكُمْ ﴾ عاجلاً ﴿ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ أي بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يستحقر دونه التوبيخ والجلد ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ ﴾ بحذف إحدى التاءين أي لمسكم العذاب وقت تلقيكم إياه من المخترعين ﴿ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ يأخذه بعضكم من بعض ، وذلك أن الرجل منهم يلقى الرجل فيقول له : ما وراءك ؟ فيحدثه بحديث الإفك حتى شاع وانتشر ، فلم يبق بيت ولا دار إلاّ طار فيه ، يقال : تلقّى الكلام من فلان وتلقّفه : إذا أخذه من لفظه وفمه ﴿ وَتَقُوْلُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي وتقولون قولاً مختصاً بالأفواه ، من غير أن يكون له مصداق ومنشأ في القلوب

---

(١) القصة مذكورة في كتب الصحاح ، وقد رُوي الحديث بكماله في البخاري ومسلم من حديث الزهري عن عائشة .

(٢) جزء من حديث أوله (من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها ...) أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وأحمد ، الفتح الكبير ٣ / ٢٠٠ .

﴿ وَتَحْسَبُوْنَهُ هَيِّنًا ﴾ سهلاً ليس له كثير عقوبة ﴿ وَهُوَ عِنْدَ اللهِ ﴾ والحال أنه عنده تعالى ﴿ عَظِيمٌ ﴾ في الوزر واستجرار العذاب ، وفي كلام بعضهم : لا تقولن لشيء من سيئاتك نقير ، فلعله عند الله نخلة ، وهو عندك نقير .

﴿ وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوْهُ ﴾ من المخترعين والتابعين لهم ﴿ قُلْتُمْ ﴾ تكذيباً لهم وتهويلاً لما ارتكبوه ﴿ مَا يَكُوْنُ لَنَا ﴾ ما يمكننا ﴿ أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ القول وما يصدر عنا ذلك بوجه من الوجوه وحاصله نفي وجود التكلم به ، لا نفي وجوده على وجه الصحة والاستقامة ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ تعجب ممن تفوه به ﴿ هَذَا ﴾ الإفك الذي لا يصح لأحد أن يتكلم به ﴿ بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ أي كذب عظيم عند الله ﴿ يَعِظُكُمُ اللهُ ﴾ أي ينصحكم أيها الخائضون في أمر عائشة ﴿ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ ﴾ كراهة أن تعودوا لمثل هذا الخوض والقول ﴿ أَبَداً ﴾ أي مدة حياتكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ بالله وبرسوله وباليوم الآخر ، فإن الإيمان يمنع عنه ﴿ وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب دلالة واضحة لتتعظوا وتتأدبوا بها ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في جميع تدابيره وأفعاله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ﴾ هم ابن أبيّ ومن تبعه في حديث الإفك ﴿ يُحِبُّونَ ﴾ يريدون ﴿ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾ تنتشر وتظهر ، والفاحشةُ : ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ﴿ فِي الَّذِينَ آمَنُوْا ﴾ أخلصوا الإيمان ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ نوع من العذاب متفاقٌ ألمه ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ كالحد ونحوه ﴿ وَالآخِرَةِ ﴾ كالنار وما يلحق بها ، وفي الإرشاد : يحبون شيوعها ويتصدون مع ذلك لإشاعتها ، وإنما لم يصرح به اكتفاء بذكر المحبة فإنها مستتبعة له لا محالة ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ ﴾ جميع الأمور ومنها حب الإشاعة ﴿ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُوْنَ ﴾ فابنوا الأمر على الظواهر ، والله يتولى السرائر ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيكُمْ وَرَحْمَتُهُ وأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ جواب لولا محذوف أي لولا فضله وإنعامه عليكم وأنه بليغ الرأفة والرحمة بكم ، لعاجلكم بالعقاب على ما صدر منكم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا لاَ تَتَّبِعُوْا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ جمع خُطْوة بضم الخاء وهي ما بين القدمين ، ثم استعمل في الاقتداء والمعنى لا تسلكوا الطرق التي يدعوكم إليها الشيطان ، ويزينها لأعينكم ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ فقد ارتكب الفحشاء والمنكر ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ أي الشيطان ﴿ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ علة للجزاء وضعت موضعه ، والفحشاء والفاحشة ما عظم قبحه عرفاً وعقلاً ، والمنكر ما ينكره الشرع ، وقال أبو الليث : المنكر مالا يعرف في شريعة ولا سنة ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بهذه البيانات والتوفيق للتوبة وشرع الحدود المكفرة لها ﴿ مَا زَكَى ﴾ ما طهر من دنس الذنوب ﴿ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ من الأولى بيانية والثانية زائدة ﴿ أَبَداً ﴾ آخر الدهر ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي ﴾ يطهر ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ من عباده بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه ، وحمله على التوبة ثم قبولها منه كما فعل بكم ﴿ وَاللهُ

﴿ سَمِيعٌ ﴾ مبالغ في سمع الأقوال التي من جملتها حديث الإفك ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بجميع المعلومات التي من جملتها نياتهم ﴿ وَلاَ يَأْتَلِ ﴾ من الألِيَّة بمعنى اليمين أي لا يحلف ، نزل في شأن الصديق رضي الله عنه حين حلف أن يقطع نفقته عن مسطح ابن خالته ، لخوضه في عائشة رضي الله عنها ، وكان فقيراً بدرياً مهاجراً ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه ﴿ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ ﴾ ذوو الفضل في الدين ﴿ وَالسَّعَةِ ﴾ في المال ﴿ أَنْ يُؤْتُوا ﴾ أي على أن لا يؤتوا شيئاً ولا يحسنوا إلى ﴿ أولي القُرْبَى ﴾ ذوي القرابة ﴿ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي ناساً جامعين لها ﴿ وَلْيَعْفُوا ﴾ عن ذنبهم ﴿ وَلْيَصْفَحُوا ﴾ أي ليعرضوا عن لومهم ﴿ أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ﴾ أي بمقابلة عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم ﴿ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على المؤاخذة ، وكثرة ذنوب العباد الداعية إليها * وفيه ترغيب عظيم في العفو ووعد كريم بمقابلته ، يُروى أنه عليه السلام قرأ هذه الآية على أبي بكر رضي الله عنه ، فقال : بلى أحب أن يغفر الله لي فردَّ إلى مسطح نفقته وكفَّر عن يمينه ، وقال : واللهِ لا أنزعها أبداً ، وروي أنه أضعف له النفقة التي كان يعطيه إياها قبل القذف ، عن أنس رضي الله عنه قال : (بينما رسول الله ﷺ جالس إذ ضحك حتى بدت نواجذه ، فقال عمر رضي الله عنه بأبي أنت وأمي ما الذي أضحكك ؟ قال : رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة ، فقال أحدهما خذ لي مظلمتي من هذا ، فقال الله تعالى ردَّ على أخيك مظلمته ، قال فاغرورقت عينا رسول الله بالبكاء فقال : إن ذلك ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم أوزارهم قال : فيقول الله تعالى للمتكلم : ارفع بصرك فانظر في الجنان ، فقال يارب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب ، مكللة باللؤلؤ ، لأي نبي هذا أو لأي صدِّيق ، أو لأي شهيد ؟ قال الله تعالى لمن أعطى الثمن ، قال يارب ومن يملك ذلك ؟ قال الله تعالى أنت تملكه ، قال بماذا يارب ؟ قال الله تعالى بعفوك عن أخيك قال يارب قد عفوت عنه ، قال الله تعالى خذ بيد أخيك فأدخله الجنة)[1] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ﴾ العفائف مما رمين من الفاحشة والزنى ﴿ الغَافِلاَتِ ﴾ لم يخطر ببالهن شيء منها ﴿ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي المتصفات بالإيمان إيماناً حقيقياً تفصيلياً والمرادُ بها عائشة الصديقة رضي الله عنها والجمع باعتبار أن رميها رمي لسائر أمهات المومنين ، لاشتراك الكل في العصمة والنزاهة ، والانتساب إلى رسول الله عليه السلام ﴿ لُعِنُوا ﴾ بما قالوا في حقهن وهتكوا حرمتهن ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة أبداً ، وأصل اللعنة الطرد ﴿ وَلَهُمْ ﴾ مع ما ذكر من اللعن الأبدي ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لعظم ذنوبهم ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ ﴾ الشهادة قول صادر عن علم ، حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ تقديمه على الفاعل للمسارعة إلى بيان كون الشهادة ضارة لهم ﴿ أَلْسِنَتُهُمْ ﴾ بغير

(١) الحديث أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، وانظر المتجر الرابح للدمياطي ص ٥٧٠ .

اختيار منهم ، وهذا قبل أن يختم على أفواههم ، فلا تعارض بينه وبين قوله تعالى (**اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْوَاهِهِمْ**) ﴿ **وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ فتخبر كل جارحة بما صدر من أفاعيل صاحبها ﴿ **يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ** ﴾ أي يوم تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة ، يعطيهم الله جزاءهم الثابت الواجب الذي هم أهله وافياً كاملاً ﴿ **وَيَعْلَمُونَ** ﴾ عند معاينتهم الأهوال والخطوب ﴿ **أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ** ﴾ أي الظاهر حقيته وأن ما قال الله هو الحق ، وفي الآية أمور : منها بيان جواز اللعنة على من كان من أهلها ومنها شهادة الأعضاء وذلك بإنطاق الله تعالى ، فكما تشهد على المذنبين بذنوبهم ، تشهد للمطيعين بطاعتهم ومنها أن المجازاة بقدر الاستحقاق ﴿ **الخَبِيثَاتُ** ﴾ من النساء أي الزواني ﴿ **لِلْخَبِيثِينَ** ﴾ من الرجال الزناة ، أي مختصات بهم لا يكدن يتجاوزنهم إلى غيرهم، لأن الله مَلَكاً يجمع الأشكال بعضاً إلى بعض ﴿ **وَالخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ** ﴾ لأن المجانسة من دواعي التزاوج ﴿ **والطَّيِبَاتُ** ﴾ منهن أي العفائف ﴿ **لِلطَّيِّبِينَ** ﴾ منهم أي العفيفين ﴿ **وَالطَّيِّبُونَ** ﴾ أيضاً ﴿ **لِلطَّيِبَاتِ** ﴾ منهن بحيث لا يكادون يجاوزونهن إلى من عداهن ، وحيث كان رسول الله عليه السلام أطيب الأطيبين ، وخيرة الأولين والآخرين ، تبين كون الصدّيقة من أطيب الطيبات بالضرورة ﴿ **أُوْلَئِكَ** ﴾ الموصوفون بعلو الشأن يعني أهل البيت ﴿ **مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُوْلُوْنَ** ﴾ أي مما يقوله أهل الإفك في حقهم ، من الأكاذيب الباطلة في جميع الأعصار والأطوار إلى يوم القيامة ﴿ **لَهُمْ مَغْفِرَةٌ** ﴾ عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الذنب ﴿ **وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ في الجنة أي كثير ويقال حسن ، وقد وقع أن الحسن بن زياد من أهل طبرستان وكان من العظماء ، وكان يلبس الصوف ويأمر بالمعروف ، وكان يرسل في كل سنة إلى بغداد عشرين ألف دينار تفرق على أولاد الصحابة ، فحصل عنده رجل من أشياع العلويين فذكر عائشة رضي الله عنها بالقبيح ، فقال الحسن لغلامه : يا غلام اضرب عنق هذا ، فنهض إليه العلويون وقالوا : هذا رجل من شيعتنا ، فقال : معاذ الله هذا طعن على رسول الله ، فإن كانت عائشة خبيثة كان زوجها أيضاً كذلك ، وحاشاه ﷺ من ذلك ، بل هو الطيب الطاهر ، وهي الطيبة الطاهرة المبرأة من السماء ، يا غلام اضرب عنق هذا الكافر فضرب عنقه ، وكان مسروق إذا روى عن عائشة رضي الله عنها يقول حدثتني الصديقة بنت الصديق ، حبيبة رسول الله المبرأة من السماء ، وجاء أن ابن عباس رضي الله عنهما دخل على عائشة في موتها فوجدها وَجِلَةً من القدوم على الله ، فقال لها لا تخافي فإنك لا تقدمين إلا على مغفرة ورزق كريم ، فغشي عليها من الفرح ، وكانت تقول أعطيت خصالاً ما أعطيتهن امرأة : لقد نزل جبريل بصورتي في راحته ، حتى أمر رسول الله أن يتزوجني ، ولقد تزوجني بكراً وما تزوج بكراً غيري ، ولقد توفي وإن رأسه لفي حجري ، ولقد قبر في بيتي ، وكان الوحي ينزل عليه في أهله فيتفرقون منه ، وإنه كان لينزل عليه وأنا معه في لحاف واحد ، ولقد نزلت براءتي من السماء ،

ولقد خلقت طيبة عند طيب ، ولقد وُعدتْ مغفرة ورزقاً كريماً ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا ﴾ روي عن عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار قال جاءت امرأة إلى رسول الله عليه السلام فقالت يا رسول الله إني أكون في بيتي على الحالة التي لا أُحب أن يراني عليها أحد ، فيأتي الآتي فيدخل فكيف أصنع ؟ فنزلت هذه الآية[1] ﴿ لاَ تَدْخُلُوا بُيُوْتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ التي هي سكنى كل أحد منكم ﴿ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوْا ﴾ أي تستأذنوا ممن يملك الإذن من أصحابها ، فالدخول بالإذن من الآداب الجميلة ، والأفعال المرضية المستتبعة لسعادة الدارين ﴿ وَتُسَلِّمُوْا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ عند الاستئذان بأن يقول السلام عليكم أأدخل ؟ ثلاث مرات ، فإن أذن له دخل وسلم ثانياً وإلا رجع ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الاستئذان مع التسليم ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من أن تدخلوا بغتة ، ولو على الأم فإنها تحتمل أن تكون عريانة ، وفيه إرشاد إلى ترك تحية أهل الجاهلية حين الدخول ، فإن الرجل منهم كان إذا دخل بيتاً غريباً صباحاً ، قال « حييتم صباحاً » وإذا دخل مساء قال « حييتم مساء » ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ ﴾ أي وتتعظوا وتعملوا بموجبه ، اعلم أن السلام من سنة المسلمين ، وهو تحية أهل الجنة ، ومجلبة للمودة ونافٍ للحقد والضغينة ، روي عنه عليه السلام أنه قال : (لما خلق الله تعالى آدم ونفخ فيه الروح عطس ، فقال : الحمد لله ، فقال الله تعالى يرحمك ربك يا آدم ، اذهب إلى هؤلاء الملائكة وملأ منهم جلوس ، فقل : السلام عليكم ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك)[2] وروي عنه عليه السلام أنه قال : (حق المسلم على المسلم ست : يسلم عليه إذا لقيه، ويجيبه إذا دعاه ، وينصح له بالغيب ، ويشمّته إذا عطس ، ويعوده إذا مرض ، ويشهد جنازته إذا مات)[3] ثم إنه إذا عرض أمر في دار من حريق ، أو هجوم سارق ، أو قتل نفس بغير حق ، أو ظهور منكر يجب إزالته ، فحينئذ لا يجب الاستئذان والتسليم ، فإن كل ذلك مستثنى بالدليل ، وهو ما قاله الفقهاء من أن الضرورات تبيح المحظورات ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوْا فِيهَا ﴾ أي في تلك البيوت ﴿ أَحَداً ﴾ أي ممن يملك الإذن أو لم تجدوا أحداً أصلاً ﴿ فَلاَ تَدْخُلُوْهَا ﴾ فاصبروا ﴿ حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ أي من جهة من يملك الإذن ، فإن التصرف في ملك الغير محظور مطلقاً ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوْا ﴾ انصرفوا ﴿ فَارْجِعُوْا ﴾ ولا تقفوا على أبواب الناس أي إن أُمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع ، فارجعوا ولا تُلحُّوا بتكرير الاستئذان ، فإن ذلك مما يجلب الكراهة في قلوب الناس ، ويقدح في المروءة ﴿ هُوَ ﴾ أي الرجوع ﴿ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أي أطهر من دنس الدناءة والرزالة ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرون مما كلفتموه فيجازيكم عليه ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾أي إثم ﴿ أَنْ تَدْخُلُوْا ﴾ أي بغير

---

(١) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم ، وانظر مختصر ابن كثير ٢ / ٥٩٧ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي والحاكم ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٣٣ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الأدب بنحوه ومسلم ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٧٤ .

استئذان ﴿ **بُيُوْتاً غَيْرَ مَسْكُوْنَةٍ** ﴾ أي غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة فقط ، بل لينتفع بها من يضطر إليها كالرُّبُط ، والخانات والحوانيت والحمامات ونحوها ، فإنها معدة لمصالح الناس كافة ﴿ **فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ** ﴾ أي حق تمتع لكم وانتفاع ، كالاستكنان من الحر والبرد ، وإيواء الأمتعة والرحال ، والشراء والبيع ، والاغتسال وغير ذلك مما يليق بحال البيوت ، فلا بأس بدخولها بغير استئذان ﴿ **وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُوْنَ** ﴾ تظهرون ﴿ **وَمَا تَكْتُمونَ** ﴾ تسترون ، وعيدٌ لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل لفساد ، أو اطلاع على عورات ، ذكر أن عمر رضي الله عنه كان يعسُّ ليلةً مع ابن مسعود ، فاطَّلع من خلل باب فإذا شيخ بين يديه شراب وقينة تُغنِّيه ، فتسوَّر عليه الدار فقال عمر رضي الله عنه : ما صح لشيخ مثلك أن يكون على مثل هذه الحالة ؟ فقام إليه الرجل فقال يا أمير المؤمنين : أنشدك بالله إلاَّ ما أنصفتني حتى أتكلم ، قال قل : قال إن كنتُ عصيتُ الله في واحدة فقد عصيت أنت في ثلاث : قال ما هنَّ ؟ قال تجسست وقد نهاك الله فقال (**ولا تَجَسَّسُوا**) وتسوَّرتَ وقد قال الله (**وائْتُوا البيوتَ من أبوابها**) ودخلت بغير إذن وقد قال الله (**لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتُسَلِّموا على أهلها**) فقال عمر : صدقت ، فهل أنت غافر لي ، فقال غفر الله لك ، وتاب الرجل فخرج عمر يبكي ويقول : ويلٌ لعمر إن لم يغفر الله له ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد ﴿ **لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي قل لهم غضوا ﴿ **يَغُضُّوْا مِنْ أَبْصَارِهِمْ** ﴾ عما يحرم ، والغضُّ : إطباق الجفن بحيث يمنع الرؤية ﴿ **وَيَحْفَظُوْا فُرُوْجَهُمْ** ﴾ عن لا يحل ، أو يستروها حتى لا تظهر ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي ما ذكر من الغض والحفظ ﴿ **أَزْكَى لَهُمْ** ﴾ أي أطهر لهم من دنس الريبة ﴿ **إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُوْنَ** ﴾ لا يخفى عليه شيء ، فليكونوا على حذر منه في كل حركة وسكون ، رُوي عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال : إياكم والنظرة ، فإنها تزرع في القلب الشهوة وفي الحديث (اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمنْ لكم الجنة ، اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم)[1] ﴿ **وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ** ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه من الرجل ، وهي العورة عند أبي حنيفة وأحمد ، والأصح من مذهب الشافعي أنها لا تنظر إليه كما لا ينظر هو إليها ﴿ **وَيَحْفَظْنَ فُرُوْجَهُنَّ** ﴾ بالتصون عن الزنى أو بالتستر ، ولا خلاف بين الأئمة في وجوب ستر العورة ، واختلفوا في العورة ما هي ؟ فقال أبو حنيفة عورة الرجل ما تحت سرته إلى تحت ركبته ، وجميع الحرة عورة إلا وجهها وكفيها ، والصحيح عنده أن قدميها عورة خارج الصلاة ، لا في الصلاة ، وقال مالك : عورة الرجل فرجاه وفخذاه والحرة كلها عورة إلا وجهها ويديها وقال الشافعي وأحمد : عورة الرجل ما بين السرة والركبة ، وليست الركبة من العورة والحرة كلها عورة ، وتقديم الغض لأن النظر بريدُ الزنى ورائد الفساد ، ويعنى

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند والحاكم وابن حبان ، وانظر الفتح الكبير ١ / ١٩١ .

أن الله تعالى قرن النهي عن النظر إلى المحارم بذكرِ حفظ الفرج ، تنبيهاً على عظم خطر النظر ، فإنه يدعو إلى الإقدم على الفعل ، وفي الحديث (النظرة سهم من سهام إبليس)[1] قيل : من أرسل طرفه اقتنص حتفه ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ فضلاً عن إبداء مواقعها ﴿ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ الزينة : ما تزينت به المرأة من حلي أو كحل أو ثوب أو صبغ ، فما كان منها ظاهراً كالخاتم والكحل والصبغ ، فلا بأس بإبدائه للأجانب ، بشرط الأمن من الشهوة ، وما خفي منها كالسِّوار والوشاح والقرط ، فلا يحل لها ابداؤها الا للمذكورات فيما بعد ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ الخُمُرُ : جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها ويسترها ، وما ليس بهذه الصفة فليس بخمار ، والجيوبُ : جمعُ جيب وهو قطع لإدخال الرأس ، والمعنى وليلقين مقانعهن على جيوبهن ليسترن بذلك شعورهن وقروطهن وأعناقهن عن الأجانب وفيه دليل على أن صدر المرأة ونحرها عورة ، لا يجوز للأجنبي النظر إليها ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ أي الزينة الخفية كالسوار والدملج والوشاح والقرط ونحوها ، وقال أبو الليث : لا يظهرن مواضع زينتهن وهو الصدر ، والساق ، والرأس ، لأن الصدر موضع الوشاح ، والساق موضع الخلخال ، والساعد موضع السوار ، والرأس موضع الإكليل ، فقد ذكر الزينة وأراد بها موضع الزينة ﴿ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ البعل : هو الذكر من الزوجين وجمعه بعولة موضع كفحل وفحولة ، أي إلا لأزواجهن فإنهم المقصودون بالزينة ، ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهم حتى الموضع المعهود ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ ﴾ والجد في حكم الأب ﴿ أَوْ آبَاءِ بُعُوْلَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُوْلَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بني إِخْوَانِهِنَّ أو بَني أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ والعلة كثرة المخالطة الضرورية بينهم وبينهن ، وقلة توقع الفتنة من قبلهم ، لما في طباع الفريقين من النفرة عن مماسة القرائب ، ولهم أن ينظروا منهن إلى ما يبدو عنه الخدمة فيجوز لجميع المذكورين عند الشافعي النظر إلى الزينة الباطنة ، سوى ما بين السرة والركبة ، إلا الزوج فيباح له ما بينهما ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ المختصات بهن بالصحبة والخدمة من حرائر المؤمنات ، فإن الكوافر لايتأثمن عن وصفهن للرجال ، فالمراد بنسائهن نساء أهل دينهن ، وهذا قول أكثر السلف ، قال الإمام : قول السلف محمول على الاستحباب ، والمذهب أن المراد بقوله (أو نسائهن) جميع النساء ، يقول الفقير : أكثر التفاسير المعتبرة مشحون بقول السلف فإنهم جعلوا المرأة اليهودية والنصرانية والمجوسية والوثنية في حكم الرجل الأجنبي ، فمنعوا المسلمة من كشف بدنها عندهن والظاهر أن العلة في المنع شيئان : عدم المجانسة ديناً ، فإن الإيمان والكفر فرَّق بينهما ، والأمر الثاني : عدم الأمن من الوصف المذكور ، فلزم اجتناب العفيفة عن الفاسقة وصحبتها ، والتجرد عندها ، وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة ، أن يمنع الكتابيات من دخول الحمامات مع المسلمات ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ أي من الإماء ، فإن عبد المرأة

(١) أخرجه الطبراني بلفظ (إن النظر سهمٌ من سهام إبليس مسمومٌ ، من تَرَكه مخافتي أبدلتُه إيماناً يجدُ حلاوتَه في قلبه) وانظر مختصر ابن كثير ٢ / ٥٩٨ .

بمنزلة الأجنبي منها ، خصياً كان أو فحلاً ، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله وعليه عامة العلماء ، فلا يجوز لها الحج ولا السفر معه ، وإن جاز رؤيته إياها ، إذا وجد الأمن من الشهوة ﴿ **أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ** ﴾ الإربةُ : الحاجة أي الرجال الذين هم أتباع أهل البيت ، لا حاجة لهم في النساء وهم الشيوخ المسنون ، والممسوخون وهم الذين حولت قوتهم وأعضاؤهم عن سلامتها الأصلية ويقال للممسوخ المخنث ، وهو الذي في أعضائه لين ، وفي لسانه تكسر بأصل الخلقة فلا يشتهي النساء ، وفي المجبوب والخصي خلاف ، والمجبوب من قطع ذكره وخصيتاه معاً ، والخصي من قطع خصيتاه ، والمختار أن الخصي والمجبوب والعنين في حرمة النظر كغيرهم من الفحولة لأنهم يشتهون وإن لم تساعد لهم الآلة ﴿ **أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوْا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ** ﴾ لعدم تمييزهم أو لعدم بلوغهم حد الشهوة والطفل جنس وضع موضع الجمع اكتفاء بدلالة الوصف كالعدو في قوله تعالى (**فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي**) قال في المفردات الطفل الولد ما دام ناعماً والطفيلي رجل معروف بحضور الدعوات ، والعورةُ : سوءة الإنسان وسُمِّيت عورة لقبح ظهورها ، ولغض الأبصار عنها ، مأخوذة من العور وهو النقص والعيب والقبح ومنه عور العين ﴿ **وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ** ﴾ أي يخفينه من الرؤية ﴿ **مِنْ زِينَتِهِنَّ** ﴾ أي لا يضربن بأرجلهن الأرض ليتقعقع خلخالهن فيعلم أنهن ذوات خلخال ، فإن ذلك مما يورث الرجال ميلاً إليهن ، ويوهم أن لهن ميلاً إليهم ، وإذا كان إسماع صوت خلخالها للأجانب حراماً ، كان رفع صوتها بحيث يسمع الأجانب كلامها حراماً بطريق الأولى ، لأن صوت نفسها أقرب إلى الفتنة من صوت خلخالها ، ولذلك كرهوا أذان النساء لأنه يحتاج فيه إلى رفع الصوت ﴿ **وَتُوْبُوْا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُوْنَ** ﴾ إذ لا يكاد يخلو أحدكم من تفريط في أمره ونهيه ، سيما في الكف عن الشهوات ، وفي هذه الآية دليل على أن الذنب لا يخرج العبد من الإيمان لأنه قال (**أيها المؤمنون**) بعدما أمر بالتوبة التي تتعلق بالذنب ﴿ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ** ﴾ تفوزون بسعادة الدارين ، وصَّى الله تعالى جميع المؤمنين بالتوبة والاستغفار ، لأن العبد الضعيف لا ينفك عن تقصير يقع منه ، وإن اجتهد في رعاية تكاليف الله تعالى .

﴿ **وَأَنْكِحُوْا الأَيَامَى مِنْكُمْ** ﴾ جمع أيّم كيتامى جمع يتيم ، والأيِّمُ : من لا زوج له من الرجال والنساء بكراً كان أو ثيباً ، والمعنى زوجوا أيها الأولياء والسادات من لا زوج له من أحرار قومكم وحرائر عشيرتكم ، فإن النكاح سبب لبقاء النوع ، وحافظ من السفاح ﴿ **وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ** ﴾ أي الخيّرين أو المؤمنين ، فإن من لا صلاح له الأرقاء بمعزل من أن يكون خليقاً بأن يعتني مولاه بشأنه ، ويُشفق عليه يقول الفقير قد أطلق في هذه الآية الكريمة العبد والأمة على الغلام والجارية ، وقد

قال عليه السلام (لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي ، كلكم عبيد الله ، وكل نسائكم إماء الله ، ولكن ليقل : غلامي وجاريتي ، وفتاي وفتاتي)[١] والجواب أن ذلك إنما يكره إذا قاله على طريق التطاول على الرقيق والتحقير لشأنه ، فسقط التعارض والحمد لله تعالى ﴿ **إِنْ يَكُوْنُوْا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ** ﴾ أي لا يمنعنَّ فقر الخاطب والمخطوبة من المناكحة ، فإن في فضل الله غنية عن المال ، فإنه غاد ورائح والله يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب ﴿ **وَاللهُ وَاسِعٌ** ﴾ غني ذو سعة لا تنفد نعمته ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ يبسط الرزق لمن يشاء ، ويقدر على ما تقتضيه حكمته ، اتفق الأئمة على أن النكاح سنة لقوله عليه السلام (من أحب فطرتي فليستنّ بسنتي ، ومن سنتي النكاح)[٢] وقوله عليه السلام (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغضُّ للبصر ، وأحصنُ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[٣] فإن كان تائقاً شديد الاشتياق إلى الوطىء ، يخاف الزنى وجب عليه عند أبي حنيفة وأحمد .

﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفْ** ﴾ إرشاد للعاجزين عن مبادىء النكاح ، وأسبابه إلى ما هو أولى لهم وأحرى بهم ، والاستعفاف طلب العفة ، والمعنى : ليجتهد في العفة وقمع الشهوة ﴿ **الَّذِينَ لاَ يَجِدُوْنَ نِكَاحاً** ﴾ أي أسباب نكاح من مهر ونفقة وذلك بالصوم كما قال عليه السلام (ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) معناه أن الصوم يضعف شهوته ويقهرها عن طلب الجماع ، فيحصل بذلك صيانة الفرج وعفته ﴿ **حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ** ﴾ فيجدوا ما يتزوجون به ﴿ **وَالَّذِينَ يَبْتَغُوْنَ الكِتَابَ** ﴾ أي الذين يطلبون المكاتبة﴿ **مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾ عبداً كان أو أمة ، وهي أن يقول المولى لمملوكه كاتبتك على كذا وكذا درهماً تؤديه إليّ وتعتق ، ويقول المملوك قبلته ، فإن أداه إليه عتق روي أن صبيحاً مولى حويطب بن عبد العزى سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه فنزلت الآية ﴿ **فَكَاتِبُوْهُمْ** ﴾ أي فأعطوهم ما يطلبون من الكتابة ، والأمر فيه للندب ﴿ **إِنْ عَلِمتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا** ﴾ أي أمانة ورشداً وقدرة على أداء البدل ﴿ **وَآتُوْهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ** ﴾ أمر للمولى السيد ، أمر ندب بأن يدفعوا إلى المكاتبين شيئاً مما أخذوا منهم ، وفي معناه حط شيء من مال الكتابة وفي الحديث (ثلاثة حق على الله عونهم : المكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف ، والمجاهد في سبيل الله)[٤] ﴿ **وَلاَ تُكْرِهُوْا**

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود ، بألفاظ متعددة ومتقاربة ، وهذه رواية مسلم ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٦٠ .

(٢) الحديث أخرجه البيهقي في السنن ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٤٩ .

(٣) الحديث أخرجه الشيخان البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٤٢٦ .

(٤) الحديث أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد ، والنسائي في النكاح وإسناده حسن ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٥٦٢ .

﴿ فَتَيَاتِكُمْ ﴾ أي إماءكم فإن كُلاً من الفتى والفتاة كناية مشهورة عن العبد والأمة ﴿ عَلَى البِغَاءِ ﴾ وهو الزنى يقال بغت المرأة بغاء إذا فجرت ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنَاً ﴾ تعففاً أي جعلن أنفسهن في عفة كالحصن وكان لعبد الله بن أبيّ ست جوار يكرههن على الزنى ، وضرب عليهن ضرائب فشكت اثنتان إلى رسول الله وهما معاذة ومسيكة فنزلت ، وفيه من زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا يفعلونه من القبائح ما لا يخفى ، فإن من له أدنى مروءة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه من إمائه فضلاً عن أمرهن أو إكراههن عليه لا سيما عند إرادتهن التعفف ﴿ لِتَبْتَغُوْا عَرَضَ الحَيَوةِ الدُّنْيَا ﴾ العرض ما لا يكون له ثبوت والمعنى لا تفعلوا ما أنتم عليه من إكراههن على البغاء ، لطلب المتاع السريع الزوال ﴿ وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ ﴾ على ما ذكر من البغاء ﴿ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ ﴾ أي كونهن مكرهات ﴿ غَفُوْرٌ رَحِيمٌ ﴾ أي لهن ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إليكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ أي وبالله لقد أنزلنا إليكم آيات مبينات لكل ما بكم حاجة إلى بيانه ، من الحدود وسائر الأحكام والآداب ﴿ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أي وأنزلنا مثلاً كائناً من أمثال الذين مضوا من قبلكم ، من القصص العجيبة والأمثال المضروبة لهم في الكتب السابقة ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ تتعظون بها ، وتنزجرون عما لا ينبغي من المحرمات والمكروهات ، وسائر ما يُخِلُّ بمحاسن الآداب ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وتخصيصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بها ، حكي أنه خرج أسد وذئب وثعلب يتصيدون ، فاصطادوا حمار وحش وغزالاً وأرنباً ، فقال الأسد للذئب : اقسم ، فقال : الحمار الوحشي للملك ، والغزال لي ، والأرنب للثعلب ، فرفع الأسد يده وضرب رأس الذئب ضربة ، فإذا هو متجندل بين يدي الأسد ، ثم قال للثعلب : اقسم هذه بيننا فقال : الحمار يتغدى به الملك ، والغزال يتعشى به ، والأرنب بين ذلك ، فقال الأسد : ويحك ما أقضاك من علّمك هذا القضاء ؟ فقال الذي نزل برأس الذئب ، ويقال الموعظة هي التي تلين القلوب القاسية ، وتسيل العيون اليابسة ﴿ اللهُ نُوْرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ قال الإمام الغزالي : النور هو الظاهر الذي به كل ظهور ، فإن الظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نوراً فهو نور السموات والأرض ، فكما أنه لا ذرة من نور الشمس إلاّ وهي دالة على وجود الشمس النيرة . كذلك لا ذرة من وجود السموات والأرض إلا وهي دالة على وجوب وجود موجدها انتهى ، ويوافقه ما جاء في التأويلات حيث قال (الله نور السموات والأرض) أي مظهرها من العدم إلى الوجود ، فإن معنى النور في اللغة الضياء ، وهو الذي يبين الأشياء ويظهرها للأبصار انتهى ، فالآية من باب التشبيه البليغ أي كالنور بالنسبة إليهما ، من حيث كونه مظهراً لهما أي موجداً ، فإن أصل الظهور هو الظهور من العدم إلى الوجود ، يقول الفقير : لا حاجة إلى اعتبار التشبيه البليغ ، فإن النور من الأسماء الحسنى ، وإطلاقه على الله حقيقي لا مجازي ، فهو بمعنى المنوِّر ههنا ، فإنه تعالى نوَّر الماهيات المعدومة بأنوار الوجود ، وأظهرها من كتم العدم بفيض الجود ، كما قال عليه السلام

(إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رشَّ عليهم من نوره)[1] واعلم أن النور على أربعة أوجه : أولها نور يظهر الأشياء للأبصار كنور الشمس وأمثالها فهو يظهر الأشياء المخفية في الظلمة ، وثانيها نور البصر وهو يظهر الأشياء للأبصار ولكنه لا يراها وهذا النور أشرف من الأول ، وثالثها نور العقل وهو يظهر الأشياء المعقولة المخفية في ظلمة الجهر للبصائر وهو يدركها ويراها ، ورابعها نور الحق تعالى وهو يظهر الأشياء المعدومة المخفية في العدم للأبصار والبصائر من الملك والملكوت وهو يراها في الوجود كما كان يراها في العدم ، فتحقيق قوله تعالى (**اللهُ نُورُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ**) أي مظهرهما ومبديها وموجدهما من العدم بكمال القدرة الأزلية .

ففي كل شيء لـــــه آيـــــة * تـــــدل على أنـــــه واحـــــد

وقال سلطان المفسرين ابن عباس رضي الله عنهما أي هادي أهل السموات والأرض ، فهم بنوره تعالى يهتدون ، وبهداه من حيرة الضلالة ينجون ، لِمَا وصلوا إلى نور الهداية بتوفيقه تعالى ، ويجوز أن يعبر عن النور بالهداية وعن الهداية بالنور ، لما يحصل إحداهما من الآخر قال الله تعالى (**وبالنجم هم يهتدون**) وعلى هذا سُمِّي القرآنُ نوراً ، والتوراة نوراً بمعنى الاهتداء بها ﴿ **مَثَلُ نُوْرِهِ** ﴾ أي نوره الفائض منه تعالى على الأشياء المستنيرة والمراد بالمثل الصفة العجيبة أي صفة نوره ﴿ **كَمِشْكَاةٍ** ﴾ أي صفة كوّة غير نافذة في الجدار ﴿ **فِيهَا مِصْبَاحٌ** ﴾ سراج ضخم ثابت ﴿ **المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ** ﴾ أي قنديل من الزجاج الصافي الأزهر ، وفائدة جعل المصباح في زجاجة والزجاجة في كوة غير نافذة شدة الإضاءة لأن المكان كلما تضايق كان أجمع للضوء ، بخلاف الواسع فالضوء ينتشر فيه ﴿ **الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ** ﴾ متلألىء وقَّاد شبيه بالدُّرِّ في صفائه وزهرته ﴿ **يُوْقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ** ﴾ أي يبتدأ إيقاد المصباح من زيت شجرة ﴿ **مَبَارَكَةٍ** ﴾ أي كثيرة المنافع لأن الزيت يسرج به وهو إدام ﴿ **زَيْتُوْنَةٍ** ﴾ بدل من شجرة وخصها من بين سائر الأشجار لأن دهنها أضوء وأصفى ﴿ **لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ** ﴾ أي لا شرقية تطلع عليها الشمس في وقت شروقها فقط ، ولا غربية تقع عليها حين غروبها فقط ، بل تقع عليها طول النهار ، فتكون ثمرتها أنضج ، وزيتها أصفى ﴿ **يَكَادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ** ﴾ أي هو في الصفاء والإنارة ، بحيث يكاد يضيء المكان بنفسه من غير مساس نار أصلاً ، ﴿ **نُوْرٌ** ﴾ أي ذلك النور الذي مُثّلت صفته العجيبة الشأن نور كائن ﴿ **عَلَى نُوْرٍ** ﴾ أي نور متضاعف ، فإن نور المصباح زاد في إنارته صفاء الزيت ، وزهرة القنديل ، وضبط المشكاة لأشعته ﴿ **يَهْدِي اللهُ لِنُوْرِهِ** ﴾ أي يهدي هداية خاصة موصلة إلى المطلوب ، لذلك النور العظيم الشأن ﴿ **مَنْ يَشَاءُ** ﴾ هدايته من عباده ، بأن يوفقهم

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الإيمان ، وقال : حديث حسن وانظر جامع الأصول ١٠ / ١١٩ .

لفهم ما فيه من دلائل الإعجاز ، وغير ذلك من موجبات الإيمان ﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ أي يبينها تقريباً إلى الأفهام ، وتسهيلاً لسبل الإدراك ﴿ وَاللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ من ضرب الأمثال وغيره من حقائق الجليات والخفيات ﴿ فِي بُيُوْتٍ ﴾ متعلق بالفعل المذكور بعده وهو يسبح ، والمراد بالبيوت المساجد كلها ، لقول ابن عباس : المساجد بيوت الله في الأرض ، تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض ﴿ أَذِنَ اللهُ ﴾ الإذنُ في الشيء الرخصةُ فيه ﴿ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ بالبناء أو التعظيم ورفع القدر ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ وهو عام في كل ذكر ، توحيداً كان أو تلاوة قرآن ، أو مذاكرة علوم شرعية ، أو أذانا أو إقامة أو نحوها ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ التسبيحُ : تنزيه الله ، وجعل عاماً في العبادات وأريد به ههنا الصلوات المفروضة ، كما ينبيءُ عنه تعيين الأوقات بقوله تعالى ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ أي بالغدوات والعشيات ، فالمراد بالغدو وقت صلاة الفجر ، وبالآصال ما عداه من أوقات صلوات الظهر والعصر والعشائين ، لأن الأصيل يجمعها ويشملها ﴿ رِجَالٌ ﴾ فاعل يسبح ﴿ لاَ تُلْهِيهِمْ ﴾ لا تشغلهم من غاية الاستغراق في مقام الشهود ﴿ تِجَارَةٌ ﴾ التاجر الذي يبيع ويشتري أي لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة ﴿ وَلاَ بَيْعٌ ﴾ أي ولا فرد من أفراد البياعات وإن كان في غاية الربح ﴿ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ﴾ بالتسبيح والتمجيد ﴿ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ ﴾ أي إقامتها بمواقيتها من غير تأخير قال ابن الشيخ : إقامة الصلاة إتمامها برعاية جميع ما اعتبره الشرع ، من الأركان والسنن والآداب ، فمن تساهل في شيء منها لايكون مقيماً لها ﴿ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ أي المال الذي فرض إخراجه للمستحقين ﴿ يَخَافُوْنَ ﴾ الخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة ، وضدُّه الأمنِ ﴿ يَوْمَاً ﴾ المراد يوم القيامة ﴿ تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوْبُ والأَبْصَارُ ﴾ التقلب : التصرف والتغير من حال إلى حال ، والمعنى تضطرب وتتغير وتنتقل عن أماكنها ، من الهول والفزع ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ ﴾ أي يفعلون ما يفعلون من المداومة على التسبيح والذكر ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ليجزيهم الله تعالى ﴿ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوْا ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم حسبما وعَدَه لهم ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أشياء لم يعدهم بها على أعمالهم ، ولم تخطر ببالهم ﴿ واللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي يفيض ويعطي من يشاء ثواباً لا يدخل تحت حساب الخلق ، نزلت هذه الآية في أهل الأسواق ، الذين إذا سمعوا النداء بالصلاة ، تركوا كل شغل وبادروا إليها قال الراغب : (لا تلهيهم) الآية ليس ذلك نهياً عن التجارة وكراهية لها ، بل نهى عن التهافت والاشتغال عن الصلوات والعبادات بها انتهى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوْا أَعْمَالُهُمْ ﴾ أي أعمالهم التي هي من أبواب البرّ ، كصلة الأرحام ، وعتق الرقاب ، وعمارة البيت ، وسقاية الحاج ، وإغاثة الملهوفين ونحو ذلك ﴿ كَسَرَابٍ ﴾ هو ما يرى في المفازة من لمعان الشمس عليها نصف النهار فيظن أنه ماء ﴿ بِقِيعَةٍ ﴾ أي كائن في قاع وهي الأرض المنبسطة المستوية ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾ أي يظنه الشديد العطش ماء

حقيقة ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُ ﴾ أي جاء ما توهمه ماء وعلق به رجاءه ليشرب منه ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ أصلاً لا متحققاً ولا متوهماً فيزداد عطشاً ﴿ وَوَجَدَ اللهَ ﴾ أي حكمه وقضاءه ﴿ عِنْدَهُ ﴾ عند المجيء كما قال (إن ربك لبالمرصاد) يعني مصير الخلق إليه ﴿ فَوَفَّيٰهُ حِسَابَهُ ﴾ أي أعطاه وافياً كاملاً حساب عمله ﴿ وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾ لا يشغله حساب عن حساب ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ ﴾ أو للتنويع فإن أعمالهم إن كانت حسنة فكالسراب ، وإن كانت قبيحة فكالظلمات ﴿ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ أي عميق كثير الماء ﴿ يَغْشَيٰهُ مَوْجٌ ﴾ أي يستره ويغطيه بالكلية ﴿ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ أي يغشاه أمواج متراكمة بعضها على بعض ﴿ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ أي من فوق الموج الثاني الأعلى ، سحابٌ غطى النجوم وحجب أنوارها ﴿ ظُلُمَاتٌ ﴾ أي هذه ظلمات ﴿ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ أي متكاثفة متراكمة حتى ﴿ إِذَا أَخْرَجَ ﴾ أي من ابتلي بهذه الظلمات ﴿ يَدَهُ ﴾ وهي أقرب أعضائه المرئية إليه ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ لم يقرب أن يراها لشدة الظلمة ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوْرَاً ﴾ أي ومن لم يشأ الله أن يهديه لنور القرآن ، ولم يوفقه للإيمان به ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ نُوْرٍ ﴾ أي فماله هداية من أحد أصلاً ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ المراد من الرؤية رؤية القلب ، أي قد علمت يا محمد علماً يشبه المشاهدة أن الله تعالى ينزهه على الدوام أهل السموات والأرض ، من العقلاء وغيرهم ﴿ وَالطَّيْرُ ﴾ جمع طائر كركب وراكب ، والطائر كل ذي جناح يسبح في الهواء ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ أي تسبحه تعالى حال كونها باسطات أجنحتها في الهواء ﴿ كُلٌّ ﴾ من أهل السموات والأرض ﴿ قَدْ عَلِمَ ﴾ بإلهام الله تعالى أي عرف ﴿ صَلاَتَهُ ﴾ أي دعاء نفسه ﴿ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ تنزيهه ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي يفعلونه من الطاعة والتسبيح ، فيجازيهم على ذلك ، وفيه وعيد لكفرة الثقلين حيث لا تسبيح لهم طوعاً واختياراً ﴿ وَللهِ ﴾ لا لغيره ﴿ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ لأنه الخالق لهما ولما فيهما ، وهو المتصرف في جميعها إيجاداً وإعداماً ﴿ وَإِلَى اللهِ ﴾ خاصة ﴿ المَصِيرُ ﴾ أي رجوع الكل بالفناء والبعث وهذا التسبيح محمول عند البعض على ما كان بلسان المقال ، فإنه يجوز أن يكون لغير العقلاء أيضاً تسبيح حقيقة لا يعلمه إلا الله (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) وعن أبي ثابت قال : كنت جالساً عند أبي جعفر الباقر فقال لي : أتدري ما تقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها ؟ قلت لا ، قال : فإنهن يقدسن ربهنَّ ، ويسألن قوت يومهنَّ ، وقال بعض العلماء : تسبيح الحيوان والجماد ، محمولٌ على ما كان بلسان الحال ، فإن كل شيء يدل بوجوده على وجود خالقٍ واجب الوجود ، متصف بصفات الكمال ، مقدس عن كل ما يليق بشأنه ، وقال في التأويلات : اعلم أن التسبيح على ثلاثة أوجه : تسبيح العقلاء ، وتسبيح الحيوانات ، وتسبيح الجمادات ، فتسبيح العقلاء بالنطق والمعاملات ، وتسبيح الحيوانات بلسان الحاجات وصورة الدلالات على صانعها ، وتسبيح

الجمادات بالخلق وهو عام في جميعها فإنها مظهر الآيات ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ﴾ الإزجاءُ : سوق الشيء برفق وسهولة لينساق والمعنى قد رأيت رؤية بصرية أن اللهَ يسوق غيماً إلى حيث يريد ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أي بين أجزائه ، بضم بعضها إلى بعض ، فيجعله شيئاً واحداً بعد أن كان قطعاً ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً ﴾ أي متراكماً بعضه فوق بعض ﴿ فَتَرَى الوَدْقَ ﴾ أي المطر إثر تكاثفه وتراكمه ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ يخرج من أثناء ذلك السحاب ، وانعصار بعضه من بعض ، قال كعب : السحاب غربال المطر ، ولولاه لأفسد المطر ما يقع عليه ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي من الغمام فإن كل ما علاك سماء ، وسماءُ كل شيء أعلاه ﴿ مِنْ جِبَالٍ ﴾ أي من قطع عظام تشبه الجبال في العظم ﴿ فِيهَا ﴾ أي في السماء ﴿ مِنْ بَرَدٍ ﴾ البَردُ : ما يبرد من المطر في الهواء فيصلب والمعنى ينزل الله مبتدئاً من السماء من جبال فيها بعض برد ، قال بعضهم : إن الله تعالى خلق جبالاً كثيرة في السماء من البرد والثلج ووكل بها ملكاً ، والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت فبلغت الطبقة الباردة من الهواء ، وقوي البرْدُ صارت سحاباً ، فإن لم يشتد البرد تقاطرت مطراً ، وإن اشتد نزل بَرَداً ، وقد يبرد الهواء بَرْداً مفرطاً فينقبض وينزل منه المطر أو الثلج ، وكل ذلك مستند إلى إرادة الله تعالى ، ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أي بما ينزل من البرد ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فينالـه ما ينالـه من ضرر في نفسه وماله ، نحو الزرع والضرع والثمر ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ﴾ فيأمن غائلته ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ ﴾ أي يقرب ضوء برق السحاب ، والبرق لمعان السحاب ، وفي إخوان الصفاء البرقُ نار تنقدح من احتكاك تلك الأجزاء الدخانية في جوف السحاب ﴿ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ أي يخطفها من فرط الإضاءة وسرعة ورودها فسبحان من يظهر الضد من الضد ﴿ يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ بنقص أحدهما وزيادة الآخر ، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد ، والظلمة والنور وغيرها وفي الحديث قال الله تعالى (يؤذيني ابن آدم يسبُّ الدهرَ ، وأنا الدهرُ بيدي الأمر ، أقلّب الليل والنهار)[1] ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الذي فصّل من الإزجاء إلى التقليب ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ لدلالة واضحة على وجود الصانع ووحدته وكمال قدرته ، وإحاطة علمه بجميع الأشياء ﴿ لأُولِي الأَبْصَارِ ﴾ يقال لقوة القلب المدركة : بصيرة وبصر ، يعني أن من له بصيرة ، يعبر من المذكور إلى معرفة المدبر ، من القدرة التامة ، والعلم الشامل ، الدال قطعاً على الوحدانية ، وسئل سعيد بن المسيب أيُّ العبادة أفضل ؟ قال : التفكرُ في خلقه ، والتفقهُ في دينه ﴿ وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ ﴾ الدابة هنا اسم للحيوان الذي يدب على الأرض ومسكنه هنالك ، فيخرج منها الملائكة والجن ، فإن الملائكة خلقوا من نور ، والجن من نار ، والمعنى خلق كل حيوان يدبُّ على الأرض ﴿ مِنْ مَاءٍ ﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود ومالك في الموطأ ، وفي رواية للبخاري : (يسب بنو آدم الدهر ، وأنا الدهر بيدي الليل والنهار) وانظر جامع الأصول ١٠ / ٧٦٢ .

هو أحد العناصر الأربعة أو من ماء مخصوص ، هو النطفة أي ماء الذكر والأنثى ، وتنكيرُ « ماء » مؤذنٌ أن كل دابة مخلوقة من ماء مختص بها وهو النطفة ، فجميع الحيوان سوى الملائكة والجن مخلوق من نطفة ، وتعريف الماء في قوله (**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**) نظر إلى الجنس الذي خلق منه جميع الحيوان ، لأن أصل جميع الخلق من الماء ﴿ **فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ** ﴾ كالحية والحوت ونحوهما ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ** ﴾ كالإنسان والطير ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ** ﴾ منتكساً وجهه كالنعم والوحش ، وعدم التعرض لما يمشي على أكثر من أربع ، كالعناكب ونحوها من الحشرات لعدم الاعتداد بها لأنها في الصورة كالتي تمشي على أربع ﴿ **يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ مما ذكر على ما شاء من الصور ، والأعضاء والهيئات ﴿ **إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ فيفعل الله ما يشاء كما يشاء ﴿ **لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ** ﴾ أي لكل ما يليق بيانه من الأحكام الدينية ، والأسرار التكوينية ﴿ **وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** ﴾ بالتوفيق للنظر الصحيح فيها ، والإرشاد إلى التأمل في معانيها ﴿ **إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ يعني الإسلام الذي هو دين الله ، وطريقه إلى رضاه وجنته ﴿ **وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ** ﴾ نزلت في بشر المنافق خاصم يهودياً في أرض ، فدعاه إلى كعب بن الأشرف من أحبار اليهود ، ودعاه اليهودي إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فصيغة الجمع للإيذان بأن للقائل طائفة يساعدونه ويتابعونه في تلك المقالة ﴿ **وَأَطَعْنَا** ﴾ أي أطعناهما في الأمر والنهي ﴿ **ثُمَّ يَتَوَلَّى** ﴾ يعرض عن قبول حكمه ﴿ **فَرِيقٌ مِنْهُمْ** ﴾ أي من القائلين والفريق الجماعة المنفردة عن آخرين ﴿ **مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ** ﴾ القول المذكور ﴿ **وَمَا أُولَئِكَ** ﴾ أي وما أولئك الذين يدَّعون الإيمان والإطاعة ﴿ **بِالْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي ليسوا بالمؤمنين المعهودين بالإخلاص في الإيمان ، والثبات عليه ﴿ **وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ** ﴾ أي الرسول ﴿ **بَيْنَهُمْ** ﴾ لأنه المباشر للحكم حقيقة ، وإن كان الحكم حكم الله ﴿ **إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ** ﴾ أي فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه عليه السلام ، لكون الحق عليهم ، وعلمهم بأنه عليه السلام يحكم بالحق ﴿ **وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ أي الحكم لا عليهم ﴿ **يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ** ﴾ منقادين لجزمهم بأنه عليه السلام يحكم لهم ﴿ **أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** ﴾ إنكار واستقباح لإعراضهم المذكور ، أي أذلك الإعراض لأنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم ﴿ **أَمِ ارْتَابُوا** ﴾ أي شكوا في أمر نبوته عليه السلام مع ظهور حقيقتها ﴿ **أَمْ** ﴾ لأنهم ﴿ **يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ** ﴾ في الحكومة ، والحيف الجور إلى أحد الجانبين ، ثم أضرب عن الكل حيث قال ﴿ **بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ أي ليس ذلك لشيء مما ذُكر ، لمعرفتهم أمانته عليه السلام وثباته على الحق ، بل لأنهم هم الظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم فيأبون المحاكمة إليه عليه السلام ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ** ﴾ أي الرسول ﴿ **بَيْنَهُمْ** ﴾ وبين خصومهم ، سواء كانوا منهم أو من غيرهم ﴿ **أَنْ يَقُولُوا**

﴿ سَمِعْنَا ﴾ الدعاء ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ بالإجابة والقبول ﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ ﴾ الفائزون بكل مطلب ، والناجون من كل محذور ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُوْلَهُ ﴾ أي من يطعهما فيما أمرا به ، من الأحكام الشرعيَّة ﴿ وَيَخْشَ اللهَ ﴾ على ما مضى من ذنوبه ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما بقي من عمره ، وأصله يتقيه فحذف الياء للجزم فصار يَتَّقْهِ ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ الموصوفون بالطاعة والخشية ﴿ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ بالنعيم المقيم ، لا من عداهم ، والفوزُ : الظفر مع حصول السلامة ﴿ وَأَقْسَمُوْا بِاللهِ ﴾ أي حلف المنافقون بالله ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ الجَهْد بالفتح الطاقة ، واليمينُ في اللغة القوة ، وفي الشرع تقوية أحد طرفي الخبر بذكر الله ، والمعنى جاهدين بالغين أقصى مراتب اليمين في الشدة والوكادة ﴿ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ ﴾ أي بالخروج إلى الغزو ، فإنهم كانوا يقولون لرسول الله لئن خرجت خرجنا معك ، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا ﴿ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ جواب لأقسموا وحيث كانت مقالتهم هذه كاذبة ويمينهم فاجرة أمر عليه السلام بردها حيث قيل ﴿ قُلْ لاَ تُقْسِمُوْا ﴾ لا تحلفوا بالله على ما تدعون من الطاعة ﴿ طَاعَةٌ مَعْرُوْفَةٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي لأن طاعتكم طاعة نفاقية ، واقعة باللسان فقط من غير مواطأة من القلب ، وإنما عبر عنها بمعروفة للإيذان بأن كونها كذلك مشهور معروف لكل أحد ، وقيل المعنى : طاعةٌ معروفة بالإخلاص وصدق النية ، خير لكم وأمثل من قسمكم باللسان ﴿ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴾ بطاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل ، فيجازيكم ، على ذلك ﴿ قُلْ أَطِيعُوْا اللهَ وَأَطِيعُوْا الرَّسُوْلَ ﴾ في الفرائض والسنن على رجاء الرحمة والقبول ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي تتولوا وتعرضوا عن هذه الطاعة ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ ﴾ أي فاعلموا أنما عليه ﷺ ﴿ مَا حُمِّلَ ﴾ أي ما كُلِّفَ وأُمر به من تبليغ الرسالة .

﴿ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ ما أُمرتم به من الإجابة والطاعة ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوْهُ ﴾ أي فيما أمركم به من الطاعة ﴿ تَهْتَدُوْا ﴾ إلى الحق الذي هو المقصد الأقصى ، الموصل إلى كل خير ، والمنجي من كل شر ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُوْلِ ﴾ محمد ﷺ ﴿ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ التبليغ الموضح لكل ما يحتاج إلى الإيضاح ، وقد فعل فإن أديتم فلكم ، وإن توليتم فعليكم ، يقال : ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث ، لا تقبل واحدة منها بغير قرينتها : **أولاها** قوله تعالى (**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**) فمن صلى ولم يؤد الزكاة لم تقبل منه الصلاة ، **والثانية** قوله تعالى (**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول**) فمن أطاع الله ولم يطع الرسول لم يقبل منه ، **والثالثة** قوله تعالى (**أن اشكر لي ولوالديك**) فمن شكر الله في نعمائه ولم يشكر الوالدين لا يقبل منه ذلك ، فإطاعة الرسول مفتاح باب القبول ، ويرشدك على شرف الإطاعة أن كلب أصحاب الكهف لما تبعهم في طاعة الله سعد وأفلح معهم ، فإذا كان من تبع المطيعين كذلك ، فما

ظنك بالمطيعين ؟ ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوْا مِنْكُمْ وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ ﴾ الخطاب للرسول عليه السلام ولمن معه من المؤمنين ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي ليجعلنهم خلفاء متصرفين في الأرض ، تصرف الملوك في ممالكهم ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي استخلافاً كاستخلاف الذين من قبلهم ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ ﴾ والمعنى ليجعلن دينهم مقرراً ثابتاً بحيث يستمرون على العمل بأحكامه من غير منازع ﴿ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ أي ارتضى لهم من أنواع مراتب دينهم ، فإنهم الناصحون لعباده ، الهادون من يسترشد في الله ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ ﴾ التبديل : جعل الشيء مكان آخر ، ويقال للتغيير وإن لم تأت ببدله ﴿ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ ﴾ من الأعداء ﴿ أَمْنَاً ﴾ منهم ، وكان أصحاب النبي عليه السلام قبل الهجرة خائفين ، وكانوا يصبحون في السلاح ويمسون فيه ، حتى أنجز الله وعده ، فأظهرهم على العرب ، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب ﴿ يَعْبُدُوْنَنِي ﴾ حال من الذين آمنوا لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد ﴿ لاَ يُشْرِكُوْنَ بِي شَيْئاً ﴾ أي يعبدونني غير مشركين بي في العبادة شيأ ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ ومن ارتد ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ الوعد أو اتصف بالكفر بأن ثبت واستمر عليه ، أو كفر هذه النعمة العظيمة ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُوْنَ ﴾ الكاملون في الفسق والطغيان ﴿ وَأَقِيمُوْا الصَّلاَةَ وَآتُوْا الزَّكَاةَ ﴾ أي فآمنوا واعملوا صالحاً ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُوْلَ ﴾ في سائر ما أمركم به ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي افعلوا ما ذكر راجين أن تُرحموا ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ ﴾ يا محمد أو يا من يصلح للخطاب كائناً من كان ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوْا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ العجز ضد القدرة أي معجزين لله عن إهلاكهم في قطر من الأقطار ، وإن هربوا منها كل مهرب ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ فإنهم مُدْرَكون ومأواهم النار ﴿ وَلَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ أي ولبئس المصير والمرجع النار ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا ﴾ روي أن غلاماً لأسماء بنت أبي مرثد ، دخل عليها في وقت كرهته فنزلت ، والخطاب للرجال المؤمنين والنساء المؤمنات جميعاً ﴿ لِيَسْتَأْذِنْكُمُ ﴾ اللام لام الأمر ، والاستئذان طلب الإذن ، والإذن في الشيء إعلام بإجازته والرخصة فيه ﴿ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ من العبيد والجواري ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوْا الحُلُمَ ﴾ أي الصبيان القاصرون عن درجة البلوغ المعهود قال في القاموس : الحُلُم بالضم الجماعُ في النوم ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أي من الأحرار ﴿ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ﴾ أي ليستأذنوا في ثلاثة أوقات في اليوم والليلة ، لأنها ساعات غِرَّة وغفلة ، ثم فسر تلك الأوقات بقوله ﴿ مِنْ قَبْلِ صَلَوٰةِ الفَجْرِ ﴾ لظهور أنه وقت القيام عن المضاجع وطرح ثياب النوم ﴿ وَحِينَ تَضَعُوْنَ ثِيَابَكُمْ ﴾ أي ثيابكم التي تلبسونها لأجل القيلولة ، وهي النوم نصف النهار ﴿ مِنَ الظَّهِيرَةِ ﴾ وهي شدة الحر عند انتصاف النهار ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلاَةِ العِشَاءِ ﴾ الآخرة ضرورة أنه وقت التجرد عن اللباس ، والالتحاف باللحاف ﴿ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ ﴾ أي هنَّ ثلاثة أوقات كائنة ﴿ لَكُمْ ﴾ يختل فيها التستر عادة ، والعورةُ : الخَلَلُ ﴿ لَيْسَ عَلَيكُمْ وَلاَ عَلَيهِمْ ﴾ أي على المماليك والصبيان

﴿ جُنَاحٌ ﴾ إثم في الدخول بغير استئذان لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر ، والاطلاع على العورات ﴿ بَعْدَهُنَّ ﴾ أي بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث ﴿ طَوَّافُوْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ للخدمة طوافاً كثيراً والطواف الدوران حول الشيء ﴿ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي هم يطوفون عليكم للخدمة ، وأنتم تطوفون للاستخدام ، ولو كلفهم الاستئذان في كل مرة لضاق الأمر عليهم ، فلذا رخص لكم في ترك الاستئذان فيما وراء هذه الأوقات ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التبيين ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ الدالة على الأحكام أي ينزلها مبينة ، واضحة الدلالات عليها﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ ﴾ بجميع المعلومات فيعلم أحوالكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في جميع أفاعيله ، فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم ، معاشاً ومعاداً روي عن عكرمة أن رجلين من أهل العراق سألا ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية ، فقال : إن الله ستّير يحب الستر ، وكان الناس لم يكن لهم ستور على أبوابهم فربما فاجأ الرجلَ ولده أو خادمه ويرى منه ما لا يحبه ، فأمرهم الله تعالى أن يستأذنوا الثلاث ساعات التي سماها ، ثم جاء باليسر وبسط الرزق عليهم ، فاتخذوا الستور والحجال ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم عن الاستئذان الذي أُمروا به ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الحُلُمَ ﴾ أي الأطفال الأحرار الأجانب ، فيخرج العبد البالغ ، فإنه لا يستأذن في الدخول على سيدته في غير الأوقات الثلاثة المذكورة ﴿ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ﴾ أي إن أرادوا الدخول عليكم ﴿ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ ﴾ بلغوا الحلم ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أو الذين ذكروا من قبلهم ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ كرره للتأكيد، والمبالغة في الأمر بالاستئذان ، واعلم أن بلوغ الصغير بالإنزال والاحتلام ، وبلوغ الصغيرة بالحبل والحيض ، فإن لم يوجد فيهما شيء من الأصل فيبلغانِ حين يتم لهما خمس عشرة سنة كما هو المشهور، هذا بلوغ الظاهر ، وأما بلوغ الباطن فبالوصول إلى سر الحقيقة ، وربما يحصل للبعض علامة ذلك في صباه ، قال أيوب عليه السلام : إن الله يزرع الحكمة في قلب الصغير والكبير ، فإذا جعل الله العبد حكياً لم تضع منزلته عند الحكماء حداثةُ سنه ، وهم يرون عليه من الله نور كرامته ، ودخل الحسين بن فضل على بعض الخلفاء ، وعنده كثير من أهل العلم ، فأحب أن يتكلم فمنعه ، فقال أصبيٌّ يتكلم في هذا المقام ؟ فقال : إن كنتُ صبياً فلستُ بأصغرَ من هُدْهدِ سليمان ، ولا أنت أكبر من سليمان حين قال (أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ) ﴿ وَالْقَوَاعِدُ ﴾ مبتدأ جمع قاعد بلاهاء لاختصاصها بالمرأة كحامل ، قال في القاموس : القاعدُ التي قعدت عن الولد ، وعن الحيض ، وعن الزوج ﴿ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ أي العجائز اللاتي قعدن عن الحيض والحمل ﴿ الَّلآتِي لاَ يَرْجُوْنَ نِكَاحاً ﴾ أي لا يطمعن في النكاح لكبرهنّ ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ ﴾ أي إثم ووبال في ﴿ أَنْ يَضَعْنَ ﴾ عند الرجال ﴿ ثِيَابَهُنَّ ﴾ أي الثياب الظاهرة كالجلباب والقناع ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ حال كونهن غير مظهرات لزينة خفية ﴿ وَأَنْ يَسْتَعفِفْنَ ﴾ أي يطلبن العفة ﴿ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾ لبعده من التهمة ﴿ وَاللهُ سَمِيعٌ ﴾ مبالغ في جميع ما يُسمع ، فيسمع

ما يجري بينهن وبين الرجال ﴿ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم مقاصدهن ، ، وفيه من الترهيب ما لا يخفى واعلم أن العجوز إذا كانت بحيث لا تشتهى ، جاز النظر إليها لأمن الشهوة في حكم الرجل في ترك الحجاب ، لا في مرتبته ، كما قال حكيم : إن خير نصفي الرجل آخره ، يذهب جهله ، ويكثر حلمه ، ويجتمع رأيه، وشر نصفي المرأة آخرها ، يسوء خلقها ، ويحدُّ لسانها ، ويعقم رحمها ، حكي أن عجوزاً مرضت ، فأتى ابنها بطبيب فرآها متزينة بأثواب مصبوغة ، فعرف حالها ، فقال ما أحوجها إلى الزوج ؟ فقال الابن : ما للعجائز والأزواج ؟ فقالت : ويحك أنت أعلم من الطبيب !! ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى ﴾ مفتقد البصر ﴿ حَرَجٌ ﴾ إثم ووبال ﴿ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾ إذا أصابه شيء في رجله ، فمشى مشية العرجان ﴿ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ المرض الخروج من الاعتدال الخاص بالإنسان ، قال المفسرون : كانت هذه الطوائف يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء حذراً من استقذارهم إياهم وخوفاً من تأذيهم بأفعالهم فنزلت الآية ﴿ وَلاَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي عليكم ﴿ أَنْ تَأْكُلُوْا ﴾ أي أن تأكلوا أنتم ومن معكم ﴿ مِنْ بُيُوْتِكُمْ ﴾ وليس المعنى أن تأكلوا من البيوت التي تسكنون فيها بأنفسكم وفيها طعامكم ، بل المعنى من بيوت الأزواج والأولاد والمماليك ، فإن بيت المرأة كبيت الزوج ، وكذا بيت الأولاد وفي الحديث (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه)[1] ﴿ أَوْ بُيُوْتِ آبَائِكُمْ ﴾ الأب الوالد ﴿ أَوْ بُيُوْتِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ جمع أم أي الوالدة﴿ أَوْ بيُوْتِ إِخْوَانِكُمْ ﴾ الأخ : المشاركُ لآخر في الولادة ﴿ أَوْ بُيُوْتِ أَخَوَاتِكُمْ ﴾ الأخت تأنيث الأخ ﴿ أَوْ بُيُوْتِ أَعْمَامِكُمْ ﴾ العم أخ الأب والعمة أخته ﴿ أَوْ بُيُوْتِ عَمَّاتِكُمْ أو بُيُوْتِ أَخْوَالِكُمْ ﴾ الخال : أخ الأم ، والخالة أختها ﴿ أَوْ بُيُوْتِ خَالاَتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ جمع مفتح أي أو من البيوت التي تملكون التصرف فيها بإذن أربابها ، كما إذا خرج الصحيح إلى الغزو وخلف الضعيف في بيته ودفع إليه مفتاحه ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ الصديق هو من صدقك في مودته ونعم ما قيل : صديقُك من صَدَقك لا من صَدَقك ، والمعنى أو بيوت صديقكم وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية ، عن الحسن أنه دخل يوماً بيته ، فرأى جماعة من أصدقائه قد أخذوا طعاماً من تحت سريره وهم يأكلون، فتهلل وجهه سروراً ، وقال : هكذا وجدناهم ، يعني من لقي من البدريين قال المفسرون : هذا كله إذا علم رضى صاحب البيت ، بصريح الإذن أو بقرينة دالة كالقرابة والصداقة ونحو ذلك ، ولذلك خص هؤلاء بالذكر لاعتيادهم التبسط فيما بينهم يعنى ليس عليكم جناح أن تأكلوا من منازل هؤلاء إذا دخلتموها ، وإن لم يحضروا ويعلموا من غير أن تزودوا وتحملوا ﴿ لَيسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في البيوع ، والترمذي في الأحكام ، والنسائي في البيوع وابن ماجه في التجارات ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥٧٠ .

في ﴿ أَنْ تَأْكُلُوْا ﴾ حال كونكم ﴿ جَمِيعاً ﴾ أي مجتمعين ﴿ أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ جمع شت بمعنى متفرق نزلت في حي من كنانة ، كانوا يتحرجون أن يأكلوا طعامهم منفردين ، وكان الرجل منهم يمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه ، فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل ، فرخص في هذه الآية الأكل وحده ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوْتاً ﴾ أي من البيوت المذكورة بقرينة المقام أي للأكل وغيره وهذا شروع في بيان أدب الدخول بعد الترخيص فيه ﴿ فَسَلِّمُوْا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي فأبدأوا التسليم على أهلها الذين بمنزلة أنفسكم ﴿ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ أي بأمره مشروعة من لدنه ﴿ مُبَارَكَةً ﴾ مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامها ﴿ طَيِّبَةً ﴾ تطيب بها نفس المستمع ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التبيين ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ الدالة على الأحكام أي ينزلها مبينةً واضحة الدلالات عليها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ ﴾ أي لكي تفقهوا ما في تضاعيفها من الشرائع والأحكام والآداب ، وتعملوا بموجبها لتفوزوا بسعادة الدارين ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾ أي الكاملون في الإيمان ، نزلت حين أمر الرسول في غزوة الأحزاب بحفر الخندق ، فانصرف بعض المنافقين بدون إذن ﴿ الَّذِينَ آمَنُوْا بِاللهِ وَرَسُوْلِهِ ﴾ من صميم قلوبهم وأطاعوا في السر والعلانية ﴿ وَإِذَا كَانُوْا مَعَهُ ﴾ مع النبي عليه السلام ﴿ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ أي على أمر مهم يجب اجتماعهم في شأنه ، كالجمعة والأعياد والحروب والمشاورة في الأمور ﴿ لَمْ يَذْهَبُوْا ﴾ من المجمع ولم يفترقوا عنه ﴿ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ في الذهاب فيأذن لهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوْنَكَ ﴾ يطلبون الإذن منك ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُوْنَ بِاللهِ وَرَسُوْلِهِ ﴾ لا غير المستأذنين ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوْكَ ﴾ أي وبعد ما تحقق أن الكاملين في الإيمان هم المستأذنون ، فإذا استأذنوك في الانصراف ﴿ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ لبعض أمرهم المهم ﴿ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ لحكمة ومصلحة فلا اعتراض عليك في ذلك ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ ﴾ بعد الإذن ، ففيه إشارة إلى أن الأفضل أن لا يحدّث المرء نفسه بالذهاب ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُوْرٌ ﴾ مبالغ في مغفرة فرطات العباد ﴿ رَحِيمٌ ﴾ مبالغ في إفاضة أثر الرحمة عليهم ﴿ لاَ تَجْعَلُوْا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ ﴾ أي لا تجعلوا دعوته وأمره إياكم ﴿ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ أي تقيسوا دعوته إياكم إلى شيء من الأمور ، على دعوة بعضكم بعضاً في جواز الإعراض ، والمساهلة في الإجابة، والرجوع بغير إذن ، فإن المبادرة إلى إجابته واجبة ، والمراجعة بغير إذنه محرمة ، وقال بعضهم : المعنى لا تجعلوا نداءكم إياه وتسميتكم له ، كنداء بعضكم بعضاً بإسمه ، مثل يا محمد ويا ابن عبد الله ، ورفع الصوت به ، ولكن بقلبه المعظم ، مثل يانبي الله ، ويارسول الله ، وفي الآية بيان توقير معلم الخير ، لأن رسول الله ﷺ كان معلم الخير ، فأمر الله بتوقيره وتعظيمه ، وفيه معرفة حق الأستاذ ، وفيه معرفة أهل الفضل ، قال في حقائق البقلي : احترام الرسول من احترام الله ، ومعرفته من معرفة الله ، والأدب في متابعته من الأدب مع

الله ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُوْنَ مِنكُمْ ﴾ التسللُ : الخروج من المكان على التدريج والخفية ، يقال تسلل الرجل أي انسرق من الناس وفارقهم بحيث لا يعلمون ، والمعنى يعلم الله الذين يخرجون من الجماعة قليلاً على خفية ﴿ لِوَاذاً ﴾ هو أن يستتر بشيء مخافة من يراه ، والمعنى ملاوذة بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج قال بعضهم : كان يثقل على المنافقين خطبة النبي يوم الجمعة فليوذون ببعض فيخرجون من المسجد في استتار من غير استئذان ، فأوعدهم الله تعالى بهذه الآية ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُوْنَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ يخالفون أمره بترك مقتضاه ﴿ أَنْ ﴾ أي من أن ﴿ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ محنة في الدنيا في البدن أو في المال ، كالمرض والقتل وتسلط السلطان ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي في الآخرة ﴿ أَلاَ ﴾ استفتاح للكلام ﴿ إِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ ﴾ من الموجودات بأسرها ، خلقاً وملكاً وتصريفاً ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أيها المكلفون من الأحوال والأوضاع والإخلاص والنفاق ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُوْنَ إِلَيْهِ ﴾ أي يعلم تحقيقاً يوم يرد المنافقون المخالفون للأمر إليه تعالى للجزاء والعقاب ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوْا ﴾ من الأعمال السيئة أي يظهر لهم على رؤس الأشهاد ، ويعلمهم أي شيء شنيع عملوا في الدنيا ، ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء ﴿ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وإن كان المنافقون يجتهدون في ستر أعمالهم عن العيون وإخفائها ، واعلم أن التعلق بكل من نعيم الدنيا ونعيم الآخرة حرام على أهل الله تعالى ، نعم إن أهل الله يحبون الآخرة طلباً لرضى الله تعالى ، قال بعض أهل الحقيقة : ما ألهاك عن مولاك فهو دنياك ، فعلى العاقل أن يقطع حبل العلاقات ويتفكر في أمره ويحاسب نفسه قبل أن يجيء يوم الجزاء والمكافآت ، فإن عقب هذه الحياة ممات ، وهذا النعيم ليس على الدوام والثبات ، وقد أحسن من قال :

إنَّ الليالي لم تُحسِنْ إلى أحدٍ * إلا أساءَتْ إليهِ بعد إحْسَانِ

وقال آخر

أحسنتَ ظنَّك بالأيام إذ حَسُنتْ * ولم تَخَفْ شرَّ ما يأتي به القَدَر

اللهم لا تجعلنا من الغافلين ، ووفقنا لطاعتك ومرضاتك يارب العالمين .

انتهى بعون الله ونوفيقه تفسير سورة النور

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ أي تكاثر خير الله الذي نزَّل الفرقان ، والفرقان : مصدر فرق بين الشيئين ، أي فصل ، وسمي به القرآن لغاية فرقه بين الحق والباطل ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ وحبيبه الأعلى ، وصفيه المختار ، محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وفيه تشريف له بالعبدية المطلقة ، وتفضيل بها على جميع الأنبياء ، وتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبداً للمُرْسِلِ رداً على النصارى ﴿ لِيَكُوْنَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرَاً ﴾ أي ليكون منذراً بالقرآن للإنس والجن ، ومخوفاً من عذاب الله وموجبات سخطه ، فالنذير بمعنى المنذر ، والإنذارُ : إخبارٌ فيه تخويف ، كما أن التبشير إخبار فيه سرور ﴿ الَّذِي لَهُ ﴾ أي هو الذي له خاصة دون غيره ﴿ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ الملك هو التصرف بالأمر والنهي ، ثم قال رداً على اليهود والنصارى ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدَاً ﴾ ليرث ملكه لأنه حي لا يموت ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ أي في ملك السموات والأرض ، لينازعه أو ليعاونه في الإيجاد :

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أحدث كل موجود من الموجودات ، ورتب فيه قوى وخواص ، مختلفة الأحكام والآثار ﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرَاً ﴾ أي فهيأ لما أراده منه من الخصائص والأفعال اللائقة به ، كهيئة الإنسان للإدراك والفهم والتدبر في امور المعاش والمعاد ، وهكذا أحوال سائر الأنواع ﴿ وَاتَّخَذُوْا ﴾ أي المشركين لأنفسهم ﴿ مِنْ دُوْنِهِ ﴾ أي متجاوزين عباده الذي خلق هذه الأشياء ﴿ آلِهَةً ﴾ من الأصنام ﴿ لاَ يَخْلُقُوْنَ شَيْئاً ﴾ أي لا تقدر لك تلك الآلهة على خلق شيء من الأشياء أصلاً ، لا على ذهاب ولا على غيره ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُوْنَ ﴾ كسائر المخلوقات ﴿ وَلاَ يَمْلِكُوْنَ لأَنْفُسِهِمْ ﴾ أي لا يستطيعون ﴿ ضَرّاً ﴾ أي دفع ضر ﴿ وَلاَ نَفْعاً ﴾ ولا جلب نفع ، فكيف يملكون شيئاً منهما لغيرهم ؟ فهم أعجز من الحيوان ، فإنه ربما يملك دفع الضر وجلب النفع لنفسه في الجملة ﴿ وَلاَ يَمْلِكُوْنَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً ﴾ أي لا يقدرون على إماته الأحياء وإحيائهم ومن كان كذلك فبمعزل عن الألوهيَّة ، وفيه تنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوْا إِنْ هَذَا ﴾ أي ما هذا القرآن ﴿ إِلاَّ إِفْكٌ ﴾ كذب مصروف عن وجهه ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ اختلقه محمد من عند نفسه ، ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ ﴾ أي على اختلاقه ﴿ قَوْمٌ آخَرُوْنَ ﴾ أي اليهود فإنهم يلقون إليه أخبار الأمم ، وهو يعبّر عنها بعبارته ﴿ فَقَدْ جَآءُوْا ﴾ فعلوا بما قالوا ﴿ ظُلْمَاً ﴾ عظيماً بجعل القرآن المعجز ، إفكاً مختلقاً مفتعلاً ﴿ وَزُوْرَاً ﴾ أي كذباً حيث نسبوا إليه عليه السلام ما هو بريء منه ﴿ وَقَالُواْ ﴾ في حق القرآن

﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ ما سطَّره المتقدمون من الخرافات والأباطيل ، جمع أسطورة قال في القاموس : الأساطيرُ : الأحاديث التي لا نظام لها ﴿ اكْتَتَبَهَا ﴾ أمر أن تكتب له لأنه عليه السلام لا يكتب ﴿ فَهِيَ ﴾ أي الأساطير ﴿ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ تُلقى على محمد وتُقرأ عليه ليحفظها ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أول النهار وآخره أي دائماً ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد رداً عليهم وتحقيقاً للحق ﴿ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ ﴾ الغيب ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ لأنه أعجزكم لفصاحته ، وتضَّمن أخباراً لا يعلمها إلا عالم الأسرار ، فكيف تجعلونه أساطير الأولين ؟ ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوْرَاً رَحِيمَاً ﴾ أي أنه تعالى أزلاً وأبداً مستمر على المغفرة والرحمة ، فلذلك لا يجعل عقوبتكم على ما تقولون ، مع استحقاقكم أن يصُبَّ عليكم العذاب صبَّاً ، واعلم أن الله تعالى أنزل القرآن على وفق الحكمة الأزلية في رعاية مصالح الخلق ، ليهتدي به أهل السعادة ، وليضل به أهل الشقاوة وينسبوه إلى الإفك كما قال تعالى (وَإِذْ لم يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُوْنَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) والقرآن لا يدرك إلا بنور الإيمان ، والكفر ظلمة ، فبظلمة الكفر رأى الكفار القرآن النوراني ظلمانياً ، من جنس كلام الإنس ، ﴿ وَقَالُوْا ﴾ أي المشركون من أشراف قريش ﴿ مَا ﴾ استفهامية بمعنى إنكار الوقوع ﴿ لِ هَذَا الرَّسُوْلِ ﴾ وُجدت اللامُ مفصولةً في المصحف ، واتّباعُه سنة ، وفي هذا تصغير لشأنه عليه السلام ، وتسميتُه رسولاً بطريق الاستهزاء أيْ أيُّ سبب حصل لهذا الذي يدّعي الرسالة ؟ ﴿ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ كما نأكل ﴿ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾ لطلب المعاش كما نمشي ؟ أنكروا أن يكون الرسول بصفة البشر ، ليس بمَلَك ولا مَلِكٍ ، وذلك لأن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ، والملوك لا يتسوقون ولا يبتذلون ، فعجبوا أن يكون مثلهم ، لعدم بصيرتهم وقصور نظرهم ، فإن تمييز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية ، وإنما هو بأحوال نفسانية ، وفي التأويلات النجمية : يشير إلى أن الكفار صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون ، لأنهم نظروا إلى الرسول بنظر الحواس الحيوانية ، وهم بمعزل من الحواس الروحانية والربانية ، فما رأوا منه النبوة والرسالة ليعرفوا أنه « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » فلهذا قال تعالى (وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ)﴿ لَوْلاَ ﴾ حرف تحضيض بمعنى هلاَّ ﴿ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أي على هيئته وصورته المباينة لصورة البشر والجن ﴿ فَيَكُوْنَ مَعَهُ ﴾ مع الرسول ﴿ نَذِيراً ﴾ مُعيناً له في الإنذار ﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ من السماء يستظهر به ويستغنى عن تحصيل المعاش ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أي إن لم يلق إليه كنز ، فلا أقل من أن يكون له بستان ، كما لأهل الغنى والثراء ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُوْنَ ﴾ أي قالوا للمؤمنين ﴿ إِنْ تَتَّبِعُوْنَ ﴾ أي ما تتبعون ﴿ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوْرَاً ﴾ قد سُحِرَ فغلب على عقله ﴿ أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوْا لَكَ الأَمْثَالَ ﴾ أي كيف قالوا في حقك تلك الأقاويل العجيبة ، الخارجة عن العقول ، واخترعوا لك تلك الأحوال الشاذة البعيدة من الوقوع ،

وذلك من جهلهم بحالك وغفلتهم عن جمالك ﴿ **فَضَلُّوْا** ﴾ عن الحق ﴿ **فَلاَ يَسْتَطِيعُوْنَ سَبِيلاً** ﴾ إلى الهدى ، ومخرجاً من ضلالتهم !؟

﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي** ﴾ أي تكاثر وتزايد خير الذي ﴿ **إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ** ﴾ في الدنيا ﴿ **خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ** ﴾ مما قالوا من إلقاء الكنز وجعل الجنة ، ولكن أخَّره إلى الآخرة ، لأنه خيرٌ وأبقى ﴿ **جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ بدل من خيراً لأن ذلك كان مطلقاً عن قيد التعدد وجريان الأنهار ﴿ **وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوْرًا** ﴾ بيوتاً مشيدة في الدنيا كقصور الجنة وفي الحديث (إن ربي عرض عليَّ أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلتُ : لا يارب ، ولكنْ أجوع يوماً وأشبع يوماً ، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك) وإنما اختار الفقر لنفسه لوجوه : **أحدها** : أنه لو كان غنياً لقصده قوم طمعاً في الدنيا ، فاختار الله له الفقر ، حتى إن كل من قصده قصده طلباً للعقبى ، **والثاني** : أن الله اختار الفقر له نظراً لقلوب الفقراء ، حتى يتسلى الفقير بفقره ، كما يتسلى الغني بماله **والثالث** : أن فقره دليلٌ على هوان الدنيا على الله تعالى ، كما قال عليه السلام (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء)[1] فالله تعالى قادر على أن يعطيه ذلك الذي عيَّروه بفقده ، وما هو خير من ذلك بكثير ، ولكنه يعطي عباده على حسب المصالح ، وعلى وفق المشيئة ولا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم ويسدَّ عليه أبواب الدنيا ، وفي حق الآخر بالعكس ، وقد أحسن من قال :

وَرَوادَتْـــهُ الجبـــالُ الشمُّ من ذَهَبٍ * عن نَفْسِـــهِ فـــأَراهـــا أيَّـــا شَمَمِ
وأكَّـدتْ زُهْـدَه فيهَـا ضَرُورتُـه * إن الضَّرورَةَ لا تَعْـــدُو على العِصَمِ

﴿ **بَلْ كَذَّبُوْا بِالسَّاعَةِ** ﴾ أي القيامة والحشر والنشر ﴿ **وَأَعْتَدْنَا** ﴾ هيأنا وأصله أعددنا ﴿ **لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ** ﴾ وضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة في التشنيع ﴿ **سَعِيرًا** ﴾ ناراً عظيمة شديدة الاشتعال ﴿ **إِذَا رَأَتْهُمْ** ﴾ أي إذا كانت تلك السعير بمرأى منهم ، وقابلتهم بحيث صاروا بإزائها ﴿ **مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** ﴾ هو أقصى ما يمكن أن يرى منه ﴿ **سَمِعُوْا لَهَا تَغَيُّظًا** ﴾ أي صوت تغيظ ، على تشبيه صوت غليانها بصوت المغتاظ الغضبان ، إذا غلى صدره من الغيظ ﴿ **وَزَفِيرًا** ﴾ وهو صوت يسمع من جوفه ، وأصله ترديدُ النَّفَسِ حتى تنتفخ الضلوع منه ﴿ **وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا** ﴾ أي في مكان ، والضمير عائد إلى السعير ﴿ **ضَيِّقًا** ﴾ مفيدة لزيادة شدة حال الكرب مع الضيق ، فيضمُّ العذابُ وهو الضيق

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الزهد من حديث سهل بن مسعود ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٥٠٧ .

الشديد إلى العذاب الجسديّ ، وذلك لضيق قلوبهم في الدنيا ، حتى لم تسع فيها الإيمان ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ أي قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم ، مشدودة إليها بسلسلة ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك المكان الهائل ، والحالة الفظيعة ﴿ ثُبُوْراً ﴾ هو الويل والهلاك أي يتمنون هلاكاً وينادون فيقولون : يا ثبوراه ، يا ويلاه ، يا هلاكاه تعال ، ﴿ لاَ تَدْعُوْا اليَوْمَ ثُبُوْراً وَاحِداً ﴾ أي لا تقتصروا على دعاء ثبور واحد ﴿ وَادْعُوْا ثُبُوْراً كَثِيراً ﴾ أي ادعوا أدعية كثيرة ، فإن ما أنتم فيه من العذاب مستوجب لتكرير الدعاء في كل آن ﴿ قُلْ أَذَلِكَ ﴾ العذاب ﴿ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُوْنَ ﴾ أي وعدها المتقون المتصفون بمطلق التقوى ، وجنةُ الخلد : هي الدارُ التي لا ينقطع نعيمها ، فإن قيل : كيف يُتصور الشك في أيهما خير ؟ وهل يجوز للعاقل أن يقول : السكر أحلى أم الصبر ، وهو دواء مرٌّ ؟ يقال ذلك في معرض التقريع والتهكم ، والتحسير على ما فات ﴿ كَانَتْ ﴾ تلك الجنة ﴿ لَهُمْ ﴾ في علم الله تعالى ﴿ جَزَاءً ﴾ على أعمالهم بمقتضى الكرم لا بالاستحقاق ﴿ وَمَصِيراً ﴾ مرجعاً يرجعون إليه وينقلبون ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ ﴾ أي ما يشاؤنه من أنواع النعيم واللذات ﴿ خَالِدِينَ ﴾ فيها ﴿ كَانَ ﴾ المذكور من الدخول والخلود﴿ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُوْلاً ﴾ أي موعوداً حقيقاً بأن يُسأل ويُطلب ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ أي واذكر يامحمد لقومك يوم يحشر الله الكفّار ويجمعهم ﴿ وَمَا يَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ ﴾ من الملائكة وعيسى وعزير ﴿ فَيَقُولُ ﴾ أي الله تعالى للمعبودين ﴿ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ ﴾ بأن دعوتموهم إلى عبادتكم وأمرتموهم بها ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوْا السَّبِيلَ ﴾ بأنفسهم لإخلالهم بالنظر الصحيح ، وإعراضهم عن المرشد النّاصح ؟ وفائدته تقريع العبدة كما قيل لعيسى عليه السلام (**ءأنتَ قلتَ للناس اتخذوني وأميَ إلٰهين من دون الله**) ؟ لأنهم إذا سئلوا وأجابوا بما هو الحق ، تزداد حسرة العبيد وحيرتهم ، ويُبكّتون بتكذيب المعبودين إياهم ﴿ قَالُوْا سُبْحَانَكَ ﴾ هو تعجب مما قيل لهم ، أو تنزيه لله تعالى عن الأنداد ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا ﴾ أي ما صحّ وما استقام لنا ﴿ أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُوْنِكَ ﴾ أي متجاوزين إياك ﴿ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ « مِنْ » مزيدة لتأكيد النفي والمعنى معبودين نعبدهم ﴿ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ ﴾ أي ما أضللناهم ولكن جعلتهم وآباءهم منتفعين بالعمر الطويل ، فاستغرقوا في الشهوات وانهمكوا فيها ﴿ حَتَّى نَسُوْا الذِّكْرَ ﴾ أي غفلوا عن ذكرك ، وتركوا ما وُعظوا به ﴿ وَكَانُوْا ﴾ في قضائك الأزلي ﴿ قَوْماً بُوْراً ﴾ هالكين جمع بائر يقال رجل بائر وقوم بور ، وهو الفاسد الذي لا خير فيه ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوْكُمْ ﴾ أي فيقول الله تعالى : فقد كذبكم المعبودون أيها الكفرة ﴿ بِمَا تَقُوْلُوْنَ ﴾ أي في قولكم إنهم آلهة ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُوْنَ ﴾ أي ما تملكون أيها المتخذون الشركاء ﴿ صَرْفاً ﴾ دفعاً للعذاب عنكم بوجه من الوجوه ﴿ وَلاَ نَصْراً ﴾ لا من جهة أنفسكم ، ولا من جهة غيركم مما عبدتم ، وقد كنتم

زعمتم أنهم يدفعون عنكم العذاب وينصرونكم ﴿ وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ ﴾ أيها المكلفون أي يشرك كما دل عليه قوله ﴿ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴾ هي النار والخلود فيها ، ثم أجاب عن قولهم « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » بقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ ﴾ أحداً ﴿ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ ﴾ رسلاً ﴿ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُوْنَ الطَّعَامَ وَيَمْشُوْنَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ فلم يكن ذلك منافياً لرسالتهم ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ ابتلاء ومحنة ، امتحنَّا الفقراء بالأغنياء ، والسقماء بالأصحاء ، والأسافل بالأعالي والضعفاء بالأقوياء ﴿ أَتَصْبِرُوْنَ ﴾ أي لنعلم هل تصبرون ؟ وفيه حثٌ على الصبر على ما افتنوا به ، قال أبو الليث : اللفظ لفظ الاستفهام والمراد الأمر ، يعني اصبروا ، كقوله (أفلا يتوبون إلى الله) ؟ أي توبوا ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ بمن يصبر وبمن يجزع ، قال الإمام الغزالي : البصير هو الذي يشاهد ويرى ، حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى ، وحظُّ العبد من حيث الحس من وصف البصر ظاهر ، ولكنه ضعيف قاصر ، إذ لا يمتد إلى باطن بل يتناول الظواهر ، وإنما حظه الديني منه أمران : أحدهما أن يعلم أنه خلق البصر لينظر إلى الآيات ، وعجائب الملكوت والسموات ، فلا يكون نظره إلا عبرة ، قيل لعيسى عليه السلام هل أحد من الخلق مثلك ؟ فقال : من كان نظره عبرة ، وصمته فكرة ، وكلامه ذكراً فهو مثلي ، والثاني أن يعلم أنه بمرأى من الله تعالى ومسمع ، فلا يستهين بنظره إليه واطلاعه عليه ، ومن أخفى عن غير الله ما لا يخفيه عن الله فقد استهان بنظر الله ، والمراقبةُ إحدى ثمرات الإيمان بهذه الصفة ، فمن قارب معصية وهو يعلم أن الله يراه فما أجسره؟ ومن ظن أنه لا يراه فما أكفره ؟ انتهى كلام الغزالي رحمه الله ، في شرح الأسماء الحسنى .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُوْنَ لِقَاءَنَا ﴾ وملاقاةُ الله عبارة عن القيامة ، وعن المصير إليه تعالى أي الرجوع إلى حيث لا حاكم ولا مالك سواه ، وهم كفار مكة ﴿ لَوْلاَ ﴾ حرف تحضيض بمعنى هلاَّ ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ ﴾ أي بطريق الرسالة ﴿ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ جهرة وعياناً ، فيأمرنا بتصديق محمد واتباعه ، ولّما لم يفعل ذلك ، علمنا أنه ما أراد تصديقه ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوْا ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي والله لقد استكبروا أي أظهروا الكبر باطلاً ﴿ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي في شأنها يعني وضعوا لأنفسهم قدراً ومنزلة ، حيث أرادوا لأنفسهم الرسل من الملائكة ، ورؤية الرب تعالى ﴿ وَعَتَوْا ﴾ أي تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان ﴿ عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ بالغاً إلى أقصى غاياته من حيث عاينوا المعجزات القاهرة ، وأعرضوا عنها ، واقترحوا لأنفسهم الخبيثة معاينة الملائكة الطيبة ورؤية الله تعالى ، التي لم ينلها أحد في الدنيا من أفراد الأمم ، وآحاد الأنبياء غير نبينا عليه السلام ، وهو إنما رآه تعالى بعد العبور عن حد الدنيا ، وهو الأفلاك السبعة التي هي من عالم الكون ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ ﴾ أي ملائكة العذاب ،

ولم يقل يوم تنزل الملائكة ، إيذاناً بأن رؤيتهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه ، بل على وجه آخر غير معهود ﴿ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ لأنه في معنى لا يُبشَّر يومئذ المجرمون ، ووضع المجرمون موضع الضمير تسجيلاً عليهم بالإجرام ، مع ما هم عليه من الكفر ، ويومئذٍ تكرير للتأكيد ، بيَّن الله تعالى أن الذي طلبوه سيوجد ، ولكن يلقون منه ما يكرهون ، حيث لا بشرى لهم بل إنذار وتخويف وتعذيب ، بخلاف المؤمنين فإن الملائكة تنزلُ عليهم ويبشرونهم ويقولون : لاتخافوا ولا تحزنوا ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أي الكفرة المجرمون عند مشاهدة الملائكة ﴿ حِجْراً مَحْجُوراً ﴾ الحِجْر مصدر حجَره إذا منعه ، والمحجور الممنوع ، كانوا يقولون هذه الكلمة عند لقاء عدو ، وهجوم مكروه ، والمعنى أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم ويقترحونه ، وهم إذا رأوهم يوم الحشر يكرهون لقاءهم أشد كراهة ، ويقولون هذه الكلمة طلباً من أن يمنع لقاءهم منعاً ، ويحجر المكروه عنهم حجراً ، فلا يلحقهم ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ الهباء الغبار الذي يرى في شعاع الشمس ، مثَّل تعالى حالهم وحال أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا ، من صلة رحم ، وإغاثة ملهوف ، وإكرام يتيم ، ونحو ذلك من المحاسن ، بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه ، فقصد إلى ما تحت أيديهم من الدار والعقار ، فمزقها وأبطلها بالكلية ، ولم يُبْقِ لها أثراً ، أي قصدنا إليها وأظهرنا بطلانها بالكلية لعدم شرط قبولها وهو الإيمان ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ أي المؤمنون ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يكون ما ذُكر ﴿ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً ﴾ خير مستقراً من هؤلاء المشركين ، المتنعمين في الدنيا ، فإن قلت : كيف يكون أصحاب الجنة خير مستقراً من أهل النار ، ولا خير في النار ؟ ولا يقال : العسلُ أحلى من الخلّ ؟ قلت : إنه من قبيل التقريع والتهكم كما في قوله تعالى (**قل أذلك خير أم جنة الخلد**) كما سبق ، ويجوز أن يكون التفضيل لإرادة الزيادة المطلقة أي هم في أقصى ما يكون من خير وعلى هذا القياس قوله تعالى ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ أي من الكفرة في دار الآخرة ، أو هم في أقصى ما يكون من حسن المقيل ، وهو موضع القيلولة ، والقيلولة الاستراحة نصف النهار في الحر ، والمراد بالمقيل ههنا المكان الذي ينزل فيه للاستراحة بالأزواج ، والتمتع بمغازلتهن ومحادثتهن ، وإلا فليس في الجنة حر ولا نوم ، بل استراحة مطلقة من غير غفلة ، ولا ذهاب حس من الحواس ، وكذا ليس في النار مكان استراحة ونوم للكفار ، بل عذاب دائم وألم باق ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ ﴾ أي واذكر يوم تنفتح وأصله تتشقق فحذف إحدى التاءين كما في « تلظى » ﴿ بِالْغَمَامِ ﴾ هو السحاب يسمى به لكونه ساتراً لضوء الشمس أي بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام الذي ذكر في قوله تعالى (**هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام والملائكة**) قيل هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ، وقال أبو الليث : الغمام شيء مثل السحاب الأبيض فوق سبع سموات كما روى في الخبر (دعوة المظلوم ترفع فوق الغمام) ﴿ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنْزِيلاً ﴾ أي

تنزيلاً عجيباً غير معهود ، تشقق سماءً سماء ، وتنزل الملائكة بصحائف أعمال العباد ﴿ **الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ** ﴾ المعنى أن السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلي ثابت للرحمن يومئذ ﴿ **وَكَانَ** ﴾ ذلك اليوم ﴿ **يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً** ﴾ أي عسيراً عليهم شديداً لهم وأما على المؤمنين فيكون يسيراً بفضل الله تعالى ، وقد جاء في الحديث (إنه يهون يوم القيامة على المؤمن ، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاَّها في الدنيا)[1] والحاصل أن الكافرين يرون ذلك اليوم عسيراً عظيماً ، من دخول النار وحسرة فوات الجنان ، وأهل الإيمان والجد والاجتهاد ، يرون فيه اليسر من نعيم الجنان ولقاء الرحمن ، وخرج على سهل يهودي في طمر أسود من دخانه ، فقال ألستم ترون الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، ففي أي سجنٍ أنتَ وفي أي جنَّة أنا ؟ فقال سهل على البداهة : إذا صرتَ إلى عذاب الله كانت هذه جنتك ، وإذا صرتُ إلى نعيم الله كانت هذه سجني ، فتعجبوا من كلامه ، وقيل للشبلي : في الدنيا أشغال ، وفي الآخرة أهوال ، فمتى النجاة ؟ قال : دعْ أشغالها تأمن من أهوالها ، ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ** ﴾ عض اليدين عبارة عن الندم ، لما جرى به عادة الناس أن يفعلوه عند ذلك ، تحسراً وندامة على التفريط والتقصير ، والمراد بالظالم الجنس فيدخل فيه « عقبة بن أبي معيط » وذلك أن عقبة كان لا يقدم من سفر إلاّ صنع طعاماً ، وكان يدعو إلى الطعام من أهل مكة من أراد ، وكان يكثر مجالسة النبي عليه السلام ويعجبه حديثه ، وعاد ذات يوم من سفره وصنع طعاماً ودعا رسول الله إلى طعامه فأتاه رسول الله ، فلما قدَّم الطعام إليه أَبَى أن يأكل فقال (ما أنا بالذي آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله) وكان من العار أن يخرج من عندهم أحد قبل أن يأكل شيأ ، فألحَّ عليه بأن يأكل فلم يأكل فشهد بذلك عقبة ، فأكل رسول الله من طعامه ، وكان « أبيّ بن خلف » الجمحي غائباً وكان خليل عقبة وصديقه ، فلما قدم أخبر بما جرى بين عقبة وبين رسول الله فأتاه فقال : صبوت يا عقبة أي ملت عن دين آبائك إلى دين حادث فقال : لا والله ما صبوت ، ولكن دخل عليَّ الرجل فأبى أن يأكل من طعامي إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم ، فشهدت له بالرسالة فطعم ، فقال : ما أنا بالذي أرضى منك أبداً حتى تأتيه فتبصق في وجهه وتشتمه نعوذ بالله تعالى فأتاه فوجده ساجداً فقال رسول الله ﷺ لعقبة (لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوتُ رأسك بالسيف) فأسر يوم بدر فأمر عليه السلام علياً رضي الله عنه بقتله ﴿ **يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ** ﴾ في الدنيا ﴿ **مَعَ الرَّسُولِ** ﴾ محمد ﷺ ﴿ **سَبِيلاً** ﴾ طريقاً إلى النجاة من هذه الورطات ، يعني اتبعته وكنت معه على الإسلام ﴿ **يَا وَيْلَتَىٰ** ﴾ الويل : الهلكة ويا ويلتا كلمة جزع وتحسر ، وأصله يا ويلتي

---

(١) أخرجه أحمد من حديث أبي سعيد الخدري ، قلتُ يارسول الله : ما أطول هذا اليوم ؟ .. فذكره .

بكسر التاء أي يا هلكتي تعالي واحضري ، فهذا أوان حضورك ، ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنَاً خَلِيلاً ﴾ الخليلُ : الصديق من الخلة وهي المودة ، لأنها تتخلل النفس والمراد من أضلّه في الدنيا فيدخل فيه أبيّ المذكور ﴿ لَقَدْ ﴾ والله لقد ﴿ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ أي عن القرآن المذكِر لكل مرغوب ومرهوب ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ وتمكنت من العمل به ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ ﴾ أي إبليس الحامل على مخالفة الرسول ، وهجر القرآن ﴿ لِلإِنْسَانِ ﴾ المطيع له ﴿ خَذُوْلاً ﴾ كثير الخذلان يؤديه إلى الهلاك ، ثم يتركه ولا ينفعه ، والخذلانُ : ترك النصرة ممن يظن به أن ينصر ، وهذه الآية عامة في كل متحابين اجتمعا على معصية الله تعالى ، والخلة الحقيقية هي أن تكون في الدين ، وفي الحديث (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)(١) وفي الحديث (لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلاّ تقيٌّ)(٢) قال مالك بن دينار : إنك أن تنقل الحجارة مع الأبرار ، خير من أن تأكل الخبيص مع الفجار ، قال بعضهم المراد بالشيطان قرين السوء ، سماه شيطاناً لأنه الضال المضلُّ ، فمن لم يكن فيه طلب الله ، فهو عبد الشيطان ، كالأنعام بل هو أضل ﴿ وَقَالَ الرَّسُوْلُ ﴾ وقال الرسول محمد عليه السلام إثر ما شاهد منهم غاية العتو ونهاية الطغيان بطريق البث إلى ربه ﴿ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي ﴾ قريشاً ﴿ اتَّخَذُوْا هَذَا القُرْآنَ مَهْجُوْرَاً ﴾ أي متروكا بالكلية ولم يؤمنوا به وصدوا عنه ، وفيه إشارة بأن حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن ، ومن أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل آية من القرآن أو سورة ثم ينساها، وفي الحديث (إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد ، قيل : وما جلاؤها ؟ قال : تلاوة القرآن ، وذكرُ الله)(٣) ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي كما جعلنا لك أعداء من مجرمي قومك كأبي جهل ونحوه ﴿ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيّ ﴾ من الأنبياء المتقدمين ﴿ عَدُوّاً ﴾ أي أعداء ﴿ مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي مجرمي قومهم كنمرود لإبراهيم ، وفرعون لموسى ، واليهود لعيسى ، فاصبر كما صبروا ، تظفر كما ظفروا ، وفيه تسلية لرسول الله وحملٌ له على الاقتداء بمن قبله من الأنبياء ، ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً ﴾ أي من جهة هدايته لك إلى كافة مطالبك ﴿ وَنَصِيراً ﴾ ومن جهة نصرته لك على جميع أعدائك ، فلا تبال بمن يعاديك ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوْا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ ﴾ لولا تحضيضية بمعنى هلاّ ﴿ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ دفعة واحدة كالكتب الثلاثة التوراة والإنجيل والزبور ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أي مثل ذلك التنزيل المفرق الذي قدحوا فيه نزلناه لنقوّي بذلك التنزيل قلبك ، فإن فيه تيسيراً لحفظ النظم ، وفهم المعنى ، وضبط الأحكام ، والعمل بها

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في الأدب ، والترمذي في الزهد ، وإسناده حسن .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد وابن ماجه والحاكم وصححه ، وانظر جامع الأصول ٦ / ١٦ .

(٣) الحديث أخرجه الحكيم الترمذي وابن عدي في الكامل بلفظ « إن للقلوب صدأ كصدإ الحديد ، وجلاؤها الاستغفار » الفتح الكبير ١ / ٤١٢ .

ألا ترى أن التوراة أُنزلت دفعة فشق العمل على بني إسرائيل ، ولأنه كلما أنزل عليه وحي جديد في كل أمر وحادثة ازداد هو قوة قلب وبصيرة ، وبالجملة إنزال القرآن منجماً فضيلة خُصَّ بها نبينا عليه السلام من بين سائر النبيين ، فإن المقصود من إنزاله أن يتخلق قلبه المنير بخلق القرآن ، ويتقوى بنوره ، ويتغذى بحقائقه وعلومه ، وهذه الفوائد إنما تكمل بإنزاله مفرقاً ، ألا يرى أن الماء لو نزل من السماء جملة واحدة ، لَمَا كانت تربية الزروع به ، مثلها إذا نزل مفرقاً إلى أن يستوي الزرع ﴿ **وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً** ﴾ وقرأناه عليك شيأ بعد شيء على تؤدة وتمهل ، في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين ﴿ **وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ** ﴾أي بسؤال عجيب وكلام غريب ، كأنه مثل في البطلان يريدون به القدح في حقك وحق القرآن ﴿ **إِلاَّ جِئْنَاكَ** ﴾ في مقابلته ﴿ **بِالْحَقِّ** ﴾ أي بالجواب الحق الثابت ، المبطل لما جاؤا به ﴿ **وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً** ﴾ وبما هو أحسن بياناً وتفصيلاً لما هو الحق والصواب ، ومقتضى الحكمة ﴿ **الَّذِينَ** ﴾ أي هم الذين ﴿ **يُحْشَرُوْنَ عَلَى وُجُوْهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ** ﴾ أي يُسْحبون عليها ويجرّون إلى جهنم وفي الحديث (يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنفٌ على الدواب ، وصنفٌ على الأقدام ، وصنفٌ على الوجوه فقيل يا نبي الله : كيف يحشرون على وجوههم ؟ فقال : إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم)[1] ﴿ **أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً** ﴾ أي من الفريقين مقاماً ﴿ **وَأَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ وأخطأ طريقاً من كل أحد ،والمميِّز هو الله تعالى فإنه يقول (**وامتازُوا اليوم أيها المجرمون**) ولما استكبر الكفار واستعلوا حتى لم يَخِرُّوا بسجدة للهِ تعالى ، حشرهم الله تعالى على وجوههم ، ولما تواضع المؤمنون رفعهم الله على النجائب ، فمن هرب عن المخالفة وأقبل إلى الموافقة نجا ، ومن عكس هلك ، قال أحمد بن أبي الجواري : كنت يوماً جالساً على غرفة ، فإذا جارية صغيرة تقرع الباب ، فقلت من بالباب ؟ فقالت : جارية تسترشد الطريق ، فقلت طريق النجاة أم طريق الهرب ؟ فقالت يا بطال اسكت فهل للهرب طريق ؟ وأينما يهرب العبد فهو في قبضة مولاه ، فعلى العاقل أن يهرب في الدنيا إلى خير مكان ، حتى يتخلص في الآخرة من شر مكان ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوْسَى الكِتَابَ** ﴾ أي وبالله لقد آتينا موسى التوراة أي أنزلناه عليه بعد فترةٍ من الزمن ﴿ **وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً** ﴾ أي معيناً يوازره ويعاونه في الدعوة ، وإعلاء الكلمة ، فإن الموازرة المعاونة ﴿ **فَقُلْنَا** ﴾ لهما حينئذ ﴿ **اذْهَبَا إِلَى القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا** ﴾ هم فرعون وقومه أي القبط ، والآياتُ هي المعجزات التسع الظاهرة على يد موسى عليه السلام ﴿ **فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً** ﴾ التدمير إدخال الهلاك على الشيء ، والدمار الاستئصال بالهلاك ، وتقدير الكلام : فذهبا إليهم فأرياهم آياتنا كلها ، فكذبوهما تكذيباً

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير وقال : هذا حديث حسن ، وتتمة الحديث (أمَا إنهم يتّقون بوجوههم كل حَدَب وشوك) وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٢٧ .

مستمراً ، فأهلكناهم إثر ذلك التكذيب المستمر ، إهلاكاً عجيباً هائلاً لا يدرك كنهه ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ أي ودمرنا قوم نوح ﴿ لَمَّا كَذَّبُوْا الرُّسُلَ ﴾ أي نوحاً ومن قبله من الرسل ، كشيث ، وإدريس ، أو نوحاً وحده ، لأن تكذيبه تكذيبٌ للكل ، لاتفاقهم على التوحيد والإسلام ﴿ أَغْرَقْنَاهُمْ ﴾ بالطوفان ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ أي إغراقهم وقصتهم ﴿ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾عظيمة يعتبر بها كل من شاهدها أو سمعها ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ أي في الآخرة ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أي للمغرقين ، والإظهارُ في موقع الإضمار للتسجيل بظلمهم ، والإيذان بتجاوزهم الحدَّ في الكفر والتكذيب ﴿ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ سوى ما حلّ بهم من عذاب الدنيا ومعنى أليماً وجيعاً ﴿ وَعَاداً ﴾ عطف على قوم نوح ، يعني بتكذيب هود ﴿ وَثَمُودَ ﴾ بتكذيب صالح ﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾ الرسُّ : البئر وكل ركية لم تطو بالحجارة والآجر كما قال في الكشاف : الرس البئر الغير المطوية أي المبنية انتهى وأصحاب الرس قوم يعبدون الأصنام ، بعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه فبينما هم حول الرس ، أي بئرهم الغير المبنية التي يشربون منها ويسقون مواشيهم ، إذ انهارتْ فخسف بهم وبديارهم ومواشيهم وأموالهم فهلكوا جميعاً .

﴿ وَقُرُوْناً ﴾ أي ودمرنا أيضاً أهل أعصار ، جمع قرن وهم القوم المقترنون في زمن واحد ، وفي القاموس : الأصح أنه مائة سنة ﴿ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ المذكور من الطوائف والأمم ﴿ كَثِيراً ﴾ لا يعلم مقدارها إلا الله ﴿ وَكُلاًّ ﴾ أي ذكَّرنا وأنذرنا كل واحد من الأمم المذكورين المهلكين ﴿ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ ﴾ بينا له القصص العجيبة ، الزاجرة عما هم عليه من الكفر والمعاصي ، بواسطة الرسل ﴿ وَكُلاًّ ﴾ أي كل واحد منهم بعد التكذيب والإصرار ﴿ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ أهلكنا إهلاكاً عجيباً هائلاً قال الزجاج : كل شيء كسرته وفتَّته فقد تبَّرته ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا ﴾ أي قريش في متاجرهم إلى الشام ومروا ﴿ عَلَى القَرْيَةِ الَّتِي أُمطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ يعني سدوم أعظم قرى قوم لوط أمطرت عليها الحجارة وأهلكت ، فإن أهلها كانوا يعملون العمل الخبيث ، وتخصيصها ههنا لكونها في ممر تجار قريش ، وكانوا حين مروهم بها يرونها مؤتفكة ولا يعتبرون ﴿ أَفَلَمْ يَكُوْنُوْا يَرَوْنَهَا ﴾ أي في أوقات مرورهم فيخافوا ويعتبروا ويؤمنوا ﴿ بَلْ كَانُوْا لاَ يَرْجُوْنَ نُشُوْراً ﴾والمعنى بل كانوا كفرة لايتوقعون نشوراً أي ينكرون النشور المستتبع للجزاء الأخروي ، واعلم أن النشور لا ينكره إلا الكفور ، والربيع مثل يوم النشور ، لأن الربيع وقت إلقاء البذر ، ويكون الزرَّاع قلبه معلقاً إلى ذلك الوقت ، أيخرج أم لا ؟ فكذلك المؤمن يجتهد في طاعته، وقلبه يكون معلقاً بين الخوف والرجاء أيقبل الله تعالى منه أم لا ؟ ثم إذا خرج الزرع وأدرك يحصد ويداس ويذرى ، ثم يطحن ويعجن ويخبز ، وإذا خرج من التنور بلا احتراق يصلح للخوان ، ولو احترق ضاع عمله وبطل سعيه ، وكذلك العبد يصلي ويصوم ويزكي ويحج ،

فإذا جاء ملك الموت وحصد روحه بمنجل الموت ، وجعلوه في القبر يكون فيه إلى يوم القيامة ، وإذا جاء يوم القيامة وخرج من قبره ووقع الحشر والنشور ، وأمر به إلى الصراط فإذا جاوز الصراط سالماً فقد صار غانماً ، وإلا فقد هلك ، فعلى العاقل أن يتفكر في النشور ويتذكر عاقبة الأمور ﴿ **وَإِذَا رَأَوْكَ** ﴾ أي أبصروك يا محمد يعني قريشاً ﴿ **إِنْ يَتَّخِذُوْنَكَ إِلاَّ هُزُوَاً** ﴾ إن نافية أي ما يتخذونك إلا موضع هزؤ أي يستهزئون بك قائلين بطريق الاستحقار والتهكم ﴿ **أَهَـذَا الَّـذِي بَعَثَ اللهُ رَسُوْلاً** ﴾ أي بعث الله إلينا رسولاً ليثبت الحجة علينا ؟ يعني لم يقتصروا على ترك الإيمان بل زادوا عليه الاستخفاف والاستهزاء ، وهو قول أبي جهل لأبي سفيان : هذا نبيٌ بني عبد مناف !! ﴿ **إِنْ كَادَ** ﴾ إن مخففة من الثقيلة واللام في﴿ **لَيُضِلُّنَا** ﴾ هي الفارقة بينهما وضمير الشأن محذوف أي إنه كاد أي قارب محمد ليضلنا ﴿ **عَنْ آلِهَتِنَا** ﴾ أي ليصرفنا عن عبادتها صرفاً كلياً بحيث يبعدنا عنها ﴿ **لَوْلاَ أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا** ﴾ ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها ، قال الله تعالى في جوابهم ﴿ **وَسَوْفَ يَعْلَمُوْنَ** ﴾ البتة وإن تراخى ﴿ **حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ** ﴾ الذي يستوجبه كفرهم أي يرون في الآخرة عيانا ﴿ **مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ نسبوه عليه السلام إلى الضلال في ضمن الإضلال ، فإن أحداً لا يُضِلُّ غيره إلا إذا كان ضالاً في نفسه ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ** ﴾ كلمة أرأيت تستعمل تارة للإعلام وتارة للسؤال ، وههنا للتعجيب من جهل هذا وصفه والمعنى أرأيت يا محمد من جعل هواه إلهاً لنفسه ، بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه ، معرضاً عن استماع الحجة كأنه قيل : ألا تعجب ممن جعل هواه بمنزلة الإله ، في الالتزام بطاعته وعدم مخالفته ؟ فانظر إليه وتعجب منه ، قال أبو سليمان رحمه الله : من أتبع نفسه هواها ، فقد سعى في قتلها ، لأن حياتها بالذكر ، وموتها وقتلها بالغفلة ، فإذا غفل اتَّبعَ الشهوات ، وإذا اتبع الشهوات ، صار في حكم الأموات ﴿ **أَفَأَنْتَ تَكُوْنُ عَلَيْهِ وَكِيلاً** ﴾ حفيظاً تمنعه عن الشرك والمعاصي ؟ أي لست موكلاً على حفظه بل أنت منذر ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ** ﴾ بل أتظن ﴿ **أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُوْنَ** ﴾ ما يتلى عليهم من الآيات حق سماع ﴿ **أَوْ يَعْقِلُوْنَ** ﴾ ما في تضاعيفها من المواعظ والمحاسن ، فتهتم بشأنهم وتطمع في إيمانهم ؟ ﴿ **إِنْ هُمْ** ﴾ ما هم في عدم انتفاعهم بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات ، وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات ﴿ **إِلاَّ كَالأَنْعَامِ** ﴾ إلا كالبهائم التي هي مثل في الغفلة ، وعلم في الضلالة ، وفي التأويلات النجمية : ليس لهم نهمة إلا في الأكل والشرب واستجلاب حظوظ النفس ، كالبهائم التي نهمتها الأكل والشرب ﴿ **بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ من الأنعام لأنها تنقاد لمن يقودها ، وتميز من يحسن إليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ، ولا يعرفون إحسانه ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار ، واعلم أن الله تعالى خلق الملائكة وعلى العقل جبلهم ، وخلق البهائم وركب فيها الشهوة ، وخلق الإنسان وركب فيه الأمرين أي العقل والشهوة ، فمن

غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم ، ولذا قال تعالى (**بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**) ومن غلب عقله هواه أي شهوته فهو بمنزلة الملائكة ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ومن كان غالباً على أمره فهو خير من الملائكة كما قال تعالى (**أولئك هم خيرُ البَرِيَّةِ**) ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ** ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ والرؤية رؤيةالعين ، والمعنى ألم تنظر إلى بديع صنعه تعالى فإن المنظور يجب أن يكون مما يصح أن يتعلق به روية العين ﴿ **كَيْفَ مَدَّ الظِلَّ** ﴾ الظل ما يحصل مما يضيء بالذات كالشمس أو بالغير كالقمر ، وهو أعم من الفيء ، فإنه يقال ظل الليل وظل الجنة ، ويقال لكل موضع لا تصل إليه الشمس ظل ، ولا يقال الفيء إلا لما زال عنه الشمس ، يعني أن الشمس تنسخ الظل وتزيله شيأ فشيأ إلى الزوال ، ثم ينسخ الظل ضوء الشمس ويزيله من وقت الزوال إلى الغروب ، والمعنى كيف أنشأ الظل أيَّ ظل كان ، من جبل ، أو بناء ، أو شجر ، عند ابتداء طلوع الشمس ممتداً ، وهو بيان لكمال قدرته وحكمته ﴿ **وَلَوْ شَاءَ** ﴾ ربك سكون ذلك الظل ﴿ **لَجَعَلَهُ سَاكِناً** ﴾ أي ثابتاً على حاله من الطول والامتداد ومقياً ، والجملة اعتراضية للتنبيه من أول الأمر على أنه لا مدخل للأسباب العادية ، وإنما المؤثر فيه المشيئة والقدرة الإلهية﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً** ﴾ جعلناها علامة يستدل بأحوالها المتغيرة على أحواله ، من غير أن يكون بينهما سببية وتأثير قطعاً ﴿ **ثُمَّ قَبَضْنَاهُ** ﴾ أي أزلناه بعدما أنشأناه ممتداً أو محوناه بمحض قدرتنا ومشيئتنا ، عندإيقاع شعاع الشمس موقعه ﴿ **إِلَيْنَا** ﴾ تنصيص على كون مرجعه إلىالله تعالى ﴿ **قَبْضاً يَسِيراً** ﴾ أي على مهل قليلاً قليلاً حسب ارتفاع دليله أي الشمس ، يعني أنه كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل في جانب المغرب ، فلو قبضه الله تعالى لتعطلت منافع الظل ، والشمس قبضه يسيراً يسيراً لتبقى منافعها والمصالح المتعلقة بها ، وقيل المعنى (**كيف مدّ الظل**) أي بسطه فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، لأنه شمس معه وهو أطيب الأزمنة ، لأن الظلمة الخالصة سبب لنفرة الطبع ، وشعاع الشمس مسخن للجو ومفرق لنور الباصرة ، وليس فيما بين طلوعيهما شيء من هذين ، ولذلك قال تعالى في وصف الجنة (**وَظِلٍّ مَمْدُودٍ**)﴿ **وَهُوَ** ﴾ أي الله تعالى وحده ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً** ﴾ كاللباس يستركم بظلامه ، كما يستر اللباس ، فشبه ظلامه باللباس في الستر ، وجعل اللباس وهو ما يلبس اساً لكل ما يغطي الإنسان من قبيح ، وجعل الزوج لزوجها لباساً في قوله (**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**) من حيث إنه يمنعها عن تعاطى قبيح ، وجعل التقوى لباساً في قوله (**ولباس التقوى**) على طريق التمثيل والتشبيه ﴿ **وَالنَّوْمَ سُبَاتاً** ﴾ وجعل النوم راحة الأبدان ، بقطع المشاغل والأعمال ﴿ **وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوْراً** ﴾ أي وجعل النهار ذا نشور أي انتشار ، ينتشر فيه الناس لطلب المعاش ، وابتغاء الرزق ، وفيه إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور ، وعن لقمان عليه السلام : يابني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر ، وعن ذي النون

المصري رحمه الله « ثلاثة من أعلام العبادة : حب الليل للسهر في الطاعة ، والخلوة بالصلاة والناس نيام ، والمبادرة بالأعمال مخافة الفتنة وفي الخبر (إذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عقد : فإن قعد وذكر الله تعالى انحلَّتْ عقدةٌ ، فإن توضأ انحلَّت أخرى ، وإن صلى ركعتين انحلَّت كلها ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح كسلان خبيث النفس)[1] ﴿ وَهُوَ ﴾ تعالى وحده ﴿ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ﴾ قد يكون الإرسال للتسخير كإرسال الريح ، والريح معروفة وهي فيما قيل الهواء المتحرك ، وقيل في الرحمة « رياح » بلفظ الجمع وقيل في العذاب « ريح » لأنها واحدة وهي الدبور وهو عقيم لا يلقح ، ولذا ورد في الحديث (اللهم اجعلها لنا رياحاً ولا تجعلها ريحاً) ﴿ بُشْرَاً ﴾ لأن الرياح تبشر بالمطر كما قال تعالى (وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّراتٍ) ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي قدام المطر على سبيل الاستعارة ، وذلك لأنه ريح ، ثم سحاب ، ثم مطر ﴿ وَأَنْزَلْنَا ﴾ بعظمتنا ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من جهة الفوق ﴿ مَاءً طَهُوْرَاً ﴾ بليغاً في الطهارة ، وهو الذي يكون طاهراً في نفسه ، ومطهراً لغيره من الحدث والنجاسة والطهور يجيء صفة كما في « ماء طهوراً » واسماً كما في قوله عليه السلام (التراب طهور المؤمن)[2] وبمعنى الطهارة كما في تطهَّرتُ طَهُوراً حسناً أي وضوأ حسناً ، ومنه قوله عليه السلام (لا صلاة إلا بالطهور)[3] ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ ﴾ أي بما أنزلنا من السماء من الماء الطهور ، وهو تعليل للإنزال ﴿ بَلْدَةً مَيْتَاً ﴾ لاأشجار فيها ولا ثمار ولا مرعى ، وإحياؤها بإنبات النبات ، والمراد القطعة من الأرض عامرة كانت أو غيرها والتذكير حيث لم يقل بلدة ميتة لأنه بمعنى البلد أو الموضع والمكان ﴿ وَنُسْقِيَهُ ﴾ أي ذلك الماء الطهور عند جريانه في الأودية أو اجتماعه في الحياض أو المنابع والآبار قال الراغب : السقيا أن تعطيه ماء ليشربه ، والإسقاء أن تجعل له ذلك حتى يتناوله كيف يشاء ، والإسقاء أبلغ من السقي لأن الإسقاء هو أن تجعل له ماء يستقى منه ويشرب ، فالمعنى مكناهم من أن يشربوه ، ويسقوا منه أنعامهم ﴿ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامَاً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ أي نسقي ذلك الماء بعض خلقنا من الأنعام والأناسي والأنعام جمع نعم ، وهي الراعية وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل ، وأناسي : جمع إنسان عند سيبويه ، على أن أصله أناسين ، فأبدلت النون ياء وأدغم فيها الياءُ التي قبلها ، وقال الفراء والزجاج : إنه جمع إنسي ، وفيه نظر لأن فعالىّ إنما يكون جمعاً لما فيه ياء مشددة لا تدل على نسب ، نحو كراسيّ في جمع كرسي بخلاف إناسي لأنه بمعنى بشراً ، والمراد بهم أهل البوادي الذين يعيشون

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي ، ولفظه (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ..) الخ وانظر جامع الأصول ٦ / ٦٩ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي بلفظ : (إن الصعيد الطيب طهور المسلم وان لم يجد الماء عشر سنين) .

(٣) أخرجه أبو داود والنسائي بلفظ (لا صلاة بغير طهور) .

بالمطر ، وتخصيصهم بالذكر لأن أهل المدن يقيمون بقرب الأنهار والمنابع فلا يحتاجون إلى سقيا ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ ﴾ أي وبالله لقد كررنا هذا القول في القرآن وغيره من الكتب السماوية ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الناس من المتقدمين والمتأخرين ﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ أي ليتفكروا ويعرفوا كمال القدرة ويقوموا بشكره حق القيام ، وأصله يتذكروا ، والتذكر التفكر ﴿ فَأَبَى ﴾ الإباء شدة الامتناع أي لم يفعل أو لم يرد ﴿ أَكْثَرُ النَّاسِ ﴾ ممن سلف وخلف ﴿ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ إلا كفران النعمة وقلة المبالاة بشأنها ، فإن حقها أن يتفكر فيها ويستدل بها على وجود الصانع ، وقدرته وإحسانه ، وأكثر أهل التفسير على أن ضمير صرفناه راجع إلى نفس الماء الذي هو المطر ، فالمعنى (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ) أي فرقنا المطر بينهم بإنزاله في بعض البلاد والأمكنة ، أو في بعض الأوقات دون بعض فأبى أكثر الناس إلا جحودا للنعمة وكفراً بالله تعالى بأن يقولوا مطرنا بنوء كذا أي بسقوط كوكب كذا ، كما يقول المنجمون ، عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال : صلّى النبي ﷺ صلاة الصبح بالحديبية ، في إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : (هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : اللهُ ورسوله أعلم ! قال : قال أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر ، فأما من قال : مُطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي ، كافرٌ بالكواكب ، وأما من قال مُطرنا بنوء كذا ، فذلك كافرٌ بي ومؤمن بالكواكب)[1] ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ أردنا ﴿ لَبَعَثْنَا ﴾ البعث إثارة الشيء وتوجيهه ﴿ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ ﴾ مصر ومدينة فإن القرية اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس ﴿ نَذِيراً ﴾ بمعنى المنذر ، أي نبياً ينذر أهلها فيخفف عليك أعباء النبوة ، ولكن بعثناك إلى القرى كلها رسولاً ، وقصرنا الأمر عليك ، إجلالاً لشأنك ، وإعظاماً لأجرك ، وتفضيلاً لك على سائر الرسل ، ﴿ فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ ﴾ فيما ندبوك إليه من عبادة الآلهة واتباع دين الآباء ، واثبت على الدعوة وإظهار الحق ﴿ وَجَاهِدْهُمْ ﴾ الجهادُ والمجاهدةُ : استغراقُ الوسع في مدافعة العدو ﴿ بِهِ ﴾ أي بالقرآن بتلاوة ما فيه من المواعظ ، وتذكير أحوال الأمم المكذبة ﴿ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ عظيماً تاماً ، لا يخالطه فتور ، فإن مجاهدة السفهاء بالحجج ، أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيف ، والمجاهدة تكون باللسان واليد وفي الحديث (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)[2] قوله « وألسنتكم » أي أسمعوهم ما يكرهونه ويشق عليهم سماعه من هجوٍ وكلام غليظ ونحو ذلك ، ثم الإشارة بلفظ المشركين إلى أهل الرياء والبدع ، فإنه لابد لأهل الحق من جهاد أهل البطلان في كل زمان ، خصوصاً عند غلبة الخوف ، فإنه أفضل الجهاد كما قال عليه السلام (أفضل الجهاد كلمة حقٍ عند سلطان جائر)[3] ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ

(١) الحديث أخرجه البخاري في الاستسقاء ، ومسلم في الإيمان وأبو داود في الطب ، والنسائي في الاستسقاء وكذلك في الموطأ ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٥٧٦ .

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٦٢ .

(٣) الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٢٠٨ .

﴿ البَحْرَيْنِ ﴾ والمعنى خلطهما وأرسلهما في مجاريها بحيث لا يتمازجان ، ولا يلتبس أحدهما بالآخر ﴿ هَـٰذَا عَذْبٌ ﴾ أي مقولاً في حقهما هذا عذب أي طيب ﴿ فُرَاتٌ ﴾ قاطع للعطش لغاية عذوبته ﴿ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ بليغ الملوحة صفة الملح ، قالوا إن الله تعالى خلق ماء البحر مرّاً زُعاقاً أي مرّاً غليظاً بحيث لا يطاق شربه ، فكل ماء عذب من بئر أو نهر أو عين ، فمن ذلك المنزل من السماء ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا ﴾ أي بين البحرين ﴿ بَرْزَخاً ﴾ حداً وحاجزاً من قدرته غير مرئي ﴿ وَحِجْراً مَحْجُوراً ﴾ الحجرُ : بمعنى المنع ، والمحجور الممنوع ، وهو صفة الحجر على التأكيد ، واعلم أن أهل التفسير حملوا البحرين على بحري فارس والروم ، فإنهما يلتقيان في البحر المحيط ، وموضع التقائهما هو مجمع البحرين المذكور في الكهف ، ولكن يلزم على هذا أن يكون البحر الأول عذباً ، والثاني ملحاً مع أنهم قالوا لا وجود للبحر العذب ، فالوجه أن يحمل العذب على واحد من الأنهار ، فإن كل نهر عظيم بحر ، كما في مختار الصحاح كدجلة نهر بغداد تنصب إلى بحر فارس ، وتدخل فيه وتشقه وتجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ أوجد ﴿ مِنَ المَاءِ ﴾ هو الماء أو هو النطفة ﴿ بَشَراً ﴾ آدمياً ، والبشرة ظاهر الجلد ، وعبر عن الإنسان بالبشر اعتباراً بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الوبر كالضأن والمعز والإبل ﴿ فَجَعَلَهُ ﴾ أي البشر ﴿ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ أي قسمه قسمين ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم فيقال فلان ابن فلان وفلانة بنت فلان .

فإنما أمهاتُ الناس أوعيةٌ * مستودعاتٌ وللآباءِ أبناءُ

وذوات صهر أي إناثاً يُصاهر بهن ويخالط كقوله تعالى (فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَى) والصهرُ : زوجُ بنت الرجل ، وزوج أخته كالختن ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ مبالغاً في القدرة ، حيث قدر أن يخلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة ، وطباع متباعدة ، وجعله قسمين متقابلين ، وربما يخلق من مادة واحدة توأمين ذكراً وأنثى ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ أي المشركون حال كونهم ﴿ مِنْ دُوْنِ اللهِ ﴾ متجاوزين عبادة الله تعالى ﴿ مَالاَ يَنْفَعُهُمْ ﴾ إن عبدوه ، والنفعُ : الخير وضدُّه الضرُّ ﴿ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾ إن لم يعبدوه وهو الأصنام ﴿ وَكَانَ الكَافِرُ ﴾ بشركه وعداوته للحق ﴿ عَلَى رَبِّهِ ﴾ الذي رباه بنعمته ﴿ ظَهِيراً ﴾ عوناً للشيطان فالظهير بمعنى المعين ، والمراد بالكافر الجنس ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ في حال من الأحوال ﴿ إِلاَّ ﴾ حال كونك ﴿ مُبَشِّراً ﴾ للمؤمنين بالجنة والرحمة ﴿ وَنَذِيراً ﴾ منذراً للكافرين بالنار والغضب ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على تبليغ الرسالة التي ينبىء عنها الإرسال ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ من جهتكم فتقولوا إنه يطلب أموالنا بما يدعونا إليه فلا نتبعه ﴿ إِلاَّ مَنْ شَاءَ ﴾ إلا من فعل من يريدُ ﴿ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أي يتقرب إليه بالإيمان والطاعة يعني إن أعطيتم إياي

أجراً فأعطوني ذلك الفعل ، فإني لا أسأل غيره ، والظاهر أن الاستثناء منقطع ، والمعنى لا أطلب من أموالكم جُعلاً لنفسي ، لكنْ من شاء إنفاقه لوجه الله فليفعل ، فإني لا أمنعه عنه ، ومذهبنا أن للواعظ أخذ الأجرة على وعظ الناس ، وإن كان ترك ذلك أفضل ، وإيضاح ذلك أن مقام الدعوة إلى الله يقتضي الإجارة فإن ما من نبي دعا إلى الله إلا قال « إن أجري إلا على الله » فأثبت الأجر على الدعاء ، ولكن اختار أن يأخذه من الله لا من المخلوق ، وأفتى المتأخرون بصحة الأجرة للأذان والإقامة ، والتذكير والتدريس ، والحج والغزو ، وتعليم القرآن والفقه وقراءتها لفتور الرغبات اليوم ، ولو كانت الأجرة على أمر واجب كما إذا كان الغسال في القرية واحداً ، فإنه يتعين له غسل الميت ، ولا يجوز له طلب الأجرة ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوْتُ** ﴾ في الاستكفاء عن شرورهم والإغناء عن أجورهم ، فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين من شأنهم الموت ، فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكل عليهم ﴿ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ** ﴾ أي نزِّهْه تعالى عن صفات النقصان ، وعن كل ما يرد على الوهم والخيال ، مثنياً عليه بنعوت الكمال وفي الحديث (من قال كل يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر)[1] ﴿ **وَكَفَى بِهِ** ﴾ أي حسبك الحي الذي لا يموت ﴿ **بِذُنُوْبِ عِبَادِهِ** ﴾ ما ظهر منها وما بطن ﴿ **خَبِيراً** ﴾ فيجزيهم جزاء وافياً ﴿ **الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾ صفة أخرى للحيّ ﴿ **وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾ من المخلوقات والمواليد ﴿ **فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** ﴾ في مدتها من أي الدنيا لأنه لم يكن ثمة شمس ولا قمر ، وذلك مع قدرته على خلقها في أسرع من لمحة ، ليعلم العباد أن التأني مستحب في الأمور ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ أصل الاستواء الاستقرار والمراد بيان نفاذ تصرفه فيه وفيما دونه[2] ، وخصَّ العرش بالذكر لكونه أعظم الأجسام ﴿ **الرَّحْمَنُ** ﴾ أي الذي خلق الأجرام العلويَّة والسفلية وما بينهما هو الرحمن ﴿ **فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً** ﴾ أي فاسأل خبيراً بما ذكر من الخلق والاستواء لأنه هو الخبير بأفعاله وصفاته ، كما قال (**ولا يُنبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**) ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ** ﴾ أي لهؤلاء المشركين ﴿ **اسْجُدُوْا** ﴾ صلُّوا ، وعبَّر عن الصلاة بالسجدة لأنها من أعظم أركانها ﴿ **لِلرَّحْمَنِ** ﴾ الذي برحمته أوجد الموجودات ﴿ **قَالُوْا وَمَا الرَّحْمَنُ** ﴾ أيْ أيُّ شيء هو ، أو من هو ؟ ﴿ **أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا** ﴾ من غير أن نعرف المسجود له ماذا ؟ وهو استفهام إنكار أي لا نسجد للرحمن الذي تأمرنا بسجودنا له ﴿ **وَزَادَهُمْ** ﴾ أي الأمر بالسجود للرحمن ﴿ **نُفُوْراً** ﴾ عن الإيمان ، والنفورُ عن الشيء : التباعد عنه وهو نظير قوله (**فلم يزدهم دعائي إلاّ فراراً**) وكان سفيان الثوري رحمه الله ، إذا قرأ هذه الآية ، رفع رأسه إلى السماء ،

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات وقال : حسن صحيح ، وهو جزء من حديث طويل رواه مسلم ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٣٨١ .

(٢) الصحيح في هذا مذهب السلف أنه تعالى علا فوق العرش علواً يليق بجلاله ، من غير تشبيه ولا تمثيل ، فإنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وقال : « إلهي زادني خضوعاً ، ما زاد أعداك نفوراً » وتكبير سجود التلاوة سنة ، وإذا أخر عن وقت القراءة يكون قضاء كما قال أبو يوسف وذكر الطحاوي أنه مكروه وهو الأصح ، ثم إن قوله تعالى (**اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ**) يدل على أنْ لا سجدة لغير الرحمن ، قال شمس الأئمة السرخسي : السجودُ لغير الله تعالى على وجه التعظيم كفرٌ ، وما يفعلونه من تقبيل الأرض بين يديْ العلماء فحرام ، وأما الانحناء للسلطان أو لغيره فمكروه ، لأنه يشبه فعل اليهود ، كما أن تقبيل يد نفسه بعد المصافحة فعل المجوس ، واختلفوا في سجود الشكر عند تجدد النعم فقال أبو يوسف ومحمدهي قُربةٌ يثاب عليها ، وقال الشافعي وأحمد يسنُّ ، وحكمه عندهما كسجود التلاوة لكنه لا يفعل في الصلاة ، وذكر الطحاوي عن أبي حنيفة أنه قال لا أراه شيئاً ، قال أبو بكر الرازي معناه ليس بواجب ، ولا مسنون ، بل مباح لا بدعة ، وعن محمد أنه كرهها ، قال : ولكنا نستحبها إذا أتاه ما يسرُّه من حصول نعمة ، أو دفع نقمة ، قال الشافعي ؛ فيكبر مستقبل القبلة ويسجد فيحمد الله تعالى ويشكره ، ويسبح ثم يكبر فيرفع رأسه ، أما بغير سبب فليس بقربة ولا مكروه ، وأما ما يفعل عقيب الصلاة فمكروه ، لأن الجهال يعتقدونها سنة أو واجبة ، وكل مباح يؤدي إليه فمكروه انتهى ، والفتوى على أن سجدة الشكر جائزة بل مستحبة ، لا واجبة ولا مكروهة كما في شرح المنية ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي** ﴾ أي تكاثر خير الفياض الذي ﴿ **جَعَلَ** ﴾ بقدرته الكاملة ﴿ **فِي السَّمَاءِ بُرُوْجَاً** ﴾ هي البروج الاثنا عشر « الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت » وسميت المنازل بالبروج وهي القصور العالية ، لأنها للكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة لسكانها ، وقال الحسن ومجاهد : البروج هي النجوم الكبار ، مثال الزهرة والمشترى والسماك وأشباهها ، وسميت بروجاً لاستنارتها وحسنها وضوئها ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا** ﴾ في السماء ﴿ **سِرَاجاً** ﴾ يعبر به عن كل شيء مضيء ، والمراد به ههنا الشمس لقوله تعالى (**وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً**) شبهت الشمس والكواكب الكبار بالسرج والمصابيح في الإنارة والإشراق ﴿ **وَقَمَرَاً مُنِيرَاً** ﴾ الهلال بعد ثلاث قمر ، سُمي قمراً لبياضه (**مُنِيراً**) أي مضيئاً بالليل ، وفي الآية دلالة على كمال قدرته ، فإن هذه الأجرام العظام ، من آثار قدرته ، واعلم أن الله تعالى جعل في سماء نفسك بروج حواسك ، وجعل فيها سراج روحك ، وقمر قلبك ، منيراً بأنوار الروحانية ، فعليك بالاجتهاد في تنوير وجودك ، وتخليص قلبك من الظلمات النفسانية ، لتستعد لأنوار التجليات وتتخلص من ظلمة الهوى ، فيحصل لك البقاء بعد الفناء ، فتجد بعد الفقر كمال الغنى ، فتشاهد كمال قدرة الملك القادر هنا .

﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ** ﴾ بحكمته التامة ﴿ **اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً** ﴾ يخلف كل واحد منهما الآخر ، بأن يقوم مقامه ، فمن فرط في عمل أحدهما قضاه في الآخر ، أو جعلهما ذوي اعتقاب ، يجيء الليل

ويذهب النهار ، ويجيء النهار ويذهب الليل ، ليعلم الناس عدد السنين والحساب ، ففي الآية تذكير لنعمته ، وتنبيه على كمال حكمته وقدرته ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ ﴾ أن يتذكر آلاء الله ، ويتفكر في صنعه ، فيعلم أنه لابد له من صانع حكيم ، ومبدع رحيم ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُوْرَاً ﴾ أي أن يشكر الله بطاعته ، على ما منحه من النعم ، والشكر على ثلاثة أضرب : شكرٌ بالقلب وهو تصور النعمة ، وشكرٌ باللسان وهو الثناء على النعمة ، وشكرٌ بسائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها اعلم أن الآية الكريمة إشارة إلى أن ورد النفل يقضى إذا فات ، لكن على طريق الاستحباب لا على طريق الوجوب ، وذلك أن دوام الورد سبب للوصلة ، ألا ترى أن النهر إنما يصل إلى البحر بسبب إمداد الأمطار والثلوج التي في الجبال ، فلو انقطع المدد فقد المرام ، ولذا أكب العبّادُ على الأوراد في الليل والنهار ، ولذا لو فات عنهم ورد الليل قضوه في النهار ، ولو فات عنهم ورد النهار قضوه في الليل ، فعليك بالورد صباحاً ومساء ، فإنه من ديدن السلف الصالحين ، وإياك والغفلة عنه فإنها من دأب من بال على أذنه الشيطان من الفاسقين . حكي أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام ، فرأى عليه معاليق من كل شيء ، فقال يحيى يا إبليس ما هذه المعاليق التي أرى عليك ؟ قال هذه الشهوات التي أصيب بهن ابن آدم ، قال فهل لي فيها من شيء ؟ قال : ربَّما شبعتَ فثقَّلناك عن الصلاة والذكر ، قال يحيى هل غير ذلك ؟ قال : لا والله ، قال لله عليَّ أن لا أملأ بطني من طعام أبداً ، قال إبليس : ولله عليَّ أن لا أنصح مسلماً أبداً ، كذا في آكام المرجان ، واحتضر عابد فقال : ما تأسفي على دار أحزان والخطايا والذنوب ، وإنما تأسفي على ليلة نمتها ، ويوم أفطرته ، وساعة غفلتُ فيها عن ذكر الله !! نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من أهل اليقظة والشهود ، الواصلين إلى مطالعة الجمال في كل مشهود ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ دون عباد الدنيا والشيطان والهوى ، فإنهم ليسوا بأهلٍ لإضافة التشريف والتفضيل ، والمعنى عباده المقبولون ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ ﴾ المشي الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة ﴿ عَلَى الأَرْضِ ﴾ التي هل غاية في الطمأنينة والسكون والتحمل حال كونهم ﴿ هَوْنَاً ﴾ هو السكينة والوقار ، وتذلل الإنسان بما لا يلحق به غضاضة والمعنى أنهم يمشون بسكينة وتواضع ، لا بفخر وفرح ورياء وتجبر ، وذلك لِمَا طالعوا من عظمة الحق وهيبته ، وشاهدوا من كبريائه وجلاله ، فخشعت لذلك أرواحهم ، وخضعت نفوسهم وأبدانهم وفي الخبر(المؤمن كالجمل إن قيد انقاد ، وإن استنيخ على صخرة استناخ)[1] ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُوْنَ ﴾ أي وإذا كلمهم السفهاء مواجهة بالكلام القبيح ﴿ قَالُوا سَلاَمَاً ﴾ أي نطلب منكم السلامة أو إنا سلمنا من إثمكم ، وقال بعضهم : سلاماً مصدر فعل محذوف أقيم مقام التسلم أي قالوا نتسلم منكم تسلماً أي لا نجاهلكم فلا خير بيننا وبينكم ولا شر بل متاركة ، وأكثر المفسرين على أن السلام ليس عين

(١) لم أره فيما بين يديَّ من المراجع ، ومعناه لطيف ورشيق فهو أثر حسن .

عبارتهم ، بل صفة لمصدر محذوف ، والمعنى قالوا قولاً سلاماً أي سداداً ، يسلمون فيه من الأذى والإثم وهذه الآية محكمة عند أكثرهم ، لأن الحلم على السفيه مندوبٌ إليه ، والإغضاءُ عن الجاهل أمرٌ مستحسنٌ في الأدب ، والمروءة ، والشريعة ، وأسلم للعرض وفي الأثر (إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى منادٍ: أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعاً إلى الجنة ، فتَتَلقَّاهم الملائكة فيقولون إنا نراكم سراعاً إلى الجنة ؟ فيقولون : نحن أهل الفضل ، فيقولون ما كان فضلكم فيقولون كنا إذا ظُلمنا صبرنا ، وإذا أسيء إلينا غَفرنا ، وإذا جُهل علينا حلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين) وقال بعضهم في صفة عباد الرحمن : العبادةُ حليتهُم ، والفقر كرامتهُم ، وطاعة الله حلاوتُهم ، وحبُّ الله لذتهم والتقوى زادُهم ، والقرآن حديثهم ، والذكر زينتهم ، والقناعة مالهم ، والعبادة كسبُهم ، والشيطانُ عدوهم ، والنهار عبرتهم ، والليلُ فكرتهم ، والنظر إلى رب العالمين أمنيَّتُهم ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ ﴾ هي أن يدركك الليل ، نمت أو لم تنم ، ولذلك يقال : باتَ فلان قَلقاً أي مضطرباً ﴿ لِرَبِّهِمْ ﴾ لاحظ أنفسهم ﴿ سُجَّداً ﴾ أي حال كونهم ساجدين على وجوههم ﴿ وَقِيَاماً ﴾ أي قائمين على أقدامهم ، وتقديم السجود على القيام لرعاية الفواصل ، ولما ورد (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)[1] والمعنى يكونون ساجدين لربهم وقائمين ، أي يُحيون الليل كلاً أو بعضاً بالصلاة ، كما قال تعالى في حق المتقين (كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) وتخصيص البيتوتة لأن العبادة بالليل أشق ، وأبعد من الرياء وقد اشتهر بقيام الليل كله سعيد ابن المسيب ، وفضيل بن عياض ، وأبو سليمان الداراني ، ومالك بن دينار ، ورابعة العدوية وغيرهم وكانت رابعة تصلي الليل كله ، فإذا قرب الفجر نامت نومة خفيفة ، ثم تقوم وتقول : يا نفسُ كم تنامين وكم تقومين ؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا صبيحة يوم النشور ، فكان هذا دأبها حتى ماتت ، ومن حرم قيام الليل كسلاً وفتوراً أو اغتراراً بحاله ، فليبك عليه فقد قطع عليه طريق كثير من الخير ، والذي يخل بقيام الليل : كثرةُ الاهتمام بأمور الدنيا ، وكثرة أشغال الدنيا ، وإتعاب الجوارح ، والامتلاء من الطعام ، وكثرة اللهو واللغط ، وإهمال القيلولة ، والموفق من يغتنم وقته ويعرف داءه ودواءه ، ولا يُهْمِل فيُهْمل ، إن قلت : ما تقول في قوله عليه السلام (من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف ليلة ، ومن صلَّى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة)[2] إلخ فإنه يرفع مؤنة قيام الليل ؟ قلت : هذا ترغيبٌ في الجماعة وبيان للرخصة وتأثير النية ، فإن من نوى وقت العشاء أن يقيم الفجر بجماعة ، كان كمن انتظرها في المسجد ، فرب هِمَمٍ عالية تسبق الأقدام ، ولكن العمل مع النية أفضل

(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي بزيادة (فأكثروا الدعاء) وانظر جامع الأصول ٤ / ١٤٤ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في المساجد وأبو داود في الصلاة ولفظ مسلم (من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ..) وانظر جامع الأصول ٩ / ٤٠٩ .

من النية المجردة ، والعزيمةُ فوق الرخصة ، قال سهل التستري : يحتاج العبد إلى السنن الرواتب لتكميل الفرائض ، ويحتاج إلى النوافل لتكميل السنن ، ويحتاج إلى الآداب لتكميل النوافل ، ومن الأدب ترك الدنيا ، وقال معدان بن طلحة : لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ ، فقلت : أخبرني بعمل يدخلني الله به الجنة ؟ فقال سألت عن ذلك رسول الله فقال : (عليكَ بكثرةِ السجودِ لله ، فإنك لا تسجد لله سجدة ، إلاَّ رفعك اللهُ بها درجةً ، وحطَّ عنك بها خطيئة)[1] واعلم أن الأصل في كل عمل هو تحقيق النية ، وتصحيح الإخلاص ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُوْلُوْنَ** ﴾ أي في أعقاب صلواتهم أوفي عامة أوقاتهم ﴿ **رَبَّنَا اصْرِفْ عنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ** ﴾ أي نجِّنا يارب وادفع عنا عذاب جهنم الشديد الإيجاع ﴿ **إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامَاً** ﴾ أي شراً دائماً ، وهلاكاً لازماً ، غير مفارق لمن عذب به قال الراغب : مأخوذ من قولهم هو مغرم بالنساء أي يلازمهن ملازمة الغريم لغريمه أي من عليه الدين فكلاهما غريم ﴿ **إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَامَاً** ﴾ والمعنى بئست موضع قرار وإقامة هي أي جهنم وفي الآية إيذان بأنهم مع حسن مخالفتهم مع الخلق ، واجتهادهم في عبادة الحق ، خائفون من العذاب ، متضرعون إلى الله في صرفه عنهم ، يعني يجتهدون غاية الجهد ، ويستفرغون نهاية الوسع ، ثم عند السؤال ينزلون منزلة العصاة ، ويقفون موقف أهل الاعتذار ويخاطبون بلسان التذلل كما قيل :

وَمـا رمْتُ الـدُّخُـولَ عليـهِ حتَّى * حَلَلتُ محَلَّـةَ العبـدِ الـذَّليـلِ

قال النهر جوري : من علامة من تولاه الله في أعماله ، أن يشهد التقصير في إخلاصه ، والغفلة في أذكاره ، والنقصان في صدقه ، والفتور في مجاهدته ، وقلة المراعاة في فقره ، فيكون جميع أحواله عنده غير مرضية ، ويزداد فقراً إلى الله تعالى في فقره وسيره ، حتى يفنى عن كل ما دونه ، ودلت الآية على الدعاء مطلقاً خصوصاً في أعقاب الصلوات وهو مخ العبادة ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوْا لَمْ يُسْرِفُوْا** ﴾ لم يجاوزوا حد الكرم ﴿ **وَلَمْ يَقْتُرُوْا** ﴾ ولم يُضيِّقوا تضييق الشحيح ، فإن القتر والتقتير هو التضييق ، الذي هو ضد الإسراف ، والإسراف مجاوزة الحد في النفقة ﴿ **وَكَانَ** ﴾ الإنفاق ﴿ **بَيْنَ ذَلِكَ** ﴾ أي بين ما ذكر من الإسراف والتقتير ﴿ **قَوَاماً** ﴾ أي وسطاً عدلاً ، سُمِّي به لاستقامة الطرفين واعتدالها ، بحيث لا ترجح لأحدهما على الآخر ونظير القوام السواء فإنه سمي به لاستواء الطرفين ، فالآية نظير قوله تعالى (**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ ، وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوْمَاً مَحْسُوراً**) وتحقيق المقام أنَّ الإنفاق ضربان : محمودٌ ، ومذمومٌ ، فالمحمود منه ما يكسب صاحبه العدالة ، وهو بذل ما أوجبت الشريعة بذله كالصدقة المفروضة ، والإنفاق على العيال ، ولذا قال الحسن : ما أنفق الرجل على

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي والنسائي ، وانظر جامع الأصول ٩ /٣٩٦ .

أهله في غير إسراف ولا إقتار ، فهو في سبيل الله ، والمذموم ضربان : إفراطٌ وهو التبذير ، وتفريط وهو الإمساك والتقتير ، وكلاهما يراعى فيه الكمية والكيفية ، فالتبذير من جهة الكمية أن يعطي أكثر ما يحتمله حاله ، ومن حيث الكيفية أن يضعه في غير موضعه ، والاعتبار فيه بالكيفية أكثر من الكمية ، فرب منفق درهماً من ألوف وهو في إنفاقه مسرف ، وببذله ظالم مفسد ، كمن أعطى فاجرة درهماً ، أو اشترى خمراً ، ورب منفق ألوفا لايملك غيرها هو فيه مقتصد ، وببذلِهِ محمود ، كما روي في شأن : أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث أنفق جميع ماله في غزوة تبوك ، ولما قال له رسول الله ﷺ (ماذا أبقيت لأهلك يا أبا بكر ؟ قال الله ورسوله) وقد قيل لحكيم : متى يكون بذل القليل إسرافاً والكثير إقتصاداً ؟ قال : إذا كان بذل القليل في باطل ، وبذل الكثير في حق ، ومن هذا الباب ما قال مجاهد في الآية : لو كان لرجل مثل أبي قبيس ذهباً ، فأنفقه في طاعة الله ، لم يكن مسرفاً ، ولو أنفق درهماً في معصية الله كان مسرفاً ، قال يزيد بن حبيب في هذه الآية : أولئك أصحاب محمد ﷺ ، كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثياباً للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدُّ عنهم الجوع ، ويُقوِّيهم على عبادة ربهم ، ومن الثياب ما يستر عوراتهم ، ويُكنُّهم عن الحر والقرِّ ، وقال عمر رضي الله عنه : كفى سرفاً أن لا يشتهيَ الرجلُ شيأ إلاَّ اشتراه فأكله ، ثم إن الإسراف ليس بالمال فحسبُ ، بل بكل شيء وضع في غير موضعه اللائق به ، ألا ترى أن الله تعالى وصف قوم لوط بالإسراف فقال ﴿ **أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُوْنِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ**) ووصف فرعون بقوله (**إنه كان عالياً من المسرفين**) فالتكبر لغير المتكبر إسراف مذموم ، وللمتكبر اقتصاد محمود ، وعلى هذا فقس ﴿ **وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُوْنَ** ﴾ لا يعبدون ﴿ **مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ** ﴾ كالصنم أي لا يجعلونه شريكاً له تعالى والشرك ثلاثة : أولها أن يعبد غيره تعالى ، والثاني أن يطيع مخلوقاً بما يأمره من المعصية ، والثالث أن يعمل لغير وجه الله ، فالأولُ كفر ، والآخران معصية ﴿ **وَلاَ يَقْتُلُوْنَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ** ﴾ أي حرَّم قتلها والمراد نفس المؤمن والمعاهد ﴿ **إِلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾ المبيح لقتلها كما إذا قتل أحداً فيقتص به ، أو زنى وهو**مُحْصنٌ** فيرجم ، أو ارتد أو سعى في الأرض بالفساد فيقتل ﴿ **وَلاَ يَزْنُونَ** ﴾ الزنى وطىء المرأة من غير عقد شرعي ، واعلم أن الله تعالى نفى عن خواص عباده أمهات المعاصي من عبادة الغير ، وقتل النفس المحرمة ، والزنى ، بعدما أثبت لهم أصول الطاعات : من التواضع ، ومقابلة القبيح بالجميل ، وإحياء الليل والدعاء ، والإنفاق العدل ، وذلك إظهاراً لكمال إيمانهم ، فإنه إنما يكمل بالتحلي بالفضائل ، والتخلي عن الرذائل وعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ أيُّ الذنب أعظم ؟ قال (أن تجعل لله نِداً وهو خلقك ، قال قلت ثم أيٌّ ؟ قال : أن تقتل ولدك **مَخَافَةَ** أن يطعم

معك ، قال قلت ثم أيٌّ ؟ قال : أن تزني بحليلة جارك)[١] ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ شيئاً مما ذكر من الأفعال ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ هو جزاء الإثم والعقوبة ، كالوبال والنكال وزناً ومعنى ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ المضاعفة كما قال الراغب : تركُّبُ قدرين متساويين ، يقال : أضعفتُ الشيء وضاعفته ضممتُ إليه مثله فصاعداً ، أي يتزايد عذابه وقتاً بعد وقت ، وذلك لانضمام المعاصي إلى الكفر ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ ﴾ أي في ذلك العذاب حال كونه ﴿ مُهَانًا ﴾ ذليلاً محتقراً ، جامعاً للعذاب الجسماني والروحاني ﴿ إِلاَّ مَنْ تَابَ ﴾ من الشرك والقتل والزنى ﴿ وَآمَنَ ﴾ وصدق بوحدانية الله تعالى ﴿ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا ﴾ المقصود الإخبار بأن من فعل ذلك ، فإنه يحلُّ به ما ذكر إلا أن يتوب ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ التي عملوها في الدنيا في الإسلام ﴿ حَسَنَاتٍ ﴾ يوم القيامة ، وذلك بأن يثبت له بدل كل سيئة حسنة ، وبدل كل عقاب ثواباً ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال قال عليه السلام : (يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، ويُخبأ عنه كبارها ، فيقال عملتَ يوم كذا كذا وهو مقرٌّ لا ينكر ، وهو مشفق من الكبائر ، فيقال أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة ، فيقول : إن لي ذنوباً ما أراها ههنا ؟ قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه)[٢] ثم تلا الآية (فأولئك) الخ ، قال الزجاج : ليس أن السيئة بعينها تصير حسنة ، ولكن التأويل أن السيئة تمحى بالتوبة ، وتكتب الحسنة مع التوبة انتهى .

﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا ﴾ ولذلك بدل السَّيِّئَاتِ حسنات ﴿ رَحِيمًا ﴾ ولذلك أثاب على الحسنات ﴿ وَمَنْ تَابَ ﴾ أي رجع عن المعاصي مطلقاً بتركها بالكلية والندم عليها ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ يتدارك به ما فرط منه ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ بما فعل ﴿ يَتُوبُ إِلَى اللهِ ﴾ يرجع إليه تعالى الإنابة ﴿ مَتَابًا ﴾ أي متاباً عظيم الشأن مرضياً عنده تعالى ، قال الراغب : مَتَاباً أي التوبة التامة ، وهو الجمع بين ترك القبيح وتحري الجميل ، والتوبة في الشرع : تركُ الذنب لقبحه ، والندم على ما فرط منه ، والعزيمة على ترك المعاودة ، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الإعادة ، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة .

قال ابن عطاء : التوبة الرجوع من كل خلق مذموم ، والدخول في كل خلق محمود ، وهي توبة الخواص فعليك بالتوبة والاستغفار ، فإنها صابون الأوزار ، والإصرار يؤدي إلى الشرك ، والموت على غير الملة الإسلامية ، قال أبو إسحق : رأيت رجلاً نصف وجهه مغطى ، فسألته فقال : كنت نباشاً فنبشت

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود من حديث ابن مسعود وانظر جامع الأصول ٢ / ٢٨٥ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في الإيمان وأحمد في المسند وفيه (فيقول : يا ربِّ عملتَ أشياء لا أراها ههنا ؟ فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه) وانظر مختصر ابن كثير ٢ / ٦٤٠ .

ليلة قبر امرأة فلطمتني وعلى وجهه أثر الأصابع ، فكتبت ذلك إلى الأوزاعي ، فكتب إليّ أن اسأله كيف وجد أهل القبور ؟ فسألته فقال : وجدت أكثرهم متحولاً عن القبلة ، فقال الأوزاعي : هو الذي مات على غير الملة الإسلامية ، أي بسبب الإصرار المؤدي إلى الكفر والعياذ بالله تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّوْرَ** ﴾ والزور : الكذبُ وأصله تمويه الباطل بما يوهم أنه حق ، أي لا يشهدون شهادة الزور ، واختلف الأئمة في عقوبة شاهد الزور ، فقال مالك : يُشهَّر في الجوامع والأسواق والمجامع ، وقال أحمد : يُطاف به في المواضع التي يشتهر فيها فيقال : إنا وجدنا هذا شاهد زور فاجتنبوه ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويُسَخَّم وجهه ، ويُطوَّف في الأسواق ، وقال بعضهم : يُلحق بمجلس الزور : اللعب ، واللهو ، والكذب ، والنوح ، والغناء بالباطل ، ورُوي عن محمد بن المنكدر قال : بلغني أن الله تعالى يقول يوم القيامة : « أين الذين كانوا ينزهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان ؟ أدخلوهم رياض المسك ، ثم يقول للملائكة : أسْمعوا عبادي تحميدي وثنائي وتمجيدي ، وأخبروهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ومن سنن الصوم أن يصوم الصائم لسانه عن الكذب والغيبة وفضول الكلام والسب والنميمة والمزاح والمدح والغناء والشعر ، والمراد بالغناء التغني بالباطل وهو الذي يحرك من القلب ما هو مراد الشيطان ، من الشهوة ومحبة المخلوقين ، وأما ما يحرك الشوق الى الله بدون آيات اللهو فمن التغني بالحق كما في الإحياء . واختلف في القراءة بالألحان فكرهها مالك والجمهور لخروجها عما جاء القرآن له من الخشوع والتفهم ، ولذا قال في قاضي خان : لا ينبغي أن يقدم في التراويح « المتَفَنِّنون بالقراءة » بل يقدم « المتقنون » فإن الإمام إذا كان حسن الصوت يشغل عن الخشوع والتدبر والتفكر أنتهى * وأباحها ابو حنيفة وجماعة من السلف للأحاديث ، لأن ذلك سبب للرقة وإثارة الخشية كما في فتح القريب ، قال في أصول الحديث : إذا جلس الشيخ من أهل الحديث مجلس التحدث ، يفتتح بعد قراءة قارىء حسن الصوت شيأ من القرآن انتهى وإنما استحب تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها ، ما لم يخرج من حدّ الاعتدال ، بالتمطيط والأنغام التي يفعلها أهل الغناء فإنه حرام.

﴿ **وَإِذَا مَرُّوْا** ﴾ على طريق الاتفاق ﴿ **بِاللَّغْوِ** ﴾ أي ما يجب أن يلغى ويطرح مما لا خير فيه ويشمل المعاصي كلها ، وكل ساقطٍ من فعل أو قول ، ﴿ **مَرُّوْا كِرَامًا** ﴾ جمع كريم ، يقال : تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه عنه ، والمعنى : معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الخوض فيه ، ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش ، والصفح عن الذنوب ، والكناية عما يستهجن الصريح به ، إذا أرادوا ذكر النكاح وذكر الفروج كنوا عنه ، فالكرم ههنا هو الكناية والتعريض ، وكقوله عز وجل (**كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ**) كناية عن البول والخلاء ، وقد كنى الله عز وجل في القرآن عن الجماع بلفظ الغشيان ، والنكاح ، والسر ، والإتيان ، والإفضاء ، واللَّمس ، والمس ، والدخول ، والمباشرة ، والمقاربة ، في قوله (**وَلاَ تَقْرَبُوْهُنَّ**)

والطمث في قوله (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ) ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا ﴾ وعظوا ﴿ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ المشتملة على المواعظ والأحكام ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا ﴾ خرَّ سقط سقوطاً يسمع منه خرير من علو ﴿ صُمًّا ﴾ جمع أصم وهو فاقد حاسة السمع ، وبه يُشبَّه من لا يصغي إلى الحق ولا يقبله ﴿ وَعُمْيَانًا ﴾ جمع أعمى وهو فاقد حاسة البصر ، والمعنى لم يقفوا على الآيات صماً لم يسمعوا لها ، وعمياً لم يبصروها ، بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية ، مبصرين بعيون راعية وانتفعوا بها ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا ﴾ من وهب يهب هِبَةً ، والهبة أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض ﴿ مِنْ أَزْوَاجِنَا ﴾ جمع زوج يقال لكل ما يقترن بآخر زوج ، وأما زوجة فلغة رديئة كما في المفردات ﴿ وَذُرِّيَّاتِنَا ﴾ جمع ذرية أصلها صغار الأولاد ثم صار عرفاً في الكبار أيضاً ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ أي بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل ، فإن المؤمن إذا ساعده أهله في طاعة الله ، يُسرُّ بهم قلبه ، وتقرُّ بهم عينه ، لما يرى من توقع لحوقهم به في الجنة حسبما وعد بقوله تعالى ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ فالمراد أن يصادف قلبه من يرضاه ، فتقر عينه عن النظر إلى غيره ، ولا تطمح إلى ما فوقه ، فقرور العين كنايةٌ عن الفرح والسرور .

نِعَمُ الإلـــه على العبـــادِ كَثِيرةٌ * وأجلُّهن نَجَـــابـــةُ الأَوْلادِ

﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أي اجعلنا بحيث يقتدي بنا أهل التقوى ، في إقامة مراسم الدين ، بإفاضةِ العلم والتوفيق للعمل ، وهذه الآية دليلٌ على أن طلب الرياسة في الدين محمودة ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المتصفون بما فُصِّل ﴿ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ﴾ والغرفة الدرجة العالية من المنازل أي يثابون أعلى منازل الجنة ، وهي اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى (وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ) ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ بصبرهم على المشاق ورفض الشهوات ، وتحمل المجاهدات ، ومن ذلك الصوم وهو أي الصوم قهر لعدو الله ، فإن وسيلة الشيطان الشهوات ، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب ، ولذلك قال عليه السلام (إنَّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم ، فضيّقوا مجاريه بالجوع)[1] ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا ﴾ أي في الغرفة من جهة الملائكة ﴿ تَحِيَّةً ﴾ أي يُستقبلون فيها بالتحية ﴿ وَسَلَامًا ﴾ أي وبالسلام تحييهم الملائكة ، ويدعون لهم بطول الحياة ، والسلامة من الآفات ، فإن التحية هي الدعاء والتعمير ، والسلام هو الدعاء بالسلامة ، وليست السلامة الحقيقية إلا في الجنة ، لأن فيها بقاء بلا فناء ، وغنى بلا فقر ، وعزاً بلا ذل ، وصحة بلا سقم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي حال كونهم لا يموتون ولا يُخرجون من الغرفة ﴿ حَسُنَتْ ﴾ الغرفة ﴿ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ من جهة كونها موضع قرار وإقامة ، وهو مقابل « سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا » فعلى العاقل أن يتهيأ لمثل هذه الغرفة العالية الحسنة ، بما سبق من الأعمال الفاضلة المستحسنة ،

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ، وأبو داود في سننه ، وأصلُه في الصحيحين ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٠٨ .

ولا يقع في مجرد الأماني والآمال ، فإن الأمنية كالموت بلا إشكال ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للناس كافة ﴿ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ ﴾ « ما يَعْبأُ » : ما يبالي ولا يعتد تقول : ما أعبأ بفلان : ما أبالي به أيَّ عبءٍ واعتبار يعتبركم ربي ، ويبالي ويعتني بشأنكم ، لولا عبادتكم وطاعتكم له تعالى ؟ فإن شرف الإنسان وكرامته بالمعرفة والطاعة ، وإلا فهو وسائر الحيوانات سواء ، وقال الزجاج أيُّ وزنٍ ومقدار يكون لكم عند الله تعالى ، لولا عبادتكم له تعالى ؟ ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أي فقد كذبتم أيها الكفرة بما أخبرتكم به ، حيث خالفتموه ، وخرجتم على أن يكون لكم عند الله اعتناء بشأنكم واعتبار ، أو وزن ومقدار ﴿ فَسَوْفَ يَكُوْنُ لِزَاماً ﴾ أي يكون جزاء التكذيب لازماً يحيق بكم لا محالة ، حتى يُكبّهم في النار .

قال الراغب : الإنسان في هذه الدار الدنيا كما قال علي بن أبي طالب : النَّاسُ سفر ، والدار دار ممرّ لا دار مقر ، وبطن أمه مبدأ سفره ، والآخرة مقصده ، وزمان حياته مقدار مسافته ، وسنوه منازله ، وشهوره فراسخه ، وأيامه أمياله ، وأنفاسه خطاه ، ويسار به سير السفينة براكبها كما قال الشاعر :

رأيتُ أَخَا الدُّنْيا وإنْ كَانَ ثَاوِيَاً * أَخَا سَفَرٍ يُسْرَى بِهِ وَهُو لا يَدْرِي

اللهم اجعلنا من أهل البصر والاعتبار ، ونجنا من عذاب النار ، ياعزيز ياغفار ، ياأرحم الراحمين .

« انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الفرقان »

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسم ﴾ الحروف المقطعة في أوائل السورة يجمعها قولك (سرٌّ حصينٌ قطع كلامه) وأولى ما قال أهل التفسير في حق هذه الحروف : الله أعلم بمراده ، لأنها من الأسرار الغامضة ، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : « إن لكل كتاب سراً ، وسرُّ القرآن في المقطعات »[1] ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ ﴾ أي هذه السورة آيات القرآن ، الظاهر إعجازه وصحة أنه كلام الله ، ولو لم يكن كذلك لقدروا على الإتيان بمثله ، من أبان بمعنى بأن أو ظهر ، أو المبين للأحكام الشرعية وما يتعلق بها ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ﴾ لعل للإشفاق أي الخوف ، والله تعالى منزه عنه ، فهو بالنسبة إلى النبي عليه السلام ، يقال : بخع نفسه قتلها غماً والمعنى أشفقْ على نفسك ، وخفْ أن تقتلها بالحزن بلا فائدة ، وهو حثٌّ على ترك التأسف وتسليةٌ له عليه السلام ﴿ أَنْ لاَ يَكُوْنُوْا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي خيفة أن لا يؤمن قريش بذلك الكتاب المبين ، فإن الخوف والحزن لا ينفع في إيمان من سبق حكم الله بعدم إيمانه ، فلا تهتمَّ فقد بلِّغتَ .

* ثم بين أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى فقال ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً ﴾ دالة ملجئة إلى الإيمان ، كإنزال الملائكة ﴿ فَظَلَّتْ ﴾ فصارت ومالت أي فتظل ﴿ أَعْنَاقُهُمْ ﴾ أي رقابهم ﴿ لَهَا ﴾ أي لتلك الآية ﴿ خَاضِعِينَ ﴾ منقادين ، ولكنْ لم نفعل ، لأنه لا عبرة بالإيمان المبني على القسر والإلجاء ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ ﴾ من موعظة من المواعظ القرآنية ، أو من طائفة نازلة من القرآن ﴿ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ بوحيه إلى نبيه ، دل هذا الاسم ، على أن إتيان الذكر من آثار رحمة الله تعالى على عباده ﴿ مُحْدَثٍ ﴾ مجدّد إنزاله ، لتكرير التذكير وتنويع التقرير ﴿ إِلاَّ كَانُوْا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ إلا جدّدوا إعراضاً عن ذلك الذكر ، وإصراراً على ما كانوا عليه ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوْا ﴾ بالذكر أي جعلوه تارة سحراً ، وأخرى شعراً ، ومرة أساطير ، ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ ﴾ أي لسبب إعراضهم المؤدي إلى التكذيب المؤدي إلى الاستهزاء ﴿ أَنْبَاءُ مَا كَانُوْا بِهِ يَسْتَهْزِئُوْنَ ﴾ أي أخبار الذكر الذي كانوا يستهزئون به ، من العقوبات العاجلة والآجلة ، وفيه تهويل له لأن النبأ لا يطلق إلا على خبر خطير ، له وقع عظيم ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي أي أفعل المكذبون ما فعلوا من الإعراض عن الآيات ، والتكذيب والاستهزاء بها ، ولم ينظروا ﴿ إِلَى الأَرْضِ ﴾ أي إلى عجائبها الزاجرة عما فعلوا ، الداعية إلى الإقبال إلى ما أعرضوا ﴿ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ من سائر النباتات النافعة مما يأكل الناس والأنعام * قال الشعبي : الناس من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل

---

(١) أسلفنا فيما سبق أن الحروف المقطّعة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية .

النار فهو لئيم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في الإنبات المذكور ﴿ لآيَةً ﴾ عظيمة دالة على كمال قدرة منبتها ، وغاية وفور علمه ، ونهاية سعة رحمته ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي أكثر قومه عليه السلام ﴿ مُؤْمِنِينَ ﴾ مع ذلك لغاية تماديهم في الكفر والضلالة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ ﴾ الغالب القادر على الانتقام من الكفرة ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ المبالغ في الرحمة ، ولذلك يمهلهم ولا يأخذهم بغتة ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوْسَى ﴾ إذ منصوب باذكر المقدر ، والمناداة والنداء رفع الصوت ، والمعنى اذكر يا محمد لقومك وقت نداءه تعالى وكلامه موسى أي ليلة رأي الشجرة والنار ، حين رجع من مدين ، وذكّرهم بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم إياه ، وحذّرهم أن يصيبهم مثل ما أصابهم ﴿ أَنِ ائْتِ ﴾ تفسير نادى ، والمعنى قال ياموسى ائت ﴿ القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ بالكفر والمعاصي ، واستعباد بني إسرائيل ، وذبح أبنائهم ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من القوم ﴿ أَلاَ يَتَّقُوْنَ ﴾ أي ألا يخافون الله ويصرفون عن أنفسهم عقابه ، بالإيمان والطاعة ؟ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ ﴾ الخوفُ :توقُّعُ مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة ، كما أن الرجاء والطمع : توقعْ محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة ﴿ أَنْ يُكَذِّبُوْنِ ﴾ ينكروا نبوتي وما أقول من أول الأمر ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ وكان في موسى حِدَّةٌ ﴿ وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي ﴾ اللسانُ : الجارحة وقُوتها بالكلام ، قال الله تعالى (واحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي) يعني من قوة لساني ، فإن العقدة لم تكن في الجارحة وإنما كانت في قوتها التي هي النطق بها ﴿ فَأَرْسِلْ ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ إِلَى هَٰرُوْنَ ﴾ ليكون معيناً لي في التبليغ ، فإنه أفصح لساناً وهو أخوه الكبير . واعلم أن التكذيب سبب لضيق القلب ، وضيق القلب سبب لتعسر الكلام ، على من يكون في لسانه حُبْسَةٌ ، فلهذا بدأ عليه السلام بخوف التكذيب ، ثم ثنّى بضيق الصدر ، ثم ثلّث بعدم انطلاق اللسان ، وسأل تشريك أخيه هارون فإنه لو لم يُشْرك به في الأمر لاختلفت المصلحة المطلوبة من بعثة موسى ، وسبب عقدة لسانه عليه السلام احتراقه من الجمرة عند امتحان فرعون ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أي لقوم فرعون ﴿ عَلَيَّ ﴾ أي بذمتي ﴿ ذَنْبٌ ﴾ أي جزاء ذنب وموجبه ، والمراد به قتل القبطي ﴿ فَأَخَافُ ﴾ إن أتيتُهم وحدي ﴿ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ بمقابلته قبل أداء الرسالة كما ينبغي ، واعلم أن هذا ليس توقفاً من جانب موسى ، وتركاً للمسارعة إلى الامتثال ، بل هو استدفاع للبلية المتوقعة قبل وقوعها ، وحقيقته أن موسى عليه السلام أظهر التلوين من نفسه ليجد التمكين من ربه ، وقد آمنه الله وأزال عنه كل كلفة حيث ﴿ قَالَ ﴾ تعالى ﴿ كَلاَّ ﴾ أي ارتدع عما تظن ، فإنهم لا يقدرون على قتلك ، لأني لا أسلطهم عليك بل أسلطك عليهم ﴿ فَاذْهَبَا ﴾ أي أنت والذي طلبت وهو هارون ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ بآياتنا التسع ، التي هي دلائل القدرة وحجة النبوة ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة ، والمراد موسى وهارون وفرعون ، فمع موسى وهارون بالعون والنصر ، ومع فرعون بالقهر والكسر ﴿ مُسْتَمِعُونَ ﴾ والمعنى سامعون لما يجري بينكما وبينه ، ليؤيّد

الأولياء منهم ويظهرهم على الأعداء ، مبالغة في الوعد بالإعانة ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ ﴾ وهو « الوليد بن مصعب » وكنيته أبو العباس عاش أربعمائة وستين سنة ﴿ فَقُولاَ إِنَّا رَسُوْلُ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ لم يقل « رسولا » لأن موسى كان الرسول المستقلّ بنفسه ، وهارون كان رداً يُصدِّقه تبعاً له في الرسالة ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أن مفسرة لتضمن الإرسال معنى القول أي خَلِّهم وشأنهم ليذهبوا إلى أرض الشام وكانت مسكن آبائهم وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة ، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف ، فانطلق موسى إلى مصر ، وهارون كان بها ، فلمَّا تلاقيا ذهبا إلى باب فرعون ليلاً ، ودق موسى الباب بعصاه ، ففزع البوابون وقالوا : من بالباب ؟ فقال : موسى : أنا رسول رب العالمين ، فذهب البواب إلى فرعون ، فقال : إنَّ مجنوناً بالباب يزعم أنه رسول رب العالمين ، فأذن له في الدخول من ساعته كما قاله السدي ، أو ترك حتى أصبح ثم دعاهما فدخلا عليه ، وأديَّا رسالة الله ، فعرف فرعونُ موسى لأنه نشأ في بيته ﴿ قَالَ ﴾ فرعون لموسى على سبيل الامتنان ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ في حجرنا ومنازلنا ؟ ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ والعُمُر : اسم لمدة عمارة البدن بالحياة ، قليلة أو كثيرة ، قيل : لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدين وأقام بها عشر سنين ، ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله تعالى ثلاثين سنة ، ثم بقي بعد الغرق خمسين ، فيكون عمر موسى مائة وعشرين سنة ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ يعني قتل القبطي الذي كان خباز فرعون ، وبعد ما عدَّد نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ، نبَّهه بما جرى عليه من قتل خبازه وعظَّمه ، فإن تنكير الشيء وإبهامه يقصد به التعظيم ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ من المنكرين لنعمتي ، والجاحدين لحق تربيتي ، حيث عَمَدْتَ إلى رجل من خواصي فقتلته ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ فَعَلْتُهَا ﴾ أي تلك الفعلة ﴿ إِذًا ﴾ أي حين فعلت أي قتلت النفس ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أي ضللتُ طريق الصواب وأخطأته ، من غير تعمد ، كمن رمى سهماً إلى طائر وأصاب آدمياً ، وذلك لأن مراد موسى كان تأديبه لا قتله ، ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ ﴾ ذهبت من بينكم إلى مدين حذراً على نفسي ﴿ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ أن تصيبوني بمضرة وتؤاخذوني بما لا أستحقه بجنايتي من العقاب ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي ﴾ حين رجعتُ من مدين ﴿ حُكْمًا ﴾ أي علماً وحكماً ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إليكم قال بعض الكبار : إن الله تعالى إذا أراد أن يُبلِّغ أحداً من خلقه إلى مقام من المقامات العالية ، يلقي عليه رعباً حتى يفرَّ إليه من خلقه ، فيكشف له خصائص أسراره ، كما فعل بموسى عليه السلام ، ومعاصي الخواص ليست كمعاصي غيرهم ، فإنهم لا يقعون فيها بحكم الشهوة الطبيعية ، بل بحسب الخطأ وذلك مرفوع ﴿ وَتِلْكَ ﴾ أي التربية المدلول عليها بقوله (أَلَمْ نُرَبِّكَ) ﴿ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ أي تمنُّ بها عليّ ظاهراً وهي في الحقيقة بلاءٌ ﴿ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي تعبيدك بني إسرائيل ، فإنه السبب في وقوعي عندك ، وحصولي في تربيتك ، يعني لو لم يفعل فرعون ذلك أي من

قهر بني إسرائيل ، وذبح أبنائهم ، لتكفلت أم موسى بتربيته ، ولما قذفته في اليم حتى يصل إلى فرعون ، ويُربَّى بتربيته ، فكيف يمتنُّ عليه بما كان بلاؤه سبباً له ؟ يقال عبَّدته إذا أخذته عبداً وقهرته وذللته ، ردَّ موسى عليه السلام ما وبَّخه فرعون قدحاً في نبوته ، ثم رجع إلى ما عدَّه عليه من النعمة ، ولم يصرح بردّه حيث كان صدقاً غير قادح في دعواه ، قال بعضهم : بدأ فرعون بكلام السفلة ، ومنَّ على نبيّ الله بما أطعمه ، والمِنَّةُ : النعمةُ الثقيلة ، ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ** ﴾ والمعنى أيُّ شيء رب العالمين الذي ادَّعيتَ أنك رسوله ؟ وما حقيقته الخاصة ؟ ومن أي جنسٍ هو ؟ منكراً لأن يكون للعالمين ربٌّ سواه ﴿ **قَالَ** ﴾ موسى مجيباً له بما يصح في وصفه تعالى ﴿ **رَبُّ السَّمَوٰاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾ عيَّن ما أراده بالعالمين ، لئلا يحمله اللعين على ما تحت مملكته ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ مُوْقِنِينَ** ﴾ بالأشياء المرئيَّة ، المحققين لها بالنظر الصحيح ، علمتم أن العالم ما يُعْلم به الصانع ، وأن ربها هو الذي خلقها ، ورزق من فيها ودبَّر أمورها ، فهذا تعريفه وجواب سؤالكم لا غير ، والخطاب في « كنتم » لفرعون وأشراف قومه الحاضرين ﴿ **قَالَ** ﴾ فرعون عند سماع جوابه ، خوفاً من تأثيره في قلوب قومه وانقيادهم له ﴿ **لِمَنْ حَوْلَهُ** ﴾ من أشراف قومه وهم القبط ﴿ **أَلاَ تَسْتَمِعُونَ** ﴾ ما يقول فاستمعوه وتعجبوا منه ﴿ **قَالَ** ﴾ موسى زيادة في البيان ، وحطَّاً له عن مرتبة الربوبيَّة ﴿ **رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ** ﴾ قيل إن فرعون كان يدعي الربوبية على أهل عصره وزمانه ، فبين بهذه الآية أن المستحق للربوبية ، هو ربُّ كل عصر وزمان ﴿ **قَالَ** ﴾ فرعون من سفاهته ، وصرفاً لقومه عن قبول الحق ﴿ **إِنَّ رَسُوْلَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُوْنٌ** ﴾ لا يصدر ما قاله عن العقلاء ، وسماه رسولاً على السخرية ، وأضافه إلى مخاطبيه ترفعاً من أن يكون مرسلاً إلى نفسه ﴿ **قَالَ** ﴾ موسى زيادة في تعريف الحقّ ، ولم يشتغل بمجاوبته في السفاهة ﴿ **رَبُّ المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾ أراد التصريح بذكر الشروق والغروب ، للتغيرات الحادثة في العالم ، من النور مرة ، والظلمة أخرى ، المفتقرة إلى محدث عليم حكيم ﴿ **إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُوْنَ** ﴾ شيأ من الأشياء استدللتم بالأثر على المؤثر ، وفيه تلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل ، متصفون بما رموه عليه السلام به من الجنون ﴿ **قَالَ** ﴾ فرعون من غاية تمرده عن المحاجة بعد الإنقطاع ، وهكذا ديدن المعاند المحجوج ﴿ **لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُوْنِينَ** ﴾ أي لأجعلنك من الذين عرفت أحوالهم في سجوني ، فإنه كان يطرحهم في هوة عميقة حتى يموتوا ، ولذلك لم يقل لأسجنَنَّك ، لأنه أراد أن يبقيه في السجن حتى الموت .

﴿ **قَالَ** ﴾ موسى ﴿ **أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيءٍ مُبِينٍ** ﴾ يعني أتفعل بي ذلك ، لو جئتك بشيء موضّحٍ لصدق دعواي ؟ يعني المعجزة ﴿ **قَالَ** ﴾ فرعون ﴿ **فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ في أن لك

بينة موضحة لصدق دعواك ، وكان في يد موسى عصى فقال لفرعون : ما هذه التي بيدي ؟ قال عصا ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ أي ظاهر الثعبانية وأنها شيء يشبه الثعبان ، والثعبان أعظم الحيَّات ، قال فرعون من شدة الرعب : ياموسى أسألك بالذي أرسلك أن تأخذها ، فأخذها فعادت عصا ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ من جيبه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ ﴾ ذات نور وبياض ، من غير برص ﴿ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ موسى ، أخرج يده ، فقال ما هذه ؟ قال فرعون : يدك ، فأدخلها في إبطه ثم نزعها ، ولها شعاع كاد يَغْشى الأبصار ويسد الأفق ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ لِلْمَلأِ ﴾ أي لأشراف قومه ﴿ حَوْلَهُ ﴾ ظرف وضع موضع الحال أي مجتمعين حوله ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ يعني موسى ﴿ لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فائق في علم السحر ، والسحر تخيلات لا حقيقة لها ، وجه الجمع بين هذا وبين قوله في الأعراف (قال الملأ من قوم فرعون) حيث أسند القول إليهم ، أن فرعون قاله للحاضرين ، والحاضرون قالوه للغائبين ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ من أرض مصر ويتغلب عليكم ﴿ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُوْنَ ﴾ قال في كشف الأسرار : هي من المؤامرة لا من الأمر ، أي ماذا تشيرون به عليّ في دفعه ومنعه ؟ قَهَره سلطان المعجزة وحيَّره ، حتى حطَّه عن دعوى الربوبية إلى مقام مشاورة عبيده ، بعد ما كان مستقلاً بالرأي والتدبير ﴿ قَالُوْا ﴾ أي الملأ ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أي أخِّر أمر موسى وأخيه هارون ، حتى تنظر ، ولا تعجل بقتلها ، قبل أن يظهر كذبها ﴿ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ ﴾ في الأمصار والبلدان وأقطار مملكتك ﴿ حَاشِرِينَ ﴾ أي جمعاً من الشرطة يحشرون الناس ويجمعونهم ﴿ يَأْتُوْكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ أي فيعارضوا موسى بمثل سحره ، ويتَّضِحُ للعامة كذبه ، فتقتله حينئذ ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ ﴾ أي بعث فرعون الشُّرَط لجمع السحرة ، فَجُمِعوا وهم سبعون ألفاً كما يدل عليه كثرة الحبال والعصيِّ التي خيلوها ، وكان اجتماعهم بالإسكندرية على ما رواه الطبري ﴿ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُوْمٍ ﴾ أي لما وُقِّتَ به وعُيِّن من ساعات يوم معين ، يوم الزينة يوم عيد لهم ، كانوا يتزينون ويجتمعون فيه كل سنة ، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه وافق يوم السبت في أول يوم من السنة وهو يوم النيروز ، وإنما وقَّت لهم موسى وقت الضحى من يوم الزينة في قوله (﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾) ليظهر الحق ويزهق الباطلُ على رؤس الأشهاد ، ويشيع ذلك في الأقطار ، واختاره فرعون أيضاً ليظهر كذب موسى بمحضر الجمع العظيم ﴿ وَقِيلَ ﴾ من طرف فرعون ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ لأهل مصر وغيرهم ممن يمكن حضوره ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُوْنَ ﴾ ففيه استبطاء لهم في الاجتماع حثاً على مبادرتهم إليه ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوْا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ وليس مرادهم أن يتبعوا دينهم حقيقة ، وإنَما هو أن لا يتَّبعوا موسى ، لَكنهم ساقوا كلامهم مساق الكناية ، حملاً لهم على الاهتمام والجدّ في المغالبة ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوْا لِفِرعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأجراً ﴾ جُعْلاً عظيماً ﴿ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ ﴾ لا موسى ؟

﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ لكم ذلك ﴿ وإِنَّكُمْ ﴾ مع ذلك ﴿ إِذاً ﴾ بعني إذا غلبتم موسى ﴿ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ عندي تكونون أول من يدخل عليّ ، وآخر من يخرج من عندي ، وكان ذلك من أعظم المراتب عندهم ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوْا ﴾ اطرحوا ﴿ مَا أَنْتُمْ مُلْقُوْنَ ﴾ ظاهر الكلام أمر ومعناه التهاون في الأمر ، وترك المبالاة بهم وبأفعالهم ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ ﴾ جمع حبل ﴿ وَعِصِيَّهُمْ ﴾ جمع عصا ﴿ وَقَالُوْا ﴾ أي قالوا عند الإلقاء حالفين ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الغَالِبُوْنَ ﴾ على موسى وهارون ، أقسموا بعزته على أن الغلبة لهم ، لفرط اعتقادهم في أنفسهم ، ومجيئهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى من السحر ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ ﴾ بالأمر الآلهي ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ تبتلع بسرعة من لقفه كسمعه تناوله بسرعة ﴿ مَا يَأْفِكُوْنَ ﴾ أي ما يقلبونه من الحبال والعصيّ ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ﴾ على وجوههم ﴿ سَاجِدِينَ ﴾ لله تعالى إثر ما شاهدوا ذلك من غير تردد ، لعلمهم بأن مثل ذلك خارج عن حدود السحر ، وأنه أمر إلهي قد ظهر على يده لتصديقه ﴿ قَالُوْا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ انظر كيف أصبحوا سحرة ، وأمسوا مسلمين مؤمنين بَرَرة ؟ ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَرُوْنَ ﴾ بدل من رب العالمين ، لدفع توهم إرادة فرعون حيث كان قومه الجهلة يسمونه بذلك ، ولو وقفوا على رب العالمين لقال فرعون أنا رب العالمين إياي عنوا ، فزادوا رب موسى وهارون فارتفع الأشكال ﴿ قَالَ ﴾ فرعون للسحرة ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ ﴾ أي لموسى ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ أي بغير إذن لكم من جانبي ؟ ﴿ إِنَّهُ ﴾ موسى ﴿ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ فوافقكم على ما فعلتم وتواطأتم عليه ، أراد بذلك التلبيس على قومه ، كيلا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴾ أي وبال ما فعلتم ، ثم بيّن ما أوعدهم به فقال ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ لفظ التفعيل وهو التقطيع ، لكثرة الأيدي والأرجل ، كما تقول فَتَّحْتُ الأبواب ﴿ مِنْ خِلاَفٍ ﴾ وهو أن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي أجمع عليكم التقطيع والصلب ، روي أنه علقهم على جذوع النخل حتى ماتوا ﴿ قَالُوْا ﴾ أي السحرة المؤمنون ﴿ لاَ ضَيْرَ ﴾ أي لا ضرر فيه علينا ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ راجعون فيثيبنا بالصبر على ما فعلتّ ، ويجازينا على الثبات على التوحيد ، وفي الآية دلالة على أن للإنسان أن يظهر الحق وإن خاف القتل ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ ﴾ نرجو ﴿ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ السالفة من الشرك وغيره ﴿ أَنْ كُنَّا ﴾ أي لأن كنا ﴿ أَوَّلَ المُؤْمِنِينَ ﴾ أي من أتباع فرعون ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ الإيحاء : إعلامٌ في خفاء وأسرى سار ليلاً ، والمعنى وقلنا لموسى بطريق الوحي ياموسى اذهب ببني إسرئيل بالليل ، وسيّرهم حتى تنتهي إلى بحر القلزم فيأتيك هناك أمري ﴿ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُوْنَ ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ ﴾ حين أخبر بمسيرهم في الليل ﴿ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ أي قوماً جامعين للعساكر ليتبعوهم ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُوْنَ ﴾ استقلهم

وهم ستمائة ألف بالنسبة إلى جنوده ، إذ كان عدد آل فرعون لا يحصى ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُوْنَ ﴾ والغيظ أشد الغضب ، والمعنى لفاعلون ما يغيظنا ويغضبنا بمخالفتهم ديننا ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُوْنَ ﴾ يريد أن بني إسرائيل لقلتهم وحقارتهم لا يُبَالى بهم ، ونحن قومٌ من عادتنا التيقظ والحذر ، واستعمال الحزم في الأمور ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ ﴾ أي فرعون وقومه ﴿ مِنْ جَنَّاتٍ ﴾ بساتين كانت ممتدة على حافتي النيل ﴿ وَعُيُوْنٍ ﴾ من الماء أي انهار جارية ﴿ وَكُنُوْزٍ ﴾ يعني الأموال الظاهرة من الذهب والفضة ونحوهما ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ يعني المنازل الحسنة والمجالس البهية ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإخراج العجيب أخرجناهم فهو مصدر تشبيهي وقال أبو الليث : كذلك أي هكذا أفعل بمن عصاني ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي ملّكنا تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام إياهم ، على طريقة المال الموروث ، وكأنهم ملكوها من حين خروج أربابهم منها ﴿ فَأَتْبَعُوْهُمْ ﴾ بقطع الهمزة يقال أتبعه إذا طلب الثاني اللحوق بالأول والمعنى فخرجوا فلحقوا موسى وأصحابه ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ حال كونهم داخلين في وقت شروق الشمس أي طلوعها ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ ﴾ تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر ، والمراد جمع موسى وجمع فرعون ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوْسَى إِنَّا لَمُدْرَكُوْنَ ﴾ لملحقون من ورائنا ولا طاقة لنا بقوم فرعون وهذا البحر أمامنا لا منفذ لنا فيه ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ كَلاَّ ﴾ أي ارتدعوا وانزجروا عن ذلك المقال فإنهم لا يدركونكم ، فإن الله تعالى وعدكم الخلاص منهم ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي ﴾ بالحفظ والنصر والرعاية والعناية ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ البتة إلى طريق النجاة منهم بالكلية ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوْسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ هو بحر القلزم ويعرف اليوم موضعها بالسويس ، وبحر القلزم بحر مظلم موحشٌ لا خير فيه ، وعلى ساحل هذا البحر مدينة مدين وهي خراب ، وبها البئر التي سقى موسى عليه السلام منها غنم شعيب ، وهي معطّلةٌ الآن ﴿ فَانْفَلَقَ ﴾ أي فضرب فانفلق ماء البحر أي انشق فصار اثني عشر فلقةً ، بعدد الأسباط بينهن مسالك ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ ﴾ أي كل جزء تفرق منه وتقطع ﴿ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ كالجبل المرتفع في السماء الثابت في مقره ﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ أي قربنا من بني إسرائيل ﴿ ثَمَّ ﴾ حيث انفلق البحر ﴿ الآخَرِينَ ﴾ أي فرعون وقومه حتى دخلوا على إثرهم مداخلهم ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوْسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ أي أغرقناهم في البحر، جزاء كفرهم وتكذيبهم بآيات الله وإيذائهم لعبادنا المؤمنين ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في جميع ما فصّل ﴿ لآيَةً ﴾ لعبرة عظيمة للمعتبرين ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي آل فرعون ﴿ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب المنتقم من أعدائه كفرعون وقومه ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بأوليائه كموسى وبني إسرائيل ، يقول الفقير : هذا هو الذي يقتضيه ظاهر السياق ، فإن قوله تعالى﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً .. ﴾ ذكر في هذه السورة في ثمانية مواضع : أولها في ذكر النبي عليه السلام وقومه كما سبق ، والثاني في قصة موسى ، ثم إبراهيم ، ثم نوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم لوط ، ثم شعيب عليهم السلام ، فتعقيب القول المذكور بكل قصة من هذه القصص ، يدل على أن المراد

بالأكثر هو من لم يؤمن من قوم كل نبي من الأنبياء المذكورين ، وقد رجح بعضهم رجوع ضمير أكثرهم إلى قوم نبينا عليه السلام ، فيكون المعنى إن في ذلك المذكور لآية لأهل الاعتبار ، وما كان أكثر هؤلاء الذين يسمعون قصة موسى وفرعون ، من أهل مكة مؤمن ، لعدم تدبرهم واعتبارهم ، فليحذروا عن أن يصيبهم مثل ما أصاب آل فرعون ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي اقرأ على مشركي العرب وأخبرْ أهل مكة ﴿ **نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ خبره العظيم الشأن ﴿ **إِذْ قَالَ لأَبِيهِ** ﴾ آزر كما سبق ﴿ **وَقَوْمِهِ** ﴾ أهل بابل وهو موضع بالعراق وإليه ينسب السحر ﴿ **مَا تَعْبُدُوْنَ** ﴾ أيَّ شيء تعبدونه ؟ سألهم وقد علم أنهم عبدة الأوثان لينبههم على ضلالهم ، ويريهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة ﴿ **قَالُوْا نَعْبُدُ أَصْنَامًا** ﴾ وهي اثنان وسبعون صنماً من ذهب وفضة وحديد ونحاس وخشب كما في كشف الأسرار ، والصنمُ : ما كان على صورة ابن آدم من حجر أو غيره ﴿ **فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ** ﴾ لم يقتصروا على قولهم أصناماً ، بل أطنبوا في الجواب ابتهاجاً وافتخاراً بذلك ﴿ **قَالَ هَلْ يَسْمَعُوْنَكُمْ** ﴾ أي يسمعون دعاءكم ﴿ **إِذْ تَدْعُوْنَ** ﴾ وقت دعائكم فيستجيبون لكم ﴿ **أَوْ يَنْفَعُوْنَكُمْ** ﴾ على عبادتكم لها ﴿ **أَوْ يَضُرُّوْنَ** ﴾ أو يضرونكم بترك العبادة ، إذ لابد للعبادة من جلب نفع ، أو دفع ضر ؟ ﴿ **قَالُوْا** ﴾ ما رأينا منهم ذلك النفع أو الضر ﴿ **بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُوْنَ** ﴾ أي وجدناهم يعبدون مثل عبادتنا فاقتدينا بهم ، اعترفوا بأنها بمعزل من السمع والمنفعة والمضرة بالكلية ، واضطروا إلى إظهار أن لا سند لهم سوى التقليد ، ﴿ **قَالَ** ﴾ إبراهيم متبرئاً من الأصنام ﴿ **أَفَرَأَيْتُمْ** ﴾ أي أنظرتم وتأملتم فعلمتم ﴿ **مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُوْنَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُوْنَ** ﴾ الأولون فإن الباطل لا ينقلب حقاً بكثرة فاعليه وكونه دأباً قديماً ﴿ **فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي** ﴾ أي فاعلموا أن الأصنام أعداء لعابديهم ،لما أنهم يتضررون من جهتهم ، فوق ما يتضرر الرجل من عدوه ، فسمى الأصنام أعداء وهي جمادات على سبيل الاستعارة ، وقال الفراء : هو من المقلوب ، ومعناه فإني عدو لهم ، فإن من عاديته عاداك ﴿ **إِلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ** ﴾ استثناء منقطع أي لكنْ ربُّ العالمين ليس كذلك ، بل هو ولي في الدنيا والآخرة قال سحنون : لا تصح المحبة لمن لم ينظر إلى الأكوان وما فيها بعين العداوة ، حتى يَصِحَّ له بذلك محبة محبوبة بالانقطاع عما سواه ، ألا ترى الله كيف قال حاكياً عن الخليل ﴿ **فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ** ﴾ ؟ فينبغي هجر الخلق إرضاءً للخالق ، وما أحسن ما قيل :

كن من الخلق جانباً * وارْضَ بِاللهِ صَاحِبَا

قلّب الخلق كيف شئـ * ـتَ تَجَدْهُمْ عَقَارِبَا

﴿ **الَّذِي خَلَقَنِي** ﴾ صفة رب العالمين ﴿ **فَهُوَ** ﴾ وحده ﴿ **يَهْدِينِ** ﴾ يرشدني إلى صلاح الدارين ، بهدايته المتصلة المتجددة على الاستمرار كما ينبيء عنه صيغة المضارع ، وذلك أن مبدأ الهداية بالنسبة إلى

الإنسان ، هداية الجنين إلى امتصاص دم الحيض من الرحم ، ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والتنعم بلذائذها ﴿ **وَالَّذِي هُوَ** ﴾ وحده ﴿ **يُطْعِمُنِي** ﴾ أيَّ طعام شاء ﴿ **وَيَسْقِينِ** ﴾ أي هو رازقي فمن عنده طعامي وشرابي ، وجميع حاجاتي ، لا منعم غيرُه ، ولا رازق سواه .

* وأشارت الآية إلى مقام التوكل ، والرضى والتسليم والتفويض ، وقطع الأسباب والإقبال إليه بالكلية ، والإعراض عما سواه ﴿ **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ** ﴾ وحده ﴿ **يَشْفِينِ** ﴾ يبرئني من المرض ويعطي الشفاء لا الأطباء ،أَعْلَمَ إبراهيم أن الذي أمرض هو الذي يشفي ، وهو الله تعالى لكنْ نسب المرض إلى نفسه حيث لم يقل (وإذا أمرضني) والشفاء إلى الله تعالى ، مع أنهما من الله تعالى ، لرعاية حسن الأدب في العبارة كما قال الخضر عليه السلام (**فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا**) وكذا الجن راقبوا هذا الأدب بعينه حيث قالوا (وأنا لا ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بمن في الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً) وقوله ﴿ **وَإِذَا مَرِضْتُ** ﴾ بيان أن الصحة والمرض من متفرعات الأكل والشرب غالباً ، فإن البطنة تورث الأسقام والأوجاع ، والحمية أصل الراحة والسلامة ، قالت الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى ما سبب آجالكم ؟ لقالوا التخم ، وفي الحكمة ليس للبطنة خير من خَمْصةٍ تتبعها ﴿ **وَالَّذِي يُمِيتُنِي** ﴾ في الدنيا عند انقضاء الأجل ﴿ **ثُمَّ يُحْيِينِ** ﴾ في الآخرة لمجازاة العمل ﴿ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** ﴾ أي يوم الجزاء والحساب ، دعا بلفظ الطمع ولم يعزم في سؤاله تأدباً ، وبعد ما ذكر فنون الألطاف الفائضة عليه من الله تعالى من مبدأ خلقه إلى يوم بعثه ، حمله ذلك على مناجاته تعالى ودعائه فقال ﴿ **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا** ﴾ أي كمالاً في العلم والعمل ﴿ **وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ أي في زمرة الكاملين الراسخين في الصلاح ، أو اجمع بيني وبينهم في الجزاء في الجنة ﴿ **وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ** ﴾ جاهاً وحسن صيت في الدنيا ، يبقى أثره إلى يوم الدين ، ولذلك ما من أمة إلا وهم محبون له ، مثنون عليه ﴿ **وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ** ﴾ شبَّه الجنة بالميراث الذي استحقه الوارث بعد فناء مورِّثه ، فالمعنى واجعلني من المستحقين لجنة النعيم ، والمتمتعين بها كما يستحق الوارث مال مورثه ويتمتع به ﴿ **وَاغْفِرْ لِأَبِي** ﴾ الاستغفار لأحياء المشركين عبارة عن طلب توفيقهم وهدايتهم للإيمان ﴿ **إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ** ﴾ طريق الحق وهذا الدعاء كان قبل أن يتبين له أنه عدو لله ﴿ **وَلَا تُخْزِنِي** ﴾ أي ولا تفضحني ولا تهتك ستري ، وإنما قال ذلك مع علمه بأنه لا يخزيه ، إظهاراً للعبودية وحثاً لغيره على الاقتداء به ﴿ **يَوْمَ يُبْعَثُونَ** ﴾ أي الناس كافة ، وقيد عدم الإخزاء بيوم البعث لأن الدنيا مظهر اسم الستار ﴿ **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ** ﴾ لا ينفع مال أحداً ، ولا ينفع بنون فرداً ﴿ **إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ أي إلا مخلصاً سليم القلب من مرض الكفر والنفاق ، كان الكفار يقولون « نحن أكثر أموالاً وأولاداً » فأخبر الله أنه لا ينفعهم ذلك

اليوم المال والبنون لعدم سلامة قلوبهم في الدنيا ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي قرّبت الجنة للمتقين ، بحيث يشاهدونها من الموقف ، ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن ، فيفرحون بأنهم المحشورون إليها ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ الضالين عن طريق الحق الذي هو الإيمان والتقوى ، أي جعلت بارزة لهم ، بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الأهوال ، فيزدادون غماً ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ أي للغاوين على سبيل التوبيخ ، والقائلون الملائكة ﴿ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ ﴾ أي أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شفعاؤكم في هذا الموقف ، وتقربكم إلى الله زلفى ؟ ﴿ هَلْ يَنْصُرُوْنَكُمْ ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿ أَوْ يَنْتَصِرُوْنَ ﴾ بدفعه عن أنفسهم ، ثم هذا سؤال تقريع وتبكيت لا يتوقع له جواب ، ولذلك قيل ﴿ فَكُبْكِبُوْا فِيهَا ﴾ الكبكبة تدهور الشيء في هوّة ، وهو تكرير الكب وهو الطرح والإلقاء منكوساً ، وجعل تكرير اللفظ دليلاً على تكرير ، المعنى فمعنى الآية ألقوا في الجحيم منكوسين على رؤسهم ، إلى أن يستقروا في قعرها ﴿ هُمْ ﴾ أي آلهتهم ﴿ وَالْغَاوُوْنَ ﴾ الذين كانوا يعبدونهم ﴿ وَجُنُوْدُ إِبْلِيسَ ﴾ شياطينه أي ذريته الذين كانوا يغوونهم ويوسوسون إليهم ، ويسوّلون لهم ما هم عليه من عبادة الأصنام ﴿ أَجْمَعُوْنَ ﴾ تأكيد لضميرهم وما عطف عليه ﴿ قَالُوْا ﴾ أي قال العبدة معترفين بخطاياهم ﴿ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُوْنَ ﴾ أي والحال أنهم في الجحيم مخاطبين لمعبوداتهم ، ولا يُستبعد أن الله تعالى يجعل الأصنام صالحة للاختصام ، بأن يعطيها القدرة على النطق والفهم ﴿ تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي إن الشأن كنا في ضلال واضح لاخفاء فيه ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي تالله لقد كنا في غاية الضلال الفاحش ، وقت تسويتها فيب استحقاق العبادة برب العالمين ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُوْنَ ﴾ أي الرؤساء والكبراء كما في قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا ﴾ ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء عليهم السلام ﴿ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ كما يرى لهم أصدقاء ، والصديقُ من صدقك في مودته ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ لو للتمني أي فليت لنا رجعة إلى الدنيا ﴿ فَنَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنصب جواب التمني ، وهذا كلام التأسف والتحسر ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، ألا ترى إلى الأمم في الدنيا ، فإن الله تعالى أخذهم بالبأساء والضراء تكراراً ، ثم كشفه عنهم فلم يزيدوا إلا إصراراً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي فيما ذكر ﴿ لآيَةً ﴾ لعبرة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أكثر قوم إبراهيم ﴿ مُؤْمِنِينَ ﴾ كحال أكثر قريش ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ يمهل كما أمهل قريشاً لكي يؤمنوا ولكنه لا يهمل ، فإنه لابد لكل عامل من المكافأة على عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوْحٍ ﴾ القوم الجماعة من الرجال والنساء معاً ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي نوحاً وحده ، والجمع باعتبار أن من كذب رسولاً فقد كذب الجميع ، لاجتماع الكل على التوحيد ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوْهُمْ ﴾ في النسب لئلا يجهل أمره في الصدق والديانة ﴿ نُوْحٌ ﴾ عطف بيان لأخوهم ﴿ أَلاَ تَتَّقُوْنَ ﴾ الله حيث

تعبدون غيره ؟ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُوْلٌ ﴾ من جهته تعالى ﴿ أَمِينٌ ﴾ مشهور بالأمانة فيما بينكم ، ومن كان أميناً على أمور الدنيا كان أميناً على الوحي والرسالة ﴿ فَاتَّقُوْا اللهَ ﴾ خافوا الله ﴿ وَأَطِيعُوْنِ ﴾ فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله ، فإني لا أخونكم ولا أريدكم بسوء ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على أداء الرسالة ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ جُعل أصلاً ، وذلك لأن الرسل إذا لم يسألوا أجراً كان أقرب إلى التصديق وأبعد عن التهمة ﴿ إِنْ أَجْرِيَ ﴾ ما ثوابي فيما دعوتكم إليه ﴿ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ لأن من عمل لله ، فلا يطلب الأجر من غير الله ، وبه يشير إلى أن العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، يتأدبون بآداب أنبيائهم ، فلا يطلبون من الناس شيئاً في بث علومهم .

﴿ فَاتَّقُوْا اللهَ وَأَطِيعُوْنِ ﴾ التكرير للتأكيد ﴿ قَالُوْا ﴾ أي قوم نوح ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾ الاستفهام للإنكار أي لا نؤمن لك ﴿ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُوْنَ ﴾ أي إنما تصحبك السفلة ، جمع الأرذل ، والرذالة : الخسة والدناءة ، يعنون أن لا عبرة لاتّباعهم لك ، إذ ليس لهم رزانة عقل ، وإصابة رأي ﴿ قَالَ ﴾ نوح جوابا عن قولهم إنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة ﴿ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ ﴾ أنهم عملوه إخلاصاً أو نفاقاً ، وما وظيفتي التفتيش عن بواطنهم ، والشق عن قلوبهم ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ ﴾ ما محاسبتهم على بواطنهم ﴿ إِلاَّ عَلَى رَبِّي ﴾ فإنه المطلع على الضمائر ﴿ لَوْ تَشْعُرُوْنَ ﴾ لعلمتم ذلكَ ، ولكنكم تجهلون فتقولون مالا تعلمون ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الطردُ : الإزعاج والإبعاد ، وما أنا بمبعدِ مَنْ أقبل على ربه ﴿ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي ما أنا إلا رسول مبعوث لإنذار المكلفين ، سواء كانوا من الأعزاء أو الأذلاء ، فكيف يليق بي طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء ؟ ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوْحُ ﴾ أي قال قومه المكابرون المعاندون ، لئنَ لم تكفَّ عن الدعوة والإنذار ﴿ لَتَكُوْنَنَّ مِنَ الْمَرْجُوْمِينَ ﴾ أي المقتولين أقبح قِتْلة ، قالوه قاتلهم الله في أواخر الأمر ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُوْنِ ﴾ أصرُّوا على التكذيب ، ولم يزدهم دعائي إلا فراراً ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ أي أحكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا ، من الفتاحة وهي الحكومة ، والفتَّاحُ : الحاكم ، أراد به الحكم بإنزال العقوبة عليهم ﴿ وَنَجِّنِي ﴾ خلصني ﴿ وَمَنْ مَعِيَ من الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي من العذاب ومن أذى الكفار ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ حسب دعائه ﴿ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُوْنِ ﴾ أي المملوء بهم وبكل صنف من الحيوان ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ﴾ أي بعد إنجائهم ﴿ البَاقِينَ ﴾ من قومه ممن لم يركب السفينة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الذي فعل بقوم نوح ﴿ لآيَةً ﴾ لعبرة لمن بعدهم ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي أكثر قوم نوح ، فلم يؤمن من قومه إلا ثمانون من الرجال والنساء ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ ﴾ الغالب على ما أراد من عقوبة الكفار ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ لمن تاب أو بتأخير العذاب ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أنَّث عاد باعتبار القبيلة ، وهو اسم أبيهم الأقصى ، وقد انقرضوا عن آخرهم فلم يبق لهم من نسلٌ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوْهُمْ ﴾

في النسب ﴿ هُودٌ ﴾ بن شالخ بن سام بن نوح ﴿ أَلا تَتَّقُوْنَ ﴾ الله تعالى ﴿ إِنِّيْ لَكُمْ رَسُوْلٌ ﴾ من جهته تعالى ﴿ أَمِيْنٌ ﴾ مشهور بالأمانة فيما بينكم ﴿ فَاتَّقُوْا اللهَ ﴾ خافوا من عقابه ﴿ وَأَطِيْعُوْنِ ﴾ فيما آمركم به من حق ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على أداء الرسالة ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ كما يسأل بعض نقلة القصص ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِيْنَ ﴾ لأنه هو الذي أرسلني فكان أجري عليه ، وهو بيان لتنزهه عن المطامع الدنيّة ، والأعراض الدنيوية ﴿ أَتَبْنُوْنَ ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري ﴿ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ والرِيع : بكسر الراء المكان المرتفع ﴿ آيَةً ﴾ بناء عالياً متميزاً عن سائر الأبنية حال كونكم ﴿ تَعْبَثُوْنَ ﴾ ببنائه ، فإن بناء ما لا ضرورة فيه عبث وقال في الجلالين : ﴿ آية ﴾ يعني أبنية الحَمَام وبروجها ، أنكر هود عليهم اتخاذهم بروج الحمام عبثاً ، ولعبهم بها كالصبيان ، وقال بعضهم في الآية ، تعبثون بمن مرّ بكم ، لأنهم كانوا يبنون الغرف في الأماكن العالية ، ليشرفوا على المارة فيسخرون منهم ، ويعبثون بهم ، ﴿ وَتَتَّخِذُوْنَ مَصَانِعَ ﴾ أمكنة شريفة كالقصور والحصون ، أو الحياض العظيمة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُوْنَ ﴾ راجين أن تخلدوا في الدنيا أي عاملين عمل من يرجو ذلك ، فلذلك تُحْكِمون بناءها ، فلعل للتشبيه أي كأنكم تخلدون ، ذمهم أولاً بإضاعتهم المال عبثاً بلا فائدة ، وثانياً بإحكامهم البناء على وجه يدل على طول الأمل والغفلة ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ ﴾ بسوط أو سيف ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِيْنَ ﴾ متسلطين ظالمين ، بلا رأفة ولا قصد تأديب ، والجبار الذي يضرب ويقتل على الغضب ﴿ فَاتَّقُوْا اللهَ ﴾ واتركوا هذه الأفعال من بناء الأبنية العالية والبطش بغير حق ﴿ وَأَطِيْعُوْنِ ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد والعدل والإنصاف وترك الأمل ونحوها فإنه أنفع لكم ﴿ وَاتَّقُوْا الَّذِيْ أَمَدَّكُمْ ﴾ الإمدادُ : اتباع الثاني بما قبله شيئاً بعد شيءٍ على انتظام ﴿ بِمَا تَعْلَمُوْنَ ﴾ أي ما أكرمكم به من أنواع النعمان ، وأصناف الآلاء التي لا تُحصى ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ ﴾ حيوانات مأكولة ﴿ وَبَنِيْنَ ﴾ أولاد وذرية ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ بساتين وحدائق ﴿ وَعُيُوْنٍ ﴾ أنهار جارية ﴿ إِنِّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ إن لم تقوموا بشكر هذه النعم ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ ﴾ في الدنيا والآخرة ، فإن كفران النعمة مستتبع للعذاب ﴿ قَالُوْا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الوَاعِظِيْنَ ﴾ فإنا لن نرجع عما نحن عليه ، والوعظ زجرٌ يقترن بتخويف ، وكلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد ، وقال الخليل : هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب ، والعظة والموعظة الاسم ﴿ إِنْ هَذَا ﴾ أي ما هذا الذي جئتنا به ﴿ إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِيْنَ ﴾ يلّفقون مثل هذا الكذب ويسطّرونه ، أو ما هذا الذي نحن فيه إلاّ عادة الأولين من قبلنا ، فلا نترك هذه العادة بقولك ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِيْنَ ﴾ على ما نحن عليه من الأعمال والعادات ﴿ فَكَذَّبُوْهُ ﴾ وأصرّوا على ذلك ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أي بسبب التكذيب بريح صرصر ﴿ إِنَّ فِيْ ذَلِكَ ﴾ يعني هلاك قوم عاد ﴿ لآيَةً ﴾ أي لعبرة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي أكثر قوم عاد ﴿ مُؤْمِنِيْنَ ﴾ أي مصدقين

برسالته ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب المنتقم ممن يعمل عمل الجبارين ، ولا يقبل الموعظة ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بأوليائه وأحبابه ، وهو تخويف لهذه الأمة كيلا يسلكوا مسالكهم ، قيل : خير ما أعطي الإنسان عقلٌ يردعه ، فإن لم يكن فحياء يمنعه ، فإن لم يكن فخوف يقمعه ، فإن لم يكن فمال يُسْعِده ، فإن لم يكن فصاعقة تحرقه ، وتريح منه العباد والبلاد ، فعلى العاقل أن يعتبر ويخاف من عقوبة الله تعالى ، ويترك العادات والشهوات ، ولا يصر على المخالفات والمنهيات ، وقد أهلك الله تعالى قوم عاد ، مع شدة قوتهم وشوكتهم ، بأضعف الأشياء وهو الريح ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ﴾ وهو ثمود بن عبيد بن عوص بن سام بن نوح ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ يعني صالحاً ومن قبله من المرسلين ، أو إياه وحده ، والجمعُ باعتبار أن تكذيب واحد من الرسل في حكم تكذيب الجميع ، لاتفاقهم على التوحيد ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴾ النسبي لا الديني صَالِحٌ بن عبيد ﴿ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ إِنِي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فإن شهرتي فيما بينكم بالأمانة موجبة لتقوى الله ، وإطاعتي فيما أدعوكم إليه ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على النصح والدعاء ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ فإن ذلك تهمة لأهل العفة ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فإنه الذي أرسلني فالأجر عليه ﴿ أَتُتْرَكُونَ ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتظنون أنكم تتركون ﴿ فِيمَا هَٰهُنَا ﴾ أي في النعيم الذي هو ثابت في الدنيا ، وأن لا دار للمجازاة ﴿ آمِنِينَ ﴾ حال من فاعل تتركون وفسر النعيم بقوله ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ بساتين ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ أنهار ، وقال بعضهم : كانت لهم في الشتاء آبار ، وفي الصيف أنهار ، لأنهم كانوا يخرجون في الصيف إلى القصور والأنهار ﴿ وَزُرُوعٍ ﴾ أنواع الزرع ﴿ وَنَخْلٍ ﴾ أفرد النخل مع دخولها في أشجار الجنات ، لفضلها على سائر الأشجار ﴿ طَلْعُهَا ﴾ طلع النخل ما يطلع منها أي العذق وكل غصن من أغصانه شمراخ ، وهو الذي عليه البسر ، والقنو بمنزلة العنقود من الكرم ﴿ هَضِيمٌ ﴾ لطيف لين في جسمه ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ﴾ قصوراً ﴿ فَارِهِينَ ﴾ أي حاذقين من الفراهة وهي النشاط ، ومن قرأ « فَرِهِينَ » جعله بمعنى مرحين أشرين بطرين ، إن الغالب على قوم هود هو اللذات الخيالية وهو طلب الاستعلاء ، والبقاء والتفرد والتجبر ، والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية وهي طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي لا تمتثلوا أمرهم ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ أي بالكفر والظلم ﴿ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ بالإيمان والعدل ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ أي من المسحورين مرة بعد أخرى ، حتى اختل عقله واضطرب رأيه ، فبناء التفعيل لتكثير الفعل ﴿ مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ تأكل وتشرب ولست بملك ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في دعواك النبوة ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ ﴾ أي نصيب من الماء تستقيه كل يوم ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ فاقتصروا على شربكم ولا تزاحموها على شربها ، وفيه دليل على جواز قسمة المنافع بالمهايأة ، وهي أن

يتواضعوا على أمر فيتراضوا به ، فلو قسم الشريكان منفعة دار مشتركة على أن يسكن أحدهما في بعضها والآخر في بعضها ، هذا في علوها ، وهذا في سفلها ، جاز ﴿ وَلاَ تَمَسُّوْهَا بِسُوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ عظم اليوم بالنسبة إلى عظم ما حلَّ فيه ، وهو ههنا صيحة جبريل ﴿ فَعَقَرُوْهَا ﴾ عقرت البعير نحرته ، رُوي أن « قُدَار بنُ سالفٍ » ألجأها إلى مضيقٍ في شِعْبٍ ، فرماها بسهمٍ فسقطتْ ، ثم أقبل عليها فضربها في عرقوبها فماتت ﴿ فَأَصْبَحُوْا ﴾ صاروا ﴿ نَادِمِينَ ﴾ على عقرها خوفاً من حلول العذاب ، لا توبة ، ولذلك لم ينفعهم الندم ﴿ فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ ﴾ الموعود وهو صيحة جبريل ، وذلك يوم السبت فهلكوا جميعاً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في العذاب النازل بثمود ﴿ لآيَةً ﴾ دالة على أن الكفر موجب لنزول العذاب ، فليعتبر العقلاء ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أكثر قوم ثمود ﴿ مُؤْمِنِينَ ﴾ وكان صالح عليه السلام أرسل بعد هود بمائة سنة ، وعاش مائتين وعشرين سنة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ ﴾ الغالب على ما أراد من الإنتقام من قوم ثمود ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ وكانت الناقة علامة لنبوة صالح عليه السلام ، فلما أهلكوها ولم يعظموها صاروا نادمين حين لم ينفعهم الندم ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوْطٍ ﴾ يعني أهل سدوم وما يتبعها ﴿ المُرْسَلِينَ ﴾ يعني لوطاً ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوْهُمْ لُوْطٌ ﴾ وهو لوط بن هاران ﴿ أَلاَ تَتَّقُوْنَ ﴾ ألا تخافون عقاب الله تعالى على الشرك والمعاصي ؟ ﴿ إِنِّيَ لَكُمْ رَسُوْلٌ ﴾ مرسل من جانب الحق ﴿ أَمِينٌ ﴾ مشهور بالأمانة ﴿ فَاتَّقُوْا اللهَ وَأَطِيعُوْنِ ﴾ فإن قول المؤتمن معتمد ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على التبليغ والتعليم ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ ومكافأة دنيوية ، فإن ذلك تهمة لمن يبلغ عن الله ﴿ إِنْ أَجْرِيَ ﴾ ما ثوابي ﴿ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ بل ليس متعلق الطلب إلا إياه تعالى ، فله أعمل ، ومنه أبتغي الأجر والثواب .

﴿ أَتَأْتُوْنَ الذُّكْرَانَ مِنَ العَالَمِينَ ﴾ الذكرانُ : الذكور جمع الذكر ضد الأنثى ، والمعنى أتأتون الذكور وتجامعونهم ، وتعملون مالا يشارككم فيه غيركم ؟ ﴿ وَتَذَرُوْنَ ﴾ تتركون ﴿ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ لأجل استمتاعكم ﴿ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ من جنس الإناث ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُوْنَ ﴾ متجاوزون الحد في جميع المعاصي ، واختلفوا في اللوطي فقال أبو حنيفة : يُعزَّر ولا يحدُّ حدَّ الزنى خلافاً لصاحبيه ، وقال مالك : يجب على الفاعل والمفعول به الرجم أحصنا أم لا ، وعند الشافعي وأحمد حكمه حكم الزنى ﴿ قَالُوْا ﴾ مهددين ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوْطُ ﴾ أي عن تقبيح أمرنا وإنكارك علينا ﴿ لَتَكُوْنَنَّ مِنَ المُخْرَجِينَ ﴾ من المهدَّدين بالنفي والإخراج من القرية ﴿ قَالَ إِنِّيَ لَعَمَلِكُمْ ﴾ يعني إتيان الرجال ﴿ مِنَ القَالِينَ ﴾ من المبغضين أشد البغض ، من القلى وهو البغض الشديد ، ولعله عليه السلام أراد إظهار الكراهة في مساكنتهم ، والرغبة في الخلاص من سوء جوارهم ، ولذلك أعرض عن محاورتهم وتوجه إلى الله قائلاً ﴿ رَبِّ نَجِّنِي ﴾ خلصني ﴿ وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من شؤم عملهم الخبيث وعذابه

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أي أهل بيته من بينهم وقت مشارف حلول العذاب بهم ﴿ إِلاَّ عَجُوزاً ﴾ هي امرأة لوط واسمها « والهة » استثنيت من أهله ، فلا يضره كونها كافرة ﴿ فِي الغَابِرِينَ ﴾ أي مقدراً كونها من الباقين في العذاب ، لأنها كانت راضية بفعلهم ، وقد أصابها الحجر في الطريق فأهلكها ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴾ أهلكناهم أشد الإهلاك وأفظعه بقلب بلدتهم ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي على الخارجين من بلادهم ﴿ مَطَراً ﴾ أي مطراً شديداً غير معهود وهو الحجارة ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ المُنْذَرِينَ ﴾ بئس مطر من أنذر فلم يؤمن ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الذي فعل بقوم لوط ﴿ لآيَةً ﴾ لعبرة لمن بعدهم ، فليجتنبوا عن قبيح فعلهم ، كيلا ينزل بهم ما نزل بقوم لوط من العذاب ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ ﴾ بقهر الأعداء ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بنصرة الأولياء ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ المُرْسَلِينَ ﴾ أي كذبوا شعيباً والأيكة : الغيضة التي تنبت ناعم الشجر ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب وهو شعيب بن تويب بن مدين بن إبراهيم ﴿ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ أي ألا تخافون عقاب الله ؟ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ على الرسالة لا أطلب إلاّ صلاح حالكم ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به فإن أمري أمر عن الله ، وإطاعتي إطاعة له في الحقيقة ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على أداء الرسالة والتبليغ ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ مكافأة ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ أَجْرِيَ ﴾ ثواب عملي وأجرة خدمتي ﴿ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ فإن الفيض وحسن التربية منه تعالى على الكل ، خصوصاً على من كان مأموراً بأمر من جانبه ﴿ أَوْفُوا الكَيْلَ ﴾ أتوه ﴿ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ المُخْسِرِينَ ﴾ حقوق الناس بالتطفيف ، يقال : خسرته وأخسرته نقصته ﴿ وَزِنُوا ﴾ الموزونات ، والوزن معرفة قدر الشيء ﴿ بِالقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ ﴾ أي بالميزان السويّ العدل ﴿ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق ﴿ وَاتَّقُوا ﴾ الله ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴾ الجِبِلَّةُ : الخلقة يعني من تقدمهم من الخلائق ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ ﴾ من المسحورين مرة بعد أخرى ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ إدخال الواو بين الجملتين ، للدلالة على أن كلاً من التسحير والبشرية مناف للرسالة ، مبالغة في التكذيب ، بخلاف قصة ثمود فإن ترك الواو هناك لأنه لم يقصد إلا معنى واحداً هو التسحير ﴿ وَإِنْ ﴾ أي وإن الشأن ﴿ نَظُنُّكَ لَمِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ في دعوى النبوة ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ جمع كسفة بالكسر بمعنى القطعة ، ولعله جواب لما أشعر به الأمر بالتقوى من التهديد ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في دعوى الرسالة ﴿ قَالَ ﴾ شعيب ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والمعاصي ، وبما تستحقون بسببه من العذاب ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي أصروا على تكذيبه بعد وضوح الحجة وانتفاء الشبهة ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ حسبما اقترحوا ، سلّط الله فيها عليهم الحرارة الشديدة ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي عذاب يوم الظلة ﴿ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ

﴿ عَظِيمٍ ﴾ وَعِظَمه لعظم العذاب الواقع فيه ، روي أن شعيباً أرسل إلى أمتين : أصحاب مدين ، ثم أصحاب الأيكة ، فأهلكت مدين بالصيحة والرجفة ، وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ المذكور من قصة قوم شعيب ﴿ لآيَةً ﴾ لعبرة للعقلاء ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي أكثر أصحاب الأيكة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ ﴾ الغالب القادر على كل شيء ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بالإمهال ، وهذا آخر القصص السبع المذكور ، تسلية لرسول الله ﷺ ، وتهديداً للمكذبين به من قريش ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ راجع إلى القرآن للعلم به ﴿ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ والمعنى إن القرآن الذي من جملته ما ذكر من القصص السبع ، لمنزلٌ من جهته تعالى ، لأن الإخبار من مثله لا يكون إلا بطريق الوحي ﴿ نَزَلَ بِهِ ﴾ أي أنزله ﴿ الرُّوْحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ أي جبريل فإنه أمين على وحيه ، وسمي روحاً لكونه سبباً لحياة قلوب المكلفين ، بنور المعرفة والطاعة ، وسمي جبريل روحاً ، لأن جسمه روح لطيف روحاني ﴿ لِتَكُوْنَ مِنَ المُنْذِرِينَ ﴾ المخوفين مما يؤدي إلى عذاب من فعل أو ترك ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ اللسان بمعنى اللغة لأنه آلة التلفظ بها ، أي نزل به بلسان عربي ، ظاهر المعنى لئلا يبقى لهم عذر ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي وإن ذكر القرآن ﴿ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾ أي لفي الكتب المتقدمة ، يعني أن الله تعالى أخبر في كتبهم عن القرآن ، وإنزاله على النبي المبعوث في آخر الزمان ﴿ أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الضمير راجع إلى مشركي قريش أي أغفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل رب العالمين ، أن يعلمه علماء بني إسرائيل ، كعبد الله بن سلام ونحوه بنعوته المذكورة في كتبهم ؟ روي أن أهل مكة بعثوا إلى يهود المدينة ، يسألونهم عن محمد وبعثته ، فقالوا إن هذا لزمانه ، وإنا نجد في التوراة نعته وصفته ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ ﴾ أي القرآن بنظمه المعجز ﴿ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ ﴾ الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية ، جمع أعجمي بالتخفيف ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ﴾ قراءة صحيحة خارقة للعادات ﴿ مَا كَانُوْا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء ، لعظم عنادهم وشدة شكيمتهم في المكابرة ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ أي أدخلنا القرآن ﴿ فِي قُلُوْبِ المُجْرِمِينَ ﴾ أي في قلوب مشركي قريش ، فعرفوا معانيه وإعجازه ، فقوله ﴿ لاَ يُؤمِنُوْنَ بِهِ ﴾ استئناف لبيان عنادهم ﴿ حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ الملجىء إلى الإيمان به ، حين لا ينفعهم الإيمان ﴿ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي فينزل عليهم العذاب فجأة ، دون سابق إنذار ، وهذا أشدُّ وأفظع على البشر ﴿ وَهُمْ لاَيَشْعُرُوْنَ ﴾ بإتيانه ﴿ فَيَقُوْلُوْا ﴾ تحسراً على ما فات من الإيمان وتمنياً للإمهال ﴿ هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُوْنَ ﴾ أي مؤخرون لنؤمن ونصدق ؟ ولما أوعدهم النبي عليه السلام بالعذاب ، قالوا إلى متى تعدنا بالعذاب ، ومتى هذا العذاب ؟ نزل قوله تعالى ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُوْنَ ﴾ فيقولون تارة « أمطر علينا حجارة من السماء » وأخرى « فائتنا بما تعدنا » أفيستعجلون بعذابنا ؟ ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ لما كانت

الرؤية من أقوى أسباب الإخبار بالشيء وأشهرها ، شاع استعمال أرأيت في معنى أخبرني ، فالمعنى أخبرني ﴿ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ ﴾ جعلنا مشركي قريش متمتعين منتفعين ﴿ سِنِينَ ﴾ كثيرة في الدنيا مع طيب المعاش ولم نهلكهم ﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ أيْ أيُّ شيء أغنى عنهم كونهم ممتعين ذلك التمتيع ؟ روي أن ميمون بن مهران لقي الحسن في الطواف ، وكان يتمنى لقاءه فقال له : عظني فلم يزده على تلاوة هذه الآية ، فقال له ميمونُ : لقد وعظتَ فأبلغت، وروي أن عمر بن عبد العزيز كان يقرأ هذه الآية كل صباح إذا جلس على سريره تذكراً بها واتعاظاً .

* قال يحيى بن معاذ أشد الناس غفلة من اغتر بحياته الفانية ، والتذَّ بموداته الواهية ، وسكن إلى مألوفاته ، كان الرشيد حبس رجلاً فقال الرجل للموكل عليه قل لأمير المؤمنين : كل يوم مضى من نعمتك ينقص من محنتي ، والأمر قريب ، والموعد الصراط ، والحاكم الله ، فخرَّ الرشيد مغشياً عليه ، ثم أفاق وأمر بإطلاقه ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ من القرى المهلكة ﴿ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُوْنَ ﴾ قد أنذروا أهلها والمراد بهم النبي وأتباعه المظاهرون له ﴿ ذِكْرَىٰ ﴾ أي لأجل التذكير والموعظة ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فنُهْلكَ غير الظالمين ، والتعبير عن ذلك لبيان كمال نزاهته عن ذلك ، بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه من الظلم ، بل نزل به الروح الأمين ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ ﴾ أي وما يصح وما يستقيم لهم أن ينزلوا بالقرآن من السماء ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُوْنَ ﴾ وما يقدرون على ذلك أصلاً ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ بعد مبعث الرسول ﴿ عَنِ السَّمْعِ ﴾ لكلام الملائكة ﴿ لَمَعْزُولُوْنَ ﴾ لأنهم يرجمون بالشهب ﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ ﴾ إذا عرفت يامحمد حال الكفار فلا تعبد معه تعالى إلهاً آخر ﴿ فَتَكُوْنَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ خوطب به النبي عليه السلام تهييجاً لعزيمته ، وحثاً على إزدياد الإخلاص ، ولطفاً بسائر المكلفين ، ببيان أن الإشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره منه ، فكيف بمن عداه ؟ ﴿ وَأَنْذِرْ ﴾ العذاب ﴿ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ العشيرة أهل الرجل الذين يتكثر بهم والمراد بهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، وإنما أمر بإنذار الأقربين لأن الاهتمام بشأنهم أهم ، روي أنه لما نزلت صعد الصفا وناداهم فخذاً فخذاً ، حتى اجتمعوا إليه ، فقال لو أخبرتكم أن بَسفْح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقيَّ ؟ قالوا نعم ، قال : فإني نذير لكم بين يديْ عذاب شديد ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ألن جانبك لهم واحتمل منهم سوء الأحوال ، وعاشرهم بجميل الأخلاق ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ أي فإن خرجت عشيرتك عن الطاعة وخالفوك ولم يتبعوك ﴿ فَقُلْ إِنِيّ بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُوْنَ ﴾ أي من عبادتكم لغير الله تعالى ، وقل لهم قولاً معروفاً بالنصح والعظة ، لعلهم يرجعون إلى طاعتك وقبول الدعوة منك ﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾ في جميع حالاتك ﴿ عَلَى الْعَزِيزِ ﴾ الذي لا يذل من والاه ولا يعز من

عاداه ، فهو يقدر على قهر أعدائه ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ الذي يرحم من توكل عليه فإن الله تعالى هو الكافي لشر الأعداء ﴿ الَّذِي يَرَاكَ ﴾ أي توكل على اللهِ الذي يراك ﴿ حِينَ تَقُوْمُ ﴾ أي إلى التهجد في جوف الليل، وفي الحديث (أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل)[1] وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي عليه السلام كان لا يدع قيام الليل ، وكان إذا مرض أو كسل صلَّى قاعداً ، إذا فاتته الصلاة من الليل من وجع أو غيره صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة .

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السٰجِدِينَ ﴾ أي ويرى ترددك في تصفح أحوال المتهجدين ، لتطَّلع على حقيقة أمرهم ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لما تقوله ولدعوات عباده ومناجاة الأسرار ﴿ العَلِيمُ ﴾ بما تنويه وبوجود مصالحهم ، وقال بعضهم : ﴿ تقلبك في الساجدين ﴾ أي تصرفك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود إذا أممتهم ، فقوله « في الساجدين » معناه مع المصلين في الجماعة ، فكأن أصل المعنى يراك حين تقوم وحدك للصلاة ، ويراك إذا صليت مع المصلين جماعة * وعن ابن عباس في قوله ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً فمعنى « في الساجدين » في أصلاب الأنبياء والمرسلين من آدم إلى نوح وإلى إبراهيم وإلى من بعده إلى أن ولدته أمه ، وهذا لا ينافي وقوع من ليس نبياً في آبائه فالمراد وقوع الأنبياء في نسبه ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ على مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ خطاب لكفار مكة ، وكانوا يقولون إن الشياطين تتنزل على محمد ، فردَّ الله عليهم ببيان استحالة تنزلهم عليه بعد بيان امتناع تنزلهم بالقرآن، والمعنى : هل أخبركم بحذف إحدى التاءين ﴿ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ كثير الإفك والكذب ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الإثم أي تتنزل على المتصفين بالإفك والإثم الكثير ، من الكهنة والمتنبئة ، كمسيلمة وطليحة لأنهم من جنسهم ، وبينهم مناسبة بالكذب والإفتراء والإضلال ، وحيث كانت ساحة رسول الله منزهة عن هذه الأوصاف استحال تنزلهم عليه ﴿ يُلْقُوْنَ السَّمْعَ ﴾ أي يلقي الأفاكون الأذن إلى الشياطين ، فيتلقون منهم أوهاماً فيضمون إليها بحسب تخيلاتهم الباطلة خرافات ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ أي الأفاكين ﴿ كَاذِبُوْنَ ﴾ فيما قالوه من الأقاويل ، وليس محمد كذلك فإنه صادق في جميع ما أخبر من المغيبات ، والأكثر بمعنى الكل ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ ﴾ يعني ليس القرآن بشعر ولا محمد بشاعر ، لأن الشعراء يتبعهم الضالون والسفهاء ، وأتباع محمد ليسوا كذلك بل هم الراشدون المراجيح ، وكان شعراء الكفار يهجون رسول الله وأصحابه ، ويعيبون الإسلام فيتبعهم سفهاء العرب ، حيث كانوا يحفظون هجاءهم وينشدونه في المجالس ويضحكون ، ومن لواحق هذا المعنى ما قال ابن الخطيب في روضته : ذهب جماعة من الشعراء إلى الخليفة وتبعهم طفيلي ، فلما دخلوا على الخليفة قرأوا أشعارهم واحداً بعد واحد وأخذوا العطاء ، فبقي

(١) أخرجه مسلم وأصحابه السنن بلفظ (أفضلُ الصلاة بعد المكتوبة الصلاةُ في جوفِ الليل ، وأفضلُ الصيام بعد شهر رمضانَ شهرُ اللهِ المحرَّم) « الفتح الكبير ١ / ٢١١ » .

الطفيلي متحيراً ، فقيل له : إقرأ شعرك ، قال : لست أنا بشاعر ، وإنما أنا رجل ضال كما قال الله تعالى ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ ﴾ فضحك الخليفة كثيراً فأمر له بإنعام ، وقال بعضهم : معنى الآية أن الشعراء تسلك مسلكهم ، وتكون من جملتهم الضالون عن سنن الحق لا غيرهم من أهل الرشد ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي قد رأيت وعلمت ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي الشعراء ﴿ فِي كُلِّ وَادٍ ﴾ من المدح والذم ، والهجاء والكذب ، والفحش واللعن ، والتحاسد وأصناف الأخلاق الرذيلة التي هي من توابع الشعر ﴿ يَهِيمُونَ ﴾ أي يذهبون على وجوههم لا يهتدون إلى سبيل معين بل يتحيرون في أودية القيل والقال ، والوهم والخيال ، والغيّ والضلال ، فالوادي مثلٌ لفنون الكلام ، وهيمانهم فيه قولهم على الجهل بما يقولون من لغو وباطل ، وغلو في مدح أو ذم ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ﴾ في أشعارهم عند التصلف والدعاوى ﴿ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ من الأفاعيل وينفرون عن البخل ويصرون عليه ، ويقدحون في الناس بأدنى شيء صدر عنهم ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين ﴿ وَذَكَرُوا اللهَ ﴾ ذكراً ﴿ كَثِيراً ﴾ بأن كان أكثر أشعارهم في التوحيد ، والثناء على الله ، والحث على طاعته ، والحكمة والموعظة ، والزهد في الدنيا والترغيب في الآخرة ﴿ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ بالهجو لأن الكفار بدأوهم بالهجاء ، يعني لو وقع منهم في بعض الأوقات هجوٌ ، وقع بطريق الإنتصار ممن هجاهم من المشركين ، كحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وغيرهم ، فإنهم كانوا يذبُّون عن عرض النبي عليه السلام ، وكان عليه السلام يضع لحسان منبراً في المسجد ، فيقوم عليه يهجو من كان يهجو رسول الله ، وعن كعب بن مالك أنه عليه السلام قال (اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشدُّ عليهم من النبل) قال في الكواشي : لاشك أن الشعر كلام ، فحسنه كحسنه وقبيحه كقبيحه ، ولا بأس به إذا كان توحيداً أو حثاً على مكارم الأخلاق ، من جهاد وعبادة وصلة رحم وشبهه ، أو مدحاً للنبي عليه السلام والصالحين بما هو الحق انتهى .

والجمهور على إباحة الشعر ، ثم المذموم منه ما فيه كذب وقبح ، وما لم يكن كذلك فإن غلب على صاحبه بحيث يشغله عن الذكر وتلاوة القرآن فمذموم ، ولما كان الشعر مما لا ينبغي للأنبياء عليهم السلام ، لم يصدر من النبي عليه السلام بطريق الإنشاء دون الإنشاد إلا ما كان بغير قصد منه ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ هو عام لكل ظالم والسين للتأكيد ﴿ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ المنقلب بمعنى الانقلاب أي الرجوع ، والمعنى ينقلبون أيَّ الإنقلاب ؟ والمرادُ ينقلبون انقلاباً سوءً ويرجعون رجوعاً شراً، لأن مصيرهم إلى النار ، روي أنه لما يأس أبو بكر رضي الله عنه من حياته ، استكتب عثمان كتاب العهد وهو « هذا ما عهد ابن أبي قحافة إلى المؤمنين ، في الحال التي يؤمن فيها الكافر ، ثم قال بعد ما غشي عليه

وأفاق ، إني استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب ، فإن عدل فذلك ظني فيه ، وإن لم يعدل « سيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون » .

انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الشعراء

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓ ﴾ هذه طس أي هذه السورة مسماة به ﴿ تِلْكَ ﴾ أي هذه السورة العظيمة الشأن ﴿ آيَاتُ الْقُرْآنِ ﴾ المعروف بعلو الشأن أي بعض منه أو على جميع المنزل عند نزول السورة ﴿ وَكِتَابٍ ﴾ عظيم الشأن ﴿ مُبِينٍ ﴾ مظهر لما في تضاعيفه من الحِكَم والأحكام ، أو ظاهر إعجازه وصحته ﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي حال كون تلك الآيات هادية لهم ، ومبشرة ، فأقيم المصدر مقام الفاعل للمبالغة ، كأنها نفس الهدى والبشارة ، ومعنى هدايتها لهم وهم مهتدون : أنها تزيدهم هدى (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ الآية ، وأما معنى تبشيرها إياهم فظاهر لأنها تُبشِّرهم برحمة من الله ورضوان ، وخصهم بالذكر لانتفاعهم به ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ ﴾ صفة مادحة للمؤمنين ، والمعنى يؤدون الصلاة بأركانها وشرائطها ، في مواقيتها ويؤتون الصدقة المفروضة للمستحقين ﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ أي والحال أنهم يصدقون بأنها كائنة ، ويعلمونها علماً يقيناً ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ لا يصدقون بالبعث بعد الموت ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ القبيحة حيث جعلناها مشتهاه للطبع محبوبة للنفس ، كما ينبىء عنه قوله عليه السلام (حُفَّت النارُ بالشهوات) أي جعلت محفوفة ومحاطة بالأمور المحبوبة المشتهاة ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون ويترددون وصيغة المضارع للتجدُّدِ والإستمرار في الاشتغال بها والإنهماك فيها من غير ملاحظة لما يتبعها من الضرر والعقوبة ، والعَمَهُ : التردد في الأمر من التحير ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الموصوفون بالكفر والعمه ﴿ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ أي في الدنيا كالقتل والأسر يوم بدر ، والسوء كل ما يسوء الإنسان ويغمه ﴿ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾ أشد الناس خسراناً لإشترائهم الضلالة بالهدى ، فخسروا الجنة ونعيمها ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يامحمد ﴿ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ ﴾ لتعطاه بطريق الأخذ والتلقين ، يُقال : تلقَّى الكلام من فلان : إذا أخذه من لفظه وفمه ﴿ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ بواسطة جبريل لا من تلقاء نفسك كما يزعم الكفار ، ولدن بمعنى « عند » إلا أنه أبلغ منه وأخلص ، ثم شرع في بيان بعض تلك العلوم فقال ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ ﴾ أي من ذلك اذكر لقومك يامحمد وقت قول موسى لزوجته في وادي الطور ، وذلك أنه مكث بمدين عند شعيب عشر سنين ، ثم سار بأهله بنت شعيب إلى مصر فضلَّ الطريق في ليلة مظلمة شديدة البرد ، وقد أخذ امرأته الطلق فبدا له من جانب الطور نار فقال لأهله اثبتوا مكانكم ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ أبصرت قال مقاتل : النار هو النور وهو نور رب العزة جَلَّ وعلا ﴿ سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي عن حال الطريق أين هو ﴿ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ أي بشعلة نار مقتبسة أي مأخوذة من معظم النار ، إن لم أجد عندها من

يدلني على الطريق ، والشهابُ : الشعلة الساطعة من النار المتوقدة ، والقبسُ : المتناول من الشعلة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُوْنَ ﴾ رجاء أن تدفعوا البرد بحرها (فَلَمَّا جَاءَهَا) أي الشجرة وكانت الشجرة سمرة ﴿ نُوْدِيَ ﴾ جاءه النداء وهو الكلام المسموع من جانب الطور ﴿ أَنْ ﴾ مفسرة لما في النداء من معنى القول أي ﴿ بُوْرِكَ ﴾ أو بأن بورك أي جعل مباركاً وهو ما فيه الخير والبركة ﴿ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ أي من في مكان النار وهو البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى (نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الوَادِي الأَيْمَنِ فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ) ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي ومن حول مكانها من أرض الشام الموسومة بالبركات ، لكونها مبعث الأنبياء ، وخصوصاً تلك البقعة التي كلم الله فيها موسى ، ثم أن بعض المفسرين حمل بورك على التحية ، وبعضهم حمل من في النار على الملائكة ، وذلك أن النور الذي بان قد بارك فيه وفي الملائكة الذين كانوا في ذلك النور ﴿ وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ من تمام ما نودي به ، للتعجيب من عظمة ذلك الأمر ﴿ يَامُوْسَى إِنَّهُ ﴾ أي الشأن ﴿ أَنَا اللهُ ﴾ جملة مفسرة للشأن ﴿ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ أي القوي القادر على ما يبعد من الأوهام ، الفاعل كل ما يفعله بحكمة وتدبير تام ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أي نودي أن بورك من في النار وأن ألق عصاك * وفي التأويلات النجمية يشير إلى أن من سمع نداء الحق وشاهد أنوار جماله ، يُلقي من فكره كل ما كان متوكئاً عليه غير الله ، فلا يتوكأ إلا على فضل الله وكرمه .

﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ ﴾ أي فلما أبصرها تتحرك بحركة شديدة ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ حية خفيفة سريعة شبَّهَ الحية العظيمة بالجان في سرعة الحركة والإلتواء ﴿ وَلَّى ﴾ رجع وأعرض موسى ﴿ مُدْبِرَاً ﴾ أدبر عنها وجعلها تلي ظهره ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ولم يرجع على عقبه ، وإنما اعتراه الرعب لظنه أن ذلك الأمر أريد به هلاك نفسه ﴿ يَامُوْسَى ﴾ أي قيل له ياموسى ﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ أي من غيري ثقة بي أو مطلقاً ﴿ إِنِّيْ لاَ يَخَافُ لَدَيَّ ﴾ عندي ﴿ المُرْسَلُوْنَ ﴾ فإنه يدل على نفي الخوف عنهم مطلقاً ، فإنهم مستغرقون في مطالعة شؤون الله ، لا يخطر ببالهم خوف من أحد أصلاً ﴿ إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ﴾ أي لكن من ظلم نفسه بذنب صدر منه ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنَاً بَعْدَ سُوْءٍ ﴾ يعني أحدث توبةً بعد ذنب ﴿ فَإِنِي غَفُوْرٌ ﴾ للتائبين ﴿ رَحِيمٌ ﴾ مشفق عليهم ، اختلفوا في جواز الذنب على الأنبياء وعدمه ، قال الإمام : والمختار عندنا إنه لم يصدر عنهم ذنب حال النبوة ، لا الصغير ولا الكبير ، وترك الأولى منهم كالصغيرة منا ، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، واعلم أن معاصي الخواص ليست كمعاصي غيرهم ، بحكم الشهوة الطبيعية وإنما تكون معاصيهم بالخطأ في التأويل ، وإيضاح ذلك أن الحق تعالى إذا أراد إيقاع المخالفة من العارف بالله ، زَّين له الوقوع في ذلك العمل بتأويل ، لأن العارف تمنعه الخشية من الوقوع في المخالفة دون تأويل،ثم إذا وقع في ذلك المقدور بالتزيين أو التأويل ، يظهر له تعالى فساد ذلك

التأويل ، الذي أداه إلى ذلك الفعل ، كما وقع لآدم عليه السلام ، فإنه عصى بالتأويل فعند ذلك يحكم العارف على نفسه بالعصيان ، كما حكم عليه بذلك لسان الشريعة وكان قبل الوقوع غير عاص لأجل شبهة التأويل ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ لأنه كان عليه مدرعة من صوف لا كُمَّ لها ولا أزرار ، فكانت يده الكريمة مكشوفة ، فأمر بإدخال يده في مدرعته وهي جبة صغيرة يتدرع بها أي تلبس بدل الدرع وهو القميص ﴿ تَخْرُجْ ﴾ حال كونها ﴿ بَيْضَاءَ ﴾ براقة لها شعاع كشعاع الشمس أي إن أدخلتها تخرج على هذه الصفة ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوْءٍ ﴾ أي آفة كبرص ونحوه ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ أي هما داخلتان في جملتها فتكون الآيات تسعاً ﴿ إِلَىَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي حال كونك مبعوثاً إليه ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ القبط ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوْا قَوْمَاً فَاسِقِينَ ﴾ أي خارجين عن الحدود في الكفران والعدوان ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا ﴾ التسع بأن جاءهم موسى بها وظهرت على يده حال كونها ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ مستنيرة واضحة ﴿ قَالُوْا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ واضح سحريته ﴿ وَجَحَدُوْا بِهَا ﴾ كذبوا بألسنتهم كونها آيات إلهية ، والجحود : إنكار الشيء بعد المعرفة والإيقان تعنتاً ﴿ وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ الواو للحال ، أي قلوبهم وضمائرهم علماً يقينياً أنها من عند الله ، وليست بسحر ، قال أبو الليث : وإنما استيقنتها قلوبهم ، لأن كل آية رأوها استغاثوا بموسى وسألوا منه بأن يكشف عنهم فكشف عنهم ، فظهر لهم بذلك أنها من الله تعالى ﴿ ظُلْمَاً ﴾ نفسانياً علة لجحدوا ﴿ وَعُلُوَّاً ﴾ إباء واستكباراً شيطانياً ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وهو الإغراق في الدنيا ، والإحراق في الآخرة .

وفي هذا تمثيل لكفار قريش إذ كانوا مفسدين مستعلين ، فمن قدر على إهلاك فرعون كان قادراً على إهلاك من هو على صفته ، * فعلى العاقل أن يتعظ بحال غيره ، ويترك الأسباب المؤدية إلى الهلاك مثل الظلم والعلو ﴿ وَلَقَدْ ﴾ أي وبالله قد ﴿ آتَيْنَا ﴾ أعطينا ﴿ دَاوُدَ وَسُلَيْمَنَ ﴾ أي كل واحد منهما ﴿ عِلْمَاً ﴾ أي طائفة من العلم لائقة به ، من علم الشرائع والأحكام وغير ذلك كصنعة لبوس ، وتسبيح الجبال ، ومنطق الطير والدواب ، فإن الله تعالى علَّم سبعة نفر سبعة أشياء : علَّم آدم أسماء الأشياء فكان سبباً في حصول السجود والتحية ، وعلَّم الخضر علم الفراسة فكان سبباً لأن وجد تلميذاً مثل موسى ويوشع ، وعلَّم يوسف التعبير فكان سبباً لوجدان الأهل والمملكة ، وعلَّم داود صنعه الدروع فكان سبباً لوجدان الرياسة والدرجة ، وعلم سليمان منطق الطير فكان سبباً لوجدان بلقيس ، وعلَّم عيسى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل فكان سبباً لزوال التهمة عن الشر ، وعلم محمداً ﷺ الشرع والتوحيد فكان سبباً لوجود الشفاعة ﴿ وَقَالا ﴾ أي كل واحد منهما شكراً لما أوتيه من العلم ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا ﴾ بما آتانا من العلم ﴿ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ على أن عبارة كل منهما فضلني ، إلا أنه عبر

عنهما عند الحكاية بصيغة المتكلم مع الغير إيجازاً ، وفيه أوضح دليل على فضل العلم وشرف أهله ، حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ، ولم يعتبرا دونه ما أوتيا من الملك الذي لم يؤته غيرهما ، وتحريض للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله ويتواضعوا ، قال فتح الموصلي : أليس المريض إذا منع عنه الطعام والشراب والدواء يموت ؟ فكذا القلب إذا منع عنه العلم والفكر والحكمة يموت ! ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ** ﴾ أي صار إليه العلم والنبوة والملك بعد موت أبيه ، دون سائر أولاده ، فسمي ميراثاً تجوزاً ، لأن حقيقة الميراث في المال ، والأنبياء إنما يرثون الكمالات النفسانية ، ولا قدر للمال عندهم ﴿ **وَقَالَ** ﴾ تشهيراً لنعمة الله تعالى لا فخراً وتكبراً قال تعالى (**وأمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾ ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ**) النون نون الواحد المطاع على عادة الملوك رعاية لقاعدة السياسة ، والمنطق ، والنطق كل لفظٍ يعبر به عما في الضمير وقد يطلق على كل ما يصوّت ، يقال نطقت الحمامة إذا صوتت ، والطير جمع طائر وهو كل ذي جناح يسبح في الهواء ، وكان سليمان يعرف نطق الحيوان غير الطير أيضاً ، كما يجيء من قصة النمل ، وخص منطق الطير لشرف الطير على سائر الحيوان ، ومعنى الآية : عُلّمنا فهم ما يقوله كل طائر إذا صوّت ، يحكى أن سليمان عليه السلام مرَّ على بلبل في شجرة يشدو ويترقص ، أي يحرك رأسه ويميل ذنبه ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول ؟ فقالوا الله أعلم ، قال يقول : إذا أكلتُ نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء ، أي التراب والدروس ، وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا و لعله كان صياحها عن مقاساة شدة وتألم قلب ، وصاح طاوس فقال يقول : كما تدين تُدان ، وصاح هدهد فقال يقول استغفروا الله يامذنبون . وصاح خُطّاف فقال يقول قدّموا خيراً تجدوه ، وهو بضم الخاء المعجمة كَرُّمان جمعه خطاطيف وسمي زوار الهند وهو من الطيور القواطع إلى الناس يقطع البلاد البعيدة إليهم رغبة في القرب منهم ، وصاحت حمامة فأخبر أنها تقول سبحان ربي الأعلى ، ملء سمائه وأرضه ، والديك يصيح عند رؤية المَلَك ، كما أن الحمار ينهق عند رؤية الشيطان كما جاء في الحديث ، والنسر يقول يابن آدم عش ما شئت آخرك الموت ﴿ **وَأُوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ أراد كثرة ما أوتي به ، كما يقال فلان يقصده كل أحد ، ويعلم كل شيء ، ويراد به كثرة قصّاده وغزارة علمه ، يعني الملك ، والنبوة ، والكتاب والرياح ، وتسخير الجن والشياطين ، ومنطق الطير والدواب ، وأنواع الخير ﴿ **إِنَّ هَذَا** ﴾ المذكور من التعليم والإيتاء ﴿ **لَهُوَ الفَضْلُ** ﴾ والإحسان من الله تعالى ﴿ **المُبِينُ** ﴾ الواضح الذي لا يخفى على أحد ، وفي الوسيط لهو الزيادة الظاهرة على ما أعطى غيرنا قاله على سبيل الشكر والحمد كما قال رسول الله ﷺ (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) أي أقول هذا القول شكراً لا فخراً ، قيل أعطي سليمان ما أعطي داود ، وزيد له تسخير الجن والريح ، وفهم نطق الطير ، وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة التي يتمنع بها الناس ﴿ **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَنَ جُنُوْدُهُ** ﴾ الحشر

إخراج الجماعة من مقرهم قال في كشف الأسرار : الجند لا يجمع وإنما قال « جنوده » لاختلاف أجناس عساكره ﴿ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ ﴾ فكل جنس من الخلق جند على حدة قال تعالى (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ) والمعنى أخرج لسليمان وجُمع له عساكره في مسير وسفر ، كان له من الشام إلى طرف اليمن ، لأنه كان إذا أراد سفراً أمر فجمع له طوائف من هؤلاء الجنود ، وتقديم الجن للإيذان بكمال قوة ملكه ، لما أن الجن طائفة طاغية بعيدة من الحشر والتسخير ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ والوزعُ : بمعنى الكف والمنع عن التفرق والإنتشار ، والمعنى يحبس أوائلهم على أواخرهم ، ليتلاحقوا ويجتمعوا ولا ينتشروا كما هو حال الجيش الكبير ، روي أن معسكره عليه السلام كان مئة فرسخ في مائة ، وقد نسجت له الجن بساطاً فرسخا في فرسخ ، فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي ، وتظله الطير بأجنحتها حتى لاتقع عليه الشمس ، وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر ، وهو يسير بين السماء والأرض ، فيحكى أنه مرّ بحرَّاث فقال : لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً ، فألقته الريح في أذنه ، فنزل ومشى إلى الحرَّاث وقال : لتسبيحةٌ واحدةٌ يقبلها الله تعالى خيرٌ مما أوتي آل داود ، ومرّ سليمان بمدينة الرسول ﷺ فقال : هذه دار هجرة نبي في آخر الزمان ، طوبى لمن آمن به ، وطوبى لمن اتَّبعه ، وطوبى لمن اقتدى به ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا ﴾ أشرفوا ﴿ عَلَى وَادِ النَّمْلِ ﴾ وأتوه من فوق ، والمراد بالإتيان عليه قطعه ، من قولهم أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوْا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرت منهم ، فصاحت صيحة نبهت بها سائر النمال ، ونملة مؤنث حقيقي بدليل لحوق علامة التأنيث لأن النملة تطلق على الذكر والأنثى ، فإذا أريد تمييزها احتيج إلى مميز خارجي ، نحو نملة ذكر ، ونملة أنثى ذكر الإمام أن قتادة دخل الكوفة ، فالتفت عليه الناس فقال سلوا عما شئتم ، وكان أبو حنيفة حاضراً وهو غلام حدث ، فقال سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكراً أم أنثى ؟ فسألوه فأفحم ، فقال أبو حنيفة : كانت أنثى ، فقيل له : من أين عرفت ؟ فقال من كتاب الله وهو قوله﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ ولو كان ذكراً لقال قال نملة ، وذلك أن النملة مثل الحمامة والشاة ، في وقوعها على الذكر والأنثى ، فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى ﴿ لاَيَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ لا يكسرنكم فإن الحطم هو الكسر ﴿ سُلَيْمَنُ وَجُنُوْدُهُ ﴾ فإن قلتَ : بم عرفت النملة سليمان ؟ قلنا : مأمورة بطاعته ، فلابد أن تعرف من أمرت بطاعته ، ولها من الفهم فوق هذا ، فإن النمل تعرف كثيراً من منافعها ، من ذلك أنها تكسر الحبة قطعتين لئلا تنبت ، وإذا وصلت النداوة إلى الحبة تخرجها إلى الشمس من حجرها حتى تجف ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُوْنَ ﴾ أي والحال أنهم لا يشعرون إنهم يحطمونكم ، إذ لو شعروا لم يفعلوا ﴿ فَتَبَسَّمَ ﴾ التبسم أول الضحك أي تبسم حال كونه ﴿ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا ﴾ شارعاً في الضحك من قولها وآخذاً فيه على معنى تبسم متعجباً من حذرها وتحذيرها ، واهتدائها إلى مصالحها ومصالح بني نوعها ، فإن ضحك الأنبياء

التبسم ، والإنسان إذا رأى أو سمع مالا عهد له به يتعجب ويتبسم ، قال بعضهم : ضحك سليمان كان ظاهره تعجباً من قول النملة ، وباطنه فرحاً بما أعطاه الله من فهم كلام النملة ، وسرُوره بشهرة حاله وحال جنوده في باب التقوى والشفقة وقوله « وهم لا يشعرون » يدل على أن سليمان وجنوده كانوا ركباناً ومشاة على الأرض .

﴿ **وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ** ﴾ والوزعُ : بمعنى الكف والمنع من التفرق كما سبق ، والمعنى اجعلني أزع شكر نعمتك عندي وأربطه لا ينفلت عني ، بحيث لا أنفكُّ عن شكرك أصلاً ، فالنعمةُ إذا شكرت قرَّت ، وإذا كفرت فرَّت ، ومن كلمات أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه : إذا وصلت إليكم أطراف النعم ، فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر ، أي من لم يشكر النعم الحاصلة لديه ، حرم النعم البعيدة عنه ﴿ **الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ** ﴾ من العلم والنبوة والملك ونحوها ﴿ **وَعَلَى وَالِدَيَّ** ﴾ أي على والدي داود بالنبوة وتسبيح الجبال والطير معه ، وصنعةِ اللبوس وإلانةِ الحديد وغيرها ، وعلى والدتي بتشايع وهي امرأة زاكية طاهرة ، وهي التي قالت له : يابنيَّ لا تكثرنَّ النوم بالليل ، فإنه يدع الرجل فقيراً يوم القيامة ، وأدرج ذكر والديه ، لأن الإنعام عليهما إنعام عليه مستوجب للشكر ﴿ **وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ** ﴾ تماماً للشكر تقبله مني ﴿ **وَأَدْخِلْنِي** ﴾ الجنة ﴿ **بِرَحْمَتِكَ** ﴾ فإنه لا يدخل الجنة أحد إلا بالرحمة والفضل لا بالعمل ﴿ **فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** ﴾ في جملتهم وهم الأنبياء ومن تبعهم في الصلاح مطلقاً ، ﴿ **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ** ﴾ تفقُّده : طَلَبه عن غيبة ، والتفقد طلب المفقود ، وإنما قيل له التفقد لأن طالب الشيء يدرك بعضه ويفقد بعضه ، والمعنى : وتعَّرف سليمانُ أحوالَ الطير ، ولم ير الهدهد فيما بينها ﴿ **فَقَالَ مَا لِيَ** ﴾ أيْ أيُّ شيء حصل لي حال كوني ﴿ **لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ** ﴾ لساتر ستره أو لشيء آخر ﴿ **أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ** ﴾ بل أهو غائب ؟ وفي الوسيط ما لي لا أرى الهدهد أي ما للهدهد لا أراه ، تقول العرب : ما لي أراك كئيباً معناه مالك ، ولكنه من القلب الذي يوضحه المعنى ، فالواجب على الملوك التيقظ في مملكتهم ، وحسن قيامهم وتكلفهم بأمور رعاياهم ، وتفقد أصغر رعيتهم ، كما أن سليمان عليه السلام تفقد حال أصغر طير من الطيور ، ولم يخف عليه غيبته ساعة ، ثم غاية شفقته على الرعية أحال النقص والتقصير إلى نفسه فقال ﴿ **مَا لِيَ لاَ أَرَىٰ الْهُدْهُدَ** ﴾ ؟ وما قال : ما للهدهد لم أره ؟ لرعاية مصالح الرعية وتأديبهم ، ثم هدَّده إن لم يكن عذر لغيبته فقال : ﴿ **لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً** ﴾ أي لأعذبنه تعذيباً شديداً ، كنتف ريشه وإلقائه في الشمس حيث النمل تأكله ، أو أجعله مع ضده في قفص ﴿ **أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ** ﴾ لتعتبر به أبناء جنسه ﴿ **أَوْ لَيَأْتِيَنِّي** ﴾ أصله ليأتينني بثلاث نونات حذفت النون التي قبل ياء المتكلم ﴿ **بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ** ﴾ بحجة تبين عذره ، يشير إلى أن حفظ المملكة يكون بكمال السياسة وكمال العدل ، حكي أنه لما أتم بناء بيت المقدس خرج للحج ، وأقام بالحرم ما شاء ثم

عزم على المسير إلى اليمن ، وكان الهدهد دليل الماء حيث يراه تحت الأرض ، كما يرى الماء في الزجاجة ، ويعرف قربه وبعده ، فيدل على موضعه بأن ينقره بمنقاره ، فيجيء الشياطين فيسلخون الأرض كما يسلخ الإهاب عن المذبوح ويستخرجون الماء ، فتفقده لذلك وذلك قوله تعالى ﴿ **فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ** ﴾ أي زماناً غير مديد ﴿ **فَقَالَ أَحَطْتُ** ﴾ الإحاطة : العلم بالشيء من جميع جهاته ﴿ **بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ** ﴾ أي علماً ومَعرفة ، وحفظته من جميع جهاته وذلك لأنه كان مما لم يشاهده سليمان ولم يسمع خبره من الجن والإنس فإن قيل : هذا سوء أدب في المخاطبة ، فكيف واجهه بمثله وقد احتمله ؟ والجواب لأنه عقبه بفائدة ، والخشونة المصاحبة لفائدة قد يحتملها الأكابر ، ثم أشار إلى أنه بصدد إقامة خدمة له كما قال ﴿ **وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ** ﴾ بخبرٍ خطيرٍ محقق ، يشير إلى أن من شرط المخبر أن لا يخبر عن شيء إلا أن يكون متيقناً فيه سيما عند الملوك ، وإنما خفي نبأ بلقيس على سليمان مع قربه منها ، لأنه كان نازلاً بصنعاء وهي بمأرب ، وبينهما مسيرة ثلاثة أيام كما خفي على يعقوب مكان يوسف .

﴿ **إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ** ﴾ الضمير في تملكهم لسبأ على أنه اسم للحيّ أو لأهله المدلول عليهم بذكر مدينتهم يعني أنها تملك الولاية والتصرف عليهم والمراد بها « بلقيس بنت شرحبيل » من نسل يعرب ابن قحطان ، وكان أبوها ملك أرض اليمن ، ولم يكن له ولد غيرها ، فغلبت بعده على الملك ودانت لها الأمة ، وكانت هي وقومها يعبدون النار ﴿ **وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ أي من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك ، من الخيل ، والحشم ، والعدد ، والهيبة ، والمال ، والنعيم ، قال بعض العارفين : ما ذكر وصف جمالها وحسنها بالتصريح ، لأنه علم أن ذلك من سوء الأدب ﴿ **وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** ﴾ أي بالنسبة إلى حالها أو إلى عروش أمثالها من الملوك وكان عرش بلقيس ثمانين ذراعاً في ثمانين ذراعاً ، مقدمه من ذهب ، مفضض بالياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر ، وكان عليه من الفرش ما يليق به ﴿ **وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ أي يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ أي حسّن لهم أعمالهم القبيحة التي هي عبادة الشمس ، ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصي ﴿ **فَصَدَّهُمْ** ﴾ منعهم بسبب ذلك ﴿ **عَنِ السَّبِيلِ** ﴾ أي سبيل الحق والصواب ﴿ **فَهُمْ** ﴾ بسبب ذلك ﴿ **لاَيَهْتَدُوْنَ** ﴾ إليه ﴿ **أَنْ لاَ يَسْجُدُوْا** ﴾ أي فصدّهم لئلا يسجدوا وهو ذم لهم على ترك السجود ، فلذا وجب السجود عند تمام هذه الآيات ﴿ **للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْأَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ الخبأ : المستور أي يُظهر ما هو مخبوء ومخفي فيها كائناً ما كان ﴿ **وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُوْنَ** ﴾ في القلوب ﴿ **وَمَا تُعْلِنُوْنَ** ﴾ بالألسنة والجوارح ، وذكر « ما تعلنون » للتنبيه على تساويها بالنسبة إلى العلم الإلهي .

﴿ **اللهُ** ﴾ مبتدأ ﴿ **لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ الجملة خبره ﴿ **رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** ﴾ خبرٌ بعد خبر ، وسمي

العرش عظيماً لأنه أعظم ما خلق اللهمن الأجرام ، فعظم عرش بلقيس بالنسبة إلى عرش الله بينهما تفاوتٌ عظيم ، فإن عرش الله تعالى مما لا يعلمه البشر إلا بالإسم ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ ﴾ فيما أخبرتنا من النظر بمعنى التأمل لنعرف بالتجربة البتة ﴿ أَصَدَقْتَ ﴾ فيما قلت ﴿ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ وفي هذا دلالة على أن خبر الواحد ، ما لم يبلغ حد الشهرة والتواتر ، لا يوجب العلم ، فيجب التوقف فيه ويجب أن يتعرف هل هو صدق أو كذب ، فإن ظهرت إمارات صدقه قُبِل ، وإلا لم يُقبل ، فكتب كتاباً إلى بلقيس فقال فيه : « من عبد الله سليمان بن داود إلى ملكة سبأ بلقيس ، بسم الله الرحمن الرحيم ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فلا تعلوا عليّ وائتوني مسلمين » ثم طبعه بالمسك وختمه بخاتمه المنقوش على فصه اسم الله الأعظم ، ودفعه إلى الهدهد فأخذه بمنقاره وقال له : ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا ﴾ وتخصيصه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه ، من أبناء الجن الأقوياء ، لما عاين فيه من علامات العلم والحكمة ﴿ فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي اطرحه على بلقيس وقومها ، لأنه ذكرهم معها في قوله « وجدتها وقومها » وفي الإرشاد : وَجَمَع الضمير لما أن مضمون الكتاب الكريم دعوة الكل إلى الإسلام ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم وتبعَّد إلى مكان تتوارى فيه وتسمع ما يجيبونه ﴿ فَانْظُرْ ﴾ تأمل وتعرَّفْ ﴿ مَاذَا يَرْجِعُوْن ﴾ أي ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول ؟ روي ـ ان الهدهد أخذ الكتاب وأتى بلقيس فوجدها راقدة في قصرها بمأرب وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب فدخل من كوة وألقى الكتاب على نحرها وهي مستلقية ، وتأخر يسيراً فانتبهت فزعة ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت ، وعرفت أن الذي أرسل الكتاب أعظم ملكاً منها ، لطاعة الطير إياه ، فعند ذلك ﴿ قَالَتْ ﴾ لأشراف قومها ﴿ يَا أَيُّهَا المَلَؤُا ﴾ والملأ عظماء القوم الذين يملأون العيون مهابة ، والقلوب جلالة ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ معظَّم لديَّ لكونه مختوماً بخاتم عجيب . وكان عليه السلام يكتب إلى العجم فقيل إنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه خاتم ، فاتخذ لنفسه خاتماً من فضة ، ونقش فيه « محمد رسول الله » وجعله في خنصر يده اليسرى ، وعلى ما رواه أنس رضي الله عنه .

وفي تفسير الجلالين كريم أي حسن ما فيه انتهى كما قال ابن الشيخ في أوائل سورة الشعراء كتاب كريم أي مرضي في لفظه ومعانيه أو كريم شريف لأنه صدر بالبسملة ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ﴾ كأنه قيل ممن هو وماذا مضمونه ؟ فقالت إنه من سليمان ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي مضمونه ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ وهذه البسملة ليست بآية تامة ، بخلاف ما وقع في أوائل السور فإنها آية منفردة ﴿ أَنْ ﴾ مفسرة أي ﴿ لاَ تَعلُوا عَلَيَّ ﴾ لا تتكبروا كما يفعل جبابرة الملوك ﴿ وَأْتُوْنِي مُسْلِمِينَ ﴾ حال كونكم مؤمنين ، قال قتادة : وكذلك كانت الأنبياء عليهم السلام تكتب جملاً لا تطيل ﴿ قَالَتْ يَاأَيُّهَا المَلَؤُا أَفْتُوْنِي

﴿ فِي أَمْرِي ﴾ أجيبوني في ذلك الذي ذكرت لكم ، واذكروا ما تستصوبون فيه وعبرت عن الجواب بالفتوى ، الذي هو الجواب في الحوادث المشكلة ، إشعاراً بأنهم قادرون على حل المشكلات ﴿ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرَاً ﴾ فاصلة ومنفذة أمراً من الأمور ﴿ حَتَّى تَشْهَدُوْنِ ﴾ تحضروني أي لا أقطع أمراً إلا بحضركم وبموجب آرائكم ، وهو استمالة لقلوبهم لئلا يخالفوها في الرأي والتدبير ، وفيه إشارة إلى أن المرء لا ينبغي أن يكون مستبداً برأيه ، ويكون مشاوراً في جميع ما سنح له من الأمور ، لاسيما الملوك يجب أن يكون لهم قوم من أهل الرأي والبصيرة ، فلا يقطعون أمراً إلا بمشاورتهم ﴿ قَالُوْا نَحْنُ أُوْلُوْا قُوَّةٍ ﴾ ذوو قوة في الأجساد والعدد ﴿ وَأُوْلُوْا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي نجدة وشجاعة في الحرب ﴿ وَالأَمْرُ ﴾ مفوض ﴿ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ تشيرين علينا فلما أحست بلقيس منهم الميل إلى الحرب ، والعدول عن سنن الصواب ، بادعائهم القوة الذاتية والعرضية ، شرعت في تزييف مقالتهم المنبئة عن الغفلة عن شأن سليمان ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوْكَ إِذَا دَخَلُوْا قَرْيَةً ﴾ من القرى ومدينة من المدن ، على منهاج المقاتلة والحرب ﴿أَفْسَدُوْهَا ﴾ بتخريب عمارتها وإتلاف ما فيها من الأموال ﴿ وَجَعَلُوْا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا ﴾ جمع عزيز بمعنى القاهر الغالب والشريف العظيم ﴿ أَذِلَّةً ﴾ جميع ذليل أي بالقتل والأسر والإجلاء ، وغير ذلك من فنون الإهانة والإذلال ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُوْنَ ﴾ وهو تأكيد لما قبله وتقرير بأن ذلك من عادتهم المستمرة فيكون من تمام كلام بلقيس ، ويجوز أن يكون تصديقاً لها من جهة الله تعالى أي وكما قالت هي تفعل الملوك ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ ﴾ إلى سليمانَ وقومه رسلاً ﴿ بِهَدِيَّةٍ ﴾ عظيمة وهي اسم للشيء المهدى بملاطفة ورفق ﴿ فَنَاظِرَةٌ ﴾ الناظر ههنا بمعنى المنتظر ﴿ بِمَ ﴾ أي بأي شيء ﴿ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُوْنَ ﴾ بالجواب من عنده حتى أعمل بما يقتضيه الحال ، روي أنها بعثت خمسمائة غلام وخمسمائة جارية وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت ، والمرتفع قيمةً ، وكتبت كتاباً وبعثت رجلاً من أشراف قومها يقال له « المنذر بن عمرو » وضمت إليه رجالاً من قومها ، ذوي رأي وعقل وقالت : إن كان ملكاً أخذ الهدية وانصرف ، وإن كان نبياً لم يأخذها ولم نأمنه على بلادنا وذلك قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَ ﴾ أي الرسول المبعوث من قبل بلقيس ﴿ سُلَيْمَنَ ﴾ بالهدية ﴿ قَالَ ﴾ أي مخاطباً للرسول والمرسل تغليباً للحاضر على الغائب ﴿ أَتُمِدُّوْنَنِ ﴾ أصله أتمدونني والهمزة الاستفهامية للإنكار ﴿ بِمَالٍ ﴾ حقير ﴿ فَمَا ﴾ موصولة ﴿ آتَانِيَ اللهُ ﴾ مما رأيتم من النبوة والملك ، الذي لا غاية وراءه ﴿ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ﴾ من المال ومتاع الدنيا ، فلا حاجة إلى هديتكم ، ولا وقع لها عندي .

قال جعفر الصادق : الدنيا أصغر قدراً عند الله وعند أنبيائه وأوليائه ، من أن يفرحوا بشيء منها أو يحزنوا عليه ، فلا ينبغي لعالم ولا لعاقل أن يفرح بعرض الدنيا ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُوْنَ ﴾ والمعنى بل أنتم بما يهدى إليكم تفرحون حباً لزيادة المال ، لما أنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا

﴿ إِرْجِعْ ﴾ أيها الرسول ، أفردَ الضمير ههنا بعد جمع الضمائر الخمسة فيما سبق لأن الرجوع مختص بالرسول ، والإمداد ونحوه عام ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ إلى بلقيس . وقومها بهديتهم ، ليعلموا أن أهل الدين لا ينخدعون بحطام الدنيا ، فليأتوا مسلمين مؤمنين وإلا ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ ﴾ من الجن والإنس والتأييد الإلهي ﴿ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ لا طاقة لهم بمقاومتها ، ولا قدرة لهم على مقابلتها ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا ﴾ من سبأ ومن أرضها حال كونهم ﴿ أَذِلَّةً ﴾ بعد ما كانوا من أهل العز والتمكين ، والذلُّ ذهاب العز والملك ﴿ وَهُمْ صَاغِرُوْنَ ﴾ أي أسارى مهانون بطريق الإجلاء . يروى أنه لما رجع رسلها إليها بخبر سليمان ، قالت : قد علمتُ أنه ليس بملك ، ولا لنابه من طاقة ، وبعثت إلى سليمان إني قادمة إليك بملوك قومي ، حتى أنظر ما أمرك ، وما تدعو إليه من دينك ؟ ﴿ قَالَ يَاأَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوْنِي مُسْلِمِينَ ﴾ لأنه قد أوحي إلى سليمان أنها تسلم ، لكن أراد أن يريها بعض ما خصه الله تعالى به من العجائب ، الدالة على عظم القدرة ، وصدقه في دعوى النبوة ، فاستدعى إتيان سريرها قبل قدومها ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ ﴾ مارد خبيث ﴿ مِنَ الْجِنِّ ﴾ يقال للرجل المنكر عفريت ، وفي المفردات : العفريت من الجن هو الفاره الخبيث ، ويستعار ذلك للإنسان استعارة الشيطان له انتهى ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ ﴾ أي بعرشها ﴿ قَبْلَ أَنْ تَقُوْمَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ أي من مجلسك للحكومة ، وكان يجلس إلى نصف النهار أي أنا آتي به في تلك المدة البتة ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ ﴾ أي على الإتيان ﴿ لَقَوِيٌّ ﴾ لا يثقل علي حمله ﴿ أَمِينٌ ﴾ على ما فيه من الجواهر والنفائس ﴿ قَالَ ﴾ حين قال سليمان أريد أسرع من هذا ﴿ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ وهو « آصف بن برخيا » وكان رجلاً صدّيقاً ، يقرأ الكتب الإلهية ، ويعلم الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب ، وقد خلقه الله لنصرة سليمان ونفاذ أمره ، فالمراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة على موسى وإبراهيم وغيرهما ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ ارتداد الرجوع ، والطرف : تحريك الأجفان وفتحها للنظر إلى شيء ، وهذا غاية في الإسراع ومثل فيه ، لأنه ليس بين تحريك الأجفان مدة ﴿ فَلَمَّا رَآهُ ﴾ أي فأتاه بالعرش فلما رآه ﴿ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ ﴾ حاضراً إليه ثابتاً بين يديه ، في قدر ارتداد الطرف ﴿ قَالَ ﴾ سليمان تلقياً للنعمة بالشكر ﴿ هَذَا ﴾ أي حضور العرش في هذه المدة القصيرة ﴿ مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ عليّ وإحسانه ، من غير استحقاق مني ﴿ لِيَبْلُوَنِي ﴾ ليختبرني واختبار الشيء ظهور جودته ورداءته دون التعرف ﴿ أَأَشْكُرُ ﴾ بأن أراه محض فضله تعالى من غير حول من جهتي ولا قوة وأقوم بحقه ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ بأن أجد لنفسي مدخلاً في البين وأقصر في أقامة واجبه ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأن الشكر قيْدُ النعمة الموجودة ، وصيد النعمة المفقودة ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ أي لم يشكر بأن لم يعرف قدر النعمة ولم يؤد حقها، فإن مضرة كفره عليه ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ عن شكره ﴿ كَرِيمٌ ﴾ بإظهار الكرم عليه مع عدم الشكر

أيضاً وبترك تعجيل العقوبة ، وفي الآية دليل إثبات الكرامات من وجهين : **أحدهما** أن العفريت من الجن ، لما ادعى احضاره قبل أن يقوم سليمان من مقامه ، وسليمان لم ينكر عليه بل قال أريد أعجل من هذا ، فلما جاز أن يكون مقدوراً لعفريتٍ من الجن ، كيف لا يكون مقدوراً لبعض أولياء الله تعالى ؟ والثاني أن الذي عنده علم من الكتاب وهو « آصف » وزير سليمان لم يكن نبياً ، وقد أحضره قبل أن يرتد طرفه إليه كما نطق به القرآن ، دل على جواز إثبات الكرامات الخارقة للعادات للأولياء ، والكرامةُ : ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة ، فما لا يكون مقروناً بالإيمان الصالح ، يكون استدراجاً وما يكون مقروناً بدعوى النبوة يكون معجزة وفي الحديث (كم من أشعث أغبر ذي طمرين ، لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبرّه)[1] ﴿ **قَالَ** ﴾ سليمان ﴿ **نَكِّرُوْا لَهَا عَرْشَهَا** ﴾ تنكير الشيء جعله بحيث لا يعرف ، والمعنى : غيّروا هيئته وشكله ، بوجه من الوجوه ، بحيث يُنكر ، فجعل الشياطين أسفله أعلاه ، وبنوا فوقه قباباً أخرى هي أعجب من تلك القباب ، وجعلوا موضع الجوهر الأحمر الأخضر وبالعكس ﴿ **نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي** ﴾ إلى معرفته فتظهر رجاحة عقلها ﴿ **أَم تَكُوْنُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُوْنَ** ﴾ فتظهر سخافة عقلها ﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْ** ﴾ بلقيس سليمان ، والعرشُ بين يديه ﴿ **قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ** ﴾ لم يقل هذا عرشك ، لئلا يكون تلقيناً لها ، فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير ، وهو اختبار عقلها ﴿ **قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ** ﴾ لوّحت لما اعتراه بالتنكير ، من نوع مغايرة في الصفات ، مع اتحاد الذات ، فاستدل بذلك على كمال عقلها ﴿ **وَأُوْتِينَا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا** ﴾ من قبل الآيات الدالة على ذلك ﴿ **وَكُنَّا مُسْلِمِينَ** ﴾ من ذلك الوقت ﴿ **وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُوْنِ اللهِ** ﴾ أي صدها ومنعها عن ذلك عبادتها القديمة للشمس ، متجاوزة عبادة الله تعالى ﴿ **إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ** ﴾ أي أنها كانت من قوم راسخين في الكفر ، ولذلك لم تكن قادرة على إسلامها وهي بين ظهرانيهم ، إلى أن دخلت ملك سليمان فصارت من قوم مؤمنين .

روي أن سليمان أمر قبل قدومها فبني له على طريقها قصر ، صحنه من زجاج أبيض ، وأجرى من تحته الماء ، وألقى فيه السمك ونحوه فوضع سريره في وسطه وجلس عليه ، وعكف عليه الطير والجن والإنس ﴿ **قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ** ﴾ القصر ، وكل بناء عالي سمي بذلك ﴿ **فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً** ﴾ اللجة : معظم الماء والمعنى أنه ماء كثير بين يدي سرير سليمان فأرادت أن تدخل في الماء ﴿ **وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا** ﴾ تثنية ساق تشمرت لئلا تبتل أذيالها ﴿ **قَالَ** ﴾ لها سليمان لا تكشفي عن ساقيك ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ أي ما توهمته ماء ﴿ **صَرْحٌ مُمَرَّدٌ** ﴾ **مملّسٌ مُسَوّى** ﴿ **مِنْ قَوَارِيرَ** ﴾ أي مصنوع من

---

(١) الحديث أخرجه البزار بلفظ « رُبَّ ذي طِمْرَيْنِ لا يُؤبه له .. » الحديث ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٣١ .

الزجاج الصافي وليس بماء جمع قارورة ﴿ قَالَتْ ﴾ حين عاينت تلك المعجزة أيضاً ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ بعبادة الشمس ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَنَ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ فيه التفات إلى الاسم الجليل والمعنى أخلصت له التوحيد ، تابعة لسليمان مقتدية به ، كما أسلم سليمان فالمراد كما أنه آمن بالله آمنتُ بالله ، وكما أنه أسلم أسلمتُ لله ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ ﴾ وهي قبيلة من العرب كانوا يعبدون الأصنام ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ النسبي المعروف عندهم بالصدق والأمانة ﴿ صَالِحاً ﴾ المسمَّى صالحاً ﴿ أَنِ ﴾ مصدرية أي بأن ﴿ اعْبُدُوْا اللهَ ﴾ الذي لا شريك له ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُوْنَ ﴾ والمعنى ففاجأو بالتفرق والاختصام ، فآمن فريق وكفر فريق ﴿ قَالَ ﴾ صالح للفريق الكافر منهم ﴿ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُوْنَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ بالعقوبة فتقولون ائتنا بما تعدنا ، والاستعجالُ : طلب الشيء قبل وقته ﴿ قَبْلَ الحَسَنَةِ ﴾ قبل التوبة فتؤخرونها إلى حين نزول العقاب ﴿ لَوْلاَ ﴾ حرف تحضيض بمعنى هلاّ ﴿ تَسْتَغْفِرُوْنَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ ﴾ بقبولها فلا تعذبون إذ لا إمكان للقبول عند النزول .

﴿ قَالُوْا اطَّيَّرْنَا ﴾ أصله تطيرنا ، والتطير التشاؤم ﴿ بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ في دينك حيث تتابعت علينا الشدائد ، وكانوا قحطوا فقالوا أصابنا هذا الشر من شؤمك وشؤم أصحابك ﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ ﴾ سببكم الذي جاء منه شركم ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ وهو قدره أو عملكم المكتوب عنده ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُوْنَ ﴾ تختبرون بتعاقب السراء والضراء أي الخير والشر ، والنكبة والسهولة ﴿ وَكَانَ فِي المَدِينَةِ ﴾ أي الحجر بكسر الحاء وهي ديار ثمود وبلادهم ، فيما بين الحجاز والشام ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أشخاص وبهذا الاعتبار وقع تمييزاً للتسعة لا باعتبار لفظه ، وهم الذين سعوا في عقر الناقة وكانوا عتاة قوم صالح ﴿ يُفْسِدُوْنَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُوْنَ ﴾ أي لا يفعلون شيأ من الإصلاح ﴿ قَالُوْا ﴾ أي قال بعضهم لبعض في أثناء المشاورة في أمر صالح ﴿ تَقَاسَمُوْا بِاللهِ ﴾ تحالفوا يقال أقسم أي حلف ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ لنأتين صالحاً ليلاً بغتة فلنقتلنه وأهله مباغتة ﴿ ثُمَّ لَنَقُوْلَنَّ لِوَلِيِّهِ ﴾ أي لوليّ دم صالح ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ أي ما حضرنا هلاكهم فضلاً عن أن نتولى إهلاكهم ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُوْنَ ﴾ فيما نقول فهو من تمام القول ﴿ وَمَكَرُوْا مَكْراً ﴾ بهذه المكيدة والمكر : صرفُ الغير عما يقصده بحيلة ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾ أي جعلنا هذه المواضعة سبباً لإهلاكهم ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُوْنَ ﴾ بذلك ﴿ فَانْظُرْ ﴾ تفكر يامحمد في أنه ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾ أي على أيّ حالٍ وقع وحدث عاقبة مكرهم ؟ وهي ﴿ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ ﴾ التدمير استئصال الشيء بالهلاك ﴿ وَقَوْمَهُمْ ﴾ الذين لم يكونوا معهم في مباشرة التبييت ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ بحيث لم يشذ منهم شاذ ، روي أنه كان لصالح مسجد يصلي فيه ، ولما قال لهم بعد عقرهم الناقة : إنكم تهلكون إلى ثلاثة أيام ، قالوا زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث ، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث ، فخرجوا إلى الشعب وقالوا إذا جاء يصلي قتلناه ، ثم

رجعنا إلى أهله فقتلناهم ، فهلكوا بالصيحة ، أرادوا أن يباغتوا صالحاً فباغتهم الله ، وفي هلاك قومهم بالصيحة أنهم كانوا يصيحون إليهم فيما يتعلق بالإفساد ، فجاء الجزاء لكل منهم من جنس العمل ﴿ **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ** ﴾ حال كونها ﴿ **خَاوِيَةً** ﴾ خالية عن الأهل والسكان ﴿ **بِمَا ظَلَمُوْا** ﴾ أي بسبب ظلمهم المذكور وغيره كالشرك ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ** ﴾ المذكور من التدمير العجيب بظلمهم ﴿ **لآيَةً** ﴾ لعبرة عظيمة ﴿ **لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ** ﴾ يتصفون بالعلم فيتعظون ﴿ **وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوْا** ﴾ صالحاً ومن معه من المؤمنين ﴿ **وَكَانُوْا يَتَّقُوْنَ** ﴾ أي الكفر والمعاصي اتقاء مستمراً فلذلك خصوا بالنجاة ، وكانوا أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حضرموت وهي مدينة من مدن اليمن ﴿ **وَلُوْطاً** ﴾ أي وأرسلنا لوطاً بن هاران ﴿ **إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ** ﴾ أي حين نصح قومه وقال بعضهم : انتصاب لوطاً بإضمار اذكر أي واذكر إذ قال لوط لقومه على وجه الإنكار عليهم ﴿ **أَتَأْتُوْنَ الفَاحِشَةَ** ﴾ الفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ، والمراد به ههنا اللواطة والإتيان في الأدبار ، والمعنى أتفعلون الفعلة المتناهية في القبح ﴿ **وَأَنْتُمْ تُبْصِرُوْنَ** ﴾ من بصر القلب وهو العلم فإنه يقال لقوة القلب المدركة بصيرة وبصر أي والحال إنكم تعلمون فحشها علماً يقينياً ، وتعاطي القبيح من العالم بقبحه أقبح من غيره ، أو من نظر العين أي وأنتم تبصرونها بعضكم من بعض ، لما أنهم كانوا يعلنون بها ولا يسترون فيكون أفحش ﴿ **أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُوْنَ الرِّجَالَ شَهْوَةً** ﴾ بيان لإتيانهم الفاحشة وعلة لقضاء الوطر ، وأصل الشهوة نزوع النفس إلى ما تريده ﴿ **مِنْ دُوْنِ النِّسَاءِ** ﴾ أي حال كونكم مجاوزين النساء اللاتي هن محال الشهوة ﴿ **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُوْنَ** ﴾ حيث لا تعملون بموجب علمكم ، من يفعل فعل الجاهل فهو والجاهل سواء .

﴿ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوْا** ﴾ أي قول بعضهم لبعض ﴿ **أَخْرِجُوْا آلَ لُوْطٍ** ﴾ أي لوطاً ومن تبعه ﴿ **مِنْ قَرْيَتِكُمْ** ﴾ وهي سدوم ﴿ **إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُوْنَ** ﴾ يتنزهون عن أفعالنا أو عن الأقذار ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه على طريق الاستهزاء ، ﴿ **فَأَنْجَيْنَاهُ** ﴾ أي لوطاً ﴿ **وَأَهْلَهُ** ﴾ أي بنتَيْهِ بأن أمرناهم بالخروج من القرية ﴿ **إِلاَّ امْرَأَتَهُ** ﴾ الكافرة المسماة بواهلة لم ننجها ﴿ **قَدَّرْنَاهَا مِنَ الغَابِرِين** ﴾ أي حكمنا وقضينا كونها من الباقين ، في العذاب ،لأنها كانت كافرة بالله ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً** ﴾ غير معهود وهو حجارة السجيل ﴿ **فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ** ﴾ أي بئس مطر من أنذر فلم يخف ، قال ابن عطية : وهذه الآية أصل لمن جعل من الفقهاء الرجم في اللوطي ، لأن الله تعالى عذبهم على معصيتهم به ، ومذهب مالك رجم الفاعل والمفعول به ، أحصنا أو لم يحصنا ، ومذهب الشافعي وأحمد حكمه كالزنى فيه الرجم مع الإحصان ، والجلد مع عدمه ، ومذهب أبي حنيفة أنه يعزر ولا حدَّ عليه خلافاً لصاحبيه ، فإنها ألحقاه بالزنى ، وفي شرح الأكمل : إن ما ذهب إليه أبو حنيفة إنما هو استعظام لذلك الفعل ، فإنه ليس في القبح بحيث إنه يُجازى بما يُجازى به القتل والزنى ، وإنما التعزير

لتسكين الفتنة الناجزة ، كما أنه يقول في اليمين الغموس إنه لا يجب فيه الكفارة لأنه لعظمه لا يستتر بالكفارة ﴿ قُلِ الْحَمْدُ للهِ ﴾ قل يامحمد الحمد لله على جميع نعمه ، التي من جملتها إهلاك أعداء الأنبياء والمرسلين ﴿ وَسَلاَمٌ ﴾ وسلامة ونجاة ﴿ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ أي اصطفاهم الله وجعلهم صفوة خليقته ، وهداهم واجتباهم للنبوةوالرسالة ، فهم الأنبياء والمرسلون وخواصهم المقربون ، الذين سلموا من الآفات ، ونجوا من العقوبات مطلقاً ، وفيه رمز إلى هلاك أعدائه عليه السلام ولو بعد حين ، وإشعار له ولأصحابه بحصول السلامة والنجاة من أيديهم ﴿ آللهُ ﴾ أصله أالله على أن الهمزة الأولى استفهام والثانية وصل ، والمعنى أللهّ الذي ذكرت شؤونه العظيمة ﴿ خَيْرٌ ﴾ أنفع لعابديه ﴿ أَمَّا ﴾ أم الذي ﴿ يُشْرِكُوْنَ ﴾ به من الأصنام أي أم الأصنام أنفع لعابديها ، يعني الله خير ، وكان عليه السلام إذا قرأ هذه الآية قال (بل الله خير وأبقى ، وأجل وأكرم) ثم هذا الاستفهام والاستفهامات الآتية تقرير وتوبيخ ، لا استرشاد ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة مقدرة ببل والهمزة ﴿ مَنْ ﴾ موصولة والمعنى بل أم من ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ التي هي أصول الكائنات ومبادى المنافع خير أم ما يشركون ؟ يعني أن الخالق للإجرام العلوية والسفلية خير لعابديه ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ ﴾ أي لأجل منفعتكم ﴿ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ نوعاً منه هو المطر ، ثم عدل عن الغيبة إلى التكلم لتأكيد الاختصاص فقال ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ ﴾ أي بسبب ذلك الماء ﴿ حَدَائِقَ ﴾ بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ البهجةُ : حسن اللون وظهور السرور فيه أي صاحبة حسن ورونق يبتهج به النظار ، وكل موضع ذي أشجار مثمرة محاط عليه فهو حديقة ، وكل ما يسر منظره فهوبهجة ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ ﴾ أي ما صح لكم وما أمكن ﴿ أَنْ تُنْبِتُوْا شَجَرَهَا ﴾ شجر الحدئق فضلاً عن ثمرها ﴿ أَإِلَهٌ ﴾ كائن ﴿ مَعَ اللهِ ﴾ حتى يتوهم جعله شريكاً في العبادة ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُوْنَ ﴾ قوم عادتهم العدول والميل عن الحق الذي هو التوحيد ، والعكوف على الباطل الذي هو الإشراك ، فهم جاروا وظلموا بوضع الكفر موضع الإيمان ، والشرك محل التوحيد ، ثم أضرب وانتقل إلى التبكيت بوجه آخر أدخل في الإلزام فقال ﴿ أَمْ مَنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً ﴾ المراد بالقرار هنا المستقر ، والمعنى بل أم من جعلها بحيث يستقر عليها الإنسان والدواب ، خير من الذي يشركون به من الأصنام ﴿ وَجَعَلَ خِلاَلَهَا ﴾ وهي الفرجة بين الشيئين ، نحو خلل الدار وخلل السحاب ﴿ أَنْهَاراً ﴾ جارية ينتفعون بها ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالاً ثوابت تمنعها أن تميل بأهلها وتضطرب ، ويتكون فيها المعادن ، وينبع في حضيضها الينابيع ، ويتعلق بها من المصالح مالا يخفى ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أي العذب والمالح ﴿ حَاجِزاً ﴾ برزخاً مانعاً من الممازجة والمخالطة ﴿ أَإِلَهٌ ﴾ آخر كائن ﴿ مَعَ اللهِ ﴾ في الوجود أو في إبداع هذه البدائع ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُوْنَ ﴾ ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك ، مع كمال ظهوره ﴿ أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا

﴿ دَعَاهُ ﴾ أم من يستجيب الملجأ إذا تضرع بالدعاء إليه ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوْءَ ﴾ ويدفع عن الإنسان ما يسوءه ويحزنه ، خير أم الذي يشركون به من الأصنام ؟ والمضطر الذي أحوجته شدة من الشدائد إلى اللجأ والضراعة إلى الله تعالى ، كالمرض ، والفقر ، والدَّيْن ، والحبس ، والجور ، وغيرها من نوازل الدهر والأهم في الدعاء تخليص النيات ، وتطهير الاعتقاد من شوائب الشكوك ، والتوسل إلى الله تعالى بالتوبة النصوح ، ثم تطهير الجوارح والأعضاء ليكون محلاً للإمداد من السماء ، ومنه الاستياك والتطيب ، ثم الوضوء واستقبال القبلة ، وتقديم الذكر والثناء والصلاة قبل الشروع في عرض الحاجات والدعوات ، وكذا بسط يديه بالضراعة والابتهال ، ورفعها حذو منكبية ، قال أبو يزيد البسطامي قدس سره : دعوت الله ليلة فأخرجت إحدى يديّ من كمي دون الأخرى لشدة البرد ، فنعست فرأيت في منامي أن يدي الظاهرة مملوءة نوراً والأخرى فارغة ، فقلت ولم ذاكَ يارب ؟ فنوديت التي خرجت للطلب امتلأت والتي توارت حرمت ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ خلفاء فيها بأن ورثكم سكناها ممن كان قبلكم من الأمم ، يخلف كل قرن منكم القرن الذي قبله ﴿ أَإِلَـهٌ ﴾ آخر كائن ﴿ مَعَ اللهِ ﴾ الذي يفيض على كافة الأنام هذه النعم الجسام ﴿ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُوْنَ ﴾ أي تتذكرون آلاءه تذكراً قليلاً وزماناً قليلاً ، و« ما » مزيدة لتأكيد معنى القلة ﴿ أَمْ ﴾ بل ﴿ مَنْ ﴾ الذي ﴿ يَهْدِيكُمْ ﴾ يرشدكم إلى مقاصدكم ﴿ فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَ الْبَحْرِ ﴾ أي في ظلمات الليالي الحالكة بالنجوم وعلامات الأرض ﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾ حال كونها ﴿ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ يعني المطر ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ ﴾ يقدر على مثل ذلك ﴿ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ ﴾ تعالى الخالق القادر عن مشاركة العاجز المخلوق ﴿ أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الخَلْقَ ﴾ أي يوجده أول مرة ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد الموت بالبعث أي يوجده بعد إماتته ؟ وإنما سُئلوا عن بدء خلقهم وإعادتهم مع إنكارهم البعث ، لتقدم البراهين الدالة على ذلك ، من إنزال الماء ، وإنبات النبات ، والعقل يحكم بإمكان الإعادة بعد الإيجاد ، وهم يعلمون أنهم وجدوا بعد أن لم يكونوا ، فإيجادهم بعد أن كانوا أيسر ﴿ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ أي من ينزل لكم المطر ، ويخرج لكم الزرع والنبات ؟ (أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ) يفعل ذلك ﴿ قُلْ هَاتُوْا ﴾ تقول العرب للواحد المذكر « هاتِ » بكسر التاء وللجميع هاتوا ، وللمؤنث هاتي وفي ملح العرب أن رجلاً قال لأعرابي هاتِ ، فقال : والله ما أهاتيك أي ما أعطيك ﴿ بُرْهَانَكُمْ ﴾ عقلياً يدل على أن معه تعالى إلهاً آخر ، والبرهان أوكد الأدلة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي في تلك الدعوى ، ثم بين تعالى تفرده بعلم الغيب ، تكميلاً لما قبله من اختصاصه بالقدرة التامة ، وتمهيداً لما بعده من أمر البعث فقال : ﴿ قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَـوَاتِ ﴾ من الملائكة ﴿ وَالأَرْضِ ﴾ من الإنس والجن ﴿ الغَيْبَ ﴾ وهو ما غاب عن العباد كالساعة ونحوها ﴿ إِلاَّ اللهُ ﴾ أي لكن الله وحده يعلمه فالاستثناء منقطع والمستثنى مرفوع على أنه بدل من كلمة « مَنْ » على اللغة التميمية ، وأما الحجازيون فينصبونه

﴿ وَمَا يَشْعُرُوْنَ ﴾ يعني البشر أي لا يعلمون ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُوْنَ ﴾ متى ينشرون من القبور ، فأيان مركبة من أي وآن ، فأي للاستفهام وآن بمعنى الزمان فلما ركبا وجعلا اسماً واحداً بنيا على الفتح كبعلبك ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ ﴾ أصله تدارك ومعناه تلاحق وتدارك ، قال في القاموس : جهلوا علمها ولا علم عندهم من أمرها انتهى وهو القول الحسن ، وحقيقته انتهى علمهم في لحقوق الآخرة فجهلوها ، ثم انتقل إلى بيان ما هو أسوأ منه ، وهو حيرتهم في ذلك فقال : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ من نفس الآخرة وتحققها كمن تحير في أمر لا يجد عليه دليلاً ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ جاهلون بحيث لا يكادون يرون دلائلها ، لاختلاف بصائرهم بالكلية ، جمع عَمٍ وهو أعمى القلب ، والعمى يقال في افتقاد البصر ، وعمى القلب أشد ، ولا اعتبار لافتقاد البصر في جنب افتقاد البصيرة ، إذ رب أعمى في الظاهر بصير في الباطن ، ورب بصير في الصورة أعمى في الحقيقة ، كحال الكفار والمنافقين والغافلين ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوْا ﴾ أي مشركوا مكة ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابَاً وآباؤنا أَئِنَّا لَمُخْرَجُوْنَ ﴾ المعنى : أنخرج من القبور إذا كنا تراباً ؟ أي هذا لا يكون ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا ﴾ أي الإخراج ﴿ نَحْنُ ﴾ وتقديم الموعود على نحن لأنه المقصود بالذكر ﴿ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل وعد محمد يعني أن آباءنا وعدوا به في الأزمنة المتقدمة ، ثم لم يُبْعثوا ولن يُبْعثوا ﴿ إِنْ هَذَا ﴾ أي ما هذا الوعد ﴿ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ أحاديثهم التي سطروها وكتبوها كذباً ، والأساطيرُ : الأحاديث التي ليس لها حقيقة ولا نظام ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ سِيرُوْا ﴾ أيها المنكرون والمكذبون ﴿ فِي الأَرْضِ ﴾ في أرض الحجر والأحقاف ونحوها ﴿ فَانْظُرُوْا ﴾ تفكروا واعتبروا ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ آخر أمر المكذبين بسبب التكذيب ، حيث أهلكوا بأنواع العذاب ، وفيه تهديد لهم على التكذيب وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين ﴿ وَلاَتَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ على تكذيبهم وإصرارهم ﴿ وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ ﴾ وهو ضد السعة ويستعمل في الفقر والغم ونحوهما ﴿ مِمَّا يَمْكُرُوْنَ ﴾ من مكرهم وكيدهم وتدبيرهم الحيل في إهلاكك ، ومنع الناس عن دينك ، فإنه لا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، والله يعصمك من الناس ويظهر دينك ﴿ وَيَقُوْلُوْنَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ ﴾ أي العذاب العاجل الموعود ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في إخباركم بإتيانه ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُوْنَ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ أي تبعكم ولحقكم ﴿ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُوْنَ ﴾ من العذاب ، فحلَّ بهم عذاب يوم بدر ، وسائر العذاب لهم مدَّخر ليوم البعث و « عسى » و « لعلَّ » و « سوف » في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها وإنما يطلقونها إظهاراً للوقار وإشعاراً بأن الرمز من أمثالهم كالتصريح ممن عداهم ، وعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُوْ فَضْلٍ ﴾ إفضال وإنعام ﴿ عَلَى النَّاسِ ﴾ على كافة الناس ، ومن جملة إنعاماته تأخير عقوبة هؤلاء ، على ما يرتكبونه من المعاصي ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُوْنَ ﴾ لا يعرفون حق النعمة فلا يشكرون ، بل يستعجلون وقوع العذاب من غاية جهلهم

بحقائق الأمور ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُوْرُهُمْ ﴾ أي ما تخفيه ، من أكنَّ إذا أخفى ﴿ وَمَا يُعْلِنُوْنَ ﴾ من الأقوال والأفعال ، التي من جملتها ما حكي عنهم من استعجال العذاب ، وفيه إيذان بأنَّ لهم قبائح غير ما يظهرونه ، وأنه تعالى يجازيهم على الكل ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ الغائبةُ : من الصفات التي تدل على الشدة والغلبة ، والتاء للمبالغة ، كأنه قال : وما من شيء شديد الغيبة والخفاء ، إلا وقد علمه الله تعالى ، وأحاط به ، فالغيب والشهادة بالنسبة إلى علمه تعالى وشهوده على السواء فينبغي للمؤمن أن يكون سليم الصدر ، ولا يكنُّ في نفسه حقداً وحسداً وعداوةً لأحد ، وفي الخبر (إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل « عبد الله بن سلام » رضي الله عنه ، فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله فأخبروه بذلك ، وقالوا لو أخبرتنا بأوثق عملك ترجوا به ؟ فقال : إني ضعيف وإن أوثق ما أرجوا به ، سلامة الصدر ، وترك مالا يعنيني) ففي هذا الخبر شيئان : أحدهما إخباره عليه السلام عن الغيب ، ولكن بواسطة الوحي وتعليم الله تعالى فإن علم الغيب بالذات مختص بالله تعالى ، والثاني أن سلامة الصدر من أسباب الجنة وفي الحديث (لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً ، فإني أريد أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر)[1] وذلك أن المرء مادام لم يسمع عن أخيه إلا مناقبه ، يكون سليم الصدر في حقه ، فإذا سمع شيئاً من مساويه واقعاً أو غير واقع يتغير له خاطره ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ المنزل على محمد ﴿ يَقُصُّ ﴾ يُبيِّن ويتلو ﴿ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ ﴾ لجهالتهم ﴿ يَخْتَلِفُوْنَ ﴾ مثل اختلافهم في شأن المسيح وعزير ، وأحوال المعاد الجسماني والروحاني ، وصفات الجنة والنار ، وتناكرهم في أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي القرآن ﴿ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ مطلقاً من بني إسرائيل أو من غيرهم ، وخُصُّوا بالذكر لأنهم المنتفعون به ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ يفصل بين بني إسرائيل المختلفين ، وذلك يوم القيامة ﴿ بِحُكْمِهِ ﴾ بما يحكم به وهو الحق والعدل ، سمي المحكوم به حكماً على سبيل التجوز ﴿ وَهُوَالعَزِيزُ ﴾ الغالب القاهر فلا يرد حكمه وقضاؤه ﴿ العَلِيمُ ﴾ بجميع الأشياء ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ ولا تبال بمعاداتهم ، والتوكُّلُ : تفويض الأمر إليه ، والإعراض عن ما سواه ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ وصاحب الحق حقيق بالوثوق بحفظ الله ونصره ، وثنَّى بقوله ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ فإن كونهم كالموتى موجب لقطع الطمع في معاضدتهم ، وإنما شبهوا بالموتى لعدم انتفاعهم بما يتلى عليهم من الآيات ، فإن قلت : بعد تشبيه أنفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالعمى والصم مزيد فائدة ؟ قلتُ : المراد تشبيه القلوب لا تشبيه النفوس ، فإن الإنسان إنما يكون في حكم الموتى بمات قلبه بالكفر والنفاق ، وحب الدنيا ونحوها ، قال يحيى بن معاذ : العارفون بالله أحياء ، وما سواهم موتى ، وذلك لأن حياة الروح إنما هي

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود وأحمد في المسند ، كذا في الفتح الكبير ٣ / ٣٥٢ .

بالمعرفة الحقيقية ﴿ وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ أي الدعوة إلى أمر من الأمور ، جمع أصم ، والصمم فقدان حاسة السمع ، وبه شبه من لا يصغي إلى الحق ولا يقبله ﴿ إِذَا وَلَّوْا ﴾ ولى أعرض وترك قربه ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ أي إذا انصرفوا حال كونهم معرضين عن الحق ، تاركين ذلك وراء ظهرهم أي إن الأصم لا يسمع الدعاء مع كون الداعي بمقابلة صماخه قريباً منه ، فكيف إذا كان خلفه بعيداً منه ؟ ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ ﴾ هداية موصلة إلى المطلوب ، فشبَّه من افتقد البصيرة بمن افتقد البصر في عدم الهداية ﴿ إِنْ تُسْمِعُ ﴾ أي ما تسمع سماعاً نافعاً للسامع ﴿ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ من هو في علم الله كذلك أي مَنْ مِنْ شأنه الإيمان بها ﴿ فَهُمْ مُسْلِمُوْنَ ﴾ تعليل لإيمانهم بها كأنه قيل منقادون للحق ، فالأصل هو العناية الأزلية وما سبق في علم الله من السعادة الأبدية ، روي ـ أن النبي عليه السلام قام على منبره فقبض كفه اليمنى فقال : (هذا كتابٌ كتب اللهُ فيه أهل الجنة بأسمائهم وأنسابهم ثم أجمل عليهم لا يزاد فيه ولا ينقص منه ، ثم قبض كفه اليسرى فقال : هذا كتابٌ كتب الله فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم أجمل عليهم لا يزاد فيه ولا ينقص منه)[1] .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ المراد بالوقوع الدنو والاقتراب كما في قوله تعالى (أَتَى أَمْرُ اللهِ) والمعنى إذا دنى واقترب وقوع القول وحصول ما تضمنه ، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ وقع جاء في العذاب والشدائد أي إذا ظهر أمارات القيامة التي تقدم القول فيها ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ ﴾ واسمها الجساسة لتجسسها الأخبار للدجال ﴿ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوْا بِآيَاتِنَا لا يُوْقِنُوْنَ ﴾ أي تكلم تلك الدابة الكفرة باللسان العربي الفصيح ، بأنهم كانوا لا يؤمنون بآيات الله الناطقة بمجيء الساعة وفي الخبر (بينما عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون ، إذ تضطرب الأرض تحتهم وتتحرك تحرك القنديل ، وينشق جبل الصفا مما يلي المسعى ، فتخرج الدابة منه ، ولا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام) كما ورد أن الدجال يخرج على رأس مائة وينزل عيسى عليه السلام فيقتله ثم يمكث في الأرض أربعين سنة والحاصل أن بني الأصفر ـ وهم الإفرنج ـ على ما ذهب إليه المحدثون إذا خرجوا وظهروا في ست سنين، يظهر المهدي في السنة السابعة ، ثم يظهر الدجال ثم ينزل عيسى ، ثم تخرج الدابة ، ثم تطلع الشمس من المغرب ، ويدل عليهم أنهم قالوا : إذا خرجت الدابة حبست الحفظة ورفعت الأقلام وشهدت الأجساد على الأعمال وذلك لكمال تقارب الخروج والطلوع ، فإنه لا يغلق باب التوبة إلا بعد الطلوع والعلم عند الله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً ﴾ يوم منصوب باذكر ، والمعنى واذكر يا محمد لقومك وقت حشرنا أي جمعنا من كل أمة من أمم الأنبياء جماعة كثيرة ﴿ مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾ أي فوجاً

(١) الحديث أخرجه الترمذي في القدر رقم / ٢١٤٢ / ورواه أحمد في المسند ، وإسناده حسن ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ١٠٧ .

مكذبين بها لأن كل أمة وكل عصر لم يخل من كفرة بالله ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ، حتى يتلاحقوا في موقع التوبيخ والمناقشة ﴿ حَتَّى إِذَا جَاؤُا ﴾ إلى موقف السؤال والجواب ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى موبخاً على التكذيب ﴿ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً ﴾ أي أكذبتم بآياتي الناطقة بلقاء يومكم هذا غير ناظرين فيها نظراً يؤدي إلى العلم بكنهها ﴿ أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أم أيَّ شيء تعملونه بعد ذلك ؟ يعني لم يكن لهم عمل غير الجهل والتكذيب ، والكفر والمعاصي ، كأنهم لم يخلقوا إلا لها ، مع أنهم ما خلقوا إلا للعلم والإيمان والطاعة ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي نزل بهم العذاب ﴿ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ بسبب ظلمهم الذي هو التكذيب بآيات الله ﴿ فَهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ ﴾ باعتذار لشغلهم بالعذاب ، أو لختم أفواههم ، ثم وعظ كفار مكة واحتج عليهم فقال ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ من رؤية القلب وهو العلم ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ ﴾ بما فيه من الإظلام ﴿ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ ليستريحوا فيه بالنور والقرار ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ إي ليبصروا بما فيه من الإضاءة طرق التقلب في أمور المعاش ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في جعلها كما وصفا ﴿ لآيَاتٍ ﴾ عظيمة كثيرة ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ دالة على صحة البعث وصدق الآيات الناطقة به ، وإن من تأمل في تعاقب الليل والنهار ، وشاهد في الآفاق تبدل ظلمة الليل الحاكية الموت ، بضياء النهار المضاهي الحياة ، وعاين في نفسه تبدل النوم الذي هو أخو الموت ، بالانتباه الذي هو مثل الحياة ، قضى بأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وجزم بأنه جعل هذا أنموذجاً له دليلاً يستدل به على تحققه ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّوْرِ ﴾ الصورُ : هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام للموت والحشر ، والمعنى واذكر يا محمد لقومك يوم ينفخ في الصور نفخة ثانية يعني ينفخها إسرافيل يوم القيامة لرد الأرواح إلى أجسادها ﴿ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي فيفزع ويخاف ، والتعبير بالماضي للدلالة على وقوعه لأن إخباره تعالى الحق ، والمراد بالفزع هنا ما يعتري الكل ، مؤمناً وكافراً عند البعث والنشور بمشاهدة الأمور الهائلة ، الخارقة للعادات ﴿ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ﴾ أي أن يفزع وهم الأنبياء والأولياء والشهداء ﴿ وَكُلٌّ ﴾ أي جميع الخلائق ﴿ أَتَوْهُ ﴾ تعالى أي حضروا الموقف بين يدي رب العزة للسؤال والجواب ، والمناقشة والحساب ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ أذلاء ﴿ وَتَرَى الجِبَالَ ﴾ أي تراها يومئذ حال كونها ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ تظنها ثابتة في أماكنها ﴿ وَهِيَ ﴾ والحال أن تلك الجبال ﴿ تَمُرُّ ﴾ وتمضي ﴿ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ أي تراها رأي العين ساكنة ، والحال أنها تمر مثل مر السحاب التي تسيرها الرياح سيراً سريعاً ، وذلك لأن كل شيء عظيم وكل جمع كثير ، فهو في حسبان الناظر واقف وهو يسير ، ﴿ صُنْعَ اللهِ ﴾ الصنع إجادة الفعل ، فكل صنعٍ فعلٌ ، وليس كل فعل صنعاً ، ولا ينسب إلى الحيوانات كما ينسب إليها الفعل أي صنع الله ذلك صنعاً ﴿ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيءٍ ﴾ إتقان الشيء : إحكامه ، والمعنى أحكم

خلقه وسوَّاه على ما ينبغي ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُوْنَ ﴾ عالم بظواهر أفعالكم وبواطنها أيها المكلفون ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ بكلمة الشهادة والإخلاص فإنها الحسنة المطلقة ، وأحسن الحسنات ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ نفع وثواب حاصلٌ من جهتها ولأجلها ، وهو الجنة فخير اسم من غير تفضيل ، ويجوز أن يكون صيغة تفضيل ، إذْ ثبت له الشريف بالخسيس ، والباقي بالفاني ، وعشرة بل سبعمائة بواحد ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الذين جاؤا بالحسنات ﴿ مِنْ فَزَعٍ ﴾ أي عظيم هائل لا يقادر قدره وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم ينفخ في الصور ﴿ آمِنُوْنَ ﴾ لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل ، ولا يلحقهم ضرره أصلاً ، وأما الفزع الذي يعتري كل من في السموات ومن في الأرض فإنما هو التهيب والرعب ، الحاصل في ابتداء النفخة ، من معاينة فنون الدواهي والأهوال ، ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الجِبلَّة ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ أي الشرك الذي وهو أسوأ المساوىء ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوْهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ أي ألقوا وطرحوا فيها على وجوههم منكوسين ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ ﴾ أي مقولاً لهم ما تجزون ﴿ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ ﴾ من الشرك ، وقد ورد « لا إله إلا الله » مفتاح الجنة ، ولابد للمفتاح من أسنان حتى يفتح الباب » ومن أسنانه لسان ذاكر طاهر من الكذب والغيبة ، وقلب خاشع طاهر من الحسد والخيانة ، وبطن طاهر من الحرام والشبهة ، وجوارح مشغولة بالخدمة طاهرة من المعاصي ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ العبادة غاية التذلل والمراد بالبلدة هنا مكة المعظمة ، وتخصيصها بالإضافة تشريف لها وتعظيم لشأنها ، وخص البلدة بالذكر وهي مكة ، وإن كان رب البلاد كلها ، ليعرف المشركون نعمته عليهم ، أن الذي ينبغي لهم أن يعبدوه ، هو الذي حرَّم بلدتهم ونباتها وتنفير صيدها وإرادة الإلحاد فيها بوجه من الوجوه ، وفي الحديث (إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس)[1] أي كان تحريمها من الله بأمر سماوي ، لا من الناس باجتهاد شرعي ، ومعنى الآية قل لقومك يا محمد أُمرتُ من قِبَلِ الله أن أخصَّه وحده بالعبادة ، ولا أتخذ له شريكاً ، فاعبدوه أنتم ففيه عزكم وشرفكم ، ولا تتخذوا له شريكاً ، وقد ثبتت عليكم نعمته بتحريم بلدتكم ﴿ وَلَهُ ﴾ أي ولرب هذه البلدة خاصة ﴿ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفاً ، لا يشاركه في شيء من ذلك أحد .

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُوْنَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ ﴾ من الثابتين على ملة الإسلام والتوحيد ، أو من الذين أسلموا وجوههم لله خاصة ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ أي وأُمرت بأن أواظب على تلاوته ، لتكشف لي حقائقه ، فإنه كلَّما تفكر التالي تجلت له معان جديدة كانت في حجب مخفية ، ولذا لا يشبع العلماء والحكماء من تلاوة القرآن ، فعليك بتلاوة القرآن كل يوم ، ولا تهجره كما يفعل ذلك طلبة العلم وبعض المتصوفة ،

(١) هذا جزء من حديث ورد في الصحيحين .

زاعمين بأنهم قد اشتغلوا بما هو أهمُّ من ذلك وهو كذب ، فإن القرآن مادة كل علم في الدنيا ، ويستحب لقارىء القرآن في المصحف أن يجهر بقراءته ، فيأخذ اللسان حظه من الرفع ، ويأخذ البصر حظه من النظر ، واليد حظها من المس ، واعلم أن خلق النبي عليه السلام كان القرآن ، فانظر في تلاوتك إلى كل صفةٍ مدح الله بها عباده فافعلها ، أو اعزم على فعلها ، وكل صفة ذمَّ الله بها عباده فعلها فاتركها أو اعزم على تركها ، فإن الله تعالى ما ذكر لك ذلك إلاَّ لتعمل به فإن فعلت فأنت الرجل الكامل ﴿ **فَمَنِ اهْتَدَى** ﴾ باتباعه إياي فيما ذكر ، من العبادة والإسلام ، وتلاوة القرآن ﴿ **فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ** ﴾ فإن منافع اهتدائه عائدة إليه لا إلى غيره ﴿ **وَمَنْ ضَلَّ** ﴾ بمخالفتي فيما ذكر ﴿ **فَقُلْ** ﴾ في حقه ﴿ **إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ** ﴾ فقد خرجت من عهدة الإنذار والتخويف من عذاب الله ، فليس عليّ من وباله شيء ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ** ﴾ أي على ما أفاض عليّ من نعمائه ، التي أجلُّها نعمة النبوة والقرآن ﴿ **سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا** ﴾ أي فتعرفون أنها آيات الله حين لا تنفعكم المعرفة ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ أي وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات ، وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيئات ، فيجازي كلاً منكم بعمله ، وكيف يغفل عن أعمالكم وقد خلقكم وما تعملون ؟ كما خلق الشجرة وخلق فيها ثمرتها ؟ فلا يخفي عليه حال أهل السعادة والشقاوة ، وإنما يمهل لحكمة لا لغفلة ، حكي أن إبراهيم بن أدهم سُرَّ يوماً بملكته ونعمته ، ثم نام فرأى رجلاً أعطاه كتاباً ، فإذا فيه مكتوب : لا تؤثر الفاني على الباقي ، ولا تغترَّ بملكك ، فإن الذي أنت فيه جسيم لولا أنه عديم ، فسارع إلى أمر الله فإنه يقول ﴿**سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ**﴾ فانتبه فزعاً وقال : هذا تنبيه من الله وموعظة ، فتاب إلى الله ، وهجر الخلق ، وأقبل على طاعة الله عز وجلَّ ، حتى وصل إلى مرتبة الأولياء الصادقين .

انتهى بعونه تعالى تفسير سورة النمل





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسم ﴾ يشير إلى القسم بطاء طَوْله تعالى ، وبسين سره مع محبيه ، وبميم منته على كافة مخلوقاته، بالقيام بكفايتهم على قدر حاجاتهم ، وقد سبق غير هذا من الإشارات الخفية ، والمعاني اللطيفة[1] ﴿ تِلْكَ ﴾ أي هذه السورة ﴿ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ ﴾ آيات مخصوصة من القرآن الظاهر إعجازه ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ ﴾ أي نقرأ قراءة متتابعة بواسطة جبريل ، يعني يقرأ عليك جبريل بأمرنا ﴿ مِنْ نَبَإِ مُوْسَى وَفِرْعَوْنَ ﴾ أي بعض خبرهما الذي له شأن ﴿ بِالحَقِّ ﴾ ملتبسين بالحق والصدق الذي لا يجوز فيه الكذب ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ ﴾ تخصيصهم بذلك لأنهم المنتفعون به ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ ﴾ أي تجبر وطغى في أرض مصر ، وجاوز الحدود المعهودة في الظلم والعدوان ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا ﴾ أهل مصر ﴿ شِيَعًا ﴾ جمع شيعة بالكسر أي فرقاً يشيعونه ويتبعونه في كل ما يريد من الشر والفساد ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾ أي من أهل مصر ، وتلك الطائفة « بنو إسرائيل » ومعنى الاستضعاف أنهم عجزوا وضعفوا عن دفع ما ابتلوا به عن أنفسهم ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحِي نِسَاءَهُمْ ﴾ بدل من الجملة المذكورة والمعنى يُقتِّل بعضهم إثر بعض ، حتى قتل تسعين ألفاً من أبناء بني إسرائيل صغاراً ، ويترك البنات أحياء لأجل الخدمة ، وذلك لأن كاهناً قال له : يولد في بني إسرائيل مولود يذهب ملكك على يده ، وذلك كان من غاية حمقه ، إذ لو صَدَق فما فائدة القتل ، وإن كذب فما وجهه ؟ ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ ﴾ أي الراسخين في الإفساد ، ولذلك اجترأ على قتل خلق كثير ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوْا فِي الأَرْضِ ﴾ أي نتفضل عليهم بإنجائهم من بأسه ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ جمع إمام وهو المؤتم به ، أي قدوة يقتدى بهم في أمور الدين ، بعد أن كانوا أتباعاً مسخرين لآخرين ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ ﴾ كل ما كان في ملك فرعون وقومه ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي نسلطهم على أرض مصر والشام يتصرفون فيها كيفما يشاؤن ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ وهو وزير فرعون ﴿ وَجُنُوْدَهُمَا ﴾ وعساكرهما ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي من أولئك المستضعفين ﴿ مَا كَانُوْا يَحْذَرُوْنَ ﴾ ويجتهدون في دفعه ، من ذهاب ملكهم ، وهلكهم على يد مولود منهم ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوْسَى ﴾ أصلُ الوحي : الإشارة السريعة ، والإيحاء إعلام في خفاء ، إما برسول مشاهد يرى ذاته ويسمع كلامه ،

---

(١) الحروف المقطَّعة في أوائل السور للتنبيه على إعجاز القرآن هذا ما اختاره المحققون من المفسرين والله أعلم .

كتبليغ جبريل للنبي عليه السلام في سورة معينة ، وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى عليه السلام كلام الله تعالى ، وإما بإلقاء في الورع كما ذكر عليه السلام (إن روح القدس نفث في روعي) وإما بإلهام نحو قوله ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى** ﴾ وذلك أن أم موسى حبلت بموسى ، فلم يظهر بها أثر الحبل من نتوء البطن وتغير اللون وظهور اللبن ، وذلك شيء ستره الله ليمنّ به على بني إسرائيل ، حتى ولدت موسى ليلة لا رقيب عليها ولا قابلة ، ولم يطلع عليها أحد من القوابل الموكلة من طرف فرعون بحبالى بني إسرائيل ، ولا من غيرهن إلا أخته مريم فأوحى الله إليها ﴿ **أَنْ** ﴾ مفسرة بمعنى أي ﴿ **أَرْضِعِيهِ** ﴾ ما أمكنك إخفاؤه ، وفي كشف الأسرار ما لم تخافي عليه الطلب ﴿ **فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ** ﴾ بأن يحس به الجيران عند بكائه ﴿ **فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ** ﴾ في البحر وهو النيل ، قال بعض الكبار : فإذا خفت حفظه وعجزت عن تدبيره ، فسليه إلينا ليكون في حفظنا وتدبيرنا ﴿ **وَلاَ تَخَافِي** ﴾ عليه ضيقاً ولا شدة ﴿ **وَلاَ تَحْزَنِي** ﴾ بفراقه ﴿ **إِنَّا رَادُّوْهُ إِلَيْكِ** ﴾ عن قريب بوجه لطيف ، بحيث تأمنين عليه ﴿ **وَجَاعِلُوْهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ من جملة رسلنا الكرام فأرضعته ثلاثة أشهر أو أكثر ، ثم ألح فرعون في طلب المواليد ، واجتهد ببثّ العيون في تفحصها ، فجعلته في تابوت مطلي بالقار ، فقذفته في النيل ليلاً ﴿ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ** ﴾ الفاء فصيحة مفصحة عن عطفه على جملة محذوفة والمعنى فالقته في اليم بعد ما جعلته في التابوت فالتقطه آل فرعون أي أخذوه أخذ اعتناء به ، وصيانةٍ له عن الضياع ﴿ **لِيَكُوْنَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً** ﴾ اللام لام العاقبة والصيرورة ، لا لام العلة لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدواً وحزناً ولكن صار عاقبة أمرهم إلى ذلك ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُوْدَهُمَا كَانُوْا خَاطِئِينَ** ﴾ في كل ما يأتون وما يذرون ، فليس ببدع منهم أن قتلوا ألوفاً لأجله ، ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما : كانوا يحذرون ، والخطا مقصوراً : العدول عن الجهة والخاطىء من يأتي بالخطأ وهو يعلم أنه خطأ، والمخطىء من يأتي به وهو لا يعلم ، أي يريد ما يحسن فعله ولكن يقع منه بخلاف ما يريد ﴿ **وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ** ﴾ هي آسية بنت مزاحم أي قالت لفرعون حين أخرج من التابوت ﴿ **قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ** ﴾ أي هو قرة عين لنا لأنها لما رأياه أحباه ﴿ **لاَتَقْتُلُوهُ** ﴾ خاطبته بلفظ الجمع تعظيماً ليساعدها فيما تريده ﴿ **عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا** ﴾ وذلك لما رأت من ارتضاعه ابهامه لبناً ونور الأنوار بين عينيه قال بعض الكبار : وجوه الأنبياء والأولياء مرائى ، ينتفع بتلك الأنوار المؤمن والكافر ﴿ **أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً** ﴾ أي نتبناه فإنه أهل له ولم يكن له ولد ذكر﴿ **وَهُمْ لاَ يَشْعُرُوْنَ** ﴾ أي وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم فيما صنعوا ، من الالتقاط والتبني له ، قال ابن عباس : لو أن عدو الله قال في موسى كما قالت آسية « عسى أن ينفعنا » لنفعه الله ، ولكنه أبى للشقاء الذي كتبه الله عليه ، رُوِي أنه قالت الغواة من قوم فرعون : ما نظن إلا أن هذا هو الذي يحذر منه ، رمي في البحر خوفاً منك فاقتله ، فهمّ فرعون بقتله،

فقالت آسية : إنه ليس من أولاد بني إسرائيل ، فقيل لها وما يدريك ؟ فقالت : إن نساء بني إسرائيل يشققن على أولادهن ويكتمنهم مخافة أن تقتلهم ، فكيف يظن بالوالدة أنها تلقى الولد بيدها في البحر ؟ فاستوهبته لما رأت عليه من دلائل النَّجابة فتركه ، وسمته آسية موسى ، لأن تابوته وجد بين الماء والشجر ، والماء في لغتهم « مو » والشجر « شا » ﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى** ﴾ أصبح بمعنى صار ، والفؤاد القلب لمعنى التفؤد أي التحرق والتوقد ﴿ **فَارِغًا** ﴾ الفراغ خلاف الشغل ، أي صِفراً من العقل ، وخالياً من الفهم ، لما غشيها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوع موسى في يد فرعون ﴿ **إِنْ** ﴾ أي إنها ﴿ **كَادَتْ** ﴾ قاربت من ضعف البشرية وفرط الاضطراب ﴿ **لَتُبْدِي بِهِ** ﴾ لتظهر بموسى وأنه ابنها وتفشي سرَّها ، وأنها ألقته في النيل ، ولم يبق في فؤادها صبر من الشوق إلى وجه موسى ﴿ **لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا** ﴾ شددنا عليه بالصبر والثبات ، بتذكير ما سبق من الوعد ، وهو رده إليها وجعله من المرسلين ، والربطُ : الشدُّ وهو العقد القويُّ ﴿ **لِتَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ من المصدقين بما وعدها الله بقوله ﴿ **إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ** ﴾ ولم يقل من المؤمنات تغليباً للذكور ﴿ **وَقَالَتْ** ﴾ أم موسى ﴿ **لأُخْتِهِ** ﴾ أي لأخت موسى لم يقل لبنتها للتصريح بمدار المحبة وهو الأخوة ﴿ **قُصِّيهِ** ﴾ أي اتبعي أثره وتتبعي خبره ﴿ **فَبَصُرَتْ بِهِ** ﴾ أي أبصرته ﴿ **عَنْ جُنُبٍ** ﴾ عن بُعدٍ ، تبصرُه ولا توهم أنها تراه ﴿ **وَهُمْ لاَ يَشْعُرُوْنَ** ﴾ أنها تتعرَّفُ حاله أو أنها أخته ﴿ **وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ** ﴾ التحريم بمنع المنع أي منعنا موسى أن يرضع من الرضعات ، ويشرب لبن غير أمه ، بأن أحدثنا فيه كراهة ثدي النساء والنفار عنها ، من قبل أن نرده على أمه ، والمراضع جمع مرضع وهي المرأة التي ترضع أي من شأنها الإرضاع ، وإن لم تكن تباشر الإرضاع في حال وصفها به فهي بدون التاء لأنها من الصفات الثابتة والمرضعة هي التي في حالة إرضاع الولد بنفسها ، والرضاع يغير الطباع ، ومن ثمة لَمَّا دخل الشيخ أبو محمد الجويني بيته ، ووجد أبنه الإمام أبا المعالي يرتضع ثدي غير أمه اختطفه منها ، ثم نكس رأسه ومسح بطنه ، وأدخل أصبعه في فمه حتى خرج ذلك اللبن ، فقال يسهل عليَّ موته ولا يفسد طبعه ، بشرب لبن غير أمه ، ثم لما كبر الإمام كان إذا حصلت له كبوة في المناظرة ، يقول : هذه من بقايا تلك الرضعة ، قالوا : العادة جارية أن من ارتضع امرأة ، فالغالب عليه أخلاقها من خير وشر ﴿ **فَقَالَتْ** ﴾ أي أخته عند رؤيتها لعدم قبوله الثدي ، واعتناء فرعون بأمره وطلبهم من يقبل ثديها ﴿ **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُوْنَهُ لَكُمْ** ﴾ أي يربونه ويقومون بإرضاعه لأجلكم ﴿ **وَهُمْ لَهُ نَاصِحُوْنَ** ﴾ يبذلون النصح في أمره ، ولا يقصرون في إرضاعه وتربيته ، روي أنهم قالوا لها : من يكفل ؟ قالت : أمي ، قالوا **ألأمك لبن ؟ قالت نعم هي امرأة قد قتل ولدها ، فأحبُّ شيء إليها أن تجد صغيراً ترضعه ، فأمرها فرعون** بأن تأتي بمن يكفله ، فأتت بأمه وموسى على يد فرعون يبكي وهو يعلله فدفعه إليها ، فلما وجد ريحها

استأنس والتقم ثديها .

فقال : من أنتِ منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك ؟ فقالت : إني امرأة طيبة الريح ، طيبة اللبن ، لا أوتي بصبي إلا قبلني ، فدفعه إليها وأجرى عليها أجرتها ، فرجعت به إلى بيتها من يومها مسرورة ، فكانوا يعطون الأجرة كل يوم ديناراً ، ولم يكن بين إلقائها إياه في البحر ، وبين رده إليها إلا مقدار ما يصبر الولد فيه عن الوالدة ، وأبعدَ من قال مكث ثمان ليال لا يقبل ثدياً ﴿ **فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ** ﴾ أي صرفنا موسى إلى والدته ﴿ **كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا** ﴾ بوصول ولدها إليها ﴿ **وَلاَ تَحْزَنَ** ﴾ بفراقه ﴿ **وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ** ﴾ أي جميع ما وعده من رده وجعله من المرسلين ﴿ **حَقٌّ** ﴾ لا خُلف فيه بمشاهدة بعضه ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ** ﴾ آل فرعون ﴿ **لاَ يَعْلَمُوْنَ** ﴾ أن وعد الله حق ، فمكث موسى عند أمه إلى أن فطمته ، وردته إلى فرعون وآسية ، فنشأ موسى في حجر فرعون وامرأته يربيانه بأيديهما ، واتخذاه ولداً ، فبينما هو يلعب يوماً بين يدي فرعون وبيده قضيب له يلعب به ، إذ رفع القضيب فضرب به رأس فرعون ، فغضب فرعون وتطيَّر من ضربه حتى همّ بقتله ، فقالت آسية أيها الملك : لا تغضب ولا يشقنّ عليك فإنه صبي صغير لا يعقل ، إن شئت اجعل في هذا الطست جمراً وذهباً ، فانظر على أيهما يقبض ؟ فأمر بذلك ، فلما مد موسى يده ليقبض على الذهب ، قبض الملك الموكل به على يده فردها إلى الجمرة ، فقبض عليها موسى فألقاها في فيه ثم قذفها حين وجد حرارتها ، فقالت آسية لفرعون : ألم أقل لك إنه لا يعقل شيئاً ؟ فكفَّ عنه وصدَّقها ، وكان أمر بقتله ، ويقال : إن العقدة التي كانت في لسان موسى أي قبل النبوة أثر تلك الجمرة التي التقمها ، ثم زالت بعدها لأنه عليه السلام دعا بقوله (**واحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي**) وقد سبق في طه ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ** ﴾ موسى ﴿ **أَشُدَّهُ** ﴾ أي قوَّته وهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين ﴿ **وَاسْتَوَى** ﴾ أي اعتدل عقله وكمل بأن بلغ أربعين سنة وفي يوسف (**بَلَغَ أَشُدَّهُ**) فحسب ، لأنه أوحي إليه في صباه حين كونه في البئر ، وموسى عليه السلام أوحي إليه بعد أربعين سنة كما قال ﴿ **آتَيْنَاهُ حُكْمَاً** ﴾ أي نبوة ﴿ **وَعِلْمَاً** ﴾ بالدين ، والجمهور على أن نبينا عليه السلام بعث على رأس الأربعين ، وكذا كل نبي عند البعض ، وقال بعضهم : اشتراط الأربعين في حق الأنبياء ليس بشيء ، لأن عيسى عليه السلام نبيء ورفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين ، ونبيء يوسف عليه السلام وهو ابن ثماني عشرة ، ويحيى عليه السلام نُبّيء وهو غير بالغ ﴿ **وَكَذَلِكَ** ﴾ أي كما جزينا موسى وأمه ﴿ **نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴾ على إحسانهم ، وفيه تنبيه على أنهما كانا محسنين في عملهما متقيين في عنفوان عمرهما ، فمن أدخل نفسه في زمرة أهل الإحسان جازاه الله بأحسن الجزاء ، حكي أن امرأة كانت تتعشى فسألها سائل ، فقامت ووضعت في فمه لقمة ، ثم وضعت ولدها في موضع فاختلسه الذئب ، فقالت يارب : ولدي ، فأخذ آخذ عنق الذئب واستخرج الولد من فيه بغير أذى ، وقال لها : هذه اللقمة بتلك

اللقمة ، التي وضعتها في فم السائل ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ ﴾ ودخل موسى مصر آتياً من قصر فرعون ، وذلك لأن قصر فرعون كان على طرف من مصر ﴿ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ أي في وقت لا يعتاد دخولها ، قال ابن عباس : دخلها في الظهيرة عند المقيل ، وقد خلت الطرق ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ ﴾ الجملة صفة لرجلين ﴿ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أي ممن شايعه وتابعه على دينه ، وهم بنو إسرائيل ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أي من مخالفيه ديناً وهم القبط ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أي سأله أن يغيثه بالإعانة عليه ، وكان موسى قد أعطي شدّةً وقوة ، ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى ﴾ الوكز : الضرب بجمع الكف ، أي فضرب القبطي بجمع كفه ﴿ فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ أي فقتله فندم ﴿ قَالَ هَذَا ﴾ القتل ﴿ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ أضيف العمل إلى الشيطان لأنه كان بإغوائه ووسوسته ، لأنه لم يؤمر بقتل الكفار ، ولا يقدح ذلك في عصمته لموته خطأ ، وإنما عده من عمل الشيطان ، وسماه ظلماً واستغفر منه جرياً على سنن المقربين ، في استعظام ما فرط منهم ، وكان هذا قبل النبوة ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي الشيطان ﴿ عَدُوٌّ ﴾ لابن آدم ﴿ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة والإضلال ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ بقتل القبطي بغير أمر ﴿ فَاغْفِرْ لِي ﴾ ذنبي ﴿ فَغَفَرَ لَهُ ﴾ ربه ذلك لاستغفاره ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أي المبالغ في مغفرة ذنوب العباد ورحمتهم ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ أي أُقسم عليك بإنعامك عليّ بالمغفرة لأتوبن ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ﴾ بعد هذا أبداً ﴿ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ معيناً لهم ، يقال : ظاهرتُه أي قويت ظهره بكوني معه ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ وفيه إشارة إلى أن دخول المدينة والقتل كانا بين العشاءين ، حين اشتغل الناس بأنفسهم ﴿ خَائِفاً ﴾ أي على نفسه من آل فرعون ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ يترصد طلب القود أو الإخبار وما يقال في حقه وهل عرف قاتله ، والترقب إنتظار المكروه ، ﴿ فَإِذَا ﴾ للمفاجأة ﴿ الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ ﴾ أي الاسرائيلي الذي طلب من موسى النصرة قبل هذا اليوم على دفع القبطي المقتول ﴿ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ الاستصراخ أي يستغيث موسى برفع الصوت من الصراخ وهو الصوت ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى ﴾ أي للإسرائيلي المستنصر بالأمس المستغيث على الفرعوني الآخر ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ ﴾ وهو فعيل بمعنى الغاوي ﴿ مُبِينٌ ﴾ بين الغواية والضلالة لأنك تسبَّبت لقتل رجل ، وتقاتل آخر ، يعني إني وقعت بالأمس فيما وقعت فيه بسببك ، فالآن تريد أن توقعني في ورطة أخرى ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ ﴾ موسى ﴿ أَنْ يَبْطِشَ ﴾ البطش تناول الشيء بشدة ﴿ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ﴾ أي يأخذ بيد القبطي الذي هو عدو لموسى والإسرائيلي ﴿ قَالَ ﴾ ذلك الإسرائيلي ظاناً أن موسى يريد أن يبطش به ، بناء على أنه خاطبه بقوله « إنك لغوي مبين » ورأى غضبه عليه ، أوقال القبطي وكأنه توهم من قولهم إنه الذي قتل القبطي ﴿ يَامُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ ﴾ يعني القبطي المقتول ﴿ إِنْ تُرِيدُ ﴾ أي ما تريد ﴿ إلا أن

﴿ تَكونَ جَبّاراً في الأَرْضِ ﴾ وهو الذي يفعل ما يريده من الضرب والقتل ولا ينظر في العواقب ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكونَ مِنَ الْمُصْلِحينَ ﴾ بين الناس بالقول والفعل فتدفع التخاصم ، ولما قال هذا انتشر الحديث ، وارتقى إلى فرعون وقومه ، وظهر لهم أن القتل الواقع أمس صدر من موسى ، حيث لم يطلع على ذلك إلا ذلك الإسرائيلي ، فهموا بقتل موسى فخرج مؤمن من آل فرعون ليخبر موسى كما قال ﴿ وَجاءَ رَجلٌ منْ أَقْصى المدينَةِ ﴾ من آخرها ﴿ يَسْعىٰ ﴾ أي يسرع في مشيه حتى وصل إلى موسى ﴿ قَال يامُوسىٰ إنّ المَلأَ ﴾ أشراف قوم فرعون ﴿ يأتَمِرونَ بِكَ ﴾ يتشاورون بسببك ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فاخْرُجْ ﴾ من المدينة ﴿ إنّي لَكَ مِنَ النّاصِحينَ ﴾ في أمري إياك بالخروج ﴿ فَخَرَجَ مِنْها خَائِفاً ﴾ حال كونه خائفاً على نفسه ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ لحوق الطالبيين ، والتعرض له في الطريق ﴿ قَالَ رَبِّ نَجّنِي مِنَ القَوْمِ الظالِمينَ ﴾ خلصني منهم واحفظني من لحوقهم فاستجاب الله دعاءه ونجاه ﴿ وَلَمّا تَوَجَّه تِلْقاءَ مَدْيَنَ ﴾ والتلقاء : تفعال من لقيت يقال جلس تلقاءه أي حذاءه ومقابلته ، ومدين قرية شعيب عليه السلام على بحر القلزم ، ولم تكن في سلطان فرعون ، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام ، والمعنى : لما جعل موسى وجهه نحو مدين وصار متوجهاً إلى جانبها ﴿ قَالَ ﴾ توكلاً على الله وحسن ظن به ، وكان لا يعرف الطريق ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أن يَهْدِيَني سواءَ السَبيلِ ﴾ وسطه ومستقيمه ، ﴿ وَلَمّا وَرَدَ ﴾ أي ولما وصل موسى وجاء ﴿ ماءَ مَدْيَنَ ﴾ وهو بئر من طرف المدينة ، على ثلاثة أميال منها قال ابن عباس : ورده وإنه ليتراءى خضرة البقل في بطنه من الهُزال ﴿ وَجدَ عَلَيْهِ ﴾ أي جانب البئر وفوق شفيرها ﴿ أُمّةً مِنَ النّاسِ ﴾ جماعة كثيرة منهم ﴿ يسْقُونَ ﴾ مواشيهم ﴿ وَوَجدَ مِنْ دُونِهِمُ ﴾ في مكان أسفل منهم ﴿ امْرَأَتَيْنِ ﴾ هما ابنتا شعيب ﴿ تَذودانِ ﴾ أي تمنعان أغنامهما عن التقدم إلى البئر ﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ ما خَطْبُكما ﴾ أي ما شأنكما فيما أنتما عليه من التأخر والذود ؟ ولم لا تباشران السقي كدأب هؤلاء ؟ ﴿ قَالتا لا نَسْقي حَتّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ الرعاء : بالكسر جمع راع كقيام جمع قائم ، والمعنى عادتنا أن لا نسقي مواشينا حتى يصرف الرعاء مواشيهم ويرجعوا حذراً من مخالطة الرجال ، فإذا انصرفوا سقينا من فضل مواشيهم ﴿ وَأَبُونَا ﴾ وهو شعيب ﴿ شَيْخٌ كَبيرٌ ﴾ كبير السن لا يستطيع أن يخرج ، فيرسلنا للرعي والسقي اضطراراً ﴿ فَسَقَى لَهُما ﴾ ما شيتهما رحمة عليهما ، وطلباً لوجه الله تعالى ، روي أن الرجال كانوا يضعون على رأس البئر حجراً لا يرفعه إلا سبعة رجال أو عشرة ، فرفعه وحده مع ما كان به من الوصب والجوع وجراحة القدم ﴿ ثُمّ ﴾ بعد فراغه ﴿ تَوَلّى ﴾ أي أعرض وأنصرف ﴿ إلى الظِلِّ ﴾ وكان ظل سمرة هنالك ، فجلس في ظلها من شدة الحر وهو جائع ﴿ فَقَالَ ﴾ يا ﴿ رَبِّ إنّي لِما أَنْزلْتَ إلَيّ ﴾ أي أيّ شيء أنزلته إليّ ﴿ منْ خَيْرٍ ﴾ قليل أو كثير ، وحمله الأكثرون على الطعام بمعونة المقام ﴿ فَقيرٌ ﴾ محتاج سائل ، ولما كان موسى

عليه السلام جائعاً سأل من الله ما يأكل ، ولم يسأل من الناس ، فطنت الجاريتان فلما رجعتا إلى أبيهما قال لهما : ما أعجلكما ؟ قالتا وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا ، ثم تولى إلى الظل فقال رب إلخ فقال أبوهما : هذا رجل جائع ، فقال لإحداهما إذهبي فادعيه لنا ﴿ **فَجَاءتْهُ إِحْدٰيهُمَا** ﴾ عقيب ما رجعتا إلى أبيهما وهي الكبرى ﴿**تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ**﴾ كما هو عادة الأبكار قال أعرابي : لا يزال الوجه كريماً ما غلب حياؤه ، ولا يزال الغصن نضيراً ما بقي لحاؤه ﴿ **قَالَتْ** ﴾ استئناف بياني ﴿ **إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ** ﴾ ليكافئك ﴿ **أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا** ﴾ جزاء سقيك لنا ، قال بعضهم : كان بين الجبال خائفاً مستوحشاً فأجابها ، فانطلقا وهي أمامه فكشفت الريح ثوبها فقال لها امشي خلفي وانعتي إليّ الطريق ، فتأخرت وكانت تقول : عن يمينك ، وشمالك ، وقدامك ، حتى أتيا دار شعيب فبادرت المرأة إلى أبيها وأخبرته فأذن له في الدخول ، وشعيب يومئذ شيخ كبير وقد كُفَّ بصره ، فسلم موسى فرد عليه السلام وعانقه ثم أجلسه بين يديه وقدم إليه طعاماً فامتنع منه ، وقال : أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيته وإنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا لأنه كان من بيت النبوة من أولاد يعقوب ، فقال شعيب لا والله ياشاب ولكن هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فتناول هذا ، وإن من فعل معروفاً فأُهدي إليه شيء لم يحرم أخذه ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ** ﴾ أخبره بما جرى عليه من الخبر المقصوص فإنه مصدر سمي به المفعول كالعلل ﴿ **قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ أي فرعون وقومه فإنه لا سلطان له بأرضنا ، ولسنا في مملكته ثم أن موسى قد تربى عند فرعون بالنعمة الظاهرة ، ولما هاجر إلى الله وقاسى مشاق السفر والغربة ، عوضه الله عند شعيب النعمة الظاهرة والباطنة ، ولهذا قيل :

سَافر تجدْ عِوَضاً عمَّنْ تفارقه * وانصبْ فإن اكتسابَ المجدِ في النَّصب
فالأُسْدُ لولا فِراقُ الغَابِ مَا افْتَرستْ * والسهمُ لولا فِراقُ القَوْسِ لم يُصِبِ

وقيل :

بلادُ اللهِ واسعةٌ فضاءً * ورزقُ اللهِ في الدنيا فسيحُ
فقل للقاعدين على هَوَانٍ * إذا ضاقت بكم أرضٌ فسيحوا

﴿ **قَالَتْ إِحْدٰيهُمَا** ﴾ وهي الكبرى التي استدعته إلى أبيها وهي التي زوَّجها موسى ﴿ **يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ** ﴾ أي اتخذْ موسى أجيراً لرعي الغنم ، والقيام بأمرها ﴿ **إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ** ﴾ روي أن شعيباً قال لها : وما أعلمك بقوته وأمانته ؟ فذكرت له ما شهدت منه من رفع الحجر عن رأس البئر ونزع الدلو الكبير ، وأنه خفض رأسه عند الدعوة ، ولم ينظر إلى وجهها تورعاً حتى بلّغته رسالته ، وأنه أمرها بالمشي خلفه ، فخصت هاتين الخصلتين بالذكر ، لأنها كانت تحتاج إليهما من ذلك

الوقت ، أما القوة فلسقي الماء ، وأما الأمانة فلحفظ البصر وصيانة النفس عنها كما قال يوسف عليه السلام (إنّي حَفيظٌ عَليمٌ) ﴿ قَالَ ﴾ شعيب لموسى عليه السلام ﴿ إنِّيَ أريدُ أنْ أُنْكِحَكَ إحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ أي أريد أن أزوّجك واحدة من بنتيَّ هاتين ﴿ علَى أنْ تَأجُرَني ﴾ حال كونك مشروطاً عليك أو واجباً أن تكون لي أجيراً ﴿ ثَمَانِيَ حِجَج ﴾ في هذه المدة جمع حجة بالكسر بمعنى السنة ، وهذا ليس بصداق لقوله تأجرني ، ويجوز أن يكون النكاح جائزاً في تلك الشريعة لولي المرأة ، كما يجوز في شريعتنا بشرط رعي غنمها في مدة معلومة ، واعلم أن المهر لابد وأن يكون مالاً متقدماً في شريعتنا لقوله تعالى (أنْ تَبْتَغُوا بأمْوالِكُمْ) وأن يكون مسلّماً إلى المرأة لقوله تعالى (وآتوا النّساءَ صَدُقَاتِهِنّ) فلو تزوجها على تعليم القرآن ، أو خدمته لها سنة يصح النكاح ، ولكنْ يُصار إلىَ مهر المثل ، لعدم تقوُّم التعليم والخدمة ﴿ فَإنْ أتْمَمْتَ عَشْراً ﴾ أي عشر سنين في الخدمة والعمل ﴿ فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ أي فإتمامها من عندك تفضلاً ، لا من عندي إلزاماً عليك ﴿ وَما أُريدُ أنْ أشُقَّ عَليْكَ ﴾ أي لا أريد أن أوقعك في المشقة ولذلك خيَّرتك في المدة ، واقتضى هذا أن عمر موسى وقتئذ كان ثلاثين ، لأنه لما أتم العشر عاد إلى مصر ، فاستنبىء في الطريق ، وقد سبق أن استنباءه كان في بلوغ الأربعين ، وهذه سنة الله في الرسل الكرام ﴿ سَتَجِدُنِي إنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصّالِحِينَ ﴾ في حسن المعاملة ، ولين الجانب ، والوفاء بالعهد .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ ذلكَ ﴾ الذي عاهدتني فيه وشارطتني عليه ، قائم وثابت ﴿ بَيْنِي وَبيْنَكَ ﴾ جميعاً لا أنا أخرج عما شرطت علي ، ولا أنت تخرج عما شرطتَ على نفسك ﴿ أيَّما الأجَليْنِ قَضَيْتُ ﴾ الأجل : مدة الشيء ، والمعنى أكثرهما أو أقصرهما وفيتك بأداء الخدمة فيه ﴿ فلا عُدْوَانَ عَليَّ ﴾ لا تعدّي ولا تجاوز بطلب الزيادة ، فكما لا أطالب بالزيادة على العشر ، لا أطالب بالزيادة على الثماني ﴿ واللهُ عَلى ما نَقولُ ﴾ من الشروط الجارية بيننا ﴿ وَكِيلٌ ﴾ شاهد وحفيظ فلا سبيل لأحد منا إلى الخروج عنه أصلاً ، فجمع شعيب المؤمنين من أهل مدين ، وزوَّجه ابنته « صفوريا » ودخل موسى البيت ، وأقام يرعى غنم شعيب عشر سنين ﴿فَلَمّا قَضَىٰ مُوسَى الأجَلَ ﴾ فلما أتم الأجل المشروط بينهما وفرغ منه ، روى أنه قضي أبعد الأجلين ، وهي عشر سنين ﴿ وَسَارَ ﴾ موسى إلى مصر ﴿ بِأهْلِهِ ﴾ بامرأته صفوريا وكانت الليلة مظلمة باردة ، وكانت امرأته حاملاً ، فأخذها الطلق فأراد أن يقدح فلم يظهر له نار فاغتم لذلك فحينئذ ﴿ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ﴾ أي أبصر من الجهة التي تلي الطور ناراً ﴿ قَالَ ﴾ موسىٰ ﴿ لأهْلِهِ امْكُثوا ﴾ أي قفوا مكانكم واثبتوا ﴿ إنِّيَ آنَسْتُ نَاراً ﴾ أي أبصرتُ ناراً عن بُعد ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ وقد كانوا ضلوا الطريق ﴿ أوْ جَذْوَةٍ ﴾ عود غليظ

في رأسه نار ولذلك بيّن بقوله ﴿ مِنَ النَّارِ ﴾ وفي المفردات : الجذوةُ التي يبقى من الحطب بعد الالتهاب ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ الاصطلاءُ : التدفؤ بالصّلاءِ وهو النار بفتح الصاد وكسرها ، فترك موسى أهله في البرية وذهب ﴿ فَلَمَّا أَتَيٰهَا ﴾ أي النار التي آنسها ﴿ نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الوادي الأيْمنِ ﴾ أي أتاه النداء من الشاطيء الأيمن بالنسبة إلى موسى ، والشاطىء الجانب والشط وهو شفير الوادي ﴿ فِي البُقْعَةِ المبَارَكَةِ ﴾ متصل بالشاطىء والبقعة : قطعة من الأرض لا شجر فيها ، وصفت بكونها مباركة لأنه حصل فيها ابتداء الرسالة ، وتكليم الله إياه ﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ بدل اشتمال من شاطىء لأنها كانت ثابتة على الشاطىء ﴿ أَنْ ﴾ مفسرة بمعنى أي ﴿ يامُوسىٰ إنِّيَ أنا الله رَبُّ العَالمينَ ﴾ أي أنا الله الذي ناديتك ودعوتك باسمك ، وأنا رب الخلائق أجمعين ، وهذا أول كلامه لموسى ، وهو إن خالف لفظاً لما في طه والنمل ، لكنه موافق له في المعنى المقصود ﴿ وأنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أي ونودي أن ألق واطرح من يدك عصاك ، فألقاها فصارت حية فاهتزت ﴿ فَلَمَّا رآها تَهْتَزُّ ﴾ أي تتحرك تحركاً شديداً ﴿ كَأَنَّها جَانٌّ ﴾ في سرعة الحركة أو في الهيئة ﴿ وَلَّى مُدْبِراً ﴾ أعرض حال كونه منهزماً من الخوف ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي لم يرجع ﴿ يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنينَ ﴾ من المخاوف فإنه لا يخاف لديَّ المرسلون ، فإن قلت : ما الفائدة في إلقائها ؟ قلت : أن يألفها ولا يخافها عند فرعون ، فإذا ناظره ألجمه الحجة بقلب العصا وغيره من المعجزات ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِكَ ﴾ أدخلها في مدرعتك ، وهي ثوب من صوف يلبس بدل القميص ولا يكون له كم ، بل ينتهي كمه عند المرفقين ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ﴾ أي حال كونها مشرقة مضيئة لها شعاع كشعاع الشمس ﴿ منْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ عيب كالبرص ﴿ واضْمُمْ إِلَيْكَ جناحَكَ ﴾ أي يديك المبسوطتين تتقي بهما الحية كالخائف الفزع بإدخال اليمنى تحت عضد اليسرى وبالعكس ﴿ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ أي إذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلداً أو ضبطاً لنفسك ﴿ فَذَانِكَ ﴾ إشارة إلى العصا واليد ﴿ بُرْهَانَانِ ﴾ حجتان نيّرتان ، ومعجزتان باهرتان ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي كائنان منه تعالى ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَملاَئِهِ ﴾ منتهيان إليهم ﴿ إِنَّهُمْ كانوا قَوْماً فاسِقِينَ ﴾ خارجين عن الطاعة إلى حدود الظلم والعدوان فكانوا أحقاء بأن نرسلك إليهم بهاتين المعجزتين ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ رَبِّ إني قَتَلْتُ مِنْهُمْ ﴾ أي من القوم وهم القبط ﴿ نَفْساً ﴾ وهو خباز فرعون ﴿ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ بمقابلتها ﴿ وأخي هَرونُ هُوَ أَفْصَحُ منّي لِساناً ﴾ أطلق لساناً بالبيان ، وكان في لسان موسى عقدة من قبل الجمرة التي تناولها وأدخلها فاه ، تمنعه من إعطاء البيان حقه ﴿ فَأَرْسِلْهُ ﴾ إلى فرعون وقومه ﴿ مَعِيَ رِدْئاً ﴾ أي معيناً ﴿ يُصَدِّقُنِي ﴾ أي مصدقاً لي بتلخيص الحق ، وتقرير الحجة وتوضيحها ، وتزييف الشبهة وإبطالها ﴿ إِنِّيَ أَخَافُ أن يُكَذِّبونِ ﴾ أي يردوا كلامي ولا يقبلوا مني دعوتي ، ولساني لا يطاوعني عند المحاجة ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أي

سنقويك به لأن الإنسان يقوى بأخيه كقوة اليد بعضدها ، وكان هارون يومئذ بمصر ﴿ **وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً** ﴾ أي تسلطاً وغلبة ، قال جعفر : هيبة في قلوب الأعداء ، ومحبة في قلوب الأولياء ﴿ **فلاَ يصِلونَ إليْكُما** ﴾ باستيلاء أو محاجة ﴿ **بآياتنا** ﴾ أي نسلطكما بآياتنا وهي المعجزات ، أو بمعنى تمتنعان منهم بآياتنا ، فلا يصلون إليكما بقتل ولا سوء ﴿ **أَنْتُمَا وَمَنِ اتّبَعَكُمَا الغَالِبون** ﴾ أي لكما ولأتباعكما الغلبة على فرعون وقومه ﴿ **فَلَمّا جاءَهُمْ مُوسىٰ** ﴾ حال كونه ملتبساً ﴿ **بآياتِنا بَيِّنَاتٍ** ﴾ واضحات الدلالة على صحة رسالته ﴿ **قَالُوا ما هَذا** ﴾ أي الذي جئت به ياموسىٰ ﴿ **إلا سِحرٌ مُفْترىٰ** ﴾ أي سحر مختلق لم يفعل قبل هذا مثله ﴿ **وما سَمِعْنا بهذا** ﴾ السحر ﴿ **في آبائِنا الأَوّلينَ** ﴾ واقعاً في أيامهم ﴿ **وقَال مُوسىٰ رَبِّي أعلَمُ بمنْ جاءَ بالهُدى مِنْ عِنْدِه** ﴾ يريد به نفسه ﴿ **ومن تكونُ لهُ عَاقِبَةُ الدّارِ** ﴾ أي عاقبة دار الدنيا وهي الجنة ، لأنها خلقت ممراً إلى الآخرة ومزرعة لها ، فالعاقبة المطلقة للدنيا هي العاقبة المحمود ﴿ **إنّهُ** ﴾ أي الشأن ﴿ **لا يُفْلِحُ الظّالِمونَ** ﴾ لأنفسهم بإهلاكها في الكفر والتكذيب ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ** ﴾ حين جمع السحرة وتصدى للمعارضة ﴿ **يَاأَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرِي** ﴾ قيل كان بين هذه الكلمة وبين قوله « أنا ربكم الأعلى » أربعون سنة ، أي ليس لكم إله غيري في الأرض ﴿ **فَأَوْقِدْ لي يَاهَامَانُ** ﴾ هو وزير فرعون ﴿ **على الطّينِ** ﴾ هو التراب والماء المختلط أي اصنع لي آجراً ، وأول من اتخذ الآجرّ فرعون ، ولذلك أمر باتخاذه على وجه يتضمن تعليم الصنعة حيث لم يقل اطبخ لي الآجر ﴿ **فاجْعل لي** ﴾ منه ﴿ **صَرْحاً** ﴾ قصراً رفيعاً مشرفاً ﴿ **لعليّ أطّلعُ إلى إلهِ مُوسىٰ** ﴾ أنظر إليه وأقف عليه ﴿ **وإنِّي لأَظُنُّه** ﴾ أي موسى ﴿ **مِنَ الكَاذِبينَ** ﴾ في ادعائه أن له إلهاً غيري ، وأنه رسوله ، قاله تلبيساً وتمويهاً على قومه ﴿ **واسْتكْبَرَ هُوَ وجُنُودُهُ** ﴾ تعظموا عن الإيمان ، ولم ينقادوا للحق ، والاستكبار إظهار الكبر باطلاً بخلاف التكبر فإنه أعم ، والكبر ظن الإنسان أنه أكبر من غيره ﴿ **في الأَرْضِ** ﴾ أي أرض مصر وما يليها ﴿ **بغيْرِالحَقِّ** ﴾ بغير استحقاق ﴿ **وَظَنّوا أَنَّهُمْ إلينا لا يُرْجَعُونَ** ﴾ لا يُردُّون بالبعث للجزاء ﴿ **فأخذْناهُ وَجُنودَهُ** ﴾ عقيب ما بلغوا من الكفر والعتو أقصى الغايات ﴿ **فَنبذناهُمْ** ﴾ طرحناهم ﴿ **في اليَمِّ** ﴾ بحر القلزم أي عاقبناهم بالإغراق ، وفيه تعظيم شأن الآخذ ، وتحقير شأن المأخوذ ، حيث إنهم مع كثرتهم كحصيات تؤخذ بالكف وتطرح في البحر ﴿ **فانْظُرْ** ﴾ يامحمد بعين قلبك ﴿ **كيْفَ كانَ عاقِبةُ الظّالمينَ** ﴾ وحذر قومك من مثلها ﴿ **وَجعلْناهُمْ** ﴾ أي صيَّرنا فرعون وقومه في عهدهم ﴿ **أئمّةً يدْعُونَ إلى النّارِ** ﴾ أي ما يؤدي إليها من الكفر والمعاصي ، أي قدوة يقتدي بهم أهل الضلال ﴿ **ويَوْمَ القِيَمةِ لا يُنْصرونَ** ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه ﴿ **وأتْبَعْنَاهُمْ في هذهِ الدُّنْيا لعنَةً** ﴾ طرداً وإبعاداً من الرحمة ﴿ **وَيَوْمَ القِيَمةِ هُمْ مِنَ المَقْبُوحِينَ** ﴾ أي من المطرودين المبعدين ،

يقال : قبَّح الله فلاناً قبحاً أي أبعده من كل خير فهو مقبوح ، كما في القاموس ، واعلم أن الكِبْرُ يتولد من الإعجاب ، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، ومن الكبر الامتناع من قبول الحق ، ومن تكبر لرياسة نالها دل على دناءة عنصره ، ومن تفكر في تركيب ذاته فعرف مبدأه ، ومنتهاه ، وأوسطه ، عرف نقصه ، ورفض كبره ، ومن كان تكبره للغِنى فليعلم إن ذلك ظل زائل وعارية مستردة ، وإنما قال بغير الحق إشارة إلى أن التكبر ربما يكون محموداً وهو التكبر والتبختر بين الصفين ولذا نظر رسول الله عليه السلام إلى أبي دجانة يتبختر بين الصفين فقال (إن هذه مشية يبغضها الله إلا في هذا المكان) وكذا التكبر على الأغنياء ، فإنه في الحقيقة عز النفس وهو غير مذموم ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ** ﴾ أي التوراة ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى** ﴾ أي من بعد ما أهلكنا بالعذاب أقوام نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، أعطيناه التوراة على حين حاجة إليها ﴿ **بَصَائِرَ لِلنَّاسِ** ﴾ البصائر : جمع بصيرة وهي نور القلب الذي به يستبصر ، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر . والمعنى حال كون ذلك الكتاب أنواراً لقلوب بني إسرائيل ، تبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل ، حيث كانت عمياء عن الفهم والإدراك بالكلية ﴿ **وَهُدًى** ﴾ أي هداية إلى الشرائع والأحكام ﴿ **وَرَحْمَةً** ﴾ حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ ليكونوا على حال يرجى منهم التذكر بما فيه من المواعظ ﴿ **وَمَا كُنْتَ** ﴾ يامحمد ﴿ **بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ** ﴾ أي بجانب الجبل أو المكان الغربي ، الذي وقع فيه الميقات ، وناجى موسى ربه ﴿ **إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ** ﴾ أي عهدنا إليه وأحكمنا أمر نبوته بالوحي ، وإيتاء التوراة ﴿ **وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ أي من جملة الشاهدين للوحي ، حتى تشاهد ما جرى من أمر موسى في ميقاته فتخبره للناس ، والمراد الدلالة على أن إخباره عن ذلك ، من قبل الإخبار عن المغيبات ، التي لا تُعرف إلا بالوحي ولذلك استدرك عنه بقوله ﴿ **وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا** ﴾ خلقنا بين زمانك وزمان موسى قروناً كثيرة ﴿ **فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ** ﴾ تطاول بمعنى طال ، أي طالت عليهم الحياة . وتمادى الأمد والمهلة ، فتغيرت الشرائع والأحكام فاقتضى الحال التشريع الجديد ، فأوحينا إليك ، فحذف المستدرك اكتفاء بذكر ما يوجبه ﴿ **وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ** ﴾ أي وما كنت مقيماً في أهل مدين إقامة موسى وشعيب حال كونك ﴿ **تَتْلُوْ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي تقرأ على أهل مدين بطريق التعليم منهم ﴿ **آيَاتِنَا** ﴾ الناطقة بالقصة ﴿ **وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ** ﴾ إياك وموحين إليك تلك الآيات ﴿ **وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا** ﴾ أي وقت ندائنا موسى واستنبائنا إياه ، وإرسالنا له إلى فرعون ﴿ **وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** ﴾ أي لكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر ، رحمة عظيمة كائنة منا لك وللناس ﴿ **لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ** ﴾ أي لم يأتهم نذير لوقوعهم في فترة بينك وبين عيسى ، وهي خمسمائة وخمسون سنة ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ يتعظون بإنذارك ﴿ **وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ**

﴿ مُصيبةٌ ﴾ الضمير لأهل مكة والمصيبة العقوبة ﴿ بِمَا قَدَّمتْ أيْدِيهِمْ ﴾ أي بما اقترفوا من الكفر والمعاصي ﴿ فيَقُوْلُوْا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إلَيْنَا ﴾ لولا تحضيضية بمعنى هلا ﴿ رَسُولاً ﴾ مؤيداً من عندك بالآيات ﴿ فَنَتَّبِعَ آياتِكَ ﴾ الظاهرة على يده وهو جواب لولا ﴿ وَنَكونَ مِنَ المؤْمِنينَ ﴾ بها وجوابُ لولا الأولى محذوف ثقة بدلالة الحال عليه ، والمعنى : لولا قولهم هذا عند إصابة عقوبة جناياتهم ما أرسلناك ، لكنْ لما كان قولهم ذلك محققاً أرسلناك ، قطعاً لمعاذيرهم بالكلية ، وإلزاماً للحجة عليهم ﴿ فَلَمّا جَاءَهُمْ ﴾ أي أهل مكة وكفار العرب ﴿ الحقُّ ﴾ أي القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِنا ﴾ أي بأمرنا ووحينا ﴿ قَالُوا ﴾ تعنتاً واقتراحاً ﴿ لَوْلا ﴾ هلا ﴿ أوتي ﴾ محمد ﴿ مثْلَ ما أوتي مُوسىٰ ﴾ من الكتاب جملة لا مفرقاً ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُروا بما أُوتيَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي أو لم يكفروا من قبل هذا بما أوتي موسى من الكتاب كما كفروا بهذا الحق ، بين كيفية كفرهم فقال ﴿ قَالُوا ﴾ هما أي ما أوتي محمد وما أوتي موسى عليهما السلام ﴿ سِحْرانِ تَظاهَرا ﴾ أي تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر ، وذلك أن قريشاً بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود في عيد لهم فسألوهم عن شأنه عليه السلام ، فقالوا إنا نجده في التوراة بنعته وصفته ، فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك ﴿ وَقَالوا إنّا بِكُلٍّ ﴾ أي بكل واحد من الكاتبين ﴿ كَافِرونَ ﴾ وقال بعضهم المعنى : أو لم يكفر أبناء جنسهم في الرأي والمذهب وهم القبط ، بما أوتي موسى من قبل القرآن ، قالوا إن موسى وهرون « سِحْران » أي ساحران تظاهرا ، وقالوا إنا بكل كافرون ، يقول الفقير : إنه وإن صح إسناد الكفر إلى أبناء الجنس ، من حيث أن ملة الكفر واحدة ، لكن يلزم على هذا أن يخص ما أوتي موسى بما عدا الكتاب من الخوارق ، فإن إيتاء الكتاب إنما كان بعد إهلاك القبط ، فالمعنى الأول هو الذي يستدعيه جزالة النظم الكريم ، ويدل عليه صريحاً قوله تعالى ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدىٰ ﴾ بطريق الحق ﴿ مِنْهُما ﴾ أي مما أوتياه من التوراة والقرآن وسميتموهما بسحرين ﴿ أَتَّبِعْهُ ﴾ أي إن تأتوا به أتبعه وهو أمرٌ بيِّنُ الاستحالة ﴿ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي في أنهما سحران مختلفان ﴿ فَإنْ لَمْ يَسْتَجيبوا لَكَ ﴾ دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى ، ولن يستجيبوا ﴿ فَاعْلَمْ أنّما يَتَّبِعونَ أَهْواءَهُمْ ﴾ الزائغة من غير أن يكون لهم متمسك أصلاً ﴿ ومَنْ أَضَلُّ مِمّنِ اتَّبَعَ هَوٰيهُ ﴾ أي لا أضل منه وهو أضل من كل ضال ﴿ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ ﴾ أي بيان وحجة ، وتقييدُ اتباع الهوى بعدم الهدى لزيادة التقرير في التشنيع والتضليل ، وقال بعضهم : هوى النفس قد يوافق الحق ، فلذا قيد الهوى به ، فيكون في موضع الحال منه ﴿ إنّ اللهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظّالمينَ ﴾ لا يرشد إلى دينه الذين ظلموا أنفسهم ، بالأنهماك في اتباع الهوى ، والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين﴿ وَلَقَدْ وَصّلْنا لَهُمُ القَوْلَ ﴾ التوصيل مبالغة الوصل ، وحقيقة الوصل : رفع الحائل بين الشيئين أي أكثرنا لقريش القول موصولاً بعضه

ببعض ، بأن أنزلنا عليهم القرآن آية بعد آية ، وسورة بعد سورة ، حسبما تقتضيه الحكمة ، أي ليتصل التذكير ويكون أدعى لهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرونَ ﴾ فيؤمنون ويطيعون ، أو تابعنا لهم المواعظ والزواجر ، فأخبرناهم أنا أهلكنا قوم نوح بكذا وقوم هود بكذا ، وقوم صالح بكذا ، لعلهم يَتعظون فيخافون أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم ﴿ الّذينَ آتيْناهُمُ الكِتابَ ﴾ مبتدأ وهم مؤمنوا أهلِ الكتاب ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل إيتاء القرآن (هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ) هم يؤمنون بالقرآن الذي أنزل إليك ﴿ وإذا يُتْلى ﴾ أي القرآن ﴿ عَليْهِمْ قَالُوا آمنّا بهِ ﴾ أي بأنه كلام الله تعالى ﴿ إنّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنا ﴾ أي الحق الذي كنا نعرف حقيقته ﴿ إنّا كُنّا مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل نزوله ﴿ مُسْلِمينَ ﴾ لما شاهدوا ذكره في الكتب المتقدمة ، وأنهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن ﴿ أولَئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من النعوت ﴿ يُؤْتَوْنَ أجْرَهُمْ ﴾ ثوابهم في الآخرة ﴿ مرّتيْنِ ﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن ﴿ بما صَبَرُوا ﴾ أي بصبرهم وثباتهم على الإيمانين والعمل بالشريعتين ، وفي الحديث (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجلٌ كانت له جارية فعلّمها فأحسن تعليمها ، وأدّبها فأحسن تأديبها ، ثم تزوجها ، فله أجره مرتين ، وعبد أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل آمن بالكتاب الأول ثم آمن بالقرآن فله أجره مرتين)[1] ﴿ وَيَدْرَؤُنَ بالحسَنَةِ السّيئَةَ ﴾ أي يدفعون بالطاعة المعصية ، وبالقول الحسن القول القبيح ﴿ وَمِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقونَ ﴾ في سبيل الخير ﴿ وَإذا سَمِعوا اللّغْوَ ﴾ من اللاغين وهو الساقط من الكلام ﴿ أعْرَضوا عَنْهُ ﴾ أي عن اللغو ، وذلك أن المشركين كانوا يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون تباً لكم ، تركتم دينكم القديم ، فيعرضون عنهم ولا يشتغلون بالمقابلة ﴿ وقَالوا ﴾ لمن سفّههم ﴿ لنا أعمالُنا ﴾ من الحلم والصفح ونحوهما ﴿ وَلَكُمْ أعْمالُكُمْ ﴾ من اللغو والسفاهة وغيرهما فكل مطالب بعمله ﴿ سَلامٌ عليكُمْ ﴾ هذا السلام ليس بتسليم وتحية ، بل هو براءة وسلام مودع مفارق ﴿ لاَ نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ ﴾ أي لا نطالب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم ومخاطبتهم ، والتخلق بأخلاقهم ﴿ إنّكَ ﴾ يامحمد ﴿ لا تَهْدي ﴾ هداية موصلة إلى المقصود ﴿ مَنْ أحْبَبْتَ ﴾ من الناس ، ولا تقدر أن تدخله في الإسلام ، وإن بذلت فيه غاية الطاقة ، وسعيتَ كل السعي ﴿ ولكنّ اللهَ يَهْدي منْ يشاءُ ﴾ فيدخله في الإسلام ﴿ وهُوَ أعلمُ بالمُهْتَدينَ ﴾ بالمستعدين للهداية ، فلا يهتدي إلا المستعد لها ، والجمهور على أن الآية نزلت في « أبي طالب بن عبد المطلب » عم رسول الله عليه السلام ، فيكون هو المراد بمن أحببت ، روي أنه لما احتضر جاءه رسول الله وكان حريصاً على إيمانه ، وقال : « أي عم ، قل « لا إله إلا الله » كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله !! قال يا ابن أخي : قد علمتُ أنك لصادق ، ولكنْ أكره أن يقال جَزع عند الموت ، ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة بعدي ،

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري ، ورواه أحمد والترمذي والنسائي ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٥٨ .

ـ أي ذلة ومنقصة ـ لأقررتُ بها عينك ، لما أرى من رغبتك وشدة نصحك ، وأبى أن يقولها .

روي أن أبا طالب لما أبى كلمة التوحيد ، قال النبي ﷺ : (لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنك) فأنزل الله تعالى (**ما كَانَ للنَّبيِّ والّذِينَ آمنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا للمُشْرِكينَ ولو كَانُوا أُولي قُرْبىٰ مِنْ بعْدِ مـا تَبَيَّنَ لَهُمْ أنهم أصْحـابُ الجحيمِ**) ﴿ **وَقَـالُـوا إنْ نَتّبِـعِ الهُـدىٰ مَعَـكَ نُتَخَطّفْ منْ أرْضِنَـا** ﴾ معنى اتباع الهدى معه الاقتداء به عليه السلام ، في الدين والسلوك إلى طريق الرشاد والتخطفُ : الاختلاس بسرعة ، نزلت في « الحارث بن عثمان بن نوفل » أتى النبي عليه السلام فقال : نحن نعلم أنك على الحق ، وما كذبتَ كذبة قط ، فنتهمك اليوم ، ولكنا نخاف إن اتبعناك ، وخالفنا العرب أن يتخطفونا أي يأخذونا ويسلبونا ، ويخرجونا من مكة والحرم ، وهم كثيرون ، ونحن قليلون ، لا نستطيع مقاومتهم ، فردَّ الله عليهم بقوله ﴿ **أَوَ لَمْ نُمَكِنْ لَهُمْ حَرَماً آمناً** ﴾ أي ألم نعصمهم ونجعل مكانهم حرماً ذا أمن ، لحرمة البيت الذي فيه ، يتقاتل العرب حوله وهم آمنون ﴿ **يُجْبىٰ إليْـهِ** ﴾ يحمل إلى ذلك الحرم ويجمع فيه ﴿ **ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ أي ألوان الثمرات من كل جانب ، كمصر والشام ، واليمن ، والعراق ، لا ترى شرقي الفواكه ولا غربيها مجتمعة إلا في مكة لدعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال (**وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثّمراتِ**) ﴿ **رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا** ﴾ من عندنا لا من عند المخلوقات ، فإذا كان حالهم هذا وهم عبدة الأصنام ، فكيف يخافون التخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة التوحيد ؟ ﴿ **وَلكنَّ أَكثَرهُمْ لاَ يعْلَمونَ** ﴾ أي أكثر أهل مكة جهلة ، لا يتفطنون ولا يتفكرون ليعلموا ذلك ﴿ **وكَم أَهْلَكْنَا منْ قَرْيةٍ بَطِرَتْ مَعيشَتَهـا** ﴾ البطرُ : الطغيان في النعمة والمعنى وكم من أهل قرية كانت حالهم كحال أهل مكة ، في الأمن وسعة العيش ، حتى أطغتهم النعمة وعاشوا في الكفران ، فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم ﴿ **فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ** ﴾ خاوية بما ظلموا ترونها في مجيئكم وذهابكم ﴿ **لم تُسْكَنْ مِنْ بعْدِهِمْ** ﴾ من بعد تدميرهم ﴿ **إلاّ قَليلاً** ﴾ إلا زماناً قليلاً إذ لا يسكنها إلا المارة يوماً أو بعض يوم ، ويحتمل أن شؤم معاصيهم بقي أثره في ديارهم ، فلم يبق من يسكنها من أعقابهم إلا قليلاً ، إذ لا بركة في سكنى الأرض الشئوم ﴿ **وَكُنّا نحْنُ الوَارثِينَ** ﴾ لتلك المساكن إذ لم يخلفهم أحد ، وهذا وعيد للمخاطبين ﴿ **وَما كَانَ ربُّكَ** ﴾ وما كانت عادته في زمان ﴿ **مُهْلِكَ القُرىٰ** ﴾ قبل الإنذار ﴿ **حتّى يَبْعثَ في أُمِّهَا** ﴾ أي في أصلها وأعظمها لكون أهلها أفطن وأشرف ، والرسل إنما بعثت غالباً إلى المدن والقصبات ﴿ **رسُولاً يتْلُوْ عَلَيْهِمْ آياتِنـا** ﴾ الناطقة بالحق ، ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب ، وذلك لإلزام الحجة وقطع المعذرة ، بأن يقولوا « لولا أرْسلْتَ إلينا رسُولاً فَنتّبعَ آياتِكَ » ﴿ **وَمَا كُنّا مُهْلِكي القُرىٰ** ﴾ بالعقوبة بعد بعثنا في أمها رسولاً يدعوهم إلى الحق ، ويرشدهم إليه في حال من الأحوال ﴿ **إلاّ وَأَهْلُهَا ظَالِمونَ** ﴾ أي حال كون أهلها ظالمين ، بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا ، دلّت الآية على

أن الظلم سبب الهلاك ، ولذا قيل : الظلم قاطع الحياة ، ومانع النبات ، وكذا الكفر ، يقال : النعم محتاجة إلى الأكفاء ، كما تحتاج إليها الكرائم من النساء ، وأهل البطر ليسوا من أكفاء النعم ، كما أن الأرذال ليسوا أكفاء عقائل الحرم ، فكذا النعمة تسلب من أهل البطر والكبر ، وأما أهل الشكر فلا يضيع سعيهم بل يزداد حسن حالهم ، قال الشيخ عبد الواحد : وجدنا في جزيرة شخصاً يعبد الأصنام ، فقلنا له : إنها لا تضر ولا تنفع فاعبد الله ، فقال : وما الله ؟ قلنا : الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض بطشه ، قال ومن أين هذا الأمر العظيم ؟ قلنا : أرسل إلينا رسولاً كريماً ، فلما أدى الرسالة قبضه الله إليه ، وترك عندنا كتاب الملك ، ثم تلونا عليه سورة فلم يزل يبكي حتى أسلم ، فعلمناه شيئاً من القرآن ، فلما صار الليل أخذنا مضاجعنا فكان لا ينام ، فلما قدمنا عبادان جمعنا له شيئاً لينفقه ، فقال : إنه لم يضيعني حين كنت أعبد الصنم ، فكيف يضيعني وأنا الآن قد عرفته ؟ ﴿ **وَمَا** ﴾ مبتدأ متضمنة لمعنى الشرط لدخول الفاء في خبرها ﴿ **أوتيتُمْ** ﴾ أعطيتم والخطاب لكفار مكة ﴿ **مِنْ شيءٍ** ﴾ من أسباب الدنيا ﴿ **فَمَتَاعُ الحَيَوةِ الدُّنيا وزينَتُها** ﴾ أي فهو شيء شأنه أن يتمتع ويتزين به أياماً قلائل ، ثم أنتم وهو إلى فناء وزوال ﴿ **وَمَا** ﴾موصلة أي الذي حصل ﴿ **عِنْدَ اللهِ** ﴾ وهو الثواب ﴿ **خيرٌ** ﴾ لكم في نفسه من ذلك لأنه لذة خالصة من شوائب الألم ، وبهجة كاملة عارية من مسة الهم ﴿ **وأبْقى** ﴾ لأنه أبديّ ﴿ **أفلا تعْقِلونَ** ﴾ أي ألا تتفكرون فلا تعقلون هذا الأمر الواضح ؟ فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وتؤثرون الشقاوة الحاصلة من الكفر والمعاصي على السعادة المتولدة من الإيمان والطاعات ؟ ﴿ **أَفمنْ وَعَدناهُ** ﴾ على إيمانه وطاعته ﴿ **وَعْداً حسَناً** ﴾ هو الجنة وثوابها ، فإن حسن الوعد بحسن الموعود ﴿ **فهُوَ** ﴾ أي ذلك الموعود له ﴿ **لاَقِيهِ** ﴾ أي مصيبه ذلك الوعد الحسن ومدركه لا محالة ﴿ **كمنْ مَتّعْناه متاعَ الحيٰوةِ الدُّنْيا** ﴾ أي كمن متّعناه بمتاع زائل ، مشوبٍ بالأكدار كثير المتاعب ﴿ **ثُمّ هوَ يوْمَ القِيَمةِ مِنَ المُحْضَرِينَ** ﴾ للحساب والعذاب ، والمعنى إنكار التشابه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة أي أبعد هذا التفاوت الظاهر ، يسوي بين الفريقين ؟ أي لا يسوّى ، فليس من أكرم بالوعد الأعلى وهو المؤمن كمن أهين بالوعيد والوقوع في الجحيم في العقبى وهو الكافر ، وذلك بإزاء شهوة ساعة وجدها في الدنيا ، وربَّ شهوة ساعة أورثت صاحبها حزناً طويلاً وفي الحديث (من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له ، ومن كانت الآخرة همه جعل الله الغنى في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة)[1] يُحكى أن بعض أهل الله كان يُرى عنده في طريق الحج كل يوم خبز طريّ ، فقيل له في ذلك ، فقال تأتيني به عجوز ، أراد بها الدنيا ، ومن كان له في هذه الدنيا شدة وغم ، فهو خير ممن كان له سعة وسرور مع الشرك ، وفي الحديث (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل

(١) الحديث أخرجه الترمذي في صفة القيامة وانظر جامع الأصول ١١ / ١١ .

النار يوم القيامة ، فيصبغ في النار صبغة ثم يقال يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مرَّ بك نعيم قط ؟ فيقول لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة ، فيصبغ صبغة في الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بُؤساً قط ؟ مرَّتْ بك شدة قط ؟ فيقول لا والله ما مرَّ بي بوس قط ولا رأيت شدة قط)[1] ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك يوم يناديهم ربهم وهو عليهم غضبان ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي الذين كنتم تزعمونهم شركائي ، وكنتم تعبدونهم كما تعبدونني ؟ وسؤالهم عن ذلك ضرب من ضروب العذاب ، لأنه لا جواب لهم إلا ما فيه فضيحتهم واعترافهم بجهل أنفسهم ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ في الأزل بأن يكونوا من أهل النار ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاءِ ﴾ أي الأتباع هم ﴿ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا ﴾ ومرادهم بالإشارة بيان أنهم يقولون ما يقولون بمحضر منهم ، وأنهم غير قادرين على إنكاره ورده ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ هو الجواب في الحقيقة وما قبله تمهيد له ، أي ما أكرهنا على الغيّ ، وإنما ضللنا وإيّاهم بما قضيت لنا ولهم الغواية والضلالة، يحفظون الأدب مع الله في أقصى البعد ، ولا يقولون أغويناهم كما أغويتنا ، كما قال إبليس صريحاً ولم يحفظ الأدب « ربِّ بما أغويتني لأقعدنَّ لهم » ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصي هوى منهم ﴿ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ أي ما كانوا يعبدوننا وإنما يعبدون أهواءهم ، ويطيعون شهواتهم ﴿ وَقِيلَ ﴾ لمن عبد غير الله توبيخاً ﴿ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أي الأصنام ونحوها ليخلصوكم من العذاب ﴿ فَدَعَوهُمْ ﴾ من فرط الحيرة ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ الموعود قد غشيهم ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب ، أو إلى الحق في الدنيا لما لقوا ما لقوا من العذاب ، وقال بعضهم : لو للتمني هنا أي تمنوا لو أنهم كانوا مهتدين لا ضالين ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أي واذكر يوم ينادي الله الكفار نداء تقريع وتوبيخ ﴿ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الذين أرسلتهم إليكم ، حين دعوكم إلى توحيدي وعبادتي ونهوكم عن الشرك ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي صارت كالعمى عنهم لا تهتدي إليهم ، وأصله فعموا عن الأنباء أي الأخبار وقد عكس مبالغةً ﴿ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءلون ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب، لفرط الدهشة واستيلاء الحيرة ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ ﴾ من الشرك ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ أي جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ أي الفائزين بالمطلوب عند الله تعالى الناجين من المهروب ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أن يخلقه ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ مما يخلق ما يشاء اختياره واصطفاءه ، فكما أن الخلق إليه ، فكذا الاختيار في جميع الأشياء ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ﴾ أي المشركين

(١) الحديث أخرجه مسلم من حديث أنس بن مالك ، وأنظر جامع الأصول ١٠ / ٤٩٠ .

﴿ الخِيَرَةُ ﴾ أي الاختيار عليه تعالى ، فهو الخالق المختار ، والواحد القهار ، وقد أحسن القائل :

وَالخَيرُ أجْمعُ فِيمَا اخْتَارَ خَالِقُنَا * وفي اخْتِيَارِ سِوَاهُ اللَّوْمُ وَالشُّومُ

* قال الجنيد : كيف يكون للعبد اختيار والله المختار له ؟ والخيرة بمعنى التخير ﴿ سُبْحانَ اللهِ ﴾ أي تنزه بذاته من أن ينازعه أحد ، ويزاحم اختياره اختيار ﴿ وَتَعالى عمّا يُشْرِكونَ ﴾ عن إشراكهم ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدورُهُمْ ﴾ أي تضمر قلوبهم وتخفي ، من عداوةِ الرسول وحقد المؤمنين ﴿ وما يُعْلِنُونَ ﴾ بألسنتهم وجوارحهم كالطعن في النبوة ، وتكذيب القرآن ﴿ وَهُوَ اللهُ ﴾ أي المستحق للعبادة ﴿ لا إلهَ إلاّ هُوَ ﴾ لا أحد يستحقها إلا هو ﴿ لَهُ الحَمْدُ ﴾ استحقاقاً على عظمته ، والشكرُ استيجاباً على نعمته ﴿ في الأُولى ﴾ أي الدنيا ﴿ والآخِرَةِ ﴾ لأنه المولي للنعم كلها ، عاجلها وآجلها ، ويحمده المؤمنون في الآخرة ، كما حمدوه في الدنيا ابتهاجاً بفضله ، والتذاذاً بحمده ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ فيما يخلق ويختار ، ويعز ويذل ، ويحيي ويميت أي القضاء النافذ في كل شيء من غير مشاركة فيه لغيره ﴿ وإليْهِ تُرْجَعونَ ﴾ بالبعث لا إلى غيره ﴿ قُلْ ﴾ يامحمد لأهل مكة ﴿ أَرأَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللّيْلَ سَرْمَداً ﴾ دائماً لا نهار معه ﴿ إلىٰ يوْمِ القِيَمةِ ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض أو تحريكها حول الأفق الغائر ﴿ مَنْ إلهٌ غيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ ﴾ أمر للتبكيت والإلزام أي من إلهٌ غيره تعالى يأتيكم بالنور الذي تستضيئون به في حياتكم ؟ ﴿ أَفلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ هذا الكلام سماع تدبر واستبصار ، حتى تنقادوا له وتعملوا بموجبه ، فتوحدوا الله تعالى ؟ ﴿ قُلْ أرأيتُمْ إنْ جَعلَ اللهُ عليْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً ﴾ متصلاً لا ليل له ﴿ إلى يوْمِ القِيَمةِ ﴾ بإسكانها في وسط السماء أو تحريكها فوق الأرض ﴿ منْ إلهٌ غيْرُ اللهِ يأتيكُمْ بليْلٍ تسْكُنُونَ فيهِ ﴾ استراحة من متابعة الأسفار ، والتعب في النهار ﴿ أفَلا تُبْصِرونَ ﴾ هذه المنفعة الظاهرة التي لا تخفى على من له بصر ؟ واعلم أن فلك الشمس يدور في بعض المواضع رحوياً ، لا غروب للشمس فيه ، فنهاره سرمدي لا يعيش الحيوان فيه ، ولا ينبت النبات فيه ، من قوة حرارة الشمس وكذلك في بعض المواضع بعكس هذا فالليل فيه سرمدي ، لا يعيش فيه الحيوان ، ولا ينبت فيه نبات ، ولهذا قال بعده : ﴿ وَمِنْ رَحْمتهِ جَعَلَ لَكُمُ اللّيْلَ والنّهارَ لِتَسْكُنوا فيهِ ﴾ أي في الليل ﴿ وَلِتَبْتَغوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي في النهار بأنواع المكاسب ﴿ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ولكي تشكروا نعمته تعالى على ما فعل ، سئل الشيخ أبو حامد عن بلاد بلغار كيف يصلون ؟ لأن الشمس لا تغرب عندهم إلا مقدار ما بين المغرب والعشاء ثم تطلع ، فقال يعتبر صومهم وصلاتهم بأقرب البلاد إليهم ، والأصح عند أكثر الفقهاء أنهم يقدرون الليل والنهار ، ويعتبرون بحسب الساعات ، كما قال عليه الصلاة والسلام عن الدجال (يمكث أربعين يوماً في الأرض ، يومٌ كسنة ،

ويومٌ كشهر ، ويومٌ كجمعةٌ)[1] فيقدر الصيام والصلاة في زمنه ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أي واذكر يا محمد يوم ينادي الله المشركين ﴿ فيقولُ ﴾ توبيخاً لهم ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أنهم لي شركاء ؟ وهو تقريع بعد تقريع ﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ نزع الشيء جذبه من مقره كنزع القوس من كبده أي وأخرجنا من كل أمة من الأمم ﴿ شَهِيداً ﴾ وهو نبيهم يشهد عليهم بما كانوا عليه من الخير والشر ﴿ فَقُلْنَا ﴾ لكل من الأمم ﴿ هَاتُوا ﴾ وأصله آتوا ﴿ بُرْهَانَكُمْ ﴾ على صحة ما كنتم تدعون من الشريك ﴿ فَعَلِمُوا ﴾ يومئذ ﴿ أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ في الإلهية لا يشاركه فيها أحد ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي غاب غيبة الضائع ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ في الدنيا من الباطل ، وهو ألوهية الأصنام ، واعلم أن الشريك لا ينحصر في عبادة الأصنام الظاهرة ، بل الأنداد ظاهرة وباطنة ، فمنهم من صنمه نفسه ، ومنهم من صنمه زوجته حيث يحبها محبة الله ويطيعها إطاعة الله ، ومنهم من صنمه تجارته فيتكل عليها ويترك طاعة الله لأجلها ، فهذه كلها لا تنفع يوم القيامة ، حكي أن مالك بن دينار رحمه الله كان إذا قرأ في الصلاة « إياك نعبد وإياك نستعين » غُشيَ عليه ، فسئل فقال نقول « إياك نعبد » ونعبد أنفسنا أي نطيعها في أمرها ، ونقول « إياك نستعين » ونرجع إلى أبواب غيره ؟

﴿ إِنَّ قَارُونَ ﴾ اسم اعجمي كهارون فلذلك لم ينصرف ﴿ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ كان ابن عمه وكان ممن آمن به ، ثم تغير حاله بسبب الغنى فنافق كما نافق السامري ﴿ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ بغى : تكبر وذلك لتجاوزه منزله إلى ما ليس له ، والمعنى فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ أي الأموال المدخرة ، قال الراغب : الكنز جمع المال بعضه فوق بعض وحفظه ، من كنزتُ التمر في الوعاء انتهى ﴿ مَا ﴾ موصولة أي الذي ﴿ إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ جمع مِفتح بالكسر ما يفتح به أي مفاتح صناديقه ﴿ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله ، والعصبةُ : الجماعة الكثيرة ، وعن ابن عباس : العصبة في هذا الموضع أربعون رجلاً ، وخزائنه كانت أربعمائة ألف ، يحمل كل رجل منهم عشرة آلاف مفتاح ، والمعنى لَتُثقِلهم وتميل بهم إذا حملوها لثقلها ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ بطريق النصيحة ﴿ لاَ تَفْرَحْ ﴾ بلذة عاجلة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ أي بزخارف الدنيا ، فإن الدنيا مبغوضة عند الله تعالى ، وإنما يحب من يفرح بإقامة العبودية ، وطلب السعادة الأخروية ﴿ وَابْتَغِ ﴾ أي اطلب ﴿ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ ﴾ من الغنى ﴿ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ أي ثواب الله فيها ، بصرفه إلى ما يكون وسيلة إليه ، من مواساة الفقراء ، وصلة الرحم ، وفك الأسير ونحوها من أبواب الخير .

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم عن خروج الدجال آخر الزمان ، وفتنته في الأرض ، وفيه (قلنا يارسول الله : فذلك اليوم الذي كسنة ، أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، اقدروا له قدره ..) وانظر كامل الحديث في رياض الصالحين للنووي ص ٦٣٣ .

﴿ ولاَ تَنْسَ ﴾ أي لا تترك تَرْكَ المنسي ﴿ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ﴾ وهو أن تحصل بها آخرتك ، أو تأخذ منها ما يكفيك ﴿ وَأَحْسِنْ ﴾ إلى عباد الله ﴿ كَما أَحْسَنَ اللهُ إليْكَ ﴾ فيما أنعم به عليك ﴿ ولاَ تبْغِ الفَسادَ في الأَرْضِ ﴾ نهيٌ له عما كان عليه من الظلم والبغي ﴿ إنّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ ﴾ لسوء أفعالهم بل يحب المصلحين ﴿ قَالَ ﴾ قارون مجيباً للناصحين ﴿ إنما أُوتِيتُهُ ﴾ أي هذا المال ﴿ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ أي أوتيته حال كوني مستحقاً لهذا الإكرام ، لما فيّ من علم التوراة ، ادعى استحقاق التفضيل على الناس ، واستيجاب التفوق بالمال والجاه ، بسبب العلم ، ولم ينظر إلى مِنّة الله تعالى وفضله ، ولذا هلك ، وهكذا كل من كان على طريقه في الادعاء والافتخار والكفر ، فإنه يهلك بشؤم معصيته وصنيعه ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أنّ اللهَ قدْ أهْلكَ مِنْ قبْلِه مِنَ القُرونِ ﴾ الكافرة ﴿ مَنْ هُو أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً ﴾ بالعدد والعدد ﴿ وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾ للمال كنمرود وغيره ؟ قال المفسرون هذا تعجيب منه وتوبيخ له من جهته تعالى على اغتراره بقوته وكثرة ماله ، فالمعنى ألم يعلم ما فعل الله بأضرابه من أهل القرون السابقة حتى لا يغتر بما اغتر به ؟

﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنوبِهِمُ المُجْرِمونَ ﴾ عند إهلاكهم لئلا يشتغلون بالاعتذار ، وقال الحسن : لا يسألون يوم القيامة سؤال استعلام ، فإنه تعالى مطلع عليها بل يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ﴿ فَخَرَجَ على قوْمِهِ في زِينَتِهِ ﴾ المراد الزينة : المال والأثاث والجاه قيل : خرج قارون يوم السبت وكان آخر يوم من عمره ، على بغلةٍ شهباء ، عليه الأرجوان وعليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف على زيه ﴿ قَالَ الّذِينَ يُرِيدُونَ الحيٰوةَ الدُّنْيَا ﴾ من بني إسرائيل ، جرياً على سنن الجبلة البشرية ، من الرغبة في السعة واليسار ﴿ ياليتَ لَنا مثْلَ ما أوتِي قَارونُ ﴾ أي ياليت لنا من المال والثراء مثل الذي أعطيه قارون ﴿ إنَّهُ لَذُوْ حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي إنه لذو نصيب وافر من الدنيا ، وهو في غاية الإكرام والتعظيم ﴿ وَقَالَ الّذِينَ أُوتوا العِلْمَ ﴾ بأحوال الآخرة وزهدوا في الدنيا أي قالوا للمتمنين ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ وهو دعاء بالإهلاك . بمعنى ألزمكم الله وَيْلاً أي عذاباً وهلاكاً ، وساغ استعماله في الزجر عما لا يرتضى ﴿ ثَوابُ اللهِ ﴾ في الآخرة ﴿ خَيْرٌ ﴾ مما تتمنون ﴿ لمنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ فلا يليق بكم أن تتمنوه ، غير مكتفين بثوابه ونعيمه ﴿ ولا يُلَقّيٰها ﴾ أي ولا يوفّق لهذه الكرامة ﴿ إلا الصّابِرونَ ﴾ على الطاعات وعن زينة الدنيا وشهواتها ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ يقال : خسف المكان يخسف خسوفاً ذهب في الأرض أي جعلنا الأرض تغور به وبكنوزه ، جزاءً على عتوّه وبطره قال قتاده : خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة ﴿ فما كانَ لَهُ ﴾ أي لقارون ﴿ مِنْ فِئَةٍ ﴾ جماعة ﴿ يَنْصُرُونَهُ ﴾ بدفع العذاب عنه وهو الخسف ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ متجاوزين

نصرة الله تعالى ﴿ **وما كانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ** ﴾ أي من الممتنعين بوجه من الوجوه ﴿ **وأصْبَحَ** ﴾ أي صار ﴿ **الّذِينَ تَمَنَّوْا** ﴾ التمني تقدير شيء في النفس وتصويره فيها من تمنى الشيء ﴿ **مَكانَهُ** ﴾ أي منزلته وجاهه ﴿ **بالأمْسِ** ﴾ أي بالوقت القريب منه ﴿ **يقُولونَ ويْكأنّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لمنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ ويقدِرُ** ﴾ أي يُضيِّق ، يُقال قَتَر ضَيَّق عليهم بالنفقة أي يفعل كل واحد من البسط والقدر أي التضييق ، بمحض مشيئته وحكمته ، لا لكرامة توجب البسط ، ولا لهوان يوجب القبض ، و« ويكأن » مركب من « وَيْ » للتعجب ، و« كأنَّ » للتشبيه ، والمعنى أنهم قد تنبهوا على خطأهم في تمنيهم ، وتندموا على ذلك ﴿ **لَوْلاَ أنْ مَنَّ اللهُ** ﴾ أنعم ﴿ **عَلَيْنا** ﴾ فلم يعطنا ما تمنينا ﴿ **لَخَسَفَ بِنَا** ﴾ كما خسف به ﴿ **وَيْكأنّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرونَ** ﴾ لنعمة الله أي لا ينجون من عذابه ﴿ **تِلْكَ الدّارُ الآخِرَةُ** ﴾ تلك الجنة التي سمعت خبرها ، وبلغك وصفها ﴿ **نَجْعَلُهَا لِلّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً في الأَرْضِ** ﴾ أي ارتفاعاً وغلبة وتسلطاً ، كما أراد فرعون ﴿ **ولا فساداً** ﴾ أي ظلماً وعدوانا على الناس كما أراد قارون ﴿ **والعاقِبَةُ** ﴾ الحميدة : ﴿ **للمتقين** ﴾ أي للذين يتقون الله في الأقوال والأفعال عن علي رضي الله عنه أنه كان يمشي في الأسواق وهو والٍ ، يرشد الضال ، ويعين الضعيف ، ويمر بالبياع والبقال فيفتح عليه القرآن ويقرأ ﴿ **تِلْكَ الدارُ** ﴾ الخ ويقول : نزلت هذه الاية في أهل العدل والتواضع ، من الولاة وأهل المقدرة من سائر الناس ، وعن عمر بن عبد العزيز كان يردّد هذه الآية حتى قبض ، وكان رسول الله عليه السلام يحلب الشاة ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة المملوك ، ويجالس الفقراء والمساكين ﴿ **مَنْ جاءَ بالحسَنَةِ فَلَهُ خيْرٌ مِنْها** ﴾ ذاتاً ووصفاً وقدراً فلا مناسبة بين زخارف الدنيا ونفائس الآخرة في الحقيقة ثم إنه يجازى بالحسنة الواحدة عشراً ، فيكون الواحد ثواباً مستحقاً ، والتسعة تفضلاً وجوداً ﴿ **ومَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ** ﴾ كالشرك والرياء والجهل ونحوها ﴿ **فلا يُجْزى الّذينَ عَمِلوا السَّيِّئَاتِ إلاّ ما كَانوا يَعْمَلُونَ** ﴾ إلا مثل ما كانوا يعملون ، فحذف المثل وأقيم مقامه « ما كانوا يعملون » مبالغة في المماثلة ، أخبر تعالى أن السيئة لا يضاعف جزاؤها فضلاً منه ورحمةً ، ولكن يجزى عليها عدلاً ، فليجتنب العبد عما نهي عنه ، إذ لكل نوع من السيئة نوع من الجزاء ، عاجلاً أو آجلاً ﴿ **إنّ الذي** ﴾ أي أن الله الذي ﴿ **فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ** ﴾ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به ﴿ **لَرَادُّكَ** ﴾ أي بعد الموت ﴿ **إلَى مَعَادٍ** ﴾ أي مرجع عظيم يغبطك به الأولون والآخرون ، وهو المقام المحمود ثواباً على حسناتك ، وأكثر أهل التفسير على أن المراد بالمعاد مكة والمعنى لراجعك إلى مكة المشرفة وطنك الأوَّلي ، روي أنه لما خرج رسول الله ﷺ من الغار ، مهاجراً إلى المدينة ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، عدل عن الطريق مخافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ونزل الجحفة ، فلما نزل اشتاق إلى مكة لأنها مولده وموطنه، ومولد آبائه وبها عشيرته فنزل جبريل عليه السلام فقال له : أتشتاق إلى مكة ؟ قال نعم ، فأوحى الله إليه

بهذه الآية ، وبشره بالغلبة والظهور ، أي لرادك إلى مكة ظاهراً من غير خوف ، ثم قرر الوعد السابق فقال ﴿ قُلْ رَبِّيۤ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ ﴾ وما يستحقه من الثواب في المعاد ، والنصرة في الدنيا ﴿ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ يريد به المشركين ، ودلت الآية على أن الله تعالى يفتح على المهتدي ، ويقهر الضال ، ولكل عسر يسرٌ ، فلا ينبغي للعاقل أن ييأس من روح الله ﴿ وما كُنْتَ ﴾ يا محمد ﴿ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ أي يرسل وينزل ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ ولكن ألقاه إليك رحمة منه ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ ﴾ بل كن ظهيراً ومعيناً للمؤمنين ﴿ وَلا يَصُدُّنَّكَ ﴾ أي لا يصرفنك ويمنعنك الكافرون ﴿ عَنْ آيَاتِ اللهِ ﴾ أي عن قراءتها والعمل بها ﴿ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ ﴾ تلك الآيات القرآنية ﴿ إِلَيْكَ ﴾ وقرئت عليك ، وذلك حين دعوه عليه السلام إلى دين آبائهم ، وتعظيم أوثانهم ، والموافقة إلى أباطيلهم ﴿ وَادْعُ ﴾ الناس ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ إلى عبادته وتوحيده ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ بمساعدتهم في الأمور ﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ ﴾ وفيه إظهار أن المنهى عنه في غاية القبح ، بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه أصلاً ﴿ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ وحده ﴿ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ من الإنسان والحيوان ﴿ هَالِكٌ ﴾ أي فانٍ وباطل ومعدوم ولو لحظة ﴿ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ إلا ذاته تعالى فإنه واجب الوجود ، وكل ما عداه ممكن في حد ذاته ، عُرْضةٌ للهلاك ، والعدم والوجه يعبر به عن الذات ﴿ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ أي القضاء النافذ في الخلق ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ لا إلى غيره تعالى ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ تردون عند الجزاء بالحق والعدل ، جعلنا الله من أهل الإيمان والوفاء ، وأدخلنا الجنة دار الجزاء ، إنه سميع مجيب الدعاء .

« انتهى بعونه تعالى تفسير سورة القصص »

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ آلم ﴾ الألف اسم الله ، واللام اسم لطيف ، والميم اسم مجيد ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ ﴾ الحسبان بالكسر : الظنُّ كما في القاموس ، نزلت في قوم من المؤمنين كانوا بمكة وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، فكانت صدورهم تضيق لذلك ، فتداركهم الله بالتسلية بهذه الآية ، قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب في هذه الجماعة ، فهي في معناها باقية في أمة محمد ، موجود حكمها بقية الدهر ﴿ أَنْ يُتْرَكُوا ﴾ أي يهملوا ﴿ أَنْ ﴾ أي لأن ﴿ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ ﴾ أي والحال أنهم ﴿ لا يُفْتَنُونَ ﴾ لا يمتحنون في دعواهم بما يظهرها ويثبتها ، أي أظنوا أنفسهم متروكين بلا فتنة وامتحان ، بمجرد أن يقولوا آمنا بالله ؟ يعني أن الله يمتحنهم بمشاق التكاليف ، كالمهاجرة والمجاهدة ، ورفض الشهوات ، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال ، ليتميز المخلص من المنافق ، والراسخ في الدين من المضطرب فيه ، ولينالوا بالصبر عليها عوالي الدرجات ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي من قبل هذه الأمة وهم الأنبياء وأممهم الصالحون ، يعني أن ذلك سنة قديمة إلهية ، وقد أصابهم من ضروب الفتن والمحن ، ما هو أشد مما أصاب هؤلاء وفي الحديث (كان مَنْ قبلكم يؤخذ الرجل فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ، ما يصرفه ذلك عن دينه)[1] ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ ﴾ معنى علمه تعالى وهو عالم بذلك أن يعلمه موجوداً عند وجوده ، كما علمه قبل وجوده ، ليتميز به الذين صدقوا في الإيمان ، والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب ، ولذلك قيل المعنى : ليميزن بين الصادق والكاذب قال ابن عطاء : تبين صدق العبد من كذبه ، في أوقات الرخاء والبلاء ، فمن شكر في أيام الرخاء ، وصبر في أيام البلاء ، فهو من الصادقين ، ومن بطر في أيام الرخاء ، وجزع في أيام البلاء ، فهو من الكاذبين ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي الكفر والمعاصي فإن العمل يعم أفعال القلوب والجوارح ﴿ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ أي يفوتونا ويعجزونا فلا نقدر على مجازاتهم على مساويهم ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي بئس الحكم الذي يحكمون حكمهم ذلك ، فحذف المخصوص بالذم ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ ﴾ لقاء الله : عبارةٌ عن القيامة وعن المصير إليه ، والمعنى يتوقع ملاقاة جزائه ، ثواباً أو عقاباً ، فليستعد باختياره من الأعمال ما يؤدي إلى حسن الثواب ، واجتنابه عما يسوقه إلى سوء العذاب ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ ﴾ أي فإن الوقت الذي عيَّنه تعالى لذلك ﴿ لآتٍ ﴾ لا محالة ، وكائن البتة ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوال العباد

---

(١) أشار المصنف رحمه الله إلى الحديث الذي رواه البخاري عن خبّاب بن الأرتّ قال : (شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسّدٌ بُردةً له في ظل الكعبة ، فقلنا : ألاَ تستنصر لنا ؟ ألاَ تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم ، يؤخذ الرجل ..) الحديث رياض الصالحين ص ٣٢ .

﴿ العَلِيمُ ﴾ بأحوالهم من الأعمال الظاهرة والباطنة ، فلا يفوته شيء ما ، فبادروا العمل قبل الفوت ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ ﴾ نفسه بالصبر على طاعة الله ، وجاهد الكفار بالسيف ، وجاهد الشيطان بدفع وساوسه والمجاهدة : استفراغ الجُهْد بالضم ، أي الطاقة في مدافعة العدو ﴿ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأن منفعتها عائدة إليها ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ ﴾ فلا حاجة به إلى طاعتهم ومجاهدتهم ، وإنما أمرهم بها رحمة عليهم لينالوا الثواب الجزيل .

* قال أبو العباس : الغنيُّ : هو الذي لا يحتاج إلى شيء في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، إذ لا يلحقه نقصٌ ولا يعتريه عارض ، ومن عرف أنه الغني استغنى به عن كل شيء ، ورجع إليه بكل شيء وفي الإحياء يستحب أن يقول بعد صلاة الجمعة : «اللهم ياغني ياحميد ، يامبدىء يامعيد ، يارحيم يا ودود ، أغنني بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك وبفضلك عمن سواك » فيقال من داوم على هذا الدعاء أغناه الله تعالى عن خلقه ، ورَزَقه من حيث لا يحتسب ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ تكفير الإثم : ستره وتغطيته حتى يصير بمنزلة ما لم يعلم ، قال بعضهم : التكفير إذهاب السيئة وإبطالها بالحسنة وسترها ، وترك العقوبة عليها ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم ، بأن نعطي بالواحد عشراً أو أكثر ، لا جزاء أحسن أعمالهم فقط ، * واعلم أن كل ما يفعله الإنسان من الخير ، فالله تعالى يجازيه عليه ، ويجده عند الله حين يلقاه ، فمنفعة خيره تعود إلى نفسه ، وإن كان نفعه إلى الغير بحسب الظاهر ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه (يا ابنَ آدم مرضتُ فلم تعدني ، قال يارب : كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لوْ عُدْتَهُ لوجدتني عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ، قال : كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدتَ ذلك عندي ، يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني ، قال يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي)[1] ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ أي أمرناه بأن يفعل بهما ما يحسن من المعاملات ، فإنَّ « وصَّى » يجرى مجرى أمر معنى وتصرفاً ، يقال وصيت زيداً بعمرو : أمرته بتعهده ومراعاته ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ ﴾ أي وقلنا له إن جاهداك ﴿ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ ﴾ أي بإلهيته على حذف المضاف ﴿ عِلْمٌ ﴾ عبر عن نفي الإلهية بنفي العلم بها ، للإيذان بأن مالا يعلم صحته لا يجوز اتباعه ، وإن لم يعلم بطلانه ، فكيف بما علم بطلانه بالدليل القاطع ؟ ﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ في ذلك ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق كما ورد في الحديث ، ويدخل فيه الأستاذ والأمير إذا أمرا بغير معروف ، وهو ما أنكره الشارع

(١) الإمام مسلم .

عليه ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ مرجع من آمن منكم ومن أشرك ، ومن برَّ بوالديه ومن عقَّ ﴿ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي أظهر لكم على رؤس الأشهاد وأعلمكم أي شيء كنتم تفعلون في الدنيا على الاستمرار ، وأرتب عليه جزاءه اللائق به ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ أي في زمرة الراسخين في الصلاح ولنحشرنهم معهم ، روي أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، لما أسلم قالت له أمه « حمنة بنت أبي سفيان » ياسعدُ : ما هذا الذي قد أحدثت ؟ لتدعَنَّ دينَكَ أو لا آكل ولا أشرب ، حتى أموت فتعيَّر بي فيقال ياقاتل أمه ، فلبثتْ ثلاثة أيام كذلك حتى جهدت أي وقعت في الجهد والمشقة بسبب الجوع ، فقال سعد : والله لو كان لك مائة نَفْسٍ فخرجت نَفْساً نَفْساً ما كفرتُ ، فكلي إن شئتِ ، وإن شئت فلا تأكلي ، فلما رأت ذلك أكلت ، فأمره الله تعالى أن يحسن إليها ، ويقوم بأمرها ، ويسترضيها فيما ليس بشركٍ ومعصية ﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ أي وبعض الناس ﴿ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوْذِيَ فِي اللهِ ﴾ أي في شأنه تعالى ، بأن عذبهم الكفرة على الإيمان ، والأذى ما يصل إلى الإنسان من ضرر إما في نفسه ، أو في جسمه أو في ماله ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ ﴾ أي ما يصيبه من أذيتهم ، والفتنةُ : الامتحان والاختبار ، تقول : فتنت الذهَب إذا أدخلته النار لتظهر جودته من رداءته ﴿ كَعَذَابِ اللهِ ﴾ في الآخرة في الشدة والهول ، فيساوي بين العذابين ، فيخاف العاجل ويهمل الآجل ، الذي هو باق لا ينقطع ، فيرتد عن الدين ، ولو علم شدة عذاب الله ، وأن لا قدر لعذاب الناس عند عذابه تعالى ، لما ارتد ولو قطع إرباً إرباً ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي فتح وغنيمة للمؤمنين ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ بضم اللام نظراً إلى معنى « مِنْ » ﴿ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي متابعين لكم في الدين ، فأشركونا في المغنم ؟ وهم ناس من ضعفه المسلمين ، كانوا إذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم ، وكانوا يكتمونه من المسلمين ، فردَّ عليهم ذلك بقوله ﴿ أَوَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُوْرِ العَالَمِينَ ﴾ أي بأعلم منهم بما في صدورهم من الإخلاص والنفاق ؟ ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالإخلاص ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ المُنَافِقِينَ ﴾ سواء كان نفاقهم بأذية الكفرة أو لا ، فجوهر الإيمان والنفاق المودع في القلب ، إنما يظهر بالصبر أو بالتزلزل عند البلاء والمحنة.

وفي الآية تنبيه لكل مسلم أن يصبر على الأذى في الله ، وقد كان كفار مكة يؤذون النبي عليه الصلاة والسلام بأنواع الأذى فيصبر ، وكذا كانوا يؤذون الأصحاب رضي الله عنهم ، تؤذي كل قبيلة من أسلم منها وتعذبه وتفتنه عن دينه ، وذلك بالحبس ، والضرب ، والجوع ، والعطش ، وغير ذلك حتى إن الواحد منهم ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضرب الذي به ، وكان أبو جهل يحرض على الأذى ، وكان إذا سمع بأن رجلاً أسلم له شرف وَمَنَعَةٌ ، جاء إليه ووبخه ، وقال له : ليغلبن رأيك وليضعفن شرفك ، وإن كان تاجراً قال : والله لتكسدن تجارتك ويهلك مالك ، وإن كان ضعيفاً حرّض على آذاه حتى إن بعض الضعفاء فتن عن دينه ، ورجع إلى الشرك نعوذ بالله تعالى ، وكان بلال رضى الله عنه ممن يعذب في الله ولا يقول إلا

أحد ، أحدّ ﴿ **وقَالَ الَّذِينَ كَفَروا لِلَّذِين آمنُوا** ﴾ أي قال كفار مكة مخاطبين للمؤمنين استمالة لهم ليرتدوا ﴿ **اتَّبِعُوْا سَبِيلَنا** ﴾ أي اسلكوا طريقتنا التي نسلكها في الدين ﴿ **وَلْنَحْمِلْ خطاياكُمْ** ﴾ أي إن كان لكم خطيئة تؤاخذون عليها نحمل آثامكم عنكم ، وهي جمع خطيئة من الخطأ ، فردَّ الله عليهم بقوله ﴿ **وَمَا هُمْ بحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيءٍ** ﴾ أي والحال أنهم ليسوا بحاملين شيئاً من خطاياهم ، التي التزموا أن يحملوها كلها ﴿ **إنَّهُمْ لَكَاذِبُونِ** ﴾ في دعوى الحمل بأنهم قادرون على إنجاز ما وعدوا ﴿ **وَلَيَحْمِلُنَّ** ﴾ أي هؤلاء القائلون ﴿ **أَثْقَالَهُمْ** ﴾ أي ذنوبهم التي عملوها وذلك يوم القيامة ، جمع ثِقْل بالكسر والثقل ﴿ **وَأَثْقَالاً** ﴾ أخر ﴿ **مَع أَثْقَالِهِمْ** ﴾ وهي أثقال الإضلال فيعذبون بضلال أنفسهم ، وإضلال غيرهم ، دون أن ينقص من أثقال من أضلوه شيءً ، لأن من دعا إلى ضلالة فعليه حمل أوزار الذين اتبعوه ، وكذا من سنَّ سنة سيئة كما ورد في الحديث[1] ﴿ **وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القِيَمةِ** ﴾ سؤال تقريع وتبكيت ﴿ **عَمَّا كَانُوا يَفْتَرونَ** ﴾ أي يختلقونه في الدنيا من الأكاذيب والأباطيل ، التي أضلوا بها ، ويدخل في هذا بعض الجهلة حيث يقول لمثله : افعل هذا وإثمه في عنقي ، ثم التعبير عن الخطايا بالأثقال للإذان بغاية ثقلها ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا** ﴾ للدعوة إلى التوحيد وطريق الحق ﴿ **نُوحاً** ﴾ سُمِّي نوحاً لكثرة نوحه وبكائه من خوف الله ، ولد بعد مضي ألف وستمائة واثنتين وأربعين سنة من هبوط آدم عليه السلام ﴿ **إلى قَوْمِهِ** ﴾ وهم أهل الدنيا كلها ، والفرق بين عموم رسالته وبين عموم رسالة نبينا عليه السلام ، أن نبينا عليه السلام مبعوث إلى من في زمانه وإلى من بعده إلى يوم القيامة ، بخلاف نوح فإنه مرسل إلى جميع أهل الأرض في زمانه لا بعده ، ﴿ **فَلَبِثَ فيهِمْ** ﴾ بعد الإرسال ﴿ **أَلفَ سَنَةٍ إلاَّ خَمْسِينَ عَاماً** ﴾ العام كالسنة ، لكن كثيراً ما تستعمل السنة في الحول الذي فيه الشدة والجدب ، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة ، والعام فيما فيه الرخاء ومعنى الآية فلبث بين أظهرهم تسعمائة وخمسين عاماً يخوفهم من عذاب الله ، ولا يلتفتون إليه ، والمقصود من القصة تسلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتثبيته على ما يكابد من الكفرة ﴿ **فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ** ﴾ أي عقيب تمام المدة المذكورة ، فغرق من في الدنيا كلها من الكفار ، والطوفان غلب على طوفان الماء ، وقد طاف الماء ذلك اليوم بجميع الأرض ﴿ **وَهُمْ ظَالِمونَ** ﴾ أي والحال أنهم مستمرون على الظلم والكفر ، لم يستمعوا إلى داعي الحق هذه المدة المتمادية ﴿ **فَأَنْجَيْنَاهُ** ﴾ أي نوحاً من الغرق ﴿ **وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ** ﴾ أي ومن ركب معه فيها من أولاده وأتباعه ، وكانوا ثمانين ذكوراً وإناثاً ﴿ **وَجَعَلْنَاهَا** ﴾ أي السفينة أو القصة ﴿ **آيَةً للعَالَمِينَ** ﴾ أي عبرة لمن بعدهم يتعظون بها ، أو دلالة يستدلون بها على على قدرة الله ، قال أبو

---

(١) نصُّ الحديث (مَنْ سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة ، فله أجرها وأجرُ من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ ، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء) أخرجه مسلم ! هـ رياض الصالحين ص ٩٤ .

الليث : وقد بقيت السفينة على الجودي إلى قريب من وقت خروج النبي عليه السلام ، وبين الطوفان والهجرة الشريفة ثلاثة آلاف وتسعمائة وأربع وسبعون سنة على ما في فتح الرحمن روي،أن نوحاً بعث على رأس الأربعين ، ودعا قومه تسعمائة وخمسين عاماً ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا ، فيكون عمره ألفاً وخمسين عاماً ، وهو أطول الأنبياء عمراً ومن ذلك قيل له شيخ المرسلين .

وقد قيل :

أَلاَ إِنَّمَا الدُّنْيَا كَظِلٍّ سَحَابَةٍ * أَظَلَّتْكَ يَوْمَاً ثم عَنْكَ اضْمَحَلَّتِ

فَلاَ تَكُ فَرْحَانَاً بِهَا حِينَ أَقْبَلَتْ * وَلاَتَكُ جَزْعَانَاً بِهَا حِينَ وَلَّتِ

قال الحسن : أفضل الناس ثواباً يوم القيامة المؤمن المعمر ، وعن عبيد بن خالد رضي الله عنه أن النبي عليه السلام آخى بين رجلين ، فقتل أحدهما في سبيل الله ثم مات الآخر بعده بجمعة أو نحوها فصلوا عليه فقال عليه السلام : ما قلتم ؟ قالوا دعونا الله أن يغفر له ويرحمه ويلحقه بصاحبه فقال عليه السلام (فأين صلاته بعد صلاته وعمله بعد عمله ؟ أو قال : صيامه بعد صيامه ؟ لَمَا بينهما أبعد مما بين السماء والأرض ، فطوبى لمن طال عمره ، وحسن عمله) والفيض الحاصل للأمة المتقدمة في المدة المتطاولة ، حاصل لهذه الأمة في المدة القصيرة ، لكمال الاستعداد الفطري ، فلا ينبغي للمرء أن يتمنى أعمال القرون الأولى ، فإن السبعين عمر طويل والمائة أطول ، بل يتمنى كثرة المدد والخلاص من شرّ النفس الأمارة ، فإنه إذا لم تصلح النفس ، فلا يغني طول العمر عن المرء ﴿ **وَإِبْراهِيمَ** ﴾ أي ولقد أرسلنا إبراهيم أيضاً من قبل إرسالنا إياك يا محمد ﴿ **إِذْ قالَ** ﴾ وقت قوله ﴿ **لِقَوْمِهِ** ﴾ وهم أهل بابل ومنهم نمرود ﴿ **اعْبُدوا اللهَ** ﴾ وحده ﴿ **وَاتَّقوهُ** ﴾ أن تشركوا به شيئاً ﴿ **ذَلِكُمْ** ﴾ أي ما ذكر من العبادة والتقوى ﴿ **خَيْرٌ لَكُمْ** ﴾ مما أنتم عليه من الكفر ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمونَ** ﴾ أي الخير والشر ، وتميزون أحدهما عن الآخر ﴿ **إِنَّما تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانَاً** ﴾ هي في نفسها تماثيل مصنوعة لكم ﴿ **وَتَخْلُقونَ إِفكاً** ﴾ يُقال : خلق واختلق أي افترى ، **والإفك** : أسوأ الكذب ، وسمي الأفك كذباً لأنه مأفوك أي مصروف عن وجهه ، والمعنى وتكذبون كذباً ، حيث تسمونها آلهة ، وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَعْبدونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكونَ لَكُمْ رِزْقاً** ﴾ تنكيره للتقليل ، والمعنى لا يقدرون على أن يرزقوكم شيئاً من الرزق ﴿ **فابْتَغُوا** ﴾ فاطلبوا ﴿ **عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ** ﴾ كله فإنه القادر على إيصال الرزق ﴿ **واعبُدُوهُ** ﴾ وحده ﴿ **واشْكُروا لَهُ** ﴾ على نعائه متوسلين إلى مطالبكم بعبادته ﴿ **إِليْهِ** ﴾ لا إلى غيره ﴿ **تُرْجَعونَ** ﴾ تردون بالموت فافعلوا ما أمرتكم به ﴿ **وَإِنْ تُكَذِّبُوا** ﴾ أي وإن تكذبوني فيما أخبرتكم به من أنكم إليه ترجعون ﴿ **فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ** ﴾ أي فلا تضرونني بتكذيبكم ، فإن من قبلكم من الأمم قد

كذبوا فما ضرهم تكذيبهم شيئاً ، وإنما ضروا أنفسهم ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسولِ إلا البلاغُ المبينُ ﴾ أي التبليغ الذي لا يبقى معه شك ، وما عليه أن يُصدَّق ، وقد خرجتُ ، عن عُهدة التبليغ ، فلا يضرني تكذيبكم بعد ذلك أصلاً ، وكلُّ واحدٍ بعد ذلك مأخوذٌ بعمله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ اللهُ الخَلْقَ ﴾ اعتراض بين طرفي قصة إبراهيم عليه السلام ، لتذكير أهل مكة ، وإنكار تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله ، ومعنى الآية : ألم ينظروا أي أهل مكة ، ولم يعلموا علماً جارياً مجرى الرؤية ، في الجلاء والظهور ، كيفية خلق الله ابتداء ، من مادة ومن غير مادة ؟ ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أي يرده إلى الوجود ﴿ إنّ ذلكَ ﴾ أي ما ذكر من الإعادة ﴿ عَلى اللهِ يَسيرٌ ﴾ سهل لا نصب فيه ﴿ قُلْ ﴾ يامحمد لمنكري البعث ﴿ سِيروا في الأرْضِ ﴾ سافروا في أقطارها ﴿ فَانْظُروا كيْفَ بَدأ الخَلْقَ ﴾ خلقهم ابتداء على كثرتهم ، مع اختلافِ الأشكال والأحوال ﴿ ثُمَّ اللهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ ﴾ النشأة مصدر مؤكد لينشيء بحذف الزوائد ، والأصل الإنشاءة أي ينشيء فينشأون النشأة الآخرة ، وهي نشأة القيام من القبور بعد النشأة الأولى التي شاهدتموها وهي الإبداء ، فإنه والإعادة نشأتان ،من حيث إن كلاً اختراع وإخراج من العدم إلى الوجود ﴿ إنّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ﴾ لأن قدرته لذاته فيقدر على النشأة الأخرى ، كما قدر على النشأة الأولى ﴿ يُعذِّبُ ﴾ أي بعد النشأة الآخرة ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يعذبه وهم المنكرون لها ﴿ وَيرْحَمُ منْ يَشَاءُ ﴾ أن يرحمه وهم المصدقون بها ﴿ وَإليْهِ ﴾ تعالى لا إلى غيره ﴿ تُقْلَبُونَ ﴾ تردون بالبعث فيفعل بكم ما يشاء ، من التعذيب والرحمة ، مجازاة على أعمالكم ﴿ وَما أَنْتُمْ بمُعْجِزينَ ﴾ أي عن إجراء قضائه عليكم وإن هربتم ﴿ في الأرْضِ ﴾ الواسعة بالتواري فيها ﴿ ولا في السَّماء ﴾ ولا بالتحصن في السماء التي هي أوسع منها ، لو استطعتم الترقي فيها ، يعني في الأرض كنتم أو في السماء ، لا تقدرون أن تهربوا منه ، فهو يدرككم لا محالة ﴿ وَمَا لَكُمْ منْ دُونِ اللهِ مَنْ وَلِيٍّ ولا نَصيرٍ ﴾ يعني ليس غيره تعالى يحرسكم مما يصيبكم من بلاء ، يظهر من الأرض أو ينزل من السماء ، ويدفعه عنكم عنكم إن أراد بكم ذلك ﴿ والّذينَ كَفَروا بآياتِ اللهِ ﴾ أي بدلائله الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ وَلِقائِهِ ﴾ الذي تنطق به تلك الآيات ﴿ أولئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته تعالى ولقائه ﴿ يَئِسُوا مِنْ رَحْمتي ﴾ أي ييأسون منها يوم القيامة ، وصيغةُ الماضي للدلالة على تحققه ﴿ وَأُوْلئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ ﴾ لا يقادر قدره في الشدة والإيلام ﴿ فَمَا كَانَ جَوابَ قَوْمِهِ ﴾ أي قال إبراهيم عليه السلام اعبدوا الله واتقوه ، فما كان جواب آخر الأمر ﴿إلاّ أنْ قَالُوا ﴾ إلا قول بعضهم لبعض ﴿ اقْتُلوهُ ﴾ أصل القتل : إزالة الروح عن الجسد كالموت ، أي اقتلوا إبراهيم ﴿ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ التحريق الإحراق : بالنار ، وفيه تسفيه لهم حيث أجابوا من احتج عليهم بأن يقتل أو يحرق ، وهكذا دَيْدنُ كل محجوب مغلوب ﴿ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النّارِ ﴾ أي فألقوه في النار فأنجاه الله من أذاها ، بأن جعلها عليه

برداً وسلاماً ﴿ إنّ في ذلكَ ﴾ أي في انجائه منها ﴿ لآياتٍ ﴾ بينة عجيبة ، هي حفظه تعالى إياه من حرها ، وإخمادها مع عظمها في زمان يسير ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ ﴾ لأنهم المنتفعون بالتفحص عنها والتأمل فيها ﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم مخاطباً لقومه ﴿ إنّما اتّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً ﴾ أي اتخذتموها آلهة لا لحجة قامت بذلك بل ﴿ مَوَدَّةَ بيْنِكُمْ ﴾ أي لتتوادوا بينكم وتتلاطفوا لاجتماعكم على عبادتها ﴿ في الحيٰوةِ الدُّنْيَا ﴾ يعني مدة بقائكم في الدنيا ﴿ ثُمَّ يوْمَ القِيَمةِ ﴾ بعد الخروج من الدنيا تنقلب الأمور ، ويتبدل التواد تباغضاً ، والتلاطف تلاعناً ﴿ يكْفُرُ بعْضُكُمْ ﴾ وهم العبدة ﴿ بِبَعْضٍ ﴾ وهو الأوثانُ ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضَاً ﴾ أي يلعن ويشتم كل فريق منكم الفريق الآخر ، واللعنُ : طرد وإبعاد على سبيل السخط ﴿ ومَأْوٰيكُمُ ﴾ جميعاً العابدون والمعبودون ﴿ النّارُ ﴾ أي هي منزلكم الذي تأوون إليه ولا ترجعون منه أبداً ﴿ وَما لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ يخلصونكم منها ﴿ فآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ آمن له وآمن به متقارب في المعنى ، والمعنى صدّقه في جميع مقالاته ، لا في نبوته وما دعا إليه من التوحيد فقط ، ﴿ وقَالَ ﴾ أي إبراهيم للوط وسارة وهي ابنة عمه ، وكانت آمنت به وكانت تحت نكاحه ﴿ إنِّي مُهاجِرٌ ﴾ أي تارك لقومي وذاهب ﴿ إلى رَبِّيْ ﴾ أي حيث أمرني ﴿ إنّه هُوَ العَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره ، فيمنعني من أعدائي ﴿ الحَكِيمُ ﴾ الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة ، ومن لم يقدر في بلده على طاعة الله فليخرج إلى بلدة أخرى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ من عجوز عاقر وهي سارة ﴿ إسْحٰق ﴾ ولداً لصلبه أي من بعد إسماعيل ﴿ وَيَعْقُوْبَ ﴾ نافلة ، وهو ولد الولد ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَتِهِ ﴾ في نسله يعني في بني إسماعيل وبني إسرائيل ﴿ النُّبُوَّةَ ﴾ فكثر منهم الأنبياء ، أخرج من ذريته ألف نبي ، وكان هو شجرة الأنبياء ﴿ والكِتَابَ ﴾ أي جنس الكتاب ﴿ وآتيْنَاهُ أَجْرَهُ ﴾ بمقابلة هجرته إلينا ﴿ في الدُّنْيا ﴾ بإعطاء الولد في غير أوانه ، والمال ، والذرية الطيبة ، واستمرار النبوة فيهم ، والثناء عليه إلى آخر الدهر .

﴿ وَإنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصّالِحِينَ ﴾ لفي عداد الكاملين في الصلاح ، وهم الأنبياء وأتباعهم عليهم السلام ، ثم اعلم بأن الله تعالى منّ على إبراهيم عليه السلام بهبة الولد ، والولد الصالح الذي يدعوا لوالديه من الأجور الباقية ، غير المنقطعة ، كالأوقاف الجارية ، والمصاحف المتلوة ، والأشجار المنتفع بها ونحوها ، وكذلك منّ عليه بأن جعل في ذريته النبوة ، فالأولاد الطيّبون ، والأحفاد الطاهرون مطلقاً ، من نعم الله الجليلة على الإنسان في هذه الحياة ، وما أحسن قول القائل :

نِعَمُ الإلـــهِ علَى العبـــادِ كثيرةٌ * وأَجَلُّهُنَّ نَجـــابـــةُ الأولادِ

﴿ ولوطاً ﴾ أي ولقد أرسلنا لوطاً من قبلك يا محمد ﴿ إذْ قَالَ لِقوْمِهِ ﴾ من أهل المؤتفكات

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ ﴾ أي الخصلة المتناهية في القبح ﴿ ما سَبَقَكُمْ بِها ﴾ أي بتلك الفاحشة ﴿ مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ ﴾ أي لم يقدم أحد قبلكم عليها،لإفراط قبحها وكونها مما تنفر عنها النفوس والطباع ، وأنتم أقدمتم عليها لخباثة طبيعتكم ، قالوا : لم ينزُ ذكرٌ على ذَكَر قبل قوم لوط قط ، مع طول الزمان ، وكثرة القرون ﴿ أَئِنَّكُمْ لتأْتُونَ الرِّجالَ ﴾ في أدبارهم ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ أي تتعرضون لأبناء السبيل بالفاحشة ، حتى انقطع الناس عن طريقكم ، روي أنهم كانوا كثيراً ما يفعلونها بالغرباء ويجبرونهم عليها ﴿ وَتَأْتُونَ ﴾ تفعلون وتتعاطون من غير مبالاة ﴿ في نَادِيكُمُ ﴾ في مجلسكم ومتحدثكم الجامع لأصحابكم ﴿ المُنْكَرَ ﴾ المنكرُ : كل شيء تحكم بقبحه الشريعة وهو ههنا أمور : منها اللواطة في المجالس بالعلانية ، والضراط ، ومنها حل أزرار القباء ، وضرب الأوتار والمزامير ، والسخرية بمن يمر بهم وعن ابن عباس : الحذفُ بالحصى ، كانوا يجلسون على الطريق وعند كل واحد قصعة فيها حصى ، فمن مر بهم حذفوه ، فمن أصابه منهم فهو أحق به ، فيأخذ ما معه ، وينكحه ويغرّمه ثلاثة دراهم، ولهم قاض يقضي بينهم بذلك ، ﴿ فما كانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ لما أنكر عليهم قبائحهم ﴿ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ﴾ له استهزاء ﴿ ائْتِنا بِعَذابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فيا تعدنا من نزول العذاب أي فما كان الجواب من جهتهم بشيء من الأشياء ، إلا هذه الكلمة الشنيعة ﴿ قَالَ ﴾ لوط لما أيس منهم ﴿ رَبِّ انْصُرْنِي ﴾ أي بإنزال العذاب الموعود ﴿ على القَوْمِ المُفْسِدِينَ ﴾ بابتداع الفاحشة ، فاستجاب الله دعاءه ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ يعنى الملائكة ، وهم جبريل ومن معه ﴿ إِبْراهِيمَ بالبُشْرىٰ ﴾ أي بالبشارة والولد النافلة ﴿ قَالُوا ﴾ لإبراهيم ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ ﴾ بأمر الله تعالى ، والمراد بالقرية قرية سدوم ، وهي أكبر قرى قوم لوط ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ أيْ وذلك بسبب أنَّ أهْلَها كَانُوا ظَالمين ، بالكفر والتكذيب وأنواع المنكرات ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم للرسل ﴿ إِنَّ فيها لُوطاً ﴾ أي فكيف تهلكونها ؟ ﴿ قَالُوا ﴾ أي الملائكة ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ ﴾ منك ﴿ بَمَنْ فيها ﴾ ولسنا بغافلين عن حال لوط ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ ﴾ أي لوطاً ﴿ وأَهْلَهُ ﴾ أتباعه المؤمنين وهم بناته ﴿ إِلاَّ امْرَأَته كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ ﴾ أي الباقين في العذاب ﴿ وَلَمَّا أَنْ ﴾ صلة لتأكيد الفعلين ﴿ جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ المذكورون بعد مفارقة ابراهيم ﴿ لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ﴾ أي اعتراه المساءة بسببهم ، مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء ، ولم يعرف لوط أنهم ملائكة ، وإنما رأى شباناً مُرْداً حساناً ، بثياب حسان وريح طيبة ، فظن أنهم من الإنس ﴿ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ﴾ أي ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ، فلم يدر أيأمرهم بالخروج أم بالنزول ﴿ وَقَالُوا ﴾ لما رأوا فيه أثر الضجرة ﴿ لا تَخَفْ ﴾ من قومك علينا ﴿ ولا تَحْزَنْ ﴾ على شيء ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وأَهْلَكَ ﴾ مما يصيب القوم من العذاب ﴿ إِلاَّ امرأَتَكَ كانتْ مِنَ الغَابِرِين . إِنَّا مُنْزِلونَ على أَهْلِ هذهِ القَرْيَةِ ﴾ يعني سدوم ، وكانت مشتملة على سبعمائة ألف رجل﴿ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي

عذاباً شديداً ﴿ بما كَانُوا يَفْسُقونَ ﴾ بسبب فسقهم المستمر ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها ﴾ أي من القرية ﴿ آيَةً بَيِّنَةً ﴾ آثار ديارها الخربة ﴿ لِقَوْمٍ يعْقِلونَ ﴾ يستعملون عقولهم في الاعتبار ﴿ وإلى مَدْيَنَ ﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مدين ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ لأنه من نسبهم ﴿ فَقَالَ ﴾ شعيب بطريق الدعوة ﴿ ياقَوْمِ اعْبُدوا اللهَ ﴾ وحده ﴿ وارْجوا اليَوْمَ الآخِرَ ﴾ المراد يوم القيامة لأنه آخر الأيام أي توقعوه وما سيقع فيه من فنون الأحوال ﴿ وَلاَ تَعْثَوْا ﴾ عثا أفسد ﴿ في الأَرْضِ ﴾ في أرض مدين ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ بنقص الكيل والوزن أي لا تعتدوا حال إفسادكم ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي شعيباً ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أي الزلزلة الشديدة حتى تهدمت عليهم دورهم ﴿ فأَصْبَحُوا ﴾ أي صاروا ﴿ في دارِهِمْ ﴾ أي بلدهم أو منازلهم ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ باركين على الركب ميتين وذلك بسبب عدم استماعهم إلى داعي الحق ﴿ وَعَاداً ﴾ أي وأهلكنا عاداً قوم هود ﴿ وَثَمودَ ﴾ قوم صالح ﴿ وَقَدْ تَبيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ ﴾ أي وقد ظهر لكم ياأهل مكة إهلاكنا إياهم ، من جهة بقية منازلهم باليمن ديار عاد ، والحجر ديار ثمود ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ من فنون الكفر والمعاصي ، وحسَّنها في أعينهم ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبيلِ ﴾ صرفهم عن السبيل ، وهو السبيل السوي الموصل إلى الحق ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ أي والحال أنهم كانوا ذوي بصيرة عقلاء ، متمكنين من النظر والاستدلال ، ولكنهم لم ينتفعوا بعقولهم في تمييز الحق من الباطل ، فكانوا كالحيوان ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ معطوف على عاد ﴿ وَلقدْ جَاءَهُمْ مُوسىٰ بِالبَيِّنَاتِ ﴾ بالدلالات الواضحة ، والمعجزات الباهرة ﴿ فاسْتَكْبَروا ﴾ تعظموا عن قبول الحق ﴿ في الأَرْضِ ﴾ أرضِ مصر ﴿ وَما كَانُوا سَابقِينَ ﴾ مفلتين فائتين ، بل أدركهم أمر الله فهلكوا ﴿ فَكُلاًّ ﴾ أي كل واحد من المذكورين ﴿ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ﴾ أي عاقبناه بجنايته ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عليْهِ حَاصِباً ﴾ أي ريحاً عاصفاً فيه حصباء ، وهي الحصى الصغار وهم عاد ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ كمدين وثمود صاح بهم جبريل صيحة فانشقت قلوبهم وزهقت أرواحهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الأَرْضَ ﴾ كقارون خسفنا به وبكنوزه الأرض ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ بما فعل بهم ، بأن يضع العقوبة في غير موضعها ﴿ وَلكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمون ﴾ بالاستمرار على ما يوجب العذاب ، من أنواع الكفر والمعاصي ، وعظ الله بهذه الآيات أهل مكة ومن جاء بعدهم إلى يوم القيامة ، ليعتبروا وينتفعوا بعقولهم ، ويجتنبوا عن الظلم والأذى ، والاستكبار والإفساد ، فإن فيه الصلاح والنجاة والفوز بالمراد ، لكن التربية والإرشاد إنما تؤثر في المستعد من العباد ، والقرآن كالبحر ، وإنما يتطهر به من كان من شأنه ذلك كالإنسان ، وأما الكلب فلا . حُكي أن بعض المتشيخين ادَّعى الفضل ، بسبب أنه خدم فلاناً العزيز أربعين سنة ، فقال واحد من العرفاء : كان لذلك العزيز بغلٌ قد ركبه أربعين سنة ، فلم يزل من أن يكون بغلاً حتى هلك على حاله،

أي لم يؤثر فيه ركوب الإنسان الكامل ، لعدم استعداده لكونه بغلاً ، فأفحم المدَّعِي ولله داره ﴿ **مَثَلُ الَّذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ** ﴾ المراد بهم الأصنام صفتهم العجيبة فيما اتخذوه معتمداً ﴿ **كَمَثَلِ العَنْكَبوتِ** ﴾ يقع على الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث ﴿ **اتَّخَذَتْ** ﴾ لنفسها ﴿ **بيْتاً** ﴾ أي كمثلها فيما نسجته في الوهن ، بل ذلك أوهن من هذا ، لأن له حقيقة وانتفاعاً في الجملة ، فالآية تشبيه الهيئة بالهيئة ، لتشبيه حال من اتخذ الأصنام أولياء وعبدها ، واعتمد عليها راجياً نفعها وشفاعتها ، بحال العنكبوت التي اتخذت بيتاً ، فكما أن بيتها لا يدفع عنها حراً ولا برداً ، ولا مطراً ولا أذى ، وينتقض بأدنى ريح ، فكذلك الأصنام لا تملك لعابديها نفعاً ولاضراً ، ولا خيراً ولا شراً ، ومَنْ تخيَّل السراب شراباً لم يلبث إلا قليلاً حتى يعلم أنه كان مخدوعاً ﴿ **وَإِنَّ أَوْهَنَ البيُوتِ** ﴾ أي أضعفها ﴿ **لَبَيْتُ العَنْكَبوتِ** ﴾ لا بيت أوهن منه فيما تتخذه الهوام ، لأنه بلا أساس ولا جدار ولا سقف ، لا يدفع الحر والبرد ولذا كان سريع الزوال ﴿ **لوْ كَانُوا يعْلَمونَ** ﴾ لجزموا أن هذا مثلهم ، وأبعدوا عن اعتقاد مثله ﴿ **إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يدْعُونَ** ﴾ يعبدون ﴿ **مِنْ دُونِهِ** ﴾ أي من دون الله ﴿ **منْ شيءٍ** ﴾ أي سواء كان صنماً ، أو نجماً أو جنياً أو غيره ، لا يخفى عليه ذلك ، فهو يجازيهم على كفرهم ﴿ **وَهُوَالعَزيزُ** ﴾ الغالب القادر على الانتقام من أعدائه ﴿ **الحَكيمُ** ﴾ ذو الحكمة في ترك المعالجة بالعقوبة ، ولما كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون : إن رب محمد لا يستحي أن يضرب مثلاً بالذباب ، والبعوضة ، والعنكبوت ، ويضحكون من ذلك قال تعالى ﴿ **وَتِلْكَ الأَمْثالُ** ﴾ أي هذا المثل وأمثاله ﴿ **نَضْرِبُها للنّاسِ** ﴾ نذكرها ونبينها لهم تقريباً لما بعد عن أفهامهم ﴿ **وَمَا يَعْقِلُهَا** ﴾ أي وما يفهم حسن تلك الأمثال وفائدتها ﴿ **إلا العَالِمونَ** ﴾ أي الراسخون في العلم ، وهم الذين عقلوا عن الله ما صدر عنه ، فعملوا بطاعته ، واجتنبوا سخطه ، ودلت الآية على فضل العلم على العقل ، ولا عالم منا إلا وهو عاقل، فأما العاقل فقد يكون غير عالم ﴿ **خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأَرْضَ بالحقِّ** ﴾ أي حال كونه محقاً مراعياً للحِكم والمصالح ، أو ملتبسة بالحق الذي لا محيد عنه ، مستتبعة للمنافع الدينية والدنيوية ، فإنها مع اشتمالها على جميع ما يتعلق به معاشهم ، شواهد دالة على وحدانيته وعظم قدرته وسائر صفاته ﴿ **إنَّ في ذلكَ** ﴾ أي في خلقها ﴿ **لآيةً** ﴾ دالة على شؤونه ﴿ **لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ تخصيص المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون بذلك ، فعلى العاقل النظر إلى آثار رحمة الله ، والتفكر في عجائب صنعه ، وبدائع قدرته ، حتى يستخرج الدُّرَ من بحار معرفته . حُكي أن رجلاً رأى خنفساء فقال ماذا يريد الله تعالى من خلق هذه ؟ أحسنٌ شكلها ؟ أم طَيبُ ريحها ؟ فابتلاه الله بقرحة عجز عنها الأطباء ، فسمع يوماً صوت طبيب ينادي في الدرب فقال : هاتوه حتى ينظر في أمري ، فقالوا : ما تصنع بطرقي وقد عجز عنك حذاق الأطباء ؟ فقال لابد لي منه ، فلما أحضره ورأى القرحة استدعى الخنفساء ، فضحك الحاضرون ، فتذكر العليل القول الذي

سبق منه ، فقال : أحضروا ما طلب ، فإن الرجل على بصيرة ، فأحرقها ووضع رمادها على قرحته فبرئت بإذن الله تعالى ، فقال للحاضرين إن الله تعالى أراد أن يُعرِّفني أن أخسَّ المخلوقات ، أعز الأدوية ، كذا في حياة الحيوان ، فظهر أن الله تعالى ما خلق شيئاً باطلاً ، بل خلق الكل حقاً مشتملاً على المصلحة ، سواء عرفها الإنسان أو لم يعرفها ، واللائق بشأن المؤمن أن يسلك طريق التفكر ، ثم يترقى منه حتى يرى الأشياء على ما هي عليه ، كما هو شأن أرباب البصيرة ، وقد قالوا : المشاهدة ثمرة المجاهدة ﴿ **اتْلُ مَا أُوحِيَ إليكَ مِنَ الكِتابِ** ﴾ اقرأ يا محمد ما أنزل إليك من القرآن ، تقرباً إلى الله بقراءته ، وتذكراً لمعانيه وحقائقه ، وتذكيراً للناس ، وحملاً لهم على العمل بما فيه من الأحكام ، ومحاسن الآداب ، كما رُوي أن عمر رضي الله عنه أُتي بسارق فأمر بقطع يده ، فقال لم تقطع يدي ؟ وكان جاهلاً بالأحكام ، فقال له عمر بما أمر الله في كتابه فقال : أتل علي فقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (**والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعوا أيْدِيَهُما جزاءً بما كَسَبا نكالاً مِنَ اللهِ واللهُ عَزيزٌ حكيمٌ**) فقال السارق : واللهَ ما سمعتها ، ولو سمعتها ما سرقتُ ، فأمر بقطع يده ولم يعذره ، فسنَّ صلاةَ التراويح بالجماعة ليسمع الناس القرآن ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ** ﴾ أي داوم على إقامتها ﴿ **إنّ الصَّلَوٰةَ** ﴾ المقرونة بشرائطها الظاهرة والباطنة ﴿ **تَنْهى** ﴾ أي من شأنها وخاصيتها أن تنهاهم وتمنعهم ﴿ **عَنِ الفَحْشاءِ والمنكر** ﴾ تنهى عن القبائح والمنكرات ، والمنكر : الذي لا يعرف في شريعة ولا سنة ، سواء كان قولاً أو فعلاً ، والمعروف ضده ، كما روي أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول الله ﷺ الصلوات الخمس ، ثم لا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه ، فوصف لرسول الله فقال : « إنَّ صلاته ستنهاه » فلم يلبث أن تاب وحسن حاله ، وصار من زهاد الصحابة رضي الله عنه وعنهم وفي الخبر (قال عيسى عليه السلام يقول الله : بالفرائض نجا مني عبدي ، وبالنوافل يتقرب إليّ) ﴿ **وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ** ﴾ أي والصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وإنما عبر عنها بالذكر كما في قوله تعالى (**فَاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ**) للإيذان بأن ما فيها من ذكر تعالى هو العمدة في كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيآت ، أو لذكرُ اللهِ أفضلُ الطاعات ، لأن ثواب الذكر هو الذكر ، كما قال تعالى (**فاذْكُروني أذْكُرْكُمْ**) وقال عليه السلام (يقول اللهُ تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خيرٍ من الملأ الذي ذكرني فيهم)[1] ﴿ **وَاللهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعونَ** ﴾ من الذكر وسائر الطاعات ، لا يخفى عليه شيء فيجازيكم بها أحسن المجازاة ، فمن تيقَّن أن الله يعلم ما يصنعه ، تجنب من المعاصي والسيئات ، وتوجه إلى عالم السر والخفيات ﴿ **ولا تُجَادِلوا أهْلَ الكِتابِ** ﴾ أي ولا تخاصموا اليهود والنصارى ﴿ **إلاَّ بِالَّتِي هَيَ أَحْسَنُ** ﴾ أي بالخصلة التي هي أحسن ، كمعاملة الخشونة باللين ،

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وانظر جامع الأصول ٤ / ٤٧٧ .

والغضب بالحلم ، والمشاغبة بالنصح على وجه لا يؤدي إلى الضعف ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ بالإفراط في الاعتداء والعناد ، فإنه يجب حينئذ الغلظة باللسان والسنان ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا ﴾ بالصدق والإخلاص ﴿ بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ من القرآن ﴿ وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ أي وبالذي أنزل إليكم من التوراة والإنجيلَ ، سمع النبي عليه السلام أن أهل الكتاب يقرأون التوراة ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال (لا تُصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وبكتبه وبرسله) إنما نهى عن تصديقهم وتكذيبهم ، لأنهم حرفوا كتابهم وما قالوه إن كان من جملة ما غيَّروه فتصديقهم يكون تصديقاً بالباطل ، وإن لم يكن كذلك يكون تكذيبهم تكذيباً لما هو حق ، وهذا أصل في وجوب التوقف فيما يشكل من الأمور والعلوم ، فلا يقضى فيه بجوار ولا بطلان ، وعلى هذا كان السلف رحمهم الله ﴿ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ واحِدٌ ﴾ لا شريك له في الألوهية ﴿ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمونَ ﴾ أي مطيعون له خاصة ﴿ وَكَذٰلِكَ ﴾ أي ومثل ذلك الإنزال البديع ﴿ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الكِتابَ ﴾ أي القرآن ﴿ فالَّذين آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ ﴾ من الطائفتين ﴿ يُؤمِنُونَ بِهِ ﴾ أريد بهم « عبد الله بن سلام » وأضرابه من أهل الكتاب ، أو من تقدم عهد الرسول عليه السلام ، حيث كانوا مصدقين بنزوله حسبما شاهدوا ومنهم « قس بن ساعدة » و« ورقة بن نوفل » وغيرهما ﴿ وَمِنْ هَؤُلاءِ ﴾ أي من العرب ﴿ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ أي بالقرآن ﴿ وما يَجْحَدُ بآياتِنا ﴾ أي بالكتاب المعظم بالإضافة إلينا ﴿ إلا الكافِرونِ ﴾ المتوغلون في الكفر، المصممون عليه ، فإن ذلك يصدهم عن التأمل فيما يؤديهم إلى معرفة حقيقتها ﴿ وما كُنْتَ تَتْلو مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي وما كانت عادتك يامحمد قبل إنزالنا إليك القرآن أن تتلو شيئاً ﴿ مِنْ كِتابٍ ﴾ من الكتب المنزلة ﴿ ولا تَخُطُّهُ ﴾ ولا أن تكتب كتاباً من الكتب ﴿ بِيَمِينِكَ ﴾ حسبما هو المعتاد ﴿ إِذاً ﴾ أي لو كنت ممن يعتاد التلاوة والخط ﴿ لارْتابَ المُبْطِلونَ ﴾ قال في المختار : الريب الشك ، والمعنى لارتابوا وقالوا لعلّه تعلمه أو التقطه من كتب الأوائل ، وحيث لم تكن كذلك لم يبق في شأنك منشأ ريب أصلاً ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي القرآن ﴿ آياتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ واضحات ثابتات راسخات ﴿ فِي صُدورِ الَّذِينَ أُوتوا العِلْمَ ﴾ من غير أن يلتقط من كتاب يحفظونه ، بحيث لا يقدر أحد على تحريفه ، وكونه محفوظاً في الصدور من خصائص القرآن ، لأن من تقدم كانوا لا يقرأون كتبهم إلا نظراً ، فإذا أطبقوها لم يعرفوا منها شيئاً ، سوى الأنبياء ، وفي بعض الآثار : ما حسدتكم اليهود والنصارى على شيء كحفظ القرآن ، قال أبو أمامة إن الله لا يعذب بالنار قلباً وعى بالقرآن ، وقال عليه السلام (القلب الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب)[1] وفي الحديث (تعاهدو هذا القرآن ، فوالذي نفس محمد بيده لهو

(١) الحديث أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ورواه أحمد في المسند ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٠٨ .

أشدُّ تفلتاً من الإبل في عُقُلها)[١] أي من الإبل المعقلة إذا أطلقها صاحبها .

وعن النبي عليه السلام (عرضت عليّ ذنوب أمتي ، فلم أر ذنباً أكبر من آية أو سورة من القرآن أوتيها الرجل ثم نسيها)[٢] والنسيان أن لا يمكنه القراءة من المصحف كذا في القنية ، وكان ابن عُيَيْنَةَ يذهب إلى أن النسيان الذي يستحق صاحبه اللوم ، ويضاف إليه الإثم ، ترك العمل به ، والنسيانُ في لسان العرب الترك قال تعالى (**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ**) أي تركوا وقال تعالى (**نَسُوْا اللهَ**) أي تركوا طاعته (**فَنَسِيَهُمْ**) أي فترك رحمتهم ﴿ **وما يَجْحَدُ بآياتِنا** ﴾ مع كونها كما ذكر ﴿ **إلاّ الظَّالِمُونَ** ﴾ أي المتجاوزين للحدود في الشر والمكابرة والفساد ، روي أن المسيح ابن مريم عليه السلام قال للحواريين « أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط - يعني محمداً ﷺ - روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه ، ولكنه لما يسمع به يكلمكم ويسوسكم بالحق ، ويخبركم بالحوادث والغيوب ، وهو يشهد لي كما شهدت له ، فإني جئتكم بالأمثال ، وهو يأتيكم بالتأويل ، ويفسر لكم كل شيء » قوله : يخبركم بالحوادث ، يعني ما يحدث في الأزمنة المستقبلة مثل خروج الدجال ، وظهور الدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأشباه ذلك ، وقال ابراهيم الخواص رحمه الله : « دواء القلب خمسة : قراءة القرآن بالتدبر ، والخلاء ، وقيام الليل ، والتضرع إلى الله عند السحر ، ومجالسة الصالحين » جعلنا الله وإياكم من أهل الصلاح والفلاح ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ أي كفار قريش ﴿ **لَوْلاَ أُنْزِلَ** ﴾ أي هلاّ أنزل ﴿ **عليه** ﴾ على محمد ﴿ **آياتٌ مِنْ رَبِّهِ** ﴾ مثل ناقة صالح ، وعصا موسى ، ومائدة عيسى عليهم السلام ﴿ **قُلْ إنّما الآياتُ عِنْدَ اللهِ** ﴾ في قدرته وحكمه ، ينزلها كما يشاء ، وليس بيدي شيء فآتيكم بما تقترحونه ﴿ **وإنّما أَنا نذيرٌ مُبينٌ** ﴾ ليس من شأني إلا الإنذار ، والتخويف من عذاب الله ، بما أعطيت من الآيات ، والحكمة في ترك إجابة النبي عليه السلام إلى الآيات المقترحة ، أنه يؤدي إلى مالا يتناهى ، وأن هؤلاء طلبوا آيات تضطرهم إلى الإيمان ، فلو أجابهم إليها لما استحقوا الثواب على ذلك ، ولو لم يؤمنوا لاستُؤصلوا ، وعذاب الاستئصال مرفوع عن هذه الأمة ببركة النبي عليه السلام ، ثم قال تعالى بياناً لبطلان اقتراحهم ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ** ﴾ الهمزة للإنكار أي أو لم يكفهم آية مغنية عما اقترحوه ؟ ﴿ **أَنّا أَنْزَلْنا عليكَ الكتابَ** ﴾ الناطق بالحق ، المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية ﴿ **يُتْلىٰ عَلَيْهِمْ** ﴾ بلغتهم في كل زمان ومكان ، فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل وفيه إشارة إلى عمى بصر قلوبهم ، حيث لم يروا الآية الواضحة التي هي القرآن ، حتى طلبوا الآيات ﴿ **إنّ في ذلكَ** ﴾ الكتاب العظيم الشأن ، الباقي على ممر الدهور والأزمان ﴿ **لَرَحْمَةً** ﴾ أي نعمة عظيمة ﴿ **وَذِكْرىٰ** ﴾ أي تذكرة ﴿ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ** ﴾ أي لقوم همهم الإيمان ، لا التعنت كأولئك المقترحين

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في فضائل القرآن من حديث أبي موسى الأشعري ، وانظر جامع الأصول ٣ / ٤٧٧ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٢٢٦ .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ ﴾ أي كفى الله والباء صلة ﴿ بَيْنِي وبيْنَكُمْ شَهيداً ﴾ بما صدر عني وعنكم ﴿ يعْلَمُ ما في السّمواتِ والأرْضِ ﴾ أي من الأمور التي من جملتها شأني وشأنكم ﴿ والّذينَ آمنوا بالبَاطِلِ ﴾ الذي لا يجوز الإيمان به كالصنم والشيطان وغيرهما ﴿ وَكَفروا بِاللهِ ﴾ الذي يجب الإيمان به مع تعاضد موجبات الإيمان ﴿ أُولئِكَ هُمُ الخَاسِرونَ ﴾ المغبونون في صفقتهم الأخروية ، حيث اشتروا الكفر بالإيمان ، وضيّعوا الفطرة الأصلية والأدلة السمعية الموجبة للإيمان ﴿ وَيَسْتَعْجِلونَكَ بالعَذابِ ﴾ الاستعجال طلب الشيء قبل وقته ، أي يقول المشركون بطريق الاستهزاء : متى هذا الوعد ؟ ﴿ وَلَوْلا أجَلٌ مُسَمًّىً ﴾ أي وقت معين لعذابهم وهو يوم القيامة كما قال (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ) وذلك أن الله تعالى وعد النبي عليه السلام أنه لا يعذب قومه استئصالاً ، بل يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة ﴿ لَجَاءَهُمُ العَذابُ ﴾ عاجلاً ﴿ وَلَيأْتِيَنّهُمْ ﴾ العذاب الذي عُيّن لهم عند حلول الأجل ﴿ بَغتَةً ﴾ مفاجأة ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرونَ ﴾ بإتيانه ﴿ يَسْتَعْجلونَكَ بالعَذَاب وَإنّ جَهَنَّمَ ﴾ أي والحال أن نار جهنم محل العذاب الذي لا عذاب فوقه ﴿ لمحيطةٌ بالكافِرينَ ﴾ أي ستحيطُ بهم عن قريب ، لأن ما هو آت قريب ﴿ يومَ يَغْشَيهُمُ العَذابُ ﴾ أي يوم يعلوهم ويسترهم العذاب ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تحْتِ أرْجُلِهِمْ ﴾ المراد من جميع جهاتهم ﴿ وَيَقُولُ ﴾ الله ﴿ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْن ﴾ أي ذوقوا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا ، على الاستمرار في السيئات التي من جملتها الاستعجال بالعذاب ﴿ ياعِبادِيَ الّذين آمنُوا ﴾ خطاب تشريف لبعض المؤمنين ، الذين لا يتمكنون من إقامة شعائر الدين من جهة الكفار ، وإرشادهم إلى الطريق الأسلم ﴿ إنّ أرْضي ﴾ أي البلاد التي خلقتها ﴿ وَاسِعةٌ ﴾ لا مضايقة لكم فيها ، فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرضي ، فهاجروا إلى بلاد أخرى تتمكنون فيها من عبادة ربكم ﴿ فإيّايَ فاعْبُدونِ ﴾ أي فأخلصوها في غيرها من البلدان ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من النفوس سواء كان نفس الإنسان أو غيرها ﴿ ذَائِقَةُ الموْتِ ﴾ أي واجدة مرارة الموت ، ومتجرعة غصص المفارقة ﴿ ثُمَ إلينا ﴾ أي إلى حكمنا وجزائنا ﴿ تُرْجَعونَ ﴾ أي تردون ، فمن كانت هذه عاقبته ينبغي أن يجتهد في التزود والاستعداد لها ، ويرى مهاجرة الوطن سهلة ، واحتمال الغربة هيناً ﴿ والّذينَ آمنُوا وَعمِلوا الصّالحاتِ ﴾ ومن الصالحات الهجرة للدين ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ لننزلنهم ﴿ مِنَ الجنّةِ غُرَفاً ﴾ أي قصوراً عالية من الدر والزبرجد والياقوت ، وإنما قال ذلك لأن الجنة في جهة عالية ، والنار في جهة سافلة ، ولأن النظر من الغرف إلى المياه والخُضَر أشهى وألذ ﴿ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأنْهارُ ﴾ صفة لغرفاً ﴿ خَالِدينَ فيها ﴾ أي ماكثين في تلك الغرف ﴿ نِعْمَ أجْرُ العَامِلينَ ﴾ أي نعم ثواب وجزاء المؤمنين ، الذين عملوا الصالحات في هذه الحياة الدنيا ، ثم وضحهم فقال ﴿ الّذين صَبَروا ﴾ أي صبروا على أذية المشركين ، وشدائد الهجرة للدين ، وغير ذلك من المحن والمشاق ﴿ وَعَلى رَبّهِمْ يَتَوَكّلُونَ ﴾ أي لا يعتمدون في أمورهم إلا على الله تعالى ﴿ وَكَأيّنْ

﴿ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ كأين للتكثير بمعنى كم الخبرية والمعنى : كل حيوان يدبُّ ويتحرك على الأرض ، مما يعقل ومما لا يعقل ، روي أن النبي ﷺ لما أمر المؤمنين الذين كانوا بمكة بالمهاجرة إلى المدينة ، قالوا : كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة ؟ فنزلت والمعنى : وكثيرٌ من دابة ذات حاجة إلى الغذاء ، لا تطيق حمل رزقها لضعفها ﴿ اللهُ يَرْزُقُهَا ﴾ يعطيها رزقها حيث توجهت ﴿ وَ ﴾ يرزق ﴿ إِيَّاكُمْ ﴾ حيث كنتم ، لأن رزق الكل بأسباب هو المسبب لها وحده ، فلا تخافوا الفقر بالمهاجرة والخروج إلى دار الغربة ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ المبالغ في السمع وفي العلم ، فيعلم ضمائركم ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ أي أهل مكة ﴿ مَنْ ﴾ استفهام ﴿ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ ﴾ لمصالح العباد حيث يجريان على الدوام والتسخير ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ خلقهن ﴿ اللهُ ﴾ إذ لا سبيل لهم إلى الإنكار ﴿ فَأَنَّ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرده في الإلهية ، مع إقرارهم بتفرده فيما ذكر من الخلق والتسخير ، فهو انكار واستبعاد لتركهم العمل بموجب العلم ، وتوبيخ وتقريع عليه وتعجيب منه ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ ﴾ أن يبسط له ﴿ مِنْ عِبادِهِ ﴾ مؤمنين أو كافرين حسب حكمته.

﴿ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أي لمن يشاء أن يضيّق عليه ، قال الحسن : يبسط الرزق لعدوه مكراً به ، ويقدر على وليه نظراً له ، فطوبى لمن نظر إليه ﴿ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فيعلم من يليق ببسط الرزق له ، ويعلم من يليق بقبضه فيقبض له ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم ﴾ أي مشركي العرب ﴿ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ ﴾ بإخراج الزرع والنبات والأشجار منها ﴿ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها ﴾ يبسها وقحطها ، يقال للأرض التي ليست بمنبتةٍ : ميتةٌ ، لأنه لا ينتفع بها كما لا ينتفع بالميتة ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ نزل أو أحيا ﴿ اللهُ ﴾ أي يعترفون بأنه الموجد للمكنات بأسرها ، ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته ، الذي لا يكاد يتوهم منه القدرة على شيء ما أصلاً ﴿ قُلِ الحمدُ للهِ ﴾ على أن أظهر حجتك عليهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي أكثر الكفار ﴿ لا يعقِلونَ ﴾ شيئاً من الأشياء ، فلذلك يشركون به سبحانه أخس مخلوقاته وهو الصنم ﴿ وَما هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ إشارة تحقير للدنيا ، كيف لا وهي لا تزن عند الله جناح بعوضة ؟ ﴿ إِلاَّ لَهْوٌ ﴾ وهو ما يُلهي الإنسان ويشغله عما يعنيه ويهمه ، والملاهي آلات اللهو ﴿ وَلَعِبٌ ﴾ يُقال : لعب فلان إذا لم يقصد بفعله مقصداً صحيحاً ، وإنما شبهها باللهو واللعب لمعنيين : أحدهما أن أمر اللهو واللعب سريع الانقضاء لا يداوم عليه ، فالمعنى إن الدنيا وزينتها وشهواتها ، لظلّ زائل لا يكون لها بقاء ، فلا تصلح لاطمئنان القلب بها والركون إليها ، والثاني أن اللهو واللعب من شأن الصبيان والسفهاء دون العقلاء وذوي الأحلام ﴿ وإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيوانُ ﴾ أي وإنَّ الجنة لهي دار الحياة الحقيقية ، لامتناع طريان الموت والفناء عليها . والحيوان مصدر حي سمي به ذو الحياة ، وهو أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من الحركة والاضطراب اللازم للحيوان ، ولذلك اختير على

الحياة في هذا المقام المقتضي للمبالغة ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمونَ ﴾ لما آثروا عليها الدنيا التي أصلها عدم الحياة ثم ما يحدث فيها من الحياة عارضة سريعة الزوال ﴿ فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ ﴾ والمعنى أن الكفارَ - على ما وصفوا من الإشراك - إذا ركبوا في السفينة لتجاراتهم وتصرفاتهم ، وهاجت الرياح واضطربت الأمواج، وخافوا الغرق ﴿ دَعَوُا اللهَ ﴾ حال كونهم ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ حيث لا يدعون غير الله ، لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد عنهم إلا هو ، والإخلاصُ المرادُ به : التضرعُ في الدعاء عند مسيس الضرورة ، ثم العود والرجوع إلى الغفلة والإصرار على الكفر بعد كشف الضُّر ، قال عكرمة : كان أهل الجاهلية ، إذا ركبوا البحر حملوا معهم الأصنام ، فإذا اشتدت بهم الريح ، ألقوا تلك الأصنام في البحر وصاحوا « يارب يارب » ﴿ فَلَمَّا نَجَّيْهُمْ إِلَى الْبَرِّ ﴾ البر خلاف البحر ﴿ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي فاجأوا المعاودة إلى الشرك ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ من نعمة النجاة ، التي حقها أن يشكروها ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا ﴾ أي ولينتفعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادّهم عليها ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي فسوف يعلمون عاقبة ذلك وغائلته ، حين يرون العذاب يوم القيامة رأي العين ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أي ألم ينظر أهل مكة ولم يشاهدوا ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا ﴾ أي بلدهم ﴿ حَرَماً ﴾ محترماً ﴿ آمِناً ﴾ مصوناً من النهب والتعدي ، سالماً أهله ، آمناً من كل سوء ﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِم ﴾ أي والحال أن العرب يختلسون ويؤخذون من حولهم ، قتلاً وسبياً ، إذ كانت العرب حوله في تغاور وتناهب ﴿ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنونَ ﴾ أي أبعد ظهور الحق يؤمنون بالباطل وهو الصنم أو الشيطان ، دون الحق ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللهِ ﴾ المستوجبة للشكر ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ حيث يشركون به غيره ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللهِ ﴾ الأحد الصمد ﴿ كَذِباً ﴾ بأن زعم أن له شريكاً أي هو أظلم من كل ظالم ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ ﴾ بالرسول أو بالقرآن ﴿ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ من غير توقف عناداً ، ففي « لَمَّا » تسفيه لهم بأن لم يتوقفوا ولم يتأملوا قط ، حين جاءهم ، بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ ﴾ أي ألم يعلموا أن في جهنم مثوى للكافرين حتى اجترأوا هذه الجراءة ؟ فالواجب الاجتناب عن الدعوى والكذب ، وغيرهما من صفات النفس ، واكتساب المعنى والصدق ونحوهما من أوصاف القلب ، حُكي عن إبراهيم الخواص رحمه الله أنه كان إذا أراد سفراً لم يعلم أحداً ولم يذكره ، وإنما يأخذ ركوته ويمشي ، قال حامد الأسوار : فبينما نحن معه في مسجده تناول ركوته ومشى ، فاتبعته فلما وافينا القادسية قال لي ياحامد إلى أين ؟ قلت ياسيدي خرجتُ لخروجك ، قال أنا أريد مكة إن شاء الله تعالى ، قلت : وأنا أريد إن شاء الله مكة ، فلما كان بعد أيام ، إذا بشاب قد انضم إلينا فمشى معنا يوماً وليلة ، لا يسجد الله تعالى سجدة ، فعرفت إبراهيم فقلت : إن هذا الغلام لا يصلي ، فجلس وقال ياغلام : مالك لا تصلي والصلاة أوجب عليك من الحج ؟ فقال ياشيخ ما عليَّ صلاة ، قال ألست مسلماً ؟ قال لا ، قال فأي شيء أنت ؟

قال : نصراني ، ولكن مجاهدتي في النصرانية إلى التوكل ، وادعت نفسي أنها قد أحكمت حال التوكل ، فلم أصدقها فيما ادعت حتى أخرجتها إلى هذه الفلاة ، التي ليس فيها موجود غير المعبود ، أثير ساكني وأمتحن خاطري ، فقام إبراهيم ومشى ، وقال دعه يكون معك فلم يزل يسايرنا حتى وافينا بطن مرو ، فقام إبراهيم ونزع خُفّاً له فطهّرها بالماء ، ثم جلس وقال له ما اسمك ؟ قال عبد المسيح ، فقال ياعبد المسيح : هذا دهليز مكة يعني الحرام ، وقد حرم الله على أمثالك الدخول إليه ، قال الله تعالى ﴿ **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** ﴾والذي أردت أن تستكشف من نفسك قد بان لك ، فاحذر أن تدخل مكة فإن رأيناك بمكة أنكرنا عليك ، قال حامد : فتركناه ودخلنا مكة وخرجنا إلى الموقف ، فبينما نحن جلوس بعرفات إذا به قد أقبل ، عليه ثوبان وهو محرم يتصفح الوجوه حتى وقف علينا ، فأكبّ على إبراهيم يقبل رأسه ، فقال له ما الحال ياعبد المسيح ؟ فقال له هيهاتَ : أنا اليوم عبدُ منْ المسيحُ عبدُه ، فقال له إبراهيم حدثني حديثك ، قال جلست مكاني حتى أقبلت قافلة الحاج ، فقمت وتنكرت في زي المسلمين كأني محرم ، فساعة وقعت عيني على الكعبة اضمحل عندي كل دين سوى دين الإسلام ، فأسلمت واغتسلت وأحرمتُ فها أنا أطلبك يومي ، فالتفت إليَّ إبراهيم وقال ياحامد : انظر إلى بركة الصدق في النصرانية ، كيف هداه إلى الإسلام ، ثم صحبنا حتى مات بين الفقراء رحمه الله تعالى ﴿ **والّذِينَ جَاهَدوا فِينا** ﴾ الجهاد والمجاهدة : استفراغُ الوسع في مدافعة العدو أي جدُّوا وبذلوا وسعهم في شأننا وحقنا ولوجهنا خالصاً ، وأطلق المجاهدة ليعم جهاد الأعداء ، الظاهرة والباطنة ﴿ **لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ أي والذين جاهدوا المشركين وقاتلوهم ، في نصرة ديننا ، لنهدينهم سبل الشهادة والمغفرة والرضوان ، وفي الأثر (من عمل بما علم ، وَرّثه الله علم ما لم يعلم)[1] وفي الحديث (من أخلص لله أربعين صباحاً انفجرت ينابيع الحكمة من قبله على لسانه)[2] قالت العلماء : المجاهدات تورث المشاهدات، ولو قال قائل للبراهمة والفلاسفة أنهم يجاهدون النفس حق جهادها ولا تورث لهم المشاهدة ، قلنا لأنهم قاموا بالمجاهدات فجاهدوا ، وتركوا الشرط الأعظم منها وهو قوله « فينا » أي خالصاً لنا ، وهم جاهدوا في الهوى ، والدنيا ، والخلق ، والرياء والسمعة والشهرة ، وطلب الرياسة والعلو في الأرض ، والتكبر على الخلق ، فأما من جاهد في الله جاهد أولاً بترك المحرمات ، ثم بترك الشبهات ، ثم بترك الفضلات ، ثم بقطع التعلقات تزكية للنفس ﴿ **وَإِنّ اللّهَ لمعَ المحْسِنِينَ** ﴾ بمعية النصرة والإعانة ، والعصمة في الدنيا ، والثواب والمغفرة في العقبى .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة العنكبوت »

● ● ●

(١) لم أره فيما بين يديَّ من كتب الحديث ، ومعناه صحيح فإن العمل هو ثمرة العلم ودليل الإخلاص في الفعل .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي أيوب الأنصاري ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٥٢ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألم ﴾ تقدم تفسيرها في سورة البقرة ﴿ غُلِبتِ الرُّومُ في أدْنى الأرْضِ ﴾ الغلبة : القهر والاستعلاء والروم تارة يقال للصنف المعروف ، والروم الأول منهم بنوا روم بن يونان ، بن يافث بن نوح عليه السلام وأدْنى يعبر به عن الأقل ، وتارة عن الأقرب ، وهو المراد في هذا المقام ، أي أقرب أرض العرب من الروم ، إذ هي الأرض المعهودة عندهم وهي أطراف الشام ، أو في أقرب أرض الروم من العرب ﴿ وهُمْ ﴾ أي الروم ﴿ مِنْ بعْدِ غَلَبِهِمْ ﴾ أي من بعد مغلوبيتهم على يد فارس ، ﴿ سيغْلِبونَ ﴾ سيغلبون فارس ﴿ في بِضْعِ سِنينَ ﴾ البضع لما بين الثلاث إلى العشر ، وفي القاموس ما بين الثلاث إلى التسع ، ولَّما غلب الفرسُ الرومَ وأخذوا من أيديهم بعض بلادهم ، وبلغ الخبر مكة ، فرح المشركون ، وشمتوا بالمسلمين ، وقالوا أنتم والنصارى أهل كتاب ، ونحن وفارس أميون لأن فارس كانوا مجوساً ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، فلنظهرن عليكم، فشقّ ذلك عليهم فقال أبو بكر رضي الله عنه للمشركين: لا يُقرَنَّ الله أعينكم ، فوالله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين ، فقال أبي بن خلف اللعين : كذبتَ اجعلْ بيننا أجلاً أناحبك عليه ـ والمناحبة المخاطرة ـ فناحبه على عشرة نوق من كل واحد منهما ، وجعلا الأجل ثلاث سنين ، فأخبر أبو بكر رسول الله ﷺ فقال : البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايده في الخطر ، وماده في الأجل ، فجعلاها مائة ناقة إلى تسع سنين ، فلما خشي أبيٌّ أن يخرج أبو بكر مهاجراً إلى المدينة ، أتاه فلزمه فكفل له عبد الرحمن بن أبي بكر ، فلما أراد أبي أن يخرج إلى أحد ، أتاه محمد بن أبي بكر ولزمه ، فأعطاه كفيلاً ، ثم خرج إلى أحد ، ومات أبي من جرح برمح رسول الله بعد رجوعه من أحد ، وظهرت الروم على فارس عند رأس سبع سنين ووافق ذلك يوم بدر ، وأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبي ، فجاء به رسول الله فقال تصدَّقْ به ، وكان ذلك قبل تحريم القمار بقوله تعالى (**إنَّما الخَمْرُ والميْسِرُ والأنْصابُ والأزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشيطانِ فاجْتَنِبوهُ**) والآية من دلائل النبوة لأنها إخبار عن الغيب ﴿ للهِ ﴾ وحده ﴿ الأمْرُ مِنْ قبْلُ ومِنْ بعْدُ ﴾ أي في أول الوقتين ، وفي آخرهما ، حين غُلِبوا وحين يَغْلِبون والمعنى أن كلاً من كونهم مغلوبين أولاً ، وغالبين آخراً ، ليس إلا بأمر الله وقضائه ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴿ وَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يغلب الروم على فارس ، ويحل ما وعده الله تعالى من غلبتهم ﴿ يفْرحُ المؤْمِنونَ ﴾ الفرحُ : انشراح الصدر بلذة عاجلة ، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية الدنيوية ﴿ بنَصْرِ اللهِ ﴾ أي بتغليب من له كتاب على من لا كتاب له ، وغيظ من شمت بهم من كفار مكة ، وكون ذلك من دلائل غلبة المؤمنين على الكفرة ، فالنصرة في الحقيقة لكونها منصباً

شريفاً ليست إلاّ للمؤمنين ، وقال بعضهم : يفرح المؤمنون بقتل الكفار بعضهم بعضاً لما فيه من كسر شوكتهم ، وتقليل عددهم ، كما يفرح بقتل الظالمين بعضهم بعضاً ﴿ **يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ** ﴾ أن ينصره من ضعيف وقويّ من عباده ﴿ **وَهُوَ العَزِيزُ** ﴾ المبالغ في العزة والغلبة ، فلا يعجزه شيءٌ ﴿ **الرَّحِيمُ** ﴾ المبالغ في الرحمة فينصر من يشاء أن ينصره ﴿ **وَعْدَ اللهِ** ﴾ الوعد : هو الإخبار بإيقاع شيء نافع قبل وقوعه ، والتقدير وعد الله وعداً ﴿ **لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ** ﴾ لاستحالة الكذب عليه سبحانه ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ** ﴾ وهم المشركون وأهل الاضطراب ﴿ **لا يعْلَمونَ** ﴾ صحة وعده لجهلهم ، وعدم تفكرهم في شئون الله تعالى ﴿ **يَعْلَمونَ ظَاهِراً مِنَ الحياةِ الدُّنْيا** ﴾ وهو ما يشاهدونه من زخارفها وملاذّها ، وسائر أحوالها ، الموافقة لشهواتهم ولأهوائهم ، وتنكيرُ «ظاهراً» للتحقير والتخسيس أي يعلمون ظاهراً حقيراً من الدنيا قال الضحاك : يعلمون بنيان قصورها ، وتشقيق أنهارها ، وغرس أشجارها ، و(**لا يعْلمون**) نفي للعلم بأمور الدين وقوله (**يعلمون**) إثبات للعلم بأمور الدنيا ، فلا تناقض ، لأن الأول نفي الانتفاع بالعلم بما ينبغي ، والثاني صرف العلم إلى ما لا ينبغي ، ومن العلم القاصر أن يهيء الإنسان أمور شتائه في صيفه ، وأمور صيفه في شتائه ، وهو لا يتيقن بوصوله إلى ذلك الوقت ، ويقصّر في الدنيا في إصلاح أمور معاده ولا بُدّله منها ﴿ **وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ** ﴾ التي هي الغاية القصوى والمطلب الأسنى ﴿ **هُمْ غَافِلونَ** ﴾ لا يخطرونها بالبال ، ولا يتفكرون فيها ، وفي الآية تشبيه لأهل الغفلة بالبهائم المقصور إدراكاتها من الدنيا على الظواهر الحسية ، دون أحوالها التي هي من مبادىء العلم بأمور الآخرة قال بعضهم : من كان عن الآخرة غافلاً كان عن الله أغفل ، ومن كان عن الله غافلاً فقد سقط عن درجات المتعبدين ﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّروا في أَنْفُسِهِمْ** ﴾ التفكر تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب ، والمعنى أقَصَر كفار مكة نظرهم على ظاهر الحياة الدنيا ؟ ولم يحدثوا التفكر في قلوبهم ، فيعلموا أنه تعالى ﴿ **ما خَلَقَ اللهُ السَّمَّواتِ** ﴾ الأجرام العلوية ﴿ **والأَرْضَ** ﴾ الأجرام السفلية ﴿ **وما بيْنَهُما** ﴾ من المخلوقات والقوى ﴿ **إلاّ** ﴾ ملتبسة ﴿ **بالحقِّ** ﴾ والحكمة والمصلحة ، ليعتبروا بها ، ويستدلوا على وجود الصانع ووحدته ، وإنما جعل متعلق الفكر والعلم هو الخلق دون الخالق ، لأن الله تعالى منزه عن أن يوصف بصورة في القلب ، ولهذا روي (تفكروا في آلاء الله تعالى ولا تتفكروا في ذات الله) ﴿ **وأَجَلٍ مُسَمىً** ﴾ أي وبأجل معين ، قدّره الله تعالى لبقائها ، لابد لها من أن تنتهي إليه ، وهو وقت قيام الساعة ﴿ **وإنّ كَثيراً مِنَ النّاسِ** ﴾ مع غفلتهم عن الآخرة ، وإعراضهم عن التفكر فيما يرشدهم إلى معرفتها ﴿ **بِلقاءِ رَبِّهِمْ** ﴾ أي بلقاء حسابه وجزائه بالبعث ﴿ **لَكافِرونَ** ﴾ أي منكرون جاحدون ، يحسبون أن الدنيا أبدية ، وأن الآخرة لاتكون بحلول الأجل المسمى ﴿ **أَوَلَمْ يَسيرُوا** ﴾ أهل مكة ﴿ **في الأَرْضِ فَينْظُروا** ﴾ أي أقعدوا في أماكنهم ، ولم يسيروا فينظروا ؟ ﴿ **كيفَ كانَ عاقِبةُ الَّذِينَ مِنْ**

﴿ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم المهلكة كعاد وثمود ومبدأ أحوال الأمم ومآلها ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ يعني أنهم كانوا أقدر من أهل مكة ، على التمتع بالحياة الدنيا ، حيث كانوا أشد منهم قوة ﴿ وَأَثَارُوا الأَرْضَ ﴾ والإثارة هي : تحريك الشيء حتى يرتفع غباره والمعنى : قلبوا الأرض للزراعة والحراثة ، واستنباط المياه واستخراج المعادن ﴿ وَعَمَرُوهَا ﴾ العمارة نقيض الخراب ، أي عمروا الأرض بفنون العمارات ، من الزراعة ، والغرس ، والبناء ، وغيرها مما يعد عمارة لها ﴿ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ أي عمارة أكثر كماً وكيفاً ، وزماناً ، من عمارة هؤلاء المشركين ﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالمعجزات ، والآيات الواضحات ، فكذبوهم ، فأهلكهم الله تعالى ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ ﴾ بما فعل بهم من العذاب والإهلاك ﴿ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ من غير جرم ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بما اجترأوا على اكتساب المعاصي الموجبة للهلاك ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا ﴾ أي عملوا السيئات ﴿ السُّوأَى ﴾ أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات وأفظعها ، وهي العقوبة بالنار ، فإنها تأنيث الأسوأ ، كالحسنى تأنيث الأحسن ، وإنما سميت سوأى لأنها تسوء صاحبها ﴿ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي لأن كذبوا بآيات الله المنزلة على رسله ، ومعجزاته الظاهرة على أيديهم ﴿ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وحاصل الآيات أن الأمم السالفة المكذبة ، عُذِّبوا في الدنيا والآخرة ، بسبب تكذيبهم ، واستهزائهم ، وسائر معاصيهم ، فلم تنفعهم قوتهم ، ولم تمنعهم أموالهم من العذاب والهلاك ، فما الظن بأهل مكة ، وهم دونهم في العَدَد ، والعُدد ، وقوة الجسد ؟

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾ يخلقهم أولاً في الدنيا ، وهو الإنسان المخلوق من النطفة ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد الموت أحياء كما كانوا ، أي يحييهم في الآخرة ويبعثهم ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى موقف حسابه تعالى وجزائه ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ تردون لا إلى غيره ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ التي هي وقت إعادة الخلق ، ورجعهم إليه للجزاء ، والساعة جزء من أجزاء الزمان ، عبر بها عن القيامة تشبيهاً لها بذلك لسرعة حسابها كما قال (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ) ﴿ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ يسكتون سكوت من انقطع عن الحجة ، متحيِّرين آيسين من الاهتداء إلى الحجة أو من كل خير والإبلاس : الحزن المعترض من شدة اليأس ، ومنه اشتق إبليس ، وأبلس فلان إذا سكت وانقطعت حجته ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ ﴾ أوثانهم التي عبدوها رجاء الشفاعة ﴿ شُفَعَاءُ ﴾ يجيرونهم من عذاب الله ، ﴿ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ يكفرون بآلهتهم حيث يئسوا منهم ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ أعيد لتهويله وتفظيع ما يقع فيه ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ تهويل لهم إثر تهويل ، والمعنى يتفرق المؤمنون والكافرون بعد الحساب ، إلى الجنة والنار ، فلا يجتمعون أبداً ، قال الحسن : لئن كانوا اجتمعوا في الدنيا ، ليتفرقنَّ يوم القيامة ، هؤلاء في أعلى عليين ، وهؤلاء في أسفل سافلين ، فصَّل أحوال الفريقين

وكيفية تفرقهم فقال ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ ﴾ عظيمة ، وهي كل أرض ذات نبات ، وماء ، ورونق ونضارة ، والمراد بها الجنة ، وخص الروضة بالذكر ، لأنه لم يكن عند العرب شيء أحسن منظراً ، ولا أطيب نشراً ، من الرياض ، ففيه تقريب المقصود من أفهامهم ﴿ يُحْبَرونَ ﴾ يُسرُّون سروراً تهلَّلت له وجوههم، والحَبْرُ : العالم لما يبقى من أثر علومه في قلوب الناس، ومن آثار أفعاله الحسنة المقتدَىٰ بها وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين رضي الله عنه بقوله « العلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وآثارهم في القلوب موجودة » . ويقال التحبيرُ : التحسين الذي يُسرُّ به ﴿ وَأَمَّا الذّينَ كَفَرُوا وكذّبُوا بآياتِنا ﴾ القرآنية التي من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فُصِّل ﴿ وَلِقاءِ الآخِرَةِ ﴾ أي البعث بعد الموت ، صرح بذلك مع اندراجه في تكذيب الآيات للاعتناء بأمره ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بالكفر والتكذيب ﴿ فِي العَذابِ مُحْضَرونَ ﴾ مدخلون على الدوام لا يغيبون عنه أبداً ، والإحضار إنما يكون عل إكراه أي يحضرون العذاب في الوقت الذي يُحبر فيه المؤمنون في روضات الجنان ، فيكونون على عذاب وويل وثبور ، كما يكون المؤمنون على ثواب وسماع وحبور ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ ﴾ التسبيح تنزيه الله ، وأصله المُر السريع في عبادة الله ، جُعل عامّاً في العبادات قولاً كان ، أو فعلاً ، أو نية ، والمعنى إذا علمتم أيها العقلاء المميزون ، أن الثواب والنعيم للمؤمنين العاملين ، والعذاب والجحيم للكافرين المكذبين ، فسبحوا الله أي نزهوه عن كل ما لا يليق بشأنه تعالى ﴿ حينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ الإمساء الدخول في المساء ، كما أن الإصباح الدخول في الصباح والمعنى سبحوه تعالى وقت دخولكم في المساء ، وساعة دخولكم في الصباح ﴿ وَلَهُ الحَمْدُ في السَّمواتِ والأَرْضِ ﴾ يحمده خاصة أهل السموات والأرض ، ويثنون عليه ، أي احمدوه على نِعَمِهِ العظام في الأوقات كلها فإن الإخبار بثبوت الحمد له تعالى ، ووجوبه على أهل التميز في معنى الأمر على أبلغ وجه ، وتقديم التسبيح على التحميد لأن التخليةِ متقدمة على التحلية ﴿ وَعَشِيّاً ﴾ آخر النهار ، أي سبحوه وقت العشى ﴿ وَحِينَ تُظْهِرونَ ﴾ أي تدخلون في الظهيرة التي هي وسط النهار ، وتوسيط الحمد بين أوقات التسبيح للإشعار بأن حقها أن يجمع بينها ، كما ينبئ عنه قوله تعالى (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ وقوله عليه السلام (من قال حين يصبح وحين يمسي : سبحان الله وبحمده مائة مرة ، غُفرت له خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر)[1] وقوله عليه السلام (كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم)[2] وتخصيص التسبيح والتحميد بتلك الأوقات ، للدلالة على أن ما يحدث فيها من آيات قدرته وأحكام رحمته ، شواهد ناطقة بتنزُّهه

(١) الحديث أخرجه مسلم بلفظ « لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به .. » وانظر جامع الأصول ٤ / ٢٤٨ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، وقد ختم الإمام البخاري به كتابه الجامع الصحيح . جامع الأصول ٤ /٣٩٧.

تعالى ، واستحقاقه الحمد ، موجبة لتسبيحه وتحميده حتماً ، وحمل بعضهم التسبيح والتحميد في الآية على الصلاة لاشتمالها عليهما ، والسبحة الصلاة ومنه سبحة الضحى ، وقد جاء في القرآن إطلاق التسبيح بمعنى الصلاة في قوله تعالى (**فَلَوْلا أَنَّه كانَ مِنَ المُسَبِّحِينَ**) * قال القرطبي وهو من أجلاء المفسرين : أي من المصلين ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية جامعة للصلوات الخمس ومواقيتها : تمسون صلاة المغرب والعشاء ، وتصبحون صلاة الفجر ، وعشياً صلاة العصر ، وتظهرون صلاة الظهر ، فالمعنى فصلوا لله في هذه الأوقات ﴿ **يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ المَيِّتِ** ﴾ كالإنسان من النطفة ، والطير من البيضة ، وأيضاً المؤمن من الكافر ، والمصلح من المفسد ، والعالم من الجاهل ﴿ **ويُخْرِجُ المَيتَ مِنَ الحيِّ** ﴾ النطفة ، والبيضة من الحيوان ، وأيضاً الكافر والمفسد والجاهل ، من المؤمن والمصلح والعالم ﴿ **ويُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها** ﴾ قحلها ، ويبسها ﴿ **وَكذَلِكَ** ﴾ مثل ذلك الإخراج ﴿ **تُخْرَجُون** ﴾ من القبور أحياء إلى موقف الحساب ، فإنه أيضاً يعقب الحياة الموت ، تلخيصه : الإبداء والإعادة في قدرته سواء ، قال مقاتل : يرسل الله يوم القيامة ماء الحياة من السماء ، بين النفختين ، فينشر عظام الموتى ، وذلك قوله تعالى (**وكذَلِكَ تُخْرَجُونَ**) فكما ينبت النبات من الأرض بالمطر ، فكذا ينبت الناس من القبور بمطر كالمنيّ ويحيون به ﴿ **وَمِنْ آياتِهِ** ﴾ أي ومن علامات الله الدالة على البعث ﴿ **أَنْ خَلَقَكُمْ** ﴾ يابني آدم في ضمن خلق آدم ، لأنه خَلَقه منطوياً عل خلق ذرياته ، انطواء إجمالياً ، والخلقُ عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام ﴿ **مِنْ تُرابٍ** ﴾ لم يشم رائحة الحياة قط ، ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم ، وإنما خلق الله الإنسان من التراب ليكون متواضعاً ذلولاً حمولاً مثله ﴿ **ثُمَّ إذا أَنْتُمْ بَشَرٌ** ﴾ أي آدميون من لحم ودم ، عقلاء ناطقون ، والبشرة ظاهر الجلد ، وعبر عن الإنسان بالبشر ، اعتباراً بظهور جلده من الشعر ، بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الوبر ﴿ **تَنْتَشِرونَ** ﴾ انتشار الناس : تصرفهم في الحاجات . والمعنى فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشراً تنتشرون في الأرض ، فدل بدء خلقكم على إعادتكم ، وهذا مجمل ما فصل في قوله تعالى في أوائل سورة الحج (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فإنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ**) أي إن كنتم في شك من البعث بعد الموت ، فانظروا إلى ابتداء خلقكم ، وقد خلقناكم بالأطوار ، لتظهر لكم قدرتنا على البعث فتؤمنوا به ، وأنشد بعضهم :

خُلِقْتُ من التُّرَابِ فَصِرْتُ شَخْصاً * بَصِيراً بالسُّؤالِ وبالجَوَابِ
وَعُدْتُ إلَى التُّرابِ فَصِرْتُ فِيهِ * كَأَنِي مَا بَرِحْتُ مِنَ التُّرَابِ

﴿ **وَمِنْ آياتِهِ** ﴾ الدالة على البعث وما بعده من الجزاء ﴿ **أَنْ خَلَقَ لَكُمْ** ﴾ أي لأجلكم ﴿ **مِنْ**

﴿ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ فإن خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدم ، متضمنٌ لخلقهنَّ من أنفسكم ، والأزواج جمع زوج ، وهو الفرد المزاوج لصاحبه ، وكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى ، وزوجة لغة رديئة وجمعها زوجات ، ويجوز أن يكون معنى « مِنْ أَنْفُسِكُمْ » من جنسكم لا من جنس آخر وهو الأوفق بقوله ﴿ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ أي لتميلوا إلى تلك الأزواج وتألفوا بها ، فإن المجانسة من دواعي التضام والتعارف ، كما أن المخالفة من أسباب التفرق والتنافر ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ ﴾ وبين أزواجكم ، من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة ، أو رابطة قرابة ورحم ﴿ مَوَدَّةً ﴾ محبَّة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ شفقة ، وقال ابن عباس : المودة للكبير ، والرحمة للصغير ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من خلقهم من تراب ، وخلق أزواجهم من أنفسهم ، وإلقاء المودة ، والرحمة بينهم ﴿ لآيَاتٍ ﴾ عظيمة ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في صنعه وفعله فيعلمون ما في ذلك من الحكم والمصالح ، وختم الآية بقوله (يتفكّرون) لأنه ليس مما يختص بخواص أهل الفهم وهم العلماء ، بل يدركه من له أدنى شيء من التفكر ، والتفكر دون التذكر ، ولذا لم يذكر التذكر في القرآن إلا مع أولي الألباب ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على ما ذكر ﴿ خَلْقُ السَّمواتِ والأَرْضِ ﴾ على عظمتها وكثافتها وكثرة أجزائها بلا مادة ، فهو أظهر قدرة على إعادة ما كان حياً قبل ذلك ، فهذه من الآيات الآفاقية ، ثم أشار إلى شيء من الآيات الأنفسية فقال ﴿ واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أي لغاتكم من العربية ، والفارسية ، والهندية ، والتركية ، وغيرها ، بأن جعل لكل صنف لغة ، قال الراغب : اختلاف الألسنة إشارة إلى اختلاف اللغات ، واختلاف النغمات ، فإن لكل لسان نغمة يميزها السمع ، كما أن له صورةً مخصوصة يميِّزها البصر ، فلا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية من كل وجه ﴿ وأَلْوانِكُمْ ﴾ بالبياض، والسواد ، والحمرة وغيرها ، قال الراغب : في الآية إشارة إلى أن أنواع الألوان من اختلاف الصور التي يختص كل إنسان بهيئة غير هيئة صاحبه ، مع كثرة عددهم ، وذلك تنبيه على سعة قدرته ، يعني أن اختلاف الألوان إشارة إلى تخطيطات الأعضاء وهيآتها وحُلاها ، ألا ترى أن التوأمين مع توافق موادهما وأسبابها والأمور الملاقية لهما في التخليق ، يختلفان في شيء من ذلك لا محالة ، وإن كانا في غاية التشابه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من خلق السموات ، والأرض ، واختلاف الألسنة ، والألوان ﴿ لآيَاتٍ ﴾ عظيمة في نفسها ، كثيرة في عددها ﴿ لِلعَالِمِينَ ﴾ بكسر اللام ، أي المتصفين بالعلم كما في قوله (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ) وخص العلماء لأنهم أهل النظر والاستدلال ، دون الجهال المشغولين بحطام الدنيا وزخارفها ، فلما كان الوصول إلى معرفة ما سبق ذكره ، إنما يمكن بالعلم ختم الآية بالعالمين ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ أي ومن أعلام قدرته تعالى على مجازاة العباد في الآخرة ﴿ مَنَامُكُمْ ﴾ أي نومكم الذي هو راحة لأبدانكم ، وقطع لأشغالكم ، ليدوم لكم به البقاء إلى آجالكم ﴿ بِاللَّيْلِ ﴾ كما هو المعتاد ﴿ والنَّهارِ ﴾ أيضاً على حسب الحاجة كالقيلولة ﴿ وابْتِغاؤُكُمْ مِنْ

﴿ فَضْلِهِ ﴾ وطلب معاشكم فيهما ، فإن كلاً من المنام وطلب القوت يقع في الليل والنهار ، وإن كان الأغلب وقوع المنام في الليل ، والطلب في النهار ، وفيه إشارة إلى الحياة بعد الممات ، فإنها نظير الانتباه من المنام ، والانتشار للمعاش ، وقدم الليل على النهار ، لأن الليل لخدمة المولى ، والنهار لخدمة الخلق ، ومعارج الأنبياء عليهم السلام كانت بالليل ، ولذا قال الإمام النيسابوري : الليلُ أفضل من النهار ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الأمر العظيم من إيجاد النوم بعد النشاط ، والنشاط بعد النوم الذي هو الموت الأصغر ﴿ لآيَاتٍ ﴾ عديدة على القدرة والحكم لا سيما البعث ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي شأنهم أن يسمعوا الكلام من الناصحين سماع من انتبه من نومه فجسمُه مستريح نشيط ، وقلبُه فارغٌ عن مكدِّر للنصح مانع قبوله ، وفيه إشارة إلى أن من لم يتأمل في هذه الآيات فهو نائم لا مستيقظ ، فهو غير مستأهل لأن يسمع ، قال في برهان القرآن : ختم الآية بقوله (يَسْمَعُونَ) فإن من سمع أن النوم من صنع الله الحكيم ، لا يقدر أحد على اجتلابه إذا امتنع ، ولا على دفعه إذا ورد ، تيقَّن أن له صانعاً مدبراً ، وقال الخطيب : معنى يسمعون ههنا يستجيبون لما يدعوهم إليه الكتاب ، واعلم أن النوم فضل من الله للعباد ، ولكن بقدر دفع الفتور ، المانع عن العبادة ، ومن آداب النوم أن ينام على الوضوء ، وإذا استطاع الإنسان أن يكون على الطهارة أبداً فليفعل ، ويستحب أن يضطجع على يمينه مستقبلاً للقبلة عند أول اضطجاعه ، فإن بدا له أن ينقلب إلى جانبه الآخر فعل ، ويقول حين يضطجع : (بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم)[١] وكان عليه السلام يقول (باسمك ربي وضعتُ جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)[٢] ويقول عندما قام من نومه (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور)[٣] .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ ﴾ البرقُ : لمعان السحاب ﴿ خَوْفاً ﴾ بمعنى الإخافة والمعنى يريكم ضوء السحاب إخافة من الصاعقة ، خصوصاً لمن كان في البرية من أبناء السبيل وغيرهم ﴿ وَطَمَعاً ﴾ أي إطماعاً في الغيث ، لا سيما لمن كان مقيماً لضرورة سقي الزروع والكروم والبساتين ونحوها ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ المطر وهو الأجزاء المائية إذا التأم بعضها مع بعض ، وبردت وثقلت رجعت نحو الأرض ﴿ فَيُحْيِي بِهِ ﴾ أي بسبب ذلك الماء ، وهو المطر ﴿ الأَرْضَ ﴾ بالنبات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي يبسها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ المذكور ﴿ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يفهمون عن الله حججه وأدلته ، فكما أنه تعالى قادر على أن يحيي الأرض بعد موتها ، كذلك قادر على أن يحيي الموتى ويبعث من في القبور ﴿ وَمِنْ

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما .

(٣) الحديث أخرجه البخاري والترمذي وأبو داود ، جامع الأصول ٤ / ٢٦٠ .

﴿ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ والأَرْضُ ﴾ أي قيامها واستمرارها على ما هما عليه من الهيئآت إلى الأجل المقدر لقيامها ، وهو يوم القيامة ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ أي بإرادته تعالى ، والتعبيرُ عن الإرداة بالأمر للدلالة على كمال القدرة ، والغنى عن المبادىء والأسباب ﴿ ثُمَّ إذا دَعاكُمْ دَعوةً مِنَ الأَرْضِ ﴾ ثم إذا دعاكم بعد انقضاء الأجل ، وأنتم في قبوركم دعوة واحدة ، بأن قال أيها الموتى اخرجوا ، والداعي في الحقيقة هو إسرافيل عليه السلام فإنه يدعو الخلق على صخرة بيت المقدس حين ينفخ في الصور النفخة الأخيرة ﴿ إذا أَنْتُمْ تَخْرُجونَ ﴾ إذا للمفاجأة ، أي فاجأتم الخروج منها بلا توقف ، ولا إباء ﴿ وَلَهُ ﴾ أي لله خاصة ﴿ مَنْ في السَّمواتِ ﴾ من الملائكة ﴿ والأَرْضِ ﴾ من الإنس والجن ، خلقاً ومُلكاً وتصرفاً ، ليس لغيره شركة في ذلك بوجه من الوجوه ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل من فيها ﴿ لَهُ ﴾ تعالى وهو متعلق بقوله ﴿ قانِتونَ ﴾ القنوت الطاعة والمراد : طاعة الإرادة لا طاعة العبادة ، أي منقادون لما يريده بهم من حياة وموت ، وبعث ، وصحة وسقم ، وعز وذل ، وغنى وفقر ، لا يمتنعون عليه تعالى في شأن من شئونه .

﴿ وَهُوَ الذّي يَبْدَؤُا الخَلْقَ ﴾ بمعنى المخلوق أي ينشئهم في الدنيا ابتداء ، فإنه أنشأ آدم وحواء ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، ثم يميتهم عند انتهاء آجالهم ﴿ ثُمَّ يُعيدُهُ ﴾ أي ثم يعيدهم في الآخرة فيكونون أحياء كما كانوا ﴿ وَهُوَ ﴾ أي الإعادة ﴿ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ أي أسهل عليه تعالى من البدء ، بالإضافة إلى الإنسان ، والقياس إلى أصولكم ، وإلاّ فهما عليه تعالى سواء « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» سواء كان هناك مادة أم لا، فتكون الآية واردة على ما يزعمون فيما بينهم ويعتقدون عندهم، وإلاّ فما شقّ عليه ابتداء الخلق ، ليكون إعادتهم أهون عليه ﴿ وَلَهُ ﴾ أي لله تعالى ﴿ المَثَلُ الأَعْلىٰ ﴾ المثل بمعنى الصفة كما في قوله ﴿ مَثَلُ الجَنّةِ التي ﴾ أي الوصف الأعلى العجيب الشأن ، من القدرة العامة ، والحكمة التامة ، وسائر صفات الكمال ﴿ في السَّموات والأَرْضِ ﴾ قد وصف به ، وعرف فيهما على ألسنة الخلائق نطقاً ، وألسنة الدلائل دلالة ﴿ وَهُوَ العَزيزُ ﴾ أي القادر الذي لا يَعْجز عن بدء ممكنٍ وإعادته ﴿ الحَكيمُ ﴾ الذي يُجري الأفعال على سنن الحكمة والمصلحة ، ودلت الآية على أن السموات والأرض ، مشحونة بشواهد وحدته ، ودلائل قدرته تعالى ، قال ذو النون المصري : رأيت في بعض أسفاري فتى حسن الوجه ، حسن الصوت ، وقد احترق بالحب والوله ، فسلّمتُ عليه فردَّ عليَّ السلام ، وبقي شاخصاً يقول :

أعميتُ عَيْني عَنِ الدُّنْيا وَزينَتِها * فأنتَ وَالرُّوْحُ شَيء غَيْرُ مُفْتَرِقِ
إذَا ذَكَرتُكَ وَافىَ مُقْلَتي أَرَقٌ * مِن أوّلِ اللّيلِ حتّى مَطْلع الفَلَقِ

وَمَا تَطَابَقتِ الأحَداقُ عن سِنَةٍ * إلاَّ رأيتكَ بين الجَفْنِ وَ الحَدَقِ

قلت : أخبرني ما الذي حبَّب إليك الانفراد ، وقطعك عن المؤانسين ، وهيَّمك في الأودية والجبال ؟ فقال : حبي له هيَّمني ، وشوقي إليه هيَّجني ، ووجدي به أفردني ، ثم قال يا ذا النون : أعجبك كلام المجانين ؟ قلت : أي واللهِ وأشجاني ، ثم غاب فلم أدر أين ذهب ﴿ **ضَرَبَ لَكُمْ** ﴾ يامعشر من أشرك بالله ﴿ **مثلاً** ﴾ بيَّن به بطلان الشرك ﴿ **مِنْ أَنْفُسِكُمْ** ﴾ أي منتزعاً من أحوالها التي هي أقرب الأمور إليكم وأعرفها عندكم ، نزلت في كفار قريش كانوا يعبدون الآلهة ويقولون في إحرامهم : لبَّيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك » ثم صوَّر المثل فقال ﴿ **هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيمانُكُمْ** ﴾ من العبيد والإماء ﴿ **مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ** ﴾ من الأموال والأسباب أي هل ترضون لأنفسكم شركة في ذلك ؟ ثم حقَّق معنى الشركة فقال ﴿ **فَأَنْتُمْ** ﴾ وهم أي مماليككم ﴿ **فيهِ** ﴾ أي فيما رزقناكم ﴿ **سَوَاءٌ** ﴾ متساوون يتصرفون فيه كتصرفكم ، من غير فرق بينكم وبينهم ؟ ﴿ **تَخَافُونَهُمْ** ﴾ أي تخافون مماليككم أن يستقلوا وينفردوا بالتصرف فيه ﴿ **كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ** ﴾ معنى أنفسكم ههنا ، أمثالكم من الأحرار كقوله (**ولا تَلْمِزوا أنفُسَكُمْ** ﴾ أي بعضكم بعضاً ، والمعنى لا ترضون بأن يشارككم فيما بأيديكم من الأموال المستعارة مماليككم ، وهم عندكم أمثالكم في البشرية ، فكيف تشركون به سبحانه مخلوقه المصنوع ، حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه ؟ ﴿ **كَذلِكَ** ﴾ أي مثل ذلك التفصيل ﴿ **نُفَصِّلُ الآيَاتِ** ﴾ أي نبيِّن ونوضِّح دلائل الوحدة في غاية البيان والإيضاح ﴿ **لِقَوْمٍ يعْقِلونَ** ﴾ يستعملون عقولهم في تدبر الأمور والأمثال ﴿ **بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾ أي لم يعقلوا شيئاً بل اتبعوا ﴿ **أَهْوَاءَهُمْ بغيْرِ عِلْمٍ** ﴾ أي حال كونهم جاهلين ما أتوا ، لا يكفُّهم عنه شيء ، فإن العالم إذا اتَّبع هواه ربما رَدَعه علمهُ ﴿ **فمنْ يَهْدي مَنْ أَضَلَّ اللهُ** ﴾ أي خلق فيه الضلالة بصرف اختياره إلى كسبها أي لا يقدر على هدايته أحد ﴿ **وما لَهُمْ** ﴾ أي لمن أضله الله تعالى ، والمراد المشركون ﴿ **مِنْ نَاصِرِينَ** ﴾ يُخلِّصونهم من الضلال ، ويحفظونهم من آفاته ، أي ليس لأحد منهم ناصر ، واعلم أن من الهوى مذموم ، وهو الميل إلى الدنيا وشهواتها ، ومنه ما هو ممدوح ، وهو الميل إلى العقبى ودرجاتها ، بل إلى الله تعالى بتجريد القلب عما سواه ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ** ﴾ الوجهُ : الجارحة المخصوصة ، وقد يعبر به عن الذات كما في قوله (**وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهَ**) والدين في الأصل الطاعةُ والجزاء ، واستعير للشريعة ، وإقامة الوجه للدين تمثيلٌ لإقباله على الدين ، واستقامته واهتمامه بترتيب أسبابه ، فإن من اهتم بشيء محسوس بالبصر ، عقد عليه طرفه ، ومدَّ إليه نظره مقبلاً عليه ، والمعنى إذا كان حال المشركين اتباع الهوى ، والإعراض عن الهدى ، فقوِّمْ وجهك يا محمد للدين الحقّ ، الذي هو دين الإسلام غير متلفِّتٍ يميناً وشمالاً ﴿ **حَنِيفاً** ﴾ أي حال

كونك مائلاً إليه عن سائر الأديان ، مستقيماً عليه لا ترجع عنه إلى غيره ﴿ فِطْرَتَ اللهِ ﴾ الفطرةُ : الخِلْقةُ وزناً ومعنى،والمراد بالفطرة ههنا القابلية للتوحيد ودين الإسلام من غير إباء عنه وعدم الإخلال به باتباع الهوى ، وتسويل الشيطان ﴿ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ خلق الناس على فطرته التي هي عبارة عن ملة الإسلام ، فإنهم لو خُلُّوا وما خُلقوا عليه ، أدى بهم إليها ، وما اختاروا عليها ديناً آخر ، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن ، ومنه الحديث القدسي (كل عبادي خلقت حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم ، وأمروهم أن يشركوا بي غيري)[1] وفي الحديث (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه ، أو ينصرانه أو يمجِّسانه ، كما تنتج بهيمةً بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها)[2] أي تقطعون أنفها ، معناه كل مولود إنما يولد في مبدأ الخلقة وأصل الجِبِلَّة على الفطرة السليمة ، والطَّبعِ المتهيء لقبول الدين ، فلو ترك عليها استمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها ، لأن هذا الدين حُسْنُه موجود في النفوس ، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية والتقليد ﴿ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ أي لا استقامة لتبديله بالإخلال بموجبه ، ولا تحويل لما له خلقهم ، فطرَ الناسَ كلهم على التوحيد ، فأقام قلب من خلقه للتوحيد والسعادة ، وأزاغ قلب من خلقه للإلحاد والشقاوة ﴿ ذَلِكَ ﴾ الدين المأمور بإقامة الوجه له ﴿ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ المستوى الذي لا عوج فيه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ كفار مكة ﴿ لا يَعْلَمُونَ ﴾ استقامته فينحرفون عنه انحرافاً ، وذلك لعدم تدبرهم وتفكرهم ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ من أناب إذا رجع مرة بعد أخرى ، والمعنى : إلزموا على الفطرة حال كونكم راجعين إليه تعالى ، وإلى كل ما أمر به ، مقبلين عليه بالطاعة ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ أي من مخالفة أمره ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ ادُّوها في أوقاتها على شرائطها وحقوقها ، قال الراغب : إقامة الشيء توفية حقه ، ولم يأمر تعالى بالصلاة حيث أمر ، ولا مدح بها حيثما مدح ، إلا بلفظ الإقامة ، تنبيهاً على أن المقصود منها توفية شرائطها لا الإتيان بهيآتها ﴿ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ المبدِّلين لفطرة الله تبديلاً ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ تفريقهم لدينهم : اختلافهم فيما يعبدون على اختلاف أهوائهم ﴿ وَكَانُوا شِيَعاً ﴾ أي فرقاً مختلفة ، يشايع كل منها أي يتابع إمامها الذي هو أصل دينها ﴿ كُلُّ حِزْبٍ ﴾ الحزب جماعة الناس ﴿ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ بما عندهم من الدين المعوج ﴿ فَرِحُونَ ﴾ مسرورون ظناً منهم أنه حق ، وأنى لهم ذلك ؟ ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ ﴾ من الجوع ، والقحط واحتباس المطر ، والمرض ، وغير ذلك من أنواع البلاء ﴿ دَعَوْا رَبَّهُمْ ﴾ حال كونهم ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ راجعين إليه من دعاء غيره ، لعلمهم أنه لا فرج عند الأصنام ، ولا يقدر على كشف ذلك عنهم غير الله ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ

---

(١) الحديث أخرجه مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي بأوسع من هذا ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٧٤٨ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والطبراني والترمذي ، وانظر جامع الأصول ١ / ٢٦٨ .

﴿ مِنْهُ ﴾ من عنده ﴿ رَحْمَةً ﴾ خلاصاً وعافية ، وذلك بالسعة ، والغنى ، والصحة ، ونحوها ﴿ إذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكونَ ﴾ أي فاجأ فريق بالعود إلى الإشراك بربهم الذي عافاهم ﴿ لِيَكْفُروا بما آتيْناهُمْ ﴾ نعمة الخلاص والعافية ﴿ فَتَمتَّعُوا ﴾ أي بكفركم قليلاً إلى وقت آجالكم ، وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿ فسوْفَ تَعْلَمونَ ﴾ عاقبة تمتعكم في الآخرة ، وهي العقوبة ﴿ أَمْ أنزلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً ﴾ أي حجة واضحة كالكتاب ﴿ فَهُوَ يَتَكلَّمُ ﴾ تكلم دلالة كما في قوله تعالى (هَذا كتابُنا يَنْطِقُ عليْكُمْ بالحَقِّ) ﴿ بما كَانُوا بِهِ يُشْرِكونَ ﴾ أي بإشراكهم به تعالى في ألوهيته ، والمراد بالاستفهام النفي والإنكار أي لم ينزل عليهم ذلك ﴿ وَإذا أَذقْنا النّاسَ رَحْمَةً ﴾ أي نعمة وصحة وسعة ﴿ فَرِحُوا بها ﴾ بطراً وأشراً ، لا حمداً وشكراً ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وأعرضوا عن عبودية المولى ﴿ وإنَ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي شدة من بلاء وضيق ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بشؤم معاصيهم ﴿ إذا هُمْ يقْنَطونَ ﴾ فاجأوا بالقنوط واليأس من رحمة الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَروْا ﴾ أي ألم ينظروا ولم يشاهدوا ﴿ أَنّ اللهَ ﴾ الرزاق ﴿ يَبْسُطُ الرِزْقَ لِمنْ يَشاءُ ﴾ أي يوسعه لمن يرى صلاحه في ذلك ، ويمتحنه بالشكر ﴿ وَيقْدِرُ ﴾ أي يضيّقه لمن يرى ويمتحنه بالصبر ، فما لهم لا يشكرون في السراء ، ولا يتوقعون الثواب بالصبر في الضراء ﴿ إنَّ في ذَلِكَ ﴾ المذكور من القبض والبسط ﴿ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ ﴾ فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة ، قال محمد بن سابق :

فَكَمْ قَـوِيٍّ مَتِينٍ في تَقلُّبِـهِ * مُهـذَّب الرأْيِ عنـهُ الرِزْقُ يَنْحَرِفُ
وَكَمْ ضَعِيفٍ ضَعيفٍ في تَقَلُّبِـهِ * كَـأَنَّـهُ مِنْ خَلِيـجِ البَحْرِ يَغْتَرِفُ
هَـذَا دليـلٌ عَلَى أنَّ الإلَـهَ لَـهُ * في الخَلْـقِ سِرٌ خَفيٌّ لَيْسَ يَنْكشِفُ

وحُكي أنه سئل بعض العلماء ، ما الدليل على أن للعالَم صانعاً واحداً ؟ قال : ثلاثة أشياء : ذلُّ اللبيب ، وفقر الأديب ، وسقم الطبيب ، فالواجب أن لا يعلق العباد قلوبهم إلا بالله ، لأن ما يسوءهم ليس زواله إلا من الله ، وما يسرهم ليس وجوده إلا من الله ، فالواجب لزوم بابه إذ لا يفيد للعاجز طلب مراده من عاجز مثله ، فلابد من الطلب من القادر المطلق ، الذي هو الحق ، قال إبراهيم بن أدهم : طلبنا الفقر فاستقبلنا الغنى ، وطلب الناس الغنى فاستقبلهم الفقر ، فعليٌّ تحصيلُ سكون القلب وقد أمر بالتوكل واليقين في باب الرزق ، فلابد من الائتمار وإخراج الأفكار من القلب ، فإن من شك في رازقه فقد شك في خالقه ، كما حكي أن معروفاً الكرخي اقتدى بإمام ، فسأله الإمام بعد الصلاة وقال له : من أين تأكل يا معروف ؟ فقال معروف : اصبرْ يا إمام حتى أقضي ما صليت خلفك ، ثم أجيب ، فإن الشاك في الرّازق شاكٌّ في الخالق ، ولا يجوز اقتداء المؤمن الموقن بالمتزلزل المتردد ولذا قال تعالى (لِقَوْمٍ

﴿ يُؤْمِنونَ) ﴿ فآتِ ﴾ أعطِ يا من بُسِط له الرزق ﴿ ذا القُرْبىٰ ﴾ صاحب القرابة ﴿ حَقَّهُ ﴾ من الصلة والصدقة وسائر المبرات ﴿ والمسْكِينَ وابْنَ السّبيلِ ﴾ ما يستحقانه من الصدقة والإعانة والضيافة ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي إيتاء الحق وإخراجه من المال ﴿ خَيْرٌ ﴾ من الإمساك ﴿ للذّينَ يُريدُونَ وجْهَ اللهِ ﴾ أي يقصدون بمعروفهم إياه تعالى خالصاً ، فيكون الوجه بمعنى الذات ﴿ وَأُولئِكَ هُمُ المفْلِحونَ ﴾ الفائزون بالمطلوب في الآخرة ، حيث حصلوا النعيم المقيم ، وعن علي رضي الله عنه أن المال حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد يجمعهما الله لأقوام . وكان لقمان الحكيم إذا مرَّ بالأغنياء يقول: يا أهل النعيم لا تنسوا النعيم الأكبر ، وإذا مرَّ بالفقراء يقول : إياكم أن تُغْبنوا مرتين ، وعن عليّ رضي الله عنه : إنَّ الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما منع غني ، والله يسألهم عن ذلك ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً ﴾ وهي الزيادة في المقدار بأن يباع أحد مطعوم أو نقد بنقد بأكثر منه من جنسه ، ويقال له ربا الفضل ، أو في الأجل بأن يباع أحدهما إلى أجل ويقال له ربا النسيئة ، وكلاهما محرّم ، والمعنى : من زيادة خالية من العوض عند المعاملة ﴿ لِيرْبُوَ في أموالِ النّاسِ ﴾ ليزيد ويزكو في أموالهم ﴿ فلا يرْبُو عِنْدَ اللهِ ﴾ لا يزيد عنده ولا يبارك له فيه كما قال تعالى (يَمْحَقُ اللهُ الرِبَا) ﴿ وما آتيْتُمْ مِنْ زكٰوةٍ ﴾ مفروضة سميت زكاة لأنها تزكو وتنمو ﴿ تُريدونَ وَجْهَ اللهِ ﴾ تبتغون به وجهه خالصاً أي ثوابه ورضاه ، لا ثواب غيره ورضاه ، بأن يكون رياء وسمعة ﴿ فَأُولٰئِكَ هُمُ المضْعِفونَ ﴾ أي ذوو الأضعاف من الثواب وإنما قال (فَأُولٰئِكَ هُمُ المضْعِفونَ) فعدل عن الخطاب إلى الإخبار ، إيماء إلى أنه لم يخص به المخاطبون بل هو عام في جميع المكلفين إلى قيام الساعة ، قال سهل : وقع بالتضعيف لإرادة وجه الله به لا بإيتاء الزكاة ، واعلم أن المال عارية مستردة في يد الإنسان ، ولا أحد أجهل ممن لا ينقذ نفسه من العذاب الدائم ، بما لا يبقى في يده ، وقد تكفل الله بتعويض المنفق في سبيل الله ، الذي لا يريد بإحسانه إلاَّ رضى الله .

﴿ اللهُ ﴾ وحده ﴿ الّذي خَلَقَكُمْ ﴾ أوجدكم من العدم ولم تكونوا شيئاً ﴿ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ أطعمكم ما عشتم ودمتم في الدنيا ﴿ ثُمَّ يُميتُكُمْ ﴾ وقت انقضاء آجالكم ﴿ ثُمَّ يُحْييكُمْ ﴾ في النفخة الأخيرة ليجازيكم بما عملتم في الدنيا من الخير والشر ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ ﴾ اللاتي زعمتم أنها شركاء الله ﴿ مَنْ يفْعلُ مِنْ ذٰلِكُمْ ﴾ أي الخلق ، والرزق ، والإماتة والإحياء ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي لا يفعل أحد شيئاً قط من تلك الأفعال ﴿ سُبْحانَهُ ﴾ تنزَّه تنزيهاً بليغاً ﴿ وَتَعالىٰ ﴾ تعالياً كبيراً ﴿ عَمّا يُشْرِكونَ ﴾ عن إشراك المشركين ﴿ ظَهَرَ الفَسادُ ﴾ شاع ﴿ في البَرِّ ﴾ كالجدب، وقلة النبات ، وقلّةِ الريع في الزراعات، والدر والنَّسل في الحيوانات ، ومحق البركات من كل شيء ، وظهور الوباء والطاعون في الناس ، ووجود

الفتن والحرب ، ونحو ذلك من المضار ﴿ **والبَحْرِ** ﴾ كالغَرَق ، وعمى دواب البحر بانقطاع المطر ، وإخفاق الغواصين أي خيبتهم من اللؤلؤ ﴿ **بما كَسَبَتْ أَيْدي النَّاسِ** ﴾ أي بسبب شؤم المعاصي ، التي كسبها الناس في البر والبحر ، بمزاولة الأيدي غالباً ، ففيه إشارة إلى أن الكسب من العبد ، والتقديرُ والخلق من الله تعالى ، فالطاعة كالشمس المنيرة تنتشر أنوارها في الآفاق ، فكذا النِّعمة تسري بركاتها إلى الأقطار ، فهي من تأثيرات لطفه تعالى ، والمعصيةُ كالليلة المظلمة فكما أن الليلة تحيط ظلمتها بالجوانب ، فكذا المعصية تتفرق شآمتها إلى الأقارب والأجانب ، فهي من تأثيرات قهره تعالى ، وأول فساد ظهر في البر قتل قابيل أخاه هابيل ﴿ **لِيُذِيقَهُمْ بعضَ الَّذِي عَمِلُوا** ﴾ الذوق وجود الطعم بالفم ، وكثر استعماله في العذاب ، يعني أفسد الله أسباب دنياهم بسوء صنيعهم ، ليذيقهم بعض جزاء ما عملوا من الذنوب ، ويعذبهم بالبأساء والضراء والمصائب ، وإنما قال بعض لأن تمام الجزاء في الآخرة ﴿ **لَعَلَّهُمْ يرْجِعونَ** ﴾ عما كانوا عليه من الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعة ، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن ظهور الفاحشة في قوم وإعلانها ، سببٌ لفشوّ الطاعون والأوجاع ، ونقصُ الميزان والمكيال سببٌ للقحط وشدة المؤونة وجور السلطان ، ومنع الزكاة سببُ انقطاع المطر ولولا البهائم لم يُمطروا ، ونقض عهد الله وعهد رسوله سبب لتسلط العدو ، وأخذ الأموال من أيدي الناس ، وعدم حكم الأئمة بكتاب الله ، سبب لوقوع السيف والقتال بين الناس ، وأكل الربا سبب للزلزلة والخسف ، فضرر البعض يسري إلى الجميع ، ولذا يقال : من أذنب ذنباً فجميع الخلق من الإنس والدواب والوحوش خصماؤه يوم القيامة ، فلابد من الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة والطاعة والإصلاح ، فإن فيه الفوز والفلاح ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد ﴿ **سِيروا** ﴾ أيها المشركون وسافروا ﴿ **في الأَرضِ** ﴾ في أرض الأمم المعذبة ﴿ **فَانْظُروا كيْفَ كانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي آخر أمر من كان قبلكم ، والنظر على وجهين : يقال نظر إليه ، ونظر بعينه ، ونظر فيه إذا تفكر بقلبه ، وههنا قال فانظروا ولم يقل إليه أو فيه ، ليدل على مشاهدة الآثار ، ومطالعة الأحوال ﴿ **كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ** ﴾ أي كان أكثرالذين من قبل مشركين فأُهلكوا بشركهم ، وهو استئناف للدلالة على أن ما أصابهم لفشوّ الشرك فيما بينهم ، أو كان الشرك في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليل منهم ، فإذا أصابهم العذاب بسبب شركهم ومعاصيهم ، فليحذر من كان على صفتهم من مشركي قريش وغيرهم إن أصروا على ذلك ﴿ **فَأَقِمْ** ﴾ عدِّلْ يا محمد ﴿ **وجْهَكَ للدِّينِ القَيِّمِ** ﴾ البليغ الاستقامة الذي ليس فيه عوج أصلاً ، وهو دين الإسلام ﴿ **مِنْ قبْلِ أَنْ يأتِيَ يوْمٌ** ﴾ يوم القيامة ﴿ **لاَ مَرَدَّ لَهُ** ﴾ لا يقدر أحد على رده ، ولا ينفع نفساً إيمانها حينئذ ﴿ **مِنَ اللهِ** ﴾ أي لا يردُّه الله تعالى لتعلق إرادته القديمة بمجيئه ، وقد وعد ولا خُلف في وعده ﴿ **يَوْمَئِذٍ** ﴾ أي يوم القيامة بعد محاسبة الله أهل الموقف ﴿ **يَصَّدَّعُونَ** ﴾ أصله يتصدعون فأدغمت التاء في الصاد وشُدِّدت ، والمعنى : يتفرقون في الجنة ،

وفريق في السعير ﴿ مَنْ كَفَرَ ﴾ بالله في الدنيا﴿ فَعَلَيْهِ ﴾ لا على غيره ﴿ كُفْرُه ﴾ وبَالَ كُفره وجزاؤه وهو النار المؤبدة ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً ﴾ لوجه الله وعمل بالطاعة الخالصة بعد التوحيد ﴿ فَلِأَنفُسِهِمْ ﴾ وحدها ﴿ يَمْهَدُونَ ﴾ يُسوّون منزلاً في الجنة ، ويفرشون ويهيئون ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ به في الدنيا ﴿ وَعَمِلوا الصّالحاتِ ﴾ وهي ما أريد به وجه الله تعالى ورضاه ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي ليجزي كلاً منهم بحسب أعمالهم ، وحيث كان جزاء المؤمنين هو المقصود بالذات ، أبرز ذلك في معرض الغاية ، وعبر عنه بالفضل ، لما أن الإثابة عند أهل السنة بطريق التفضل لا الوجوب وأشير إلى جزاء الفريق الآخر بقوله ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الكَافِرِينَ ﴾ لغضبه المستتبع للعقوبة لا محالة ﴿ وَمِنْ آياتِهِ ﴾ علامات وحدته وقدرته ﴿ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ ﴾ أي الشمال والجنوب والصبا ، فإنها رياح الرحمة ، وأما الدبور فإنها ريح العذاب ومنه قوله عليه السلام (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) ﴿ مُبَشِّراتٍ ﴾ أي حال كون تلك الرياح مبشرات للخلق بالمطر ونحوه ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ وهي المنافع التابعة لها ﴿ وَلِتَجْرِيَ الفُلْكُ ﴾ في البحر بسوق الرياح ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ فالسفن تجري بالرياح والرياح بأمر الله فهي في الحقيقة جارية بأمره ﴿ ولِتَبتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يعني تجارة البحر ، وفيه جواز ركوب البحر للتجارة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ ﴾ لتشكروا نعمة الله فيما ذكر من الغايات الجليلة فتوحدوه وتطيعوه ، ثم حذَّر من أخلَّ بموجب الشكر فقال ﴿ وَلقدْ أَرْسَلنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ ﴾ كما أرسلناك إلى قومك ﴿ فَجاءُوهُمْ بالبيِّنَاتِ ﴾ أي جاء كل رسول قومه ، بما يخصه من الدلائل الواضحة ، على صدقه في دعوى الرسالة ، كما جئت قومك بالبراهين النيِّرة ﴿ فانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ النقمة العقوبة ، ومنها الانتقام أي فكذبوهم فانتقمنا من الذين أجرموا أي عاقبناهم وأهلكناهم ﴿ وَكانَ حَقّاً عَلَيْنا ﴾ واجباً وجوب كرم لا وجوب إلزام ، وفي الوسيط واجباً وجوباً هو أوجبه على نفسه ﴿ نَصْرُ المُؤْمِنِينَ ﴾ وإنجاؤهم من شر أعدائهم ، ومما أصابهم من العذاب ، نصر عزيز وإنجاء عظيم * وفيه إشعار بأن الانتقام للمؤمنين ، إظهارٌ لكرامتهم ، حيث جعلوا مستحقين على الله أن ينصرهم وفي الحديث (مامن امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم)[1] وفي الآية تبشير للنبي عليه السلام بالظفر في العاقبة ، والنصر على من كذَّبه ، وتنبيهٌ للمومنين على أن العاقبة لهم لأنهم هم المتقون وقد قال تعالى (والعاقِبَةُ للمتَّقِينَ) ﴿ اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ ﴾ رياح الرحمة كالصبا ونحوها ﴿ فَتُثِيرُ سَحاباً ﴾ أي فتنشره تلك الرياح وتخرجه من أماكنه ﴿ فَيَبْسُطُه ﴾ يعني يجعله متصلاً تارة ﴿ في السَّماءِ ﴾ في جهتها ﴿ كيفَ يَشاءُ ﴾ سائراً وواقفاً مسيرة يوم أو يومين ، أو أقل أو أكثر ، من

(١) أخرجه أحمد وأبو داود بلفظ (ما من أحد ينصر مسلماً في موطن يُنتقص فيه من عرضه ..) الحديث وانظر جامع الأصول ٦ / ٥٦٩ والفتح الكبير ٣ / ١٠٥ .

جانب الجنوب أو ناحية الشمال ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ﴾ تارة أخرى أي قطعاً جمع كِسْفة وهي قطعة من السحاب والقطن ، ونحو ذلك من الأجسام ﴿ فَتَرَى الوَدْقَ ﴾ أي المطر يا منْ مِنْ شأنه الرؤية ، قيل : الودق في الأصل ما يكون خلال المطر كأنه غبار ، وقد يعبر به عن المطر ﴿ يَخْرُجُ ﴾ بالأمر الإلهي ﴿ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ فُرَجُ السحاب وشقوقه في التارتين ، والخلل : فرجة بين الشيئين ، وجمعه خلال ﴿ فَإِذا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ فاجأوا الاستبشار والفرح ، بمجيء الخصب وزوال القحط ﴿ وَإِنْ ﴾ أي وإنَّ الشأن ﴿ كَانُوا ﴾ أي أهل المطر ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ المطر ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي قبل التنزيل ، تكرير للتأكيد والدلالة على استحكام يأسهم منه ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أي آيسين من نزوله ﴿ فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَةِ اللهِ ﴾ الخطاب وإن توجه نحو النبي عليه السلام ، فالمراد به جميع المكلفين ، والمراد برحمة الله المطر ، لأنه أنزله برحمته على خلقه ، والمعنى فانظروا إلى آثار المطر من النبات ، والأشجار ، وأنواع الثمار والأزهار ، ﴿ كَيْفَ يُحيِي ﴾ أي الله تعالى ﴿ الأَرْضَ ﴾ بالآثار ﴿ بَعْدَ مَوْتِها ﴾ أي يبسها أي فانظروا إلى الإحياء البديع للأرض بعد موتها ، والمراد بالنظر التنبيه على عظيم قدرته ، وسعة رحمته ، مع ما فيه من تمهيد أمر البعث ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ العظيم الشأن الذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها ﴿ لَمُحْيِي المَوْتى ﴾ لقادر على إحيائهم في الآخرة ، فإنه إحداث لمثل ما كان في مواد أبدانهم من القوى الحيوانية ، كما أن إحياء الأرض إحياء لمثل ما كان فيها من القوى النباتية ﴿ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي مبالغ في القدرة على جميع الأشياء التي من جملتها إحياء الإنسان بعد موته في الحشر ، واعلم أن الله سبحانه زيَّن الأرض بآثار قدرته ، وأنوار فعله وحكمته ، فأنبت الخضرة ، وأضاء الزهر ، وسأل بنو إسرائيل موسى عليه السلام هل يصبغ ربك قال نعم يصبغ ألوان الثمار والرياحين الأحمر ، والأصفر ، والأبيض .

وينبغي أن يذكر بكاء العصاة على الصراط ، عند رؤية نزول المطر من السماء ، قالت رابعة : ما سَمِعْتُ الأذان إلا ذكرت منادي يوم القيامة ، وما رأيت الثلوج إلا ذكرت تطاير الكتب ، وما رأيت الجراد إلا ذكرت الحشر وخرج ابن السماك أيام الربيع فنظر إلى الأنوار فصاح ، وقال : يا منّور الأشجار بأنواع الأنوار ، نوِّر قلوبنا بذكرك ، وحسن طاعتك ، وبعض الصالحين كانوا يبكون أيام الربيع شوقاً إلى الله تعالى ، ومنهم من يبكي خوفاً من الفراق ، حكي أن الشيخ الشبلي خرج يوماً فوجده أصحابه تحت شجرة يبكي ، فقيل له في ذلك : قال مررت بهذه الشجرة فقطع منها غصن فقلت يا نفس ماذا أنت صانعة أن لو قطعت من الحق ؛ ولا علم لك بذلك ؟ فجلس أصحابه يبكون ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ ﴾ الريح ريح العذاب كالدبور ونحوها والمعنى : وبالله لئن أرسلنا ريحاً مضرة ، حارة أو باردة ، فأفسدت زرع الكفار فرأوه ﴿ مُصْفَرّاً ﴾ من تأثير الريح أي قد اصفر بعد خضرته ، وقرب

من الجفاف والهلاك ﴿ لَظَلُّوا ﴾ أي يظلون وظل أصله العمل بالنهار ويستعمل في موضع صار كما في هذا المقام ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي بعد اصفرار الزرع والنبات ﴿ يَكْفُرونَ ﴾ من غير توقف وتأخير ، يعني أن الكفار لا اعتماد لهم على ربهم ، فإن أصابهم خير وخصب لم يشكروا الله ولم يطيعوه ، وأفرطوا في الاستبشار ، وإن نالهم أدنى شيء يكرهونه جزعوا ولم يصبروا ، وكفروا سالف النعم ولم يلتجئوا إليه بالاستغفار ، وليس كذلك حال المؤمن فإنه يشكر عند النعمة ويصبر عند المحنة ولا ييأس من روح الله ويلتجىء إليه بالطاعة والاستغفار ليستجلب الرحمة في الليل والنهار ﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الموْتىٰ ﴾ أي من كان من الكفار كما وصفنا ، فلا تطمع يا محمد في قبولهم دعوتك ، فإنك لا تسمع الموتى ، والكفار كالموتى لانسداد مشاعرهم عن الحق ، وهم الذين علم الله أنهم لا يؤمنون به وفي الآية دليل على أن الأحياء قد يُسمَّون أمواتاً إذا لم يكن لهم منفعة الحياة ، قال علي كرم الله وجهه : مات خُزَّان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أجسادهم مفقودة ، وآثارهم بين الورى موجودة ، واعلم أن الكفر موت القلب ، كما أن العصيان مرضه ، فمن مات قلبه بالكفر بطل سمعه بالكلية ، فلا ينفعه النصح أصلاً ، ومن مرض قلبه بالعصيان فيسمع سمعاً ضعيفاً كالمريض ، فيحتاج إلى المعالجة في إزالته حتى يعود سمعه إلى الحالة الأولى ثم أشار تعالى إلى تشبيه آخر بقوله ﴿ ولا تُسْمِعُ الصُمَّ ﴾ جمع أصم ، والصمم فقدان حاسة السمع ، وبه شُبِّه من لا يَصغي إلى الحق ولا يقبله ﴿ الدُّعاءَ ﴾ أي الدعوة ﴿ إذا وَلَّوْا ﴾ أعرضوا عن الداعي حال كونهم ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ تاركين له وراء ظهورهم فارين منه ، فإن الأصم المقبل إلى المتكلم ربما يتفطن منه بواسطة أوضاعه وحركات فمه ، وإشارات يده ورأسه شيئاً من كلامه ، وإن لم يسمعه أصلاً ، وأما إذا كان معرضاً عنه فلا يكاد يفهم منه شيأ ، ثم أشار إلى تشبيه آخر بقوله ﴿ وَما أَنْتَ بِهادِ العُمْيِ ﴾ جمع أعمى ، وهو فاقد البصر ، الذي لا يرى ما أمامه ﴿ عَنْ ضَلالَتِهِمْ ﴾ أي عمَّاهم فيه من الغيّ والضلال ، سَمَّاهم عمياً لفقدهم المقصود الحقيقي من الإبصار ، أو لعمى قلوبهم ، فإنهم ميتون ، والميت لا يبصر شيئاً ، كما لا يسمع شيئاً ، فكيف يهتدي ؟ ﴿ إنْ ﴾ ما ﴿ تُسْمِعُ ﴾ مواعظ القرآن ونصائحه ﴿ إلاّ مَنْ يُؤمِنُ بآياتِنا ﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلى التدبُّر فيها وتلقيها بالقبول ، يعني أن الإيمان حياة القلب ، فإذا كان القلب حياً يكون له السمع والبصر واللسان ﴿ فَهُمْ مُسْلِمونَ ﴾ تعليل لإيمانهم أي منقادون لما تأمرهم به من الحق ﴿ اللهُ الَّذي خَلَقَكُمْ ﴾ أوجدكم أيها الناس ﴿ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ أي من أصلٍ ضعيف هو النطفة أو التراب ، والضَّعفُ : بالفتح والضم خلاف القوة ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي في الزمان ﴿ جَعَلَ ﴾ خلق ﴿ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ ﴾ آخر وهو الضعف الموجود في الجنين والطفل ﴿ قُوَّةً ﴾ هي القوة التي تجعل للطفل من التحرك واستدعائه اللبن ، ودفع الأذى عن نفسه بالبكاء ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ أخرى هي التي بعد البلوغ وهي قوة الشباب ﴿ ضَعْفاً ﴾ آخر هو ضعف الشيخوخة

والكبر ﴿ **وَشَيْبَةً** ﴾ شيبة الهرم ، والشيب والمشيب بياض الشعر ، ويدل على أن كل واحد من قوله ضعف وقوة إشارة إلى حالة غير الحالة الأولى ذكره منكَّراً ، والمنكَّرُ متى أُعيد ذكره معرَّفاً أريد به ما تقدم كقولك رأيت رجلاً فقال لي الرجل كذا ، ومتى أُعيد منكَّراً أريد به غير الأول ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله (فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً . إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرَاً) قال لن يغلب عسر يسرين هكذا حققه الإمام الراغب وتبعه أجلاء المفسرين ﴿ **يَخْلُقُ** ﴾ الله تعالى ﴿ **مَا يَشَاءُ** ﴾ من الأشياء التي من جملتها ما ركب من الضعف والقوة ، والشباب والشيبة ، يعني هذا ليس طبعاً بل بمشيئة الله تعالى ﴿ **وَهُوَ العَلِيمُ** ﴾ بخلقه ﴿ **القَدِيرُ** ﴾ بتحويله من حال إلى حال ، والعليم بأهل السعادة والشقاوة ، قال بعضهم : رحم الله امرأ كان قوياً فأعمل قوته في طاعة الله ، أو كان ضعيفاً فكفَّ لضعفه عن معصية الله ، قيل : إذا جاوز الرجل الستين وقع بين قوة العلل ، وعجز العمل ، وضعف الأمل ، ووثبة الأجل ، فلابد للشبان من دفع الكسل ، وسد الخلل ، وفي الحديث (من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة)[1] والخضاب بالسواد حرام لغير الغزاة ، وحلال لهم ليكونوا أهيب في عين العدو ، وأما الخضاب بالحمرة والصفرة فمستحب ، ودل قوله (**يَخْلُقُ مَا يشاءُ**) على أن الله تعالى لو لم يخلق الشيب في الإنسان ما شاب ، وأما قول الشاعر :

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الكَبِيـ * ـرَ كَرُّ الغَدَاةِ ومَرُّ العَشِيّ

فمن قبيل الإسناد المجازي ، ونظر أبو زيد إلى المرآة فقال : ظهرَ الشيبُ ، ولم يذهب العيبُ ، ولا أدري ما في الغيب ، وفي ذلك يقول الشاعر :

يا عَامِرَ الدُّنْيا عَلَى شَيْبِهِ * فِيكَ أَعَاجِيبُ لَمَنْ يعْجَبُ
مَا عُذْرُ مَنْ يَعْمُرُ بُنْيَانَهُ * وَجِسْمُهُ مُسْتَهْدِمٌ قَدْ يَخْرَبُ

روي أن عثمان رضي الله عنه كان إذا وقف على قبرٍ بكى حتى تُبَلَّ لحيته ، فقيل : تذكر الجنة والنار ولا تبكي ، وتبكي من هذا ؟ فقال إن رسول الله ﷺ قال : (إن القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه)[2] وحُكي أن الحسن البصري رحمه الله ، رأى بنتاً على قبر تنوح وتقول : يا أبت كنتُ أفرش فراشك ، فمن فَرَشه الليلة ؟ يا أبت كنتُ أطعمك فمن أطعمك الليلة ؟ إلى غير ذلك ، فقال الحسن : لا تقولي كذلك ، بل قولي : يا أبت وضعناك متوجهاً إلى القبلة فهل حُولت عنها ؟ يا أبت هل كان القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٧٦١ .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد رقم ٢٣٠٩ وإسناده حسن ، وانظر جامع الأصول ١١ / ١٦٤ .

من حفر النيران ؟ يا أبت هل أجبتُ الملكَيْنِ على الحق أو لا ؟ فقالت : ما أحسن قولك يا شيخ ، وقَبِلتْ نصيحته ، فعلى العاقل أن يتذكر الموت ويتفكَّر في بعد السفر ، ويتأهب بالإيمان والأعمال مثل الصلاة والقيام ونحوها ، وأفضلها إصلاح النفس ، وكفُّ الأذى عن الناس بترك الغيبة والكذب ، وتخليص العمل لله تعالى ، وذلك يحتاج إلى قوة التوحيد بتكريره ، وتكريره بصفاء القلب آناء الليل وأطراف النهار ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ** ﴾ أي القيامة سميت بها لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا ، أو لأنها تقع بغتة وبداهة، وصارت عَلَماً بها بالغلبة ﴿ **يُقْسِمُ الْمُجْرِمونَ** ﴾ يحلف الكافرون، يقال : أقسم أي حلف أصله من القسامة ، وهي أيمان تقسم على المتهمين في الدم ، ثم صار اسماً لكل حلف ﴿ **ما لَبِثوا** ﴾ في القبور ، ولَبِثَ بالمكان أقام به ملازماً له ﴿ **غَيْرَ سَاعَةٍ** ﴾ أي إلا ساعة واحدة وهي جزؤ من أجزاء الزمان ، استقلوا مدة لبثهم نسياناً أو كذباً أو تخميناً ، ويقال ما لبثوا في الدنيا ، والأول هو الأظهر لأن لبثهم مُغَيَّاً بيوم البعث كما سيأتي، وليس لبثهم في الدنيا كذلك ﴿ **كَذلِكَ** ﴾ مثل ذلك الصرف ﴿**كَانُوا** ﴾ في الدنيا بإنكار البعث ، والحلف على بطلانه ، كما أخبر سبحانه في قوله (**وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ**) ﴿ **يُؤْفَكونَ** ﴾ يُقَالُ إفك إذا صرف عن الصدق ، والخير ، أي يصرفون عن الحق والصدق ، فيأخذون في الباطل والإفك والكذب ، يعني كذبوا في الآخرة كما كانوا يكذبون في الدنيا واعلم أن الله تعالى خلق الصدق فظهر من ظله الإيمان والإخلاص ، وخلق الكذب فظهر من ظله الكفر والنفاق ، فأنتج الإيمان المتولد من الصدق أن يقول المؤمنون يوم القيامة (**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ**) و (**هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدق الْمُرْسَلُونَ**) ونحوه ، وأنتج الكفر المتولد من الكذب أن يقول الكافرون يومئذ (**والله ما كنا مشركين**) (**وما لبثوا غير ساعة**) ونحوه من الأكاذيب .

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ والإيمانَ** ﴾ في الدنيا من الملائكة والإنس رداً لهم وإنكاراً لكذبهم ﴿ **لَقَدْ** ﴾ والله قد ﴿ **لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ** ﴾ وهو التقدير الأزلي في أم الكتاب ، أي علمه وقضائه ﴿ **إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ** ﴾ وهو مدة مديدة وغاية بعيدة لا ساعة حقيقة . وقد ورد (ما بين فناء الدنيا والبعث أربعون) وهو محتمل للساعات والأيام والأعوام ، والظاهر أربعون سنة أو أربعون ألف سنة ، ثم أخبروا بوقوع البعث تبكيتاً لهم لأنهم كانوا ينكرونه فقالوا ﴿ **فَهذا** ﴾ أي إن كنتم منكرين البعث فهذا ﴿ **يَوْمُ الْبَعْثِ** ﴾ الذي أنكرتموه وكُنتم توعدون في الدنيا أي فقد تبين بطلان إنكاركم ﴿ **وَلكِنَّكُمْ** ﴾ من فرط الجهل وتفريط النظر ﴿ **كُنْتُمْ** ﴾ في الدنيا ﴿ **لا تَعْلَمونَ** ﴾ أنه حق سيكون فتستعجلون به استهزاء ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾ أي أشركوا ﴿ **مَعْذِرَتُهُمْ** ﴾ أي عذرهم ، والعذر تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه ، فيذكر ما يخرجه عن كونه مذنباً ﴿ **وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** ﴾ الإعتاب : إزالة العتب أي الغضب والغلظة ، والمعنى لا يدعون إلى ما يقضي إعتابهم ، أي

إزالة عتبهم وغضبهم ، من التوبة والطاعة كما دعوا إليه في الدنيا ، إذ لا يقبل حينئذ توبة ولا طاعة وكذا لا يصح رجوع إلى الدنيا لإدراك فائت من الإيمان والعمل ، وفي الإية إشارة إلى أن الجسد للإنسان كالقبر للميت ، فهم يستقصرون يوم البعث أيامهم الدنيوية الفانية المتناهية وإن طالت مدتهم بالنسبة إلى صباح الحشر فإنه يوم طويل ، قال الصادقون : (الدنيا ساعة فاجعلها طاعة) واحتضر عابد فقال ما تأسفي على دار الأحزان والغموم ، والخطايا والذنوب ، وإنما تأسفي على ليلة نمتها ، ويوم أفطرته ، وساعة غفلت فيها عن ذكر الله ﴿ **وَلقدْ ضَرَبْنَا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ** ﴾ أي وبالله لقد بينا لهم كل حال ووصفنا لهم كل صفة ، فإنها في غرابتها كالأمثال وذلك كالتوحيد والحشر وصدق الرسل وسائر ما يحتاجون إليه من أمر الدين والدنيا ، مما يهتدي به المتفكر ، ويعتبر به الناظر المتدبر ﴿ **وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بآيَةٍ** ﴾ من آيات القرآن الناطقة بأمثال ذلك ﴿ **لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ من فرط عنادهم وقساوة قلوبهم ، مخاطبين للنبي والمؤمنين ﴿ **إنْ** ﴾ ما ﴿ **أَنْتُم إلاّ مُبْطِلونَ** ﴾ مزوّرون يقال : أبطل الرجل إذا جاء بالباطل ﴿ **كَذلِكَ** ﴾ أي مثل ذلك الطبع الفظيع ﴿ **يَطْبَعُ اللهُ** ﴾ يختم بسبب اختيارهم الكفر ﴿ **عَلى قُلوبِ الَّذِينَ لا يعْلَمونَ** ﴾ لا يطلبون العلم ويصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها ، فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب المُحِقّ ﴿ **فَاصْبِرْ** ﴾ يا محمد على أذاهم قولاً وفعلاً ﴿ **إنَّ وَعْدَ اللهِ** ﴾ بنصرتك وإظهار دينك ﴿ **حَقٌّ** ﴾ لابد من إنجازه والوفاء به ﴿ **ولا يسْتَخِفَّنَّكَ** ﴾ أي لا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً ، ولا يزعجنك ولا يزيلنك عن اعتقادك بما يوقعون من الشبه ﴿ **الَّذِينَ لا يُوقِنونَ** ﴾ لا يوقنون بالآيات بتكذيبهم إياها فإنهم شاكّون ضالّون ، ولا يستبعد منهم أمثال ذلك ، روي أنه لما مات أبو طالب عم النبي عليه السلام ، بالغت قريش في الأذى ، حتى إن بعض سفهائهم نثر على رأسه الشريفة التراب ، فدخل عليه السلام بيته والتراب على رأسه ، فقام إليه بعض بناته وجعلت تزيله عن رأسه وتبكي ورسول الله عليه السلام يقول لها (لا تبكي يا بنيَّة فإن الله مانع أباك) وكذا أوذي الأصحاب كلهم فصبروا ، وظفروا بالمراد ، فكانت الدولة لهم ديناً ودنيا وآخرة ، جعلنا الله وإياكم من أهل الصبر والمصابرة ، ووفقنا للمجاهدة والتضحية بالنفس والمال ، في سبيل نصرة دين الإسلام ، إنه كريم جوادٌ .

انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الروم



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴾ أي هذه السورة الٓم ، قال بعضهم : الحروف المقطعات مبادي السور ، ومفاتيح كنوز العبر ، والإشارة ههنا بهذه الحروف الثلاثة إلى قوله : أنا الله ، ولي صفات الكمال ، ومني الغفران والإحسان ﴿ تِلْكَ ﴾ أي هذه السورة وآياتها ﴿ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ ﴾ أي ذي الحكمة لاشتماله عليها ، أو المحكم المحروس من التغيير والتبديل ، والممنوع من الفساد والبطلان ﴿ هُدىً ﴾ من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ من العذاب ﴿ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي العاملين للحسنات ، والمحسن لا يقع مطلقاً إلا مدحاً للمؤمنين ، وفي تخصيص كتابه بالهدى والرحمة للمحسنين دليل على أنه ليس يهدي غيرهم ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ صفة كاشفة للمحسنين وبيان لما عملوه من الحسنات ومعنى إقامة الصلاة أداؤها ، وإنما عبر عن الأداء بالإقامة ، إشارة إلى أن الصلاة عماد الدين ، وفي المفردات : إقامة الشيء توفية حقه ، وإقامة الصلاة توفية شرائطها لا الإتيان بهيئتها ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ ﴾ أي يعطونها بشرائطها إلى مستحقيها وفي الحديث (حصّنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة)[1] فزكاة العوام من كل عشرين ديناراً نصفُ دينار ، لتزكية نفوسهم من نجاسة البخل ، كما قال تعالى (خُذْ من أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ فبإيتاء الزكاة على وجه الشرع ، ورعاية حقوق الأركان الأخري نجاة العوام من النار ، وزكاة الخواص من المال كله ، لتصفية قلوبهم من صدأ محبة الدنيا ﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ ﴾ أي بالدار الآخرة والجزاء على الأعمال ، سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا ﴿ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ فلا يشكون في البعث والحساب وإعادة لفظة « هم » للتوكيد في اليقين بالبعث والحساب ، والآخرة هي المنزل الثاني لمن يسير إلى الله بقدم الصدق من منزل الدنيا ، فمن خرج من الدنيا لابد له أن يكون في الآخرة ، فيكون موقناً بها بعد أن كان مؤمناً بها ، ولاشك أن الدنيا من الحجب الجسمانية الظلمانية ، وأن الآخرة من الحجب الروحانية النورانية ، ولابد للسالك من خرقها بأن يتجاوز من سير الأكوان إلى سير الأرواح ﴿ أُولٰئِكَ ﴾ المحسنون المتصفون بتلك الصفات الجليلة ﴿ عَلَى هُدىً ﴾ كائن ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أي على بيان منه تعالى ، يبين لهم طريقهم ووفقهم لذلك ﴿ وَأُولٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بكل مطلوب ، والناجون من كل مهروب ، لاستجماعهم العقيدة الحقة والعمل الصالح والعلاج هو : الظفر وإدراك البغية ، وذلك ضربان : دنيوي وأخروي ، فالدنيوي الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا ، والأخروي أربعة

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية ، والخطيب في التاريخ ، وتمته (وأعدُّوا للبلاء الدعاء) وانظر الفتح الكبير ٢ / ٧٣ .

أشياء : بقاء بلا فناء ، وغنى بلا فقر ، وعز بلا ذل ، وعلم بلا جهل ، ولذلك قيل : لا عيش إلا عيش الآخرة ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ** ﴾أي وبعض الناس ﴿ **مَنْ يَشْتَرِي** ﴾ الإشتراء : دفع الثمن وأخذ المثمن ، والمعنى يستبدل ويختار ﴿ **لَهْوَ الحَدِيثِ** ﴾ وهو ما يلهي عما يعني من المهمات ، كالأحاديث التي لا أصل لها ، والأساطير التي لا اعتداد بها والأضاحيك ، وسائر ما لا خير فيه من الكلام ، والحديث يستعمل في قليل الكلام وكثيره لأنه يحدث شيئاً فشيئاً ، قال أبو عثمان رحمه الله : كل كلام سوى كتاب الله أو سنة رسوله أو سيرة الصالحين فهو لهوٌ ، وأكثر أهل التفسير على أن الآية نزلت في « النضر بن الحارث » قتله رسول الله صبراً حين فرغ من وقعة بدر ، رُوي أنه ذهب إلى فارس تاجراً فاشترى كليلة ودمنة ، وأخبار رستم واسفنديار ، وأحاديث الأكاسرة ، فجعل يُحدِّث بها قريشاً في أنديتهم ، ويقول : إن محمداً يحدثكم بعاد وثمود ، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار ، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن ، فيكون الاشتراء على حقيقته بأن يشتري بماله كتباً فيها لهو الحديث وباطل الكلام ﴿ **لِيُضِلَّ** ﴾ الناس ويصرفهم ﴿ **عَنْ سَبِيلِ اللهِ** ﴾ أي دينه الحق الموصل إليه ، أو ليضلهم ويمنعهم بتلك الكتب المزخرفة عن قراءة كتابه الهادي إليه ، وإذا أضل غيره فقد ضلَّ هو أيضاً ﴿ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ أي حال كونه جاهلاً بحال ما يشتريه ويختاره ، أو بالتجارة حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن ﴿ **وَيَتَّخِذَهَا** ﴾ أي وليتخذها ﴿ **هُزُواً** ﴾ مهزوءاً بها ومستهزأة ﴿ **أُولَٰئِكَ** ﴾ الموصوفون بما ذكر من الاشتراء والإضلال ﴿ **لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ** ﴾ لإهانتهم الحق بإيثار الباطل عليه ، وترغيب الناس فيه ﴿ **وَإِذا تُتْلىٰ عَلَيْهِ** ﴾ أي على المشتري ، وهذا دليل على أن الآية نزلت في النضر بن الحارث ﴿ **آياتُنا** ﴾ أي آيات كتابنا ﴿ **وَلَّى** ﴾ أعرض غير معتدٍّ بها ﴿ **مُسْتَكْبِراً** ﴾ مبالغاً في التكبر، ودفع النفس عن الطاعة والإصغاء ﴿ **كَأَنْ لَمْ يَسْمعها** ﴾ أي مشابهاً حاله حال من لم يسمعها وهو سامع ، وفيه رمز إلى أن من سمعها لا يتصور منه التولية والاستكبار لما فيها من الأمور الموجبة للإقبال عليها والخضوع لها ﴿ **كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً** ﴾ أي مشابهاً حاله حال من في أذنيه ثقلٌ ، مانع من السماع ، والوقر الثقل الذي يُغيِّر إدراك المسموعات ﴿ **فَبَشِّرْهُ بِعذابٍ أليمٍ** ﴾ أي فأعلمه بأن العذاب المفرط في الإيلام، لاحقٌ به لا محالة ، وذكر البشارة للتهكم ، ثم ذكر أحوال أضدادهم بقوله ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمنُوا** ﴾ بآياتنا ﴿ **وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ** ﴾ وعملوا بموجبها ، والإيمان التصديق بالقلب ، وتحقيقه بالأعمال الصالحة ، ولذلك قرن الله بينهما ، وجعل الجنة مستحقة بها ﴿ **لَهُمْ** ﴾ بمقابلة إيمانهم وأعمالهم ﴿ **جَنَّاتُ النَّعِيمِ** ﴾ أي نعيم الجنات فعكس للمبالغة ، وقيل : جنات النعيم إحدى الجنات الثمان ، وهي دار الجلال ، ودار السلام ، ودار القرار ، وجنة عَدْنٍ ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، وجنة الفردوس ، وجنة النعيم ، كذا روى وهب بن منبه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **خَالِدِينَ فيها وَعْدَ اللهِ** ﴾ أي وعد الله جنات النعيم وعداً وعدهم بها ﴿ **حَقّاً** ﴾ أي

حق ذلك الوعد حقاً ، فهو تأكيد لقوله لهم جنات النعيم أيضاً ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ ﴾ الذي لا يغلبه شيء فيمنعه عن إنجاز وعده ، أو تحقيق وعيده ﴿ الحَكِيمُ ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

بحث نفيس في أحكام الغناء

ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بلهو الحديث في الآية المتقدمة الغناء ، فيكون المعنى من يشتري ذات لهو الحديث ، قال الإمام مالك : إذا اشترى جارية فوجدها مغنية فله أن يردها بهذا العيب ، قال في الفقه : ولا تقبل شهادة الرجل المغني للناس لاجتماع الناس في ارتكاب ذنب يسببه لنفه ، ومثل هذا لا يحترز عن الكذب ، وأما من تغنى لنفسه لدفع الوحشة وإزالة الحزن فتقبل شهادته ، إذ به لا تسقط العدالة ، وكذا لا تقبل شهادة المغنية سواء تغنت للناس أو لا إذ رَفْعُ صوتها حرام ، فبارتكابها محرماً حيث نهى النبي عليه السلام عن صوت المغنية سقطت عن درجة العدالة وفي الحديث (لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن ولا شراؤهن وثمنهنّ حرام[1]) وقد نهى عليه السلام عن ثمن الكلب وكسب الزمارة قال مكحول : من اشترى جارية ضرابة ليمسكها لغنائها وضربها مقيماً عليه حتى يموت لم أُصلِّ عليه ، إن الله يقول (وَمِنَ النَّاسِ) إلخ وفي الحديث (إن الله بعثني هدى ورحمة للعالمين ، وأمرني بمحو المعازف والمزامير والأوتار ، والصنج وأمر الجاهلية ، وحلف ربي بعزته لا يشرب عبد من عبيدي جرعة من خمر متعمداً إلا سقيته من الصديد مثلها يوم القيامة ، مغفوراً له أو معذباً ، ولا يتركها من مخافتي إلا سقيته من حياض القدس يوم القيامة) وفي الحديث (بعثت بكسر المزامير وقتل الخنازير) ، قال ابن الكمال : المراد بالمزامير آلات الغناء كلها تغليباً أي وإن كانت في الأصل أسماء لذوات النفخ كالبوق ونحوه مما ينفخ فيه ، والكسر ليس على حقيقته بدليل قرينه بل مبالغة في النهي وفي الحديث (من ملأ مسامعه من غناء لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيين يوم القيامة ، قيل : وما الروحانييون يارسول الله ؟ قال : قرّاء أهل الجنة)[2] أي من الملائكة ، والحور العين ونحوهم ، قال أهل المعاني : يدخل في الآية كل من اختار اللهو واللعب والمزامير والمعازف على القرآن ، وإن كان اللفظ يذكر في الاستبدال والاختيار كثيراً كما في الوسيط ، قال في النصاب : ويمنع أهل الذمة عن إظهار بيع المزامير والطنابير وإظهار الغناء وغير ذلك ، واعلم أنه لما كان القرآن أصدق الأحاديث وأملحها ، وسماعه والإصغاء إليه مما يستجلب الرحمة من الله ، استحب التغني به وهو تحسين الصوت وتطييبه لأن ذلك سبب للرقة وإثارة للخشية على ما ذهب إليه الإمام الأعظم رحمه الله كما في فتح القريب ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط ، فإن أفرط حتى زاد حرفاً أو أخفى حرفاً فهو

---

(١) أخرجه الطبراني والبيهقي وابن مردويه بلفظ (لا تبيعوا القينات ولا تشتروهنّ ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن ..) الحديث وانظر الدر المنثور ٥ / ١٥٩ .

(٢) أخرجه الحكيم عن أبي موسى مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٥٩ .

حرام وكذا لا خلاف في حرمة سماع الأوتار والمزامير وسائر الآلات ، لكن قال بعضهم : حرمة الآلات المطربة ليست لعينها كحرمة الخمر والزنا ، بل لغيرها ، ولذا استثنى العلماء من ذلك الطبل في الجهاد ، وطريق الحج ، فإذا استعملت باللهو واللعب كانت حراماً ، وإذا خرجت عن اللهو زالت الحرمة ، قال في العوارف : وأما الدف والشبابة ـ وإن كان في مذهب الشافعي فيهما فسحة ـ فالأولى تركهما والأخذ بالأحوط ، والخروج من الخلاف انتهى . خصوصاً إذا كان في الدف الجلاجل ونحوها فإنه مكروه بالاتفاق كما في البستان ، وإنما الاختلاف في سماع الأشعار بالألحان والنغمات ، فإن كانت في ذكر النساء ، وأوصاف أعضاء الإنسان من الخدود والقدود ، فلكونه مما يهيج النفس وشهوتها لا يليق بأهل الديانات الاجتماع لمثل ذلك ، خصوصاً إذا كان على طريقة اللهو والتغني بما يعتاده أهل الموسيقى ومحافل أهل الفساد ، وقد أدخل الموسيقى في الأشباه في العلوم المحرمة كالفلسفة ، والشعوذة ، والتنجيم ، والرمل ، وغيرها . ﴿ **خَلَقَ** ﴾ الله تعالى وأوجد ﴿ **السَّمواتِ** ﴾ السبع ، وكذا الكرسي والعرش ﴿ **بغيْرِ عَمَدٍ** ﴾ جمع عماد أي خلقها بغير دعائم وسواري على أن الجمع لتعدد السموات ﴿ **تَرَوْنَها** ﴾ استئناف جيء به للإستشهاد على ما ذكر من خلقه تعالى إياها غير معمودة بمشاهدتهم لها كذلك ، أو صفة لعمد أي خلقها بغير عمد مرئية ، واعلم أن وقوف السموات وثبات الأرض على هذا النظام من غير اختلال ، إنما هو بقدرة الله الملك المتعال ﴿ **وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَواسِيَ** ﴾ الإلقاءُ : طرح الشيء حيث تلقاه وتراه ، والرواسي : جمع راسية من رسا الشيء يرسو أي ثبت ، والمراد الجبال الثوابت لأنها ثبتت في الأرض ، وثبتت بها الأرض ، شبَّه الجبال الرواسي استحقاراً لها واستقلالاً لعددها ـ وإن كانت خلقاً عظيماً ـ بحصيات قبضهن قابضٌ بيده فنبذهن في الأرض ، وما هو إلا تصوير لعظمته وتمثيل لقدرته ، وإن كل فعل عظيم يتحيَّر فيه الأذهان فهو هيِّن عليه ، والمراد قال لها كوني فكانت ، فأصبحت الأرض ، وقد أرسيت بالجبال بعد أن كانت تمور موراً أي تضطرب فلم يدر أحدٌ ممَّ خلقت ﴿ **أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ** ﴾ الميدُ : اضطرابٌ الشيء العظيم كاضطراب الأرض والمعنى كراهة أن تميل بكم فإن بساطة أجزائها تقتضي تبدل أحيازها وأوضاعها .

﴿ **وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ** ﴾ من كل نوع من أنواعها مع كثرتها واختلاف أجناسها ﴿ **وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ** ﴾ من السحاب لأن السماء في اللغة ما علاك وأظلك ﴿ **مَاءً** ﴾ هو المطر ﴿ **فَأَنْبتنا فِيها** ﴾ في الأرض بسبب ذلك الماء ، والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد الاعتناء بأمرها ﴿ **مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** ﴾ من كل صنف كثير المنفعة ، واعلم ـ وفقنا الله جميعاً للتفكر في عجائب صنعه ، وغرائب قدرته ـ أن عقول العقلاء قاصرة متحيرة في أمر النباتات ، والأشجار ، وعجائبها وخواصها ، ومضارها ومنافعها ، وكيف لا وأنت تشاهد اختلاف أشكالها ، وتباين ألوانها ، وعجائب صور أوراقها وروائح أزهارها ، وكل لون من ألوانها ينقسم إلى أقسام ، كالحمرة مثلاً فورديٌّ وأرجواني وخمري ، وعنابي ،

وعقيقي ، ودموعي ، وغير ذلك مع اشتراك الكل في الحمرة ، ثم عجائب روائحها ومخالفة بعضها بعضا ، واشتراك الكل في طيب الرائحة وعجائب أشكال أثمارها وحبوبها وأوراقها ، ولكلٍّ لونٌ وريحٌ وطعم وورق وثمر وزهر ، وحب وخاصّية لا تشبه الأخرى ، ولا يعلم حقيقة الحكمة فيها إلا الله ، والذي يعرف الإنسان من ذلك بالنسبة إلى ما لا يعرفه كقطرة من بحر ﴿ **هَـذا** ﴾ الذي ذكر من السموات والأرض ، والجبال ، والحيوان ، والنبات ﴿ **خَلْقُ اللهِ** ﴾ مخلوقة ﴿ **فَأَرونِي** ﴾ أيها المشركون ﴿ **مَاذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ** ﴾ أي من دون الله تعالى ما اتخذتموهم شركاء له تعالى في العبادة ، حتى استحقوا مشاركته في العبودية ؟ ﴿ **بَلِ الظَّالِمونَ فِي ضَلالٍ مُبينٍ** ﴾ إضراب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الذي لا يخفى على ناظر ، أي في ذهاب عن الحق بين واضح ، واعلم أن التوحيد أفضل الفضائل ، كما أن الشرك أكبر الكبائر ، وللتوحيد نور كما أن للشرك ناراً وأن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين كما أن نار الشرك أحرق لحسنات المشركين ، ولكون التوحيد أفضل العبادات ، وذكر الله أقربُ القربات ، ولم يقيد بالزمان والأوقات ، بخلاف سائر الأعمال من الصيام ، والصلوات ، فالخلاص من الضلالة إنما هو بالهداية إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله الحميد ، فمن قال لا إله إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله أي في الآخرة فيما يخفيه من الإخلاص وغيره فإذا كان ما سوى الله تعالى لا يقدر على خلق شيء ، وإعطاء ثواب ، فلا معنى للقصد إليه بالعبادة ففروا إلى الله أيها المؤمنون لعلكم تنزلون منازل الأبرار ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ** ﴾ والجمهور على أنه كان حكيماً ، حكمة طب ، وحكمة حقيقة ، ومما يُؤثر عنه : إن كنت في الصلاة فاحفظ قلبك ، وإن كنت في الطعام فاحفظ حلقك ، وإن كنت في بيت الغير فاحفظ عينيك ، وإن كنت بين الناس فاحفظ لسانك ، واذكر اثنين وأنْسَ اثنين ، أما اللذان تذكرهما : فالله ، والموت ، وأما اللذان تنساهما : إحسانك في حق الغير ، وإساءة الغير في حقك ، ويؤيد كونه حكيماً كونه أسود اللون ، لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلاَّ حسن الشكل حسن الصوت ، قال بعض العلماء : لم يكن لقمان نبياً ، ولكن كان عبداً كثير التفكر ، حسن اليقين ، أحبَّ اللهَ فأحبه ، فمنّ عليه بالحكمة ، وهي إصابة الحق باللسان ، وإصابة الفكر بالجَنَان ، وإصابة الحركة بالأركان ، إن تكلم تكلَّم بحكمة ، وإن تفكَّر تفكر بحكمة ، وإن تحرك تحرك بحكمة ، كما قال الإمام الراغب : الحكمة إصابة الحق بالعلم والفعل ، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام ، ومن الإنسان معرفة الموجودات على ما هي عليه وفعل الخيرات ، وهذا هو الذي وصف به لقمان في هذه الآية .

« فصل في الحكمة »

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : من عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله لم يستحق أن يسمى حكيماً ، لأنه لم يعرف أجلَّ الأشياء وأفضلها ، والحكمة أجلُّ العلوم ، وجلالةُ العلم بقدر جلالةِ المعلوم ، ولا أجلَّ من الله ، ومن عرف الله فهو حكيم ، وإن كان ضعيف الفهم في سائر العلوم ، كليل اللسان ، قاصر البيان ، ومن عرف الله كان كلامه مخالفاً لكلام غيره ، فإنه لا يتعرض للمصالح العاجلة ، بل يتعرض لما ينفع في العاقبة ، ولما كانت الكلمات الكلية أظهر عند الناس من أحوال الحكيم من معرفته بالله ، ربما أطلق الناس اسم الحكمة على مثل تلك الكلمات الكلية ، ويقال للناطق بها حكيم ، وذلك مثل قولهم فيما اشتهر من كلام الأنبياء والحكماء : (الحكمة مخافة الله ، ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى ، كن ورعاً تكن أعبد الناس ، وكن تقياً تكن أشكر الناس ، البلاء موكّل بالمنطق ، السعيدُ من وُعِظَ بغيره ، القناعةُ مال لا ينفد ، اليقينُ الإيمان كله) فهذه الكلمات وأمثالها تسمى حكمة ، وصاحبها يسمى حكيماً فالحكمة موهبةٌ للحكماء ، وكما أن النبوة ليست كسبية ، بل هي فضل الله يؤتيه من يشاء ، فكذلك الحكمة ليست كسبية تحصل بمجرد كسب العبد ، دون تعليم الأنبياء إياه طريق تحصيلها ، بل بإيتاء الله تعالى ، كما علَّمنا النبي عليه السلام طريق تحصيلها بقوله (من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)[1] وكما أن القلب مهبط الوحي ، كذلك هو مهبط الحكمة كما قال تعالى (**يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوْتِيَ خَيْراً كَثِيراً**) فثبت أن الحكمة من المواهب لا من المكاسب ، لأنها من الأقوال لا من المقامات ، والمعقولاتُ التي سمّاها الحكماء حكمة ليست بحكمة ، فإنها من نتائج الفكر السليم من شوب آفة الوهم والخيال ، وذلك يكون للمؤمن والكافر ، وقلَّما يسلم من الشوائب ، ولهذا وقع الاختلاف في أدلتهم وعقائدهم ، وفي عرائس البيان : الحكمة ثلاثٌ : حكمة القرآن وهي حقائقه ، وحكمة الإيمان وهي المعرفة ، وحكمة البرهان وهي إدراك لطائف صنع الحق في الأفعال ، وقال بعضهم : ثلاث من علامات الحكمة : إنزال النفس من الناس منزلتها ، وإنزال الناس من النفس منزلتهم ، ووعظهم على قدر عقولهم ، وقال الحسين بن منصور : الحكمة سهامٌ ، وقلوبُ المؤمنين أهدافها ، وقيل : الحكمة هي النور الفارق بين الإلهام والوسواس ، ويتولد هذا النور في القلب من الفكرة والعبرة ، وهما ميراث الحزن والجوع وقال حكيم : قوت الأجساد المشارب والمطاعم ، وقوت العقل الحكمة والعلم ، وأفضل ما أوتي العبد في الدنيا الحكمة ، وفي الآخرة الرحمة ، والحكمة للأخلاق كالطب للأجساد ، وعن علي رضي الله عنه : روّحوا هذه القلوب ، واطلبوا لها طرائف الحكمة ، فإنها تملُّ كما تملُّ الأبدان ، قال عيسى عليه السلام : أين تنبت

(١) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية ورَزين ، وهو عند أحمد في الزهد مرسلٌ وليس بمرفوع ، والحديثُ فيه ضعف ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٥٥٧ .

الحبة ؟ قالوا في الأرض ، فقال : كذلك الحكمة لا تنبت إلا في قلب مثل الأرض ، وهي موضع نبع الماء . ولما كانت الحكمة من إنعام الله تعالى على لقمان طالبه بشكره بقوله ﴿ **أَنِ اشْكُرْ للهِ** ﴾ أي قلنا له اشكر لله على نعمة الحكمة إذْ آتاك الله إياها ﴿ **وَمنْ يَشْكُرْ** ﴾ له تعالى على نعمه ﴿ **فَإِنَّمَا يشْكُرُ لِنفْسِهِ** ﴾ لأن منفعته التي هي دوام النعمة واستحقاق مزيدها عائدة إليها ﴿ **وَمنْ كَفَر** ﴾ نعمة ربه فعليه وبال كفره ﴿ **فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ** ﴾ عنه وعن شكره ﴿ **حَمِيدٌ** ﴾ محمود في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، سواء حمده العباد وشكروه أم كفروه ﴿ **وَإِذْ قَالَ لُقْمانُ** ﴾ واذكر يا محمد لقومك وقت قول لقمان ﴿ **لابْنِهِ وَهُوَ** ﴾ أي والحالُ أن لقمان ﴿ **يَعِظُهُ** ﴾ أي يَعِظُ الابن، والوعظُ: هو التذكير بالخير فيما يرقُّ له القلب ، والاسم العظة والموعظة ﴿ **يا بُنَيَّ** ﴾ بالتصغير ، وهو تصغير رحمة وعطوفة ، ولهذا أوصاه بما فيه سعادته إذا عمل بذلك ﴿ **لا تُشْرِكْ بِاللهِ** ﴾ لا تعدل بالله شيئاً في العبادة ﴿ **إِنَّ الشِرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا منه ، ومن لا ينفع بشيء ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوالِدَيْهِ** ﴾ اعتراض في أثناء وصية لقمان ، تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك ، يقال : وصَّيْتُ زيداً بعمرو ، أمرته بتعهده ومراعاته ، ثم رجَّح الأم ونبَّه على عظم حق والديه فقال ﴿ **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً** ﴾ أي ذات وهن ، والوهنُ : الضعفُ من حيث الخَلْق والخُلُق ﴿ **عَلى وَهْنٍ** ﴾ أي ضعفاً كائناً على ضعف ، فإنه كلما عظم ما في بطنها ، زادها ضعفاً إلى أن تضع ﴿ **وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ** ﴾ الفصال التفريق بين الصبي والرضاع أي فطام الإنسان من اللبن يقع في تمام عامين من وقت الولادة وهي مدة الرضاع عند الشافعي ، فلا يثبت حرمة الرضاع بعدها فالارضاع عنده واجب إلى الاستغناء ، ويستحب إلى الحولين وجائز إلى حولين ونصف ﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوالِدَيْكَ** ﴾ تفسير لوصيناه ، أي قلنا له اشكر لي ، أو علة له أي لأن يشكر لي ، وما بينهما اعتراض مؤكد للوصية في حقها خاصة ، ولذلك قال عليه السلام لمن قال له من أبرُّ ؟ قال (أمك ثم أمك ثم أمك) ثم قال بعد ذلك (ثم أباك) والمعنى اشكر لي حيث أوجدتك وهديتك بالإسلام ، واشكر لوالديك حيث ربياك صغيراً ، وشكرُ الحق بالتعظيم والتكبير ، وشكرُ الوالدين بالإشفاق والتوقير ، وفي شرح الحكم : قَرَن شكرهما بشكره إذ هما أصل وجودك المجازي ، كما أن أصل وجودك الحقيقي فضله وكرمه ، فله حقيقة الشكر كما له حقيقة النعمة ، ولغيره مجازه كما لغيره مجازها وفي الحديث (لا يَشْكُرُ اللهَ من لا يَشْكرِ الناس)[1] ﴿ **إِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ تعليل لوجوب الامتثال بالأمر ، أي إليَّ الرجوع لا إلى غيري ، فأجازيك على شكرك وكفرك ، قال سفيان بن عيينة : من صلَّى الصلوات الخمس فقد شكر الله ، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر والديه ﴿ **وَإِنْ جَاهَدَاكَ** ﴾ المجاهدة استفرغ الجهد أي الوسع في مدافعة العدو ، والمعنى : وقلنا للإنسان إن اجتهد أبواك وحملاك ﴿ **عَلى أَنْ**

---

(١) الحديث أخرجه أحمد وأبو داود وابن حبان ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٣٦٤ .

﴿ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لكَ بِهِ ﴾ أي بشركته تعالى في استحقاق العبادة ﴿ عِلْمٌ فلا تُطِعْهُما ﴾ في الشرك يعني أن خدمة الوالدين وإن كانت عظيمة ، فلا يجوز للولد أن يطيعهما في المعصية ﴿ وَصاحِبْهُما في الدُّنْيا ﴾ صحاباً ﴿ مَعْروفاً ﴾ ومعاشرة جميلة يرتضيها الشرع ، ويقتضيها الكرم ، فيجب على المسلم نفقة الوالدين ولو كانا كافرين ، وبرهما وخدمتهما وزيارتهما ، إلا أن يخاف أن يجلباه إلى الكفر ، وحينئذ يجوز أن لا يزورهما ، ولا يقودهما إلى الكنيسة لأنها معصية ، ويقودهما منها إلى المنزل ﴿ وَاتَّبِعْ ﴾ في الدين ﴿ سَبِيلَ مَنْ أنابَ إلَيَّ ﴾ رجع بالتوحيد والإخلاص في الطاعة ، وهم المؤمنون الكاملون ﴿ ثُمَّ إلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ مرجعك ومرجعها ﴿ فأُنَبِّئُكُمْ ﴾ عند رجوعكم ﴿ بما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ ﴾ بأن أجازي كلاً منكم بما صدر عنه من الخير والشر ، ونزلت الآية في « سعد بن أبي وقاص » رضي الله عنه من العشرة المبشرة ، حين أسلم وحلفت أمه أن لا تأكل ولا تشرب حتى يرجع عن دينه ، واعلم أن أهم الواجبات بعد التوحيد برُّ الوالدين ، حكي أن رجلاً قال لعمر رضي الله عنه إن أمي هرمت فأطعمها بيدي ، وأسقيها وأوضئها ، فهل جازيتها حقها ؟ قال : لا ، قال : ولم ؟ قال : لأنها خدمتك في وقت ضعفك مريدة حياتك ، وأنت تخدمها مريداً مماتها » وعن عطاء بن يسار أن قوماً سافروا فنزلوا برّيَّة فسمعوا نهيق حمار حتى أسهرهم، فلما أصبحوا نظروا فرأوا بيتاً من شعر فيه عجوز، فقالوا: سمعنا نهيق حمار فقالت ذاك ابني ، كان يقول لي يا حمارة ، فدعوت الله أن يصيِّره حماراً فذاك هو ينهق كل ليلة حتى الصباح ، ثم إن الآية قد تضمنت النهي عن صحبة الكفار والفساق ، والترغيب في صحبة الصالحين ، فإن المقارنة مؤثرة ، والطبع جذاب ، والأمراض سارية ، حتى لا تسري أخلاقهم الخبيثة وسيرهم القبيحة بحكم المقارنة ، قال إبراهيم الخواص : دواء القلب خمسة : قراءة القرآن بالتدبر ، وإخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع إلى الله تعالى عند السحر ، ومجالسة الصالحين .

﴿ يا بُنَيَّ ﴾ شروع في حكاية بقية وصايا لقمان ، إثر تقرير ما في مطلعها من النهي عن الشرك ﴿ إنَّها ﴾ أي الخصلة من الإساءة أو الإحسان ، قال مقاتل : إن ابن لقمان قال لأبيه يا أبتاه : إن عملتُ الخطيئة حيث لا يراني أحد ، كيف يعلمها الله ؟ فرد عليه لقمان فقال : يابني إنها أي الخطيئة ﴿ إنْ تَكُ ﴾ أصله تكون ﴿ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ﴾ المثقال ما يوزن به من الثقل ، يقال : مثقال الشيء ما يساويه في الوزن ، والمعنى مقدار ما هو أصغر المقادير التي توزن بها الأشياء ، من جنس الخردل الذي هو أصغر الحبوب المقتاتة ﴿ فَتَكُنْ ﴾ أي مع كونها في أقصى غايات الصغر ﴿ في صَخْرَةٍ ﴾ أي في أخفى مكان وأحرزه كجوف صخرة ما ﴿ أو في السَّمواتِ ﴾ مع بُعْدِهَا ﴿ أو في الأرْضِ ﴾ مع طولها وعرضها ، وفي بعض التفاسير : في العالم السفلي كقعر الأرض ﴿ يأتِ بها اللهُ ﴾ أي يحضرها فيحاسب عليها، لأنه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرَّةٍ شراً يره ﴿إنَّ اللهَ ﴾ وهذا من

قول لقمان ﴿ لَطِيفٌ ﴾ يصل علمه إلى كل خفيٍّ، وأحد معاني اللطيف هو العالم بخفيات الأمور ، ومن عرف أنه العالم بالخفيات يحذر أن يطّلع عليه فيما هو فيه ﴿ خَبِيرٌ ﴾ عالم بكنهه والخبير هو العليم بدقائق الأمور، ومن عرف أنه الخبير ترك الرياء والتصنع لغيره، وبالإخلاص له، فالله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿ يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ ﴾ التي هي أكمل العبادات تكميلاً لنفسك من حيث العمل ، بعد تكميلها من حيث العلم والاعتقادات ، أي أدمها وإدامتها في أن تنتهي عن الفحشاء والمنكر ، فإن الله وصف الصلاة بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فمن كان منتهياً عنهما فإنه في الصلاة ، وإن لم يكن على هيئتها ، ومن لم يكن منتهياً عنهما فليس في الصلاة وإن كان مؤدياً هيئتها ، والصوم والرياضات لإصلاح الطبيعة وتحسين الأخلاق ، وأما الصلاة فلإصلاح النفس التي هي مأوى كل شر ، ومعدن كل هوى ، وما عُبِدَ إلهٌ أبغض إلى الله من الهوى ﴿ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ ﴾ بالمستَحْسن شرعاً وعقلاً ، وحقيقته ما يوصل العبد إلى الله ﴿ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ أي عن المستقبح شرعاً وعقلاً ، وحقيقته ما يشغل العبد عن الله ﴿ واصْبِرْ ﴾ الصبرُ: حبسُ النفس عما ينهى عنه الشرع ، والكفُّ عنه ﴿ على ما أَصَابَكَ ﴾ من الشدائد والمحن ، كالأمراض والفقر ، والهمِّ والغمِّ، لاسيما عند التصدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، من أذى الذين تأمرهم بالمعروف وتبعثهم على الخير ، وتنهاهم وتزجرهم عن الشر ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ المذكور من الوصايا وهو الأمر والنهي والصبر ﴿ مِنْ عَزْمِ الأُمورِ ﴾ العزم والعزيمة عقد القلب على إمضاء الأمر ، وعزم الأمور ما لا يشوبه شبهة ولا يدافعه ريبة وفي دعائه عليه السلام (اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك) أي أسألك أن توفقني للأعمال التي تغفر لصاحبها لا محالة ، والمعنى من معزومات الأمور ومقطوعاتها ومفروضاتها، بمعنى مما عزمه الله أي قطعه قطع إيجاب وأمر به العباد أمراً حتماً ، وفي هذا دليل على أهمية هذه الطاعات ، والحث عليها في شريعة من تقدَّمنا ، وبيان لهذه الأمة أن من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ينبغي أن يكون صابراً على ما يصيبه في ذلك ، إن كان أمره ونهيه لوجه الله ، لأنه قد أصابه ذلك في ذات الله وشأنه ﴿ ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاسِ ﴾ التصعر التواء وميل في العنق ، ومن خلقة أو داء ، أو من كبر، والتصعيرُ إمالته عن النظر كِبْراً، والمعنى أقبل على الناس بجملة وجهك تواضعاً ، ولا تحوِّل وجهك عنهم ، ولا تغطِّ شق وجهك وصفحته ، كما يفعله المتكبرون استحقاراً للناس ، خصوصاً الفقراء ، وليكن الغنيُّ والفقير عندك على السوية في حسن المعاملة ﴿ ولا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ﴾ المرح أشد الفرح كالأشر والبطر ، أي حال كونك ذا فرح شديد ، ونشاطٍ وعُجْبٍ وخفة ، ﴿ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ﴾ الاختيال والخيلاءُ : التكبرُ عن تخيّل فضيلة ، أي لا يرضى عن المتكبر المتبختر في مشيته ، بل يسخط عليه ﴿ فَخُورٍ ﴾ الفخر المباهاة في الأشياء كالمال والجاهِ ، والفخور الذي يعدد مناقبه تطاولاً بها ، واحتقاراً لمن عدم مثلها ، وفي الحديث (بينما رجل يتبختر في

الجاهلية عليه حلة ، فأمر الله الأرض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة)[1] .

قال بعض الحكماء : إن افتخرت بفرسك فالحسن والفراهة له دونك ، وإن افتخرت بثيابك وآلاتك فالجمال لها دونك ، وإن افتخرت بآبائك فالفضل فيهم لا فيك ، ولو تكلمت هذه الأشياء لقالت : هذه محاسننا ، فمالك من الحسن شيء ، فإن افتخرت فافتخر بمعنى فيك غير خارجٍ عنك ، وإذا أعجبك من الدنيا شيءٌ، فاذكر فناءك وبقاءه ، أوفناءَكُما جميعاً، فإذا راقك ما هو لك ، فانظر إلى قرب خروجه من يدك ، وبعد رجوعه إليك ، وطول حسابه عليك ، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر ، حكي أنه حُمل إلى بعض الملوك قدحٌ من فيروزج مرصع بالجواهر ، لم ير له نظير ، ففرح به الملك فرحاً شديداً ، فقال لمن عنده من الحكماء : كيف ترى هذا ؟ فقال : أراه فقراً حاضراً ومصيبةً عاجلة ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : إن انكسر كانت مصيبة لا جبرلها ، وإن سرق صرت فقيراً إليه ، وقد كنت قبل أن يُحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر ، فاتفق أنه انكسر القدح يوماً ، فعظمت المصيبة على الملك ، وقال : صدق الحكيم ، ليته لم يُحْمل إلينا ! وأنشد بعض الشعراء :

إنَّما الـــدُّنيَـــا كرُؤيَـــا فَرَّحَتْ * مَنْ رَآهَـــا سَـــاعَـــةً ثُمَّ انْقَضَتْ

﴿ **وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ** ﴾ القصدُ : ضدُّ الإفراط والتفريط ، والمعنى : واعدل في المشي أي توسَّط بين الدبيب والإسراع ، فلا تمش كمشي الزهاد المظهرين الضعف فكأنهم أموات ، وهم المراؤون الذين ضلَّ سعيهم ، ولا كمشي الشُطَّار ووثوبهم ، وعليك بالسكينة والوقار وفي الأثر (سرعةُ المشي تُذْهِبُ بهاءَ المؤمن) ﴿ **وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ** ﴾ يقال : غضَّ صوته إذا خفضه والمعنى : وانقص من صوتك واخفض في محل الخطاب والكلام ، خصوصاً عند الدعاء والمناجاة ، وكذلك وصية الله في الإنجيل لعيسى بن مريم :« مُرْ عبادي إذا دعوني يخفضوا أصواتهم ، فإني أسمع وأعلم مافي قلوبهم » واستُثنيَ منه الجهر لإرهاب العدو ونحوه ، وفي الخلاصة : لا يجهر الإمام فوق حاجة الناس ، وإلا فهو مسيء ، والفرق بين الكراهة والإساءة ، هو أن الكراهة أفحش من الإساءة ، ولا بأس برفع المؤذنين أصواتهم لتبليغ التكبير ، لمن بَعُد عن الإمام من المقتدين ، لما فيه من النفع ، بخلاف ما إذا بلغهم صوت الإمام ، فإن التبليغ حينئذ بدعة منكرة باتفاق الأئمة الأربعة ، ومعنى منكرة مكروهة ، وقد جمع النووي بين الأحاديث الواردة في استحباب الجهر بالذكر ، والواردة في استحباب الإسرار به ، بأن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء ، أو تأذى المصلون أو النائمون ، والجهر أفضل في غير ذلك ، لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين ، ولأنه يوقظ قلب الذاكر ، ويجمع همة الفكر ، ويشنف سمعه ، ويطرد النوم ، ويزيد في

(١) أخرجه أحمد والشيخان بلفظ (بينما رجل يمشي في حلة، تعجبه نفسه، إذْ خسف الله به الأرض..) الحديث وانظر الفتح الكبير ١٨/٢.

النشاط ، وكان عليه السلام إذا سلم من صلاته قال بصوته الأعلى (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملكُ وله الحمدُ ، وهو على كل شيء قدير) ، ومن اللطائف أن الحجاج سأل بعض جلسائه عن أرقّ الصوت عندهم، فقال أحدهم: ما سمعت صوتاً أرقّ من صوت قاريء حسن الصوت يقرأ كتاب الله في جوف الليل ؟ قال : إن ذلك لحسن ، وقال آخر : ما سمعتُ صوتاً أعجب من أن أترك امرأتي ماخضاًوأتوجه إلى المسجدمبكّراً ، فيأتيني آت فيبشرني بغلام ، فقال واحسناه ، فقال شعبة التميي : لا والله ما سمعتُ قط أعجب إليَّ من أن أكون جائعاً فأسمع خفخفة الخوان ، فقال الحجاج : أبيتم يا بني تميم إلا حبَّ الزاد والطعام ﴿ **إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ** ﴾ أوحشها وأقبحها الذي ينكره العقل الصحيح ، ويحكم بقبحه ﴿ **لَصَوْتُ الحَمِيرِ** ﴾ جمع حمار قال أبو الليث : صوت الحمار كان هو المعروف عند العرب وسائر الناس بالقبح ، وقد يكون ما سواه أقبح منه في بعض الحيوان ، وإنما ضرب الله المثل بما هو معروف عند الناس بالقبح ، لأن أوله زفير ، وآخره شهيق ، كصوت أهل النار ، يتوحش من يسمعه ويتنفر منه كل التنفر ، والمعنى إن أنكر أصوات الناس حين يصوّتون ويتكلمون ، لصوتُ من يصوّت صوت الحمار ، أي يرفع صوته عند التصويت كما يرفع الحمار صوته ، ففيه تشبيه الرافعين أصواتهم فوق الحاجة بالحمير ، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، ثم إخلاء الكلام عن لفظ التشبيه ، وإخراجه مخرج الاستعارة ، وجعلهم حميراً وأصواتهم نهاقاً ، مبالغةً شديدة في الذم والزجر عن رفع الصوت فوق الحاجة ، وتنبيه على أنه من المكاره عند الله لا من المحابِّ ، قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى : صوتُ كل شيء تسبيحٌ ، إلا صوت الحمير ، فإنها تصيح لرؤية الشيطان ، ولذلك سماه منكراً وفي الحديث (إذا سمعتم نهاق الحمير فتعوّذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً ، وإذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً)[1] وفي الحديث دلالة على نزول الرحمة عند حضور أهل الصلاح فيستحب الدعاء في ذلك الوقت ، وعلى نزول الغضب عند أهل المعصية ، فيستحب التعوذ كما في شرح المشارق لابن الملك ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا** ﴾ ألم تعلموا يا بني آدم ﴿ **أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ** ﴾ التسخير سياقة الشيء إلى الغرض المختص به قهراً ﴿ **ما في السَّمواتِ** ﴾ من الكواكب السيارة ، مثل الشمس والقمر وغيرهما ، والملائكة المقربين بأن جعلها أسباباً محصلة لمنفعتكم ومراداتكم ، فتسخير الكواكب بأن الله تعالى سيَّرها في البروج على الأفلاك التي دبر لكل واحد منها فلكاً ، وقدَّر لها الاتصالات وجعلها مدبرات العالم السفلي من الزماني ، مثل الشتاء ، والصيف ، والخريف ، والربيع ، ومن المكاني مثل المعدن والنبات والحيوان والإنسان ، وظهور الأحوال المختلفة بحسب سير الكواكب على الدوام لمصالح الإنسان ومنافعهم منها ، وتسخير الملائكة بأن الله تعالى من كمال قدرته وحكمته جعل كل صنف من الملائكة موكلين على نوع من المدبرات وعوناً لها ، كالملائكة الموكلين على الشمس والقمر والنجوم

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي ، وانظر الفتح الكبير ١ / ١٢١ .

وأفلاكها ، والموكلين على السحاب والمطر ، والملائكة الكُتَّاب للناس الموكلين عليهم ، ومنهم المعقِّبات من بين أيديهم ومن خلفهم ، ويحفظونهم من أمر الله ، حتى جعل على الأرحام ملائكة فإذا وقعت نطفة الرجل في الرحم يأخذها الملك بيده اليمنى ، وإذا وقعت نطفة المرأة يأخذها الملك بيده اليسرى فإذا أمر بمشجها يمشج النطفتين وذلك قوله تعالى (**إنَّا خلقْنَا الإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أمْشَاجٍ**) والملائكة الموكلين على الجنة والنار كلهم مسخرون لمنافع الإنسان ومصالحهم ، حتى الجنة والنار مسخرتان لهم تطميعاً وتخويفاً لأنهم يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴿ **وما في الأرْضِ** ﴾ من الجبال ، والصحاري ، والبحار ، والأنهار والحيوانات ، والنباتات ، والمعادن ، بأن مكّنكم من الانتفاع بها بواسطة أو بغير واسطة ﴿ **وأسْبَغَ عَليْكُمْ** ﴾ أتمَّ وأكمل ﴿ **نِعَمَهُ** ﴾ جمع نعمة ، وهي في الأصل الحالة الطيبة التي يستلذها الإنسان ، فأطلقت للأمور اللذيذة الملائمة للطبع ، المؤدية إلى تلك الحالة الطيبة ﴿ **ظاهِرةً** ﴾ أي حال كون تلك النعم محسوسة مشاهدة ، مثل حسن الصورة ، وامتداد القامة ، وكمال الأعضاء ، والحواس الظاهرة من السمع والبصر ، والشم والذوق ، واللمس والنطق ، وذكر اللسان والرزق والمال ، والجاه والخدم ، والأولاد ، والصحة والعافية والأمن ورفع الذِكر ﴿ **وَباطِنَةً** ﴾ أي معقولة غير مشاهدة بالحسِّ ، كنفخ الروح في البدن ، وإشراقه بالعقل ، والفهم ، وتزكية النفس عن الرذائل ، وتحلية القلب بالفضائل ، ولذا ورد (اللهم كما حسَّنتَ خَلْقي فحسِّنْ خُلُقي) ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ** ﴾ أي وبعض الناس ﴿ **مَنْ يُجادِلُ** ﴾ ويخاصم، يقال : جدلت الحبل إذا أحكمت فتله ، ومنه الجدال، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد منهما الآخر عن رأيه ﴿ **في اللهِ** ﴾ في توحيده وصفاته ويميل إلى الشرك ، حيث يزعم أن الملائكة بنات الله ، وأن الأوثان شركاء الله .

﴿ **بغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ مستفاد من دليل ﴿ **ولا هُدىً** ﴾ من جهة الرسول ﴿ **ولا كِتابٍ** ﴾ أنزله الله تعالى ﴿ **مُنيرٍ** ﴾ مضيء له بالحجة ، بل يجادل بمجرد التقليد كما قال ﴿ **وَإذا قيلَ لَهُمْ** ﴾ أي لمن يجادل والجمع باعتبار المعنى ﴿ **اتَّبِعُوا ما أنْزَلَ اللهُ** ﴾ على نبيه من القرآن الواضح والنور البين فآمنوا به ﴿ **قَالُوا بلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَليْهِ آباءَنا** ﴾ الماضين يريدون به عبادة الأصنام ، يقول الله تعالى في جوابهم ﴿ **أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ** ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب من التعلق بشبهة هي في غاية البعد من مقتضى العقل ، والمعنى أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم بما هم عليه من الشرك ؟ ﴿ **إلىٰ عَذابِ السَّعِيرِ** ﴾ فهم مجيبون إليه حسبما يدعوهم ، والسَّعَرُ التهاب النار ، وعذاب السعير أي الحميم ﴿ **وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى اللهِ** ﴾ ومن يسلم نفسه إلى الله تسليم المتاع للعامل، بأن فوَّض أمره إليه، وأقبل بكليته عليه ﴿ **وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾ والحال أنه محسن في عمله ، آت به على الوجه اللائق الذي هو حسنه الوصفيُّ المستلزم لحسنه الذاتي ، لذا فسر النبي عليه السلام الإحسان بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن

تراه فإنه يراك ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ إمساك الشيء التعلق به وحفظه ، والعروة بالضم ما يعلق به الشيء ، والوثقى الموثقة المحكمة ، والمعنى : فقد تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب وأقواه ، وهو تمثيل الحال المتوكل المشتغل بالطاعة ، بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل ، فتمسَّك بأوثق عرى الحبل المتدلي منه ، بحيث لا يخاف انقطاعه ﴿ وَإِلَى اللهِ ﴾ لا إلى أحد غيره ﴿ عَاقِبَةُ الأُمورِ ﴾ عاقبة أمر المتوكل ، وأمر غيره فيجازيه أحسن الجزاء ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ﴾ فإنه لا يضرك في الدنيا والآخرة ﴿ إِلَيْنَا ﴾ لا إلى غيرنا ﴿ مَرْجِعُهُمْ ﴾ رجوعهم ، ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى حيث لا حاكم ولا مالك سواه ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلوا ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي بالعذاب والعقاب ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدورِ ﴾ أي الضمائر والنيات المصاحبة بالصدر ، فيجازي عليها كما يجازي على الأعمال الظاهرة ﴿ نُمَتِّعُهُمْ ﴾ أي الكافرين بمنافع الدنيا ﴿ قَلِيلاً ﴾ تمتيعاً قليلاً أو زماناً قليلاً ، فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ أي نلجئهم ونردهم في الآخرة قهراً ﴿ إِلَى عَذابٍ غَلِيظٍ ﴾ يثقل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ ، والغليظ ضد الرقيق ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ أي الكافرين ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ ﴾ أي الأجرام العلوية ، والسفلية ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ خلقهن ﴿ اللهُ ﴾ لغاية وضوح الأمر ، بحيث اضطروا إلى الاعتراف به ﴿ قُلِ الحمدُ للهِ ﴾ على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون أيضاً ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمونَ ﴾ شيئاً من الأشياء ، فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم بأن يتركوا الشرك ويعبدوا الله وحده ﴿ لله ما في السَّمواتِ والأَرْضِ ﴾ فلا يستحق العبادة فيهما غيره ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الغَنِيُّ ﴾ بذاته وصفاته قبل خلق السموات والأرض وبعده ، لا حاجة به في وجوده وكماله الذاتي إلى شيء أصلاً ، وكلمة هو للحصر أي هو الغني وحده وليس معه غني آخر ، دليله قوله (وَاللهُ الغَنِيُّ وأنتُمُ الفُقَراءُ) ﴿ الحميدُ ﴾ المحمود في ذاته ، وصفاته ، وإن لم يكن له حامد فهو الحامد لنفسه، وفي الآيات أمور: منها أن التفويض والتوكّل، وإخلاص القصد، والإعراض عما سوى الله، والإقبال على الله بالتوحيد والطاعة، من موجبات حسن العاقبة، وهي الجنة والقربة والوصلة، كما أن الكفر والشرك والرياء والسمعة ، من أسباب سوء العاقبة وهي النار ، والعذاب الغليظ ، والفرقة والقطيعة فالتمسك بأحكام الدين هي العروة الوثقى لأهل اليقين ، فإنها لا تنفصم ، بخلاف سائر العُرى ، ومنها أن ليس لعمر الدنيا بقاء ، بل هي ساعة من الساعات ، فعلى العاقل أن لا يغتر بالتمتع القليل بل يتأهب لليوم الطويل ، ومنها أن الله تعالى قدر المقادير ودبَّر الأمور ، فالكل يجري في الأفعال والأحوال على قضائه وقدره ، وليس على الناصح إلا التبليغ دون الجبر ، فإن الحجر لا يصير مرآة بالصَّقْل ، ومنها أن الله تعالى خلق الخلق ليربحوا عليه ، لا ليربح عليهم ، فمنفعة الطاعات والعبادات راجعة إلى العباد لا إلى الله تعالى ، إذ هو غني عن العالمين ، لا ينتفع بطاعاتهم ، ولا يتضرر بمعاصيهم ، فهو يمتنّ عليهم أن

هداهم للإيمان والطاعات ، وليس لهم أن يمنوا عليه بإسلامهم ، جعلنا الله وإياكم من عباده المخلصين ، وحفظنا في حصنه الحصين ﴿ وَلَوْ أَنَّ ما في الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ جواب لليهود حين سألوا رسول الله ﷺ أو أمروا وفد قريش أن يسألوه عن قوله (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) وقد أنزل التوراة وفيها علمُ كل شيء ، يعني أن علم التوراة وسائر ما أوتي الإنسان من الحكمة والمعرفة ، وإن كان كثيراً بالنسبة إليهم ، لكنه قطرة من بحر علم الله ، وقال قتادة : قال المشركون إن القرآن يوشك أن ينفد وينقطع فنزلت ، وقوله « من شجرة » وهي ماله ساق ، وتوحيدها لما أن المراد تفصيل الآحاد يعني أن كل فرد من جنس الشجر بحيث لا يبقى منه شيء لو بُري قلماً ، والمعنى لو ثبت أن الأشجار أقلام ﴿ وَالْبَحْرُ ﴾ أي والحال أن البحر المحيط بسعته وهو البحر الأعظم ﴿ يَمُدُّهُ ﴾ أي يزيده وينصبُّ فيه ، من مدَّ الدواة ، جعلها ذات مداد ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد نفاذه وفنائه ﴿ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ نحو بحر الصين ، وبحر الهند ، وبحر السند ، وبحر فارس وغيرها من البحار ، ﴿ ما نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ ﴾ أي ما فنيت متعلقات علمه وحكمته ، ونفذت تلك الأقلام والمداد ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يعجزه شيء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر ، فلا تنفد كلماته المؤسسة عليها ﴿ ما خَلْقُكُمْ ﴾ قال مقاتل وقتادة : إن كفار قريش قالوا : إن الله خلقنا أطواراً (نطفة ، فعلقة ، فمضغة ، فلحماً) ، فكيف يبعثنا خلقاً جديداً في ساعة واحدة ؟ فأنزل الله هذه الآية ، وقال : ما خلقكم أيها الناس مع كثرتكم ﴿ ولا بَعْثُكُمْ ﴾ إحياؤكم وإخراجكم من القبور ﴿ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إلا كخلقها وبعثها في سهولة الحصول ، إذ لا يشغله شأن عن شأن ، لأنه يكفي لوجود الكل تعلق إرادته وقدرته ، قَلُّوا أو كثروا أن يقول : كن فيكون ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ يسمع كل مسموع ﴿ بَصِيرٌ ﴾ يبصر كل مبصر ، لا يشغله علم بعضها عن بعض ، فكذلك الخلق والبعث ، وقال بعضهم : بصير بأحوال الأحياء والأموات ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تعلم يامن يصلح للخطاب ، علماً قوياً جارياً مجرى الرؤية ﴿ أَنَّ اللهَ ﴾ بقدرته وحكمته ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ الولوج الدخول في مضيق ، والإيلاج الادخال أي يُدخل الليل في النهار ويضيفه إليه ، بأن يزيد من ساعات الليل في ساعات النهار صيفاً، بحسب مطالع الشمس ومغاربها ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي يدخله فيه ويضم بعض أجزائه إليه ، بأن يزيد من ساعات النهار في ساعاتِ الليل، شتاء بحسب المطالع والمغارب ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ﴾ تسخير الشمس والقمر أمرٌ لاتعدد فيه ولا تجدد ، وإنما التعدد والتجدد في آثاره، وقد أشير إلى ذلك حيث قيل ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿ يَجْرِي﴾ بحسب حركته الخاصة القسرية على المدارات اليومية المتخالفة المتعددة حسب تعدد الأيام جرياً مستمراً ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قدَّره الله تعالى لجريها وهو يوم القيامة ، كما رُوي عن الحسن ، فإنها لا ينقطع جريها إلا حينئذ ، هذا وقد جعل جريانها عبارة عن حركتها الخاصة بها في فلكها ، والأجل المسمى عن منتهى

دورتها ، وجعل مدة الجريان للشمس سنة ، وللقمر شهراً ، فالجملة حينئذ بيان لحكم تسخيرها وتنبيه على كيفية إيلاج أحد الملوك في الآخر ، وكون ذلك بحسب انقلاب جريان الشمس والقمر على مداراتها اليومية ﴿ **وَأَنَّ اللهَ بِما تَعْمَلونَ خَبيرٌ** ﴾ عالم بكنهه فإن من شاهد ذلك الصنع الرائق ، والتدبير اللائق ، لا يكاد يغفل عن كون صانعه محيطاً بجلائل أعماله ودقائقها ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ المذكور من سعة العلم ، وشمول القدرة ، وعجائب الصنع ، واختصاص الباري بها ﴿ **بِأَنَّ اللهَ** ﴾ أي بسبب أن الله تعالى ﴿ **هُوَ الحَقُّ** ﴾ إلهيته فقط لاما يزعمون ﴿ **وأَنَّ ما يَدْعُونَ** ﴾ يعبدون ﴿ **مِنْ دُونِهِ** ﴾ تعالى من الأصنام ﴿ **الباطِلُ** ﴾ فليس في عبادته نفع أصلاً ﴿ **وأَنَّ اللهَ هُوَ العليُّ** ﴾ المرتفع عن كل شيء ﴿ **الكبيرُ** ﴾ المتسلط عليه يُحْتَقر كلٌّ في جنب كبريائه، ومن عرف كبرياءه، ونسي كبرياء نفسه، تعلق بعروة التواضع، ولزم حفظ الحرمة ﴿**أَلَمْ تَرَ** ﴾ رؤية عيانية ﴿ **أَنَّ الفُلْكَ تَجْرِي** ﴾ قال في المفردات : الجريُ المر السريع ، وأصله لمرِّ الماء ولما يجري بجريه ﴿ **في البَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ** ﴾ أي ملتبسة بنعمته تعالى وإحسانه في تهيئة أسبابه ، حيث جعل الماء مَرْكباً لكم ﴿ **لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ** ﴾ أي بعض دلائل وحدته وعلمه وقدرته ، وبعض عجائبه ، وهو في الظاهر سلامتهم في السفينة ، كما قيل لتاجر : ما أعجب ما رأيته من عجائب البحر ؟ قال : سلامتي منه ﴿ **إِنَّ في ذَلِكَ** ﴾ المذكور من أمر الفلك والبحر ﴿ **لآياتٍ** ﴾ عظيمة في ذاتها كثيرة في عددها ﴿ **لِكُلِّ صَبّارٍ** ﴾ مبالغ في الصبر على المشاق ، فيتعب نفسه في التفكر في الأنفس والآفاق﴿ **شَكورٍ** ﴾ مبالغ في الشكر على نعمائه ، وهما صفتا المؤمن ، والإيمان نصفان : نصفٌ للصبر ، ونصف للشكر ، واعلم أن الصبر تحمل المشاق بقدر القوة البدنية ، فالصبر كالدواء المر وفيه نفع ، والشكر تصور النعمة بالقلب ، والثناء على المنعم باللسان ، والخدمة بالأركان ، وجعل الصبر مبدأ والشكر منتهى ، يدل على كون الشكر أفضل من الصبر ، فإن من صبر فقد ترك إظهار الجزع ، ومن شكر فقد تجاوز إلى إظهار السرور بما جزع له الصابر ، فكم من فرق بين حبس النفس على مقاساة البلاء وهو الصبر ، وبين عدم الالتفات بل يراه من النعماء وهو الشكر ؟

﴿ **وَإِذا غَشِيَهُمْ** ﴾ غشيه ستره وعلاه ، والضمير لمن ركب البحر أي علاهم وأحاط بهم ﴿ **مَوْجٌ** ﴾ هو ما ارتفع من الماء ﴿ **كالظُّلَلِ** ﴾ كما يظل من جبل أو سحاب أو غيرهما جمع ظُلَّة بالضم ، وفي كشف الأسرار : كل ما أظلك من شيء فهو ظُلَّةٌ ، شبه بها الموج في كثرتها وارتفاعها ، وجعل الموج وهو واحد كالظلل وهو جمع ، لأن الموج يأتي منه شيء بعد شيء ﴿ **دَعَوُا اللهَ** ﴾ حال كونهم ﴿**مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ أي الدعاء والطاعة ، لا يذكرون معه سواه ، ولا يستغيثون بغيره ، لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد ، بما دهاهم من الخوف الشديد ﴿ **فَلَمّا نَجّيهُمْ** ﴾ الله تعالى ﴿ **إِلَى البَرِّ** ﴾ وجاد بتحقيق مناهم بسبب إخلاصهم في الدعاء ﴿ **فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ** ﴾ أي مؤمنٌ موحِّد ، أو متوسط في الكفر لانزجاره

في الجملة ، قال بعضهم : لما كان يوم فتح مكة أمَّنَ رسولُ الله ﷺ الناسَ إلا أربعة نفر ، وقال : (اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة ، عكرمة بن أبي جهل ، وعبد الله بن خطل ، ومقيس بن سبابة ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح) فأما عكرمة فهرب إلى البحر ، فأصابتهم ريح عاصف ، فقال أهل السفينة أخلصوا فإن ألهتكم لا تغني عنكم شيئاً ههنا ، فقال عكرمة : لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ، فما ينجيني في البر غيره ، اللهم إن لكَ عليَّ عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده فلأجدنَّه عفواً كريماً ، فسكنت الريح فرجع إلى مكة فأسلم وحسن إسلامه ﴿ **وما يَجْحَدُ بآياتِنا إلا كُلُّ خَتَّارٍ** ﴾ غدَّار فإنه نقض العهدَ الفطري ، أو رَفَض لما كان في البحر ، والختْرُ : أسوء الغدر وأقبحه ﴿ **كَفُورٍ** ﴾ مبالغ في كفران نعم الله تعالى ، وإنما يذكر هذا اللفظ لمن صار عادة له ، كما يقال ظلوم ، وإنما وصف الكافر بهما لأنهما أقبح خصال فيه ، وقد عدَّ النبي عليه السلام الغدر من علامات المنافق ﴿ **يَا أَيُّها النَّاسُ** ﴾ نداء عام لكافة المكلفين ، وأصله لكفار مكة ﴿ **اتَّقُوا رَبَّكُمْ** ﴾ وذلك بالاجتناب عن الكفر والمعاصي ، وما سوى الله تعالى ، قال بعض العارفين : مرة يخوّفهم بأفعاله فيقول (**اتَّقُوا فِتْنَةً**) ومرة بصفاته فيقول (**أَلَمْ يعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرىٰ**) ومرة بذاته فيقول (**ويحذِّركم اللهُ نَفْسَهُ**) ﴿ **وَاخْشَوْا** ﴾ الخشية خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى عليه ﴿ **يوْماً** ﴾ يوم القيامة ﴿ **لا يَجْزِي** ﴾ فيه ﴿ **وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ** ﴾ أي لا يقضي عنه شيئاً من الحقوق ولا يحمل من سيآته ولا يعطيه من طاعاته ، والولد يشير إلى الصلبي القريب ، فإذا لم يدفع عما هو ألصق به ، لم يقدر أن يدفع عن غيره بالطريق الأولى ، ففيه قطع لأطماع أهل الغرور ، المفتخرين بالآباء والأجداد ، المعتمدين على شفاعتهم من غير أن يكون بينهم جهة من الإيمان والعمل الصالح ﴿ **ولا مولُودٌ** ﴾ عطف على والد ﴿ **هُوَ جَازٍ** ﴾ فادٍ ومؤدّ ﴿ **عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً** ﴾ ما من الحقوق ، وخص الولد والوالد بالذكر ، تنبيهاً على غيرهما ، والمولود خاص بالصلبي الأقرب فإذا لم يقبل شفاعته للأب الأول الذي ولد منه لم يقبل لمن فوقه من الأجداد ﴿ **إنَّ وَعْدَ اللهِ** ﴾ بالحشر والجنة والنار ، والثواب والعقاب ، والوعد يكون في الخير والشر ، والوعيد في الشر خاصة ﴿ **حَقٌّ** ﴾ كائن لا خُلْف فيه ﴿ **فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحيَاةُ الدُّنيَا** ﴾ المراد بالحياة الدنيا : زينتُها وزخارفها وآمالها ، والمعنى : لا تغترّوا بسلامتكم في الحال ، فعن قريب ستندمون في المآل ﴿ **ولاَ يَغُرَّنَّكُمْ باللهِ الغَرورُ** ﴾ الغَرور كل ما يغر الإنسان من مال ، وشهوة وشيطان ، وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغارّين ، أي ولا يخدعنكم الشيطان المبالغ في الغرور ، بأن يرجّيكم التوبة والمغفرة ، فيجسركم على المعاصي ، وينسيكم الرجوع إلى القبور ، ويحملكم على الغفلة عن أحوال القيامة وأهوالها ، قال في كشف الأسرار : الغرة بالله حسن الظن به مع سوء العمل وفي الخبر (الكيِّسُ من دَانَ نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجزُ من أتبعَ نفسَهُ هَوَاها وتمنَّى على الله

الأماني) [١] ونعم ما قيل :

تَرجُو النَّجَاةَ ولم تَسْلُك مَسَالِكَهَا * إن السَّفِينَةَ لا تَجْرِي عَلِى اليَبَسِ

ففي الآية حسم لمادة الطمع في الانتفاع بالغير ، مع إهمال الإسلام أو الطاعات ، اعتماداً على صلاح الغير ، فإن يوم القيامة يوم عظيم ، لا ينفع فيه من له اتصال الولادة ، فما ظنك بما سواها ؟ ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ** ﴾ سميت بها القيامة لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا ، أي عنده علم وقت قيام القيامة وما يتبعه من الأحوال والأهوال ، وهو متفرد بعلمه ، فلا يدري أحد من الناس في أي سنة وفي أي شهر وفي أي ساعة من ساعات الليل والنهار تقوم القيامة ، وإنما أخفى الله وقت الساعة ليكون الناس على حذر وأهبة ، كما روي أن أعرابياً قال للنبي عليه السلام : متى الساعة ؟ فقال عليه السلام : وما أعددت لها قال لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله فقال : أنت مع من أحببت) [٢] . ﴿ **وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ** ﴾ سمي المطر غيثاً لأن غياث الخلق به أي وينزله في زمانه الذي قدره من غير تقديم وتأخير إلى محله الذي عينه في علمه من غير خطأ أو تبديل ، فهو متفرد بعلم زمانه ومكانه وعدد قطراته وقد ورد عن ابن عباس (ما سنة بأمطر من أخرى ، ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي حَوَّل الله ذلك إلى غيرهم ، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار ﴿ **وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ** ﴾ الرحم بيت منبت الولد ووعاؤه ، أي يعلم ذاته أذكر أم أنثى ، حي أم ميت ، وصفاته أتام أم ناقص ، حسن أم قبيح ، سعيد أم شقي ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ** ﴾ من النفوس ، والدراية المعرفة المدركة بضرب من الحيل ﴿ **مَاذَا** ﴾ أيْ أيَّ شيء ﴿ **تَكْسِبُ غَداً** ﴾ الكسب ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ ، والغد اليوم الذي يلي يومك الذي أنت فيه ، أي يعلم ما يحصل من خير وشر ، ووفاق وشقاق ، وربما تعزم على خير فتفعل الشر وبالعكس ، وإذا لم يكن للإنسان طريق إلى معرفة ما هو أخص به من كسبه ، كان من معرفة ما عداه مما لم ينصب له دليل عليه أبعد ، وكذا إذا لم يعلم ما في الغد مع قربه فما يكون بعده لا يعلمه بطريق الأولى ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ** ﴾ وإن أعملت حيلها ﴿ **بِأَيِّ أَرْضٍ** ﴾ مكان ﴿ **تَمُوتُ** ﴾ من بر وبحر ، وسهل وجبل ، كما لا تدري في أي وقت تموت ، روي أن ملك الموت مرَّ على سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه ، فقال الرجل : من هذا ؟ قال : ملَكُ الموتِ ، فقال : كأنه يريدني فَمرُ الريحَ أن تحملني وتلقيني في بلاد الهند ففعل ، فقال المَلَك : كان دوام نظري إليه تعجباً منه ، إذْ أُمِرْتُ أن أقبض روحه بالهند وهو عندك ، وحكي أن أبا هريرة خرج يطوف ببعض نواحي المدينة ، فإذا بقبر يحفر فأقبل حتى وقف عليه ، فقال لمن هذا ؟ قيل : لرجل من الحبشة فقال (لا إله

(١) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وابن ماجه ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٣٣٩ .

(٢) أخرجه الترمذي وأحمد والشيخان ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٥٥ .

إلا الله ، سيق من أرضه وسمائه حتى دفن في الأرض التي خُلق منها ، تقول الأرض يوم القيامة يارب هذا ما استودعتني) وأنشدوا :

إذا مـا حِمَـامُ المَرْءِ كَـانَ بِبَلْـدَةٍ * دَعَتْـهُ إِلَيْهَـا حَـاجَـةٌ فَيطِيرُ

وفائدة هذا تنبيه العبد على التيقظ للموت ، والاستعداد له بحسن الطاعة ، والخروج عن المظلمة ، وقضاء الدين ، وإثبات الوصية بماله عليه في الحضر ، فضلاً عن أوان الخروج عن وطنه إلى سفر فإنه لا يدري أين كتبت منيَّته من بقاع الأرض وأنشد بعضهم :

مَشَيْنَـا هـا خُطَي كُتِبتْ عَلَيْنَـا * ومَنْ كُتِبتْ عليهِ خُطَىً مَشَاهَـا
وأرْزَاقٌ لَنَـا مُتَفرِّقَـاتٌ * فَمَنْ لَمْ تَـأتِـه مَنَّـا أتَـاهَـا
وَمَنْ كُتِبتْ مَنِيَّتُـهُ بِـأرْضٍ * فَلَيْسَ يَمـوتُ في أرْضٍ سِـوَاهَـا

﴿ **إنَّ اللهَ عليمٌ** ﴾ يعلم الأشياء كلها ﴿ **خَبيرٌ** ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها ، ومفاتيح الغيب خمس ، فمن ادعى علم شيء من هذه المغيبات الخمس فهو كافر بالله تعالى ، وكان أهل الجاهلية يسألون المنجمين عنها زاعمين أنهم يعلمونها ، وتصديق الكاهن بما يخبره عن الغيب كفر ، لقوله عليه السلام (من أتى كاهناً فصدَّقه فيما يقول ، فقد كفر بما أنزل الله على محمد)[1] والكاهن هو الذي يخبر عن الكوائن في مستقبل الزمان ، ويدَّعي معرفة الأسرار ، وكان في العرب كهنة يدعون معرفة الأمور ، فمنهم من يزعم إنه له رئياً من الجن يلقى إليه الأخبار ، والمنجم إذا ادعى العلم بالحوادث الآتية فهو مثل الكاهن ، والعرَّاف من يخبر عن المسروق ومكان الضالة ، والمراد من سأله على وجه التصديق لخبره ، فهو حرام ، وإذا اعتقد أنه عالم بالغيب فهو كفر كما في حديث الكاهن ، وأما إذا سأله ليمتحن حاله ويخبر باطن أمره وعنده ما يميز به صدقه من كذبه فهو جائز ، فعلم أن الغيب مختص بالله تعالى ، وما روي عن الأنبياء والأولياء من الإخبار عن الغيوب ، فبتعليم الله تعالى ، إما بطريق الوحي ، أو بطريق الإلهام والكشف ، فلا ينافي ذلك الاختصاص علم الغيب ، كما أشار إليه بقوله (**عَالِمُ الغَيْبِ فلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ**) ومنه ما استأثر بعلمه لنفسه لا يَطَّلع عليه ملك مقرب، ولا نبي مرسل كما أشار إليه بقوله (**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو**) ومنه علم الساعة فقد أخفى الله علم الساعة ، لكن أماراتها بانت من لسان صاحب الشرع ، كخروج الدجال ، ونزول عيسى ، وطلوع الشمس من مغربه ، وغيرها مما يظهر في آخر الزمان من غلبة البدع والهوى، نسأله تعالى السلامة والنجاة .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند والحاكم في المستدرك ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٤٦ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي هذه السورة مسماة بآلم ﴿ تَنزِيلُ الكِتابِ لا رَيْبَ فيهِ ﴾ أي حال كونه لا شك فيه عند أهل الاعتبار ﴿ مِنْ رَبِّ العَالمينَ ﴾ فإن كونه من رب العالمين حكم مقصود الإفادة وإنما كان منه لكونه معجزاً ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة أي بل ﴿ يَقولُونَ افْتَرٰيهُ ﴾ اختلق محمد القرآن ، فهذا القول منهم منكر متعجب منه لغاية ظهور بطلانه ، ثم أضرب عنه إلى بيان حقيقة ما أنكروه فقال ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي القرآن ﴿ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ثم بين غايته فقال ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً ﴾ هم العرب ﴿ مَا ﴾ نافية ﴿ أَتيٰهُمْ مِنْ نَذيرٍ ﴾ مخوف ﴿ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أي من قبل زمانك ، إذ كانت قريش أهل الفطرة وأبعدهم عن الدين ، وأحوجهم إلى الهداية لكونهم أمة أمية ، أما إسماعيل عليه السلام فكان نبياً قبل عيسى مبعوثاً إلى قومه خاصة وانقطعت نبوته بموته ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدونَ ﴾ بإنذارك إياهم ، والترجي معتبر من جهته عليه السلام ، أي لتنذرهم راجياً لاهتدائهم إلى التوحيد والإخلاص ، فعلم منه أن المقصود من البعثة تعريف طريق الحق ، وكلٌّ يهتدي بقدر استعداده ﴿ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ ﴾ أي الأجرام العلوية والسفلية ﴿ وما بيْنَهُما ﴾ من السحاب والرياح ونحوهما ﴿ في سِتَّةِ أيَّامٍ ﴾ ولو شاء خلقها في ساعة واحدة لفَعَلَ ، ولكنه خلقها في ستة أيام ، ليدلَّ على التأني في الأمور ﴿ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى العَرْشِ ﴾ استواء يليق بجلاله كما عليه مذهب السلف ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ولا شَفيعٍ ﴾ أي مالكم حال كونكم متجاوزين هداية الله تعالى ، أحد ينصركم ويشفع لكم ويجيركم من بأسه ﴿ أَفَلا تَتَذَكَّرونَ ﴾ أي ألا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها ؟ ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ ﴾ التدبير التفكر في الأمور والنظر في عاقبتها والمعنى يدبِّر الله تعالى أمر الدنيا بأسباب سماوية كالملائكة وغيرها ، نازلة آثارها إلى الأرض ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إليهِ ﴾ أي يصعد ذلك الأمر إليه تعالى ويثبت في علمه موجوداً بالفعل ﴿ في يَوْمٍ كانَ مِقْدَارُهُ ألفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أي في برهة من الزمان متطاولة ، والمراد بيان طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان .

وأما قوله في سورة المعارج (في يومٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسينَ أَلْفَ سَنَةٍ) فأراد به مدة المسافة بين سدرة المنتهى والأرض ، ثم عوده إلى السدرة ، فالمَلَك يسيره في قدر يوم واحد من أيام الدنيا ، فضمير « إليه » حينئذ راجع إلى مكان الملك ، يعني المكان الذي أمره الله تعالى أن يعرج إليه ، وقال بعضهم : يدبر الله شئون الخلق مدة أيام الدنيا ، فينزل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض ، ثم يعود الأمر والتدبير إليه

حين ينقطع أمر الأمراء وحكم الحكام ، وينفرد الله بالأمر في يوم أي يوم القيامة كان مقداره ألف سنة لأن يوماً من أيام الآخرة مثل ألف سنة من أيام الدنيا كما قال تعالى (**وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَألفِ سَنَةٍ**) فمعنى خمسين ألف سنة على هذا أن يشتد على الكافرين حتى يكون كخمسين ألف سنة في الطول ، ويسهل على المؤمنين حتى يكون كقدر صلاة مكتوبة صلاَّها في الدنيا ، ففي الحشر مواقف ومواطن بحسب الأشخاص ، من جهة الأعمال والأحوال ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ الله العظيم الشأن ، المتصف بالخلق والاستواء ، وانحصار الولاية والنصرة فيه وتدبير أمر الكائنات ﴿ **عالِمُ الغَيْبِ** ﴾ ما غاب عن الخلق ﴿ **والشَّهَادةِ** ﴾ ما حضر لهم، ويدبر أمرهما حسبما تقتضيه الحكمةُ ﴿ **العزيزُ** ﴾ الغالب على أمره ﴿**الرَّحِيمُ**﴾ على عباده في تدبيره . وفيه إيماء إلى أنه تعالى يراعى المصالح تفضلاً وإحساناً لا إيجاباً ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ** ﴾ الإحسان يقال على وجهين : أحدهما الإنعام على الغير ، يُقال : أحسن إلى فلان ، والثاني إحسان من فعله وذلك إذا عمل عملاً حسناً أي جعل كل شيء خلقه على وجه حسن في الصورة والمعنى ، على ما يقتضيه استعداده ، وتوجيه الحكمة والمصلحة ، فجميع المخلوقات حسنة وإن اختلفت أشكالها ، واقترفت إلى حَسَنٍ وأحسن كما قال تعالى (**لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسَانَ في أَحْسنِ تَقْويمٍ**) قال ابن عباس رضي الله عنهما : الإنسان في خلقه حسن ، وقال بعضهم : إن الله تعالى خلق الحَسَن والقبيح ، والمستحسنات إنما حَسُنت في مقابلة المستقبحات ، فلما احتاج الحسن إلى قبيح يقابله ليظهر حُسْنه ، كان تقبيحه حسناً انتهى ، يقول الفقير : لا شك أن الله تعالى خلق الحسن والقبح ، وإن كان كل صنعه وفعله جميلاً ، ومطلق الخلق قد مدح به ذاته كما قال (**أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ**)؟ لكنه لا يقال في مقام المدح: إنه تعالى خالق القردة والخنازير والحيَّات والعقارب ، ونحوها من الأجسام القبيحة والضارة ، بل يقال : خالق كل شيء ، فالقبيح ليس خلْقَه وإيجاده ، بل بالنسبة إلى مقابلة الحسن لا في ذاته ﴿ **وَبَدأَ خَلْقَ الإنْسانِ** ﴾ من بين جميع المخلوقات ، وهو آدم أبو البشر عليه السلام ﴿ **مِنْ طِينٍ** ﴾ الطين التراب والماء المختلط ، وقد سُمِّي بذلك وإن زال عنه قوة الماء ﴿ **ثُمَّ جَعلَ نَسْلَهُ** ﴾ ذريته ، سميت به لأنها تنسل من الإنسان ، أي تنفصل ﴿ **مِنْ سُلالَةٍ** ﴾ أي من نطفة مسلولة أي منزوعة من صلب الإنسان ﴿ **مِنْ ماءٍ مَهِينٍ** ﴾ حقير وضعيف وهو المني ﴿ **ثُمَّ سَوَّيٰهُ** ﴾ أي قَوَّمَ النسل بتكميل أعضائه في الرحم وتصويرها على ما ينبغي ﴿ **ونَفخَ فيهِ مِنْ روُحِهِ** ﴾ أضافه إلى نفسه تشريفاً وإظهاراً بأنه خلق عجيب ، ومخلوق شريف، وأن له شأناً له مناسبة إلى حضرة الربوبية، ولأجله قيل : «من عرف نفسه ، فقد عرف ربه» ﴿ **وَجعَل** ﴾ وخلق ﴿ **لَكُمُ** ﴾ لمنافعكم يا بني آدم ﴿ **السَّمْعَ** ﴾ لتسمعوا الآيات التنزيلية الناطقة بالبعث وبالتوحيد ﴿ **والأَبصْارَ** ﴾ لتبصروا الآيات التكوينية المشاهدة فيها ﴿ **والأَفْئِدَةَ** ﴾ لتعقلوا وتستدلوا بها على حقيقة الآيتين ، جمع فؤاد بمعنى القلب ، لكن إنما يقال فؤاد إذا اعتبر في القلب معنى التفؤد أي

التوقد ﴿ **قليلاً ما تَشْكُرونَ** ﴾ أي تشكرون رب هذه النعم شكراً قليلاً ، على أن القلة بمعنى النفي والعدم ، فهو بيان لكفرهم بتلك النعم وربِّها ، فعلى العاقل أن يعرف النعم والمنعم ، ويجتهد في خدمة الشكر ، حتى لا يكون من أهل البطالة ، وإذا كان من أهل الشكر للنعم الداخلة والخارجة من القوى والأعضاء وغيرهما ، فالله تعالى يشكر له أي يقبل طاعته ، ويثني عليه عند الملأ الأعلى ، ويجازيه بأحسن الجزاء ، وهو الجنان ودرجاتها ونعيمها الأبدي ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ أي كفار قريش كأُبي بن خلف ونحوه من المنكرين للبعث بعد الموت ﴿ **أَئِذا ضَلَلْنَا في الأَرْضِ** ﴾ ضلَّ : صار تراباً وعظاماً وخفي وغاب ، وأصله ضل الماء في اللبن إذا غاب وهلك ، والمعنى هلكنا وصرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض بحيث لا نتميز منه ، أوغبنا فيها بالدفن وذهبنا عن أعين الناس ﴿ **أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَديدٍ** ﴾ أي أَنُبْعث بعد موتنا وانعدامنا ، ونصير أحياء كما كنا قبل موتنا ؟ يعني هذا منكرٌ عجب ، فإنهم كانوا يقرون بالموت ويشاهدونه ، وإنما ينكرون البعث ، فالاستفهام الإنكاري متوجه إلى البعث دون الموت ، ثم اضرب وانتقل من بيان كفرهم بالبعث ، إلى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه ، وهو كفرهم بالوصول إلى العاقبة ، وما يلقونه فيها من الأهوال فقال ﴿ **بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ** ﴾ لقاء الله عبارة عن القيامة ، وعن المصير إليه ﴿ **كافِرونَ** ﴾ جاحدون ، فمن أنكره لقي الله وهو عليه غضبان ، ومن أقره لقيَ الله وهو عليه راضٍ ﴿ **قُلْ** ﴾ بياناً للحق ورداً على زعمهم الباطل ﴿ **يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الموْتِ** ﴾ التوفي أخذ الشيء تاماً وافياً واستيفاء العدد ، قال في الصحاح : توفاه الله قبض روحه والوفاة الموت ، والمَلَكُ جسم لطيف نوراني يتشكل بأشكال مختلفة ، والموت صفة وجودية خلقت ضداً للحياة ، والمعنى يقبض عزرائيل أرواحكم ، بحيث لا يترك منها شيئاً ، بل يستوفيها ويأخذها تماماً ، على أشد ما يكون من الوجوه وأفظعها ، من ضرب وجوهكم وأدباركم، أو يقبض أرواحكم بحيث لا يترك منكم أحداً ، ولا يبقى شخصاً من العدد الذي كتب عليهم الموت ، وأما ملك الموت نفسه فيتوفاه الله تعالى ، وفي الآية رد على الكافرين حيث زعموا أن الموت من الأحوال الطبيعية ، العارضة للحيوان بموجب الجبلَّة ﴿ **الَّذِي وُكِّلَ** ﴾ التوكيل أن تعتمد على غيرك وتجعله نائباً عنك ﴿ **بِكُمْ** ﴾ أي بقبض أرواحكم ، وإحصاء آجالكم ﴿ **ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعونَ** ﴾ تردون بالبعث للحساب والجزاء ، وهذا معنى لقاء الله ، واعلم أن الله تعالى أخبر ههنا أن ملك الموت هو المتوفي والقابض ، وفي موضع أنه الرسل أي الملائكة ، وفي موضع أنه هو تعالى ، فوجه الجمع بين الآيات أن ملك الموت يقبض الأرواح ، والملائكة أعوان له يعالجون ويعملون بأمره ، والله تعالى يُزْهِق الروح ، فالفاعل لكل فعل حقيقة ، والقابض لأرواح جميع الخلائق هو الله تعالى ، وأن ملك الموت وأعوانه وسائط ﴿ **وَلَوْ تَرىٰ إِذِ المُجْرِمونَ** ﴾ هم القائلون أئذا ضللنا إلخ ﴿ **ناكِسُوا رؤوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ** ﴾ النكس قلب الشيء على رأسه ، أي مطرقوا رءوسهم ومطأطئوها في موقف العرض على

الله ، من الحياء والحزن والغم يقولون ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أي صرنا ممن يبصر ، ويسمع ، وحصل لنا الاستعداد لإدراك الآيات المبصرة والمسموعة ، وكنا من قبل عُمْياً لا ندرك شيئاً ﴿ فَارْجِعْنَا ﴾ فارددنا إلى الدنيا ﴿ نَعْمَلْ ﴾ عملاً ﴿ صَالِحاً ﴾ حسبما تقتضيه تلك الآيات ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ الآن ، كأنهم قالوا أيقنّا وكنا من قبل لا نعقل شيئاً أصلاً ، وجواب «لو» محذوف أي لرأيت أمراً فظيعاً ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ أي ونقول لو شئنا بأن نعطي كل نفس من النفوس البرّة والفاجرة ، ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح ، بالتوفيق لها لأعطيناها إياه في الدنيا التي هي دار الكسب ، وما أخرناه إلى دار الجزاء ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ ثبت قضائي وسبق وعيدي ، وهو ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ ﴾ جماعة الجن والمراد الشياطين ، وكفار الجن ﴿ وَالنَّاسِ ﴾ الذين اتبعوا إبليس في الكفر والمعاصي ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي جميع الكفرة ، يستعمل لتأكيد الاجتماع على الأمر ، قال ابن عطاء : لو شئنا لوفّقنا كل عبد لرضانا ، ولكن حق القول بالوعد والوعيد ليتم الاختيار ، واعلم أن الله تعالى يملأ جهنم من الأشقياء ، كما يملأ الجنة من الضعفاء ، بدليل قوله عليه السلام (تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت ـ فُضِّلتُ ـ بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ فقال الله للنار : أنت عذابي أعذّب بك من أشاء من عبادي ، وقال للجنة : أنتِ رحمتي أرحم بكِ من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما عليَّ ملؤها)[1] ﴿ فَذُوقُوا ﴾ الفاء لترتيب الأمر نفي الرجع إلى الدنيا ﴿ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ النسيان ترك الإنسان ضبط ما استُودع ، حتى ينحذف عن القلب ذكره ، وكل نسيان ذمّه الله به فهو ما كان أصله من تعمد ، وذلك السبب هو نسيانهم لقاء هذا اليوم الهائل ، وتركهم التفكر فيه والاستعداد له بالكلية ، بالاشتغال باللذات الدنيوية وشهواتها ، فإن التوغل فيها يذهل عن تذكر الآخرة ، وما فيها من لقاء الله ولقاء جزائه ، ويسلط عليهم نسيانها والمعنى لقاء اللهِ في يومكم هذا ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ تركناكم في العذاب ترك المنسيّ بالكلية ، استهانةً بكم ، ومجازاة لما تركتم ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ أي العذاب المخلد في جهنم مثل عذاب الحريق ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي بالذي كنتم تعملونه من الكفر والمعاصي ، وهو تكرير للتأكيد ، وإظهار الغضب عليهم ، وللإشعار بأن سببه ليس مجرد ما ذكر من النسيان ، بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصي ، التي كانوا مستمرين عليها في الدنيا ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أي إنكم أيها المجرمون لا تؤمنون بآياتنا ، ولا تعملون بموجبها عملاً صالحاً ، ولو رجعناكم إلى الدنيا كما تدَّعون ، حسبما ينطق به قوله تعالى (وَلَوْ رُدّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) وإنما يؤمن بها ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا ﴾ وعظوا ﴿ خَرُّوا سُجَّداً ﴾ خرَّ سقط سقوطاً سمع منه خرير ، أي سقطوا على وجوههم حال كونهم ساجدين خوفاً من

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، وانظر جامع الأصول لابن الأثير ١٠ / ٥٤٤ .

عذاب الله ﴿ **وَسَبَّحُوا** ﴾ نزهوه عن كل ما لا يليق به ، من الشرك والعجز عن البعث وغير ذلك ﴿ **بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** ﴾ أي ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه ، كتوفيق الإيمان ، والعمل وغيرهما ﴿ **وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرونَ** ﴾ أي لا يتعَظَّمون عن الإيمان والطاعة ، كما يفعل من يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ، وينبغي أن يدعو الساجد في سجدته بما يليق بآيتها ، ففي هذه الآية يقول : اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك ، المسبحين بحمدك ، وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك ، ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ** ﴾ التجافي النُبُوُّ والبعد ، أخذ من الجفاء ، والمعنى ترتفع وتتنحى أضلاعهم ﴿ **عَنِ المضاجِعِ** ﴾ أي الفرش ومواضع النوم ، جمع مضجع كمقعد بمعنى موضع الضجوع أي وضع الجنب على الأرض ﴿ **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ** ﴾ أي داعين له تعالى على الاستمرار ﴿ **خَوْفاً** ﴾ من سخطه وعذابه ، وعدم قبول عبادته ﴿ **وَطَمَعاً** ﴾ في رحمته ، والمراد من الآية قيام الليل ، يعني أنها نزلت في شأن المتهجدين ، فإن أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل وفي الحديث (عجب ربنا من رجلين : رجلٍ ثار عن وطائه ولحافه من بين أحبته وأهله إلى صلاته ، فيقول الله تعالى لملائكته : انظروا إلى عبدي ، ثار عن فراشه ووطائه من بين أحبته وأهله إلى صلاته ، رغبة فيما عندي ، وإشفاقاً مما عندي ، ورجل غزا في سبيل الله فانهزم مع أصحابه فعلم ما عليه من الانهزام وما له في الرجوع ، فرجع حتى أهريق دمه ، فيقول الله لملائكته : انظروا إلى عبدي رجع رغبةً فيما عندي وإشفاقاً مما عندي حتى أهريق دمه)[1] وفي الحديث (إن في الجنة غرفاً يُرى ظاهرُها من باطنها ، وباطنُها من ظاهرها ، أعدَّ ا الله لمن أَلاَنَ الكلاَم ، وأطعم الطعامَ وتابعَ الصيام ، وصلَّى بالليل والناس نيام)[2] قال ابن رواحة رضي الله عنه يمدح النبي عليه السلام :

وفِينَا رَسُولُ اللهِ يَتْلُو كِتَابَهُ * إذَا انْشَقَّ مَعْروفٌ من الفَجْرِ سَاطِعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا * به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه * إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

وفي الأثر (إذا جمع الله الأولين والآخرين ، نادى مناد بصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ، ثم يرجع فينادي ليقم الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ، ثم يرجع فيقول ليقم الذين يحمدون الله في السراء والضراء ، فيقومون وهم قليل ، فيسرحون جميعاً إلى الجنة

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٢٢٢ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في البر والصلة وأحمد في المسند ٥ / ٣٤٣ والحاكم في المستدرك .

ثم يحاسب سائر الناس)[1] ، واعلم أن قيام الليل من علو الهمة ، وهو وهبٌ من الله تعالى ، فمن وهب له هذا فليقم ولا يترك ورد الليل بوجه من الوجوه ، قال أبو سليمان الداراني : نمت عن وردي فإذا أنا بحوراء تقول يا أبا سليمان تنام وأنا أربّي في الخيام منذ خمسمائة عام ، وفي آكام المرجان : ظهر إبليس ليحيي عليه السلام فقال له يحي : هل قدرت مني على شيء ؟ قال : لا إلا مرة واحدة ، فإنك قدَّمتَ طعاماً لتأكله ، فلم أزل أشهّية إليك حتى أكلتَ منه أكثر مما تريد ، فنمت تلك الليلة فلم تقم إلى الصلاة كما كنت تقوم إليها ، قال له يحي : لا جَرَم لا شبعتُ من طعامٍ أبداً ، فقال له الخبيث : لا جرم لا نصحتُ آدمياً بعدك أبداً ﴿ **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ** ﴾ أعطيناهم من المال ﴿ **يُنْفِقونَ** ﴾ في وجوه الخير والحسنات ، قال بعضهم : هذا عام من الواجب ، والتطوع ، وذلك على ثلاثة أضرب ، زكاة ، ومواساة ، وإيثار ﴿ **فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ** ﴾ من النفوس لا مَلَكٌ مقرب ، ولانبي مرسل فضلاً عمن عداهم ﴿ **ما أُخْفِيَ لَهُمْ** ﴾ أي لأولئك الذين عددت نعوتهم الجليلة ، من التجافي ، والدعاء ، والإنفاق ﴿**مِنْ قُرَّةِ أَعَيُنٍ**﴾ مما تقرُّبه أعينهم إذا رأوه ، وتسكن به أنفسهم وفي الحديث (يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خَطَر على قلب بشر ، بل له ما اطلعتم عليه ، واقرأوا إن شئتم (**فَلاَ تعلَمُ نَفْسٌ ما أُخفِي لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**)[2] ﴿ **جَزاءً بِما كَانُوا يَعْمَلونَ** ﴾ أي جُزوا بسبب ما كانوا يعملون في الدنيا من إخلاص النية ، وصدق الطوية في الأعمال الصالحة ﴿ **أَفَمَنْ كانَ** ﴾ في الدنيا ﴿ **مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فَاسِقاً** ﴾ ؟ خارجاً عن الإيمان ، لأنه قابل به المؤمن ... ، وأيضاً أخبر أنه يُخلَّد في النار ، ولا يستحق التخليد فيها إلا الكافر ﴿**لا يسْتَوُونَ**﴾ في الشرف والجزاء في الآخرة ، قيل : نزلت في علي والوليد ، فالمؤمن هو « عليّ » رضي الله عنه ، ودخل فيه من هو مثل حاله ، والكافر هو « الوليد » ودخل فيه من هو على صفته ، ولذلك أورد الجمع في « لاَ يَسْتَوُوْنَ » قال ابن عطاء : من كان في أنوار الطاعة والإيمان ، لا يستوي مع من هو في ظلمات الفسق والطغيان ، وفي كشف الأسرار : أفمن أُيِّد بنور البرهان ، وطلعت عليه شموس العرفان ، كمن ربط بالخذلان ووسم بالحرمان ، لا يستويان ولا يلتقيان .

أيُّهَـــا المُنْكِـحُ الثُريَّـــا سُهَيْـــلاً * عَمْرُكَ اللهُ كَيْفَ يَلْتَقِيـــــــانِ
هِيَ شَـــامِيـــةٌ إذَا مَـــا اسْتَقَلَّتْ * وسُهَيْـــلٌ إذَا اسْتَقَـــلَّ يَمَـــــانِي

﴿ **أَمَّا الَّذِين آمنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ** ﴾ استحقاقاً ﴿ **جَنَّاتُ المأوَىٰ** ﴾ المأوىمصدر أوى إلى كذا : انضم إليه وأضيفت الجنة إلى المأوى ، لأنها المأوى الحقيقي ، وإنما الدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة ، ولذلك سميت قنطرة ، لأنها مَعْبَرٌ للآخرة لا مقر ، وعن ابن عباس جنة المأوى كلها من الذهب ،

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ربيعة الجرشي رضي الله عنه ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٥ / ١٧٦ .
(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٩٤ .

وهي إحدى الجنان الثمان ، التي هي : دار الجلال ، ودار القرار ، ودار السلام ، وجنة عدن ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، وجنة الفردوس ، وجنة النعيم ﴿ **نُزُلاً** ﴾ أي حال كون تلك الجنات ثواباً وأجراً وهو في الأصل ما يعدُّ للنازل والضيف ، من طعامٍ ، وشراب ، وصلة ، ثم صار عامّاً في العطاء ﴿ **بما كَانُوا يَعْمَلونَ** ﴾ بسبب أعمالهم الحسنة التي عملوها في الدنيا ﴿ **وَأمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا** ﴾ خرجوا عن الإيمان والطاعة ، بإيثار الكفر والمعصية عليها ﴿ **فمأْواهُمُ** ﴾ أي ملجأهم ومنزلهم ﴿ **النَّارُ** ﴾ مكان جنات المأوى للمؤمنين ﴿ **كُلَّما أَرادُوا أنْ يَخْرُجوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها** ﴾ عبارة عن الخلود فيها ، فإنه لا خروج ولا إعادة في الحقيقة ، كقوله (**كُلَّما خَبتْ زِدْناهُمْ سَعيراً**) ونار جهنم لا تخبو ، يعني كلما قال قائلهم قد خَبَتْ زِيدَ فيها ، ويروى أنه يضربهم لهيب النار فيرتفعون إلى طبقاتها ، حتى إذا قربوا من بابها وأرادوا أن يخرجوا منها ، يضربهم لهيب النار أو تتلقاهم الخزنة بمقامع فتضربهم ، فيهوون إلى قعرها سبعين خريفاً ، وهكذا يفعل بهم أبداً ﴿ **وَقِيل لَهُمْ** ﴾ إهانة وتشديداً عليهم وزيادة في غيظهم ﴿ **ذُوقوا عَذابَ النَّار الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ** ﴾ أي بعذاب النار ﴿ **تُكَذِّبونَ** ﴾ على الاستمرار في الدنيا ، وتقولون لا جنة ولا نار ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُمْ** ﴾ أي أهل مكة ﴿ **مِنَ العَذابِ الأَدْنى** ﴾ أي الأقرب ، وهو عذاب الدنيا ، وهو ما مُحنوا به من القحط سبع سنين ، بدعاء النبي عليه السلام ، حين بالغوا في الأذية ، حتى أكلوا الجِيفَ ، والجلود ، والعظام المحترقة ، وصار الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كالدخان ، وكذا ابتلوا بمصائب الدنيا وبلاياها ﴿ **دُونَ العَذابِ الأَكْبرِ** ﴾ أي قبل العذاب الأكبر ، الذي هو عذاب الآخرة فدون هنا بمعنى قبل ﴿ **لَعَلَّهُمْ** ﴾ أي لعل من بقي منهم وشاهده ، ولعل هنا بمعنى كي ﴿ **يَرْجِعونَ** ﴾ يتوبون عن الكفر والمعاصي ﴿ **وَمَنْ أظلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّهِ** ﴾ أي وعظ بالقرآن ﴿ **ثُمَّ أعْرضَ عَنْها** ﴾ فلم يتفكر فيها ولم يقبلها ، ولم يعمل بموجبها ، مع غاية وضوحها وإرشادها إلى سعادة الدارين ، كقولك لصاحبك : دخلتَ المسجد ثم لم تصل فيه ؟ استبعاداً لتركه الصلاة فيه ، والمعنى هو أظلم من كل ظالم ﴿ **إنَّا مِنَ المُجْرِمينَ** ﴾ أي من كل من اتصف بإجرام ، وإن هانت جريمته ﴿ **مُنْتَقِمُونَ** ﴾ فكيف من كان أظلم من كل ظالم ، وأشد جرماً من كل مجرم ؟ ﴿ **ولقدْ آتيْنَا مُوسىٰ الكِتابَ** ﴾ أي التوراة ﴿ **فلا تَكُنْ في مِرْيةٍ** ﴾ أي شك والمريةُ : التردد في الأمر ، وهو أخص من الشك ﴿ **مِنْ لِقائِهِ** ﴾ والمعنى من لقاء موسى الكتاب ، فإنا ألقينا عليه التوراة، فإن قلت: ما معنى النهي وليس له عليه السلام في ذلك شك أصلاً ؟ قلت : فيه تعريض للكفار بأنهم في شك من لقائه ، إذ لو لم يكن لهم فيه شك لآمنوا بالقرآن ، إذ في التوراة وسائر الكتب الإلهية ما يصدق القرآن من الشواهد والآيات ، فإيتاء الكتاب ليس ببدع حتى يرتابوا فيه ، فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴿ **وَجَعلْناهُ** ﴾ أي الكتاب الذي آتيناه موسى ﴿ **هُدىً** ﴾ من الضلالة ﴿ **لِبَني**

﴿ إِسْرائيلَ ﴾ لأنه أنزل إليهم ، وهم متعبدون به ، وعليهم يحمل الناس في قوله تعالى (قُلْ مَنْ أَنْزلَ الكِتابَ الَّذِي جَاءَ بِه مُوسىٰ نُوراً وَهُدىً للنَّاسِ) ؟ ﴿ وَجَعلْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿ أَئِمَّةً ﴾ جمع إمام ، بمعنى المؤتم والمقتدى به قولاً وفعلاً ﴿ يَهْدُونَ ﴾ يرشدون الخلق إلى الحق ، بما في التوراة من الشرائع والأحكام ﴿ بِأمْرِنَا ﴾ بتوفيقنا لهم ﴿ لَمَّا صَبَرُوا ﴾ على الحق في جميع الأمور والأحوال أي جعلناهم أئمة حين صبروا ﴿ وَكَانُوْا بِآيَاتِنَا ﴾ التي في تضاعيف الكتاب ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ لإمعانهم فيها النظر والإيقان ، ولا تشك أنها من عندنا كما يشك الكفار من قومك في حق القرآن ، وفيه إشارة إلى أنه كما أن الله تعالى جعل التوراة هدى لبني إسرائيل ، فاهتدوا بها إلى مصالح الدين والدنيا ، كذلك جعل القرآن هدى لهذه الأمة المرحومة ، يهتدون به إلى الشرائع والحقائق، وكما أنه جعل من بني إسرائيل قادة أدلاء ، كذلك جعل من هذه الأمة سادة أجلاء ، بل رجَّحهم على الكُلِّ بِكُلِّ كمال ، فإن الأفضل أولى بإحراز الفضائل كلها ، كما قال بعض الأخيار : رأيت الشيخ إبراهيم الشيرازي في النوم بعد وفاته ، وعليه ثياب بيضٌ ، وعلى رأسه تاجٌ ، فقلت له ما هذا البياض ؟ فقال : شرف الطاعة ، قلت : والتاج ؟ قال : عز العلم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يفْصِلُ ﴾ يقضي ﴿ بيْنَهُمْ ﴾ بين الأنبياء وأممهم المكذبين ، أو بين المؤمنين والمشركين ﴿ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ فيميز بين المحق والمبطل يوم القيامة، ليس الفصلُ إلا إليه وحده، لا يقدر عليه أحد سواه ﴿ فيما كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمور الدين ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ تخويف لكفار مكة ، أي أغفلوا ولم يبين لهم مآل أمرهم ؟ ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ أي كثرة إهلاكنا ، ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ القُرونِ ﴾ مثل عاد وثمود وقوم لوط ، والقرن : اسم لسكان الأرض عصراً ، والقرون سكانها على الأعاصير ﴿ يَمْشُون في مَساكِنِهِمْ ﴾ يعني أهل مكة يمرون في مَتَاجِرِهِمْ على ديار الهالكين وبلادهم ، ويشاهدون آثار هلاكهم ، وخراب منازلهم ﴿ إِنَّ في ذَلِكَ ﴾ الإهلاك وما يتعلق به من الآثار ﴿ لآياتٍ ﴾ حججاً ومواعظ لكل مستبصر ومعتبر ﴿ أفلا يَسْمَعونَ ﴾ ؟ آيات الله ومواعظه ، سماع تدبر واتعاظ ، فينتهوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب ؟ ؟

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نسُوقُ المَاءَ ﴾ المراد سوق السحاب الحامل للماء ، لأنه هوالذي يُنْسَبُ إلى الله تعالى ، ولما كان هذا السوق وما بعده من الإخراج محسوساً حمل بعضهم الرؤية على البصرية ، ويدل عليه أيضاً آخر الآية وهو (أفلا يُبْصِرونَ) ؟ أو حملاً على المقصود من النظر ، أي قد علموا أنا نسوق الماء ﴿ إلى الأَرْضِ الجُرُزِ ﴾ أي التي جرز نباتها ، أي قُطع وأُزيل بالكلية لعدم المطر أولغيره ﴿ فَنُخْرِجُ ﴾ من تلك الأرض ﴿ بِهِ ﴾ أي بسبب ذلك الماء المسوق ﴿ زَرْعاً ﴾ عبر به عن المزروع ﴿ تأْكُلُ مِنْهُ ﴾ أي من ذلك الزرع ﴿ أَنْعامُهُمْ ﴾ كالتبن ، والورق ، وبعض الحبوب المخصوصة بها ﴿ وَأنفُسُهُمْ ﴾ كالحبوب التي يقتاتها الإنسان والثمار ﴿ أفَلا يُبْصِرونَ ﴾ أي ألا ينظرون ، فلا يبصرون

ذلك ، فيستدلون به على وحدته وكمال قدرته ، وفضله تعالى ؟ وأنه الحقيق بالعبادة ، وأن لا يشرك به بعض خلقه من مَلَكٍ وإنسانٍ ، فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع ، وأيضاً فيعلمون أنه يقدر على إعادتهم وإحيائهم ؟! .

﴿ وَيَقولُونَ ﴾ وذلك أن المؤمنين كانوا يقولون لكفار مكة : إن لنا يوماً يفتح الله فيه بيننا ، أي يحكم ويقضي ، يريدون يوم القيامة ، أو أن الله سيفتح لنا على المشركين ويفصل بيننا وبينهم ، وكان أهل مكة إذا سمعوه يقولون بطريق الاستعجال تكذيباً واستهزاء ﴿ متَى هٰذا الفَتْحُ ﴾ أي في أي وقت يكون الحكم والفصل ؟ أو النصر والظفر ؟ ﴿ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في أنه كائن ﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم وتحقيقاً للحق ، لا تستعجلوا ولا تستهزئوا فإن ﴿ يَوْمَ الفَتْحِ ﴾ يوم إزالة الشبهة بإقامة القيامة أو يوم الغلبة على الأعداء ﴿ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إيمَانُهُمْ ولا هُمْ يُنْظَرونَ ﴾ يمهلون ويؤخرون أما إذا كان المراد يوم القيامة ، فإن الإيمان يومئذ لا ينفع الكافر لفوات الوقت ، ولا يمهل أيضا في إدراك العذاب ، ولا في بيان العذر فإنه لا عذر له ، وأما إذا كان المراد يوم النُصرة كيوم بدر ، فإنه لا ينفع إيمانه حال القتل ، إذ هو إيمان يأس ، كإيمان فرعون حين ألجمه الغرق ، ولا يتوقف في قتله أصلاً ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أي لا تبال بتكذيبهم ﴿ وانْتَظِرْ ﴾ النصرة عليهم ، وهلاكهم لصدق وعدي ﴿ إنَّهُمْ مُنْتَظِرونَ ﴾ الغلبة عليك ، وحوادث الزمان من موت أو قتل فيستريحوا منك ، أو إهلاكهم فإن استعجالهم المذكور ، وعكوفهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصي في حكم انتظارهم العذاب المترتب عليه لا محالة ، وقد أنجز الله وعده فنصر عبده ، وفتح للمؤمنين ، وحصل أمانيهم أجمعين .

« انتهى بعونه تعالى تفسير سورة السجدة »

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **يا أَيُّها النَّبِيُّ** ﴾ من النبأ وهو خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ، وسُمِّي نبياً لأنه مُنبيءٌ أي مخبر عن الله بما تسكن إليه العقول الزكية ، أو من النبوة أي الرفعة ، لرفعة محل النبي عن سائر الناس ، ناداه تعالى بالنبي لا باسمه ، أي لم يقل يا محمد ، كما قال يا آدم ويا نوح ويا موسى ويا عيسى ويا زكريا ويا يحيى ، تشريفاً ، فهو من الألقاب المشرفة الدالة على علو جنابه عليه السلام . وله أسماء وألقاب غير هذا ، وكثرة الأسماء والألقاب تدل على شرف المسمى ، وأما تصريحه باسمه في قوله (**مُحمَّدٌ رَسولُ اللهِ**) فلتعليم الناس أنه رسول الله وليعتقدوه كذلك ، ويجعلوه من عقائدهم الحقة ﴿ **اتَّقِ اللهَ** ﴾ في نقض العهد ، ونبذ الأمان ، واثبت على التقوى ، وزد منها ، فإنه ليس لدرجات التقوى نهاية ، وإنما حُمِلَتْ عَلَى الدوام لأن المشتغل بالشيء لا يؤمر به ، فلا يقال للجالس مثلاً اجلس ، أمره الله بالتقوى تعظيماً لشأن التقوى ﴿ **ولا تُطِعِ الكَافِرِينَ** ﴾ أي المجاهرين بالكفر ﴿ **والْمُنَافِقِينَ** ﴾ أي المضمرين له ، أي دم على ما أنت عليه من انتفاء الطاعة لهم فيما يخالف شريعتك ، ويعود بوهن في الدين ، وذلك أن رسول الله لم يكن مطيعاً لهم حتى يُنهى عن إطاعتهم ، لكنه أكد عليه ما كان عليه ، وثبت على التزامه ، والإطاعةُ : الانقياد ، وهو لا يتصور إلا بعد الأمر . فالفرق بين الطاعة والعبادة ، أن الطاعة فعل يعمل بالأمر لا غير ، بخلاف العبادة ﴿ **إنَّ اللهَ كانَ** ﴾ على الاستمرار والدوام لا في جانب الماضي فقط ﴿ **عَلِيماً** ﴾ بالمصالح والمفاسد ، فلا يأمرك إلا بما فيه مصلحة ، ولا ينهاك إلا عما فيه مفسدة ﴿ **حَكِيماً** ﴾ لا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة البالغة ﴿ **وَاتَّبِعْ** ﴾ في كل ما تأتي وما تذر من أمور الدين ﴿ **ما يُوحىٰ إليْكَ مِنْ رَبِّكَ** ﴾ في التقوى ، وترك طاعة الكافرين والمنافقين وغير ذلك ، أي فاعمل بالقرآن لا برأي الكافرين ﴿ **إنَّ اللهَ كانَ بما تَعْمَلونَ** ﴾ من الامتثال وتركه ، وهو خطاب للنبي عليه السلام والمؤمنين ﴿ **خَبِيراً** ﴾ فيرتب على كل منهما جزاءه ثواباً أو عقاباً ، فهو ترغيب وترهيب ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ** ﴾ أي فوض جميع أمورك إليه ﴿ **وَكفىٰ باللهِ** ﴾ أي الله تعالى ﴿ **وَكِيلاً** ﴾ حافظاً موكولاً إليه كل الأمور ﴿ **ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جوْفِهِ** ﴾ جعل بمعنى خلق ، والرجل مخصوص بالذكر من الإنسان ، والقلب مضغة صغيرة في هيئة الصنوبرة ، خلقها الله في الجانب الأيسر من صدر الإنسان ، معلقة بعرق الوتين ، وجعلها محلاً للعلم ، ووجوف الإنسان بطنه وفيه طعن على المنافقين ، كما قاله القرطبي : يعني أن الله تعالى لم يخلق للإنسان قلبين حتى يسع أحدهما الكفر والضلال ، والإصرار ، والانزعاج ، والآخر الإيمان والهدى فما بال هؤلاء المنافقين يظهرون ما لم يضمروه وبالعكس ، وعن ابن

عباس رضي الله عنهما : كان المنافقون يقولون ، إن لمحمد قلبين قلباً معنا ، وقلباً مع أصحابه ، فكذَّبهم الله ، وقال بعضهم : هذا رَدُّما كانت العرب تزعم من أن للعاقل المجرِّب للأمور قلبين ، ولذلك قيل لجميل بن معمر : ذو القلبين ، وكان من أحفظ العرب وأدهاهم ، وأهدى الناس إلى طريق البلدان ، وكان مبغضاً للنبي عليه السلام ، وكان هو أو جميل بن أسد يقول : في صدري قلبان اعقل بهما ، أفضل مما يعقل محمد بقلبه ، وكان الناس يظنون أنه صادق في دعواه ، فلما هزم الله المشركين يوم بدر ، انهزم فيهم ، وهو يعدو في الرمضاء وإحدى نعليه في يده والأخرى في رجله ، فلقيه أبو سفيان ، وهو يقول : أين نعلى ؟ أين نعلى ؟ ولا يعقل أنها في يده ، فقال له إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك ، فعلموا يومئذ أنه لو كان له قلبان ما نسي نعله في يده ﴿ **وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ** ﴾ نساءكم جمع زوج ، كما أن الزوجات جمع زوجة ، والزوج أفصح ﴿ **اللاَّئِي** ﴾ جمع التي ﴿ **تُظَاهِرونَ مِنْهُنَّ** ﴾ أي تقولون لهم أنتنَّ علينا كظهور أمهاتنا ، أي في التحريم ، فإن معنى ظَاهَرَ من امرأته قال لها أنت عليَّ كظهر أمي ، فهو مأخوذ من الظهر بحسب اللفظ ، وكان طلاقاً في الجاهلية ، وكانوا يجتنبون المطلقة ﴿ **أُمَّهَاتِكُمْ** ﴾ أي كأمهاتكم ، جمع أم ، والمعنى ما جمع الله الزوجية والأمومة في امرأة ، لأن الأم مخدومة لا يتصرف فيها ، والزوجة يتصرف فيها ، والمراد بذلك نفي ما كانت العرب تزعمه من أن الزوجة المظاهر منها كالأم ، وهو في الإسلام يقتضي الطلاق ، والحرمة إلى أداء الكفارة ، وهي عتق رقبة ، فإن عجز صام شهرين متتابعين ليس فيهما رمضان ولا شيء من الأيام المنهية ، وهي يوما العيد وأيام التشريق ، فإن عجز أطعم ستين مسكيناً كل مسكين كالفطرة أو قيمة ذلك .

﴿ **وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ** ﴾ جمع دَعيٍّ ، وهو الذي يُدَّعى ولداً ، ويتخذ ابناً أي المتبنَّي ، ﴿ **أبناءَكُمْ** ﴾ حقيقة في حكم الميراث ، والحرمة ، والنسب ، أي ما جعل الله الدعوة والبنوة في رجل ، لأن الدعوة عَرَض ، والبنوة أصلٌ في النسب ، ولا يجتمعان في الشيء الواحد ، وهذا أيضاً رد ما كانوا يزعمون من أن دعيَّ الرجُلِ ابنَهُ ، فيجعلون له من الميراث مثل نصيب الذكر من أولادهم ،ويُحرِّمون نكاح زوجته إذا طلقها ومات عنها ، ويجوز أن يكون نفي القلبين لتمهيد أصل يحمل عليه نفي الأمومة عن المظاهر منها ، والبنوة عن المتنَّبى ، والمعنى كما لم يجعل الله قلبين في جوف واحد لأدائه إلى التناقض ، وهو أن يكون كل منهما أصلاً لكل القوى ، وغير أصل ، كذلك لم يجعل الزوجة أماً ، والدعيَّ ابناً لأحد ، يعني كون المُظَاهَر منها أماً وكون الدعيّ ابناً ، أي بمنزلة الأم والابن في الآثار والأحكام المعهودة بينهم ، في الاستحالة بمنزلة اجتماع قلبين في جوف واحد ﴿ **ذَٰلِكُمْ** ﴾ هو إشارة إلى الأخير فقط ، لأنه المقصود من سياق الكلام ، أي دعاؤكم الدعيَّ بقولكم هذا ابني ﴿ **قَولُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ** ﴾ فقط لا حقيقة له في الأعيان ، فإذاً هو بمعزل عن أحكام البنوة كما زعمتم ، والأفواه جمع فم ، وكل موضع علق الله فيه حكم القول

بالفم ، فإشارة إلى الكذب وتنبيه على أن الاعتقاد لا يطابقه ﴿ وَاللهُ يقولُ الحَقَّ ﴾ أي الكلام المطابق للواقع ، لأن الحق لا يصدر إلا من الحق ، وهو أن غير الابن لا يكون ابناً ﴿ وَهُوَ يَهْدي السَّبيلَ ﴾أي سبيل الحق لا غير ، فدعوا أقوالكم وخذوا بقوله هذا . والسبيل من الطرق ما هو معتاد السلوك ، وما فيه سهولة ﴿ ادْعُوهُمْ لآبائِهِمْ ﴾ يقال فلان يدعى لفلان أي ينسب إليه ، فالمعنى انسبوا الأدعياء إلى الذين ولدوهم ، فقولوا زيد بن حارثة ، وكذا غيره ﴿ هُوَ ﴾ أي الدعاء لآبائهم ، ﴿ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ ﴾ القِسط بالكسر : العدلُ يقال : قَسَط الرجلُ إذا جار ، وأقسط إذا عدل و« أقسطُ » أفعلُ تفضيلٍ ، قُصد به الزيادة المطلقة ، والمعنى بالغٌ في العدل والصدق أي هو أعدل وأصدق من دعائهم إياهم لغير آبائهم .

﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَموا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ في الدِّينِ ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين ، يعني من أسلم منهم ﴿ وَمَواليكُمْ ﴾ وأولياؤكم فيه ، أي فادعوهم بالأخوّة الدينية والمولوية وقولوا هذا أخي ، وهذا مولاي بمعنى الأخوة والولاية في الدين ، فهو من الموالاة والمحبة ، ويدل عليه أن أبا حذيفة أعتق عبداً يقال له سالم وتبناه ، وكانوا يسمّونه سالم بن أبي حذيفة ، فلما نزلت هذه الآية سمّوه سالماً مولى أبي حذيفة ﴿ وليْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ ﴾ أي إثم ﴿ فيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ ﴾ أي فيما فعلتموه من ذلك مخطئين قبل النهي أو بعده على سبق اللسان أو النسيان ، وقال ابن عطية : لا تتصف التسمية بالخطأ إلا بعد النهي ، والخطأ العدول عن الجهة ﴿ وَلكِنْ ما تَعمَّدَتْ قُلوبُكُمْ ﴾ أي ولكن الجناح فيما قصدت قلوبكم بعد النهي ، وفي الحديث (من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام) [1] ﴿ وَكانَ اللهُ غَفوراً رَحيماً ﴾ بليغ المغفرة والرحمة ، يغفر الخطيئة ويرحم ﴿ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ يقال فلان أولى بكذا ، أي أحرى وأليق ، وروي أنه عليه السلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج ، فقال ناس : نشاورُ آباءنا وأمهاتنا ، فنزلت ، والمعنى النبي عليه السلام أحرى وأجدر بالمؤمنين من أنفسهم في كل أمر من أمور الدين والدنيا ، كما يشهد به الإطلاق على معنى أنه لو دعاهم إلى شيء ، ودعتهم نفوسهم إلى شيءٍ آخر ، كان النبي أولى بالإجابة إلى ما يدعوهم إليه من إجابة ما تدعوهم إليه نفوسهم ، لأن النَّبي ـ ﷺ ـ لا يدعوهم إلا إلى ما فيه نجاتهم ، وفوزهم ، وأما نفوسهم فربما تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم وبوارهم ، كما قال تعالى حكاية عن يوسف الصديق عليه السلام (إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوْءِ) فيجب أن يكون عليه السلام أحبَّ إليهم من أنفسهم ، وأمرُه أنفَذُ عليهم من أمرها ، وآثر لديهم من حقوقها ، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها ، وأن يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه في الخطوب والحروب ، ويتبعوه في كل ما دعاهم إليه ، وفي الحديث (مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً ،

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم بزيادة (من ادّعى أباً في الإسلام غير أبيه ..) إلخ وانظر جامع الأصول ١٠ / ٧٣٨ .

فجعل الجَنَادِبُ والفَرَاشُ يقعنَ فيها ، وهو يذبُّهنَّ عنها وأنا آخِذٌ بِحُجَزِكم عن النار وأنتم تَفَلَّتُونَ من يدي)[1] وفي الحديث (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وماله والناس أجمعين)[2] ﴿ وأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أي منزلات منازلهن في وجوب التعظيم والاحترام وتحريم النكاح ، كما قال تعالى (ولا أنْ تَنْكِحوا أَزْواجَهُ مِنْ بعْدِهِ أبداً) وأما فيما عدا ذلك من النظر إليهن ، والخلوة بهن ، والمسافرة معهن ، والميراث ، فهن كالأجنبيات فلا يحل رؤيتهن كما قال تعالى (وَإِذَا سَأَلتُمُوهُنَّ مَتاعاً فاسْأَلوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ) ولا الخلوة والمسافرة ، ولا يرثن المؤمنين ولا يرثونهن ، فبان أن معنى هذه الأمومة تحريم نكاحهن فقط ، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها : « لسنا أمهات النساء ، بل أمهات الرجال » وضعف ما قال بعض المفسرين من أنهن أمهات المؤمنين والمؤمنات جميعاً ، ولما ثبت التحريم خصوصاً لم يتعد إلى عشيرتهن ، فلا يقال لبناتهن أخوات المؤمنين ، ولا لأخوانهن وإخواتهن ، أخوال المؤمنين وخالاتهم ، ولهذا قال الشافعي تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر ، وهي أخت أم المؤمنين ، ولم يقل هي خالة المؤمنين ، ثم إن حرمة نكاحهن من احترام النبي عليه السلام ، واحترامه واجب ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ ﴾ أي ذو القرابات ﴿ بعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ ﴾ في التوارث ، كان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالموالاة في الدين ، والمؤاخاة ، وبالهجرة لا بالقرابة ، كما كانت تؤلف قلوب قوم بإسهام لهم في الصدقات ، ثم نسخ ذلك لمَّا قوي الإسلام وعزَّ أهله ، وجعل التوارث بالقرابة ﴿ فِي كِتابِ اللهِ ﴾ أي في اللّوح المحفوظ ، أو في القرآن المنزل ، وهو هذه الآية ، أو آية المواريث ، أو فيما فرض الله كقوله (كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ) ، ﴿ مِنَ المؤْمِنِينَ ﴾ يعني الأنصار ﴿ والمُهَاجِرِينَ ﴾ وهو بيان لأولي الأرحام أي الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى ببعض ، بأن يرث بعضهم بعضاً ، من الأجانب ﴿ إلاَّ أنْ تَفْعَلُوا إِلىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً ﴾ المراد بالأولياء من يوالونهم ويؤاخونهم ، وبفعل المعروف التوصية بثلث المال أو أقل منه ، لا بما زاد عليه ، أي أنهم أحقاء في كل نفع منهم ، إلا في الوصية ، لأنه لا وصية لوارث، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً أي الأقارب أحق بالميراث من الأجانب، لكن فعل التوصية أولى للأجانب من الأقارب ، لأنه لا وصية لوارث ﴿ كَانَ ذَلِكَ ﴾ أي ما ذكر في الآيتين من أولوية النبي عليه السلام وتوارث ذوي الأرحام ﴿ فِي الكِتَابِ ﴾ متعلق بقوله ﴿ مَسْطُوراً ﴾ أي مثبتاً محفوظاً في اللوح ، أو مكتوباً في القرآن ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك ، أو ليكن ذكر منك يعني لا تنس وقت أخذنا من الأنبياء كافة عند تحميلهم الرسالة ﴿ مِيثاقَهُمْ ﴾ الميثاق عقد يؤكد بيمين ، أي عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين الحق ﴿ وَمِنْكَ ﴾ أي وأخذنا منك يا محمد

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الفضائل باب شفقته ﷺ على أمته رقم / ٢٢٨٥ / وانظر جامع الأصول ١ / ٢٨٩ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم بلفظ « حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين » جامع الأصول ١ / ٢٣٨

خاصة ، وقدم تعظيماً وإشعاراً بأنه أفضل الأنبياء وإن كان آخرهم في البعث وفي الحديث (أنا سيدُ وَلَدِ آدمَ ولا فَخْر)[1] أي لا أقول هذا بطريق الفخر ﴿ وَمِنْ نُوحٍ ﴾ شيخ الأنبياء ، وأول الرسل بعد الطوفان ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ الخليل ﴿ وَمُوسَىٰ ﴾ الكليم ﴿ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ روح الله ، خصهم بالذكر مع اندراجهم في النبيين للإيذان بمزيد فضلهم ، وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع ، وأساطين أولى العزم من الرسل ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي من النبيين ﴿ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ أي عهداً وثيقاً شديداً على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالات ، وأداء الأمانات ، وهذا هو الميثاق الأول بعينه ، والتكرير لبيان هذا الوصف ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ والمعنى فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الأنبياء الذين صدقوا عهودهم عما قالوا لقومهم ، قال القرطبي : إذا كان الأنبياء يُسألون فكيف من سواهم ؟ ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ المكذبين للرسل ﴿ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ قال : فأثاب المؤمنين ، وأعدَّ للكافرين عذاباً أليما ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ رُوي أن النبي عليه السلام لما قدم المدينة صالح بني قريظة وبني النضير ، على أن لا يكونوا عليه بل معه ، فنقض بنو النضير وهم حي من يهودِ خيبر عهودهم ، فذهب رسول الله ﷺ لحاجة ومعه الخلفاء ، فجلس إلى جانب جدار من بيوتهم فَطَمِعوا فيه ، حتى صعد بعضهم على البيت ليلقي عليه صخرة فيقتله ، فأتاه الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام مسرعاً إلى المدينة ، ولما نقضوا العهد أرسل إليهم رسولُ الله ﷺ محمدَ بن مسلمة رضي الله عنه أن اخرجوا من بلدي يعني المدينة لأن قريتهم كانت من أعمالها فامتنعوا من الخروج بسبب عناد سيدهم حُيَيِّ بن أخطب ، وكان حيِيٌّ في اليهود يُشبَّهُ بأبي جهل في قريش ، فخرج عليه السلام مع أصحابه لمحاربتهم فحاصرهم ست ليال وقذف الله في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله أن يجليهم ويكفَّ عن دمائهم ، فمنهم من سار إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى أذرعات من بلاد الشام ، ولما وقع إجلاؤهم من أماكنهم سار سيدهم حيِيٌّ وجمع من كبرائهم إلى قريش في مكة يحرّضونهم على حرب رسول الله، ويقولون إنا سنكون معكم جملة واحدة ونستأصله، فَوَافَقَتْهُمْ قريش في مكة عدواتهم لرسول الله ، فنزلت الآية في قصة غزوة الخندق ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ذِكْرُ النعمةِ شُكْرُهَا ، أي اشكروا إنعام الله عليكم بالنُصرة ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ المراد الأحزاب من قريش وعطفان ونحوهما ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ من جانب الاسم القهار ليلاً ﴿ رِيحاً ﴾ أي ريح الصبا ، وهي تهب من جانب المشرق ، وفي الحديث (نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور)[1] ﴿ وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وهم الملائكة وكانوا ألفاً ، روي أن الله تعالى بعث على المشركين ريحاً باردة في ليلة ذات شتاء ، ولم تجاوز عسكرهم ، فأحصرتهم وسفت التراب في وجوههم ، وأمرت الملائكة فقلعت

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي ، وله تتمة تشير إلى عظيم قدر الرسول ﷺ عند ربّه .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه .

الأوتاد ، وقطعت الأطناب ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، ونفثت في روعهم الرعب ، وكبَّرت في جوانب معسكرهم ، حتى سمعوا التكبير وقعقعة السلاح ، واضطربت الخيول ، ونفرت فصار سيد كل حيٍّ ، يقول لقومه : يا بني فلان هَلُمُّوا إليَّ ، فإذا اجتمعوا قالَ النجاءَ النجاءَ ، أي الإسراع الإسراع ، وحملوا ما وقع على السحر ، فانهزموا من غير قتال ، وارتحلوا ليلاً ، وتركوا ما استثقلوه من متاعهم ﴿ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلونَ ﴾ من حفر الخندق وترتيب الأسباب ﴿ بَصِيراً ﴾ رائيا ، ولذلك فعل ما فعل من نصركم عليهم ، وعصمتكم من شرهم ، فلابد لكم من الشكر على هذه النعمة الجليلة ، باللِّسان والجَنانِ والأركان ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ ﴾ بدل من إذ جاءتكم ﴿ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ من أعلى الوادي من جهة المشرق ، وهم بنو غطفان ومن تابعهم من أهل نجد ، وقائدهم عيينة بن حصين الفزاري ، وعامر بن الطفيل ومعهم اليهود ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ أي من أسفل الوادي من قبل المغرب ، وهم قريش ومن تابعهم من الجماعات المتفرقة ، وقائدهم أبو سفيان ، ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصارُ ﴾ الزيغ الميل عن الاستقامة وفيه إشارة إلىما تداخلهم من الخوف ، حتى أظلمت أبصارهم والمعنى : وحين مالت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصاً ، لكثرة ما رأت من العَدَد والعُدَد ، فإنه كان مع قريش ثلاثمائة فرس ، وألف وخمسمائة بعير ﴿ وَبَلَغَتِ القُلوبُ الحَنَاجِرَ ﴾ جمع حنجرة ، وهي منتهى الحلقوم مدخل الطعام والشراب ، أي بلغت رأس الغلصمة من خارج رعباً وغماً ، لأن الرئة تنتفخ من شدة الفزع والغم ، فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة وهو مشاهد في مرض الخفقان ، قال قتادة : شخصت عن أماكنها فلولا أنه ضاق الحلقوم بها عن أن تخرج لخرجت ، وقال بعضهم : كادت تبلغ فإن القلب إذا بلغ الحنجرة مات الإنسان ، فعلى هذا يكون الكلام تمثيلاً لاضطراب القلوب من شدة الخوف ، وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة ، واعلم أنهم وقعوا في الخوف من وجهين : الأول : خافوا على أنفسهم من الأحزاب ، لأن الأحزاب كانوا أضعافهم ، والثاني : خافوا على ذراريهم في المدينة ،بسبب أن نَقَض بنو قريظة العهد ، وقد قاسوا شدائد البرد والجوع ، كما قال بعض الصحابة لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق زاداً ، وربط عليه السلام الحجر على بطنه من الجوع ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ ﴾ يا من يظهر الإيمان على الإطلاق ﴿ الظُّنُونَا ﴾ أنواع الظنون المختلفة ، حيث ظن المخلصون ثابتوا القلوب والأقدام ، أن الله تعالى ينجز وعده في إعلاء دينه ، أو يمتحنهم فخافوا الزلل ، وضعف الاحتمال ، كما في وقعة أحد ، وظن ضِعَافُ القلوب الذين هم على حرف والمنافقون ، ما حكي عنهم مما لا خير فيه ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك الزمان الهائل ، أو في ذلك المكان الدَّحْضِ الذي تُدْحَضُ فيه الأقدام ﴿ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ بالحصر والرعب ، أي عوملوا معاملة من يختبر ، فظهر المخلص من المنافق ، والراسخ من المتزلزل ﴿ وَزُلْزِلوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ التزلزل الاضطراب ، وكذا الزلزلة شدة الحركة ، والمعنى حركوا تحريكاً شديداً وقد صح أن من في قلبه مرض فرَّ إلى المدينة ، وبقي مع رسول الله ﷺ أهل اليقين من المؤمنين ، وهذا وإن كان بياناًللاضطراب في

الابتداء ، لكن الله تعالى هوَّن عليهم الشدائد في الانتهاء حتى تفرقت عن قلوبهم الغموم ، وتفجرت ينابيع السكينة ، وهذا عادة الله مع المخلصين ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** ﴾ ضعف اعتقاد ، فإن قلت : ما الفرق بين المنافق والمريض ؟ قلت : المنافق من كذب الشيء تكذيباً لا يعتريه فيه شك ، والمريض من قال الله تعالى في حقه (**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ**) فالمرض الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان ، وهو ضربان : جسمي ، ونفسي ، كالجهل والجبن والنفاق ونحوها من الرذائل الخلقية ، وشبه النفاق والكفر ونحوهما من الرذائل بالمرض ، إما لكونها مانعة عن إدراك الفضائل كالمرض المانع عن التصرف الكامل ، وإما لكونها مانعة عن تحصيل الحياة الأخروية المذكورة في قوله (**وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ**) ، وإمَّا لميل النفس بها إلى الاعتقادات الرديئة كَمَيْلِ بدن المريض إلى الأشياء المضرة ﴿ **مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ** ﴾ من الظفر وإعلاء الدين وهم لم يقولوا رسول الله وإنما قالوا باسمه ، ولكن الله ذكره بهذا اللفظ ﴿ **إِلا غُرُوراً** ﴾ أي وعد غرور والقائل لذلك معتب بن قشير ومن تَبِعه ، ﴿ **وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِنْهُمْ** ﴾ هم أوس بن قيظي ومن تبعه في رأيه ﴿ **يَا أَهْلَ يَثْرِبَ** ﴾ هو اسم للمدينة المنورة وقد نهى النبي عليه السلام أن تسمى المدينة بيثرب ، وقال هي طيبة أو طابة والمدينة ، كأنه كره هذا اللفظ لأن يثرب يفعل من التثريب وهو اللوم الذي لا يستعمل إلا فيما يكره غالباً ، ولذلك نفاه يوسف الصديق عليه السلام حيث قال لاخوته (**لاتَثْرِيبَ عليْكُمُ اليَوْمَ**) وكأن المنافقين ذكروها بهذا الاسم مخالفة له عليه السلام ، فحكى الله عنهم كما قالوا ، وقوله عليه السلام حين أشار إلى دار الهجرة (لا أراها إلا يثرب) ونحو ذلك من كل ما وقع في كلامه عليه السلام ، من تسميتها بذلك ، كان قبل النهي عن ذلك ﴿ **لاَ مُقَامَ لَكُمْ** ﴾ لا موضع إقامة لكم ههنا لكثرة العدو ، وغلبة الأحزاب ، يريدون المعسكر ﴿ **فَارْجِعُوا** ﴾ أي إلى منازلكم بالمدينة ، ومرادهم الأمر بالفرار ، لكنهم عبروا عنه بالرجوع ، ترويجاً لمقالهم ، وإيذاناً بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم ، وقد ثبطوا الناس عن الجهاد والرباط لنفاقهم ومرضهم ، ولم يوافقهم إلا أمثالهم ، فإن المؤمن المخلص لا يختار إلا الله ورسوله ، وفيه إشارة إلى حال أهل الفساد والإفساد في هذه الأمة إلى يوم القيام نسأل الله تعالى أن يقيمنا على نهج الصواب ويجعلنا من أهل التواصي بالحق والصبر دون التزلزل والاضطراب ﴿ **وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ** ﴾ يعني بني حارثة وبني سلمة ﴿ **يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا** ﴾ في المدينة ﴿ **عَوْرَةٌ** ﴾ أطلقت على المختل مبالغة ، يقال : عَوَر المكان عَوَراً إذا بدا فيه خلل يخاف منه العدو والسارق وفلان يحفظ عورته أي خلله ، والمعنى إنها غير حصينة متخرّقة مُمَكِّنَةٌ لمن أرادها ، فأذن لنا حتى نُحْصِنْها ، ثم نرجع إلى المُعَسْكَرِ ، وكان عليه السلام يأذن لهم ﴿ **وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ** ﴾ أي والحال أنها ليست كذلك ، بل هي

حصينة محرزة ﴿ إِنْ يُرِيدُونَ ﴾ ما يريدون بالاستئذان ﴿ إِلاَّ فِراراً ﴾ من القتال ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أسند الدخول إلى بيوتهم وأوقع عليهم ، لما أن المراد فرض دخولها وهم فيها ﴿ مِنْ أَقْطَارِها ﴾ جمع قُطر بالضم بمعنى الجانب ، أي من جميع جوانبها لا من بعضها دون بعض ، فالمعنى لو كانت بيوتهم مختلة بالكلية ودَخَلها كُلّ من أراد الخبث والفساد ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا ﴾ من جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة ﴿ الفِتْنَةَ ﴾ أي الردة والرجعة إلى الكفر ، مكان ما سئلوا من الإيمان والطاعة ﴿ لآتَوْهَا ﴾ لأعطوها السائلين أي أعطوهم مرادهم ، غير مبالين بما دهاهم من الداهية والغارة ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً ﴾ قدر ما يسمع السؤال والجواب من الزمان ، فضلاً عن التعلل باختلال البيوت مع سلامتها كما فعلوا الآن ، وما ذلك إلا لمقتهم الإسلام وشدة بغضهم لأهله ، وحبهم الكفر وتهالكهم على حزبه ﴿ ولقدْ كَانُوا ﴾ أي الفريق الذين استأذنوك للرجوع إلى منازلهم في المدينة ، وهم بنو حارثة وبنو سلمة ﴿ عَاهَدُوا اللهَ ﴾ العهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال ، والمعاهدةُ المعاقدة ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل واقعة الخندق ، يعني يوم أحد حين هموا بالانهزام ، ثم تابوا لما نزل فيهم ما نزل كما سبق في آل عمران﴿ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ ﴾ المعنى لا يتركون العدو خلف ظهورهم ، ولا يفرُّون من القتال ، ولا ينهزمون ولا يعودون لمثل ما في يوم أحد ، ثم وقع منهم هذا الاستئذان نَقْضاً للعهد ﴿ وكانَ عَهْدُ اللهِ مسْئُولاً ﴾ مطلوباً مقتضى حتى يوفَى ، أو مسئولا يوم القيامة ، يسأل عنه هل وَفَّى المعهودَ بِهِ ، أو نقضه فيجازى عليه ، وهذا وعيد ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهم ﴿ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الموْتِ أَوِ القَتْلِ ﴾ فإنه لابد لكل شخص من الفناء والهلاك ، سواء كان بحتف أنف ، أو بقتل سيف ، في وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه القلم ، ولا يتغير أبداً ، والقتل فعل يحصل به زهوق الروح ﴿ وَإِذاً لاتُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي وإن نفعكم الفرار مثلاً ، فَمُتِّعْتُمْ بالتأخير ، لم يكن ذلك التمتيع إلا تمتيعاً أو زماناً قليلاً ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ ﴾ العصمة : الإمساك والحفظ ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ أي من قضائه ﴿ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً ﴾ وهو كلّ ما يسوء الإنسان ويغمُّه ، والمراد هنا القتل والهزيمة ونحوهما ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ من عافية ونُصرة وغيرهما ، مما هو من آثار الرحمة ﴿ وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ ﴾ أي لأنفسهم ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ متجاوزين الله تعالى ﴿ وَلِيّاً ولا نَصِيراً ﴾ يدفع الضرر عنهم ، واعلم أن الآيات دلّت على أمور ، الأول : أن الموت لابد منه ، والثاني : أن الفرار لا يزيد في الآجال ، ومن أسْوءُ حالاً ممن سعى لتبديل الآجال والأرزاق ، ورجا دفع ما قدر له ، وإنه لا يقيه منه واق ، والثالث : أن من اتخذ الله ولياً ونصيراً نال ما يتمناه قليلاً وكثيراً إنه الولي النصير ذو الفضل الكثير ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ ﴾ قد لتأكيد العلم بالتعويق ، والتعويق : التثبيط والخطاب لمن أظهر الإيمان مطلقاً ، والمعنى قد علم الله المثبطين للناس عن نصرة رسول الله ﷺ ، الصارفين عن طريق

الخير ، وهم المنافقون أياً من كان منهم ﴿ **والقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ** ﴾ من منافقي المدينة ، فالمراد الأخوَّة في الكفر والنفاق ﴿ **هَلُمَّ إِلَيْنَا** ﴾ هَلُمَّ : اسم فعل أمر بمعنى أَقبلْ أي قرِّبوا أنفسكم إلينا ، وهذا يدل على أنهم عند هذا القول ، خارجون عن المعسكر متوجهون نحو المدينة فِراراً من العدو ﴿ **ولا يأْتُونَ البَأْسَ** ﴾ أي الحرب والقتال ، وهو في الأصل الشدة ﴿ **إلاَّ** ﴾ إتياناً ﴿ **قَلِيلاً** ﴾ فإنهم يعتذرون ، ويتأخرون ما أمكن لهم ، أو يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم ، لا تراهم يبارزون ويقاتلون إلا شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه ، وهذا على تقدير عدم الفرار ﴿ **أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ** ﴾ جمع شحيح وهو البخيل والشحُّ : بخل مع حرص ، وذلك فيما كان عادة ، أي حال كونهم بخلاء عليكم بالمعاونة ، أو الإنفاق في سبيل الله على فقراء المسلمين ﴿ **فَإِذَا جَاءَ الخَوْفُ** ﴾ خوف العدو ﴿ **رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ** ﴾ في تلك الحالة ﴿ **تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ** ﴾ في أحداقهم يميناً وشمالاً ﴿ **كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الموْتِ** ﴾ أي دورانا كائناً كدوران عين المغشي عليه من معالجة سكرات الموت ، حذراً وخوفاً ، والتجاءً بك ﴿ **فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ** ﴾ وجُمِعَتْ الغنائم ﴿ **سَلَقُوكُمْ** ﴾ يقال سلقه بالكلام آذاه ﴿ **بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ** ﴾ أي جهروا فيكم بالسوء من القول ، وآذوكم . والحِدَادُ جمع حديد ، وذلك إذا كان يؤثِّر تأثير الحديد ، يعني قالوا وفّروا قسمنا فإنا قد ساعدناكم ، وقاتلنا معكم ، وبكاننا غلبتم عدوكم ، وبنا نصرتم عليه ﴿ **أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ** ﴾ فهم عند الغنيمة أشح الناس ، وأجبنُهم عند البأس ﴿ **أُولَٰئِكَ** ﴾ الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ﴿ **لَمْ يُؤْمِنُوا** ﴾ بإخلاص حيث أبطنوا خلاف ما أظهروه ، فصاروا أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله ﴿ **فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ أي أظهر بطلانها ، إذ لم يثبت لهم أعمال فتبطل لأنهم منافقون ، وفي هذا دلالة على أن المعتَبر عند الله هو العمل المبني علي التصديق ، وإلا فهو كبناء على غير أساس ﴿ **وكَانَ ذَلِكَ** ﴾ الإحْبَاطُ ﴿ **عَلَى اللهِ يَسِيراً** ﴾ هَيِّناً ﴿ **يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا** ﴾ أي هؤلاء المنافقون لجبنهم المفرط يظنون أن الأحزاب لم ينهزموا ، ففروا إلى المدينة ، والأحزاب هم الذين تحزَّبوا على النبي عليه السلام يوم الخندق ، وهم قريش وغطفان وبنو قريظة والنضير من اليهود ﴿ **وَإِنْ يأْتِ الأَحْزَابُ** ﴾ كرة ثانية إلى المدينة ﴿ **يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ** ﴾ تمنوا أنهم خارجون من المدينة إلى البدو ، وحاصلون بين الأعراب لئلا يقاتلوا . والودُّ : محبة الشيء وتمنِّي كونه ، وبدأ يبدو بداوة إذا خرج إلى البادية ، فالبادون خلاف الحاضرين ، والبدو خلاف الحضر ﴿ **يَسْأَلُونَ** ﴾ كل قادم من جانب المدينة ﴿ **عَنْ أَنْبَائِكُمْ** ﴾ عن أخباركم وعما جرى عليكم وهو داخل تحت الودِّ ، أي يودون أنهم غائبون عنكم يسمعون أخباركم بسؤالهم عنها ، من غير مشاهدة ﴿ **وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ** ﴾ في الخندق هذه الكرة الثانية ، ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال ﴿ **ما قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ رياء وخوفاً من التعبير ، من غير حسبة ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ** ﴾ أيها المؤمنون ، وهوالظاهر من قوله فيما بعد لمن كان يرجو

الله إلخ ﴿ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ قال الراغب : الأسوة كالقدوة ،والقدوة الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره ، إن حسناً وإن قبيحاً ويقال تأسَّيتُ به أي اقتديت ، والمعنى لقد كان لكم في محمد ﷺ خصلة حسنة وسنة صالحة حقُّها أن يُؤْتَسَى بها ، أي يُقتدي كالثبات في الحرب ، ومقاساة الشدائد ، فإنه قد شج فوق حاجبه ، وكسرت رباعيته ، وقُتِلَ عمه حمزة يوم أحد ، وأوذي بضروب الأذى فوقف ولم ينهزم ، وصبر فلم يجزع فَاسْتَنُّوا بسنته ، وانصروه ولاتتخلفوا عنه ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرجُوا اللهَ واليوْمَ الآخِرَ ﴾ أي يُأمِّل ثواب الله ونعيم الآخرة ، أو يخاف الله واليوم الآخر . فالرجاء يحتمل الأمل والخوف ﴿ وَذكَرَ اللهَ كَثيراً ﴾ أي ذِكراً كثيراً في جميع أوقاته وأحواله ، أي وقرن بالرجاء كثرة الذكر المؤدية إلى ملازمة الطاعة ، وبها يتحقق الائتساء برسول الله ﷺ ، قال الحكيم الترمذي ، الأسوة في الرسول الاقتداء به ، والاتباع لسنته ، وترك مخالفته في قول وفعل ، فمتابعة الرسول تجب على كل مؤمن حتى يتحقق رجاؤه ، ويثمر عمله ، وذكر الرجاء اللازم للإيمان بالغيب في مقام النفس ، وقرن به الذكر الكثير الذي هو عمل ذلك المقام ، ليعلم أن من كان في البداية يلزم متابعته في الأعمال والأخلاق والمجاهدات بالنفس والمال إذ لو لم يستحكم البداية لم يفلح بالنهاية ، ثم إذا تجرد وتزكى عن صفات نفسه فليتابعه في موارد قلبه كالصدق والإخلاص والتسليم ، ليحتظي بركة المتابعة بالمواهب والأحوال وتجليات الصفات في مقام القلب كما احتظى بالمكاسب والمقامات وتجليات الأفعال في مقام النفس ، وهكذا في مقام الروح اقتداءً به عليه السلام ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤمِنُونَ الأَحْزَابَ﴾ أي الجنود المجتمعة لمحاربة النبي عليه السلام وأصحابه يوم الخندق . والحزب جماعة فيها غلظ ﴿ قَالُوا هٰذَا ﴾ البلاء العظيم ﴿ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ بقوله تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلوا الجَنَّةَ ولَمَّا يأْتِكُمْ مثَلُ الَّذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البأْسَاءُ والضَّرَّاءُ) الآية وقوله عليه السلام (سيشتدّ الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم)وإخباره عليه السلام (بأن الأحزاب سائرون إليكم بعد تسع ليال أو عشر) ﴿ وصَدَقَ اللهُ ورَسُولُهُ ﴾ أي ظهر صدق خبرالله ورسوله ﴿ وما زادَهُمْ ﴾ ما رأوه ﴿ إلاَّ إيمَاناً ﴾ بالله ومواعيده ﴿ وَتَسْلِيماً ﴾ لأوامره ومقاديره .

﴿ مِنَ المؤْمِنينَ ﴾ بالإخلاص ﴿ رِجالٌ صَدَقُوا ﴾ أتوا الصدق في ﴿ مَا عاهَدوا اللهَ عَليْهِ ﴾ من الثبات مع الرسول ، والمقاتلة لإعلاء الدين ، أي حققوا العهد بما أظهروه من أفعالهم ، وهم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبد الله ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وحمزة ، ومصعب بن عمير وأنس بن النضير ، وغيرهم رضي الله عنهم ، نذروا أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ، قال الحكيم الترمذي : فحقيقة الرجولية الصدق ، ومن لم يدخل في ميادين الصدق فقد خرج من حد الرجولية ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ﴾ تفصيل لحال الصادقين ، وتقسيم لهم إلى قسمين ، والنَّحْبُ : النذر

المحكوم بوجوبه ، وهو أن يلتزم الإنسان شيئاً من أعماله ويوجبه على نفسه ، وقضاؤه الفراغ منه والوفاء به ، يقال : قضى فلان نحبه أي وفى بنذره ، ويعبر بذلك عمن مات كقولهم : قضى أجله ، واستوفى أَكْلَه ، وقضى من الدنيا حاجته ، وذلك لأن الموت كنذر لازم في عنق كل حيوان ، أي فبعضهم من خرج عن عهدة النَذْرِبأَنْ قاتل حتى استشهد ، كحمزة ، ومصعب بن عمير ، وأنس بن النَّضر الخزرجي الأنصاري عم أنس بن مالك رضي الله عنه ﴿ **وَمِنْهُمْ** ﴾ أي وبعضهم ﴿ **مَنْ يَنْتَظِرُ** ﴾ قضاء نذره ، لكونه موقتاً كعثمان ، وطلحة وغيرهما فإنهم مستمرون على نذورهم ، وقد قضوا بعضها ، وهو الثبات مع رسول الله ﷺ ، والقتال إلى حين نزول الآية الكريمة ، ومنتظرون قضاء بعضها الباقي ، وهو القتال إلى الموت شهيداً ، وفي وصفهم بالإنتظار إشارة إلى كمال اشتياقهم إلى الشهادة ﴿ **وَمَا بَدَّلُوا** ﴾ عطف على صدقوا أي ومابدلوا عهدهم ، وماغيروه ﴿ **تَبْدِيلاً** ﴾ أبداً ، لاأصلاً ، ولا وصفاً ، بل ثبتوا عليه راغبين فيه ، مراعين لحقوقه على أحسن ما يكون ، أما الذين قضوا فظاهر ، وأما الباقون فيشهد به انتظارهم أصدق الشهادة ، روي أن طلحة رضي الله عنه ثبت مع رسول الله يوم أحد يحميه ، حتى أصيبت يده وجرح أربعاً وعشرين جراحة فقال عليه السلام (أوجب طلحة الجنة) وسماه النبي عليه السلام يومئذ طلحة الخير ، ويوم حنين طلحة الجود ، ويوم غزوة ذات العسرة طلحة الفياض ، وقتل يوم الجمل ، وفي الآية تعريض بأرباب النفاق ، وأصحاب مرض القلب ، فإنهم ينقضون العهود ، ويبدّلون العقود ﴿ **لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ** ﴾ أي وقع جميع ما وقع ، ليجزي الله الصادقين بما صدر عنهم من الصدق ، والوفاء ، قولاً وفعلاً ، قال في كشف الأسرار : في الدنيا بالتمكين والنصرة على العدو وإعلاء الراية ، وفي الآخرة بجميل الثواب ، وجزيل المآب ، والخلود في النعيم المقيم ، والتقديم على الأمثال بالتكريم والتعظيم ﴿ **وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ** ﴾ بما صدر عنهم من الأقوال والأعمال المحكية ﴿ **إِنْ شَاءَ** ﴾ تعذيبهم ، أي إن لم يتوبوا ، فإن الشرك لا يُغفر البَتّة﴿ **أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي يقبل توبتهم إن تابوا ﴿ **إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً** ﴾ ستوراً على من تاب ، محاء لما صدر منه ﴿ **رَحِيماً** ﴾ مُنعماً عليه الجنة والثواب ﴿ **وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ يعني الأحزاب ، وهو رجوع إلى حكاية بقية القصة ، أي وقع ما وقع من الحوادث ، وَرَدَّ الله الذين كفروا حال كونهم ملتبسين ﴿ **بِغَيْظِهِمْ** ﴾ وحسرتهم ، والغيظ أشد الغضب ، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من ثوران دم قلبه ﴿ **لَمْ يَنَالُوا خَيْراً** ﴾ أي حال كونهم لم يصيبوا ما أرادوا من الغلبة ، وسماها خيراً لأن ذلك كان عندهم خيراً ، فجاء على استعمالهم وزعمهم ﴿ **وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ** ﴾ بما ذكر من إرسال الريح الشديدة والملائكة ﴿ **وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً** ﴾ على إحداث كل ما يريده ﴿ **عَزِيزاً** ﴾ غالباً على كل شيء ، ثم أخبر بالكفاية الأخرى فقال ﴿ **وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ** ﴾ أي عاونوا الأحزاب المردودة على رسول الله ﷺ والمسلمين حين نقضوا العهد ﴿ **مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾ وهم

بنو قريظة ، قوم من اليهود بالمدينة من حلفاء الأوس ، وسيد الأوس حينئذ «سعد بن معاذ» رضي الله عنه ﴿ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ من حصونهم ، جمع صِيصِية وهي ما يتحصن به ﴿ وَقَذَفَ ﴾ رمى وألقى ﴿ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أي الخوف والفزع ، بحيث سلموا أنفسهم للقتل ، وأهليهم وأولادهم للأسر حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ يعني رجالهم ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ﴾ يعني نساءهم وصبيانهم ، من غير أن يكون من جهتهم حركة ، فضلاً عن المخالفة ، والأسرُ الشدُّ بالقيد ، وإن لم يكن مشدوداً ذلك ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ﴾ مزارعهم وحدائقهم ﴿ وَدِيَارَهُمْ ﴾ حصونهم وبيوتهم ﴿ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ نقودهم وأثاثهم ومواشيهم ، شبهت في بقائها على المسلمين بالميراث الباقي على الوارثين ، إذ ليسوا في الشيء منهم من قرابة ولا دين ولا ولاء ، فأهلكهم الله على أيديهم ، وجعل أملاكهم وأموالهم غنائم لهم ، باقية عليهم كالمال الباقي على الوارث ﴿ وَأَرْضاً ﴾ في علمه وتقديره ﴿ لَمْ تَطَؤُهَا ﴾ بأقدامكم بعد ، كفارس والروم ، وما ستفتح إلى يوم القيامة من الأراضي والممالك ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيراً ﴾ فقد شاهدتم بعض مقدوراته ، من إيراث الأرض التي تسلمتموها ، فقيسوا عليها ما بعدها ، روي أنه لما رجع رسول الله ﷺ من الخندق ، وكان وقت الظهيرة وصلى الظهر ودخل بيت زينب ، وقد غسلت شق رأسه الشريف ، أتى جبريلُ عليه السلام على فرسه معتجراً بعمامة سوداء ، فقال : أَوَقَدْ وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم ، قال جبريل : ما وَضَعَتْ ملائكة الله السلاح منذ نزل بك العدو ، إنَّ الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة ، فإني عامد إليهم بمن معي من الملائكة ، فمزلزل بهم الحصون ، فأمر عليه السلام بلالاً رضي الله عنه فأذن في الناس من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينَّ العصر إلا في بني قريظة ، وقد لبس عليه السلام الدرع والمِغْفَرَ وأخذ قناة بيده الشريفة ، وتقلد السيف وركب فرسه والناس حوله قد لبسوا السلاح ، وهم ثلاثة آلاف واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه ودفع اللواء إلى علي رضي الله عنه وكان اللواء على حاله لم يُحلّ من مرجعه من الخندق وأرسله متقدماً مع بعض الأصحاب ، ومرَّ عليه السلام بنفر من بني النجار قد لبسوا السلاح فقال هل مرَّ بكم أحد قالوا نعم دِحْيَةُ الكلبي رضي الله عنه وأمرنا بحمل السلاح وقال لنا رسول الله ﷺ يطلع عليكم الآن ، فقال : ذلك جبريل ، فلما دنا علي رضي الله عنه من الحصون ، وغرز اللواء عند أصل الحصون ، سمع من بني قريظة مقالة قبيحة في حقه عليه السلام وحق أزواجه ، فسكت المسلمون وقالوا السيف بيننا وبينكم ، فلما رأى علي رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ مُقبلاً أمر قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن يلزم اللواء ورجع إليه عليه السلام ، فقال : يا رسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث قال لعلك سمعت منهم لي أذي ، قال : نعم ، قال : لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً ، فلما دنا من حصونهم قال : يا إخوان القردة والخنازير ـ لأن اليهود مُسِخَ شُبَّانُهم قردة وشيوخهم خنازير في زمن داود عليه السلام ـ أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ، أتشتمونني فجعلوا يحلفون

ويقولون ما قلنا : يا آبا القاسم ما كنتَ فحَّاشاً ، ثم إن جماعة من الصحابة شغلهم ما لم يكن منه بد عن المسير لبني قريظة ليصلوا بها العصر فأخروا صلاة العصر إلى أن جاؤا بعد العشاء الأخيرة فصلوها هناك امتثالاً لقوله عليه السلام (لا يُصَلِينَّ أحدكُمْ العصر إلا في بني قريظة) وقال بعضهم نصلي ، ما يريد رسول الله منا أن ندع الصلاة ونخرجها عن وقتها ، وإنما أراد الحثَّ على الإسراع ، فصلوها في أماكنهم ثم ساروا ، فما عابهم الله في كتابه ولا عنفهم رسول الله ﷺ لقيام عذرهم في التمسك بظاهر الأمر ، فكل من الفريقين متأول ومأجور بقصده ، وهو دليل على أن كل مختلفين في الفروع من المجتهدين مصيب ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ** ﴾ الرفيع الشأن المخبرُ عنِ اللهِ الرحمن ﴿ **قُلْ** ﴾ أمر وجوب في تخييرهن ، وهو من خصائصه عليه السلام ﴿ **لأَزْوَاجِكَ** ﴾ نسائك ، وهن يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش (عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأم سلمة ، وسودة العامرية) وأربعٌ من غير قريش ، (زينب بنت جحش ، وميمونة بنت الحارث ، وصفية بنت حيي بن أخطب ، وجويرية بنت الحارث) ، ﴿ **إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيٰوةَ الدُّنْيَا** ﴾ أي السعة والتنعم فيها ﴿ **وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ** ﴾ أجبْنَ على ما أعرض عليكنَّ ، وأقبلن بإرادتكن واختياركن لإحدى الخصلتين ﴿ **أُمَتِّعْكُنَّ** ﴾ أي أعطكن المتعة سوى المهر ، ﴿ **وَأُسَرِّحْكُنَّ** ﴾ السرح شجر له ثمرة والتسريح مستعار من تسريح الإبل والمعنى أُطلقْكُنَّ ﴿ **سَرَاحاً جَمِيلاً** ﴾ طلاقاً من غير ضرار وبدعة ، وتقديم التمتيع على التسريح من باب الكرم ، وفيه قطع لمعاذيرهن من أول الأمر ﴿ **وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ أي تردن رسوله وصحبته ، ورضاه ، وذكر الله للإيذان بجلالته عليه السلام عنده تعالى ﴿ **وَالدَّارَ الآخِرَةَ** ﴾ أي نعيمها الذي لا قدر عنده للدنيا وما فيها جميعاً ... ﴿ **فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ** ﴾ بمقابلة إحسانهن ، ومِنْ للتبيين ، لأن كلهن محسنات أصلح نساء العالمين ، ولم يقل لكن ، إعلاماً بأن كل الإحسان في إيثار مرضاة الله ورسوله ، على مرضاة أنفسهن ﴿ **أَجْراً عَظِيماً** ﴾ لا يُعرف كنهه وغايته ، وهو السرّ فيما ذكر من تقديم التمتيع على التسريح ، وفي وصف التسريح بالجميل ، ولما نزلت هذه الآية بدأ عليه السلام بعائشة رضي الله عنها ، وكانت أحبَّ أزواجه إليه ، وقرأها عليها ، وخيَّرها فاختارت الله ورسوله - وروى - أنه قال لعائشة رضي الله عنها : أني ذاكر لك أمراً ، أُحِبُّ أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك ، أي تشاوري ، لما علم أن أبويها لا يأمرانها بفراقه عليه السلام ، قالت وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآية ، فقالت أفي هذا أستأمر أبويَّ ؟ بل أختارُ الله ورسولَه والدارَ الآخرة ، ثم اختارت الباقياتُ اختيارها ، فلما آثرنه عليه السلام ، والنعيم الباقي على الفاني ، شكر الله لهن ذلك ، وحرّم على النبي ﷺ التزوج بغيرهن فقال (**لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ**) الآية كما سيأتي ، ﴿ **يا نِساءَ النَبيِّ** ﴾ توجيه الخطاب إليهن ، لإظهار الاعتناء بنُصحهن ، ونداؤهن ههنا وفيما بعده بالإضافة إليه عليه السلام ،

لأنها التي يدور عليها ما يرد عليهن من الأحكام ﴿ **مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ** ﴾ بسيئة بليغة في القبح ، وهي الكبيرة ﴿ **مُبَيِّنَةٍ** ﴾ ظاهرة القبح ، من بيّن بمعنى تبيّن ، قيل هذا كقوله تعالى (**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**) لأنه ليس منهن من أتت بفاحشة ، أي معصية ظاهرة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني النشوز ، وسوء الخلق ، والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ، ولعل وجه قول ابن عباس رضي الله عنهما ، أن الزَّلَة منهن كسُوءِ الخلق ، مما يعد فاحشة بالنسبة إليهن ، لشرفهن وعلو مقامهن ، خصوصاً إذا حصل بها أذية النبي ﷺ ولذا قال ﴿ **يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ** ﴾ أي يعذبن ضعفي عذاب غيرهن ، أي مثليه ﴿ **وَكَانَ ذَلِكَ** ﴾ أي تضعيف العذاب ﴿ **عَلَى اللهِ يَسِيراً** ﴾ لا يمنعه عنه كونهن نساء النبي ، بل يدعوه إليه لمراعاة حقه ، وإن قيل ما وجه تضعيف العذاب لزوجات النبي عليه السلام ؟ الجواب لما كان فنون نعم الله عليهن أكثر ، وترداد الوحي إلى حجراتهن بإنزال الملائكة ، فلا جرم كانت عقوبتهن عند مخالفة الأمر ، من أعظم الأمور وأفخمها ، ولهذا قيل أن عقوبة من عصى الله تعالى عن العلم ، أكثر من عقوبة من يعصيه عن الجهل ، وحدّ الحرِّ أعظمُ من حَدِّ العبد ، وحد المحصن أعظمُ من حد غير المحصن لهذه الحقيقة ، والحاصل أن الذنب يعظم بعظم جانيه ، وزيادة قبحه تابعة لزيادة شرف المذنب والنعمة ، فلما كانت الأزواج المطهرة أمهات المؤمنين ، وأشراف نساء العالمين ، كان الذنب منهن أقبح ، على تقدير صدوره ، وعقوبة الأقبح أشد وأضعف ﴿ **وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ** ﴾ ومن تدم على الطاعة ، والقنوت لزوم الطاعة مع الخضوع ﴿ ، **وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ** ﴾ مرة على الطاعة والتقوى ، وأخرى على طلبها رضى رسول الله بالقناعة ، وحسن المعاشرة ﴿ **وَأَعْتَدْنَا لَهَا** ﴾ في الجنة زيادة على أجرها المضاعف ، الإعتادُ : ادّخار الشيء قبل الحاجة إليه كالاعداد ﴿ **رِزْقاً كَرِيماً** ﴾ أي حسناً مرضياً وكل شيء يشرف في بابه فإنه كريم ، وفيه إشارة إلى أن الرزق الكريم في الحقيقة هو نعيم الجنة ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ** ﴾ والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل والشرف ، بسبب صحبة النبي عليه السلام ، فإن المضاف إلى الشريف شريف ﴿ **إِنِ اتَّقَيْتُنَّ** ﴾ مخالفةَ حكم الله ، ورضى رسوله ، ويحتمل أن يكون شرطاً لخيريتهن ، وبياناً أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى ، لا باتصالهن بالنبي عليه السلام فقط .

﴿ **فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ** ﴾ عند مخاطبة الناس ، أي لا تجبن بقولكن خاضعاً ليناً ، مثل قول المطمعات ، والخضوع التطامن ، والتواضع والسكون ، والمرأة مندوبة إلى الغلظة في المقالة إذا خاطبت الأجانب ، لقطع الأطماع ، فإذا أتى الرجل بيت إنسان وهو غائب ، فلا يجوز للمرأة أن تلين بالقول معه وترقّق الكلام به ، فإنه يهيج الشهوة ويورث الطمع كما قال ﴿ **فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** ﴾ أي محبة فجور ﴿ **وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً** ﴾ بعيداً عن التهمة والإطماع ، بجد وخشونة ، لا بتكسّر وتَغنُّجٍ كما

يفعله المخنث ، فالزنى من أسباب الهلاك المعنوي ، كالمرض من أسباب الهلاك الصوري ، وسببه الملاينة والمطاوعة ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ** ﴾ أصلُه اقررن نقلت حركة الراء الأولى إلى القاف ، وحذفت لالتقاء الساكنين ، ثم حذفت همزة الوصل استغناء عنها فصار قرن والمعنى : الزمن يانساء النبي بيوتكن ، واثبتن في مساكنكن . والخطاب وإن كان لنساء النبي ، فقد دخل فيه غيرهن ﴿ **وَلاَ تَبَرَّجْنَ** ﴾ التبرُّجُ : إظهار الزينة والمحاسن للرجال ، أي مواضعها الحسنة ، وقال بعضهم : ولاتتبخترن في مشيكن ﴿ **تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُوْلَىٰ** ﴾ أي تبرجاً مثل تبرج النساء في أيام الجاهلية القديمة وقيل : الجاهلية الأخرى قوم يفعلون مثل فعلهم في آخر الزمان ، وفي الحديث (صنفان من أهل النار لم أرهما بعد - يعني في عصره عليه السلام ، لطهارة ذلك العصر بل حدثا بعد - قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساءٌ كاسياتٌ عاريات ، مُميلات مائلات رؤسهن كأسنمة البخت المائلة ، لايدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام)[1] ﴿**وَأَقِمْنَ الصَّلَوٰةَ**﴾ التي هي أصل الطاعات البدنية ﴿ **وآتِينَ الزَّكَوٰةَ** ﴾ التي هي أشرف العبادات المالية ، أي إن كان لكن مال ﴿ **وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ في سائر الأوامر والنواهي ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ** ﴾ الرِّجْسُ : الشيء القذر ، أي الذنب المدنس لعرضكم ، وعرض الرجل جانبه الذي يصونه ، وهو تعليل لأمرهن ونهيهن ، ولذلك عم الحكم بتعميم الخطاب لغيرهن ، وصرح بالمقصود حيث قال ﴿ **أَهْلَ البَيْتِ** ﴾ أي يا أهل البيت ، والمراد به من حواه بيت النبوة ، رجالاً ونساء ، وتُعُورِفَ في أسرة النبي عليه السلام مطلقاً ، إذا قيل أهل البيت ، يعني أهل البيت متعارف في آل النبي عليه السلام من بني هاشم ﴿ **وَيُطَهِّرَكُمْ** ﴾ من أدناس المعاصي ﴿ **تَطْهِيراً** ﴾ بليغاً ، وهذه كما ترى آية بينة وحجة نيرة على كون نساء النبي عليه السلام من أهل بيته ، قاضية ببطلان مذهب الشيعة ، في تخصيصهم أهل البيت بفاطمة وعلي وابنيه أي الحسن والحسين رضي الله عنهم ، وأما ما تمسكوا به من أن النبي عليه السلام خرج ذات يوم غدوة ، وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه ، ثم جاء علي فأدخله فيه ، ثم جاء الحسن والحسين فأدخلهما فيه ، ثم قال إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، فإنه يدل على كونهم من أهل البيت ، لا أن من عداهم ليسوا كذلك ، ولو فرضت دلالته على ذلك لما اعتد بها لكونها في مقابلة النص ﴿ **واذْكُرْنَ** ﴾ أي للناس بطريق العظة والتذكير ﴿ **ما يُتْلى فِي بُيوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ والحِكْمَةِ** ﴾ أي من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة ، الدالة على صدق النبوة بنظمه المعجز ، وكونه حكمة منطوية على فنون العلم والشرائع ، وقد سبق معنى الحكمة في سورة لقمان . وحمل قتادة الآيات على آيات القرآن ، والحكمة على الحديث الذي هو محض حكمة ، وهذا تذكير بما أنعم عليهن من كونهن أهل بيت

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، وانظر جامع الأصول لابن الأثير ١١ / ٧٨٨

النبوة ، ومهبط الوحي ، حثاً على الانتهاء والائتمار فيما كُلِّفن به ، والتعرض للتلاوة في البيوت وهذا حث لهن على حفظ القران ، والأخبار ، ومذاكرتهن بها ، للإحاطة بحدود الشريعة ، والخطاب وإن اختص بهن فغيرهن داخل فيه ، لأن مبنى الشريعة على هذين : القرآن والسنة ، وبهما يوقف على حدودالله ومفترضاته ، وأوامره وزواجره ، وبالاعتصام بالكتاب والسنة يسعد المؤمن دنيا وآخرة .

﴿ **إِنَّ اللهَ كانَ لَطيفاً** ﴾ بليغ اللطف والبر بخلقه كلهم ﴿ **خَبيراً** ﴾ بليغ العلم بالأشياء كلها فيعلم ، ويدبر ما يصلح في الدين ، ولذلك أمر ونهى ، روي أنه تكلم رجل في زين العابدين رضي الله عنه وافترى عليه ، فقال زين العابدين : إن كنتُ كما قلتَ فاستغفرُ الله ، وإن لم أكن نستغفر الله لك ، فقام إليه الرجل وقبَّل رأسه وقال : جُعلتُ فداءك ، لستَ كما قلتُ فاستغفر لي ، قال : غفر الله لك ، فقال الرجل : « الله أعلمُ حيث يجعل رسالته » . وخرج يوماً من المسجد فلقيه رجل فسبه فثارت إليه العبيد والموالي فقال لهم زين العابدين : مهلاً على الرجل ، ثم أقبل عليه وقال : بالله ألا ما سترت من أمرنا ، ألك حاجة نُعينك عليها ، فاستحيى الرجل فألقى عليه خميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم ، فكان الرجل بعد ذلك يقول أشهد أنك من أولاد الرسول ﷺ ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمينَ والمسْلِماتِ** ﴾ رُوي أنه لما نزل في نساء النبي عليه السلام الآيات المذكورة ، قالت نساء المؤمنين : فما نزل فينا ؟ ولو كان فينا خيرٌ لذكرنا ، فنزلت والمعنى إن الداخلين في السلم ، المنقادين لحكم الله ، وهم المتمسكون بأوامر الإسلام ، المتخلقون بأخلاقه رجالاً ونساءً ﴿ **والمؤْمِنينَ والمؤْمِناتِ** ﴾ المصدقين بما يجب أن يصدق به من الفريقين ﴿ **والقانِتينَ والقانِتاتِ** ﴾ أي المداومين على الطاعات القائمين بها ﴿ **والصَّادِقينَ والصَّادِقاتِ** ﴾ في القول والعمل والنية ﴿ **والصَّابِرينَ والصَّابِراتِ** ﴾ على الطاعات ، وعن المعاصي ﴿ **والخَاشِعينَ والخَاشِعاتِ** ﴾ المتواضعين لله بقلوبهم ، وجوارحهم ، قال بعضهم : الخشوع انقياد الباطن للحق ، والخضوع انقياد الظاهر له ﴿ **والْمُتَصَدِّقينَ والْمُتَصَدِّقاتِ** ﴾ بما وجب في مالهم ، والمعطين للصدقات فرضاً أو نفلاً ﴿ **والصَّائِمينَ والصَّائِماتِ** ﴾ الصوم المفروض ، أو مطلق الصوم فرضاً أو نفلاً ﴿ **والحافِظينَ فُروجَهُمْ والحافِظاتِ** ﴾ عن الحرام ، أي والحافظاتها فحذف المفعول لدلالة المذكور عليه ﴿ **وَالذَّاكِرِينَ اللهَ** ﴾ ذكراً ﴿ **كثيراً وَالذَّاكِرَاتِ** ﴾ أي والذاكراته فترك المفعول كما في الحافظات أي بقلوبهم وألسنتهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد أدبار الصلوات وغدواً ، وعشياً ، وفي المضاجع ، وكلما استيقظ من نومه ، وكلما غدا وراح من منزله ذكر الله ، والاشتغال بالعلم النافع ، وتلاوة القرآن ، والدعاء من الذكر ، وفي الحديث (من استيقظ من منامه وأيقظ امرأته فصليا جميعاً ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات)[1] وعن مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله

(١) الحديث أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم وصحّحه ، وانظر الدر المنثور ٥ / ٢٠٠ .

قائماً وقاعداً ومضطجعاً ﴿ أعدَّ اللهُ لَهُمْ ﴾ بسبب ما عملوا من الطاعات العشر المذكورة ﴿ مَغْفِرةً ﴾ لما اقترفوا من الصغائر لأنهن مكفرات بما عملوا من الأعمال الصالحات ﴿ وأجْراً عَظيماً ﴾ على ما صدر عنهم من الطاعات ، وهو الجنة ﴿ وما كَانَ لمؤْمنٍ ولا مُؤْمنةٍ ﴾ رُوي أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش بنت عمته أمية بنت عبد المطلب لمولاه « زيد بن حارثة » وكانت زينب بيضاء جميلة ، وزيد أسود فأبت ، وقالت : أنا بنت عمتك يا رسول الله وأرفع قريش فلا أرضاه لنفسي ، وكذلك أبى أخوها عبد الله بن جحش فنزلت ، والمعنى : ما صحَّ وما استقام لرجلٍ ولا امرأة من المؤمنين ﴿ إذا قَضى اللهُ وَرَسُولُهُ أمْراً ﴾ أي قضى رسول الله وحكم ، وذكر الله لتعظيم أمره ، والإشعار بأن قضاءه عليه السلام قضاء الله ، كما أن طاعته طاعة الله تعالى ﴿ أنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ ﴾ أي أن يختاروا ﴿ مِنْ أمْرِهِمْ ﴾ ما شاءوا ، بل يجب عليهم أن يجعلوا آراءهم واختيارهم تبعاً لرأيه عليه السلام واختياره ﴿ وَمنْ يعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في أمر من الأمور ، ويعمل برأيه ﴿ فَقدْ ضَلَّ ﴾ طريق الحق ، وعدل عن الصراط المستقيم ﴿ ضَلالاً مُبيناً ﴾ أي بيّن الإنحراف عن سنن الصواب ﴿ وإذْ تَقُولُ ﴾ روي أنه لما نزلت الآية المتقدمة قالت زينب وأخوها عبد الله : رضينا يا رسول الله أي بنكاح زيد ، فأنكحها عليه السلام إياه وساق إليها مهرها ، وبقيت بالنكاح معه مدة ثم أتى بعد ذلك رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : إني أريد أن أفارقها ، فقال : مالك أرأيت منها شيئاً ؟ قال : لا والله ما رأيت منها إلا خيراً ، ولكنها تتعظم عليَّ لشرفها ، وتؤذيني بلسانها ، فمنعه عليه لسلام من الفرقة وذلك قوله تعالى (وَإذْ تَقولُ) أي واذكر وقت قولك يا محمد ﴿ لِلَّذي أنْعَمَ اللهُ عَليْهِ ﴾ بالتوفيق للإسلام الذي هو أجلُّ النعم ، وللخدمة والصحبة ﴿ وَأنْعَمْتَ عَليْهِ ﴾ بحسن التربية والإعتاق والتبني وهو «زيد بن حارثة » رضي الله عنه مولاه عليه السلام ، وهو أول من أسلم من الموالي ، وكان عليه السلام يحُبه ، ويحُب ابنه أسامة ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ امساك الشيء التعلق به ، وحفظه ﴿ واتَّقِ اللهَ ﴾ في أمرها ، ولا تطلقها ضراراً ﴿ وَتُخْفي في نفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ ﴾ يعني أنك تعلم بما أعلمتك أنها ستكون زوجتك ، وأنت تخفي في نفسك هذا المعنى ، والله يريد أن ينجز لك وعده ، ويبدي أنها زوجتك بقوله (زوّجْناكها)﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ تخاف لومهم ، وتعييرهم إياك ﴿ واللهُ أحَقُّ أنْ تَخْشَاهُ ﴾ وإن كان هناك مايُخشى ، وإنما عوتب عليه السلام لإخفائه ما أعلمه الله أنها ستكون زوجة له ، قالت عائشة رضي الله عنها : لو كتم النبي عليه السلام شيئاً من الوحي ، لكتم هذه الآية ، ومانزل على رسول الله آية هي أشد عليه من هذه الآية ، وفي الآية إشارة إلى أن رعاية جانب الحق ، أحق من رعاية جانب الخلق ، لأن لله تعالى في إبداء هذا الأمر حِكَماً كثيرة ، فأقصى ما يكون في رعاية جانب الخلق ، أن لا يضل به بعض الضعفاء فالواجب على النبي إذا عرض له أمران ، في أحدهما رعاية جانب الحق ، وفي الآخر رعاية جانب الخلق ، أن يختار رعاية جانب الحق على الخلق ، فإن للحق تعالى في إجراء حُكْمٍ من أحكامه،

وإبلاغ أمر من أوامره ، حِكَماً كثيرة كما قال تعالى في هذه القصة (**لِكَيْ لاَ يَكُوْنَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ**) ، ﴿ **فَلَمَّا قَضىٰ زَيدٌ مِنْهَا** ﴾ أي من زوجه ، وهي زينب ﴿ **وَطَراً** ﴾ الوطرُ : محركة الحاجة ، ومعنى قضاء الوطر في اللغة : بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء ، يقال : قضى منها وطراً إذا بلغ ما أراد من حاجة فيها ، ثم صار عبارة عن الطلاق ، لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة ، والمعنى : فلما لم يبق لزيد فيها حاجة ، وتصاغرت عنها همته وطلقها ، وانقضت عدتها .

﴿ **زَوَّجْنَاكَهَا** ﴾ والمراد الأمر بتزوجها ، أو جعلها زوجته بلا واسطة عقد ، ويؤيده ماروى أنس رضي الله عنه أنها كانت تفخر على سائر أزواج النبي عليه السلام، وتقول: زوجكنَّ أهاليكنَّ ، وزوجني الله من فوق سبع سموات ، وهو من خصائصه عليه السلام ، وروي أنها لما اعتدت قال رسول الله لزيد : ما أجد أحداً أوثق في نفسي منك ، أخطبْ عليَّ زينب ، قال زيد : فانطلقت فإذا هي تخمِّر عجينها ، فقلت يا زينب : أبشري فإن رسول الله يخطبك ففرحت وقالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن « زوجناكها » فزوجها رسول الله ودخل بها ، وما أوْلم على امرأة من نسائه ما أولم عليها ، ذبح شاةً وأطعم الناس الخبز واللحم ، حتى امتد النهار ، وجعلُ زيدٍ سفيراً في خطبتها ابتلاءً عظيم له ، وشاهد بيِّن على قوة إيمانه ورسوخه فيه ﴿ **لِكَيْ لاَ يَكُونَ على الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ** ﴾ أي ضيق ، ومشقة ، وأصل الحرج مجتمع الشجر وتصور منه ضيق بينها ، فقيل للضيق حرج ، وللإثم حرج ، واللام في « لِكَيْ » هي لام التعليل دخلت على كي للتوكيد ﴿**فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيائِهِمْ**﴾ في حق تزوج زوجات الذين دعوهم أبناء ، والأدعياءُ : جمع دعيٍّ وهو الذي يُدْعى ابناً من غير ولادة ﴿ **إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً** ﴾ أي إذا لم يبق لهم فيهن حاجة ، وطلقوهن ، وانقضت عدتهن ، فإن لهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، قال الحسن : كانت العرب تظن أن حرمة المتبنَّىٰ كحرمة الإبن ، فبين الله أن حلائل الأدعياء غير محرمة على المتبني ، وإن أصابوهن أي وطئوهن ، بخلاف ابن الصلب ، فإن امرأته تحرم بنفس العقد ﴿ **وَكانَ أَمْرُ اللهِ** ﴾ أي ما يريد تكوينه من الأمور ﴿ **مَفْعُولاً** ﴾ كائناً لا محالة لا يمكن دفعه ، وأبدى السهيلي حكمةً لذكر زيد باسمه في القرآن ، وهي أنه لما نزل قوله تعالى (**ادْعُوهُمْ لآبائِهِمْ**) وصار يقال له زيد بن حارثة ، ولا يقال له زيد بن محمد ، ونزع عنه هذا التشريف ، وعلم الله وحشته من ذلك ، شرَّفه بذكر اسمه في القرآن دون غيره من الصحابة ، فصار اسمه يتلى في المحاريب ﴿ **مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ أي ما صح وما استقام في الحكمة أن يكون عليه ضيق ﴿ **فيما فَرَضَ اللهُ لَهُ** ﴾ أي قسم الله له وقدَّر ، كتزوج زينب ، ﴿ **سُنَّةَ اللهِ** ﴾ أي سنَّ الله نفي الحرج سنة أي جعله طريقة مسلوكة ﴿ **فِي الَّذِينَ خَلَوْا** ﴾ مضوا ﴿ **مِنْ قَبْلُ** ﴾ من الأنبياء ، حيث وسَّع عليهم في باب النكاح وغيره ، ولقد كان لداود عليه السلام مائة امرأة ، وثلاثمائة سرية ، ولابنه سليمان عليه

السلام ثلاثمائة امرأة ، وسبعمائة سرية ، فلك التوسعة في أمْرِ النكاح مثل الأنبياء الماضين ﴿ **وكانَ أمْرُ اللهِ قَدَراً مقْدُوراً** ﴾ قضاء مقضياً ، وحكماً مبتوتاً ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ** ﴾ المراد ما يتعلق بالرسالة وهي سفارة العبد بين الله ، وبين ذوي الألباب من خلقه ، أي إيصال الخبر من الله إلى العبد ﴿ **وَيخْشَوْنَهُ** ﴾ في كُلِّ ما يأتون ، ويذرون ، لا سيما في أمر تبليغ الرسالة ، حيث لا يقطعون منها حرفاً ولا تأخذهم في ذلك لومة لائم ﴿ **وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إلاَّ اللهَ** ﴾ أي لا يعتقدون أن شيئاً من المخلوقات يستقل بإضرارهم ، ويستبد بإيذائهم ، دون إرادة الله ومشيئته ، لما يعلمون أن الأمور كلها بقضاء الله وقدره ﴿ **وَكفَىٰ بَاللهِ حَسِيباً** ﴾محاسباً لعباده على أعمالهم ، فينبغي أن يحاسِبَ العبد نفسه ، قبل محاسبة الله إياه ، ولا يخاف غير الله ، لا في أمر النكاح ولا في غيره ، إذا علم أن رضى الله وحكمه فيه ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ** ﴾ ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، والمختار أنه لا يشترط في الإسلام معرفة النبي عليه السلام واسم جده بل يكفي فيه معرفة اسمه الشريف ، قال أهل التفسير : لما نكح النبي عليه السلام زينب بعد انقضاء عدتها ، استطال لسان المنافقين ، وقالوا : كيف نَكَحَ زوجة ابنه لنفسه ؟ وكان من حكم العرب أن من تبنى ولداً كان كولده من صلبه في التوريث ، وحرمة نكاح امرأته على الأب المتبنّي ، وأراد الله أن يُغيِّر هذا الحكم ، فأنزل ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أبا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ** ﴾ أي على الحقيقة ، يعني بالنسب والولادة ، حتى يثبت بينه وبينه ما بين الوالد وولده من حرمة المصاهرة وغيرها ﴿ **وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ** ﴾ أي ولكنْ كان رسول الله ، وكلُّ رسولٍ للهِ ، أبٌ لأمّته ، لكن لاحقيقة ، بل بمعنى أنه شفيق ناصح لهم ، وسبب لحياتهم الأبدية ، واجب التوقير والطاعة له ، وما زيد بن حارثة إلا واحد من رجالكم ، الذين لا ولادة بينهم وبينه عليه السلام ، وليس للتبني والادعاء حكم سوى التقريب والاختصاص ﴿ **وخَاتَمَ النَبِيِّينَ** ﴾ الختم بمعنى ما يختم به ، كالطابع بمعنى ما يطبع به ، والمعنى وكان آخرهم الذي ختموا به ولا يقدح في كونه خاتم النبيين نزول عيسى بعده ، لأن معنى كونه خاتم النبيين ، أنه لا ينبأ أحد بعده ، وعيسى ممن تنبأ قبله ، وحين ينزل إنما ينزل على شريعة محمد عليه السلام ، مصلياً إلى قبلته ، كأنه بعض أمته ، فلا يكون إليه وحي ولا نصب أحكام ، بل يكون خليفة رسول الله ، فإن قلت : قد روى أن عيسى عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان يكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويرفع الجزية عن الكفرة فلا يقبل إلا الإسلام ؟ قلت : هذه من أحكام الشريعة المحمدية لكن ظهورها ، مؤقّتٌ بزمان عيسى وبالجملة قوله (**وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**) يفيد زيادة الشفقة من جانبه ، والتعظيم من جهتهم ، لأن النبي الذي بعده نبي يجوز أن يترك شيئاً من النصيحة والبيان ، لأنها مستدركة من بعده ، وأما من لا نبي بعده ، يكون أشفق على أمته ، وأهدى بهم من كل الوجوه ﴿ **وكَانَ اللهُ بكُلِّ شَيءٍ عَلِيماً** ﴾ فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة ، وكيف ينبغي لشأنه ، ولا يعلم أحد سواه ذلك ، قال ابن

كثير في تفسير هذه الآية : هي نص على أنه لا نبي بعده ، وإذا كان لا نبي بعده ، فلا رسول بطريق الأولى والأخرى ، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ، ولا ينعكس ، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ، فمن رحمة الله بالعباد إرسال محمد ﷺ إليهم ، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له ، وقد أخبر الله في كتابه ، ورسوله في السنة المتواترة على أنه لا نبي بعده ، ليعلموا أن كل من ادّعى هذا المقام بعده ، كذّاب أفّاك ، دجّال ضالّ مُضِل ، ولو تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ** ﴾ بما هو أهله من التهليل والتسبيح والتكبير ونحوها ، والذكر : إحضار الشيء في القلب ، أو في القول ، وهو ذكر عن نسيان وهو حال العامة ، أو إدامة الحضور والحفظ ، وهو حال الخاصة ، إذ ليس لهم نسيان أصلاً وهم عند مذكورهم مطلقاً ﴿ **ذِكْراً كَثِيراً** ﴾ في جميع الأوقات ليلاً ونهاراً ، وفي عموم الأمكنة براً وبحراً ، سهلاً وجبلاً ، وفي كل الأحوال حضراً وسفراً ، صحة وسقماً ، سراً وعلانية ، قياماً وقعوداً ﴿ **وَسَبِّحُوهُ** ﴾ ونزهوه تعالى عما لا يليق به ﴿ **بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ أي أول النهار ،والمراد سبحوه في جميع الأوقات ، خصوصاً في الوقتين المذكورين المفضلين على سائر الأوقات ، لكونها مشهودين على ما دل عليه قوله عليه السلام (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار)[1] والله تعالى يقسم الأرزاق ، وينزل البركات ، ويستجيب الدعوات ، فيما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ، فلابد من ترك الغفلة في تلك الساعة الشريفة ، وفي الحديث (من صلى الفجر في جماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ، ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة)[2] ومن هنا لم يزل الكاملون المتأدبون ، يجتمعون على الذكر بعد صلاة الصبح إلى وقت الإشراق ، فللذكر في هذا الوقت أثر عظيم في النفوس ، وهو أولى من القراءة كما دل عليه قوله عليه السلام (ثم قعد يذكر الله) على ما في شرح المصابيح ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ** ﴾ يعتني بكم بالرحمة ، والمغفرة ، والتزكية ﴿ **وَمَلاَئِكَتُهُ** ﴾ أي ويعتني ملائكته بالدعاء لكم والاستغفار ، فالمراد بالصلاة المعنى المجازي ، الشامل للرحمة والاستغفار ، وهو الاعتناء بما فيه خيرهم وصلاح أمرهم ، وعن السدي قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : أيصلي ربنا ؟ فكَبُرَ هذا الكلام عليه ، فأوحى الله إليه أن قل لهم إني أصلي ، وإن صلاتي رحمتي التي تطفىء غضبي ، قال أبو بكر بن طاهر : صلوات الله على عبده أن يزينه بأنوار الإيمان ، ويحلّيه بحلية التوفيق ، ويتوّجه بتاج الصدق ، ويسقط عن نفسه الأهواء المضلة ، والإرادات الباطلة ، ويجعل له الرضى بالمقدور ﴿ **لِيُخْرِجَكُمْ** ﴾ الله تعالى بتلك الصلاة والعناية ، وإنما لم يقل ليخرجاكم لئلا يكون للملائكة منّةٌ عليهم بالإخراج ، ولأنهم لا

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وانظر جامع الأصول ٩ / ٣٩٨ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الصلاة برقم / ٥٩٦ / وهو حديث حسن .

يقدرون على ذلك ، لأن الله هو الهادي في الحقيقة لا غير ﴿ **مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ الظلمة عدم النور ، ويعبر بها عن الجهل والشرك والفسق ونحوها ، كما يعبر بالنور عن أضدادها ، أي من ظلمات الجهل والشرك ، والمعصية ، والشك ، والضلالة ، إلى نور العلم ، والتوحيد ، والطاعة ، واليقين ﴿ **وَكَانَ** ﴾ في الأزل ، قبل إيجاد الملائكة المقربين ﴿ **بِالْمُؤْمِنِينَ** ﴾ بكافتهم قبل وجوداتهم العينية ﴿ **رَحِيماً** ﴾ ولذلك فعل بهم ما فعل ، من الاعتناء بصلاحهم بالذات ولما بين عنايته في الأولى ، وهي هدايتهم إلى الطاعة ونحوها ، بيَّن عنايته في الآخرة فقال ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ** ﴾ أي ما يحيون به ، والتحية الدعاء بالتعمير بأن يقال : حيَّاك الله أي جعل لك حياة ، ثم جعل كل دعاء تحية لكونه سبب حياة ، أما لدنيا وإما لآخرة ﴿ **يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ** ﴾ يوم لقائه تعالى عند الموت ، أو عند البعث من القبور ، أو عند دخول الجنة ﴿ **سَلاَمٌ** ﴾ تسليم عليهم من الله تعظيماً لهم أو من الملائكة بشارة لهم بالجنة ، أو تكرمة لهم كما في قوله تعالى (**والملائِكَةُ يَدْخُلونَ عليْهِمْ مِنْ كلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ**) أو إخبار بالسلامة من كل مكروه وآفة وشدة ﴿ **وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرَاً كَرِيماً** ﴾ ثواباً حسناً دائماً وهو نعيم الجنة ، وهو بيان لآثار رحمته الفائضة عليهم بعد دخول الجنة ، ثم هذه الآية من أكبر نعم الله على هذه الأمة ، ومن أدل دليل على أفضليتها على سائر الأمم ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ** ﴾ نداء كرامة وتعظيم ، لأن الشريف ينادى باللقب الشريف ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً** ﴾ الشهادة قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة ، والمعنى إنا أرسلناك بعظمتنا مقدراً شهادتك على أمتك تؤديها يوم القيامة ، أداء مقبولاً قبول قول الشاهد العدل في الحكم ﴿ **وَمُبَشِّراً** ﴾ لأهل الإيمان والطاعة بالجنة ﴿ **وَنَذِيراً** ﴾ ومنذراً لأهل الكفر والعصيان بالنار ﴿ **وَدَاعِياً إِلَى اللهِ** ﴾ أي إلى الإقرار به وبوحدانيته ، وبسائر ما يجب الإيمان به من صفاته وأفعاله ﴿ **بِإِذْنِهِ** ﴾ أي بتيسيره ، وتسهيله وقيل : المعنى بأمره لا بطبعك ، ورأيك ﴿ **وَسِرَاجاً مُنِيراً** ﴾ السراج الزاهر بفتيلة ، واعلم أن الله تعالى شبه نبينا عليه السلام بالسراج لوجوه : **الأول** : أنه يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية ، ويهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية ، كما يُهتدى بالسراج المنير في الظلام ، **والثاني** : أن السراج الواحد يوقد منه ألف سراج ، ولا ينقص من نوره شيء ، ألا ترى أن نور القمر مستفاد من الشمس ، ونور الشمس بحاله كما قال القائل :

فإنَّه شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا * يُظْهِرنَ أنْوَارَهَا للنَّاسِ في الظُّلَمِ

أي أن سيدنا محمداً عليه السلام ، شمسٌ من فضل الله طلعت على العالمين ، والأنبياء أقمارها يظهرن الأنوار المستفادة منها ، وهي العلوم والحِكَم في عالم الشهادة ، ويختفين عند ظهور سلطان الشمس ، فينسخ دينه سائر الأديان ، **والثالث** : أنه عليه السلام يضيء من جميع الجهات إلى جميع العوالم ، كما أن السراج

يضيء من كل جانب ، وأيضاً يضيء لأمته كلهم كالسراج لجميع الجهات ، إلا من عمي مثل أبي جهل ومن تبعه على صفته ، فإنه لا يستضيء بنوره ولا يراه حقيقة ، كما قال تعالى (**وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ**) حكي أن السلطان محمود الغزنوي ، دخل على الشيخ أبي الحسن الخرقاني وجلس ساعة ثم قال يا شيخ : ما تقول في حق أبي يزيد البسطامي ؟ فقال الشيخ : هو رجلٌ من رآه اهتدى ، فقال السلطان : وكيف ذلك ؟ وإن أبا جهل رأى رسول الله ﷺ ولم يخلص من الضلالة ؟ قال الشيخ في جوابه : إنه ما رأى رسول الله وإنما رأى « محمد بن عبد الله » يتيم أبي طالب ، ولو كان رأى رسول الله لدخل في السعادة أي لو رآه عليه السلام من حيث إنه رسول معلم هاد ، لا من حيث إنه بشر يتيم ، **والرابع :** أنه عليه السلام عرج به من العالم السفلي إلى العالم العلوي ، ومن الملك إلى الملكوت وقُرِّب وأُدني ، إلى أن نُوِّر سراج قلبه بنور الله بلا واسطة ملك أو نبي ، وحسبك في هذا حديث المعراج حيث إنه عليه السلام وجد في كل سماء نفراً من الأنبياء ، إلى أن بلغ السماء السابعة ، ووجد هناك إبراهيم عليه السلام ، مستنداً إلى سدرة المنتهى ، فعبر عنه مع جبرائيل إلى أقصى السدرة ، وبقي جبرائيل في السدرة فأدلى إليه الرفرف فركب عليه فأداه إلى قاب قوسين أو أدنى ، فهو الذي جعل الله له نوراً فأرسله إلى الخلق ، وقال (**قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ**) فأذن له أن يدعو الخلق إلى الله بطريق متابعته ، فإنه من يطع الرسول حق إطاعته ، فقد أطاع الله ، والذين يبايعونه إنما يبايعون الله ، ووصفه تعالى بالإنارة حيث قال (منيرا) لزيادة نوره ، وكماله فيه ، فإن بعض السرج له فتور لا ينير ، وقال بعضهم : المراد بالسراج الشمس وبالمنير القمر ، جمع له الوصف بين الشمس والقمر دل على ذلك قوله تعالى (**تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً**) ويقال سماه سراجاً ولم يسمه شمساً ولا قمراً ولا كوكباً ، لأنه لا يوجد يوم القيامة شمسٌ ، ولا قمر ، ولا كوكب ، ولأن الشمس والقمر لا ينقلان من موضع إلى موضع ، بخلاف السراج ألا ترى أن الله تعالى نقله عليه السلام من مكة إلى المدينة ﴿ **وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ فراقب أحوال أمتك ، وبشر المؤمنين ﴿ **بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً** ﴾ أي على مؤمني سائر الأمم ، في الرتبة والشرف ، أو زيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والإحسان ، وروي أن الحسنة الواحدة في الأمم السالفة كانت بواحدة ، وفي هذه الأمة بعشر أمثالها إلى مالا نهاية له ﴿ **ولا تُطِعِ الكَافِرِينَ** ﴾من أهل مكة ﴿ **والمُنَافِقِينَ** ﴾ من أهل المدينة ، ومعناه الدوام أي دم واثبت على ما أنت عليه من مخالفتهم ، وترك اطاعتهم واتباعهم ، نهي عن مداراتهم في أمر الدعوة ، وكنّى عن ذلك بالنهي عن طاعتهم ، مبالغةً في الزجر والتنفير ﴿ **وَدَعْ أَذَاهُمْ** ﴾ أي لاتبال بإيذائهم لك ، بسبب تصلبك في الدعوة والإنذار ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه : قسم رسول الله قسمةً ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه لقسمةٌ ما أُريدَ بها وجه الله ، فأُخبر بذلك فاحمر وجهه فقال : (رَحِمَ اللهُ أَخِي

مُوسَى ، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ)[1] .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ في كل الأمور خصوصاً في هذا الشأن ، فإنه تعالى يكفيكهم ، والعاقبة لك ﴿ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ موكولاً إليه الأمور في كل الأحوال ، فمن عرف أنه تعالى هو المتكفل بمصالح عباده ، والكافي لهم في كل أمر ، اكتفى به في كل أمره ، فلم يدبر معه ولم يعتمد إلا عليه ، حكي أن الحجاج بن يوسف سمع ملبياً يلبي حول البيت ، رافعاً صوته بالتلبية ، وكان إذ ذاك بمكة ، فقال عليّ بالرجل ، فأتى به إليه ، فقال ممن الرجل ؟ قال : من المسلمين ، فقال : ليس عن الإسلام سألتك ، قال : فَعَمَّ سألت ؟ قال : سألتك عن البلد ، قال من أهل اليمن ، قال : كيف تركت « محمد بن يوسف » - يعني أخاه - قال : تركتهُ عظيماً جسيماً ، لبَّاساً ركَّاباً ، خرَّاجاً ولاَّجاً ، قال ليس عن هذا سألتك ، قال فَعَمَّ سألت ؟ قال سألتك عن سيرته ؟ قال : تركته ظلوماً غشوماً ، مطيعاً للمخلوق عاصياً للخالق ، فقال له الحجاج : ما حملك على هذا الكلام وأنت تعلم مكانه مني ؟ قال : أترى مكانه منكَ أعزَّ مني بمكاني من الله ، وأنا وافد بيته ، مصدِّق نبيه ، فسكت الحجاج ولم يحسن جواباً ، وانصرف الرجل من غير إذن ، فتعلق بأستار الكعبة وقال : اللهم بك أعوذ ، وبك ألوذ ، فَرَجك القريب ، ومعروفك القديم ، وعادتك الحسنة ، فخلصه الله من يد الحجاج بسبب توكله على الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ ﴾ أصل النكاح الوطىء ثم قيل للعقد نكاح مجازاً ، قال الراغب في المفرادات : أصل النكاح للعقد ثم استعير للجماع ، ومحال أن يكون في الأصل للجماع ثم استعير للعقد ، لأن أسماء الجماع كلها كنايات ، لاستقباحهم ذكره كاستقباح تعاطيه ، ومحال أن يستعير من لا يقصد فحشاً اسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه ، انتهى ، والمعنى إذا تزوجتم ﴿ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وعقدتم عليهنَّ ، وخص المؤمنات مع أن هذا الحكم الذي في الآية يستوي فيه المؤمنات ، والكتابيات ، تنبيهاً على أن من شأن المؤمن ، أن لا ينكح إلا مؤمنة ، تخيراً لنُطفته ، ويجتنب عن مجانبة الفواسق ، فما بال الكوافر ، فالتي في سورة المائدة تعليم ماهو جائز غير محرم من نكاح المحصنات ، من الذين أوتوا الكتاب ، وهذه فيها تعليم ما هو أولى بالمؤمنين من نكاح المؤمنات ، وقد قيل : الجنس يميل إلى الجنس ﴿ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ أي تجامعوهن ، فإن اللمس كناية عن الوطىء ، وفيه دليل على أن الطلاق قبل النكاح غير واقع ، لأن الله تعالى رتب الطلاق على النكاح كما قال بعضهم : إنما النكاح عقدة ، والطلاق يحلها ، فكيف تحل عقدة لم تعقد ؟ وقال أبو حنيفة يقع مطلقاً لأنه تطليق عند وجود الشرط إلا إذا زوجها فضولي فإنها لم تطلق كما في المحيط، وقال مالك: إن عيَّن امرأة بعينها أو من قبيلة أو من بلد فتزوجها وقع الطلاق، وإن عمَّ لم يلزمه شيء، ثم إن حكم الخلوة التي يمكن معها المساس في حكم المساس عند أبي حنيفة وأصحابه، والخلوة الصحيحة غلق

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم ، وانظر الدر المنثور ٥ / ٢٢٤ .

الرجل الباب على منكوحته بلا مانع وطىء من الطرفين ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ ﴾ أيام ينتظرن فيها ، وعدة المرأة هي الأيام التي بانقضائها تحل للزوج ﴿ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ أي تستوفون عددها أو تعدونها ، وتحصونها بالإقرار إن كانت من ذوات الحيض ، أو بالأشهر إن كانت آيسة ، وفي الإسناد إلى الرجال دلالة على أن العدة حقهم كما أشعر به (فما لكم) ، فدلت الآية على أنه لا عدة على غير المدخول بها ، لبراءة رحمها من نطفة الغير ، فإن شاءت تزوجت من يومها ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ أي فأعطوهن المتعة من كسوة وهي درع وخمار وملحفة ، وهو محمول على إيجاب المتعة إن لم يُسمَّ لها مهر عند العقد ، وعلى استحبابها إن سمي ذلك ، ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ ﴾المراد هنا أخرجوهن من منازلكم ، إذ ليس لكم عليهن من عدة ﴿ سَراحاً جَميلاً ﴾ أي من غير ضرار ، ولا منع حق ومعنى الجميل أن لا يكون الطلاق فور الغضب ، أو طاعة لغيره ، وأن لا يكون ثلاثاً ، ولا يجوز تفسير التسريح بالطلاق السني لأنه إنما يتسنى في المدخول بها والضمير لغير المدخول بها ، وفي الآية إشارة إلى كرم الأخلاق ، يعني إذا نكحتم المؤمنات ، ثم آثرتم الفراق قبل الوصال ، فكسرتم قلوبهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ، فمتعوهن ليكون لهن عليكم تذكرة في أيام الفرقة وأوائلها إلى أن تتوطن نفوسهن على الفرقة ، وسرحوهنَّ سراحاً جميلاً بأن لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير ، ولا تستردوا منهن شيئاً تفضلتم به معهن ، فلا تجمعوا عليها الفراق بالحال ، والإضرار من جهة المال ، وينبغي للمؤمن أن لا يؤذي أحداً بغير حق ولو كلباً أو خنزيراً ، ولا يظلم ولو بشق تمرة ، ولو وقع شيء من الأذى والجور ، يجب الاستحلال والإرضاء ، ورأينا كثيراً من الناس في هذا الزمان يُطلِّقون ضراراً ، ويقعون في الإثم مراراً ، يخالعون على المال بعد الخصومات ، كأنهم غافلون عما بعد الممات ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ ﴾ أصل الحل حل العقدة ، ومنه استعير قولهم حلَّ الشيء حلالاً ، ﴿ أَزْوَاجَكَ ﴾ نساءك ﴿ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ الأجر يقال فيما كان عن عقد ، وما يجري مجرى العقد ، وهو ههنا يراد به المهر ، أي مهورهن ، وإيتاؤها إما إعطاؤها معجلة ، أو تسميتها في العقد ﴿ وما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ ﴾ أي مما غنمته في الحرب ، وقيل للغنيمة التي لا يلحق فيها مشقة : فيءٌ تشبيهاً بالفيء الذي هو الظل ، قال الفقهاء : كل ما يحل أخذه من أموال الكفار فهو فيء فالغنيمة ما نيل من أهل الشرك عنوة ، والجزية فيء ومال أهل الصلح فيء ، والخراج فيء ، لأن ذلك كله مما أفاء الله على المسلمين من المشركين ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ ﴾ أي وأحللنا لك نساء قريش من أولاد عبد المطلب ﴿ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ ﴾ الخال أخ الأم ، والخالة أختها ، والمراد نساء بني زهرة يعني أولاد عبد مناف بن زهرة لا إخوة أمه ولا أخواتها ، لأن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ لم يكن لها أخ ، فإذا لم يكن له عليه السلام خال ولا خالة فالمراد بذلك الخال والخالة عشيرة أمه ﴿ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ المهاجرة في الأصل : مفارقةُ الغير ومتاركته ، استعملت في الخروج من دار

الكفر إلى دار الإيمان ، والمعنى خرجن معك من مكة إلى المدينة ، وفارقن أوطانهن ، وتقييد القرائب بكونهنّ مهاجرات معه للتنبيه على الأليق له عليه السلام ﴿ **وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً** ﴾ أي وأحللنا لك أيضاً امرأة مؤمنة ، أية امرأة كانت من النساء المؤمنات ، فإنه لا تحل له المشركة ، وإن وهبت نفسها ﴿ **إِنْ وَهَبَتْ** ﴾ تلك المرأة المؤمنة ﴿ **نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ** ﴾ أي لك ، والالتفات للإيذان بأن هذا الحكم مخصوص به لشرف نبوته ، والهبة أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض ﴿ **إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا** ﴾ شرط للشرط الأول في استيجاب الحل ، فإن هبتها نفسها منه لا توجب له حلها إلا بإرادته نكاحها ، فإنها جارية مجرى القبول ، والاستنكاحُ : طلب النكاح والرغبة فيه والمعنى إن أراد النبي ﷺ أن يتملك بُضْعها بلا مهر ﴿ **خَالِصَةً لَكَ** ﴾ أي خلص لك إحلال المرأة المؤمنة ، حال كون تلك الواهبة خالصة لك ﴿ **مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ فإن الإحلال للمؤمنين إنما يتحقق بالمهر ، أو بمهر المثل إن لم يسم عند العقد ﴿ **قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ** ﴾ أي أوجبنا على المؤمنين ﴿ **فِي أَزْوَاجِهِمْ** ﴾ في حقهن ﴿ **و** ﴾ في حق ﴿ **مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم** ﴾ من الأحكام ﴿ **لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ** ﴾ أي لئلا يكون عليك ضيق في أمر النكاح فإنه قد فُرض على أبناءك من شرائط العقد وحقوقه ، ما لم يفرض عليه ﷺ ، تكرمة له وتوسعة عليه أي قد علمنا ما ينبغي أن يفرض عليهم في حق أزواجهم ومملوكاتهم وخصصناك ببعض الخصائص كالنكاح بلا مهر ، وولي وشهود توسعةً عليك ﴿**وَكَانَ اللهُ غَفُوراً**﴾ أي فيما يعسر التحرز عنه ﴿ **رَحِيماً** ﴾ منعماً على عباده بالتوسعة في مظانّ الحرج ونحوه ، واختلف في أنه هل كان عنده عليه السلام امرأة وهبت نفسها منه أو لا ؟ فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ما كانت عنده امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين ، وقال آخرون : بل كان عنده موهوبة ، وهبت له نفسها .

﴿ **تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ** ﴾ أرجأ الأمر : أخره والإرجاء التأخير والمعنى : تؤخر يا محمد من تشاء من أزواجك ، وتترك مضاجعتها من غير نظر إلى نوبة وقَسْمٍ وعدل ﴿ **وَتُؤوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَآءُ** ﴾ أي وتضمها إليك وتضاجعها من غير التفات إلى نوبة وقسمة أيضاً ، فالاختيار بيديك في الصحبة بمن شئت ، أو تُطلِّق من تشاء منهن وتمسك من تشاء ، أو تترك من شئت من نساء أمتك ، وتتزوج من شئت ﴿ **وَمَنِ ابْتَغَيْتَ** ﴾ أي وتؤوى إليك أيضاً من ابتغيتها وطلبتها ﴿ **مِمَّنْ عَزَلْتَ** ﴾ أي طلقتها بالرجعة ﴿ **فَلا جُنَاحَ** ﴾ لا إثم ، ولا لوم ، ولا عتاب ، ولا ضيق ﴿ **عَلَيْكَ** ﴾ في شيء مما ذكر من الأمور الثلاثة ، والجمهور على أن الآية نزلت في القَسْم بينهن فإن التسوية في القسم كانت واجبة عليه ، فلما نزلت سقط عنه ، وصار الاختيار إليه فيهن ، وكان ذلك من خصائصه عليه السلام ، ويروى أن أزواجه عليه السلام لما طلبن زيادة النفقة ولباس الزينة هجرهن شهراً ، حتى نزلت آية

التخيير ، فأشفقن أن يطلقهن ، وقلن يا نبي الله افرض لنا من نفسك ومالك ما شئت ، ودعنا على حالنا ، ويروى أنه عليه السلام لم يخرج أحداً منهن عن القَسْم ، بل كان يسوي بينهن مع ما أطلق له ، وخُيِّر فيه ، إلاَّ « سودة » فإنها رضيت بترك حقها من القَسْم ، ووهبت ليلتها لعائشة ، وقالت : لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نسائك ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي ما ذكر من تفويض الأمر إلى مشيئتك ﴿ **أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ** ﴾ أي تسكن أعينهن ولا تطمح إلى ما عاملتهن به ﴿ **وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ** ﴾ أي وأقرب إلى قرة عيونهن ، وقلة حزنهن ، ورضاهن جميعاً ، لأنه حكم كلهن فيه سواء ، ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلاً منك ، وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله ، فتطمئن به نفوسهن ، ويذهب التنافس والتغاير ، وقد رضين بذلك فاخترنه على الشرط ، ولذا قصره الله عليهن وحرم عليه طلاقهن ، والتزوج بسواهن ، وجعلهن أمهات المؤمنين ﴿ **وَاللَّهُ** ﴾ وحده ﴿ **يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ من الضمائر والخواطر فاجتهدوا في إحسانها ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً** ﴾ مبالغاً في العلم فيعلم ما تبدونه وما تخفونه ﴿ **حَلِيماً** ﴾ لا يعاجل بالعقوبة ، فلا تغتروا بتأخيرها ، فإنه إمهال لا إهمال ﴿ **لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ** ﴾ أي لا تحل واحدة من النساء مسلمة أو كتابية ﴿ **مِنْ بَعْدُ** ﴾ أي من بعد هؤلاء التسع اللاتي خيرتهن بين الدنيا والآخرة فاخترنك ، لأنه نصابك من الأزواج ، كما أن الأربع نصاب أمتك منهن ﴿ **وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ** ﴾ بحذف إحدى التاءين ، والأصل تتبدل قال الراغب : التبدلُ والاستبدالُ : جعلُ الشيء مكان آخر ، والمعنى ولا يحل لك أن تتبدل بهؤلاء التسع أزواجاً أخر ، بكلهن أو بعضهن ، بأن تطلق واحدة ، وتنكح مكانها أخرى أراد الله لهنَّ كرامة وجزاء على ما اخترن رسول الله ، والدار الآخرة فقصره عليهن ، ونهاه عن تطليقهن ﴿ **وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ** ﴾ أي ولا يحل لك أن تستبدل بهن حال إعجاب حسنهن أي على كل حال ﴿ **إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ** ﴾ استثناء من النساء ، لأنه يتناول الأزواج والإماء قال ابن عباس : ملك من هؤلاء التسع مارية القبطية أم إبراهيم ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً** ﴾ الرقيبُ : هو الذي لا يغفل ولا يذهل ، ولا يجوز عليه ذلك فلا يحتاج إلى مذكر ولا منبه ، أي حافظاً مهيمناً ، فتحفظوا ما أمركم به ، ولاتتخطوا ما حدَّ لكم ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ روي أن ناساً من المؤمنين ، كانوا ينتظرون وقت طعام رسول الله ، فيدخلون ويقعدون إلى حين إدراكه ، ثم يأكلون ولا يخرجون ، وكان رسول الله يتأذى من ذلك فنزلت ﴿ **يا أَيُّها الَّذِينَ آمنُوا لا تدْخُلوا بُيوتَ النَبيِّ** ﴾ حجراته في حال من الأحوال ﴿ **إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ** ﴾ إلا حال كونكم مأذوناً لكم ومدعوّين ﴿ **إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ** ﴾ أي لا تدخلوا بيوت النبي إلاَّ حَالَ الإذن ، ولا تدخلوها إلاَّ غير ناظرين إناه ، أي غير منتظرين وقت الطعام أو إدراكه ، إشارة إلى حفظ الأدب في الاستئذان ، ومراعاة الوقت ، وإيجاب الاحترام ﴿ **وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا** ﴾ استدراك

من النهي أي إلاَّ إذا أُذن لكم في الدخول ، ودعيتم إلى الطعام ، فادخلوا بيوته على وجوه الأدب ، وحفظ أحكام تلك الحضرة ﴿ **فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا** ﴾ أي فإذا تناولتم الطعام فتفرقوا ﴿ **ولا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ** ﴾ أي ولا تدخلوا طالبين الأنس لحديث بعضكم ، أو لحديث أهل البيت بالتسمع له أي إذا انتهت حوائجكم فاخرجوا ، ولا يمنعكم حسن خلقه ، ولا يحملنكم فرط احتشامه ، على الإثقال عليه ﴿ **إِنَّ ذَٰلِكُمْ** ﴾ أي الاستئناس بعد الأكل ﴿ **كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ** ﴾ وذلك لتضييق المنزل عليه وعلى أهله ، وإشغاله فيما لا يعنيه ، والأذى : ما يصل إلى الإنسان من ضرر إما في نفسه ، أو في جسمه ﴿ **فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ** ﴾ أي من إخراجكم ﴿ **وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ** ﴾ يعني أن إخراجكم حق فينبغي أن لا يترك حياء ولذلك لم يتركه الله تعالى ، وأمركم بالخروج ، والتعبير عن عدم الترك بعدم الاستحياء للمشاكلة ، وكان عليه السلام أشد الناس حياءً ، وأكثرهم عن العورات إغضاء ، والحياء رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهته قال الراغب : الحياء انقباض النفس عن القبائح وما روي (إن الله تعالى يستحي من ذي الشيبة المسلم أن يعذبه)[1] فليس يراد به انقباض النفس ، وإنما المراد به ترك تعذيبه ، ثم في الآية تأديب للثقلاء ، قال الأحنف نزل قوله تعالى (**فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِروا**) في حق الثقلاء ، فينبغي للضيف أن لا يجعل نفسه ثقيلاً بل يخفف الجلوس ، وكذا حال العائد فإن عيادة المرضى لحظة ، قيل للأعمش : ما الذي أعمش عينيك ؟ قال : النظر إلى الثقلاء ، وما أحسن قول الشاعر :

إذا دخل الثقيل بأرض قوم * فما للساكنين سوى الرحيل

قيل مجالسة الثقيل حُميَّ الروح ، وقيل من حق العاقل الداخل على الكرام ، قلة الكلام ، وسرعة القيام ، ومن علامة الأحمق الجلوس فوق القدر ، والمجيء في غير الوقت ، قال بعضهم :

أَدِّبُوا النَّفْسَ أيُّها الأَحْبَابُ * طُرَقُ الدِّين كُلُّها آدَاب

﴿ **وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً** ﴾ الماعون وغيره ﴿ **فَاسْأَلُوهُنَّ** ﴾ أي المتاع ﴿ **مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ** ﴾ من خلف ستر ﴿ **ذَٰلِكُمْ** ﴾ أي سؤال المتاع من وراء الحجاب ﴿ **أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ** ﴾ أي أكثر تطهيراً من الخواطر النفسانية ، والخيالات الشيطانية ، فإن كل واحد من الرجل والمرأة إذا لم ير الآخر ، لم يقع في قلبه شيء ، قال في كشف الأسرار : نقلهم عن مألوف العادة ، إلى معروف الشريعة ، ومفروض العبادة ، وبين أن البشر بشر ، وإن كانوا من الصحابة ، فلا يأمن أحد على نفسه من الرجال والنساء ، ولهذا شدد الأمر في الشريعة ، بأن لا يخلو رجل بامرأة ليس بينهما محرمية ، كما قال عليه السلام (ما

(١) الحديث رواه أبو داود بلفظ (إنَّ من إجلال الله تعالى إكرامَ ذي الشيبة المسلم) ولم أره باللفظ الذي ذكره المصنِّف .

خَلا رجلٌ بامرأة إلا كان الشيْطان ثالثهما)[1] وكان عمر رضي الله عنه يحب ضرب الحجاب عليهن ، ويود أن ينزل فيه ، وكان يقول لو أطاع فيكنَّ ما رأتكنَّ عين ، وقال يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت ، ويُروى أنه مر عليهن وهن مع النساء في المسجد ، فقال احتجبن فإن لكن على النساء فضلاً فقالت زينب : يا ابن الخطاب لتغار علينا ، والوحي ينزل في بيوتنا ؟ وعن عائشة رضي الله عنها أن أزواج النبي عليه السلام كن يخرجن الليل لحاجتهن ، وكان عمر يقول للنبي ﷺ احجب نساءك فلم يكن يفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة ليلة من الليالي عشياً ، وكانت امرأة طويلة ، فناداها عمر ألا قد عرفناك يا سودة ، حرصاً على أن تنزل آية الحجاب ، فأنزلها الله تعالى ، وكانت النساء قبل نزول هذه الآية يبرزن للرجال ﴿ **وَمَا كَانَ لَكُمْ** ﴾ أي وما صح وما استقام لكم ﴿ **أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ** ﴾ أي أن تفعلوا في حياته فعلاً يكرهه ، ويتأذى به ﴿ **وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ أي من بعد وفاته ، أو فراقه ﴿ **أَبَداً** ﴾ فإن فيه تركاً لمراعاة حرمته ، فإنه أبٌ ، وأزواجه أمهات ، ويقال : لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة ، رُوي أن أم الدرداء رضي الله عنها قالت لأبي الدرداء عند موته : إنك خطبتني من أبويّ في الدنيا فأنكحاك ، فإني أخطبك إلى نفسي في الآخرة ، فقال لها : لا تنكحي بعدي ، فخطبها معاوية بن أبي سفيان ، فأخبرته بالذي كان وأبت أن تتزوجه ، وروي عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال لامرأته : إن أردتِ أن تكوني زوجي في الجنة فلا تتزوجي بعدي ، فإن المرأة لآخر أزواجها ، وروي في خبر آخر أن أم حبيبة رضي الله عنها قالت يا رسول الله : إن المرأة منا إذا كان لها زوجان ، لأيهما تكون في الآخرة ؟ فقال (إنها تخير فتختار أحسنهما خلقاً منها ، ثم قال يا أم حبيبة : إن حسن الخلق ذهب بالدنيا والآخرة) والحاصل أنه يجب على الأمة أن يعظموه عليه السلام ، ويوقروه في جميع الأحوال ، في حال حياته ، وبعد وفاته ، فإنه بقدر ازدياد تعظيمه وتوقيره في القلوب ، يزداد نور الإيمان فيها ، وسبب نزول الآية أن طلحة بن عبيد الله التيمي : قال لئن مات محمد لأتزوجن عائشة فنزل فيه قوله تعالى (**وَمَا كَانَ لَكُمْ**) الآية ، قال الحافظ السيوطي : وقد كنت في وقفة شديدة من صحة هذا الخبر ، لأن طلحة أحد العشرة المبشرين بالجنة ، أجل مقاماً من أن يصدر منه ذلك ، حتى رأيت أنه رجل آخر شاركه في اسمه واسم أبيه ونسبته ، كما في إنسان العيون ﴿ **إِنَّ ذَٰلِكُمْ** ﴾ يعني إيذاءه ، ونكاح أزواجه من بعده ﴿ **كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً** ﴾ أي ذنباً عظيماً وأمراً هائلاً ثم بالغ في الوعيد فقال ﴿ **إِنْ تُبْدُوا** ﴾ على ألسنتكم ﴿ **شَيْئاً** ﴾ مما لا خير فيه كنكاحهن وترك الأدب ، وحفظ الحرمة ، وتعظيم شأنه ﷺ ﴿ **أَوْ تُخْفُوهُ** ﴾ في صدوركم ﴿ **فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** ﴾ بليغ العلم بظاهر كل شيء وباطنه ، فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصي ،

(١) الحديث أخرجه الطبراني بلفظ (إياك والخلوة بالنساء ، والذي نفسي بيده ماخلا رجل بامرأة إلا ودخل الشيطان بينهما) وانظر الترغيب والترهيب ٣ / ٣٩ .

البادية والخافية ، وعمَّم ذلك ليدخل فيه نكاحهن وغيره ﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ ﴾ استئناف لبيان من لا يجب الاحتجاب عنهم ، رُوي أنه لما نزلت آية الحجاب ، قال الآباء والأبناء والأقارب يا رسول الله : أو نكلمهن أيضاً من وراء حجاب ؟ فنزلت ورخص الدخول على نساء ذوات المحارم بغير حجاب ﴿ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ ولا إِخْوَانِهِنَّ ولا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ ولا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ فهؤلاء ينظرون إلى الوجه والرأس والساقين والعضدين ولا ينظرون إلى أفخاذهن ، وأبيح النظر لهؤلاء ، لكثرة مداخلتهن عليهن ، واحتياجهن إلى مداخلتهن ، وإنما لم يذكر العم والخال لأنهما بمنزلة الوالدين ، ولذلك سمي العم أباً في قوله (وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ) ﴿ ولا نِسَائِهِنَّ ﴾ يعني المؤمنات ، فتنظر المسلمة إلى المسلمة ، سوى ما بين السرة والركبة ، ولا يجوز للكتابيات الدخول عليهن والتكشف عندهن ، أو المراد المسلمات والكتابيات ، وإنما قال « وَلاَ نِسَائِهِنَّ » لأنهن من أجناسهن ، فيحل دخول الكتابيات عليهن ، وقد كانت النساء الكوافر من اليهوديات وغيرهن يدخلن على نساء النبي عليه السلام ، فلم يكنَّ يحتجبن ، ولا أمرن بالحجاب ، وهو قول أبي حنيفة وأحمد ومالك ﴿ ولا مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُنَّ ﴾ من العبيد والإماء فيكون عبد المرأة محرماً لها فيجوز له الدخول عليها إذا كان عفيفاً ، وأن ينظر إليها كالمحارم ، وقد أباحت عائشة النظر لعبدها ، وقالت لذكوان إنك إذا وضعتني في القبر وخرجت فأنت حر ، وقيل : من الإماء خاصة ، فيكون العبد حكمه حكم الأجنبي معها ، قال في بحر العلوم : وهو أقرب إلى التقوى لأن عبد المرأة كالأجنبي ، خصياً كان أو فحلاً ، وأين مثل عائشة وأين مثل عبدها في العبيد ؟ لا سيما في زماننا هذا ، وهو قول أبي حنيفة وعليه الجمهور ، فلا يجوز لها الحج ولا السفر معه ، وقد أجاز رؤيته إلى وجهها وكفيها إذا وجد الأمن من الشهوة ، ولكن جواز النظر لا يوجب المحرمية ﴿ واتَّقِينَ اللهَ ﴾ فيما أمرتنَّ من الاحتجاب ، واخشين حتى لا يراكن غير هؤلاء ممن ذكر ، وعليكن بالاحتياط ما قدرتن ﴿ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيداً ﴾ لا يخفى عليه خافية من الأقوال والأفعال ، ولا يتفاوت في علمه الأماكن والأوقات والأحوال ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ ﴾ اعلم أن الملائكة أجسام لطيفة ، ويدخل فيهم جميع الملائكة الأرضية والسماوية ، أصاغرهم وأكابرهم كجبريل وغيره ، بحيث لا يشذ منهم فرد أصلاً ومقام التعظيم يقتضي التعميم ، كما لا يخفى على ذي القلب السليم ﴿ يُصَلُّونَ على النَّبِيِّ ﴾ أي يعتنون بما فيه خيره ، وصلاح أمره ، ويهتمون بإظهار شرفه ، وتعظيم شأنه ، وذلك من الله تعالى بالرحمة ، ومن الملائكة بالدعاء ، والاستغفار ، قال بعضهم : الصلاة من الله الرحمة ، ومن الملائكة الاستغفار ، ومن الإنس والجن القيامُ والركوع والسجود والدعاء ، وقال آخرون : الصلاة من الله تعالى بمعنى الرحمة لغير النبي عليه السلام ، وبمعنى التشريف بمزيد الكرامة للنبي ، والرحمة عامة ، والصلاة خاصة ، كما دل العطف على التغاير في قوله تعالى (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ) ﴿ يَا أَيُّها الَّذِين آمَنُوا صَلُّوا

عَلَيْهِ ﴾ اعتنوا أنتم أيضاً بذلك ، فإنكم أولى به ﴿ **وَسَلِّموا تَسْلِيماً** ﴾ بأن تقولوا : اللهم صلِ على محمد وسلم ، أو ﷺ وخص اللهم ولم يقل : يارب ويا رحمن صلّ ، لأنه اسم جامع ، دال على الألوهية ، وعلامة الإسلام في قوله « لا إله إلا الله » فناشب ذكره وقت الصلاة عليه ﷺ وخص اسم محمد لأن معناه المحمود مرة بعد أخرى فناسب مقام المدح والثناء ، والمراد بآله الأتقياء من أمته ، فدخل فيه بنو هاشم والأزواج المطهرة وغيرهم جميعاً ومعنى « اللهم صلِّ على محمد » أى عظِّمْه في الدنيا بإعلاء دينه ، وإظهار دعوته ، وإبقاء شريعته ، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته ، وتضعيف أجره ومثوبته ، وإظهار فضله على الأولين والآخرين ، وتقديمه على كافة الأنبياء والمرسلين ، ولما لم يكن حقيقة الثناء في وسعنا أمرنا أن نكل ذلك إليه تعالى ، فالله يصلي عليه بسؤالنا :

سَلاَمٌ مِنَ الرَّحْمنِ نَحْوَ جَنَابِهِ * لأنَّ سَلاَمي لا يَلِيقُ بِبَابِهِ

فإن قلت : فما الفائدة في الأمر بالصلاة ؟ قلت : إظهار المحبة للصلاة وفي الحديث (ما من مسلم يسلم عليّ إلا ردَّ اللهُ عليّ روحي حتى أردّ عليه السلام)[1] ويؤخذ من هذا الحديث أنه حيٌّ في البرزخ ، لأنه محال عادة أن يخلو من الوجود كله من واحد يسلم على النبي في ليل أو نهار ، قال الإمام السيوطي : وللروح بالبدن اتصال بحيث يسمع ويشعر ، ويرد السلام ، فيكون عليه السلام في الرفيق الأعلى وهي متصلة بالبدن ، بحيث إذا سلم المُسَلِّم على صاحبها رد عليه السلام ، وهو في مكانها هناك ، وإنما يأتي الغلط هنا من قياس الغائب على الشاهد ، فيعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التي إذا شغلت مكاناً لم يمكن أن تكون في غيره ، وهذا غلط محض ، وقد رأى النبي موسى عليهما السلام ليلة المعراج قائماً يصلي وهو في الرفيق الأعلى ، ولا تنافي بين الأمرين ، فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان ، ولولا لطافة الروح ونورانيتها ما صح قيام الميت في قبره والتراب عليه أو التابوت ، فإنه لا يمنعه شيء من ذلك عن قعوده ، وقد صح أن الإنسان يمكن أن يدخل من الأبواب الثمانية للجنة في آن واحد ، لغلبة الروحانية مع تعذره في هذه النشأة الدنيوية ، عن الأصمعي قال سمعت المهديَّ على منبر البصرة يقول : إن الله أمركم بأمرٍ ، بدأ فيه بنفسه وثنَّى بملائكته فقال (**إنَّ اللهَ وملاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**) آثره ﷺ من بين الرسل واختصكم بها من بين الأمم ، فقابلوا نعمة الله بالشكر ، وإنما بدأ تعالى بالصلاة عليه بنفسه إظهاراً لشرفه ومنزلته ، وترغيباً للأمة ، فإنه تعالى مع استغنائه إذا كان مصلياً عليه ، كان الأمة أولى به، لاحتياجهم إلى شفاعته ، وتقوية لصلوات الملائكة والمؤمنين، وما أحسن ما قيل:

يا مَنْ يُجِيبُ دُعَا المضْطَرِّ في الظُّلَمِ * يَا كَاشِفَ الضُّرِّ والبَلْوَى مَعَ السَّقَمِ

(١) الحديث رواه أبو داود بإسناد صحيح بلفظ « ما من أحدٍ يسلم عليَّ .. » الحديث وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٠٣ .

شَفِّعْ نَبِيَّكَ فِي ذُلِّي وَمَسْكَنَتِي * وَاسْتُرْ فَإِنَّكَ ذُو فَضْلٍ وَذُو كَرَمِ

قال كعب بن عجرة رضي الله لما نزل قوله تعالى (**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وسَلِّمُوا تَسْلِيماً**) قلنا إليه فقلنا أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال (**قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**) ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ** ﴾ حقيقة التأذي في حقه تعالى محال ، فالمعنى يفعلون ما يكرهه ، ويرتكبون مالا يرضاه بترك الإيمان به ، ومخالفة أمره ، ومتابعة هواهم ونسبة الولد والشريك إليه ، والإلحاد في أسمائه وصفاته ، ونفي قدرته على الإعادة وسب الدهر ﴿ **وَرَسُولَهُ** ﴾ بقولهم شاعر ، ساحر ، كاهن ، مجنون ، وطعنهم في نكاح صفية ، وكسر رباعيته ، وشج وجهه الكريم يوم أحد ، ورمي التراب عليه ، ووضع القاذورات على ظهره الشريف ونحو ذلك من الأذى الفعلي ﴿ **لَعَنَهُمُ اللهُ** ﴾ طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ **فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ** ﴾ بحيث لا يكادون ينالون فيها شيئاً منها ﴿ **وَأَعدَّ لَهُمْ** ﴾ مع ذلك ﴿ **عَذاباً مُهِيناً** ﴾ يصيبهم في الآخرة خاصة أي نوعاً من العذاب يهانون فيه ، فيذهب بعزهم وكبرهم قال في فتح الرحمن : يحرم أذى النبي عليه السلام بالقول ، والفعل بالاتفاق ، واختلفوا في حكم من سبه والعياذ بالله من المسلمين ، فقال أبو حنيفة والشافعي : هو كفر كالردة يقتل ما لم يتب ، وقال مالك وأحمد : يقتل ولا تقبل توبته ، لأن قتله من جهة الحد لا من جهة الكفر ، وأما الكافر إذا سبه صريحاً فقال أبو حنيفة : لا يقتل لأن ما هو عليه من الشرك أعظم ، ولكن يؤدب ويعزر ، وقال الشافعي: ينتقض عهده فيخير فيه الإمام بين القتل والاسترقاق ، والمنّ والفداء ، وقال مالك وأحمد : يقتل ما لم يُسْلِم ، واختار جماعة من أئمة مذهب أحمد أن سابَّهُ عليه السلام يقتل بكل حال ، منهم الشيخ تقي الدين بن تيمية ، وقال : هو الصحيح من المذهب ، وحكم من سب سائر أنبياء الله وملائكته ، حكم من سب نبينا عليه السلام ﴿ **والَّذِينَ يُؤْذُونَ المؤْمِنِينَ والمؤْمِنَاتِ** ﴾ يفعلون بهم ما يتأذون به من قول أو فعل ﴿ **بِغَيْرِ ما اكْتَسَبُوا** ﴾ أي بغير جناية يستحقون بها الأذية ، وتقييد أذاهم به بعد إطلاقه في الآية السابقة للإيذان بأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق ، وأما أذى هؤلاء فقد يكون حقاً وقد يكون غير حق ، والآية عامة لكل أذى بغير حق ، في كل مؤمن ومؤمنة ، فتشمل المنافقين الذين كانوا يؤذون علياً رضي الله عنه وما سبق من قصة الإفك حيث اتهموا عائشة بصفوان السهمي ، وما روي أن الفساق كانوا يتبعون النساء إذا برزن بالليل لطلب الماء أو لقضاء حوائجهن ﴿ **فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً** ﴾ افتراء وكذباً عليهم ، من بَهَته بهتاناً إذا قال عليه ما لم يفعله ﴿ **وَإِثْماً مُبِيناً** ﴾ أي ذنباً ظاهراً ، واعلم أن

أذى المؤمنين قرن بأذى الرسول عليه السلام ، كما أن أذى الرسول قرن بأذى الله ، ففيه إشارة إلى أن من آذى المؤمنين ، كان كمن آذى الرسول ، ومن آذى الرسول كان كمن آذى الله تعالى ، فكما أن المؤذي لله وللرسول مستحق الطرد واللعن في الدنيا والآخرة ، فكذا المؤذي للمؤمن ، روي أن رجلاً شتم علقمة رضي الله عنه فقرأ هذه الآية ، وقد رأى الرسول ﷺ في منامه أناساً يُعلَّقون بألسنتهم ، فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : (هؤلاء الذين يرمون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا) وفي الحديث القدسي (من آذى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة)[1] روي أن ابن عمر رضي الله عنهما نظر يوماً إلى الكعبة فقال ما أعظمك وأعظم حرمتك !! والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك ، قال فضيل رحمه الله : والله لا يحل لك أن تؤذي كلباً ولا خنزيراً بغير ذنب ، فكيف أن تؤذي مسلماً ؟ وفي الحديث (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)[2] ﴿ **يا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ** ﴾ أي نسائك وكنَّ تسعاً حين توفي عليه السلام ، وهن عائشة وحفصة ، وأم حبيبة ، وأم سلمة ، وسودة ، وزينب ، وميمونة ، وصفية ، وجويرية ﴿ **وَبَنَاتِكَ** ﴾ وكانت أربعاً صلبية ولدتهنَّ خديجة ، وهي زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة رضي الله عنهن ، متن في حياته عليه السلام ، إلا فاطمة فإنها عاشت بعده ستة أشهر ﴿ **وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ** ﴾ الإدناء من الدنو وهو القرب ، والجلباب ثوب أوسع من الخمار دون الرداء تلويه المرأة على رأسها ، وتبقى منه ما ترسله إلى صدرها ، والمعنى : يغطين بها وجوهن وأبدانهن وقت خروجهن من بيوتهن لحاجة ، ولا يخرجن مكشوفات الوجوه والأبدان كالإماء ، حتى لا يتعرض لهن السفهاء ظناً بأنهن إماء ، وعن السدي تغطي إحدى عينيها وشق وجهها والشق الآخر إلا العين ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي ما ذكر من التغطي ﴿ **أَدْنَىٰ** ﴾ أقرب ﴿ **أَنْ يُعْرَفْنَ** ﴾ ويميزن من الإماء والقينات اللاتي هن مواقع تعرض الزناة وإذاهم ، كما ذكر في الآية السابقة ﴿ **فلا يُؤْذَيْنَ** ﴾ من جهة أهل الفجور بالتعرض لهن ، قال أنس رضي الله عنه : مرّت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه جارية متقنعة فعلاها بالدرة ، وقال يا لكاع تتشبهين بالحرائر ، ألقي القناع ﴿ **وكانَ اللهُ غَفُوراً** ﴾ لما سلف من التفريط وترك الستر ﴿ **رَحِيماً** ﴾ بعباده حيث يراعي مصالحهم حتى الجزئيات منها ، وفي الآية تنبيه لهن على حفظ أنفسهن ورعاية حقوقهن بالتصاون والتعفف . وفيه إثبات كرامتهن وعزة قدرهن ، وينبغي للمسلمات التستر والتعفف ، وإذا خرجن نهاراً لضرورة ، يُبالغن في التغطي ورعاية الأدب والوقار ، وغض البصر عن الرجال ، ولا يخرجن إلا في ثياب دنيئة ، فمن خرجت من بيتها متعطرة متبرجة أي مظهرة زينتها ومحاسنها للرجال ، فإن عليها ما على الزانية من الوِزْرِ كما صح ذلك في الحديث الشريف ،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري وهو حديث قدسي طويل ولفظه (من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب..) الحديث وانظر جامع الأصول ٥٤٢/٩ .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي وأبو داود ، وانظر جامع الأصول ١ / ٢٤٠ .

وعلامة المرأة الصالحة عند أهل الحقيقة أن يكون حسنها مخافة الله ، وغناها القناعة ، وحليها العفة أي التكفف عن الشرور والمفاسد والاجتناب عن مواقع التهم ، يقال : إن المرأة مثل الحمامة ، إذا نبت لها جناح طارت ، كذلك الرجل إذا زين امرأته بالثياب الفاخرة فلا تجلس في البيت ، والدنيا لم تخل عن الفسق والفجور ، حتى في الصدر الأول ، فرحم الله امرءاً غَضَّ بصره عن أجنبية ، فإن النظرة تزرع في القلب شهوة ، وكفى بها فتنة .

﴿ **لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ** ﴾ المعنى : والله لئن لم يمتنع المنافقون عما هم عليه من النفاق وأحكامه الموجبة للإيذاء ﴿ **وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** ﴾ ضعف إيمان وقلة ثبات عليه ، أو من فجورهم وميلهم إلى الزنى والفواحش ﴿ **وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ** ﴾ الرجف : الاضطراب الشديد ، وصف بالإرجاف الإخبار الكاذب ، لكونه متزلزلاً غير ثابت ، والمعنى : لئن لم ينته المخبرون بالأخبار الكاذبة في الفريقين عما هم عليه من نشر أخبار السوء ، بأن يقولوا انهزموا وقُتلوا وغير ذلك من الأراجيف المؤذية ، الموقعة للمسلمين في الاضطراب والرعب ﴿ **لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ** ﴾ جواب القسم أي لنأمرنك بقتالهم وإجلائهم ، أو بما يضطرهم إلى الجلاء ، ولنحرّضنَّك على ذلك ﴿ **ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا** ﴾ أي لا يساكنونك في المدينة المنوَّرة ﴿ **إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ زماناً أو جواراً قليلاً ، ريثما يرتحلون بأنفسهم وعيالهم ﴿ **مَلْعُونِينَ** ﴾ مطرودين عن الرحمة ، أي لا يجاورونك إلا حال كونهم ملعونين ﴿ **أَيْنَمَا ثُقِفُوا** ﴾ في أيّ مكان وُجدوا وأدركوا ﴿ **أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً** ﴾ يعني الحكم فيهم الأخذ والقتل على جهة الأمر ، إذا لم ينتهوا عن ذلك ﴿ **سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي سنَّ الله ذلك في الأمم الماضية سنة ، وجعله طريقة مسلوكة من جهة الحكمة ، وهي أن يُقتل الذين نافقوا وسعوا في توهين أمر المؤمنين بالإرجاف ونحوه أينما ثقفوا ﴿ **وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً** ﴾ تغييراً أصلاً أي لا يُبَدِّ لُهَا لابتنائها على أساس الحكمة ، التي عليها يدور فلك التشريع ، أو لا يقدر أحد على أن يبدلها لأن ذلك مراد له لا محالة ﴿ **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ** ﴾ عن وقت قيامها ، والساعة جزء من أجزاء الزمان ، ويعبر بها عن القيامة تشبيهاً بذلك لسرعة حسابها كما قال (**وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ**) كان المشركون يسألونه عليه السلام عن ذلك استعجالاً بطريق الاستهزاء ، والتعنت والإنكار ، واليهود امتحاناً لِمَا يعلمون أن الله تعالى أخفى وقتها في التوراة وسائر الكتب ﴿ **قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ** ﴾ لا يُطْلِع عليه ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلاً ﴿ **وَمَا يُدْرِيكَ** ﴾ أي شيء يجعلك دارياً وعالماً بوقت قيامها ، أي لا يعلمك به شيء أصلاً فأنت لا تعرفه ﴿ **لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ** ﴾ شيئاً ﴿ **قَرِيباً** ﴾ أو تكون الساعة في وقت قريب ، وفيه تهديد للمستعجلين ، وإسكات للمتعنتين ، ومن أشراط الساعة أن ترفع الأشرار ، وتوضع الأخيار ، ويرفع العلم ، ويظهر الجهل ،

ويفشو الزنى والفجور ، ورقص القينات ، وشرب الخمور ، ونحو ذلك كما ثبت في الأحاديث الصحيحة ، وقد قال الشاعر :

فَانتَبِهْ قَدْ أُقيمتِ السَّاعة * إنَّ عُمْرَ الخَلائقِ سَاعة

﴿ **إنَّ اللهَ لَعَنَ الكَافِرِينَ** ﴾ على الإطلاق أي طردهم وأبعدهم من رحمته العاجلة والآجلة ﴿ **وَأعدَّ لَهُمْ** ﴾ مع ذلك ﴿ **سَعيراً** ﴾ ناراً مسعورة شديدة الاتقاد يقاسونها في الآخرة ﴿ **خَالدِينَ فِيها** ﴾ مقدَّراً خلودهم في السعير ﴿ **أَبَداً** ﴾ دائماً ، أكد الخلود بالتأبيد والدوام مبالغة في ذلك ﴿ **لا يَجدونَ وَليّاً** ﴾ يحفظهم ﴿ **ولا نَصيراً** ﴾ يدفع العذاب عنهم ويخلصهم منه ﴿ **يومَ تُقَلَّبُ وُجوهُهُمْ في النَّارِ** ﴾ أي يوم تصرف وجوههم فيها من جهة إلى جهة ، كاللحم يُشوى في النار أو يطبخ في القدر ، فيدور به الغليان من جهة إلى جهة ، ويقال : تُحوَّل وجوههم من الحسن إلى القبح ﴿ **يَقولونَ** ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : فماذا يصنعون عند ذلك ؟ فقيل : يقولون متحسرين على ما فاتهم ﴿ **يا لَيْتَنَا** ﴾ يا هؤلاء ، ويجوز أن يكون « يا » لمجرد التنبيه ، من غير قصد إلى تعيين المنبه ﴿ **أَطَعْنَا اللهَ** ﴾ في دار الدنيا فيما أمرنا ونهانا ﴿ **وَأَطَعْنا الرَّسُولا** ﴾ فيما دعانا إلى الحق ، حتى لا نُبتلى بهذا العذاب ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ أي الأتباع ، وهو ضرب من الاعتذار ، أرادوا به التشفي بمضاعفة عذاب الّذين ألقوهم في تلك الورطة ﴿ **رَبَّنا إنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وكُبَراءَنا** ﴾ يعنون قادتهم ورؤساءهم الذين لقنوهم الكفر ، والتعبير عنهم بعنوان السيادة لتقوية الاعتذار ، وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة ، والكبراء جمع كبير والمراد الكبير رتبة وحالاً ﴿ **فَأَضَلُّونا السَّبيلا** ﴾ أي صرفونا عن طريق الإسلام والتوحيد ، بما زينوا لنا الكفر والشرك ﴿ **رَبَّنا** ﴾ تصدير الدعاء النداء المكرر للمبالغة في الجؤار واستدعاء الإجابة ﴿ **آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذابِ** ﴾ أي مثلي العذاب الذي أوتيناه ، لأنهم ضلوا وأضلوا ، فضعفٌ لضلالهم في أنفسهم عن طريق الهداية ، وضعف لإضلالهم غيرهم عنها ﴿ **والْعَنْهُمْ لَعْناً كبيراً** ﴾ أي شديداً عظيماً ، وأصل الكبير والعظيم أن يُستعملا في الأعيان ، ثم استعيرا للمعاني ﴿ **يا أَيُّها الَّذِينَ آمنُوا لا تَكُونُوا** ﴾ في إيذائكم رسول الله ﷺ ، قيل : نزلت في شأن زينب وما سمع فيه من مقالة الناس كما سبق ، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (قسم النبي عليه السلام قسماً فقال رجل : إنَّ هذه القسمة ما أريد بها وجه الله ، فأتيت النبي عليه السلام فأخبرته ، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه ثم قال : يرحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فَصَبر)[1] ﴿ **كالَّذِينَ آذوْا مُوسى** ﴾ كقارون وأشياعه وغيرهم من سفهاء بني إسرائيل ﴿ **فبرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا** ﴾ فأظهر براءة موسى عليه السلام مما قالوا في حقه ، أي من مضمونه ومؤدّاه

(١) الحديث أخرجه الشيخان ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٥ / ٢٢٤ .

الذي هو الأمر المعيب ﴿ وَكَانَ ﴾ موسى ﴿ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً ﴾ أي ذا جاه ومنزلة وقربة ، فكيف يوصف بعيب ونقيصة ؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : وجيهاً أي حَظِيّاً لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه واختلفوا في وجه أذى موسى عليه السلام ، فقال بعضهم : إن قارون دفع إلى زانية مالاً عظيماً على أن تقول على رأس الملأمن بني اسرائيل إني حامل من موسى على الزنى ، فأظهر الله نزاهته عن ذلك ، بأن أقرت الزانية بالمصانعة الجارية بينها وبين قارون ، وفعل بقارون ما فعل من الخسف ،كما فُصِّل في سورة القصص ، وقال بعضهم : قذفوه بعيب في بدنه من برص ، أو من أدْرة وهي مرض الأنثيين وذلك لفرط تستره حياء ، فأطلعهم الله على براءته ، رُوي أن بني إسرائيل كانوا يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوءة بعضهم - أي فَرْجه - وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده ، فقال بعضهم : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر فذهب مرة موسى عليه السلام يغتسل ، فوضع ثوبه على حجرٍ ، ففر الحجر بثوبه ، أي بعد أن اغتسل فأسرع موسى خلف الحجر وهو عريان ، وهو يقول ثوبي جَحَرِ ، ثوبي حجر ، أي دَعْ ثوبي يا حجر ، فوقف الحجر عند بني إسرائيل فقالوا والله ما بموسى من بأس ، وعلموا أنه ليس كما قالوا في حقه ، فأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضرباً ، فضربه خمساً أو ستاً أو سبعاً[1]﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ ﴾ في رعاية حقوقه ، وحقوق عباده ، فمن الأول الأمتثال لأمره ، ومن الثاني ترك الأذى ﴿ وَقُولُوا ﴾ في أيِّ شأن من الشؤون ﴿ قَوْلاً سَدِيداً ﴾ مُستقيماً مائلاً إلى الحق ، فإن السداد الاستقامة والمراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب عن العدل والقصد ، لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله ، حكي أن يعقوب بن إسحق المعروف « بابن السكيت » من أكابر علماء العربية جلس يوماً مع المتوكل ، فجاء المعتز والمؤيد ابنا المتوكل ، فقال : أيما أحب إليك ابناي أم الحسن والحسين ؟ قال : والله إن قنبراً خادم علي رضي الله عنه خير منك ومن ابنيك ، فقال سُلُّوا لسانه من قفاه ، ففعلوا فمات في تلك الليلة ، ومن العجب أنه أنشد قبل ذلك للمعتز والمؤيد ، وكان يعلمها فقال :

يُصَابُ الفَتَى من عَثْرةٍ بلسَانِهِ * وليسَ يُصَابُ المرءُ من عَثْرَةِ الرِّجْلِ
فعثرتُه في القَوْلِ تُذْهِبُ رأسَهُ * وعَثْرتُه في الرِّجْلِ تَبْرَا عَلَى مَهْلِ

﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ يوفقكم للأعمال الصالحة، أو يُصْلِحْهَا بالقبول والإثابة عليها ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ويجعلها مكفرة باستقامتكم في القول والفعل ، وفيه إشارة إلى أن من وفقه الله لصالح الأعمال فذلك دليل على أنه مغفور له ذنوبه ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في الأوامر والنواهي التي من جملتها هذه التكليفات ، والطاعةُ : موافقة الأمر ، والمعصية مخالفته ﴿ فَقَدْ فَازَ ﴾ في الدارين ، والفوز

(١) الحديث ذكره المصنف وهو من رواية البخاري وأحمد والترمذي عن أبي هريرة ، وانظر الدر المنثور ٥ / ٢٢٣ .

الظفر مع حصول السلامة ﴿ **فَوْزاً عَظِيماً** ﴾ عاش في الدنيا محموداً ، وفي الآخرة مسعوداً ، أو نجا من كل ما يخاف ، ووصل إلى كل ما يرجو ﴿ **إِنَّا** ﴾ هذه النون نون العظمة والكبرياء عند العلماء فإن الملوك والعظماء يعبرون عن أنفسهم بصيغة الجمع ﴿ **عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ والجِبَالِ** ﴾ الأمانة ضد الخيانة ، والمراد هنا ما ائتمن عليها وهي على ثلاث مراتب : المرتبة الأولى أنها التكاليف الشرعية والأمور الدينية المرعية ، ولذا سميت أمانة لأنها لازمة الوجود كما أن الأمانة لازمة الأداء ، عبر عن التكاليف الشرعية بالأمانة ، لأنها حقوق مرعية أودعها الله المكلفين ، وائتمنهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد ، وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير إخلال بشيء من حقوقها ، وتلك الأمانة هي العقل أولاً ، فبه فُضِّل الإنسان على كثير من الخلائق ، ثم التوحيد والإيمان باليوم الآخر ، والصلاة والزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد ، وصدق الحديث ، وحفظ اللسان من الفضول ، وحفظ الودائع والوفاء بالعهود ، والقيام بالحدود ، وحفظ الفرج وغير ذلك من التكاليف الشرعية ، فإن قلت : ما ذُكر من السمواتِ وغيرها جمادات ، والجمادات لا إدراك لها ، فما معنى عرض الأمانة عليها ؟ قلت للعلماء فيه قولان : **الأول** : أنه محمول على الحقيقة وهو الأنسب بمذهب أهل السنة ، لأنهم لا يؤولون أمثال هذا بل يحملونها على حقيقتها خلافاً للمعتزلة ، وعلى تقدير الحقيقة فيه وجهان أحدهما أدق من الآخر : **الأول** : أي للجمادات حياة حقيقية دل عليها كثير من الآيات نحو قوله (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ والشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ**) وقوله (**ائتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**) وقوله (**وإِنْ مِنْ شَيءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمدِهِ**) وقوله (**كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ**) وقد ورد (أن كل شيء سمع صوت المؤذن من رطب ويابس يشهد له) ، **والوجه الثاني** : أن الله تعالى ركب العقل والفهم في الجمادات المذكورة عند عرض الأمانة ، كما ركب العقل وقبول الخطاب في النملة والهدهد وغيرهما من الطيور والوحوش ، فهن بهذا العقل والإدراك سمعن الخطاب وأنطقهن الله بالجواب ، حيث قال لهن : أتحملن هذه الأمانة على أن يكون لكنّ الثواب والنعيم في الحفظ والأداء ، والعقاب والجحيم في الغدر والخيانة ؟ ﴿ **فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا** ﴾ الإباء شدة الامتناع ﴿ **وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا** ﴾ والمعنى وخفن من الأمانة وحملها ، وقلن : يا ربّ نحن مسخرات بأمرك ، لا نريد ثواباً ولا عقاباً ، ولم يكن هذا القول منهن من جهة المعصية والمخالفة ، بل من جهة الخوف والخشية من أن لا يؤدين حقوقها ويقعن في العذاب ، **والقول الثاني** : أنه محمول على الفرض والتمثيل ، فعبر عن اعتبار الأمانة بالنسبة إلى استعدادهن بالعرض عليهن ، لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها ، والرغبة في قبولهن لها ، وعن عدم استعدادهن لقبولها بالإباء والإشفاق منها ، لتهويل أمرها ومزيد فخامتها ، فالمعنى أن تلك الأمانة في عِظَم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك

الأجرام العظام ، التي هي مَثَلٌ في الشدة والقوة مراعاتها وكانت ذات شهود وإدراك ، لأبينَ قبولها ، وأشفقن منها ﴿ **وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ** ﴾ عند عرضها عليه والمراد بالإنسان الجنس أي تكلفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البُنية ، ورخاوة القوة ، لأن الحمل إنما يكون بالهمة لا بالقوة ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ أي الإنسان ﴿ **كَانَ ظَلُوْمَاً** ﴾ لنفسه بمعصية ربه ، حيث لم يَفِ بالأمانة ، ولم يراع حقها ﴿ **جَهُولاً** ﴾ بكنه عاقبتها ، والظلمُ : وضع الشيء في غير موضعه ، والجهل خلو النفس من العلم ، وهو على قسمين : ضعيف ، وهو الجهل البسيط ، وقويّ ، وهو الجهل المركب ، الذي لا يدري صاحبه أنه لا يدري أي إنه كان مفرطاً في الظلم ، مبالغاً في الجهل ﴿ **لِيُعَذِّبَ اللهُ المنَافِقِينَ والمنَافِقَاتِ** ﴾ الذين ضيعوا الأمانة بعد ما قبلوها ﴿ **والمُشْرِكِينَ والمُشْرِكَاتِ** ﴾ الذين خانوا في الأمانة ، قال في الإرشاد : أي حملها الإنسان ليُعذّب الله بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة ، على أن اللام للعاقبة أي كان عاقبة حمل الإنسان لها ، أن يعذب الله هؤلاء من أفراده ، لخيانتهم الأمانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية ، قال في بحر العلوم : ويجوز أن تكون اللام علة لعرضنا ، أي عرضناها ليظهر نفاق المنافقين وإشراك المشركين فيعذبهما الله ﴿ **وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ** ﴾ الذين حفظوا الأمانة ، وراعوا حقها ﴿ **وكانَ الله غَفوراً رَحِيماً** ﴾ مبالغاً في المغفرة والرحمة ، حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم ، وأثاب بالفوز على طاعاتهم .

« انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الأحزاب »

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **الحَمْد للهِ** ﴾ أي جميع أفراد المدح ، والثناء والشكر ، ملك لله تعالى ، لا شركة لأحد فيه ، لأنه الخالق والمالك كما قال ﴿ **الَّذِي لَهُ** ﴾ خاصة خلقاً وملكاً وتصرفاً ، بالإيجاد والإعدام ، والإحياء والإماتة ﴿ **مَا فِي السَّمٰواتِ وما فِي الأرْضِ** ﴾ أي جميع الموجودات ، فإليه يرجع الحمد لا إلى غيره وفي هذا تعليم للعباد كيف يحمدونه ﴿ **ولَهُ الحَمْدُ في الآخِرَةِ** ﴾ بيان لاختصاص الحمد الأخروي به تعالى ، أثر بيان اختصاص الدنيوي به ، قيل : يحمده أهل الجنة في ستة مواضع : **أحدها** : حين نودي (**وامْتَازُوْا اليَوْمَ أيُّهَا المُجْرِمُوْنَ**) فإذا ميّز المؤمنون عن الكافرين ، يقولون (**الحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ**) ، **والثاني** : حين جاوزوا الصراط قالوا (**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ**) ، **والثالث** : لما دنوا إلى باب الجنة ونظروا إلى الجنة قالوا (**الحَمْدُ للهِ الَّذي هَدَانَا لِهَذَا**) ، **والرابع** : لما دخلوا الجنة واستقبلتهم الملائكة بالتحية قالوا (**الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ**) ، **والخامس** : حين استقروا في منازلهم قالوا (**الحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ**) ، **والسادس** : كلّما فرغوا من الطعام قالوا (**الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**) ، ﴿ **وهُوَ الحَكِيمُ** ﴾ الذي أحكم أمور الدين والدنيا ، ودبرها حسبما تقتضيه الحكمة ، وتستدعيه المصلحة ﴿ **الخَبِيرُ** ﴾ بليغ الخبرة والعلم ببواطن الأشياء ، ومكنوناتها ثم بين كونه خبيراً فقال ﴿ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ في الأرْضِ** ﴾ الولوج الدخول في مضيق ، أي يعلم ما يدخل فيها من البذور والغيث والكنوز ، والدفائن ، والأموات والحشرات والهوام ونحوها ﴿ **وما يَخْرُجُ مِنْها** ﴾ كالحيوان من جُحره ، والزرع ، والنبات ، وماء العيون ، والمعادن والأموات عند الحشر ونحوها ﴿ **وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ** ﴾ كالملائكة ، والكتب ، والمقادير ، والأرزاق ، والبركات ، والأمطار ، والثلوج والبرد والأنداء ، والشهب والصواعق ونحوها ﴿ **وَمَا يَعْرُجُ** ﴾ يصعد ﴿ **فِيها** ﴾ كالملائكة ، والأرواح الطاهرة ، والأبخرة والأدخنة والدعوات ، وأعمال العباد ، ولم يقل « إليها » لأن قوله تعالى (**إلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَالِحُ يرْفَعُهُ**) يشير إلى أن الله تعالى هو المنتهى لا السماء ﴿ **وَهُوَ الرَّحِيمُ** ﴾ للحامدين ولمن تولاه ﴿ **الغَفُورُ** ﴾ للمقصّرين ، فإذا كان الله متصفاً بالخلق ، والملك ، والتصرف ، والحكمة ، والعلم ، والرحمة ، والمغفرة ، ونحوها من الصفات الجليلة ، فله الحمد المطلق ، وعن رفاعة بن رافع رضي الله عنه قال : (كنا نصلي مع رسول الله ﷺ ، فلما رفع رأسه ﷺ من الركوع قال : سمع الله لمن حمده ، فقال رجل وراءه : ربنا لك الحمد ، حمداً كثيراً

طيباً مباركاً فيه ، فلما انصرف قال : من المتكلم آنفاً ؟ قال الرجل أنا قال : لقد رأيت بضعاً وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أولاً)[1] ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ عبر عن القيامة بالساعة ، تشبيهاً لها بالساعة التي هي جزء من أجزاء الزمان لسرعة حسابها ، وأرادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبة لا أنفسهم ، كما أرادوا بنفي إتيانها ، نفي وجودها بالكلية ﴿ قُلْ بَلَىٰ ﴾ ردّ لكلامهم ، وإثبات لما نفوه من إتيان الساعة ، على معنى ليس الأمر إلا إتيانها ﴿ وَرَبِّي ﴾ الواو للقسم ﴿ لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ الساعة البتة ﴿ عَالِمِ الغَيْبِ ﴾ يريد أن الساعة من الغيوب ، والله عالم بكلها ، والغيب ما غاب عن الخلق ، وفائدة الأمر باليمين ، أن لا يبقى للمعاندين عذر أصلاً ، لما أنهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وصمة الكذب ، فضلاً عن اليمين الفاجرة ، وإنما لم يصدقوه مكابرة ﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ العازب : المتباعد في طلب الكلأ عن أهله ، أي لا يبعد عن علمه ولا يغيب ﴿ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ المثقال : ما يوزن به ، والذرة النملة الصغيرة الحمراء ، وما يرى في شعاع الشمس من ذرات الهواء ، أي وزن أصغر نملة أو مقدار الهباء ﴿ فِي السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ ﴾ أي كائنة فيهما ﴿ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ ﴾ المثقال ﴿ وَلا أَكْبَرُ ﴾ منه ﴿ إِلاَّ ﴾ مسطور ومثبتٌ ﴿ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ هو اللوح المحفوظ المظهر لكل شيء ، وإنما كتب جرياً على عادة المخاطبين ، لا مخافة نسيان ، وليعلم أنه لم يقع خلل وإن أتى عليه الدهر ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ علة لقوله (لَتَأْتِيَنَّكُمْ) وبيان لما يقتضي إتيانها ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بالإيمان والعمل ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ مَغْفِرَةٌ ﴾ ستر ومحو لما صدر عنهم مما لا يخلو عنه البشر ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ لا تعب فيه ولا منّ عليه ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا ﴾ القرآنية بالرد ، والطعن فيها ، ومنع الناس عن التصديق بها ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ أي مسابقين ظانين في زعمهم وتقديرهم أنهم يفوتوننا ، وأنّ كيدهم للإسلام يتم لهم ، ظانين ومقدرين أنهم يعجزوننا ، لأنهم حسبوا أن لا بعث ولا نشور ، فيكون لهم ثواب وعقاب ؟

﴿ أُولَئِكَ ﴾ الساعون ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ ﴾ سوء العذاب أي من جنس سوء العذاب ﴿ أَلِيمٌ ﴾ الرجز بمعنى القذر والشرك والأوثان كما في قوله (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) سماها رجزاً لأنها تؤدي إلى العذاب ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ﴾ أي يعلم أولوا العلم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن شايعهم من علماء الأمة ، أو من آمن من علماء أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام ﴿ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي النبوة والقرآن ، والحكمة ﴿ هُوَ الحَقَّ ﴾ بالنصب على أنه مفعول ثان ليرى ﴿ وَيَهْدِي ﴾ عطف على الحق ، عطف الفعل على الاسم ، لأنه في تأويله كما في قوله تعالى (صَافَّاتٍ)

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة .

أي وقابضات كأنه قيل : ويرى الذين أوتوا العلم الّذي أُنزل إليك الحق وهادياً ﴿ **إلى صِراطِ العَزيزِ الحَمِيدِ** ﴾ الذي هو التوحيد ، والتوشح بلباس التقوى ﴿ **وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ منكري البعث ، وهم كفار قريش ، قالوا بطريق الاستهزاء مخاطباً بعضهم لبعض ﴿ **هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ** ﴾ يعنون به النبي ﷺ ، وإنما قصدوا بالتنكير الهزؤ والسخرية ﴿ **يُنَبِّئُكُمْ** ﴾ أي يحدثكم ويخبركم بأعجب الأعاجيب ، ويقول لكم ﴿ **إذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ** ﴾ أصل التمزيق التفريق والمعنى إذا متّم وفرقت أجسادكم كل تفريق بحيث صرتم رفاتاً وتراباً ﴿ **إنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ أي مستقرون فيه ، والخلق الجديد إشارة إلى النشأة الثانية أي تنشأون خلقاً جديداً ﴿ **أَفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً** ﴾ فيما قاله ، وهذا أيضاً من كلام الكفار ، والفرق بين الافتراء والكذب ، أن الافتراء هو افتعال الكذب من قول نفسه ، والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه ، أي اختلق محمد على الله كذباً ﴿ **أَمْ بِهِ جِنَّةٌ** ﴾ أي جنون يوهمه ذلك ، ويلقيه على لسانه من غير قصد ، والجنون حائل بين النفس والعقل ، ثم أجاب الله عن ترديدهم فقال ﴿ **بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنونَ بِالآخِرَةِ** ﴾ أي ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء ، كما زعموا ، وهو مبرأ منهما ، بل هؤلاء القائلون الكافرون بالحشر والنشر ، واقعون ﴿ **فِي العَذابِ** ﴾ في الآخرة ﴿ **والضَّلالِ البَعِيدِ** ﴾ في الدنيا أي البعيد عن الصواب والهدى ، بحيث لا يرجى الخلاص منه ، وحاصل الآية إثبات الجنون الحقيقي لهم ، فإن الغفلة عن الوقوع في العذاب ، وعن الضلال الموجب لذلك ، جنون أيُّ جنونٍ ، واختلالُ عَقْلٍ أيُّ اخْتِلاَلٍ ، إذ لو كان فهمهم وإدراكهم تاماً وكاملاً لفهموا حقيقة الحال ، ولما اجترأوا على سوء المقال ﴿ **أَفَلَمْ يَرَوْا إلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ** ﴾ أي أفعلوا ما فعلوا من المنكر المستتبع للعقوبة ، فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم ، بحيث لا مفرّ لهم ، وهو السماء والأرض ، فإنها أمامهم وخلفهم ، وعن يمينهم ، وشمالهم،حيثما كانوا وساروا ، ثم بين المحذور المتوقع من جهتها فقال ﴿ **إنْ نَشَأْ** ﴾ جرياً على موجب جناياتهم ﴿ **نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ** ﴾ كما خسفناها بقارون ، وخسف به الأرض غاب به ﴿ **أو نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ** ﴾ كما أسقطناها على أصحاب الأيكة ، لاستحقاقهم ذلك بما ارتكبوه من الجرائم ، ومعنى الكسفة قطعة من السحاب ، والقطن ، ونحو ذلك من الأجسام المتخلخلة ، ومعنى إسقاط الكسف من السماء إسقاط قطع من النار كما وقع لأصحاب الأيكة وهم قوم شعيب ، وكانوا أصحاب غِيَاضٍ ، ورياض ، وأشجارٍ ملتفة ، حيث أرسل الله عليهم حراً شديداً فرأوا سحابة فجاؤا ليستظلوا تحتها فأمطرت عليهم النار فاحترقوا ﴿ **إنَّ في ذَلِكَ** ﴾ أي فيما ذكر من السماء والأرض من حيث إحاطتها بالناظر من جميع الجوانب ، أو فيما تلي من الوحي الناطق بما ذكر ﴿ **لآيَةً** ﴾ لدلالة واضحة ﴿ **لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ** ﴾ شأنه الإنابة والرجوع إلى ربه ، فإنه إذا تأمل فيهما ، أو في الوحي المذكور ينزجر عن تعاطي القبيح وينيب إليه تعالى ، والإنابة

إلى الله الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل ،وفي الآية حث بليغ على التوبة والإنابة ، وزجر عن الجرم والجناية وأن العبد الخائف لا يأمن من قهرالله طرفة عين ، فإن الله قادر على كل شيء يوصل اللطف والقهر إلى كل ذرة من ذرات العالم .

﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً** ﴾ أعطى الله تعالى داود نوعاً من الفضل على سائر الأنبياء مطلقاً ، سواء كانوا أنبياء بني إسرائيل ، أو غيرهم كما دل عليه قوله تعالى (**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**) وهذا الفضل هو ما ذكر بعد من تأويب الجبال ، وتسخير الطير ، وإلانَةِ الحديد ، فإنه معجزة خاصة به ، وهذا لا يقتضي انحصار فضله فيها ، فإنه تعالى أعطاه الزبور كما قال في مقام الامتنان والتفضل (**وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً**) والفرق بين داود وبين نبينا ﷺ أنه ذكر فضله في حق داود على صفة النكرة وهي تدل على نوعٍ من الفضل ، وقال في حق نبينا ﷺ (**وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**) والفضل الموصوف بالعظمة يدل على كمال الفضل ، ﴿ **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ** ﴾ والتأويب الترجيع أي رجِّعي معه التسبيح ، وسبحي مرة بعد مرة ﴿ **وَالطَّيْرَ** ﴾ يعني وسخرنا له الطير ، قال القرطبي : حسنُ الصوت هبةُ الله تعالى ، وقد استحسن كثير من فقهاء الأمصار القراءة بتزيين الصوت وبالترجيع ، ما لم يكن لحناً مفسداً للمبنى ، مخرجاً للنظم عن صحة المعنى ، لأن ذلك سبب للرقةوإثارة الخشية ﴿ **وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ** ﴾ أي جعلناه ليناً في نفسه كالشمع ، والعجين ، والمبلول ، يصرفه في يده كيف يشاء ، من غير إحماء بنار ، ولا ضرب بمطرقة أو جعلناه بالنسبة إلى قوته التي آتيناها إياه ليناً كالشمع بالنسبة إلى سائر قوى البشرية ، وكان داود أوتي شدة قوة في الجسد ، وإن لم يكن جسيماً ﴿ **أَنِ اعْمَلْ** ﴾ أي أمرناه بأن اعمل ﴿ **سَابِغَاتٍ** ﴾ أي دروعاً واسعة تامة طويلة ، وهو عليه السلام أول من اتخذها ، وكانت قبل ذلك صفائح حديد مضروبة ، وفي الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع ، فإن العمل بها لا ينقص بمرتبتهم ، بل ذلك زيادة في فضلهم إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم ، والاستغناء عن غيرهم ، وفي الحديث (إن خير ما أكل المرء من عملِ يده)[1] ﴿ **وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ** ﴾ المعنى اقتصد في نسجها بحيث تناسب حلقها ولا تصرف جميع أوقاتك إليه ، بل مقدار ما يحصل به القوة ، وأما الباقي فاصرفه إلى العبادة وهو الأنسب بما بعده ﴿ **وَاعْمَلُوا** ﴾ خطابٌ لداود وأهله ، لعموم التكليف ﴿ **صَالِحاً** ﴾ عملاً صالحا خالصاً من الأغراض ﴿ **إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ لا أضيع عمل عامل منكم فأجازيكم عليه ، وهو تعليل للأمر ، أو لوجوب الامتثال به ، ﴿ **وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ** ﴾ أي وسخرنا له الريح وهي الصبا ﴿ **غُدُوُّهَا** ﴾ أي جريها وسيرها بالغداة أي من لدن طلوع الشمس إلى زوالها ، وهو وقت انتصاف النهار

(١) الحديث أخرجه البخاري بلفظ (ما أكل أحد طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبيَّ الله داود كان يأكل من عمل يده) وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥٦٩ .

﴿ **شَهْرٌ** ﴾ مسيرة شهر أي مسير دواب الناس في شهر ﴿ **وَرَواحُها** ﴾ أي جريها وسيرها بالعشي ، أي من انتصاف النهار إلى الليل ﴿ **شَهْرٌ** ﴾ مسيرة شهر ومسافته ، يعني كانت تسير في يوم واحد مسيرة شهرين للراكب ، قيل إن سليمان عليه السلام في سيره لاحظ ملكه يوماً وما هو عليه مِنْ عظمَةِ المُلك والسلطان ، فمال الريح ببساطه ، فقال سليمان للريح استو ، فقالت الريح : استو أنت فأنا مستوية ما دمتَ مستوياً ، فإذا ملتَ ملتُ عنك ، كذلك حال السر والقلب ، إذا زاغ القلب أزاغ الله بريح الخذلان بساط السر « فإنَّ اللهَ لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتى يُغَيِّروا ما بِأَنْفُسِهِمْ » ، حكي أن رجلاً سقَّاء بمدينة بخارى ، كان يحمل الماء إلى دار صائغ مدة ثلاثين سنة ، وكان لذلك الصائغ زوجة صالحة في نهاية الحسن والبهاء ، فجاء السقاء على عادته يوماً وأخذ بيدها وعرها ـ أي مسَّها بشهوة ـ فلما جاء زوجها من السوق ، قالت ما فعلت اليوم خلاف رِضَى الله تعالى ؟ فقال : ما صنعتُ شيئاً ، فألحت عليه ، فقال جاءت امرأة إلى دكاني وكان عندي سوار ، فوضعتُه في ساعدها فأعجبني بياضها فعصرتها ، فقالت : الله أكبر هذه حكمة خيانة السقاء اليوم ، فقال الصائغ : أيتها المرأة إني تبت فاجعليني في حل ، فلما كان الغد جاء السقاء وتاب ، وقال : يا صاحبة المنزل اجعليني في حل فإن الشيطان قد أضلني ، فقالت : امض فإن الخطأ لم يكن إلا من الشيخ الذي في الدُكّان ، فإنه لما غيَّر حاله مع الله بمس الأجنبية ، غيَّر الله حاله معه بمس الأجنبي زوجتَه ﴿ **وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ** ﴾ أي أذبنا وأجرينا لسليمان عين النحاس المذاب ، أساله من معدنه ، كما ألان الحديد لداود ، فنبع منه نبوع الماء من الينبوع ، ولذلك سمي عيناً ﴿ **وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يعْملُ بيْنَ يَدْيهِ** ﴾ أي يجدُّ ويشتغل بين يدي سليمان حسب ما يريد ﴿ **بإذْنِ رَبِّهِ** ﴾ بأمره ، كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ **وَمنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا** ﴾ الزيغ الميل عن الاستقامة ، أي ومن يعدل من الجن ويمل عما أمرناه به من طاعة سليمان ويَعْصِه ﴿ **نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعيرِ** ﴾ أي عذاب النار في الآخرة ـ ورُوي ـ عن السدي أنه كان معه بيده سوط من نار كلما استعصى عليه الجنيُّ ضربه من حيث لا يراه ضربة أحرقته بالنار ﴿ **يَعْمَلونَ لَهُ ما يَشاءُ** ﴾ تفصيل لما ذكر من عملهم ﴿ **مِنْ مَحارِيبَ** ﴾ بيان لما يشاء ، جمع محراب ، والمحراب الغرفة ، وصدر البيت ، وأكرم مواضعه ، ومقام الإمام من المسجد ، والموضع ينفرد به الملك فيتباعد عن الناس والمعنى من قصور حصينة ، ومساكن شريفة ، سميت بذلك لأنها يُذب عنها ويحارب عليها ﴿ **وَتَماثِيلَ** ﴾ جمع تمثال وهو الصورة على مثال الغير ، من زجاج ، ونحاس ، ورخام ، ونحوها ، واعلم أن حرمة التصاوير شرع جديد ، وكان اتخاذ الصور قبل هذه الأمة مباحاً ، وإنما حرم على هذه الأمة ، لأن قوم رسولنا ﷺ كانوا يعبدون التماثيل ، أي الأصنام فنهى عن الاشتغال بالتصوير وفي الحديث (من صوَّر صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها

الروح وليس بنافخ فيها أبداً)[١] ، وهذا يدل على أن تصوير ذي الروح حرام وأما تصوير ما لا روح له فرخص فيه ، وإن كان مكروهاً من حيث إنه اشتغال بما لا يعني ، قال في نصاب الاحتساب : ويحتسب على من يزخرف البيت بنقش فيه تصاوير ، لأن الصورة في البيت سبب لامتناع الملائكة عن دخوله ، قال جبريل عليه السلام « إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب أو صورة »[٢] ، ولو زخرفة بنقش لا صورة فيه لا بأس به ﴿ وَجِفَانٍ ﴾ وهي جمع جفنة ، وهي القصعة العظيمة ، فإن أعظم القصاع الجفنة ، ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ كالحياض الكبار ، أصله الجوابي بالياء كالجواري جمع جابية ، من الجباية لاجتماع الماء فيها ﴿ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ القدر بالكسر اسم لما يطبخ فيه اللحم ، والراسيات جمع راسية ، من رسا الشيء يرسو إذا ثبت ، والمعنى وقدور ثابتات على الأثافي ، لا تنزل عنها لعظمها ، ولا تحرك من أماكنها ﴿ اعْمَلُوا ﴾ يا ﴿ آلَ دَاوُدَ ﴾ والمراد به سليمان لأن هذا الكلام قد ورد في خلال قصته ، وخطاب الجمع للتعظيم ، أو أولاده ، أو كلّ من ينفق عليه ، أو كل من يتأتى منه الشكر من أمته ، والمعنى وقلنا له أوْلَهُمْ اعملوا ﴿ شُكْراً ﴾ أي اعملوا لله واعبدوه شكراً لما أعطيتكم من الفضل ، وسائر النعماء ، فإنه لابد من إظهار الشكر كظهور النعمة ، ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ ﴾ الشكور المبالغ في أداء الشكر على النعماء ، بأن يشكر بقلبه ، ولسانه ، وجوارحه ، أكثر أوقاته ، ومع ذلك لا يوفيّ حقه ، لأن التوفيق للشكر نعمة تستدعي شكراً آخر ، لا إلى نهاية ، ولذلك قيل : الشكور من يرى عجزه عن الشكر ، قال الإمام الغزالي رحمه الله : أحسن وجوه الشكر لنعم الله تعالى أن لا يستعملها في معاصيه بل في طاعاته وذلك أيضاً بالتوفيق ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيهِ الْمَوْتَ ﴾ القضاء الحكم ، والفصل أي لما حكمنا على سليمان بالموت ، وفصلناه به عن الدنيا ﴿ ما دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إلاّ دَابَّةُ الأَرْضِ ﴾ أي الأَرَضة ، وهي دويبة تأكل الخشب ﴿ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ﴾ أي عصاه التي يتوكأ عليها ، من النسيء وهو التأخير في الوقت ، لأن العصا يؤخر بها الشيء ، ويزجر ، ويطرد ﴿ فَلَمَّا خَرَّ ﴾ سقط سليمان ميتاً ﴿ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ ﴾ أي علمت الجن علماً يقينياً ، ينتفي عنده الشكوك والشبه ، بعد التباس الأمر عليهم ﴿ أَنْ ﴾ أي أنهم ﴿ لَوْ كَانُوا يعْلَمونَ الغَيْبَ ﴾ ما غاب عن حواسهم كما يزعمون ﴿ ما لَبِثُوا فِي العَذابِ المُهِينِ ﴾ يعني التكاليف الشاقة ، والأعمال الصعبة التي كانوا يعملونها ، والحاصل أنهم لو كان لهم علم بالغيب كما يزعمون لعلموا موت سليمان ، ولما لبثوا بعده حولاً في تسخيره ، إلى أن خرّ ، فلما وقع ما وقع علموا أنهم جاهلون لا عالمون ﴿ لَقَدْ ﴾ أي بالله لقد ﴿ كَانَ لِسَبإٍ ﴾ أي كان لقبيلة سبأ ، وهم أولاد سبأ بن يشجب ﴿ فِي مسْكَنِهِمْ ﴾ والمعنى في بلدهم الذي كانوا فيه باليمن ، وهو مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ،

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي بلفظ (من صوّر صورة عذّبه الله بها يوم القيامة ..) الحديث وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٠٩ .

(٢) أخرجه ابن ماجه وأحمد والترمذي ولفظه (إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلبٌ ولا صورة ولا تماثيل ..) وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٦٩ .

وهي المرادة بسبأ بلدة بلقيس في سورة النمل ﴿ آيَةٌ ﴾ علامة ظاهرة دالة بملاحظة الأحوال السابقة ، واللاحقة ، لتلك القبيلة من الإعطاء والترفيه بمقتضى اللطف ، ثم من المنع والتخريب بموجب القهر ، على وجود الصانع المختار ، وقدرته على كل ما يشاء من الأمور البديعة ، ومجازاته للمحسن ، والمسيء ، وما يعقلها إلا العالمون ، وما يعتبرها إلا العاقلون ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ والمراد بها جماعتان من البساتين ، ولا بستانان اثنان فقط ﴿ عَنْ يَمِينٍ ﴾ جماعةٌ عن يمين بلدتهم ﴿ وَشِمَالٍ ﴾ وجماعة عن شمالها ، كل واحدة من تينك الجماعتين في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة ، أو بستانان لكل رجل منهم عن يمين مسكنه ، وعن شماله ﴿ كُلُوا ﴾ حكاية لما قال لهم نبيهم تكميلاً للنعمة وتذكيراً لحقوقها ، أو لسان الحال ، أو بيان لكونهم أحِقّاء بأن يقال لهم ذلك ﴿ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ من أنواع الثمار ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ على ما رزقكم باللسان ، والجنان ، والأركان ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ استئناف مبين لما يوجب الشكر المأمور به ، أي بلدتكم بلدة طيبة ، وربكم الذي رزقكم ما فيها من الطيبات وطلب منكم الشكر ، رب غفور لفرطات من يشكره ، فمعنى طيبة أنها لم تكن سبخة بل لينة ، حيث أخرجت الثمار الطيبة ، أو أنها طيبة الهواء والماء ، وقيل : طيبتها أنها لم يكن بها بعوض ، ولا ذباب ، ولا برغوث ، ولا عقرب ، ولا حية ولا غيرها من المؤذيات ، لطيب هوائها ، ومن ثمة لم يكن بها آفات وأمراض ، وعن ابن عباس : كانت أطيب البلاد هواء ، وأخصبها ، وكانت المرأة تخرج من منزلها إلى منزل جارتها ، وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها ، وتسير فيما بين الأشجار فيمتلىء المكتل ، مما يتساقط فيه من أنواع الثمار ، من غير أن تمد يدها ، ويحكى عن بعضهم أنه قال أردت الحج ، فجمعتُ ثلاثمائة وخمسين درهماً ، فمرت بي حامل فقالت أن هذه الدار يجيء منها رائحة طعام ، فاذهب وخذ شيئاً منه لي لئلا يسقط حملي ، قال : فذهبتُ فأخبرت القصة لصاحب الدار ، فبكى وقال : إن لي أولاداً لم يذوقوا طعاماً منذ أسبوع ، فقمت اليوم وجئت بلحم من ميتة فهم يطبخونه ، فهو لنا حلال ، فإنا مضطرون ولك حرام ، فكيف أعطيك منه ؟ قال فلما سمعت ذلك منه احترق فؤادي ، ودفعت المبلغ المذكور إليه ، وقلت : حجي هذا ، فتقبل الله تعالى ذلك منه بقبول حسن[1] .

﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أي أولاد سبأ ، عن الوفاء وكفروا النعمة ، وتعرضوا للنقمة ، وضيعوا الشكر فبدّلوا وبُدل لهم الحال ، قال ابن عباس : بعث الله تعالى لهم ثلاثة عشر نبياً فدعوهم إلى الإيمان والطاعة ، وذكّروهم نعمه تعالى ، وخوفوهم عقابه ، فكذبوهم وقالوا : ما نعرف له علينا من نعمة ، فقولوا لربكم فَلْيحبس عنا هذه النعمة إن استطاع ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ السيل أصله مصدر كالسيلان ، والعرم من العرامة ، وهي الشدة ، والصعوبة أي فأرسلنا عليهم السيل الذي لا يطاق ، فخرب السد وحمل

(١) هذه القصة مشهورة عن عبد الله بن المبارك أنه هو الذي أراد الحج فجرى له ذلك .

الجنات ، وكثيراً من الناس ممن لم يمكنه الفرار ، وأغرق أموالهم ، فتفرقوا في البلاد فصاروا مثلاً ﴿ **وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ** ﴾ المذكورتين وآتيناهم بدلها ﴿ **جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ** ﴾ الأُكل بضم الكاف اسم لما يؤكل ، والخمط كل نبت أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله ، والمعنى جنتين صاحبتي ثمر مُرّ ، وتسمية البدل جنتين ، للمشاكلة ، والتهكم ﴿ **وَأَثْلٍ** ﴾ الأثل هو الطرفاء ، ﴿ **وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ** ﴾ قال البيضاوي : وصف السدر بالقلة لما أن جناه وهو النبق مما يطيب أكله ، ولذلك يغرس في البساتين وقال أبو السعود : والصحيح أن السدر صنفان ، صنف يؤكل من ثمره ، وينتفع بورقه لغسل اليد ، وصنف له ثمرة عفصة لا تؤكل أصلاً ، وهو البري والمراد هنا هو الثاني ، فكان شجرهم من خير الشجر ، فصيَّره الله من شر الشجر ، بسبب أعمالهم القبيحة ، والحاصل أن الله تعالى أهلك أشجارهم المثمرة ، وأنبت بدلها غير المثمرة ﴿ **ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ** ﴾ أي ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم ﴿ **بِمَا كَفَرُوا** ﴾ بسبب كفرانهم النعمة ، حيث نزعناها منهم ، ووضعنا مكانها ضدها ، أو بسبب كفرهم بالرسل ، ﴿ **وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ** ﴾ أي وما نجازي هذا الجزاء إلا المبالغ في الكفران ، أو الكفر . فهل وإن كان استفهاماً فمعناه النفي ولذلك دخلت إلا في قوله إلا الكفور ﴿ **وَجَعَلْنَا** ﴾ عطف على ما كان لسبأ ، وهو بيان لما أوتوا من النعم البادية في مسايرهم ، ومتاجرهم ، بعد حكاية ما أوتوا من النعم الحاضرة في مساكنهم ، ومحاضرهم ، وما فَعَلوا بها من الكفران ، وما فُعِلَ بهم من الجزاء ، تكملة لقصتهم ، وإنما لم يذكر الكل معاً لما في التثنية والتكرير من زيادة تنبيه ، وتذكير ، والمعنى وجعلنا مع ما آتيناهم في مساكنهم من فنون النعم ﴿ **بَيْنَهُمْ** ﴾ أي بين بلادهم اليَمَنِيّة ﴿ **وَبَيْنَ الْقُرَى** ﴾ الشامية ﴿ **الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** ﴾ يعني بالمياه ، والأشجار ، والثمار ، والخصب ، والسعة في العيش ، للأعلى والأدنى ، والقرية اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس بلدة كانت أو غيرها ، والمراد هنا فلسطين ، وأريحا ، والأردن ، ونحوها ، والبركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء ، والمبارك ما فيه ذلك الخير ﴿ **قُرًى ظَاهِرَةً** ﴾ أي قرى متواصلة ، يرى بعضها من بعض لتقاربها ، فهي ظاهرة لأعين أهلها ، أو راكبة متن الطريق ظاهرة لأبناء السبيل غير بعيدة عن مسالكهم حتى تخفى عليهم ﴿ **وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ** ﴾ والسير المضي في الأرض ، أي جعلنا القرى في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين ، يليق بحال أبناء السبيل ، قيل : كان الغادي من قرية يقيل في الأخرى ، والرائح منها يبيت في أخرى ، إلى أن يبلغ الشام لا يحتاج إلى حمل ماء وزاد ، وكل ذلك كان تكميلاً لما أوتوا من أنواع النعماء ، وتوفيراً لها في الحضر والسفر ﴿ **سِيرُوا فِيهَا** ﴾ أي وقلنا لهم سيروا في تلك القرى لمصالحكم ﴿ **لَيَالِيَ وَأَيَّامًا** ﴾ أي متى شئتم من الليالي ، والأيام ، حال كونكم ﴿ **آمِنِينَ** ﴾ أي آمنين من كل ما تكرهونه من الأعداء ، واللصوص ، والسباع ، بسبب كثرة الخلق ، ومن الجوع والعطش ، أو : سيروا فيها آمنين ، وإن تطاولت مدة سفركم ، وامتدت ليالي وأيّاماً

﴿ فَقَالوا رَبَّنَا باعِدْ بيْنَ أَسْفَارِنا ﴾ قال أهل التفسير : بطر أهل سبأ النعمة ، وسئموا طيب العيش ، وملوا العافية فطلبوا الكد ، والتعب ، كما طلب بنوا إسرائيل الثوم والبصل ، مكان السلوى والعسل ، وقالوا لو كان جنى جناننا أبعد لكان أجدر أن نشتهيه ، وسألوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز وقفاراً ، ليركبوا فيها الرواحل ، ويتزودوا الأزواد ، ويتطاولوا فيها على الفقراء ﴿ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ حين عرّضوها للسخط ، والعذاب ، بالشرك ، وترك الشكر ، وعدم اعتداد بالنعمة ، وتكذيب الأنبياء ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحادِيثَ ﴾ أي جعلنا أهل سبأ ، أخباراً وعظة وعبرة لمن بعدهم ، بحيث يتحدث الناس بهم متعجبين من أحوالهم ، ومعتبرين بعاقبتهم ، ومآلهم ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي مزقناهم تمزيقاً لاغاية وراءه بحيث تضرب به الأمثال في كل فرقة ليس بعدها وصال ، فيقال « تفرقوا أيدي سبأ » أي تفرقوا تفرق أهل هذا المكان من كل جانب ، وكانوا قبائل ، والدهم سبأ فتفرقوا في البلاد ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ المذكور من قصتهم ﴿ لآياتٍ ﴾ عظيمة ودلالات كثيرة ، وعبراً وحججاً واضحة قاطعة على الوحدانية ، والقدرة ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ عن المعاصي ، ودواعي الهوى ، والشهوات ، وعلى البلايل والمشاق والطاعات ﴿ شَكورٍ ﴾ على النعم الإلهية في كل الأوقات ، والحالات ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْليسُ ظَنَّهُ ﴾ المعنى وبالله لقد وجد إبليس ظنه بسبأ ، حين رأى انهماكهم في الشهوات صادقاً ﴿ فاتَّبَعُوهُ ﴾ أي اتّبع أهل سبأ الشيطان في الشرك والمعصية ﴿ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ المُؤْمِنِينَ ﴾ أي إلاّ جماعة هم المؤمنون ، لم يتبعوه ، وتقليلهم بالإضافة إلى الكفار ، أو تبعيضية أي : إلا فريقاً من فرق المؤمنين لم يتبعوه ، وهم المخلصون ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ ﴾ أي لإبليس ﴿ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ ﴾ السلطان القهر والغلبة ، أي تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ والمعنى وما كان تسلطه عليهم إلا ليتعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة ، متميزاً ممن هو في شك منها ، تعلقاً حالياً يترتب عليه الجزاء ، فعلم الله قديم ، وقال بعضهم : العلم هنا مجاز عن التمييز ، والمعنى إلا لنميِّزَ المؤمن بالآخرة ، من الشاكّ فيها ﴿ وربُّكَ على كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ محافظ عليه ، يحفظ كل شيء على ما هو به ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للمشركين ، إظهاراً لبطلان ما هم عليه ، وتبكيتاً لهم ﴿ ادْعُوا ﴾ نادوا ﴿ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ الزعم حكاية قول يكون مظنة الكذب والمعنى زعمتموهم آلهة ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ مقامه ، والمعنى ادعوا الذين عبدتموهم من دون الله ، فيما يهمُّكم من جلب نفع ، ودفع ضر ، لعلهم يستجيبون لكم ، إن صح دعواكم ، ثم أجاب عنه إشعاراً بتعين الجواب ، وأنه لا يقبل المكابرة ، فقال بطريق الاستئناف لبيان حالهم ﴿ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ من خير ، وشر ، ونفع ، وضر ﴿ فِي السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ ﴾ أي في أمر ما من الأمور ﴿ ومَا لَهُمْ ﴾ أي لآلهتم ﴿ فِيهِمَا ﴾ في السموات والأرض ﴿ مِنْ شِرْكٍ ﴾ أي شركة لا خلقاً ، ولا ملكاً ، ولا تصرفاً ﴿ وَمَا لَهُ ﴾ أي لله تعالى ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من آلهتهم

﴿ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ من عون يعينه في تدبير أمورهما . تلخيصه أنه تعالى غني عن كل خلقه ، وآلهتهم عجزة عن كل شيء ﴿ وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ ﴾ وهي طلب العفو أو الفضل للغير من الغير ، ﴿ عِنْدَهُ ﴾ تعالى كما يزعمون ، أي لا توجد رأساً لقوله تعالى (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ) وإنما عَلَّقَ النفي بنفعها ، لا بوقوعها تصريحاً بنفي ما هو غرضهم من وقوعها ﴿ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أي لاتنفع الشفاعة في حال من الأحوال ، إلا كائنة لمن أذن له ، أي لأجله وفي شأنه من المستحقين للشفاعة ، وأما من عداهم من غير المستحقين لها فلا تنفعهم أصلاً ، ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ والمعنى حتى إذا أزيل الفزع عن قلوب الشفعاء ، والمشفوع لهم من المؤمنين ، وأما الكفرة فهم عن موقف الاستشفاع بمعزل ، وعن التفزيع عن قلوبهم بألف منزل ، كأنه سئل كيف يؤذن لهم ؟ فقيل : يتربصون في موقف الاستئذان والاستدعاء زماناً طويلاً ، حتى إذا أزيل الفزع عن قلوبهم ، وظهرت تباشير الإجابة ﴿ قَالُوا ﴾ أي المشفوع لهم إذ هم المحتاجون إلى الإذن والمهتمون بأمره ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ أي في شأن الإذن ﴿ قَالُوا ﴾ أي الشفعاء لأنهم المباشرون للاستئذان ﴿ الْحَقَّ ﴾ أي قال ربنا الحق ، وهو الإذن في الشفاعة للمستحقين لها ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أي هو المتفرد بالعلو والكبرياء ، شَأْناً وسلطاناً ، ذاتاً وصفة ، قولاً وفعلاً ، ليس لأحد من أشراف الخلائق أن يتكلم إلا بإذنه ، وأما « الكبيرُ » فهو الذي يُحتقر كل شيء في جنب كبريائه ﴿ قُلْ مَنْ ﴾ استفهام ﴿ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ ﴾ بإنزال المطر ﴿ وَالأَرْضِ ﴾ بإخراج النبات ، أمر عليه السلام بتبكيت المشركين بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما ، وأن الرازق هو الله تعالى ، فإنهم لاينكرونه كما ينطق به قوله تعالى(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ ... فَسَيَقولُونَ اللهُ) وحيث كانوا يتلعثمون في الجواب مخافة الإلزام ، قيل له عليه السلام ﴿ قُلِ اللهُ ﴾ يرزقكم ، إذ لا جواب سواه عندهم أيضاً ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلىٰ هُدىً أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾ أي وإن أحد الفريقين من الذين يوحّدون الإله بالرزق والقدرة الذاتية ، ويخصُّونه بالعبادة ، والذين يشركون به في العبادة الجماد ، لعلى أحد الأمرين : من الهدى ، أو الضلال المبين ، وهذا بعد ما سبق من التقرير البليغ الناطق بتعيين من هو على الهدى ، ومن هو في الضلال ، أبلغ من التصريح بذلك لجريانه على سنن الإنصاف ، لمسكت للخصم الألدّ ، ونحوه قول الرجل في التعريف لصاحبه : اللهُ يعلم أن أحدنا لكاذب ﴿ قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ﴾ والجُرْمُ بالضم الذنب ، أي لا تُسألون عمّا فعلنا واكتسبنا من الصغائر والزلات ﴿ وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلونَ ﴾ من الكفر والكبائر ، بل كلٌ مطالب بعمله ، وكل زرّاع يحصد زرعه لا زرع غيره ، وهذا أبلغ في الإنصاف وأبعد من الجدل والاعتساف ، حيث أسند فيه الإجرام ، وإن أريد به الزلة ، إلى أنفسهم ، ومطلق العمل إلى المخاطبين ، مع أن أعمالهم أكبر الكبائر ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يوم القيامة عند الحشر ،

والحساب ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي يحكم بيننا ويفصل بعد ظهور حال كل منا ومنكم ، بأن يدخل المحقين الجنة والمبطلين النار ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ ﴾ الحاكم الفيصل في القضايا المنغلقة المشكلة ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما ينبغي أن يُقْضى به ، وبمن يقضى له وعليه ، ولا يخفى عليه شيء من ذلك ، كما لا يخفى عليه ما عدا ذلك ﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ ﴾ أي ألحقتموهم ﴿ بِهِ ﴾ تعالى ﴿ شُرَكَاءَ ﴾ أريد بأمرهم إظهار خطأهم العظيم ، وإطلاعهم على بطلان رأيهم ، أي أرونيها لأنظر بأي صفة ألحقتموها بالله الذي ليس كمثله شيء ، مع استحقاق العبادة ، هل يخلقون ؟ وهل يرزقون ؟ وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزام الحجة عليهم ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايسة ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي الله وحده ، أو الشأن ، كما قال هو الله أحد ﴿ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي الموصوف بالغلبة القاهرة ، والحكمة الباهرة ، فأين شركاؤكم التي هي أخس الأشياء وأذلها من هذه الرتبة العالية ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ يا محمد أي ما بعثناك ﴿ إِلاَّ ﴾ إرسالاً ﴿ كَافَّةً ﴾ عامة شاملة ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ محيطة بأحمرهم وأسودهم ، وفي كشف الأسرار : الكافّة هي الجامعة للشيء المانعة له عن التفرق ﴿ بَشِيراً ﴾ حال كونك بشيراً للمؤمنين بالجنة ﴿ وَنَذِيراً ﴾ وحال كونك منذراً للكافرين بالنار ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فيحملهم جهلهم على المخالفة ، والعصيان ، وكرر ذكر الناس تخصيصاً للجهل بنعمتي البشارة ، والنذارة ، ونعمة الرسالة بهم ، وأنهم هم الذين لا يعلمون فضل الله بذلك عليهم ، ولا يشكرونه وذلك لأنَّ العقل لا يستقل بإدراك جميع الأمور الدنيوية والأخروية ، والتمييز بين المضار والمنافع ، فاحتاج الناس إلى التبشير والإنذار ، وبيان المشكلات من جهة الرسل والأنبياء ، ودلت الآية على عموم رسالته وشمول بعثته ﷺ وفي الحديث (فضلت على الأنبياء بستٍ : أعطيتُ جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب من مسيرة شهرٍ ، وأُحلَّت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأُرسِلتُ إلى الخلق كافّة ، وخُتِم بي النبيُّون) (١) .

والذي يدل على هذا قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) دخلت فيه الموجودات كلها تحت الخطاب ، وبقوله (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُوْنَ) يشير إلى أن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة ما قررنا ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أي المشركون من فرط جهلهم ، وغاية غيهم مخاطبين لرسول الله ﷺ والمومنين به بطريق الاستهزاء ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ المبشر به والمنذر عنه ، يعني الجنة والنار ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في دعوى الوقوع والوجود ، ﴿ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ ﴾ أي وعد يوم ، وهو يوم البعث ﴿ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ﴾ أي عن ذلك الميعاد عند مفاجأته ﴿ سَاعَةً ولا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ وفي هذا الجواب من المبالغة في التهديد ما لا يخفى ، حيث جعل الاستئخار في الاستحالة كالاستقدام الممتنع عقلاً ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي كفار قريش ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ الذي ينزل على محمد

(١) الحديث أخرجه مسلم بهذا اللفظ ، ورواه البخاري والترمذي والنسائي بألفاظ متقاربة ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٣٠ .

﴿ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي ولا بما نزل قبله من الكتب القديمة الدالة على البعث كالتوراة والإنجيل ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ ﴾ يا محمد ، أو يا من يليق بالخطاب ﴿ إِذِ الظَّالِمونَ ﴾ المنكرون للبعث ، لأنهم ظلموا بأن وضعوا الإنكار موضع الإقرار ﴿ مَوْقُوفونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي محبوسون في موقف المحاسبة على أطراف أناملهم ، وجواب لو محذوف ، أي لرأيت أمراً فظيعاً شنيعاً ، تقصر العبارة عن تصويره ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ ﴾ أي يردُّ من رجع رجعا بمعنى ردَّ ﴿ إِلَى بَعْضٍ القَوْلَ ﴾ أي يتحاورون ، ويتراجعون القول ، ويتجاذبون أطراف المجادلة ﴿ يقولُ الَّذِينَ استُضْعِفُوا ﴾ أي يقول الأتباع الذين عُدوا ضعفاء ، وقهروا ﴿ لِلَّذِينَ استَكْبَروا ﴾ أي للرؤساء الذين بالغوا في الكبر ، والتعظم عن عبادة الله وقبول قوله المنزل على أنبيائه ، واستتبعوا الضعفاء في الغي ، والضلال ﴿ لَوْلاَ أَنْتُمْ ﴾ أي لولا إضلالكم ، وصدكم لنا عن الإيمان ﴿ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي أنتم منعتمونا من الإيمان ، واتباع الرسول ، كأنه قيل فماذا قال الذين استكبروا ؟ فقيل ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَروا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفوا ﴾ منكرين لكونهم الصادين لهم عن الإيمان ، مثبتين ذلك لأنفسهم ، أي المستضعفين ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ ﴾ منعناكم ، وصرفناكم ﴿ عَنِ الهُدىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾ أي الهدى ، أي لم نصدكم عنه ﴿ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ مبالغين في الإجرام، فبسبب ذلك صددتم أنفسكم عن الإيمان ، وآثرتم التقليد، وفي هذا تنبيه للكفار على أن طاعة بعضهم لبعض في الدنيا تصير سبب عداوة في الآخرة ، وتبرِّي بعضهم من بعض ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفوا ﴾ مجيبين ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَروا ﴾ ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيلِ وَالنَّهارِ ﴾ المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة ، أي بل صدّنا مكركم بنا في الليل ، والنهار ، وحملكم إيانا على الشرك ، والأوزار ، ﴿ إِذْ تَأْمُرونَنا ﴾ ظرف للمكر ، أي بل مكركم الدائم وقت أمركم لنا ﴿ أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً ﴾ نقول له شركاء ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا العَذابَ ﴾ الندامة : التحسر في أمر فائت ، أي أضمر الفريقان الندامة على ما فعلا من الضلال ، والإضلال ، حين ما نفعتهم الندامة ، وأخفاها كل منهما عن الآخر مخافة التعيير ، أو أظهروها فإنه من الأضداد ، وهو المناسب لحالهم ﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يقال في رقبته غل من حديد ، أي قيد وطوق ، والمعنى ونجعل الأغلال يوم القيامة في أعناق الذين كفروا بالحق لما جاءهم في الدنيا من التابعين والمتبوعين ، وإيراد المستقبل بلفظ الماضي من جهة تحقق وقوعه ، ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي لا يجزون إلا جزاء ما كانوا يعملون في الدنيا ، من الكفر ، والمعاصي ، فلما قيدوا أنفسهم في الدنيا ، ومنعوها عن الإيمان بتسويلات الشيطان الجني ، والأنسيِّ ، جوزوا في الآخرة بالقيد ﴿ وَما أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ ﴾ من القرى ، والقرية : المِصْرُ تُقْري أهلها وتجمعهم ﴿ مِنْ نَذيرٍ ﴾ نبي ينذر أهلها بالعذاب ﴿ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ المترف المتنعم ، والموسع العيش والنعمة ، أي قال رؤساء تلك القرية المتكبرون ، المتنعمون بالدنيا لرسلهم ﴿ إِنَّا

﴿ بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ على زعمكم من التوحيد والإيمان ﴿ كَافِرُونَ ﴾ منكرون ، وهذه الآية جاءت لتسلية النبي عليه السلام ، أي يا محمد هذه سيرة أغنياء الأمم الماضية ، فلا يهمك أمر أكابر قومك ، فتخصيص المتنعمين بالتكذيب مع اشتراك الكل فيه ، إما لأنهم المتبوعون ، أو لأن الداعي الأكبر إلى التكذيب والإنكار هو التنعم المستتبع للاستكبار ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي الكفار المترفون للفقراء المؤمنين فخراً بزخارف الدنيا ، وبما هو فتنة لهم ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاَداً ﴾ منكم في الدنيا ﴿ وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ في الآخرة على تقدير وقوعها ، لأن المكرَّم في الدنيا لا يهان في الآخرة ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد رداً عليهم ﴿ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ ﴾ ويوسعه ﴿ لِمَنْ يَشاءُ ﴾ أن يبسطه له ويوسعه من مؤمن وكافر ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يُضيِّقُ على من يشاء أن يقدره عليه ويُضيِّقه ، من مؤمن وكافر ، حسب اقتضاء مشيئته المبنية على الحكم البالغة ، فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعقاب اللذين مناطهما الطاعة وعدمها ، فليس في التوسيع دلالة على الإكرام ، كما أنه ليس في التضييق دلالة على الإهانة ، كما ورد (الدنيا عَرَضٌ حاضر يأكل منها البر والفاجر ، والآخرة وعدٌ صادق يحكم فيها ملك قاهر) ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ وهم أهل الغفلة والخذلان ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ حكمة البسط ، والقدر ، فيزعمون أن مدار البسط هو الشرف والكرامة ، ومدار القدر هو الذل والهوان ، ولا يدرون أن الأول كثيراً ما يكون بطريق الاستدراج ، والثاني بطريق الابتلاء ورفع الدرجات ﴿ وَما أَمْوالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ ﴾ كلام مستأنف من جهته تعالى مبالغة في تحقيق الحق ، أي وما جماعة أموالكم وأولادكم أيها الناس ﴿ بِالَّتِي ﴾ بالجماعة التي ﴿ تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفىٰ ﴾ والزلفى والزلفة والقربة بمعنى واحد ، وقال الأخفش : زلفى اسم مصدر كأنه قال بالتي تقربكم عندنا تقريباً ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ أي وما الأموال والأولاد تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي أنفق أمواله في سبيل الله ، وعلَّم أولاده الخير ، وربّاهم على الصلاح ، والطاعة ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ المؤمنون العاملون ثَابِتٌ ﴿ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ ﴾ ومعناه أن يضاعف لهم الواحدة من حسناتهم عشراً فما فوقها إلى سبعمائة إلى ما لا يحصى ﴿ بِمَا عَمِلُوا ﴾ بسبب ما عملوا من الصالحات ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ ﴾ أي غرفات الجنة ، وهي قصورها ومنازلها الرفيعة ، جمع غرفة وهي كل بناء يكون علواً فوق سفل ﴿ آمِنُونَ ﴾ من جميع المكاره ، والآفات ، كالموت ، والهرم ، والمرض ، والعدو وغير ذلك ، قال إبراهيم بن أدهم لرجل : أَدِرْهَمٌ في المَنَامِ أحبُّ إليْكَ أم دينار في اليقظة ؟ قال دينار في اليقظة ، فقال : إن الذي تحبه في الدنيا كأنك تحبه في المنام ، والذي تحبه في الآخرة كأنك تحبه في اليقظة فاغنم من حياتك لمماتك ، ودخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ ذات يوم في داره فوجده نائماً وقد أثَّر في جنبه الحصير ، فبكى وقال : أنت يا رسول الله على الحصير ، وكسرى

(١) أخرج بعضه أحمد والحاكم من قوله (ما مثلي ومثل الدنيا إلاَّ كراكب ..) الحديث وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٠١ .

وقيصر على فرش الدِّيباج والاستبرق !! فقال يا عمر : أولئك قوم عُجّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ، ونحن قوم أجّلت لنا طيباتنا إلى الحياة الآخرة ، أفلا تحبُّ أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ، وما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ثم راح وتركها) فالأولى أن يأخذ الباقي ويترك الفاني ، حكي أن سلطانا كان يحب واحداً من وزرائه أكثر من غيره ، فحسدوه وطعنوا فيه ، فأراد السلطان أن يظهر حقيقة الحال فأضافهم في دار مزينة بأنواع الزينة ، ثم قال ليأخذ كل منكم ما أعجبه في الدار ، فأخذ كل منهم ما أعجبه من الجواهر والمتاع ، وأخذ الوزير المحسود السلطان ، وقال ما أعجبني إلا أنت ، فالإنسان لم يجيء إلى هذه الدار المزينة إلا للامتحان فإنه كالعروس وهي لا تلتفت إلى ما ينثر عليها ، فإن التفتت فمن دناءة الهمة ونقصان العقل ، فاليوم يوم الفرصة ، وتدارك الزاد لسفر المعاد ﴿ **والَّذِينَ** ﴾ هم كفار قريش ﴿ **يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا** ﴾ القرآنية بالرد والطعن فيها ، ويجتهدون في إبطالها حال كونهم ﴿ **مُعَاجِزِينَ** ﴾ ظانين أنهم يعجزوننا ويفوتوننا ، فلا يكون لهم مؤاخذة بمقابلة ذلك ﴿ **أُولَئِكَ فِي العَذَابِ مُحْضَرُونَ** ﴾ من الاحضار أي مدخلون لا يغيبون عنه ، ولا ينفعهم ما اعتمدوا عليه ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** ﴾ أي يوسعه عليه تارة ﴿ **وَيَقْدِرُ لَهُ** ﴾ أي يضيقه عليه تارة أخرى ، ابتلاء وحكمة ، فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين ، وما سبق في شخصين فلا تكرار ﴿ **وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ** ﴾ ما موصولة بمعنى الذي ، والمعنى : الذي أو أيّ شيء أنفقتم في طاعة الله وطريق الخير ، والبر ، فالله تعالى يعطي خلفاً له ، وعوضاً منه ، أما في الدنيا بالمال أو بالقناعة التي هي كنز لا يغنى ، وأما في الآخرة بالثواب والنعيم ، أو فيهما جميعاً ، فلا تخشوا الفقر ، وأنفقوا في سبيل الله وتعرضوا لألطاف الله عاجلاً وآجلاً ﴿ **وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ أي خير من أعطى الرزق ، فإن غيره واسطة في إيصال رزقه ولا حقيقة لرازقيته ، والله تعالى يعطي الكل من خزائن لا تفنى ، قال في بحر العلوم : لما كانت إقامة مصالح العباد من أجلّ الطاعات ، وأشرف العبادات ، لأنها من وظيفة الأنبياء والصالحين ، دلهم الله في الآية على طرف منها ، حثاً عليها كما قال عليه السلام حثاً لأمته عليها (الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله)[1] قال العسكري : هذا على التوسع والمجاز ، كأن الله تعالى لما كان المتضمّن لأرزاق العباد ، والكافل بها ، كان الخلق كالعيال له ، وفي الحديث (كل معروف صدقة) ومعنى كل معروف صدقة أن الإنفاق لا ينحصر في المال ، بل يتناول كل بِرٍ من الأموال ، والأقوال ، والأفعال ، والعلوم والمعارف ، والمعرفة الذاتية أفضل وأشرف ، لأن نفع الأموال للأجساد ، ونفع المعارف للقلوب والأرواح ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ** ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك يوم يحشر الله ، أي يجمع المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون من دون الله حال كونهم ﴿ **جَمِيعاً** ﴾ مجتمعين لا يشذ أحد منهم ﴿ **ثُمَّ يَقُولُ**

---

(١) الحديث أخرجه أبو يعلى في مسنده والطبراني في الكبير ، والبزار عن أنس مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٠٥ .

﴿ لِلْمَلاَئِكَةِ ﴾ توبيخاً للمشركين العابدين ، وإقناطاً لهم من شفاعتهم كما زعموا ﴿ أَهَؤُلآءِ ﴾ أي الكفار ﴿ إِيَّاكُمْ كَانُوا يعْبُدونَ ﴾ في الدنيا ﴿ قَالُوا ﴾ متنزهين عن ذلك ﴿ سُبْحانَكَ ﴾ تنزيهاً لك عن الشرك ﴿ أَنتَ وَلِيُّنا ﴾ الولي خلاف العدو ، أي أنت الذي نواليه ﴿ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ ثم أضربوا عن ذلك ، ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم ﴿ بَلْ كَانُوا ﴾ من جهلهم ، وغوايتهم ﴿ يَعْبُدونَ الجِنَّ ﴾ أي الشياطين ، حيث أطاعوها في عبادة غير الله ، ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ الأكثر ههنا بمعنى الكل والضمير للمشركين أي كل المشركين ، وقال بعضهم : الضمير للإنس والأكثر بمعناه ، أي أكثر الإنس ﴿ بِهِمْ ﴾ أي الجن وبقولهم الكذب الملائكة بنات الله ﴿ مُؤْمِنُونَ ﴾ مصدقون ، ومتابعون ، ويغترون بما يلقون إليهم من أنهم يشفعون لهم ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ أي يوم الحشر ﴿ لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ ﴾ يعني المعبودين ﴿ لِبَعْضٍ ﴾ يعني العابدين ﴿ نَفْعاً ﴾ بالشفاعة ﴿ ولا ضَرّاً ﴾ أي دفع ضر ، وهو العذاب إذ الأمر فيه كله لله لأن الدار دار جزاء ، ولا يجازي الخلق أحد غير الله ، وهذا الكلام من جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزه والتبري مما نسب إليهم الكفرة ، يخاطبون على رؤوس الأشهاد ، إظهاراً لعجزهم ، وقصورهم عند عبدتهم ، وتنصيصاً على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية ﴿ وَنَقُولُ ﴾ في الآخرة ﴿ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أنفسهم بالكفر ، والتكذيب ، فوضعوهما موضع الإيمان والتصديق وهذا حكاية لرسول الله ﷺ لما سيقال للعبدة يومئذ ، إثر حكاية ما سيقال للملائكة ﴿ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ التي كُنْتُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ بِها تُكَذِّبونَ ﴾ وتصرون على القول بأنها غير كائنة ، فقد وردتموها ، وبطل ظنكم ودعواكم . اعلم أن من عبد الجن وأطاع الشيطان فيما شاء ، يكون عذابه في التأبيد كعذاب إبليس ، ومن أطاع النفس فيما شاءت وهي المعصية ، يكون عذابه على الانقطاع ، ومن أطاع الهوى فيما شاء وهو الشهوات ، يكون له شدة الحساب ، وكان يحيى عليه السلام مع جلالة قدره وعدم همه بخطيئة ، يخاف من عذاب النار ويبكي في الليل والنهار ، والغافل كيف يأمن من سلب الإيمان مع كثرة العصيان ، وله عدو مثل الشيطان ؟ فلابد من التوبة عن الميل إلى غير الله تعالى في جميع الأحوال ، والتضرع والبكاء في الغدوّ والآصال ، لتحصل النجاة من النيران ﴿ وَإِذا تُتْلىٰ ﴾ أي تقرأ قراءة متتابعة بلسان الرسول عليه السلام ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على مشركي مكة ﴿ آياتُنا ﴾ القرآنية حال كونها ﴿ بيِّناتٍ ﴾ واضحات الدلالة على حَقِّيَة التوحيد ، وبطلان الشرك ، ﴿ قَالُوا ﴾ مشيرين إلى النبي عليه السلام ﴿ مَا هَذا إِلاَّ رَجُلٌ ﴾ تنكيره للتهكم والتلهي ، وإلا فرسول الله كان علماً مشهوراً بينهم ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ ﴾ أي يمنعكم ويصرفكم ﴿ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ ﴾ من الأصنام منذ أزمنة متطاولة ، فيستتبعكم بما يستبدعه من غير أن يكون هناك دين إلهي ، وإضافة الآباء إلى المخاطبين لا إلى أنفسهم لتحريك عرق العصبية منهم مبالغة في تقريرهم على الشرك ، وتنفيرهم عن التوحيد ﴿ وَقَالُوا ما هَذا ﴾ القرآن ﴿ إِلاّ إِفْكٌ ﴾ كلام مصروف عن جهته ،

لعدم مطابقة ما فيه من التوحيد ، والبعث الواقع ﴿ مُفْتَرىً ﴾ بإسناده إلى الله تعالى ، والافتراء الكذب عمداً ، قالوه عناداً ومكابرة ، وإلا فقد قال كبيرهم عتبة بن ربيعة : والله ما هو شعر ، ولا كهانة ، ولا سحر ﴿ وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ ﴾ أي للقرآن ﴿ لَمَّا جاءَهُمْ ﴾ من الله تعالى كذبوا به وجحدوه على البديهة ساعة أتاهم ، وأول ما سمعوه قبل التدبر والتأمل ﴿ إِنْ ﴾ بمعنى ما النافية ﴿ هَذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ظاهر سحريته ، ولا شبهة فيه ، والسِّحْرُ : مأخوذ من السَحَرِ هو ما بين الفجر الأول والفجر الثاني ، وحقيقته اختلاط الضوء والظلمة ، فما هو بليل لما خالطه من ضوء الصبح ، ولا هو بنهار لعدم طلوع الشمس للأبصار ، فكذلك ما فعله السحرة ما هو باطل محقق فيكون عدماً ، فإن العين أدركت أمراً ما لاتشك فيه ، ولا هو حق محض فيكون له وجود في عينه ، فإنه ليس هو في نفسه كما تشهد العين ويظنه الرائي ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ أي مشركي مكة ﴿ مِنْ كُتُبٍ ﴾ أي كتباً ﴿ يَدْرُسُونَها ﴾ يقرأونها فيها دليل على صحة الإشراك كما في قوله تعالى (أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بما كانُوا به يُشْرِكونَ) وقوله (أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ) وفي إيراد كتب بصيغة الجمع تنبيه على أنه لابد لمثل تلك الشبهة من نظائر الأدلة ، والدرس قراءة الكتاب بإمعان النظر فيه ، طلباً لدرك معناه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ يدعوهم إلى الشرك وينذرهم بالعقاب على تركه ، وقد بان من قبل أن لا وجه له بوجه من الوجوه ، فمن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ ، وهو تجهيل لهم وتسفيه لآرائهم ، ثم هددهم بقوله ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم المتقدمة ، والقرون الماضية كما كذب قومك من قريش ﴿ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ ﴾ أي عُشر ما آتينا أولئك من قوة الأجسام ، وكثرة الأموال ، والأولاد ، وطول الأعمار ، فالمعشار بمعنى العشر جُزْءٌ مِنَ العَشَرَةِ ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلي ﴾ عطف على وكذب الذين إلخ بطريق التفصيل والتفسير ﴿ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري لهم بالاستئصال والتدمير ، فأي شيء حال هؤلاء بجنب أولئك ؟ فليحذروا من مثل ذلك ﴿ قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ﴾ الوعظ زجر يقترن به تخويف ، وقال الخليل : هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب أي ما أنشدكم وأنصح لكم إلا بخصلة واحدة هي ﴿ أَنْ تَقُوموا ﴾ من مجلس رسول الله ﷺ ، وتتفرقوا من مجمعكم عنده ، فالقيام على حقيقته بمعنى القيام على الرجلين ، ويجوز أن يكون بمعنى القيام بالأمر ، والاهتمام بطلب الحق ﴿ للهِ ﴾ لأجله تعالى ورضاه ، لا للمراء والرياء والتقليد حال كونكم متفرقين ﴿ مَثْنى ﴾ اثنين اثنين ﴿ وفُرادىٰ ﴾ واحداً واحداً ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّروا ﴾ أي تتفكروا في أمره ﷺ فتعلموا ﴿ مَا ﴾ نافية ﴿ بِصاحِبِكُمْ ﴾ المراد الرسول عليه السلام ﴿ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ أي جنون يحمله على دعوى النبوة العامة كما ظننتم ، وفائدة التقيد بالإثنين والفرادى ، أن الإثنين إذا التجئا إلى الله تعالى ، وبحثاً طلباً للحق مع الإنصاف هُدِياً إليه ، وكذا الواحد إذا تفكر في نفسه مجرداً عن الهوى ، بخلاف

كثرة الجمع فإنه يقل فيها الإنصاف غالباً ، ويكثر الخلاف ، ويثور غبار الغضب ، ولا يسمع إلاّ نصرة المذهب ﴿ إنْ ﴾ ما ﴿ هُوَ ﴾ صاحبكم ﴿ إلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ ﴾ مخوف لكم بلسان ينطق بالحق ﴿ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ أي قُدَّام عذاب الآخرة إن عصيتموه ، لأنه مبعوث قرب الساعة ﴿ قُلْ مَا ﴾ أيّ شيء ﴿ سَأَلْتُكُمْ مِنَ أَجْرٍ ﴾ جعل على تبليغ الرسالة ﴿ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ والمراد نفي السؤال رأساً ﴿ إنْ أَجْرِيَ ﴾ أي ما أجري وثوابي ﴿ إلاَّ عَلَى اللهِ ﴾ فإنما أطلب ثواب الله لا عرض الدنيا ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ شهيدٌ ﴾ مُطّلع يعلم صدقي ، وخلوص نيتي ودعوتي خالصة لوجه الله تعالى لا يشوبها طمع في الدنيا والآخرة ﴿ قُلْ إنَّ رَبِي يَقْذِفُ بِالحَقِّ ﴾ أي يلقي الوحي ، وينزله على من يجتبيه من عباده ، فالاجتباء ليس لعلة ، والاصطفاء ليس لحيلة ، أو يرمي به الباطل فيدمغه ويزيله ﴿ عَلاَّمُ الغُيُوبِ ﴾ أي عالم بكل ما غاب عن خلقه ، في السموات والأرض ، قولاً كان ، أو فعلاً أو غيرهما ، وإنما ذكر الغيوب بلفظ الجمع ، لأنه عالم بغيب كل واحد ، وهو ما في ضمير كل أحد ، وأنه تعالى عالم بما يكون في ضمير أولاد كل أحد إلى يوم القيامة ، وإنما قال عَلاَّمُ بلفظ المبالغة ليتناول علم معلومات الغيوب في الحالات المختلفة ﴿ قُلْ جَاءَ الحَقُّ ﴾ أي الإسلام ، والتوحيد ﴿ وَمَا يُبْدِىءُ البَاطِلُ وما يُعِيدُ ﴾ أبدأ الشَّيءَ: فعله ابتداء والمعنى : زال الشرك، وذهب بحيث لم يبق أثره أصلاً فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة ، فجعل مثلاً في الهلاك بالكلية ، روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : (جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ . قُلْ جَاءَ الحَقُّ وَمَا يُبْدِيءُ البَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) ﴿ قُلْ إنْ ضَلَلْتُ ﴾ عن الطريق الحق كما تزعمون ، وتقولون لقد ضللت حين تركت دين آبائك ﴿ فَإنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ﴾ فإن وبال ضلالي عليها ، لأنه بسببها إذ هي الحاملة عليه بالذات ﴿ وَإنِ اهْتَدَيْتُ ﴾ إلى الطريق الحق ﴿فَبِمَا يُوحِي ﴾ فبسبب ما يوحى ﴿ إلَيَّ رَبِّي ﴾ من الحكمة والبيان ، فإن الاهتداء بتوفيقه وهدايته ، وفيه إشارة إلى أنَّ منشأ الضلالة نفس الإنسان ، فإذا وُكِلتْ النفس إلى طبعها لا يتولد منها إلاّ الضلالة ، وإن الهداية من مواهب الحق تعالى ليست النفس منشأها ﴿ إنَّه ﴾ تعالى ﴿ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ يعلم قول كل من المهتدي والضال ، وفعله وإن بالغ في إخفائها ، وفي الآية إشارة إلى أنه لا يصير المرء ضالاً بتضليل الآخر إياه ، فإن الضال في الحقيقة من خَلَق الله فيه الضلالة بسبب إعراضه عن الهدى ، وإلى أنه « لا تزر وازرة وزر أخرى » ، وأن كل شاة معلقة برجلها ، أي كل واحد مجزيٌّ بعمله لا بعمل غيره ، فالصالح مجزي بأعماله الصالحة وأخلاقه الحسنة ، ولا ضرر له من الأعمال القبيحة لغيره ، وكذا الفاسق مجزي بعمله السوء ولا نفع له من صالحات غيره ، وقيل للنابغة حين أسلم : أصبوتَ ؟ يعني آمنت بمحمد ، قال : بلى غلبني بثلاث

آيات من كتاب الله ، فأردت أن أقول ثلاثة أبيات من الشعر على قافيتها ، فلما سمعت هذه الآية تعبت فيها ، ولم أطق ، فعلمت أنه ليس من كلام البشر ، وهي هذه (**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**) الآيات ﴿ **ولو تَرى** ﴾ يا محمد ، أو يا من يفهم الخطاب ويليق به ﴿ **إِذْ فَزِعُوا** ﴾ أي حين يفزع الكفار ، ويخافون عند الموت ، أو البعث وجواب « لو » محذوفٌ أي لرأيت أمراً هائلاً ، وجيء بالماضي لأن المستقبل بالنسبة إلى الله تعالى كالماضي في تحققه ﴿ **فَلاَ فَوْتَ** ﴾ الفوت بعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذر إدراكه ، أي فلا فوت لهم من عذاب الله ، ولا نجاة بهرب أو تحصن ، ويدركهم ما فزعوا منه ﴿ **وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ** ﴾ أي من ظهر الأرض إلى بطنها ، أو من الموقف إلى النار ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ عند معاينة العذاب ﴿ **آمَنَّا بِهِ** ﴾ أي بمحمد عليه السلام ، لأنه مر ذكره في قوله (**مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ**) ﴿ **وَأَنَّى لَهُمُ التَنَاوُشُ** ﴾ التناوش : التناول السهل من النَّوْش ، يقال : تناوش وتناول إذا مدَّ يده إلى شيء يصل إليه ، والمعنى ومن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولاً سهلاً ؟ ﴿ **مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** ﴾ فإن الإيمان إنما هو في حيز التكليف ، وهي الدنيا ، وقد بعد عنهم بارتحالهم إلى الآخرة ، وهو تمثيل حالهم في الاستخلاص بالإيمان ، بعد ما فات عنهم وبَعُد ، بحال من يريد أن يتناول الشيء من ظرف بعيد جداً ، وهو من قسم المستحيل ﴿ **وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ** ﴾ أي بمحمد ، أو بالعذاب الشديد الذي أنذرهم إياه ﴿ **مِنْ قَبْلُ** ﴾ من قبل ذلك في وقت التكليف ، تابوا وقد أغلقت الأبواب ، وندموا وقد تقطعت الأسباب ، فليس إلا الخسران والندم ، والعذاب والألم .

فَخَلِّ سَبِيلَ العَيْنِ بَعْدَكَ لِلبُكَا * فَلَيْسَ لأَيَّامِ الصَّفَاءِ رُجُوْعُ

والغرض من الآية أنه لا يقدر الإنسان على شيء إذا مات ، وصار إلى ما تحت الأرض ، كما كان يقدر إذا كان فوق الأرض وهو حي ﴿ **وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ أي يرجمون بالظن الكاذب ، ويتكلمون بما لم يظهر لهم في حق الرسول من المطاعن ، أو في العذاب من قطع القول بنفيه ، كما قالوا وما نحن بمعذبين ﴿ **مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** ﴾ من جهة بعيدة من حاله عليه السلام ، حيث ينسبونه إلى الشعر ، والسحر ، والكهانة ، والكذب ، ولعله تمثيل لحالهم في ذلك بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه ، ﴿ **وَحِيلَ بَيْنَهُمْ** ﴾ أي أوقعت الحيلولة ، والمنع بين هؤلاء الكفار ﴿ **وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ** ﴾ من نفع الإيمان ، والنجاة من النار ﴿ **كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي بأشياعهم من كفرة الأمم الماضية ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا** ﴾ في الدنيا ﴿ **فِي شَكٍّ** ﴾ مما وجب به الإيمان ، واليقين ، كالتوحيد ، والبعث ، ونزول العذاب على تقدير الإصرار ﴿**مُرِيبٍ**﴾ قال أهل التفسير : مريب موقع لهم في الريبة والتهمة ، أو إنهم كانوا في شك واضح جلي ، كما تقول شعر شاعر ، وإذا كان حال الكفرة الشك

في الدنيا ، فلا ينفعهم اليقين في الآخرة ، لأنه حاصل بعد معاينة العذاب ، والخروج من موطن التكليف ، وقد ذموا في هذه الآيات بالشك والكفر ، والرجم ، بالغيب ، فليس للمرء أن يبادر إلى إنكار شيء إلا بعد العلم ، إما بالدليل أو بالشهود .

« انتهى بعونه تعالى تفسير سورة سبأ »

● ● ●



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحمدُ للهِ ﴾ أي كل المحامد مختصة بالله تعالى لا تتجاوز منه إلى من سواه ، وهو وإن كان في الحقيقة حمداً لله لذاته بذاته ، لكنه تعليم للعباد كيف يحمدونه ﴿ فاطِرِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما وخالقهما ابتداءً من غير مثال سبق ، من الفَطْرِ بمعنى الشَقّ ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ما كنت أدري ما فاطر السموات ، حتى اختصم إليَّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي ابتدأت حفرها ، قال المبرد : فاطر خالق مبتدىء ﴿ جَاعِلِ المَلاَئِكَةِ رُسُلاً ﴾ والمعنى مصيِّر الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه ، ويبلغون إليهم رسالاته بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة ، قال بعض الكبار : الإلقاء أما صحيح أو فاسد فالصحيح إلهي رباني متعلق بالعلوم والمعارف ، أو ملكي روحاني وهو الباعث على الطاعة وعلى كل ما فيه صلاح ويسمى إلهاماً ، والفاسد نفساني وهو ما فيه حظ النفس ويسمى هاجساً ، أو شيطاني وهو ما يدعو إلى معصية ويسمى وسواساً ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾ وأولو بمعنى أصحاب اسم جمع لذو كما أن أولاء اسم جمع لذا ، ﴿ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ﴾ أي ذوي أجنحة متعددة متفاوتة في العدد ، حسب تفاوت مالهم من المراتب ، ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون أو يسرعون بها ، ففي تعدد الأجنحة إشارة إلى كمالية استعداد بعض الملائكة على بعض ، والمعنى أن الملائكة خلقاً لكل منهم جناحان ، وخلقاً لكل منهم ثلاثة ، وخلقاً آخر لكل منهم أربعة ، وروي عن رسول الله ﷺ أنه رأى جبريل ليلة المعراج وله ستمائة جناح منها اثنان يبلغان من المشرق إلى المغرب ، ودل هذا وكذا كل ما فيه زيادة على الأربع ، أنه تعالى لم يرد خصوصية الأعداد ونفي ما زاد عليها ﴿ يَزِيدُ ﴾ الله تعالى ﴿ فِي الخَلْقِ ﴾ في أي خلق كان ، من الملائكة وغيرهم ، والخلق بمعنى المخلوق ﴿ ما يَشاءُ ﴾ كل ما يشاء أن يزيده بموجب مشيئته ، ومقتضى حكمته ، من الأمور التي لا يحيط بها الوصف ، فليس تفاوت أحوال الملائكة في عدد الأجنحة وكذا تفاوت أحوال غيرهم في بعض الأمور ، تستدعيه ذواتهم ، بل ذلك من أحكام المشيئة ، ومقتضيات الحكم ، والآية متناولة لزيادات الصور والمعاني ، فمن الأولى حسن الصورة خصوصاً الوجه ومنها ملاحة العينين ، واعتدال الصورة ، وسهولة اللسان وطلاقته ، والشعر الحسن ، والصوت الحسن ، وكان نبينا عليه السلام طيب النغمة وفي الحديث (لله أشدُّ أَذَناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينةِ إلى قينته)[1] أي من استماع مالك جارية مغنِّية ، أريد هنا المغنية وفي الحديث (زينوا القرآن بأصواتكم)[2]

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه والحاكم والبيهقي ، ومعناه أن الله تعالى أشدُّ استماعاً للصوت الحسن بالقرآن وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود والنسائي ، والمراد تحسين الصوت عند القراءة بالترتيل والتجويد ، وانظر جامع الأصول ٢ / ٤٥٤ .

أي أظهروا زينته بحسن أصواتكم ، وإلا فَجَلَّ كلامُ الخالق أن يزينه صوت مخلوق ، ورخص تحسين الصوت والتطريب ، ما لم يتغير المعنى بزيادة أو نقصان في الحروف ، ومنها حسن الخط ومنها كمال العقل ، وجزالة الرأي ، وجراءة القلب ، وسماحة النفس ، وغير ذلك من الزيادات المحمودة ﴿ **إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ بليغ القدرة على كل شيء ممكن ، وهو تعليل بطريق التحقيق للحكم المذكور ، وقدرته على أن يزيد كل ما يشاؤه إيجاباً بيناً ، فقد أبان سبحانه أن قدرته شاملة لكل شيء ، ومن الأشياء الانقاذ من الشهوات والإخراج من الغفلات والادخال في دائرة العلم والشهود الذي هو من باب الزيادات فمن استعجز القدرة الإلهية فقد جحد ، ألا ترى إلى حال إبراهيم بن أدهم حيث تجلى الله له بجمال اللطف الصوري أولاً ، وأعطاه الجاه والسلطنة ثم منّ له باللطف المعنوي ثانياً ، حيث أنقذه من حبس العلاقات ، وخلّصه من أيدي الكدورات ، وشرفه بالوصول ، حُكِيَ أنه كان سبب خروج إبراهيم بن أدهم عن أهله وماله وجاهه ورياسته ـ وكان من أبناء الملوك ـ أنه خرج يوماً يصطاد فأثار ثعلباً ثم أرنباً فبينما هو في طلبه ، إذ هتف به هاتف : ألهذا خُلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟ فنزل عن مركوبه وصادف راعياً ، فأخذ جبة الراعي من صوف فلبسها ، وأعطاه فرسه وما معه ثم دخل البادية ، وكان من شأنه ما كان ، وحكي أن الشيخ الكرماني خرج للصيد وهو مَلِكُ كرمان ، فأمعن في الطلب حتى وقع في بريه مقفرة وحده ، فإذا هو بشاب راكب على سبع وحوله سباع ، فلما رأته ابتدرت نحوه ، فزجرها الشاب عنه ، فلما دنا إليه سلم عليه وقال له يا شاه : ما هذه الغفلة عن الله ، اشتغلت بدنياك عن آخرتك ، وبلذتك وهواك عن خدمة مولاك ، إنما أعطاك الله الدنيا لتستعين بها على خدمته ، فجعلتها ذريعة إلى الاشتغال عنه ، أما بلغك أن الله تعالى أوحى إلى الدنيا من خدمني فاخدميه ، ومن خدمَكِ فاستخدميه ، فلما رأى ذلك تاب وكان منه ما كان ، ﴿ **مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ** ﴾ أي أيُّ شيء يفتح الله من خزائن رحمته ، أية رحمة كانت ، من نعمة ، وصحة ، وعلم ، وحكمة ، إلى غير ذلك ﴿ **فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا** ﴾ أي لا أحد من المخلوقات يقدر على إمساكها ، وحبسها ، فإنه لا مانع لما أعطاه ﴿ **وَمَا يُمْسِكْ** ﴾ أيْ أيَّ شيء يمسكه ، ويحبسه ، ويمنعه ﴿ **فَلا مُرْسِلَ لَهُ** ﴾ أي لا أحد من الموجودات يقدر على إرساله ، وإعطائه ، فإنه لا معطي لما منعه ﴿ **مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ أي من بعد إمساكه ومنعه ﴿ **وَهُوَ العَزِيزُ** ﴾ الغالب على كل ما يشاء من الأمور التي من جملتها الفتح ، والإمساك ، فلا أحد ينازعه ﴿ **الحَكِيمُ** ﴾ الذي يفعل ما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة ، والمصلحة ، وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : كان النبي عليه السلام يَقُولُ في دبر الصلاة (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك

الجَدُّ)[1] والجَدُّ بالفتح : الحظُّ والإقبال في الدنيا ، أي لا ينفع الفتى المحظوظ حظه منك ، أي بدل طاعتك ، وإنما ينفع العمل والطاعة ، فعلى العاقل أن يجتهد حتى يأتي رزقه بلا جهد ومشقة وتعب ، روي عن الشيخ أبي يعقوب البصري أنه قال : جعت مرة في الحرم عشرة أيام ، فوجدت ضعفاً فحدثتني نفسي أن أخرج إلى الوادي ، لعلي أجد شيئاً يسكن به ضعفي ، فخرجت فوجدت حقيبةً مطروحة فأخذتها ، فإذا برجل جاء فجلس بين يديّ ووضع قمطرة وقال هذه لك ، فقلت كيف خصصتني بها ؟ فقال : اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام ، فأشرفت السفينة على الغرق ، فنذر كل واحد منا نذراً إن خلصنا الله أن يتصدق بشيء ، ونذرت أنا إن خلصني الله أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصري من المجاورين ، وأنت أول من لقيته ، قلت : افتحها ففتحها فإذا فيها كعك ولوز وسكر ، فقبضت قبضة من ذا ، وقبضة من ذا ، وقلت : رد الباقي إلى صبيانك هدية مني إليهم وقد قبلتها ، ثم قلت في نفسي : رزقكِ يسيرُ إليكِ منذ عشرة أيام ، وأنتِ تطلبينه من الوادي ؟ اللهم افتح لنا خير الباب ، وارزقنا مما رزقت أولي الألباب إنك مفتح الأبواب ﴿ **يا أَيُّها النَّاسُ** ﴾ عامة فاللام للجنس ، أو يا أهل مكة خاصة فاللام للعهد ﴿ **اذْكُروا نِعْمتَ اللهِ عَليْكُمْ** ﴾ أي إنعامه عليكم ، أي راعوها واحفظوها بمعرفة حقها ، وتخصيص العبادة والطاعة لمعطيها ، سواء كانت نعمة خارجية كالمال والجاه ، أو نعمة بدنية كالصحة والقوة ، أو نعمة نفسية ، كالعقل والفطنة ، ولما كان ذكر النعمة مؤدياً إلى ذكر المنعم ، قال بطريق الاستفهام الإنكاري ﴿ **هَلْ مِنْ خَالِقٍ غيرُ اللهِ** ﴾ أي هل خالق مغاير له تعالى موجود ؟ أي لا خالق سواه ، قال في الأسئلة المفحمة : أيُّ حجة فيها على المعتزلة ؟ الجوابُ أنه تعالى أخبر بأن لا خالق غيره ، وهم يقولون نحن نخلق أفعالنا ﴿ **يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ** ﴾ أي المطر من السماء ، والنبات من الأرض ﴿ **لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ وإذا تبين تفرده تعالى بالألوهية ، والخالقية ، والرازقية ﴿ **فَأَنَّى** ﴾ فمن أي وجه ﴿ **تُؤْفَكُونَ** ﴾ تصرفون عن التوحيد إلى الشرك ، وعن عبادته إلى عبادة الأوثان ﴿ **وَإِنْ يُكَذِّبوكَ** ﴾ أي وإن استمر المشركون على أن يكذبوك يا محمد فيما بلّغت إليهم ، فلا تحزن واصبر ﴿ **فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ** ﴾ أولو شأن خطير ، وذوو عدد كثير ﴿ **مِنْ قَبْلِكَ** ﴾ فصبروا ، وظفروا ﴿ **وَإِلَى اللهِ** ﴾ لا إلى غيره ﴿ **تُرْجَعُ الأُمورُ** ﴾ من الرجع وهو الرد ، أي ترد إليه عواقبها ، فيجازي كل صابر على صبره ، وكل مكذب على تكذيبه ، يشير إلى تسلية الرسول ﷺ ، وتسهيل الصبر على الأذية ، إذا علم أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثل ما استقبله ، وأنهم لما صبروا للهِ كفاهم ﴿ **يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ** ﴾ بالبعث ، والجزاء ﴿ **حَقٌّ** ﴾ ثابت ، لا محالة ، لا خُلف فيه ﴿ **فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيٰوةُ الدُّنْيَا** ﴾ بأنْ يذهلكم التمتع بها عن طلب الآخرة ، والسعي لها ، وتقطعكم زينتها وشهواتها عن الرياضات

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

والمجاهدات ، وترك الأوطان ومفارقة الإخوان ، والمراد نهيهم عن الاغترار بها ، وإن توجه النهي صورةً إليها ، وفي بعض الآثار (يا ابن آدم لا يغرنك طول المهلة ، فإنما يُعجِّل بالأخذ من يخاف الفوت) ، وعن العلاء بن زياد : رأيتُ الدنيا في منامي قبيحة عمشاء ضعيفة ، عليها من كل زينة ، فقلت من أنت أعوذ بالله منك ؟ فقالت : أنا الدنيا ، فإن سرَّك أن يعيذك الله الله مني ، فأبغض الدراهم والدنانير ، يعني لا تُمْسكها عن الإنفاق في موضع الحق ؟ فالدنيا مزرعة الآخرة ، والعقلاء يزرعون في مزرعة الدنيا أنواع الطاعات ، فيغتنمون بها يوم الحصاد ، بخلاف من جهل أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وقد ورد في الحديث : (الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له)[1] .

﴿ وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ ﴾ وكرمه وعفوه ، وسعة رحمته ﴿ الْغَرُورُ ﴾ فعول صيغة مبالغة كالشكور والصبور ، وسمي به الشيطان لأنه لا نهاية لغروره ، قال الراغب : الغَرُورُ : كلّ ما يغرُ الإنسان من مال وجاه ، وشهوة وشيطان ، وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغارِّين ، وبالدنيا لما قيل الدنيا تغرُّ وتضرُّ ثم تمرُّ ، والمعنى : ولا يغرنكم بالله الشيطان ، المبالغ في الغرور ، بأن يُمنِّيكم المغفرة مع الإصرار على المعاصي ، قائلاً : اعملوا ما شئتم إن الله غفور يغفر الذنوب جميعاً ، وإنه غني عن عبادتكم وتعذيبكم ، فإن ذلك وإن أمكن ، لكنْ تناول الذنوب بهذا التوقع ، من قبيل تناول السم اعتماداً على دفع الطبيعة ، فالله تعالى وإن كان أكرم الأكرمين مع أهل الكرم ، لكنه شديد العقاب مع أهل العصيان ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ عداوة قديمة بما فعل بأبيكم من فِعْلٍ لا تكاد تزول ، وتقديم لكم للاهتمام به ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً ﴾ بمخالفتكم له في عقائدكم ، وأفعالكم ، وكونكم على حذر منه في جميع أحوالكم ، فلا تكفي العداوة باللسان فقط ، بل يجب أن تكون بالقلب والجوارح جميعاً ، ولا يقوى المرء على عداوته إلا بملازمة الذكر ، ودوام الاستعانة بالرب ، فإن من هجم عليه كلاب الراعي ، يُشكل عليه دفعها ، إلا أن ينادي الراعي ، فإنه يطردها بكلمةٍ منه ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو ﴾ الشيطان ﴿ حِزْبَهُ ﴾ جماعته وأتباعه المعرضون عن الله ، المشتغلون بغير طاعة الله ﴿ لِيَكُونُوا ﴾ أي حزبه ﴿ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ تقرير لعداوته وتحذير من طاعته ، بالتنبيه على أن غرضه في اتباع الهوى ، والركون إلى ملاذِّ الدنيا ، ليس تحصيل مطالبهم ومنافعهم الدنيوية ، بل هو توريطهم ، وإلقاؤهم في العذاب المخلد ، من حيثُ لا يحتسبون ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي ثبتوا على الكفر بما وجب به الإيمان ، وأصروا عليه ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب كفرهم ، وإجابتهم لدعوة الشيطان ﴿ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ معجَّل ، ومؤجَّلٌ ، فمعجَّله تفرقةُ قلوبهم ، وانسداد بصائرهم ، وخساسة همتهم حتى إنهم يرضون بأن يكون معبودهم الأصنام والهوى ، والدنيا والشيطان ، ومؤجله عذاب

---

(١) الحديث أخرجه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان بلفظ (الدنيا دار من لا دار له ، ومالُ من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له) انظر الفتح الكبير ٢ / ١١٦ .

الآخرة وهو مما لا تخفى شدته وصعوبته ﴿ **والَّذِينَ آمنُوا** ﴾ ثبتوا على الإيمان ، واليقين ﴿ **وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ أي الطاعات الخالصة لله ، تحصيلاً لزيادة نور الإيمان ﴿ **لَهُمْ** ﴾ بسبب إيمانهم وعملهم الصالح الذي من جملته عداوة الشيطان ﴿ **مَغْفِرَةٌ** ﴾ عظيمة ، وهي في المعجل ستر ذنوبهم ، ولولا ذلك لافتضحوا ، وفي المؤجل محوها من ديوانهم ، ولولا ذلك لهلكوا ﴿ **وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾ لا غاية له في الآخر ، وهو تحقيق المسؤول ، ونيل ما فوق المأمول ، قيل : مثل الصالحين وما زينهم الله به دون غيرهم ، مثل جند قال لهم الملك تزينوا للعرض عليَّ غداً ، فمن كانت زينته أحسن كانت منزلته عندي أرفع ، ثم يرسل الملك في السرِّ بزينة عنده ليس عند الجند مثلها ، إلى خواص مملكته وأهل محبته ، فإذا تزينوا بزينة الملك فخروا على سائر الجند عند العرض على الملك ، فالله تعالى وفقهم للأعمال الصالحة وزينهم بالطاعات الخالصة ، وحلاّهم بالتوجهات الصافية ، بتوفيقه الخاص قصداً إلى الاصطفاء والاختصاص ، فميزهم بها في الدنيا عن سائرهم وبأجورها العظيمة في الآخرة لمفاخرهم ، فليحمد الله كثيراً من استخدمه الله ، واستعمله في طريق طاعته وعبادته ، فإن طريق الخدمة قلّ من يسلكه خصوصاً في هذا الزمان ، وسبيل العشق ندر من يشرع فيها من الإخوان، ولله عبادٌ لهم قلوبٌ عمارتها الأحزان، وأوطانها العشق والمحبة والطاعة

أحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ الهَوَى * وحُبّاً لأَنَّكَ أهْلٌ لِذَاكَا
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الهَوَى * فَذِكْرٌ شُغِلْتُ بِهِ عن سِواكا
وَأَمَّا الَّذي أنتَ أهْلٌ لَهُ * فَكَشْفُكَ لِلحُجْبِ حَتَّى أرَاكَا
ولا حَمْدَ في ذَا ولا ذَاكَ لي * ولكنْ لَكَ الحمدُ في ذَا وَذَاكا

نسأل الله سبحانه أن يعمر قلوبنا بأنواع العمارات ، ويزين بيوت بواطننا بأصناف الإرادات ، ويحشرنا مع خواص عباده ، الذين لهم أجر كبير وثواب جزيل ﴿ **أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ** ﴾ أي قبيحُ عمله ﴿ **فَرَآهُ حَسَناً** ﴾ فظنه جميلاً ، والمعنى أبعد تباين عاقبتيْ الفريقين ، يكون من زين له الكفر من جهة الشيطان فانْهمك فيه ، كمن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان والعمل الصالح ؟ أي لا يكون فحذف ما حُذف لدلالة ما سبق عليه ﴿ **فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ** ﴾ إلى آخره تقرير له ، وتحقيق للحق ، ببيان أن الكل بمشيئة الله تعالى ، أي فإنه تعالى يضل ﴿ **مَنْ يَشَاءُ** ﴾ أي يضله لاستحسانه الضلال ، وصرف اختياره إليه ، فيرده إلى أسفل سافلين ﴿ **وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** ﴾ أي يهديه لصرف اختياره إلى الهدى ، فيرفعه إلى أعلى عليين ﴿ **فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** ﴾ الفاء للسببية ، فإن ما سبق سبب للنهي عن التحسر ، وذهاب النفس كناية عن الموت ، والحسرة شدة الحزن على ما فات ، والندم عليه ، والجمعُ للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه السلام على أحوالهم ، أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتأسف والتحسر ،

والمعنى : إذا عرفت أن الكل بمشيئة الله ، فلا تُهْلِك نفسك للحسرات على غيّهم وإصرارهم ، والغموم على تكذيبهم وإنكارهم فقد بذلت لهم النصح ، وخرجت عن عهدة التبليغ ، فلا مشقة لك من بعد ، وإنما المشقة عليهم في الدنيا والآخرة ﴿ **إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ** ﴾ بليغ العلم ﴿ **بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾ يفعلون من القبائح فيجازيهم عليها جزاءً قبيحاً ، فإنهم وإن استحسنوا القبائح لقصور نظرهم ، فالقبيح لا يكون حسناً أبداً ﴿ **واللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ** ﴾ الإرسال يقابل الإمساك ، والرياح جمع ريح بمعنى الهواء المتحرك وأراد بها الجنوب والشمال والصبا ، فإنها رياح الرحمة ، لا الدبور فإنها رياح العذاب ﴿ **فَتُثِيرُ سَحاباً** ﴾ تهيجه ، وتنشره بين السماء والأرض ، لإنزال المطر والسحاب ، وقيل بخار يرتفع من البحار والأرض ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة ، والحكمة ، ولأن المراد بيان إحداثها لتلك الخاصية ولذلك أسند إليها ﴿ **فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ** ﴾ البلد المكان المحدود المتأثر باجتماع قطانه ، وإقامتهم فيه ، والبلد الميت هو الذي لا نبت فيه قد اغبرَّ من القحط أي ساق الله ذلك السحاب ، وأجراه إلى الأرض التي تحتاجها إلى الماء ، وقال « فسقناه إلى بلد » التفاتاً من الغيبة إلى التكلم دلالة على زيادة اختصاصه به تعالى ، وأن الكلّ منه ، والوسائط أسباب ، وقال إلى بلد ميت بالتنكير ، قصداً به إلى بعض البلاد الميتة ، وهي بلاد الذين تبعدوا عن مظان الماء ﴿ **فَأَحْيَيْنَا بِهِ** ﴾ أي بالمطر النازل من السحاب ﴿ **الأَرْضَ** ﴾ أي صيرناها خضراء بالنبات ﴿ **بَعْدَ مَوْتِها** ﴾ أي يبسها ﴿ **كذلِكَ النُّشورُ** ﴾ أي مثل ذلك الإحياء الذي تشاهدونه ، إحياء الموتى وإخراجهم من القبور يوم الحشر ، في صحة المقدورية ، وسهولة التأتي من غير تفاوت بينهما أصلاً ، فالآية احتجاج على الكفرة في إنكارهم البعث حيث دلهم على مثال يعاينونه ، وعن أبي رزين العقيلي قال : قلت يا رسول الله : كيف يحيي الله الموتى ؟ قال : أما مررت بوادٍ مُمْحِلاً ، ثم مررت به يهتزُّ خَضِراً ؟ قلت : بلى قال : فكذلك يحيي الله الموتى ، أو قال : كذلك النشور)[1] ﴿ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ** ﴾ الشرف ، والمنعة ، قال الراغب : العزةُ حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب ، والعزيز الذي يَقْهر ولا يُقْهر ، والعزة التي لله ولرسوله وللمؤمنين هي الدائمة الباقية ، وهي العزة الحقيقية ، والعزة للكافرين هي التعزز ، وهي في الحقيقة ذلّ ، والمراد بما في الآية المشركون المتعززون بعبادة الأصنام ﴿ **فَلِلَّهِ** ﴾ وحده لا لغيره ﴿ **العِزَّةُ** ﴾ حال كونها ﴿ **جَمِيعاً** ﴾ أي عزة الدنيا ، وعزة الآخرة ، لا يملك غيره شيئاً منها ، أي فليطلبها من عنده تعالى بطاعته ، وتقواه ، لا من عند غيره ثم بين ما يطلب به العزة ، وهو الإيمان ، والعمل الصالح فقال : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ** ﴾ الضمير إلى الله تعالى ، وهو الظاهر ، وأصل

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، وانظر الدر المنثور ٥ / ٢٤٥ .

الطَّيِّب الذي به يطلب العزة ، لا إلى الملائكة الموكلين بأعمال العباد فقط ، وهو يعز صاحبه ويعطي مطلوبه بالذات ، وقال بعضهم : الكلم يتناول الدعاء والاستغفار ، وقراءة القرآن ، والذكر من قوله (سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر) ونحو ذلك مما كان كلاماً طيباً ﴿ **والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ الرفع يقال تارة في الأجسام وتارة في المنزلة إذا شرفتها ، وفي مرجع المستكن في يرفعه وجوه : الأول : أنه للكلم فإن العمل لا يقبل إلا بالتوحيد ، ويؤيده القراءة بنصب العمل يعني إن التوحيد يصعد بنفسه ويرفع العمل الصالح ، بأن يكون سبباً لقبوله ، ألا ترى أن أعمال الكفار مردودة محبطة لوجود الشرك ؟ والثاني أنه للعمل فإنه يحقق الإيمان ويقوِّيه ، ولا تُنَال الدرجات العالية إلا به ، والتوحيد إنما قُبِلَ بسبب الطاعة ، إذ هو مع العصيان لا ينفع ، أي لا يمنع العقاب ، والأولى ما في الإرشاد ، فإن الأعمال كالمراقي ، وقول بلا عمل كثريد بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر ، « يرفعه » يعني يتقبله ، قال ابن عطية : وهذا أرجح الأقوال ، وتخصيص العمل بهذا الشرف على هذا الوجه لما فيه من الكلفة ﴿ **وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ المكر : صرف الغير عما يقصده بحيلة ، وهذا بيان لحال الكلم الخبيث ، والعمل السيء ، وأهلها ، بعد بيان حال الكلم الطيب ، والعمل الصالح ، وهي مكرات قريش بالنبي عليه السلام في دار الندوة ، وتدارؤهم الرأي في إحدى الثلاث التي هي الإثبات والقتل والإخراج ، كما حكى الله عنهم في سورة الأنفال بقوله (**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ**) ، ﴿ **لَهُمْ** ﴾ بسبب مكراتهم ﴿ **عَذابٌ شَدِيدٌ** ﴾ في الدنيا والآخرة لا يدرك غايته ، ولا يُبالى عنده بما يمكرون به ﴿ **ومكْرُ أُوْلَئِكَ** ﴾ المفسدين الذين أرادوا أن يمكروا به عليه السلام ، ﴿ **هُوَ** ﴾ خاصة دون مكر الله بهم ﴿ **يَبُورُ** ﴾ يهلك ويفسد ، فإن البوار فرط الكساد ، أبارهم الله تعالى إبارة بعد إبارة مكراتهم ، حيث أخرجهم من مكة وقتلهم ، وأثبتهم في قليب بدر ، فجمع عليهم مكراتهم الثلاث ، التي اكتفوا في حقه عليه السلام بواحدة منهن ، قل كل يعمل على شاكلته ﴿ **واللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ** ﴾ دليل آخر على صحة البعث ، والنشور ، أي خلقكم ابتداء من التراب ، في ضمن خلق آدم خلقاً إجمالياً ﴿ **ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ** ﴾ النطفة هي الماء الصافي الخارج من بين الصلب والترائب ، قلَّ أو كثر ، أي ثم خلقكم من نطفة خلقاً تفصيلياً وخلقكم من تراب يعني آدم وهو أصل الخلق ، ثم من نطفة ذرية منه بالتناسل والتوالد ﴿ **ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً** ﴾ أصنافاً : أحمر ، وأبيض ، وأسود ، أو ذكراناً ، وإناثاً ، وعن قتادة جعل بعضكم زوجاً لبعض ﴿ **وَمَا** ﴾ نافية ﴿ **تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ** ﴾ حال كونها ملتبسة ﴿ **بِعِلْمِهِ** ﴾ تابعة لمشيئته والمعنى ما يحدث شيء من حمل حامل ، ولا وضع واضع ، إلا وهو عالم به ، يعلم مكان الحمل ووضعه ، وأيامه ، وساعاته وأحواله ، من الخداج والتمام ، والذكورة والأنوثة وغير ذلك ﴿ **وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ** ﴾ ما نافية ، والمعمر من أطيل عمره ، وقوله من معمر أي

من أحد وإنما سمى معمراً باعتبار مصيره ، والمعنى وما يمد في عمر أحد وما يطول ﴿ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ العمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة ، والنقصان من عمر المعمر محال ، فهو من التسامح في العبارة ، ثقة بفهم السامع ، فيراد من ضمير المعمر ما من شأنه أن يعمر على الاستخدام ، والمعنى ولا ينقص من عمر أحد ، لكن لا على معنى لا ينقص من عمره بعد كونه زائداً ، بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصاً ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ أي اللوح ، أو علم الله ، أو صحيفة كل إنسان ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ المذكور من الخلق وما بعده مع كونه محيِّراً للعقول والأفهام ﴿ عَلَى اللهَ يَسِيرٌ ﴾ لاستغنائه عن الأسباب ، فكذلك البعث ، واعلم أن الزيادة والنقصان في الآية بالنسبة إلى عمرين كما عرفت ، وإلا فمذهب أكثر المتكلمين وعليه الجمهور أن العمر يعني عمر شخص واحد لا يزيد ولا ينقص ، وقيل : الزيادة والنقص باعتبار أسباب مختلفة أثبتت في اللوح ، مثل أن يكتب فيه إن حج فلان فعمره ستون وإلا فأربعون وكذا إن تصدق أو وصل الرحم فعمره ثمانون ، وإلاَّ فخمسون ، وإليه أشار الأثر (الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار) ، وقيل المراد من النقص ما يمر من عمره وينقص ، فإنه يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة ، ثم يكتب تحت ذلك ذهب يوم ، ذهب يومان وهكذا ، حتى يأتي على آخره ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الله تعالى جعل لكل نسمة عمراً تنتهي إليه ، فإذا جرى عليه الليل والنهار نقص من عمره بالضرورة ، وقد قيل نقصان العمر صرفه إلى غير مرضاة الله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي البَحْرانِ ﴾ أصل البحر كل مكان واسع جامع للماء الكثير ، ويقال للمتوسع في العلم بحر ، وفي القاموس البحر الماء الكثير عذباً أو ملحاً ، وقال بعضهم : البحر في الأصل يقال للملح دون العذب فقوله (وما يستوي البحران) إلخ إنما سمى العذب بحراً لكونه مع الملح كما يقال للشمس والقمر قمران ﴿ هٰذَا ﴾ البحر ﴿عَذْبٌ﴾ حلوٌ طيِّبٌ ﴿ فُرَاتٌ ﴾ بليغ عذوبته ، بحيث يكسر العطش ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ سهل انحدار مائه في الحلق لعذوبته ، فإن العذب لكونه ملائماً للطبع ، تجذبه القوة الجاذبة بسهولة ، يقال ساغ الشراب سهل مدخله ، والشراب ما شرب والمراد هنا الماء ﴿ وَهٰذَا ﴾ البحرُ الآخر ﴿ مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ شديد ملوحته بحيث يحرق بملوحته ، وهو نقيض الفرات ، قال في خريدة العجائب : الحكمة في كون ماء البحر ملحاً أجاجاً لا يذاق ولا يساغ ، لئلا ينتن من تقادم الدهور والأزمان ، فيهلك من نتنه العالم الأرضي ، ولو كان عذباً لكان كذلك ، ألا ترى إلى العين التي بها ينظر الإنسان الأرض والسماء والعالم والألوان وهي شحمة مغمورة في الدمع ، وهو ماء مالح ، والشحم لا يصان إلا بالملح ، فكان الدمع مالحاً لذلك المعنى انتهى ، وأما الأنهار العظيمة العذبة فلجريانها دائماً لم يتغير طعمها ، ورائحتها ، فإن التغير إنما يحصل من الوقوف في مكان ﴿ وَمِنْ كُلٍّ ﴾ أي من كل واحد من البحرين المختلفين طعماً ﴿ تَأْكُلُونَ ﴾ أيها الناس ﴿ لَحْماً طَرِياً ﴾ غضاً جديداً وصف السمك بالطراوة لتسارع الفساد إليه ،

فيُسارَعُ إلى أكله طرياً ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ ﴾ أي من المالح خاصة ، ولم يقل منه لأنه معلوم ﴿ حِلْيَةً ﴾ زينة ، أي لؤلؤاً ومرجاناً ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ أي تلبس تلك الحلية نساؤكم ، ولما كان تزينهن بها لأجل الرجال فكأنها زينَتُهُم ولباسهم ، ولذا أسند إليهم ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ ﴾ السفينة ﴿ فِيهِ ﴾ أي في كل منها ، وإفراد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق ، لأن الخطاب لكل واحد يأتي منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ يقال سفينة ماخرة إذا جرت تشق الماء مع صوت ، والمعنى شواق للماء بجريها مقبلة ومدبرة ﴿ لِتَبْتَغُوْا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي من فضل الله تعالى بالنقلة فيها ، قال في بحر العلوم : ابتغاء الفضل : التجارةُ ، وهي أعظم أسباب سعة الرزق وزيادته ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ ﴾ أي ولتشكروا على ذلك الفضل وكي تعرفوا نعم الله فتقوموا بحقها ، سيما أنه جعل المهالك سبباً لوجود المنافع ، وحصول المعايش ، واعلم أن الله تعالى ذكر هذه الآية دلالة على قدرته ، وبياناً لنعمته ، وضرب البحر العذب والملح مثلاً للمؤمن والكافر ، فكما لا يستوي البحران في الطعم ، فكذا المؤمن والكافر ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ أي يدخل اللهُ الليل في النهار بإضافة بعض أجزاء الليل إلى النهار ، فينقص الأول ويزيد الثاني كما في فصلي الربيع والصيف ﴿ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيلِ ﴾ بإضافة بعض أجزاء النهار إلى الليل كما في فصلي الخريف والشتاء ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ ﴾ معنى تسخير الشمس والقمر تصييرهما نافعين الناس ، حيث يعلمون بسيرهما عدد السنين والحساب ، ومنه يعلم حكمة الإيلاج فإنه بحركة النيرين تختلف الأوقات ، وتظهر الفصول الأربعة التي تعلق بها المصالح والأمور المهمة ، ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد من الشمس والقمر ﴿ يَجْرِي ﴾ أي بحسب حركته الخاصة ، وحركته القسرية على المدارات اليومية المتعددة ، حسب تعدد أيام السنة جرياً مستمراً ﴿ لأَجَلٍ ﴾ وقت ﴿ مُسَمىً ﴾ معين ، قدَّره الله تعالى لجريانها ، وهو يوم القيامة ، فحينئذ ينقطع جريها ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ أي ذلك العظيم الشأن ، الذي أبدع هذه الصنائع البديعة ﴿ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ أي هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية ، والربوبية ، والمالكية لما في السموات والأرض ، فاعرفوه ، ووحدوه ، وأطيعوا أمره ﴿ والَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي حال كونكم متجاوزين الله وعبادته ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ هو القشرة البيضاء الرقيقة الملتفة على النواة كاللفافة لها ، وهو مَثَلٌ في القلة والحقارة ، كالنقير الذي هو النكتة في ظهر النواة ، والفتيل الذي في شق النواة على هيئة الخيط المفتول ، والمعنى لا يقدرون على أن ينفعوكم مقدار القطمير ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ ﴾ أي الأصنام للإعانة ، وكشف الضر ﴿ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ لأنهم جماد ، والجماد ليس من شأنه السماع ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا ﴾ على الفرض والتمثيل ﴿ مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ فإنهم لا لسان لهم ، أو ما أجابوكم لمطلبكم ، لعجزهم عن النفع بالكلية ، فإن من لا يملك نفع نفسه كيف يملك نفع غيره ﴿ وَيَوْمَ القِيٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أي يجحدون بإشراككم لهم ،

وبعبادتكم إياهم ، بقولهم (مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُوْنَ) وإنما جيء بضمير العقلاء لأن عبدتهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلاً وغباوة ، ولأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولي العلم من الاستجابة والسمع ، ويجوز أن يريد كل معبود من دون الله من الجن والإنس والأصنام فغلب غير الأصنام عليها ﴿ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أي لا يخبرك يا محمد بالأمر مخبر مثل خبير أخبرك به ، وهو الحق سبحانه ، فإنه الخبير بكنه الأمور دون سائر المخبرين ، والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ، ونفي ما يدعون لهم من الإلهية ، قال الزروقي : الخبير هو العليم بدقائق الأمور ، التي لا يتوصل إليها غيره إلا بالاختبار والاحتيال ، وقال الغزالي هو : الذي لا يعزب عنه الأخبار الباطنية ،ولا يجرى في الملك والملكوت شيء ، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن ، ولا تضطرب نفس ولا تطمئن ، إلا ويكون عنده خبرها ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ ﴾ الفقراء جمع فقير والفقير المكسور الفقار ، والمعنى : يأأيها الناس أنتم المحتاجون إلى الله تعالى بالاحتياج الكثير الشديد في أنفسكم ، وفيما يعرض لكم ، فإن كل حادث مفتقر إلى خالقه ليبديه ، وينشئه أولاً ، ويديمه ويبقيه ثانياً ، ثم الإنسان محتاج في ذاته وصفاته ، وأفعاله ، إلى كرم الله وفضله ﴿ وَاللهُ هُوَ ﴾ وحده ﴿ الْغَنِيُّ ﴾ المستغني على الإطلاق ، فكل واحد يحتاج إليه لأن أحداً لا يقدر أن يصلح أمره إلا بالأعوان ، والله الغني عن الأعوان وغيرها ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ المنعم على جميع الموجودات ، حتى استحق عليهم الحمد على نعمته العامة ، وفضله الشامل ، فالله الغني المغني ﴿ إِنْ يَشَأْ ﴾ أي الله تعالى ﴿ يُذْهِبْكُمْ ﴾ عن وجه الأرض ، ويعدمكم ، كما قدر على إيجادكم وبقائكم ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ ﴾ مخلوق ﴿ جَدِيدٍ ﴾ مكانكم وبدلكم ليسوا على صفتكم ، بل مستمرون على الطاعة ، فيكون الخلق الجديد من جنسهم وهو الآدمي ، أو يأت بعالم آخر غير ما تعرفونه فيكون من غير جنسهم ، وعلى كلا التقديرين فيه إظهار الغضب للناس الناسين ، وتخويف لهم على سرفهم ، ومعاصيهم ﴿ وَمَا ذَلِكَ ﴾ أي ما ذكر من الإذهاب بهم والإتيان بآخرين ﴿ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ﴾ بمتعذرٍ ، ولا صعب ، أو متعسر ، بل هو هيّن عليه يسير ، لشمول قدرته على كل مقدور ، فإذا قال لشيء كن كان من غير توقف ولا امتناع ، وقد أهلك القرون الماضية ، واستخلف الآخرين ، فينبغي للعاقل المكلف أن يعبد الله ويخافه ، ولا يجترىء على ما يخالف رضاه ، ولا يكون أسوأ من الجمادات مع أن الإنسان أشرف المخلوقات ،﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ يقال : وَزَر يَزِر ، والوزرُ : الإثم والثقل، والمعنى لا تحمل نفس آثمة يوم القيامة إثم نفس أخرى بل إنما تحمل كل منهما وزرها الذي اكتسبته ، بخلاف الحال في الدنيا فإن الجبابرة يأخذون الولي بالولي ، والجار بالجار ، وأما في قوله تعالى (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ) من حمل المضلين أثقالهم وأثقالاً غير أثقالهم ، فهو حمل أثقال ضلالهم مع أثقال إضلالهم ، وكلاهما أوزارهم ليس فيها شيء من أوزار غيرهم ، ألا يرى كيف كذبهم في قولهم ﴿ اتَّبِعُوْا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ) بقوله (وَمَا هُمْ

بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ) ؟ ومنه يعلم وجه تحميل معاصي المظلومين يوم القيامة على الظالمين ، فإن المحمول في الحقيقة جزاء الظلم ، وإن كان يحصل في الظاهر تخفيف حمل المظلوم ولا يجرى إلا في الذنب المتعدي ﴿ وَإِنْ تَدْعُ ﴾ أي ولو دعت ﴿ مُثْقَلَةٌ ﴾ أي نفس أثقلتها الأوزار ، والثقل الإثم ، سمي به لأنه يثقل صاحبه يوم القيامة ، ويثبطه عن الثواب في الدنيا ﴿ إِلَى حِمْلِهَا ﴾ الذي عليها من الذنوب ليحمل بعضها ﴿ لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ لم تجب لحمل شيء منه ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ أي المدعو المفهوم من الدعوة ، وترك ذكره ليشمل كل مدعو ﴿ ذَا قُرْبَى ﴾ ذا قرابة من الداعي ، كالأب ، والأم ، والولد ، والأخ ، ونحو ذلك ، إذ لكل واحد منهم يومئذ شأن يغنيه ، وحمل يعجزه ، ففي هذا دليل أنه تعالى لا يؤاخذ بالذنب إلا جانيه ، وأن الاستغاثة بالأقربين غير نافعة لغير المتقين ، عن ابن عباس رضي الله عنهما يلقى الأبُ والأم ابنه فيقول : يا بني احمل عني بعض ذنوبي ، فيقول لا أستطيع ، حسبي ما عليَّ ، وكذا يتعلق الرجل بزوجته فيقول لها إني كنت لك زوجاً في الدنيا فيثني عليها خيراً فيقول : قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلى أنجوبِهَا مما ترين ، فتقول : ما أيسر ما طلبت ، ولكن لا أطيق إني أخاف مثل ما تخوفت ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ ﴾ يا محمد بهذه الإنذارات . والإنذار الإبلاغ مع التخويف ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ ﴾ يخافون ﴿ رَبَّهُمْ ﴾ حال كونهم ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ غائبين عن عذابه ، وأحكام الآخرة ، أو عن الناس في خلواتهم ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ ﴾ أي راعوها كما ينبغي ، وجعلوها مناراً منصوباً ، وعَلَماً مرفوعاً ، والمعنى: إنما ينفع إنذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك، دون من عداهم من أهل التمرد والفساد ، وإن كنت نذيراً للخلق كلهم ، وخص الخشية والصلاة بالذكر لأنها أصلا الأعمال الحسنة ، الظاهرية والباطنية ، أما الصلاة فإنها عماد الدين ، وأما الخشية فإنها شعار اليقين ، وفي الحديث (بين الرجل ، وبين الشرك والكفر ، تركُ الصلاة)[1] ﴿ وَمَنْ تَزَكَّى ﴾ تطهَّر من أوضار الأوزار والمعاصي بالتأثر من هذه الإنذارات ، وأصلح حاله بفعل الطاعات ﴿ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ﴾ لاقتصار نفعه عليها ، كما أن من تدنس بها لا يتدنس إلا عليها ﴿ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي الرجوع لا إلى غيره استقلالاً واشتراكاً ، فيجازيهم على تزكيهم أحسن الجزاء .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ تمثيل للكافر والمؤمن ، فإن المؤمن من أبصر طريق الفوز والنجاة وسلكه ، بخلاف الكافر ، فكما لا يستوي الأعمى والبصير ، من حيث الحس الظاهري ، إذ لا بصر للأعمى ، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن ، من حيث الإدراك الباطني ، ولا بصيرة للكافر ، بل الكافر أسوأ حالاً من الأعمى المدرك للحق ، إذ لا اعتبار بحاسة البصر ، لاشتراكها بين جميع الحيوانات ﴿ وَلا ﴾

---

(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٠ .

لتأكيد نفي الاستواء ﴿ **الظُّلُمَاتُ** ﴾ جمع ظلمة ، وهي عدم النور ﴿ **وَلاَ** ﴾ للتأكيد ﴿ **النُّورُ** ﴾ هو الضوء المنتشر المعين للأبصار ، تمثيل للباطل والحق ، فالكافر في ظلمة الكفر والشرك والجهل ، والعصيان ، والبطلان ، لا يبصر اليمين من الشمال ، فلا يرجى له الخلاص من المهالك بحال ، والمؤمن في نور التوحيد والإخلاص ، والعلم والطاعة ، بيده الشموع والأنوار ، أينما سار ، وجَمَعَ الظلمات مع أفراد النور ، لتعدد فنون الباطل، واتحاد الحق ، يعني أن الحق واحد وهو التوحيد، فالموحِّد لا يعبد إلا الله تعالى ، وأما الباطل فطرقه كثيرة ، فمن عابد للكواكب ، ومن عابد للنار ، ومن عابد للأصنام إلى غير ذلك ﴿ **ولا الظِلُّ وَلاَ الحَرُورُ** ﴾ وهو تمثيل للجنة والنار ، والثواب والعقاب ، والراحة والشدة ، والحرور الريح الحارة بالليل وقد تكون بالنهار ، والمعنى كما لا يستوي الظل والحرارة ، من حيث إن في الظل استراحة للنفس ، وفي الحرارة مشقة وألماً ، كذلك لا يستوي مالمؤمن من الجنة ، التي فيها ظل ورواحة ، وما للكافر من النار التي فيها حرارة شديدة ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ** ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الأول ، ولذلك كرر الفعل ، وأوثرت صيغة الجمع في الطرفين ، تحقيقاً للتباين بين أفراد الفريقين ، والحي ما به القوة الحسّاسة ، والميت مازال عنه ذلك ، وجه التمثيل : أن المؤمن منتفع بحياته إذ ظاهره ذكر ، وباطنه فِكر ، دون الكافر إذ ظاهره عاطل ، وباطنه باطل .

لاَ تُعْجِبَنَّ الجَهُوْلَ حُلَّتُهُ * فَإِنَّه المَيْتُ ثَوْبُهُ كَفَنُ

لأن الحياة المعتبرة هي حياة الأرواح والقلوب ، وذلك بالحكم والمعارف ، ولا عبرة بحياة الأجساد بدونها لاشتراك البهائم فيها ﴿ **إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ** ﴾ كلامه إسماع فهم واتعاظ ﴿ **مَنْ يَشَاءُ** ﴾ أن يسمعه فينتفع بإنذارك ﴿ **وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبورِ** ﴾ جمع قبر ، وهو مقر الميت ، وهذا الكلام ترشيح لتمثيل المصرّين على الكفر بالأموات ، وإشباع في إقناطه عليه السلام من إيمانهم ، شبَّه الله تعالى من طبع على قلبه بالموتى ، في عدم القدرة على الإجابة ، فكما لا يسمع أصحاب القبور ولا يجيبون ، كذلك الكفار لا يسمعون ولا يقبلون الحق ﴿ **إِنْ** ﴾ ما ﴿ **أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ** ﴾ منذر بالنار ، والعقاب ، وأما الإسماع البتة فليس من وظائفك ، ولا حيلة لك إليه في المطبوع على قلوبهم الذين هم بمنزلة الموتى ، وقوله (**إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ**) إلخ وقوله (**إِنَّك لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**) وقوله (**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ**) وغير ذلك لتمييز مقام الألوهية عن مقام النبوة ، كيلا يشتبها على الأمة فيضلوا عن سبيل الله ، كما ضل بعض الأمم السالفة ، فقال بعضهم : عزير ابن الله ، وقال بعضهم : المسيح ابن الله ، وذلك من كمال رحمته لهذه الأمة وحسن توفيقه ، فإن قلتَ : إنه عليه السلام يوم بدر أمر بطرح أجساد الكفار في القليب ثم ناداهم بأسمائهم وقال : (هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ اللهُ وَرَسُولُهُ حَقاً) فإني

وجدت ما وعدني الله حقاً ؟ فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها ؟ فقال عليه السلام : (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئاً) فهذا الخبر يقتضي أن النبي عليه السلام أسمع من في القليب وهم موتى ، وإلا فلا معنى له ؟ قلتُ : إن الله تعالى أحيا أهل القليب حينئذ ، حتى سمعوا كلام رسول الله ، توبيخاً لهم وتصغيراً ، ونقمة وحسرة ، وإلا فالميت من حيث هو ميت ليس من شأنه السماع ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ** ﴾ أرسلناك بالدين الحق الذي هو الإسلام ، أو بالقرآن ﴿ **بَشِيراً** ﴾ حال كونك بشيراً للمؤمنين بالجنة ، ﴿ **وَنَذِيراً** ﴾ منذراً للكافرين بالنار ﴿ **وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ** ﴾ أي ما من أمة من الأمم السالفة ، وأهل عصر من الأعصار الماضية ﴿ **إِلاَّ خَلاَ** ﴾ مضى ﴿ **فِيهَا** ﴾ أي في تلك الأمة ﴿ **نَذِيرٌ** ﴾ ينذرهم ، والاكتفاء بالإنذار لأنه هو المقصود الأهم من البعثة ، وفي كشف الأسرار : والآية تدل على أن كل وقت لا يخلو من حجة خبرية ، وأن أول الناس آدم ، وكان مبعوثاً إلى أولاده ، ثم لم يخل بعده زمان من صادق مبلغ عن الله ، أو آمرٍ يقوم مقامه في البلاغ والأداء حين الفترة ، وقد قال تعالى (**أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى**) أي أن لا يؤمر ولا ينهى ؟ فإن قيل : كيف يجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى (**لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ**) ؟ قلت : معنى الآية ما من أمة من الأمم الماضية إلا وقد أرسلت إليهم رسولاً ينذرهم على كفرهم ، ويبشرهم على إيمانهم ، أي سوى أمتك التي بعثناك إليهم ، يدل على ذلك قوله (**وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ**) وقوله (**لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ**) وقيل: المراد ما من أمة هلكوا بعذاب الاستئصال إلا بعد أن أقيم عليهم الحجة بإرسال الرسول بالإعذار والإنذار ، انتهى ما في كشف الأسرار ، وهذا الثاني هو الأنسب بالتوفيق بين الآيتين ﴿ **وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾ من الأمم العاتية أنبياءهم ﴿ **جَاءَتْهُمْ** ﴾ أي كذب المتقدمون وقد جاءتهم ﴿ **رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ** ﴾ أي المعجزات الظاهرة الدالة على صدق دعواهم ، وصحّةِ نبوتهم ﴿ **وَبِالزُّبُرِ** ﴾ كصحف شيث ، وإدريس ، وإبراهيم عليه السلام ، جمع زبور بمعنى المكتوب ، وكل كتاب غليظ الكتابة يقال له زبور ﴿ **وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** ﴾ أي المظهر للحق الموضح لما يحتاج إليه من الأحكام والدلائل ، والمواعظ والأمثال ، والوعد والوعيد ونحوها ، كالتوراة والإنجيل والزبور ﴿ **ثُمَّ أَخَذْتُ** ﴾ بأنواع العذاب ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ ثبتوا على الكفر ، وداوموا عليه ، ﴿ **فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** ﴾ أي إنكاري بالعقوبة وتغييري عليهم ؟ ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ الاستفهام تقريري ، والرؤية قلبية ، أي ألم تعلم ، يعني قد علمت يا محمد أو يا من يليق به الخطاب ﴿ **أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ** ﴾ بقدرته وحكمته ﴿ **مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ أي من الجهة العلوية سماء أو سحاباً ﴿ **مَاءً** ﴾ مطراً ﴿ **فَأَخْرَجْنَا بِهِ** ﴾ أي بذلك الماء . والالتفات من الغيبة إلى التكلم ، لإظهار كمال الاعتناء بفعل الإخراج لما فيه من الصنع البديع المنبىء عن كمال القدرة والحكمة ، ولأن

الرجوع إلى نون العظمة أهيب في العبارة ﴿ ثَمَرَاتٍ ﴾ جمع ثمرة ، وهي اسم لكل ما يطعم من أحمال الشجر ﴿ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ وصفٌ سببيٌّ للثمرات ، أي أجناسها من الرُّمان ، والتفاح ، والتين ، والعنب ، وغيرها ، أو أصنافها على أن كلاً منها ذو أصناف مختلفة ، كالعنب فإن أصنافه تزيد على خمسين ، وكالتمر فإن أصنافه تزيد على مائة ، أو هيئاتُها من الصفرة ، والحمرة ، والخضرة ، والبياض ، والسواد ، وغيرها ﴿ وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ ﴾ والجُدَدُ : جمع جُدَّة بمعنى الطريقة التي يخالف لونها ما يليها سواء كانت في الجبل أو في غيره ، أي ومن الجبال ما هو ذو جدد أي خطط وطرائق متلونة ، يخالف لونها لون الجبل ، فيؤول المعنى إلى أن من الجبال ما هو مختلف ألوانه ﴿ بِيضٌ ﴾ جمع أبيض ﴿ وحُمْرٌ ﴾ جمع أحمر أي للجبال عروق لونها يخالف لونها ، وكذا العكس ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ أي ألوان تلك الجدد البيض والحمر ، بالشدة والضعف ، ومن شاهد جبال ديار العرب في طريق الحج وغيرها وجد هذه الأقسام ، ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ أي ومن الجبال ذو جدد بيض ، وحمر ، وسود غرابيب ، وإنما وُسِّط الاختلاف ، لأنه عُلِم من الوصف بالغرابيب أنه ليس في الأسود اختلاف اللون بالشدة والضعف ، فالغرض من الآية إما بيان اختلاف ألوان طرائق الجبال ، كاختلاف ألوان الثمرات ، فترى الطرائق الجبلية من البعيد منها بيض ، ومنها حمر ، ومنها سود ، وإما بيان اختلاف ألوان الجبال نفسها ، وكل منها أثرٌ دال على القدرة الكاملة ، والغرابيب جمع غربيب كعفريت ، يقال : أسود غربيب أي شديد السواد الذي يشبه لون الغراب وكذا يقال أسود حالك ، كما يقال أصفر فاقع ، وأحمر قان ﴿ وَمِنَ النَّاسِ والدَّوَابِّ ﴾ جمع دابة وهي ما يدب على الأرض ، من الحيوان ، وغلب على ما يركب من الخيل ، والبغال ، والحمير ﴿ والأَنْعَامِ ﴾ جمع نَعَم وهي الإبل ، والبقر ، والضأن ، والمعز ، دون غيرها ، فالخيل والبغال والحمير خارجة عن الأنعام ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ ألوانه ، بأن يكون أبيض ، وأحمر ، وأسود ، ولم يقل هنا ألوانها لأن الضمير يعود إلى البعض الدال عليه من ﴿ كَذَلِكَ ﴾ تم الكلام هنا أي مختلف اختلافاً كاختلاف الثمار والجبال ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ وهو تكملة لقوله تعالى (إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغَيْبِ) بتعيين من يخشاه من الناس بعد بيان اختلاف طبقاتهم ، وتباين مراتبهم أي إنما يخشاه تعالى بالغيب العالمون به ، وبما يليق به من صفاته الجليلة ، وأفعاله الجميلة ، لما أن مدار الخشية معرفة المخشيِّ ، والعلم بشؤونه ، فمن كان أعلم به تعالى كان أخشى منه ، كما قال عليه السلام (أما واللهِ إني لأخشاكم لله وأتقاكم له)[1] ولذلك عقب بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته ، وحيث كان الكفرة بمعزل عن هذه المعرفة ، امتنع إنذارهم بالكلية انتهى ، ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ للخاشين ، وهو تعليل لوجوب الخشية لدلالته على أنه معاقب للمصرِّ على طغيانه ، غفور للتائب من عصيانه ، ومن

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الشيخان في قصة النفر الثلاث الذين أرادوا الزهد والعزلة .. وانظر الفتح الكبير ١ / ٢٥٠ .

حق من هذه صفته أن يخشى ، والخشية تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل ، فعلى المؤمن أن يجتهد في تحصيل العلم حتى يكون أخشى الناس ، فبقدر مراتب العلم تكون مراتب الخوف والخشية ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ** ﴾ أي يداومون على تلاوة القرآن ، ويعملون بما فيه ، إذ لا تنفع التلاوة بدون العمل ﴿ **وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ** ﴾ بآدابها وشرائطها ، وغاير بين المستقبل والماضي ، لأن أوقات التلاوة أعمُ بخلاف أوقات الصلاة ، وكذا أوقات الزكاة المدلول عليها بقوله ﴿ **وَأَنْفَقُوا** ﴾ في وجوه البر ﴿ **مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ** ﴾ أعطيناهم ﴿ **سِرّاً وَعَلاَنِيَةً** ﴾ وهي ضد السر ، أي في السر والعلانية ، كيفما أتفق من غير قصد إليهما وفيه بعث للمنفق على الصدقة في سبيل الله في عموم الأوقات والأحوال ﴿ **يَرْجُونَ تِجَارَةً** ﴾ تحصيل ثواب بالطاعة ، والتاجر الذي يبيع ويشتري ﴿ **لَنْ تَبُورَ** ﴾ البوار فرط الكساد ، والوصف بائر ، وقولهم « خذوا الطريق ولو مارت ، وتزوجوا البكر ولو بارت ، واسكنوا المدن ولو جارت » والمعنى لن تكسد ولن تهلك مطلقاً بالخسران أصلاً ، وجيء بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران ، لأنه اشتراء باق بفان ، والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين عدة قطعية بحصول مرجوهم ﴿ **لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ** ﴾ والأجر ثواب العمل ، والمعنى أنه ينتفي عنها الكساد ، وتنفق عند الله ليوفيهم بحسب أعمالهم وخلوص نياتهم أجور أعمالهم من التلاوة ، والإقامة والإنفاق ﴿ **وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ** ﴾ أي جوده وتفضله وخزائن رحمته ما يشاء ، مما لم يخطر على بالهم عند العمل ، ولم يستحقوا له بل هو كرم محض ، ومن فضله يوم القيامة نصبهم في مقام الشفاعة ، ليشفعوا فيمن وجبت لهم النار من الأقرباء وغيرهم ﴿ **إِنَّهُ غَفُورٌ** ﴾ تعليل لما قبله من التوفية والزيادة أي غفور لفرطاتهم ﴿ **شَكُورٌ** ﴾ لطاعاتهم أي مجازيهم عليها ومثيب ﴿ **وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ** ﴾ وهو القرآن ﴿ **هُوَ الحَقُّ** ﴾ الصدق لا كذب فيه ولا شك ﴿ **مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** ﴾ أي حال كونه موافقاً لما قبله من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء في العقائد وأصول الأحكام ﴿ **إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ** ﴾ أي محيط ببواطن أمورهم وظواهرها ، فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة ، لم يوح إليكَ مثل هذا الحق المعجز ، الذي هو حاكم على سائر الكتب يعرف صدقها منه ﴿ **ثُمَّ** ﴾ للترتيب والتأخير ، أي بعدما أوحينا إليك أو بعد كتب الأولين كما دل ما قبله على كل منهما ﴿ **أَوْرَثْنَا الكِتَابَ** ﴾ أي ملكنا بعظمتنا ملكاً تاماً ، وأعطينا هذا القرآن عطاء لا رجوع ﴿ **الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبادِنَا** ﴾ الاصطفاء في الأصل تناول صفو الشيء والله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم ، كما اصطفى رسولهم على جميع الرسل ، وكتابهم على كل الكتب ، وهذا الإيراث للمجموع لا يقتضي الاختصاص بمن يحفظ جميع القرآن ، بل يشمل من يحفظ منه جزأ ، والورثة ههنا ثلاثة أصناف ، كما قال تعالى ﴿ **فَمِنْهُمْ** ﴾ أي من الذين اصطفينا من عبادنا ﴿ **ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ** ﴾ في العمل بالكتاب ، وهو المرجأ لأمر الله أي الموقوف أمره لأمر الله ، إما يعذبه وإما يتوب

عليه ، وذلك لأنه ليس من ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته ، لقوله تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا) الآية ، ولا من ضرورة الاصطفاء المنع عن الوصف بالظلم ، واعلم أن الظلم ثلاثة : ظلم بين الإنسان وبين الله ، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق ، وظلم بينه وبين الناس ، وظلم بينه وبين نفسه ، وهو المراد بما في الآية كما في المفردات قال بعضهم : قدَّم الظالم لكثرة الفاسقين ، ولأن الظلم بمعنى الجهل والركون إلى الهوى مقتضى الجِبلَّة ، وقال أبو الليث : الحكمة في تقديم الظالم وتأخير السابق كي لا يعجب السابق بنفسه ، ولا ييأس الظالم من رحمة الله ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ يعمل بالكتاب في أغلب الأوقات ، ولا يخلو من خلط الشيء ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ ﴾ أصل السبق التقدم في السير ، ويستعار لإحراز الفضل ، فالمعنى متقدم إلى ثواب الله وجنته ورحمته ﴿ بِالخَيْرَاتِ ﴾ بالأعمال الصالحة وعن جعفر الصادق رضي الله عنه بدأ بالظالمين إخباراً أنه لا يتقرب إليه إلا بكرمه ، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفاء ، ثم ثنّى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء ، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مَكرَه ، وكلهم في الجنة بحرمة كلمة الإخلاص ، وقد روي أن عمر رضي الله عنه قال على المنبر قال رسول الله ﷺ (سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له)[1] وقال أبو بكر بن الوراق : رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس، لأن أحوال العبد ثلاث ، معصية ، ثم توبة ، ثم قربة ، فإذا عصى دخل في حيز الظالمين ، وإذا تاب دخل في جملة المقتصدين ، وإذا صحت التوبة وكثرة العبادة والمجاهدة ، دخل في عداد السابقين ﴿ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ والظاهر تعلقه بالسابق كما ذهب إليه أجلاء المفسرين ، على معنى بتيسيره ، وتوفيقه ، وتمكينه من فعل الخير ، لا باستقلاله ﴿ ذَلِكَ ﴾ السبق بالخيرات ﴿ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ ﴾ من الله الكبير ، لا يُنال إلا بتوفيقه، أو ذلك الإيراث والاختيار فضلٌ لأن القرآن أفضل الكتب الإلهية ، وهذه الأمة المرحومة أفضل جميع الأمم السالفة ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ يقال عَدَنَ بمكان كذا إذا استقر ، أي بساتين استقرار وثبات ، وإقامة بلا رحيل ، لأنه لا سبب للرحيل عنها ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ جمع الضمير لأن المراد بالسابق الجنس ، وتخصيص حال السابقين وما لهم بالذكر ، والسكوت عن الفريقين الآخرين ، وإن لم يدل على حرمانها من دخول الجنة مطلقاً ، لكن فيه تحذير لهما من التقصير ، وتحريض على السعي في إدراك شئون السابقين ، قال أبو الليث : في تفسير أول الآية وآخرها دليل على أن الأصناف الثلاثة كلهم مؤمنون ، فأما أول الآية فقوله (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ) فأخبر أنه أعطى الكتاب لهؤلاء الثلاثة ، وأما آخر الآية فقوله (يَدْخُلُونَهَا) إذ لم يقل يدخلانها ، ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ أي يلبسون على سبيل التزين والتحلي نساءً ورجالاً ﴿ فِيهَا ﴾ أي في تلك الجنات ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ وأساور جمع أسورة وهو جمع سوار والمعنى يُحلون بعض

(١) أخرجه العقيلي وابن مردويه والبيهقي ، وانظر الدر المنثور ٥ / ٢٥٢ .

أساور من ذهب ، قيل : يجمع لهم الذهب والفضة جميعاً وهو أجمل ، أو بعضهم يُحلَّون بالذهب وهم المقربون ، وبعضهم يُحلّون بالفضة وهم الأبرار ﴿ وَلُؤْلُؤاً ﴾ واللؤلؤ الدرّ ، سمى بذلك لتلألئه ولمعانه ، والمعنى ويحلون لؤلؤا أي من ذهب مرصع باللؤلؤ ، ومن ذهب في صفاء اللؤلؤ ، وذلك لأنه لم يعهد الأسورة من نفس اللؤلؤ ، إلا أن تكون بطريق النظم في السلك ، وقال في بحر العلوم : يسورون بالجنسين أساور من ذهب ، ومن لؤلؤ ، وذلك على الله يسير ، وكم من أمر من أمور الآخرة يخالف أمور الدنيا ، وهذا منها ، ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ لا كحرير الدنيا فإنه لا يوجد من معناه في الدنيا إلا الاسم ، واللباس اسم ما يلبس ، والحرير من الثياب مارَقّ ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي ويقولون عند دخول الجنة حمداً لربهم عل ما صنع بهم ، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿ الْحَمْدُ للهِ ﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال لمن له تمام القدرة ﴿ الَّذِي أَذْهَبَ ﴾ أزال ﴿ عَنَّا ﴾ بدخولنا الجنة ﴿ الْحَزَنَ ﴾ الحزن بفتحتين والحزن بالضم والسكون واحد وهو خشونة الأرض ، وخشونة في النفس ، لما يحصل فيه من الغمّ ، ويضاده الفرح ، وفي الحديث (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ، ولا في محشرهم ولا في منشرهم ، وكأني بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم ينفضون التراب عن وجوههم ويقولون « الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن »)[1] ﴿ إِنَّ رَبَّنَا ﴾ المحسن إلينا مع إساءتنا ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ للمذنبين ، فيبالغ في ستر ذنوبهم الفائتة ﴿ شَكُورٌ ﴾ للمطيعين فيبالغ في إثابتهم ، فإن الشكر من الله الإثابة ، والجزاء الوفاق ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا ﴾ أنزلنا ﴿ دَارَ الْمُقَامَةِ ﴾ أي دار الإقامة التي لا انتقال عنها أبداً ، فلا يريد النازل بها ارتحالاً منها ، ولا يراد به ذلك ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي من إنعامه وتفضله ، من غير أن يوجبه شيء من قبلنا من الأعمال ، فإن الحسنات فضل منه أيضاً ، فلا واجب عليه ، وذلك أن دخول الجنة بالفضل والرحمة ، واقتسام الدرجات بالأعمال والحسنات ﴿ لاَ يَمَسُّنَا ﴾ المس كاللمس ، وقد يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى ﴿ فِيهَا ﴾ أي في دار الإقامة في وقت من الأوقات ﴿ نَصَبٌ ﴾ تعب بدن ، ولا وجع كما في الدنيا ﴿ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ كلال وفتور ، إذ لا تكليف فيها ولا كدّ ، والفرق بين النصب واللغوب أن النصب نفس المشقة والكلفة ، واللغوب ما يحدث منه من الفتور للجوارح ، قال أبو حيان : هو لازم من تعب البدن ، فهي الجديرة لعمري بأن يقال فيها :

عَلْيـاءُ لا تنزِلُ الأَحْزَانُ سَاحَتَهـا * لـو مَسَّهـا حَجَرٌ مَسَّتْـهُ سَرَّاءُ

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ جحدوا بوجود الله تعالى ، أو بوحدته ﴿ لَهُمْ ﴾ بمقابلة كفرهم الذي هو أكبر الكبائر ، وأقبح القبائح ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ التي لا تشبه ناراً ﴿ لاَ يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ لا يحكم عليهم بموت

(١) أخرجه الطبراني عن ابن عمر مرفوعاً ، ورواه ابن أبي حاتم بلفظ « وحشة في قبورهم ولا نشورهم » وانظر مختصر ابن كثير ٣ / ١٤٩

ثان ﴿ فَيَموتُوا ﴾ ويستريحوا من العذاب ﴿ ولا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِها ﴾ طرفة عين ، بل كلما خبت زيد استعارها ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل هذا الجزاء الفظيع ﴿ نَجْزِي كُلَّ كَفورٍ ﴾ مبالغ في الكفر ، أو في الكفران ، لا جزاء أخف وأدنى منه ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الكفار ﴿ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ يستغيثون والاصطراخ من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدة ﴿ رَبَّنَا ﴾ يقولون ربنا ﴿ أَخْرِجْنَا ﴾ من النار ، وخلصنا من عذابها ، وردّنا إلى الدنيا ﴿ نَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ أي نؤمن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية ، وذلك لأن قبول الأعمال مبني على الإيمان ﴿ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ قيدوا العمل الصالح بهذا الوصف ، إشعاراً بأنهم كانوا يحسبون ما فعلوه صالحاً ، والآن تبين خلافه ، إذ كان هوى وطبعاً ومخالفة ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ جواب من جهته تعالى ، وتوبيخ لهم ، والعمر اسم لمدة عمارة البدن ، بالحياة ، والمعنى ألم نعطكم مهلة ، ولم نعمركم عمراً ، أو زمناً يتذكر فيه من تذكر ؟ ومعنى يتذكر فيه أي يتمكن فيه المتذكر من التذكر والتفكر لشأنه ، وإصلاح حاله وإن قصر ، وفي الحديث (أعذر الله إلى امرىء أخَّر أجله حتى بلغ ستين سنة)[1] أي أزال عذره ، ولم يُبْقِ منه موضعاً للإعتذار ، حيث أمهله طول هذه المدة ولم يعتذر ، ولعل سر تعيين الستين ما قال عليه السلام (أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك)[2] ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ المراد بالنذير رسول الله ﷺ ، وعليه الجمهور أو ما معه من القرآن ﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ على أنفسهم بالكفر والشرك ﴿ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ يدفع العذاب عنهم ، وفيه إشارة إلى أنهم كانوا في الدنيا نائمين ، ولذا لم يذوقوا الألم ، فلما ماتوا وبعثوا ، تيقظوا تيقظاً تاماً ، فذاقوا العذاب ﴿ إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمٰواتِ والأَرْضِ ﴾ أي يختص بالله علم كل شيء فيهما غاب عن العباد ، وخفي عليهم ، فكيف يخفى عليه أحوالهم ؟ ﴿ إِنَّهُ ﴾ تعالى ﴿ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ والمعنى عليم بالمضمرات صاحبة الصدور أي القلوب ﴿ هُوَ ﴾ أي الله تعالى ، ﴿ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ ﴾ جمع خليفة بمعنى المستخلف ، أي جعلكم خلفاء في أرضه ، وألقى إليكم مقاليد التصرف فيها ، وسلطكم على ما فيها ، وأباح لكم منافعها ، أو جعلكم خلفاء ممن كان قبلكم من الأمم ، وأورثكم ما بأيديهم من متاع الدنيا ، لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿ فَمَنْ كَفَرَ ﴾ منكم نعمة الخلافة ، بأن يخالف أمر مستخْلِفه ، ولا ينقاد لأحكامه ، ويَتَّبِع هواه ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي وبال كفره ، وجزاؤه ، وهو الطرد ، واللعن ، والنار ، لا يتعداه إلى غيره ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً ﴾ قال الراغب : المقت البغض الشديد لمن يراه متعاطياً لقبيح ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً ﴾ والتكرير لزيادة التقرير ، والتنبيه على أن اقتضاء الكفر ، لكل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، وانظر الفتح الكبير ١ / ١٩٧ .

(٢) أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٢٠٢ .

واحد من الأمرين الهائلين القبيحين بطريق الاستقلال والأصالة . والتنكير للتعظيم أي مقتاً عظيماً ليس وراءه خزي ، وصغار ، وخساراً عظيماً ليس بعده شر ، وتبار ﴿ **قُلْ** ﴾ تبكيتاً لهم ﴿ **أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ** ﴾ أي آلهتكم وأصنامكم ، والإضافة إليهم حيث لم يقل شركائي لأنهم جعلوهم شركاء الله وزعموا ذلك من غير أن يكون له أصل مّا أصلاً ﴿ **الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ أي حال كونكم متجاوزين دعاء الله ، وعبادته ﴿ **أَرُونِي** ﴾ أخبروني وذلك لأن الرؤية ، والعلم سبب الأخبار ، فاستعمل الإراءة في الأخبار كأنه قيل : أخبروني عن شركائكم أروني ﴿ **مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ** ﴾ أيَّ جزء من أجزاء الأرض استبدّوا بخلقه دون الله ، والمراد من الاستفهام نفي ذلك ﴿ **أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوٰتِ** ﴾ شركة مع الله في خلق السموات ، ليستحقوا بذلك شركة في الألوهية ذاتية .

﴿ **أَمْ آتَيْنَاهُمْ** ﴾ أي الشركاء ﴿ **كِتاباً** ﴾ ينطق بأنا اتخذناهم شركاء ﴿ **فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ** ﴾ أي حجة ظاهرة من ذلك الكتاب ، بأن لهم شركة جعلية ، ولما نفى أنواع الحجج في ذلك أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه ، وهو التقرير فقال ﴿ **بَلْ إِن** ﴾ نافية أي ما ﴿ **يَعِدُ الظَّالِمونَ بَعْضُهُمْ بعْضاً إِلاَّ غُروراً** ﴾ أي باطلاً لا أصل له ، وهو قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وهو تغرير محض ، يسفه بذلك آراءهم ، وينبئهم على ذميم أحوالهم وأفعالهم ، ونقصان عقولهم ، بإعراضهم عن الله ، وإقبالهم على ما سواه ، فعلى العاقل أن يصحح التوحيد ويحققه ، ولا يرى الفاعل والخالق إلا الله ﴿ **إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضَ** ﴾ أي يحفظهما بقدرته ، ﴿ **أَنْ تَزُولاَ** ﴾ الزوال الذهاب ، أي كراهة زوالهما عن أماكنهما ﴿ **وَلَئِنْ زَالَتَا** ﴾ أي والله لئن زالت السموات والأرض عن مقرهما ، ومركزهما ، بتخليتهما كما يكون يوم القيامة ﴿ **إِنْ أَمْسَكَهُمَا** ﴾ أي ما قدر على إعادتهما إلى مكانهما ﴿ **مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ أي من بعد إمساكه تعالى ﴿ **إِنَّه** ﴾ سبحانه ﴿ **كَانَ حَلِيماً** ﴾ غير معاجل بالعقوبة التي تستوجبها جنايات الكفار ، حيث أمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدّا هدّاً لعظم كلمة الشرك ﴿ **غَفُوراً** ﴾ لمن رجع عن كلمة الكفر ، والحلمُ : ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب أي يفعل بعباده فعل من يحلم على المسيء ، قال الإمام الغزالي رحمه الله : الحليم هو الذي يشاهد معصية العصاة ، ويرى مخالفة الأمر ، ثم لا يستفزه غضب ولا يعتريه غيظ ، ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام ، مع غاية الاقتدار ، ا هـ ، ﴿ **وَأَقْسَموا بِاللهِ** ﴾ أقسم حلف والضمير لمشركي مكة ﴿ **جَهْدَ أَيْمٰنِهِمْ** ﴾ أي جاهدين في أيمانهم ، والجُهْدُ : الطاقة والمشقة ، قال الراغب : أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم ، وكان أهل الجاهلية يحلفون بآبائهم ، وبالأصنام ، وبغير ذلك ، وكانوا يحلفون بالله ويسمّونه جهد اليمين وهي اليمين المغلظة كما قال النابغة :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً * وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلمَرْءِ مَطْلَبُ

أي كما أن الله تعالى أعلى المطالب ، كذلك الحلف به أعلى الأحلاف ، روي أن قريشاً بلغهم قبل مبعث رسول الله ﷺ ، أن أهل الكتاب كذَّبوا رسلهم ، فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى ، أتتهم الرسل فكذبوهم ، وحلفوا ﴿ **لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ** ﴾ أي والله لئن جاء قريشاً نبي منذر ﴿ **لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ** ﴾ أطوع وأصوب ديناً ﴿ **مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ** ﴾ أي من كل من اليهود ، والنصارى ، وغيرهم ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ** ﴾ وأيُّ نذير ؟ أفضل الكلّ ، وأشرف الأنبياء والرسل عليهم السلام ﴿ **مَا زَادَهُمْ** ﴾ أي النذير ، أو مجيئه على التسبب ﴿ **إِلاَّ نُفُوراً** ﴾ تباعداً عن الحق ، والهدى ﴿ **اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ** ﴾ يعني عتواً على الله ، وتكبراً عن الإيمان به ، قال في بحر العلوم : الاستكبار التكبر كالاستعظام والتعظم ، لفظاً ومعنى ، انتهى ، قال بعض الكبار : إن الله تعالى قد أنشأك من الأرض ، فلا ينبغي لك أن تعلو على أمك ﴿ **وَمَكْرَ السَّيِّءِ** ﴾ المكرُ : صرف الغير عما يقصده بحيلة ، وذلك ضربان : محمود وهو أن يتحرى بذلك فعل جميل وعلى ذلك قوله (**وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ**) ومذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح ، ومنه الآية ولذا وصف بالسيء ، والمعنى ما زادهم إلا المكر السيء في دفع أمره عليه السلام ، بل وفي قتله وإهلاكه ﴿ **وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ** ﴾ والمعنى ولا يحيط المكر السيء إلا بأهله ، وهو الماكر ، وقد حاق بهم يوم بدر ، وعن بعض السلف قوله « لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً فإن الله يقول (**وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ**) ولا تبغوا ولا تعينوا باغياً فإن الله يقول (**إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ**) وأما قوله عليه السلام (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) فمعناه بالنسبة إلى نصرة الظالم ، أن تنصره على إبليس الذي يوسوس في صدره ، فتعينه على ردِّ ما وسوس إليه الشيطان من ذلك ، والمكرُ والخديعةُ من أخلاق الكفار لا من أخلاق المؤمنين الأخيار ، وفي أمثالهم « من حفر لأخيه جُبّاً وقع فيه منكبّاً » فلا يصيب الشر إلا أهل الشر ﴿ **فَهَلْ يَنْظُرُونَ** ﴾ النظر هنا بمعنى الانتظار ، أي ، ينتظرون ﴿ **إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ** ﴾ أي سنة الله في الأمم المتقدمة بتعذيب مكذبيهم وماكريهم ، والسنة الطريقة ، وسنة النبي طريقته التي كان يتحراها ، وسنة الله طريقة حكمته ﴿ **فَلَنْ** ﴾ الفاء لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب من مجيئه ﴿ **تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً** ﴾ بأن يضع موضع العذاب غير العذاب ، وهو الرحمة والعفو ﴿ **وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً** ﴾ بأن ينقله من المكذبين إلى غيرهم ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيروا فِي الأَرْضِ** ﴾ أي أقَعَدَ مشركو مكة في مساكنهم ، ولم يسيروا ولم يمضوا في الأرض ، إلى جانب الشام واليمن للتجارة ؟ ﴿ **فَيَنْظُروا** ﴾ بمشاهدة آثار ديار الأمم الماضية العاتية ﴿ **كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ** ﴾ جاؤا ﴿ **مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾ أي هلكوا لما كذبوا الرسل ، وآثار هلاكهم باقية في ديارهم ﴿ **وَكَانُوا** ﴾ أي والحال الذين من قبلهم ، كعاد وثمود ، وسبأ ، كانوا ﴿ **أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً** ﴾ وأطول أعماراً فما نفعهم طول المدى ، وما أغنى عنهم شدّة القوى ﴿ **وما كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ والمعنى استحال من كل

الوجوه أن يعجز الله تعالى شيء ، ويسبقه ويفوته ﴿ **فِي السَّمواتِ وَلا** ﴾ تأكيد آخر لما النافية ، ففي هذا الكلام ثلاثة تأكيدات ﴿ **فِي الأَرْضِ** ﴾ أي كائن في الأرض من البشر وغيرهم ﴿ **إِنَّهُ كانَ عَلِيماً** ﴾ بليغ العلم بكل شيء في العالم ، مما وُجد ويوجد ﴿ **قَدِيراً** ﴾ بليغ القدرة على كل ممكن ، ولذلك علم بجميع أعمالهم السيئة فعاقبهم بموجبها ، فمن كان قادراً على معاقبة من قبلهم كان قادراً على معاقبتهم ، إذا كانت أعمالهم مثل أعمالهم ، والآية وعظ من الله تعالى ليعتبروا ، واعلم أن الله تعالى أمهل عباده ، ولم يأخذهم بغتة ، ليروا أن العفو والإحسان ، أحبُّ إليه من الأخذ والانتقام ، وليعلموا شفقته وبره وكرمه ، وأن رحمته سبقت غضبه ، ثم إنهم إذا لم يعرفوا الفضل من العدل ، واللطف من القهر ، والجمال من الجلال ، أخذهم في الدنيا والآخرة بأنواع البلاء والعذاب ، وهي تطهير في حق المؤمن ، وعقوبة محضة في حق الكافر ، لأنه ليس من أهل التطهير ، إذ التطهير إنما يتعلق بلوث المعاصي غير الكفر ، عصمنا الله وإياكم مما يوجب سخطه وعذابه وعقابه ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ** ﴾ جميعاً ﴿ **بِمَا كَسَبوا** ﴾ من المعاصي ﴿ **ما تَرَكَ عَلَى ظَهْرِها** ﴾ الكناية راجعة إلى الأرض ، وإن لم يسبق ذكرها لكونها مفهومة من المقام ﴿ **مِنْ دَابَّةٍ** ﴾ من نسمة تدب عليها من بني آدم ، لأنهم المكلفون المجازون ، ويعضده ما بعد الآية ، أو من غيرهم أيضاً ، فإن شؤم معاصي المكلفين يلحق الدواب في الصحارى ، والطيور في الهواء ، بالقحط ونحوه ، وقد أهلك الله في زمان نوح عليه السلام جميع الحيوانات إلا ما كان منها في السفينة ، وذلك بشؤم المشركين وسببهم ، وقال بعض الأئمة : ليس معناه أن البهيمة تؤخذ بذنب ابن آدم ، ولكنها خلقت لابن آدم فلا معنى لإبقائها بعد إفناء من خلقت له ﴿ **وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمىً** ﴾ وقتٍ معيَّن معلوم عند الله ، وهو يوم القيامة ﴿ **فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً** ﴾ فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ففي الآية بيان حلمه تعالى ، وإرشاد للعباد إلى الحلم ، فإن الحلم حجاب الآفات ، وملح الأخلاق ، ثم إن الحلم لابد وأن يكون في محله كما قيل :

أَرَى الحِلْمَ في بَعْضِ المَوَاضِعِ ذِلَّةً * وفي بَعْضِهَا عِزّاً يَسُوِّدُ فَاعِلَه

نسأل الله سبحانه أن يفتح بصيرتنا إلى جانب الملكوت ، ويحلم عنا باسمه الحليم ، ويختم لنا بالخير ويجعلنا ممن أتى اللهَ بقلب سليم .

انتهى بعونه تعالى سورة فاطر

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسٓ ﴾ اسم للسورة وعليه الأكثر ، فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هذه يسٓ ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما وهو قول كثير منهم أن معنى (يس) يا إنسان في لغة طي ، على أن المراد به رسول الله عليه السلام ، وعن ابن الحنفية معناه يا محمد دليله قوله بعده (**إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**) وذهب قوم إلى أن الله تعالى لم يجعل لأحد سبيلاً إلى إدراك معاني الحروف المقطعة في أوائل السور ، وقالوا : إن الله تعالى متفرد بعلمها ، ونحن نؤمن بأنها من جملة القرآن العظيم ، ونكل علمها إليه تعالى ، ونقرأها تعبداً وامتثالاً لأمر الله وتعظيماً لكلامه ، وإن لم نفهم منها ما نفهمه من سائر الآيات[1] ﴿ **والْقُرْآنِ الحَكِيمِ** ﴾ أي المحكم من التناقض والعيب ، ومن التغير بوجه ما ، كما قال تعالى (**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**) وهو الذي أحكم نظمه وأسلوبه ، وأتقن معناه وفحواه ، أوْدِي الحكمة أي المتضمن لها ، والمشتمل عليها ، فإنه منبع كل حكمة ، ومعدن كل عظة ﴿ **إِنَّكَ** ﴾ يا أكمل الرسل ، وأفضل الكل ؛ وهو مخاطبة المواجهة بعد شرف القسَم بنفسه ﴿ **لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ جواب للقسم ، والجملة لرد إنكار الكفرة بقولهم في حقه عليه السلام : لستَ مرسلاً ، وما أرسل الله إلينا رسولاً ، وهذه الشهادة منه تعالى من جملة ما أشير إليه بقوله تعالى (**قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بيني وبَيْنَكُمْ**) ولم يقسم الله لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلاَّ له ، قال في إنسان العيون : من خصائصه عليه السلام أن الله تعالى أقسم على رسالته بقوله (**يسٓ وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**) ﴿ **عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ خبر آخر ، أي متمكنٌ على توحيد وشرائع ، موصلة إلى الجنة والقربة والرضى ، فإن قلت أي حاجة إلى قوله على (**صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**) ومن المعلوم أن الرسل لا يكونون إلا على صراط مستقيم ؟ قلت : فائدته وصف الشرع بالاستقامة صريحاً وأن دل عليه (**لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**) التزاماً ، فجمع بين الوصفين في نظام واحد ، كأنه قال : إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت ، وقد نكَّره للتفخيم ﴿ **تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ** ﴾ نصب على المدح ، أعني بالقرآن الحكيم تنزيل العزيز الرحيم ، عبر به عن القرآن ، لكمال عراقته في كونه منزلاً من عند الله تعالى ، كأنه نفس التنزيل ، نزل من عند الله العزيز ، أي الغني عن عباده ، الرحيم بهم ، وقد اقتضت رحمتهُ إنزال هذا الكتاب العظيم ﴿ **لِتُنْذِرَ** ﴾ أي لتخوّف بالقرآن ﴿ **قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ** ﴾ المعنى لتنذر قوماً لم ينذر آباؤهم الأقربون ، لتطاول مدة الفترة ، ولم يكونوا من أهل الكتاب ، ويؤيده قوله تعالى (**وَمَا أَرْسَلْنَا**

---

(١) الراجح عند المحققين أن هذه الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وأنه منظومٌ من أمثال هذه الحروف ، وإليه ذهب الحافظ ابن كثير والزمخشري وغيرهما .

إليهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذيرٍ) يعني العرب وقوله (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ) إلى قوله (وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ) فآباؤهم الأقدمون أتاهم النذير ، بخلاف آبائهم الأدنين وهم قريش ، قال تعالى (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا القَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ) ﴿ فَهُمْ غَافِلونَ ﴾ أي لم ينذر آباؤهم فهم جميعاً لأجله غافلون عن الإيمان ، وحجج التوحيد ، وأدلة البعث لامتداد المدة ﴿ لَقَدْ ﴾ أي والله لقد ﴿ حَقَّ القَوْلُ ﴾ وجب وتحقّق ﴿ عَلى أَكْثَرِهِمْ ﴾ أي أكثر القوم الذين تنذرهم ، وهم أهل مكة ﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي بإنذارك إياهم واختلفوا فقال بعضهم (القَوْلُ) حكم الله تعالى أنهم من أهل النار ، وقال بعضهم (القَوْلُ) كناية عن العذاب أي وجب على أكثرهم العذاب ، والجمهور على أن المراد به قوله تعالى لإبليس ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) وهو المعنيّ بقوله (ولَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ عَلى الكَافِرِينَ) وهذا القول لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم ما يقتضيه ، بل بسبب إصرارهم الاختياري على الكفر ، وعدم تأثرهم من التذكير والإنذار ﴿ إِنَّا ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿ جَعَلْنَا ﴾ خلقنا أو صيّرنا ﴿ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ جمع عنق والضمير إلى أكثر أهل مكة ﴿ أَغْلاَلاً ﴾ عظيمة ثقالاً جمع غُلّ بالضم ، وهو ما يُشدُّ به اليد إلى العنق للتعذيب ، من الحديد أو غيره ، وقال القهستاني : الغل الطوق من حديد الجامع لليد إلى العنق المانع عن تحرك الرأس ، ﴿ فَهِيَ إِلى الأَذْقَانِ ﴾ الأذقان جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين أي فالأغلال منتهية إلى أذقانهم ، بحيث لا يتمكن المغلول معها من تحرك الرأس والالتفات ﴿ فَهُمْ مُقْمَحونَ ﴾ رافعون رؤسهم ، غاضون أبصارهم ، فإن الإقماح رفع الرأس إلى فوق مع غض البصر ، قال بعضهم : لفظ الآية وإن كان ماضياً ، لكنه إشارة إلى ما يُفعل بهم في الآخرة ، كقوله تعالى (وَجَعَلْنا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا) الآية ، والجمهور على أن الآية تمثيلٌ لحال الأكثر ، في تصميمهم على الكفر ، وعدم التفاتهم إلى الحق بحال الذين غُلّت أعناقهم ، فوصلت الأغلال إلى أذقانهم ، وبقوا رافعين رؤسهم ، غاضين أبصارهم ، فهم لا يكادون يرون الحق ، أو ينظرون إلى جهته ، قوله « فهم مقمحون » تشبيه بحال البعير ﴿ وَجَعَلْنا ﴾ أي خلقنا لهم من كال غضبنا عليهم وصيَّرنا ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ تمثيلٌ آخر ، والتقدير غطينا أبصارهم وجعلنا عليها غشاوة ، وهو ما يغشى به الشيء ﴿ فَهُمْ لا يُبْصِرونَ ﴾ أي وجعلنا مع ما ذكر من أمامهم سدّاً عظيماً ، ومن ورائهم سدّاً كذلك ، فغطينا بها أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يقدرون على إبصار شيءٍ ما أصلاً ، فإن ما ذكر من جعلهم محصورين بين سدين هائلين قد غطينا بها أبصارهم كاف في الكشف عن فظاعة حالهم ، وكونهم محبوسين في مطمورة الغي ، والجهالات ، محرومين من النظر في الأدلة والآيات ، قال الإمام : المانع من النظر في الآيات والدلائل قسمان : قسم

يمنع من النظر في الآيات التي في أنفسهم ، فشبه ذلك بالغل الذي يجعل صاحبه مقمحاً لا يرى نفسه ولا يقع بصره على بدنه ، وقسم يمنع من النظر في آيات الآفاق ، فشبّه بالسد المحيط ، فإن المحاط بالسد لا يقع نظره على الآفاق ، فلا تتبين له الآيات التي في الآفاق ، كما أن المقمح لا تتبين له الآيات التي في الأنفس ، فمن ابتُلِيَ بها حرم من النظر بالكلية ، لأن الدلائل والآيات مع كثرتها منحصرة فيهما ، كما قال تعالى (**سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وفِي أَنْفُسِهِمْ**) وقوله تعالى (**إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْنَاقِهِمْ**) مع قوله (**وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ**) الخ ، إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله تعالى في الأنفس والآفاق وقال في إنسان العيون : لما خرج عليه السلام من بيته الشريف أخذ حفنة من تراب ونثره على رؤس القوم عند الباب وتلا (**يس والقُرْآنِ الحكيمِ**) إلى قوله (**فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**) فأخذ الله تعالى أبصارهم عنه عليه السلام فلم يبصروه ﴿ **وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ** ﴾ أي مستو عند أكثر أهل مكة إنذارك إياهم وعدمه ﴿ **لا يُؤْمِنونَ** ﴾ وهو استئناف مؤكدٌ لما قبله ، أي من أضله الله هذا الضلال لم ينفعه الإنذار ، ذكر أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله دعا « غيلان القَرَري » فقال : يا غيلان بلغني أنك تتكلم في القَدَر ، فقال يا أمير المؤمنين إنهم يكذبون عليَّ ، قال يا غيلان : اقرأ أول سورة يسّ إلى قوله (**أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**) فقال غيلان يا أمير المؤمنين والله لكأني لم أقرأها قط قبل اليوم ، أشهدك يا أمير المؤمنين أني تائب مما كنت أتكلم به في القَدَر ، فقال عمر بن عبد العزيز : اللهم إن كان صادقاً فتب عليه وثبته ، وإن كان كاذباً فسلّطْ عليه من لا يرحمه ، واجعله آية للمؤمنين ، قال : فأخذه هشام بن عبد الملك فقطع يديه ورجليه ، قال بعضهم : أنا رأيته مصلوباً على باب دمشق ، دلت الحكاية على أن القدرية هم الذين يزعمون أن كل عبدٍ خَالِقٌ لفعله ، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى ، وقال الإمام المطرزي : والقدرية هم الفرقة المجبرة الذين يثبتون كل الأمر بقدر الله ، وينسبون القبائح إليه ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، ولما بين كون الإنذار عندهم كعدمه ، عقّبه ببيان من يتأثر منه فقيل ﴿ **إِنَّما تُنْذِرُ** ﴾ أي ما ينفع إنذارك إلاّ ﴿ **مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ** ﴾ أي القرآن بالتأمل فيه ، أو الوعظ والتذكير ، ولم يصر على اتّباع خطوات الشيطان ﴿ **وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ** ﴾ أي خاف عقابه تعالى ، والحال أنه غائب عن العقاب أو حال كونه غائباً عن عيون الناس في خلوته ، ولم يغتر برحمته ، فإنه منتقم قهار ، كما أنه رحيم غفار ، وكيف يؤمن سخطه وعذابه بعد أن قال (**إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ غَيرُ مَأْمونٍ**) ؟ ، ﴿ **فَبَشِّرْهُ** ﴾ أي من اتبعَ وخشي ﴿ **بِمَغْفِرَةٍ** ﴾ عظيمة لذنوبه ﴿ **وأَجْرٍ كريمٍ** ﴾ حسن مرضي لأعماله الصالحة ، وهو الجنة وما فيها ، مما أعده الله لعباده الجامعين بين اتباع ذكره وخشيته ، فالتأمل في القرآن ، أو التأثر من الوعظ ، يؤدي إلى الإيمان المؤدي إلى المغفرة ، لأن الله تعالى يغفر ما دون الشرك لمن يشاء ، والخشية تؤدي إلى الحسنات المؤدية إلى الأجر الكريم ، لأنه

تعالى قال (جَزاءً بما كَانُوا يَعْمَلونَ) ﴿ إنَّا ﴾ من مقام كال قدرتنا ، والجمع للتعظيم ﴿ نَحْنُ ﴾ كرر الضمير لتكرير التأكيد ﴿ نُحْيِي المَوْتىٰ ﴾ نبعثهم بعد مماتهم ، ونجزيهم على حسب أعمالهم ، فيظهر حينئذ كال الإكرام والانتقام للمبشرين ، والمنذرين من الأنام ، والإحياء جعل الشيء حيّاً ذا حسّ وحركة والميت من أُخْرِجَ روحُه ﴿ وَنَكْتُبُ ﴾ أي نحفظ ، ونثبت في اللوح المحفوظ ، يدل عليه آخر الآية ، أو يكتب رسلنا وهم الكرام الكاتبون ﴿ مَا قَدَّمُوا ﴾ أي أسلفوا من خير وشر ، وإنما أخر الكتابة مع أنها مقدمة على الإحياء لأنها ليست مقصودة لذاتها ، وإنما تكون مقصودة لأمر الأحياء ، ولولا الإحياء والإعادة لما ظهر للكتابة فائدة أصلاً ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ أثر الشيء حصول ما يدل على وجوده ، أي آثارهم التي أبقوها من الحسنات ، كعلم علَّموه ، أو كتاب ألفوه ، أو حبيس وقفوه ، أو بناء شيء من المساجد ، وغير ذلك من وجوه البرّ ، وقال بعض المفسرين : هي آثار المشّائين إلى المساجد ، ولعل المراد أنها من جملة الآثار ، رُوي أن جماعة من الصحابة من بني سلمة بعدت دورهم عن المسجد النبوي ، فأرادوا النقلة إلى جوار المسجد ، فقال لهم عليه السلام (بني سلمة دياركم تكتب آثاركم) وأنزل الله (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّموا وآثَارَهُمْ) واختلف فيمن قربت داره من المسجد هل الأفضل له أن يصلي فيه أو يذهب إلى الأبعد ؟ فقالت طائفة : الصلاة في الأبعد أفضل لكثرة الثواب الحاصل بكثرة الخطى ، وقال بعضهم : الصلاة في الأقرب أفضل لما ورد (لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد)[1] ولإحياء حق المسجد لماله من الجوار ، وإن كان في جواره مسجد ليس فيه جماعة وبصلاته فيه تحصل الجماعة كان فعلها في مسجد الجوار أفضل ، لما فيه من عمارة المسجد وإحيائه بالجماعة وفي الحديث (صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسة وعشرين ضعفاً)[2] وفي رواية (سبعة وعشرين) وذلك لأن فرائض اليوم والليلة سبع عشرة ركعة ، والرواتب عشر فالجميع سبع وعشرون ، وأكثر العلماء على أن الجماعة واجبة ، وقال بعضهم : سنة مؤكدة : وفي الحديث (لقد هممتُ أن آمر رجلاً يصلي بالناس وأنظر إلى أقوام يتخلفون عن الجماعة فأُحرِّق بيوتهم)[3] وهذا يدل على جواز إحراق بيت المتخلف عن الجماعة ، لأن الهمّ على المعصية لا يجوز من الرسول عليه السلام ، لأنه معصية ، فإذا جاز إحراق البيت على ترك الواجب أو السنة المؤكدة ، فما ظنك في ترك الفرض ؟ وفي الحديث (بشِّر المشّائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة)[4] ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء كائناً ما كان ، سواء كان ما يصنعه الإنسان أو غيره

---

(١) الحديث أخرجه الدارقطني في سننه ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٣٤٥ .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٤١٣ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ (.. ثم أحرّق على رجالٍ يتخلفون عن الجمعة بيوتهم) وانظر جامع الأصول ٥ / ٦٦٧ .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي في كتاب الصلاة ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٤٢٠ .

﴿ أَحْصَيْنَاهُ ﴾ ضبطناه وبيناه ﴿ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ أصل عظيم الشأن مظهر لجميع الأشياء مما كان وما سيكون ، وهو اللوح المحفوظ ، سُميّ إماماً لأنه يؤتم به ويتبع وقوله تعالى (**يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**) أي بالذي يقتدون به ، وقيل بكتابهم وفي الإحصاء ترغيب وترهيب ، فإن المحصي عليه لم يصح منه الغفلة في حال من الأحوال ، بل راقب نفسه في كل وقت ونفس وحركة وسكنة ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ** ﴾ أمر الله تعالى سيد المرسلين ﷺ بإنذار مشركي مكة بتذكيرهم قصة « أصحاب القرية » ليحترزوا عن أن يحل بهم ما نزل بكفار أهل تلك القرية ، وضرب المثل هنا لتطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها ، فالمعنى اجعل أصحاب القرية مثلاً لأهل مكة في الغلو في الكفر ، والإصرار على تكذيب الرسل ، أي طبق حالهم بحالهم والقرية انطاكية من قرى الروم ﴿ **إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ** ﴾ أي واذكر لهم وقت مجيء المرسلين ، وهم رسل عيسى عليه السلام إلى أهل انطاكية ﴿ **إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ** ﴾ أي وقت إرسالنا اثنين إلى أصحاب القرية ، وهما « يحيى » و« يونس » ونسبة إرسالهما إليه تعالى بناء على أنه بأمره تعالى ، فكانت الرسل رسل الله ﴿ **فَكَذَّبُوهُمَا** ﴾ أي فأتيَاهم فدعَواهم إلى الحقّ ، فكذّبوهما في الرسالة بلا تراخ وتأمل ، وضربوهما وحبسوهما على ما قال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **فَعَزَّزْنَا** ﴾ أي قويناهما ﴿ **بِثَالِثٍ** ﴾ هو شمعون الصفار رئيس الحواريين ، وقد كان خليفة عيسى عليه السلام بعد رفعه إلى السماء ، قال في التكملة : اختلف في المرسلين الثلاثة ، فقيل : كانوا أنبياء رسلاً أرسلهم الله تعالى ، وقيل : كانوا من الحواريين أرسلهم عيسى بن مريم إلى أهل القرية المذكورة ، ولكن لما كان إرساله إياهم عن أمره أضاف الإرسال إليه انتهى ﴿ **فَقَالُوا** ﴾ أي جميعاً ﴿ **إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ** ﴾ مؤكدين كلامهم لسبق الإنكار ، لما أن تكذيبهما تكذيب للثالث لاتحاد كلمتهم ، رُوي أنه لما بعثهما إلى الملك الجبار ، مرَّا على رجلٍ من أهل القرية يَرعى غنيماتٍ له هو « حبيب النجار » عليه السلام فسلّما عليه فقال من أنتما ؟ فأخبراه بأنهما من رسل عيسى نشفي المريض ، ونبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله ، وكان عنده مريضٌ استعصى علاجه ، فأتى لهما به ، فدعوا الله تعالى ومسحاه فقام بإذن الله صحيحاً فآمن حبيب ، وفشا الخبر ، وشُفي على أيديهما خلق كثير ، وبلغ حديثهما إلى الملك واسمه بخناطيس الرومي ، فطلبهما فأتياه فاستخبر عن حالهما فقالا : نحن رسل عيسى ندعوك إلى عبادة رب وحده ، فقال ألنا رب غير آلهتنا ؟ قالا : نعم وهو من أوجدك وآلهتك ، فغضب وضربهما وحبسهما فانتهى ذلك إلى عيسى فأرسل ثالثا وهو « شمعون » لينصرهما فجاء القرية متنكراً أي لم يعرف حاله ورسالته ، وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به ورفعوا حديثه إلى الملك فأنس به وكان شمعون يظهر موافقته في دينه ، حيث كان يدخل معه على الصنم ، فيصلي ويتضرع ، والملك يظن أنه من أهل دينه ، فقال شمعون للملك يوماً بلغني أنك حبستَ رجلين دعواك إلى إله غير إلهك ، فهل لك أن تدعوهما فأسمع

كلامها وأخاصمها عنك ؟ فدعاها .

فلما حضرا قال لهما شمعون من أرسلكما ؟ قالا : الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك ، فقال : صِفَاهُ وأوجزا ، قالا : يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، قال وما برهانكما على ما تدعيانه ؟ قالا ما يتمنى الملك ، فجيء بغلام مطموس العينين أي كان لا يتميز موضع عينيه من جبهته ، فدعوا الله حتى انشق له موضع البصر ، فأخذا بندقتين من الطين فوضَعَاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين ، ينظر بهما فتعجب الملك ، فقال له شمعون : أرأيت لو سألت آلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف ؟ قال : ليس لي عنك سر مكتوم ، إن آلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع ، ثم قال له الملك : إن هنا غلاماً مات منذ سبعة أيام كان لأبيه ضيعة قد خرج إليها وأهله ينتظرون قدومه ، واستأذنوا في دفنه فأمرتهم أن يؤخروه حتى يحضر أبوه ، فهل يحييه ربكما؟ قالا : نعم ، فأمر بإحضار ذلك الميت، فدعوا الله علانية ، ودعا شمعون سراً فقام الميت حياً بإذن الله وقال: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن عيسى روح الله وكلمته وأن هؤلاء رسل الله فتعجب الملك ، لكنه لم يؤمن بالله بل كفر أيضاً ، وأصروا جميعاً على تعذيب الرسل وقتلهم ، وظهر أمر شمعون وانكشف حاله ، فعزموا على البطش بهم ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي أهل انطاكية ﴿ **مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ** ﴾ آدميُّون ﴿ **مِثْلُنَا** ﴾ أي انتم مقصورون على البشرية ، ليس لكم وصف الرسالة التي تَدَّعونها ، فلا فضل لكم علينا يقتضي اختصاصكم بالرسالة دوننا ، ولو أرسل الرحمن إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنسٍ أفضل منهم ، وهم الملائكة على زعمهم ﴿ **وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ من وحي سماوي ، ومن رسول يبلغه ، فكيف صرتم رسلاً ؟ وكيف يجب علينا طاعتكم ؟ ﴿ **إِنْ أَنْتُمْ** ﴾ أي ما أنتم ﴿ **إِلاَّ تَكْذِبُونَ** ﴾ في دعوى رسالته ﴿ **قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ** ﴾ بعلمه الحضوري ﴿ **إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ** ﴾ وإن كذبتونا ، استشهدوا بعلم الله ، وهو يجري مجرى القسم في التوكيد ، مع ما فيه من تحذيرهم معارضة علم الله ﴿ **وَمَا عَلَيْنَا** ﴾ أي من جهة ربنا ﴿ **إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾ أي إلا تبليغ رسالته تبليغاً ظاهراً ، مبيناً بالآيات الشاهدة بالصحة ، وقد خرجنا من عهدته ، وليس في وسعنا إجباركم على الإيمان ، فإن آمنتم وإلا فينزل العذاب عليكم ، وفيه تعريض لهم بأن إنكارهم للحق ليس لخفاء حاله وصحته ، بل هو مبني على محض العناد،والحمية الجاهلية ﴿ **قَالُوا** ﴾ لما ضاقت عليهم الحيل ، ولم يبق لهم علل ﴿ **إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ** ﴾ أي تشاءمنا بكم جرياً على ديدن الجهلة ، حيث كانوا يتيمَّنون بكل ما يوافق شهواتهم وإن كان مستجلباً لكل شر ووبال ، ويتشاءمون بكل ما لا يوافقها ، وإن كان مستتبعاً لسعادة الدارين ﴿ **لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا** ﴾ والله لئن لم تمتنعوا عن مقالتكم هذه ولم تسكتوا عنا ﴿ **لَنَرْجُمَنَّكُمْ** ﴾ أي لنرمينكم بالحجارة ﴿ **وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ أي لا نكتفي برجمكم بحجر أو حجرين ، بل ندیم ذلك عليكم إلى الموت وهو العذاب الأليم ، أو ليمسنكم بسبب الرجم منا عذاب مؤلم ، وفسر بعضهم الرجم بالشتم ، فيكون المعنى

لا نكتفي بالشتم ، بل يكون شتمنا مؤدياً إلى الضرب والإيلام الحسي ﴿ قَالُوا ﴾ أي المرسلون لأهل انطاكية ﴿ طَائِرُكُمْ ﴾ أي سبب شؤمكم ﴿ مَعَكُمْ ﴾ لا من قبلنا ، وهو سوء اعتقادكم ، وقبح أعمالكم ، فالطائر بمعنى ما يتشاءم به مطلقاً ﴿ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ﴾ أي وعظتم بما فيه سعادتكم وخوّفتم ، وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه ، أي تطيرتم ، أو توعدتم بالرجم والتعذيب ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ أي ليس الأمر كذلك ، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في العصيان ، والتجاوز فيه عن الحد ، فلذلك توعّدتم وتشاءمتم بمن يجب إكرامه ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ ﴾ أبعد جوانب انطاكية ﴿ رَجُلٌ ﴾ تنكيره لتعظيم شأنه ، لا لكونه رجلاً غير معلوم ، فإنه رجل معلوم عند الله تعالى ، وكان منزله عند أقصى باب في المدينة ، وفي مجيئه من أقصى المدينة بيان لكون الرسل أتوا بالبلاغ المبين ، حتى بلغت دعوتهم إلى أقصى المدينة ، حيث آمن الرجل ﴿ يَسْعَىٰ ﴾ حال كونه يسرع في مشيه ، والمراد به « حبيب النّجّار » المشهور عند العلماء بصاحب يس ، وإنما سمي حبيب النجار لأنه كان ينحت أصنامهم ﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : فما قال عندما جاء ساعياً إليهم ؟ قيل قال ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ خاطبهم بياقوم لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصيحته ، وللإشارة إلى أنه لا يريد بهم إلا الخير ، وأنه غير متهم بإرادة السوء بهم ، وكان مشهوراً بينهم بالورع ، واعتدال الأخلاق ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ المبعوثين إليكم بالحق ، تعرض لعنوان رسالتهم حثاً لهم على اتباعهم ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ أجرة ومالاً على النصح ، وتبليغ الرسالة ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ إلى خير الدين والدنيا ، والمهتدي إلى طريق الحق الموصل إلى هذا الخير ، إذا لم يكن متهماً في الدعوة يجب اتباعه ، وإن لم يكن رسولاً ، فكيف وهم رسل ومهتدون ؟ ﴿ وَمَالِيَ ﴾ وأيُّ شيء عرض لي ﴿ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ خلقني وربّاني بأنواع اللطف والكرم ، وهذا تلطف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه ، وإمحاض النصح ، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه ، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم ، إلى عبادة غيره ، كما ينبىء عنه قوله ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ مبالغة في التهديد ، أي إليه تعالى لا إلى غيره تُردُّون أيها القوم بعد البعث للمجازاة والمحاسبة ثم عاد على المساق الأول ، وهو إبراز الكلام في صورة النصيحة لنفسه فقال ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي دون الذي فطرني ، وهو الله تعالى ﴿ آلِهَةً ﴾ باطلة ، وهي الأصنام ، وهو إنكار ونفي لاتخاذ الآلهة على الإطلاق ، أي لا أتخذ ، ثم استأنف لتعليل النفي فقال ﴿ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ ﴾ الضر اسم لكل سوء ، ومكروه يتضرر به ﴿ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ ﴾ أي الآلهة ﴿ شَيْئاً ﴾ أي لا تنفعني شيئاً من النفع ، إذ لا شفاعة لهم فتنفع ﴿وَلاَ يُنْقِذُونِ﴾ الإنقاذ التخليص ، أي لا يخلصونني من الضر والمكروه ، بالنصرة والمظاهرة ، وهو تعميم بعد تخصيص ، مبالغة بهما في عجزهم ، وانتفاء قدرتهم ﴿ إِنِّي إِذاً ﴾ أي إذا اتخذت من دونه آلهة ﴿ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾ فإن إشراك ما ليس

من شأنه النفع ، ولا دفع الضر ، بالخالق المقتدر الذي لا قادر غيره ، ولا خير إلا خيره ، ضلال بين لا يخفى على أحد ممن له تمييز في الجملة ﴿ **إِنِّيٓ آمَنتُ بِرَبِّكُمْ** ﴾ الذي خلقكم ورباكم بأنواع النعم ، وإنما قال « آمنت بربكم » وما قال « آمنت بربي » ليعلموا أن ربهم هو الذي يعبده ، فيعبدوا ربهم ، ولو قال إني آمنت بربي لعلهم يقولون أنت تعبد ربك ، ونحن نعبد ربنا وهو آلهتهم ﴿ **فَٱسْمَعُونِ** ﴾ أجيبوني في وعظي ونصحي ، واقبلوا قولي ، فالخطاب للكفرة ، شافههم بذلك إظهاراً للتصلب في الدين ، وعدم المبالاة بالقتل ، ولما فرغ من نصيحته لهم ، وثبوا عليه فوطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه ثم أُلقي في البئر ، وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه ، وقال السدي : رجموه بالحجارة حتى مات وقيل : نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه ، طوّل معهم الكلام ليشغلهم بذلك عن قتل الرسل ، إلى أن قال « إني آمنت بربكم فاسمعون » فوثبوا عليه فقتلوه ﴿ **قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ** ﴾ قيل له أي لحبيب النجار ذلك لَمّا قتلوه ، إكراماً له بدخولها حينئذ كسائر الشهداء ﴿ **قَالَ** ﴾ جواب عن سؤال نشأ من حكاية حاله ، كأنه قيل فماذا قال عند نيله تلك الكرامة السَنِيّة ؟ فقيل قال متمنياً علم قومه بحاله ، ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالتوبة عن الكفر ، والدخول في الإيمان ﴿ **يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي** ﴾ أي ليتهم علموا بالذي غفر لي ربي بسببه ذنوبي ، يريد به تفخيم شأن المهاجرة على ملتهم والمصابرة على أذيتهم ، لإعزاز الدين حتى قتل ﴿ **وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ** ﴾ أي المنعمين في الجنة وفي الحديث (نصح قومه حياً وميتاً)[1] وهكذا ينبغي للمؤمن أن يكون ناصحاً للناس ، لا يلتفت إلى تعصبهم وتمردهم ، ويستوي حاله في الرضى والغضب ﴿ **وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ** ﴾ أي قوم حبيب ، وهم أهل انطاكية ﴿ **مِنۢ بَعْدِهِۦ** ﴾ أي من بعد قتله ﴿ **مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ** ﴾ لإهلاكهم ، والانتقام منهم كما فعلناه يوم بدر والخندق ، بل كفينا أمرهم بصيحة ملك ﴿ **وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ** ﴾ وما صح في حكمتنا أن ننزل لإهلاك قومه جنداً من السماء ، لما أنا قدرنا لكل شيء سبباً ، حيث أهلكنا بعض الأمم بالحاصب ، وبعضهم بالصيحة ، وبعضهم بالخسف ، وبعضهم بالإغراق ، وجعلنا إنزال الجند من السماء من خصائصك في الانتصار من قومك ، وفي الآية استحقار لأهل انطاكية ، ولإهلاكهم حيث اكتفى في استئصالهم بما يتوسل به إلى زجر نحو الطيور والوحوش من صيحة عبد واحد مأمور ، وايماءً إلى تفخيم شأن الرسول عليه السلام لأنه إذا كان أدنى صيحة ملك واحد كافياً في إهلاك جماعة كثيرة ، ظهر أن إنزال الجنود من السماء يوم بدر والخندق ، لم يكن إلا تعظيماً لشأنه وإجلالاً لقدره ﴿ **إِن كَانَتْ** ﴾ أي ما كانت الأخذة أو العقوبة على أهل انطاكية ﴿ **إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً** ﴾ صاح بها جبريل ﴿ **فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ** ﴾ ميتون لا يُسمع لهم حسٌّ ، ولا يُشاهد لهم حركة ، شُبِّهوا بالنار الخامدة ، رمزاً إلى أن الحي كالنار الساطعة في

(١) هذا الأثر موقوف على ابن عباس رضي الله عنه ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٦٠ .

الحركة والالتهاب ، والميت كالرماد ، يقال : خَمَدت النار : سَكَن لهبُها ولم ينطفىء جمرها ، وهمدت : إذا طُفىء جمرها لم يقل « هامدون » وإن كان أبلغ لبقاء أجسادهم بعد هلاكهم ، ووقعت الصيحةُ في الساعة التي عادوا فيها بعد قتلهم حبيب إلى منازلهم فرحين مستبشرين ، وإنما عجل الله عقوبتهم غضباً لأوليائه الشهداء ، نسأل الله أن يحفظنا من موجبات غضبه وعذابه ﴿ **يا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ** ﴾ المصرِّين على العناد كأنه ينادي الحسرة فيقول تعالى فهذا أوان حضورك ثم بين تعالى سبب هلاكهم فقال ﴿ **مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ** ﴾ فإن المستهزئين أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ، وقد تلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون فقوله (**يا حَسْرَةً**) نداء للحسرة عليهم ، والحسرةُ هي أشد الغمّ والندامة على الشيء الفائت ، لا تُدْعى ولا يطلب إقبالها لأنها مما لا تجيب ، والفائدة في ندائها مجرد تنبيه المخاطب ، وإيقاظه ليتمكن في ذهنه إن هذه الحالة تقتضي الحسرة وتوجب التلهف ، فإن العرب تقول يا حسرة يا عجباً للمبالغة في الدلالة على أن هذا زمان الحسرة والتعجب ، والنداء عندهم يكون لمجرد التنبيه وفي تفسير العيون قوله (**يا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ**) بيان حال استهزائهم بالرسل ، أي يُقال يوم القيامة يا حسرةً وندامةً على الكفار ، حيث لم يؤمنوا برسلهم ، وقوله (**مَا يَأْتِيهِمْ**) إلخ ، تفسير لسبب الحسرة النازلة بهم وفي الحديث (إن المستهزئين بالناس في الدنيا ، يُفتح لهم يوم القيامة باب من أبواب الجنة ، فيقال لهم : هَلُمَّ هلمَّ ، فيأتيه أحدهم بِكَرْبِهِ وغمِّه ، فإذا أتاه أغلق دونه ، فلا يزال يفعل به ذلك ، حتى يفتح له الباب فيدعى إليه ، فلا يجيب من الإياس)[1] وقال مالك بن دينار : قرأت في زبور داود « طوبى لمن لم يسلك سبيل الآثمين ، ولم يجالس الخطائين ، ولم يدخل في هزؤ المستهزئين » ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا** ﴾ وعيد للمشركين في مكة بمثل عذاب الأمم الماضية ، ليعتبروا ويرجعوا عن الشرك ، أي ألم يعلم أهل مكة ﴿ **كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ القُرونِ** ﴾ كم خبرية ، والقرن القوم المقترنون في زمن واحد ، أي كثرة إهلاكنا من قبلهم من المذكورين آنفا ، ومن غيرهم بشؤم تكذيبهم ﴿ **أَنَّهُمْ إلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ** ﴾ أي ألم يعلموا كثرة إهلاكنا القرون الماضية ، والأمم السالفة ، كونهم غير راجعين إلى هؤلاء المشركين ، أي أهلكوا إهلاكاً لا رجوع لهم من بعده في الدنيا أفلا يعتبرون ؟ ولم لا ينتبهون ؟ فكما أنهم مضوا وانقرضوا إلى حيث لم يعودوا ، فكذلك هؤلاء سيهلكون وينقرضون ثم لا يعودون ، وقال بعضهم : ألم يروا أن خروجهم من الدنيا ليس كخروج أحدهم من منزله إلى السوق ، أو إلى بلد آخر ، ثم عودته إلى منزله عند إتمام مصلحته هناك ، بل هو مفارق من الدنيا أبداً ، فكونهم غير راجعين إليهم عبارة عن هلاكهم بالكلية ، وهذه الآية ترد قول أهل الرجعة ، أي من يزعم أن من الخلق من يرجع قبل القيامة بعد الموت ، كما حُكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له : إن قوماً يزعمون أن علياً رضي الله عنه مبعوث قبل يوم

(١) روى البيهقي عن الحسن البصري مرسلاً ، وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ٣ / ٦١١ .

القيامة ، فقال : بئس القوم نحن إذا نكحنا نساءه ، وقسمنا ميراثه أي لو كان راجعاً لكان حياً والحي لا تنكح نساؤه ولا يقسم ميراثه ، كما قال الفقهاء : إذا بلغ إلى المرأة وفاة زوجها فاعتدت وتزوجت وولدت ، ثم جاء زوجها الأول ، فهي امرأته لأنها كانت منكوحته ، ولم يعترض شيء من أسباب الفرقة ، فبقيت على النكاح السابق ، ولكن لا يقربها حتى تنقضي عدتها من النكاح الثاني ، ويجب تكفير الروافض في قولهم بأن علياً وأصحابه يرجعون إلى الدنيا فينتقمون من أعدائهم ، ويملأون الأرض قسطاً كما ملئت جوراً ، وذلك القول مخالف للنص ﴿ **وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ** ﴾ « إن » نافية و « لَّما » بمعنى إلاَّ ، و « لدينا » بمعنى عندنا والمعنى : ما كلُّ الخلائق إلا مجموعون عندنا ، محضرون للحساب والجزاء ، وهذه الآية بيان لرجوع الكل إلى المحشر ، بعد بيان عدم الرجوع إلى الدنيا ، ولو لم يكن بعد الموت بعث وجمع ، وعقاب وحساب ، لكان الموت راحة للميت ، ولكنه يبعث ويسأل ، فيكرم المؤمن والمخلص ، ويهان الكافر والمنافق ، ويتحسر من يتحسر ، فللعباد موضع للتحسر إن لم يتحسروا اليوم ﴿ **وَآيَةٌ** ﴾ علامة عظيمة ودلالة واضحة على البعث والجمع والإحضار ﴿ **لَهُمُ** ﴾ أي لأهل مكة ﴿ **الأَرْضُ الْمَيْتَةُ** ﴾ اليابسة الجامدة ﴿ **أَحْيَيْنَاهَا** ﴾ استئناف مبين لكيفية كون الأرض الميتة آية فقال « أحييناها » والإحياء إعطاء الحياة ، وهي صفة تقتضي الحس والحركة ، والمعنى : هيجنا القوى النامية فيها ، وأحدثنا نضارتها بأنواع النباتات في وقت الربيع ، وكذلك النشور فإنا نحيي الأبدان البالية المتلاشية فنعيدهم أحياء ، كما أبدعناهم أولاً من العدم ﴿ **وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا** ﴾ أي من الأرض ﴿ **حَبّاً** ﴾ الحب الذي يطحن ، والمراد جنس الحبوب التي تصلح قِوَاماً للناس ، من الأرز ، والذرة ، والحنطة وغيرها ﴿ **فَمِنْهُ** ﴾ أي فمن الحب ﴿ **يَأْكُلُونَ** ﴾ فإن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به ، وإذا فقد فقد النجاح باختلال الأشباح ، قال في شرعة الإسلام : ويكرم الخبز بأقصى ما يمكن ، فإنه يعمل في كل لقمة يأكلها الإنسان من الخبز ستون صانعاً ، أوَّلُهم ميكائيل الذي يكيل الماء من خزانة الرحمة ، ثم الملائكة التي تزجر السحاب ، والشمسُ ، والقمرُ ، والأفلاكُ ، وملائكة الهواء ، ودواب الأرض ، وآخرهم الخباز .

ومن إكرام الخبز أن يلتقط الكسرة من الأرض ، تعظيماً لنعمة الله تعالى ، ولا يضع القصعة على الخبز ولا غيرها ، إلا ما يؤكل به من الإدام ، ويكره مسح الأصابع والسكين بالخبز إلا إذا أكله بعده ﴿ **وَجَعَلْنَا فِيهَا** ﴾ وخلقنا في الأرض ﴿ **جَنَّاتٍ** ﴾ بساتين مملوءة ﴿ **مِنْ نَخِيلٍ** ﴾ جمع نخلة ﴿ **وَأَعْنَابٍ** ﴾ جمع عنب ، أي من أنواع النخل والعنب ، فإن قلت : لم ذكر النخيل دون التمور ؟ حتى يطابق الحب والأعناب في كونها مأكولة ، لأن التمور والحب والأعناب كلها مأكولة دون النخيل ؟ قلت : لاختصاص شجرها بمزيد النفع ، وآثار الصنع فكلُّ ما فيها من ورقٍ ، وثمرٍ ، ونوى ينتفع به ،

ولهذا شبه النبي ﷺ المؤمن بالنخلة ﴿ وَفَجَّرْنَا ﴾ الفَجْرُ : شقُّ الشيء شقاً واسعاً والتفجير كالتفتيح لفظاً ومعنىً ، أي جعلنا عيون الماء تنبع ﴿ فِيهَا ﴾ أي في الأرض ﴿ مِنَ العُيُونِ ﴾ جمع عين ، يُقال لمنبع الماء عين أي من ماء العيون ، واعلم أن تفجير الأنهار والعيون في البلاد رحمة من الله تعالى على العباد ، إذ حياة كل شيء من الماء ، وللبساتين منه النضارة والنماء ، والعيون إمَّا جارية وإمَّا غير جارية ، والجارية الأنهار ، إذ هي أكثر وأوسع من العيون ، ومنبعها غير معلوم غالباً كالنيل المبارك حيث لم يوجد رأسه ، وغير الجارية هي الآبار ، وفي الدنيا عيون وآبار كثيرة ، وفي بعضها خواص زائدة هي من عجائب الدنيا كالمياه المعدنية ، والمياه الصحية ، والمياه التي تزيل الرمل ، أو تذهب الرمد ، والأمراض الجلدية وغير ذلك ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ﴾ أي وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، ليأكلوا من ثمر ما ذكر من الجنات والنخيل ، ويواظبوا على الشكر أداء لحقوقنا ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ عطف على ثمره ، وأيديهم كناية عن القوة ، لأن أقوى جوارح الإنسان في العمل يده ، فصار ذكر اليد غالباً في الكناية والمعنى وليأكلوا من الذي عملته أيديهم ، وهو ما يُتَّخذ منه من العصير والدِّبسِ ونحوهما ، وقيل « ما » نافية ، والمعنى أن الثمر بخلق الله تعالى لا بفعلهم ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ إنكار واستقباح لعدم شكرهم النعم المعدودة أي يتنعمون فلا يشكرونها بالتوحيد والتحميد ؟ .

﴿ سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْواجَ كُلَّهَا ﴾ سبحان علم للتسبيح الذي هو التبعيد عن السوء اعتقاداً وقولاً ، وفي سبحان استعظام ما ذكر في حيز الصلة من بدائع آثار قدرته ، وروائع نعمائه الموجبة للشكر ، والمعنى أسبح الذي أوجد الأصناف والأنواع سبحانه وتعالى أي أنزّهه عما لا يليق به اعتقاداً وعملاً ، تنزيهاً خاصاً به حقيقاً بشأنه ، فهو حكم منه تعالى بتنزهه وبراءته عن كل ما لا يليق به كما فعله الكفار من الشرك ، وتلقين للمؤمنين أن يقولوه ويعتقدوا مضمونه ، ولا يُخِلُّوا به ولا يغفلوا عنه ، وقال بعضهم « سُبْحَانَ » مصدرٌ كغفران ، أريد به التنزه التام ، والتباعد الكلي عن السوء ، والمعنى تنزَّه تعالى بذاته عن كل ما لا يليق به ، تنزهاً خاصاً ، قال ابن الشيخ : والتنزيه يتناول التنزيه بالقلب ، وهو الاعتقاد الجازم ، وباللسان مع ذلك الاعتقاد وهو الذكر الحسن ، وبالأركان معهما جميعاً وهو العمل الصالح ، والأول هو الأصل ، والثاني ثمرة الأول ، والثالث ثمرة الثاني ، وذلك لأن الإنسان إذا اعتقد شيئاً ظهر من قلبه على لسانه ، وإذا قال ظهر صدقه في مقاله من أفعال جوارحه ، فاللسان ترجمان الجنان ، والأركان ترجمان اللسان ﴿ مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ ﴾ بيان للأزواج ، والمراد كل ما ينبت فيها من الأشياء المذكورة وغيرها ﴿ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي خلق الأزواج من أنفسهم ، أي الذكر والأنثى ﴿ ومِمَّا لا يَعْلَمُوْنَ ﴾ أي والأزواج مما لا يطلعهم على خصوصياته ، لعدم قدرتهم على الإحاطة بها ، ولما أنه لم

يتعلق بها شيء من مصالحهم الدينية والدنيوية ، قال القرطبي : أي من أصناف خلقه في البر والبحر ، والسماء والأرض ، ثم يجوز أن يكون ما يخلقه لا يعلمه البشر ، ويعلمه الملائكة ، ويجوز أن لا يعلمه مخلوق ، يقال دواب البحر والبر ألف صنف ، لا يعلم الناس أكثرها ، قال في بحر العلوم : ويجوز أن يكون المعنى مما لا يدركون كنهه مما خلق من الأشياء ، ومنه الروح فإنه ما بلغنا أن الله تعالى أطلع أحداً على حقيقة الروح ، وفي الآية إشارة إلى أنه ما من مخلوق ، إلا وقد خلق شفعاً ، إذ الفردية من أخصّ أوصاف الربوبية ، كما قال عبد العزيز المكي رحمه الله : خلق الأزواج كلها ثم قال (ليس كمثله شيء) ليستدل بذلك أن خالق الأشياء منزه عن الزوج ، وإلى أن في كل شيءٍ دليلاً على وجوده تعالى ، ووحدته وكمال قدرته ، كما قال أبو العتاهية :

وَللهِ في كُلِّ تَحْرِيكَةٍ * وتَسْكِينَةٍ أبداً شَاهِدُ

وَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ * تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿ **وآيَةٌ لَهُمُ** ﴾ أي علامة عظيمة لأهل مكة على كمال قدرتنا ﴿ **اللَّيْلُ** ﴾ المظلم كأنه قيل كيف كان آية ؟ فقيل ﴿ **نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ** ﴾ المضيء ، أيْ نزيل النهار ، ونكشفه على مكان الليل ، ونلقي ظله بحيث لا يبقى معه شيء من ضوئه الذي هو شعاع الشمس في الهواء ، مستعار من السلخ وهي إزالة ما بين الحيوان وجلده من الاتصال ﴿ **فَإِذَا هُمْ مُظْلِمونَ** ﴾ داخلون في الظلام مفاجأة أي ليس لهم بعد ذلك أمر سوى الدخول فيه ، والمقامُ مقام أن يقال « فإذا هم مبصرون » لكن لما كان الليل زمان ترحٍ وعدم إبصار ، والنهار وقت فرح وسرور وإبصار ، جعل الليل كأنه يفاجئهم عقيب إخراج النهار من الليل بلا مهلة ، إذ زمان السرور ليس فيه مهلة وإن كان ممتداً ، بخلاف زمان الغم فيه المهلة وإن كان قصيراً ، كما قيل « سَنَةُ الوَصْلِ سِنَةٌ ، وسِنَة الهَجْرِ سَنَةٌ » وقيل :

ويومٌ لا أَرَاكَ كَأَلفِ شَهْرٍ * وَشَهْرٌ لا أَرَاكَ كَأَلفِ عَامِ

وقال الشاعر :

مِحَنُ الزَّمَانِ كَثِيرةٌ لا تَنْقَضِي * وَسُرُوْرُهُ يَأْتِيكَ كَالأَعْيَادِ

﴿ **والشَّمْسُ** ﴾ وآية لهم الشمس المضيئة المشرقة على صحائف الكائنات ، كإشراق نور الوجود الفائض على الموجودات حسب التجليات ، ﴿ **تَجْرِي** ﴾ حال كونها جارية وسائرة ﴿ **لِمُسْتَقَرٍ لَها** ﴾ فيه وجوه : الأول أن اللام للتعليل ، والمستقر اسم مكان ، أي تجري لبلوغ مستقرٍ وحدٍّ معين ، ينتهي إليه دورها في آخرالسنة ، فشبه بمستقر المسافر إذا قطع سيره ، والثاني أن اللام بمعنى إلى والمعنى تجرى إلى أن

تبلغ إلى وسط السماء وتستقر فيه ، شبه بطؤ حركتها فيه بالوقفة والاستقرار ، وإلا فلا استقرار لها حقيقة ، والثالث أن اللام لام العاقبة أي تجري بحيث يترتب على جريها استقرارها في كل برج من البروج الإثنى عشر ، وتبلغ نهاية ارتفاعها في الصيف ، ونهاية انحطاطها في الشتاء ، ويترتب عليه اختلاف الفصول الأربعة ، وتهيئة أسباب معاش الأرضيات ، والرابع أن المعنى لمنتهى مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب ، فإن لها في دورها ثلاثمائة وستين مشرقاً ومغرباً ، تطلع كل يوم من مطلع وتغرب من مغرب ، ثم لا تعود إليها إلى العام القابل ، وقيل : تجري إلى وقت نهاية العالم ، أي تجري إلى زمان استقرارها وانقطاع حركتها ، عند خراب العالم كما قال أبو ذر رضي الله عنه : دخلت المسجد ورسول الله عليه السلام جالس فلما غابت الشمس قال عليه السلام (يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه الشمس ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم ، فقال : تَذهب وتسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد ولا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ، ويقال لها : ارجعي من حيثُ جئتِ ، فتطلع من مغربها ، فذلك قوله تعالى (والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍ لَهَا)[1] وفهم من الحديث أن المستقر أيضاً تحت العرش ، والمراد بالسجدة الانقياد ، ويجوز أن تكون على حقيقتها فإن الله تعالى قادر على أن يخلق فيها حياة وإدراكاً يصح معها سجدتها كما سبق نظائرها ، قال بعض الفضلاء : لا خلاف أن الشمس تغرب عند قوم ، وتطلع عند قوم آخرين ، والليل يطول عند قوم ، ويقصر عند قوم آخرين ، وعند خط الاستواء يكون الليل والنهار مستويين أبداً ، والأرض كأنها كرة مدورة ، فيكون وسطها أرفع ولذلك سموا الجزيرة التي هي وسط الأرض كلها المستوي فيها الليل والنهار قبة الأرض .

وسئل الشيخ أبو حامد رضي الله عنه عن بلاد بلغار ، كيف يصلون ؟ لأن الشمس لا تغرب عندهم إلا مقدار ما بين المغرب والعشاء ، ثم تطلع ، فقال : يعتبر صومهم وصلاتهم بأقرب البلاد إليهم ، والأصح عند أكثر الفقهاء أنهم يقدرون الليل والنهار ، ويعتبرون بحسب الساعات ، كما قال عليه السلام في حقّ الدجال الذي يمكث في الأرض أربعين يوماً ، يومٌ كَسَنَةٍ ، ويومٌ كشهر ، ويوم كأسبوع .. إلخ قال : اقدروا له قدره ، ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ الجري البديع المنطوي على الحكم العجيبة التي تتحير في فهمها العقول والأفهام ﴿ **تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ** ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿ **الْعَلِيمِ** ﴾ المحيط علمه بكل معلوم ، والتقدير تبيين كمية الشيء ، وتقدير الله الأشياء على وجهين : أحدهما بإعطاء القدرة ، والثاني أن يجعلها على مقدار مخصوص ، ووجه مخصوص ، حسبما اقتضته الحكمة ، كتقديره في النواة أن ينبت منها النخل دون التفاح والزيتون ، وتقدير مني الآدمي أن يكون منه الإنسان دون سائر الحيوانات ، فتقدير الله على وجهين : أحدهما بالحكم منه أن يكون كذا ولا يكون كذا ، والثاني بإعطاء القدرة عليه ﴿ **وَالْقَمَرَ**

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في التفسير . وأخرجه الترمذي أيضاً بنحوه ، وانظر جامع الأصول ٢ / ٣٣٢ .

﴿ قَدَّرْنَاهُ ﴾ بالنصب بإضمار فعل يفسره الظاهر أي وقدرنا القمر قدرناه له وعيناً ﴿ مَنَازِلَ ﴾ وهي ثمان وعشرون مقسومة على الإثنى عشر بُرْجاً ، ينزل القمر كل ليلة في واحدة من تلك المنازل لا يتخطاها ولا يتقاصر عنها ، فإذا كان في آخِر منازله دقّ واستقوس ، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين ، أو ليلة إن كان تسعة وعشرين ﴿ حَتَّى عَادَ ﴾ حتى صار القمر في آخر الشهر في دقته واستقواسه واصفراره ﴿ كَالعُرْجُونِ ﴾ وهو عود العذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة ﴿ القَدِيمِ ﴾ العتيق ، فإذا قدم وعتق ، دقّ وتقوّس واصفر ، شبّه به القمر في آخر الشهر في هذه الوجوه الثلاثة ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا ﴾ هو أبلغ من لا ينبغي للشمس ، ففي ذكر حرف النفي مع الشمس دون الفعل ، دلالة على أن الشمس مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها وقُدِّر لها والمعنى لا الشمس يصح لها و يتسهل ﴿ أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ ﴾ في سرعة سيره ، فإن القمر أسرع سيراً حيث يقطع فلكه ، ويدور في منازله الثاني والعشرين في شهر واحد ، بخلاف الشمس ، فإنها أبطأ منه حيث لا تقطع فلكها ولا تدور في تلك المنازل المقسومة على الإثْنَيْ عشر برجاً إلا في سَنَةٍ ، فهي لا تدرك القمر في ساعة سيره ، فإنه تعالى جعل سيرها أبطأ من سير القمر لأن الشمس كاملة النور ، فلو كانت بطيئة السير ، لدامت زماناً كثيراً في مسامتة شيء واحد فتحرقه ، ولو كانت سريعة السير ، لما حصل لها لبث في بقعة واحدة ، بقدر ما يخرج النبات من الأرض ، والأوراق والثمار من الأشجار ، وبقدر ما ينضج الثمار والحبوب ويجف ، فلو أدركت القمر في ساعة سيره ، لكان في شهر واحد صيفٌ وشتاءٌ ، فيختل بذلك أحكام الفصول الأربعة ، ويجوز أن يكون المعنى ، ليس للشمس أن تدرك القمر في آثاره ومنافعه مع قوة نورها وإشراقها ، فإن لكل واحد منها آثاراً ومنافع تخصه ، وليس للآخر أن يدركه فيها ، كما قالوا الثمرة تنضجها الشمس ، ويلوِّنها القمر ، ويعطيها الطعم الكوكب ، ويجوز أن يكون معنى أن تدرك القمر أي لا تدركه في سلطانه أي نوره ، فليس للشمس أن تجامعه في وقت من أوقات ظهور سلطانه ، بأن تطلع بالليل فتطمس نوره ، فسلطان القمر بالليل ، وسلطان الشمس بالنهار ، ولو أدركت الشمس القمر لذهب ضوءه وبطل سلطانه ، ودخل النهار على الليل ﴿ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ أي ولا الليل يسبق النهار ، فيعجزه من أن ينتهي إليه ، ويجيء الليل بعده ، ولكن الليل يعاقب النهار ويناوبه ، فهما يسيران الدهر ولا يدخل أحدهما على الآخر ، ولا يجتمعان ، إلا عند إبطال الله هذا التدبير ، ونقض هذا التأليف ، وتطلع الشمس من مغربها ، ويجتمع معها القمر كما قال تعالى (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) وذلك من أشراط الساعة ﴿ وَكُلٌّ ﴾ أي وكلهم الشمس والقمر والكواكب ﴿ فِي فَلَكٍ ﴾ مخصوص معين من الأفلاك السبعة ، والفَلَكُ مجرى الكواكب ومسيرها ﴿ يَسْبَحونَ ﴾ السبح المر السريع في الماء ، أو في الهواء والمعنى يسيرون بانبساط وسهولة لا مزاحم لهم ، سير السابح في سطح الماء ، قال النسفي : جمع « يسبحون » بالواو والنون ، لأنه

تعالى وصفها بصفات العقلاء ، كالسباحة ، والسبق ، والإدراك ، وإن لم يكن لها اختيار في أفعالها بل هي مسخرة يُفعل بها ذلك جبراً ﴿ **وآيةٌ لَهُمْ** ﴾ أي علامة عظيمة لأهل مكة على كمال قدرتنا ﴿ **أنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ** ﴾ الذرية أصلها الصغار من الأولاد ، وإن كان يقع على الصغار والكبار في المتعارف ويطلق على النساء أيضاً كما في الحديث « نهى عن قتل الزراري » يعني النساء ، والمعنى أنا حملنا أولادهم الكبار الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم ﴿ **في الفُلْكِ المَشْحُونِ** ﴾ أي المملوء منهم ومن غيرهم أو حملنا صبيانهم ونساءهم الذين يستصحبونهم ، وتخصيص الذرية بمعنى الضعفاء الذين يستصحبونهم معهم ، لما أن استقرارهم في السفن أشق ، واستمساكهم فيها أعجب ﴿ **وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ** ﴾ مما يماثل الفلك ﴿ **ما يَرْكَبُونَ** ﴾ من الإبل فإنها سفائن البر ، والمقصود من الآية الاحتجاج على أهل مكة ببيان صحة البعث وإمكانه ، استدل عليه أولاً بإحياء الأرض الميتة ، وجعلها سبباً لتعيشهم ، ثم استدل عليه بتسخير الرياح والبحار والسفن الجارية فيها على وجهٍ يتوسلون بها إلى تجارات البحر ، ويستصحبون من يهمهم حمله من النساء والصبيان ، كما قال تعالى (**وَحَمَلْنَاهُم في البَرِّ والبَحْرِ**) وقيل المراد : فلك نوح عليه السلام المذكور في قوله (**واصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا** ﴾ فيكون المعنى أنا حملنا ذريتهم أي أولادهم إلى يوم القيامة ، في ذلك الفلك المشحون منهم ، ومن سائر الحيوانات ، التي لا تعيش في الماء ، ولولا ذلك لما بقي للآدمي نسل ولا عقب ، وخلقنا لهم من مثله أي مما يماثل ذلك الفلك في صورته وشكله من السفن والزوارق ، وجعلُ السفن مخلوقة لله تعالى مع كونها من مصنوعات العباد ، ليس لمجرد كونها صنعتهم بإقدار الله تعالى وإلهامه ، بل لمزيد اختصاص أهلها بقدرته تعالى وحكمته حسبما يعرب عنه قوله تعالى (**واصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا**) وجعل بعضهم المعنى الثاني أظهر ، لأنه إذا أريد بمثل الفلك الإبل لكان قوله (**وَخَلَقْنَا لَهُمْ**) الخ ، فاصلاً بين متصلين ، لأن قوله (**وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ**) متصلٌ بالفُلْكِ ، واعتذر عنه في الإرشاد بأن حديث خلق الإبل في خلال الآية بطريق الاستطراد لكمال التماثل بين الإبل والفلك ، فكأنها نوع منه ﴿ **وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ** ﴾ محمول على الفرض والتقدير بدليل قوله (**ولا هُمْ يُنْقَذونَ إلاَّ رَحْمَةً منَّا**) إلخ ، والمعنى إن نشأ إغراقهم نغرقهم في اليم ، مع ما حملناهم فيه من الفلك ﴿ **فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ** ﴾ المعنى فلا مغيث لهم يحرسهم من الغرق ، ويدفعه عنهم قبل وقوعه ﴿ **ولا هُمْ يُنْقَذُونَ** ﴾ ينجون منه بعد وقوعه ، يقال : أنقذه واستنقذه : إذا خلَّصه من ورطةٍ ومكروه ﴿ **إلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إلَى حِينٍ** ﴾ استثناء مفرغ لا يغاثون ولا ينقذون لشيء من الأشياء ، إلا رحمة عظيمة ناشئة من قبلنا ، داعية إلى الإغاثة والإنقاذ ، إلى زمان قدّر لآجالهم ، وفي الآية رد على ما زعم الطبيعي من أن السفينة تحمل بمقتضى الطبيعة ، وأن المجوف لا يرسب فقال تعالى في رده ليس الأمر كذلك ، بل لو شاء الله تعالى إغراقهم لأغرقهم ، وليس ذلك بمقتضى الطبيعة ، وإلا لما طرأ

عليها آفة ورسوب ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ أي لكفار مكة بطريق الإنذار ﴿ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي العقوبات النازلة على الأمم الماضية ، الذين كذبوا رسلهم ، واحذروا من أن ينزل بكم مثلها إن لم تؤمنوا ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ من العذاب المعدّ لكم في الآخرة بعد هلاككم ، أو ما بين أيديكم من أمر الآخرة فاعملوا لها ، وما خلفكم من الدنيا فلا تغتروا بها ، خوَّف الله الكفارَ بشيئين : أحدهما العقوبات النازلة على الأمم الماضية ، والثاني عذاب الآخرة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي راجين أن ترحموا ، أو كي ترحموا فتنجوا من ذلك لأن مدار النجاة ليس إلا برحمة الله ، وجواب إذا محذوف ، أي أعرضوا عن الموعظة وزادوا مكابرة وعناداً ، كما دلت عليه الآية الثانية ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي وما تجيء هؤلاء الكفار آية باهرة تدل على صدق الرسول ﴿ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ التي من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فُصِّل من بدائع صنع الله ، وسوابغ آلائه ، الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها ﴿ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أي وما تأتيهم من آية من آيات ربهم في حال من الأحوال ، إلا حال إعراضهم عنها على وجه التكذيب والاستهزاء ، ويجوز أن يراد بالآيات ما يعم الآيات التنزيلية والتكوينية ، فالمراد ما يظهر لهم آية من الآيات الشاهدة بوحدانيته تعالى وتفرده بالألوهية ، إلا كانوا تاركين للنظر الصحيح فيها ، المؤدي إلى الإيمان به تعالى ، وينبغي التسليم لأهل العلم والفضل من الأئمة المجتهدين ، والأعلام العاملين ، الّذين خصَّهم الله بفهم ثاقب ، ونظر بعيد في أمور الدين ، فربَّ حامل فقهٍ إلى من هو أعلم منه ، كما حكي أن الأعمش سأل أبا حنيفة عن بعض مسائل ، فأجابه عنها ، فقال له : من أين لك هذا ؟ وما دليلك عليه ؟ فقال : من أحاديث سمعتها منك ، وأخذ يحدثه بما رواه له عن النبي ﷺ ، فقال الأعمش عند ذلك :« يامعشر الفقهاء أنتم الأطباء ، ونحن الصيادلة » وأما قول أبي حنيفة رضي الله عنه « ماأتانا عن الرسول ﷺ فعلى الرأس والعين ، وما أتانا عن الصحابة رضي الله عنهم فنأخذ تارة ونترك أخرى ، وما أتانا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال » فإنما هو بالنظر إلى الاجتهاد الظاهر ، الذي يختلف فيه العلماء ، بحسب الدليل الأقوى ، وقد يفتح الله على الطالب بعلوم لم تكن عند الشيخ ، لحسن أدبه مع الله ومع عباده ، ومن علامة العلم المكتسب دخوله في ميزان العقول ، ومن أعظم المكر بالعبد أن يُرزق العلم ، ويحرم العمل به ، أو يرزق العمل ، ويحرم الإخلاص فيه ، فإذا رأيت يا أخي هذا من نفسك ، أو علمته من غيرك ، فاعلم أن الراضيَ به ممكور به ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي للكافرين بطريق النصيحة ﴿ أَنْفِقُوا ﴾ على المحتاجين ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾ أي بعض ما أعطاكم بطريق التفضل والإنعام من أنواع الأموال ، فإن ذلك مما يرد البلاء ويدفع المكاره ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالصانع تعالى ، وهم زنادقة كانوا بمكة . والزنديق من لا يعتقد إلهاً ولا بعثاً ، ولا حرمة شيء من الأشياء ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تهكماً بهم وبما كانوا عليه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى ، حيث كانوا يقولون : لو شاء الله

لأغنى فلاناً ، ولو شاء الله لأعزه ، ولو شاء لكان كذا وكذا ، وإنما حمل على التهكم لأن المعطلة ينكرون الصانع فلا يكون جوابهم المذكور عن اعتقاد وجدّ ﴿ **أَنُطْعِمُ** ﴾ من أموالنا حسبما تعظوننا به ﴿ **مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ** ﴾ أي على زعمكم ﴿ **إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ** ﴾ الضلال العدول عن الطريق المستقيم ، والمعنى خطأ بين ، حيث تأمروننا بما يخالف مشيئة الله تعالى ، وهذه الآية ناطقة بترك شفقتهم على خلق الله ، وجملةُ التكاليف ترجع إلى أمرين : التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، وهم قد تركوا الأمرين جميعاً ، وقد تمسك البخلاء بما تمسكوا به حيث يقولون : لا نعطي من حرمَ اللهُ ، ولو شاء لأغناه ، نعم لو كان مثل هذا الكلام صادراً عن يقين وشهود وعيان ، لكان مفيداً بل توحيداً محضاً يدور عليه كمال الإيمان ، ولكنهم سلكوا طريق التقليد والإنكار والعناد ، ومن لم يهد الله فما له من هاد ، وكان لقمان يقول إذا مر بالأغنياء : يا أهل النعيم لا تنسوا النعيم الأكبر ، وإذا مر بالفقراء يقول : إياكم أن تُغْبَنوا مرتين ، وعن علي رضي الله عنه : إنَّ المال حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد يجمعهما الله لأقوام ، قال الفضيل رحمه الله : من أراد عزّ الآخرة فليكن مجلسه مع المساكين ﴿ **وَيَقُولُونَ** ﴾ أي أهل مكة لرسول الله ﷺ والمؤمنين ، إنكاراً واستبعاداً ﴿ **مَتَى هَذَا الوَعْدُ** ﴾ بقيام الساعة ، والحساب والجزاء ، ومعنى طلب القرب في هذا إما بطريق الاستهزاء ، وإما باعتبار قرب العهد بالوعد ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ في وعدكم فقولوا متى يكون ؟ وهذا الاستعجال لقيام القيامة إنما وقع تكذيباً للدعوة وإنكاراً للحشر والنشر ، ولو كان تصديقاً وإقراراً لنفعهم جداً ﴿ **مَا يَنْظُرُونَ** ﴾ جواب من جهته ، والنظر بمعنى الانتظار ، أي ما ينتظر كفار مكة ﴿ **إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً** ﴾ لا تحتاج إلى ثانية ، هي النفخة الأولى التي هي نفخة الصعق والموت ، والصيحة رفع الصوت ﴿ **تَأْخُذُهُمْ** ﴾ مفاجأة وتصل إلى جميع أهل الأرض ﴿ **وَهُمْ يَخِصِّمُونَ** ﴾ أصله يختصمون ، وأصل المخاصمة أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر أي جانبه ، والمعنى والحال أنهم يتخاصمون ويتنازعون ، في تجاراتهم ، ومعاملاتهم ، ويشتغلون بأمور دنياهم حتى تقوم الساعة ، وهم في غفلة عنها ، فلا يغتروا لعدم ظهور علامتها ، ولا يزعموا أنها لا تأتيهم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال (لتقومنَّ الساعةُ والرجلان يتبايعان قد نشرا أثوابهما فلا يطويانها ، والرجل يلوط حوضه فلا يستقي منه ، والرجل قد انصرف بلبن لقحته فلا يطعمه ، والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يأكل)[1] ، ثم تلا (**تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُوْنَ**) فإن قلت : هم ما كانوا منتظرين بل كانوا جازمين بعدم الساعة والصيحة ، قلت نعم إلا أنهم جعلوا منتظرين نظراً إلى ظاهر قولهم متى يقع ، لأن من قال متى يقع الشيء الفلاني يفهم من كلامه أنه ينتظر وقوعه ﴿ **فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ** ﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري في الفتن وأشراط الساعة مطولاً ، وهذا جزء من الحديث الشريف ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٠٤ .

الاستطاعة وجود ما يصير به الفعل متأتياً أي لا يقدرون ، ﴿ تَوْصِيَةً ﴾ التنكير للتعميم ، أي في شيء من أمورهم ، ولو كانت بكلمة يسيرة ، فإذا لم يقدروا عليها يكونون أعجز عما يحتاجون فيه إلى زمان طويل من أداء الحقوق ، وردّ المظالم ﴿ وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ ﴾ الأهل يفسر بالأزواج والأولاد ، قال الراغب : أهل الرجل من يجمعه وإياهم نسب ، وعبر بأهل الرجل عن امرأته ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ إن كانوا في خارج أبوابهم ، بل تبغَتُهُمْ الصيحة فيموتون حيث ما كانوا ، واعلم أن الموت يدرك الإنسان سريعاً ، والإنسان لا يدرك كل الأماني ، فعلى العبد أن يتدارك الحال بقصر الآمال ، ومن السُنَّة حسن الوصية عند الموت ، وإن كان الذي يوصي عند الموت ، كالذي يقسم ماله عند الشبع ، ومن مات بغير وصية فهو مخطىء ، ويوصي بإرضاء خصومه ، وقضاء ديونه ، وفدية صلاته وصيامه ، جعلنا الله وإياكم من المتداركين لحالهم ، والمتفكرين في مآلهم ، والمكثرين من صالحات الأعمال ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ أي ينفخ في الصور ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع ، والصُّور : القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام ، فالمعنى ونفخ في القرن نفخاً ، لحياة الموتى ، والمراد النفخة الثانية التي يحيي الله بها كل ميت ، لا النفخة الأولى التي يميت الله بها كل حي ﴿ فَإِذا هُمْ ﴾ بغتة من غير لبث ، أي الكفار كما دل عليه ما بعد الآية ﴿ مِنَ الأَجْدَاثِ ﴾ أي القبور جمع جدث وهو القبر ، فإن قيل : أين يكون في ذلك الوقت أجداث ، وقد زلزلت الصيحة الجبال ؟ أجيب بأن الله يجمع أجزاء كل ميت ، في الموضع الذي قُبِرَ فيه ، فيخرج من ذلك الموضع ﴿ إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ أي إلى دعوة ربهم ، ومالك أمرهم على الإطلاق ، وهي دعوة إسرافيل للنشور ، أو إلى موقف ربهم الذي أعد للحساب والجزاء ، وقد صح أن بيت المقدس هي أرض المحشر والمنشر ﴿ يَنْسِلُونَ ﴾ أي يسرعون بطريق الإجبار دون الاختيار لقوله تعالى (لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) وإذا المفاجأة بعد قوله (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ) إشارة إلى كمال قدرته تعالى ، وإلى أن مراده لا يتخلف عن إرادته زماناً ، فإن قيل : قال تعالى في آية أخرى (فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرونَ) وقال ههنا (فَإِذا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلونَ) والقيام غير النسلان وقد صدر كل واحد منهما في موضعه بإذا المفاجأة فيلزم أن يكونا معاً ؟ والجواب من وجهين ، الأول أن القيام لا ينافي المشي السريع لأن الماشي قائم ولا ينافي النظر أيضاً ، والثاني أن الأمور المتعاقبة التي لا يتخلل بينها زمان ومهلة تجعل كأنها واقعة في زمان واحد كما إذا قيل مقبل مدبر ﴿ قَالُوا ﴾ أي الكفار في ابتداء بعثهم من القبور منادين لويلهم وهلاكهم من شدة ما غشيهم من أمر القيامة ﴿ يَا وَيْلَنَا ﴾ وهي كلمة عذاب وبلاء كما أن ويح كلمة رحمة ﴿ مَنْ ﴾ استفهام ﴿ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ أي من رقادنا وهو النوم ، أو اسم مكان أي من مكاننا الذي كنا فيه راقدين ؟ فإن قيل : أخبر الكفار بأنهم كانوا في القبر قبل البعث في حال الرقاد،وهذا يرد عذاب القبر ؟ قلت : إنهم لاختلاط عقولهم يظنون أنهم كانوا نياماً ، أو أن الله تعالى

يرفع عنهم العذاب بين النفختين ، فكأنهم يرقدون في قبورهم كالمريض يجد خفة ما فينسلخ عن الحسّ بالمنام ، فإذا بعثوا بعد النفخة الآخرة وعاينوا القيامة دعوا بالويل ﴿ **هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ** ﴾ أي هذا البعث هو الذي وعده الرحمن في الدنيا ، وأنتم قلتم متى هذا الوعد إنكاراً ، وصدق فيه المرسلون بأنه حق ، وهو جواب من قبل الملائكة ، أو المؤمنين عدل به عن سنن سؤال الكفار ، تشنيعاً لكفرهم ، وتقريعاً لهم عليه ، وتنبيهاً على أن الذي يهمهم هو السؤال عن نفس البعث ماذا هو دون الباعث ، كأنهم قالوا : بَعَثكم الرحمن الذي وعدكم ذلك في كتبه وأرسل إليكم الرسل فصدقوكم فيه ، وليس بالبعث الذي تتوهمونه وهو بعث النائم من مرقده حتى تسألوا عن الباعث ، وإنما هذا البعث الأكبر ذو الأفزاع والأهوال ﴿ **إِنْ كَانَتْ** ﴾ أي ما كانت النفخة الثانية المذكورة ﴿ **إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً** ﴾ حصلت من نفخ إسرافيل في الصور ، وقيل صيحة البعث ، هو قول إسرافيل على صخرة بيت المقدس : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، والأعضاء المتمزقة ، والشعور المنتشرة ، إن الله المصوّر الخالق يأمركنّ أن تجتمعن لفصل القضاء ، فاجتمعوا وهلموا إلى العرض وإلى جبّار الجبابرة ﴿ **فَإِذَا هُمْ** ﴾ بغتة من غير لبثٍ ما طرفة عين ﴿ **جَمِيعٌ لَدَيْنَا** ﴾ أي عندنا ﴿ **مُحْضَرُونَ** ﴾ للفصل والحساب ، وفيه من تهويل أمر البعث والحشر ، ما لا يخفى ، فكما هو عسير على الخلق يسير على الله تعالى ، لعدم احتياجه إلى مزاولة الأسباب ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴿ **فَالْيَوْمَ** ﴾ أي فيقال للكفار حين يرون العذاب المعد لهم ، اليوم أي يوم القيامة ﴿ **لا تُظْلَمُ نَفْسٌ** ﴾ من النفوس برة كانت أو فاجرة والنفس الذات والروح ﴿ **شَيْئاً** ﴾ أي شيئاً من الظلم بنقص الثواب ، وزيادة العقاب ﴿ **وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ أي إلاّ جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا ، على الاستمرار من الكفر والمعاصي ، أو إلاّ بما كنتم تعملونه ، أي بمقابلته أو بسببه فقوله (**لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ**) ليأمن المؤمن ، وقوله (**وَلاَ تُجْزَوْنَ**) ليأس الكافر ﴿ **إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ** ﴾ من جملة ما سيقال لهم يومئذ زيادة لحسرتهم وندامتهم ، فإن الإخبار بحسن حال أعدائهم ، إثر بيان سوء حالهم ، مما يزيدهم مساءة ﴿ **الْيَوْمَ** ﴾ أي يوم القيامة مستقرون ﴿ **فِي شُغُلٍ** ﴾ الشغل : العارض الذي يذهل الإنسان ويشغله عما سواه من شؤونه ، لكونه أهم عنده من الكل ، والتنوين للتفخيم ، أي في شغل الشأن ﴿ **فَاكِهُونَ** ﴾ من الفكاهة بفتح الفاء ، وهي طيب العيش والنشاط بالتنعم ، وأما الفُكاهة بالضم فالمزاح ، والمعنى متنعمون بنعيم مقيم ، فائزون بملك كبير ، متلذذون في شغل شاغل ، فشغلهم شغل التلذذ ، لا شغلٌ فيه تعب كشغل أهل الدنيا ، وقد فُسّر على وجوه : منها افتضاض الأبكار وفي الحديث (إن الرجل ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع)[1] فقال رجل من أهل الكتاب : إن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال عليه السلام

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٤ / ٣٦٧ . وأخرجه الإمام الدارمي في الرقاق ١٠٤ .

(يفيض من جسد أحدهم عرق مثل المسك الأذفر فيضر بذلك بطنه) ومنها سماع الأصوات الطيبة ، والنغمات اللذيذة ، ومنها سماع الأوتار ، وسماع أصوات الحور الأبكار ، والأوراق والأشجار ، كما ورد في الحديث (إنَّ في الجنة لمجتمعاً للحور العين ، يُغنين بأصواتٍ لم يسمع الخلائق بمثلها ، يقلن : نحن الخالدات فلا نَبِيدُ ، ونحن الناعماتُ فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنَّا له)[1] ومنها شغلهم عما فيه أهل النار على الإطلاق ، وشغلهم عن أهاليهم في النار لا يهمهم ، ولا يبالون بهم ولا يذكرونهم ، كيلا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم ، والظاهر أن المراد بالشغل ما هم فيه من فنون الملاذ التي تلهيهم عما عداها بالكلية ، أي شغل كان ، وفي الآية إشارة إلى أن أهل النار لا نعيم لهم ، من الطعام والشراب والنكاح وغيرها ، لأن النعيم من تجلي الصفات الجمالية ، وهم ليسوا من أهله ، لأن حالهم القهر والجلال أما عصاة المؤمنين من أهل النار ، فإنهم ينامون في أوقات ، تخفيفاً عليهم بسبب إيمانهم ، فهم وإن عُذِّبوا في نار جهنم إلا أنهم لا يُخلَّدون فيها ، ولذلك خفف عنهم أحياناً وليس ببعيد ، إذ قد ثبت في تذكرة القرطبي أن بعض العصاة ينامون في النار إلى وقت خروجهم منها ، ويكون عذابهم نفس دخولهم في النار ، فإنه عار عظيم وذل كبير ، ألا يرى أن من حُبس في السجن كان هو عذاباً له بالنسبة إلى مرتبته ، وإن لم يعذب بالضرب والقيد ونحوهما ﴿ **هُمْ** ﴾ إلخ استئناف مسوق لبيان كيفية شغلهم بما يزيدهم بهجة وسروراً ، لهم فِيَا هُمْ فيه من الشغل والفكاهة ﴿ **وَأَزْوَاجُهُمْ** ﴾ المراد نساؤهم اللاتي كنَّ لهم في الدنيا ، أو الحور العين ، أو اخِلاَّؤهم ، ويجوز أن يكون الكل مراداً ، فقوله ﴿ **وَأَزْوَاجُهُمْ** ﴾ إشارة إلى عدم الوحشة ، لأن المنفرد يتوحش ، إذا لم يكن له جليس من معارفه ، وإن كان في أقصى المراتب ﴿ **فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ** ﴾ الظلال جمع ظل ، والظلُّ الساتر الذي يسترك من الشمس ، والأرائك جمع أريكة ، وهي سرير في حَجَلة ، موضع يزين بالثياب ، والستور للعروس فإن لم يكن داخل البيت أو القبة لا يسمى أريكة أي معتمدون في ظلال على السرر في الحجال ، والاتكاء على السرر دليل التنعم والفراغ ، فإن قيل : كيف يكون أهل الجنة في ظلال ، والظل إنما يكون حيث تكون الشمس ، وهم لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ؟ أجيب بأن المراد من الظل ، ظل أشجار الجنة من نور العرش ، لئلا يبهر أبصار أهل الجنة ، فإنه أعظم من نور الشمس ، وقال في المفردات : ويعبر بالظل عن العز والمنعة وعن الرفاهة قال تعالى (**وَنُدْخِلُهُمْ ظِلّاً ظَلِيلاً**) كناية عن نضارة العيش انتهى ، وقال الإمام في سورة النساء : إن بلاد العرب كانت في غاية الحرارة ، فكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة ﴿ **لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ** ﴾ إلخ بيان لما يتمتعون به في الجنة من المآكل والمشارب ، ويتلذذون به من الملاذ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في باب صفة الجنة ، وقال : حديث غريب ، وله شواهد في الترغيب والترهيب ٤ / ٢٦٦ ذكرها الحافظ المنذري .

الجسمانية والروحانية ، بعد بيان ما لهم فيها من مجالس الأنس ، ومحافل القدس ، تكميلاً لبيان كيفية ما هم فيه من البهجة ، والمعنى : لهم في الجنة غاية مُناهم ، فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه ، عظيمة لا توصف ، جمالاً وبهجة ، وكمالاً ولذة ، كما روي أن الرمانة منها ، يشبع أهل الدار ، وفيه إشارة إلى أن لا جوع في الجنة ، لأن التفكه لا يكون لدفع ألم الجوع ﴿ **وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ** ﴾ من الدعاء لا من الادّعاء والمعنى : ولهم ما يدعون الله به لأنفسهم ، من مدعو عظيم الشأن ، أو كلّ ما يدعون به كائناً ما كان من أسباب البهجة ، وموجبات السرور ، قال ابن الشيخ : أي ما يصح أن يطلب فهو حاصل لهم قبل الطلب ، كما قال الإمام : ليس معناه أنهم يدعون لأنفسهم شيئاً فيستجاب لهم بعد الطلب ، بل معناه لهم ذلك ، فلا حاجة إلى الدعاء كما إذا سألك أحد شيئاً ، فقلت لك ذلك وإن لم تطلبه ، ويجيء الادعاء بمعنى التمني ﴿ **سَلاَمٌ** ﴾ كأنه قيل ولهم سلام وتحية ، يقال لهم ﴿ **قَوْلاً** ﴾ كائناً ﴿ **مِنْ** ﴾ جهة ﴿ **رَبٌّ رَحِيمٍ** ﴾ أي يسلم عليهم من جهته تعالى بواسطة الملك ، أو بدونها مبالغة في تعظيمهم ، وهذا القول صادر من رب رحيم ، فكان جديراً بأن يعظم أمره ، وفي الحديث (بينا أهل الجنة في نعيمهم ، إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، فذلك قوله « سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٌّ رَحِيمٍ » فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه ، حتى يحتجب عنهم ، فيبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم)[1] .

قال بعضهم : جعل الله سبعة أشياء ثواباً لسبعة أعضاء : لليد (**يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً**) للرِجْلِ (**ادْخُلوها بِسَلامٍ**) للبطن (**كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً**) للعين (**وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ**) للفرج (**وَحُورٌ عين**) للأذن (**سَلاَمٌ قَوْلاً**) للِّسَانِ (**وآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الحمدُ لله ربِّ العَالمينَ**) ثم قال تعالى ﴿ **وامْتَازوا** ﴾ والتميزُ : الفصل بين المتشابهات ، ودلَّ الامتياز على أنه حين يحشر الناس يختلط المؤمن والكافر ، والمخلص والمنافق ، ثم يمتاز أحد الفريقين عن الآخر ، كقوله تعالى (**ويَوْمَ تَقومُ السَّاعةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفرَّقونَ**) أي امتازوا عنهم وانفردوا ﴿ **اليَوْمَ** ﴾ وهو يوم القيامة ، والفصل ، والجزاء ﴿ **أَيُّها المُجْرِمونَ** ﴾ إلى مصيركم فكونوا في السعير وفنون عذابها ولهبها ، لكل كافر بيت من النار ينفرد به ويردم بابه بالنار ، فيكون فيه أبد الآبدين لا يَرى ولا يُرى ، وهو على خلاف ما للمؤمن من الاجتماع بالإخوان ، وعذاب الفرقة عن القرناء والأصحاب من أسوء العذاب وأشد العقاب ، يُشير إلى امتياز المؤمن والكافر في المحشر والمنشر ، بابيضاض وجه المؤمن ، وإسوداد وجه الكافر ، وبإيتاء كتاب المؤمن بيمينه ، وبإيتاء كتاب الكافر بشماله ، وبثقل الميزان ، وبخفته ، وبالنور ، وبالظلمة ، وثبات القدم على

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، قال ابن كثير : وفي إسناده نظر وأخرجه ابن ماجه في سننه برقم ١٧٢ .

الصراط ، وزلة القدم عن الصراط ، وغير ذلك ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ إلخ من جملة ما يقال لهم يوم القيامة بطريق التقريع والإلزام ، والتبكيت بين الأمر بالامتياز وبين الأمر بدخولهم جهنم بقوله تعالى (اصْلَوْهَا الْيَوْمَ) إلخ والعهد والوصيَّةُ : التقدم بأمر فيه خير ومنفعة ، والمراد ههنا ما كلفهم الله تعالى على ألسنة الرسل من الأوامر والنواهي التي من جملتها قوله تعالى (يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ) وقوله تعالى (وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) وغيرها من الآيات الكريمة الواردة في هذا المعنى ، والمراد ببني آدم المجرمون ﴿ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ أن مفسرة للعهد الذي فيه معنى القول بالأمر والنهي ، والمراد بعبادة الشيطان عبادة غير الله ، لأن الشيطان لا يعبده أحد ، ولم يرد عن أحد أنه عبد الشيطان[1] إلا أنه عبَّر عن عبادة غير الله بعبادة الشيطان ، لوقوعها بأمر الشيطان وتزيينه ، والانقياد فيما سوّله ودعا إليه بوسوسته ، فسمى إطاعة الشيطان والانقياد له عبادة له تشبيهاً لها بالعبادة من حيث أن كل واحد منهما ينبىء عن التعظيم ، ولزيادة التحذير والتنفير عنها ، ولوقوعها في مقابلة عبادته تعالى ، قال ابن عباس رضي الله عنهما « من أطاع شيئاً عبده » دلَّ عليه (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ) ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ أي ظاهر العداوة لكم ، يريد أن يصدكم عما جلبتم عليه من الفطرة ، وكلفتم به من الطاعة وهو تعليل لوجوب الانتهاء عن المنهي عنه ، ووجهُ عداوة إبليس لبني آدم أنه تعالى لما أكرم آدم عليه السلام ، عاداه إبليس حسداً ، والعاقل لا يقبل من عدوه ، وإن كان ما يلقاه به خيراً ، إذ لا أمن من مَكْرِه ، فإن ضربة الناصح ، خير من تحية العدو .

﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي ﴾ أي وحِّدوني بالعبادة ، ولا تشركوا معي أحداً ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ فإنه إشارة إلى عبادته تعالى التي هي عبارة عن التوحيد والإسلام ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾ جواب قسم محذوف والخطاب لبني آدم والجملة استئناف مسوق لتشديد التوبيخ ، وتأكيد التقريع ، ببيان أن جناياتهم ليست بنقض العهد فقط ، بل به وبعدم الاتعاظ بما شاهدوا من العقوبات النازلة على الأمم الخالية ، بسبب طاعتهم للشيطان ، والخطاب لمتأخريهم الذين من جملتهم كفار مكة خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم ، والجِبِلُّ : بكسر الجيم وتشديد اللام الخلقُ أي المخلوق ، ونسبة الإضلال إلى الشيطان مجاز ، والمراد إغواؤه ، والمعني وبالله لقد أضل الشيطان منكم خلقاً كثيراً فأصابهم لأجل ذلك ما أصابهم من العقوبات الهائلة ، التي ملأ الآفاق أخبارها ، وبقي مدى الدهر آثارها ، فكيف تعبدون الشيطان وتنقادون لأمره ، مع أنه قد أضل منكم جماعة متعددة ؟ فانحرفوا بإضلاله عن سواء

(١) إلا طائفة اليزيدية في بعض قرى جبل الأكراد شمال سورية فإنهم يزعمون عبادة الشيطان اتقاء شره ، وبعضهم يعبد الفَرْج والعياذ بالله تعالى .

السبيل ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلونَ ﴾ أي أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم ، فلم تكونوا تعقلون شيئاً أصلاً ، حتى ترتدعوا عما كانوا عليه كيلا يحيق بكم العقاب ؟ ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدونَ ﴾ أي توعدونها على ألسنة الرسل في الدنيا ، وهو استئناف يخاطبون به من خزنة جهنم بعد تمام التوبيخ ، والتقريع ، عند إشرافهم على شفير جهنم ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرونَ ﴾ صلى النار قاسى حرها وهو أمر تنكيل وإهانة ، كقوله تعالى (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) والمعنى أدخلوها وقاسوا حرها ، وفنون عذابها اليوم ، بكفركم المستمر في الدنيا ، وفي ذكر « اليوم » ما يوجب شدة ندامتهم وحسرتهم ، يعني أن أيام لذاتكم قد مضت ، ومن هذا الوقت واليوم وقت عذابكم ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ الختم في الأصل الطبع ، ثم استعير للمنع ، وفي الآية التفات إلى الغيبة للإيذان بأن ذكر أحوالهم القبيحة استدعى أن يعرض عنهم ، ويحكى أحوالهم الفظيعة لغيرهم ، مع ما فيه من الإيماء إلى ذلك من مقتضيات الختم ، لأن الخطاب لتلقي الجواب ، وقد انقطع بالكلية ، والمعنى نمنع أفواههم من النطق ، ونفعل بها ما لا يمكنهم معه أن يتكلموا ، فتصير أفواههم كأنها مختومة ، فتعترف جوارحهم بما صدر عنها من الذنوب ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ﴾ باستنطاقنا إياها ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ فتنطق الأربع بما كسبوه من السيآت ، والمراد جميع الجوارح ، لأنَّ كل عضو يعترف بما صدر منه قال بعضهم لما قيل لهم (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدوا الشَّيْطَانَ) جحدوا وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين ، وما عبدنا من دونك من شيء ، وما أطعنا الشيطان في شيء من المنكرات ، فيختم على أفواههم ، وتعترف جوارحهم بمعاصيهم ، وعن أنس رضي الله عنه كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال (هل تدرون مم أضحك ؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال : من مخاطبة العبد ربه يقول : يارب ألم تُجِرْني من الظلم ، يقول : بلى ، فيقول : لاأجيز على نفسي إلا شاهدا مني ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقي ، فتنطق بأعماله ، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعْداً لكنّ وسحقاً فعنكنَّ كنت أناضل)[1] أي ادافع ، والسر في نطق الأعضاء والجوارح بما صدر عنها ، ليعلم أن ما كان عوناً على المعاصي صار شاهداً ، فلا ينبغي لأحد أن يلتفت إلى ما سوى الله لئلا يفتضح ثمة بسبب صحبته ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ ﴾ أي ولو أردنا عقوبة المشركين في الدنيا وهم أهل مكة ﴿ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ ﴾ طمس الشيء إزالة أثره بالكلية ، أي لسوينا أعينهم ومحوناها بأن أزلنا ضوءها وصورتها ، بحيث لا يبدو لها شق ولا جفن ، وتصير مطموسة ممسوخة كسائر أعضائهم ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ الاستباق افتعال ، والصراط من السبيل ما لا التواء فيه ، بل يكون على سبيل القصد أي فأرادوا أن يستبقوا ويتبادروا إلى الطريق

(١) رواه مسلم والنسائي وابن أبي حاتم .

الواسع الذي اعتادوا سلوكه ﴿ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ أي فكيف يبصرون الطريق وجهة السلوك إلى مقاصدهم ، حيث لا عين لهم للإبصار ، فضلاً عن غيره ؟ أي لا يبصرون لأنَ أنَّى بمعنى كيف ، وكيف هنا إنكار وحاصله تهديد لأهل مكة بالطمس ، فإن الله تعالى قادر على ذلك كما فعل بقوم لوط حين كذبوه وراودوه عن ضيفه ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ ﴾ المسخ تحويل الصورة إلى ما هو أقبح منها ، سواء كان ذلك التحويل بقلبها إلى صورة البهيمة مع بقاء الصورة الحيوانية ، أو بقلبها حجراً ونحوه من الجمادات بإبطال القوى الحيوانية . والمعنى ولو نَشَاءُ نسقطهم عن رتبة التكليف ، ودرجة الاعتبار ، لغيَّرنا صورهم بأن جعلناهم قردة وخنازير ، كما فعلنا بقوم موسى أي بني إسرائيل في زمان داود عليه السلام ، أو بأن جعلناهم حجارة ومدرة ﴿ عَلَى مَكَانَتِهِمْ ﴾ بمعنى المكان أي مكانهم ومنزلهم الذي هم فيه قعود وقال بعضهم : لأقعدناهم على أرجلهم وأزمنَّاهم ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا ﴾ ذهاباً وإقبالاً إلى جانب إمامهم ، أي لم يقدروا أن يبرحوا مكانهم بإقبال ﴿ وَلاَ يَرْجِعُونَ ﴾ أي ولا رجوعاً وإدباراً إلى جهة خلفهم ، والآية لبيان أنهم بما هم عليه من الكفر ، وعدم الاتعاظ بما شاهدوا من آثار دثار أمثالهم ، أحقاء بأن يفعل بهم في الدنيا تلك العقوبة ، كما فعل بهم في الآخرة عقوبة الختم ، كأنه قيل : لو نشاء عقوبتهم بما ذكر من الطمس والمسخ لفعلناها ، لكنا لم نفعل جرياً على سنن الرحمة العامة ، الداعية إلى إمهالهم زماناً إلى أن يتوبوا ويؤمنوا ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ ﴾ أي ومن نطل عمره في الدنيا ﴿ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ التنكيسُ هو قلب الشيء على رأسه ، ومنه نكس الولد إذا خرج رجله قبل رأسه ، والنكس في المرض أن يعود في مرضه بعد إفاقته ، والنكس في الخلق الرد إلى أرذل العمر ، والمعنى نقلبه فيه ونخلقه على عكس ما خلقناه أولاً ، فلا يزال يتزايد ضعفه ، وتتناقص قوته ، وتنتقض بنيته ، ويتغير شكله وصورته ، حتى يعود إلى حالة شبيهة بحال الصبي في ضعف الجسد ، وقلة العقل ، والخلو عن الفهم والإدراك .

أَرَاني كُلَّ يَوْمٍ في انْتِقَاصٍ * وَلاَ يَبْقَى عَلَى النُّقْصَانِ شَيءُ

﴿ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي أيرون ذلك فلا يعقلون ؟ أن من قدر على ذلك يقدر على ما ذكر من الطمس ، والمسخ ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴾ رد وإبطال لما كانوا يقولون في حقه عليه السلام من أنه شاعر ، وما يقوله شعر ، والشعر عند العرب اسم للموزون المقفَّى من الكلام ، والشاعر المختص بصناعته ، وفي القاموس : الشعر غلب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية ، وهو كلام موزون ، على سبيل القصد ، والقيد الأخير يخرج ما كان وزنه اتفاقياً نحو كلمات شريفة نبوية ، جاء الوزن فيها اتفاقياً ، من غير قصد إليه وعزم عليه ، نحو قوله عليه السلام حين عثر في بعض الغزوات فأصاب أصبعه حجر فدميت :

هَـــلْ أَنْتِ إلاَّ أُصْبَـــعٌ دَمِيتِ * وَفِي سَبِيـــلِ اللهِ مَـــا لَقِيتِ

وقوله يوم حنين :

أَنَـــا النَّبِيُّ لاَ كَـــذِبْ * أَنَـــا ابْنُ عَبْـــدِ الْمُطَّلِبْ

وقوله يوم الخندق :

بِـــاسْمِ الإِلـــهِ وَبِـــهِ بَـــدَأْنَـــا * وَلَـــوْ عَبَـــدْنَـــا غَيْرَهُ شَقِينَـــا

قال الشريف الجرجاني في حاشية المطالع : والشعرُ وإن كان مفيداً للخواص والعوام ، فإن الناس في باب الإقدام والإحجام أطوع للتخييل منهم للصدق ، ومن ثمَّ قيل : أحسنُ الشعر أكذبُه ، فلهذا لا يليق بالصادق المصدوق واحترافه ، والمعنى : ما علَّمنا محمداً الشعر بتعليم القرآن ، فإن الشعر كلام متكلف موضوع ، ومقال مزخرف مصنوع ، مبني على خيالات وأوهام واهية ، فأين ذلك من التنزيل الجليل المنزه عن مماثلة كلام البشر ، المشحون بفنون الحكم والأحكام الباهرة ، الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة !! ومن أين اشتبه عليهم الشؤون واختلط بهم الظنون ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وفي الآية إشارة أن النبي عليه السلام معلَّم من عند الله ، لأنه تعالى علمه علوم الأولين والآخرين وما علَّمه الشعر ، لأن الشعر قرآن إبليس وكلامه ﴿ **وَمَا يَنْبَغِي لَهُ** ﴾ البغاء الطلب ، والمعنى وما يصح لمحمد الشعر ، ولا يتسخرّ ولا يتسهل ، ولا يتأتى له لو طلبه ، أي جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ، ولم يكن لسانه يجرى به إلا منكسراً عن وزنه بتقديم وتأخير أو نحو ذلك ، فإنه لو كان شاعراً لدخلت الشبهة على كثير من الناس في أن ما جاء به يقوله من عند نفسه ، لأنه شاعر صناعته نظم الكلام ، وقال في إنسان العيون : والحاصل أن الحق الحقيق بالاعتماد ، وبه تجتمع الأقوال ، أن المحرم عليه ﷺ ، إنما هو إنشاء الشعر أي الإتيان بالكلام الموزون عن قصد وزنه ، وهذا هو المعنيُّ بقوله (**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ**) فإن فرض وقوع كلام موزون منه عليه السلام ، لا يكون ذلك شعراً اصطلاحاً لعدم قصد وزنه فليس من الممنوع منه ، والغالب عليه أنه إذا أنشد بيتاً من الشعر متمثلاً له أو مسنداً لقائله لا يأتي به موزوناً ، والظاهر أن المراد « وما ينبغي له » من حيثُ نبوته وصدق لهجته أن يقول الشعر ، لأن المعلَّم من عند الله لا يقول إلا حقاً ، وهذا لا ينافي كونه في نفسه قادراً على النظم والنثر ، ويدل عليه تمييزه بين جيد الشعر ورديئه ، أي موزونه وغير موزونه ، ومن كان مميزاً كيف لا يكون قادراً على النظم في الإلهيات والحكم ، لكن القدرة لا تستلزم الفعل في هذا الباب صوناً عن إطلاق لفظ الشعر والشاعر ، الذي يوهم التخييل والكذب ، وقد كان العرب يعرفون فصاحته وبلاغته ، وعذوبة لفظه ، وحلاوة منطقه ، وحسن سرده ،

والحاصل أن كل كمال إنما هو مأخوذ منه كما سبق في أواخر الشعراء . وكان يحب ﷺ من الشعر ما كان مشتملاً على حكمة ، أو وصف جميل من مكارم الأخلاق ، أو نصرة الإسلام أو ثناء على الله ونصيحة للمسلمين ، وكان أبغض الحديث إليه ﷺ الشعر أي ما كان فيه كذب وقبح وهجو ونحو ذلك ، وأما ما روي من أنه عليه السلام كان يضع لحسان في المسجد منبراً فيقوم عليه يهجو من كان يهجو رسول الله والمؤمنين ، فذلك من قبيل المجاهدة لأعداء الله . ﴿ **إِنْ هُوَ** ﴾ أي ما القرآن ﴿ **إِلاَّ ذِكْرٌ** ﴾ أي عظة من الله تعالى وإرشاد للإنس والجن ﴿ **وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ** ﴾ أي كتاب سماوي بين كونه كذلك ، أو فارق بين الحق والباطل ، فإن القرآن ليس مجرد الوعظ ، بل هو مشتمل على المواعظ والأحكام ونحوها فلا تكرار ﴿ **لِيُنْذِرَ** ﴾ أي القرآن متعلق بقوله وقرآن ، أو بمحذوف دل عليه قوله إلا ذكر وقرآن، أي إنه ذكرٌ أنزل لينذر ويخوف ﴿ **مَنْ كَانَ حَيّاً** ﴾ أي عاقلاً فهياً يميز المصلحة من المفسدة ، ويستخدم قلبه فيما خلق له ، ولا يضيعه فيما لا يعنيه ، فإن الغافل بمنزلة الميت ﴿ **وَيَحِقَّ الْقَوْلُ** ﴾ أي يجب كلمة العذاب وهو (**لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**) ﴿ **عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ المصرّين على الكفر ، لأنه إذا انتفت الريبة ، لم يبق إلا المعاندة فيحق القول عليهم ، وفي إيرادهم بمقابلة من كان حياً إشعار بأنهم لخلودهم عن آثار الحياة وأحكامها التي هي المعرفة ، أموات في الحقيقة كالجنين ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا** ﴾ الهمزة للإنكار والتعجب والضمير للمشركين من أهل مكة ، أي ألم يتفكروا ولم يعلموا علماً يقينياً هو في حكم المعاينة ، أي قد رأوا وعلموا ﴿ **أَنَّا** ﴾ بمقتضى جودنا ﴿ **خَلَقْنَا لَهُمْ** ﴾ أي لأجلهم وانتفاعهم ﴿ **مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا** ﴾ أي مما تولينا إحداثه بالذات ، لم يشاركنا فيه غيرنا بمعاونةٍ وتَسَبّبٍ ﴿ **أَنْعَاماً** ﴾ جمع نعم وهي الإبل ، والبقر ، والغنم ، والمعز ، مما في سيره نعومة ، أي لين ، ولا يدخل فيها الخيل والبغال والحمير لشدة وطئها الأرض ، وخص بالذكر من بين سائر ما خلق الله من المعادن والنبات والحيوان غير الأنعام ، لما فيها من بدائع الفطرة كما في الإبل وكثرة المنافع كما في البقر والغنم أي الضأن والمعز ﴿ **فَهُمْ لَهَا مَا لِكُونَ** ﴾ أي فهم لسبب ذلك مالكون لتلك الأنعام بتمليكنا إياها ، وهم متصرفون فيها يختصون بالانتفاع بها ، لا يزاحمهم في ذلك غيرهم ﴿ **وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ** ﴾ والمعنى وصيرنا تلك الأنعام منقادة لهم ، بحيث لا تستعصي عليهم في شيء مما يريدون بها ، من الركوب ، والحمل ، والسوق إلى ما شاؤا ، والذبح مع كمال قوّتها وقدرتها ، فهو نعمة من النعم الظاهرة ، ولهذا ألزم الله الراكب أن يشكر هذه النعمة ، ويُسبِّح بقوله (**سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**) ﴿ **فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ** ﴾ بمعنى المركوب كالحلوب بمعنى المحلوب أي فبعض منها مركوبهم ، أي معظم منافعها الركوب ، وقطع المسافات ﴿ **وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ** ﴾ أي وبعض منها يأكلون لحمه ، وشحمه ﴿ **وَلَهُمْ فِيهَا** ﴾ أي في الأنعام المركوبة ، والمأكولة ﴿ **مَنَافِعُ** ﴾ أُخر غير الركوب والأكل ، كالجلود ، والأصواف ، والأوبار ، والأشعار والنسيلة أي

النتائج وكالحراثة بالثيران ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ من اللبن ﴿ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ أي أيشاهدون هذه النعم التي يتنعمون بها ، فلا يشكرون المنعم بها بأن يوحدوه ، ولا يشركوا به في العادة ، فقد تولى المنعم إحداث تلك النعم ليكون إحداثها ذريعة إلى أن يشكروهُ ، فجعلوها وسيلة إلى الكفران ﴿ وَاتَّخَذُوا ﴾ أي مع هذه الوجوه من الإحسان ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أي متجاوزين الله المتفرد بالقدرة ، المتفضل بالنعمة ﴿ آلِهَةً ﴾ من الأصنام ، وأشركوها به تعالى في العبادة ﴿ لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ رجاء أن ينصروا من جهتهم فيما أصابوا من الأمور ، أو ليشفعوا لهم في الآخرة ، ثم استأنف فقال ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أي لا تقدر آلهتهم على نصرهم ﴿ وَهُمْ ﴾ أي المشركون ﴿ لَهُمْ ﴾ أي لآلهتهم ﴿ جُنْدٌ ﴾ عسكر ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ أثرهم في النار ، أي يشيعون عند مساقهم إلى النار ليجعلوا وقوداً لها ، وروي أنه يؤتى بكل معبود من دون الله ومعه أتباعه كأنهم جنده ، فيحضرون في النار ، هذا لمن أمر بعبادة نفسه أو كان جماداً ﴿ فَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ النهي وإن كان بحسب الظاهر متوجهاً إلى قولهم ، لكنه في الحقيقة متوجه إلى رسول الله ﷺ ، ونهي له عن التأثر منه ، أي إذا سمعت قولهم في الله إن له شريكاً وولداً وأنك كاذب شاعر ، وتألمت من إيذائهم وجفائهم ، فتسلَّ بإحاطة علمي بجميع أحوالهم ، وبأني أجازيهم على تكذيبهم إياك ، وإشراكهم بي ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ تعليل صريح للنهي ، أي نعلم بعلمنا الحضوري عموم ما يضمرون في صدورهم من العقائد الفاسدة ، ومن العداوة والبغض ، وجميع ما يظهرون بألسنتهم من كلمات الكفر والشرك بالله والإنكار للرسالة ، فنجازيهم على جميع جناياتهم الخافية ، والبادية ، وتقديم السر على العلن للمبالغة في بيان شمول علمه تعالى لجميع المعلومات ، كأن علمه تعالى بما يُسرّون ، أقدم منه بما يعلنون ، مع استوائهما في الحقيقة ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان إنكارهم البعث بعد ما شاهدوا في أنفسهم أوضح دلائله ، كما أن ما سبق مسوق لبيان بطلان إشراكهم بالله ، بعد ما عاينوا فيما بأيديهم ما يوجب التوحيد والإسلام . والهمزة للإنكار والتعجيب ، رُوي أن جماعة من كُفّارِ قريش منهم أُبيّ بن خلف ووهب بن حذافة بن جمح ، وأبو جهل ، والعاص بن وائل ، والوليد بن المغيرة ، اجتمعوا يوماً فقال أُبيّ بن خلف : ألا ترون إلى ما يقول محمد أن الله يبعث الأموات ، ثم قال : واللات والعُزّى لأذهبن إليه ولأخصمنه ، وأخذ عظماً بالياً فجعل يفتُّه بيده ، ويقول يا محمد : إن الله يحيي هذا بعد ما رَمّ ؟ قال عليه السلام (نعم ، يبعثك ويدخلك جهنم) فنزلت رداً عليه في إنكاره البعث ، لكنها عامة تصلح رداً لكل من ينكره من الإنسان ، لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والمعنى ألم يتفكر الإنسان المنكر للبعث أيَّاً من كان ، ولم يعلم علماً يقينياً أنا خلقناه من نطفة ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ شديد الخصومة والجدال بالباطل ﴿ مُبِينٌ ﴾ أي مبين في خصومته ، أو مظهر للحجة كأنه قيل : أولم ير أنا خلقناه من

أخَسّ الأشياء وأمهنها ، ففاجأ خصومتنا في أمر يشهد بصحته وتحققه ، مبدأ فطرته شهادة بينة ، فهذا حال الإنسان الجاهل الغافل ، ونعم ما قيل :

أعلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ * فَلَمَّا استَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي
وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ القَوَافِي * فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِي

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً ﴾ أي أورد في شأننا قصة عجيبة في نفس الأمر ، وهي في الغرابة والبعد عن العقول كالمثل ، وهي إنكار إحيائنا العظام ، ونفي قدرتنا عليه ، والمثل يستعار للأمر العجيب تشبيهاً له في الغرابة بالمثل العرفي الذي هو القول السائر ، ولا شك أن نفي قدرة الله على البعث ، مع أنه من جملة الممكنات ، وأنه تعالى على كل شيء قدير ، من أعجب العجائب ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ أي خلقنا إياه من النطفة ، أي ترك التفكر في بدء خلقه ، ليدله ذلك على قدرته على البعث ، فإنه لا فرق بينهما من حيث إن كلاً منهما إحياء موات وجماد ﴿ قَالَ ﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ عن حكاية ضرب المثل ، كأنه قيل أي مثل ضرب ؟ أو ماذا قال ؟ فقيل قال ﴿ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ ﴾ منكراً له أشد النكير مؤكداً له بقوله ﴿ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ أي بالية أشد البلى بعيدة من الحياة غاية البعد ، حيث لا جلد عليها ، ولا لحم ، ولا عروق ولا أعصاب ، يقال رمّ أي بلى فهو رميم ﴿ قُلْ ﴾ يا محمدُ تبكيتاً لذلك الإنسان المنكر ، بتذكير ما نسيه من الفطرة الدالة على حقيقة الحال ، وإرشاده الطريقة للاستشهاد بها ﴿ يُحْيِيهَا ﴾ أي تلك العظام ﴿ الَّذِي أَنْشَأَها ﴾ أوجدها ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي في أول مرة ، ولم تكن شيئاً ، فإن قدرته كما هي ، لاستحالة التغير فيها ﴿ وَهُوَ ﴾ أي الله المنشىء ﴿ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في العلم بتفاصيل كيفيات الخلق والإيجاد ، إنشاءً وإعادة ، محيط بجميع الأجزاء المتفتتة المتبددة ، لكل شخص من الأشخاص ، أصولها وفروعها ، فيعيد كلاً من ذلك على النمط السابق مع القوى التي كانت قبل ، وفي بحر العلوم : بليغ العلم بكل شيء من المخلوقات ، ولا يخفى عليه شيء من الأجزاء المتفتتة وأصولها وفروعها فإذا أراد أن يحيي الموتى ، يجمع أجزاءهم الأصلية ويعيد الأرواح إليها ، ويحيون كما كانوا أحياء ، وهو معنى حشر الأجساد والأرواح ، وبعث الموتى ، واعلم أن المنكرين للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلاً ولا شبهة ، بل اكتفى بمجرد الاستبعاد وهم الأكثرون ، كقولهم (**أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**) ؟ وقولهم (**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**) ومن قال (**مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِي رَمِيمٌ**) قاله على طريق الاستبعاد ، فأبطل الله استبعادهم بقوله (**ونَسِيَ خَلْقَهُ**) أي نسي أنا خلقناه من تراب ، ثم من نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم جعلنا له من ناصيته إلى قدمه أعضاء ، مختلفة الصور ، وما اكتفينا بذلك حتى أودعناه ما ليس من قبيل هذه الأجرام ، وهو

النطق والعقل ، اللذان بهما استحق الإكرام ، فإن كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد ، فهلاَّ يستبعدون خلق الناطق العاقل ، من نطفة قذرةٍ ، لم تكن محلاً للحياة أصلاً ، ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى مَحَلٍ كانا فيه ؟، ومنهم من ذكر شبهة وإن كانت في آخرها تعود إلى مجرد الاستبعاد ، وهي على وجهين : الأول : أنه بعد العدم لم يبق شيءٌ فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود ؟ فأجاب تعالى عن هذه الشبهة بقوله (**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ**) يعني أنه كما خلق الإنسان ولم يك شيئاً مذكوراً ، كذلك يعيده وإن لم يَبْق شيئاً مذكوراً ، والثاني : أن من تفرقت أجزاؤه في مشارق العالم ومغاربه ، وصار بعضه في أبدان السباع ، وبعضه في حواصل الطيور ، وبعضه في جدران المنازل ، كيف يجتمع ؟ وأبعد من هذه أنه لو أكل إنسان إنساناً ، وصارت أجزاء المأكول داخلة في أجزاء الآكل ، فإن أعيدت أجزاء الآكل لا يبقى للمأكول أجزاء تتخلق منها أعضاؤه ، وإن أعيدت الأجزاء المأكولة إلى بدن المأكول ، وأعيد المأكول بأجزائه لا تبقى للآكل أجزاء يتخلق منها ، فأبطل الله هذه الشبهة بقوله (**وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**) ووجهه أن في الآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية ، وفي المأكول أيضاً كذلك ، فإذا أكل إنسان إنساناً صارت الأجزاء الأصلية للمأكول فضلة بالنسبة إلى الآكل والأجزاء الأصلية للآكل ، وهي ما كان قبل الأكل هي التي تجمع وتعاد مع الآكل ، والأجزاء المأكولة مع المأكول ، والله بكل خلق عليم ، يعلم الأصل من الفضل ، فيجمع الأجزاء الأصلية للآكل ، ويجمع الأجزاء الأصلية للمأكول ، وينفخ فيه الروح ، وكذلك يجمع الأجزاء المتفرقة في البقاع المتباعدة بحكمته وقدرته ، قال بعض الأفاضل : لما كان تمسكهم بكون العظام رميمة من وجهين : أحدهما اختلاط أجزاء الأبدان والأعضاء بعضها مع بعض ، فكيف يميز أجزاء رميمة يابسة جداً ، مع أن الحياة تستدعي رطوبة البدن ؟ أشار إلى جواب الأول بقوله (**وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**) تمييز أجزاء الأبدان والأعضاء ، وإلى جواب الثاني بقوله ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً** ﴾ والمعنى خلق لأجلكم ومنفعتكم من الشجر الأخضر ، كالمرخ والعفار ناراً ، والمرخ شجرٌ سريع الوري ، والعفار شجر آخر تقدح منه النار ﴿ **فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ** ﴾ أي تشعلون النار من ذلك الشجر ، لا تشكون في أنها نار تخرج منه ، كذلك لا تشكون في أن الله يحيي الموتى ، ويخرجهم من القبور للسؤال والجزاء من الثواب والعقاب ، فإنه من قدر على إحداث النار وإخراجها من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفية ، كان أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضاً فطرأ عليه اليبوسة والبلى ، وعلم منه أن الله تعالى جامع الأضداد ، ألا يرى أنه جمع الماء والنار في الخشب فلا الماء يطفىء النار ولا النار تحرق الخشب ﴿ **أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾ الهمزة للإنكار ، وإنكار النفي إيجاب ، والمعنى أليس القادر المقتدر الذي أنشأ البشر أول مرة ، والذي جعل لهم من الشجر الأخضر ناراً ، أليس الذي خلق السموات وما فيها ، والأرض وما

عليها ، مع كبر جرمها وعظم شأنها ؟ أليس هذا الإله الكبير القدير ، الذي يفعل العجائب ﴿ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ ﴾ في الآخرة ﴿ مِثْلَهُمْ ﴾ أي مثل الناس في الصغر والحقارة ، ويعيدهم أحياء كما كانوا ؟ فإن بديهة العقل قاضية بأن من قدر على خلقها ، فهو على خلق الأناسي أقدر ، كما قال تعالى (لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) أو مثلهم أهل الجنة جرد مرد وإن الجهني ضرسه مثل أحد وغير ذلك ، وقال الطيبي : لفظ مثل ههنا كناية عن المخاطبين ، نحو قولك مثلك يجود ، أي على أن يخلقهم ﴿ بَلَىٰ ﴾ جواب من جهته تعالى ، وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكاري من تقرير ما بعد النفي ، و « بلى » مختصة بإيجاب النفي أي بلى إنه قادر كقوله تعالى (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى) أي بلى أنتَ ربنا ، وفي المفردات بلى جواب استفهام مقترن بنفي و « نعم » يقال في الاستفهام المجرد نحو (هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ) ولا يقال ههنا بلى ، فإذا قيل ما عندي شيء فقلت بلى فهو رد لكلامه ، فإذا قلت نعم فإقرار منك انتهى ﴿ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ أي بلى هو قادر على ذلك ، والمبالغ في العلم والخلق كيفاً وكمّاً ، وقال بعضهم : أي كثير المخلوقات والمعلومات ، يخلق خلقاً بعد خلق ، ويعلم جميع الخلق ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ ﴾ أي شأنه تعالى ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً ﴾ وجود شيء من الأشياء خلقه ﴿ أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ ﴾ أي أن يعلق به قدرته ﴿ فَيَكُونُ ﴾ أي فهو يحدث من غير توقف على شيء آخر أصلاً ، وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى فيما أراده بأمر الآمر المطاع ، للمأمور المطيع ، في سرعة حصول المأمور به ، من غير توقف على شيء ما ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الملكوتُ والرَّحموت والجبروت مصادر ، زيدت الواو والتاء فيها ، للمبالغة في الملك والرحمة والجبر ، قال في المفردات : الملكوت مختص بملك الله تعالى ، والملكُ : ضبط الشيء والتصرف فيه بالأمر والنهي ، أي فإذا تقرر ما يوجب ، تنزهه تعالى ، وتنزيهه أكمل إيجاب ، فنزهوا الله الذي تحت قدرته ملك كل شيء ، عما وصفوه تعالى به من العجز ، وتعجبوا مما قالوه في شأنه تعالى من النقصان ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ لا إلى غيره ، إذ لا مالك سواه على الإطلاق ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ تُردون بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم ، وهو وعد للمقرّين ، ووعيد للمنكرين ، ورد في فضل سورة يس وقراءتها أحاديث عديدة ، منها ما ورد في الحديث (اقرأوا سورة يس على موتاكم)[1] ومنها قوله ﷺ : (إنّ لكل شيءٍ قلباً ، وقلب القرآن يَس)[2] ، قيل : إنما جعل يس قلب القرآن ، أي أصله ولبّه ، لأن المقصود الأهم من إنزال الكتب ، بيان أنهم يحشرون ، وأنهم جميعاً لديه محضرون ، وأن المطيعين يجازون بأحسن ما كانوا يعملون ، ويمتاز عنهم المجرمون ، وهذا كله مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه وأتمه ، ونقل عن الغزالي أنه

(١) رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد والحاكم ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٢١٨ .

(٢) رواه البزار والترمذي والدارمي من حديث أنس ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٠٥ .

إنما كانت قلب القرآن ، لأن الإيمان صحته بالإعتراف بالحشر والنشر ، وهذا المعنى مقرر فيها بأبلغ وجه ، فشابهت القلب الذي يصح به البدن .

وقيل : القلب أميرٌ على الجسد ، وكذلك يسن أميرٌ على سائر السور ، موجود فيها كل شيء ، ولما كان القلب محلاً للمعاني الجليلة ، وموطناً للإدراكات السامية ، وسبباً لصلاح البدن وفساده ، شبهت به هذه السورة الكريمة ، لأنها جمعت الأصول الثلاثة للعقيدة الإسلامية الصافية ألا وهي « الوحدانية ، والرسالة ، والحشر » نسأل الله أن يحشرنا في زمرة عباده المتقين ، ويختم لنا بالإيمان الكامل مع صفاء اليقين ، ويهوّن علينا سكرات الموت عند لقائه إنه نعم المولى ونعم النصير .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة يس »





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **والصَّافَّاتِ صَفّاً** ﴾ الواو للقسم ، والصافات جمع صافة بمعنى جماعة صافة ، فالصافات بمعنى الجماعات الصافات ، والصفُّ أن يجعل الشيء على خط مستقيم ، تقول : صففتُ القوم فاصطفوا إذا أقمتهم على خط مستو ، لأداء الصلاة أو لأجل الحرب ، أقسم الله سبحانه بالملائكة الذين يصفون للعبادة في السماء ، ويتراصون في الصف ، أي بطوائف الملائكة الفاعلات للصفوف أو الصافات أنفسها ، أي الناظمات لها في سلك الصفوف بقيامها في مواقف الطاعة ومنازل الخدمة وفي الحديث (ألا تَصفُّون كما تصفّ الملائكة عند ربهم ؟ قلنا : وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال : يُتِمّون الصفوف المقدّمة ويتراصون في الصف)[1] أو الملائكة المصطفون في الهواء ، يسبِّحون ، ولهم مراتب يقومون عليها صفوفاً كما يصطف المصلون وقال بعضهم : الصافات أجنحتها في الهواء ، منتظرة لأمر الله تعالى ، فيما يتعلق بالتدبير ، وقيل غير ذلك ، وفي الآية بيان شرف الملائكة ، حيث أقسم بهم ، وفَضْلِ الصفوف ﴿ **فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً** ﴾ يقال زجرت البعير إذا حثثته ، أي الفاعلات للزجر ، ومن جملة ذلك زجر العباد عن المعاصي ،وزجر الشيطان عن الوسوسة والإغواء ، وقال بعضهم : يعني الملائكة الذين يزجرون السحاب ، ويسوقونه إلى البلد الذي لا مطر به ﴿ **فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً** ﴾ أي التاليات ذكراً عظيم الشأن ، من آيات الله وكتبه المنزلة على الأنبياء عليهم السلام ، والذين يذكرون الله بالتسبيح والتقديس ، والتحميد والتمجيد ﴿ **إِنَّ إِلَهَكُمْ** ﴾ يا أهل مكة ، فإن الآية نزلت فيهم ، إذ كانوا يقولون بطريق التعجب : أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ ﴿ **لَوَاحِدٌ** ﴾ لا شريك له ، فلا تتخذوا آلهة من الأصنام ، والدنيا ، والهوى ، والشيطان ، والجملة جواب للقسم ، والفائدة فيه تعظيم المقسم به ، وإظهار شرفه ، وتأكيد المقسم عليه ، على ما هو المألوف في كلامهم ، وقد أنزل القرآن على لغتهم ، وعلى أسلوبهم في محاوراتهم ، والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة فإذا وصف الله عز وجل بالواحد ، فمعناه هو الذي لا يصح عليه التجزُّؤ ولا التكثر ، ولصعوبة هذه الوحدة قال الله تعالى (**وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**) قال الغزالي رحمه الله : الواحد هو الذي لا يتجزى ولا يثنّى ، أما الذي لا يتجزأ ، فكالجوهر الواحد ، الذي لا ينقسم ، فيقال إنه واحد بمعنى أنه لا جزء له ، وكذا النقطة لا جزء لها ، والله تعالى واحد ، بمعنى أنه يستحيل تقدير الانقسام على ذاته ، وأما الذي لا يُثنىّ فهو الذي لا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، وأبو داود والنسائي ، وانظر جامع الأصول ٥ / ٦١٥

نظير لـه ، كالشمس مثلاً ، فـإنهـا وإن كانت قـابلـة للقسمـة بـالـوهم متجـزئـة في ذاتهـا ، لأنهـا من قبيـل الأجسام ، فهي لا نظير لهـا فليس في الوجود موجود إلا ويتصور أن يشـاركـه فيـه غيره ، إلا الله تعـالى فإنه الواحد المطلق ، أزلاً وأبداً .

كما قالوا :

وفي كُـلِّ شَيءٍ لـــه آيَـــةٌ * تَـــدُلُّ عَلَى أَنَّـــهُ وَاحِـــدُ

وخاصـة هـذا الاسم الواحـد إخراج الكون من القلب ، وقـد سمع عليـه السلام رجلاً يقول في دعـائـه (اللهم إني أسألك باسمك الله ، الواحد الأحد ، الفرد الصمـد ، الـذي لم يلـد ولم يولـد ، ولم يكن لـه كفواً أحد ، فقـال : سـأل الله بـاسمـه الأعظم ، الـذي إذا دُعي بـه أجـاب ، وإذا سئل بـه أعطى)[1] ﴿ **رَبُّ السَّمٰواتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾ أي مـالـك السمـوات والأرض ومـا بينهما من المـوجـودات ، ومربيهـا ومبلّغها إلى كمالاتها ﴿ **وَرَبُّ المَشارِقِ** ﴾ أي مشارق الشمس ، وهي ثلاثمـائـة وستون مشرقـاً ، تشرق كل يوم من مشرق منها ، وبحسبها تختلف المغارب ، ولذلـك اكتفى بـذكرهـا ، يعني إذا كانت المشـارق بهـذا العدد ، تكون المغارب أيضاً بهذا العـدد ، فتغرب في كل يوم من مغرب منهـا ، وأمـا قولـه تعـالى (**رَبُّ المَشْرِقَيْنِ ورَبُّ المَغْرِبَيْنِ** ﴾ فهما مشرقـا الصيف والشتـاء ، ومغربـاهمـا ، وقـولـه (**رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ**) أراد به الجهة ، فالمشرق جهة ، والمغرب جهة ، وإعادة الرب في المشارق ، لغـايـة ظهور آثـار الربوبية فيها وتجددها كل يوم ﴿ **إِنَّا زَيَّنَّـا السَّمَـاءَ الـدُّنْيَـا** ﴾ أي القربى منكم ومن الأرض ، والـدنيـا تأنيث الأدنى ، بمعنى الأقرب ﴿ **بِزِينَةٍ** ﴾ عجيبة بديعة ﴿ **الكَوَاكِبِ** ﴾ فإن الكواكب بأنفسها وأوضـاع بعضها عن بعض زينة وأي زينة ، ﴿ **وَحِفْظاً** ﴾ منصوب بعطفه على زينة باعتبـار المعنى ، كأنـه قيل : إنا خلقنـا الكواكب زينـة للسماء ، وحفظـاً برمي الشهب ﴿ **مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَـارِدٍ** ﴾ أي خـارج عن الطـاعـة متعرٍ عن الخير ﴿ **لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى المَلإِ الأَعْلٰى** ﴾ أصـل يسمّعـون يتسمعـون فـأدغمت التـاء في السين وشـددت ، والتسمع ضُمّن معنى الإصغـاء ، والملأُ : جمـاعـة يجتمعون على رأي فيـملأون العيـون رواء ، والنفوس جلالة وبهاء ، والملأ الأعلى الملائكـة أو أشرافهم وصفوا بـالعلو لسكونهم في السموات العلى ، والجن والإنس هم الملأ الأسفل ، لأنهم سكان الأرض وهذا مسوق لبيان حالهم بعـد بيـان حفـظ السماء منهم ، مع التنبيه على كيفية الحفظ وما يعتريهم في أثناء ذلك من العذاب ، والمعنى لا يتطلبون السماء والإصغـاء إلى الملائكـة ﴿ **وَيُقْـذَفُونَ** ﴾ القـذف الرمي البعيـد ، أي يرمون ﴿ **مِنْ كُلِّ جَـانِبٍ** ﴾ من جميع جـوانب السماء ، إذا قصـدوا الصعود إليهـا ﴿ **دُحُوراً** ﴾ علـة للقـذف ، أي للـدحـور وهـو الطرد ﴿ **وَلَهُمْ** ﴾ في

(١) رواه أبو داود والترمذي وحسّنه ، ورواه أبن ماجه والحاكم بنحوه ، وانظر الترغيب والترهيب ٢/ ٤٨٥ .

الآخرة غير ما في الدنيا من عذاب الرجم بالشهب ﴿ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ دائم غير منقطع ، من وصب الأمر إذا دام ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ﴾ الخطف : الاختلاسُ بسرعة ، والمراد اختلاس الكلام أي كلام الملائكة مسارقة أي لا يسمع جماعة الشياطين إلا الشيطان الذي اختلس الخطفة أي المرة الواحدة يعني كلمة واحدة من كلام الملائكة ﴿ فَأَتْبَعَهُ ﴾ أي تَبِعه ولحقه ﴿ شِهَابٌ ﴾ شعلة من نار ساطعة ، والمراد هنا ما يرى منقضاً من السماء ﴿ ثَاقِبٌ ﴾ الثاقب المضيء الذي يثقب بنوره وإضاءته ما يقع عليه كأنه يثقب الجو بضوئه يرجم به الشياطين إذا صعدوا لاستراق السمع ، فمنهم من يدركه الشهاب فيحرقه ، ومنهم من يدركه الشهاب قبل أن يلقيه ، وربما ألقاه قبل أن يدركه ، ولأجل أن يصيبهم مرة ويسلمون أخرى لا يرتدعون عن الاستراق بالكلية ، كراكب البحر للتجارة فإنه قد يصيبه الموج وقد لا يصيبه ولا يقال : إن الشيطان من النار فلا يحترق ، لأنه ليس من النار الصِّرف ، كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص ، مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها ، ثم إن المراد بالشهاب شعلة نار تنفصل من النجم ، لأنه النجم نفسه ، لأنه قار في الفلك على حاله ، وقالت الفلاسفة : إن الشهب إنما هي أجزاء نارية تحصل في الجو عند ارتفاع الأبخرة المتصاعدة واتصالها بالنار التي دون الفلك انتهى ، وقال بعض كبار أهل الحقيقة : لولا الأثير الذي هو بين السماء والأرض ، ما كان حيوانٌ ولا نبات ، ولا معدن في الأرض ، لشدة البرد الذي في السماء الدنيا ، فهو يسخن العالم لتسري فيه الحياة بتقدير العزيز العليم ، وهذا الأثير الذي هو ركن النار ، متصل بالهواء ، والهواء حار رطب ولما في الهواء من الرطوبة إذا اتصل بهذا الأثير أثر فيه لتحركه اشتعالاً في بعض أجزاء الهواء الرطبة ، فبدت الكواكب ذوات الأذناب ، لأنها هواء محترق لا مشتعل ، وهي سريعة الاندفاع ، وإن أردت تحقيق هذا فانظر إلى شرر النار ، إذا ضرب الهواء النار بالمروحة ، يتطاير منها شرر مثل الخيوط في رأى العين ، ثم تنطفىء ، كذلك هذه الكواكب ، وقد جعلها الله رجوماً للشياطين ، الذين هم كفار الجن كما قال الله تعالى انتهى ، قال قتادة : جعل الله النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يُهْتَدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به ، فعلى طالب الحق أن يرجم شيطانه بنور التوحيد والعرفان ، كيلا يحوم حول جَنَانه ، ويكون كالملأ الأعلى في الاشتغال بشأنه ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ خطاب للنبي عليه السلام ، والضمير لمشركي مكة والفتيا والفتوى الجواب عما يشكل من الأحكام ، والمراد بالاستفتاء هنا الإستخبار كما في قوله تعالى في قصة أهل الكهف (وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا) وليس المراد سؤال الاستفهام بل التوبيخ ، والمعنى : فاستخبر يا محمد مشركي مكة توبيخاً ، وأسألهم سؤال محاجة ﴿ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ﴾ أقوى خلقة وأمتن بنية ، أو أصعب على الخالق خلقاً ، أو أشق إيجاداً ﴿ أَمْ مَّنْ ﴾ أي أم الذي ﴿ خَلَقْنَا ﴾ من الملائكة والسماء والأرض ، ومسا بينهما ، والمشارق ، والكواكب والشهب الثواقب ،

والشياطين المردة ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ ﴾ أي خلقنا أصلهم ، وهو آدم وهم من نسله ﴿ مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ ﴾ لاصق يلصق ويعلق باليد لا رمل فيه ، والمراد إثبات المعاد ، ورد استحالتهم ، وتقريره أن استحالة المعاد إما لعدم قابلية المادة ، ومادتهم الأصلية هي الطين اللازب الحاصل من ضم الجزء المائي إلى الجزء الأرضي ، وهما باقيان قابلان الانضمام بعد ، وإما لعدم قدرة الفاعل ، وهو باطل ، فإن من قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة ، قادر على خلق الإنسان وإعادته ، سيما ومن الطين اللازب بدأهم وقدرته ذاتية لا تتغير ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ إضراب عن الأمر بالاستفتاء ، أي لا تستفتهم فإنهم معاندون ومكابرون لا ينفع فيهم الاستفتاء ، وانظر إلى تفاوت حالك وحالهم ، أنت تعجب من قدرة الله تعالى على خلق هذه الخلائق العظيمة ، ومن قدرته على الإعادة ، وإنكارهم للبعث ، وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث ، وقال قتادة : عجب نبي الله من هذا القرآن حين أنزل ، وضلال بني آدم ، وذلك أن النبي عليه السلام كان يظن أن كل من يسمع القرآن يؤمن به فلما سمع المشركون القرآن فسخروا منه ، ولم يؤمنوا عجب من ذلك النبي عليه السلام ، فقال الله تعالى (بَلْ عَجِبْتَ ويَسْخَرُونَ) والسخرية الاستهزاء ، والعجب والتعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء ، ولا يصح على الله التعجب ، إذ هو علاّم الغيوب لا يخفى عليه خافية ، والعجب في صفة الله تعالى قد يكون بمعنى الإنكار الشديد والذم كما في قراءة « بل عجبتُ » بضم التاء ، وقد يكون بمعنى الاستحسان والرضى كما في حديث (عجب ربك من شاب ليست له صبوة)[1] ، وقد سئل الجنيد عن هذه الآية فقال إن الله تعالى لا يعجب من شيء ، ولكن الله وافق رسوله فقال (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ)أي هو كما تقوله ، وفي المفردات : بل عجبتَ ويسخرون أي عجبت من إنكارهم البعث لشدة تحققك بمعرفته ، ويسخرون بجهلهم ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا ﴾ أي ودأبهم المستمر أنهم إذا وعظوا بشيء من المواعظ ﴿ لاَ يَذْكُرُونَ ﴾ لا يتعظون وفيه إشارة إلى أنهم نسوا الله غاية النسيان بحيث لا يذكرونه ، وإذا ذُكّروا يعني بالله تعالى لا يتذكرون ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ أي معجزة تدل على صدق القائل بالبعث ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ السين والتاء للمبالغة والتأكيد ، أي يبالغون في السخرية والاستهزاء ، أو للطلب على أصله ، أي يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا ﴾ هذا إشارة إلى ما يرونه من الآية الباهرة ﴿ إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ظاهر سحريته ﴿ أَئِذَا ﴾ أي أنبعث إذا ﴿ مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ﴾ أي كان بعض أجزائنا تراباً ، وبعضها عظاماً ، وتقديم التراب لأنه منقلب من الأجزاء البالية ﴿ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أي لا نبعث ، فإن الهمزة للإنكار الذي يراد به النفي ﴿ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ أي وآباؤنا الأقدمون أيضاً مبعوثون ؟ ومرادهم زيادة الاستبعاد بناء على أنهم أقدم ، فبعثُهم أبعد على زعمهم ﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً

(١) لم أعثر على من أخرجه فيما بين يديَّ من المراجع ، ولعله من كلام بعض السلف .

لهم ﴿ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ الخطاب لهم ولآبائهم على التغليب ، والدخور أشد الصَغَار والذلة أي نعم كلكم مبعثون ، والحال أنكم صاغرون أذلاء على رغم منكم ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي لا تحتاج إلى صيحةٍ أخرى ، أي فإذا أمر الله بالبعث فإنما هي صيحة واحدة ، والزجرةُ : الصيحة ، من زَجَر الراعي غنمه إذا صاح عليها ، وهي النفخة الثانية ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ إذا للمفاجأة أي فإذاهُمْ قائمون من مراقدهم أحياء ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ حيارى أو يبصرون كما كانوا ، أو ينتظرون ما يفعل بهم ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي المبعوثون ، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق والتقرر ﴿ يَاوَيْلَنَا ﴾ الويل الهلاك أي يا هلاكنا احضر فهذا أوان حضورك ﴿هذا يوْمُ الدِّينِ﴾ تعليل لدعائهم الويل أي اليوم الذي نجازى فيه بأعمالنا، وإنما علموا ذلك لأنهم كانوا يسمعون في الدنيا انهم يبعثون ويحاسبون ويجزون بأعمالهم ، فلما شاهدوا البعث أيقنوا بما بعده أيضا ، فتقول لهم الملائكة بطريق التوبيخ والتقريع ﴿ هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ ﴾ أي القضاء ، أو الفرق بين فريقي الهدى والضلال ﴿ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي كنتم على الإصرار تكذبون به ، وتقولون إذ كذب ليس له أصل أبداً ، فيقول الله تعالى للملائكة ﴿ أُحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ الحشر يجيء بمعنى الجمع والسوق ، وهو المراد ههنا ، والمراد بالظالمين المشركون من بني آدم ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ أي أشباههم من أهل الشرك والكفر ، والنفاق ، والعصيان ، عابد الصنم مع عبدته ، وعابد الكواكب مع عبدتها ، واليهود مع اليهود ، والنصارى مع النصارى ، والمجوس مع المجوس ، وغيرهم من الملل المختلفة ، ويجوز أن يكون المراد بالأزواج نساءهم اللاتي على دينهم ، أو قرناءهم من الشياطين كل كافر مع شيطانه في سلسلة ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ من الأصنام ونحوها ، زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الجَحِيمِ ﴾ الضمير للظالمين وأزواجهم ومعبوداتهم ، أي فعرّفوهم طريق جهنم ، ووجّهوهم إليها ، وفيه تهكّم بهم ، ويقال : الظالم في الآية عام على من ظلم نفسه وغيره فيحشر كل ظالم مع من كان معيناً له ، أهل الخمر مع أهل الخمر ، وأهل الزنى مع أهل الزنى ، وأهل الربا ، مع أهل الربا ، وغيرهم كل مع مصاحبه ﴿ وَقِفُوهُمْ ﴾ أمر من وَقَفه وقفاً بمعنى حبسه ، والمعنى احبسوا المشركين أيها الملائكة عند الصراط ﴿ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ عما ينطق به ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ ﴾ أي ما تصنعون حال كونكم غير متناصِرين ؟ وحقيقته ما سبب عدم تناصركم ، وإن لا ينصر بعضكم بعضاً بالتخليص من العذاب كما كنتم تزعمون في الدنيا ؟ كما قال أبو جهل يوم بدر « نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ » وتأخير هذا السؤل إلى ذلك الوقت ، لأنه وقت تنجز العذاب ، وشدة الحاجة إلى النصرة ، وحالةَ انقطاع الرجاء منها بالكلية ، فالتوبيخ والتقريع حينئذ أشد وقعاً وتأثيراً ، وفي الحديث (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن شبابه فيم أبلاه ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه

ماذا عمل به)[1] والسؤال يوم القيامة صعب عصيب ، أمَّا أهل الزلات فيخصهم الله تعالى برحمته فلا يفضحهم ، وأما الأغيار والأجانب فيقال لهم « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » فإذا قرأوا كتابهم ، يقال لهم فما جزاء من عمل هذا : فيقولون جزاؤه النار ، فيقال لهم ادخلوا بحكمكم ، كما أن جبرائيل جاء في صورة البشر إلى فرعون ، وقال ما جزاء عبدٍ عصى سيده ، وادَّعى العلو عليه ، وقد ربَّاه بأنواع نعمه ، قال : جزاؤه الغرق ، قال : اكتب لي فكتب له صورة فتوى ، فلما كان يوم الغرق أظهر الفتوى ، وقال كن غريقاً بحكمك على نفسك ، والآية نص قاطع ينطق بحقِّية الصراط ، وهو جسر ممدود على متن جهنم أدق من الشعر ، وأحدُّ من السيف ، يعبره أهل الجنة ، وتزل به أقدام أهل النار ، وأنكره بعض المعتزلة لأنه لا يمكن العبور عليه ، وإن أمكن فهو تعذيب للمؤمنين ، وأجيب بأن الله قادر على أن يُسهِّله على المؤمنين ، حتى يجوزه المؤمن كالبرق الخاطف ، وفي الحديث (إذا اجتمع العالم والعابد يوم القيامة قيل للعابد اذهبْ فادخل الجنة ، وتنعَّم بعبادتك ، وقيل للعالم : قفْ ههنا فاشفع لمن أحببت ، فإنك لا تشفع لأحد إلا شُفِّعت فيه)[2] وقد جاء في الآثار (إن مذاكرة العلم ساعة خير من إحياء الليلة) خصوصاً إذا كان مما يتعلق بالعلم بالله ، وقد قلَّ أهله في هذا الزمان ﴿ **بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ** ﴾ يقال استسلم للشيء إذا انقاد له وخضع ، والمعنى منقادون ذليلون خاضعون بالاضطرار ، لظهور عجزهم ، وانسداد باب الحيل عليهم ، أسلم بعضهم بعضاً وخذله عن عجز ، فكلٌّ مستسلم غير منتصر ، كقوم متحابين انكسرت سفينتهم فوقعوا في البحر فأسلم كل واحد منهم صاحبه إلى الهلكة لعجزه عن تنجية نفسه فضلاً عن غيره ، بخلاف حال المتحابين في الله ﴿ **وَأَقْبَلَ** ﴾ حينئذ ﴿ **بَعْضُهُمْ** ﴾ هم الأتباع ، أو الكفرة ﴿ **عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ هم الرؤساء ، أو القرناء حال كونهم ﴿ **يَتَسَاءَلُونَ** ﴾ يسأل بعضهم بعضاً سؤال توبيخ بطريق الخصومة والجدال ، ولذا فسر يتخاصمون ، كأنه قيل كيف يتساءلون ؟ فقيل ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي الأتباع للرؤساء ، أو الكفرة للقرناء ﴿ **إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا** ﴾ في الدنيا ﴿ **عَنِ الْيَمِينِ** ﴾ عن القوة والإجبار فتجبروننا على الغيِّ والضلال ، فاتَّبعناكم خوفاً منكم بسبب القهر والقوة ، وبها يقع أكثر الأعمال ، أو عن الناحية التي كان منها الحق فتصرفوننا عنها ، أو عن الجهة التي كنا نأمنكم منها لحلفكم أنكم على الحق فصدقناكم فأنتم أضللتمونا ، كما في فتح الرحمن ﴿ **قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ أي لم نمنعكم من الإيمان بالقوة والقهر ، بل لم تؤمنوا وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه ، وآثرتم الكفر عليه ﴿ **وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ** ﴾ من قهر وتسلط نسلب به اختياركم ﴿ **بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ** ﴾ مختارين للطغيان مصرين عليه ، والطغيان مجاوزة الحد في العصيان ﴿ **فَحَقَّ عَلَيْنَا** ﴾ أي لزم وثبت علينا ﴿ **قَوْلُ رَبِّنَا** ﴾ وهو

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه ، باب صفة القيامة ، وقال : حديث حسن صحيح ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٣٦ .

(٢) الحديث رواه البيهقي عن جابر مرفوعاً بلفظ (يُبعث العالم والعابد ..) إلخ الحديث ، وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ١ / ١٠٢ .

قوله (لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكِ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾ أي العذاب الذي ورد به الوعيد ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴾ فدعوناكم إلى الغي والضلال ، دعوة غير ملجئة ، فاستجبتم لنا باختياركم الغي على الرشد ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ ثابتين على الغواية ، فلا عتب علينا في تعرضنا لإغوائكم بتلك المرتبة من الدعوة ، لتكونوا أمثالنا في الغواية ﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ أي الأتباع والمتبوعين ﴿ يَوْمَئِذٍ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ حسبما كانوا مشتركين في الغواية ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الفعل البديع الذي تقتضيه الحكمة التشريعية ، وهو الجمع بين الضالين والمضلين في العذاب ﴿ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ المتناهين في الإجرام ، وهم المشركون كما يعرب عنه التعليل بقوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ بطريق الدعوة والتلقين بأن يقال قولوا ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يتعظمون عن قولها واعلم أنه وقع ذكر « لا إله إلا الله » في القرآن في موضعين : في هذه السورة ، والثاني في سورة القتال في قوله (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) وليس في القرآن لهما ثالث ، والمعنى لا إله موجود في الوجود إلا الله ولا معبود بحق إلاَّ الله ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ أي لأجل قول شاعر مغلوب على عقله ، يعنون محمداً ﷺ ، وهمزة الاستفهام للإنكار ، أي ما نحن بتاركي عبادة آلهتنا وهي الأصنام ولقد كذبوا في ذلك حيث اتهموه ﷺ بالجنون والشعر ، وقد علموا أنه أرجح الناس عقلاً ، وأحسنهم رأيا ، وأشدهم قولاً ، وأعلاهم كعباً في المآثر والفضائل كلها ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴾ أي ليس الأمر على ما قالوه من الشعر والجنون ، بل جاء محمد بالحق ، وهو التوحيد ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ جميعاً في مجيئهم بذلك ، فما جاء به هو الذي أجمع عليه كافة الرسل ، فأين الشعر والجنون من ساحته الرفيعة ؟ .

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ بما فعلتم من الإشراك ، وتكذيب الرسول ، والاستكبار ﴿ لَذَائِقُوا العَذَابِ الأَلِيمِ ﴾ والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الغضب عليهم ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي إلاَّ جزاء ما كنتم تعملونه من السيئآت ، أو إلا ما كنتم تعملونه منها ، قال ابن الشيخ : ولما كان المقام مظنة أن يقال : كيف يليق بالكريم الرحيم ، المتعالي عن النفع والضر ، أن يعذب عباده ؟ أجاب عنه بقوله (وَمَا تُجْزَوْنَ) إلخ وتقريره أن الحكمة تقتضي الأمر بالخير والطاعة ، والنهي عن القبيح والمعصية ، ولا يكمل المقصود من الأمر والنهي إلا في الترغيب في الثواب ، والترهيب بالعقاب ، ولما وقع الإخبار بذلك وجب تحقيقه صوناً للكلام عن الكذب ، فلهذا السبب وقعوا في العذاب انتهى ، فعلى العاقل أن يحذر من يوم القيامة وجزائه ، فينتقل من الإنكار إلى الإقرار ، ومن الشك إلى اليقين ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن الباطل إلى الحق ، ومن الفاني الى الباقي ، ومن الشرك إلى التوحيد ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، سئل علي رضي الله عنه ما علامة المؤمن ؟ قال أربع : أن يطهر قلبه من الكبر والعداوة ،

وأن يطهر لسانه من الكذب والغيبة ، وأن يطهر قلبه من الرياء والسمعة ، وأن يطهر جوفه من الحرام والشبهة ، وأعظم الكبر أن يتكبر عن قول « لا إله إلا الله » الذي هو أساس الإيمان ، وخير الأذكار ، وكلمة الإخلاص ، وبه يترقى العبد إلى جميع المراتب الرفيعة ، لكن بشرائطه وأركانه ﴿ **إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ الاستثناء منقطع ، والمعنى : إنكم لذائقوا العذاب الأليم لكن عباد الله المخلصين لا يذوقونه ، والمَخلصُون بالفتح ، من أخلصه الله لدينه ، وطاعته ، واختاره لجناب حضرته ، والمخلِصُ بالكسر من أخلص عبادته لله تعالى ، ولم يشرك بعبادته أحداً ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ الممتازون عما عداهم بالإضافة والإخلاص ﴿ **لَهُمْ** ﴾ بمقابلة إخلاصهم في العبودية ﴿ **رِزْقٌ** ﴾ لا يدانيه رزق ، ولا يحيط به وصف ﴿ **مَعْلُومٌ** ﴾ الخصائص من حسن المنظر ، ولذة الطعم ، وطيب الرائحة ، والظاهر أن معناه معلوم وجوداً وقدراً ، وحسناً ولذة ، وطيباً ، ووقتاً بكرة وعشياً أو دواماً كلَّ وقت اشتهوه ، وإنما يضطرب أهل الدنيا في حق الرزق ، لكون أرزاقهم غير معلومة لهم كما في الجنة ﴿ **فَوَاكِهُ** ﴾ جمع فاكهة ، وهي كل ما يتفكه به ، أي يتنعم بأكله من الثمار كلها رطبها ، ويابسها ، وتخصيصها بالذكر لأن أرزاق أهل الجنة كلها فواكه ، أي ما يأكل بمجرد التلذذ دون الاقتيات ، لأنهم مستغنون عن القوت ، لكون خلقتهم على حالة تقتضي البقاء ، فهي محكمة محفوظة من التحلل المحوج إلى البدل ، بخلاف خلقة أهل الدنيا فإنها على حالة تقتضي الفناء ، فهي ضعيفة محتاجة إلى ما يحصل به القوام ، وقال بعضهم : لأن الفواكه من أتباع سائر الأطعمة ، فذكرها مغنٍ عن ذكرها ، والظاهر أن الاقتصار على الفواكه للترغيب والتشويق ، من حيث أنه لا يوجد في أغلب ديار العرب خصوصاً في الحجاز أنواع الفواكه ﴿ **وَهُمْ مُكْرَمُونَ** ﴾ عنده لا يلحقهم هوان ، وذلك أعظم المثوبات وأليقها بأولى الهمم ، وقال بعضهم : لما فصّل خصائص رزقهم ، بين أن ذلك الرزق يصل إليهم بالتعظيم والإكرام ، لأن مجرد المطعوم من غير إعزاز وإكرام يليق بالبهائم ، ولما ذكر مأكولهم وصف مساكنهم فقال ﴿ **فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** ﴾ النعيم النعمة ، أي في جنات ليس فيها إلا النعيم ﴿ **عَلَى سُرُرٍ** ﴾ جمع سرير وهو الذي يجلس عليه من السرور ، إذ كان كذلك لأولي النعمة ﴿ **مُتَقَابِلِينَ** ﴾ أي حال كونهم متقابلين على سرر ، والتقابل وهو أن ينظر بعضهم وجه بعض ، أتم للسرور والأنس ، وقيل : لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض ، لدوران الأسرَّة بهم ، ولما ذكر مأكل المخلصين ومسكنهم ، ذكر بعده وصفة شرابهم فقال ﴿ **يُطَافُ عَلَيهِمْ** ﴾ الطواف الدوران حول الشيء ﴿ **بِكَأْسٍ** ﴾ أي بإناء فيه خمر ، فإن الكأس يطلق على الزجاجة ما دام فيها خمر ، وإلا فهو قدح وإناء ﴿ **مِنْ مَعِينٍ** ﴾ أي كائنة من شراب معين ، أي ظاهر للعين ، أو من نهر معين أي جار على وجه أرض الجنة ، فإن في الجنة أنهاراً جارية من خمر ، كأنهار جارية من ماء ﴿ **بَيْضَاءَ** ﴾ لوناً أشد من لون اللبن ، والخمر البيضاء لم تر في الدنيا ، ولن ترى ، وهذا من جملة ما لا عين رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سمعت ، وبيضاء تأنيث

أبيض ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ لكل من يشرب منها ، ووصفها بلذة إما للمبالغة ، أي كأس لذيذة عذبة ، شهية طيبة ، صارت في لذاتها كأنها نفس اللذة ، أو وَصَفَها باللذة بياناً لمخالفتها لخمور الدنيا ، لانقطاع اللذة عن خمور الدنيا كلها ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ بخلاف خمر الدنيا ، فإن فيها غولاً كالصداع ، ووجع البطن ، وذهاب العقل .

﴿ وَلاَ هُمْ ﴾ أي المخلصون ﴿ عَنْهَا ﴾ أي عن خمر الجنة ﴿ يُنْزَفُونَ ﴾ يسكرون ، من نَزَف الشارب فهو نزيف ومنزوف ، إذا ذهب عقله من السكر ، وبالكسر من أنزف الرجل إذا سكر وذهب عقله أو نفد شرابه ، والمعنى : لا فيها نوع من أنواع الفساد من مغص أي وجع في البطن ، أو صداع ، أو حمى أو عربدة أي سوء خلق ولا هم يسكرون ، وفي بحر العلوم : وبالجملة ففي خمر الدنيا أنواع من الفساد ، من السكر ، وذهاب العقل ، ووقوع العداوة والبغضاء ، والصداع ، والخسارة الكبيرة في الدّين والدّنيا ، ومن القيء والبول ، وكثيراً ما تكون سبباً للقتال والضراب ، والزنى وقتل النفس بغير حق ، كما شوهد من أهلها ، ولا شيء من ذلك كله في خمر الجنة ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ القَصْرُ : الحبسُ والمنع ، وطرف العين جفنه والمعنى حور قصرن أبصارهن على أزواجهن ، لا يمددن طرفاً إلى غيرهم ، ولا يبغين بهم بدلاً لحسنهم عندهن ﴿ عِينٌ ﴾ صفة بعد صفة جمع عيناء بمعنى واسعة العين والمعنى حسان الأعين وعظامها ﴿ كَأَنَّهُنَّ ﴾ أي القاصرات ﴿ بَيْضٌ ﴾ جمع بيضة وهو المعروف ، والمراد هنا بيض النعام ﴿ مَكْنُونٌ ﴾ أي مستور ، شُبِّهن ببيض النعام المصون من الغبار ونحوه ، في الصفاء ، والبياض المخلوط بأدنى صفرة ، فإن ذلك أحسن ألوان الأبدان ، أي لم تنله الأيدي فإن ما مسته الأيدي يكون متدنساً ، وقال الطبري : أولى الأقاويل أن يقال إن البيض هو الجلدة التي في داخل القشرة ، قبل أن يمسها شيء لأنه مكنون ، يعني هو البيض أول ما ينحى عنه قشره ، ذكر الله تعالى في هذه الآيات ما كان لذة الجسم ، ولذة الروح ، أما لذة الجسم فالتنعم بالفواكه وأنواع النعم ، والخمر التي لم يكن عند العرب أحب منها ، والتمتع من صحبة الإخوان ، والانبساط الحاصل من النظر إلى وجوه الحسان، وقد قيل : ثلاث يُجلين البصر : النظر إلى الخضرة ، وإلى الماء الجاري ، وإلى الوجه الحسن ، ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي يشربُ عباد الله المخلصون في الجنة ، فيتحادثون على الشراب ، كما هو عادة الشرب في الدنيا ، فيقبل بعضهم على بعض حال كونهم يتساءلون عن الفضائل والمعارف ، وعما جرى عليهم ولهم في الدنيا ، فالتعبير عنهم بصيغة الماضي للتأكيد والدلالة على تحقق الوقوع حتماً ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ في تضاعيف محاوراتهم ، وأثناء مكالماتهم ﴿ إِنِّى كَانَ لِي ﴾ في الدنيا ﴿ قَرِينٌ ﴾ مصاحب ، وجليس ﴿ يَقُولُ ﴾ لي على طريقة التوبيخ بما كنتُ عليه من الإيمان ،

والتصديق بالبعث ﴿ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ المعتقدين والمقرّين بالبعث ؟ ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُراباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ من الدَّينْ ، بمعنى الجزاء أي لمبعوثون ومحاسبون ، ومجزيون ؟ أي لا نبعث ولا نُجْزى ﴿ قَالَ ﴾ أي ذلك القائل بعد ما حكى لجلسائه مقالة قرينه في الدنيا ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾ أي ناظرون إلى أهل النار ، لأريكم ذلك القرين المكذب بالبعث ، يريد بذلك بيان صدقه فيما حكاه ، فقال جلساؤه أنت أعرف به منا ، فاطَّلِعْ أنتَ ﴿ فَاطَّلَعَ ﴾ عليه ﴿ فَرَآهُ ﴾ أي قرينه ﴿ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ في وسط جهنم ، وسُمِّي وسط الشيء سواء ، لاستواء المسافة منه إلى جميع الجوانب ، قال ابن عباس : في الجنة كُوَى ينظر منها أهلها إلى أهل النار ، ويناظرونهم لأن لهم في توبيخ أهل النار لذةً وسروراً ، ولا شك أن الجنة في جانب الأوج والنار في طرف الحضيض ، فلأهل الجنة النظر إلى النار وأهلها ، كما ينظر أهل الغرف إلى من دونهم ﴿ قَالَ ﴾ أي القائل مخاطباً لقرينه شامتاً به حين رآه على صورة قبيحة ﴿ تَاللهِ إِنْ ﴾ أي إن الشأن ﴿ كِدْتَ ﴾ قاربت ﴿ لَتُرْدِينِ ﴾ أي لتهلكني بالإغواء ، والردى الهلاك ، ترديني بياء المتكلم ، فحذفت اكتفاء بالكسرة ﴿ وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي ﴾ بالهداية ، والعصمة ﴿ لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ الإحضار لا يستعمل إلا في الشر كما في كشف الأسرار ، أي من الذين أُحضروا العذاب ، كما أحضرته أنت وأمثالك ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾ رجوع إلى محاورة جلسائه ، سروراً بفضل الله العظيم ، والنَّعيم المقيم ، فإن تذكر الخلود في الجنة لذة عظيمة ، والهمزة للتقرير وفيها معنى التعجب ، أن أنحن مخلدون منعمون ، فما نحن بميتين ؟ ﴿ إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ ﴾ التي كانت في الدنيا ، وهي متناولة لما في القبر بعد الإحياء للسؤال ؟ قاله تصديقاً لقوله تعالى (لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ) أي لا نموت في الجنة أبداً سوى موتتنا الأولى في الدنيا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ كالكفار ، فإن النجاة من العذاب أيضاً نعمة جليلة مستوجبة للتحدث بها ، كما أن العذاب محنة عظيمة مستدعية لتمني الموت كل ساعة ، وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه : الموتُ أشدُّ مما قبله ، وأهون مما بعده ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي الأمر العظيم الذي نحن فيه من النعمة ، والخلود ، والأمن من العذاب ﴿ لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الفوز الظفر مع حصول السلامة ، أي لهو السعادة والظفر بكل المراد ، إذ الدنيا وما فيها تحتقر دونه ، كما تحتقر القطرة من البحر المحيط ، والحبة من البيدر الكبير ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ أي لنيل هذا المرام الجليل ، يجب أن يعمل العاملون ، ويجتهد المجتهدون ، لا للحظوظ الدنيوية السريعة الانقطاع ، المشوبة بفنون الآلام ، والبلايا والصداع ، ويحتمل أن يكون قوله « إِنَّ هَذَا » إلخ من كلام رب العزة ، فهو ترغيب في طلب ثواب الله بطاعته ، ويقال : فليحتمل المحتملون الأذى ، لأنه حُفَّت الجنةُ بالمكاره ، وحُفَّت النَّارُ بالشهوات ، والحاصل أن لكل من العابدين والعارفين ، حصة من إشارة هذه الآية ، وكان بعض الصلحاء يصلي الضحى مائة ركعة ، ويقول : لهذا

خُلِقْنَا وبهذا أُمرنا ، يوشك أولياء الله أن يحمدوا في مقابلة مجاهداتهم وطاعاتهم ، من الأجر الجزيل والثواب الجميل ، وقد ثبت أن كثيراً من الصلحاء تلوا عند النزع قوله تعالى « لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ » فنسأل الله القلب السليم في الدنيا ، والنعيم المقيم في العقبى ، حُكي أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى مَنْ أدنى أهل الجنة منزلة ؟ فقال : رجل يجيء بعدما دخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له ادخل الجنة ، فيقول : ربِّ وكيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملكٍ من ملوك الدنيا ، فيقول رضيت يارب ، فيقول لك ذلك ومثله ومثله فيقول في الخامسة رضيت يارب ، فيقول هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ، ولذَّتْ عينك ، فيقول رضيت يارب ، قال موسى عليه السلام فمن أعلاهم منزلة ؟ فقال : أولئك الذين أردت غرستُ كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلم تر عين ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر »[1] والكل فوز لكن الفوز بالأعلى فوز عظيم ، ألا ترى أنه لا تستوي الرعية والسلطان في الدنيا ؟ وهكذا فقد تفاوتت الهمم في الدنيا واختلفت الأغراض ولذا تتفاوت المراتب في العقبى ﴿ **أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ** ﴾ الهمزة للتقرير ، والمراد حمل الكفار على إقرار مدلولها ، وذلك إشارة إلى نعيم الجنة ، وخير وارد على سبيل التهكم والاستهزاء بهم ، والنُزل : هو ما يهيأ من الطعام الحاضر للنازل أي الضيف ، والزقوم اسم شجرة صغيرة الورق ، مرة كريهة الرائحة ، سميت بها الشجرة الموصوفة بقوله « إنها شجرة » إلخ ، والمعنى أذلك الرزق المعلوم ، الذي حاصله اللذة والسرور ، خير حاصلاً ، أم شجرة الزقوم التي حاصلها الألم والغمُّ ؟ ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ** ﴾ محنة ، وعذاباً لهم في الآخرة ، أو ابتلاء في الدنيا حيث فُتنوا وضلوا عن الحق بسببه ، فإن الكفار لما سمعوا كون هذه الشجرة في النار ، فتنوا به في دينهم ، وتوسلوا به إلى الطعن في القرآن والنبوة ، والتمادي في الكفر ، وقالوا : كيف يمكن ذلك ، والنارُ تحرق الشجرة ؟ ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش في النار ، أقدر على خلق الشجر في النار وحفظه من الإحراق ﴿ **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجَحِيمِ** ﴾ أي تنبت في قعر جهنم ، فمنبتها في قعرها وأغصانها ترتفع إلى دركاتها ، ولما كان أصل عنصرها النار لم تُحرق بها كسائر الأشجار ، ألا ترى أن السمك لما تولد في الماء لم يغرق ، بخلاف ما لم يتولد فيه ؟ ولعله رد على أبي جهل وصناديد قريش ، وتجهيلٌ لهم حيث قال أبو جهل لهم : إن محمداً يخوفنا بالزقوم ، والزقوم الزبد ، والتمر ، فأدخلهم أبو جهل بيته ، وقال يا جارية زقِّمينا ، فأتتهم بالزبد والتمر فقال استهزاء : تزقموا فهذا ما توعَّدكم به محمد ، فقال تعالى (**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجَحِيمِ**) فليس الزقوم ما فهم هؤلاء الجهلة الضلاّل ﴿ **طَلْعُهَا** ﴾ أي حملها وثمرها الذي يَخْرُجُ منها ، ﴿ **كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ** ﴾ في تناهي القبح ، والهول ، لأن صورة الشيطان أقبح

---

(١) الحديث أخرجه مسلم الترمذي وأحمد عن المغيرة بن شعبة مرفوعاً ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥٣٣ والفتح الكبير للسيوطي ٢ / ١٥٠ .

الصور وأكرهها في طباع الناس ، وعقائدهم ، ومن ثمة إذا وصفوا شيئاً بغاية القبح والكراهة ، قالوا : كأنه شيطان ، وإن لم يروه ، كتشبيه الفائق في الحسن بالملَك ، قال تعالى حكاية ﴿ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ﴿ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا ﴾ أي من الشجرة ومن طلعها ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ لغلبة الجوع ، أو للقسر على أكلها ، وإن كرهوها ، ليكون ذلك نوعاً آخر من العذاب ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ﴾ أي على الشجرة التي ملأوا منها بطونهم بعد ما شبعوا منها ، وغلبهم العطش ، وطال استسقاؤهم كما ينبىء عنه كلمة « ثُمَّ » فتكون للتراخي الزماني ﴿ لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ﴾ الشوب الخلط ، والحميم الماء الحار الذي قد انتهى حره ، أي شراباً من دم ، أو قيح أسود ، أو صديد ، ممزوجاً مَشُوباً بماءٍ حارٍّ في غاية الحرارة يقطع معاءهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ ﴾ أي مصيرهم ﴿ لإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ أي إلى دركاتها ، أو إلى نفسها ، فإن الزقوم والحميم نزل يقدَّم إليهم قبل دخولها ، وقيل الجحيم خارج عنها لقوله تعالى (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ يذهب بهم عن مقارهم ، ومنازلهم من الجحيم ، إلى شجرة الزقوم فيأكلون منها ، ثم يسقون من الحميم ثم يُرَدُّون إلى الحميم ، كما يرد الإبل عن موارد الماء ، ويؤيده قراءة ابن مسعود « ثم إن منقلبهم » وفي الحديث (يا أيُّها النَّاس اتَّقُوا اللهَ ولا تموتُنَّ إلا وأنْتُمْ مُسْلِمونَ) فَلَوْ أن قطرة من الزقوم قطرت لأمرّت على أهل الدنيا معيشتهم، فكيف بمن هو طعامه وشرابه وليس له طعام غيره)[1] ؟ ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾ تعليل لاستحقاقهم ما ذكر من فنون العذاب ، بتقليد الآباء في الدين ، من غير أن يكون لهم ولآبائهم شيء يتمسك به أصلاً . والإلفاءَ الوجدان ، والمعنى وجدوهم ضالين في نفس الأمر عن الهدى وطلب الحق ، ليس لهم ما يصلح شبهةً فضلاً عن صلاحية الدليل ﴿ فَهُمْ ﴾ أي الكافرون الظالمون ﴿ عَلَى آثَارِهِمْ ﴾ أي آثار الآباء ﴿ يُهْرَعُونَ ﴾ يسرعون من غير أن يتدبروا أنهم على الحق ، أو مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل ، والإهراع . الإسراع الشديد ، كأنهم يُزعجون ، ويحثون حثاً على الإسراع على آثارهم ﴿ وَلَقَدْ ﴾ جواب قسم أي وبالله لقد ﴿ ضَلَّ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل قومك قريش ﴿ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ ﴾ من الأمم السابقة ، أضلهم إبليس ، ولم يذكر لأن في الكلام دليلاً فاكتفى بالإشارة ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ ﴾ يعني الأكثرين ﴿ مُنْذِرِينَ ﴾ أي أنبياء أولي عدد كثير ، وذوي شأن خطير ، بيَّنوا لهم بطلان ما هم عليه ، وأنذروهم عاقبته الوخيمة ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ أي آخر أمر الذين أنذروا من الهول ، والفظاعة والهلاك ، لما لم يلتفتوا إلى الإنذار ، ولم يرفعوا لهم رأساً ؟ والخطاب إما للرسول ، أو لكل أحد ممن يتمكن من مشاهدة آثارهم ، وسماع أخبارهم ، وحيث كان المعنى أنهم أهلكوا إهلاكاً فظيعاً، استثنيَ منهم المخْلَصُون بقوله تعالى ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي الذين أخلصهم الله بتوفيقهم للإيمان ، والعمل

(١) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه بلفظ (لأفسدتْ على أهل الأرض معايشهم) وقال الترمذي : حسن صحيح .

بموجب الإنذار ، يعني أنهم نجوا مما أهلك به كفار الأمم الماضية ، وفي الآية تسلية لرسول الله ﷺ ، ببيان أنه تعالى أرسل قبله رسلاً إلى الأمم الماضية ، فأنذروهم بسوء عاقبة الكفر والضلال ، فكذبهم قومهم ولم ينتهوا بالإنذار ، وأصروا على الكفر والضلال ، فصبر الرسل على أذاهم ، واستمروا على دعوتهم إلى الله تعالى ، فاقتد بهم وما عليك إلا البلاغ ﴿ **وَلَقَدْ نَادٰنا نُوحٌ** ﴾ نوع تفصيل لحسن عاقبة المنذرين بالكسر وسوء خاتمة المنذرين بالفتح . والنداء والدعاء بقرينة « فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ » والمعنى : وبالله لقد دعانا نوح ، وهو أول المرسلين حين يَئِسَ من إيمان قومه ، بعدما دعاهم إليه أحقاباً ودهوراً ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً ، فأجبناه أحسن الإجابة حيث أوصلناه إلى مراده من نصرته على أعدائه ، والانتقام منهم بأبلغ ما يكون ﴿ **فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ** ﴾ أي فوالله لنعم المجيبون نحن ، والجمع دليل العظمة ، والكبرياء ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ** ﴾ أي من الغرق ، أو من أذى قومه دهراً طويلاً ، والكربُ : الغم الشديد ﴿ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ** ﴾ نسله ﴿ **هُمُ** ﴾ فحسب ﴿ **البَاقِينَ** ﴾ حيث أهلكنا الكفرة بموجب دعائه (رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً) وقد روي أنه مات كل من كان معه في السفينة ، غير أبنائه وأزواجهم ، وهم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة ، قال قتادة : إنهم كلهم من ذرية نوح ، وكان له ثلاثة أولاد « سام ، وحام ، ويافث » فسام أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى ، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب والسند والهند والنوبة والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم ، ويافث أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج وما هنالك ﴿ **وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ** ﴾ أبقينا على نوح ﴿ **فِي الآخِرِينَ** ﴾ من الأمم ﴿ **سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ** ﴾ أي هذا الكلام بعينه والمعنى يسلمون عليه تسليماً ، ويدعون له على الدَّوام أمة بعد أمة ﴿ **فِي العَالَمِينَ** ﴾ والمراد الدعاء بثبات هذه التحية ، واستمرارها أبداً في العالمين من الملائكة والثقلين جميعاً ، ﴿ **إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴾ أي مثل ذلك نجزي الجزاء الكامل من إجابة الدعاء ، وإبقاء الذرية ، والذكر الجميل ، وتسليم العالمين ، أبداً نجزي الكاملين في الإحسان لا جزاء أدنى منه ، فهو تعليل لما فُعل بنوح من الكرامات السنية بأنه مجازاة له على إحسانه ﴿ **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ تعليل لكونه من المحسنين ، بخلوص عبوديته وكمال إيمانه ، وفيه إظهار لجلالة قدر الإيمان ، وأصالة أمره ، وترغيب في تحصيله ، والثبات عليه ، وخُصَّ الإيمان بالذكر ، والنبوة أشرف منه ، بياناً لشرف المؤمنين ﴿ **ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ** ﴾ أي المخاصمين لنوح وأهله ، وهم كفار قومه أجمعين ﴿ **وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ** ﴾ أي ممن شايع نوحاً وتابعه في أصول الدين ﴿ **لإِبْرَاهِيمَ** ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما من أهل دينه وعلى سنته ، أو ممن شايعه على التصلب في دين الله ومصابرة المكذبين ، كان بينهما هود وصالح ، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة ، ﴿ **إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ أي بقلب سليم من آفات القلوب ، ومعنى مجيئه به ربه إخلاصه له ، كأنه جاء به محتضناً إياه بطريق التمثيل ، وإلا

فليس القلب مما ينقل من مكان إلى مكان حتى يُجاء به ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ ﴾ آزر بن باعر بن ناحور ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ وكانوا عبدة الأصنام ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ استفهام إنكاري وتوبيخ ، أيْ أيَّ شيء تعبدون ﴿ أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ﴾ الإفك أسوء الكذب ، أي أتريدون آلهة من دون الله إفكاً ؟ ﴿ فَمَا ظَنُّكُمْ ﴾ أيُّ شيء ظنكم ، فما مبتدأ خبره ظنكم ﴿ بِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ إذا لقيتموه ، وقد عبدتم غيره أن يغفل عنكم ، أولا يؤاخذكم بما كسبت أيديكم ، أي لا ظن فكيف القطع ؟ ﴿ فَنَظَرَ ﴾ إبراهيم ﴿ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾ جمع نجم ، وهو الكوكب الطالع ، أي في علمها وحسابها إذ لو نظر إلى النجوم أنفسها لقال إلى النجوم ، وكان القوم يتعاطون علم النجوم ، فعاملهم بما يعتقدون لئلا ينكروا عليه ، واعتلَّ في التخلف عن عيدهم أي عن الخروج معهم إلى معبدهم ﴿ فَقَالَ إِنِي سَقِيمٌ ﴾ السقم : المرض المختص بالبدن ، وقوله « إِنِّي سَقِيمٌ » فمن التعريض والإشارة به إما إلى ماض ، وإما إلى مستقبل ، وإما إلى قليل مما هو موجود الحال ، وقال بعضهم : إني سقيم من مخالفتكم وعبادتكم الأصنام ، وكان ذلك من إبراهيم للذبِّ عن دينه ، والتوسل إلى إلزام قومه ، قال عز الدين بن عبد السلام : الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً فالكذب فيه حرام ، فإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح[1] ، إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً . وواجب إن كان ذلك المقصود واجباً فهذا ضابطه ، وفي الأسئلة المقحمة : ومن الناس من يجوّز الكذب في الحروب لأجل المكيدة والخداع ، وإرضاء الزوجة ، والإصلاح بين المتهاجرين ، والصحيح أن ذلك لا يجوز أيضاً في هذه المواضع لأن الكذب في نفسه قبيح ، والقبيح في نفسه لا يصير حسناً باختلاف الصور والأحوال ، وإنما يجوز في هذه المواضع بتأويل وتعريض لا بطريق التصريح ، ومثاله يقول الرجل لزوجته إذا كان لا يحبها : كيف لا أحبك وأنت حلالي وزوجتي ؟ وقد صحبتك ؟ وأمثال هذه ، فأما إذا قال صريحاً بأني أحبك ، وهو يبغضها ، فيكون كذباً محضاً ، ولا رخصة فيه ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ فأعرضوا وتفرقوا عن إبراهيم ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ هاربين مخافة العدوى ، أي السراية ﴿ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ ﴾ أي ذهب إليها في خفية ، وأصله الميل بحيلة ، من روغة الثعلب ، وهو ذهابه في خفية وحيلة ﴿ فَقَالَ ﴾ للأصنام استهزاء ﴿ أَلاَ تَأْكُلُونَ ﴾ وكانوا يضعون الطعام عند الأصنام لتحصل له البركة بسببها ﴿ مَا لَكُمْ لاَ تَنْطِقُونَ ﴾ أي ما تصنعون غير ناطقين بجوابي ؟ ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ فمال مستعلياً عليهم ، حال كونه يضربهم ﴿ ضَرْباً بِالْيَمِينِ ﴾ أو حال كونه ضارباً باليمين أي ضرباً شديداً قوياً ، وذلك لأن اليمين أقوى الجارحتين ، وأشدهما ، وقوة الآلة تقتضي قوة الفعل وشدته ، فلما رجعوا من عيدهم إلى بيت الأصنام ، وجدوها مكسورة فسألوا عن الفاعل ، فظنوا أن إبراهيم عليه السلام فعله ، فقيل فائتوا به

(١) لا يجوز الكذب إلاّ لدفع خطرٍ محقّق كالأسير يقع في يد الأعداء فيباح له الإخبار بغير الحقيقة دفعاً لشر الأعداء .

﴿ فَأَقْبَلُوا ﴾ أي توجه المأمورون بإحضاره ﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى إبراهيم ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ أي يسرعون من زفيف النعام وهو ابتداء عَدْوهَا ﴿ قَالَ ﴾ أي بعد ما أتوا به ، وجرى بينهم وبينه من المحاورات ما نطق به قوله تعالى (قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ) ؟ إلى قوله (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنْطِقُونَ) ﴿ أَتَعْبُدُونَ ﴾ همزة الاستفهام للإنكار ﴿ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ ما تنحتونه من الأصنام ، والنحت نحت الشجر ، والخشب ونحوهما من الأجسام ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ ﴾ أي والحال أنه تعالى خلقكم ، والخالق هو الحقيق بالعبادة ، دون المخلوق ﴿ وما تَعْمَلُونَ ﴾ أي وخلق ما تعملونه من الأصنام وغيرها فإن جواهر أصنامهم ومادتها بخلقه تعالى ، وشكلها وإن كان بفعلهم ، لكنه بإقدار الله تعالى إياهم عليه ، وخلقه ما يتوقف عليه فعلهم من الدواعي والأسباب ، وظهر من فحوى الآية أن الأفعال مخلوقة لله تعالى ، مكتسبة للعباد حسبما قالته أهل السنة والجماعة ، وبالاكتساب يتعلق الثواب والعقاب ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : بنوا حائطاً من حجر ، طوله في السماء ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً ، وملأوه حطباً وأشعلوه ناراً ، وطرحوه فيها كما قال ﴿ فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ في النار الشديدة الإيقاد من الجحمة وهي شدة التأجج والإلتهاب ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً ﴾ أي شراً ، وهو أن يحرقوه بالنار عليه السلام ، لَمَّا قهرهم بالحجة ، وألقمهم الحجر ، قصدوا أن يكيدوا به ، ويحتالوا لإهلاكه ، كما كاد أصنامَهُمْ بكسره لها ، لئلا يظهر للعامة عجزهم ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾ الأذلين بإبطال كيدهم ، وجعله برهاناً نيراً على علو شأنه عليه السلام ، بجعل النار عليه برداً وسلاماً فإن قلت : لم ابتلاه تعالى بالنار في نفسه ؟ قلت : لأن كل إنسان يخاف بالطبع من ظهور صفة القهر ، فأراه تعالى أن النار لا تضر شيئاً إلا بإذن الله تعالى ، وإن ظهرت بصورة القهر ، وفيه معجزة قاهرة لأعدائه فإنهم كانوا يعبدون النار ، والشمس ، والنجوم ، ويعتقدون وصف الربوبية لها ، فأراهم الحق تعالى أنها لا تضر إلا بإذن الله تعالى ، وقد ورد أن النمرود لما شاهد النار كانت على إبراهيم برداً وسلاماً ، قال : إن ربك لعظيم ، نتقرب إليه بقرابين ﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم بعدما أنجاه الله تعالى من النار ، قاله لمن فارقه من قومه فيكون ذلك توبيخاً لهم ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي ﴾ أي مهاجر من أرض حرّان أو من بابل إلى حيث أمرني ربي وهو الشام ، أو إلى حيث أتجرد فيه لعبادته تعالى ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ إلى مقصدي الذي أردت ، وهو الشام ، أو إلى موضع يكون فيه صلاح ديني ، وهذه الآية أصلٌ في الهجرة من ديار الكفر ، إلى أرض يتمكن فيها من إقامة وظائف الدين ، والطاعة ، وأول من فعل ذلك إبراهيم هاجر مع لوط ، وصار إلى الأرض المقدسة ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ المراد ولد كامل الصلاح ، عظيم الشأن فيه ، أي بعض الصالحين يعينني على الدعوة والطاعة ، ويؤنسني في الغربة ، يعني الولد، لأن لفظ الهبة على الإطلاق خاص به ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ ﴾ الغلام من جاوز

العشر ، وأما من دونها فصبي ، والحليم من لا يعجل في الأمور ويتحمل المشاق ، ولقد جمع فيه بشارات ثلاث : بشارة أنه غلام ، وأنه يبلغ أوان الحلم ، فإن الصبي لا يوصف بالحلم ، وأنه يكون حليماً ، وأيُّ حلم يعادل حلمه ، حين عرض عليه أبوه الذبح وهو مراهق فاستسلم ؟ ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ﴾ أي مع إبراهيم ﴿ السَّعْيَ ﴾ أي فنشأ فلمّا بلغ رتبة أن يسعى معه ، في أشغاله وحوائجه ومصالحه ، وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ قرباناً لله تعالى ، أي أرى هذه الصورة بعينها ، أو ما هذه عبارته وتأويله ، وقيل : إنه رأى ليلة التروية كأن قائلاً يقول له : إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ من الرأي فيما ألقيتُ إليك ؟ وإنما شاوره فيه وهو أمرٌ محتوم ، ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله تعالى ، فتثبت قدمه إن جزع ، ويأمن إن سلَّم ، ويكتسب المثوبة عليه بالانقياد له قبل نزوله ، وتكون سُنَّةً في المشاورة ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أي ما تؤمر به ، ولعله فهم من كلامه أنه رأى ذبحه مأموراً به ، ولذا قال ما تُؤمر ، وعلم أن رؤيا الأنبياء حق ، وأن مثل ذلك لا يقدمون عليه إلا بأمر ، وإنما أمر به في المنام دون اليقظة ، مع أن غالب وحي الأنبياء أن يكون في اليقظة ، ليكون مبادرتها إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد والإخلاص ، قالوا : رؤيا الأنبياء حق من قبيل الوحي ، فإنه يأتيهم الوحي من الله أيقاظاً ، إذ لا تنام قلوبهم أبداً ، ولأنه لطهارة نفوسهم ليس للشيطان عليهم سبيل ، ﴿ سَتَجِدُنِي ﴾ أي ستراني صابراً على قضاء الله ، ثم استعان بالله في الصبر على بلائه حيث استثنى فقال ﴿ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ومن أسند المشيئة إلى الله تعالى ، والتجأ إليه لم يعطب ﴿ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ على الذبح ، أو على قضاء الله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ أي استسلم إبراهيم وابنه لأمر الله ، وإنقادا وخضعا له ، يقال : سلَّم لأمر الله ، وأسلم ، واستسلم ، بمعنى واحد ، أي أخلص نفسه لله وجعلها سالمة ، وعن قتادة : أسلم إبراهيم ابنه ، وإسماعيل نفسه ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أيْ صرعه وألقاه على عنقه وخدّه ، والجبينُ : أحد جانبي الجبهة وكان ذلك عند الصخرة من منى ، أو في المنحر الذي ينحر فيه اليوم ، ورُوي أن إبليس عرض لإبراهيم عند جمرة العقبة ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجَمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى وعزم على الذبح ، ومنه شرع رمي الجمرات في الحج ، فهو من واجبات الحج يجب بتركه الفدية باتفاق الأئمة ، ومن دقة النظر في رعاية آداب العبودية ، أن إسماعيل أمر أباه أن يَشُدَّيَدَيْهِ ورجليه لئلا يضطرب ، إذا مسه ألم الذبح فيعاتب ، ثم لما همَّ بذبحه انقاد وأطاع إذعاناً لأمر الرحمن ، وما أحسن ما قيل :

وَلَوْ بِيَدِ الحَبِيبِ سُقِيتُ سُمّاً * لَكَانَ السُّمُّ مِنْ يَدِهِ يَطِيبُ

وقد قيل : ضرب الحبيب يطيب ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ ﴾ أي ناديناه بلفظ هو قولنا ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ بالعزم على الإتيان بالمأمور به وترتيب مقدماته أي حققت الصورة المرئية وجعلتها صادقة مطابقة للصورة الحسية الخارجية ، بالإقدام على الذبح ، وقد قيل : إنه أمَرَّ السِكِّين بقوته على حلقه مراراً فلم يقطع ، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين إلى قطعةٍ من الخشب ، وجواب « لَمَّا » محذوفٌ إيذاناً بعدم وفاء التعبير بتفاصيله ، كأنه قيل : كان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان ، من رفع البلاء بعد حلوله ، والتوفيق لما لم يوفق أحد لمثله ، وإظهار فضلها بذلك على العالمين ، مع إحراز الثواب العظيم ، قال بعض العارفين : الإنسان مجبول على حبّ الولد ، فاقتضت مكانَةُ الخُلَّة ، ومقام المحبة ، أن يقطع علاقة القلب عن غيره ، فأمره بذبح ولده امتحاناً ، واختباراً له ، ببذل أحب الأشياء في سبيل الله ، من غير توقف ، وإشعاراً للملائكة بأنه خليل الله لا يسعه غير الحق ، فليس المبتغى منه تحصيل الذبح ، إنما هو ترك عادة الطبع ، وقد غلبت عليه محبة الحق ، حتى تبرأ من أبيه في الحق ، وتصدَّى لذبح ابنه في سبيل الله ، وخَرَجَ عن جميع ماله لله تعالى ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل لتفريج تلك الكربة عنهما بإحسانها ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ الابتلاء البيِّن ، الذي يتميز فيه المخلص من غيره ، أو المحنة البينة إذ لا شيء أصعب منها ، قال البقلي : أخبر سبحانه وتعالى أن هذا بلاء في الظاهر ، ولا يكون بلاء في الباطن ، لأن في حقيقته بلوغ منازل المشاهدات ، وشهود أسرار حقائق المكاشفات ، وهذا من عظائم القربات ، وقال الحريري : البلاء على ثلاثة أوجه : على المخالفين نِقَمٌ وعقوباتٌ ، وعلى السابقين تمحيص وكفّارات ، وعلى الأولياء والصديقين نوع من الاختبارات ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ ﴾ بما يذبح بدله ، فيتم به الفعل المأمور ، والذِّبحُ بالكسر إسم لما يذبح ، والفادي في الحقيقة هو إبراهيم ، وإنما قال « وفديناه » لأنه تعالى هو المُعطي له والآمر به ﴿ عَظِيمٍ ﴾ أي عظيم الجثة سمين ، أو عظيم القدر ، لأنه يفدي به الله نبياً من نسله سيِّدُ المرسلين ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه الكبش الذي قربه هابيل فتقبل منه ، وكان يرعى في الجنة حتى فُدي به إسماعيل ، واختلف في أن الذبيح إسماعيل أو إسحاق ؟ فذهب أكثر المفسرين إلى الأول لوجوه ذكرت في التفاسير[1] ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي أبقينا على إبراهيم ﴿ فِي الْآخِرِينَ ﴾ من الأمم ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي هذا الكلام بعينه ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ إشارة إلى إبقاء ذكره الجميل فيما بين الأمم ، أي مثل ذلك الجزاء الكامل ، نجزي المحسنين ، لا جزاء أدنى منه ، يعني أن إبراهيم من المحسنين ، وما فعلناه به مما ذكر مجازاةً له على

(١) وضحها الحافظ ابن كثير في تفسيره ، ومن أظهرها أن الله تعالى بعد أن ذكر قصة الذبيح إسماعيل ، وفصّل الحادثة تفصيلاً دقيقاً قال بعد ذلك ﴿ وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين ﴾ فدّل على أنّ الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق ، ومنها أيضاً ما جاء في الحديث الشريف (أنا ابن الذبيحين) أراد إسماعيل ووالد الرسول عبد الله بن عبد المطلب .

إحسانه ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الراسخين في الإيمان على وجه اليقين والاطمئنان ، قال بعضهم : مدحه الله تعالى وأثنى عليه بأنه من المؤمنين ، الصادقين في دعوى الإيمان ، كما أثنى عليه في مكان آخر بأنه « مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِين » الذين أخلصناهم لخلّتنا ومحبتنا ، لا من عُبَّاد الدنيا والهوى الزائغين ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ ﴾ أي إبراهيم والبشارة هو الإخبار بما يَظْهر ، سروراً في المخبر به ، ومنه تباشير الصبح لما ظهر من أوائل ضوئه ﴿ بِإِسْحٰقَ ﴾ من سارة رضي الله عنها ﴿ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي مقضياً بنبويته ، مقدراً كونه من الصالحين ، وفي ذكر الصلاح بعد النبوة ، وتعظيم لشأنه وإيماء إلى أنه الغاية لها ، لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ ﴾ على إبراهيم في أولاده ﴿ وَعَلَى إِسْحٰقَ ﴾ بأن أخرجنا من صلبه أنبياء من بني إسرائيل وغيرهم ، كأيوب ، وشعيب ، أو فضنا عليهما بركات الدين والدنيا ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ ﴾ في عمله ، أو لنفسه بالإيمان والطاعة ﴿ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿ مُبِينٌ ﴾ ظاهر ظلمه ، وفيه تنبيه على أن الظلم في أولادهما وذريتهما لا يعود عليهما بعيب ، ولا نقيصه ، وأن المرء يُجَازى بما صدر من نفسه ، طاعةً أو معصية ، لا بما صدر من أصله وفرعه ، كما قال تعالى (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) وأن النسب لا تأثير له في الصلاح والفساد ، والطاعة والعصيان ، فقد يلد الصالح العاصي ، والمؤمن الكافر ، وبالعكس وفيه قطع لأطماع اليهود المفاخرين ، بكونهم أولاد الأنبياء ، وفي الحديث (يا بني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم)[1] أي لا يكون أعمال الناس وأنسابكم مجتمعين ، فائتوني بالأعمال ، والغرضُ تقبيح افتخارهم لديه عليه السلام بالأنساب ، حين يأتي الناس بالأعمال ، وما أحسن ما قاله أحد الشعراء :

أَتَفْخَرُ بِاتِصَالِكَ مِنْ عَلِيّ * وَأَصْلُ البَوْلَةِ المَاءُ القَرَاحُ

وَلَيْسَ بِنَافِعٍ نَسَبٌ زَكِيٌّ * تُدَنِّسُهُ صَنَائِعُكَ القِبَاحُ

وقال بعضهم :

وَمَا يَنْفَعُ الأَصْلُ مِنْ هَاشِمٍ * إِذَا كَانَتِ النَّفْسُ مِنْ بَاهِلَه

وقبيلة باهلة عرفوا بالدناءة ، لأنهم كانوا يأكلون بقية الطعام مرة ثانية ، ويأكلون نقي عظام الميتة وفي المثل « ذهب الناس وما بقي إلا النَّسْناس » وهم الذين يتشبهون بالناس وليسوا بالناس ، فعلى العاقل ترك الاغترار بالأنساب والأحساب ، والإجتهاد فيما ينفعه يوم الحساب ، وكان زين العابدين رضي الله عنه يقول : اللهم إني أعوذ بك أن تُحسِّن في لوامع العيون علانيتي ، وتُقَبِّح سريرتي ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى

(١) هذا جزء من حديث أخرجه أحمد والترمذي ولفظه (يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم من الله ضَرّاً ولا نفعاً ، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار ...) إلخ وانظر الفتح الكبير ٣ / ٤٠٤ .

﴿ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ المنَّان في صفة الله تعالى : المعطي ابتداءً من غير أن يطلب عوضاً ، يقال : منَّ عليه منّاً ، إذا أعطاه شيئاً ، ومَنَّ عليه مِنَّةً : إذا امتنَّ عليه بالنعمة ، وهو مذمومٌ من الخلق لا من الحق ، كما قال تعالى (بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ) والمعنى وبالله لقد أنعمنا على موسى وأخيه هارون بالنبوة وغيرها من النعم الدينية والدنيوية ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ ﴾ من تعذيب فرعون ، وأذى قومه القبط ، ولما كانت النتيجة عبارة عن التخليص من المكروه ، وهي لا تقتضي الغلبة أتْبَعها بقوله ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ﴾ أي موسى وهارون وقومها ﴿ فَكَانُوا ﴾ بسبب ذلك ﴿ هُمُ ﴾ فحسب ﴿ الغَالِبِينَ ﴾ على عدوهم فرعون ، وقومه غلبة لا غاية وراءها ، بعد أن كان قومها في أسرهم وقسرهم مقهورين تحت أيديهم ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا ﴾ بعد ذلك المذكور من النتيجة ﴿ الكِتَابَ المُسْتَبِينَ ﴾ أي البليغ والمتناهي في البيان ، والتفصيل ، وهو التوراة ، فإنه كتاب مشتمل على جميع العلوم التي يحتاج إليها في مصالح الدين والدنيا قال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ) فاستبان بمعنى ظهر ووضح ، وجعل الكتاب بالغاً في بيانه من حيث إنه لكماله في بيان الأحكام ، وتمييز الحلال عن الحرام ، كأنه يطلب من نفسه أن يبينها ويحمل نفسه على ذلك ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا ﴾ بذلك الكتاب ﴿ الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ ﴾ الموصل إلى الحق ، والصواب ، بما فيه من تفاصيل الشرائع ، وتفاريع الأحكام ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَٰرُونَ ﴾ أي أبقينا عليهما فيما بين الأمم الآخرين هذا الذكر الجميل ، والثناء الجزيل ، فهم يسلّمون عليهما ، ويقولون سلام على موسى وهارون ، ويدعون لهما دعاء دائماً إلى يوم الدين ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل هذا الجزاء الكامل ﴿ نَجْزِي المُحْسِنِينَ ﴾ الذين هما من جملتهم ، لا جزاءً قاصراً عنه ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا المُؤْمِنِينَ ﴾ يشير إلى أن طريق الإحسان هو الإيمان ، فالإيمان هو مرتبة الغيب ، والإحسان هو مرتبة المشاهدة ، فالإنسان من حيث ما يتغذى نباتٌ ، ومن حيث ما يحسُّ ويتحرك حيوانٌ ، ومن حيث الصورة التخطيطية ، فكصورة في جدار ، وإنما فضيلته بالنطق ، والعلم ، والفهم ، وسائر الكمالات البشرية ، ولهذا ورد (ما فَضَلكم أبو بكر بكثير صوم ولا صلاة ، ولكن بِسِرٍّ وقَرَ في صدره)[1] ومن آثار هذا السر الموقور ثباته يوم موت الرسول عليه السلام ، وعدم تغيره كسائر الأصحاب حيث صعد المنبر وقرأ (وما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) الآية ، فكان إيمانه أقوى ، وثباته أوفى ، ومشاهدته أعلى ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ ﴾ أي إلى بني إسرائيل ، وهو الياس بن ياسين من سبط هارون أخي موسى ، هذا هو

---

(١) أصرحُ من هذا الأثر ما ورد في البخاري والترمذي وأبي داود عن عبد الله بن عمر قال (كنا نقول ورسولُ الله ﷺ حيّ : أفضلُ أمةِ النبيِّ بعدهُ أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان) وفي رواية البخاري (كنا زمن النبي لا نعدل بأبي بكر أحداً ، ثم عمر ، ثم عثمان ..) الحديث وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٧٩ .

المشهور وعليه الجمهور ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ أي اذكر وقت قوله ﴿ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ أي عذاب الله تعالى ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً ﴾ أتعبدونه ؟ أي لا تعبدوه ، ولا تطلبوا منه الخير ، والبعلُ اسم صنم كان لأهل « بك » من الشام ، وهو البلد المعروف اليوم بعلبك ، وكان من ذهب ، فُتنوا به وعظموه حتى عبدوه ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ وتتركون عبادته ﴿ اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم ، للإشعار ببطلان آرائهم أيضا ، والخلقُ : الإبداع والاختراع لا يتصور من غير الله ، حتى يكون هو أحسنهم ، قيل : معناه أحسن المقدرين ، أو يكون على تقدير ما كانوا يعبدون ويزعمون ، فكأنه قيل : هب أن ههنا مبدعين وموجدين ، فالله تعالى أحسنهم إيجاداً على ما يعتقدون ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي إلْيَاسَ ﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ بسبب تكذيبهم إياه ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ لمدخلون في النار والعذاب ، لا يغيبون منها ، ولا يخفف عنهم لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر عرفاً ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ وفيه دلالة على أن من قومه من لم يكذبه ، ولم يحضُر في العذاب ، وهم الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان ، والعمل بموجب الدعوة والإرشاد ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ ﴾ وأبقينا على إلياس ﴿ فِي الآخِرِينَ ﴾ من الأمم ﴿ سَلاَمٌ عَلَى إِلْياسِينَ ﴾ أي هذا الكلام بعينه ، فيدعون له ويثنون عليه إلى يوم القيامة ، وهو لغة في إلياس كسيناء في سينين ، فإن كل واحد من طور سيناء وطور سينين بمعنى الآخر فكذا إلياس وإلياسين ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ ﴾ مثل هذا الجزاء الكامل ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ إحساناً مطلقاً ، ومن جملتهم إلياس ﴿ إِنَّهُ ﴾ لا شبهة أن الضمير لإلياس ، فيكون إلياس وإلياسين شخصاً واحداً ﴿ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وإِنَّ لُوطاً ﴾ هو لوط بن هارون أخي إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إلى قومه ، وهم أهل سدوم فكذبوه ، وأرادوا إهلاكه ، فقال رب نجني وأهلي مما يعملون ، فنجاه الله وأهله ، فذلك قوله تعالى ﴿ إِذْ نَجَّيْنَاهُ ﴾ أي اذكر وقت تَنْجِيَتِنَا إيّاه ﴿ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزاً ﴾ هي امرأته الخائنة كانت كافرة ، وكان نكاح الوثنيات والإقامة عليهن جائزاً في شريعته ، وسميت المرأة المسنة عجوزاً ، لعجزهم عن كثير من الأمور ﴿ فِي الْغَابِرِينَ ﴾ بمعنى إلا عجوزاً مقدراً غبورها أي الباقين في العذاب والهلاك ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ﴾ التدمير إدخال الهلاك على الشيء ، أي أهلكنا ﴿ الآخَرِينَ ﴾ بالائتفاك بهم ، وإمطار الحجارة عليهم فإنه تعالى لم يرض بالائتفاك ، حتى أتبعه مطراً من حجارة ﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على ديار قوم لوط المهلكين ، ومنازلهم في متاجركم إلى الشام ، وتشاهدون آثار هلاكهم ، فإن سدوم في طريق الشام ، وهو قوله تعالى (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ) ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ أي حال كونكم داخلين في الصباح ﴿ وَبِاللَّيْلِ ﴾ أي وملتبسين بالليل أي مساء ، والمعنى نهاراً وليلاً على أن يعمّ المرور للأوقات كلها من الليل والنهار ، ولا يخصص بوقتي الصباح والمساء ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفتشاهدون ذلك فلا تعقلون ؟ حتى تعتبروا به ، وتخافوا

أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فإن من قدر على إهلاك أهل سدوم ، واستئصالهم بسبب كفرهم ، كان قادراً على إهلاك كفار مكة واستئصالهم ، لاتحاد السبب ورجحانه ، لأنهم أكفر من هؤلاء وأكذب ﴿ **وَإِنَّ يونُسَ** ﴾ ابن متّى بالتشديد ، وهو اسم أبيه ، وهو ذو النون وصاحب الحوت لأنه التقمه ﴿ **لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ إلى بقية ثمود ، وهم أهل نينوى قرية على شاطىء دجلة في أرض الموصل ، ولما بعث إليهم دعاهم إلى التوحيد أربعين سنة ، وكانوا يعبدون الأصنام فكذبوه ، وأصروا على ذلك ، فخرج من أظهرهم ، وأوعدهم حلول العذاب بهم ، ثم إن قومه لما أتاهم أمارات العذاب ، أخلصوا الله تعالى بالدعاء والتضرع ، ثم خرجوا إلى الصحراء متضرعين ، ومستغفرين ، حتى ارتفع الضجيج إلى السماء ، فصرف الله عنهم العذاب وقبل توبتهم ، ويونس ينتظر هلاكهم ، فلما أمسى سأل محتطباً مر بقومه : كيف كان حالهم ؟ فقال : هم سالمون وبخير وعافية ، وحدثه بما صنعوا ، فقال : لا أرجع إلى قوم قد كذبتهم ، وخرج من ديارهم مستنكفاً خجلاً منهم ، ولم ينتظر الوحي ، وتوجه إلى جانب البحر وذلك قوله تعالى ﴿ **إِذْ أَبَقَ** ﴾ أي اذكر وقت إباقه أي هربه ، وأصله الهرب من السيد ، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه ، حسن إطلاقه عليه بطريق المجاز ، تصويراً لقبحه ، فإنه عبد الله ، فكيف يفر بغير الإذن ؟ وإلى أين يفر والله محيط به ﴿ **إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** ﴾ أي المملوء من الناس ، والدواب والمتاع رُوي أن يونس لما دخل السفينة وتوسطت البحر احتسبت عن الجري ، ووقفت ، فقال الملاحون هنا عبد آبق من سيده ، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها عبد آبق لا تجرى ، وقال الإمام : فقال الملاحون : إن فيكم عاصياً ، وإلا لم يحصل في السفينة ما نراه من غير ريح ، ولا سبب ظاهر ، وقال التجار قد جربنا مثل هذا ، فإذا رأينا نقترع فمن خرج سهمه نرميه في البحر ، لأن غرق الواحد خير من غرق الكل ، فاقترعوا ثلاث مرات فخرجت القرعة على يونس في كل مرة وذلك قوله تعالى ﴿ **فَسَاهَمَ** ﴾ المساهمة المقارعة والسهم يا يرمي به من القداح ونحوه ، والمعنى فقارع أهل الفلك وألقوا السهام على وجه القرعة ﴿**فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ**﴾ فصار من المغلوبين بالقرعة ، وأصله المزلق عن مقام تالظَفْر والغلبة ﴿ **فَالْتَقَمَهُ الْحُوْتُ** ﴾ الالتقام الابتلاع ، أي فابتعله السمك العظيم ، وهو الحوت ، فسفل به إلى قرار البحر حتى سمع تسبيح الحصى ﴿ **وَهُوَ مُلِيمٌ** ﴾ أي داخل في الملامة ، أو إني بما يلام عليه ، رُوي أن الله تعالى أوحى إلى الحوت آتى لم أجعله لك رزقاً ولكن جعلت بطنك له وعاء ، فلا تكسر منه عظماً ، ولاتقطع منه وصلاً ، فمكث في بطن الحوت أربعين ليلة ، كما دل عليه كونه منبوذاً على الساحل وهو سقيم[1] ﴿ **فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ** ﴾ في بطن الحوت ، وهو قوله (**لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**) أو من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح مدّة عمره ﴿ **لَلَبِثَ** ﴾ لمكث حياً أو ميتاً ﴿ **في**

(١) وقيل : بقي ثلاثة أيام ، وقيل : سبعة أيام والله أعلم .

﴿ بَطْنِهِ ﴾ أي في بطن الحوت ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي إلى يوم البعث ، فيكون بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة ، فلم يلبث لكونه من المسبحين ، وفي الوسيط كان يونس عبداً صالحاً ذاكراً لله فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى (فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) الآية ، وإن فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً ذكر الله (فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بنو إِسْرَائِيل) قال الله تعالى (آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ) وعن الشافعي : أَنْفَسُ ما يُداوى به الذنب التسبيح ، لأن الذكر يرفع العقوبة والعذاب ، كما قال تعالى (فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ ﴾ النبذ : إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به ، والعراء مكان لا سترة فيه ، وهو من التعري سمي به الفضاء الخالي عن البناء والأشجار المظلة ، لتعريه عما يستر أهله والمعنى : فحملنا الحوت على رميه بالمكان الخالي ، عما يغطيه من شجر أو نبات ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أي عليل البدن لما ناله في بطن الحوت ، من ضعف بدنه ، فصار كبدن الطفل ساعة يولد لا قوة له ، وضعف بحيث لا يطيق حر الشمس وهبوب الرياح ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي فوقه مظللة عليه ﴿ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ متناول للقرع والبطيخ ، ونحوها ، مما كان ورقه كله منبسطاً على وجه الأرض ، ولم يقم على ساق ، واحدته يقطينة ، أنبت الله عليه شجرة صارت عريشاً لما نبت تحتها من القرع ، وكان هذا الإنبات كالمعجزة ليونس ، فاستظل بظلها ، وغطته بأوراقها عن الذباب ، فإنه لا يقع عليها كما يقع على سائر العشب ، وكان يونس حين لفظه البحر متغيِّراً ، يؤلمه الذباب فسترته الشجرة بورقها ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ ﴾ هم قومه الذين هرب منهم ، والمراد إرساله السابق ، وهو إرساله إليهم قبل أن خرج من بينهم والتقمه الحوت ، أخبر أولاً بأنه من المرسلين على الإطلاق ، ثم أخبر بأنه قد أرسل إلى مائة ألف جملةً ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ أي في مرأى الناظر فإنه إذا نظر إليهم قال : إنهم مائة ألف أو يزيدون عليها عشرين ألفاً ، والغرض وصفهم بالكثرة ﴿ فَآمَنُوا ﴾ أي بعد ما شاهدوا علائم حلول العذاب إيماناً خالصاً ﴿ فَمَتَّعْنَاهُمْ ﴾ أي بالحياة الدنيا ، وأبقيناهم ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ قدَّره الله سبحانه لهم ، وهذا كناية عن رد العذاب عنهم ، وصرف العقوبة ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ أي إذا كان الله موصوفاً بنعوت الكمال ، والعظمة والجلال ، متفرداً بالخلق والربوبية ، فاستخبرْ على سبيل التوبيخ والتجهيل قريشاً ، وبعض طوائف العرب ، فإنهم كانوا يقولون : إن الله تعالى تزوج من الجنّ ، فخرجت منها الملائكة ، فهم بنات الله ، ولذا يسترهن عن العيون ، فأثبتوا الأولاد لله تعالى ، ثم زعموا أنها من جنس الإناث ، لا من جنس الذكور ، وقسموا القسمة الباطلة حيث جعلوا الإناث لله تعالى ، وجعلوا الذكور لأنفسهم ، فإنهم كانوا يفتخرون بذكور الأولاد ، ويستنكفون من البنات ، ولذا كانوا يقتلونهن ويدفنونهن أحياء ، قال تعالى (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ) ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ أي ألربِّكَ جلَّ وعلا البنات ـ وهنَّ أحطُّ الجنسين في نظرهم ـ ولهم البنون الّذين هم

أرفعهما ؟ وفيه تفضيل لأنفسهم على ربهم ، وذلك مما لا يقول به من له أدنى شيء من العقل ، وهذا كقوله تعالى (**أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى ؟ تِلْكَ إِذاً قِسمَةٌ ضِيزَى**) أي قسمة جائرة غير عادلة ، ثم انتقل إلى تبكيت آخر فقال : ﴿ **أَمْ خَلَقْنَا المَلاَئِكَةَ إِنَاثاً** ﴾ جمع الأنثى أى : بل أم خلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق ، وأبعدهم من صفات الأجسام إناثاً ؟ ففي جعلهم الملائكة إناثاً استهانة شديدة بقدرهم وعلوّ منزلتهم ﴿ **وَهُمْ شَاهِدونَ** ﴾ أي والحال أنهم حاضرون حينئذ ، فيقدمون على ما يقولون ، فإن أمثال هذه الأمور لا تعلم إلا بالمشاهدة ، إذ لا سبيل إلى معرفتها بطريق العقل ، فلابد أن يكون القائل بأنوثتهم حاضراً عند خلقهم ، فكيف جعلوها إناثاً ، ولم يشهدوا خلقهم ؟ ثم استأنف فقال ﴿ **أَلاَ** ﴾ حرف تنبيه ﴿ **إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ** ﴾ أي من أجل كذبهم الأسوء ﴿ **لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ** ﴾ يعني مبنى مذهبهم الفاسد ليس إلا الإفك الصريح ، والافتراء القبيح ، من غير أن يكون لهم دليل أو شبهة قطعاً ،وفيه تجسيم له تعالى ، وتجويز الفناء عليه ، لأن الولادة مختصة بالأجسام القابلة للفناء والفساد ﴿ **وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبونَ** ﴾ في قولهم ذلك كذباً بيناً ، لا ريب فيه ﴿ **أَصْطَفَى البَنَاتِ عَلَى البَنِينَ** ﴾ الاصطفاء أخذ صفوة الشيء لنفسه ، أي أتقولون إنه اختار البنات على البنين ؟ رضيَ بالأخسّ الأدنى ﴿ **ما لَكُمْ** ﴾ أيُّ شيء لكم في هذه الدعوى ؟ ﴿ **كَيْفَ تَحْكُمونَ** ﴾ على الغني عن العالمين بهذا الحكم ، الذي تقضي ببطلانه بديهةُ العقول ؟ ارتدعوا عنه فإنه جور ، استفهم أولاً عما استقر لهم وثبت ، استفهام إنكار ، ثم استفهم استفهام تعجب من حكمهم هذا الحكم الفاسد ، وهو أن يكون أحسن الجنسين لأنفسهم ، وأخسهما لربهم ؟ ﴿ **أَفَلاَ تَذَكَّرونَ** ﴾ أي أتلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه ، فإنه مركوز في عقل كل زكي وغبي ، ثم انتقل إلى تبكيت آخر فقال ﴿ **أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبينٌ** ﴾ أي هل لكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء ، بأن الملائكة بنات الله ، ضرورة أن الحكم بذلك لابد له من سند حسي أو عقلي ، وحيث انتفى كلاهما فلابد من سند نقلي ﴿ **فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ** ﴾ الناطق بصحة دعواكم ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ فيها فإذا لم ينزل عليكم كتاب سماوي فيه ذكر ذلك الحكم ، فلم تُصِرُّون على الكذب ؟ ثم التفت إلى الغيبة للإيذان بانقطاعهم عن الجواب ، وسقوطهم عن درجة الخطاب ، واقتضاء حالهم أن يعرض عنهم ، ويحكى جناياتهم لآخرين فقال ﴿ **وَجَعَلُوا بَيْنَهُ** ﴾ تعالى ﴿ **وبَيْنَ الجِنَّةِ** ﴾ الجنة بالكسر جماعة الجن ، والملائكة ، والمراد هنا الملائكة[1] ، وسُمُّوا جِنَّة لاجتنانهم واستتارهم عن الأبصار ، ومنه سمي الجنين ، وهو المستور في بطن الأم ، والجنون لأنه خفاء العقل ﴿ **نَسَباً** ﴾ النسب والنسبة ، اشتراك من جهة الأبوين ، والمعنى وجعل المشركون بما قالوا نسبة بين الله وبين الملائكة ، وأثبتوا بذلك

(١) هذا قولٌ لبعض المفسرين ، والأظهر أن المراد بالجِنَّة الجنّ الذين يقابلون الإنس فالآية على ظاهرها ، وفيها ردٌّ على المشركين الذين قالوا إن الله تزوج من الجن فولدت له الملائكة .

جنسيةً جامعةً له وللملائكة ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ ﴾ أي وبالله لقد علمت الجنة التي عظموها ، بأن جعلوا بينها وبينه تعالى نسباً وهم الملائكة ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي الكفرة ﴿ لَمُحْضَرونَ ﴾ النار معذبون بها ، لا يغيبون عنها ، لكذبهم وافترائهم في ذلك ، ثم إن الله تعالى نزّه نفسه عما قالوه من الكذب ، فقال ﴿ سُبْحَانَ اللهِ ﴾ أي تنزه تعالى تنزهاً لائقاً بجنابه ﴿ عَمَّا يَصِفونَ ﴾ اللهَ به من الولد والنسب ، أو نزهوه تنزيهاً عن ذلك ، وفي الآية تعجب من كلمتهم الحمقاء ، ومقالتهم العوجاء ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع أي يصفه هؤلاء بذلك ، ولكن المخلصين الذين أخلصهم الله بلطفه ، من ألواث الشكوك ، والشبهات ، براءة من أن يصفوه به .

﴿ فَإِنَّكُمْ ﴾ أيها المشركون ، عود إلى خطابهم لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ ومعبوديكم ، وهم الشياطين الذين أغووهم ﴿ مآ أَنْتُمْ ﴾ ما نافية ، وأنتم خطاب لهم ولمعبوديهم ، تغليباً للمخاطب على الغائب ﴿ عَلَيْهِ ﴾ الضمير لله ﴿ بِفَاتِنِينَ ﴾ الفاتن هنا بمعنى المضل والمفسد ، والمعنى ما أنتم بفاتنين أحداً من عباده ، أي بمضلين ومفسدين بحمله على المعصية والخوف ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ منهم أي داخلها لعلمه تعالى بأنه يصر على الكفر ، بسوء اختياره ، ويصير من أهل النار لا محالة ، فيضلون بتقدير الله من قُدِّر أن يكون من أهل النار ، وأما المخلصون منهم فإنهم بمعزل عن إفسادهم وإضلالهم ﴿ وَمَا مِنَّآ ﴾ حكاية اعتراف الملائكة للردّ على عبدتهم ، كأنه قيل : ويقول الملائكة الذين جعلتموهم بنات الله وعبدتموهم : وما منّا أحد ، أي ملك ، ﴿ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ يعني لكل واحد منا مرتبة في المعرفة ، والعبادة والانتهاء إلى أمر الله في تدبير العالم مقصور عليها لا يتجاوزها ، ولا يستطيع أن ينزل عنها قدر ظفر ، خضوعاً لعظمته وخشوعاً لهيبته ، وتواضعاً لجلاله ففيه تنبيه على فساد قول المشركين أنهم أولاد الله ، لأن مبالغتهم في إظهار العبودية تدل على اعترافهم بالعبودية ، فكيف يكون بينه تعالى وبينهم جنسية ؟ قال ابن عباس : ما في السموات موضع شبر إلا وعليه مَلَك يصلي أو يُسبِّح ، بل إن الكون كله معمور بما لا يعلمه إلا الله ، ولذا أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالتستر في الخلوة ، وأن لا يجامع الرجل امرأته عريانين ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ في مواقف الطاعة ، ومواطن الخدمة ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ المقدسون لله تعالى عن كل ما لا يليق بجناب كبريائه ﴿ وَإِنْ كَانوا لَيَقُولُونَ ﴾ إنْ هي المخففة من الثقيلة ، وضمير الشأن محذوف ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية ، والمعنى وإن الشأن كانت قريش تقول قبل المبعث ﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الأَوَّلِينَ ﴾ أي كتاباً من كتب الأولين ، من التوراة والإنجيل ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي لأخلصنا العبادة لله ، ولما خالفنا كما خالفوا ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ ﴾أي فجاءهم ذكر هو سيد الأذكار ، وكتاب مهيمن على سائر الكتب والأسفار ، وهو القرآن ، فكفروا به وأنكروه ، وقالوا في حقه وفي حق من أنزل

عليه ما قالوا ﴿ فَسَوْفَ يَعلَمونَ ﴾ أي عاقبة كفرهم وغائلته من العذاب العظيم ، وهو وعيد لهم وتهديد ، وفيه إشارة إلى تنزل الإنسان إلى الدرك الأسفل ، وإلى أن مآل الدعوى بلا تطبيق خزي وقهر ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ ﴾ أي وبالله لقد تقدمت في الأزل ، أو كتبت في اللوح المحفوظ ، ثم إن السبق والتقدم الموقوف على الزمان إنما هو بالنسبة إلى الإنسان ، وإلا فالأمر بالإضافة إلى الله كائن على ما كان ﴿ كَلِمَتُنَا ﴾ وعدنا ، على ما لنا من العظمة ﴿ لِعِبَادِنَا ﴾ الذين أخلصوا لنا العبادة في كل حركة ، وسكون ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الذين زدناهم على شرف الإخلاص في العبودية ، شرف الرسالة ، ثم فسر الوعد بطريق الاستئناف فقال ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ﴾ خاصة ﴿ الْمَنْصُورُونَ ﴾ فمن نصرناه فلا يُغلب ، كما أن من خذلناه لا يَغْلِب ، ثم عمم فقال ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا ﴾ أي من المرسلين وأتباعهم المؤمنين ، والجند العسكر ﴿ لَهُمُ ﴾ أي لا غيرهم ﴿ الْغَالِبونَ ﴾ على أعدائهم في الدنيا والآخرة ، وإن رؤي أنهم مغلوبون في بعض المشاهد ، لأن العاقبة لهم ، والحكم للغالب ، والنادر كالمعدوم ، والمغلوبية لعارض ، كمخالفة أمر الشارع وطمع الدنيا ، والعجب ، والغرور ونحو ذلك ، لا تقدح في النصر المقضيِّ بالذات ، والنصر منصب شريف لا يليق إلا بالمؤمن ، وأما الكافر فشأنه الاستدراج وغاية الخذلان ، وقال بعضهم : لم يُرِدْ بالنصر هذا النصر المعهود ، بل الحجة ، لأن الحق إنما يتبين من الباطل بالحجة لا بالسيف ، فأراد بذلك أن الحجة تكون للأنبياء على سائر الأمم ، في اختلاف الأطوار والأعصار ، وقال الحسن البصري : أراد بالنصرة هذه النُصرة بعينها دون الحجة ، ثم قال : « ما انتهى إليَّ أن نبياً قُتل في حرب قط » أراد أن المأمور بالحرب منصورٌ لا محالة ، بخلاف غير المأمور ، وهو التوفيق بين قوله تعالى (وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ) ونظائره وبين هذه الآية وأمثالها ، والحاصل أن المؤمنين المخلصين هم المنصورون والغالبون ، لأن المستند إلى المولى الغالب العزيز ، هوالمنصور المظفر الغالب القاهر ، وأعداؤهم هم المنهزمون المغلوبون ، لأن المستند إلى غير الله خصوصاً إلى الحصون والقلاع ، المبنية من الأحجار هو المهزوم المدمر المغلوب المقهور ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي إذا علمت أن النصرة والغلبة لك ولأتباعك ، فأعرض عن كفار مكة ، واصبر على أذاهم ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ أي مدة يسيرة ، هي مدة الكف عن القتال ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ على أسوء حال وأفظع نكال ، حل بهم من القتل والأسر ، ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ما يقع حينئذ من الأمور و « سوف » للوعيد ليتوبوا ويؤمنوا ، دون التبعيد ، لأن تبعيد الشيء المحذَّر منه ، كالمنافي للتخويف ، ولما نزل (فَسَوْفَ يُبْصِرونَ) قالوا استعجالاً واستهزاءً لفرط جهلهم ، متى هذا ؟ فنزل قوله تعالى ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ؟ أي أبعد هذا التكرير من الوعيد ، يستجعلون بعذابنا ؟ والهمزة للإنكار والتعجب ، يعني تعجبوا من هذا الأمر المستنكر ، وفي التوراة « أبي يَغْتَرُّون أَمْ عليَّ يجترئون » ؟ ﴿ فَإِذَا نَزَلَ ﴾ العذاب الموعود ﴿ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ الساحة المكان الواسع ، ومنه ساحة الدار ، الساحة الفناء الخالي عن

الأبنية ، وفناء الدار بالكسر ما امتد من جوانبها معداً لمصالحها والمعنى بفنائهم وقربهم وحضرتهم ، كأنه جيش قد هزمهم ، فأناخ بفنائهم بغتة ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ فبئس صباح المنذرين صباحهم ، أي صباح من أُنذر بالعذاب وكذبه فلم يؤمن ، مستعار من صباح الجيش ، ولما كثرت منهم الإغارة في الصباح سموها صباحاً وإن وقعت ليلاً ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ إثر تسلية ، وتأكيد لوقوع الميعاد غب تأكيد ، وإيذانٌ بأن ما يبصره عليه السلام من فنون المسار ، وما يبصرون من أنواع المضارّ ، لا يحيط به الوصف والبيان ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ ﴾ خطاب للنبي عليه السلام وقوله ﴿ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أيْ نزِّه يا محمد من هو مربيك ، ومكملك ، ومالك العزة والغلبة على الإطلاق ، عما يصفه المشركون به مما لا يليق بجناب كبريائه من الأولاد ، والأزواج ، والشركاء ، وغير ذلك من الأشياء التي من جملتها ترك نصرتك عليهم ، كما يدل عليه استعجالهم بالعذاب ، وأضاف الرب إلى العزة ، لاختصاصه بها كأنه قيل : ذي العزة ، فلا عزة إلا له ، على أن العزة ذاتية ، أو لمن أعزه من الأنبياء ، وغيرهم ، فالعزة حادثة كائنة بين خلقه ، وهي وإن كانت صفة قائمة بغيره تعالى ، إلا أنها مملوكة له مختصة به يضعها حيث يشاء كما قال تعالى (تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ) ﴿ وَسَلَامٌ ﴾ وسلامة ونجاة من كل المكاره ، وفوز بجميع المآرب ﴿ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ الذين يبلغون رسالات اللهإلى الأمم ، ويبيتون لهم ما يحتاجون إليه من الأمور الدينية والدنيوية ، أوَّلُهُم آدم ، وآخرهم محمد عليهم السلام ، فهو تعميم للرسل بالتسليم ، بعد تخصيص بعضهم فيما سبق ، لأن تخصيص كل واحد بالذكر يطول ، ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الشيخ عز الدين : « الحَمْدُ للهِ » كلمة مشتملة على إثبات ضروب الكمال لذاته وصفاته تعالى ، فما كان من أسمائه متضمناً للإثبات كالعليم والقدير والسميع والبصير ، فهو مندرج تحتها ، فأثبتنا بالحمد كل كمال عرفناه ، وكل جلال أدركناه ، وقال أبو السعود : هذا إشارة إلى وصفه تعالى بصفاته الكريمة الثبوتية ، بعد التنبيه على اتصافه بجميع صفاته السلبية ، وإيذان باستتباعها للأفعال الجميلة ، التي من جملتها إفاضته عليهم من فنون الكرامات السنية ، والكمالات الدينية والدنيوية ، وإسباغه عليهم وعلى من اتبعهم من فنون النعماء الظاهرة والباطنة ، الموجبة لحمده تعالى ، وإشعار بأن ما وعده من النصرة والغلبة قد تحقق ، والمراد تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه ، وتحميده ، والتسليم على رسله الذين هم وسائط بينهم وبينه عزّ وجلّ في فيضان الكمالات الدينية والدنيوية عليهم ، ولعل توسط التسليم على المرسلين بين تسبيحه تعالى وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده مع ما فيه من الإشعار بأن توفيقه عليهم ، من جملة نعمه الموجبة للحمد وقال بعضهم : والحمد لله على إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين ،وعلى كل حال يعني هو المحمود في كل من الحالات وعن علي رضي الله تعالى عنه : من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليكن آخر

كلامه من مجلسه « سبحان ربك »[١] إلخ فللمؤمن أن يتدارك حاله بشيئين قبل أن يقوم من مجلسه ، أحدهما بجلب الأجر الجزيل ، وهو بالآية المذكورة ، والثاني بالكفارة وهو بما أشار إليه النبي عليه السلام في قوله (من جلس مجلساً فكثر فيه لَغَطُه ، فقال قبل أن يقوم : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، فقد غُفر له)[٢] يعني من الصغائر ما لم يتعلق لحق آدمي كالغيبة ، فعلى العاقل أن لا يغفل في مجلسه ، بل يذكر ربه لأنسه ، ويختمه بما هو من باب التخلية والتَّحْلِية ، والتصفية والتَّجلية .

« انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الصافات »

• • •

(١) أخرجه ابن حاتم مرسلاً بلفظ (من سرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى ...) الحديث ، وانظر الدر المنثور ٥ / ٢٩٥ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات وإسناده حسن ، ورواه ابن حبان أيضاً ، وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٤ / ٢٧٧ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ صٓ ﴾ أي هذه سورة ص كما مرَّ في اخواته وقال الشعبي : ان لله تعالى في كل كتاب سراً ، وسرُّهُ في القرآن فواتح السور ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ الواو للقسم ، والذكر : الشرفُ والنباهة ، أو الذكرى والموعظة ، أو ذكر ما يحتاج إليه في أمر الدين من الشرائع والأحكام ، وغيرها من أقاصيص الأنبياء ، وأخبار الأمم الماضية ، والوعد والوعيد ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوْا ﴾ من رؤساء أهل مكة ﴿ فِي عِزَّةٍ ﴾ العِزَّةُ : هي التعزُّز وهي الأنفةُ والاستكبار عن قبول الحقِّ ، وهي في الحقيقة ذلٌّ وهوان أي بل هم في استكبار عن الاعتراف بالحق ، والإيمان ، وحميَّة شديدة ﴿ وشقاق ﴾ أي مخالفة لله ، وعداوة عظيمة لرسول الله عليه السلام ، فلذا لا ينقادون ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أي أهلكنا أمماً كثيرة قبل هؤلاء من الأمم الماضية بسبب الاستكبار والخلاف ﴿ فَنَادَوْا ﴾ عند نزول بأسنا ، وحلول نقمتنا ، استغاثة ، أو توبة ، واستغفاراً ، لينجوا من ذلك ﴿ وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أي وليس الحينُ حينَ فوت ، وفرار ، ونجاة ، لكونه حالة اليأس ، و(لات) هي لا المشبَّهه بليس ، زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد ، كما زيدت على ربَّ وثُمَّ ، خُصَّت بنفي الأحيان ، والمناصُ : الهربُ والمنجى ، يقال : ناص ينوص إذا هرب طلباً للنجاة ﴿ وَعَجِبُوْا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ أي عجب كفار أهل مكة ، من أن جاءهم منذر ينذرهم عذاب الله أي رسول من جنسهم ، ووجه التعجب أنهم قالوا إن محمداً مساو لكم في الخلقة الظاهرة ، والأخلاق الباطنة ، والنَسب ، والشكل ، والصورة ، فكيف يعقل أن يختص من بينكم بهذا المنصب العالي ؟ ولم يتعجبوا من الحجارة المنحوتة ، أن تكون آلهة ، وهذه مناقضة ظاهرة ، فلما تحيروا في شأن النبي عليه السلام ، نسبوه إلى السحر ، والكذب ﴿ وَقَالَ الكَافِرُوْنَ هَذَا سَاحِرٌ ﴾ فيما يظهره من الخوارق ﴿ كَذَّابٌ ﴾ فيما يسنده إلى الله من الإرسال والإنزال ، لم يقل كاذب لرعاية الفواصل .

﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً ﴾ الهمزة للإنكار والاستبعاد ، والآلهة جمع إله وحقه أن لا يجمع إذ لا معبود في الحقيقة سواه تعالى ، لكن العرب لاعتقادهم أن ههنا معبودات جمعوه فقالوا : آلهة أي : أصيَّر محمد بزعمه الآلهة إلهاً واحداً ؟ بأن نفى الألوهية عنهم وقصرها على واحد ؟ ولم يعلموا أنهم جعلوا الإله الواحد آلهة ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ العُجابُ بمعنى العجيب ، إلا أنه أبلغ منه كما في قوله تعالى (وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً) أي كبيراً متناهياً في الكبر ، والمعنى بليغٌ في العجب ، لأنه خلاف ما اتفق عليه آباؤنا إلى هذا الزمان ﴿ وَانْطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ ﴾ أي وذهب الأشراف من قريش ، وهم خمسة وعشرون عن مجلس أبي طالب ، بعد ما أسكتهم رسول الله عليه السلام بالجواب الحاضر ، وشاهدوا تصلُّبه

وعزيمته على أن يظهره على الدين كله ، ويئسوا مما كانوا يرجونه بتوسط أبي طالب من المصالحة على الوجه المذكور ﴿ أَنْ ﴾ أي وانطلق الملأ منهم يقول بعضهم لبعض على وجه النصيحة ﴿ امْشُوْا ﴾ سيروا على طريقتكم ، وامضوا فلا فائدة في مكالمة هذا الرجل ﴿ وَاصْبِرُوْا عَلَى آلِهَتِكُمْ ﴾ أي واثبتوا على عبادتها متحملين لما تسمعونه في حقها من القدح ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي هذا الذي شاهدناه من محمد ، من أمر التوحيد ، ونفي آلهتنا ، وإبطال أمرنا ، ﴿ لَشَيءٌ يُرَادُ ﴾ من جهته عليه السلام إمضاؤه وتنفيذه من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، لا قولٌ يقال من طرف اللسان ، أو أمر يرجى فيه المسامحة ، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله عن رأيه ، وحسبكم أن لا تُمْنعوا من عبادة آلهتكم بالكلية ، فاصبروا عليها وتحملوا ما تسمعونه في حقها من القدح ، وسوء المقالة ، ومرادهم أن يقولوا إنَّ هذا لأمرٌ يراد بنا ، ومكرٌ يُمكر علينا ، ﴿ مَاسَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ الذي يقوله من التوحيد ﴿ فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ ﴾ أي في الملة التي أدركنا عليها آباءنا ، هي ملة قريش ، ودينهم الذي هم عليه ، فإنها متأخرة عما تقدم عليها من الأديان والملل ﴿ إِنْ هَذَا ﴾ (إن) نافية بمعنى (ما) أي ما هذا ﴿ إِلاَّ اخْتِلاَقٌ ﴾ أي كذب اختلقه من عند نفسه .

﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ ونحن رؤساء الناس ، وأشرافهم ، وأكبرهم سناً ، وأكثرهم أموالاً وأعواناً ، ومرادهم إنكار كون القرآن ذكراً منزلاً من الله تعالى ، وأمثال هذه المقالات الباطلة ، دليل على الحسد لرسول الله ، على اختصاصه عليه السلام بشرف النبوة من بينهم ، وحرمانهم منه ، وقَصَرُوا النظر على متاع الدنيا ، وغلطوا في القصر والقياس ، أما الأول فلأن الشرف الحقيقي إنما هو بالفضائل النفسانية دون الخارجية ، وأما الثاني فلأن قياس نفسه عليه السلام بأنفسهم فاسد ، إذ هو أكمل الرجال ، وأفضل الخلق فأنى يكون هو مثلهم ؟ ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ أي القرآن أو الوحي بميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن النظر في الأدلة المؤدية إلى العلم بحقِّيته ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوْا عَذَابِ ﴾ أي بل لم يذوقوا بعدُ عذابي ، فإذا ذاقوه تبين لهم حقيقة الحال ، وفيه تهديد لهم أي سيذوقون عذابي فيلجئهم إلى تصديق الذكر ، حين لا ينفع التصديق ، فالمعنى لو ذاقوا عذابي ووجدوا ألمه ، لما قدموا على الجحود ، دلَّ على هذا الأثر (الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا) .

﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة وهي للإنكار ، والخزائن جمع خِزانة بالكسر أي بل أعندهم خزائن رحمته تعالى ، يتصرفون فيها حسبما يشاؤن ، حتى يصيبوا بها من شاؤا ، ويصرفوها عمن شاؤا ، ويتحكموا فيها بمقتضى آرائهم ، فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم ؟ والمعنى أن النبوة عطية من الله تعالى ، يتفضل بها على من يشاء من عباده ، لا مانع له ،

فإنه العزيز أي الغالب الذي لا يُغالب ، الوهاب الذي له أن يهب كل ما يشاء ﴿ **أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾ أي بل ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية ، حتى يتكلموا في الأمور الربانية ؟ ويتحكموا في التدابير الإلهية ، التي يستأثر بها رب العزة والكبرياء ؟ ﴿ **فَلْيَرْتَقُوْا فِي الأَسْبَابِ** ﴾ الارتقاءُ : الصعود ، والسبب الحبل الذي يُصعد به ، والمعنى إن كان لهم ما ذكر من الملك ، فليصعدوا في المعارج ، التي يتوصل بها إلى العرش ، حتى يدبروا أمر العالم وينزلوا الوحي إلى من يختارون ، وفيه من التهكم بهم مالا غاية وراءه ﴿ **جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُوْمٌ مِنَ الأَحْزَابِ** ﴾ الجند : الجمعُ المعدُّ للحرب ، و « ما » مزيدة للتقليل والتحقير ، نحو أكلت شيئاً ما ، وهنالك مركب من ثلاث كلمات إحداها « هنا » وهو إشارة إلى مكان قريب ، والثانية اللام وهي للتأكيد ، والثالثة الكاف وهي للخطاب والمعنى : هم كجند من الكفار المتحزبين على الرسل ، مهزوم مكسور عما قريب ، فلا تبال بما يقولون ، ولا تكترث بما يَهْذُون ، يعني أن هؤلاء الكفار ليس معهم حجة ، ولا لأصنامهم من النفع والضر مُكْنة ، ولا في النفع والرد عن أنفسهم قوة ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ** ﴾ أي قبل قومك يا محمد وهم قريش ﴿ **قَوْمُ نُوحٍ** ﴾ أي كذَّبوا نوحاً ، وقد دعاهم إلى الله وتوحيده ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴿ **وَعَادٌ** ﴾ قوم هود ﴿ **وَفِرْعَوْنُ** ﴾ موسى عليه السلام ﴿ **ذُوْ الأَوْتَادِ** ﴾ جمع وَتِدٍ وهو ما غرز في الأرض أو الحائط من خشب أي ذو الملك الثابت ، لأنه استقام له الأمر أربعمائة سنة من غير منازع ، وأصله أن يستعمل في ثبات الخيمة ، بأن يشد أطنابها على أوتاد مركوزة في الأرض ، ثم استعير لثبات الملك ورسوخ السلطة ، ويجوز أن يكون المعنى : ذو الجموع الكثيرة ، سُمُّوا بذلك لأنهم يشدون البلاد والملك ، ويشدُّ بعضهم بعضاً كالوتد يشد البناء والخباء ، وفي الحديث (المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يَشدُّ بعضُه بعضاً)[1] أي لا يتقوى في أمر دينه ودنياه إلا بمعونة أخيه ، كما أن بعض البناء يتقوى ببعضه ، ويكفي دليلاً على كثرة جموع فرعون أنه قال في حق بني إسرائيل (**إِنَّ هَؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُوْنَ**) مع أنهم كانوا ينيفون على ستمائة ألف مقاتل ، ويجوز أن يكون الأوتاد حقيقة لا استعارة ، فإنه على ما روي كانت له أوتاد من حديد يُعذب الناسُ عليها ، فكان إذا غضب على أحد مدَّه مستلقياً على الأرض ، ثم يشد يديه ورجليه ورأسه بالأوتاد ﴿ **وَثَمُوْدُ** ﴾ قوم صالح أتاهم بالناقة فكذبوه ، فعقروها فأهلكهم الله ﴿ **وَقَوْمُ لُوطٍ** ﴾ قال مجاهد : كانوا أربعمائة ألف بيت ، فكذبوا نبيهم لوطاً فأهلكهم الله ﴿ **وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ** ﴾ أصحاب الغيضة من قوم شعيب ، والأيكُ شجر ملتف ، وقيل هي اسم بلد ﴿ **أُولَئِكَ الأَحْزَابُ** ﴾ بدل من الطوائف المذكورة يعني المتحزّبين المجتمعين على أنبيائهم ، الذين جعل الجند المهزوم يعني قريش منهم ﴿ **إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ** ﴾ أي ما كلُّ حزب وجماعة من أولئك الأحزاب ، إلاَّ كذَّب رسوله على نهج

(١) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٥١ .

مقابلة الجمع بالجمع ، لتدل على انقسام الآحاد بالآحاد ، كما في قولك ركب القوم دوابهم أي ما كل واحد منهم إلا محكوم عليه بأنه كذب الرسل ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ أي ثبت ووقع على كل منهم عقابي ، من أصناف العقوبات المفصّلة في مواقعها ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاَءِ ﴾ الإشارة إلى كفار مكة بـ« هؤلاء » ، تحقيرٌ لشأنهم وتهوينٌ لأمرهم ، أي وما ينتظر هؤلاء الكفرة ، الذين هم أمثال أولئك الطوائف المذكورة ، المهلكة بالكفر والتكذيب ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ هي بالنفخة الثانية أي ليس بينهم وبين حلول ما أعدَّ لهم من العقاب الفظيع ، إلاَّ هي حيث أُخِّرتْ عقوبتهم إلى الآخرة ، لما أن تعذيبهم بالاستئصال حسبما يستحقونه ، والنبيُّ عليه السلام بين أظهرهم ، خارج عن السنة الإلهية المبنيَّة على الحكم الباهرة ، كما نطق به قوله تعالى (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) ﴿ مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ أي ما للصيحة من توقف مقدار فواق ، والفواق ما بين حلبتي الحالب من الوقت ، لأن الناقة تحلب ثم تُترك سويعة يرضعها الفصيل لإدرار اللبن ، ثم تحلب ثانية ، يعني إذا جاء وقت الصيحة لم تستأخر هذا القدر من الزمان كقوله تعالى (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً) وهو عبارة عن الزمان اليسير ، وفي الآيتين إشارة إلى تسلية قلب النبي ﷺ ، وتصفيته عن الاهتمام بكفار مكة ، لئلا يضيق قلبه من تكذيبهم ، ولا يحزن عليهم لكفرهم ، فإن هؤلاء الأحزاب كذّبوا الرسل كما كذبه قومه ، وكانوا أقوياء عدداً وجنداً ، فما أغنى عنهم جمعهم وقوتهم شيئاً ، فكذلك حال قريش ﴿ وقالوا ﴾ بطريق الاستهزاء والسخرية عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة ، والقائل هو « النضر بن الحرث » وكان من شياطينهم ، وهو الذي قال (إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ) ﴿ رَبَّنَا ﴾ تصدير دعائهم بالنداء للإمعان في الاستهزاء ، كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال ﴿ عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحِسَابِ ﴾ القِطُّ : القطيعة من الشيء ، والمراد هنا القسط والنصيب ، لأنه قطعة من الشيء مفرزة أي عجِّلْ لنا قسطنا وحظنا من العذاب الذي توعَّدنا به محمد ، ولا تؤخره إلى يوم الحساب ، الذي مبدأه الصيحة المذكورة

قال سهل التستري : لا يتمنى الموت إلاَّ ثلاثة : رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يفر من أقدار الله عليه ، أو مشتاق محب لقاء الله ﴿ اصْبِرْ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ فعن قريب سينزل الله نصرك ، ويعطيهم سؤالهم * قال شاه الكرماني : الصبر ثلاثة أشياء : ترك الشكوى ، وصدق الرضى ، وقبول القضاء بحلاوة القلب ﴿ واذكر ﴾ من الذكر القلبي أي وتذكَّرْ ﴿ عَبْدَنَا ﴾ المخصوص بعنايتنا القديمة ﴿ دَاوُدَ ﴾ من سبط يهودا بن يعقوب عليه السلام ، بينه وبين موسى عليه السلام خمسمائة وتسع وستون سنة وقام بشريعة موسى وعاش مائة سنة ﴿ ذَا الأَيْدِ ﴾ الأيد : القوة الشديدة أي ذا القوة في الدين ، القائم بمشاقه وتكاليفه ، واعلم أنه تعالى ذكر أولاً قوة داود في أمر الدين ، ثم زلته بحسب القضاء الأزلي ،

ثم توبته بحسب العناية السابقة ، وأمره عليه السلام بتذكر حاله وقوته في باب الطاعة ، ليتقوَّى على الصبر ، ولا يَزِلَّ عن مقام استقامته ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ من الأوب وهو الرجوع ، أي رجَّاع إلى الله ومرضاته ، عن كل ما يكره الله إلى ما يحب الله ، وهو تعليل لكونه ذا الأيد ، ودليل على أن المراد به القوة في أمر الدين لا قوة البدن ، لأن كونه راجعاً إلى مرضاة الله ، لا يستلزم قوة البدن ، ومن قوة عبادة داود أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وكان ينام النصف الأول من الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وهو الموافق لما في المشارق من قوله عليه السلام « أحبُّ الصِّيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وأحبُّ الصلاة إلى الله ـ أي النوافل ـ صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه »(١) وإنما صار هذا النوع أحبَّ لأن النفس إذا نامت الثلثين من الليل ، تكون أخف وأنشط في العبادة ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ ﴾ بيان لفضله مع داود أي ذللنا ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ أي حال كونها تقدس الله تعالى مع داود ، لم يقل مسبحات للدلالة على تجدد التسبيح حالاً بعد حال ، وكان داود يسمع ويفهم تسبيح الجبال ، على وجه خاص كرامة له ومعجزة ، وتسبيح الجبال مع داود على حقيقته ، لكن لما كان على كيفيةٍ مخصوصة ، وسماعه على وجه غريب ، خارج عن المعقول ، كان من معجزات داود عليه السلام وكراماته ﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ في آخر النهار ﴿ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ في أوَّل النهار ، ووقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس وتضيء ، ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال حدثتني أم هانىء بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوم فتح مكة ، فدعا بوضوء فتوضأ ـ وفي رواية ـ واغتسل في بيتها ، ثم صلى الضحى ثماني ركعات وقال : (يا أم هانىء هذه صلاة الإشراق)(٢) وقال بعضهم : صلاة الضحى غير صلاة الإشراق كما دل عليه قوله عليه السلام (من صلى الفجر بجماعة ، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ، ثم صلى ركعتين ، كان له كأجر حَجَّة وعمرةٍ تامة تامة)(٣) وهي صلاة الإشراق كما في شرح المصابيح وقوله عليه السلام (صلاة الأوابين حين تَرْمِضُ الفِصَالُ من الضحى)(٤) والمعنى أن صلاة الضحى تصلى إذا وجد الفصيل حر الشمس من الرمضاء أي من الأرض التي اشتد حرها من شدة وقع الشمس عليها ، وفيه إشارة إلى مدحهم بصلاة الضحى في الوقت الموصوف ، لأن الحر إذا اشتد عند ارتفاع الشمس تميل النفوس إلى الاستراحة ، فيرد على قلوب الأوابين المستأنسين بذكر الله تعالى ، أن ينقطعوا عن كل مطلوب سواه ﴿ وَالطَّيْرَ ﴾ عطف على الجبال وهو كل

(١) الحديث أخرجه الشيخان وأبو داود والنسائي وابن ماجه ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٧ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري بنحوه .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي من حديث أنس مرفوعاً ، وإسناده حسن ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٤٠١ .

(٤) الحديث أخرجه مسلم وأحمد في المسند ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٩٥ .

ذي جناح يسبح في الهواء ﴿ مَحْشُورَةً ﴾ أي وسخرنا الطير مجموعة إليه من كل جانب وناحية ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان إذا سبَّح جاوبته الجبال بالتسبيح ، واجتمعت إليه الطير فسبَّحت ، وذلك حشرها ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد من الجبال والطير ﴿ له ﴾ أي لأجل داود ﴿ أَوَّابٌ ﴾ رجَّاع إلى التسبيح ، إذاسبَّح سبحت الجبال والطير معه ، وقيل : الضمير لله أي كلٌّ من داود والجبال والطير لله أواب أي مسبح مرجِّعٌ لله ، روي أن الله تعالى لم يعط أحداً من خلقه ، ما أعطى داود من حسن الصوت ، فلما أوصل إلى الجبال ألحان داود ، تحركت من لذة السماع فوافقته في الذكر والتسبيح ، ولَّما سمعت الطيور نغماته غرَّدت معه ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ ﴾ أي العلم بالأشياء على ما هي عليه ، والعمل بمقتضاه إن كان متعلقاً بكيفية العمل ﴿ وَفصْلَ الخِطابِ ﴾ لبيان تلك الحكمة على الوجه المفهم ، وقيل : يعني الإفصاح بحقيقة الأمر ، وقطع القضايا ، والأحكام باليقين من غير ارتياب ولا شك ولا توقف ، فيكون بمعنى فصل الخصام بتمييز الحق من الباطل ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ ﴾ استفهام للتعجب ، والتشويق إلى استماع ما في حيِّزه ، للإيذان بأنه من الأخبار البديعة التي حقها أن لا تخفى على أحد . ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ ﴾ أي حين علوا البيت الذي كان داود عليه السلام يشتغل بطاعة ربه فيه ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ وإنما فزع منهم لأنه كان الباب مغلقاً ، وهو يتعبد في البيت ، فنزلوا عليه بغتة على خلاف العادة ﴿ قَالُوا ﴾ إزالةً لفَزَعه ﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ منا ﴿ خَصْمَانِ ﴾ أي نحن فريقان متخاصمان ﴿ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ تعدى بعضنا على بعض ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بالحَقِّ ﴾ بالعدل ﴿ ولا تُشْطِطْ ﴾ لا تَجرُ في الحكومة ، قالا ذلك للاستعطاف ﴿ وَاهْدِنا إلى سَوَاءِ الصِراطِ ﴾ إلى وسط طريق الحق ، بزجر الباغي عما سلكه من طريق الجور ، وإرشاده إلى منهاج العدل ﴿ إِنَّ هذا أَخِي ﴾ في الدين ، أو في الصحبة ، وسمَّاه أخاً لبيان كمال قبح ما فعل به صاحبه ﴿ لَهُ تِسْعٌ وتِسْعون نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ واحِدَةٌ ﴾ النعجة هي الأنثى من الضأن ، وقد يكنى بها عن المرأة ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أي ملكنيها لأعولها وأنفق عليها ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أي غلبني في مخاطبته إياي بأن جاء بحجاج لم أقدر على رده ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان أعز مني وأقوى على مخاطبتي ﴿ قَالَ ﴾ داود بعد اعتراف المدَّعَىٰ عليه ، أو على تقدير صدق المدعي ، وإلا فالمسارعة إلى تصديق أحد الخصمين قبل سماع كلام الآخر لا وجه له وفي الحديث (إذا جلس إليك الخصمان فلا تقضِ لأحدهما حتى تسمع من الآخر)[1] ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ جواب قسم محذوف قصد به عليه السلام المبالغة في إنكار فعل صاحبه بطمعه في نعجة من ليس له غيرها ، مع أنَّ له قطيعاً منها

(١) الحديث أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي ، وتتمته (كما سمعت من الأول فإنك إذا فعلتَ تَبيَّن لك القضاء) وانظر الفتح الكبير ١ / ١٠٠ .

﴿ بسُؤالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعاجِهِ ﴾ أي بضم نعجتك إلى نعاجه على وجه السؤال والطلب * ﴿ وَإنَّ كثيراً مِنَ الخُلَطَاء ﴾ أي الشركاء الذين خلطوا أموالهم ﴿ لَيَبْغِي بعْضُهُمْ عَلى بَعْض ﴾ أي ليتعدى غير مراع لحق الصحبة والشركة ﴿ إلاّ الَّذِينَ آمنُوا وَعَمِلوا الصَالحاتِ ﴾ منهم فإنهم يجتنبون البغي والعدوان ﴿ وَقَليلٌ ما هُمْ ﴾ وهم قليل ﴿ وَظَنّ دَاوُدُ أنّما فَتَنَّاهُ ﴾ وعلم داود بما جرى في مجلس الحكومة أنما فعلنا به الفتنة ، والامتحان ﴿ فَاسْتَغْفَر رَبَّه ﴾ إثْرَ ما علم أن ما صدر عنه ذنب ﴿ وَخَرَّ ﴾ سقط حال كونه ﴿ رَاكِعاً ﴾ أي ساجداً أو خرّ للسجود راكعاً أي مصلياً ، إطلاقاً للجزء وإرادة الكل ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي عليه السلام كان يقول في سجدة ص وسجدة الشكر (اللهم اكتب لي عندك بها أجراً ، واجعلها لي عندك ذخراً ، وضع عني بها وزراً ، واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود سجدته)[1] ﴿ وأنَابَ ﴾ أي رجع إلى الله تعالى بالتوبة من جميع المخالفات التي هي الزلات ﴿ وإنَّ لَهُ ﴾ أي لداود ﴿ عِنْدنا لَزُلْفَى ﴾ لقربة وكرامة ﴿ وَحُسْنَ مآبٍ ﴾ حسن مرجع في الجنة ﴿ يَادَاودُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ﴾ أي أكرمناك بالنبوة ، وجعلناك مستخْلَفاً على العباد ، قال أحدُ العلماء : ينبغي للواعظ أن يراقب الله في وعظه ويجتنب كل ما كان فيه تجرؤ على انتهاك الحرمات مما ذكره المؤرخون عن اليهود من ذكر زلات الأنبياء كداود ويوسف عليهما السلام ، مع كون الحق أثنى عليهم ، واصطفاهم ، ثم الداهية العظمى أن يجعل ذلك في تفسير القرآن ويقول : قال المفسرون كذا وكذا مع كون ذلك كله تأويلات فاسدة ، بأسانيد واهية عن قوم غضب الله عليهم ، وقالوا في الله ما قصّه الله علينا في كتابه ، وكل واعظ ذكر ذلك في مجلسه مقته الله وملائكته ، لكونه ذكر لمن في قلبه مرض من العصاة حجة يحتج بها ويقول : إذا كان مثل الأنبياء وقع في مثل ذلك فأي شيء أنا ؟ فعلم أن الواجب على الواعظ ذكر الله وما فيه تعظيمه وتعظيم رسله وعلماء أمته وترغيب الناس في الجنة وتحذيرهم من النار وأهوال الموقف بين يدي الله تعالى فيكون مجلسه كله رحمة . والمعنى استخلفناك على الملك في الأرض ، والحكم فيما بين أهلها أو جعلناك أهل تصرف نافذ الحكم في الأرض ، وكانت النبوة قبل داود في سبطه ، والملك في سبط آخر ، فأعطاهما تعالى داود عليه السلام فكان يدبر أمر العباد بأمره تعالى ، ولم يأت نص على خلافة أحد من الأنبياء غير داود عليه السلام .

﴿ فاحْكُم بَيْنَ النَّاس بالحق ﴾ أي بحكم الله تعالى فإن الخلافة مقتضية له حتماً ، وحكم الله هو العدل المحض ، وبه يكون الحاكم عادلاً . ﴿ وَلاَتَتَّبِعِ الهَوَىٰ ﴾ أي ما تهواه النفس وتشتهيه في الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا ﴿ فَيُضِلَّكَ عَنْ سبيل اللهِ ﴾ أي فيكون الهوى أو اتباعه سبباً لضلالك عن دلائله التي نصبها على الحق تكويناً وتشريعاً ، فمن ضل عن سبيل الله وقع في سبيل

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه ، وله قصة ، وانظر جمع الفوائد ١ / ١٤٦ .

الشيطان ﴿ **إِنَّ الذين يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ** ﴾ تعليل لما قبله ببيان غائلته ﴿ **لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ بما نَسُوا** ﴾ أي بسبب نسيانهم ﴿ **يوْمَ الحِسَابِ** ﴾ ولما كان الضلال عن سبيل الله مستلزماً لنسيان يوم الحساب ، كان كل منهما سبباً وعلة لثبوت العذاب الشديد ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾ من المخلوقات ﴿ **بَاطِلاً** ﴾ أي خلقاً باطلاً لا حكمة فيه بل ليكون مداراً للعلم ، ومذكراً للآخرة وما فيها من الحساب والجزاء ، فإن الدنيا لا تخلو عن الصفو ، والكدر ، وكل منهما يفصح عما في الآخرة من الراحة والخطر .

﴿ **ذلِكَ** ﴾ أي كونه خلقاً باطلاً خالياً عن الغاية الجليلة والحكمة الباهرة ﴿ **ظَنُّ الَّذِين كَفَرُوا** ﴾ أي مظنون كفار مكة ، فإنهم وإن كانوا مقرين بأن الله هو الخالق لكنْ لّما اعتقدوا بأن الجزاء الذي هو علة خلق العالم باطل ، لزمهم أن يظنوا أن المعلول باطل ويعتقدوا ذلك ﴿ **فَوَيلٌ** ﴾ أي فإذا كان مظنونهم هذا فشدَّةُ هلاكٍ حاصل ﴿ **للذِّينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** ﴾ أي فويل لهم بسبب النار المرتبة على ظنهم ، وكفرهم ، فلابد من رؤية الحق حقاً والباطل باطلاً ، وتدارك زاد يوم الجزاء ظاهراً وباطناً ليحصل الخلاص ، والنجاة والنعيم واللذات في أعلى الدرجات ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ بل أنجعل المؤمنين المصلحين في الأرض ﴿ **كالمفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ** ﴾ بالكفر والمعاصي أي لا نجعلهم سواء ، فلو بطل البعث والجزاء كما يظن الكفار ، لاستوت عند الله حال من أصلح ، ومن أفسد ، ومن سوَّى بينهما كان سفيهاً ، والله تعالى منزه عن السفه ، فإنما بالإيمان والعمل الصالح يرفع المؤمنين إلى أعلى عليين ، ويرد الكافرين إلى أسفل سافلين ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ المتَّقِينَ كالفُجَّارِ** ﴾ أي كذلك لا نجعل أهل التقوى كالفجار في ثواب الآخرة * واعلم أن الله تعالى سوَّى بين الفريقين في التمتع بالحياة الدنيا ، بل الكفار أوفر حظاً من المؤمنين ، لأن الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، لكن الله جعل الدار الآخرة للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، وهم المؤمنون المخلصون المنقادون لله ولأمره ، فإذا ترقَّى الإنسان من الهوى إلى الهدى ، ومن الفجور إلى التقوى ، أخذ الأجر بالكيل الأوفى * ثم لما كان القرآن منبع جميع السعادات والخيرات ، وصفه أولاً ثم بين المصلحة فيه فقال ﴿ **كتابٌ** ﴾ أي هذا كتاب ﴿ **أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ** ﴾ أي كثير المنفعة دنيا ، ودِيناً ، لمن آمن به وعمل بأحكامه ، ﴿ **لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ** ﴾ أنزلناه ليتفكروا في آياته بالفكر السليم ، فيعرفوا ما يتبع ظاهرها من المعاني الفائقة اللائقة أي ليتفكروا في معانيها ﴿ **وَلِيَتذَكَّر أُولُوا الألْبَابِ** ﴾ أي وليتعظ به أصحاب العقول الخالصة عن شوب الوهم ، عمَّم فعلم أن المقصود من كلام الحق التفكر والتذكر والاتعاظ به ، لاحفظ الألفاظ فقط * وقال الحسن البصري رحمه الله : قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله ، حفظوا حروفه ، وضيعوا حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن ، فما أسقطت منه

حرفاً ، لا واللهِ قد أسقط كله ، ما يُرى عليه للقرآن أثر في خُلُق ولا عمل ، والله ما هو بحفظ حروفه ، وإضاعة حدوده ، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الورَعة ، لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء ، فمن قرأ ظاهر المتلوّ ، كان مثلُه كمَثَلِ من له شاةٌ حلوب لا يحلبها ، ومُهرةٌ ولودٌ لا يستولدها ، أعاذنا الله من سفاهة القراء المرائين ، وجعلنا وإياكم من أولي الألباب .

﴿ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمٰنَ** ﴾ أي أنعمنا على داود بسليمان عليهما السلام الموهوب له ﴿ **نِعْمَ الْعَبْدُ** ﴾ سليمان لصلاحية استعداده لمقام النبوة والخلافة ﴿ **إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ رجاع إلى الله بإخلاص العبودية بلا علة دنيوية ، أو رجّاع إلى الله في جميع الأحوال في النعمة بالشكر ، وفي المحنة بالصبر ﴿ **إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ** ﴾ أي اذكر ما صدر عنه إذ عُرض عليه ﴿ **بِالْعَشِيِّ** ﴾ هو من الظهر إلى آخر النهار ﴿ **الصَّافِنَاتُ** ﴾ الخيل الواقفة على ثلاث رافعة الرابعة ﴿ **الْجِيَادُ** ﴾ السريعة في جريها ، روي أن سليمان قعد يوماً بعد أن صلى الظهر على كرسيه ، وكان يريد جهاداً ، فاستعرض تلك الأفراس فلم تزل تعرض عليه ، وهو ينظر إليها ، ويتعجب من حسنها حتى غربت الشمس ، وغفل عن وردٍ كان له من الذكر وقتئذ ، وتهيبه قومه فلم يُعلموه ، فاغتمَّ لما فاته بسبب السهو والنسيان فاستردها فعقرها تقرباً إلى الله وطلباً لمرضاته ، أراد بذلك الاستهانة بمال الدنيا لمكان فريضة الله ﴿ **فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي** ﴾ قال : جعلت حب الخيل نائباً عن ذكر ربي ، ووضعته موضعه ، وكان يجب لمثلي أن يشتغل بذكر ربه وطاعته ، قاله عليه السلام عند غروب الشمس ، اعترافاً بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة وندماً عليه ، وتمهيداً لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها ﴿ **حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ** ﴾ أي حتى غربت الشمس ﴿ **رُدُّوهَا عَلَيَّ** ﴾ أي أعيدوا تلك الخيل عليَّ ﴿ **فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ** ﴾ فردوها عليه فأخذ يقطع أعناقها ويعرقب أرجلها ، ليوزعها على الفقراء والمساكين ، كفارة لما حدث منه .

﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمٰنَ** ﴾ ولقد ابتلينا سليمان واختبرناه ﴿ **وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ** ﴾ وذلك حين قال عليه السلام يوماً (لأطوفن الليلة على سبعين إمرأة ـ أي أجامعهن ـ أو مائة ، تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن تلك الليلة ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق ولد ـ فألقته القابلة على كرسيه وهو الجسد المذكور ـ قال نبينا عليه السلام (لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون)[1] لم يقل سليمان إن شاء الله وأنه نسي أن يقولها لينفذ مراد الله ، فمعنى ابتلائه قوله لأطوفن الخ وتركه الاستثناء ، ومعنى إلقاء الجسد على كرسيه

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٢٩٢ .

إلقاء الشق المذكور عليه ، ومعنى إنابته رجوعه إلى الله تعالى عن زلته ، وهو تركه الاستثناء في مثل ذلك الأمر الخطير ألا ترى أن نبينا عليه السلام لما سئل عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وذي القرنين قال (ائتوني غداً أخبركم) ولم يستثن فحبس عنه الوحي أياماً ثم نزل قوله تعالى ﴿ **ولاَ تقُولَنَّ لِشَيْءٍ إنِّيَ فاعِلٌ ذلك غَداً إلاّ أنْ يَشاءَ اللهُ** ﴾ (١) ﴿ **قَالَ** ﴾ سليمان ﴿ **رَبِّ اغْفِرْ لي** ﴾ ما صدر مني من الزلة التي لا تليق بشأني ﴿ **وَهبْ لي** ﴾ امنحني ﴿ **مُلْكاً لا ينْبَغي لأَحَدٍ** ﴾ من الخلق ﴿ **منْ بعْدي** ﴾ إلى يوم القيامة أي مختصاً بي في الحديث (إن عفريتاً من الجن تفلَّتَ عليَّ البارحة ليقطع عليَّ صلاتِي ، فأمكنني الله منه ، فأخذته فأردت أن أربطه على ساريةٍ من سواري المسجد ، حتى تنظروا إليه كلكم ويلعب به ولدان أهل المدينة ، فذكرت دعوة أخي سليمان (**رَبِّ اغْفِرْ لي وَهَبْ لي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأحَدٍ مِنْ بَعْدي**) فرددته خاسئاً(٢) .

﴿ **إنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ** ﴾ لجميع النعم ﴿ **فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً** ﴾ أي فجعلنا له ريح الصَّبا مطيعة لا تخالفه ، إجابةً لدعوته حال كونها ليِّنة طيِّبة لا تزعج ﴿ **حيث أصابَ** ﴾ أي حيث قصد وأراد من النواحي والأطراف ﴿ **وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ** ﴾ كانوا يعملون له عليه السلام ما يشاء من محاريب وتماثيل ، ويبنون له الأبنية الرفيعة بدمشق ، واليمن ، والقصور الشاهقة ﴿ **وَغَوَّاصٍ** ﴾ أي يغوص في البحر يستخرجون الدرر والجواهر والحليّ ﴿ **وآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ** ﴾ وسخرنا له شياطين آخرين مردة ، قرن بعضهم مع بعض في السلاسل ، وأوثقوا بالحديد لكفهم عن الشر والفساد ﴿ **هَذَا** ﴾ أي وقلنا له : هذا الذي أعطيناك من الملك العظيم ، والبسطة ، والتسلط على ما لم يسلط عليه غيرك ﴿ **عَطاؤُنَا** ﴾ الخاص بك الذي لا يقدر عليه غيرنا ﴿ **فَامْنُنْ** ﴾ فأعط منه من شئت ﴿ **أو أَمْسِكْ** ﴾ أو امنع منه من شئت ﴿ **بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ لا حرج عليك فيما أعطيت ، وفيما أمسكت لتفويض التصرف فيه إليك على الإطلاق * قال الحسن : ما أنعم الله على أحد نعمة إلا كان عليه تبعة ، إلاَّ سليمان ، فإن أعطى أُجر عليه ، وإن لم يعط لم يكن عليه تبعة وإثم ، وهذا مما خُصَّ به ، ويجوز أن يكون (**بغير حساب**) أي هذا عطاؤنا لا يحيط به حساب ﴿ **وَإنَّ لَهُ عِنْدنا لَزُلْفَى** ﴾ أي لقربةً في الآخرة مع ما له من الملك العظيم في الدنيا ﴿ **وَحُسْنَ مآبٍ** ﴾ وهو الجنة ﴿ **واذْكُر عَبْدَنَا أَيُّوبَ** ﴾ قال القرطبي : لم يؤمن بأيوب إلا ثلاثة نفر ، وعمره ثلاث وتسعون ، وقوله « أيوب » عطف بيان للعبد ﴿ **إذ نَادَىٰ رَبَّهُ** ﴾ أي دعا وتضرع بلسان الاضطراب والافتقار ﴿ **أَنِّي** ﴾ أي بأني ﴿ **مَسَّنِيَ الشَّيطانُ** ﴾ أصابني ﴿ **بِنُصْبٍ** ﴾ أي : بتعب ومشقة ﴿ **وَعَذابٍ** ﴾ أيْ ألمٍ

(١) الحديث ذكره الحافظ ابن كثير عن ابن عباس من رواية محمد بن إسحاق ، وانظر مختصر ابن كثير ٢ / ٤٠٨ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في كتاب المساجد ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٣٩٩ .

ووصب ، يريد مرضه وما كان يقاسيه من فنون الشدائد ﴿ **ارْكُضْ برِجْلِكَ** ﴾ إذ نادى ، فقلنا له ـ حين انقضاء مدة بلائه ـ اضرب برجلك الأرض فضربها فنبعت عين فقلنا له : ﴿ **هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ** ﴾ تغتسل به ﴿ **وشَرابٌ** ﴾ تشرب منه فيبرأ باطنك ، فاغتسل وشرب ، فذهب ما به وقام صحيحاً ، وكسي حلة ، وعاد إليه جماله أحسن ما كان . ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ** ﴾ فكشفنا ما به من ضر ووهبنا له أهله ، روى الحسن أن الله تعالى أحياهم بعد هلاكهم ﴿ **وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ** ﴾ فكان له من الأولاد ضعف ما كان له قبل ﴿ **رَحْمَةً مِنَّا** ﴾ أي لرحمة عظيمة عليه من عندنا ﴿ **وذِكْرَى لأُولي الألبابِ** ﴾ ولتذكيرهم ﴿ **وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِه ولا تَحْنثْ** ﴾ وقلنا له : خذ بيدك قبضة من الحشيش ونحوه ، واضرب بها زوجك ، ولا تحنث بيمينك ، فإن البرَّ يتحقق بذلك ، وكان قد أقسم في مرضه « والله لئن برئتُ لأضربنك مائةً » وذلك لأنها أظهرت الضجر في طول بلائه .

أراد الله أن يعصم نبيَّه أيوب عليه السلام من الذنبين اللازمين : الظلم ، والحنث ، وأن لا يضيع أجر إحسان المرأة مع زوجها ، وأن لا يكافئها بالخير شراً ، وتبقى ببركتها هذه الرخصة في الأمم ، إلى يوم القيامة ﴿ **إنَّا وَجَدْناهُ صَابراً** ﴾ فيما أصابه في النفس ، والأهل ، والمال ﴿ **نِعْمَ العَبْدُ** ﴾ أي أيوب ﴿ **إنّه أَوَّابٌ** ﴾ أي إنما كان نعم العبد لأنه رجاع إلى الله تعالى ولقد سوَّى الله تعالى بين عبديه ، اللذين أحدهما أنعم عليه فشكر ، والآخر ابتلي فصبر حيث أثنى عليهما ثناء واحداً ، فقال في وصف سليمان (**نعم العبد إنه أواب**) وفي وصف أيوب كذلك ، ولم يلزم من الأوابية الذنب لأن بلاء أيوب كان من قبيل الامتحان ﴿ **واذْكُرْ عِبَادنَا** ﴾ المخصوصين من أهل العناية ﴿ **إبْراهيمَ وإسْحٰقَ** ﴾ ابن إبراهيم ﴿ **وَيعْقُوبَ** ﴾ ابن اسحق ﴿ **أُوْلي الأَيْدِي والأبصارِ** ﴾ وفيه تعريض بالجهلة الباطلين ، وأنهم كالزمنى والعميان حيث لا يعملون عمل الآخرة ولا يستبصرون في دين الله ، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع تمكنهم منها ﴿ **إنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ** ﴾ أيْ جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة عظيمة الشأن لا شوب فيها ﴿ **ذِكْرَىٰ الدَّارِ** ﴾ والتقدير هي تذكرهم للدار الآخرة دائماً ، ولا همّ لهم غيرها ، وإطلاق الدار يعني مراداً بها الدار الآخرة ، للإشعار بأنها الدار في الحقيقة وإنما الدنيا معبر ﴿ **وإنَّهم عِندنَا لَمنَ المُصْطَفَيْنَ الأخيْارِ** ﴾ المصطفين عليهم في الخير ﴿ **وَاذْكُرْ إسْمٰعيلَ** ﴾ ابن إبراهيم عليهما السلام ، وإنما فصل ذكره عن ذكر أبيه ، وأخيه للإشعار بعراقته في الصبر الذي هو المقصود بالتذكر ، وذلك لأنه أسلم نفسه للذبح في سبيل الله ، أو ليكون أكثر تعظيماً ، فإنه جدُّ أفضل الأنبياء والمرسلين ﴿ **والْيَسَعَ** ﴾ استخلفه إلياس عليه السلام على بني إسرائيل ، ثم استنبئ ، ﴿ **وَذا الكِفْلِ** ﴾ لقب بذي الكفل ، قيل إن اليسع وذا الكفل كانا أخوين ، وذو الكفل تكفل بعمل رجل صالح مات في وقته ، كان يصلي لله كل يوم مائة صلاة ، فأحسن الله إليه الثناء ﴿ **وَكُلٌّ** ﴾ أي وكلهم ﴿ **مِنَ الأَخْيَارِ** ﴾ المشهورين بالخيرية ،

والآيات تعزية وتسلية للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا اجتهدوا في الطاعات ، وقاسوا الشدائد والآفات ، وصبروا على البلايا والأذيات من أعدائهم مع أنهم مفضولون ، فالنبي عليه السلام أولى بذلك لكونه أفضل منهم ، والأفضل يقاسي مالا يقاسي المفضول إذ به تتم رتبته ، وتظهر رفعته ﴿ هَذا ﴾ المذكور من الآيات الناطقة بسِيَر الأنبياء ﴿ ذِكْرٌ ﴾ أي شرف لهم ، وذكر جميلٌ يذكرون به أبداً كما في قوله تعالى (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) وعن ابن عباس رضي الله عنهما هذا ذكر من مضى من الأنبياء ، أو هذا القرآن فيه ذكر ما كان وذكر الأنبياء وقصصهم ، لتعتبر بهم وتقتدي بسيرهم ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين يتقون الله لاماسواه ﴿ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ مرجع في الآخرة مع مالهم في الدنيا من الثناء الجميل ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ بيان لحسن مآب . وأصل العدن في اللغة الإقامة ـ روى ـ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (إن الله تعالى بنى جنة عدن بيده ، وبناها بلبنة من ذهب ولبنة من فضة ، وجعل ملاطها المسك وترابها الزعفران وحصباءها الياقوت ثم قال لها تكلمي فقالت « قد أفلح المؤمنون » قالت الملائكة : طوبى لك منزل الملوك)[1] ﴿ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ ﴾ أي إذا وصلوا إليها وجدوها مفتوحة الأبواب ، لا يحتاجون إلى فتح بمعاناة ، ولا يلحقهم ذل الحجاب ، ولا كلفة الاستئذان ، تستقبلهم الملائكة بالتبجيل ، والترحيب والإكرام ، يقولون : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ جالسين فيها جلسة المتنعمين للراحة ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أي بألوان الفاكهة ، والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذي ﴿ وَشَرَابٍ ﴾ أي ويدعون فيها بشراب ، وقيل : تقديره وشراب كثير ألوانه ﴿ وَعِنْدَهُمْ ﴾ أي عند المتقين ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أي زوجات قصرن نظرهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أي أقران في التساوي والتماثل أو هن في سن أزواجهن ، لا أصغر ولا أكبر ، وفي الخبر الصحيح (يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين ، أبناء ثلاث وثلاثين سنة ، لكل رجل منهم زوجتان على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ ساقها من ورائها)[2] ﴿ هَذا ﴾ أي تقول لهم الملائكة هذا المعد من الثواب والنعيم ﴿ مَا تُوعَدُونَ ﴾ أيها المتقون على لسان النبي عليه السلام ﴿ لِيَوْمِ الحِسَابِ ﴾ أي لأجله فإن الحساب علة للوصول إلى الجزاء ويحتمل (ما توعدون) بوقوعه في يوم الحساب والجزاء ﴿ إِنَّ هذا ﴾ أي ما ذكر من ألوان النعم والكرامات ﴿ لَرِزْقُنَا ﴾ عطاؤنا أعطيناكموه ﴿ مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ أي ليس له انقطاع ابداً أوفناء وزوال ، قال ابن عباس : ليس لشيء نفاد ، ما أكل من ثمارها

---

(١) الحديث رواه البزار والطبراني وابن أبي الدنيا بلفظ (خلق الله جنة عدن بيده ، لبنةً من درة بيضاء ، ولبنة من ياقوتة حمراء ..) الحديث ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٢ / ٥٥٨ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في سننه ، وهو حديث حسن بشواهده ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥٢٨ .

خلف مكانه مثله ، وما أكل من حيوانها ، وطيرها عاد مكانه حياً * فعلى العاقل الإعراض عن اللّذات الفانية ، والإقبال على طاعة الله ورسوله ﴿ هَذا ﴾ أي الأمر في حق المتقين الذي ذكرناه ، وقال بعضهم : هذا من قبيل ما إذا فرغ الكاتب من فصل ، وأراد الشروع في فصل آخر منفصل عما قبله قال هذا أي احفظ ما كان كيت وكيت ، وانتظر إلى ما يجيء ﴿ وإنّ للطّاغِينَ ﴾ أي للذين طغوا على الله وكذبوا الرسل ﴿ لَشَرَّ مآبٍ ﴾ مرجع في الآخرة ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها ﴾ أي حال كونهم يدخلونها ويجدون حرها يوم القيامة ، ولكن اليوم مهّدوا لأنفسهم ﴿ فَبِئسَ المِهادُ ﴾ أي جهنم : مستعار من فراش النائم إذ لا مهاد في جهنم ، ولا استراحة ، وإنما مهادها نار ، وغواشيها نار ﴿ هَذا فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ أي ليذوقوا هذا العذاب ﴿ حَمِيمٌ ﴾ أي هو حميم وهو الماء الذي انتهى حره ﴿ وَغَسَّاقٌ ﴾ ما يسيل من صديد أهل النار وهو الزمهرير ، يحرقهم برده كما تحرقهم النار بحرّها ، فإذا تنعم المؤمنون بالفاكهة والشراب تعذب الكافرون بالحميم والغساق ﴿ وَآخَرُ ﴾ وعذاب آخر ﴿ مِنْ شَكْلِه ﴾ أي من مثل هذا في الشدّة والفظاعة ﴿ أَزْواجٌ ﴾ أي أجناس يشير به إلى أن لكل نوع من المعاصي نوعاً آخر من العذاب ، كما أن كل بذر يزرعونه يكون له ثمرة تناسب البذر ﴿ هذا فَوجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ﴾ والمعنى يقول الخزنة لرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار مشيرين إلى الأتباع الذين أضلوهم : هذا فوج تبعكم في دخول النار بالاضطرار ، كما كانوا قد تبعوكم في الكفر والضلالة بالاختيار ، فانظروا إلى أتباعكم لم يحصل بينكم وبينهم تناصر ، وانقطعت مودتكم وصارت عداوة ﴿ لا مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ أي لا يصادفون رحباً وسعة ، أوْ لا يأتون رحب عيش ولا وسعة مسكن ولا غيره ، وحاصِلُه لا كرامة لهم فليس عيشهم ومنزلهم رحباً بل ضاق عليهم يقول الرجل لمن يأتيه : مرحباً أي أتيت رحباً من البلاد ، وفي ضده يقول لا مرحباً ﴿ إنّهُمْ صَالوا النّارِ ﴾ أي داخلون النار بأعمالهم السيئة وباستحقاقهم ﴿ قَالُوا ﴾ أي الأتباع عند سماع ما قيل في حقهم ﴿ بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ أي بل أنتم أيها الرؤساء أحق بما قيل لنا من جهة الخزنة لإغوائكم إيانا مع ضلالكم في أنفسكم ﴿ أَنتُم قَدّمْتُمُوهُ لنَا ﴾ أي أنتم قدمتم العذاب ، أو الصِّليَّ لنا ، وأوقعتمونا فيه ، بتقديم ما يؤدي إليه من العقائد الزائغة ، والأعمال السيئة وتزيينها في أعيننا ، وإغرائنا عليها ﴿ فَبِئْسَ القَرَار ﴾ أي فبئس المقر جهنم ﴿ قَالوا ﴾ أي الأتباع معرضين عن خصومتهم متضرعين إلى الله ﴿ رَبَّنا مَنْ قدَّم لنَا هذا ﴾ العذاب أو الصِلِيَّ ﴿ فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً في النّارِ ﴾ أحد الضعفين بمقابلة الضلال ، والآخر بمقابلة الإضلال قال عليه السلام (من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)[1] ونظيره أن الكافِرَينِ إذا قتل أحدهما وزنى دون الآخر ، فهما متساويان في وزر الكفر ، وأمّا القاتل والزاني فعذابه مضاعف لمضاعفة عمله السيء ، فعلى العاقل إصلاح النفس

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم والنسائي في قصة القوم العراة مجتابي النار من مضر .. وانظر جامع الأصول ٦ / ٤٥٧ .

وتزكيتها من الأخلاق الذميمة ، والأوصاف القبيحة ولا يغتر بالقرناء السوء ، فإنهم منقطعون غداً عن كل خلة ومودة ، ولا ينفع لأحد إلا القلب السليم ، والعلم النافع والعمل الصالح .

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي الطاغون مثل أبي جهل وأضرابه : ﴿ مالَنا لاَ نَرَىٰ رِجالاً ﴾ والمعنى : أي حال لنا لا نرى في النار رجالاً ﴿ كُنَّا ﴾ في الدنيا ﴿ نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ ﴾ يعني يعنون فقراء المسلمين كانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم مثل « صهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وخباب ، وعمار » وغيرهم من صعاليك المهاجرين ، الذين كانوا يقولون لهم هؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا ، سموهم أشراراً إمَّا بمعنى الأراذل والسفلة الذين لا خير فيهم ، أو لأنهم كانوا على خلاف دينهم ، فكانوا عندهم أشراراً ﴿ أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصارُ ﴾ والمعنى أي الأمرين فعلنا بهم الاستسخار منهم ، أم الازدراء بهم ، وتحقيرهم ، والمعنى إنكار كل واحد من الفعلين على أنفسهم توبيخاً لها ، ويجوز أن يكون المعنى اتخذناهم سخرياً بل زاغت عنهم أبصارنا في الدنيا تحقيراً لهم ، وكانوا خيراً منا ونحن لا نعلم ﴿ إِنَّ ذلكَ ﴾ الذي حُكِيَ من أحوالهم ﴿ لَحَقٌّ ﴾ لابد من وقوعه البتة ﴿ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ يعني تخاصم القادة والأتباع ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لمشركي مكة ﴿ إِنَّما أَنا مُنْذِرٌ ﴾ رسول منذر من جهته تعالى أنذركم ، وأحذركم عذابه على كفركم ومعاصيكم ، وقل أيضاً ﴿ وَمامِنْ إِلٰهٍ ﴾ في الوجود ﴿ إِلاَّ اللهُ الواحِدُ ﴾ الذي لا يقبل الشركة والكثرة أصلاً أي لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فلا ملجأ ولا مفرّ إلا إليه ﴿ القَهّارُ ﴾ لكل شيء سواه ﴿ رَبُّ السَّمواتِ والأَرْضِ وما بَيْنَهُما ﴾ من المخلوقات أي مالك جميع العوالم ، فكيف يتوهم أن يكون له شريك ؟! ﴿ العَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغلب في أمر من أموره . وأيضاً العزيز بالانتقام من المجرمين ، فالعزة لله تعالى وبه التعزز أيضاً ﴿ الغَفّارُ ﴾ المبالغ في المغفرة والستر والمحو لمن تاب وآمن وعمل صالحاً وفي الحديث (اذا قال العبد يا رب اغفر لي ، قال الله : أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ، ويأخذ به ، أشهدكم أني قد غفرت له)[1] ﴿ قُلْ هُوَ ﴾ أي القرآن وما أنبأكم به من أمر التوحيد والنبوة ، وأخبار القيامة ، والحشر ، والجنة والنار وغيرها ﴿ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ شأن جسيم ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ لا تتفكرون فيه ، وتعدونه كذباً لضلالتكم ، وغاية جهالتكم ، فلذا لا تؤمنون به مع عظمته ، وكونه موجباً للإقبال الكلي عليه ، وتلقيه بحسن القبول ، فالتصديق فيه نجاة ، والكذب فيه هلكة ﴿ ما كانَ لِيَ ﴾ ما كان لي فيما سبق ﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي علم ما يوجبه من الوجوه ﴿ بِالمَلأِ الأَعلىٰ ﴾ أي بحال الملأ الأعلى وهم الملائكة ﴿ إِذْ يَخْتَصِمونَ ﴾ أي بحالهم وقت اختصاصهم ورجوع بعضهم إلى بعض في الكلام في شأن آدم ، من قولهم (أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ومسلم في كتاب التوبة من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكى عن ربه عز وجل قال (أذنب عبدٌ ذنباً ..) الحديث صحيح مسلم ٤ / ١٢ .

فِيها) حين قال الله لهم (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً) على ما ورد في الكتب المتقدمة ، من غير سماع ومطالعة كتاب ، لا يتصور إلا بالوحي أي فلولم يكن لي نبوة ما أخبرتكم عن اختصامهم ﴿ إِنْ ﴾ أي ما ﴿ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ من الأمور الغيبيَّة ﴿ إِلاَّ أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ ﴾ نبي من جهته تعالى ﴿ مُبِينٌ ﴾ ظاهر النبوة بالدلائل الواضحة ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ ﴾ أي اذكر يامحمد حين قال ربُّ العزة والجلال لملائكته المقربين ﴿ إِنِّيَ خَالِقٌ ﴾ أي فيما سيأتي ﴿ بَشَراً مِنْ طِينٍ ﴾ أي من تراب مبلول ﴿ فَإِذَاسَوَّيْتُهُ ﴾ أي صورته بالصورة الانسانية ، والخِلْقة البشرية ، أو سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه .

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ أي فإذا أكملت استعداده وأفضت عليه ما تحيا به الروح التي هي من أمري قال الإمام الغزالي : إن الروح روحان : « حيواني » وهي التي تسميه الأطباء المزاج وهي جسم لطيف بخاري معتدل سارٍ في البدن ، الحامل لقواه من الحواس الظاهرة ، والقوى الجسمانية ، وهذه الروح تفنى بفناء البدن وتنعدم بالموت . وروح « روحاني » وهي التي يقال لها النفس الناطقة ، ويقال لها اللطيفة ، والعقل ، والقلب من الألفاظ الدالة على معنى واحد ، لها تعلق بقوى النفس الحيوانية ، وهذه الروح لا تفنى بفناء البدن وتبقى بعد الموت ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين ﴾ أي اسقطوا له حال كونكم ساجدين أي اسقطوا لآدم : لاستحقاقه للخلافة ، وهذا السجود من باب التحية والتكريم فإنه لا يجوز السجود لغير الله على وجه العبادة لافي هذه الأمة ولا في الأمم السابقة ، وإنما شاع بطريق التحية للمتقدمين ثم أبطله الإسلام ﴿ فَسَجَدَ الملائِكَةُ ﴾ أي فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد له الملائكة ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ بحيث لم يبق منهم أحد إلا سجد ﴿ أَجْمعونَ ﴾ بطريق المعية بحيث لم يتأخر في ذلك أحد منهم عن أحد ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ فإنه لم يسجد ﴿ اسْتَكْبَر ﴾ أي تعظم ﴿ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ في علم الله أزلاً وأبداً ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى لإبليس حين امتنع من السجود ﴿ يَاإِبْلِيسُ مَا ﴾ أيُ شيء ﴿ مَنَعَكَ ﴾ من ﴿ أَنْ تَسْجُدَ ﴾ أي دعاك إلى ترك السجود ﴿ لِمَا ﴾ أي لمن ﴿ خَلَقْتُ بِيَدِيَّ ﴾ خصصته بخلقي إياه بيديَّ كرامة له ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ أتكبرت من غير استحقاق ﴿ أَم كُنْتَ مِنَ العَالِينَ ﴾ المستحقين للتفوق والعلو ﴿ قَالَ ﴾ ابليس ابداء للمانع ﴿ أَنا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ أي أفضل من آدم ثم بين وجه الخير بقوله ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقتهُ منْ طِينٍ ﴾ والمعنى لو كان آدم مخلوقاً من نار لما سجدت له لأنه مثلي ، فكيف أسجد لمن هو دوني لأنه من طين ، والنَّارُ تغلب الطين ، وتأكله ؟ فلا يحسُن أن يسجد الفاضل للمفضول ، فكيف يحسن أن يؤمر ؟ ظن أن ذلك شرف له ، ولم يعلم أن الشرف يكتسب بطاعة الله تعالى ولقد أخطأ اللعين حين خص الفضل بما هو من جهة المادة ، والعنصر ، وزل عمَّا هو من جهة الفاعل ، كما أنبأ عنه قوله تعالى (لِما خَلَقْتُ بِيَدِيَّ) وكذلك من جهة الصورة كما نبه عليه

قوله تعالى (**وَنفخْتُ فيهِ منْ روحي**) وأما من جهة الغاية ، وهو ملاك الأمر كما قال تعالى (**وَعلّم آدَم الأسْماءَ**) ولذلك أمر الملائكة بالسجود له حين ظهر لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة في الأرض ، وأن له خواص ليست لغيره .

فيجوز أن يكون أصل أحد الشيئين أفضل ، وينضم إليه ما يقتضي مرجوحيته ، كما في إبليس فإنه قد انضم إلى أصله عوارض رديئة كالكبر ، والحسد ، والعجب ، والعصيان ، فاقتضت اللعنة عليه ، وأمرُ آدم عليه السلام بالعكس ﴿ **قَالَ** ﴾ الله تعالى بقهره وعزته ﴿ **فَاخْرُجْ مِنْها** ﴾ فاخرج ياإبليس من الجنة ، أو من زمرة الملائكة ﴿ **فإنّكَ رَجيمٌ** ﴾ أي مطرود عن كل خير وكرامة ، يرجم بالحجارة أو بالشهب السماوية ﴿ **وإن عَليْكَ لَعْنَتي** ﴾ أي إبعادي عن الرحمة على سبيل السخط ﴿ **إلى يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ أي يوم الجزاء والعقوبة ، يعني إن عليك اللعنة في الدنيا ، ولا يلزم من هذا التوقيت انقطاع اللعنة عنه في الآخرة ، وقد كان طردُ إبليس بسبب كِبْره ، ونظره إلى نفسه ، ليعتبر كل مخلوق بعده بقوله : أنا خير منه ﴿ **قَالَ** ﴾ ابليس ﴿ **رَبِّ فَأنْظِرْنِي** ﴾ أي إذا جعلتني رجيماً فأمهلني ولا تمتني ﴿ **إلى يوْمِ يُبْعَثوَن** ﴾ من قبورهم للجزاء ، وهو يوم القيامة ، والمراد آدم ، وذريته ، وأراد بدعائه أن يجد نسحة لإغوائهم ، ويأخذ منهم ثأره ، وينجو من الموت بالكلية إذ لا موت بعد يوم البعث فلم يجب ، ولم يوصل إلى مراده ﴿ **قَالَ** ﴾ الله تعالى ﴿ **فَإنّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ** ﴾ أي من جملة الذين أخرت آجالهم أزلاً بحسب الحكمة كالملائكة ونحوهم ﴿ **إلى يوْمِ الوقْتِ المعلومِ** ﴾ الذي قدره الله ، وعيَّنه لفناء الخلائق ، وهو وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذي هو المسئول ﴿ **قَالَ** ﴾ إبليس ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ** ﴾ أي فأقسم بقهرك ، وسلطانك لا ينافيه قوله تعالى حكاية (فبما أغويتني) لأن إغواءه إياه أثرٌ من آثار قدرته، وعزته ، وحكم من أحكام قهره ، وسلطته ﴿ **لأغْوِيَنَّهُمْ أجْمعينَ** ﴾ لأكونن سبباً لغواية ذرية آدم بتزيين المعاصي لهم ، وإدخال الشكوك ، والشبهات فيهم ﴿ **إلاّ عبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ أي إلا عبادك المخلصين الذي أخلصهم الله تعالى لطاعته ، وعصمهم من الغواية أو الذين أخلصوا قلوبهم ، وأعمالهم لله تعالى من غير شائبة الرياء ، ﴿ **قَالَ** ﴾ الله تعالى ﴿ **فالحقُّ** ﴾ فالحق قسمي أو فالحق مني كما قال (الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) ﴿ **والحَقَّ أقُولُ** ﴾ أي لا أقول إلا الحق ﴿ **لأمْلأنَّ جَهَنّمَ مِنْكَ** ﴾ أي من جنسك من الشياطين ﴿ **وَمِمّنْ تَبِعَكَ** ﴾ في الغواية والضلال بسوء اختياره ﴿ **مِنهُمْ** ﴾ من ذرية آدم ﴿ **أجْمعينَ** ﴾ لا أترك أحداً منهم ، فعلى القائل أن يتأدب بالآداب الحسنة ولا يتبع خطوات الشيطان ، حتى لا يكون معه في النار .

رُوي عن أبي موسى الأشعري قال « إذا أصبح إبليس بثَّ جنوده ، فيقول : من أضل مسلماً ألبسته

التاج . قال : فيقول : لـه القـائل ، لم أزل بفلان حتى طلّق إمرأتـه ، قـال : يوشـك أن يتزوج ، ويقول الآخر : لم أزل بفلان حتى عقّ والديه أو أحدهما ، قـال : يوشـك أن يبر ، قـال : فيقول القـائل : لم أزل بفـلان حتى شرب الخمر قـال أنت أي أنت فعلت شيئاً عظيماً أرضى عنـه ، قـال : ويقـول الآخر : لم أزل بفلان حتى زنى فيقول : أنت ، قـال : ويقول الآخر لم أزل بفلان حتى قتل ، فيقـول : أنت أنت أي أنت صنعت شيئاً أعظم ، وحصّلْتَ غاية أمنيتي وكمال رضـاي ، وذلـك لأن القتل أشـد وأعظم[1] ﴿ **قُلْ** ﴾ يـا محمد للمشركين ﴿ **ما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ** ﴾ أي على القرآن الذي أتيتكم بـه ، أو على تبليغ الوحي ، وأداء الرسـالـة ﴿ **مِنْ أَجْرٍ** ﴾ من مـال دنيـوي ولكن أعلمكم بغير أجر ﴿ **وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾ أي المتصنعين بـا ليسوا من اهله ، على ما عرفتم من حالي حتى أدعي النبوة لنفسي كذبـاً ، وأتقول القرآن من تلقـاء نفسي وفي الآية النهي عن التكلف ، كما قال عليه السلام « أنا بريءٌ من التكلف وصـالحوا أمتي »[2] وفي حـديث آخر (أنا والأتقياء من أمتي بُرَءآءُ من التكلف) قـال عبـد الله بـنُ مسعود (يـاأيهـا النـاس من علم شيئـاً فليقل ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم) . فـإن من العلم أن تقول لمـا لا تعلم الله أعلم فـإنـه تعـالى قـال لنبيـه عليـه السلام (**وَ مـا أنـا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**)[3] ﴿ **إِنْ هُوَ** ﴾ أي مـا هـو ﴿ **إِلاَّ ذِكْرٌ** ﴾ أى عظـة من الله تعالى ، وشرفٌ ، وذكر باق ﴿ **لِلْعَـالَمِينَ** ﴾ للثقلين كافـة ﴿ **وَلَتَعْلَمُنَّ** ﴾ أيهـا المشركون ﴿ **نَبَـأَهُ** ﴾ أي مـا أنبأ القرآن به من الوعد ، والوعيد ، وغيرهما ، أو صحة خبره ، وأنه الحق والصـدق ﴿ **بَعْـدَ حِينٍ** ﴾ بعـد الموت ، أو يوم القيامة حين لا ينفع العلم .

تم بعونه تعالى تفسير سورة ص

☆ ☆ ☆

(١) هذا الحديث مروي هنا بالمعنى وقد أخرجه مسلم في صحيحه ، وأحمد في المسند بلفـظ (إن إبليس يضع عرشـه على المـاء ، ثم يبعث سراياه ، فأدناه منه منزلة أعظمهم فتنة .. يجيء أحدهم فيقول : فعلتُ كذا وكذا ، فيقول : ما صنعتَ شيئـاً ، ويجيء أحـدهُم فيقولُ : ما تركتُه حتى فرّقتُ بينه وبين أهله ، فيُدْنيه منه ويقول : نِعْمَ أنتَ) الحديث وانظر الفتح الكبير ١ / ٢٨٤ .

(٢) الحديث أخرجه الديلمي وابن عساكر ، وانظر الدر المنثور ٥ / ٣٢١ .

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي عن مسروق وله قصة ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٥ / ٣٢١ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **تنزيلُ الكِتابِ** ﴾ أي القرآن وخصوصاً منه هذه السورة الشريفة ﴿ **مِنَ اللهِ العزيزِ الحَكيمِ** ﴾ لا من غيره كما يقول المشركون إن محمداً تقوّله من تلقاء نفسه ، وقيل معناه تنزيل الكتاب من الله ، فاستمعوا له ، واعملوا به ، فهو كتاب عزيز ، نزل من رب عزيز ، على عبد عزيز ، بلسان ملك عزيز في شأن أمة عزيزة ﴿ **إنّا أَنْزَلْنا إليْكَ الكِتابَ بالحَقّ** ﴾ أي كل ما فيه حق لا ريب فيه موجب للعمل حتماً ﴿ **فاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ** ﴾ أي أخلصْ عملك وطاعتك لله رب العالمين ﴿ **أَلاَ للهِ** ﴾ أي من حقه وواجباته ﴿ **الدِّينُ الخَالِصُ** ﴾ من الشرك أي يجب أن يخص بإخلاص الطاعة له وعن الحسن : الدين الخالص الإسلام لأن غيره من الأديان ليس بخالص من الشرك ، فليس بدين الله الذي أمر به ، فالله تعالى لا يقبل إلا دين الإسلام ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال : قلت : يا رسول الله إني أتصدق بالشيء ، وأضع الشيء أريد به وجه الله ، وثناء الناس ، فقال عليه السلام : والذي نفس محمد بيده لا يقبل الله عملاً شورك فيه ، ثم تلا رسول الله ﷺ (**ألا لله الدين الخالص**)[1] وقال عليه السلام : قال الله سبحانه : (من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري فهو له كله ، وأنا بريء منه ، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك)[2] والله لا يقبل إلا ما كان خالصاً له ، ولا يقبل عملاً فيه مقدار ذرة من رياء ﴿ **والذّينَ آتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلياءَ** ﴾ والذين عبدوا غير الله أرباباً وأوثاناً ، ولم يخلصوا العبادة لله تعالى يقولون ﴿ **ما نَعْبُدُهُمْ** ﴾ أي الأولياء لشيء من الأشياء ﴿ **إلاّ لِيُقَرِّبُونَا إلى اللهِ زُلْفىٰ** ﴾ اي تقريباً ، وكانوا إذا سئلوا عمن خلق السموات والأرض ؟ قالوا : الله ، فإذا قيل لهم : لم تعبدون الأصنام ؟ قالوا : إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله تعالى ﴿ **إنّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ** ﴾ أي بين المتخذين غير المخلصين وبين خصمائهم المخلصين للدين ﴿ **فِيمَا هُمْ فيه يَخْتَلِفُونَ** ﴾ من الدين الذي اختلفوا فيه بالتوحيد ، والإشراك ، وادَّعى كل فريق صحة ما انتحله ، وحكمه تعالى في ذلك إدخال الموحدين الجنة ، والمشركين النار ﴿ **إنّ اللهَ لا يَهْدِي** ﴾ لا يوفق إلى الاهتداء إلى الحق الذي هو طريق النجاة من المكروه ، والفوزُ بالمطلوب ﴿ **مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفّارٌ** ﴾ أي راسخ في الكذب مبالغ في الكفر فإنهما فاقدان للبصيرة غير قابلين للاهتداء لتغييرهما الفطرة الأصلية بالتمرن في الضلالة ، والتمادي في الغي ، وكذبهم : قولهم في بعض أوليائهم بنات الله ، وولده ، وقولهم إن الآلهة تشفع لهم ، وتقربهم إلى الله ، وكفرُهم عبادتهم تلك

---

(١) الحديث أخرجه ابن مردويه بنحوه ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٥ / ٣٢٢ .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه وابن خزيمة والبيهقي ، ورواه ابن ماجه ثقات ، وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ١ / ٦٩ .

الأولياء ، وكفرانهم النعمة بنسيان المنعم الحقيقي ، فإن الإنسان مجبول على معرفة صانعه ، وصانع العالم ، ومقتضى طبعه عبادة صانعه والتقرب إليه من خصوصية فطرة الله التي فطر الناس عليها ، ولكن لا عبرة بالمعرفة الفطرية ، والعبادة الطبيعية لأنها مشوبة بالشركة لغير الله ، ولأنها تصدر من نشاط النفس ، واتباع هواها ، وإنما تعتبر المعرفة الصادرة عن التوحيد الخالص ، ومن أمارتها قبول دعوة الأنبياء ، والإيمان بهم ، وبما أنزل عليهم من الكتب ، ومخالفة الهوى ، والعبادة على وفق الشرع ، لا على وفق الطبع والتقرب إلى الله بأداء فرضٍ افترضه الله عليهم ، ونافلة قد استن النبي ﷺ بها أو بمثلها ، فاليوم كل مدَّعٍ يدَّعي حقيقة ما عنده من الدين والمذهب ، على اختلاف طبقاتهم ، فالله تعالى يحكم بينهم في الدنيا والآخرة ﴿ **لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلداً** ﴾ كما زعم المشركون بأن الله تعالى اتخذ ولداً ﴿ **لاصْطَفى** ﴾ لاتخذ واختار ﴿ **مِمَّا يَخْلُقُ** ﴾ أي من جنس مخلوقاته ﴿ **ما يَشاءُ** ﴾ ولم يخص مريم ولا عيسى ولا عزيراً بذلك ، ولخلق جنساً آخر وجنساً أعز ، وأكرم مما خلق ، واتخذه ولداً ، لكنه لا يفعله لامتناعه ، والممتنع لا تتعلق به القدرة ، والإرادة ، وإنما أمره اصطفاءُ من شاء من عباده ، وتقريبهم منه وقد فعل ذلك بالملائكة ، وبعض الناس كما قال الله تعالى (**اللهُ يَصْطَفِي مِنْ المَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ**) ولذا وضع الاصطفاء مكان الاتخاذ ﴿ **سُبْحَانَهُ** ﴾ أي تنزه تعالى بالذات عن ذلك الاتخاذ ، وعما نسبوا إليه من الأولاد ، والأولياء ﴿ **هُوَ اللهُ** ﴾ المتصف بالألوهية ﴿ **الواحِدُ** ﴾ الذي لا ثاني له ، والولد ثاني والده ، وجنسه وشبهه ﴿ **القَهّارُ** ﴾ الذي بقهّاريته لا يقبل الجنس والشبه بوجهٍ ما ﴿ **خَلَقَ السّمواتِ والأَرْضَ** ﴾ وما بينهما من الموجودات ﴿ **بِالحَقِّ** ﴾ والصواب مشتملة على الحكم والمصالح لا باطلاً وعبثاً ﴿ **يُكَوِّرُ اللّيْلَ عَلى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلى اللّيْلِ** ﴾ أي تغشيته إياه ، ويقال زيادته من هذا في ذاك تكويره ، إشارة إلى جريان الشمس في مطالعها وانتقاص الليل والنهار وازديادها والمعنى يُغْشِي كل واحد منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس ، أو يجعله كارّاً عليه كروراً متتابعاً تتابع أكوار العمامة بعضها على بعض ﴿ **وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ** ﴾ جعلهما منقادين لأمره تعالى ﴿ **كُلٌّ** ﴾ منهما ﴿ **يَجْرِي** ﴾ يسير في بروجه ﴿ **لأَجَلٍ مُسَمّى** ﴾ لمدة معينة هي منتهى دورته في كل يوم ، أو شهر ، أو وقت انقطاع سيره ، وهو يوم القيامة وإنما ذلك لمنافع بني آدم ﴿ **ألا** ﴾ اعلموا ﴿ **هُوَ** ﴾ وحده ﴿ **العَزِيزُ** ﴾ الغالب القادر على كل شيء فيقدر على عقاب العصاة ﴿ **الغَفّارُ** ﴾ المبالغ في المغفرة ، ولذلك لا يعالج بالعقوبة ، وسلب ما في هذه الصنائع البديعة من آثار الرحمة ، وعموم المنفعة ، قال الإمام الغزالي رحمه الله : الغفار هو الذي أظهر الجميل ، وستر القبيح ، والذنوبُ من جملة القبائح التي سترها بإسبال الستر عليها في الدنيا ، والتجاوز عن عقوبتها في الآخرة ، وأول سترهِ على عبده أن جعل مقابح بدنه التي تستقبحها الأعين مستورة في باطنه مغطاة بجمال ظاهره ، فكم بين باطن العبد ، وظاهره

في النظافة ، والقذارة ، وفي القبح ، والجمال ، فانظر ما الذي أظهره وما الذي ستره ؟ وستره الثاني : أن جعل مستقر خواطره المذمومة ، وإراداته القبيحة سرَّ قلبه حتى لا يطلع أحد على سر قلبه ، ولو انكشف للخلق ما يخطر بباله في مجاري وسواسه ، وما ينطوي عليه ضميره من الغش ، والخيانة ، وسوء الظن بالناس ، لمقتوه بل سعوا في تلف روحه ، وإهلاكه ، فانظر كيف ستر عن غيره أسراره وعوارفه . والثالث مغفرة ذنوبه التي كان يستحق الافتضاح بها على ملأ من الخلق ، وقد وعد أن يبدل من سيئاته حسنات ليستر مقابح ذنوبه بثواب حسناته إذا مات على الإيمان ، وقد قال النبي ﷺ (من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة)(١)والمغتاب المتجسس والمكافيء على الإساءة بمعزل عن هذا الوصف ، وإنما المتصف به من لا يفشي من خلق الله إلا أحسن ما فيهم ، ولا ينفك مخلوق عن كمال ونقص ، وعن قبح ، وحسن ﴿ **خَلَقَكُمْ** ﴾ أي الله تعالى أيها الناس أجمعين ﴿ **مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ** ﴾ هي نفس آدم ﴿ **ثُمَّ جَعَلَ مِنْها** ﴾ أي خلق من جنس تلك النفس الواحدة ﴿ **زَوْجَهَا** ﴾ أي من نفس واحدة خلقها ، ثم جعل منها زوجها فشفعها ، فالله تعالى متفرد بهذا الخلق مطلقاً ، فينبغي أن يعرف ، ويعبد بلا إشراك ﴿ **وَأَنْزَلَ لَكُمْ** ﴾ أي قضى ، وقسم لكم ، أو أحدث لكم وأنشأ بأسباب نازلة من السماء كالأمطار ، وأشعة الكواكب ﴿ **مِنَ الأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ** ﴾ ذكراً وأنثى هي : الإبل ، والبقر ، والضأن ، والمعز ، من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ، ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ، والخيل والبغال والحمير خارجة من الأنعام ﴿ **يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ** ﴾ أي في أرحامهن ﴿ **خَلْقاً** ﴾ كائناً ﴿ **مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ** ﴾ أي خلقاً متنوّعاً حيواناً سوياً ، من بعد عظام مكسوة لحماً ، من بعد عظام عارية ، من بعد مضغ مخلقة ، من بعد مضغ غير مخلقة من بعد علقة من بعد نطفة ، ونظيره قوله تعالى (**وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً**) ﴿ **فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ** ﴾ البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ﴿ **ذَلِكُمُ** ﴾ أي ذلكم العظيم الشأن الذي عُدَّت أفعاله ﴿ **اللَّهُ رَبُّكُمْ** ﴾ أي مربيكم فيما ذكر من الأطوار، ومالككم المستحق لتخصيص العبادة به ﴿ **لَهُ الْمُلْكُ** ﴾ على الإطلاق في الدنيا والآخرة ليس لغيره شركة في ذلك بوجه من الوجوه ﴿ **لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ** ﴾ لا معبود إلا هو ﴿ **فَأَنَّى تُصْرَفُونَ** ﴾ أي فكيف ، ومن أي وجه تردون عن عبادته تعالى إلى عبادة الأوثان ؟ مع وفور موجباتها ودواعيها وانتفاء الصارف عنها بالكلية ، إلى عبادة غيره من غير داع إليها مع كثرة الصوارف ؟ فأدلة العقل وحدها كافية في الحكم ببطلان عبادة غير الله ، فكيف وقد انضم إليها أدلة الشرع فلابد من الرجوع إلى باب الله تعالى ، فإنه المنعم الحقيقي والعبودية له لأنه الخالق * قال أبو سعيد الخراز : العبودية ثلاثة : الوفاء لله على الحقيقة ، ومتابعة الرسول في

---

(١) الحديث رواه أبو داود بلفظ (من فرّج عن مسلم كربةً فرّج الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة) وأخرجه مسلم والترمذي بنحوه ، وانظر جامع الأصول ٦ / ٥٦٢ .

الشريعة ، والنصيحة لجماعة الأمة * واعلم أن العبادة هي المقصود من خلق الأشياء كما قال الله تعالى (**وما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنسَ إلاّ لِيَعْبُدونِ**) * وعن معاذ رضي الله عنه قال قلت يارسول الله : أخبِرْني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار ؟ قال : لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسَّره الله تعالى عليه ، تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ، ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنَّة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما تطفئ النار الماء ، وصلاةُ الرجل في جوف الليل) ثم تلا (**تَتجَافَى جُنوبُهُمْ عَنِ المضَاجِعِ**) الآية ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ، ثم قال : ألا أخبرك بمَلاَك ذلك كله ؟ قلت بلى يا رسول الله فأخذ بلسانه وقال (كفَّ عليك هذا) قلت يا نبي الله وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك ، وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلاَّ حصائد ألسنتهم)[1] .

﴿ **إنْ تَكْفُرُوا** ﴾ به تعالى بعد مشاهدة ما ذكر من فنون نعمائه ، ومعرفة شؤونه العظيمة الموجبة للإيمان والشكر ، والخطاب لأهل مكة ، والظاهر التعميم لكل الناس كما في قوله تعالى (**إنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ ومَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**) ﴿ **فَإنّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُم** ﴾ وعن العالمين أي فاعلموا أن الله تعالى غني عن إيمانكم وشكركم غير متأثر من انتفائهما ﴿ **ولا يَرْضىٰ لعبادِهِ الكُفْرَ** ﴾ أي عدم رضاه بكفر عبده لأجل منفعتهم ، ودفع مضرتهم رحمة عليهم ، لا لتضرره به تعالى ، وإنما قيل « لعباده » لا لكم لتعميم الحكم للمؤمنين ، والكافرين ، وتعليله بكونهم عباده ، والله تعالى لا يترك السخط في حق الكافر لأنه لسخطه عليه أعد له جهنم ، ولا يلزم منه عدم الإرادة إذ ليس في الإرادة مافي الرضى من نوع استحسان ، فالله تعالى مريد الخير ، والشر ، ولكن لا يرضى بالكفر والفسوق ، فإن الرضى إنما يتعلق بالحسن من الأفعال دون القبيح وعليه أهل السنة ﴿ **وَإنْ تَشكُروا** ﴾ تؤمنوا به تعالى وتوحدوه ﴿ **يَرْضَهُ لَكُمْ** ﴾ والمعنى يرضى الشكر والإيمان لأجلكم ومنفعتكم ، لأنه سبب لفوزكم بسعادة الدارين لا لانتفاعه تعالى به ﴿ **ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ** ﴾ ولا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى من الذنب والمعصية ﴿ **ثُمّ إلىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ** ﴾ أي رجوعكم بالبعث بعد الموت لا إلى غيره ﴿ **فَيُنَبِّئُكُمْ** ﴾ عند ذلك ﴿ **بما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ أي بما كنتم تعملونه في الدنيا من أعمال الكفر والإيمان ، فيجازيكم بذلك ثواباً وعقاباً ﴿ **إنّهُ** ﴾ تعالى ﴿ **عَليمٌ بذاتِ الصُّدورِ** ﴾ أي مبالغ في العلم بمضمرات القلوب فكيف بالأعمال الظاهرة وفي الآية دليل على أن ضرر الكفر ، والطغيان ، يعود إلى نفس الكفار ، كما أن نفع الشكر ، والإيمان

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم والبيهقي ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٨ .

يعود إلى نفس الشاكر ، والله غني عن العالمين ، كما وقع في الكلمات القدسية (ياعبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، ياعبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيأ ـ وفي آخر الحديث ـ فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه)[1] .

واعلم أن الشكر بسبب الرضوان ألا ترى إلى قوله تعالى (**وإن تشكروا يرضه لكم**)ولشرف الشكر أمر أنبياءه فقال لموسى (**فَخُذْ مَا آتَيتُكَ وَكُنْ منَ الشَّاكِرِينَ**) وكان الأنبياء لمعرفتهم لفضل الشكر يبادرون إليه ، روي أنه عليه السلام لما تورمت قدماه من قيام الليل قالت عائشة رضي الله عنها : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! فقال عليه السلام : أفلا أكون عبداً شكوراً[2] وفي ذلك تنبيه على كمال فضل قيام الليل ، حيث جعله النبي عليه السلام شكراً لنعمته تعالى ، جعلنا الله وإياكم من الصالحين الصادقين ، المخلصين في الأقوال والأفعال والأحوال ، دون الفاسقين الكاذبين المرائين آمين يا كريم ﴿ **وَإذا مَسَّ الإنْسانَ ضُرٌّ** ﴾ أصابه ووَصَلَ إليه سوء حال من فقر ، ومرض ، أو غيرهما ﴿ **دَعا رَبّهُ** ﴾ في كشف ذلك الضر ﴿ **مُنِيباً إليْهِ** ﴾ راجعاً إليه مما كان يدعوه في حالة الإنابة إلى الله ، والرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل ، فمن طبيعة الإنسان أنه إذا مسه الضر خشع ، وحضع وإلى ربه فزع وتملق بين يديه وتضرع ﴿ **ثُمّ إذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ** ﴾ أي أعطاه نعمة عظيمة ، وأزال عنه ضره ، وكفاه أمره ، وأصلح باله ، وأحسن حاله ﴿ **نَسِيَ مَا كَانَ يدْعُو إليْهِ** ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه ﴿ **مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي من قبل التخويل كقوله تعالى (**مَرَّ كَأَنْ لم يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ**)أو نسي ربه الذي كان يدعوه ويتضرع إليه ، ولذلك قال النبي عليه السلام لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما (تعرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)[3] ﴿ **وَجَعَل للهِ أنْداداً** ﴾ شركاء في العبادة أي رجع إلى عبادة الأوثان ﴿ **ليُضِلَّ** ﴾ الناس بذلك ﴿ **عَنْ سَبيلِهِ** ﴾الذي هو التوحيد ﴿ **قُلْ** ﴾ قل يامحمد تهديداً لذلك الضال المضلّ ، وبياناً لحاله ومآله ﴿ **تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَليلاً** ﴾ أي تمتعاً قليلاً ﴿ **إنّكَ مِنْ أصْحابِ النّارِ** ﴾ في الآخرة أي من ملازميها والمعذبين فيها على الدوام كأنه قيل : وإذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة ، فمن حقك أن تؤمر بتركه لتذوق عقوبته ﴿ **أمّنْ** ﴾ والمعنى : الكافر

---

(١) هذا جزء من حديث قدسي طويل أخرجه مسلم والترمذي وأوله (يا عبادي إني حرّمتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً ..) الحديث وانظر جامع الأصول ١١ / ٣ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في التهجد ، ومسلم والترمذي في قيام الليل ، والنسائي ، وابن ماجه ، وأحمد في المسند ٤ / ٢٥١ .

(٣) هذا جزء من حديث شريف أوصى به النبي ﷺ عبد الله بن عباس وأوله (يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ..) إلخ أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وانظر الفتح الكبير ٣ / ٤٠٠ .

القاسي خير حالاً ، وأحسن مآلاً ، أم من هو (عثمان بن عفان) رضي الله عنه على الأشهر ويدخل فيه كل من كان على صفة التزكية ﴿ هُوَ قَانِتٌ ﴾ فالمعنى أم من هو قائم ﴿ آنَاءَ اللَّيلِ ﴾ أي في ساعاته ﴿ سَاجِداً ﴾ أي حال كونه ساجداً ﴿ وَقَائِماً ﴾تقديم السجود على القيام لكونه أدخل في معنى العبادة ، والمراد بالسجود والقيام : الصلاةُ ، عبر عنها بهما لكونهما من أعظم أركانها ، قائمٌ أي طويل القيام في الصلاة ﴿ يَحْذَرُ الآخرةَ ﴾ كأنه قيل : ما بالُه يفعل القنوت في الصلاة ؟ فقيل : يحذر عذاب الآخرة لإيمانه بالبعث ﴿ ويرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ أي المغفرة أو الجنة لا أنه يحذر ضرّ الدنيا ويرجو خيرها فقط كالكافر * ودلت الآية على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء ، يرجو رحمة ربه لعمله وإيمانه ، ويحذر عذابه لتقصيره في عمله ، ثم الرجاء إذا جاوز حدّه يكون أمناً ، والخوف إذا جاوز حدّه يكون إياساً ، وكل منهما كفر ، ثم في الآية تحريض على صلاة الليل ، قال ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه (كنت أبيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي : سل ، فقلت أسأل مرافقتك في الجنة ، فقال أو غير ذلك ؟ فقلت هو ذلك قال : (فأعنِّي على نفسك بكثرة السجود)[1] أي بكثرة الصلاة ﴿ قُلْ ﴾ بياناً للحق ، وتنبيهاً على شرف العلم والعمل ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يعْلَمونَ ﴾ حقائق الأعمال فيعلمون بموجب علمهم كالقانت المذكور ﴿ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ما ذكر فيعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم كالكافر ، والمعنى لا يستوي من يوجد فيه حقيقة العلم ، ومن لا يوجد ﴿ إنّما يَتَذَكّر أُولوا الألبابِ ﴾ أي إنما يتعظ بهذه البيانات الواضحة ، أصحاب العقول الخالصة من شوائب الخلل والوهم * وفي الآية بيان لفضل العلم، وتحقير للعلماء غير العاملين فهم عند الله جهلة ، حيث جعل القانتين هم أصحاب العقل والفهم السليم وفي الحديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم)[2] قال الغزالي في الإحياء : اختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم ، فقال المتكلمون هو علمُ الكلام إذ به يدرك التوحيد ويعلم ذات الله وصفاته ، وقال الفقهاء هو علم الفقه إذ به يعرف العبادات والحلال والحرام ، وقال المفسرون والمحدثون هو على الكتاب والسنة إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها ، وحاصله أن كل فريق نزَّل الوجوب على العلم الذي هو بصدده ، والصحيحُ أنَّ كل علمٍ ديني يحتاج إليه الإنسان فهو فريضة ، ويدخل فيه التوحيد ، والفقه والحديث .. إلخ قوله (على كل مسلم) أي مكلف ذكراً كان أو أنثى ، ومراده علم مالا يسع الإنسان جهله كالشهادة باللسان ، والإقرار بالقلب ، واعتقاد أن البعث بعد الموت ونحوه حق ، وعلم ما يجب عليه من العبادات ، وأمر معايشته كالبيع والشراء ، فكل من اشتغل بأمر

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة ، وأبو داود ، والنسائي في التطوع ، وأحمد في المسند ٤ / ٥٩ .

(٢) لحديث أخرجه البيهقي والطبراني في الأوسط ، وأخرجه ابن ماجه بزيادة (وواضعُ العلم عند غير أهله كمقلّد الخنازير الجوهرَ واللؤلؤ والذهب) وانظر الفتح الكبير ٢ / ٢١٣ .

شرعي يجب طلب علمه عليه ، ومنه علم أحوال القلب من التوكل والإنابة والخشية والرضى ، وكذلك في سائر الأخلاق نحو الجود والبخل ، والجبن والجراءة ، والتكبر والتواضع ، والعفة والشره ، والإسراف والتقتير وغيرها وقد قال عليه السلام (أعوذ بك من علم لا ينفع) وهو العلم الذي لا يمنع صاحبه عن النهي ولا يجره إلى المأمور به ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ** ﴾ اي اثبتوا على تقوى ربكم لأن بالإيمان حصول التقوى عن الكفر ، والشرك ، والمعنى : اتقوا عذابه وغضبه باكتساب طاعته ، واجتناب معصيته ﴿ **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا** ﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص ، ورأسها كلمة الشهادة فإنها أحسن الحسنات ﴿ **حَسَنَةٌ** ﴾ أي كرامةٌ ومثوبة عظيمة في الآخرة لا يعرف كنهها ، وهي الجنة والشهود لأن جزاء الإحسان الإحسان ، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، ومن كان عمله قبيحاً لم يكن جزاؤه حسناً ﴿ **وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ** ﴾ فمن تعسر عليه التوفر على التقوى ، وإلاحسان في وطنه ، فليهاجر إلى حيث يتمكن فيه من ذلك كما هو سنة الأنبياء ، والصالحين ، فإنه لا عذر له في التفريط أصلاً وفي الآية حثٌّ على الهجرة من البلد الذي يظهر فيه المعاصي ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ** ﴾ الذين صبروا على دينهم ، فلم يتركوه للأذى ، وحافظوا على حدوده ، ولم يفرطوا في مراعاة حقوقه لما اعتراهم في ذلك من فنون الآلام ، والبلايا ، التي من جملتها مهاجرة الأهل ومفارقة الأوطان ﴿ **أَجْرَهُمْ** ﴾ بمقابلة ما كابدوا من الصبر ﴿ **بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ أي بحيث لا يحصى ويحصر ، وسئل النبي عليه السلام (أيُّ الناس أشد بلاءً ؟ قال الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتَلى الرجل على حَسَب دينه ، فإنه كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقةٌ ابتلي على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة)[1] وقال صلى الله عليه وسلم (إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده ، ثم صبَّره على ذلك ، حتى يُبلِّغه المنزلة التي سبقت له من الله)[2] وقال ﷺ : (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله عز وجل إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم ، فمن رضيَ فله الرضى ، ومن سخط فله السخط)[3] ﴿ **قُلْ** ﴾ روي أن كفار قريش قالوا للنبي عليه السلام : ما يحملك على الذي أتينا به ؟ ألا تنظر إلى ملة آبائك ، وساداتُ قومك ، يعبدون اللات والعزى ، فتأخذ بتلك الملة ، فقال تعالى : قل يا محمد للمشركين ﴿ **إِنِّي أُمِرْتُ** ﴾ من جانبه تعالى ﴿ **أَنْ** ﴾ أي بأن ﴿ **أَعْبُدَ اللهَ** ﴾ حال كوني ﴿ **مُخْلِصاً لَه الدِّينَ** ﴾ أي العبادة من الشرك والرياء ، بأن يكون المقصد من العبادة

---

(١) رواه البخاري وأحمد والنسائي وابن ماجه وانظر الفتح الكبير ١ / ١٨٧ .

(٢) رواه ابن حبان والحاكم بنحوه ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٠٣ .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن ، وانظر رياض الصالحين ص ٣٦ .

هو المعبود بالحق لا غير كما في قوله تعالى (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ ولا أُشْرِكَ بِهِ) ﴿ وَأُمِرْتُ ﴾ بذلك ﴿ لأن أكونَ أوّلَ المسْلِمينَ ﴾ من هذه الأمة أي لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا ، والآخرة ، لأن السبق في الدين إنما هو بالإخلاص فيه ، فالمعنى وأُمرت أن أكون أول من أسلم من أهل زماني ، لأن كل نبي يتقدم أهل زمانه في الإسلام ، والدعاء إلى خلاف دين الآباء ، وإن كان قبله مسلمون ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ بترك الإخلاص ، والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك ﴿ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي أخاف من عذاب يوم القيامة ، وهو يوم عظيم لعظمة ما فيه من الدواهي والأهوال ، بحسب عظم المعصية وسوء الحال ، وفيه زجر عن المعصية بطريق المبالغة ، لأنه عليه السلام مع جلالة قدره إذا خاف على تقدير العصيان فغيره من الأمة أولى بذلك .

﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ ﴾ على ما أمرت لا غيره ، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ مُخْلِصاً لَهُ دِيني ﴾ من كل شوب ﴿ فَاعْبُدُوا ﴾ أي قد امتثلتُ ما أمرت به فاعبدوا يا معشر الكفار ﴿ مَا شِئْتُمْ ﴾ أن تعبدوا ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ تعالى ، والأمر للتهديد كما في قوله تعالى (اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ) قال في الإرشاد : وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم مالا يخفى ، كأنهم لَمَّا لم يُنْهوا عنه أُمروا به كي يحل بهم العقاب ، ولما قال المشركون خسرت يا محمد حيث خالفت دين آبائك قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ ﴾ أي الكاملين في الخسران الذي هو عبارة عن إضاعة ما يهمه ، وإتلاف مالابد منه ، فالجملة من الموصول والصلة خبران ﴿ الَّذِينَ خَسِروا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالضلال واختيار الكفر لها أي أضاعوها ، وأتلفوها إتلاف البضاعة ﴿ وَأَهَلِيهِمْ ﴾ بالضلال واختيار الكفر لهم أيضاً ﴿ يَومَ القِيٰمةِ ﴾ حين يدخلون النار بدل الجنة حيث عرضوهما للعذاب السرمدي ، وأوقعوهما في هلكة لا هلكة وراءها ﴿ أَلا ذَلِكَ ﴾ الخسران ﴿ هُوَ الخُسْرانُ المُبينُ ﴾ حيث استبدلوا بالجنة ناراً ، وبالدرجات دركات ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النّارِ ﴾ والمعنى للخاسرين ظلل من النار كثيرة متراكبة بعضها فوق بعضٍ ، والمراد طباق وسرادقات من النار ودخانها ، وسمي النار ظلة لغلظها وكثافتها ، ولأنها تمنع من النظر إلى ما فوقهم ، وفيه إشعار بشدة حالهم في النار ، وتهكم بهم لأن الظلة إنما هي للاستظلال والتبرُّدِ ، خصوصاً في الأراضي الحارة كأرض الحجاز ، فإذا كانت من النار نفسها كانت أحرّ ومن تحتها أغمّ ﴿ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ﴾ أيضاً ﴿ ظُلَلٌ ﴾ والمراد إحاطة النار بهم من جميع جوانبهم كما قال تعالى (أَحَاطَ بِهِمْ سُرادِقُها) أي فسطاطها وهو الخيمة شبه به ما يحيط بهم من النار كما سبق في الكهف ، ونظيرُ الآية قولُه تعالى (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) وقوله (لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ ومِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ) ﴿ ذَلِكَ ﴾ العذاب الفظيع هو الذي ﴿ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبادَهُ ﴾ في القرآن ليؤمنوا ويحذرهم إياه بآيات الوعيد ، ليجتنبوا ما يوقعهم فيه ، وأن ما ذكر من العذاب معد للكفار ، هو تخويف

للمؤمنين ليخافوه فيتقوه بالطاعة والتوحيد ﴿ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي ، وهذه عظة من الله تعالى بالغة منطوية على غاية اللطف والرحمة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى خلق جهنم سوطاً يسوق به عباده إلى الجنة، إذ ليس في الوجود إلا ما هو مشتمل على الحكمة والمصلحة .

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ والذين ابتعدوا عن كل رأس ضلال ، وعن الأصنام ، وكل ما عُبِدَ من دون الله ، ومردةِ أهل الكتاب ، والشيطان (أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ فإن عبادة غير الله عبادة للشيطان إذ هو الآمر بها ، والمزين لها ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ ﴾ وأقبلوا عليه معرضين عما سواه إقبالاً كلياً . واعلم أن المراد باجتناب الطاغوت الكفر بها ، وبالإنابة إلى الله الإيمان بالله كما قال تعالى (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) وقدَّم اجتناب الطاغوت على الإنابة إلى الله ، كما قدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ، على وفق كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) حيث قدم نفي وجود الإلهية على إثبات الألوهية لله تعالى ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴾ بالثواب والرضوان الأكبر على ألسنة الرسل بالوحي في الدنيا ، أو الملائكة عند حضور الموت ، وحين يحشرون وبعد ذلك ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ فيه تصريح بكون التبشير من لسان الرسول عليه السلام ، وهو تبشير في الدنيا ، وأما تبشير الملك فتبشير في الآخرة كما قال تعالى (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) وبالجملة تبشير الآخرة مرتب على تبشير الدنيا ، فمن استأهل الثاني استأهل الأول ، قيل : إن الآية نزلت في عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ، وسعيد ، وطلحة والزبير ، حين سألوا أبا بكر رضي الله عنه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا فيكون المعنى : يستمعون القول من أبي بكر فيتبعون أحسنه وهو قول (لا إله إلا الله) المعنى يستمعون القول مطلقاً قرآناً كان أو غيره ، فيتبعون أحسنه بالإيمان ، والعمل الصالح وهو القرآن ، لأنه تعالى قال في حقه (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) وأحسن كل قول ما كان من الله أو لله أو يهدي إلى الله ، ومثال هذا الأحسن في الدين أن ولي القتيل إذا طلب بالدم فهو حسن ، وإذا عفا ورضي بالدية فهو أحسن ، ومن جزى بالسيئة السيئة مثلها ، فهو حسن ، وإن عفا وغفر فهو أحسن ، وإن وزن أو كال فهو حسن ، وإن أرجح فهو أحسن ، وإن رد السلام فقال وعليكم السلام فهو حسن ، وإن قال وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته فهو أحسن ، ونظير هذه الآية قوله عز وجل لموسى عليه السلام (فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا) وقوله (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) فالقرآن كله حسن وإنما الأحسن بالنسبة الى الآخذ والعامل ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المنعوتون بالمحاسن الجميلة ﴿ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ ﴾ للدين الحق والاتصاف بمحاسنه ﴿ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أصحاب العقول السليمة ، من معارضة الوهم ، ومنازعة الهوى ، المستحقون للهداية لا غيرهم ، وفي الكلام دلالة على أن الهداية تحصل بفعل الله تعالى ، وقبول النفس لها ، يعني أن

لكسب العبد مدخلاً فيها بحسب جَرْي العادة ﴿ **أَفَمَنْ حَقَّ عليهِ كلمةُ العَذاب أَفأنْتَ تُنْقِذُ مَنْ في النّارِ** ﴾ أي أفمن وجبت له الشقاوة من الله ، وثبت ووجبت له كلمة العذاب ، وهي قوله تعالى لإبليس (**لأَمْلأنَّ جَهَنّمَ مِنْكَ وَمِمّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أجمعينَ**) والمعنى أأنت يا محمد مالك أمر الناس فمن حق أي وجب وثبت عليه من الكفار ، عدلاً في علم الله تعالى ، كلمة العذاب أفأنت تنقذه ؟ ﴿ **لكِنِ الَّذِينَ اتّقَوْا رَبَّهُمْ** ﴾ اليوم عن الشرك والمعاصي ، والزلات والشهوات وعبادة الهوى ، فقد أنقذهم الله تعالى من النار ﴿ **لَهُمْ غُرَفٌ** ﴾ بحسب مقاماتهم في التقوى ﴿ **مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ** ﴾ أي لهم علالي بعضها فوق بعض ، بيَّن أنَّ لهم درجات عالية في جنات النعيم ، بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة في الجحيم ﴿ **مَبْنِيَّةٌ** ﴾ تلك الغرف الموصوفة بناء المنازل على الأرض في الرصانة والإحكام ﴿ **تَجْري مِنْ تَحْتِها** ﴾ أي من تحت تلك الغرف المنخفضة والمرتفعة ﴿ **الأَنْهارُ** ﴾ الأربعة من غير تفاوت بين العلو والسفل ﴿ **وَعْدَ اللهِ** ﴾ أي وعدهم الله تلك الغرف ، والمنازل وعداً ﴿ **لا يُخْلِفُ اللهُ المِيعادَ** ﴾ لأن الخُلف نقصٌ ، وهو على الله محال ، وعن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه عن النبي عليه السلام أنه قال (إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراءون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق من المشرق والمغرب ، لتفاضل ما بينهم ، قالوا يا رسول الله : تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بلى والذي نفسي بيده رجال ، آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين)[1] وفي الحديث (مَنْ يدخل الجنة ينعم ولا يبأس لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه)[2] ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ يا أيها الناظر ﴿ **أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً** ﴾ هو المطر ﴿ **فَسَلَكَهُ** ﴾ أي فأدخل ذلك الماء ، ونظمه ﴿ **يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ** ﴾ أي عيوناً ومجاري كالعروق في الأجساد ، وهو بيان لمكان الينابيع ، وفيه إشارة إلى أن ماء العين هو المطر ، يحبسه في الأرض ثم يخرجه شيئاً فشيئاً ﴿ **ثُمَ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً** ﴾ أي مزروعاً ﴿ **مُخْتَلِفاً أَلوانُهُ** ﴾ أصنافه من بر وشعير وغيرهما ، وكيفياته من الألوان والطعوم وغيرهما ﴿ **ثُمّ يَهِيجُ** ﴾ أي يتم جفافه حين حان له أن يثور عن منبته ﴿ **فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً** ﴾ من يبسه بعد خضرته ونضرته ﴿ **ثُمّ يَجْعَلُهُ** ﴾ أي الله تعالى ﴿ **حُطَاماً** ﴾ فُتَاتاً منكسراً كأن لم يغن بالأمس ﴿ **إنَ في ذلك** ﴾ المذكور منفصلاً ﴿ **لَذِكْرَىٰ** ﴾ لتذكيراً عظيماً ﴿ **لأولي الألْبابِ** ﴾ لأصحاب العقول الخالصة من شوائب الخلل ، وتنبيهاً لهم على حقيقة الحال ، يتذكرون بذلك حال الحياة الدنيا في سرعة التقضي والانصرام ، كما يشاهدونه من حال الحطام كل عام ، فلا يغترُّون ببهجتها ، ولا يفتنون بفتنتها .

﴿ **أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإسْلاَمِ** ﴾ أي خلقه متسع الصدر مستعداً للإسلام فبقي على الفطرة

(١) رواه الترمذي في صفة الجنة رقم / ٢٥٥٩ / وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه أحمد في المسند ، جامع الأصول ١٠ / ٥٢٤ .

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة رقم / ٢٨٣٦ / وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥٣٠ .

الأصلية ، ولم يتغير بالعوارض المكتسبة ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ ﴾ عظيم ﴿ مِنْ رَبِّهِ ﴾ وهو اللطف الإلهي الفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيليَّة ، والتوفيق للاهتداء بها إلى الحق ، كمن قسا قلبه وضاق صدره بسبب تبديل فطرة الله بسوء اختياره ، واستولت عليه ظلمات الغي والضلالة ؟ فأعرض عن تلك الآيات بالكلية ، حتى لا يتذكر بها ولا يغتنمها ؟ كقوله تعالى (وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً) يعني ليس من هو على نور كمن هو على ظلمة ، فلا يستويان ؟ كما لا يستوي النور والظلمة ، والعلم والجهل ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ ﴾ والمعنى من أجل ذكره الذي حقه أن تنشرح له الصدور ، وتطمئن به القلوب أي إذا ذكر الله تعالى عندهم وآياته اشمأزوا من أجلهاوزادت قلوبهم قساوة كقوله تعالى (فَزَادَتْهُمْ رِجْساً ﴾ أو فويل للذين غلظت قلوبهم عن قبول ذكر الله * وعن مالك بن دينار رحمه الله « ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلبه ، وما غضب الله على قوم إلا نزع منهم الرحمة » ﴿ أُولَئِكَ ﴾ البعداء الموصوفون بما ذكر من قساوة القلب ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ بعيد عن الحق ﴿ مُبِينٍ ﴾ ظاهر كونه ضلالاً للناظر ـ روي ـ في الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قالوا كيف ذلك يارسول الله ؟ـ يعني ما معنى شرح الصدر ـ قال : إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح ، فقيل : ما علامة ذلك ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزوله) [١] .

﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديثِ ﴾ هو القرآن الكريم الذي لا نهاية لحسنه ، ولا غاية لجمال نظمه ، وملاحة معانية ، وهو أحسن مما نزل على جميع الأنبياء والمرسلين ، وأكمله وأكثره وإحكاماً ، وأيضاً أحسن الحديث لفصاحة إعجازه . وأيضا لأنه كلام الله ، وهو قديم لكونه صدقاً كله إلى غير ذلك . وسمي حديثاً لأن النبي عليه السلام كان يحدّث به قومه ، ويخبرهم بما ينزل عليه منه ، فلا يدل على حدوث القرآن ، فإن الحديث في عرف العامة الخبر ﴿ كِتَاباً مُتَشَابِهاً ﴾ معانيه في الصحة والإحكام ، والإنباءِ على الحق والصدق ، واستتباع منافع الخلق ، في المعاد والمعاش ، وتناسب ألفاظه في الفصاحة ، وتجاوب نظمه في الإعجاز ﴿ مَثَانِيَ ﴾ بمعنى مردد ومكرر ، لما ثُنِّي من قصصه وأنبائه ، وأحكامه ، وأوامره ، ونواهيه ، ووعده ، ووعيده ، ومواعظه ، أو لأنه ثُنِّي في التلاوة فلا يمل كما جاء في نعته « لا يخلق على كثرة الترداد » [٢] أي لا يزول رونقه ولذة قراءته واستماعه من كثرة ترداده على ألسنة التالين ، وتكراره على آذان المستمعين ، وأذهان المتفكرين ، على خلاف ما عليه المخلوق ، أو لأنها تثنى على مرور الأيام ، وتكرر فلا تدرس ، ولا تنقطع دروس سائر الأشياء التي تضمحل وتبطل على مرور الأيام ، ويصحُّ أن يقال

(١) أخرجه عبد بن حُميد ، وابن مردوديه ، وابن جرير ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٥ / ٣٢٥ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي في سننه ، وأوله « أما إنه ستكون فتنة .. » الحديث .

للقرآن مثاني لما يثنى ويتجدد حالاً فحالاً من فوائده ، كما جاء في نعته « ولا تنقضي عجائبه »[١] . ويجوز أن يكون ذلك من الثناء تنبيهاً على أنه أبداً يظهر منه ما يدعو إلى الثناء عليه ، وعلى من يتلوه ويُعلِّمه ، ويعمل به ، وعلى هذا الوجه وصفه بالكرم في قوله (**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ**) وبالمجد في قوله (**بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَجيدٌ**) أو مثنيٌ عليه بالبلاغة والإعجاز حتى قال بعضهم لبعض : ألا سجدت لفصاحته ؟ ﴿ **تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلودُ الذِّينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلينُ جُلودُهُمْ وقُلوبُهمْ إلى ذِكْرِ اللهِ** ﴾ أي ثم إذا ذكروا رحمة الله وعموم مغفرته لانت أبدانهم ونفوسهم ، وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة ، بأن تبدلت خشيتهم رجاء ، ورهبتهم رغبة ، وإنما أطلق ذكر الله ولم يصرح بالرحمة ، إيذاناً بأهميتها أو ما يخطر بالبال عند ذكره تعالى ﴿ **ذَلكَ** ﴾ الكتاب الذي شرح أحواله ﴿ **هُدى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ** ﴾ أن يهديه من المؤمنين المتقين كما قال (**هُدىً للمُتَّقينَ**) لصرف مقدوره إلى الاهتداء بتأمله فيما في تضاعيفه من الشواهد الخفية ، ودلائل كونه من عند الله ﴿ **ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ** ﴾ أي يخلق فيه الضلالة لصرف قدرته إلى مباديها ، وإعراضه عما يرشده إلى الحق بالكلية ، وعدم تأثرُّه بوعده ووعيده أصلاً ﴿ **فَمالَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ يخلصه من ورطة الضلال .

﴿ **أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ** ﴾ الهمزة للإنكار ، والاتِّقاءُ جعلُ وقايةٍ لنفسه ، ليدفع عنه ما يضرُّه ، وتقدير الكلام : أفمن شأنه - وهو الكافر - أن يقي نفسه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه ﴿ **سُوْءَ العَذَابِ** ﴾ أي العذاب السيّء الشديد ﴿ **يَوْمَ القِيٰمَةِ** ﴾ لكون يده التي بها كان يتقي المكاره والمخاوف ، مغلولةً إلى عنقه ، كمن هو آمن ؟ وهو المؤمن لا يعتريه مكروه ، ولا يحتاج إلى الاتقاء بوجه من الوجوه ؟ ﴿ **وقيل للظالمين** ﴾ الذي وضعوا الكفر موضع الإيمان ، والتكذيب موضع التصديق ، والعصيان موضع الطاعة أي ويقال لهم من جهة خزنة النار ﴿ **ذُوْقُوْا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ** ﴾ أي وبال ما كنتم تكسبونه في الدنيا على الدوام ، من الكفر ، والتكذيب والمعاصي ﴿ **كَذَّبَ الَّذِينَ** ﴾ أي من الأمم السابقة الذين جاؤا ﴿ **مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾ أي من قبل كفار مكة ، يعني كذَّبوا أنبياءهم كما كذبك قومك ﴿ **فَأَتَاهُمُ العَذَابُ** ﴾ المقدر لكل أمة منهم ﴿ **مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ** ﴾ من الجهة التي لا يحتسبون ، ولا يخطر ببالهم إتيان العذاب والشر منها ، وبينا هم آمنون رافهون إذ فوجئوا من مأمنهم ، فمعنى (**مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ**) أي أتاهم العذاب وهم آمنون في أنفسهم ، غافلون عن العذاب ، وأشدُّ العذاب ما يكون غير متوقع ﴿ **فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الخِزْيَ** ﴾ أي الذلَّ والصغار يعنى أحسوا به إحساس الذائق المطعوم ﴿ **فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ بيان لمكان إذاقة الخزي ، وذلك الخزي كالمسخ ، والخسف ، والغرق ، والقتل ، والسبي

---

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه الترمذي في فضائل القرآن ، وانظر جامع الأحكام ٨ / ٤٦٢ .

والإجلاء ، ونحو ذلك من فنون النكال ، وهو العذاب الأدنى ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ ﴾ المعدّ لهم ﴿ أَكْبَرُ ﴾ من عذاب الدنيا ، لشدّته ودوامه ﴿ لَوْ كَانُوْا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كان من شأنهم أن يعلموا لعلموا ذلك ، واعتبروا به ، وما عصوا الله ورسوله ، وخلّصوا أنفسهم من العذاب ، فعلى العاقل أن يرجع إلى ربه بالتوبة والإنابة ، كي يتخلص من عذاب السعير ، وقد قال بعضُ العارفين : (اعملْ لدنياك بقدرِ مُقامك فيها ، واعملْ لآخرتك بقدر بقائك فيها واعمل لله بقدر حاجتك إليه ، واعمل للنار بقدر صبركَ عليها) فإذا كان الصبر على النار غير ممكن للإنسان الضعيف ، فليسلك طريق النجاة المبعدة النار الموصلة إلى الجنات وأعلى الدرجات ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمور دينه أي بيّنا لهم وقصصنا عليهم ، الأخبار العجيبة ، والقصص الغريبة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتذكرون به ويتعظون به ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ أي بلغة العرب ﴿ غَيْرِ ذِي عِوَجٍ ﴾ لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه ، ولا تناقض ولا عيب ، ولا خلل ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ علةٌ أخرى ، لأن الغرض من ضَرب الأمثال العظة والاعتبار أي لعلهم يعملون عمل أهل التقوى ، في المحافظة على حدود الله ، والاعتبار بأمثاله ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ المعنى جعل الله تعالى للمشرك مثلاً - عبداً يتشارك فيه جماعة يتجاذبونه في مهماتهم المتباينة - في تحيّره وتوزع قلبه ﴿ وَرَجُلاً ﴾ أي وجعل للموحّد مثلاً ﴿ سَلَماً ﴾ خالصاً ﴿ لِرَجُلٍ ﴾ فرد ليس لغيره عليه سبيلٌ أصلاً ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ أي هل يستوي حالها ، وصفاتها ؟ يعني لا يستويان ، والحاصل أن الكافر كالعبد الأول في كونه حيران متفرق البال ، لأنه يعبد آلهة مختلفة أي أصناماً لا يجيء منها خير ، بل تكون سبباً لوقوعه في أسفل سافلين ، كما أن العبد يخدم مُلاّكاً متعاسرين مختلفي الأهوية لا يصل إليه منهم منفعة أصلاً ، والمؤمن كالعبد الثاني في انضباط أحواله واجتماع باله حيث يعبد رباً واحداً يوصله إلى أعلى عليين ، كما أن العبد يخدم سيداً واحداً يرضى عنه ويصل إليه بالعطاء الجزيل ﴿ الحَمْدُ للهِ ﴾ حيث قطعهم بالخصومة وغلبهم ، وأظهر الحجة عليهم ببيان عدم الاستواء بطريق ضرب المثل ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمونَ ﴾ بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره ، فيبقون في ورطه الشرك والضلال من فرط جهلهم ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ والمعنى إنكم جميعاً بصدد الموتِ ، فالموت يعمكم ، ولا معنى للتربص والشماتة بل هو عين الجهالة ، وقد قال الشاعر :

اصبر لكل مصيبة وتجلد * واعلم بأن المرء غير مخلد
واذا اعترتك وساوس بمصيبة * فاذكر مصابك بالنبي محمد

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ أي مالك أمركم ﴿ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلّغتم ما

أرسلت به من الأحكام والمواعظ ، واجتهدت في الدعوة إلى الحق حق الاجتهاد ، وهم قد لجوا في المكابرة والعناد ، ويعتذرون بما لا طائل تحته مثل (أطعنا سادتنا وكبراءنا) وقولهم « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا » وفي الأثر (لا تزال الخصومة بين الناس حتى تخاصم الروح الجسد ، فيقول الجسد إنما كنت بمنزلة جذع ملقى لا أستطيع شيئاً ، ويقول الروح إنما كنت ريحاً لا أستطيع أن أعمل شيئاً ، فضرب لهما مثل الأعمى والمقعد ، يحمل الأعمى المقعد فيدله المقعد ببصره ، ويحمله الأعمى برجليه) وفي الحديث (أتدرون من المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، فيقضى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه ، أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار) [1] .

﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ** ﴾ أي هو أظلم من كل ظالم ، من افترى على الله بأن أضاف إليه الشريك والولد ﴿ **وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ** ﴾ أي بالأمر الذي هو عين الحق ونفس الصدق ، وهو ما جاء به النبي عليه السلام ﴿ **إِذْ جَاءَهُ** ﴾ أي في مجيئه على لسان الرسول عليه السلام ، يعني فاجأه بالتكذيب ساعة أتاه وأول ما سمعه ، من غير تدبر فيه ولا تأمل ﴿ **أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ** ﴾ والمعنى إن جهنم منزل ومقام للكاذبين المكذبين المذكورين ، وغيرهم من الكفار جزاء لكفرهم وتكذيبهم ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ** ﴾ وهو رسول الله عليه السلام ومن تبعه من المؤمنين كما في قوله تعالى (**ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون**) فإن المراد موسى عليه السلام وقومه ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ الموصوفون بالصدق ، والتصديق ﴿ **هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ المنعوتون بالتقوى التي هي أجل الرغائب ، ودلت الآية على أن النبي عليه السلام يُصدِّق أيضاً بما جاء به من عند الله ، ويتلقاه بالقبول كما قال الله تعالى (**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ**) ﴿ **لَهُمْ** ﴾ أي المتقين بمقابلة محاسن أعمالهم في الدنيا ﴿ **مَا يَشَاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ** ﴾ أي كل مايشاءونه من جلب المنافع ، ودفع المضار في الآخرة ، لا في الجنة فقط ، لما أن بعض ما يشاءونه من تكفير السيئات ، والأمن من الفزع الأكبر ، وسائر أهوال القيامة ، إنما يقع قبل دخول الجنة . يُقال : أجمع العبارات لنعيم الجنة (**وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ**) وأجمع العبارات لعذاب الآخرة (**وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ**) ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي حصول ما يشاؤنه ﴿ **جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ ثواب الذين أحسنوا أعمالهم ﴿ **لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا** ﴾ أي جزاهم الله ليستر عنهم الأعمال السيئة حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل ، أو يُزِلْها عنهم فلا يحاسبون بها ، أو وعدهم الله جميع ما يشاؤنه من زوال المضار ، وحصول المسارّ ليكفر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الذي عملوا

(١) رواه أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٠ .

دفعاً لمضارهم ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ ويعطيهم ثوابهم ﴿ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي يعطيهم الثواب بحساب الأحسن الذي عملوه فضلاً منه وكرماً ، وإضافة الأسوء والأحسن إلى ما بعدهما ، ليست من قبيل إضافة المفضَّل إلى المفضل عليه ، بل من إضافة الشيء الى بعضه للقصد الى التحقيق والتوضيح ، من غير اعتبار تفضيله عليه ، وإنما المعتبر فيهما مطلق الفضل والزيادة بالنظر الى لطف كرم أكرم الأكرمين ، من استكثار الحسنة اليسيرة ، ومقابلتها بالمثوبات الكثيرة ، واعلم أن سبب التكفير والأجر الأحسن هو الصدق ، وهو من المواهب لامن المكاسب في الحقيقة ، وان كان حصول أثره منوطاً بفعل العبد ، ويجري في القول والفعل ، والوعد والعزم .

قال عليه السلام لمعاذ رضي الله عنه (يامعاذ أخلصْ دينك يكفك القليل من العمل)[1] ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ أي هو تعالى كاف عبده محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم أمر من يعاديه ، وناصره عليه ، وفيه تسلية له عليه السلام ، وقال السيد جعفر الصادق رضي الله عنه : ما رأيت أحسن من تواضع الأغنياء للفقراء ، وأحسن من ذلك إعراض الفقير عن الغني ، استغناء بالله تعالى ورعايته وكفايته﴿ وَيُخَوِّفونَكَ ﴾ أي المشركين ﴿ بِالَّذِينَ مِنْ دونِهِ ﴾ أي بالأوثان التي اتخذوها آلهة من دون الله تعالى ، ويقولون ، إنك تعيبها ، وإنها لتصيبك بسوء كالهلاك ، أو الجنون ، أو فساد الأعضاء ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ ﴾ أي ومن يجعله ضالاً عن الطريق القويم ، والفهم المستقيم ، حتى يغفل عن كفايته تعالى ، وعصمته له عليه السلام ، وخوفه بما لا ينفع ، ولا يضر أصلاً ﴿ فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يهديه إلى خير ما ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ ﴾ أي ومن يرشده إلى الصراط المستقيم ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾ يصرفه عن مقصده ، أو يصيبه بسوء يخل بسلوكه ، إذ لا رادَّ لفعله ، ولا معارض لإرادته ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ﴾ غالب منيع يعز من يعبده ﴿ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ من أعدائه لأوليائه أي هو عزيز ذو انتقام ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ أي هؤلاء المشركين الذي يخوفونك بآلهتهم فقلت لهم ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ ﴾ أي من اخترع هذين الجنسين المعبر عنهما بالعالم ؟ ﴿ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ أي خلقهن الله ، لوضوح الدليل على اختصاصه بالخالقية ، يشير إلى أن الإيمان الفطري مركوز في جِبلّة الإنسان كما قال تعالى (فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) وقال عليه السلام (كل مولود يولد على الفطرة)[2] ﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنَ دُونِ اللهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ أي أخبروني ، جعل الرؤية وهو العلم الذي هو سبب الإخبار مجازاً عن الإخبار ، و« تَدْعُونَ » بمعنى تعبدون ، و« ما » عبارة

(١) الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا والحاكم ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٥٨ .

(٢) هذا جزء من حديث رواه الشيخان وأبو داود بلفظ (ما من مولود إلاّ يُولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه ، أو يُنصّرانه ، أو يُمجسّانه ..) الحديث وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٢٢ .

عن الآلهة ، والضرُّ سوء الحال أيّاً كان من مرض ، وضيق معيشة ، وشدة ، والاستفهام للإنكار وضميرهن والمعنى: بعدما تحققتم أن خالق العالم العلوي والسُّفلي هو الله تعالى ، فأخبروني عن آلهتكم إن أرادني الله بضر هل هن يكشفن عني ذلك الضرر والبلاء ، ويدفعنه ؟ أي لا تقدر على دفعه وإزالته ﴿ **أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ** ﴾ أو إن أرادني بنفعٍ ، من صحة ، أو غنى ؟ أو غير ذلك من المنافع ﴿ **هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ** ﴾ فيمنعْنَها عني ؟ أي لا تقدر على إمساك تلك الرحمة ومنعها ، فكأنه قال كيف : أشركتم به تعالى هذه الأشياء الجمادية ؟ البعيدة من الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والقوة ، والتمكن من الخلق ؟ هلاَّ استحييتم من ذلك ؟ ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد ﴿ **حَسْبِيَ اللهُ** ﴾ أي الله كافيّ في جميع أموري من إصابة الخير ، ودفع الشر ﴿ **عَلَيْهِ** ﴾ تعالى لاعلى غيره أصلا ﴿ **يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ لعلمهم بأن ما سواه تحت ملكوته تعالى ، فلابد من التوكل على رب العباد والتسليم له والانقياد لأن طاعة الله تعالى ، والتوكل عليه سبب النجاة من المهالك . ﴿ **قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ** ﴾ على حالتكم التي أنتم عليها من العداوة التي تمكنتم فيها ﴿ **إِنِّي عَامِلٌ** ﴾ أي على مكانتي ما استطعت ، ولا يزيد حالي إلا قوّة ونصرة ﴿ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ** ﴾ بسوء أعماله وهو عذاب الدنيا ، وخزيُ أعدائه دليل على غلبته ، فقد نصره الله وعذَّب أعداءه ، وأخزاهم يوم بدر ﴿ **وَيَحِلُّ** ﴾ ينزل من أفعاله ﴿ **عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ** ﴾ إلى الأبد لا يفارقه ، دائم لا ينقطع عنه ، وهو عذاب الآخرة يعني : أنتم الهالكون بسبب كونكم على البطلان ، ونحن الناجون بسبب كوننا على الحق ، فسوف ينكشف ربحنا ، وخسرانكم ، وسوف تظهر زيادتنا ونقصانكم ، وسوف يطالبكم الله ولا جواب لكم ، ويعذبكم ولا شفيع لكم ، ويدمر عليكم ولا صريخ لكم .

﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ** ﴾ أي القرآن ﴿ **لِلنَّاسِ** ﴾ أي لأجلهم فإنه مناط لمصالحهم في المعاش والمعاد ﴿ **بِالْحَقِّ** ﴾ بكوننا محقين في إنزاله ، أو كون ذلك الكتاب ملتبساً بالحق ، أي كل ما فيه حق وصواب لا ريب فيه موجب العمل به حتماً ﴿ **فَمَنِ اهْتَدَىٰ** ﴾ بأن عمل بما فيه ﴿ **فَلِنَفْسِهِ** ﴾ أي إنما نفع به نفسه ﴿ **وَمَنْ ضَلَّ** ﴾ بأن لم يعمل بموجبه ﴿ **فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** ﴾ لما أن وبال ضلاله مقصور عليها ﴿ **وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ** ﴾ أي وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى ، وما وظيفتك إلا البلاغ ، وقد بلغت أيَّ بلاغ ، وفي الحديث (إنما مثلي ومثل أمتي ، كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الجنادبُ والفراش يقعن فيها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحَّمون فيها)[1] يعني أنا آخذكم حتى أبعدكم عن النار ، وأنتم تدخلون فيها بشدة ، وفي الحديث (إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ،

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، بألفاظ متقاربة ، وانظر جامع الأصول ١ / ٢٨٧ .

كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة ، قَبِلَتِ الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به فعَلِم وعلَّم ، ومَثَلُ من لم يرفع لذلك رأساً)[1] فعلم العامل المعلم كالمطر الواقع على التربة الطيبة ، وعلم العالم المعلم غير العامل كالمطر الواقع على الأجادب ، وأما الذي لا يقبل الهدى أصلاً ، فكان كالأرض التي لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فكما أنها ليس فيها ماء ولا كلأ ، فكذا الكافر والجاهل ليس فيه علم ولا عمل ، فلا لنفسه نفع ، ولا لغيره ﴿ **اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا** ﴾ أي يقبض الله الأرواح الإنسانية عن الأبدان ، بأن يقطع تعلقها عنها ، وتصرفها فيها ظاهراً وباطناً ، وذلك عند الموت ، فيزول الحسُّ والحركة عن الأبدان ، وتبقى كالخشب اليابس ، ويذهب العقلُ ، والإيمان ، والمعرفة مع الأرواح فذلك وفاتها ﴿ **وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا** ﴾ ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها ، أي يتوفاها حين نومها بأن يقطع تعلقها عن الأبدان وتصرفها فيها ظاهراً لا باطناً ، فالنائم يتنفس ويتحرك ببقاء الروح الحيواني ، ولا يعقل ولا يميز بزوال الروح الإنساني ﴿ **فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ** ﴾ أي يمسك أنفس الأموات عنده ، ولا يردُّها إلى البدن ، وذلك في عالم البرزخ الذي تكون الأرواح فيه ﴿ **وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ** ﴾ أي ويرسل أنفس الأحياء النائمة إلى أبدانها عند اليقظة ، ﴿ **إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى** ﴾ هو الوقت المضروب لموتها ، ويؤيده قوله عليه السلام (إذ أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره ، فإنه لا يدري ما خلف عليه ، ثم يقول : باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكتَ نفسي فارحمها وإن أرْسلتَها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)[2] * وفيه إشارة إلى أنَّ المقصود من الحياة هو الصلاح ، وما عداه ينبغي أن يكون وسيلة إليه ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ** ﴾ أي فيما ذكر من التوفِّي على الوجهين ، والإمساك في أحدهما والإرسال في الآخر ﴿ **لَآيَاتٍ** ﴾ عجيبة دالة على كمال قدرته ، وحكمته ، وشمول رحمته ﴿ **لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ في كيفية تعلق الأرواح بالأبدان وتوفيها عنها تارة بالكلية كما عند الموت ، وإمساكها باقية بعد الموت ، لا تفنى بفناء الأبدان ، وما يقربها من السعادة والشقاوة ، ويؤخِّرها عن ظواهرها فقط كما عند النوم ، وإرسالها حيناً بعد حين إلى انقضاء آجالها وانقطاع أنفاسها ، فيستدلون على أن القادر على ذلك قادر على البعث ، وفي الحديث القدسي (**ما تَرَدَّدْتُ في شيءٍ أنا فاعله كتردُّدي في قبض نفس عبدي المؤمن ، هو يكرهُ الموت ، وأنا أكرَه مساءته**)[3] ﴿ **أَمِ اتَّخَذُوا** ﴾ نزلت في

---

(١) رواه الشيخان في الصحيحين ، وانظر رياض الصالحين ٤٨٦ .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٢٦٦ .

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري ، وأحمد في المسند ٦ / ٢٥٦ وفيه (هو يكره الموت وأنا أكره مساءته) جامع الأصول ٩ / ٥٤٢.

أهل مكة حيث زعموا أن الأصنام شفعاؤهم عند الله ، فقال الله تعالى منكراً عليهم أي بل أتَّخذتْ قريش ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ من دون إذنه تعالى ﴿ شُفَعاءَ ﴾ تشفع لهم عنده تعالى ، وهي الأصنام ﴿ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكونَ شَيْئاً ولا يَعْقِلونَ ﴾ قل يا محمد للمشركين أفتتخذون الأصنام شفعاء ، ولو كانوا لا يملكون شيئاً من الأشياء ولا يعقلونه ؟ فضلاً عن أن يملكوا الشفاعة عند الله ، ويعقلوا أنكم تعبدونهم ؟ وأن المقبول من العبادة والشفاعة ما يكون بأمر الله ، ومتابعة نبيه عليه السلام ، على وفق الشرع ، وذلك لأن حجاب العبد هو الهوى والطبع ، وإنما أُرسل الأنبياء لنفي الهوى ، لتكون حركات العباد وسكناتهم بأمر الحق تعالى ، ومتابعة الأنبياء ، لا بأمر الهوى ومتابعة النفس ﴿ قُلْ ﴾ بعد تبكيتهم وتجهيلهم بما ذكر تحقيقاً للحق ﴿ للهِ الشّفاعَةُ جَميعاً ﴾ أي هو الله تعالى مالك الشفاعة ، لا يستطيع أحد شفاعة ما ، إلا أن يكون المشفوع له مرتضى ، والشفيع مأذوناً له وكلاهما مفقود ههنا ﴿ لَهُ ﴾ تعالى وحده ﴿ مُلْكُ السَمواتِ والأَرْضِ ﴾ وما فيهما من المخلوقات ، لا يملك أحد أن يتكلم في أمر من أموره بدون إذنه ورضاه ﴿ ثُمّ إليْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة لا إلى أحد سواه ، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ، فاحذروا سخطه ، واتقوا عذابه ، فيا ربح الموحدين يومئذ ، ويا خسارة المشركين !! واعلم أن افتخار الخلق في الدنيا بعشرة أمور ولا ينفع ذلك يوم القيامة * **الأول** : المال فلو نفع المال لأحدٍ لنفع قارون ، قال الله تعالى (فَخَسفنا بهِ وَبدارِهِ الأَرْضَ) * **والثاني** : الولد فلو نفع الولد لأحدٍ لنفع إبراهيم عليه السلام أباه آزر قال الله تعالى (يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) * **والثالث** : الجمال فلو نفع الجمال لنفع أهل الروم لأن لهم تسعة أعشار الجمال قال الله تعالى (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجوهٌ) * **والرابع** : الشفاعة فلو نفعت الشفاعة لنفع الرسول من أحب إيمانه قال تعالى (إِنّكَ لا تَهْدِي منْ أَحْبَبْتَ) * **والخامس** : الحيلة فلو نفعت الحيلة لنفع الكفار مكرهم قال تعالى (وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبورُ) * **والسادس** : الفصاحة فلو نفعت الفصاحة لنفعت العرب قال تعالى (لاَ يَتَكَلّمُونَ إِلاّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَحْمَنُ) * **والسابع** : العز فلو نفع العز لنفع أبا جهل قال تعالى (ذُقْ إِنّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ) * **والثامن** : الأصدقاء فلو نفع الأصدقاء لنفعوا الفُسّاق قال الله تعالى (الأَخِلاّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌ إِلاّ المتّقِينَ) * **والتاسع** : الأتباع فلو نفع التبع لنفع الرؤساء قال تعالى (إِذْ تَبرأَ الّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الّذِينَ اتَّبَعُوا) * **والعاشر** : الحسب فلو نفع الحسب لنفع يعقوب اليهود لأنهم أولاد يعقوب قال تعالى (لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرحَامُكُمْ وَلا أَولادُكُمْ يَوْمَ القِيٰمَةِ) ﴿ وَإِذا ذُكِرَ اللهُ ﴾ ﴿ وَحْدَهُ ﴾ أي منفرداً دون آلهة المشركين ﴿ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ انقبضت ، ونفرت قلوب الذين لا يصدقون بيوم القيامة ، وفيه مبالغة في بيان حالهم القبيحة ﴿ وَإِذا ذُكِرَ الّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي من دون الله يعني الأوثان ، فرادىٰ أو مع ذكر الله ﴿ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرونَ ﴾ يفرحون ، ويظهر في وجوههم

البشر لفرط افتنانهم بها ونسيانهم الحق ، فكل قلب لا يعرف الله فإنه لا يأنس بذكر الله ولا يسكن إليه ، ولا يفرح به فَلا يكون مسكنَ الحق ، فعلم أن من ذكر الله ، فاللهُ تعالى جليسُه ، ومن ذكر غير الله فالشيطان جليسُه ، فعلى العاقل أن لا ينقطع عن الذكر ، ويستبشر به فالله تعالى معه ومعينه ﴿ **قُلِ اللّهُمَّ** ﴾ والمعنى قل يا محمد ياألله ﴿ **فَاطِرَ السمواتِ وَالأَرْضِ** ﴾ يا خالق السموات والأرض ﴿ **عَالِمَ الغَيْبِ والشّهادَةِ** ﴾ يا عالم كل ما غاب عن العباد ، وكل ما شهدوه ، أي التجيءُ يا محمد إليه تعالى بالدعاء ، إذا تحيَّرْتَ في أمر الدعوة ، وضجرت من شدة شكيمتهم في المكابرة والعناد ، فإنه القادر على الأشياء بجملتها ، والعالم بأحوالها برمتها ﴿ **أَنْتَ** ﴾ وحدك ﴿ **تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ** ﴾ أي بيني وبين قومي وكذا بين سائر العباد ﴿ **فيما كَانُوا فيه يَخْتَلِفونَ** ﴾ أي يختلفون فيه من أمر الدين ، أي تحكم حكماً يسلمه كل مكابر ، ويخضع له كل معاند ، وهو العذاب الدنيوي ، أو الأخروي ﴿ **وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظلموا ما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً** ﴾ أي لو أن لهم جميع ما في الدنيا من الأموال والذخائر ﴿ **وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ العَذابِ يَوْمَ القِيٰمةِ** ﴾ أي لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب الشديد ، لكنْ لا مال يوم القيامة ، ولو كان لا يقبل الافتداء به ، وهذا وعيد شديد وإقناط لهم من الخلاص ، ولقمة من الصدقة ، وكلمة من التوبة والاستغفار ، كما أنهم لو تابوا وبكوا في الآخرة بالدماء لا يرحم بكاؤهم ، وبدمعة واحدة اليوم يمحى كثير من ذنوبهم ﴿ **وَبَدَاَ لَهُمْ مِنَ الله مَالَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ أي ظهر لهم يوم القيامة من فنون العقوبات ما لم يكن في حسابهم في الدنيا ، وفي ظنهم أنه نازل بهم يومئذ ﴿ **وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا** ﴾ سيئات أعمالهم ، أو كسبهم حين تعرض عليهم صحائفهم ﴿ **وَحاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ** ﴾ أي نزل ، وأصاب ، وأحاط بهم وبال استهزائهم ، وجزاء مكرهم ، وكانوا يستهزئون بالكتاب والمسلمين ، والبعث ، والعذاب ونحو ذلك ﴿ **فَإِذا مَسَّ الإنْسانَ ضُرٌّ دَعَانَا** ﴾ أي أن المشركين إذا أصابهم سوء حال من مرض وفقر ، ونحوهما ، دعوا لدفعه من اشمأزوا مِنْ ذكره ، وهو الله تعالى ﴿ **ثُمّ إذا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنّا** ﴾ أعطيناه إياها تفضلاً ﴿ **قَالَ إنّما أوتيتُهُ عَلى عِلمٍ** ﴾ أيْ على علم مني بوجوه كسبه ﴿ **بَلْ هي** ﴾ أي النعمة ﴿ **فِتْنَةٌ** ﴾ للإنسان أي محنة وابتلاءٌ له ، أيشكر أم يكفر ؟ ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ أن التخويل استدارج وامتحان ﴿ **قَدْ قَالَها** ﴾ أي تلك الكلمة أو الجملة وهي قوله (**إنّما أُوتيتُهُ عَلىٰ علْمٍ**) ﴿ **الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾ وهم من أبطرته النعمة ، واغتر بظاهرها ﴿ **فَما أَغْنىٰ عَنْهُمْ ما كَانُوا يَكْسِبونَ** ﴾ من متاع الدنيا ، ويجمعون منه ، يعني أن النعمة لم تدفع عنهم النقمة والعذاب ، ولم ينفعهم ذلك ﴿ **فَأَصابَهُمْ سَيِّئَاتُ ما كَسَبُوا** ﴾ جزاء سيئات أعمالهم ، وأجزية ما كسبوا ، والمعنى إنهم ظنوا أن ما آتيناهم لكرامتهم علينا ولم يكن كذلك ، لأنهم وقعوا في العذاب ولم تنفعهم أموالهم ، وهذا كما قال اليهود (**نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وأحِبّاؤُهُ**)

فقال تعالى خطاباً لحبيبه عليه السلام (**قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ**) يعني أن المكرم المقرب عند الله لا يعذبه الله ، وإنما يعذب الخائن المهين المهان ﴿ **وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ** ﴾ المشركين المعاصرين لك يامحمد أي أفرطوا في الظلم والعتوّ ﴿ **سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ ما كَسَبُوا** ﴾ من الكفر ، والمعاصي كما أصاب أولئك ، وقد أصابهم حيث قحطوا سبع سنين ، وقتل أكابرهم يوم بدر ﴿ **وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ** ﴾ الله تعالى في الدنيا والآخرة ، أن يدركهم العذاب ولا ينجون منه بالهرب ﴿ **أَوَلَمْ يَعْلَمُوا** ﴾ اقالوا ذلك ، ولم يعلموا أو أغفلوا ، ولم يعلموا ﴿ **أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ** ﴾ أن يبسط له أي يوسعه ﴿ **وَيَقْدِرُ** ﴾ لمن يشاء أن يقتّر ويضيق له ، من غير أن يكون لأحد مدخل ما في ذلك حيث حبس عنهم الرزق سبعاً ثم بسط لهم سبعاً ﴿ **إِنَّ فِي ذلِكَ** ﴾ الذي ذكر من القبض والبسط ﴿ **لآياتٍ** ﴾ دالة على أن الحوادث كافة من الله تعالى ﴿ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ اذ هم المستدلون بتلك الآيات على مدلولاتها * وفي الآيات فوائده منها أن من خصوصية نفس الإنسان أن تضطرّ إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع في الشدة والضر والبلاء ، فلا عبرة بهذا الرجوع بالاضطرار إلى الله تعالى ، لأنه إذا أنعم الله عليه بالخلاص والعافية من تلك الشدة والبلاء ، أعرض عن الله ويكفر بالنعمة ويقول : « إنما أوتيته على علم عندي » وإنما العبرة بالرجوع إلى الله والتعرف إليه في الرخاء كما قال عليه السلام (تعرّف إلى الله في الرخاء ، يعرفك في الشدة)[1] ومنها أن أكثر أهل النعمة لا يعلمون فتنة النعمة وسوء عاقبتها ، وببطر النعمة ، والاغترار بها تقسو قلوبهم ، وتستولي عليهم الغفلة وتطمئن نفوسهم بها ، وتنسى الآخرة والمولى * .

فمن نظر إلى التقدير علم أن الأمور الجارية على أهل العالم كلها على وفق الحكمة وعلى مقتضى المصلحة ﴿ **قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنفُسِهِمْ** ﴾ قل يامحمد لعبادي الذين أفرطوا في الجناية عليها بالإسراف في المعاصي ، وارتكاب الكبائر والفواحش ﴿ **لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ** ﴾ لا تيأسوا من مغفرته أولاً وتفضله ثانياً ، واليأس دليل الاحتجاب دليل واسوداد الوجه ، فالله تعالى يغفر الذنوب جميعاً بشرط بقاء نور التوحيد في القلب ، فإذا لم يبق دخل في قوله (**إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**) فالقنوط من أعظم المصائب ، وقد أمهل تعالى عباده تفضلاً منه إلى وقت الغرغرة ﴿ **إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ** ﴾ حال كونها ﴿ **جَمِيعاً** ﴾ كأنه قيل ما سبب النهي عن القنوط من الرحمة ؟ فأجيب بأن سبب النهي هو (**إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً**) عفواً لمن يشاء ولو بعد حين ، بتعذيب في الجملة أو بغير تعذيب حسبما يشاء ، فهو وعد بغفران الذنوب وإن كثرت قال عليه السلام (**إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ**

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد ، والترمذي ، والحاكم ، من وصية الرسول ﷺ لعبد الله بن عباس ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٤٠٠ .

الذُّنوبَ جَميعاً ولا يبالي إنَهُ هُوَ الغَفُور الرَّحِيمُ)[١] وقال عليه السلام (إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّاً : وأيُّ عَبْدٍ لَكَ أَلَمَّا)[٢] والفرقُ بين العفو والمغفرة ، هو أن حقيقة العفو هو : المحوُ ، كما أشير إليه بقوله تعالى (**إنَّ الحَسَنَات يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**) والتبديل الذي أُشير إليه بقوله (**فَأولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**) ثم قال في مقام التعليل ﴿ **إنّه** ﴾ تعالى ﴿ **هُوَ** ﴾ وحده ﴿ **الغَفُورُ الرَّحيمُ** ﴾ الأول إشارة إلى محو ما يوجب العقاب ، والثاني إلى التفضل بالثواب ، وصيغة المبالغة راجعة إلى كثرة الذنوب ، وكثرة المغفور والمرحوم ، والألف واللام في الذنوب للاستغراق والعموم ، وجميعاً تأكيد له فكأنه قال : أغفر ولا أترك ، وأعفو ولا أبقي ، فإن كانت لكم جناية كثيرة عميمة فلي بشأنكم عناية قديمة ، وقد ورد في مسند الإمام أحمد عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه عليه السلام قال (ما أحبُّ أن تكون لي الدنيا وما فيها بها)[٣] أي بهذه الآية ، وذلك لأن الله تعالى منَّ على من أسرف من عباده ، ووعد لهم مغفرة ذنوبهم جميعاً ، ونهاهم أن يقنطوا من رحمته الواسعة ، واعلم أن الآية لا تدل على غفران جميع الذنوب لجميع الناس ، بل على غفران جميع ذنوب من شاء الله غفران ذنوبه ، فلا تنافي الأمر بالتوبة ، وسبق تعذيب العصاة ، والأمر بالإخلاص في العمل والوعيد بالعذاب ، فالله تعالى لا يغفر الشرك إلا بالتوبة والرجوع عنه ، ويغفر ما دون ذلك من الصغائر والكبائر بالتوبة وبدونها لمن يشاء ، لا لكل أحد من أهل الذنوب ـ روي ـ أن ابن مسعود رضي الله عنه قرأ هذه الآية (إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعَاً لِمَنْ شَاءَ) فحمل المطلق على المقيَّد ، وذلك لأنه لا يجزي في ملكه إلا ما يشاء ، وأهل السنة لم يشترطوا التوبة في غفران الذنوب ، سواء كانت صغائر أو كبائر ، سوى الشرك ، ودل عليه آثار كثيرة ، روي أن الله يقول يوم القيامة لبعض عصاة المؤمنين « سترتها عليك في الدنيا أي الذنوب وأنا أغفرها لك اليوم » فهذا وأمثاله يدل على المغفرة بلا توبة ، والفرق بين الشرك وسائر المعاصي هو أن الكافر لا يطلب العفو والمغفرة لمعاصيه ، لأنه غارقٌ في الكفر ، ولاذنب بعد كفر ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزأ واحداً ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها وهو يمصُّ أن تصيبه)[٤] فهذا مما يدل على كمال الرجاء والبشارة للمسلمين ، لأنه حصل في هذه الدار من رحمة واحدة ما حصل من النعم الظاهرة والباطنة ، فما ظنك بمائة رحمة في الدار الآخرة ؟!

---

(١) رواه الترمذي وهو جزء من حديث شريف ، وانظر جامع الأصول ٢ / ٣٣٨ .

(٢) رواه الترمذي في كتاب التفسير « سورة النجم » وقال : حسن صحيح ، وانظر جام الأصول ٢ / ٣٧٢ .

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٥ .

(٤) رواه البخاري ،ومسلم ، والترمذي ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٥٢٠ .

﴿ **وأَنيبُوا** ﴾ يا عبادي ﴿ **إِلَىٰ رَبِّكُمْ** ﴾ أي ارجعوا إلى ربكم بالتوبة من المعاصي ﴿ **وَأَسْلِمُوا لَهُ** ﴾ أي أخلصوا العمل لوجهه ، فإن السالم بمعنى الخالص ﴿ **مِنْ قَبلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ** ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ **ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ** ﴾ لا تمنعون من عذاب الله إن لم تتوبوا قبل نزوله ، والظاهر من آخر الآية أن الخطاب للكفار ، فالمعنى فارجعوا أيها الناس من الشرك إلى الإيمان ، وأخلصوا له تعالى التوحيد والفرق بين التوبة والإنابة أن التائب يرجع إلى الله خوفاً من العقوبة ، والمنيب يرجع حياء منه ، وشوقاً إليه ﴿ **واتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إليكُم مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ أي القرآن كقوله تعالى (**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَديثِ**) أو العزائم دون الرخص ، أو ما هو أنجى وأسلم ، كالإنابة والمواظبة على الطاعة ، وقال الحسن : الزموا طاعته ، واجتنبوا معصيته ، فإن الذي أنزل عليكم من ثلاثة أوجه : ذكر القبيح لتجتنبوه ، وذكر الأحسن لتؤثروه ، وذكر الأوسط لئلا يكون عليكم جناح في الإقبال عليه ، أو الإعراض عنه وهو المباحات ﴿ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذابُ** ﴾ أي البلاء والعقوبة ﴿ **بَغْتَةً** ﴾ قال الراغب : البغتة مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب ، ويجوز أن يكون المراد بالعذاب الآتي بغتة هو الموت ، لأنه مفتاح العذاب الأخروي وطريقه متصل به ﴿ وأَنتُمْ ﴾ لغفلتكم ﴿ **لاتَشْعُرونَ** ﴾ لا تدركون بالحواس مجيئه لتتداركوا وتتأهبوا له ﴿ **أَنْ تَقولَ نَفْسٌ** ﴾ مفعول له للأفعال السابقة التي هي الإنابة والإخلاص واتباع القرآن ، والتنكير لأن القائل بعض الأنفس ، أو للتكثير والتعميم ليشيع في كل النفوس ، والمعنى افعلوا ما ذكر من المأمورات كراهة أن تقول كل نفس ﴿ **ياحَسْرَتا** ﴾ بالألف بدلاً من ياء الإضافة ، إذ أصله ياحسرتي ، تقول العرب : ياحسرتي ويالهفتي ، وياحسرتي ويالهفتا ، وياحسرتاي ويالهفتاي بالجمع بين العوضين تقول هذه الكلمة في نداء الاستغاثة ، والحسرةُ : الغمُّ على ما فاته ، والندم عليه كأنه انحسر الجهل عنه الذي حمله على ما ارتكبه ، وقال بعضهم : الحسرة أن تأسف النفس أسفاً تبقى منه حسيرة أي منقطعة . ﴿ **عَلَى مَا فَرَّطْتُ** ﴾ أي على تفريطي وتقصيري . قال الراغب : الإفراط أن يسرف في التقدم ، والتفريط أن يُقصِّر ، فإن الفرط المتقدم ﴿ **في جَنْبِ اللهِ** ﴾ في جانبه وهو طاعته وإقامة حقه وسلوك طريقه وقال الراغب : أصل الجنب الجارحة جمعه جنوب ، ثم استعير في الناحية التي تليها كاستعارة سائر الجوارح لذلك نحو اليمين والشمال ، وقيل : جنب الحائط وجانبه ، وقوله (في جَنْبِ الله) أي في أمر شرعه الذي حدَّه لنا ﴿ **وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ** ﴾ والمعنى : فرطت والحال أني كنت في الدنيا من المستهزئين بدين الله وأهله ، قال قتادة : لم يكفهم ما ضيَّعوا من طاعة الله ، حتى سخروا بأهل طاعته .

﴿ **أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي** ﴾ بالإشارة إلى الحق ﴿ **لَكُنْتُ مِنَ المتَّقِينَ** ﴾ مِنَ الشرك والمعاصي وفي الخبر (ما من أحد من أهل النار يدخل النار ، حتى يرى مقعده من الجنة فيقول « لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَاني

لكنت من المتقين » فتكون عليه حسرة)[1] ﴿ **أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ** ﴾ عياناً ومشاهدة ﴿ **لَوْ أَنَّ لِي** ﴾ لو للتمني ﴿ **كَرَّةً** ﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿ **فَأَكُونَ** ﴾ بالنصب جواب التمني ﴿ **مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ في العقيدة والعمل ، و «أو» للدلالة على أنها لا تخلوا عن هذه الأقوال ، تحيراً وتعللاً بما لا طائل تحته ، وندماً حيث لا ينفع ، وقيل ، إن قوماً يقولون هذا ، وقوماً يقولون ذاك ﴿ **بَلَىٰ** ﴾ بَلى مختصة بإيجاب النفي ، فكأن الإنسان يقول : لو أن الله هداني لكنت من المتقين ، ولكن ما هداني ، فقال تعالى : بلى قد هديتُك ، و ﴿ **قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي** ﴾ آيات القرآن ، وهي سبب الهداية ، يتمنى الإنسان في ذلك اليوم ، أن لو رُدَّ إلى الدنيا ليحسن العمل ، ولكنْ هيهاتَ ، فقد فات الأوان ، وانقضى الزمان .

روي أن النبي عليه السلام قرأ (قَدْ جَاءَتْكِ) بالتأنيث ، وكذا ما بعدها خطاباً للنفس ﴿ **فَكَذَّبْتَ بِهَا** ﴾ قلت إنها ليست من الله ﴿ **وَاسْتَكْبَرْتَ** ﴾ تعظَّمْتَ عن الإيمان بها ﴿ **وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾ بها ، وقيل : ﴿ **بلى قد جاءتك آياتي**) من الأنبياء ومعجزاتهم ، والكتب وحكمها ومواعظها وأسرارها وحقائقها ودقائقها (**فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ**) عن اتِّباعها والقيام بشرائطها (**وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ**) أي كافري النعمة بما أنعم الله به عليك من نعمة وجود الأنبياء ، وإنزال الكتب ، وإظهار المعجزات ﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ** ﴾ بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه ، كاتخاذ الولد والصاحبة والشريك ﴿ **وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ** ﴾ والمعنى تراهم حال كونهم وجوههم سوداء ، أو تراهم مسودة الوجوه بما ينالهم من الشدة أو بما يتخيل من ظلمة الجهل ، يشير إلى أن يوم القيامة تكون الوجوه بلون القلب ، فالقلوب الكاذبة لما كانت مسودة بسواد الكذب وظلمته ، تلوَّنتْ وجوههم بلون القلوب ، قال يوسف بن الحسين : أشد الناس عذاباً يوم القيامة ، من ادَّعى في الله ما لم يكن له ذلك ، أو أظهر من أحواله ما هو خال عنها ﴿ **أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى** ﴾ مقام ﴿ **لِلْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾ عن الإيمان والطاعة ﴿ **وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا** ﴾ الشرك والمعاصي أي من جهنم ﴿ **بِمَفَازَتِهِمْ** ﴾ أي ينجيهم الله من مثوى المتكبرين حال كونهم ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم الذي هو الجنة ﴿ **لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ حال أخرى من الموصول ، مفيدٌ لكون نجاتهم وفوزهم بالجنة ، غير مسبوقٍ بمساس العذاب والحزن ، قيل : لا يمس أبدانهم أذى ، وقلوبهم حزن ، ويجوز أن يكون المعنى : بسبب مفازتهم التي هي تقواهم ، كما يشعر به إيراده في حيز الصلة ، وإما على إطلاق المفازة على سببها الذي هو التقوى ، فليس المراد نفي دوام المساس والحزن بل المرادُ دوامُ السرور ، وفي الآية ترغيب للتقوى فإنها سبب للنجاة ، وبها تقول جهنم (جز يامؤمن

---

(١) رواه أحمد والنسائي بلفظ (كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول « لو أن الله هداني لكنت من المتقين » فتكون عليه حسرة ..) الحديث وانظر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ٣ / ٢٧٧ .

فإن نورك أطفأ ناري) ، وبها يخاف الخلائق من المتقي ، ألا ترى أن رسول الروم ، لَمّا دخل على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، أخذته الرعدة والخوف ، نسأل الله سبحانه أن يجعلنا مخلصين له ﴿ **اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ من خير وشر ، وإيمان وكفر ، لكن لا بالجبر بل بمباشرة الكاسب لأسبابها ، قال في التأويلات النجمية : دخل أفعال العباد وأكسابهم في هذه الجملة ، ولا يدخل تعالى وكلامه فيها لأن المخاطب لا يدخل تحت الخطاب ، ولأنه تعالى يخلق الأشياء بكلامه وهو كلمة كن ﴿ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾ يتولى التصرف فيه كيفما يشاء ، والوكيل القائم على الأمر المتكفل بإكماله ، والله تعالى هو المتكفّل بمصالح عباده ، والكافي لهم في كل أمر ، ومن عرف أنه الوكيل اكتفى به في كل أمره ، فلم يدبر معه ولم يعتمد إلا عليه ﴿ **لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ** ﴾ جمع مقلاد وهو المفتاح ، والمعنى : له تعالى وحده مفاتيح خزائن العالم العُلْويّ والسفلي ، لا يتمكن من التصرف فيها غيره ، وعن عثمان رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن المقاليد فقال : تفسيرها لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير)[1] والمعنى على هذا أن لله هذه الكلمات يُوحَّد بها ويُمجَّد بها وهي مفاتيح خير السموات والأرض من تكلم بها أصابه ، وفي الخبر أن رسول الله عليه السلام قال (أُتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض ، فَعُرِضتْ عليّ فقلتُ : لا ، بل أجوع يوماً وأشبع يوماً)[2] يعني لا يملك أحد مفاتيح خزائن لطفه وقهره إلا هو ، وهو الفتاح وبيده المفتاح ، يفتح على من يشاء خزائن لطفه ، فيخرج ينابيع الحكمة من قلبه ، وجواهر الأخلاق الحسنة ، ويفتح على من يشاء أبواب خزائن قهره في نفسه ، فيخرج عيون المكر والخداع والحيل منها ، وفنون الأوصاف الذميمة ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ** ﴾ التنزيلية والتكوينية المنصوبة في الآفاق والأنفس ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ خسراناً لا خسار وراءه ، لأنهم اختاروا العقوبة على الثواب، وفتحوا أبواب نفوسهم بمفتاح الكفر والنفاق ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن ربحت تجارته لا ممن خسرت صفقته ﴿ **قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ** ﴾ أي بعد مشاهدة هذه الآيات أفغير الله تأمرونني أن أعبد أيها الجاهلون ؟ و « تأْمُرُونِّي » اعتراضٌ للدلالة على أنهم أمروه عقيب ذلك بأن يعبد غير الله ، وقالوا استلم آلهتنا نؤمن بإلهك لفرط غباوتهم ، وأصله تأمرونني بإظهار النونين ، ثم أدغمت أولاهما وهي علم الرفع ، في الثانية وهي للوقاية فإنها تحذف كثيراً ﴿ **وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ** ﴾ أي من الرسل عليهم السلام ﴿ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ** ﴾ فَرَضاً ، وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد

---

(١) هذا روي عن سعد بن جبير أن الباقيات الصالحات (سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ..) وانظر ابن كثير ٢ / ٤٢١ .

(٢) رواه أحمد والترمذي بلفظ (عرض ربي عليّ ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، فقلت : لا يارب ، ولكني أشبع يوماً وأجوع يوماً ، فإذا جعتُ تضرعت إليك ..) وانظرالفتح الكبير ٢ / ٢٢٨ .

﴿ **لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** ﴾ أي ليبطلن ثواب عملك وإن كنت كريماً عليَّ ﴿ **وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ** ﴾ في صفقتك بسبب حبوط عملك ، وهو كلام وارد على طريقة الفرض ، لتهييج الرسل وإقناط الكفرة والإيذان بغاية شناعة الإشراك ، وقبحه ، وكونه بحيث يُنْهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره ، فكيف بمن عداه ؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هذا أدب من الله لنبيه عليه السلام وتهديد لغيره ، لأن الله تعالى قد عصمه من الشرك ومداهنة الكفار ، وإطلاق الإحباط من غير تقييد بالموت على الكفر يحتمل أن يكون من خصائصهم لأن الإشراك منهم أشد وأقبح ، وأن يكون مقيداً بالموت كما صرح به في قوله تعالى (**وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ**) فيكون حملاً للمطلق على المقيد ، فمذهب الشافعي أن نفس الكفر غير محبط عنده ، بل المحبط الموت على الكفر ، وأما عند غيره فنفس الكفر محبط سواء مات عليه أم لم يمت ، وفي المفردات : حَبْطُ العمل على أضرب : أحدها : أن تكون الأعمال دنيوية فلا تغني في الآخرة غناء كما أشار إليه تعالى بقوله (**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً**). **والثاني** : أن تكون أعمالاً أخروية لكن لم يقصد صاحبها بها وجه الله تعالى كما روي (يؤتي برجل يوم القيامة فيقال له بم كان اشتغالك ؟ فيقول بقراءة القرآن ،فيقال له كنت تقرأ ليقال فلان قارىء وقد قيل ذلك فيؤمر به إلى النار)[1] . **والثالث** : أن تكون أعمالاً صالحة لكن بإزائها سيئات تربي عليها ، وذلك هو المشار إليه بخفة الميزان انتهى . وعطف الخسران على الحبوط من عطف المسبب على السبب ﴿ **بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ** ﴾ رد لما أمروه ، تقديره لاتعبد ما أمرك الكفار بعبادته ، بل إن عبدت فاعبد الله ، فحذف الشرط وأُقيم المفعول مقامه ﴿ **وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ إنعامه عليك ومن جملته التوحيد والعبادة ، وكذا النبوة والرسالة الحاصلتان بفضله وكرمه لا بسعيك وعملك ، واعلم أن الشكر على ثلاث درجات : الأول الشكر على المحابّ ، وقد شاركت المسلمين في هذا الشكر اليهود والنصارى والمجوس . والثانية الشكر على المكاره ، وهذا الشاكر أول من يدعى إلى الجنة لأن الجنة حفت بالمكاره ، والثالثة أن لا يَشْهَد غير المنعم فلا يشهد النعمة والشدة ، ويرضى بحكمه وقضائه ، فالعاقل يجتهد في الإقبال على الله ، والتوجه إليه من غير التفاتٍ إلى يمين وشمال .

روي عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أن حبراً من اليهود أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال يامحمد : « أشعرتَ أن الله يضع يوم القيامة السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والماء والثرى والشجر على إصبع ، وجميع الخلائق على إصبع ، ثم يهزهنّ ويقول

---

(١) الحديثُ روي هنا بالمعنى ، وهو أحدِ الثلاثة الذين تُسعَّر بهم نار جهنم ، وقد رواه مسلم ، والنسائي ، والترمذي بلفظ (إن أول الناس يُقْضَىٰ يوم القيامة عليه ..) الحديث وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ١ / ٦١ .

أنا الملك أين الملوك ؟ فضحك رسول الله ﷺ تعجباً منه فأنزل الله هذه الآية[١] وهي قوله تعالى ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ القَدْرُ بمعنى التعظيم كما في القاموس فالمعنى ما عظَّموا الله حق تعظيمه ، حيث جعلوا له شريكاً بما لا يليق بشأنه العظيم ، ويقال قدر الشيء قدره من التقدير فالمعنى ما قدروا عظمته تعالى في أنفسهم حق عظمته ، وقال الراغب في المفردات : ما عرفوا كنهه وماعرفوا الله حق معرفته ، وما وصفوه حق وصفه ، وما عظموه حق تعظيمه،فمن اتصف بتمثيل ، أو جنح إلى تعطيل ، حاد عن السنة المثلى ، وانحرف عن الطريقة الحسنى ﴿ **وَالأَرْضُ جَمِيعاً** ﴾ حالٌ لفظاً وتأكيدٌ معنى ، ولذا قال أهل التفسير تأكيد الأرض بالجميع لأن بها الأرضون السبع ، أو جميع أبعاضها البادية وغير الظاهرة من باطنها وظاهرها ووسطها ، قولُه « والأرضُ » مبتدأ خبره قوله ﴿ **قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيٰمَةِ** ﴾ وفي المفردات القبض التناول بجميع الكف نحو قبض السيف وغيره ، ويستعار القبض لتحصيل الشيء وإن لم يكن فيه مراعاة الكف كقوله قبضت الدار من فلان أي حُزْتُها قال الله تعالى ﴿ **وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتَهُ** ﴾ أي فى حوزه حيث لا تمليك للعبد انتهى تقول للرجل : هذا في يدك وفي قبضتك أي في ملكك وإن لم يقبض عليه بيده ، والمعنى والأرض جميعاً في ملكه وتصرفه من غير منازع ، يتصرف فيها تصرف الملاك في ملكهم ، وأنها أي جميع الأرضين وإن عظمن فما هن بالنسبة إلى قدرته تعالى إلا قبضة واحدة ، ففيه تنبيه على غاية عظمته وكمال قدرته ، وحقارة الأفعال العظام بالنسبة إلى جلاله وسلطانه ، ودلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه ، على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة حقيقة ولا مجازاً على ما في الإرشاد ونحوه وعلى هذه الطريقة قوله تعالى ﴿ **والسّمواتُ** ﴾ مبتدأ ﴿ **مَطْوِيَّاتٌ** ﴾ خبره ﴿ **بِيَمِينِهِ** ﴾ متعلق بمطويَّاتٌ أي مجموعات ومدرجات ، من طويت الشيء طيَّاً أي أدرجته إدراجاً أو مهلكات من الطي بمعنى مضي العمر يقال طوى الله عمره . قال ابن عباس رضي الله عنهما « ما السموات السبع وما الأرضون السبع في يد الله إلا كخردلة في يد احدكم » قال بعضهم : الآية من المتشابهات فلا مساغ لتأويلها وتفسيرها ، غير الإيمان بها كما قال تعالى (**والرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولونَ آمنّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا**)[٢] ﴿ **سُبْحَانَه وَتَعَالىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ أي ما أبعد وما أعلى مَنْ هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم وما يشركونه من الشركاء ؟ ﴿ **ونُفِخَ فِي الصُّورِ** ﴾ المراد النفخة الأولى التي هي للإماتة بقرينة النفخة الآتية التي هي للبعث ، والنفخُ : نفخ الريح في الشيء : يقال نفخ بفمه أخرج منه الريح ، والنفخ في القرآن على خمسة أوجه ، الأول : نفخ جبريل عليه السلام في جيب مريم عليها السلام

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢ / ٢٢٨ من المختصر .

(٢) هذا قول السلف وعليه المعوّل ، فنومنُ بالآية من غير تمثيل ولا تعطيل ، ولا تشبيه ولا تأويل ، ونَدَعُ الخوض فيها ، وكما قال ابن عباس : ما السموات السبع والأرضون السبع في يد الله ، إلا كخردلة في يد أحدكم » فاللهُ أعلى وأجلُّ من أن يحيط به عقلٌ قاصر .

كما قال تعالى (**فَنفخنا فيه مِنْ رُوحِنَا**) أي نفخ جبرائيل في الجيب بأمرنا ، فسبحان من أحبل رحم امرأة وأوجد فيها ولداً بنفخ جبرائيل ، والثاني نفخ عيسى بن مريم عليه السلام في الطين كما قال تعالى (**فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرَاً بِإِذْنِ اللهِ**) فسبحان من حوَّل الطين طيراً بنفخ عيسى والثالث نفخ الله تعالى في طين آدم عليه السلام كما قال تعالى (**وَنَفخْتُ فيهِ مِنْ روحِي**) أي أمرت الروح بالدخول فيه والتعلق به ، فسبحان من أنطق لحماً ، وأبصر شحماً ، وأسمع عظماً ، وأحيا جسداً بروح منه ، والرابع نفخ ذي القرنين الحديد في النار كما قال تعالى حكاية عنه (**قَالَ انْفُخُوا**) الآية فسبحان من حول قطعة من حديد ناراً بنفخ ذي القرنين ، والخامس نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور كما قال تعالى (**وَنُفِخَ في الصُّور**) فسبحان من أخرج الأرواح من الأبدان بنفخ واحد ، كما يطفأ السراج بنفخ واحد وتوقد النار بنفخ واحد ، وسبحان من رد الأرواح إلى الأبدان بنفخ واحد ، وهذا كله دليل على قدرته التامة العامة . والصور قرن من نور ألقمه الله إسرافيل ﴿ **فَصَعِقَ مَنْ في السَّمٰواتِ ومَنْ في الأرْضِ** ﴾ يقال صعق الرجل إذا أصابه فزع فأُغْمي عليه ، وربما مات منه ثم استعمل في الموت كثيراً ، فالمعنى خروا أمواتاً من الفزع وشدة الصوت ﴿ **إلاَّ منْ شَاءَ اللهُ** ﴾ جبرائيل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت عليهم السلام فإنهم يموتون من بعد ، فلا يبقى في الملك حي من إنس أو جن وملك وغيرهم إلا الله الواحد القهار ، فالموت عام لكل واحد ، إذ لو بقى أحد لأجاب الله تعالى حيث يقول (لمن الملك اليوم) ؟ فقال : لله الواحد القهار ، فإن قلت : فما الفرق بين الصعق الذي في هذه الآية وبين الفزع الذي في آية النمل وهي قوله تعالى (**وَيَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ في السَموات وَمَنْ فِي الأرْضِ**) قلتُ : لاشك أن الصَّعْقَ بمعنى الموت غير الفزع ، وكذا بمعنى الغشي إذ ليس كل من يفزع يكون مغشيَّاً عليه ﴿ **ثُمَّ نُفِخَ فِيه أُخْرى** ﴾ نفخة أخرى هي النفخة الثانية على الوجه الأول ﴿ **فَإذَا هُمْ** ﴾ أي جميع الخلائق ﴿ **قِيامٌ** ﴾ جمع قائم أي قائمون من قبورهم على أرجلهم ، أو متوقفون ، فالقيام بمعنى الوقوف والجمود في مكانهم لتحيرهم ﴿ **يَنْظُرُونَ** ﴾ يقلبون أبصارهم في الجوانب كالمبهوتين ، أو ينتظرون ماذا يفعل بهم ، ويقال ينظرون إلى السماء كيف غيرت ؟ وإلى الأرض كيف بُدِّلت ؟ وإلى الداعي كيف يدعوهم إلى الحساب ؟ وإلى الآباء والأمهات كيف ذهبت شفقتهم عنهم واشتغلوا بأنفسهم ؟ وإلى خصمائهم ماذا يفعلون بهم ؟ وفي الحديث (أنا أوَّلُ من ينشق عنه القبر)[1] وأول من يحيا من الملائكة إسرافيل لينفخ في الصور ، وأول من يستظل في ظل العرش رجل أنظر معسراً ومحا عنه ، وأول من يرد الحوض فقراء الأمة والمتحابون في الله ، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل عليه السلام ، لأنه أُلْقِيَ في النار عرياناً .

---

(١) طرف من حديث شريف أخرجه الترمذي في سننه ، وأوله (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ..) الحديث وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٢٦ .

وأول من يكسى حلة من النار إبليس ، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء ، وأول ما يحاسب به الرجل صلاته . وأول ما تسأل المرأة عن صلاتها وبعلها . وأول ما يسأل العبد يوم القيامة عن النعيم بأن يقال له ألم أصحح جسمك ، وأروك من الماء البارد ؟ وأول ما يوضع في الميزان الخُلُق الحسن ، وأول ما يوضع في ميزان العبد نفقته على أهله ، وأول ما يتكلم من الآدمي فخذه وكفه ، وأول خصمين جاران ، وأول من يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء . وأول من يدخل الجنة من هذه الأمة أبو بكر رضي الله عنه ، وأول من يسلم عليه الحق ويصافحه عمر رضي الله عنه ، وأول من يدخل من الأغنياء عبد الرحمن بن عوف من العشرة المبشرين بالجنة)[1] ، قال في المدارك : دلت الآية على أن النفخة اثنتان : الأولى للموت ، والثانية للبعث ، والجمهور على أنها ثلاث : الأولى للفزع كما قال ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ** ﴾ والثانية للموت ، والثالثة للإعادة انتهى فإن كانت النفخة اثنتين يكون معنى صعق خروا أمواتاً ، وإن كانت ثلاثاً يكون معناه مغشياً عليهم فتكون هذه النفخة أي الثالثة بعد نفخة الإحياء يوم القيامة كما ذهب إليه البعض ، وقال سعد المفتي : دل ظاهر الأحاديث على أن النفخات أربع المذكورتان في سورة يس للإماتة ثم الإحياء ، ونفخة للإرعاب والإرهاب فيغشى عليهم ، ثم للإفاقة والإيقاظ ، والذي يفهم من خريدة العجائب أن نفخة الفزع هي أولى النفخات فإنه إذا وقعت أشراط الساعة ومضتْ ، أمر اللهُ صاحب الصور أن ينفخ نفخة الفزع ويديمها ويطوّلها ، فلا يبرح يزداد الصوت كل يوم شدة ، فيفزع الخلائق وينحازون إلى أمهات الأمصار ، وتُعطّل الرعاة السوائم ، وتأتي الوحوش والسباع وهي مذعورة من هول الصيحة فتختلط بالناس ، ويؤول الأمر إلى تغير الأرض والسماء عما هما عليه ، وبين نفخة الفزع والنفخة الثانية أربعون سنة ، فإذا أراد الله إحياء الخلق فتمطر السماءُ الأرضَ فتحيا وتهتز ولا يزال المطر عليها حتى يعمها فإذا الأجسام تنبت من عَجْب الذنب ، وهو أول ما يخلق من الإنسان ، بدىء منه ومنه يعود ، وهو عظم على قدر الحمصة لا يبلى من الإنسان كما ورد في الحديث ، وتبقى الأرض بارزة مستوية كأنها صحيفة واحدة ، ثم يحيي الله إسرافيل فينفخ الصور من صخرة بيت المقدس ، فتخرج الأرواح لها دويّ كدويّ النحل فتملأ الخفاقين ، ثم تذهب كل نفس إلى جثتها بإعلام الله تعالى حتى الوحش والطير وكل ذي روح ، فإذا الكل قيام ينظرون ، ثم يفعل الله بهم ما يشاء .

﴿ **وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ** ﴾ صارت عرصات القيامة مشرقة ومضيئة ﴿ **بِنُورِ رَبِّهَا** ﴾ النور الضوء المنتشر المعين على الإبصار أي بما أقام فيها من العدل ، استعير له لأنه يزين البقاع ويظهر الحقوق ، كما

---

(١) لم يرد بهذه الصيغة حديث شريف ، وإنما جمع الشيخ ما ورد من أوائل في أحاديث متفرقة مثل حديث (أول من يُكسى يوم القيامة إبراهيمُ) وحديث (أول ما يسأل عنه العبد في القبر الصلاة ..) إلخ .

يُسمَّى الظلم ظلمة وفي الحديث (الظلم ظلمات يوم القيامة)[1] يعني شدائده يعني الظلم سبب لشدائد صاحبه ، أو الظلم سبب لبقاء الظالم في الظلمة حقيقة ، فلا يهتدي إلى السبيل حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم ، ولكون المراد بالنور العدل ، أُضيف الاسم الجليل إلى ضمير الأرض ، فإن تلك الإضافة إنما تحسن إذا أريد به تزين الأرض بما ينشر فيها من الحكم والعدل ، أو المعنى أشرقت بنور جلال الله في الأرض يوم القيامة ، بلا توسط أجسام مضيئة كما في الدنيا ، يعني يشرق بذلك النور وجه الأرض المبدلة بلا شمس ولا قمر ، ولا غيرهما من الأجرام المنيرة ولذلك أي ولكون المعنى ذلك أضيف النُّورُ إلى الاسم الجليل ﴿ **وَوُضِعَ الكِتَابُ** ﴾ أي الحسابِ والجزاء ، من وَضَع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه ، أو صحائف الأعمال في أيدي العمال في الأيْمان والشمائل ، واكتفى باسم الجنس عن الجمع ، إذ لكل واحد كتاب على حدة ﴿ **وَجِيءَ بالنَّبِيِّينَ** ﴾ الباء للتعدية ﴿ **والشهداء** ﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم ، من الملائكة والمؤمنين ، وفيه إشارة إلى أن النبيين والشهداء ، إذا دعوا للقضاء والحكومة والمحاسبة ، فكيف يكون حال الأمم وأهل المعاصي والذنوب ؟

﴿ **وقُضِيَ بَيْنَهُمْ** ﴾ أي بين العباد ﴿ **بِالحقِّ** ﴾ بالعدل ﴿ **وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ بنقص ثواب ، وزيادة عقاب ، على ما جرى به الوعد ، وكما فتح الآية بإثبات العدل ختمها بنفي الظلم ﴿ **وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ** ﴾ من النفوس المكلفة ﴿ **مَا عَمِلَتْ** ﴾ أي جَزاء ما عملت من الخير والشر ، والطاعة والمعصية ﴿ **وَهُوَ** ﴾ تعالى ﴿ **أَعْلَمُ** ﴾ منهم من الشهداء ﴿ **بِمَا يَفْعلونَ** ﴾ إذ هو خالق الأفعال فلا يفوته شيء من أفعالهم ، وإنما يدعو الشهداء لتأكيد الحجة عليهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا كان يوم القيامة ، بدّل الله الأرض غير الأرض ، وزاد في عرضها وطولها كذا وكذا ، فإذا استقرَّت عليها أقدام الخلائق ، برّهم وفاجرهم ، أسمعهم الله كلامه يقول : إن كتّابي كانوا يكتبون ما أظهرتم ، ولم يكن لهم علم بما أسررتم ، فأنا عالم بما أظهرتم وبما أسررتم ، ومحاسبكم اليوم على ما أظهرتم وعلى ما أسررتم ، ثم أغفر لمن أشاء منكم ، قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : المَلَك لا سبيل له إلى معرفة باطن العبد في قول أكثرهم ، ولاشك أن الحفظة تستملي من خزنة اللوح المحفوظ ، فيعرفون كل ما وقع من العبد من فعلٍ ظاهر ، وعزم باطن ، ولكن يجوز أن يكون من الأسرار مالا يطلع عليه غيره سبحانه وتعالى ، واعلم أنه إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى أين اللوح المحفوظ ؟ فيؤتى به وله صوت شديد ، فيقول الله : أين ما سَطَّرتُ فيك من توراة وزبور وإنجيل وفرقان ؟ فيقول يا رب نقله مني الروح الأمين ، فيؤتى به وهو يرعد وتصطك ركبتاه ، فيقول الله تعالى : ياجبرائيل هذا اللوح يزعم أنك نقلت منه كلامي ووحي

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه والترمذي في سننه ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٧١٤ .

أصَدَقَ ؟ فيقول نعم يارب ، فيقول فما فعلت فيه فيقول أنهيت التوراة إلى موسى ، والزبور إلى داود، والإنجيل إلى عيسى ، والقرآن إلى محمد صلى الله تعالى وسلم عليهم أجمعين ، وأنهيت إلى كل رسول رسالته ، وإلى أهل الصحف صحائفهم ، فإذا النداء يا نوح فيؤتى به ترعد فرائصه وتصطك ركبتاه فيقول يا نوح زعم جبرائيل أنك من المرسلين قال صدق يا رب فقال فما فعلت مع قومك قال دعوتهم ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ، فإذا النداء ياقوم نوح فيؤتى بهم زمرة واحدة فيقول لهم هذا نوح زعم أنه بلغكم الرسالة فيقولون يارب ما بلّغنا شيئاً ، ثم ينكرون الرسالة ، ثم يقول الله تعالى يانوح ألك بينة عليهم فيقول نعم يا رب بيّنتي محمد ﷺ وأمته ، فيقولون : كيف ذلك ونحن أول الأمم وهم آخر الأمم ؟ فيؤتى بالنبي عليه السلام فيقول الله تعالى يامحمد هذا نوح يستشهد بك فيشهد له بتبليغ الرسالة ويتلو (**إنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إلى قَوْمِهِ**) إلى آخر السورة فيقول الله تعالى قد وجب عليكم الحق ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين ، فيؤمر بهم زمرة واحدة إلى النار ، من غير وزن أعمال ووضع حساب ، وهكذا يفعل بسائر الأمم أجمعين ، فإن القرآن نطق بهم وبأحوالهم ، وقد ورد أن رجلاً يقف بين يدي الله فيقول يا عبد السوء كنت مجرماً عاصياً ، فيقول لا والله ما فعلت ، فيقال له عليك بيِّنةٌ فيؤمر بحفظته ، فيقول : كذبوا عليّ ، فتشهد جوارحه عليه ويؤمر به إلى النار ، فيجعل يلوم جوارحه فيقولون ليس من اختيارنا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء[1]، وهكذا يشهد الزمان والمكان ونحوهما ، فطريق الخلاص أن تشتغل بذكره وطاعته عما سواه ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ** ﴾ مع إمامهم حال كونهم ﴿ **زُمَراً** ﴾ جماعة جماعة ، جمع زمرة وهي الجمع القليل ، واشتقاقها من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه أي سيقوا إليها بعد إقامة الحساب من قبلنا ، وذلك بالعنف والإهانة حال كونهم أفواجاً متفرقة بعضها في إثر بعض ، مترتبة حسب ترتب طبقاتهم في الضلالة والشرارة ، وتتلقاهم جهنم بالعبوسة كما تلقوا الأوامر والنواهي والآمرين والناهين بمثل ذلك ﴿ **حتَّى إذا جَاؤُهَا** ﴾ وجواب إذا قوله ﴿ **فُتِحَتْ أَبْوابُها** ﴾ السبعة ليدخلوها كما قال تعالى (**لها سَبْعَةُ أَبْوابٍ**) وفائدة إغلاقها إلى وقت مجيئهم ، تهويل شأنها وإيقاد حرها ، قيل : أهل النار يجدونها مغلقة الأبواب كما هي حال السجون فيقفون هناك حتى تفتح لهم إهانة لهم وتوبيخاً ، وهذا من قبيل العذاب الروحاني وهو أشد من العذاب الجسماني ، فليس وقوفهم عند الأبواب أولى لهم من تعجيل العذاب ، يؤيده أن الكافر حين يطول قيامه في شدة وزحمة وهول ، يقول يا رب أرحني ولو كان في النار ﴿ **وَقَالَ لَهُم خَزَنَتُهَا** ﴾ تقريعاً وتوبيخاً وزيادة في الإيلام والتوجيع ، واحدها خازن وهو حافظ الخزانة وما فيها ، والمراد حفظة جهنم وزبانيتها ، وهم الملائكة

(١) هذا معنى حديث صحيح أخرجه مسلم والنسائي والبزار ، ولم يورده المصنف بلفظه وإنما أورده بالمعنى ، وانظر الحديث في مختصر ابن كثير ٣ / ٢٦٠ . ولفظه « ضحكَ رسولُ الله ﷺ ذات يومٍ . ثم قال : عجبتُ من مجادلة العبد ربَّه يوم القيامة .. » .

الموكلون بتعذيب أهلها ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ من جنسكم آدميون مثلكم ليسهل عليكم مراجعتهم وفهم كلامهم ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُم آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ وهو ما أنزل الله على الأنبياء ﴿ وَيُنْذِرُونَكُمْ ﴾ يخوفونكم ﴿ لِقَاءَ يَوْمِكُم هَذا ﴾ أي وقتكم هذا ، وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة ، وذلك لأن الإضافة اللامية تفيد الاختصاص ليوم القيامة بالكفار ، وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضاً في أوقات الشدة ، فلذلك حمل على الوقت ، وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع ، من حيث إنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ قد أتونا وتلوا علينا ، وأنذرونا ، فأقرّوا في وقت لا ينفعهم الإقرار والإعتراف ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ ﴾ وجبت ﴿ كَلِمَةُ العَذَابِ ﴾ وهي قوله تعالى لإبليس (لأَمْلأَنَّ جَهَنَّم مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) ﴿ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ وقد كنا ممن تبع إبليس ، فكذبنا الرسل وقلنا ما نزّل الله من شيء إن أنتم إلاّ تكذبون . ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي مقدَّراً خلودكم فيها ، وإبهام القائل لتهويل المقول .

﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي بئس منزل المتكبرينَ عن الإيمان والطاعة ، واللام للجنس ، ولا يقدح ما فيه من الإشعار بأن كونهم مثواهم جهنم لتكبرهم عن الحق ، فإنَّ دخولهم النار بسبق كلمة العذاب عليهم ، فهي إنما حقت عليهم بناء على تكبرهم وكفرهم ، فتكبرهم وسائر مقابحهم مسببة عن ذلك السبق ، وفيه إشارة إلى أن العصاة صنفان : صنف متكبرون وهم المصرون متابعوا إبليس فلهم الخلود في النار ، وصنف منهم متواضعون وهم التائبون متابعوا آدم فلهم النجاة ، وبهذا الدليل ثبت أن ليس ذنب أكبر بعد الشرك من الكِبْر ، بل الشرك أيضاً يتولد من الكبر كما قال تعالى (أَبَىٰ واسْتَكْبَرَ وكانَ مِنَ الكَافِرِينَ) وهذا تحقيق قوله تعالى في الحديث القدسي (الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني فيهما ألقيته في النار) [1] ولهذا المعنى قال ﷺ (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر ، فقال رجل : إن الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ؟ فقال ﷺ : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس[2]) أي تضييع الحق في أوامر الله ونواهيه ، واستحقار الناس وتعييبهم ، والحديث واردٌ بطريق التغليظ والتشديد ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُم إِلَى الجَنَّةِ ﴾ حال كونهم ﴿ زُمَرًا ﴾ جماعات متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم في الفضل وعلوالطبقة ، وذلك قبل الحساب أو بعده يسيراً ، وهو الموافق لما قبل الآية من قوله (وَوُضِعَ الكِتَابُ) والسائقون هم الملائكة بأمر الله تعالى يسوقونهم مساق إعزاز وتشريف ، بلا تعب ولا نصب ، بل بروح وطرب ، للإسراع بهم إلى دار

(١) رواه أبو داود في السنن بلفظ (فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار) وهو في مسلم بلفظ آخر ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٦١٣.
(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي ، وانظر جامع الأصول لابن الأثير ١٠ / ٦١٤ .

الكرامة ، والمراد المتقون عن الشرك فهؤلاء عوام أهل الجنة وفوق هؤلاء من قال الله تعالى فيهم (**وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ**) وفوقهم من قال فيهم (**يَوْمَ نَحْشُرُ المتّقينَ إلى الرَّحْمٰن وَفْداً**) وفرق بين من يساق إلى الجنة ، وبين من قُرِّبت إليه الجنة ، وفي الحقيقة أهل السوق هُم الظالمون ، وأهل الزلفة المقتصدون ، وأهل الوفاء السابقون .

﴿ **حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا** ﴾ أي والحال أنه قد فتحت أبوابها الثانية لئلا يصيبهم وصب الانتظار ، مع أن دار الفرح والسرور لا تغلق للأضياف والوافدين باب الكرم ، فإن قلت : يرد على كون أبواب الجنان مفتحة لهم عند مجيئهم إليها قوله عليه السلام (أنا أول من يستفتح باب الجنة)[1] ، قلتُ : قد حصل الفتح المقدم على الوصول بدعوته عليه السلام الاستفتاح ، ولو لم يكن دعاؤه قد سبق لما فتحت ، ثم تبقى الأبواب بدعائه مفتوحة إلى أن يفرغ من الحساب ، فإذا جاء أهل الجنة بعد الحساب والصراط يجدوونها مفتوحة ببركة دعائه المقدم على ذلك ، وفي الحديث (أنا أول من يقرع باب الجنة ، والجنَّةُ محرمة على جميع الأمم حتى أدخلها أنا وأمتي الأول فالأول)[2] يقول الفقير : أولية الاستفتاح والقرع تمثيل لأولوية الدخول فلا حاجة إلى توجيه آخر ، وعرف كون أبواب الجنة ثمانية بالأخبار كما قال عليه السلام (إنَّ للجنة لثمانية أبواب ، ما منها بابان إلا بينهما سير الراكب سبعين عاماً ، وما بين كل مصراعين من مصارع الجنة كما بين مكة وبصرى)[3] وقيل عرف بواو الثمانية ، وفيه أن واوَ الثمانية غير مطردة وقد سبق ما يتعلق بهذه الواو في آخر سورة التوبة ، قال بعضهم ، كون أبواب النار سبعة ، وأبواب الجنة ثمانية لأن الجنة منه تعالى فضل ، والنار عدل والفضل أكثر من العدل ، والجنة من الرحمة والنار من الغضب ، والرحمة سابقة وغالبة على الغضب ﴿ **وَقَالَ لَهُمْ** ﴾ أي للمتقين عند دخولهم الجنة ﴿ **خَزَنَتُهَا** ﴾ حفظة الجنة « رِضْوانُ » وغيره من الملائكة ﴿ **سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ** ﴾ من جميع المكاره والآلامُ ، فهو خبر لا تحية ﴿ **طِبْتُمْ** ﴾ طَهُرتم من دنس المعاصي ، أو طبتم نفساً بما أُبيح لكم من النعيم ﴿ **فَادْخُلُوهَا** ﴾ أي الجنة ﴿ **خَالِدِينَ** ﴾ والفاء للدلالة على أن طيبهم سبب لدخولهم وخلودهم ، سوآء كان طيباً بعفو أو بتعذيب ، إذ كل منهما مطهِّرٌ ظاهرهم ، لحسن إقرارهم وأعمالهم البدنية ، وباطنهم لحسن نياتهم وعقائدهم ﴿ **وَقَالُوا الحَمْدُ للهِ** ﴾ جميع المحامد مخصوص به تعالى ﴿ **الذي صَدَقَنَا وَعْدَه** ﴾ أي حقَّق لنا ماوعدنا من دخول الجنة كقوله (الحمدُ للهِ الَّذِي أَذْهَب عَنَا الحَزَنَ) قال سهل : منهم من حمد الله على تصديق وعده ، ومنهم من حمد الله لأنه يستوجب الحمد في كل الأحوال ، لما عرف من نِعمه ومالا يعرفه ، وهو أبلغ من الأول.

(١) الحديث أخرجه مسلم بلفظ (أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يَقْرعُ باب الجنة) وانظر الفتح الكبير ١ / ٢٧٠ .

(٢) لم أره بهذا اللفظ ، ورواه أحمد والترمذي بلفظ يقاربه ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٢٧١ .

(٣) أخرجه أحمد وابن أبي شيبة بنحوه ، وانظر المنثور للسيوطي ٥ / ٣٤٣ .

﴿ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ ﴾ يريدون المكان الذي استقروا فيه من أرض الجنة على الاستعارة ، وإيراثها إعطاؤها وتمليكها مخلَّفةً عليهم من أعمالهم ، أو تمكينهم من التصرف فيما فيها تمكينَ الوارث فيما يرثه ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ أخذ من المباءة وهي المحلة وبوأت له مكاناً سويته وهيأته . أي تبوأ كل واحد منا في أي مكان أراده من جنته الواسعة ، لا من جنة غيره ، على أن فيها مقامات معنوية لا يتمانع واردوها كما قال في التفسير الكبير ، وقال حكماء الإسلام : الجنة نوعان : الجنات الجسمانية ، والجنات الروحانية فالجنات الجسمانية لا تحتمل المشاركة ، وأما الروحانية فحصولها لواحد لا يمنع حصولها لآخرين وفي تفسير الفاتحة للفناري رحمه الله : اعلم أن الجنة جنتان : جنة محسوسة ، وجنة معنوية ، والعقل يعقلهما معا كما أن العالم لطيف وكثيف ، وغيب وشهادة ، والنفس الناطقة المخاطبة المكلفة لها نعيم بما تحمله من العلوم والمعارف من طريق نظرها ، ونعيم بما تحمله من اللذات والشهوات مما تناله الحيوانية من طريق قواها الحسية ، من أكلٍ وشرب ونكاح ولباس ، وروائح ونغمات طيبة ، وجمال حسي في نساء كاعبات ووجوه حسان ، وألوان متنوعة ، وأشجار وأنهار ، كلُّ ذلك تنقله الحواس إلى النفس الناطقة ، فتلتذ به فكانت الجنة المحسوسة كالجسم ، والمعقولة كالروح ، ولهذا سماها الحق « الدار الحيوان »[1] لحياتها ، وأهلُها يتنعمون فيها حساً ومعنى ؛ والجنة أيضاً أشدُّ تنعماً بأهلها الداخلين فيها ، وكذا تطلب ملئها من الساكنين ، وهذه إشارة إلى السعة والزيادة على قدر الحاجة ، لا أن أحداً ينزل في غير منزله ، وفي فتح الرحمن : رُوي أن أمة محمد تدخل أولاً الجنة فتنزل حيث تشاء منها ، ثم يدخل سائر الأمم ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ أي نعم جزاؤهم الجنة ، قال بعض الكبار : ما من فريضة ولا نافلة ولا فعل خير وترك محرم ولا مكروه ، إلا وله في الجنة نعيم خاص ، يناله من دخلها ، والتفاضل على مراتب ، فمنها بالسن ولكن في الطاعة والإسلام فيفضل كبير السن على صغير السن ، إذا كانا على مرتبة واحدة من العمل ، ومنها بالزمان فإن العمل في رمضان وفي يوم الجمعة وفي ليلة القدر وفي عشر ذي الحجة أعظم من سائر الزمان ، ومنها بالمكان فالصلاة في المسجد الحرام أفضل منها في مسجد المدينة ، وهي من الصلاة في المسجد الأقصى ، وهي أفضل من سائر المساجد ، ومنها بالأحوال فإن الصلاة بالجماعة أفضل من صلاة الشخص وحده ، ومنها بنفس الأعمال فإن الصلاة أفضل من إماطة الأذى ، ومنها في العمل الواحد فالمتصدق على رحمه صاحب صلة رحم وصدقة ، وكذا من أهدى هدية لشريف من أهل البيت أفضل من أن يهدي لغيره أو أحسن إليه ، ومن الناس من يجمع في الزمن الواحد أعمالاً كثيرة ، فيصرف سمعه وبصره ويده فيما ينبغي في زمان صومه وصدقته ، بل في زمان صلاته من فعل وترك ، فيؤجر في الزمن الواحد من وجوه كثيرة ، فيفضل غيره ممن ليس له ذلك ، نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من الجامعين بين صالحات الأعمال ،

(١) أشار المصنف رحمه الله إلى قوله تعالى ﴿ وَمَا هَذِهِ الحياةُ الدُّنيا إلاَّ لَهْوٌ وَلعِبٌ ، وإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لو كانوا يَعْلَمونَ ﴾ .

والمسارعين إلى حسنات الأفعال .

﴿ وَتَرَى الملاَئِكَة ﴾ يامحمد يوم القيامة بعد أن أحياهم الله ﴿ حَافِّينَ ﴾ محدقين ﴿ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ أي حوله ومن مزيدة ، أو لابتدآء الحفوف يقال حفوا حوله حفوفاً طافوا به واستداروا أي محيطين بأحفة العرش أي جوانبه ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم ﴾ الجملة حال أي ينزهونه تعالى عما لا يليق به حال كونهم ملتبسين بحمده ، ذاكرين له بوصفي جلاله وإكرامه ، يعني يقولون « سبحان الله وبحمده » يقول الفقير : كما أن العرشَ يطوفه الملائكة مسبحين حامدين ، كذلك الكعبة يطوفها المؤمنون ذاكرين شاكرين ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ أي بين الخلق ﴿ بِالْحقِّ ﴾ بالعدل بإدخال بعضهم النار ، وبعضهم الجنة ، أو بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم ، والملائكة وإن كانوا معصومين جميعاً ، فبينهم تفاضل في الثواب حسب تفاضل أعمالهم ، وكما أن رسل البشر يفضلون على أفراد الأمة في المراتب ، كذلك رسل الملائكة على سائرهم ﴿ وقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ﴾ أي على ما قضى بيننا بالحق وأنزل كلامنا منزلته التي هي حقه ، والقائلون هم المؤمنون أو الملائكة ، وقيل : يعني وقال كل فريق منهم الحمد لله رب العالمين على ما أنعم علينا به ، المؤمنون يحمدون الله على فضله ، والكافرون يحمدونه على عدله ، ولهذا لم يسند القول إلى قائل[1] .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الزمر »

• • •

(١) قال الحافظ ابن كثير ٣ / ٢٣٣ : نطقَ الكونُ أجمعُه ، ناطقه وبهيمُه ، بالحمد للهِ رب العالمين ، في حكمه وعدله ، ولهذا لم يُسند القولُ إلى قائل ، بل أطلقه ، فدلَّ على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد « وقيل الحمدُ للهِ ربِّ العالمين » .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **حم** ﴾ اسم للسورة ومحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هذه السورة مسماة بحم ، نُزِّلت منزلة الحاضر المشار إليه لكونها على شرف الذكر والحضور ﴿ **تَنْزِيلُ الكِتَاب** ﴾ خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول أي الكتابُ المُنْزَلُ مبالغة ﴿ **مِنَ اللهِ** ﴾ صلة للتنزيل والأظهر أن تنزيل مبتدأ ومن الله خبره فيكون المصدر على معناه ، وقوله (من الله) أي لا كما يقوله الكفار من أنه اختلقه محمد ﴿ **الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ لعل تخصيص الوصفين لما في القرآن من الإعجاز وأنواع العلم ، الدالين على القدرة الكاملة ، والعلم النافع البالغ ﴿ **غَافِرِ الذَّنْبِ** ﴾ صفة أخرى للجلالة ، والإضافةُ حقيقيَّةٌ لأنه لم يرد به زمان مخصوص ، لأن صفات الله أزلية، منزَّهة عن التجدد والتقيد بزمان دون زمان ، وإن كان تعلقها حادثاً بحسب حدوث المتعلقات،كالذنب في هذا المقام ، واسم الفاعل يجوز أن يراد به الاستمرار بخلاف الصفة المشبَّهة والغافر الساترُ والماحي والذنب : الإثم يستعمل في كل فعل يضر في عقباه ، اعتباراً بذنب الشيء أي آخره ولم يقل غافر الذنوب بالجمع إرادة للجنس كما في الحمد لله ، والمعنى ساتر جمع الذنوب صغائرها وكبائرها بتوبة وبدونها ولا يفضح صاحبها يوم القيامة ، كما يقتضيه مقام المدح العظيم ﴿ **وَقَابِلِ التَّوبِ** ﴾ أي الذي يقبل توبة العصاة ، القابل الذي يستقبل الدلو من البئر فيأخذها ، والقابلة التي تقبل الولد عند الولادة ، وقبلت عذره وتوبته ، وغير ذلك ، والتوب مصدر كالتوبة وهو ترك الذنب على أحد الوجوه ، وهو أبلغ وجوه الاعتذار ، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه ، أما أن يقول المعتذر لم أفعل ، أو يقول فعلت لأجل كذا ، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت ، ولا رابع لذلك ، وهذا الثالث هو التوبة ، والتوبةُ في الشرع هو ترك الذنب لقبحه ، والندم على ما فرط منه ، والعزيمة على ترك المعاودة ، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة ، فمتى اجتمعت هذه الأربعة فقد كملت شرائط التوبة ، فالتوبة هي الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود في الدين ، والاستغفار عبارة عن طلب المغفرة بعد رؤية قبح المعصية والإعراض عنها ، فالتوبة مقدمة على الاستغفار ، والاستغفار لا يكون توبة بالإجماع ، ما لم يقل معه : تبتُ أو أسأت ولا أعود إليه أبداً ، فاغفر لي يارب ، وتوسيط الواو بين الغافر والقابل لإفادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة في موصوف واحد بالنسبة إلى طائفة المذنبين التائبين فالمغفرة بمحو الذنوب ، والقبول بجعل تلك التوبة طاعة مقبولة يثاب عليها ، فقبول التوبة كناية عن أنه تعالى يكتب تلك التوبة للتائب طاعة من الطاعات ، وإلا ما قبلها لأنه لا يقبل إلا ما كان طاعة ، أو لتغاير الوصفين إذ ربما يتوهم الاتحاد بأن يذكر الثاني لمجرد الإيضاح والتفسير ، أو لتغاير موقع الفعلين

ومتعلقها لأن الغفر هو الستر مع بقاء الذنب وذلك لمن لم يتب من أصحاب الكبائر ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والقبول بالنسبة للتائبين عنها ، وقدم المغفرة على التوبة لأن رحمته سبقتْ غَضَبه ، ورداً على المعتزلة ليعلم أنه تعالى ربما يغفر من غير توبة .

﴿ **شَدِيدِ الْعِقَابِ** ﴾ اسم فاعل أي عقابه شديدٌ لمن عصاه ﴿ **ذِي الطَّوْلِ** ﴾ الطول بالفتح الفضل ، يقال : لفلان على فلان طول أي زيادة وفضل ، وأصل هذه الكلمة من الطُّولِ الذي هو خلاف القصر ، لأنه إذا كان طويلاً ففيه كمال وزيادة ، كما إنه إذا كان قصيراً ففيه قصور ونقصان ، وسُمِّي الغِنَى أيضاً طَوْلاً لأنه ينال به من المرادات ما لا ينال عند الفقر ، كما أنه بالطُّولِ ينال مالا ينال بالقصر ، والمراد ههنا بترك العقاب المستحق ، وإيراد صفة واحدة في جانب الغضب بين صفات الرحمة ، دليل سبقها ورجحانها وقيل : (غافر الذنب) لمن يقول « لا إله إلا الله » وهم أولياؤه وأهل طاعته (وقابل التوب) من الشرك (شديد العقاب) لمن لا يوحده (ذي الطول) ذي الغنى عمَّن لا يوحده ولا يقول لا إله إلا الله ﴿ **لا إله إلاّ هُوَ** ﴾ فيجب الإقبال الكلي على طاعته في أوامره ونواهيه ﴿ **إِلَيْهِ** ﴾ تعالى فحسب لا إلى غيره ، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ **الْمَصِيرُ** ﴾ أي رجوع الحق في الآخرة ، فيجازي كلاًّ من المطيع والعاصي قيل : غافر الذنب لأوليائه بأن يتوب عليهم ، وقابل التوب بأن يوفقهم للإخلاص في التوبة لأنهم مظاهر صفات لطفه ، شديد العقاب لمن لا يؤمن ولا يتوب ، لأنهم مظاهر صفات قهره ، ذي الطول لعموم خلقه بالإيجاد من العدم ، وإعطاء الحياة والرزق ، وأيضاً غافر الذنب لظالمهم ، وقابل التوب لمقتصدهم ، شديد العقاب لمشركهم ، ذي الطول لسابقهم ، ولَمَّا كان من سُنَّة كرمه أن سبقت رحمته غضبه ، غُلِّبتْ ههنا أسامي صفات لطفه على اسم صفة قهره ﴿ **مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ** ﴾ الجدال المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلت الحبل أي حكمتُ فتله ، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه ، قال أبو العالية : نزلت في الحارث بن قيس أحد المستهزئين ، والمعنى : ما يخاصم في آيات الله بالطعن فيها بأن يقول في حقها سحراً وشعراً وأساطير الأولين أو نحو ذلك ، وباستعمال المقدمات الباطلة لإدحاضه وإزالته وإبطاله لقوله تعالى (**وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ**) فحمل المطلق على المقيد ، وأريد الجدال بالباطل ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ بها ، وأما الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة منها فضلاً عن الطعن فيها ، وأما الجدال فيها لحلِّ مشكلاتها واستنباط حقائقها ، وإبطال شبه أهل الزيغ والضلال ، فمن أعظم الطاعات كجهاد في سبيل الله ، ولذلك قال عليه السلام « إن جدالاً في القرآن كفر »[1] بتنكير جدالاً الدال على التنويع للفرق بين جدال وجدال ، فعليك بترك الكفر والجدال مطلقاً ، حتى تكون عند

(١) الحديث أخرجه أبو داود بلفظ (المِرَاءُ في القرآن كفرٌ) أي الجدال في آياته بغير علم ، وانظر جامع الأصول ٢ / ٧٥٠ .

الله وعند الناس مؤمناً مسلماً صدقاً ، هذا سبيل الصواب والرشاد ، وإليه الدعوة والإرشاد ، وعلينا وعليكم القبول والإسترشاد وهو الفرض الواجب على جميع العباد ﴿ **فَلا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ** ﴾ الفاء جواب شرط محذوف ، والغِرَّة غفلة في اليقظة والمعنى فإذا علمت أنهم محكوم عليهم بالكفر ، فلا يغررك إمهالهم في دنياهم ، وتقلبهم في بلاد الشام واليمن للتجارات المربحة ، وهي رحلة الشتاء والصيف ، فإنهم مأخوذون عما قريب بسبب كفرهم أخذ من قبلهم من الأمم ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ** ﴾ أي قبل قريش ﴿ **قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ** ﴾ أي الذين تحزبوا على الرسل وعادوهم وحاربوهم ، بعد قوم نوح مثل عاد وثمود وأضرابهم ، وبدأ بقوم نوح إذ كان أول رسول في الأرض ، لأن آدم إنما أرسل إلى أولاده ﴿ **وَهَمَّتْ** ﴾ قصدت عند الدعاء ، والهمُّ عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل من خير أو شر ﴿ **كُلُّ أُمَّةٍ** ﴾ من تلك الأمم المعاقبة ﴿ **بِرَسُولِهِمْ** ﴾ برسولهم تغليب للرجال ﴿ **لِيَأْخُذُوهُ** ﴾ من الأخذ بمعنى الأسر ، والأخيذُ الأسير أي ليأسروه ، ويحبسوه ليعذبوه ﴿ **وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ** ﴾ الذي لا أصل ولا حقيقة له أصلاً ، قال في فتح الرحمن : الباطل ما كان فائت المعنى من كل وجه مع وجود الصورة ، إمَّا لانعدام الأهلية ، أو لانعدام المحلية كبيع الخمر وبيع الصبي ﴿ **لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ** ﴾ أي ليزيلوا بذلك الباطل ، الحقَّ الذي لا محيد عنه كما فعل هؤلاء ﴿ **فَأَخَذْتُهُمْ** ﴾ بالإهلاك جزاء لهمهم بالأخذ ﴿ **فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾ أي عقابي الذي عاقبتهم به ، فإن آثار دمارهم كما ترونها حين تمرون على ديارهم ، عبرة للناظرين ، ولآخذن هؤلاء أيضاً لاتحادهم في الطريقة واشتراكهم في الجريمة ، كما ينبيء عنه قوله ﴿ **وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ** ﴾ أي كما وجب وثبت حكمه تعالى وقضاؤه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذبة ، المتحزبة على رسلهم المجادلة بالباطل ، لإدحاض الحق به ، كذلك وجب أيضاً ﴿ **عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أي كفروا بك وتحزَّبوا عليك ، وهمُّوا بما لم ينالوا ، فالموصول عبارة عن كفار قومه عليه السلام وهم قريش لا عن الأمم المهلكة ﴿ **أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ** ﴾ في حيز النصب بحذوف لام التعليل وإيصال الفعل أي لأنهم مستحقوا أشد العقوبات وأفظعها التي هي عذاب النار ، وملازموها أبداً لكونهم كفاراً معاندين متحزبين على الرسول عليه السلام ، كدأب من قبلهم من الأمم المهلكة ، فهم لسائر فنون العقوبات أشد استحقاقاً وأحق استيجاباً ، فَعِلَّةٌ واحدة تجمعهم وهي أنهم أصحاب النار ، عصمنا الله وإياكم من أسباب سخطه ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ** ﴾ العرش هو الجسم المحيط بجميع الأجسام سمي به لارتفاعه ، أو للتشبيه بسرير الملك في تمكنه عليه عند الحكم ، لنزول أحكام قضائه وقدره منه ، ويحمله أربعة من الملائكة ، وإذا كان يوم القيامة يكون حملته ثمانية ، دلَّ عليه قوله تعالى (**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**) ﴿ **وَمَنْ حَوْلَه** ﴾ في محل الرفع بالعطف على قوله الذين وحول الشيء جانبه ﴿ **يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِم** ﴾ أي ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل ، ملتبسين

بحمده على نعمائه التي لا تتناهى ، وفي فتح الرحمن يقولون (سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان الملك الحي الذي لا يموت ، سبُّوح قدُّوس رب الملائكة والروح) وجعل التسبيح أصلاً والحمد حالاً ، لأن الحمد مقتضى حالهم دون التسبيح ، لأنه إنما يحتاج إليه لعارض الرد على من يصفه بما لا يليق به ﴿ **وَيُؤْمِنونَ بِهِ** ﴾ أي بربهم إيماناً حقيقاً بحالهم ، والتصريح به مع إغناء ما قبله عن ذكره لإظهار فضيلة الإيمان ، وإبراز شرف أهله ، وقد قيل : « أوصاف الأشراف أشراف الأوصاف » ﴿ **وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذينَ آمَنُوا** ﴾ استغفارهم شفاعتهم، وفيه إشعار بأنهم يطلعون على ذنوب بني آدم ، وتنبيه على أن المشاركة في الإيمان توجب النصح والشفقة ، وإن تخالفت الأجناس لأنها أقوى المناسبات وأتمها كما قال تعالى (**إنّما الْمُؤْمِنُونَ إخْوةٌ**) ولذلك قال الفقهاء : قتل السعاة والظلمة وقُطَّاع الطريق مباح ، وقاتلهم مثاب وإن كانوا مسلمين ، لأن من شرط الإسلام الشفقة على خلق الله ، والفرح بفرحهم والحزن بحزنهم ، وهم على عكس ذلك ، وقلَّما يندفع شرهم بالحبس ونحوه ، قيل : قد ثبت أن كمال السعادة مربوط بأمرين : التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، ويجب أن يكون الأول مقدماً على الثاني فقوله (**يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ**) مشعر بالتعظيم لأمر الله (**وَيَسْتَغْفِرونَ لِلَّذِينَ آمنُوا**) مشعرٌ بالشفقة على خلق الله ، قال مجاهد : يسألون ربهم مغفرة ذنوب المؤمنين من حين علموا أمر هاروت وماروت أو لقولهم (أَتَجْعَلُ فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) ؟ قال الراغب : المغفرة من الله أن يصون العبد عن أن يمسه العذاب ، والاستغفار طلب ذلك بالمقال والفعال ، فإن الاستغفار بالمقال فقط فعل الكاذبين ، ثم لا يلزم من الآية أفضلية الملائكة على البشر ، حيث اشتغلوا بالاستغفار للمؤمنين من غير أن يتقدم الاستغفار لأنفسهم لاستغنائهم ، وذلك لأن هذا بالنسبة إلى عوام المؤمنين ، وأما خواصهم وهم الرسل فهم أفضل منهم على الإطلاق ، وإنما يصلُّون عليهم بدل الإستغفار لهم تعظيماً لشأنهم ، ونعم ما قال أبو الليث رحمه الله : في الآية بيان فضل المؤمنين ، لأن الملائكة مشتغلون بالدعاء لهم ، وفي التأويلات النجمية يشير إلى أنَّ الملائكة كما أمروا بالتسبيح والتحميد والتمجيد لله تعالى ، فكذلك أمروا بالاستغفار والدعاء لمذنبي المؤمنين ، ولأن الاستغفار للمذنب ، ويجتهدون في الدعاء لهم فيدعون لهم بالنجاة ثم برفع الدرجات كما قال ﴿ **رَبَّنَا** ﴾ على إرادة القول أي يقولون ربنا على أنه بيان الاستغفار أو حال أي قائلين ﴿ **وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً** ﴾ والأصل وسعتْ رحمتُك وعلمك كل شئ،فأزيل عن أصله للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم،كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء ، وتقديم الرحمة لأنها المقصود بالذات ههنا ﴿ **فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ** ﴾ الفاء لترتيب الدعاء على ما قبلها من سعة الرحمة والعلم ، إذ المعنى فاغفر للذين علمت منهم التوبة من الكفر والمعاصي واتباع سبيل الإيمان والطاعة ، وفيه إشارة إلى أن الملائكة لا يستغفرون إلا لمن تاب ورجع عن اتباع الهوى ،

واتَّبع بصدق الطلب وصفاء النية سبيلَ الحق تعالى والأظهرُ أنَّ التخصيص للحث على التوبة والاتباع ، أقول : العاصي إما مؤمن أو كافر ، والثاني لا تتعلق به المغفرة لأنها خاصة بالمؤمنين مطلقاً ، فلما علم الملائكة أن الله لا يغفر أن يشرك به خصُّوها بالتائبين ليخرج المشركون ﴿ **وَقِهِمْ عَذابَ الجَحِيمِ** ﴾ أمر من وقى يقي وقاية ، وهي حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره أي واحفظهم من عذاب جهنم ، وهو تصريح بعد إشعار للتأكيد ، وذلك لأن معنى الغفران إسقاط العذاب ، وفيه إشارة إلى أنه بمجرد التوبة لا تحصل النجاة ، فلابد من الثبات عليها وتخليص العمل من شوب الرياء والسمعة ، وتصفية القلب عن الأهواء والبدع ﴿ **رَبَّنَا وأَدْخِلْهُم** ﴾ عطف على قِهِمْ وتوسيط النداء بينهما للمبالغة في الجؤار وهو رفع الصوت بالدعاء والتضرع والاستغاثة ﴿ **جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدْتَهُمْ** ﴾ أي وعدتهم إياها وقد وعد الله بأن يدخل من قال (لا إله إلا الله محمد رسول الله) جنات عدن إما ابتداء أو بعد أن يعذبهم بقدر عصيانهم ، ولكل مقام عمل يخص به ، فإذا كان العمل أخص وأرفع كان المقام أرقى وأعلى ﴿ **وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِم وأَزْوَاجِهِم وَذُرِّيَاتِهِمْ** ﴾ وأدخل معهم من صلح من هؤلاء صلاحاً مصححاً لدخول الجنة في الجملة وإن كان دون صلاح أصولهم ، وذلك ليتم سرورهم ويتضاعف ابتهاجهم ، وفيه إشارة إلى أن بركة الرجل التائب تصل إلى آبائه وأزواجه وذرياته لينالوا بها الجنة ونعيمها ، قال سعيد بن جبير : يدخل المؤمن الجنة فيقول : أين أبي ؟ وأين ولدي ؟ أين زوجي ؟ فيقال : إنهم لم يعملوا مثل عملك ، فيقول : إني كنت أعمل لي ولهم فيقال : أدخلوهم الجنة كما قال تعالى (**وَالَّذِينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَتَهُمْ**).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه(إذا كان يوم القيامة نودي فيه أطفال المسلمين أن اخرجوا من قبوركم ، فيخرجون من قبورهم ، فينادى فيهم أن امضوا إلى الجنة زمراً ، فيقولون ياربنا ووالدينا معنا فينادي فيهم الثانية أن امضوا إلى الجنة زمراً ، فيقولون ووالدينا معنا فيبتسم الرب تعالى فيقول ووالديكم معكم ، فيثب كل طفل إلى أبويه فيأخذون بأيديهم فيدخلونهم الجنة ، فهم أعرف بآبائهم وأمهاتهم يومئذ من أولادكم الذين في بيوتكم)[1] ﴿ **إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ** ﴾ الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدوره ﴿ **الحَكِيمُ** ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة الباهرة من الأمور التي من جملتها إنجاز الوعد والوفاء ﴿ **وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ** ﴾ أي احفظهم عما يسوؤهم يوم القيامة ، وادفع عنهم العقوبات لأن جزاء السيئة سيئة أي قهم جزآء الأعمال السيئة ، وهو تعميم بعد تخصيص ، وقهم عذاب الجحيم وعذاب القبر ، وموقف القيامة والحساب والسؤال والصراط ونحوها ، أو مخصوص بمن صلح من الأتباع ﴿ **وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **فَقَدْ رَحِمْتَهُ** ﴾ لأن المعافى من العذاب مرحوم ، ويجوز أنْ يَكُون المراد بالسيئات المعاصي في

---

(١) هذا الأثر موقوفٌ على أنس بن مالك رضي الله عنه ، وله شواهدُ تدلُّ على صحته وآثارٌ وردت عن السلف ويكفي قوله تعالى ﴿ **أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَتَهُمْ وما أَلَتْنَاهُمْ من عَمَلِهِم من شَيْءٍ** ﴾ .

الدنيا أي من تقهِ المعاصي في الدنيا فقد رحمته في الآخرة ، كأنهم طلبوا لهم السبب بعدما سألوا المسبب قال مطرف : أنصح عبد الله للمؤمنين الملائكة ، وأغشُّ الخلق للمؤمنين الشياطين ﴿ **وَذَلِكَ** ﴾ المذكور من الرحمة والوقاية ﴿ **هُوَ الفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ أي هو الظفر العظيم الذي لا مطمع ورآه لطامع .

أقول : ظهر من الآيات العظام ومن استغفار الملائكة الكرام أن بناء الإنسان محتاج إلى المعاونة ، لكونه تحت ثقل حمل الأمانة العظمى ، فطريقه طريق صعب وليس مثله أحد ، ثم يجب على من يطلب الفوز أن يناله من طريقه ، فكل سعادة في الآخرة فبذرها مزروع في الدنيا ، ولابد للعاقل من التقديم لنفسه ، قال لقمان رحمه الله : « يابنيَّ لا تكن الذَرَّةُ أيسر منك ، تجمع في صيفها لشتائها قبل اشتداد الشتاء»وطلب ضفدع من الذرة ذخيرة ، فقالت لم ترتع في الصيف في أطراف الأنهار ؟ وتركت الادخار للشتاء ؟ فلا يبقى يوم القيامة طريق للرجوع للدنيا ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ** ﴾ المناداة والنداء الدعوة ورفع الأصوات ، وذلك أن الكفار يمقتون في جهنم أنفسهم الأمارة بالسوء ، التي وقعوا فيها من العذاب المخلد باتباع هواها أي يَعضُّون عليها حتى يأكلون أناملهم ، ويبغضونها أشد البغض وينكرونها أشد الإنكار ، ويظهرون ذلك على رؤوس الأشهاد ، فعند ذلك تناديهم الملائكة وهم خزنة جهنم من مكان بعيد ، تنبيهاً على بعدهم عن الحق ﴿ **لَمَقْتُ اللهِ** ﴾ والمعنىوالله لمقت الله أنفسكم الأمارة بالسوء ﴿ **أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُم أَنْفُسَكُم** ﴾ اذكروا ﴿ **إِذْ تُدْعَوْنَ** ﴾ في الدنيا من جهة الأنبياء ﴿ **إلى الإيمانِ** ﴾ فتأبون قبوله ﴿ **فَتَكْفُرُونَ** ﴾ بالله تعالى وتوحيده إتباعاً لأنفسكم ومسارعة إلى هواها ، فالمعنى غضب الله تعالى - حين أغضبتموه في الدنيا حين كفرتم - أكبرُ من مقتكم أنفسكم اليوم ، ومن هنا عُرف أنَّ سبب المقت هو الكفر ، كأنه قال اذكروا ذلك فهو سبب المقت في الدنيا والآخرة ، والدخول في النار المحرقة القاهرة ، وإنما كان مقت الله أكبر من مقت العبد ، لأن مقت العبد مأخوذ من مقت الله ، إذ لو لم يأخذه الله بجريمته لما وقع في مقت نفسه ، ولأن أشد العقوبات آثار سخط الله وغضبه على العباد ، كما أن أجلَّ النعم آثار رضاه عنهم ، فإذا عرف الكافر في الآخرة أنَّ ربه عليه غضبان ، فلا شيء أصعب على قلبه منه ، على أنه لا بكاء ينفعه ، ولا غناء يُزيل عنه ما هو فيه ويدفعه ، ولا يسمع منه تضرع ، ولا يرجى له حيلة، نسأل الله عفوه وعطاه ، وهو حسبنا مما سواه ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي الكفرة حين خوطبوا بهذا الخطاب ﴿ **رَبَّنَا أَمَتَّنَا** ﴾ إماتتين ﴿ **اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا** ﴾ إحياءتين ﴿ **اثْنَتَيْنِ** ﴾ فهما صفتان لمصدر الفعلين المذكورين وفي الإماتتين والإحياءتين وجوه : الأول ﴿ **فاعترَفْنَا** ﴾ أقررنا بسبب ذلك ﴿ **بِذُنُوبِنَا** ﴾ لاسيما إنكار البعث ، يعني الأنبياء دعونا إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر ، وكنا نعتقد كالدهرية أن لا حياة بعد الموت ، فلم نلتفت إلى دعوتهم ودمنا على الاعتقاد الباطل ، حتى متنا وبعثنا فشاهدنا ما نحن ننكره في الدنيا ، وهو الحياة بعد الموت ، فالآن نعترف بذنوبنا ﴿ **فَهَلْ إلى خُرُوجٍ** ﴾ نوع خروج من

النار سريع أو بطيء ، أو نوع من الأعمال ﴿ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ من طريق فنسلكه ونتخلص من العذاب ، أو هل إلى خروج إلى الدنيا من سبيل فنعمل غير الذي كنا نعمل كما قال (هَلْ إلى مَرَدٍّ منْ سَبيلٍ) والثاني : أنهم أرادوا بالإماتة الأولى خلقهم أمواتاً وذلك في الرحم قبل نفخ الروح كما قال تعالى (وكُنْتُمْ أمواتاً فَأحْياكُمْ) وبالثانية إماتتهم عند انقضاء آجالهم ، على أن الإماتة جعل الشيء عادم الحياة وأرادوا بالإحياء أولاً الإحياء قبل الخروج من البطن والثالث إحياء البعث ، ولا يلزم منه أن لاعذاب في القبر ولا حياة ولا موت ، فإنهم إنما لم يذكروها لأن حياة القبر ليست كحياة الدنيا ولا كحياة الآخرة ، وقد ثبت بالتواتر أن النبي عليه السلام استعاذ من عذاب القبر[1] وأجمع السلف على ذلك حتى قال بعضهم في قوله تعالى (وَمَنْ أَعْرَض عَنْ ذِكْري فَإنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً) أنه أراد في القبر ، لأنا نشاهد كثيراً منهم عيشهم أرغد في الدنيا ، وبالثانية ما بعد حياة القبر ، وبالإحياءتين ما في القبر وما عند البعث وهو الأنسب بحالهم ، والرابع إنهم أرادوا إماتة القلوب ، وإحياء النفوس ، ثم إماتة الأبدان وإحياءها بالبعث ﴿ ذَلِكُم ﴾ جواب لهم باستحالة حصول ما يرجونه ببيان ما يوجبها من أعمالهم السيئة أي ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب ﴿ بِأنَّهُ ﴾ أي بسبب أن الشأن ﴿ إذا دُعِيَ اللهُ ﴾ في الدنيا أي عُبِدَ ﴿ وَحْدَه ﴾ أي حال كونه منفرداً ﴿ كَفَرْتُم ﴾ أي توحيده ﴿ وإنْ يُشْرَكْ بِهِ ﴾ أي أن يجعل له شريك ﴿ تُؤْمِنُوا ﴾ أي بالإشراك به تصدقوه وتسارعوا فيه ، ولفظ الاستقبال تنبيه على أنهم لو ردوا لعادوا إلى الشرك ، حيث كان حالهم كذلك ﴿ فالحُكْمُ للهِ ﴾ الذي لا يحكم إلا بالحق ﴿ العَلِيِّ الكَبِيرِ ﴾ عَنْ أن يشرك به ، إذ ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، وقد حكم بأنه لا مغفرة للمشرك ولا نهاية لعقوبته فلا سبيل لكم إلى الخروج أبداً ، قيل : كأن الحرورية أخذوا قولهم (لا حكم إلا لله) من هذا وقيل : للخوارج حرورية لتجليتهم بحرورآء واجتماعهم فيها وهي قرية بالكوفة ، والخوارج قوم من زهاد الكوفة خرجوا عن طاعة عليّ رضي الله عنه عند التحكيم بينه وبين معاوية ، وقالوا : إنِ الحكم إلا لله فقال علي رضي الله عنه : « كلمة حق أُريد بها باطل » وكانوا اثني عشر ألف رجل ، أنكروا الخلافة واجتمعوا ونصبوا راية الخلاف ، وسفكوا الدماء وقطعوا السبيل ، فخرج إليهم علي رضي الله عنه وأمرهم بالرجوع فأبوا إلا القتال بالنهروان وهي بلدة قديمة بالقرب من بغداد فقتلهم واستأصلهم ولم ينج منهم إلا القليل ، وهم الذين قال عليه السلام في حقهم (يخرج قوم من أمتي في آخر الزمان يحقر أحدكم صلاته في

---

(١) أحاديث عذاب القبر كثيرة وشهيرة في الصحيحين والسنن الأربعة ومسند أحمد وغيره ، منها ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة قالت (فما رأيتُ رسولَ الله ﷺ بعد صلّى صلاةً إلاّ تعوذ من عذاب القبر) وانظر جامع الأصول ١١ / ١٦٦ .

جنب صلاتهم ، وصومه في جنب صومهم ، لا يجاوز إيمانهم تراقيهم)[1] والحاصل أن الخوارج من الفرق الضالة لفسادهم في الاعتقاد ، وبإنكار الحق وفساد الاعتقاد ساء حال أكثر العباد في أكثر البلاد خصوصاً في هذه الأعصار ، فعلى العاقل أن يجيب دعوة الله ودعوة رسوله ، قولاً وعملاً وحالاً واعتقاداً ، حتى يفوز بالمرام ويدخل دار السلام ، ولا يكون كالذين أرادوا أن يتداركوا الحال بعد مضي الفرصة .

﴿ **هُوَ** ﴾ تعالى وحده ﴿ **الذي يُرِيكُمْ آياتِهِ** ﴾ دلائل قدرته وشواهد وحدته في الأنفس والآفاق ، رعاية لمصالح أديانكم ﴿ **وَيُنَزِّلُ لَكُم مِنَ السَّماءِ رِزْقاً** ﴾ أي سبب رزق وهو المطر مراعاة لمصالح أبدانكم ، فإن آيات الحق بالنسبة إلى حياة الأديان ، بمنزلة الأرزاق بالنسبة إلى حياة الأبدان ﴿ **وَمَا يَتَذَكَّرُ** ﴾ أي ما يتعظ وما يعتبر بتلك الآيات الباهرة ولا يعمل بمقتضاها ﴿ **إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ** ﴾ يرجع إلى الله تعالى عن الإنكار ، ويتفكر فيما أودعه في تضاعيف مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة ، ونعمته الشاملة الظاهرة والباطنة ، الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى ، ومن ليس كذلك وهو المعاند فهو بمعزل من التذكر والاتعاظ ، فإذا كان الأمر كذلك ﴿ **فَادْعُوا اللهَ** ﴾ فاعبدوه أيها المؤمنون ﴿ **مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ أي حال كونكم مخلصين له دينكم وطاعتكم من الشرك ، والإلتفاتِ الى ما سواه بموجب إنابتكم إليه وإيمانكم به ﴿ **وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ** ﴾ ذلك وغاظهم إخلاصكم فلابد من الإخلاص مطلقاً ، فاعمل لربك خالصاً طيباً فإنه طيب لا يقبل إلا الطيب وفي الحديث (يؤجر ابن آدم في نفقته كلها الإ شيأ وضعه في الماء والطين)[2] وهذا الحديث وإن كان من حيث الصيغة مطلقاً فالأحوال والقرائن تخصصه وذلك أن بناء المساجد والرباطات ومواضع العبادات يؤجر الباني لها عليها بلا خلاف .

فالمراد المذكور هنا إنما هو البناء الذي لم يقصد صاحبه إلا الإنفساح والاستراحة ، والرياء والسمعة وإذا كان كذلك فمطمع همّة الباني ومقصده لا يتجاوز هذا العلم ، فلا يكون لبنائه ثمرة ونتيجة في الآخرة لأنه لم يقصد أمراً وراء هذه الدار ، فهي أعراض زائلةٌ لا موجب لتعديها من هنا إلى الآخرة ولا إثمار ، فلا أجر ، قال تعالى (**مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ**) والمرجو من الله أن يجعلنا من أهل الاختصاص بقبض فيض كمال الإخلاص ﴿ **رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ** ﴾ خبر آخر لقوله « هو » والرفيع صفة مشبهة أضيفت إلى فاعلها بعد النقل إلى فَعُل بالضم كما هو المشهور ، وتفسيره بالرافع ليكون من إضافة اسم الفاعل إلى المفعول

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان وابن ماجه ، وله روايات متعددة في الصحيحين ومسند أحمد ، وهو في الرافضة ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٣ / ٤١٩ .

(٢) أخرجه الترمذي ، بنحوه من حديث خباب بن الأرت ، والمراد به إذا كان البناء للمباهاة والمفاخرة والاستعلاء على عباد الله ، أما إذا كان لسكنه وستره ، فلا حرج فيه ، وانظر نصّ الحديث في الفتح الكبير للسيوطي ٣ / ٤٠٨ .

بعيد في الاستعمال كما في الإرشاد ، والدرجةُ مثل المنزلة لكن يقال للمنزلة درجة إذا اعتبرت بالصعود دون الامتداد على نحو درجة السطح والسلم قاله الراغب ، وفي أنوار المشارق ، الدرجة إن كانت بمعنى المرقاة فجمعها درج ، وإن كانت بمعنى المرتبة والطبقة فجمعها درجات ، واختلف العلماء في تفسير هذه الآية ففي الإرشاد هو تعالى رفيع درجات ملائكته أي مرتفعة معارجهم ومقاعدهم إلى العرش ، وفي تفسير أبي الليث خالق السموات ورافعها مطلقاً بعضها فوق بعض ، من طبق إلى طبق خمسمائة عام فهو رافع الدرجات في الدنيا بتفاوت الطبقات وفي العقبى بتباين المراتب والمقامات ، وقال بعضهم : رافع درجات العصاة بالنجاة والمطيعين بالمثوبات ، وذي الحاجات بالكفايات ﴿ **ذُو الْعَرْشِ** ﴾ خبر آخر لقوله هو أي هو تعالى مالك العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوي والسفلي ، خلقه فوق السموات السبع وفوق الكرسي إظهاراً لعظمته وقدرته ﴿ **يُلْقِي الرُّوحَ** ﴾ ينزل الوحي الجاري من القلوب ، منزلة الروح من الأجساد، فكما أن الروح سبب لحياة الأجسام ، كذلك الوحي سبب لحياة القلوب ، فإن حياة القلوب إنما هي بالمعارف الآلهية الحاصلة بالوحي ، فاستعير الروح للوحي لأنه يحيي به القلب بخروجه من الجهل والحيرة إلى المعرفة والطمأنينة ، وسمّي جبرائيل روحاً لأنه كان يأتي الأنبياء بما فيه حياة القلوب ، وسمي عيسى روح الله لأنه كان من نفخ جبرائيل وأضيف إلى الله تعظيماً ، واعلم أن ما سوى الله تعالى إمَّا جسماني ، وإمَّا روحاني ، والقسمان مسخران تحت تسخيره تعالى ﴿ **من أَمْرِهِ** ﴾ بيان للروح الذي أريد به الوحي ، فإنه أمر بالوحي وبعث للمكلف عليه فيما يأتيه ويذره أي حال كونه ناشئاً ومبتدأ من أمره تعالى ﴿ **عَلَى مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ** ﴾ وهو الذي اصطفاه لرسالته وتبليغ الأحكام إليهم، وقال الضحاك :الروح جبرائيل أي يرسله إلى من يشاء من أجل أمره ، يخاطب بهذا من كره نبوة محمد ﷺ ﴿ **لِيُنْذِرَ** ﴾ غاية للإلقاء أي لينذر الله تعالى أو الملقى عليه أو الروح ، والإنذار دعوة إبلاغ مع تخويف ﴿ **يَوْمَ التَّلاقِ** ﴾ ظرف للمفعول الثاني أي لينذر الناس العذاب يوم التلاق وهو يوم القيامة ، أو هو المفعول الثاني اتساعاً أو أصالة ، فإنه من شدة هوله وفظاعته حقيق بالإنذار أصالةً ، وسمي يوم القيامة « يَوْمَ التَّلاَقِ » لأنه تتلاقى فيه الأرواح والأجساد ، وأهل السموات والأرض ، والعابدون والمعبودون ، والعاملون والأعمال ، والأولون والآخرون ، والظالمون والمظلومون ، وأهل النار مع الزبانية ﴿ **يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ** ﴾ بدل من يوم التلاق أي خارجون من قبورهم ، أو ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء لكون الأرض يومئذ مستوية ، ولا عليهم ثياب إنما عراة مكشوفون كما في الحديث « يحشرون حفاة عراة غُرْلاً »[1] أي غير مختونين ﴿ **لا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ** ﴾ ما من أعيانهم وأعمالهم الجلية والخفية ، السابقة

(١) طرف من حديث أخرجه مسلم والنسائي والترمذي بلفظ (إنكم محشورون إلى حفاةً غُرْلاً ، كما بدأنا أول خلق نعيده ..) الحديث وانظر مسند الإمام أحمد ١ / ٢٢٣ .

واللاحقة مع كثرتهم كما قال تعالى (**يَومَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خافيةٌ**) وكانوا في الدنيا يتوهمون أنهم إذا استتروا بالحيطان والحجب فإن الله لا يراهم ، ويخفى عليه أعمالهم ، فهم يومئذ لا يتوهمون ذلك أصلاً ﴿ **لِمَنِ الملْكُ اليَوْمَ** ﴾ أي قال حين بروزهم وظهور أحوالهم أي ينادي مناد لمن الملك اليوم ؟ فيجيب أي ذلك المنادي بعينه ويقول ﴿ **للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ** ﴾ أو يجيبه أهل المحشر مؤمنهم وكافرهم لحصول العلم الضروري بالوحدانية للكافر أيضاً ، لكن الكافر يقول صغاراً على سبيل التحسر والندامة ، والمؤمن ابتهاجاً وتلذذاً إذ كان يقوله في الدنيا أيضاً ، وهذا يسمى سؤال التقرير ، فإن قلت : كيف خص ذلك بيوم مخصوص والملك لله في جميع الأيام والأوقات؟ قلت : هو وإن كان لله في جميع الأيام إلا أنه سبحانه ملَّك عباده في الدنيا ، ثم تكون دعاويهم منقطعة يوم القيامة لا يدَّعي مدَّعٍ ملِكاً ولا مُلكاً يومئذ ، ولذا قال (**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ**) ويجوز أن يكون قوله لمن الملك اليوم إلخ حكاية لما دل عليه ظاهر الحال في ذلك اليوم من زوال الأسباب وارتفاع الوسائط ، اذ لولا الأسباب لما ارتاب ، وأما حقيقة الحال فناطقة بذلك دائما ، وقيل : السائل والمجيب هو الله تعالى وحده ، وذلك بعد فناء الخلق فيكون ابتداء كلام من الله تعالى .

﴿ **الْيَومَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ** ﴾ إما من تتمة الجواب أو حكاية لما سيقوله تعالى يومئذ عقيب السؤال والجواب ، أي تجزى كل نفس من النفوس البرة والفاجرة ما عملت ﴿ **لا ظُلْمَ اليَوْمَ** ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عذاب ﴿ **إنَّ اللهَ سريعُ الحِسَابِ** ﴾ أي سريعٌ حسابه تماماً إذ لا يشغله تعالى شأن عن شأن ، فيحاسب الخلائق مع كثرتهم في أقرب زمان ويصل إليهم ما يستحقونه سريعاً فيكون تعليلاً لقوله تعالى (اليوم تجزى) إلخ فإن كون ذلك اليوم بعينه يوم التلاقِ ويوم البروز ربما يوهم استبعاد وقوع الكل فيه وعن ابن عباس رضي الله عنه « إذا أخذ في حسابهم لم يَقِلْ أهل الجنة إلا فيها» ﴿ **وَأَنْذِرْهُم** ﴾ خوِّفهم يا محمد يعني أهل مكة ﴿ **يَوْمَ الآزِفَةِ** ﴾ والآزفة فاعلة من أزف الأمر على حد علم إذا قرب ، والمراد القيامة ولذا أُنِّثَ ونظيره أزفت الآزفة أي قربت القيامة وسميت بالآزفة لأزوفها وهو القرب لأن كل آت قريب وإن استبعد البائس أمده وفي الحديث « بعثت أنا والساعة كهاتين ، أن كادت لتسبقني »[1] والإشارة بهاتين الى السبابة والوسطى يعني إن ما بيني وبين الساعة بالنسبة إلى ما مضى من الزمان مقدار فضل الوسطى على السبابة ، شبَّه القرب الزماني بالقرب المساحي لتصوير غاية قرب الساعة ، ثم في الأزوف إشعار بضيق الوقت ولذا عبر عن القيامة بالساعة ، وقيل : « أَتَى أَمْرُ اللهِ » فعبر عنها باللفظ الماضي تنبيهاً على قربها وضيق وقتها ﴿ **إذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ** ﴾ جمع حَنْجَرَة وهي

(١) رواه أحمد والترمذي ، وأصله في الصحيحين ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٢ / ٧ .

الحلقوم والجملة بدل من يوم الآزفة ، فإن القلوب ترتفع عن أماكنها من شدة الفزع ، فتلتصق بحلوقهم فلا تعود فيستروحوا ويتنفسوا ، ولا تخرج فيستريحوا بالموت ، وقيل : ينتفخ السَّحَرُ خوفاً أي الرئة فيرتفع القلب إلى الحنجرة ﴿ **كاظِمِينَ** ﴾ حال من أصحاب القلوب ، والمعنى كاظمين على الغم والكربة ساكتين حال امتلائهم بها ، يعني لا يمكنهم أن ينطقوا ويصرحوا بما عندهم من الحزن والخوف ، من شدة الكربة وغلبة الغم عليهم فقوله (إِذِ القُلوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ) تقرير للخوف الشديد ، وقوله (كاظمين) تقرير للعجز عن الكلام ، فإن الملهوف إذا قدر على الكلام وبث الشكوى حصل له نوع خفة وسكون ، وإذا لم يقدر عظم اضطرابه واشتد حاله ﴿ **مَا لِلظَّالِمِينَ** ﴾ أي الكافرين ﴿ **مِنْ حَمِيمٍ** ﴾ أي قريب مشفق ﴿ **وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾ أي ولاشفيع يشفع على معنى نفي الشفاعة والطاعة معاً ، وعلى أن « يُطَاعُ » مجاز عن يجاب وتقبل شفاعته ، وفي الآية بيان أن لا شفاعة في حق الكفار لأنها وردت في ذمهم ، وإنما قيل « للظَّالمين » موضع للكافرين وإن كان أعم منهم ومن غيرهم من العصاة بحسب الظاهر ، تسجيلاً لهم بالظلم ودلالة على اختصاص انتفاء كل واحد من الحميم والشفيع المشفَّع بهم ، فثبت أن لعصاة المسلمين حميماً وشفيعاً ومشفقاً ، وهو النبي عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين والأولياء المقربين والملائكة أجمعين ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ** ﴾ اي النظرة الخائنة للأعين أو يعلم خائنة الأعين على أنها مصدر كالعافية كقوله تعالى (**وَلاَتَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ**) والخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ، ونقيضها الأمانة ، والمراد هنا استراق النظر إلى غير المحرم كفعل أهل الريب فالنظرة سهمٌ من سهام إبليس كما ورد في الحديث الصحيح[1] ، والنظرةُ الأولى له ـ أي لا يعاقب عليها ـ والنظرة الثانية عليه ، وفي الخبر « يا ابن آدم لك النظرة الأولى دون الثانية »[2] لكونها مقارنة للقصد وهي من قبيل زنى النظر ، قال أبو عثمان : خيانة العين هو أن لا يغضها عن المحارم ، ويرسلها إلى الهوى والشهوات .

﴿ **وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾ من الضمائر والأسرار مطلقاً ، خيراً كانت أو شراً ، وثبت بهذا أن أفعال القلوب معلومة لله تعالى ، وكذا أفعال الجوارح ، لأن أخفاها وهي خائنة الأعين إذا كانت معلومة لله تعالى ، فعلمهُ تعالى سائر أفعال الجوارح يكون أولى ، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحدّ ، وجب أن يكون خوف المجرم منه أشد وأقوى ، فقوله تعالى (يَعْلَمُ) إلخ في قوة التعليل للأمر بالإنذار ﴿ **وَاللهُ يَقْضِي** ﴾ يحكم ﴿ **بِالْحَقِّ** ﴾ أي بالصدق والعدل في حق كل محسن ومسيء ، لأنه المالك الحاكم على الإطلاق فلا يقضي بشيء إلا وهو حق وعدل ، يستحقه المكلف ويليق به ففيه تشديد لخوف المكلف ﴿ **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ** ﴾

---

(١) رواه الطبراني والحاكم بلفظ (النظرة سهمٌ مسموم من سهام إبليس ..) الحديث وانظر الترغيب والترهيب ٣ / ٣٤ .

(٢) رواه أبو داود في النكاح ، والترمذي في الأدب ، والدارمي في الرقاق بلفظ (يا عليُّ لا تتبع النظرةَ النَّظْرة ، فإنما لك الأولى ، وليست لك الآخرة) وانظر مسند الإمام أحمد ٥ / ٣٥١ .

أي يعبدونهم ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ تعالى وهم الأصنام ﴿ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ هذا تهكم بهم لأن جماداً لايقال في حقه يقضي ولا يقضي ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعين وقضائه بالحق ، فإن من يسمع ما يقولون ويبصر ما يفعلون إذا قضى قضى بالحق ، ووعيد لهم على ما يفعلون ويقولون ، وتعريض بحال ما يدعون من دونه ، فإنهم عاجزون عن التلبس بهاتين الصفتين فكيف يكونون معبودين ؟ ثم إنه لما بالغ في تخويف الكفار بأحوال الآخرة أردفه بالتخويف بأحوال الدنيا فقال ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ أولم يسر مشركو مكة في تجارتهم إلى الشام واليمن ﴿ فَيَنْظُرُوا ﴾ يجوز أن يكون منصوباً بالعطف على يسيروا وأن يكون منصوباً على أنه جواب الاستفهام ﴿ كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي مآل حال من قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل ، كعاد وثمود وأضرابهم وكانت ديارهم ممر تجار قريش ﴿ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً ﴾ قدرة وتمكناً من التصرفات ﴿ وَآثاراً فِي الأَرْضِ ﴾ مثل القلاع الحصينة والمدن المتينة ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ عاقبهم وأهلكهم بسبب كفرهم وتكذيبهم ﴿ وَمَا كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ ﴾ من عذاب الله ﴿ مِنْ وَاقٍ ﴾ يقيهم ويحفظهم ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي ما ذكر من الأخذ ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ ﴾ أي المعجزات أو بالأحكام الظاهرة ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ بها وكذبوا رسلهم ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللهُ ﴾ أخذاً عاجلاً ﴿ إِنَّهُ قَوِيٌّ ﴾ متمكن مما يريد غاية التمكن ﴿ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ لأهل الشرك ، لا يعتبر عقاب دون عقابه ، فهذه مصارعهم وآثار هلاكهم ، فبأي وجه أمنوا أن يصيبهم مثل ما أصابهم من العذاب ؟

والقويُّ هو الذي لا يلحقه ضعف في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فلا يمسه نصب ولا تعب ، ولا يدركه قصور ولا عجز ولا إبرام ، ومن عرف أن الله تعالى هو القوي رجع إليه عن حوله وقوته ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى ﴾ ملتبساً ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ وهي المعجزات التسع ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي وحجة قاهرة ظاهرة كالعصا واليد ، أفردت بالذكر مع اندراجها تحت الآيات تفخيماً لشأنها ، فهو من قبيل عطف الخاص على العام ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ وهامان وزيره ،وخصَّهما بالذكر لأن الإرسال إليهما إرسال إلى القوم كلهم لكونهم تحت تصرف الملك والوزير ، تابعين لهما والناس على دين ملوكهم ﴿ وقَارُونَ ﴾ خص بالذكر لكونه بمنزلة الملك من حيث كثرة أمواله وكنوزه ، ولاشك أن الإرسال إلى قارون متأخر عن الإرسال إلى فرعون وهامان لأنه كان إسرائيلياً ابن عم موسى ، مؤمناً في الأوائل حافظاً للتوراة ، ثم تغير حاله بسبب الغنى ، فنافق كالسامري ، فصار ملحقاً فرعون وهامان في الكفر والهلاك ﴿ فَقَالُوا ﴾ في حق ما أظهره من المعجزات خصوصاً في أمر العصا إنه ﴿ سَاحِرٌ ﴾ لما أبداه من الخوارق

وقالوا فيما ادعاه في رسالة رب العالمين إنه ﴿ كَذَّابٌ ﴾ والكذاب الذي عادته الكذب بأن يكذب مرة بعد أخرى ، ولم يقولوا سحار لأنهم كانوا يزعمون أنه ساحر ، وأن سحرتم أسحر منه كما قالوا ﴿ يأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وبيان عاقبة من هو أشد من قريش بطشاً وأقربهم زماناً يشير بقوله (ولقد أرسلنا) إلخ إلى أنه تعالى من عواطف إحسانه يرسل أفضل خلقه في وقته ، إلى من هو أرذل خلقه ، ويبعث أخص عباده ليدعوه لإصلاح حاله بفضله ونواله ، والعبد من خِسَّة طبعه وركاكة عقله يقابله بالتكذيب وينسبه إلى السحر ، والله تعالى إظهاراً لحكمه وكرمه ، لا يعجل عقوبته ويمهله إلى أوان ظهور شقوته ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ وهو ما ظهر على يده من المعجزات القاهرة ﴿ قَالُوا ﴾ لاستكمال شقاوتهم ﴿ اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ أي تابعوه في الإيمان ، والقائل فرعون وذوو الرأي من قومه ، أو فرعون وحده لأنه بمنزلة الكل كما قال (سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ) ﴿ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ أي أبْقُوا بناتهم أحياء فلا تقتلوهن ، والمعنى أعيدوا عليهم القتل وذلك أنه قد أمر بالقتل قبيل ولادة موسى عليه السلام بأخبار المنجمين بقرب ولادته ففعله زماناً طويلاً ، ثم كف عنه مخافة أن تفنى بنوا إسرائيل وتقع الأعمال الشاقة على القبط ، فلما بعث موسى وأحسَّ فرعون بنبوته أعاد القتل غيظاً وحنقاً ظناً منه أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملك فرعون على يده ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ ﴾ فرعون وقومه أو غيرهم أي وما مكرهم وسوء صنيعهم ﴿ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ في ضياع وبطلان لا يغني عنهم شيئاً ، وينفذ عليهم لا محالة القدر المقدور والقضاء المحتوم ، قال بعضهم : عزم على إهلاك موسى وقومه ، واستعان على ذلك بجنده وخيله ورجله إتماماً لاستحقاقهم العذاب ، ولكن من حفظ الحق تعالى كان كما قال (وما كَيْدُ الكَافِرِينَ إِلاّ فِي ضَلاَلٍ) وحكي أن شاباً كان يأمر وينهى ، فحبسه الحاكم في بيت وسد المنافذ ليهلك فيه ، فبعد أيام رؤي في بستان يتفرَّج فأحضره فقال من أخرجك ؟ قال الذي أدخلني البستان ، فقال من أدخلك البستان ؟ قال الذي أخرجني من البيت ، فتعجب الحاكم فبكى وأمر له بالإحسان ، وبأن يركب فرساً وينادى بين يديه هذا رجل أعزه الله وأراد الحاكم إهانته فلم يقدر إلا على إكرامه واحترامه ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لملئه ﴿ ذَرُونِي ﴾ خلُّوا عني واتركوني ﴿ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ فإني أعلم أن صلاح ملكي في قتله ، وكان إذاهمَّ بقتل موسى عليه السلام كفه ملأه بقولهم ليس هذا بالذي تخافه ، فإنه أقل من ذلك وأضعف ، وما هو إلا بعض السحرة ، وبقولهم إذا قتلته أدخلت على الناس شبهة ، واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة، وعدلت إلى المقارعة بالسيف ، وأوهم اللعين أنهم هم الكافُّون له عن قتله ، ولولاهم لقتله ، وماكان الذي يكفُّه إلا مافي نفسه من الفزع الهائل ، وذلك أنه تيقن نبوة موسى ولكن كان يخاف إن همَّ بقتله أن

يعاجل بالهلاك ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّه ﴾ الذي يزعم أنه أرسله كي يمنعه مني ، وهو يخاف منه ظاهراً ويخاف من دعاء ربه باطناً ، وإلا فما له يقيم له وزناً ويتكلم بذلك ؟ ﴿ إِنِّي أَخَافُ ﴾ إن لم أقتله ﴿ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أي يُغيِّر ما أنتم عليه من الدين الذي هو عبارة عن عبادته وعبادة الأصنام التي كانوا عليها ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ ما يفسد دنياكم من التحارب والتهارج إن لم يقدر على تبديل دينكم بالكلية ، فمعنى « أو » وقوع أحد الشيئين ، وفي الآية إشارة إلى أن فرعون مِنْ عمى قلبه ظن أن الله يذره أن يقتل موسى بحوله وقوته ، أو يذره قومه ولم يعلم أن الله يهلكه ويهلك قومه ، وينجي موسى وقومه وقد خاف من تبديل الدين أو الفساد في الأرض ، ولم يَخَفْ هلاك نفسه وهلاك قومه وفساد حالهم في الدارين ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ أي لقومه حين سمع ما يقوله اللعين من حديث قتله عليه السلام ﴿ إِنِّي عُذْتُ ﴾ التجأت واحتميتُ ﴿ بِرَبِي وَرَبِّكُمْ ﴾ خص اسم الرب لأن المطلوب هو الحفظ والتربية ، وإضافته إليه وإليهم للحث على موافقته في العياذ به تعالى والتوكل عليه ، فإن في تظاهر النفوس تأثيراً قوياً في استجلاب الإجابة ، وهو السبب الأصلي في اجتماع الناس لأداء الصلوات الخمس والجمعة والأعياد والاستسقاء ونحوها ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ متعظم عن الإيمان ، ولم يسمِّ فرعون بل ذكره بوصف يعمُّه وغيره من جبابرة أركانه وغيرهم ، لتعميم الاستعاذة والإشعار بعلة القساوة والجرآة على الله ، وهي التكبر وما يليه من عدم الإيمان بالبعث ، ﴿ لاَيُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ ﴾ صفة لما قبله ، عقَّبه به لأن طبع المتكبر القاسي وشأنه إبطال الحق وتحقير الخلق ، لكنه قد ينزجر إذا كان مقراً بالجزاء وخائفاً من الحساب ، وأما إذا اجتمع التكبر والتكذيب بالبعث كان أظلم وأطغى ، فلا عظيمة إلا اراكبها ، فيكون بالاستعاذة أولى وأحرى ، وسئل الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه أي ذنب أخوف على سلب الإيمان ؟ قال ترك الشكر على الإيمان ، وترك خوف الخاتمة ، وظلم العباد ، فإن من كان فيه هذه الخصال الثلاث فالأغلبُ أن يخرج من الدنيا كافراً ، إلا من أدركته السعادة ، ثم إن الكبر من أشد صفات النفس الأمارة فلابد من إزالته .

لقد عزم فرعون - من جبروته وطغيانه - على قتل موسى عليه السلام ، وحُجَّتُه في ذلك أنه يخاف أن يُضلِّلَ موسى النَاسَ ، ويُغيِّر طقوسهم وعاداتهم ، وهذا كما يُقال في المثل « أصبح فرعونُ واعظاً » و « صار الثعلب ناصحاً » وهكذا انقلبت الموازينُ في نظر فرعون ، فأصبح الصلاح فساداً ، والفسادُ صلاحاً ، ولهذا استجار موسى بالله عز وجل من جبروته وطغيانه فقال (**إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ**) وهذه سنة الأنبياء والمرسلين ، الاحتماءُ والالتجاءُ إلى الله ربِّ العالمين ، وقد جاء في الحديث الصحيح ، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال : « اللهمَّ إنَّا نعوذُ بك من شرورهم ، ونَدْرأُ بك في نحورِهم » .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ ﴾ لما استعاذ موسى عليه السلام بالله ، واعتمد على فضله ورحمته ، فلا جرم صانه الله من كل بلية ، وأوصله إلى كل أمنية ، وقَيَّضَ له إنساناً أجنبياً ، حتى ذبَّ عنه بأحسن الوجوه في تسكين تلك الفتنة ، كما حكى الله عنه بقوله وقال رجل ﴿ مُؤْمِنٌ ﴾ كائن ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ فهو صفة ثانية لرجل ، وقوله (يَكْتُمُ إِيمَانَهُ) صفة ثالثة قدَّم الأول أعني مؤمن لكونه أشرف الأوصاف ، وآل الرجل خاصته الذين يؤول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين ، وكان ذلك الرجل المؤمن من أقارب فرعون أي ابن عمه ، وهو منذر موسى بقوله (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) كما سبق أو هذا الرجل لم يكن من أهل دين فرعون وإنما كان مؤمناً فإذا لم يكن من أهل دينه فلم يبق لوصفه بأنه من آله إلا أن يكون من عشيرته ﴿ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ أي يستره ويخفيه من فرعون وملئه ، لا خوفاً بل ليكون كلامه بمحل من القبول ، وكان قد آمن بعد مجيء موسى أو قبله وكَتَمه ، فلما بلغه خبر قصد فرعون بموسى قال ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً ﴾ أتقصدون قتله ظلماً بلا دليل ؟ والإستفهام إنكاري ﴿ أَنْ يَقُولَ ﴾ أي لأن يقول ، أو كراهة أن يقول ﴿ رَبِّيَ اللهُ ﴾ وحده لا شريك له ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَاتِ ﴾ أي والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ لم يقل من ربه لأنهم إذا سمعوا أنه جاءهم بالبينات من ربهم ، دعاهم ذلك إلى التأمل في أمره ، والاعتراف به وترك المكابرة معه ، لأن ما كان من قبل رب الجميع يجب اتباعه وإنصاف مبلغه ، عن عروة بن الزبير قال قلت لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما : حدثني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله عليه السلام ؟ قال : أقبل عقبة بن أبي معيط ورسول الله يصلي عند الكعبة فأخذ بمجامع ردائه عليه السلام ، فلوى ثوبه على عنقه وخنقه خنقاً شديداً ، وقال له : أنت الذي تنهانا عما يعبد آباؤنا ؟ فقال عليه السلام إنه ذاك ، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكِبَيْه عليه السلام والتزمه من ورآئه ، ودفعه عن رسول الله وقال (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم)؟ رافعاً صوته وعيناه تسفحان دمعاً[1] أي تجريان حتى أرسلوه ، وفيه بيان أن ما تولى أبو بكر من رسول الله كان أشد مما تولاه الرجل المؤمن من موسى ، لأنه كان يظهر إيمانه وكان بمجمع قريش وحكى ابن عطية في تفسيره عن أبيه أنه سمع أبا الفضل ابن الجوهري على المنبر يقول وقد سئل أن يتكلم في شيء من فضائل الصحابة رضي الله عنهم فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه فقال :

عَنِ المَرْءِ لاَ تَسَلْ وسَلْ عَنْ قَرِينِهِ * فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي

(١) رواه ابن أبي حاتم والنسائي ، بهذا اللفظ ، ورواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال (قلت أخبرني بأشدّ شيء صنعه المشركون برسول الله .. ؟) الحديث وانظر مختصر ابن كثير ٣ / ٢٤٢ .

ماذا ترون عن قوم قرنهم الله تعالى بنبيه ، وخصَّهم بمشاهدته وتلقي الروح ، وقد أثنى الله على رجل مؤمن من آل فرعون كتم إيمانه وأسرَّه فجعله في كتابه ، وأثبت ذكره في المصاحف لكلام قاله في مجلس من مجالس الكفر ؟ وأين هو من عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ جرد سيفه بمكة وقال : واللهِ لا أعبد الله سراً بعد اليوم ، فكان ما كان من ظهور الدين بسيفه ؟ اهـ. ثم أخَذَهم الرجل المؤمن بالاحتجاج من باب الاحتياط بإيراده في صورة الاحتمال من الظن بعد القطع بكونِ قتله منكراً فقال ﴿ **وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ** ﴾ لا يتخطاه وبال كذبه وضرره فيحتاج في دفعه إلى قتله ، يعني أن الكاذب إنما يقتل إذا تعدى ضرر كذبه إلى غيره كالزنديق الذي يدعو الناس إلى الإلحاد ، والمبتدع الذي يدعو الناس إلى بدعته ، وهذا لا يقدر على أن يحمل الناس على قبول ما أظهره من الدين لكون طباع الناس آبية عن قبوله ، ولقدرتكم على منعه من إظهار مقالته ودينه ﴿ **وَإِنْ يَكُ صَادِقاً** ﴾ في قوله فكذبتموه وقصدتم له بسوء ﴿ **يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ** ﴾ أي أن لم يصبكم كله فلا أقل من إصابة بعضه ، وفي بعض ذلك كفاية لهلاكهم ، فذكر البعض ليوجب الكل لا أن البعض هو الكل ، وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف وعدم التعصب ﴿ **إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ** ﴾ وهو الذي يتجاوز الحد في المعصية أو هو السفاك للدم بغير حق ﴿ **كَذَّابٌ** ﴾ وهو الذي يكذب مرة بعد أخرى ، وقيل (كذاب) على الله لأن الكذب عليه ليس كالكذب على غيره ، وهو احتجاج آخر من وجهين : أحدهما أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله تعالى إلى البينات ولما أيده بتلك المعجزات ، وثانيهما أنه إن كان كذلك خذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله ، ولعله أراهم وهو عاكف على المعنى الأول لتلين شكيمتهم ، وقد عرَّض به لفرعون لأنه مسرف حيث قتل الأبناء بلا جرم ، كذاب حيث ادعى الألوهيَّة لا يهديه الله سبيل الصواب ، ومنهاج النجاة بل يفضحه ويهدم أمره ﴿ **يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ** ﴾ والسلطنة ﴿ **الْيَوْمَ** ﴾ حال كونكم ﴿ **ظَاهِرِينَ** ﴾ غالبين عالين على بني إسرائيل ﴿ **فِي الأَرْضِ** ﴾ أي أرض مصر لا يقاومكم أحد في هذا الوقت ﴿ **فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ** ﴾ من أخذه وعذابه ﴿ **إِن جَاءَنَا** ﴾ أي فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله بقتله ، فإنه إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد ، وإنما نسب ما يسرُّهم من الملك والظهور في الأرض إليهم خاصة ، ونظم نفسه في سلكهم فيما يسوءهم من مجيء بأس الله ، تطميناً لقلوبهم وإيذاناً بأنه مناصح لهم ، ساع في تحصيل ما يجديهم ودفع ما يُرْدِيهم ، وسعيُه في حق نفسه ليتأثروا بنصحه ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ** ﴾ بعد ما سمع نصحه إضراباً عن المجادلة ﴿ **مَا أُرِيكُمْ** ﴾ أي ما أشير عليكم ﴿ **إِلاَّ مَا أَرَى** ﴾ وأستصوبه من قتله قطعاً لمادة الفتنة ﴿ **وَمَا أَهْدِيكُمْ** ﴾ بهذا الرأي ﴿ **إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴾ أي الصواب ولقد كذب حيث كان مستشعراً للخوف الشديد ، ولكنه كان يظهر الجلادة وعدم المبالاة ، ولولا ذلك لما استشار أحداً أبداً وقيل : إن الإستشارة كانت من عادته ، حتى إنه كان يلين قلبه في بعض الأوقات من

تأثير كلام موسى عليه السلام فيميل إلى الإيمان ، ويستشير امرأته آسية فتشير عليه بالإيمان ومتابعة موسى ويستشير وزيره هامان فيصده عن ذلك ﴿ **وَقَالَ الَّذِي آمَنَ** ﴾ من آل فرعون مخاطباً لقومه واعظاً لهم ، وفي الحديث « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[1] وذلك من أجل علة الخوف والقهر ولأن الجهاد بالحجة والبرهان أكبر من الجهاد بالسيف والسنان ﴿ **يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم** ﴾ في تكذيب موسى عليه السلام والتعرض له بسوء كالقتل والأذى ﴿ **مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ** ﴾ مثل أيام الأمم الماضية ، يعني وقائعهم العظيمة وعقوباتهم الهائلة ، على طريق ذكر المحل وإرادة الحال ﴿ **مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ** ﴾ مثل حال قوم نوح وشأنهم في العذاب ﴿ **وَعَادٍ** ﴾ ومثل الريح الصَّرْصَرِ التي استأصلت عاداً ﴿ **وَثَمُودَ** ﴾ وهلاك قوم ثمود بالصيحة ﴿ **والَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم** ﴾ ومَنْ بعدهم من المؤتفكات كأصحاب الأيكة وغيرهم ﴿ **وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ** ﴾ فلا يُهلكهم قبل ثبوت الحجة عليهم ، ولا يعاقبهم بغير ذنب ، ولا يخلي الظالم منهم بغير انتقام ﴿ **ويَا قَوْمِ إِنِي أَخَافُ عَلَيْكُم يَوْمَ التَنَّادِ** ﴾ أصله يوم التنادي بالياء على أنه مصدر ، والمراد بيوم التناد يوم القيامة لأنه ينادي فيه بعضهم للاستغاثة كقولهم (**فَهَل لَنَا مِنْ شُفَعاءَ فَيشْفَعُوا لَنا**) أو يتصايحون بالويل والثُّبور بنحو قولهم (**يا ويلنا من بعثنا ؟ وما لهذا الكتاب**) ويتنادىأصحاب الجنة وأصحاب النار يعني ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار (**أَنْ قَدْ وَجَدْنا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَل وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُكُمْ حَقّاً قَالُوانَعَمْ**) وكقوله تعالى (**وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّار أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ**) ﴿ **يَوْمَ تُوَلُّونَ** ﴾ بدل من يوم التناد ﴿ **مُدْبِرِينَ** ﴾ حال كونكم منصرفين عنه إلى النار ﴿ **مَالَكُم مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ** ﴾ أي مالكم من عاصم يعصمكم من عذابه تعالى ويحفظكم ﴿ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هَاد**) يهديه إلى طريق النجاة ، قاله لما أيس من قبولهم ، وفي الآيات إشارة إلى أن الله تعالى إذا شاء بكمال قدرته ، إظهاراً لفضله ومنَّته يخرج الحي من الميت ، كما أخرج من آل فرعون مؤمناً حياً قلبه بالإيمان ، من بين كفار أموات قلوبهم بالكفر ، لتحقق قوله تعالى (**وَلَوْ شِئْنا لآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها**) وإذا شاء إظهاراً لعزته وجبروته يُعْمي ويُصمُّ الملوك والعقلاء ، مثل فرعون وقومه لئلا يبصروا آيات الله الظاهرة ، ولا يسمعون الحجج الباهرة ، مثل ما نصحهم بها المؤمنُ ، ليتحقق قوله تعالى (**وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لهُ مِنْ هادٍ**) وأسند الإضلال إلى الله تعالى ، لأنه خالق الضلالة وإنما الشيطان ونحوه من الوسائط ، وفي قوله تعالى (**فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**) إشارة إلى أن التوفيق والاختيار للواحد القهار ، فلو كان لآدم لاختار قابيل ، ولو كان لنوح لاختار كنعان ، ولو كان لإبراهيم لاختار آزر ،ولو كان لموسى

---

(١) رواه ابن ماجه وأحمد والطبراني ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٢٠٨ .

لاختـار فرعون ، ولو كان لمحمـد عليهم السلام لاختـار عمـه أبـا طـالب ، ثم العجب أن مثل موسى عليـه السلام يكون وسط قومه لا يهتدون بـه !! وذلـك لأن صـاحب المرض لا يجـد حلاوة العسل ، والضرير لا يرى الشمس ، وليس ذلك إلا من سوء المزاج وفساد الحال وفقدان الاستعداد .

ثم قال مؤمن آل فرعون بطريق التوبيخ ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَكُمْ** ﴾ يا أهل مصر ﴿ **يُوْسُفُ** ﴾ ابن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام ﴿ **مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي من قبل موسى ﴿ **بالبَيِّنَاتِ** ﴾ بـالمعجزات الواضحـة التي من جملتهـا تعبير الرؤيا ، وشهادة الطفل على برآءة ذمتـه ، وقـد كان بعث إلى القبـط قبل موسى بعد موت الملك ﴿ **فَمَـا زِلْتُمْ** ﴾ أي دمتم ﴿ **فِي شَـكٍ مِمَّـا جَـاءَكُم بِـهِ** ﴾ من الـذين الحق ﴿ **حَتَّى إذا هَلَكَ** ﴾ بالموت ﴿ **قُلْتُم** ﴾ ضماً إلى تكذيب رسالته تكذيب رسالة من بعـده ﴿ **لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً** ﴾ وفي الآية إشارة إلى أن في الإنسان ظلماً وجهـالـة لايؤمن بنبي من الأنبيـاء ولا بمعجزاتهم أنها آيات الحق تعـالى ، وهـذه طبيعـة المتقـدمين والمتأخرين منهم ، وإنما المهتـدي من يهـديـه الله بفضلـه وكرمه ، ومن إنكارهم الطبيعي أنهم ما آمنوا بنبوة يوسف فلمـا هلـك أنكروا أن يكون بعـده رسول الله ، وذلك من زيادة شقاوة الكافرين ، كما أن من كمال المؤمنين أن يؤمنوا بالأنبياء قبل نبيهم ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ أي مثل ذلك الإضلال الفظيع ﴿ **يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ** ﴾في عصيانه ﴿ **مُرْتَابٌ** ﴾ في دينـه شـاك في معجزات أنبيائه لغلبة الوهم والتقليد ﴿ **الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ** ﴾ والمراد بـالمجـادلـة رد الآيـات والطعن فيها ﴿ **بِغَيْرِ سُلْطَانٍ** ﴾ أي بغير حجة وبرهان صالحة للتمسك بهـا في الجملـة ﴿ **أَتَـاهُم** ﴾ صفـة سلطان ﴿ **كَبُرَ** ﴾ عظم من هو مسرف مرتاب أو الجدال﴿ **مَقْتاً** ﴾ أي من جهة البغض الشديد والنفور القوي ﴿ **عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : يمقتهم الـذين آمنوا بـذلـك الجـدال ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ أي مثل ذلك الطبع الفظيع ﴿ **يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** ﴾ فيصـدر عنـه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب والمجادلة بالباطل . اعلم أن الطـابع هو الله تعـالى ، والمطبوع عليـه هو القلب ، وسبب الطبع هو التكبر والجبارية ، وحكمه أن لا يخرج من القلب ما فيه من الكفر والنفاق والزيغ والضلال ، فلا يدخل فيه ما في الخارج من الإيمان والإخلاص والسداد والهدى ، وهو أعظم عقوبة من الله عليه ، فعلى العاقل أن يتشبث بالأسباب المؤدية إلى شرح الصدر لا إلى طبع القلب ، قـال إبراهيم الخواص دواء القلب خمسة : قراءة القرآن بـالتـدبر ، وخلاء البطن ، وقيـام الليل ، والتضرع إلى الله عنـد السحر ، ومجالسة الصالحين ، وقال الحسن البصري : حادثوا هذه القلوب بـذكر الله ، فإنها سريعـة الـدثور وفي الحديث (إني ليغـان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في كل يوم مـائـة مرة)[1] وفي الآيـة ذم للمتكبر والجبـار

(١) أخرجه مسلم في الذكر ، وأبو داود في الوتر بلفظ (إنه ليُغان على قلبي ..) الحديث .

وقال عليه السلام (يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صورة الذَرِّ ، يطؤهم الناس لهوانهم على الله) [١] وذلك لأن الصورة المناسبة لحال المتكبر الجبار صورة الذر كما لا يخفى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لوزيره قاصداً إلى صعود السموات لغاية تكبره وتجبره ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ ﴾ أمرٌ من بنى يبني ﴿ لِي صَرْحاً ﴾ أي بناء مكشوفاً ظاهراً على الناظر ، عالياً مشيداً بالآجر كما قال في القصص (فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً) ولهذا كره الآجر في القبور كما في عين المعاني أي لأن فرعون أول من اتخذه ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ ﴾ عسى أن أصعد ﴿ الأَسْبَابَ ﴾ أي الطرق ﴿ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ ﴾ بيان لها ، وفي ابهامها ثم إيضاحها تفخيمٌ لشأنها وتشويق للسامع إلى معرفتها ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَىٰ ﴾ أي استعلِيَ وأنظر إليه ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ ﴾ أي موسى ﴿ كَاذِباً ﴾ فيما يدعيه من الرسالة ، هذا من مقتضى التكبر والتجبر الذي نقل عنه ، كما حصل مثله عن بختصَّر أيضاً لغاية عتوه واستكباره بنى صرحاً ببابل ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي ومثل ذلك التزيين البليغ المفرط ﴿ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أي عمله السيء فانهمك فيه انهماكاً لا يرعوي عنه بحال ﴿ وَصُدَّ ﴾ صرف ومنع ﴿ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أي سبيل الرشاد ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ ﴾ وما مكر فرعون لأبطال الآيات ﴿ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ أي في خسار وهلاك .

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ ﴾ أي من آل فرعون ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ ﴾ فيما دللتكم عليه ﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ أي سبيلاً يصل سالكه إلى المقصود والرشد والرشاد ، الاهتداء لمصالح الدين والدنيا ، وفيه تعريض بأن ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغي والضلال ، وفيه إشارة إلى أن الهداية مودعة في أتباع الأنبياء ﴿ يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الحياةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ أي تمتع يسير وانتفاعٌ قليل ، لسرعة زوالها لأن الدنيا بأسرها ساعة ، فكيف عمر إنسان واحد ؟ يعني لن تصل إلى سبيل الرشاد وفي قلبك محبة للدنيا وطلب لها ﴿ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ لخلودها ودوام ما فيها ، فالدائم خير من المنقضي ، قال بعضهم : لو كانت الدنيا ذهباً فانياً ، والآخرة خَزفاً باقياً ، لكانت الآخرة خيراً من الدنيا ، فكيف والدنيا خزفٌ فانٍ والآخرة ذهب باقٍ ؟ وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نام على حصير فقام وقد أثَّر في جسده ، فقال ابن مسعود رضي الله عنه : يا رسول الله لو أمرتنا أن نبسط لك لنفعل ؟ فقال مالي وللدنيا ، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) [٢] ﴿ مَنْ عَمِلَ ﴾ في الدنيا ﴿ سَيِّئَةً فلا يُجْزَى ﴾ في الآخرة ﴿ إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ عدلاً من الله سبحانه ، فخلود الكافر في النار مثل لعزمه على الكفر لأبدية اعتقاده ، ما المؤمن الفاسق فعقابه منقطع إذ ليس على عزم

(١) أخرجه أحمد في المسند ، والترمذي في سننه ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٤١٦ .

(٢) رواه الترمذي في كتاب الزهد وصحّحه ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٥٠٦ .

أن يبقى مصراً على المعصية ، وفي الآية دليل على أن الجنايات تُغرم بأمثالها ﴿ **وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً** ﴾ وهو ماطلب به رضى الله تعالى أي عمل كان من الأعمال المشروعة ﴿ **مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى** ﴾ ذكرهما ترغيباً لهما في الصالحات ﴿ **وهو** ﴾ أي والحال أنه ﴿ **مُؤْمِنٌ** ﴾ بالله واليوم الآخر ، جعل العمل عمدة والإيمان حالاً للإيذان بأنه لا عبرة بالعمل بدون الإيمان ، إذ الأحوال مشروطة على ما تقرر في علم الأصول ﴿ **فأُولئك** ﴾ الذين عملوا ذلك ﴿ **يَدْخُلُونَ الجنَّة يُرزقُونَ فيها** ﴾ يدخلهم الله ويطعمهم الفواكه المختلفة والمطاعم اللذيذة ﴿ **بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ أي بغير تقدير وموازنة بالعمل ، بل أضعافاً مضاعفة فضلاً من الله ورحمة ﴿ **وَيَاقَوْمِ** ﴾ ناداهم تعطفاً وخوفاً عليهم ﴿ **مَالي** ﴾ الاستفهام للتوبيخ ﴿ **أَدْعُوكُمْ إلى النَّجَاةِ** ﴾ مِنَ النار بالتوحيد ﴿ **وتَدْعُونني إلى النارِ** ﴾ بالإشراك ، ومدار التعجب دعوتهم إياه إلى النار ، لا دعوته إياهم إلى النجاة ، كأنه قيل : أخبروني كيف هذا الحال أدعوكم إلى الخير وتدعونني إلى الشر ؟ ﴿ **تَدْعُونَني لأَكْفُرَ باللهِ** ﴾ بدل ، والدعاء كالهداية يُعَدَّى بإلى واللام ﴿ **وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لي بهِ** ﴾ أي بشركته له تعالى في المعبودية ﴿ **عِلْمٌ** ﴾ والمراد نفي المعلوم وهو ربوبية ما يزعمون اياه شريكاً بطريق الكناية ، وهو من باب نفي الشيء بنفي لازمه ، وفيه إشعار بأن الألوهية لابد لها من برهان موجب للعلم بها ﴿ **وأنا أدْعُوكُم إلى العَزِيزِ** ﴾ الذي لم يكن له كفواً أحد ، وأما المخلوقات فبعضها أكفاءُ بعض ، وأيضاً إلى القادر على تعذيب المشركين ﴿ **الغَفَّارِ** ﴾ لمن تاب ورجع إليه ، القادر على غفران المذنبين ﴿ **لاَجَرَمَ** ﴾ لاشك وقيل كلمة (لا) ردٌّ لما دعوه إليه من الكفر والإشراك ، وجرم فعل ماض بمعنى حق ، فاعله قوله تعالى ﴿ **أَنَّ ما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** ﴾ أي إلى عبادته وإشراكه ﴿ **لَيْسَ لَهُ دَعْوةٌ في الدُّنْيَا وَلاَ في الآخِرة** ﴾ أي حَقَّ وَوَجَبَ عدم دعوة آلهتكم إلى عبادة نفسها أصلاً ، ومن حق المعبود أن يدعو الناس إلى عبادته ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وهذا الشأن منتف عن الأصنام بالكلية لأنها في الدنيا جمادات لا تستطيع دعاء غيرها ، وفي الآخرة إذا أنشأها الله حيواناً ناطقاً تبرأ من عبدتها، أو المعنى حق وثبت عدم استجابة دعوة لها ، أي ليس لها استجابة دعوة لا في الدنيا بالبقاء والصحة والغنى ونحوها ، ولا في الآخرة بالنجاة ورفعة الدرجات وغيرها ، كما قال تعالى (**إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَيَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْسَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ**) فكيف تكون الأصنام رباً ، وليس لها قدرة على إجابة دعاء الداعين ؟ ومن شأن الرب استجابة الدعوات وقضاء الحاجات ﴿ **وَأَنَّ مَرَدَّنَا** ﴾ مرجعنا ﴿ **إِلَىَ اللهِ** ﴾ أي بالموت ومفارقة الأرواح الأجساد ﴿ **وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ أي في الضلال والطغيان كالإشراك وسفك الدماء ﴿ **هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ** ﴾ أي ملازموها ﴿ **فَسَتَذْكُرونَ** ﴾ أي فسيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب ﴿ **ما أَقُولُ لَكُمْ** ﴾ من النصائح ولكن لا ينفعكم الذكر حينئذ ﴿ **وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إلى اللهِ** ﴾ أرده إليه ليعصمني من كل سوء ، قاله لَّما أنهم توعدوه بالقتل ، والتفويض قبل نزول

القضاء ، والتسليمُ بعد نزوله ﴿ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ ﴾ يعلم المحق من المبطل فيحرس من يلوذ به من المكاره ويتوكل عليه ﴿ فَوَقَاهُ اللهُ ﴾ أي حفظه من ﴿ سَيِّئَاتِ مَامَكَرُوا ﴾ شدائد مكرهم ، وما هَمُّوا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم ﴿ وَحَاقَ ﴾ نزل وأصاب ﴿ بِآلِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي بفرعون وقومِه وعدم التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره ، ضرورة أنه أولى منهم بذلك ، من حيث كونه متبوعاً لهم ورئيساً ضالاً مضلاً ﴿ سُوْءُ الْعَذَابِ ﴾ أي الغرق وهذا في الدنيا ، ثم بين عذابهم في البرزخ بقوله ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ ﴾ أي فرعون وآله ﴿ عَلَيْهَا ﴾ أي على النار ومعنى عرضهم تعذيبهم بها ﴿ غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أي في أول النهار وآخره ، وذكر الوقتين إما للتخصيص ، وإما فيما بينهما فالله تعالى أعلم بحالهم ، إما أن يعذبوا بجنس آخر ، أو ينفس عنهم ، وإما للتأبيد كما في قوله تعالى (وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وعَشِيًّا) أي على الدوام ، قال ابن مسعود رضي الله عنه (إنَّ أرواح آل فرعون في أجواف طير سود يعرضون على النار مرتين ، فيقال يا آل فرعون هذه داركم) وفي الحديث (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة)[1] هذا ما دامت الدنيا ﴿ وَيَوْمَ تَقُوْمُ السَّاعَةُ ﴾ وتعود الأرواح إلى الأبدان يقال للملائكة ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ أي عذاب جهنم فإنه أشد مما كانوا فيه ، فإنه للروح والجسد جميعاً ، وهو أشدُّ مما كان للروح فقط كما في البرزخ ، وذلك أن الأرواح بعد الموت ليس لها نعيم ولا عذاب حسي جسماني ، ولكن ذلك نعيم أو عذاب معنوي روحاني حتى تبعث أجسادها ، فترد إليها فتعذب عند ذلك حساً ومعنى ، أو تُنَعَّم ، والأكلُ الذي يراه الميت بعد موته في البرزخ ، هو كالأكل الذي يراه النائم في النوم ، فكأنما تتفاوت درجات الرؤيا ، حتى إنَّ منهم من يستيقظ ويجد أثر الشبع أو الري ، فكذا تختلف أحوال الموتى ، فالشهداء أحياء عند ربهم كحياة الدنيا ، ونعيمهم قريب من نعيم الحس ، ويجوز أن يكون المعنى ادخلوا آل فرعون أشد عذاب جهنم ، فإن عذابها ألوان بعضها أشد من بعض وفي الحديث (أهونُ أهل النار عذاباً ، رَجُلٌ في رجليه نعلان من نار يغلي منها أمُّ دماغه)[2] ثم في الآية دليل على بقاء النفس وعذاب القبر ، لأن المراد بالعرض التعذيب في الجملة ، وليس المراد أنهم يُعْرضون عليها يوم القيامة لقوله بعده (ويَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ) إلخ وإذا ثبت في حق آل فرعون ثبت في حق غيرهم ، اذ لا قائل بالفصل ، وكان عليه السلام لا يصلي صلاة إلا وتعوذ بعدها من عذاب

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ، وانظر جامع الأصول ١١ / ١٦٨ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم وتتته (يغلي منها دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً) وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٨٢ .

القبر [١] وقد رُوي (من كف أذاه عن الناس كان حقاً على الله أن يكف عنه أذى القبر) [٢]

قال العلماء : عذاب القبر هو عذاب البرزخ أضيف إلى القبر لأنه الغالب ، وإلا فكل ميت أراد الله تعذيبه ناله ما أراد به ، قبر أو لم يقبر ، بأن صلب أو غرق في البحر ، أو أحرق حتى صار رماداً وذُرِّي في الجو ، قال أمام الحرمين : من تفرقت أجزاؤه يخلق الله الحياة في بعضها أو كلها ، ويوجِّه السؤال عليها ومحل العذاب والنعيم أي في القبر هو الروح والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة ، قال اليافعي : وتختص الأرواح دون الأجساد بالنعيم والعذاب ما دامت في عليين أو سجين ، وفي القبر يشترك الروح والجسد قال الفقيه أبو الليث : الصحيح عندي أن يقر الإنسان بعذاب القبر ولا يشتغل بكيفيته ، ورُؤي بعضهم بعد موته على حال حسنة فسئل عن سببها فقال كنت أكثر قول (لا إله إلا الله) فكَثِّرْ ياأخي من هذه المقالة الحسنة والكلمة الطيبة ، اللهم اختم لنا بالخير والحسنى ﴿ **وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ** ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك وقت تخاصم أهل فرعون في النار ، سواء كانوا آل فرعون أو غيرهم ، ثم شرح خصومتهم بقوله : ﴿ **فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ** ﴾ منهم في القدر والمنزلة والحال في الدنيا ﴿ **لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا** ﴾ أي أظهروا الكِبْر باطِلاً ، وهم رؤساؤهم ، ولذا لم يقل للكبراء لأنه ليس الكبرياء صفتهم في نفس الأمر ﴿ **إِنَّا كُنَّا لَكُمْ** ﴾ في الدنيا ﴿ **تَبَعاً** ﴾ جمع تابع أي أتباعاً في كل حال ، خصوصاً فيما دعوتمونا إليه من الشرك والتكذيب ﴿ **فَهَلْ أَنْتُم مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ** ﴾ أي رافعون عنا نصيباً أي بعضاً وجزأ من النار باتباعنا إياكم ، فقد كنا ندفع المؤونة عنكم في الدنيا ﴿ **قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا** ﴾ قال المتكبرون على الحق ﴿ **إِنَّا كُلٌّ** ﴾ أي كُلنا نحن وأنتم ﴿ **فِيهَا** ﴾ أي في النار فكيف نغني عنكم ؟ ولو قَدَرنا لأغنينا عن أنفسنا ﴿ **إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ** ﴾ بما يستحقه كل أحد ، فأدخل المؤمنين الجنة على تفاوتهم في الدرجات ، والكافرين النار على طبقاتهم في الدركات ولا معقب لحكمه ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ** ﴾ من الضعفاء والمستكبرين جميعاً لما ذاقوا شدة العذاب وضاقت حيلهم ﴿ **لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ** ﴾ أي المكلَّفين بتعذيب أهل النار ، ووضع جهنم موضع الضمير للتهويل والتفظيع ، وهي لاسم نار الله الموقدة ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُم** ﴾ شافعين لنا ﴿ **يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً** ﴾ أي في مقدار يوم واحد من أيام الدنيا ﴿ **مِنَ الْعَذَابِ** ﴾ أي شيئاً منه ، واقتصارهم في الاستدعاء على تخفيف قدر يسير من العذاب ، في مقدار قصير من الزمان دون رفعه رأساً ، أو تخفيف قدر كثير منه في زمان مديد ، لعلمهم بعدم كونه في حيز الإمكان ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي الخزنة ﴿ **أَوَ لَمْ تَكُ** ﴾ الهمزة للاستفهام أي ألم تنبهوا على هذا ولم تك ﴿ **تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم** ﴾ في الدنيا على

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة ، ولفظه قالت : فما رأيتُ رسول الله ﷺ صلّى صلاةً إلاّ تعوّذَ من عذاب القبر » وانظر جامع الأصول ١١ / ١٦٦ .

(٢) لم أره بهذا اللفظ فيما بين يديّ من المراجع .

الاستمرار ﴿ **بالبَيِّنَاتِ** ﴾ بالحجج الواضحة الدالة على سوء عاقبة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصي ، أرادوا بذلك إلزامهم وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء ، وتعطيل أسباب الإجابة ﴿ **قَالُوا بَلَى** ﴾ أي أتونا بها فكذبناهم ﴿ **قَالُوا** ﴾ إذا كان الأمر كذلك ﴿ **فَادْعُوا** ﴾ أنتم فإن الدعاءَ لمن يفعل ذلك مما يستحيل صدوره عنا ، ولم يريدوا بأمرهم بالدعاء إطماعهم في الاجابة ، بل إقناطهم منها وإظهار حقيقتهم حسبما صرحوا به في قولهم ﴿ **وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ** ﴾ لأنفسهم فالمصدر مضاف إلى غير فاعله ، أو وما دعاء غيرهم لهم تخفيف العذاب عنهم فالمصدر مضاف إلى مفعول ﴿ **إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ** ﴾ أي في ضياع وبطلان لا يجاب لأنهم دعوا في غير وقته ، اختلف العلماء في أنه هل يجوز أن يقال يستجاب دعاء الكافرين فمنعه الجمهور لقوله تعالى (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) ولأن الكافر لا يدعو الله لأنه لا يعرفه ، لأنه وإن أقرَّ به لمَّا وصفه بما لا يليق به نقض إقراره ، وما روي في الحديث أن دعوة المظلوم وإن كان كافراً تستجاب ، فمحمول على كفران النعمة ، وجوَّزه بعضهم لقوله تعالى حكاية عن إبليس (**رَبِّ أَنظِرْنِي**) أي أمهلني ولا تمتني سريعاً فقال الله تعالى (**إنك من المنظرين**) فهذه إجابة وبالجواز يفتى ، فإذا ثبت أن الله تعالى يجيب الدعوات ، لاما سواه من الأصنام ونحوها ، فلابد من توحيده وإخلاص الطاعة والعبادة له ، وعرض الافتقار إليه إذ لا ينفع الغير لا في الدنيا ولا في الآخرة ، جعلنا الله وإياكم من التابعين للهدى والمحفوظين من الهوى ﴿ **إِنَّا** ﴾ نون العظمة أو باعتبار الصفات أو المظاهر ﴿ **لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا** ﴾ النصر العون ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ أي أتباعهم ﴿ **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة ، بالاستئصال والقتل والسبي وغير ذلك من العقوبات ، ولا يقدح في ذلك ما قد يتفق لهم من صورة المغلوبية امتحاناً ، إذ العبرة إنما هي بالعواقب وغالب الأمر ، وأيضاً ما يقع في بعض الأحيان من الانهزام إنما كان بعارض ، كمخالفة أمر الرسول كما في غزوة أُحد ، وكمطلب الدنيا والعجب والغرور كما في بعض وقائع المؤمنين ، وأيضاً إن الله تعالى ينتقم من الأعداء ولو بعد حين كما بعد الموت ﴿ **وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ** ﴾ أي لننصرنهم في الدنيا والآخرة ، وعبَّر عن يوم القيامة بذلك للإشعار بكيفة النصرة ، وأنها تكون عند جمع الأولين والآخرين ، بشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ وعلى الكفرة بالتكذيب، وهم الملائكة والمؤمنون من أمة محمد عليه السلام قال تعالى (**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**) ﴿ **يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ** ﴾ بدل من اليوم الأول أي لاَ يَنفعهم عذرهم عن كفرهم لو اعتذروا في بعض الأوقات ، لأن معذرتهم باطلة فيقال لهم « اخسأوا فيها ولا تُكَلِّمون » ويجوز أن يكون عدم نفع المعذرة لأنه لا يؤذن لهم فيعتذرون ، فيكون من نفي المقيد والقيد ولا معذرة يومئذ ﴿ **وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ** ﴾ أي البعد عن الرحمة ﴿ **وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴾ أي جهنم بخلاف المؤمنين فإنها تنفعهم ، ولهم من الله الرحمة ولهم حسن الدار ، وإنما قال « سُوءُ الدَّارِ » فإن جهنم حرها شديد وقعرها بعيد ، وحليها

حديد ، وشرابها صديد ، وكلامها (هَلْ مِنْ مَزِيد) وأسوأ الظالمين المشركون كما قال تعالى حكاية عن لقمان (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) وأسوأ المشركين المنافقون كما قال تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) لاستهزائهم بالمؤمنين ، فليحذر العاقل عن الظلم سواء كان لنفسه بالإشراك والمعصية ، أو لغيره بكسر العرض وأخذ المال ونحوهما ، وليتذكَّرِ الإنسان يوماً يقول فيه الظالمون (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) فيجيبهم الله تعالى (أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) وروى أن أهل النار يبكون بكاءً شديداً حتى الدم ، فيقول مالك : ما أحسن هذا البكاء لو كان في الدنيا ؟ فعلم أنه لا ينفع المعذرة والبكاء في الآخرة ، فليتدارك العاقل تقصيره في الدنيا بالندامة والصلاح والتقوى ، ليستريح في الآخرة ، ويصل إلى الدرجات العلى ، مع الأنبياء والصديقين والشهداء ، والصالحين ، فمن أراد اللحوق بزمرتهم فليكن على حالهم وسيرتهم ، فإن الله ينصرهم في دنياهم وآخرتهم ، فإن طاعة الله ، وطاعة الرسول توصل العبد إلى المرام وإلى حيز القبول (رُوِيَ) أن بعض الصحابة رضي الله عنهم قال للنبي ﷺ كيف نراك بالجنة وأنت في الدرجات العلى ؟ فأنزل الله تعالى (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً) فلابد من الإطاعة ، وعلى تقدير المخالفة فباب التوبة مفتوح ﴿ ولَقَد آتَيْنا موسى ﴾ بمحض فضلنا موسى بن عمران ﴿ الْهُدَى ﴾ ما يهتدي به ، من المعجزات أو الصحف والشرائع ﴿ وأَوْرَثْنا بَنِي إِسَرائيل الْكِتَاب ﴾ والمراد بالكتاب التوراة ، ولما كان الإيراث الحقيقي إنما يتعلق بالمال ، تعذَّر حمله على معناه ، فأريد الإعطاء مجازاً ، إشعاراً بأن ميراث الأنبياء ليس إلا العلم ، والكتاب الهادي في باب الدين ، والمعنى وتركنا عليهم من بعد موسى التوراة ، إذ سائر ما اهتدي به من أمر الدين قد ارتفع بموت موسى عليه السلام ﴿ هُدَىً ﴾ أي هداية وبياناً من الضلالة ﴿ وَذِكْرَى ﴾ تذكرة وعظة أو حال كونه مذكِّرا ﴿ لأُوْلِي الأَلْبَاب ﴾ لذوي العقول السليمة العاملين بما في تضاعيفه دون الذين لا يعقلون ، والفرق بين الهُدَى والذكرى أن الهدى ما يكون دليلاً على شيء آخر ، وليس من شرطه أن يذكر شيئاً آخر كان معلوماً ثم صار منسياً ، وأما الذكرى فالتذكر والتدبر فليس من ذلك ، وكتب الأنبياء مشتملة على هذين القسمين ، فإن بعضها دلائل في أنفسها ، وبعضها مذكرات لما ورد في الكتب الإلهية المتقدمة ﴿ فَاصْبِر ﴾ كأنه قيل إذا سمعت ما وُعدت به من نصرة الرسل ، وما فعلناه بموسى ، فاصبر على ما أصابك من أذية المشركين ، فهو غير منسوخ بآية السيف إذ الصبر محمود في كل المواطن ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ ﴾ بالنصرة وظهور الإسلام على الأديان كلها ، وفتح مكة ونحوها ﴿ حَقٌّ ﴾ لا يحتمل الإخلاف أصلاً ﴿ واسْتَغْفِر لِذَنْبِكَ ﴾ تداركاً لما فرط منك من ترك الأولى في بعض الأحيان ، فإنه تعالى كافيك نصرة دينك ، وإظهاره على الدين كله ، وقيل : هذا تعبُّدٌ من الله

لرسوله ليزيده درجة ، وليصير ذلك سنة لمن بعده ، وقيل : استغفر لذنب أمتك ، والظاهر أنه تعالى يقول ما أراد أن يقوله ، وإن لم يجز لنا أن نضيف إليه عليه السلام ذنباً ، لأن الأنبياء معصومون من الذنوب .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ أي ودم على التسبيح ملتبساً مقروناً بحمده تعالى ، أو على قول « سبحان الله وبحمده » فالمقصود من ذكر العشي والإبكار الدلالة على المداومة عليهما في جميع الأوقات ، بناء على أن الإبكار عبارة عن أول النهار إلى نصفه ، والعشي عبارة عن نصف النهار إلى أول النهار من اليوم الثاني ، فيدخل فيهما كل الأوقات ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ ﴾ ويجحدون بها ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ حجة قاهرة ﴿ أَتَاهُم ﴾ في ذلك من جهته تعالى ، وتفيد المجادلة بذلك مع استحالة إتيانه ، للإيذان بأن التكلم في أمر الدين لابد من استناده إلى سلطان مبين ﴿ إِنْ ﴾ نافية ﴿ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ﴾ عبر بالصدر عن القلب لكونه موضع القلب ، وفي الحصر إشعار بأن قلوبهم قد خلت عن كل شيء سوى الكبر ، أي ما في قلوبهم إلا تكبر عن الحق ، وتعظم عن الفكر والتعلم ، أو إلا إرادة الرياسة والتقدم على النبي والمؤمنين ، أو إلا إرادة أن تكون النبوة لهم دونك يا محمد حسداً وبغياً ، ولذلك يجادلون فيها لأن فيها موقع جدال ﴿ مَاهُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ أي ما هم ببالغي مقتضى كِبْرِهِم وهو دفع الآيات ، فإني أنشر أنوارها في الآفاق ، وأعلي قدرك على جميع الخلق ، وأعطيك ما كتبته لك من الرياسة والنبوة ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ﴾ أي التجيء إليه ، في السلامة من كيد من يحسد ويبغي عليك ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوالكم ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ لأفعالكم وقيل : المجادلون هم اليهود ، كانوا يقولون لرسول الله عليه السلام : لستَ صاحبنا المذكور في التوراة بل هو المسيح بن داود ، ويريدون أنه الدجال يخرج وفي الحديث (لا تقوم الساعة حتى يبعث دجَّالون كذَّابون ، قريبٌ من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله) [1] وهم الأئمة المضلون نعوذ بالله من فتنة الدجاجلة ، ومن كل فتنة مضلة ، قال المفسرون قوله (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ) الآية وإنْ نزل في مشركي مكة لكنه عام لكل مجادل مبطل ، فإن العبرة لعموم اللفظ ، لا لخصوص السبب (لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ) تحقيق للحق ، وتبين لأشهر ما يجادلون فيه ، وهو أمر البعث ﴿ أَكْبَرُ ﴾ أعظم في القدرة ﴿ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ مرة ثانية ، وهي الإعادة ، فمن قدر على خلق الأعظم الأقوى بلا أصل ، ولا مادة ، وجب أن يقدر على خلق الأدنى ، وخلق الأذل الأضعف من الأصل والمادة بطريق الأولى ، فكيف يُقِرُّون بأن الله خلق السموات والأرض وينكرون الخلق الجديد يوم البعث ؟ ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ يعني الكفار ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الإعادة أهون من البداية لقصورهم في

---

(١) الحديث اخرجه الترمذي في الفتن رقم ٢٢١٩ وأبو داود في الملاحم ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٣٩٠ .

النظر والتأمل لفرط غفلتهم واتباعهم لأهوائهم ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ ﴾ أي الغافل والمستبصر ، فالمراد بالأعمى مَنْ عَمِيَ قلبه عن رؤية الآيات والاستدلال بها ، والبصير من أبصرها قال الشاعر :

أَيُّهَا المُنْكِحُ الثُرَيَّا سُهَيْلاً * عَمْرُكَ اللهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ

هَيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ * وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانِي

أي فكما لا تساوي بينهما فكذلك لا تساويَ بين المؤمن والكافر والعالم والجاهل ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قدَّمه لمجاورة البصير ، وهو باب من أبواب البلاغة والمراد بهم المحسنون ﴿ وَلاَ المُسِئ ﴾ اسم جنس يعني المسيئين ، والمعنى وما يستوي المحسنُ والمسيء أي الصالح والطالح ، فلابد أن يكون لهم حالة اخرى يظهر فيها ما بين الفريقين من التفاوت ، وهي فيما بعد البعث وهو احتجاج آخر على حقيقة البعث والجزاء ، وزيادة « ولا » في المسيء لتأكيد النفي لطول الكلام بالصلة ، ولأن المقصود نفي مساواته للمحسن ، لأنه كما لا يساوي المحسن المسيء فيما يستحقه المسيء من الحقارة والهوان ، كذلك لا يساوي المسيء المحسن فيما يستحقه المحسن من الفضل والكرامة ﴿ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ تذكراً قليلاً تتذكرون أيها الكفار المجادلون ، وإن كنتم تعلمون أن التبصر خير من الغفلة ولا يستويان وكذا العمل الصالح خير من العمل الفاسد لكنكم لا تتذكرون إلا تذكراً قليلاً ، أو لا تتذكرون أصلاً فإنه قد يعبر بقلة الشيء عن عدمه ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ ﴾ إن القيامة ﴿ لآتِيَةٌ ﴾ أكد باللام لأنَّ المخاطبين هم الكفار ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي في مجيئها لوضوح شواهدها ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ يعني الكفار ﴿ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ لا يصدقون بها لقصور أنظارهم على الظواهر ، وقوة الفهم بالمحسوسات ، وهذا الكفر والتكذيب طبيعةُ النفوس إلا من عصمه الله تعالى ونظر إلى قلبه بنظر العناية (روي) أن الصراط سبع قناطر فيسأل العبد عند القنطرة الأولى عن الإيمان وهو أصعب القناطر ، وأهم القناطر وأهواها قراراً ، فإن أتى بالإيمان نجا وإن لم يأت به تردى إلى أسفل السافلين ، ويسأل في الثانية عن الصلاة ، وفي الثالثة عن الزكاة ، وفي الرابعة عن صيام شهر رمضان ، وفي الخامسة عن الحج ، وفي السادسة عن الأمر بالمعروف ، وفي السابعة عن النهي عن المنكر ، فإن أجاب في الكل نجا وإلاَّ تردى في النار .

فأساس الدين هو الإيمان والتوحيد ، ثم يبنى عليه سائر الواجبات قال مالك بن دينار رحمه الله : رأيت جماعة في البصرة يحملون جنازة وليس معهم أحد ممن يشيع الجنازة ، فسألتهم عنه فقالوا هذا من كبار المذنبين ، قال فصليت عليه وأنزلته في قبره ثم انصرفت إلى الظل فنمت فرأيت ملكين نزلا من السماء فشقا قبره ونزل أحدهما في القبر ، وقال : اكتبه من أهل النار لأنه لم تسلم جارحة منه عن الذنب،

فقال الآخر : لا تعجل ثم نزل هو فقال لصاحبه : قد اختبرت قلبه فوجدته مملوءً بالإيمان فاكتبه مرحوماً ، فإذا صلح القلب بالتوحيد والإيمان بالله وباليوم الآخر ، يرجى أن يتجاوز الله عن سيئاته ، ثم إن الساعة ارتاب فيها المرتابون مع وضوح شواهدها ، وأما أهل الإيمان والعيان فرأوها كأنها حاضرة (روي) أن رسول الله ﷺ سأل حارثه (كيف أصبحت ياحارثة ؟ قال : أصبحتُ مؤمناً حَقّاً ، قال ياحارثة : إن لكل قولٍ حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال عزفتْ نفسي عن الدنيا أي زهدت وانصرفت ، فأظمأتُ نهارها وأسهرتُ ليلها ، واستوى عندي حجرها وذهبها ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون ، وإلى أهل النار يتضاغون أي يصرخون باكين ، وكأني أنظر إلى عرش ربّي بارزاً فقال عليه السلام : عرفتَ فالزم)[1] نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من الصالحين المحسنين الفائزين بمطالب الدنيا والآخرة ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ** ﴾ أيها الناس ﴿ **ادْعُونِي** ﴾ وحدوني ، واعبدوني ﴿ **أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ أي أُثبْكُم بقرينة قوله تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي** ﴾ يتعظمون عن طاعتيَ ﴿ **سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ** ﴾ حال كونهم ﴿ **دَاخِرِينَ** ﴾ أي صاغرين أذلاء فأهل السنة يثبتون لله تعالى صفات ثبوتية وينزهونه عمَّالا يليق به ، فهم إنما يدعون الله تعالى ، فما من مؤمن يدعو الله ويسأله شيئاً إلا أعطاه إياه ، إمَّا في الدنيا ، وإما في الآخرة ، ويقول له : هذا ماطلبتَ في الدنيا وقد ادخرته لك ، حتى يتمنى العبد أنه ليته لم يعط شيئاً في الدنيا ، وهناك أماكن يستجاب فيها الدعاء ، فعرفات وزمان الوقوف من مظان الإجابة ، وكذا جميع أمكنة العبادات وأوقات الطاعات ، لأن الله تعالى إذا رأى عبده حيث أمر، رضي عنه واستجاب دعاءه ، والأدب في ابتداء كل توجه أو دعاء ، التوبةُ وذكر محامد الله والثناء عليه ، والصلاة على النبي ﷺ وأكل الحلال ، وهو الترياق المجرَّب ، والتبري من الحول والقوة ، وترك الالتجاء إلى غير الله ، وحسن الظن بالله وجمع الهمة وحضور القلب ، وغاية الدعاء وإظهار الفاقة ، والأمر لله يفعل ما يريد .

وفي الحديث (إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها ، وإذا فرغتم فامسحوا بها وجوهكم ،وما سئل الله شيئاً أحب إليه من أن يُسْأَلَ العافية)[2] والمستحب أن يرفع يديه عند الدعاء إلى حذاء صدره ، كذا فعله النبي ﷺ كما رواه ابن عباس رضي الله عنهما ، والأفضل أن يبسط كفيه ويكون بينهما فرجة ، ولا يَضَعْ إحدى يديه على الأخرى ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الداعين العابدين له بالإخلاص ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ** ﴾ أي لتستريحوا فيه من عناء النهار وكدّه ، فإن الليل لكونه بارداً رطباً تضعف فيه القوى المحركة ، ولكونه مظلماً يؤدي إلى سكون الحواس ، فتستريح النفس والقوى والحواس بقلة أشغالها وأعمالها ﴿ **وَالنَّهَارَ مُبْصِراً** ﴾ أي مُبْصَراً فيه ، أو به يعني يبصر به

(١) رواه أحمد في المسند والبزار ، وانظر جمع الفوائد ١ / ٢٥ ففيه زيادة ألفاظ عن هذه الرواية .

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه والطبراني والحاكم ، وانظر الفتح الكبير ١ / ١١٨ .

المبصرون الأشياء ، ولكونه حاراً يقوي الحركات في اكتساب المعاش ، فإسناد الإبصار إلى النهار فيه مبالغة ، وقيل : المراد جعل لكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً لتنتشروا فيه ولتبتغوا من فضل الله ، فحذف من الأول بقرينة الثاني ومن الثاني بقرينة الأول ﴿ **إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ** ﴾ عظيم ﴿ **عَلَى النَّاسِ** ﴾ بخلق الليل والنهار لا يوازيه فضل ولا يدانيه ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ أي لا يشكرون فضل الله وإحسانه ، لجهلهم بالمنعم وإغفالهم مواضع النعم ، أي لا يعرفون رفعة شأنها وعلو قدرها ، وإذا فقدوا شيئاً منها يعرفون قدرها ، مثل أن يتّفق لبعض ـ والعياذ بالله ـ أن يحبسه بعض الظلمة في بئر عميق مظلم مدة مديدة ، فإنه حينئذ يعرف قدر نعمة الهواء الصافي وقدر نعمة الضوء .

﴿ **ذَلِكُمُ** ﴾ المتفرد بالأفعال المقتضية للألوهية والربوبيّة ﴿ **اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ لا إِلَهَ إِلا هُوَ** ﴾ أخبار مترادفة تخصص السابقة منها اللاحقة وتقرر أي هو الخالق المبدع لكل شيء في الأكوان ﴿ **فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** ﴾ فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته خاصة إلى عبادة غيره ؟ ﴿ **كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ أي مثل ذلك الإفك العجيب الذي لا وجه له ، يؤفك ويصرف عنه كل جاحد قبلهم أو بعدهم ﴿ **اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ** ﴾ لمصالحكم وحوائجكم ﴿ **الأَرْضَ قَرَاراً** ﴾ مستقراً أي موضع قرار ، ومكان ثبات وسكون ﴿ **وَالسَّمَاءَ بِنَاءً** ﴾ أي قبة مبنية مرفوعة فوقكم ، ومنه أبنية العرب لمضاربهم ، وذلك لأن السماء في نظر العين كقبة مضروبة على فضاء الأرض ﴿ **وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** ﴾ بيان فضله المتعلق بأنفسهم والفاء في « فأحسن » تفسيرية ، فإن الإحسان عين التصوير كما في قوله عليه السلام (إن اللهَ أَدّبني فأَحْسَنَ تَأْدِيبي) [1] فإن الإحسان عين التأديب ، والمعنى صوّركم أحسن تصوير ، حيث خلقكم منتصبي القامة ، بادي البشرة ، متناسبي الأعضاء والأشكال ، متهيئين لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ، خلق ابن آدم قائماً معتدلاً يأكل ويتناول بيده ، وغير ابن آدم يأكل بفمه ، وإلى هذا المعنى أشار بقوله تعالى (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) ﴿ **وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** ﴾ من المأكولات اللذيذة ، قال بعضهم : ليس الطيب ما يستطيبه الخلق ، بل الطيب ما يستطيبه الحق ، فإنه (طيب لا يقبل إلا طيباً) [1] فالطيب الذي يقبله الله من العبد وهو من مكاسبه الكلم الطيب ، وهي كلمة « لا إله إلا الله » كما قال تعالى (**إِلَيهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ**) والحاصل أن الطيب أنواع : طيب الأرزاق وطيب الأذكار ، وطيب الحالات ﴿ **ذَلِكُمُ** ﴾ الذي نُعِتَ بما ذُكر من النعوت الجليلة ﴿ **اللهُ رَبُّكُمْ** ﴾ الذي يستوجب منكم العبادة

---

(١) رواه السمعاني في أدب الإملاء عن ابن مسعود بلفظ (ادبني ربي فأحسن تأديبي) وانظر الفتح الكبير ١ / ٥٩ .

(٢) طرف من حديث أخرجه مسلم ، والترمذي ، وأحمد في المسند ٣ / ٣٢٨ .

﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ ﴾ أي تقدس وتنزه وتعالى بذاته عن أن يكون له شريك في العبادة ، إذ لا شريك له في شيء من تلك النعم ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي رب جميع العوالم من الإنس والجن وغيرهم أي مالكهم ومربيهم ، والكل تحت ملكوته مفتقر إليه في ذاته ووجوده وسائر أحواله جميعاً ﴿ هُوَ الحيُّ ﴾ أي المتفرد بالحياة الذاتية الحقيقية لا يموت ، ويميت الخلق ﴿ لاَ إِلَهَ إلا هُوَ ﴾ إذ لاموجود يدانيه في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ فَادْعُوهُ ﴾ فاعبدوه خاصة لاختصاص ما يوجبه من القدرة والخلق ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي الطاعة من الشرك الجلي والخفي قائلين ﴿ الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي حامدين ربكم على إنعامه وإفضاله بهذه الصيغة التي أُمرتم بها ، عن ابن عباس رضي الله عنهما من قال « لا إله إلا الله » فليقل على أثرها « الحمد لله رب العالمين » ﴿ قُلْ ﴾ روي أن كفار قريش قالوا يا محمد ألا تنظر إلى ملة أبيك عبد الله ، وملة جدك عبد المطلب فتأخذ بها ؟ فأنزل الله تعالى قل يا محمد ﴿ إني نُهيتُ ﴾ النهي الزجر عن الشيء ﴿ أَنْ أَعْبُدَ الذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أي الأصنام ﴿ لَمّا جَاءَنِيَ البَيِّنَاتُ مِنْ رَبّي ﴾ أي وقت مجي الآيات القرآنية من ربي ، وذلك لأنه لا نهيَ ولا وجوب عند أهل السنة ، ألاّ بعد ورود الشرع ، ويجوز أن يقال كان منهياً عن عبادتها عقلاً ، بحسب دلالة الشواهد على التوحيد فأكد النهي بالشرع ، ويجوز أنه نهي له عليه السلام والمراد غيره ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ بأن انقاد له وأخلص له ديني ﴿ هُوَ الّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ يا بني آدم ﴿ مِنْ تُرَابٍ ﴾ أي في ضمن خلق أبيكم آدم ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أي ثم خلقكم تفصيلياً من منيّ ، قال الراغب : النطفة الماء الصافي ، ويعبر بها عن ماء الرجل أي ماء الصلب يوضع في الرّحم كما قال ابن سينا .

لا تُكْثِرنَّ من الجِمَاعِ فَإِنَّهُ * مَاءُ الحَيَاةِ يُصَبُّ في الأَرْحَامِ

والمعنى خلق أصلكم آدم من تراب ، ثم خلقكم من نطفة ، نسلاً بعد نسل ، أو خلق كل واحد منكم من التراب بمعنى أن كل إنسان مخلوق من المني ، وهو من الدم وهو من الأغذية الحيوانية والنباتية ، والحيوانية لابد أن تنتهي إلى النباتية وإلاّلزم أن تتسلل الحيوانيات إلى غير النهاية ، والنبات إنما يتولد من الماء والتراب ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ وهي الدم الجامد ، لأن المني يصير على هذا الشكل بعد أربعين يوماً في بطن الأم ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُم طِفْلاً ﴾ الطفلُ : الولد مادام ناعماً والصغير من كل شيء أو المولود ، وحدُّ الطفل من أول ما يولد إلى أن يستهل صارخاً إلى انقضاء ستة أعوام ، والطفل مفرد لا جمع ، أو المعنى ثم يخرج كل واحد منكم من رحم الأم حال كونه طفلاً لتكبروا شيئاً فشيئاً ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ أي كالكم في القوة والعقل ، قال في القاموس : الأشد واحد جاء على بناء الجمع بمعنى القوة ، وهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين ، يقال إذا بلغ الإنسان إحدى وعشرين سنة دخل في الأشد ، وذلك حين اشتدت عظامه ،

وقويت أعضاؤه ﴿ **ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً** ﴾ أي تصيروا إلى حالة الشيخوخة ، والشيخ يقال لمن طعن في السن واستبانت فيه ، أو من خمسين أو إحدى وخمسين إلى آخر عمره أو إلى ثمانين ، قال في كشف الأسرار : يقال إذا ظهر البياض بالإنسان فقد شاب ، وإذا دخل في الهرم فقد شاخ ﴿ **وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي من قبل الشيخوخة بعد بلوغ الأشد ، أو قبله أيضاً ﴿ **وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى** ﴾ وقتاً محدوداً معيناً لا تتجاوزونه هو وقت الموت ، أو يوم القيامة ﴿ **وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ ولكي تعقلوا ما في ذلك الانتقال من طور إلى طور من فنون الحكم والعبر ، وتستدلوا به على وجود خالق القُوَىٰ والقُدَر ﴿ **هُوَ الَّذِي يُحْيِي** ﴾ الأموات كما في الأرحام وعند البعث ﴿ **وَيُمِيتُ** ﴾ الأحياء كما عند انقضاء الأجل وفي القبر بعد السؤال ﴿ **فَإِذَا قَضَى أَمْرَاً** ﴾ القضاء بمعنى التقدير ، عبَّر به عن لازمه الذي هو إرادة التكوين كأنه قيل : إذا قدَّر شيئاً من الأشياء وأراد كونه ﴿ **فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ من غير توقف على شيء من الأشياء أصلاً ، وحقيقة الإحياء والإماتة ترجع إلى الإيجاد ، ولكن الوجود إذا كان هو الحياة سمي فعله إحياء ، وإذا كان هو الموت سُمِّي فعله إماتة ، ولا خالق للموت والحياة إلا الله ، ولا مميت ولا محيي إلا الله تعالى ، فهو خالق الحياة ومعطيها لكل من شاء حياته على وجه يريده ، ومديمها لمن أراد دوامها له كما شاء بسبب وبلا سبب ، وكذا خالق الموت ومسلطه على من شاء من الأحياء ، متى شاء وكيف شاء ، بسبب وبلا سبب ، ومن عرف أنه المحيي المميت لم يهتم بحياة ولا موت ، بل يكون مفوضاً مستسلماً في جميع أحواله لمن بيده الحياة والموت ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ** ﴾ في دفعها وإبطالها ﴿ **أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ** ﴾ أي انظر يا محمد إلى هؤلاء المكابرين ، المجادلين في آياته تعالى الواضحة ، الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها ، وتعجَّبْ من أحوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة ، كيف يُصْرفون عن تلك الآيات القرآنية والتصديق بها إلى تكذيبها ، مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها بالإيمان وانتفاء الصوارف عنها بالكلية ؟ ﴿ **الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ** ﴾ أي بكل القرآن ﴿ **وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا** ﴾ من سائر الكتب ﴿ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ﴾ كنه ما فعلوا من الجدال والتكذيب عند مشاهدتهم لعقوباته ، وهي جملة مستأنفة مسوقة للتهديد ﴿ **إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ** ﴾ والأغلال جمع غُلٍّ بالضم وهو ما يُقيَّد به فيجعل الأعضاء وسطه ، وغُلَّ فلان قُيِّد به أي وضع في عنقه أو يده الغلُّ ، والأعناق جمع عُنُق ، تُغَلُّ أيديهم إلى أعناقهم مضمومةً إليها ﴿ **وَالسَّلاَسِلُ** ﴾ وهو جمع سلسلة وذلك لأن السَّلْسَلة بالفتح إيصال الشيء بالشيء ، ولما كان في السِّلسلة بالكسر إيصال بعض الحِلَقِ بالبعض سميت بها ﴿ **يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ** ﴾ أي حال كونهم مجرورين تجرُّهم خزنة جهنم بالسلاسل إلى الماء الساخن بنار جهنم ، ولا يكون إلا شديد الحرارة جداً لأن ما سخن بنار الدنيا التي هي جزء واحد من سبعين جزأ من نار جهنم ، إذا كان لا يطاق حرارته ، فكيف ما

يسخن بنار جهنم ، وفي كلمة « في » إشعار بإحاطة حرارة الماء لجميع جوانبهم كالظرف للمظروف ، حتى كأنهم في عين الحميم ويسحبون فيها ـ حكي ـ أنه توفيت النوار امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه أهل البصرة ، وخرج فيها الحسن البصري ، فقال الحسن للفرزدق : يا أبا فراس ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال (شهادة أن لا إله إلا الله) منذ ثمانين سنة ، فلما دفنت قام الفرزدق على قبرها وأنشد هذه الأبيات :

أَخَافُ وَرَاءَ القَبْرِ ، إنْ لَمْ يُعَافِنِي * أَشَدَّ مِنَ القَبْرِ التِهَابَاً وَأَضْيَقَا

إِذَا جَاءَنِي يَوْمَ القِيامَةِ قَائِدٌ * عَنِيفٌ وَسَوَّاقٌ يَسُوقُ فَرَزْدَقَا

لَقَدْ خَابَ مِنْ أَوْلاَدِ آدَمَ مَنْ مَشَى * إِلَى النَّارِ مَغْلُولَ القِلاَدَةِ أَزْرَقَا

فبكى وأبكى الحاضرين ﴿ **ثُمَّ** ﴾ أي بعد الجر بالسلاسل إلى الحميم ﴿ **فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ** ﴾ يحرقون بالنار وهي محيطة بهم ، من سَجَر التنور إذا ملأه بالوقود ، ومن كانوا في النار وكانت هي محيطة بهم وصارت أجوافهم مملوءة بها لابدَّ أن يحرقوا بها على أبلغ الوجوه ، فهم يملأون بالنار كائنين فيها ويحرقون، والمراد بيان أنهم يعذبون بأنواع العذاب وينقلون من لون إلى لون ، اللهم أجرنا من نارك إنَّا عائذون ﴿ **ثُمَّ** ﴾ أي بعد الإحراق ﴿ **قِيلَ لَهُم** ﴾ أي يقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع ، وصيغة الماضي للدلالة على التحقيق ﴿ **أَيْنَ مَا كُنْتُم تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ أين الأصنام التي كنتم في الدنيا تشركون بسببها ، رجاء شفاعتهم ؟ ادعوهم ليشفعوا لكم ويعينوكم ؟ وهو نوع آخر من تعذيبهم ﴿ **قَالُوا** ﴾أي يقولون ﴿ **ضَلُّوا** ﴾ غابوا أي الشركاء ﴿ **عَنَّا** ﴾ عن أعيننا وإن كانوا قائمين غير هالكين ، من قول العرب : ضلَّ المسجدَ والدارَ أي لم يعرف موضعها ، وكذلك كل شيء لا تهتدي إليه ، وذلك قبل أن يقرن بهم آلهتهم ، فإن النار فيها أمكنةٌ متعددة ، وطبقات مختلفة ، فلا مخالفة بينه وبين قوله تعالى (**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**) أو ضاعوا عنا فلم نَجِدْ ما كنا نتوقع منهم ، لفقدهم النفع الذي يتوقعونه منهم ، وإن كانوا مع المشركين في جميع الأوقات ﴿ **بَلْ** ﴾ تبين لنا أن ﴿ **لَمْ نَكُنْ نَدْعُو** ﴾ نعبد ﴿ **مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي في الدنيا بعبادتهم ﴿ **شَيْئاً** ﴾ لما ظهر لنا اليوم أنهم لم يكونوا شيئاً يُعْتدُّ به ، كقولك حسبته شيئاً فلم يكن ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ أي مثل ذلك الضلال الفظيع ، وهو ضلال آلهتهم عنهم ﴿ **يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ** ﴾ حيث لا يهتدون في الدنيا إلى شيء من العقائد والأعمال تنفعهم في الآخرة ، أو كما ضلَّ عنهم آلهتهم يضلهم عن آلهتهم ، حتى لو تطالبوا لم يجد أحدهم الآخر ، وإضلال الحق عبده هو عدم عصمته ، إياه مما نهاه عنه ، وعدم معونته وإمداده بما يتمكن به من الإتيان بما أمره به أو الانتهاء عما نهاه عنه ، أو الآية (لم نكن) إلخ كقوله (**واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**) يفزعون إلى الكذب لحيرتهم واضطرابهم ومعنى قوله (**كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الكَافِرِينَ**) أنه تعالى يُحيِّرهم في

أمرهم حتى يفزعون إلى الكذب مع علمهم بأنه لا ينفعهم ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الإضلال أيها الكفار ، والالتفات للمبالغة في التوبيخ ﴿ بِمَا ﴾ الباء للسببية ﴿ كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ في الدنيا ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ وهو الشرك والطغيان قال في القاموس : الفرح السرور والبطر انتهى .

والبطرُ : النشاط والأَشَرُ وقلة احتمال النعمة ، والأشر شدة البطر ، وهو أبلغ من البطر ، والبطر أبلغ من الفرح ، وفي المفردات : الفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة ، ولم يرخص إلا في الفرح بفضل الله وبرحمته وبنصر الله ، والبطر دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة ، وقلة القيام بحقها ، وصرفها إلى غير وجهها ﴿ وَبِمَا كُنْتُم تَمْرَحُونَ ﴾ المرح شدة الفرح والنشاط والتوسع فيه أي تتوسعون في البطر والأشر

﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أي أبوابها السبعة المقسومة لكم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ مقدراً خلودكم في الآخرة ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي فبئس محل الإقامة جهنم للمتكبرين عن الحق ، وفي الآية ذم الكبر فلابد من علاجه بضده وهو التواضع ، وعن بعض الحكماء : افتخر الكلأ في المفازة على الشجر ، فقال أنا خير منه ، يرعاني البهائم التي لا تعصي الله طرفة عين ، فقال الشجر أنا خير منك يخرج مني الثمار ويأكلها المؤمنون ، وتواضع القَصَبُ قال : لا خيرَ فيَّ لا أصلح للمؤمنين ولا للبهائم ، فلما تواضع رفعه الله وخلق فيه السكر الذي هو أحلى شيء ، فلما نظر إلى ما وضع الله فيه من الحلاوة تكبَّر ، فأخرج الله منه رأس القصب ، حتى اتخذ منه الآدميون المكنسات فكنسوا بها القاذورات . واعلم أن فرعون علا في الأرض حتى ادعى الربوبية (فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى) أي بالغَرق في الدنيا والإحراق في الآخرة ، وعلا قارون بكثرة ماله فخسف الله به وبداره الأرض ، وعلا إبليس حين امتنع عن السجدة فلعنَهُ الله لعنة أبدية ، وعلتْ قريش على المؤمنين حتى قُتلوا وألقيت جيفهم في بئرٍ ذليلين ، وهكذا حال كل متكبر بغير الحق إلى يوم القيامة ، فإنه ما نجا أحد من المتكبرين ولا ينجو .

﴿ فَاصْبِر ﴾ يا محمد على أذية قومك لك بسبب تلك المجادلات وغيرها إلى أن يلاقوا ما أعد لهم من العذاب ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ أي وعده بتعذيبهم حق كائن لا محالة ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ أي فَإنْ نرك و« ما » مزيدة لتأكيد الشرطية ، ولذا لحقت النون الفعل ولا تلحقُه مع « إنْ » وحدها ﴿ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ وهو القتل والأسر ، وجوابه محذوف أي فذاك ﴿ أَو نَتَوَفَيَنَّكَ ﴾ قبل أن تراه ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ وهو جواب نتوفيك أي يردون إلينا يوم القيامة لا إلى غيرنا فنجازيهم بأعمالهم ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ ـ روي ـ أن الذين كانوا يجادلون في آيات الله اقترحوا معجزات زائدة على ما أظهره الله على يده عليه السلام ، من تفجير العيون ، وإظهار البساتين ، وصعود السموات ونحوها ، مع كون ما أظهره من

المعجزات كافية في الدلالة على صدقه ، فأنزل الله تعالى قوله (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا) ﴿ رُسُلاً ﴾ ذوي عدد كثير إلى قومهم ﴿ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أي من قبل بعثتك يا محمد أو من قبل زمانك ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ أي بيناهم وسميناهم لك في القرآن فأنت تعرفهم ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَم نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ لم نسمهم لك ولم نخبرك بهم ، والحاصل أن المذكور قصصهم من الأنبياء أفراد معدودة ، وقد قيل : عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً ، روي عن أبي ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه أنه قال قلت لرسول الله ﷺ كم عدد الأنبياء ؟ فقال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، فقلت : فكم الرسل ؟ فقال : ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً) [١] وقال المولى محمد الرومي في المجالس : « ومما يجب الإيمان به الرسل ، والمراد من الإيمان بهم العلم بكونهم صادقين فيما أخبروا به عن الله ، فإنه تعالى بعثهم إلى عباده ليبلغوهم أمره ونهيه ووعيده ، وأيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم ، أولهم آدم وآخرهم محمد عليه السلام ، فإذا آمن بالأنبياء السابقة فالظاهر أنه يؤمن بأنهم كانوا أنبياء في الزمان الماضي لا في الحال ، إذ ليست شرائعهم بباقية ، وأما الإيمان بسيدنا محمد عليه السلام فيجب بأنه رسولنا في الحال ، وخاتم الأنبياء والرسل ، فإذا آمن بأنه رسول ولم يؤمن بأنه خاتم الرسل ولانسخ لدينه إلى يوم القيامة لا يكون مؤمناً ، ثم إنه لم يبين في القرآن عدد الأنبياء كم هم ، وإنما المذكور فيه باسم العَلَم على ما ذكر بعض المفسرين خمسة وعشرون نبياً ، وهم (آدم ونوح وإدريس وصالح وهود وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويوسف ولوط ويعقوب وموسى وهارون وشعيب وزكريا ويحيي وعيسى وداود وسليمان والياس واليسع وذو الكفل وأيوب ويونس ومحمد)[٢] .

وإن اعتقاد نبوة من ليس بنبي كفرٌ ، كاعتقاد نفي نبوة نبي من الأنبياء ، يعني إذا كان متفقاً على نبوته أو عدم ثبوته ، وأما إذا كان خلاف فلا يكفر ، وقال بعض الحكماء : يجب على المؤمن أن يعلّم صبيانه ونساءه وخدمه أسماء الأنبياء ، الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه حتى يؤمنوا بهم ويصدقوا بجميعهم، ولا يظنوا أن الواجب عليهم الإيمان بمحمد عليه السلام فقط لا غير ، فإن الإيمان بجميع الأنبياء سواء ذكر اسمه في القرآن أو لم يذكر واجب على المكلف ، فمن ثبت تعينه باسمه يجب الإيمان به تفصيلاً ، ومن لم يعرف اسمه يجب الإيمان به إجمالاً ، وأول الأنبياء آدم ، وآخرهم محمد عليهم السلام ، وعلى الحقيقة فلا نبي بعد رسول الله عليه السلام لأن عيسى وإن نزل بعده ، فهو موجود قبله حي إلى أن ينزل ، وإذا نزل فهو متّبعٌ لشريعته مقاتل عليها ، فلا يُخلق نبي بعد محمد ، ولا تجدد شريعته ، فعلى هذا يصح القول « لا نبي بعده » وقد روي في أسماء النبي عليه السلام في كتاب الشمائل وغيره (العاقب) الذي ليس بعده نبي ، والمراد بقوله

---

(١) رواه أحمد في المسند ٥/ ١٧٨ .

(٢) انظر كتابنا « النبوة والأنبياء » ففيه تفصيل واضح عن الأنبياء الكرام صلوات الله عليهم أجمعين .

عليه السلام في الحديث (والعاقب الذي ليس بعده نبي) أي لا يُبعث بعده نبي ينسخ شريعته ، وهذا معنى قوله (وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) أي الذي ختمت النبوة والرسالة به ، لأن نبوة عيسى قبله فنبوته عليه السلام ختمت النبوات ، وشريعته ختمت الشرائع ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ أي وما صح وما استقام لرسول منهم ﴿ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ ﴾ تقترح عليه ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ فإن المعجزات متشعَّبة وهي عطايا من الله تعالى قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته ، المبنيَّةُ على الحكم البالغة ، كسائر القِسَم ليس لهم اختيار في إيثار بعضها، ولا استبداد بإتيان المقترح بها ، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كأنه قيل : ما من رسول من قبلك ، سواءً كان مذكوراً أو غير مذكور ، أعطاه الله آيات معجزات إلاَّ جادله قومه فيها وكذبوه عناداً واستكباراً فصبروا وظفروا ، فاصبرْ كما صبروا ، تظفرْ كما ظفروا .

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ ﴾ بالعذاب في الدنيا والآخرة ﴿ قُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ حكم بين الرسل ومكذبيهم بإنجاء المحق وتكريمه ، وإهلاك المبطل وتعذيبه ﴿ وَخَسِرَ ﴾ هلك أو تحقق وتبين أنه خسر ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي وقت مجيء أمر الله ، وهو اسم مكان استعير للزمان ﴿ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي المتمسكون بالباطل على الإطلاق فيدخل فيهم المعاندون المقترحون دخولاً أولياً ، فالمبطل صاحب الباطل والمتمسك به ، كما أن المحق صاحب الحق والعامل به ، ولم يقل (وخسر هنالك الكافرون) لما سبق من نقيض الباطل الذي هو الحق كما في برهان القرآن ، وفي الآية إشارة إلى أنه يجب الرجوع إلى الله ، قبل أن يجيء أمره وقضاؤه بالموت والعذاب ، فإنه ليس بعده إلا الأحزان .

﴿ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ ﴾ أي خلق الإبل لأجلكم ومصلحتكم ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ « مِنْ » لابتداء الغاية ومعناها ابتداء الركوب والأكل منها أي تعلقها بها ، أو للتبعيض أي لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها ، لأن الغرض إنما يكون في المنافع ، والركوب متعلق بالمنفعة ، ولا يقدح في ذلك كون الأكل أيضاً من المنافع ولهذا جاء (لِتَأْكُلُوا منْه لحماً طَرِيًّا) ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أُخر غير الركوب والأكل ، كألبانها وأوبارها وجلودها ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أي في قلوبكم بحمل أثقالكم عليها من بلد إلى بلد ، وهو عطف على قوله (لتركبوا منها) وحاجة مفعولة لتبلغوا ﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ أي على الإبل في البر ﴿ وَعَلَى الْفُلْكِ ﴾ أي السفن في البحر ﴿ تُحْمَلُونَ ﴾ نظيره (وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) قال في الإرشاد : ولعل المراد به حمل النساء والولدان عليها بالهودج وهو السر في فصله عن الركوب ، والجمع بينها وبين الفلك لما بينهما من المناسبة التامة حتى تسمَّتْ سفائن البر ، وإنما قال (وَعَلَى الْفُلْكِ) ولم يقل في الفلك كما قال (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا) للمزاوجة أي ليزاوج ويطابق قوله (وَعَلَيْهَا) فإن محمولات الأنعام مستعلية عليها فذكرت كلمة الاستعلاء في الفلك أيضاً

للمشاكلة ، وقال بعض المفسرين : المراد بالأنعام في هذا المقام الأزواج الثمانية وهي « الإبل والبقر والضأن والمعز » باعتبار ذكورتها وأنوثتها ، فمعنى الركوب والأكل منها تعلقهما بالكل ، لكن لاعلى أن كلاً منهما يجوز تعلقه بكل منها ، بل على أن بعضها يتعلق به الأكل فقط كالغنم ، وبعضها يتعلق به كلاهما كالإبل والبقر ، والمنافع تعم الكل ، وبلوغ الحاجة عليها يعمُّ البقر والإبل ﴿ **وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ** ﴾ دلائله الدالة على كمال قدرته ووفور رحمته ﴿ **فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ** ﴾ فإن كلاً منها من الظهور بحيث لا يكاد يجرأ على إنكارها من له عقل في الجملة ، وإضافةُ الآيات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتهويل إنكارها، قال حجة الإسلام : العجب منك أنك تدخل بيت غني فتراه مزيناً بأنواع الزين ، فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك ، وأنت تنظر إلى بيت عظيم وهو « العالم » لم يخلق مثله لا تتحدث فيه ، ولا تلتفت بقلبك ولا تتفكر في عجائبه ، وذلك لعمى القلب المانع عن الرؤية ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا** ﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي والفاء للعطف على مقدر أي أقعدت قريش فلم يسيروا ولم يسافروا ﴿ **فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا** ﴾ ويعتبروا ﴿ **كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم** ﴾ من الأمم المهلكة ، يعني ، إنهم قد ساروا في أطراف الأرض ، وسافروا إلى جانب الشام واليمن ، وشاهدوا مصارع المكذبين من الأمم السالفة وآثارها ، فَلْيحذروا من مثل عذابهم فلا يكذبونك يامحمد !! ثم بيَّن مبادىء أحوال الأمم المتقدمة وعواقبها فقال ﴿ **كَانُوا** ﴾ أي تلك الأمم ﴿ **أَكْثَرَ** ﴾ عدداً ﴿ **مِنْهُم** ﴾ أي من قومك ﴿ **وَأَشَدَّ قُوَّةً** ﴾ في الأبدان والعدد ﴿ **وَآثَاراً فِي الأَرْضِ** ﴾ باقية بعدهم من الأبنية والقصور والمصانع ﴿ **فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ** ﴾ يقال أغنى عنه كذا إذا كفاه ونفعه ، وهو إذا استعمل بعن يتعدى إلى مفعول كما سبق أي لم يدفع ولم ينفع ﴿ **مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ كسبهم أو مكسوبهم من الأموال والأولاد وترتيب العساكر ، فإذا لم تفدهم تلك المكنة العظيمة إلا الخيبة والخسار ، فكيف هؤلاء الفقراء المساكين ؟ ﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ** ﴾ بالمعجزات والدلالات الواضحة ، وهذه الفاء تفسير وتفصيل لما أبهم وأجمل من عدم الإغناء فهي تعقيبية وتفسيرية ﴿ **فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِنَ الْعِلْمِ** ﴾ لقوله (**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُوْنَ**) أي أظهروا الفرح بذلك واستحقروا علم الرسل ، والمراد بالعلم مالهم من العقائد الزائغة والشبه الباطلة ، كما قالوا لا نبعث ولا نعذب ، وما نظنُّ الساعة قائمة ، ونحو ذلك ، وتسميتها علماً مع أن الاعتقاد غير المطابق للواقع حقه أن يسمى جهلاً ، للتهكم بهم فهي على زعمهم علمٌ لا في الحقيقة ، أو المراد علم الصنائع والتنجيم والطبائع ، كانوا يصغرون علوم الأنبياء ويكتفون بما يكسبونه بنظر العقل ، ويقولون نحن قوم مهتدون فلا حاجة بنا إلى من يهدينا ، ويجوز أن يرجع عندهم للرسل على أن المراد بالعلم هو العلم الذي أظهره رسلهم ، وبفرح الكفار به ضحكهم منه واستهزاؤهم به ، ويؤيده قوله تعالى ﴿ **وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ أي نزل وأحاط بهم عاقبة استهزائهم وإجرامهم.

قال في الروضة : « صلّى الحجّاج في جنب ابن المسيب ، فرآه يرفع قبل الإمام ويضع رأسه ، فلما سلّم أخذ بثوبه حين فرغ من صلاته ودعائه ، ثم رفع يده على الحجاج فقال : يا سارق ويا خائن تصلي على هذه الصفة ، لقد هممت أن أضرب وجهك ، وكان الحجاج حاجاً فرجع إلى الشام ، وجاء والياً على المدينة ، ودخل من فوره المسجد قاصداً مجلس سعيد بن المسيب ، فقال له : أنت صاحب الكلمات ؟ قال : نعم ، أنا صاحبها ، قال : جزاك الله من معلّم ومؤدب خيراً ، ما صليت بعدك إلاّ ذاكراً قولك ، فلابد من العمل بمقتضى العلم ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْا** ﴾ أي الأمم السابقة المكذبة ﴿ **بَأْسَنَا** ﴾ شدة عذابنا في الدنيا ، ووقعوا في مذلة الخيبة ﴿ **قَالُوا** ﴾ مضطرين ﴿ **آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَه وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ** ﴾ أي بسبب الإيمان به يعنون الأصنام ﴿ **مُشْرِكِينَ** ﴾ وهذه الفاء لمجرد التعقيب ، لأن مضمون قوله تعالى (**فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ**) إلخ هو أنهم كفروا ، فصار مجموع الكلام بمنزلة أن يقال : فكفروا ثم لما رأوا بأسنا آمنوا ﴿ **فَلَمْ يَكُ** ﴾ أصله لم يكن حذفت النون لكثرة استعماله ﴿ **يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ** ﴾ أي تصديقهم بالوحدانية اضطراراً ﴿ **لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا** ﴾ أي رؤية عذابنا والوقوع فيه ، لامتناع قبوله حينئذ امتناعاً عادياً ، فامتنع القبول لأنهم لم يأتوا به في الوقت المأمور به ، ولذلك قيل (فَلَمْ يَكُ) بمعنى لم يصح ولم يستقم ، فإنه أبلغ في نفي النفع من « لم ينفعهم إيمانهم » لأن النافع هو الإيمان الاختياري الواقع مع القدرة على خلافه ، ومن عاين نزول العذاب لم يبق له القدرة على خلاف الإيمان فلم ينفعه ، وعدمُ نفعه في الدنيا دليل على عدم نفعه في الآخرة ﴿ **سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ** ﴾ أي سنّ الله عدم قبول إيمان من آمن ، وقت رؤية البأس ومعاينته ، سنة ماضية في عباده ، مطردة في الأمم السالفة المكذبة كلها ، ويجوز أن ينتصب سنة على التحذير أي احذروا سنة الله المطردة في المكذبين السابقين ، والسنة : الطريقة والعادة المسلوكة ، و« سنّةُ الله » طريقة حكمته ﴿ **وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** ﴾ والمعنى على ما قال ابن عباس رضي الله عنهما : هلك الكافرون بوحدانية الله ، المكذبون وقت رؤيتهم البأس والعذاب ، وقال الزجاج : الكافر خاسر في كل وقت ، ولكنه تبين لهم خسرانهم ، إذا رأوا العذاب ولم يُرْج فلاحهم ؛ وإيمان اليائس غير مقبول كما قال في الجوهرة :

وَمَا إِيمَانُ شَخْصٍ حَالَ بَأْسٍ * بِمَقْبُولٍ لِفَقْدِ الامْتِثَالِ

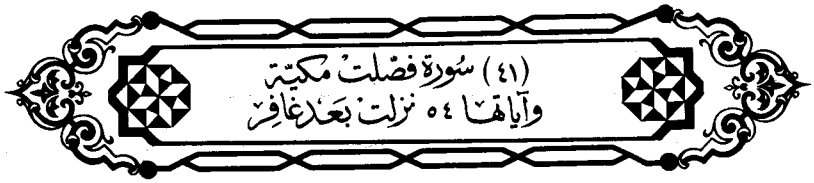
وأصل البأس : الشدة والمضرة ، وحال البأس هو وقت معاينة العذاب ، وانكشاف ما جاءت به الأخبار الإلهية ، من الوعد والوعيد ، وحال اليأس هو وقت الغرغرة التي تظهر عندها أحكام الدار الآخرة عليه ، بعد تعطيل قواه الحسية ويستوي في حال البأس بالموحدة الإيمان والتوبة لقوله تعالى (**فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ**) الآية ورجاء الرحمة إنما يكون في وقته وبظهور الوعيد خرج الوقت من اليد ، ولم

يتصور الإمتثال ووقع الإيمان ضرورياً خارجاً عن الاختيار ، ألا ترى أن إيمان الناس لا يقبل عند طلوع الشمس من مغربها لأنه إيمان ضروري فلا يعتبر لأنه يجوز أن يكون إيمان المضطر لغرض النجاة من الهلاك ، بحيث لو تخلص لعاد لما اعتاد ، وقد قال العلماء : الرغبة في الإيمان والطاعة لا تنفع إلا إذا كانت تلك الرغبة فيه لكونه إيماناً وطاعة ، فيكون الإيمان والندم وقت ظهور الوعيد الدنيوي ، كالإيمان والندم وقت وجود الوعيد الآخروي بلا فرق ، فكما لا ينفع هذا ، كذلك لا ينفع ذاك ، فإيمان فرعون وأمثاله عند الغرق ونحوه من قبيل ما ذكر من الإيمان الاضطراري ، فحال البأس بالموحدة كحال الغرغرة من غير فرق ، فكما لا يقبل الإيمان بحال الغرغرة فكذا حال البأس ، ففرعون مثلاً لم يُقبل إيمانه حال الغرق لكونه حال البأس وإن كان قبل الغرغرة فافهم جداً فإنه من مزالق الإقدام ، وأما إيمان اليأس بالياء المثناة التحتية وهو الإيمان بعد مشاهدة أحوال الآخرة ، ولا تكون إلا عند الغرغرة ، ووقت نزع الروح من الجسد ، ففي كتب الفتاوى أنه غير مقبول ، بخلاف توبة اليأس فإنها مقبولة على المختار فَمثَلُ إيمان اليأس كشجرٍ غُرس في وقت لايمكن فيه النماء ، ومثل توبة اليأس كشجر ثابت أثمر في الشتاء عند ملاءمة الهواء . والدليل على قبول التوبة مطلقاً قوله تعالى (**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِباده**) هكذا قالوا وهو يخالف قوله تعالى (**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّآتِ حَتّى إذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ**) قال البغوى في تفسيره : لا تقبل توبة عاص ولا إيمان كافر إذا تيقن بالموت انتهى ومراده عند الإشراف على الموت والصيرورة إلى حال الغرغرة وإلا فقد قال المحققون قرب الموت لا يمنع من قبول التوبة ، بل المانع من قبولها مشاهدة الأحوال ، التي عندها يحصل العلم بالله تعالى على سبيل الاضطرار .

أسأل الله أن يَشُدَّ عضدنا بقوة الإيمان ، وينور عقولنا بنور القرآن ، ويختم لنا ولكم بالخير والحسنى ويبشرنا بالرضوان ، ويدخلنا الجنة دار السلام ، والحمد لله رب العالمين .

تم بعونه تعالى تفسير سورة غافر

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذه السورة مسماة بـ« حمٓ » ، واشتملت هذه السورة على ذكر الكتاب والرد على المجادلين في آيات الله ، والحث على الإيمان بها والعمل بمقتضاها ونحو ذلك ، أو هذه الحروف تنزيل من الرحمن الرحيم ، نزل بها جبرائيل عليه السلام من عند الله ﴿ **تَنْزِيلٌ** ﴾ خبر بعد خبر أي منزلة لأن التعبير عن المفعول بالمصدر مشهور ، كقولهم هذا الدرهم ضرب الأمير أي مضروبه ، ومعنى كونها منزلة أنه تعالى كتبها في اللوح المحفوظ ، وأمر جبرئيل أن يحفظ تلك الكلمات ثم ينزل بها على رسول الله عليه السلام ويؤديها إليه ، فلما حصل تفهيم هذه الكلمات بواسطة نزول جبرائيل ، سُمِّي ذلك تنزيلاً ﴿ **مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ متعلق بتنزيل مؤكد لما أفاده التنوينُ من الفخامة الذاتية ، ونسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم » للإيذان بأن القرآن مدار للمصالح الدينية والدنيوية ، واقع بمقتضى الرحمة الربانية ، وذلك لأن المنزل ممن صفته الرحمة الغالبة ، لابد وأن يكون محققاً للمصالح كلها .

﴿ **كِتَابٌ** ﴾ خبر آخر مشتق من الكتب وهو الجمع ، فسمِّي كتاباً لأنه جمع فيه علوم الأولين والآخرين ﴿ **فُصِّلَتْ آيَاتُهُ** ﴾ بينت بالأمر والنهي ، والحلال والحرام ، والوعد والوعيد ، والقصص والتوحيد ، قال الراغب في قوله (**أُحْكِمَتْ آياتُه ثُمَّ فُصِّلَتْ**) هو إشارة إلى ما قال (**تِبْيَاناً لِكُلِ شَيءٍ وَهُدَىً وَرَحمةً**) فمن أنصف علم أنه ليس في يد الخلق كتاب ، اجتمع فيه من العلوم المختلفة مثل القرآن ﴿ **قُرْآناً عَرَبِيّاً** ﴾ نصب على المدح أي أريد بهذا الكتاب المفصل آياته قرآناً عربياً أو على الحالية من كتاب لتخصصه بالصفة ، فمن قال إن القرآن أعجمي يكفر لأنه معارضة لقوله تعالى ﴿ **قرآناً عرَبيّاً** ﴾ وبوجود كلمة عجمية فيه معربة لا يخرج عن كونه عربياً ، لأن العبرة للأكثر ، وذلك كالقسطاس فإنه رومي معرَّب بمعنى الميزان ، والسجيل فإنه فارسي معرب ، والصلوات فإنه عبراني معرب صلوتا والرقيم فإنه رومي بمعنى الكلب ، والطور فإنه الجبل بالسرياني[1] ﴿ **لِقَوْمٍ** ﴾ أي عرب ﴿ **يَعْلَمُونَ** ﴾ أي كائناً لقوم يعلمون معانيه لكونه على لسانهم ﴿ **بَشِيراً** ﴾ صفة أخرى لقرآناً أي بشيراً لمن صدقه ، وعرف قدره ، وأدى حقه بالجنة ﴿ **ونَذِيراً** ﴾ لمن كذبه ولم يعرف قدره ولم يؤد حقه بالنار ﴿ **فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُم** ﴾ عن تدبره مع كونه على لغتهم ، والضمير لأهل مكة أو العرب أو المشركين ، دالٌّ عليه ما سيجيء من قوله (**وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ**) ﴿ **فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ** ﴾ سماع تفكير وتأمل ، حتى يفهموا جلالة

---

(١) الصحيح ما قاله المحققون أن كل ما في القرآن عربيٌّ ، ووجود بعض الألفاظ لا يخرجها عن كونها عربية ، وإنما هي مِمَّا توافقت عليه اللغات.

قدرة فيؤمنوا به ، وقد ورد في التوراة أنه تعالى قال « ياعبدي أما تستحي مني إذ يأتيك كتاب من بعض ، إخواتك ، وأنت في الطريق تمشي ، فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرأه وتتدبره حرفاً حرفاً حتى لا يفوتك منه شيء ، وهذا كتابي أنزلته إليك ، انظره كم فصلت لك فيه من القول ، وكم كررت فيه عليك لتتأمل طوله وعرضه ثم أنت معرض عنه ، أوَكنتُ أهون عليك من بعض أخوانك ؟ يا عبدي يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك ، وتصغي إلى حديثه بكل قلبك فإن تكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أو مأت ، إليه أن كف ، وها أنا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عني ، أفجعلتني أهون عندك من بعض إخوانك » ؟ ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ أي المشركون لرسول الله ﷺ عند دعوته إياهم إلى الإيمان والعمل بما في القرآن ﴿ **قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ** ﴾ جمع كنان وهو الغطاء الذي يكنّ فيه الشيء أي يحفظ ويستر أي في أغطية متكاثفة ﴿ **مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ** ﴾ أي تمنعنا من فهم ما تدعونا إليه ، وتورده علينا ، شبهوا قلوبهم بالشيء المحوي المحاط بالغطاء المحيط له ، بحيث لا يصيبه شيء من حيث تباعد عن إدراك الحق واعتقاده ، قال سعدي المفتي : ورد هنا كلمة « في » وفي الكهف « على »[1] لأن القصد هنا إلى المبالغة في عدم القبول ، والأكنة إذا احتوت عليها احتواء الظرف على المظروف لا يمكن أن يصل إليها شيء ، وليست تلك المبالغة في « على » والسياق في الكهف للعظمة ، فيناسبه أداة الاستعلاء ﴿ **وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ** ﴾ أي صمم ، قال في القاموس : الوقر ثِقْلٌ في الآذان ، وذهاب السمع كله ، شبهوا أسماعهم بآذان بها صمم ، من حيث إنها تمج الحق ولا تميل إلى سماعه ﴿ **وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ** ﴾ ستر عظيم وغطاء غليظ يمنعنا عن التواصل والتوافق ، شبهوا حال أنفسهم مع رسول الله عليه السلام بحال شيئين بينهما حجاب عظيم يمنع من أن يصل أحدهما إلى الآخر ويراه ويوافقه ، وإنما اقتصروا على ذكر هذه الأعضاء الثلاثة لأن القلب محل المعرفة ، والسمع والبصر أقوى ما يتوصل به إلى تحصيل المعارف ، فإذا كانت هذه الثلاثة محجوبة كان ذلك أقوى ما يكون من الحجاب نعوذ بالله تعالى .

﴿ **فَاعْمَلْ** ﴾ على دينك ﴿ **إِنَّنَا عَامِلُونَ** ﴾ على ديننا ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ** ﴾ أي ما إلهكم إلا إله واحد لا غيره ، وهذا تلقين للجواب عما ذكره المشركون أي لست من جنس مغاير لكم حتى يكون بيني وبينكم حجاب ، وتباين مصحح لتباين الأعمال والأديان كما يُنْبِيء عنه قولكم (فاعمل إننا عاملون) بل إنما أنا بشر مثلكم مأمور بما أمرتم به ، حيث أخبرنا جميعاً بالتوحيد بخطاب جامع بيني وبينكم قال الحسن رضي الله عنه : علّمه الله التواضع بقوله (**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**) ولهذا كان يعود المريض ، ويشيع الجنازة ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبد وكان يوم

---

(١) أشار إلى قوله تعالى في سورة الكهف ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً** ﴾ .

قريظة والنضير على حمار مخطوم بحبل من ليف ، عليه إكافٌ من ليف ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ من جملة المقول والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من إيجاء الوحدانية ، فإن ذلك موجب لاستقامتهم إليه تعالى بالتوحيد والإخلاص في الأعمال ، والاستقامةُ الاستمرار على جهة واحدة ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ مما كنتم عليه من سوء العقيدة والعمل ، قال صلى الله عليه وسلم (استقيموا وَلَنْ تُحْصُوا)[1] أي لن تستقيموا في كل شيء حتى لا تميلوا وقال (شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا)[2] لما فيها من قوله فاستقم ﴿ وَوَيْلٌ ﴾ العذاب الشديد ﴿ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ترهيب وتنفير لهم عن الشرك إثر ترغيبهم في التوحيد ﴿ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَوةَ ﴾ لا يؤمنون بوجوبها ولا يؤتونها ﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ ﴾ أعاد الضمير تأكيداً ﴿ كَافِرُونَ ﴾ أي بالبعثِ بعد الموت والثواب والعقاب ، وهو عطف على لا يؤتون داخل في حيز الصلة ، واختلافها بالفعلية والإسمية لما أن عدم إيتائها متجدد والكفر أمر مستمر ، قالت الشافعية : في تهديد المشرك على شركه وعدم إيتائه الزكاة دليل على أنَّ المشرك حال شركه مخاطب بإيتاء الزكاة ، إذ لولاه لما استحق بعدم إيتائها الوعيد المذكور ، وإذا كان مخاطباً بإيتاء الزكاة يكون مخاطباً بسائر فروع الإسلام ، إذ لا قائل بالفصل فيعذب على ترك الكل ، وإليه ذهب مشايخنا العراقيون . وذهب غيرهم إلى أنهم مخاطبون باعتقاد وجوبها لا بإيقاعها ، فيعاقبون على تركهم اعتقاد الوجوب على ما فصل في الأصول ، ومن أصحابنا من قال إنهم مخاطبون بالفروع بشرط تقديم الإسلام ، كما أن المسلم مخاطب بالصلاة بشرط تقديم الوضوء ، وقال المولى أبو السعود في تفسيره : وصف الله المشركين بأنهم لا يؤتون الزكاة لزيادة التحذير والتخويف من منع الزكاة ، حيث جعله من أوصاف المشركين ، وقَرَنه بالكفر بالآخرة حيث قال (وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) يقال : الزكاة قنطرة الإسلام ، فمن قطعها نجا ومن تخلف عنها هلك ، قال ابن السائب: كان المشركون يحجون ويعتمرون ولا يزكون أموالهم وهم كافرون ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير ممنون عليهم ، والمعنى لا يُمَنُّ به عليهم فيتكدر بالمِنَّة ، قال : منَّ عليه منّاً : أنعم ، ومِنَّةً امتن ، والمنة في الأصل النعمة الثقيلة التي لا يطلب معطيها أجراً ممن أعطاها إليه ثم استعملت بمعنى الامتنان أي عد النعمة وجميع ما يعطيه الله عباده في الآخرة تفضل منه وكرم ، وليس شيء منه بواجب عند أهل السنة والجماعة ، وما كان بطريق التفضل وإن صحَّ الامتنان عليه لكنه تعالى لا يفعله منه فضلاً منه وكرما ، أو(غير ممنون) بمعنى لا ينقطع أجرهم وثوابهم في الآخرة بل دائم أبديٌّ ، من مننت الحبل قطعته ، أو غير محسوب كما قال تعالى (بِغَيْرِ حِسَابٍ) قال في القاموس

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم والبيهقي ، وتمام الحديث (واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) وانظر الفتح الكبير ١ / ١٨١ .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٧٩ .

(وأَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) أي غيرُ محسوب أو مقطوع .

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ﴾ إنكار وتشنيع لكفرهم وإنَّ واللاَّم لتأكيد الإنكار ﴿ بِالَّذِي ﴾ أي بالعظيم الشأن الذي ﴿ خَلَقَ الأَرْضَ ﴾ قدَّر وجودها أي حكم بأنها ستوجد ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ في مقدار يومين ، وفي عين المعاني تعليماً للتأني ، وإحكاماً لدفع الشبهات عن توهن المصنوعات تحقيقاً لاعتبار الملائكة عند الاحضار ، وللعباد عند الإخبار ، وإن أمكن الإيجاد في الحال بلا إمهال .

﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ﴾ عطف على تكفرون داخل في حكم الانكار والتوبيخ ، وجمع الأنداد باعتبار ما هو الواقع ، لا بأن يكون مدار الإنكار هو التعدد (وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً) بمعنى تصفون له شركاء وأشباهاً وأمثالاً من الآلهة ، والحال أنه لا يمكن أن يكون له ند واحد فضلاً عن الأنداد ، وأمر الله تعالى رسوله عليه السلام بأن ينكر عليهم أمرين : الأول كفرهم بالله بإلحادهم في ذاته وصفاته كالتجسم واتخاذ الصاحبة والولد ، والقول بأنه لا يقدر على إحياء الموتى ، وأنه لا يبعث البشر رسلاً ، والثاني إثبات الشركاء والأنداد له تعالى ، فالكفر المذكور أولاً مغاير لإثبات الأنداد له ، وضرورة عطف أحدهما على الآخر ﴿ ذَلِكَ ﴾ العظيم الشأن الذي فعل ما ذكر من خلق الأرض في يومين وهو مبتدأ خبره قوله ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي خالق جميع الموجودات ومربيها دون الأرض خاصة ، فكيف يتصور أن يكون أخس مخلوقاته نداً له تعالى ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ عطف على « خَلَقَ » داخل في حكم الصلة ، والمراد بالرواسي الجبال الثابتة المستقرة ، يقال : رسال الشيء يرسو ثبت ، وأرساه غيره ومنه المرساة ﴿ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ متعلق بجعل أوبمضمرٍ هو صفةٌ لرواسي أي كائنة من فوقها مرتفعة عليها ، لتكون منافعها ظاهرة للطلاب وليظهر للناظر ما فيها من وجوه الاستدلال ، وإلا فالجبال التي أثبتت فوق الأرض لا تمنعها عن الميلان ، ولو كانت تحتها كأساطين الغرف ، أو مركوزة فيها كالمسامير لمنعتها عنه ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ أي قدَّر بأن يكثر خير الأرض بأن يخلق أنواع الحيوان وأصناف النبات ، التي منها معايشهم ببذر وغيره ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ القوت من الرزق ما يمسك الرمق ويقوم به بدن الإنسان ، يقال : قَاتَهُ يقوته إذا أطعمه قوته ، والمقيت المقتدر الذي يعطي كل أحد قوته ، ومن بلاغات الزمخشري : « إذا حَصَّلْتَكِ ياقوتُ ، هان عليَّ الدُّرُّ والياقوت » والمعنى حكم تعالى بالفعل بأن يوجد فيما سيأتي لأهل الأرض من الأنواع المختلفة ، أقواتها المناسبة لها على مقدار معين تقتضيه الحكمة ، فالمراد بأقوات الأرض أرزاق سكانها بمعنى قدّر أقوات أهلها ، وقال بعضهم : كل خلق لهم عنده تعالى رزق مخصوص ، وهذه الأقوات تظهر لهم من الحق في هذه الأرض ، التي خلقت معبداً للمطيعين ومرقداً للغافلين .

﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ وهو متعلق بحصول الأمور المذكورة ، قدَّر حصولها في يومين يوم الثلاثاء ويوم

الأربعاء على ما سيأتي ، وإنما قيل (في أربعة أيام) أي تتمة أربعة أيام ومجموع العدد لأنه باليومين السابقين يكون أربعة أيام ، كأنه قيل : نصب الراسيات وتقدير الأقوات وتكثير الخيرات في يومين آخرين بعد خلق الأرض في يومين ، وإنما لم يحمل الكلام على ظاهره ، بأن يجعل خلق الأرض في يومين ، وما فيها في أربعة أيام ، لأنه قد ثبت أن خلق السموات في يومين ، فيلزم أن يكون خلق المجموع في ثمانية أيام وليس كذلك فإنه في ستة أيام على ما تكرر ذكره في القرآن ﴿ سَوَاءً ﴾ مصدر مؤكد لمضمر هو صفة لأيام أي استوت تلك الأيام سواء أي استواء ، يعني في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان ﴿ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره هذا الحصر في الأربعة ، للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها ، القائلين في كم خلقت الأرض وما فيها ؟ فالسؤال استفتائي واللام للبيان ، أو بـ« قَدَّرَ » ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ شروع في بيان كيفية التكوين إثر بيان كيفية التقدير ، ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وأهلها ، لِمَا أن بيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين ، وترتيب مبادي معايشهم قبل خلقهم، مما يحملهم على الإيمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان ، والاستواء ضد الاعوجاج من قولهم استوى العود إذا اعتدل واستقام ، حمل في هذا المقام على معنى القصد والوجه ، والمعنى : ثم قصد نحو السماء بإرادته ومشيئته قصداً سوياً ، وتوجَّه إليه توجهاً من غير إرادة خلق شيء آخر يضاهي خلقها ، يقال : استوت إلى مكان كذا كالسهم المرسل إذا توجه إليه توجه مستوياً من غير أن يلوي على غيره ، وفي ثم إظهار كمال العناية بإبداع العلويات ﴿ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ الواو للحال والضمير إلى السماء والدخان أجزاء أرضية لطيفة ترتفع في الهواء مع الحرارة ، وفي المفردات الدخان العُثان المستصحب للَّهب ، والبخار أجزاء مائية رطبة ترتفع في الهواء مع الشعاعات الراجعة من سطوح المياه ، والمعنى والحال أن السماء دخان أي أمر ظلماني يُعدُّ كالدخان وهو المرتفع من النار ، فهو من قبيل التشبيه البليغ ، وإطلاق السماء على الدخان باعتبار المآل ، قال الراغب قوله تعالى (وَهِيَ دُخَانٌ) أي هي مثل الدخان إشارة إلى أنها لا تماسك بها انتهى ولما كانت أوَّلَ حدوثها مظلمة صحت تسميتها بالدخان ، تشبيهاً لها به من حيث إنها أجزاء متفرقة غير متواصلة ، عديمة النور كالدخان فإنه ليس له صورة تركيبيَّة ، وقال بعضهم : (وهي دخان) أي دخان مرتفع من الماء يعني السماء بخار الماء كهيئة الدخان ﴿ فَقَالَ لَهَا ﴾ أي للسماء ﴿ وَلِلأَرْضِ ﴾ التي قدر وجودها ووجود ما فيها ﴿ ائْتِيَا ﴾ أي كونَا واحداً على وجه معين وفي وقت مقدر لكل منكما ، وهو عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوجودهما تعلقاً فعلياً ﴿ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ مصدران واقعان في موقع الحال ، والطوعُ : الانقياد ويضاده الكره أي حال كونكما طائعتين منقادتين ، أو كارهتين إن شئتما ذلك أو أبيتما ، وهو تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعها من ذلك لإثبات الطوع والكره لهما لأنهما من أوصاف العقلاء ذوي الإرادة والاختيار ، والأرض والسماء من قبيل الجمادات العديمة الإرادة

والاختيار ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ أي منقادين وهو تمثيل لكمال تأثرهما بالذات عن القدرة الربانية وحصولها كما أمرتا به ، وتصوير لكون وجودها كما هما عليه جارياً على مقتضى الحكمة البالغة ، فإن الطوع منبئ عن ذلك والكره موهم لخلافه ، فإن قلت : إنما قيل (طائعين) على وزن جمع العقلاء الذكور لا طائعتين حملاً على اللفظ ، أو طائعات حملاً على المعنى ، لأنها سموات وأرضون ؟ قلتُ : باعتبار كونها في معرض الخطاب والجواب ، فلما وصفتا بأوصاف العقلاء عوملتا معاملة العقلاء ، وجمعتا لتعدد مدلولها ، ونظيره (ساجدين) في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لي سَاجِدِين) ، وفي التأويلات النجمية : يشير إلى أنه بالقدرة الكاملة أنطق السماء المعلومة والأرض المعدومة بعد أن أسمعها خطاب (ائتيا طوعاً أو كرهاً) لتجيبا (أتينا طائعين) وإنما ذكرهما بلفظ التأنيث في البداية لأنها كانتا معدومتين مؤنثتين ، وإنما ذكرهما في النهاية بلفظ التذكير لأنه أحياهما وأعقلها وهما في العدم فأجابا بقولها (أتينا طائعين) جواب العقلاء .

﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ تفسير وتفصيل لتكوين السماء المجمل ، المعبر عنه بالأمر وجوابه والمعنى خلقهن حال كونهن سبع سموات ، أو من جهة سبع سموات خلقاً إبداعياً أي على طريق الاختراع لا على مثال ، وأتقن أمرهن بأن لا يكون فيهن خلل ونقصان حسبما تقتضيه الحكمة ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ في وقت مقدَّرٍ بيومين وهما يوم الخميس ويوم الجمعة ، خلق السماوات يوم الخميس وما فيها من الشمس والقمر والنجوم في يوم الجمعة ، وقد بيَّن مقدار زمان خلق الأرض وخلق ما فيها عند بيان تقديرهما فكان خلق الكل في ستة أيام حسبما نص عليه في مواضع من التنزيل ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ عطف على فقضاهن ، والإيحاء عبارة عن التكوين كالأمر مقيد بما قيد به المعطوف عليه من الوقت والمعنى خلق في كل منها ما فيها من الملائكة والنيرات ، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله ، وأظهر ما أراده وألقى إلى أهل كل منها أوامره وكلفهم ما يليق بهم من التكاليف ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ أي كواكب تضيء في الليل كالمصابيح ، فإنها ترى كلها متلألئة على السماء الدنيا ، فالمراد بالمصابيح جميع الكواكب النيرة التي خلق الله في السموات من الثوابت والسيارات ، لأنا نرى جميع الكواكب كالسُّرُج الموقدة فيها ، وقيل: إن في كل سماء كواكب تضيء ، وقيل : بل الكواكب مختصة بالسماء الدنيا ﴿ وَحِفْظاً ﴾ أي وحفظنا السماء الدنيا حفظاً من الآفات ومن المسترقة ، وهي الشياطين الذين يصعدون السماء لاستراق السمع ، فيرمون بشهاب صادر من نار الكواكب منفصل عنها ، ولا يرجمون بالكواكب أنفسها ، لأنها قارة في الفلك على حالها ، وما ذلك إلا كقبس يؤخذ من النار ، والنَّارُ باقية بحالها لا ينتقص منها شيء ، والشهابُ: شعلة نار ساقطة ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكر بتفاصيله ﴿ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ المبالغ في القدرة ، فله بالغ القدرة على كل مقدور ، والمبالغ في العلم فله بالغُ العلم بكل معلوم ، ولا دلالة في الآية الكريمة على

الترتيب بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء ، وإنما الترتيب بين التقدير والإيجاد ، وعلى تقدير كون الخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة فيكون خلق الأرض ، وما فيها متقدماً على خلق السماء وما فيها ، وعليه إطباق أكثر أهل التفسير ، ويؤيده قوله تعالى(**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ**) وقيل إنَّ خلق الأرض مقدم على خلق السماوات ، لكن دحوها وخلق ما فيها مؤخر لقوله تعالى (**وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**) ثم هذا على تقدير كون كلمة ثم للتراخي الزماني ، وأما على تقدير كونها للتراخي الرتبي على طريق الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، فيقدَّم خلق السماوات على خلق الأرض وما فيها كما جنح إليه الأكثرون ، فلا دلالة في الآية الكريمة على الترتيب كما في الوجه الأول ، قال الشيخ النيسابوري : خلق السماء قبل الأرض ليعلم أن فعله خلاف أفعال الخلق ، لأنه خلق أولاً السقف ثم الأساس ، ورفعها على غير عمد دلالة على قدرته وكمال صنعه ـ روي ـ أنه تعالى خلق جرم الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين ، ودحاها وخلق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، وخلق السماوات وما فيهن يوم الخميس ، ويوم الجمعة خلق آدم في آخر ساعة منه ، وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة ، وسُميِّ الجمعة لاجتماع المخلوقات وتكاملها ، ولما لم يخلق الله في يوم السبت شيئاً امتنع بنو إسرائيل من الشغل فيه كما في حواشي ابن الشيخ ، وبه يندفع ما قال سعدي المفتي فيه إشكال لا يخفى فإنه لا يتعين اليوم ، وقال ابن عطية : والظاهر من القصص أن الجمعة التي خلق فيها آدم قد تقدمتها أيام وجمع كثيرة ، وأن هذه الأيام التي خلق الله فيها المخلوقات هي أول الأيام ، لأنه بإيجاد الأرض والسماء والشمس وجد اليوم ، وفي الحديث في خلق يوم الجمعة (أنه اليوم الذي فرض على اليهود والنصارى فأضلَّته وهداكم الله تعالى له)[1] أي أمروا بتعظيمه والتفرغ للعبادة فيه فاختار اليهود من عند أنفسهم بدله السبت ، لأنهم يزعمون أنه اليوم السابع الذي استراح فيه الحق من خلق السماوات والأرض وما فيهن من المخلوقات ، أي بناء على أن أول الأسبوع الأحد ، وأنه مبدأ الخلق وهو الراجح ، وفي كلام بعضهم أول الأسبوع الأحد لغة ، وأوله السبت عرفاً أي في عرف الفقهاء في الإيمان ونحوها ، واختارت النصارى من قبل أنفسهم بدل يوم الجمعة يوم الأحد أي بناء على أنه أول يوم ابتدأ الله فيه إيجاد المخلوقات فهو أولى وقد جاء في المرفوع (يوم الجمعة سيِّد الأيام وأعظمها عند الله ، فهو في الأيام كشهر رمضان في الشهور ، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر في رمضان)[2] .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم بلفظ (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بَيْدَ أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم إن هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهودُ غداً والنصارى بعد غد) .

(٢) لم يرد بهذا النص حديث مرفوع ، وإنما الذي ورد ما رواه مسلم والترمذي والنسائي (خيرُ يومٍ طلعت عليه الشمس يومُ الجمعة فيه خُلق آدمُ ، وفيه أُدخل الجنة ، وفيه أُخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلاَّ في يوم الجمعة) وانظر جامع الأصول ٩ / ٢٦٦ .

وفي الحديث (أكثروا من الصلاة عليَّ في الليلة الزهراء واليوم الأغرّ ، فإن صلاتكم تُعرض عليَّ فأدعو لكم وأستغفر لكم)[1] والمراد بالليلة الزهراء ليلة الجمعة ، وباليوم الأغر يوم الجمعة ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ فإن أعرض كفار قريش عن الإيمان بعد هذا البيان ، وهو بيان خلق الأجرام العلوية والسفلية وما بينهما ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ أَنْذَرْتُكُم ﴾ أي أنذركم وأخوفكم ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقيق الإنذار المنبىء عن تحقيق المنذر ﴿ صَاعِقَةً ﴾ أي عذاباً هائلاً شديد الوقع كأنه صاعقة ، يعني أن الصاعقة في الأصل قطعة من النار تنزل من السماء فتحرق ما أصابته ، استعيرت هنا للعذاب الشديد تشبيهاً له بها في الشدة والهول ﴿ مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أي لم يبق في حقكم علاج إلا إنزال العذاب ، الذي نزل على من قبلكم من المعاندين المتمردين ، المعرضين عن الله وطلبه وطلب رضاه ، فهم سلَفٌ لكم في التكذيب والجحود والعناد ، وقد سلكتم طريقهم فتكونون كأمثالهم في الهلاك ، قال مقاتل : كان عاد وثمود ابني عم ، وموسى وقارون ابنيْ عم ، وإلياس واليسع ابني عم ، وعيسى ويحيى ابني خالة ، وتخصيص هاتين القبيلتين بالذكر لأنها على طريق رحلتها في الشتاء والصيف فيرون آثارهما ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ ﴾ الظاهر أنه من إطلاق الجمع على المثنى ، فإن الجائي « هودٌ » إلى عاد و « صالح » إلى ثمود ، والجملة حال من صاعقة عاد أي مثل صاعقتهم كائنة في وقت مجيء الرسل إليهم فكذبوهم ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم وَمِنْ خَلْفِهِم ﴾ أي من جميع جوانبهم ، واجتهدوا بهم من كل جهة من جهات الإرشاد وطرق النصيحة ، تارة بالرفق ، وتارة بالعنف، وتارة بالتشويق ، وأخرى بالترهيب ، فليس المراد الجهات الحسّية ، والأماكن المحيطة بهم ، أو من جهة الزمان الماضي بالإنذار عما جرى فيه على الكفار من الوقائع ، ومن جهة الزمان المستقبل بالتحذير عما أعد لهم في الآخرة ، ويحتمل أن يكون عبارة عن الكثرة كقوله تعالى (يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) فيراد بالرسل ما يعم المتقدمين منهم والمتأخرين أو ما يعم رسل الرسل أيضاً ، وإلاَّ فالجائي رسولان كما سبق ، وليس في الإثنين كثرة ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ ﴾ أي بأن لا تعبدوا أيها القوم إلا الله أي يأمرونهم بعبادة الله وحده ﴿ قَالُوا ﴾ استخفافاً برسلهم ﴿ لَوْ شَاءَ رَبُّنَا ﴾ أي إرسال الرسل ﴿ لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً ﴾ أي لأرسلهم بدلكم ولم يخالجنا شك في أمرهم ، فآمنا بهم ، لكن لَّما كان إرسالهم بطريق الإنزال قيل لأنزل ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ على زعمكم ، فهو ليس إقراراً منهم بالإرسال ﴿ كَافِرونَ ﴾ لانؤمن بكم ولابما جئتم به .

روي أن أبا جهل قال في ملأ من قريش : « قد التبس علينا أمر محمد عليه السلام ، فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فكلَّمه ، ثم أتانا ببيانٍ من أمره ، فقال « عتبة بن ربيعة » والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر ، وعلمت من ذلك علماً ، وما يخفى عليَّ فأرسلوني إليه ، فأتاه فقال : أنت يا

(١) رواه البيهقي في السنن عن أبي هريرة مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٢٢٤ .

محمد خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ فبم تشتم آلهتنا وتضللنا ؟ فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا ، وإن كان لك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهم من بنات قريش ، وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني به ، ورسول الله عليه السلام ساكت ، فلما فرغ عتبة قال عليه السلام أفرغتَ ياأبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال فاسمعْ بسم الله الرحمن الرحيم (حمّ) إلى قوله فإن تَوَلَّوا فقُل أَنْذَرْتكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) فأمسك عتبة على فمه عليه السلام وناشده بالرحم ، ورجع إلى أهله متحيّراً من أمره عليه السلام ، ولم يرجع إلى قريش ولم يخرج وكانوا منتظرين لخبره ، فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا إليه وقالوا ياعتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ؟ فغضب ثم قال : والله لقد كلمته فأجابني بشيء والله ما هو شعر ، ولا كهانة ولا سحر، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكفَّ ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب) فكان من أمرهم الإصرار حتى قُتِلوا في وقعة بدر ، وأبى الله إلا أن يتم نوره ويظهر دينه ، فما كان إلا ما أراد الله دون ما أرادوا ﴿ **فَأَمَّا عَادٌ** ﴾ لما كان التفصيل مسبباً عن الإجمال السابق ، أدخل عليه الفاء السببية ﴿ **فاسْتَكْبَرُوا في الأَرْضِ** ﴾ أي تعظَّموا فيها على أهلها ﴿ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ أي بغير الاستحقاق للتعظيم وركنوا إلى قوة نفوسهم ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ اغتراراً بتلك القوة الموقوفة على عظم الأجسام ﴿ **مَنْ** ﴾ استفهام ﴿ **أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً** ﴾ وكان طول كل واحد منهم ثمانية عشر ذراعاً ، وبلغ من قوتهم أن الرجل كان يقتلع الصخرة من الجبل ويجعلها حيث شاء ، وكانوا يظنون أنهم يقدرون على دفع العذاب بفضل قوتهم ، فخانتهم قواهم لما استمكن منهم بلواهم ، وقد ردَّ الله عليهم بقوله ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا** ﴾ أيْ أغفلوا ولم يعلموا علماً جلياً شبيهاً بالمشاهدة والعيان ﴿ **أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ** ﴾ وخلق الأشياء كلها خصوصاً الأجرام العظيمه كالسموات والجبال ونحوها ، وإنما أورد في حيِّز الصلة خلقهم دون خلق السموات والأرض ، لادعائهم الشدة والقوة ﴿ **هُوَ أَشَدُّ مِنْهُم قُوَّةً** ﴾ أي قدرة الخالق لابد وأن تكون أشدَّ من قدرة المخلوق ﴿ **وَكَانُوا بآيَاتِنا** ﴾ المنزلة على الرسل ﴿ **يَجْحَدُونَ** ﴾ الجحود الإنكار مع العلم أي ينكرونها وهم يعرفون حقيقتها ، كما يجحد المودَعُ الوديعة وينكرها ، للرد على كلمتهم الشنعاء والمعنى أنهم جمعوا بين الاستكبار وطلب العلو في الأرض ، وهو فسق وخروج عن الطاعة ، بترك الإحسان إلى الخلق ، وبين الجحود بالآيات وهو كفر وترك لتعظيم الحق ، فكانوا فَسَقةً كفرة ، وهذان الوصفان لما كانا أصلَيْ جميع الصفات الذميمة ، لا جرم سلط الله عليهم العذاب كما قال ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً** ﴾ لتقلعهم من أصولهم أي باردة تهلك وتحرق بشدة بردها كإحراق النار بحَرِّها ، من الصر وهو البرد ، أو ريحاً تصرصر أي تُصوِّتُ في هبوبها من الصرير ﴿ **فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ** ﴾ جمع نَحِسة من نحس نحساً نقيض سعد سعداً كلاهما على وزن علم ، وقال الضحاك : « أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين ودامت

الرياح عليهم من غير مطر : وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه « إذا أراد الله بقوم خيراً أرسل عليهم المطر وحبس عنهم كثرة الرياح ، وإذا أراد بقوم شراً حبس عنهم المطر وسلط عليهم كثرة الرياح » والمعنى : في أيام منحوسات مشئومات ليس فيها شيء من الخير ، فنحوستها أن الله تعالى أدام تلك الرياح فيها على وتيرة وحالة واحدة بلا فتور وأهلك القوم بها لا كما يزعم المنجمون من أن بعض الأيام قد يكون في حد ذاته نحساً وبعضها سعداً استدلالاً بهذه الآية لأن اجزاء الزمان متساوية في حد ذاتها ولا تمايز إلا بحسب تمايز ما وقع من الطاعات والمعاصي فيوم الجمعة سعد بالنسبة إلى المطيع نحسٌ بالنسبة إلى العاصي وإن كان سعداً في حد نفسه ، قال رجل عند الأصمعي فسد الزمان ، فقال الأصمعي :

إنَّ الجَدِيدَيْنِ في طُولِ اخْتِلاَفِهِما * لا يَفْسُدَانِ ولكنْ يَفْسُدُ النَّاسُ

وقيل :

نَذُمُّ زَمَانَنَا وَالعَيْبُ فِينَا * وَ مَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا

﴿ لِنُذِيقَهُمْ ﴾ بالريح العقيم ﴿ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا ﴾ إضافة العذاب إلى الخزي من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة ، على طريق التوصيف بالمصدر للمبالغة ، أي العذاب الذليل المهان ، على أن الذليل المهان في الحقيقة أهل العذاب لا العذاب نفسه ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾ أي أذل وأزيد من عذاب الدنيا ، وهو في الحقيقة أيضاً وصف للمعذَّب ، وقد وصف به العذاب على الإسناد المجازي لحصول الخزي بسببه ﴿ وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه ، لا في الدنيا ولا في الآخرة لأنهم لم ينصروا الله ودينه ، وأما المؤمنون فإنهم وإن كانوا ضعفاء ، فقد نصرهم الله لأنهم نصروا الله ودينه، فعجباً من القوة في جانب الضعف ، وعجباً من الضعف في جانب القوة ، وفي الحديث « إنكم إنما تنصرون بضعفائكم »[1] الضعفاء الداعين لكم بالنصرة ، وإنما عذبت عاد بريح صرصر ، لأنهم اغتروا بطول قاماتهم وعظيم أجسادهم وزيادة قوتهم ، فظنوا أن الجسم إذا كان في القوة والثقل بهذه المرتبة ، فهو يثبت في مكانه ويستمسك ولا يزيله عن مقره شيء من البلاء ، فسلَّط الله عليهم الريح فكانت أجسامهم كريشة في الهواء وكان عليه السلام يجثو على ركبتيه عند هبوب الرياح ويقول (اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً ، اللهم اجعلها لنا رياحاً ـ أي رحمة ـ ولا تجعلها ريحاً)[2] أي عذاباً ، وأراد به أن أكثر ما ورد في القرآن من الريح بلفظ المفرد فهو عذاب كقوله (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً) وقوله (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ

(١) رواه أحمد وابن حبان والحاكم بلفظ (أبغوني الضعفاء ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم) الفتح الكبير ١ / ١٨٢ .

(٢) رواية البخاري عن أنس قال « كانت الريح إذا هبَّت عُرف ذلك في وجه رسول الله ﷺ » جامع الأصول ٤ / ١٠ .

﴿ الرِّيحَ العَقِيمَ ﴾ وإن جاء في الرحمة أيضاً نحو ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وكل ما جاء بلفظ الجمع على الرياح فهو رحمة لا غير ، ويقول عليه السلام أي عند هبوب الريح وعند سماع الصوت والرعد والصواعق أيضاً (اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك)[1] وفي الحديث « لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أُمِرتْ به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح ، وشر ما فيها وشر ما أمرت به »[2] ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ ﴾ أي قبيلة ثمود فهو غير منصرف للعلمية والتأنيث ، ومن نوَّنه وصرفه جعله اسم رجل وهو الجد الأعلى للقبيلة ﴿ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ الهداية هنا عبارة عن الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب ، سواء ترتب عليها الاهتداء أو لا كما في قوله تعالى (وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وليست عبارة عن الدلالة المقيدة بكونها موصلة إلى البغية كما في قوله تعالى (واللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الكَافِرِينَ) والمعنى : فدللناهم على الحق بنصب الآيات التكوينية ، وإرسال الرسل وإنزال الآيات الشريفة ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ حقيقة الاستحباب أن يسعى الإنسان في الشيء وأن يحبه واقتضى تعديتُه بـ « على » معنى الإيثار والاختيار أي اختاروا الضلالة من عمى البصيرة على الهداية ، والكفر على الإيمان ، والمعصية على الطاعة .

﴿ فَأَخَذَتْهُم صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ ﴾ الهون مصدر بمعنى الهوان والذلة ، وُصِفَ العذاب للمبالغة أي أخذتهم داهية العذاب المهين كأنه عين الهوان يعنى صيحة جبرائيل فالصاعقة هي العذاب الهون شبه بها لشدته وهوْله كما بُيِّن فيما سبق ، وقيل : صاعقة من السماء أي نار فأهلكتهم وأحرقتهم فيكون من اضافة النوع إلى الجنس بتقدير « مِنْ » أي من جنس العذاب المهين ، الذي بلغ في إفادة الهوان للمعذب إلى حيث كان عين الهون ﴿ بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من اختيار الضلالة والكفر والمعصية ، أما حكمة الابتلاء بالصيحة فلعدم استماعهم الحق﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوْا ﴾ من تلك الصاعقة وكانوا مائة وعشرة أنفسٍ ﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الشرك أو عقر الناقة ، وأشارت الآية إلى أن سبب النجاة من النار هو الإيمان والتقوى ، وهما من صفات القلب .

والكافر تنزل عليه ملائكة العذاب ، والمؤمن تصافحه الملائكة ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ ﴾ الحشر إخراج الجماعة من مقرهم ، وازعاجهم عنه إلى الحرب وغيرها ، ولا يقال إلا في الجماعة ، والمعنى : اذكر يا محمد لقومك يوم يُجمع أعداء الله المذكورين من عاد وثمود ، بمعنى أنهم يجمعون إلى النار كقوله (قُلْ إِنَّ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٤٤٦ وأحمد في المسند ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٣٢٠ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في الفتن رقم ٢٢٥٣ وقال : حديث حسن صحيح . جامع الأصول ٤ / ٣٢٢ .

الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَومٍ مَعْلُوم) لما سيأتي من قوله تعالى (**فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ**) والتعبير بالأعداء للذمّ ، والإيذان بعلة ما يحيق بهم من فنون العذاب ﴿ **إِلَى النَّارِ** ﴾ إلى موقف الحساب ، إذ هناك تتحقق الشهادة الآتية لا بعد تمام السؤال والجواب وسوقهم إلى النار ، والتعبير عنه بالنار إما للإيذان بأنها عاقبة حشرهم وأنهم على شرف دخولها ، وإما لأن حسابهم يكون على شفيرها ، وفي الآية إشارة إلى أن من لم يمتثل أوامر الله ، ولم يجتنب عن نواهيه ولم يتابع رسوله فهو عدو الله ، وإن كان مؤمناً بالله مقراً بوحدانيته ﴿ **فَهُمْ يُوزَعُونَ** ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا وهو كناية عن كثرة أهل النار ، وفيه إشارة إلى أن في الجمع والحبس عقوبة لهم ﴿ **حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُهَا** ﴾ حتى إذا حضروا النار جميعاً ، يعني أن وقت مجيئهم النار لابد أن يكون وقت الشهادة عليهم ﴿ **شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ** ﴾ إلخ لأنهم كانوا استعملوها في معاصي الله بغير اختيارهم فشهدت الآذان بما سمعت من شر ، وأفرد السمع لكونه مصدراً في الأصل ﴿ **وأَبْصَارُهُمْ** ﴾ بما نظرت إلى الحرام ﴿ **وَجُلُودُهُمْ** ﴾ ظواهر أنفسهم وبشراتهم بما لامست محظوراً ﴿ **بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ في الدنيا ويقال : تخبر كل جارحة بما صدر من أفاعيل صاحبها ، لأن كلاً منها تخبر بجناياتها المعهودة فقط ، فالموصول عبارة عن جميع أعمالهم السيئة ، وفنون كفرهم ومعاصيهم ، وتلك الشهادة بأن ينطقها الله كما أنطق اللسان ، إذ ليس نطقها بأغرب من نطق اللسان عقلاً ، كما أنطق لرسوله الشجرة والشاة المشوية المسمومة ،على أن تكون الأعضاء هي الناطقة بالحقيقة موصوفة بالقدرة والإرادة ، روي أنه عليه السلام (ضحك يوماً حتى بدت نواجذه ، ثم قال : ألا تسألون مم ضحكت ؟ قالوا مما ضحكت يا رسول الله ؟ قال : عجبتُ من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول يارب أليس قد وعدتني أن لا تظلمني ؟ قال فإن لك ذلك ، قال فإني لا أقبل شاهداً إلا من نفسي ، قال الله تعالى : أو ليس كفى بي شهيداً وبالملائكة الكرام الكاتبين شهوداً ؟ فيقول : أي رب أجرتني من الظلم فلن أقبل عليَّ شاهداً إلاَّ من نفسي ، قال فيختم على فيه وتتكلم الأركان بما كان يعمل ، قال عليه السلام : فيقول لهن بُعْداً لكُنَّ وسُحْقاً، فعنكنَّ كنت أجادل)[1] وهذه الرواية تنطق بأن المراد بالجلود الجوارح ﴿ **وَقَالُوا لِجُلُودِهِم** ﴾ توبيخاً ﴿ **لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا** ﴾ وصيغة جمع العقلاء في خطاب الجلود ، لوقوعها في موقع السؤال والجواب المختصين بالعقلاء ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : المراد بشهادة الجلود شهادة الفروج لأنها لا تخلو عن الجلود ، والله حيٌّ يكْنِي وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها في قوله (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا) قالوا ما نشهد به من الزنى أعظم جناية وقبحاً ، وأجلب للخزى والعقوبة مما يشهد به السمع والأبصار من الجنايات المكتسبة

---

(١) الحديث أخرجه مسلم ، والنسائي ، والبزار ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ٢ / ٢٦٠ .

بتوسطها ﴿ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيءٍ ﴾ أي جعلنا ننطق وأقدرنا على بيان الواقع ، فشهدنا عليكم بما عملتم بواسطتنا من القبائح وما كتمناها ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فإن من قدر على إعادتكم وردكم إلى جزائه ثانيا ، لا يتعجب من إنطاقه لجوارحكم وفي تفسير الجلالين (وهو خلقكم) ابتداء إخبار من الله تعالى ، وليس من كلام الجلود ، فإن الله تعالى قد خلق كلاً من الحواس لإدراك أشياء مخصوصة كالسمع للأصوات ، والذوق للطعوم ، والشم للروائح ، لكنَّ ذلك الإدراك بمحض خلق الله تعالى من غير تأثير الحواس ، فلا يمتنع أن يخلق عقيب صرف الباصرة إدراك الأصوات مثلاً وإن لم يكن واقعاً بالفعل وكذلك اللسان فإنه مخلوق للنطق لكن الله تعالى إذا أراد كان جميع البدن لساناً ، وقد ورد (أن كل شيء سمع صوت المؤذن من رطب ويابس يشهد له يوم القيامة)[1] فهذه الشهادة من باب النطق لا عن علم وتعقل ، فليحذر العبد عن شهادة الأعضاء وكذا المكان والزمان ، وعن علاء بن زياد قال : ليس يوم يأتي من أيام الدنيا إلا يتكلم ويقول : « يا أيها الناس إني يوم جديد ، وأنا على ما يُعمل فيَّ شهيد ، واني لو غربت شمسي لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة » ﴿ وَمَا كُنْتُم تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ ﴾ أي من أن يشهد ، أو مخافة أن يشهد ، و« لا » في الموضعيْنِ زائدة لتأكيد النفي ، وهذه حكاية لما سيقال للأعداء يومئذ من جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع تقريراً لجواب الجلود ، والمعنى : وماكنتم تستخفون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك ، لأنها كانت أجساماً صامتة غير ناطقة ، ولم يكن في حسابكم ما استقبلكم ، كما كنتم تسترون من الناس بالحيطان والحجب وظُلْمةِ الليل ، مخافة الافتضاح عندهم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأساً فضلاً عن شهادة الأعضاء ، وفيه تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن يتحقق أن لا يمر عليه حال إلا وعليه رقيب ، وأن الله معه أينما كان ، قيل : من لم يذكر في وقت مباشرته الذنوب شهادة جوارحه عليه ، يجترىء على الذنوب، ومن ذكر ذلك حين مباشرتها ربما تلحقه العصمة والتوفيق فيمنعانه عنها ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ ﴾ عند استتاركم ﴿ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من القبائح المخفيّة فلا يظهرها في الآخرة على تقدير وقوعها ولذلك اجترأتم على ما فعلتم ، وأدخل الكثير في قوله (لا يَعْلَمُ كَثِيراً) لكونهم يزعمون أن الله يعلم ما يجهر به دون ما يسره ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنت مستتراً بأستار الكعبة ، فدخل ثلاثة نفر : ثقفيان وقرشي ، أو قرشيان وثقفي ، كثيرٌ شحم بطونهم ، قليلٌ فقه قلوبهم ، فقال أحدهم أترون أن الله يسمع ما نقول ؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولايسمع إن أخفينا ، فذكرت ذلك للنبي عليه السلام فأنزل الله تعالى (وَمَا كُنْتُم

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود والنسائي ولفظُه « المؤذِّنُ يُغفر له مدى صوته ، ويشهد له كل رطبٍ ويابس » وزاد النسائي في رواية له « وله مثلُ أجرِ من صلّى معه » وانظر جامع الأصول ٩ / ٣٨٤ .

تَسْتَتِرُونَ) إلـخ[1] فـالحكم المحكي حينئـذ يكـون خـاصـاً بمن كان على ذلـك الاعتقـاد من الكفرة ﴿ **وَذَلِكُمْ** ﴾ الظن أيها الأعداء ﴿ **ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ** ﴾ وإلا فالله تعالى عالم بجميع الكليات والجزئيات ، والمطلع على البواطن والسرائر كما على الظواهر ﴿ **أَرْدَيٰكُمْ** ﴾ أي أهْلَكَكم وطرحكم في النار ﴿ **فَأَصْبَحْتُمْ** ﴾ أي صرتم : بسبب ذلك الظن السوء الذي أهلككم ﴿ **مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ إذ صار ما منحوا لسعادةِ الدارين من القوة العاقلة ، والأعضاء المعينة سبباً لشقاء النشأتين ، أما كونها سبباً لشقاء الآخرة فظاهر ، وأما كونها سبباً لشقاء الدنيا ، فمن حيث إنها كانت مفضية في حقهم بسوء اختيارهم إلى الجهل المركب بالله سبحانه وصفاته ، وإتباع الشهوات وارتكاب المعاصي ، وفي بحر العلوم (من الخاسرين) أي الكاملين في الخسران حيث ظننتم بالله ظن السوء ، وسوءُ الظن بالله من أكبر الكبائر كحب الدنيا وقال الحسن رحمه الله : إن قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ، يقول أحدهم إني أحسن الظنَّ بربي ، وكذب لو أحسن الظن لأحسن العمل ، وتلا قوله تعالى (**وذلكم ظنكم**) الآية فالظن اثنان : ظنٌّ ينجي وهو ما قارن حسن الاعتقاد وصالح العمل ، وظنٌّ يُرْدي وهو ما لم يقارن ذلك فلابد من السعي ﴿ **فَإِنْ يَصْبِرُوا** ﴾ في النار على العذاب ، وأمسكوا عن الاستغاثة والجزع مما هم فيه انتظاراً للفَرَج ، زاعمين أن الصبر مفتاح الفَرَج ﴿ **فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** ﴾ أي محل ثواء وإقامة أبديَّة لهم ، بحيث لا خلاص لهم منها فلا ينفعهم صبرهم ﴿ **وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا** ﴾ أي يسألوا العتبى وهو الرجوع إلى ما يحبون جزعاً مما هم فيه ﴿ **فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ** ﴾ أي المجابين إلى العتبى ، فيكون صبرهم وجزعهم سواء في أن شيئاً منهما لا يؤدي إلى الخلاص ، ونظيره قوله تعالى (**سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ**) وفي القاموس : العُتبى الرضى واستعتَبه : أعطاه العتبى كأعتبه ، وفي المفردات أعتبته أزلت عنه عتبه نحو أشكيته ﴿ **وَقَيَّضْنَا لَهُمْ** ﴾ أي قدَّرنا وسلَّطنا على الكفرة في الدنيا ﴿ **قُرَنَاءَ** ﴾ جمع قرين أي أخذنا من شياطين الإنس والجن أصدقاء ، يستولون عليهم استيلاء القيض على البيض وهو القشر الأعلى ﴿ **فَزَيَّنُوا لَهُمْ** ﴾ أي قُرَنَاؤهم ﴿ **مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ من أمور الدنيا واتباع الشهوات ﴿ **وَمَا خَلْفَهُمْ** ﴾ من أمور الآخرة حيث أروهم أن لا بعث ولا حساب ولا مكروه قط ، جعل أمر الدنيا بين أيديهم ، كما يقال : قدمت المائدة بين أيديهم ، والآخرة لما كانت تأتيهم بعد هذا جعلت خلفهم ، كما يقال لمن يجيئ بعد الشخص إنه خلفه ، وهذا هو الذي تقتضيه ملاحظة الترتيب الوجودي ، وقيل (ما بين أيديهم) الآخرة لأنها قدَّامهم وهم متوجهون إليها (وما خلفهم) الدنيا لأنهم يتركونها خلفهم ، قال الجنيد : لا تألف النفس الحق أبداً وقال ابن عطاء : النفس قرين الشيطان ، وإلْفُه ومتَّبعه

---

(١) رواه الترمذي عن عبد الله الله بن مسعود ، ورواه أحمد في المسند ، ومسلم بنحوه ، وانظر مختصر ابن كثير ٣ / ٢٦١ .

فيما يشير إليه ، مفارق للحق مخالف له ، لا يألف الحق ولا يتبعه ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أي ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب ، وتحقيق موجبها ومصداقها وهي قوله (لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) ونحوه ﴿ فِي أُمَمٍ ﴾ حال من الضمير المجرور أي كائنين في جملة أمم ، وقيل « في » معنى « مع » وهذا كما ترى صريح في أن المراد بأعداء الله فيما سبق المعهودون ، من عاد وثمود ، لا الكفار من الأولين والآخرين كما قيل ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ صفة الأمم أي مضت ﴿ مِنْ قَبْلِهِم مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾ على الكفر والعصيان كدأب هؤلاء الكفار ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب ، والضميرُ للأولين والآخرين وفي كشف الأسرار (إذا أراد الله بعبد خيراً قيَّض له قرناء خير يعينونه على الطاعة ويدعونه إليها ، وإذا أراد الله بعبد سوءً قيَّض له أخدان سوء يحملونه على المخافات ويدعونه إليها ، ومن ذلك الشيطان فإنه مسلط على الإنسان بالوسوسة ، وشر من ذلك النفس الأمارة بالسوء ، وتدعو اليوم إلى ما فيه هلاكها وهلاك العبد وتشهد غداً عليه بما دعته إليه) نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من الرابحين لا من الخاسرين ، وأن يكون عوناً لنا على النفس وإبليس وسائر الشياطين ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من رؤساء المشركين لأعقابهم واشقيائهم ، أو قال بعضهم لبعض ﴿ لاَتَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ لاتتقصّدوا لسماعه ﴿ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ اللغو من الكلام مالا يعتدُّ به ، وهو الذي لاعنْ رويَّةٍ وفكر ، فيجري مجرى اللغاء ، وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور أي ائتوا فيه بالباطل من الكلام الذي لا طائل تحته ، وعارضوه بالخرافات وهي الهذيان والأحاديث التي لا أصل لها مثل قصص رستم واسفنديار ، وبإنشاء الأرجاز والأشعار ، والتصفيق والصفير ، وارفعوا أصواتكم بها لتشوشوا على القاريء فيختلط عليه ما يقرأه ﴿ لَعَلَّكُم تَغْلِبُونَ ﴾ أي تغلبونه على قراءته فيترك القرآءة ولا يتمكن السامع أيضاً من سماعه ، أرادوا بذلك التلبيس والتشويش للأذية ، وأيضاً خافوا من أنه لو سمعه الناس لآمنوا به ، وكان ذلك غالباً شأن أبي جهل وأصحابه ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي فوالله لنذيقن هؤلاء القائلين واللاغين ، أو جميع الكفرة وهم داخلون فيهم دخولاً أولياً ﴿ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ لا يقادر قدره كما دل التنكير والوصف ، وهذا تهديد شديد لأن لفظ الذوق إنما يذكر في القدر القليل يؤتى به لأجل التجربة ، وإذا كان ذلك الذوق وهو قدر قليل عذاباً شديداً فقس عليه ما بعده ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَءَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم التي هي في أنفسها أسوءَ ، فإذا كانت أعمالهم أسوءَ كان جزاؤها كذلك ، فالأسوءُ قصد به الزيادة المطلقة ، وإنما أضيف إلى ما عملوا للبيان والتخصيص وعن ابن عباس رضي الله عنهما (عَذَاباً شديداً) يوم بدر ، و(أسوءَ الذي كانوا يعملون) في الآخرة ﴿ ذَلِكَ ﴾ المذكور من الجزاء ﴿ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ ﴾ أي جزاء معد لأعدائه ﴿ النَّارُ ﴾ عطف بيان للجزاء أو ذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ أي هي بعينها دار إقامتهم لا انتقال لهم

منها ، والمراد أن لهم في النار المشتملة على الدركات دار مخصوصة هم فيها خالدون ﴿ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** ﴾ أي يُجزون جَزاء ماكانوا يجحدون بآياتنا الحقة أو يلغون فيها ، وذكر الجحود لكونه سبباً للّغو ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب ﴿ **رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ** ﴾ أي أرنا الشيطانَينْ اللّذين حَمَلانا على الضلال بالتسويل والتزيين ، من نوعي الجن والإنس ، لأن الشيطان بين جنّي وإنسي بدليل قوله (**شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ**) وقوله (**مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاس**) ويقال : الذي من الإنس قابيل بن آدم سَنَّ القتل بغير حق ، والذي من الجن سَنَّ الكُفْر وَالشرك ، فيكون معنى أضلاّنا : سنّا لنا الكفر والمعصية ، ويشهد لهذا القول الحديث المرفوع (ما من مسلم يُقْتل ظلماً إلا كان على ابن آدم كفل من دمه لأنه أول من سن القتل)[1] ﴿ **نَجْعَلْهُمَا تَحتَ أَقْدَامِنا** ﴾ أي ندوسها انتقاماً منهما ﴿ **لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ** ﴾ أي ذلاً ومهانة ، أو نجعلها في الدرك الأسفل من النار تشفياً منهما بذلك (ليكونا من الأسفلين) مكاناً وأشد عذاباً منا .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ** ﴾ اعترافاً بربوبيّته ، وإقراراً بوحدانيته « فربُّنا الله» من باب صديقي زيد يفيد الحصر ﴿ **ثُمَّ اسْتَقَامُوا** ﴾ أي ثبتوا على الإقرار بقولهم (ربنا الله) ومقتضياته بأن لا تزل قدمهم عن طريق العبودية قلباً وقالباً ولا تتخطاه ، وفيه يندرج كل العبادات والاعتقادات بصفة الدوام إلى وقت الوفاة ، واستقامة الإنسان لزومه للمنهج المستقيم ، ومن الاستقامة أن لا يرى المرء النفع والضر إلا من الله ، ولا يرجو من أحد دون الله ، ولا يخاف أحداً غيره ، وعن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه (قلت يا رسول الله : أخبرني بأمر أعتصم به ؟ قال قل ربي الله ثم استقم ، قال : قلت ما أخوف ما تخاف عليَّ ؟ فأخذ رسول الله بلسان نفسه وقال هذا)[2] ، وكان الحسن إذا تلا هذه الآية قال : « اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة ﴿ **تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ** ﴾ من جهته تعالى ، يمدونهم فيما يعرض لهم من الأمور الدينية والدنيوية ، بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام ، كما أن الكفرة يمدهم ما قُيِّض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح ، وكذا تتنزَّل عند الموت بالبشرى ، وفي القبر ، وعند البعث ، إذا قاموا من قبورهم ﴿ **أَنْ** ﴾ أي يتنزلون متلبِّسين بهذه البشارة وهي ﴿ **لاَ تَخَافُوا** ﴾ ما تقدمون عليه من أمر الآخرة فلا ترون مكروهاً ، فإن الخوف غم يلحق لتوقع المكروه ﴿ **وَلاَ تَحْزَنُوا** ﴾ على ما خلفتم من أهل وولدٍ ، فإنه تعالى يخلفكم عليهم بخير ، ويعطيكم في الجنة أكثر من ذلك وأحسن ، ويجمع بينكم وبين أهاليكم وأولادكم المسلمين ﴿ **وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ في الدنيا على ألسنة

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، وأحمد في المسند ١ / ٣٨٣ وأصله في الصحيحين .

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه بلفظ (قل آمنتُ ثم استقم) وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٢ / ٣٠٠ .

الرسل هذا من بشارتهم في أحد المواطن الثلاثة ، وعن ثابت « بلغنا إذا انشقت الأرض يوم القيامة ينظر المؤمن إلى حافظيه قائمين على رأسه ، يقولان له : لا تخف ولا تحزن ، وأبشر بالجنة الموعودة ، وإنك سترى اليوم أموراً لن ترى مثلها فلا تهولنك فإنما يراد بها غيرك » .

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ هذا من بشاراتهم في الدنيا أي نحن أعوانكم في أموركم نلهمكم الحق ، ونرشدكم إلى ما فيها خيركم وصلاحكم ، ولعل ذلك عبارة عما يخطر ببال المؤمنين المستمرين على الطاعات ، من أن ذلك بتوفيق الله وتأييده لهم بواسطة الملائكة ﴿ وَفِي الآخِرَةِ ﴾ نمدكم بالشفاعة ونتلقاكم بالكرامة حين يقع بين الكفرة وقرنائهم ما يقع من التعادي والتخاصم ، ﴿ وَلَكُمْ ﴾ لا لغيركم من الأعداء ﴿ فِيهَا ﴾ أي في الآخرة ﴿ مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴾ من فنون اللذائذ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ ما تتمنون ، وهو أعمُّ من الأول ، إذ لا يلزم أن يكون كل مطلوب مشتهى ، فالمريض لا يريد ما يشتهيه ويضر مرضه ، ﴿ نُزُلاً ﴾ رزقاً كائناً ﴿ مِنْ غَفُورٍ ﴾ للذنوب العظام ، مبدِّلٍ للسيئات بالحسنات ﴿ رَحِيمٍ ﴾ بالمؤمنين من أهل الطاعات بزيادة الدرجات والقربات ، كأنه قيل : وثبت لكم فيها الذي تدعونه حال كونه كالنزل للضيف ، وأما أصل كرامتكم فما لا يخطر ببالكم فضلاً عن الاشتهاء أو التمني ﴿ وَمَنْ ﴾ للاستفهام ﴿ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ ﴾ أي إلى توحيده وطاعته ﴿ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ فيما بينه وبين ربه ﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ ﴾ ابتهاجاً بأنه منهم ، أو اتخاذاً للإسلام ديناً ونحلة ، إذ لا يقبل طاعة بغير دين الإسلام ، من قولهم هذا قول فلان أي مذهبه ، لأنه تكلم بذلك ، وفيه ردٌّ على من يقول « أنا مسلم إن شاء الله » فإنه تعالى قال مطلقاً غير مقيد بشرط إن شاء الله ، وقال علماء الكلام إن قاله للشك فهو كفر لا محالة ، وإن كان للتأدب مع الله وإحالة الأمور إلى مشيئة الله ، أو للشك في العاقبة والمآل لا في الآن والحال ، أو للتبرك بذكر الله أو التبري من تزكية نفسه والإعجاب بحاله فجائز له ، والأولى تركه لما أنه يوهم الشك ، وحكم الآية عام لكل من جمع ما فيها من الخصال الحميدة التي هي (الدعوة والعمل والقول) وإن نزلت في رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو في أصحابه رضي الله عنهم أو في المؤذنين فإنهم يدعون الناس إلى الصلاة ، فإن قلت : السورة بكمالها مكية بلا خلاف والأذانُ إنما شرع بالمدينة ؟ قلت : يجعل من باب ما تأخر حكمه ، عن نزوله وكم في القرآن منه وإليه ذهب بعض الحفاظ كابن حجر وغيره ، واعلم أن للدعوة مراتب : الأولى دعوة الأنبياء عليه السلام فإنهم يدعون إلى الله بالمعجزات والبراهين وبالسيف ،وتشير الآية إلى أن أحسن قول قاله الأنبياء والأولياء قولهم بدعوة الخلق إلى الله ، وكان عليه السلام مخصوصاً بهذه الدعوة كما قال تعالى (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۞ وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ) وقال (وَعَمِلَ صَالِحاً) أي كما يدعو الخلق إلى

الله يدعوهم إليه بعمله ؛ والمرتبة الثانية دعوة العلماء فإنهم يدعون إلى الله تعالى بالحجج والبراهين فقط ، ثم إن العلماء ثلاثة أقسام : عالم بالله ، وعالم بأمر الله ، وعالم بالله وبأمر الله والمرتبة الثالثة الدعوة بالسيف ، وهي للمملوك فإنهم يجاهدون الكفار حتى يدخلوا في دين الله وطاعته ، والمرتبة الرابعة دعوة المؤذنين إلى الصلاة وهي أضعف مراتب الدعوة إلى الله وذلك أن ذكر كلمات الآذان وإن كان دعوة إلى الصلاة لكنهم يذكرون تلك الألفاظ الشريفة بحيث لا يحيطون بمعناها ولا يقصدون الدعوة إلى الله ، فإذا لم يلتفتوا إلى مال الوقف ، وراعوا شرائط الأذان ظاهراً وباطناً ، وقصدوا بذلك مقصداً صحيحاً ، كانوا كغيرهم من أهل الدعوة ، وإن النبي عليه السلام قال (المؤذّنون أمناءُ المؤمنين على صلاتهم وصيامهم ولحومهم ودمائهم ، لا يسألون الله شيئاً إلا أعطاهم ، ويُغفر للمؤذن مدى صوته)[1] وفي الحديث (المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة)[2] أي يكونون سادات وأكثر الناس ثواباً أو رجاء ، والناس حين يكونون في الكرب ، يكون المؤذنون أكثر رجاء بأن يؤذن لهم في دخول الجنة ، قال الفقهاء : يقطع سامع الأذان كل عمل باليد ، والرجل ، واللسان ، حتى تلاوة القرآن إن كان في غير المسجد ، وإن كان فيه فلا يقطع ، ويشتغل بالإجابة ، واختلفوا في الوجوب والاستحباب ، فقال بعضهم واجبة عند الأذان والإقامة، وقال الآخرون هي مستحبة ويقول بعد الآذان (اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته) ويقول عند أذان المغرب خصوصاً (اللهم هذا إقبال ليلك ، وإدبار نهارك ، وأصوات دعاتك فاغفر لي) وأول من أذن في الإسلام بلال الحبشي رضي الله عنه وكان أول مشروعيته في آذان الصبح وزاد بلال في آذان الصبح بعد الحيعلات (الصلاةُ خير من النوم) مرتين ويقيم من أذّن لا غيره إلا بإذنه ، وأول من زاد الأذان في الجمعة عثمان رضي الله عنه زاده ليؤذن أهل السوق فيأتون إلى المسجد ، وكان في زمانه عليه السلام وزمان أبي بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه أذان واحد ، حين يجلس على المنبر ، والجهر واجب في الأذان لإعلام الناس ، ولذا سن أن يكون في موضع عال ، ولو أذن لنفسه خَافَتَ ، وأما التكبيرات في الصلاة فالمؤذن يرفع صوته لتبلغ التكبير لمن بَعُد عن الإمام من المقتدين ، فإن كان في صوت الإمام كفاية فالتبليغ مكروه ﴿ **ولاَتَسْتَوِي الْحَسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ** ﴾ بيان لمحاسن الأعمال الجارية بين العبد وبين الرب ترغيباً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الصبر على أذية المشركين ، ومقالة إساءتهم بالاحسان ، أي لا تستوي الخصلة الحسنة والسيئة في الجزاء وحسن العاقبة ، فإنك إذا صبرت على أذاهم وجهالتهم وتركت الانتقام منهم ، ولم تلتفت إلى سفاهتهم ، فقد استوجبت التعظيم في الدنيا والثواب في الآخرة ، وهم بالضد

---

(١) هذا الحديث مجموعة أحاديث دمجها المصنف في حديث واحد رواها الطبراني والبيهقي ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٥٠ .

(٢) رواه مسلم وأحمد وابن ماجه ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٥٠ .

من ذلك ، فلا يكن إقدامهم على تلك السيئة مانعاً لك من الاشتغال بهذه الحسنة ، وإذا فسرت الحسنة والسيئة بالجنس على أن يكون المعنى لا تستوي الحسنات إذ هي متفاوتةٌ في أنفسها كشعب الإيمان التي أدناها إماطة الأذى ، ولا السيئات لتفاوتها أيضاً من حيث إنها كبائر وصغائر لم تكن زيادة لا الثانية لتأكيد النفي ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ بيان لحسن عاقبة الحسنة أي ادفع السيئة حين اعترضتك من بعض أعاديك ، بالتي هي أحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات ، كالإحسان إلى من أساء فإنه أحسن من العفو ، وكان عليه السلام يقول (صل من قطعك ، واعف عمن ظلمك ، وأحسنْ إلى من أساء إليك)[1] وما أمر علي السلام غيره بشيء إلا بعد التخلق به في الدفع بالحسنة ، فإن من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما دونها ﴿ **فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ بيان لنتيجة الدفع المأمور به أي فإذا فعلت ذلك صار عدوك المخالف مثل الولي الشفيق ، روي أنها نزلت في أبي سفيان بن حرب ، وذلك أنه لَانَ للمسلمين بعد الشدة أي شدة عداوته بالمصاهرة التي جعلت بينه وبين النبي عليه السلام ، ثم أسلم فصار ولياً بالإسلام حميماً بالقرابة .

قال البقلي : بيَّن الله ههنا أن الخُلق الحسن ليس كالخلق السيء ، وأمرنا بتبديل الأخلاق المذمومة بالأخلاق المحمودة ، وأحسن الأخلاق الحلم ، إذ يكون به العدو صديقاً ، والبعيد قريباً حين دفع غضبه بحلمه ، وظلمه بعفوه ، وسوء جانبه بكرمه ﴿ **وَمَا يُلَقَّاهَا** ﴾ أي وما يُلقَّى وما يعطى الخصلة والسجية التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا** ﴾ أي شأنهم الصبر فإنها تحبس النفس عن الانتقام ﴿ **وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ من الفضائل النفسانية ، والقوة الروحانية ، فإن الاشتغال بالانتقام لا يكون إلا لضعف النفس ، والحاصل أنه يلزم تزكية النفس ، ففي الآية مدح لهم بفعل الصبر والحظُّ : النصيبُ المقدَّر ﴿ **و إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ** ﴾ والنَّزغُ : شبه النخس ، شبَّه به وسوسة الشيطان لأنها بعث على الشر ، وتحريك على مالا ينبغي أي نزغٌ صادر من جهته ، أو أُريد وإن يوسوس إليك الشيطان ، ويصرفك عما وُصِّيت به من الدفع بالتي هي أحسن ودعاك إلى خلافه ﴿ **فَاسْتَعِذْ بِاللهِ** ﴾ من شره ولا تطعه ﴿ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ** ﴾ باستعاذتك ﴿ **العَلِيمُ** ﴾ بنيتك ، وفي جعل ترك الدفع بالأحسن من آثار نزغات الشيطان مزيد تحذير وتنفير عنه ، وفي الآية إشارة إلى أنَّ الولي لا ينبغي أن يكون آمناً من مكر الله ، بل يكون على حذر من نزغات الشيطان فليستعذ بالله من همزاته فلا يذرها أن تصل إلى القلب ولا يتخلص العبد من نزغات الشيطان إلا بصدق الاستعانة بالله والإخلاص في العبودية قال الله تعالى (**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**) فكلما زاد العبد في تبريه من حوله وقوته ، وأخلص بين يدي الله تعالى بتضرعه واستعانته ، زاد الله في حفظه ودفع الله

(١) رواه ابن النجار عن علي رضي الله عنه وزاد فيه (وقل الحقّ ولو على نفسك) وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٢ / ١٨٨ .

الشيطان عنه .

وفي الحديث (ما منكم من أحد إلا ومعه قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ، قالوا : وإياك يارسول الله ؟ قال : واياي ولكن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير)[1] وهذا خاص بقرين النبي عليه السلام ، فيكون عليه السلام مختصاً بإسلام قرينه ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيلُ والنَّهَارُ** ﴾ قال الإمام المرزوقي : الليل إزاء النهار والليلة إزاء اليوم ﴿ **والشَّمْسُ وَالْقَمَرُ** ﴾ يعني تعاقب الليل والنهار على الوجه الذي يتفرع عليه منافع الخلق ومصالحهم ، وتذلل الشمس والقمر لما يراد منهما ، منْ أظْهرِ العلامات الدالة على وجوده تعالى ووحدانيته ، وكمال علمه وحكمته .

﴿ **لاَ تَسْجُدوا للشَّمْسِ وَلاَ لِلقَمَرِ** ﴾ لأنها من جملة مخلوقاته المسخرة لأوامره مثلكم ﴿ **وَاسْجُدُوا للهِ الَّذي خَلَقَهُنَّ** ﴾ الضمير للأربعة لأن حكم جماعة مالا يعقل حكم الأنثى ﴿ **إنْ كُنْتُم إيَّاهُ** ﴾ تعالى لا غيره ﴿ **تَعْبدُوْن** ﴾ أي إن كنتم تعبدون إياه لا تسجدوا لغيره ، فإن السجود أقصى مراتب العبادة ، فلابد من تخصيصه به تعالى ، ولعل ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله ، فنهوا عن هذه الواسطة فأمروا أن لا يسجدوا إلا لله الذي خلق الأشياء ، فإن قيل ،لِمَ لَمْ يجز أن تكون الشمس قبلة للناس عند سجودهم ؟ قلنا : لأنها جوهر مشرق عظيم الرفعة لها منافع في صلاح أحوال الخلق ، فلو أذن في جعلها قبلة في الصلاة بأن يتوجه إليها ويركع ويسجد نحوها لربما غلب على بعض الأوهام أن ذلك الركوع والسجود للشمس لا لله ، بخلاف الأحجار المعينة فإنها ليس في جعلها قبلة ما يوهم الإلهيَّة ﴿ **فَإنِ اسْتَكْبَرُوا** ﴾ أي تعظموا عن امتثال أمرك في ترك السجود لغير الله وأبوا إلا اتخاذ الواسطة ، فذلك لا يُقلِّل عدد من يخلص عبادته لله ﴿ **فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ** ﴾ فإن الملائكة المقربين عند الله ﴿ **يُسَبِّحُونَ لَهُ** ﴾ ينزهونه عن الأنداد وسائر ما لا يليق به ﴿ **بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ** ﴾ وفي جميع الأوقات ، وتخصيص الملائكة مع وجود غيرهم من العباد المخلصين لكثرتهم ﴿ **وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ** ﴾ السآمة الملالة أي لا يفترون ولا يَملُّون من التسبيح والعبادة ، فإن التسبيح منهم كالتنفس من الناس ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ** ﴾ دلائل قدرته تعالى ﴿ **أَنَّكَ** ﴾ يا محمد أو يا أيها الناظر ﴿ **تَرَى الأَرْضَ** ﴾ حال كونها ﴿ **خَاشِعَةً** ﴾ يابسة لا نبات فيها ، مستعار من الخشوع بمعنى التذلل ، شبَّه يبس الأرض وخلوها عن الخير والبركة بكون الشخص خاشعاً ذليلاً عارياً لا يؤبه به لدناءة هيئته ﴿ **فَإذا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ** ﴾ أي تحركت بالنبات ﴿ **وَرَبَتْ** ﴾ وانتفخت لأن النبات إذا دنا أن يظهر ، ارتفعت له الأرض وانتفخت ثم تصدعت عن

---

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود برقم / ٢٨١٤ / وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٤٥ .

النبات أي انشقت ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا ﴾ بما ذكر بعد موتها ، فالمراد بإحياء الأرض نضارتها بأنواع النباتات ﴿ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ بالبعث ﴿ إِنَّه عَلَى كُلِّ شَيءٍ ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإحياء ﴿ قَدِيرٌ ﴾ مبالغ في القدرة ، وقد وعد بذلك فلابد من أن يفي به ، والحكمة في الإحياء هو المجازاة والمكافأة ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ ﴾ الإلحاد في الأصل : مطلق الميل ، والانحراف ، ومنه اللحد لأنه في جانب القبر ، ثم خص في العرف بالانحراف عن الحق إلى الباطل ، أي يميلون عن الاستقامة ﴿ فِي آيَاتِنَا ﴾ بالطعن فيها بأنها كذب أو سحر أو شعر ، وبتحريفها وبحملها على المحامل الباطلة ﴿ لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ فيجازيهم بإلحادهم ، ثم نبه على كيفية الجزاء فقال ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ ﴾ على وجهه وهم الكفرة بأنواعهم ﴿ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً ﴾ من النار ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وهم المؤمنون على طبقاتهم ، قابل الإلقاء في النار بالإتيان آمناً مبالغة في التنصيص على أنهم آمنون يوم القيامة من جميع المخاوف ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ من الأعمال المؤدية إلى ما ذكر من الإلقاء في النار ، والإتيان آمناً وآثروا ما شئتم ، فإنكم لا تضرون إلا أنفسكم ، وفيه تهديد شديد ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ ﴾ أي القرآن ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ أي بادهوه بالكفر والإنكار ساعة ماجاءهم ، وأول ما سمعوه ، من غير إحالة فكر وإعادة نظر ، وكذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ والحال أن الذكر ﴿ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ أي كثير المنافع عديم النظير ، فهو من العز الذي هو خلاف الذل ، أو منيعٌ لا تتأتى معارضته وإبطاله وتحريفه ، فهو من العزة بمعنى الغلبة ، فالقرآن وإن كان لا يخلو عن طعن باطل من الطاعنين ، وتأويل فاسد من المبطلين ، إلا أنه يؤتى بحفظة ، ويُقدَّر له في كل عصر مَنَعةٌ يحرسونه ، بإبطال شبه أهل الزيغ والأهواء ، وردِّ تأويلاتهم الفاسدة ، فهو غالب بحفظ الله إياه ، وكثرة منعته على كل من يتعرض له بالسوء .

قال ابن عطاء : عزيز لأنه لا يبلغ أحد حقيقة حقه لعزه في نفسه ، وعز من أنزل عليه ، وعز من خوطب به من أوليائه وأهل صفوته ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي لا يتطرق إليه الباطل ، ولا يجد إليه سبيلاً من جهة من الجهات حتى يصل إليه ، شبَّه الكتاب في عدم تطرق الباطل إليه بوجه من الوجوه بمن حُمي بحماية غالب قاهر ، يمنع جاره من أن يتعرض له العدو من جهة من جهاته ، أو الباطل هو الشيطان لا يستطيع أن يغيره بأن يزيد فيه أو ينقص منه ، أو لا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله ولا يجيء بعده كتاب يبطله أو ينسخه ﴿ تَنْزِيلٌ ﴾ أي هو تنزيل ﴿ مِنْ حَكِيمٍ ﴾ أي ربٍّ حكيم ، مانع عن تبديل معانيه ﴿ حَمِيدٍ ﴾ أي مستحق للتحميد يحمده كل خلق في كل مكان ، بلسان الحال والمقال ، وعن علي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله عليه السلام يقول (ألا إنها ستكون فتنة ، فقلت ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتابُ الله ، فيه نبأ ما

قبلكم ، وخَبَرُ ما بعدكم ، وحكمُ ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمهُ اللهُ ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتينُ ، وهُوَ الذّكْرُ الحَكِيمُ ، وهَوَ الصِّراط المُستَقِيمُ ، الذي لا تَزَيغُ به الأهْوَاءُ ، وَلاَتَلْتَبس به الأَلْسنة ، وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ ، وَلاَ يَخْلُقُ على كَثْرةِ الرّد ، ولا تنقضي عِجَائِبُه وهو الذي لم تنتهِ الجِنُّ عند سماعة حتى قَالُوا (إنّا سَمِعْنَا قُرءآنا عَجَبَاً يَهدي إلى الرُّشْدِ فآمنا به) مَنْ قَالَ به صَدَقَ ، وَمَنْ عمِلَ به رَشَدَ ، ومَنْ حَكم به عَدل ، ومَنْ دَعا إليه هُدي إلى صِرَاطٍ مستقيم) [1] ﴿ **مَا يُقَالُ لَكَ** ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عما يصيبه من أذية الكفار أي ما يقال في شأنك وشأن ما أُنزل إليك من القرآن من جهة كفار قومك ﴿ **إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ** ﴾ إلا مثل ما قد قيل في حقهم ، وفي حق الكتب السماوية ، من الساحر ، والكاهن ، والمجنون ، والأساطير ونحوها ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ** ﴾ لأنبيائه ومن آمن بهم ﴿ **وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ لأعدائهم الذين لم يؤمنوا بهم وبما أنزل إليهم ، وقد نصر من قبلك من الرسل وانتقم من أعدائهم ، وسيفعل مثل ذلك بأعدائك أيضاً ، وفي آية أخرى (**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وأُوذُوا حتى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا**) ودلت الآية على أنه ليس من الحكمة أن يقطع لسان الخلق بعضهم عن بعض ، ألا ترى أنه تعالى لم يقطع لسان الخلق عن ذاته الكريمة ؟ حتى قالوا في حقه تعالى إن له صاحبة وولداً ونحو ذلك ، فكيف غيره تعالى من الأنبياء والمرسلين ، والأولياء والمقربين ؟ ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ** ﴾ أي الذكر ﴿ **قُرْءآناً أَعْجَمِيّاً** ﴾ منتظماً على لغة العجم مؤلفاً عليها ، والأعجمي من لا يفصح عن مراده بلغة لسانه وإن كان من العرب ، أطلق ههنا على كلام مؤلفٍ على لغة العجم ، من حيث إنه لا يفهم معناه بالنسبة إلى العرب ، وهذا جواب لقول قريش تعنتاً : هلاَّ أنزل القرآن بلغة العجم ؟ ﴿ **لَقَالُوا** ﴾ كفار قريش ﴿ **لولاَ** ﴾ حرف تحضيض بمعنى هلاَّ وحرفُ التحضيض إذا دخل على الماضي ، كان معناه اللوم والتوبيخ على ترك الفعل ﴿ **فُصِّلَتْ آيَاتُه** ﴾ أي بينت بلسان نفقهه من غير ترجمان ﴿ **أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ** ﴾ انكار مقرر للتحضيض والمعنى لأنكروا أي لقالوا كيف أرسل الكلام العجمي إلى القوم العرب ، فكان ذلك أشد لتكذيبهم ، ولو جعلنا المنزل كله أعجمياً لقالوا لولا فرقت آياته وميزت بأن جعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم وبعضها عربياً لإفهام العرب ؟ والمقصود بيان أن آيات الله على أي وجه جاءتهم وجدوا فيها متعنتاً يتعللون به ، لأن القوم غير طالبين للحق وإنما يتبعون أهواءهم .

﴿ **قُلْ هُوَ** ﴾ أي الذكر ﴿ **لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدَىً** ﴾ يهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴿ **وَشِفَاءٌ** ﴾ لما في الصدور من شك وشبهة ، أو شفاء لضيق الصدور لما فيه من التنعم بقرآته والتلذذ بالتفكر فيه ، أو

---

(١) رواه الترمذي في سننه في فضائل القرآن ، وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٨ / ٤٦٢ وفي سند الحديث ضعف .

شفاء للقلوب لما فيه من لطائف المواعيد ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أي ثقل وصمم ﴿ وَهُوَ ﴾ أي القرآن ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على الكفار المعاندين ﴿ عَمَىً ﴾ وذلك لتصامهم عن سماعه ، وتعاميهم عما يريهم من الآيات ﴿ أُولَئِكَ ﴾ البعداء الموصوفون بما ذكر من التصامم عن الحق ، والتعامي عن الآيات الظاهرة التي يشاهدونها ﴿ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ تمثيل في عدم قبولهم واستماعهم للقرآن ، بمن ينادى ويُصَاح به من مسافة بعيدة ، لا يكاد يُسمع من مثلها الأصوات .

وعن الضحاك ينادون يوم القيامة بأقبح أسمائهم من مكان بعيد ، يعني يقال : يافاسق ، يا منافق ، فيكون ذلك أشد لتوبيخهم وخزيهم ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ أي وبالله لقد آتيناه التوراة فاختلف فيها ، فمن مصدّق لها ومن مكذب ، وهكذا حال قومك في شأن ما آتيناك من القرآن ، فمن مؤمن به ومن كافر ، فالاختلاف في شأن الكتب عادة قديمة غير مختصة بقومك ، ففيه تسلية له عليه السلام ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ في حق أمتك المكذبة ، وهي الوعدُ بتأخير عذابهم ، والفصل بينهم إلى يوم القيامة ، بنحو قوله تعالى (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ) وقوله تعالى (وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إلى أجَلٍ مُسَمًّى) ﴿ لَقُضِيَ ﴾ في الدنيا وحُكم ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ باستئصال المكذبين كما فعل بمكذبي الأمم السالفة ، أو نقول : إنما لم يفعل الاستئصال لأن نبينا عليه السلام كان نبي الرحمة ، ولأن مكة كانت مهاجرة الأنبياء والمرسلين ، ومهبط الملائكة المقربين ، فلو وقع فيها الاستئصال لكانت مثل ديار عاد وثمود ، ووقعت النفرة لقلوب الناس ، وقد دعا إبراهيم عليه السلام بقوله (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) فكان من حكمته أن لا يجعل الحرم المبارك الآمن مصارع السوء ، وأن يَقِيهُ من نتائج سخطه ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي كفار قومك ﴿ لَفِي شَكٍ مِنْهُ ﴾ أي من القرآن ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موجب للاضطراب موقع فيه ، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً ﴾ بأن آمن بالكتب وعمل بموجبها ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ فعمله أو فنفعه لنفسه ، لا لغيره ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فعليها ﴾ ضرره عليه لا على غيرها ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ فيفعل بهم ما ليس له أن يفعله ، بل هو العادل المتفضل ، الذي يجازي كل أحد بكسبه ، أي هو منزه عن الظلم كما قال تعالى ﴿ وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ وفي الحديث القدسي (إني حرمت الظلم على نفسي فلا تَظَالموا)[1] والظلم هو التصرف في ملك الغير ، أو مجاوزة الحد في الاعتداء وهذا محال في حق الله تعالى ، لأن العالم كله ملكه ، وفي الحديث « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام »[2] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه بلفظ (ياعبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ..) الحديث .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن أوس بن شرحبيل ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٤١ والمراد من قوله (خرج من الإسلام) ليس الارتداد عن الدين إنما الخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله مثال (من غش فليس منا) .

فينبغي للعاقل أن يسارع إلىالأعمال الصالحة دائماً ، خصوصاً في زمان انتشار الظلم والفساد ، وغلبة الهوى على النفوس والطباع ، فإن الثبات عل الحق في مثل ذلك الوقت أفضل وأعظم .

﴿ إِلَيْهِ ﴾ تعالى لا إلى غيره ﴿ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أي إليه تعالى وحده معرفة وقت القيامة ، إذ لا يعلمها إلا الله ، فإذا جاءت يقضي بين المحسن والمسيء بالجنة والنار ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ ﴾ من مزيدة للتنصيص على الاستغراق ﴿ مِنْ أَكْمَامِهَا ﴾ من أوعيتها قبل أن تنشق ، وقيل قشرها الأعلى من الجوز واللوز والفستق وغيرها جمع كم بالكسر وهو وعاء الثمرة وغلافها أي ما يغطّي الثمرة كما أن الكم بالضم مايغطّي اليد من القميص ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ ﴾ حملها بمكان على وجه الأرض ﴿ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ أي وما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع إلا ملابساً بعلمه المحيط ، واقعاً حسب تعلقه به يعلم وقت خروج الثمرة من أكمامها ، وعددها وسائر ما يتعلق بها ، من أنها تبلغ أوان النضج ، أو تفسد قبل ونحوه ، ووقت الحمل وعدد أيامه ، وساعاته وأحواله ، من الخداج ، والتام ، والذكورة ، والأنوثة ، والحسن والقبح وغير ذلك ، ووقت الوضع وما يتعلق به ، أي علم وقت وقوع القيامة فإذا سئلت عنه فرد العلم إليه ، فقل : الله أعلم ، كما يردُّ إليه علم جميع الحوادث الآتية من الثمار والنبات وغيرها ، رُوِي أن منصوراً الدوانقي أهمه مدة عمره ، فرأى في منامه شخصاً أخرج يده من البحر وأشار بالأصابع الخمس ، فاستفتى العلماء في ذلك فتأولوه بخمس سنين ، أو بخمسة أشهر وبغير ذلك ، وقال أبو حنيفة تأويله أن مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمها إلا الله ، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه ، أخذه أبو حنيفة رحمه الله من قوله عليه السلام مفاتح الغيب خمسة وتلا قوله تعالى (إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ ويَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِ أَرْضٍ تَمُوت)[1] فظهر من هذا وجه الجمع بين علم الساعة وعلم خروج الثمرات ، إذ هو داخل في تنزيل الغيث ، لأنه بالغيث والرياح تخرج النباتات وتظهر الثمرات ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك يوم يناديهم الله ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ بزعمكم كما نص عليه قوله تعالى (أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ) ﴿ قَالُوا آذَنَّاكَ ﴾ أي أخبرناك وأعلمناك ﴿ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ من أحد يشهد لهم بالشركة ، إذ تبرأنا منهم لما عاينا الحال ، فيكون السؤال عنهم للتوبيخ ، والشهيد من الشهادة ﴿ وضَلَّ عَنَهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي غاب عن المشركين الآلهة التي كانوا يعبدونها

---

(١) رواه البخاري وأحمد بلفظ (مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا الله : لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ إلا الله تعالى ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله تعالى ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله تعالى ، ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت إلا الله تعالى ، ولا يدري أحد متى يجيء المطر إلا الله تعالى) وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٣٧ .

في الدنيا أو ظهر عدم نفعهم فكان حضورهم كغيبتهم ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أي أيقنوا ﴿ مَالَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ مهرب ، والمحيص : المعدل والمهرب ، ﴿ لاَيَسْأَمُ الإِنْسَانُ ﴾ أي لا يملُّ ولا يضجر ، فهذا وصف للجنس بوصف غالب أفراده ، لما أن اليأس من رحمة الله لا يتأتى إلا من الكافر وسيصرح به ﴿ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ أي من دعائه الخير ، وطلبه السعة في النعمة ، وأسباب المعيشة ، والمعنى أن الإنسان في حال إقبال الخير إليه لا ينتهي إلى درجة ألاَّ يطلب الزيادة عليها ، ولا يمل من طلبها أبداً ، وفيه إشارة إلى أن الإنسان مجبول على طلب الخير بحيث لا تتطرق إليه السآمة ﴿ وإِنْ مَسَّهُ الشَّرُ ﴾ أي العسر والضيق ﴿ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ أي يبالغ في قطع الرجاء من فضل الله ورحمته ، والقنوط : عبارة عن يأس مفرط ، يظهر أثره في الشخص فيتضاءل وينكسر ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ من عندنا ﴿ مِنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ أي أصابته وذلك بتفريج الضراء عنه كالمرض والضيق ، بالرحمة كالصحة والسعة ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا ﴾ الخير ﴿ لي ﴾ أي حقي وصل إليَّ لأني أستحقه لما لي من الفضل ، فلا يزول عني أبداً ، وجَهِل أن الله تعالى أعطاه ليبلوه أيشكر أم يكفر ، فلو أراد لقطعها عنه ﴿ ومَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أي تحضر وتكون كما يزعم محمد ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ ﴾ رددت ﴿ إلى رَبِّي ﴾ على تقدير قيامها وبعثت ﴿ إِنَّ لي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ وهو جواب القسم لسبقه الشرطية أي للحالة الحسنى من الكرامة يعني استحقاق ، اعتقد أن ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه لها ، وأن نعم الآخرة كذلك لأن سبب الإعطاء متحقق في الآخرة أيضاً ، وعن بعض أهل التفسير (إن لي عنده للحسنى) أي الجنة يقول ذلك استهزآء ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ أي لنعلمنهم بحقيقة أعمالهم حين أظهرناها بصورها الحقيقية ، فيرون أنها مقابح يُهان عليها لا محاسن يُكرم عليها ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ لا يعرف كنهه ، ولا يمكنهم التخلص منه ، كأنه لغلظته يحيط بجميع جهاتهم ، وقد كان معذباً في الدنيا بعذاب الطرد والبعد ، ولكن لما لم يجد ذوق العذاب وألمه ، أذاقه الله بعد انتباهه من نومةِ غفلته أي بعد الموت لقول علي كرم الله وجهه (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) كأنه قيل : ولنذيقنهم عذاباً مهيناً من عذاب كبير ، بدل ما اعتقدوه لأنفسهم من الإكرام والإعزاز من الله تعالى ، ويجوز أن يقال : وصف العذاب بالغلظة لغلظة بدن المعذب به ﴿ وَإِذا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ ﴾ أي عن الشكر على إنعامه ، وهذا نوع آخر من طغيان الكافر ، إذا أصابه الله بنعمة أبطرته النعمة ، وكأنه لم يلق شدة قط ، فنسي المنعم وكفر بنعمته ، بترك الشكر ﴿ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ أي تباعد بكليته عن الشكر ، لا بجانبه فقط ، ولم يمل إلى الشكر والطاعة تكبراً وتعظماً .

﴿ وإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أي إذا مس هذا الإنسان المعرض المتكبر جنس الشر كالبلاء والمحنة ﴿ فَذُوْ

﴿ دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ أي فهو ذو دعاء كثير ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِنْ كَانَ ﴾ أي القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ من غير نظر واتباع دليل ، مع تعاضد موجبات الإيمان ﴿ مَنْ ﴾ استفهام ﴿ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي مَن أضل منكم ؟ فإن من كفر بما نزل من عند الله بأن قال أساطير الأولين ونحوه ، فقد كان مشاقاً لله أي معادياً ومخالفاً له ، خلافاً بعيداً عن الوفاق ، ومعاداة بعيدة عن الموالاة ، ولاشك أن من كان كذلك فهو في غاية الضلال ، وفي الآية إشارة إلى أن كلا بلاء وعناء ومضرة ومسرة ، ينزل بالعبد فهو من عند الله ، فإن استقبله بالتسليم والرضى ، صابراً شاكراً للمولى في الشدة والرخاء ، والسرآء والضراء ، فهو من المهتدين المقربين ، وإن استقبله بالكفر والجزع بالخذلان فهو من الأشقياء المبعدين المضلين ، فكما أن النار لا تُبقي من الحطب شيئاً إلا وأحرقته ، فكذا البلاء لا يبقي من ضر الوجود شيئاً ، فكيف يؤمل العاقل الراحة في الدنيا ؟ فهي دار محنة ، وقد ورد (الدنيا سجن المؤمن) فالمؤمن لا يستريح في الدنيا ، ولا يخلو من قِلَّة أو علة أو ذلة ، وله راحة عظمى في الآخرة ، والكافر خاسر في الدنيا والآخرة ، فعلى العبد أن يمشي على الصراط السوي ويخاف من الزلق ومن مكر الله تعالى .

﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ يعني كفار قريش ﴿ آيَاتِنَا ﴾ الدالة على حَقِّية القرآن وكونه من عند الله ﴿ فِي الآفَاقِ ﴾ جمع أفق ، والآفاق ما خرج عنك وهو العالم الكبير من الفرش إلى العرش ، والأنفس ما دخل فيك وهو العالم الصغير وهو كل إنسان بانفراده ، والمراد بالآيات الآفاقية ما أخبرهم النبي عليه السلام من الحوادث الآتية كغلبة الروم على فارس في بضع سنين ، وآثار النوازل الماضية الموافقة لما هو المضبوط المقرر عند أصحاب التواريخ ، والحال أنه عليه السلام أمي لم يقرأ ولم يكتب ولم يخالط أحداً ، وما يسر الله له ولخلفائه من الفتوح والظهور على آفاق الدنيا والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب خارق للعادة إذ لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ﴿ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ هو ما ظهر فيما بين أهل مكة من القحط والخوف ، وما حل بهم يوم بدر ويوم الفتح من القتل والمقهورية ، ولم ينقل إلينا أن مكة فتحت على يد أحد قبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكذا قتل أهلها وأسرهم ، وقيل (فِي الآفَاقِ) أي فى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم وما يترتب عليها من الليل والنهار ، والأضواء والظلال ، ومن النبات والأشجار والأنهار (وَفِي أَنْفُسِهِمْ) من لطيف الصنعة وبديع الحكمة ، وفي تكوين الأجنة في ظلمات الأرحام ، وحدوث الأعضاء العجيبة والتراكيب الغريبة ، كقوله تعالى (وفي أَنْفُسِكُمْ أَفلا تُبْصِرُون) واعتذر بأن معنى السين مع أن إرادة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك ، أنه تعالى

سيطلعهم على الآيات زماناً فزماناً ، ويزيدهم وقوفاً على حقائقها يوماً فيوماً[١] .

﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ ﴾ بذلك ﴿ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ أي القرآن أو الله ، أو التوحيد أي حتى يظهر لهم ظهور كشفٍ وبيان ، أن هذا القرآن هو الحقُّ المنزل من عند الرحمن ، لا الشركاء ولا التشريك ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ استئناف وارد لتبويخهم على ترددهم في شأن القرآن ، وعنادهم المحوج إلى ظهور الآيات ، وعدم اكتفائهم بإخباره تعالى أي ألم يغن ولم يكف ربك ؟ ﴿ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي ألم يغنهم عن إراءة الآيات الموعودة المبينة لحقية القرآن ، ولم يكفهم في ذلك أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء ؟ ﴿ أَلاَ ﴾ كلمة تنبيه ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي كفار مكة ﴿ فِي مِرْيَةٍ ﴾ شك عظيم وشبهة شديدة ﴿ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ بالبعث والجزاء ، فإنهم استبعدوا إحياء الموتى بعد ما تفرقت أجزآؤهم وتبددت أعضاؤهم ﴿ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ الإحاطة إدراك الشيء لكماله ، أي عالم بجميع الأشياء ، جملتها وتفاصيلها وظواهرها ، وبواطنها فلا يخفى عليه خافية منهم ، وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم لا محالة .

انتهى بعونه تعالى تفسير سورة فصلت

• • •

(١) قد أظهر الله في هذا الزمان بعض هذه العجائب والغرائب ، كدوران الإنسان حول الأرض ، ووصوله إلى القمر ، بواسطة المراكب الفضائية ، وكاطّلاعه على كثير من أسرار الكون ،وما في الكواكب من مزايا وخصائص ، وظاهرة الكسوف والخسوف ، وما في قاعات البحار من عجائب وأسرار ، وكمشاهدة ما يحدث في الكرة الأرضية في جميع بلدانها وأقطارها ، بواسطة المكتشفات الحديثة « التلفاز » والأفكار الصناعية ، وكلُّ ذلك من تعليم الله سبحانه للإنسان ، وهو جزءٌ يسير ممَّا كشفه الله لبصائر المخلوقات ، من الغرائب والعجائب ، التي يطفح بها هذا الكون الفسيح ، وسيريهم الله أكثر فأكثر من آياته الباهرة ، التي تظهر للعيان يوماً بعد يوم ، مصداقاً لقول الله العلي القدير ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ !!



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ عسٓقٓ ﴾ اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما في الكتابة وعُدَّ آيتين ، بخلاف كهيعص والمص والمر فإنها آية واحدة ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبلِكَ اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ أي مثل مافي هذه السورة من المعاني ، يوحي الله العزيز الحكيم إليك في سائر السور ، وإلى من قبلك من الرسل في كتبهم ، على أن مناط المماثلة هو الدعوة إلى التوحيد والارشاد إلى الحق ومافيه صلاح العباد في المعاش والمعاد ، أو مثل إيحاء هذه السورة يوحي الله العزيز الحكيم إليك عند إيحاء سائر السور وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم لا إيحاء مغايراً ، على أن مدار المثلية كونه بواسطة الملك ، وإنما ذكر بلفظ المضارع مع أن مقتضى المقام أن يذكر بلفظ الماضي ضرورة أن الوحي إلى الذين من قبله قد مضى دلالة على استمرار الوحي وتجدده وقتاً فوقتاً وأن إيحاء مثله عادته تعالى ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ ﴾ أي أن الله تعالى يختص به جميع ما في العوالم العلوية والسلفية ، خلقاً وملكاً وعلماً ﴿ وَهُوَ العَلِيُّ ﴾ الشأن ﴿ العَظِيمُ ﴾ الملك والقدرة والحكمة أو هو العلي أي المرتفع عن مدارك العقول ، إذ ليس كذاته ذاتٌ ، ولا كصفاته صفات ، ولا كاسمه اسم ولا كفعله فعل ، وهو العظيم الذي يصغر عند ذكره وصف كل شيء سواه والعظيم من العباد الأنبياء والعلماء الوارثون لهم ﴿ تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ ﴾ أي يتشققن من عظمة الله وخشيته وإجلاله كقوله تعالى (لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) ﴿ مِنْ فَوقِهِنَّ ﴾ أي يبتديء التفطر من جهتهن الفوقانية إلى جهتهن التحتانية وتخصيصها لما أن أعظم الآيات وأدلها على العظمة والجلال ، من تلك الجهة من العرش والكرسي وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل حول العرش ومالا يعلم كنهه إلا الله من آثار الملكوت العظمى ، فكان المناسب أن يكون تفطر السموات مبتدأ من تلك الجهة بأن يتفطر أولاً أعلى السموات ثم وثم إلى أن ينتهي إلى أسفلها بأن لا تبقى سماء إلا سقطت على الأخرى ، ويقال : تتشقَّقن من دعاء الولد له كما قال تعالى في سورة مريم (تَكَادُ السَّمٰوات يتَفَطَّرْنَ مِنْه وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً . أَنْ دَعَوا لِلرَّحمٰن وَلَداً) فتخصيصها للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الأولى لأن تلك الكلمة الشنعاء الواقعة في الأرض ، إذا أثرت في جهة الفوق فلأن تؤثر في جهة التحت أولى ، وقيل لنزول العذاب منهن ﴿ وَالْملاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ينزهونه تعالى عما لا يليق به من الشريك والولد وسائر صفات الأجسام ملتبسين بحمده تعالى ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي للمؤمنين بالشفاعة لقوله تعالى (ويستَغْفِرُونَ لِلذِينَ آمنُوا) فالمطلق محمول على المقيد ، أو للمؤمن

والكافر بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم ، من الشفاعة والإلهام وترتيب الأسباب المقربة إلى الطاعة ، واستدعاء تأخير العقوبة طمعاً في إيمان الكافر وتوبة الفاسق ، وهذا لا ينافي كون الملائكة لاعنين للكفار من وجه آخر كما قال تعالى (**أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ والمَلاَئِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ**) وفي الحديث (ما فيها موضع أربع أصابع إلا ومالك واضع جبهته ساجداً لله)[1] يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ، وهذا يدل على أن المراد بالملائكة في الآية ملائكة السموات كلّها ، وقال مقاتل : حملة العرش لقوله تعالى في أوائل حم المؤمن (**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا**) أقول تخصيص ملائكة العرش لا ينافي من عداهم فلعله من باب الترقي لأن آية حم المؤمن مقيدة بحملة العرش واستغفار المؤمنين ، وهذه الآية مطلقة في حق كل من الملائكة والاستغفار ﴿ **أَلاَ** ﴾ اعلموا ﴿ **إِنَّ اللهَ هُوَ الغَفُورُ** ﴾ يغفر ذنوب المقبلين ﴿ **الرَّحِيمُ** ﴾ يرحم بأن يرزقهم جنته وقربه ، وبرحمته يأمر الملائكة بالاستغفار لبني آدم مع كثرة عصيانهم ، والكفار الذين يرتكبون الشرك والذنوب العظام لا يقطع رزقهم ولاصحتهم ولا تمتعاتهم من الدنيا وان كان يريد أن يعذبهم في الآخرة ، يقول الفقير : أن الملائكة وإن كانوا يستغفرون للمؤمنين فالمؤمنون يسلمون عليهم كلما نقول في التشهد : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، إذ لا يعصون ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فالمنة لله تعالى على كل حال ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ** ﴾ شركاء وأنداداً ، وأشركوهم معه في العبادة ﴿ **اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ** ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم مطلع ليس بغافل فجازيهم ، لا رقيب عليهم إلا هو وحده ﴿ **وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ** ﴾ بموكول إليك أمرهم حتى تسأل عنهم وتؤخذ بهم ، وإنما وظيفتك الإنذار وتبليغ الأحكام ، وفيه إشارة إلى أن كل من عمل بمتابعة هواه ، وترك الله عمداً أو نقض له عهداً فهو متخذ الشياطين أولياء ، لأنه يعمل بأوامرهم وأفعالهم موافقة لطباعهم (**اللهُ حَفِظٌ عَلَيْهِمْ**) بأعمال سرهم وعلانيتهم إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم وما أنت عليهم بوكيل لتمنعهم عن معاملاتهم ، فعلى العاقل أن لا يتخذ من دون الله أولياء بل يتفرد بمحبة الله وولايته ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيكَ قُرْآنًا عَرَبِياً** ﴾ أي ومثل ذلك الإيحاء البديع البين المفهم ، أوحينا إليك وحياً لا لبس فيه عليك وعلى قومك ﴿ **لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَىٰ** ﴾ أي لتخويف أهل مكة بعذاب الله على تقدير إصرارهم على الكفر ، والعرب تُسمّي أصل كل شيء بالأم ، وسميت مكة أم القرى تشريفاً لها وإجلالاً ، لاشتمالها على البيت المعظم ومقام إبراهيم ولما رُوي من أن الأرض دحيت من تحتها فمحل القرى منها محل البنات من الامهات ﴿ **وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ من العرب وهذا أي التبيين بالعرب لا ينافي عموم رسالته ، لأن تخصيص الشيء بالذكر لا ينافي حكم ما عداه ، وقيل : من أهل الأرض كلها ، وبذلك فسره البغوي فقال : قرى الأرض كلها .

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري والترمذي ، وأوله (لو تعلموا ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ...) جامع الأصول ٤ / ١٣ .

﴿ وَتُنْذِرَ ﴾ أهل مكة ومنْ حولها ﴿ يَوْمَ الْجَمعِ ﴾ أي بيوم القيامة وما فيه من العذاب لأنه يجمع فيه الخلائق من الأولين والآخرين ، وأهل السموات وأهل الأرض ، والأرواح والأشباح ، والأعمال والعمال فالباء محذوف من اليوم كما قال (لِتُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً) أي ببأس شديد ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لابد من مجيء ذلك اليوم وليس بمرتاب فيه في نفسه وذاته ، لأنه لابد من جزاء العاملين من المنذَرين وأهل الجنة وأهل النار ، وارتيابُ الكفار فيه لا يعتد به ، أو لاشك في الجمع أنه كائن ولابد من تحققه ﴿ فَرِيقٌ ﴾ وهَمُ المؤمنون ﴿ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ ﴾ وهم الكافرون ﴿ فِي السَّعِيرِ ﴾ أي النار سميت بها لالتهابها وذلك بعد جمعهم في المواقف ، لأنهم يجمعون فيه أولاً ثم يفرقون بعد الحساب .

وفي الحديث (إن الله خلق للجنة خلقاً ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم)[1] وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال (خرج علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وفي يده كتابان - وفي رواية - خرج ذات يوم قابضاً على كفيه ومعه كتابان ، فقال : أتدرون ما هذان الكتابان ؟ قلنا : لا يارسول الله فقال للذي في يده اليمنى : هذا كتاب من رب العالمين ، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أُجمل على آخرهم ، فلا يُزاد فيهم ولا يُنقص منهم أبداً ، ثم قال للذي في شماله : هذا كتابٌ من ربِّ العالمين ، فيه أسماء أهل النار ، وأسماءُ آبائهم وقبائلهم ، ثم أُجمل على آخرهم ، فلا يُزاد فيهم ولا يُنقص منهم أبداً ، قال أصحابه : ففيم العملُ يارسولَ الله ؟ فقال : اعملوا وسددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة ، وإن عمل أيَّ عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أيَّ عمل ، ثم قال فرغ ربكم من العباد « فريق في الجنة وفريق في السعير »[2] ونظيره قوله عليه السلام « إن هذا الدين يُسْرٌ ، ولن يشادَّ الدين أحد إلاَّ غلَبَه »[3] يعني أن الدين يشتمل على أعمال سهلة فمن تكلف والتزم في عبادات شاقة وتكلفات ربما لم يتيسر إقامتها عليه فتغلب عليه ، فالقصدُ طريق الجنة ولابد منه وإن علم أنه من أهل الجنة .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ ﴾ أي في الدنيا والضمير لجميع الناس المشار إليهم بالفريقين ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ فريقاً واحداً وجماعة واحدة مهتدين أو ضالين ﴿ وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يدخله ﴿ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ وجنته ويدخل من يشاء أن يدخله في عذابه ونقمه ، ولا ريب في أن مشيئته تعالى لكل من الإدخالين تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله ، ومن ضرورة اختلاف الرحمة

---

(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن عائشة ، وله قصة ذُكرت عنها قالت : توفي صبيٌّ فقلتُ طوبى له ، عصفور من عصافير الجنة ، فقال : أو غير ذلك يا عائشة ، إن الله خلق للجنةِ أهلاً ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ..) إلخ جامع الأصول ١٠ / ١٢١ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في القدر برقم ٢١٤٢ ورواه أحمد في المسند ٢ / ١٦٧ وإسناده حسن ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ١٠٨ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١ / ٢٥٢ والنسائي ٨ / ١٢١ وانظر جامع الأصول ١ / ٣٠٨ .

والعذاب اختلاف حال الداخلين فيهما قطعاً ، فلم يشأ جعل الكل أمة واحدة ، بل جعلهم فريقين ﴿ وَالظَّالِمُونَ ﴾ أي المشركون ﴿ مَالَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أي مالهم ولي يلي أمرهم ويغنيهم وينفعهم ﴿ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ يدفع العذاب عنهم ويخلصهم منه ، وفيه إيذان بأن الإدخال في العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم ، لا من جهته تعالى ، ولعل تغيير المقابل حيث لم يأت المقابل بقوله « ويدخل من يشاء في نقمته » بل عدل إلى ما في النظم للمبالغة في الوعيد ، فإن في نفي من يتولاهم وينصرهم في دفع العذاب عنهم دلالة على أن كونهم في العذاب أمرٌ معلوم مفروغ عنه ، وأيضاً ذكر السبب الأصلي في جانب الرحمة ليجتهدوا في الشكر ، والسبب الظاهري في جانب النقمة ليرتدعوا عن الكفر ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي بل هل اتخذوا متجاوزين الله أولياء من الأصنام وغيرها ؟

﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ جواب الشرط محذوف كأنه قيل : إن أرادوا أولياء في الحقيقة ، فالله هو الولي الذي يجب أن يُتولَّى، لاوليَّ سواه ، وهو متولي الأمور من الخير والشر ، والنفع والضر ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أي من شأنه ذلك ، ليس في السماء والأرض معبود يحيي الموتى غيره ، وهو قول إبراهيم عليه السلام (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً فليخصُّوه بالاتخاذ ، دون من لا يقدر على شيء .

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي ما خالفكم الكفار فيه من أمور الدين فاحتلفتم أنتم وهم ﴿ فَحُكْمُهُ ﴾ راجع ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ وهو إثابة المحقين ، وعقاب المبطلين يوم الفصل والجزاء ، فعلى هذا لا يجوز أن يحمل على الاختلاف بين المجتهدين ، لأن الاجتهاد بحضرته عليه السلام لا يجوز ، وفي التأويلات النجمية : يشير إلى أنَّ اختلاف العلماء في شيء من الشرعيات والمعارف الإلهية ، فالحكم في ذلك إلى كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام ، وإجماع الأمة وشواهد القياس ، أو إلى أهل الذكر كما قال تعالى (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) ولا يرجعون إلى العقول المشوبة بآفة الوهم والخيال فإن فيها للنفس والشيطان مدخلاً ، بإلقاء الشبهات ، وأدنى الشبهة في التوحيد كفرٌ ، وقد زلت أقدام جميع أهل الأهواء والبدع والفلاسفة عن الصراط المستقيم والدين القويم بهذه المنزلة ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ الحاكم العظيم الشأن ﴿ اللَّهُ رَبِّي ﴾ ومالكي ﴿ عَلَيْهِ ﴾ خاصة لا على غيره ﴿ تَوَكَّلْتُ ﴾ في كل أموري التي من جملتها رد كيد أعداء الدين ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ لا إلى أحد سواه ﴿ أُنِيبُ ﴾ أرجعُ في كل ما يعنُّ لي من معضلات الأمور التي منها كفاية شرهم والنصر عليهم ، وحيث كان التوكل أمراً واحداً مستمراً ، والإنابة متعددة متجددة حسب تجدد موادها ، أوثر في الأول صيغة الماضي وفي الثاني صيغة المضارع ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي خالق الآفاق من العلويات والسفليات ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي من جنسكم ﴿ أَزْوَاجاً ﴾ نساء وحلائل ﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ ﴾ أي وجعل للأنعام من جنسها ﴿ أَزْوَاجاً ﴾ أو خلق لكم من الأنعام أصنافاً

إكراماً لكم لترتفقوا بها ، إذ يطلق الزوج على معنى الصنف كما في قوله تعالى (وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً) أو ذكوراً وإناثاً فإنه يطلق على مجموع الزوجين وهو خلاف الفرد ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ يكثِّركم أيها الناس والأنعام من الذرء وهو البثُّ والذرية مثلثة لنسل الثقلين ﴿ فِيهِ ﴾ أي في هذا التدبير ، وهو جعل الناس والأنعام ازواجاً يكون بينهم توالد ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ المثل كناية عن الذات كما في قولهم : مثلك لا يفعل كذا على قصد المبالغة في نفيه عنه ، فإنه إذا نفي عمن يناسبه كان نفيه عنه أولى ، وهذا لا يتوقف على أن يتحقق مثل في الخارج بل يكفي تقدير المثل ، ثم سُلِكتْ هذه الطريقة في شأن من لا مثل له ، والشيءُ عبارة عن الموجود وعند سيبويه الشيءُ : ما يصحُّ أن يعلم ويخبر عنه موجوداً أو معدوماً ، والمعنى : ليس كذاته شيء من شأن من الشؤون التي من جملتها هذا التدبير البديع ، لأن ذاته لا تماثل ذات أحد بوجه من الوجوه ولا من جميع الوجوه ، ولا كاسمه اسم كما قال تعالى (هَلْ تَعْلَمُ سَمِيّاً) ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ السميع الذي انكشف كل موجود لصفة سمعه ، فكان مدركاً لكل مسموع من كلامه وغيره ، والبصير الذي يدرك كل موجود برؤيته ، قال الغزالي رحمه الله : السَّمعُ في حقه عبارة عن صفة ينكشف بها كمال صفات المسموعات ، والبصر عبارة عن الوصف الذي به ينكشف كمال نعوت المبصرات ، وسمع العبد قاصر ، فإنه يدرك ما قرب لا ما بعد بجارحة ، وربما بطل السمع بعظم الصوت ، وإنما حظ العبد منه أمران أحدهما : أن يعلم أن الله سميع فيحفظ لسانه ، والثاني : أن يعلم أن الله لم يخلق له السمع إلا ليسمع كلامه ، وحديث رسوله ، فيستفيد به الهداية إلى طريق الله ، فلا يستعمل سمعه إلا فيه ، واستماع صوت الملاهي حرام ، وإن سمع بغتة فلا إثم عليه ، والواجب عليه أن يجتهد حتى لا يسمع ، لأنه عليه السلام أدخل أصبعه في أذنه ، قال بعض العلماء : استماع صوت الملاهي معصية ، والجلوس عليها فسق ، والتلذذ بها كفر ، على وجه التهديد ، وبصر العبد قاصر إذ لا يمتد إلى ما بعد ، ولا يتغلغل إلى باطن ما قرب منه ، وحظه الديني أمران : أن يعلم أنه خلق له البصر لينظر إلى الآيات الآفاقية والأنفسية ، وأن يعلم أنه بمرأى من الله ومسمع ، بحيث يراه ويسمعه ، فمن قارف معصية وهو يعلم أن الله يراه ، فما أجسره وأخسره ؟ ومن ظنَّ أنه لا يراه فما أكفره ؟ قال في كشف الأسرار : ثم قال « وهو السميع البصير » لئلاً يتوهم أنه لا صفات له ، كما لا مِثْل له ، فقد تضمنت الآية إثبات الصفة ونفي التشبيه ، والتوحيد كله بين هذين الحرفين ، إثبات صفة من غير تشبيه ، ونفي تشبيه من غير تعطيل ، فمن نزل عن الإثبات وادعى اتقاء التشبيه وقع في التعطيل ، وعلى الله قصد السبيل ، والحق تعالى مستحق التنزيه لا التشبيه ، محقق بالتحصيل دون التعطيل والتمثيل ، مستحق التوحيد دون التحديد ، موصوف بكمال الصفات ، مسلوب عن العيوب والنقصان ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ المقليد المفتاح لغة في الاقليد ، والجمع مقاليد ، فالمقاليد المفاتيح ، وهي كناية عن الخزائن وقدرته عليها

وحفظه لها ، وفيه مزيد دلالة على الاختصاص ، لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ يوسع ويضيق ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في الإحاطة به ، فيفعل كل ما يفعل على ما ينبغي أن يفعل عليه ، فلا يوسع الرزق إلا إذا علم أن سعته خير للعبد وكذا التضييق ، ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ﴾ شرع بمعنى سنّ وجعل سنة وطريقاً واضحاً أي سن الله لكم يا أمة محمد من التوحيد ودين الإسلام ، وأصول الشرائع والأحكام ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ﴾ والوصية التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظه أي أمر به نوحاً أمراً مؤكداً ، فإن التوصية معربة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن المأمور به ، قُدِّم نوح عليه السلام لأنه أول أنبياء الشريعة ، فإنه أول من أوحي إليه الحلال والحرام ، وأول من أوحي إليه تحريم الأمهات والأخوات والبنات ، وسائر ذوات المحارم فبقيت تلك الحرمة إلى الآن ﴿ و الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ﴾ أي شرع لكم الذي أوحينا إلى محمد عليه السلام وتغيير التوصر التوصية إلى « الإيحاء » في جانب النبي ﷺ للتصريح برسالته آنفاً ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ وجه تخصيص هؤلاء الخمسة بالذكر ، أنهم أكابر الأنبياء ومشاهيرهم من أولي العزم وأصحاب الشرائع العظيمة ، والأتباع الكثيرة ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ كأنه قيل وما ذلك المشروع المشترك بين هؤلاء الرسل ، فقيل : هو إقامة الدين أي دين الإسلام ، الذي هو توحيد الله وطاعته والإيمان بكتبه ورسله ، وباليوم الآخر وسائر ما يكون الرجل به مؤمناً ، والمراد بإقامته تعديل أركانه وحفظه من أن يقع فيه زيغ أو المواظبة عليه والتشمر له ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ في الدين الذي هو عبارة عن الأصول ، والخطاب متوجه إلى أمته عليه السلام ، فهذه وصية لجميع العباد ، واعلم أن الأنبياء عليهم السلام مشتركون ومتفقون في أصل الدين ، وجميعهم أقاموا الدين وقاموا بخدمته وداموا بالدعوة إليه ولم يتخلفوا في ذلك، باعتبار هذا الاتفاق والاتحاد في الأصول قال الله تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ) من غير تفرقة بين نبي ونبي ، ومختلفون في الفروع والأحكام قال تعالى (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) وهذا الاختلاف الناشيء من اختلاف الأمم وتفاوت طبائعهم ، لا يقدح في ذلك الإتفاق ، ثم أمر عباده بإقامة الدين والإجتماع عليه ونهاهم عن التفرق فيه ، فإن يد الله ونصرته مع الجماعة ، وإنما يأكل الذئب الشاة البعيدة النافرة ، والمنفردة عن الجماعة ، وأوصى حكيمٌ أولاده عند موته وكانوا جماعة فقال لهم : ائتوني بعصيٍّ فجمعها ؛ فقال لهم اكسروها وهي مجموعة فلم يقدروا على ذلك ، ثم فرّقها فقال : خذوا واحدة واحدة فاكسروها فكسروها ، فقال لهم : هكذا أنتم بعدي ، لن تغلبوا ما اجتمعتم ، فإذا تفرقتم تمكّن منكم عدوكم فأهلككم ، وكذا القائمون بالدين إذا اجتمعوا على إقامته ولم يتفرقوا فيه لم يقهرهم عدو ، وكذا الإنسان في نفسه إذا اجتمع في نفسه على إقامة الدين ، لم يغلبه شيطان من الإنس والجن ، بما يوسوس به إليه مع مساعدة الإيمان والمَلَك بإقامته له ، قال علي رضي الله تعالى عنه « لا تتفرقوا فإن الجماعة رحمة ،

والفرقة عذاب ، وكونوا عباد الله إخواناً » وكان نبينا عليه السلام قبل البعثة متعبداً في الفروع بشرع من قبله مطلقاً آدم وغيره ، وقيل : الأظهر تعبده عليه السلام قبل نبوته كان بشريعة إبراهيم عليه السلام حتى جاءه الوحي وجاءته الرسالة ، ولم يكن على ما كان عليه قومه ، باتفاق الأئمة وإجماع الأمة .

﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي عظم وشق عليهم ﴿ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ يا محمد من التوحيد ورفض عبادة الأصنام ، واستبعدوه حيث قالوا (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) ﴿ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ والاجتباءُ : الجمع على طريق الاصطفاء ، والمعنى : الله يجتلب إلى ما تدعوهم إليه من يشاء أن يجتلبه إليه ، وهو مَنْ صرف اختياره إلى ما دُعي إليه ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ ﴾ بالإرشاد والتوفيق وإمداد الألطاف ﴿ مَنْ يُنِيبُ ﴾ يُقبِل إليه ، ويجوز أن يكون الضمير لله في كلا الموضعين ، فالمعنى الله يجمع إلى جنابه على طريق الاصطفاء من يشاء من عباده بحسب استعداده ، ويهدي إليه بالعناية من ينيب ، واجتباء الله تعالى العبد تخصيصه إياه بفيض إلهيٍّ ، يتحصل منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد ، وذلك للأنبياء عليهم السلام ولبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء .

والإنابة نتيجة التوبة ، فإذا صحت التوبة حصلت الإنابة إلى الله تعالى ، فعليك إتيان جميع القرب قدر الاستطاعة في كل زمان وحال ، فإن المؤمن لن تخلص له معصية أبداً من غير أن تخالطها طاعة ، لأنه مؤمن بها أنها معصية ، فإن أضاف إلى هذا التخليط استغفاراً وتوبة ، فطاعة على طاعة ، وقربة على قربة ، فيقوى جزاء الطاعة التي خالطها العمل السيء ، وهو الإيمان بأنها معصية ، والإيمان من أقوى القرب وأعظمها عند الله ، فإنه الأساس الذي ابتني عليه جميع القرب ، وفي الحديث القدسي « وإنْ تقرَّب إليَّ شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »[1] وعلى كل حال لا يخلو المؤمن من الطاعة والقرب ، والعمل الصالح يمحو الخطايا فإن العبد إذا رجع عن السيئة وأناب إلى الله ، وأصلح الله شأنه ، وأعاد عليه نعمة الفائتة ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا ﴾ أي وما تفرق اليهود والنصارى في الدين الذي دعوا إليه ، ولم يؤمنوا به على الوجه المرضي في وقت من الأوقات ﴿ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ إلا حال مجيء العلم ، أو إلا وقت مجيء العلم بحقِّية ما شاهدوا رسول الله والقرآن من دلائل الحقية ، حسبما وجدوه في كتابهم أو العلم بمبعثه ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ وحقيقة البغي الاستطالة بغير حق أي لابتغاء طلب الدنيا ملكها وسياستها وجاهها وشهرتها ، وللحمية الجاهلية لا لأن لهم في ذلك شبهة ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ وهي العدة بتأخير العقوبة ﴿ إِلَى أَجَلٍ

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، وهو حديث قدسي ، أوله (أنا عند ظنِّ عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه .. وإن تقرَّب إليَّ شبراً ..) الحديث وانظر جامع الأصول ٤ / ٤٧٦ .

﴿ مُسَمًّى ﴾ أي وقت معين معلوم عند الله ، هو يوم القيامة أو آخر أعمارهم المقدرة ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ لأوقع القضاء بينهم باستئصالهم ، لاستيجاب جنايتهم لذلك قطعاً ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْرِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي وإن المشركين الذين أوتوا الكتاب أي القرآن من بعد ما أوتي أهل الكتاب كتابهم ﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾ أي من القرآن ، والشكُّ اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويها ﴿ مُرِيب ﴾ موقع في القلق أي الاضطراب ، ولذلك لا يؤمنون إلا لمحض البغي والمكابرة ، بعد ما علموا بحقيته كدأب أهل الكتابين ، والريبةُ : قلق النفس واضطرابها ويسمى الشك بالريب لأنه يُقلق النفس ويزيل الطمأنينة والظاهر أن « شَكٍّ مُرِيبٍ » من باب جَدَّ جِدُّه أي وصف الشك بمريب بمعنى ذي ريب مبالغة فيه ﴿ فَلِذَلِكَ ﴾ أي فلأجل ما ذكر من التفرق والشك المريب ، فلأجل أنه شرع لهم الدِّينَ القويم ، الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون ﴿ فَادْعُ ﴾ الناس كافة إلى إقامة ذلك الدين والعمل بموجبه ، فإن كلاً من تفرقهم وكونهم في شك مريب ، ومن شرع ذلك الدين لهم على لسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبب للدعوة إليه والأمر به ، وفيه إشارة إلى افتراق أهل الأهواء والبدع ثنتين وسبعين فرقة ، ودعوتهم إلى صراط مستقيم لإبطال مذاهبهم ، وقال في البزازية : روي أن ابن المبارك رؤي في المنام ، فقيل له : ما فعل ربك بك ؟ فقال عاتبني وأوقفني ثلاثين سنة ، بسبب أني نظرت باللطف يوماً إلى مبتدع ، فقال إنك لم تعادِ عدّوي في الدين !! فكيف حال القاعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ؟ ﴿ وَاسْتَقِمْ ﴾ عليه وعلى الدعوة إليه ﴿ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ وأُوحِيَ إليك من عند الله تعالى ، والمراد الثبات والدوام عليهما ، لأنه كان مستقيماً في هذا المعنى ، وفي الحديث « شيبتني هود وأخواتها »[1] وهذا الخطاب له عليه السلام بحسب قوته في أمر الله ، وقال هو لأمّته بحسب ضعفهم « استقيموا ولن تُحْصوا »[2] أي لن تطقيوا الاستقامة التي أمرتُ بها ، فحقيقة الاستقامة لا يطيقها إلا الأنبياء ، لأنها الخروج من المعهودات ، ومفارقة الرسوم والعادات ، والقيام بين يدي الحق على حقيقة الصدق ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ المختلفة الباطلة ، والضمير للمشركين وكانوا يهوون أن يعظّم عليه السلام آلهتهم وغير ذلك ، وفي الخبر « لكل شيء آفة وآفة الدين الهوى »[3] ﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ أي كتاب كان من الكتب المنزلة لا كالذين آمنوا ببعض منها وكفروا ببعض ﴿ وَأُمِرْتُ ﴾ بذلك ﴿ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾ بين شريفكم ووضيعكم في بليغ الشرائع والأحكام ، وفصل القضايا عند المحاكمة والمخاصمة إليَّ ، أو أمرت بأن أعدل وأسوي بين شريفكم

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني وابن عساكر ، وللحديث روايات متعددة بألفاظ متقاربة ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٧٩ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن ثوبان ، وتتته (واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) وقد تقدم الحديث وانظر الفتح الكبير ١ / ١٨١ .

(٣) ورد هذا الأثر عن ابن مسعود بلفظ (لكل شيءٍ آفةٌ تفسده ، وآفةُ هذا الدين ولاةُ السوء) الفتح الكبير ٣ / ٢٣ .

ووضيعكم فلا أخص البعض بأمر أو نهي ورى أن داود عليه السلام قال : (ثلاث خصال من كن فيه فهو الفائز : القصد في الغنى والفقر والعدل في الرضى والغضب والخشية في السر والعلانية وثلاث من كن فيه أهلكته : شح مطاع ، وهوى متّبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، وأربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة : لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وبدن صابر ، وزوجة مؤمنة) وفي التأويلات النجمية (**لأَعْدِلَ بَيْنَكُم**) أي لأسوي بين أهل الأهوآء وبين أهل السنة ، بترك البدعة ولزوم الكتاب والسنة ، لينـدفع الافتراق ويكون الاجتماع ﴿ **اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ** ﴾ أي خالقنا جميعاً ومتولي أمورنا ، لا الأصنام والهوى ﴿ **لَنَا أَعْمَالُنَا** ﴾ لا يتخطانا جزآؤها ثواباً كان أو عقاباً ﴿ **وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ** ﴾ لا يجاوزكم آثارها ، لا نستفيد بحسناتكم ولا نتضرر بسيئاتكم ﴿ **لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ** ﴾ الحجة في الأصل البرهان والدليل ، ثم يقال : لا حجة بيننا وبينكم أي لا إيراد حجة بيننا ، ويراد به لا خصومة بيننا ، على أن إيراد الحجة من الجانبين لازم للخصومة فيكفى بذكر اللازم عن الملزوم ، فالمعنى : لا محاجة ولا خصومة لأن الحق قد ظهر ولم يبق للمحاجة حاجة ، ولا للمخالفة محمل سوى المكابرة ﴿ **اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا** ﴾ يوم القيامة ﴿ **وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾ مرجع الكل لفصل القضاء فيظهر هناك حالنا وحالكم ، يعني هذه الآية إنما تدل على المتاركة القولية لحصول الاستغناء عن المحاجة القولية معهم ، لأنهم قد عرفوا صدقه من الحجج ، وإنما كفروا عناداً بعد ما ظهر الحق وصاروا محجوجين ، فلا يبقى بعد هذا إلا السيف ، أو الإسلام وقد قوتلوا بعد ذلك ، فعلى العبد قبول الحق بعد ظهوره ، والمشي خلف النصح بعد إضاءة نوره ، فإن المصير إلى الله والدنيا دار العبور ، وإن الحضور في الآخرة ، والدنيا دار التفرق والفتور ، فلابد من التهيؤ للموت ، وأنشدوا :

إن للهِ عبـــــاداً فُطَنَـــــاً * طَلَّقـوا الـدنيـا وخـافـوا الفتنـا

نظروا فيهـــا فلمـــا علمـــوا * أنهـــا ليست لحيٍّ وطنـــا

جعلـوهـــا لُجَّـــةً واتخـــذوا * صـالـح الأعمـالِ فيهـا سُفُنَـا

﴿ **وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ** ﴾ أي يخاصمون في دينه ونبيه ﴿ **مِنْ بَعْدِمَا اسْتُجِيبَ لَهُ** ﴾ أي من بعد ما استجاب له الناس ، ودخلوا فيه لظهور حجته ، ووضوح محجته ، والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم إليه ، وفيه إشارة الى أنهم استجابوا له تعالى يوم الميثاق بقولهم بلى ، حين قال لهم ألست بربكم ؟ ثم لما نزلوا من عالم الأرواح إلى عالم الأجسام ، نسوا الإقرار والعهد فأخذوا في المحاجة والإنكار ، بخلاف المؤمنين فإنهم ثبتوا على التصديق والإقرار ﴿ **حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ** ﴾ زائلة باطلة بل لا حجة لهم أصلاً ، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة مجاراة معهم على زعمهم الباطل ﴿ **وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ** ﴾ عظيم لمكابرتهم الحق بعد ظهوره ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ** ﴾ على كفرهم الشديد وضلالهم البعيد ، لا

يعرف كنهه ، وهو عذاب النار ﴿ اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ ﴾ أي جنس الكتاب حال كونه ملتبساً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ في أحكامه وأخباره ، بعيداً عن الباطل ، أو بما يحق إنزاله من العقائد ، والأحكام ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ أي وأنزل الميزان أي الشرع الذي يوزن به الحقوق ، ويسوي بين الناس أو أنزل نفس العدل والتسوية ، بأن أنزل الأمر به في الكتب الإلهية فيكون تسمية العدل بالميزان تسمية المسمى باسم آلته فإن الميزان آلةُ العدل ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أيْ أيَّ شيء يجعلك عالماً بحال الساعة ؟ التي هي من العظم ، والشدة ، والخفاء ، بحيث لا يبلغه دراية أحد ؟ إنما يُدْرىٰ ذلك بوحي منا ، قال الراغب : كل موضع ذكر في القرآن « وما أدراك » فقد عقب ببيانه نحو (وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَةٌ نَارٌ حَامِيَةٌ) وكل موضع ذكر فيه « مَا يُدْرِيكَ » لم يعقبه بذلك نحو « وما يُدْرِيكَ لعلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ » ؟ ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ ﴾ التي يخبر بمجيئها الكتاب الناطق بالحق ﴿ قَرِيبٌ ﴾ أي شيء قريب ، أو قريب مجيئها والمعنى أن القيامة على جناح الإتيان ، فاتبع الكتاب يا محمد واعمل به ، وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذي تُوزن فيه الأعمال ، ويوفى جزآؤها ، وفيه زجرهم عن طول الأمل ، وتنبيههم على انتظار الأجل ، وهجومه ، نبهنا الله تعالى وإياكم أجمعين ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ استعجال إنكار ، واستهزآء ، ولا يشفقون منها ، ويقولون متى هي ؟ ليتها قامت حتى يظهر لنا الحق ؟ أهو الذي نحن عليه أم الذي عليه محمد وأصحابه ؟ فإنهم لما لم يؤمنوا بها لم يخافوا ما فيها ، فهم يطلبون وقوعها استبعاداً لقيامها ، والعجلةُ : طلبُ الشيء وتحرِّيه قبل أوانه ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بها ﴿ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ خائفون منها مع اعتنائها لتوقع الثواب ، فإن المؤمنين يكونون أبداً بين الخوف والرجاء ، فلا يستعجلون بها ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ أي الكائن لا محالة ، وفيه إشارة إلى أن المؤمنين لا يتمنون الموت خوف الابتلاء بما بعده فيستعدون له ، وإذا ورد لم يكرهوه ، وذلك أن الموت لا يتمناه إلا جاهل أو مشتاق ﴿ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ يجادلون فيها ، وينكرون مجيئها عناداً ، من المرية ومعناها في الأصل تداخلهم المرية والشك ، فيؤدي ذلك إلى المجادلة ففسر المماراة بلازمها ﴿ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق ، فإن البعث أشبه الغائبات بالمحسوسات ، لأنه كإحياء الأرض بعد موتها ، فمن لم يهتد إلى تجويزه ، فهو من الاهتداء إلى ما ورآءه أبعد ، لأن البعد في الحقيقة للضال ، لأنه هو الذي يتباعدُ عن الطريق فوصف به فعله ، ويكون المعنى في ضلال ذي بُعْدٍ ، أو فيه بعد ، لأنه الضال عن الطريق سواءً كان قريباً أو بعيداً ﴿ اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ أي بَرٌّ بليغ البِرِّ بهم ، يفيض عليهم من فنون ألطافه ، مالا تكاد تناله أيدي الأفكار والظنون ، وصيغة لطيف فإنها للمبالغة ، وتنكيره أيضاً ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يرزقه ، كيفما يشاء فيخص كلاً من عباده ، الذين عمَّهم جنسُ لطفه بنوع من البر ، على ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ، وذلك لا ينافي عموم بره بجميع عباده ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ ﴾ الباهر القدرة ، الغالب على كل

شيء ، وهو يناسب عموم لطفه للعباد ، والقوة في الأصل صلابة البنية وشدتها ، ولما كانت محالاً في حق الله تعالى حملت على القدرة ، لكونها مسببة عن القوة ﴿ **العَزِيزُ** ﴾ المنيع الذي لا يغلب ، وهو يلائم تخصيص من يشاء بما يشاء ﴿ **من كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ** ﴾ الحرث في الأصل : إلقاء البذر في الأرض ، يطلق على الزرع الحاصل منه ، ويستعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة ، من حيث إنه فائدة تحصل بعمل الدنيا ، ولذلك قيل « الدنيا مزرعة الآخرة » والمعنى من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة (**نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ**) نضاعف له ثوابه بالواحد عشرة ، إلى سبعمائة فما فوقها ﴿ **وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ** ﴾ بأعماله ﴿ **حَرْثَ الدُّنْيا** ﴾ وهو متاعها ، وطيباتها ، والمراد الكافر ، أو المنافق حيث كانوا مع المؤمنين في المغازي ، وغرضهم الغنيمة ، ودخل فيه أصحاب الأغراض الفاسدة جميعاً ﴿ **نُؤْتِهِ مِنْهَا** ﴾ أي شيئاً منها حسبما قسمنا له ، ودلت الآية على أن طالب الدنيا لا ينال مراده من الدنيا ، وفي الحديث (من كانت نيته الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت نيته الدنيا فرَّق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له)[1] ﴿ **وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ** ﴾ « مِنْ » مزيدة للاستغراق ، أي ما له نصيبٌ في الآخرة ، إذ كانت همته مقصورة على الدنيا ، ولكل امرىء ما نوى ، فيكون محروماً من ثواب الآخرة بالكلية ، وقال الإمام الراغب : إن الإنسان في دنياه حارث ، وعمله حرثه ، ودنياه محرثه ، ووقت الموت وقت حصاده ، والآخرة بيدره ، ولا يحصد إلا ما زرعه ، ولا يكيل إلا ما حصد ، وحكي أن رجلاً ببلخ ، أمر عبده أن يزرع حنطة ، فزرع شعيراً ، فرآه وقت الحصاد وسأله ، فقال العبد : زرعتُ شعيراً على ظن أن ينبت حنطة ، فقال مولاه : يا أحمق هل رأيت أحداً زرع شعيراً فحصد حنطة ؟ فقال العبد : فكيف تعصي الله أنت ، وترجو رحمته ، وتغتر بالأماني ، ولا تعمل العمل الصالح ؟ فانتبه السيِّدُ من غفلته ، وتاب وأناب .

وكما أن في البيدر مكيالاً وموازين ، وأمناء وحفاظاً وشهوداً ، كذلك في الآخرة مثل ذلك ، وكما أن للبيدر تذرية وتمييزاً بين النقاوة والحطام ، كذلك في الآخرة تميز بين الحسنى والآثام ، فمن عمل لآخرته بورك له في كيله ووزنه ، وجُعل له منه زاد الأبد ، ومن عمل لدنياهُ خاب سعيه وبطل عمله ، فأعمال الدنيا كشجرة الحنظل في الربيع يرى غض الأوراق حتى إذا جاء حين الحصاد لم ينل طائلاً ، وإذا حضر مجتناه في البيدر لم يفد نائلاً ، ومثل أعمال الآخرة كشجرة الكرم والنخل المستقبح المنظر في الشتاء ، فإذا حان وقتُ القطاف والاجتناء أفادتك زاداً ، وادخرت عدة وعتاداً ، ولما كانت زهرات الدنيا رائقة الظاهر

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في القيامة رقم ٢٤٦٧ بلفظ (من كانت الآخرة همَّه ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ..) الحديث وفي إسناده ضعف وانظر جامع الأصول ١١ / ١١ والترغيب والترهيب للمنذري ٤ / ٨٢ .

خبيثة الباطن ، نهى الله تعالى عن الاغترار بها فقال (**وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**) فالقذر قذر وإن كان في ظرف من الذهب ، فالعاقل لا يتناوله ، فالدنيا امرأة عجوز ، ومن افتخر بزينتها وزخارفها فهو أحمق فعلى العاقل تحصيل الآخرة بالأعمال الصالحة الباقية ، فإن الدنيا وما فيها بأسرها زائلة فانية ، كما قال لبيد :

أَلاَكُلُّ شيءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ * وَكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحَالَةَ زَائِلُ

﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ** ﴾ أم منقطعة مقدرة ببل ، وشركاؤهم شياطينهم من الإنس والجن ، والضمير للمشركين من قريش ، والإضافة على حقيقتها ، والمعنى أي بل هم شركاء من الشياطين أي نظرآء يشاركونهم في الكفر والعصيان ، ويعاونونهم عليه بالتزيين والإغراء ﴿ **شَرَعُوْا لَهُمْ** ﴾ بالتسويل ﴿ **مِنَ الدِّينِ** ﴾ الفاسد ﴿ **مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ** ﴾ كالشرك وإنكار البعث ، والعمل للدنيا ، وسائر مخالفات الشريعة ، وموافقات الطبيعة ، لأنهم لا يعلمون غيرها ، وتعالى الله عن الإذن في مثل هذا ، والأمرِ به ، والدين للمشاكلة ، لأنه ذكر في مقابلة دين الله ، وللتهكم ، وقيل شركاؤهم أوثانهم ، فالهمزة للإنكار ، فالجماد الذي لا يعقل شيئاً كيف يصح أن يشرع ديناً ؟ والحال أن الله تعالى لم يشرع لهم ذلك الدين الباطل ، ﴿ **وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الفَصْلِ** ﴾ أي القضاء السابق بتأخير العذاب ، أو العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة ، والفصل القضاء بين الحق والباطل ، ﴿ **لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ في الآخرة ، أي نوع من العذاب متفاقم ألمه ﴿ **تَرَىٰ الظَّالِمِينَ** ﴾ أي المشركين يوم القيامة ، يا من يصلح للرؤية ﴿ **مُشْفِقِينَ** ﴾ خائفين ﴿ **مِمَّا كَسَبُوا** ﴾ أي إشفاقاً ناشئاً من السيئات التي عملوها في الدنيا ، ومن أجلها ، فكلمة من للتعليل ﴿ **وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ** ﴾ أي وباله وجزآؤه لاحق بهم لا محالة ، أشفقوا ، أو لم يشفقوا ، قال سعدي المفتي :يعني ينعكس الحال في الآخرة ، فالآمنون في الدنيا يشفقون في الآخرة ، والمشفقون في الدنيا يأمنون في الآخرة ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ أي استعملوا تكاليف الشرع ﴿ **فِي رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ** ﴾ مستقرون في أطيب بقاعها وأنزهها ، فإن روضة الأرض تكون كذلك ، والروضة هي الأماكن المتسعة المونقة ، ذات الرياحين والزهر ﴿ **لَهُمْ مَا يَشَاؤونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ** ﴾ أي ما يشتهونه من فنون المستلذات ، حاصل لهم عند ربهم ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ المذكور من أجر المؤمنين ﴿ **هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ** ﴾ الذي يصغر دونه ما لغيرهم من الدنيا ، أو تحقر عنده الدنيا بحذافيرها من أولها إلى آخرها ، وهذا في حق الأمة ، وأما النبي عليه السلام فمخصوص بالفضل العظيم كما قال تعالى (**وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**) ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي الفضل الكبير ﴿ **الَّذِي** ﴾ أي الثواب الذي ﴿ **يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ**

﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ﴾ أي يبشرهم به على لسان النبي عليه السلام ﴿ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ روي أنه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم : أترون محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً ؟ فنزلت ، والمعنى : لا أطلب منكم على ما أنا عليه من التبليغ والبشارة ، كما لم يطلب الأنبياء من قبلي ﴿ أَجْرَاً ﴾ أي نفعاً ﴿ إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ المودَّة : مودة الرسول عليه السلام ، والقربى مصدر بمعنى القرابة التي هي بمعنى الرحم ، وفي للسببية ومودته كناية عن ترك اذيته ، والجري على موجب قرابته ، سميَّ عليه السلام المودة أجراً ، واستثناها منه ، تشبيهاً لها به ، والاستثناء من قبيل قول من قال :

وَلاَعَيْبَ فيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ * بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

وذلك لأنه لا يجوز من النبي عليه السلام ، أن يطلب الأجر أياً كان على تبليغ الرسالة ، لأن الأنبياء لم يطلبوه ، وهو أولى بذلك لأنه أفضل ، ولأنه صرح بنفيه في قوله (قل ما أسألكم عليه من أجر) ولأن التبليغ واجب عليه لقوله تعالى (بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق ، ولأن متاع الدنيا أخسُّ الأشياء ، فكيف يطلب في مقابلة تبليغ الوحي الإلهي الذي هو أعزُّ الأشياء ، ولأن طلب الأجر يوهم التهمة ، وذلك ينافي القطع بصحة النبوة ، فمعنى الآية : لا أسألكم على التبليغ أجراً أصلاً ، إلا أن تودوني لأجل قرابتي منكم ، وبسببها وتكفوا عني الأذى ، ولا تعادوني ، إن كان ذلك أجراً يختص بي لكنه ليس بأجر ، لأنه لم يكن بطن من بطونكم يا قريش إلا وبيني وبينها قرابة ، فإذا كانت قرابتي قرابتكم ، فصلتي ودفع الأذى عني لازم لكم في الشرع ، والعادة ، والمروءة ، سواء كان مني التبليغ أولا ، وقد كنتم تتفاخرون بصلة الرحم ودفع الأذى عن الأقارب فما لكم تؤذونني ، والحال ما ذكر ؟ ويجوز أن يراد بالقربى أهل قرابته عليه السلام من المودة والمعنى إلا أن تودوا أهل قرابتي مودة ثابتة متمكنة فيهم ، روي أنها لما نزلت قيل يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ؟ قال : علي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين رضي الله عنهم .

﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ أي يكتسب أي حسنة كانت ، أصل القرف والاقتراف قشر اللحاء عن الشجرة ، والجليدة عن الجذع ، واستعير الاقتراف للاكتساب حسناً كان أو سيِّئاً ، وفي الإساءة أكثر استعمالاً ﴿ نَزِدْ لَهُ فِيهَا ﴾ أي في الحسنة ﴿ حُسْنَاً ﴾ بمضاعفتها ، والتوفيق لمثلها ، والإخلاص فيها ، وبزيادة لا يصل العبد إليها بوسعة البشر ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ لمن أذنب ﴿ شَكُورٌ ﴾ لمن أطاع ، بتوفية الثواب ، والتفضل عليه بالزيادة ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ أم منقطعة أي بل ، أيقولون يعني كفار مكة ﴿ افْتَرَىٰ ﴾ محمد ﴿ عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ بدعوى النبوة ، وتلاوة القرآن ، كأنه قيل : أيتالكون أن ينسبوا مثله عليه السلام إلى الافتراء ، وهو أعظم الذنوب وأفحشها ؟ ﴿ فَإِنْ يَشَأ اللهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ

﴿ قَلْبِكَ ﴾ استشهاد على بطلان ما قالوا ، ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله لمنعه من ذلك قطعاً ، وتحقيقه : إن دعوى كون القرآن افتراء على الله ، قول منهم بأنه تعالى لا يشاء صدوره عن النبي ، بل يشاء عدم صدوره عنه ، ومن ضرورته منعه عنه قطعاً ، فكأنه قيل : لو كان افتراءً عليه تعالى لشاء عدم صدوره عنه ، وإن يشأ ذلك يختم على قلبك ، بحيث لم يخطر ببالك معنى من معانيه ، ولم تنطلق بحرف من حروفه ، وحيث لم يكن الأمر كذلك ، بل تواتر الوحي حيناً فحيناً ، تبين أنه من عند الله ﴿ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ استئناف مقرر لنفي الافتراء غير معطوف على يختم ، كما ينبىء عنه إظهار الاسم الجليل ، وصيغة المضارع للاستمرار ، والمعنى : ومن عادته تعالى أن يمحو الباطل ويثبت الحق بوحيه أو بقضائه ، فلو كان افتراء كما زعموا لمحقه ورفعه ، ويجوز أن يكونه عدةً لرسول الله عليه السلام بأنه تعالى يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت ، والتكذيب ، ويثبت الحق الذي هو عليه القرآن ، أو بقضائه الذي لا مردَّ له بنصرته عليهم ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ بما تضمره القلوب فيجزي عليها أحكامها اللائقة بها من المحو والإثبات .

ولم يقل « ذوات الصدور » لإرادة الجنس ، وذات ههنا تأنيث ذي بمعنى صاحب أي عليم بالمضمرات صاحبة الصدور ، وهي الخواطر القائمة بالقلب ، من الدواعي والصوارف الموجودة فيه ، وجعلت صاحبة الصدور بملازمتها وحلولها فيها ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه ، لأنه إن لم يقبل كان إغراءً بالمعاصي ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : هي عامة للمؤمن ، والكافر ، والولي، والعدو ، ومن تاب منهم قَبِلَ الله توبته ، والتوبة : هي الرجوع عن المعاصي بالندم عليها أو العزم أن لا يعاودها أبداً ، وقال الشيخ البوشنجي : هو أن لا تجد حلاوة الذنب في القلب عند ذكره ﴿ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ ﴾ صغيرها ، وكبيرها ، غير الشرك ، لمن يشاء بمحض رحمته ، وشفاعة شافع ، وإن لم يتوبوا ، وهو مذهب أهل السنة ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ كائناً ما كان من خير وشر ، فيجازي التائب ويتجاوز عن غير التائب ، حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الفاعل ضمير اسم الله ويستجيب الله دعاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أي المؤمنين الصالحين إذا دعوه ويثيبهم على طاعاتهم يعني يعطيهم الثواب في الآخرة ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ على ما سألوا منه تفضلاً وكرماً ، ويجوز أن يكون الموصول فاعل الاستجابة ، والاستجابة فعلهم لا فعل الله تعالى ، والمعنى : ويستجيبون لله بالطاعة ، ويزيدهم على ما استحقوه من الثواب تفضيلاً ، وكيف يُخيِّب ولا يجيب من إذا لم يسأله عبده يغضب عليه ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : قال النبي عليه السلام : أن الله يغضب على من لم يسأله ولا يفعل ذلك أحد غيره انتهى ما في بحر العلوم . يقول الفقير : هذا كله مُسلَّم مقبول فإنه يدل على أن دعاء المؤمن المطيع لربه مستجاب على كل حال ولكن لا يلزم

منه أن يستجاب لكل مؤمن فإن بعضاً من الذنوب يمنع الاستجابة ويرد الدعوة كما إذا كان الملبوس والمشروب حراماً ، والقلب لاهياً غافلاً ، وعلى الداعي مظالم وحقوق للعباد ونحو ذلك ، ويدل على ما ذكرنا ما قال عليه السلام لسعد بن أبي وقاص - حين قال له يا رسول الله : ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعاء - قال (ياسعدُ : اطبْ لقمتك ، تُستجبْ دعوتُك) فإن كل بطن دخل فيه لقمة من حرام لا تستجاب دعوته أربعين يوماً ، وأيضاً ما قاله عليه السلام (الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء قائلاً يارب يارب ، ومطعمُه حرام ، ومشربُه حرام ، وغُذِي بالحرام ، فأنَّى يستجاب لذلك الرجل دعاؤه) ؟ ثم إن الزيادة في الآية مفسرة بالشفاعة لمن وجبت له النار ، وبالرؤية لرب العزة جلَّ وعلا فإن الجنان ونعيمها مخلوقة تقع في مقابلة مخلوق مثلها وهو عمل العبد والرؤية مما يتعلق بالقديم ولا تقع إلا في مقابلة القديم وهو الفضل الرباني ﴿ **وَالْكَافِرُوْنَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ** ﴾ بدل ما للمؤمنين من الثواب والفضل المزيد ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ** ﴾ لو وسعه عليهم ﴿ **لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ** ﴾ لطغوا في الأرض وعصوا ، فمن العصمة أن لا تجد ، أو لظلم بعضهم على بعض ، لأن الغنى مبطرة مأشرة ، أي داع إلى البطر والأشر ، أو البغي بمعنى الكبر فيكون كناية عن الفساد ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : بغيهم في الأرض طلبهم منزلة بعد منزلة ، ومركباً بعد مركب ، وملبساً بعد ملبس ، وقال بعضهم : لو أن الله تعالى رزق العباد من غير كسب لتفرغوا للفساد في الأرض ، ولكن شغلهم بالكسب حتى لا يتفرغوا للفساد ونعم ما قيل :

إنَّ الشَّبَابَ والفَرَاغ والجِدَه * مَفْسَدةٌ للمَرْءِ أيُّ مَفْسَده

أي داعية إلى الفساد ومعنى الفراغ عدم الشغل ، ولزوم البغي على بسط الرزق على الغالب ، وإلا فقد يكون الفقير مستكبراً وظالماً ، يعني أن البغي مع الفقر أقل لأن الفقر مؤد إلى الانكسار والتواضع غالباً ، ومع الغنى أكثر وأغلب لأن الغنى مؤد إلى البغي غالباً ، فلو عم البسط كل واحد من العباد لغلب البغي وانقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن ﴿ **وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ** ﴾ أي : تقدير أزلي ﴿ **مَا يَشَاءُ** ﴾ أن ينزله مما تقتضيه مشيئته ﴿ **إِنَّه بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ** ﴾ محيط بخفايا أمورهم وجلاياها ، فيقدر لكل واحد منهم في كل وقت من أوقاتهم ما يليق بشأنهم ، فيفقر ، ويغني ، ويمنع ، ويعطي ، ويقبض ، ويبسط ، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ، ولو أغناهم جميعاً لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ** ﴾ أي المطر الذي يغيث الناس من الجدب ، ولذلك خص بالنافع منه ، فإن المطر قد يضرُّ وقد لا يكون في وقته ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا** ﴾ أي يئسوا منه ، وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضاً ، لتذكير كمال النعمة فإن حصول النعمة بعد اليأس والبلية أوجب لكمال الفرح ، فيكون أدعى إلى

الشكر ﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه في كل شيء من السهل والجبل ، والنبات والحيوان ، وفي فتح الرحمن : وينشر رحمته وهي الشمس وذلك تعديد نعمة غير الأولى ، وذلك أن المطر إذا جاء بعد القنوط حسن موقعه ، فإذا دام سُئم ، وتجيىء الشمس بعده عظيمة الوقع ﴿ وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ ﴾ المالك السيد الذي يتولى عباده بالإحسان ، ونشر الرحمة ﴿ ومِنْ آياتِه ﴾ أي دلائل قدرته تعالى ﴿ خَلْقُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ﴾ على ما هما عليه من تعاجيب الصنائع ، فإنها بذاتها أو صفاتها تدل على شؤونه العظيمة ﴿ وَمابَثَّ فِيهِما ﴾ عطف على السموات أو الخلق ، ومعنى بث فرق ، وقوله وبث إشارة إلى إيجاده تعالى ما لم يكن موجوداً وإظهاره إياه ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ حيٍّ ، على إطلاق اسم المسبب على السبب ، فتكون الدابة بمعنى الحي فتتناول الملائكة أيضاً ، لأن الملائكة ذووا حركة طيارون في السماء ، وإن كانوا لا يمشون على الأرض ، ويجوز أن يكون المعنى مما تدب على الأرض فإن ما يختص بأحد الشيئين المجاورين يصح نسبته إليهما ، كما في قوله تعالى (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ) وإنما يخرج من الملح ، وقد جوز أن يكون للملائكة مشي مع الطيران فيوصفون بالدبيب ، ﴿ وَهُوَ ﴾ تعالى ﴿ عَلَى جَمْعِهِمْ ﴾ أي حشر الأجسام بعد البعث للمحاسبة ﴿ إذا يَشاءُ ﴾ في أي وقت يشاء ﴿ قَدِيرٌ ﴾ متمكن منه ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ ﴾ فما شرطية ، وقال بعضهم : موصول أي الذي وصل اليكم أيها الناس ﴿ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ أي مصيبة كانت من الآلام ، والأسقام ، والقحط ، والخوف ، حتى خدش العود وعثرة القدم ، واختلاج العرق وغير ذلك في البدن ، أو في المال ، أو في الأهل ، والعيال ، ويدخل فيها الحدود على المعاصي ، كأنه يدخل في قوله (وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) ما لم يجعل له حد ﴿ فَبِما كَسَبَتْ أَيدِيكُمْ ﴾ أي فهو بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها ، فإن ذِكْرَ الأيدي لكون أكثر الأعمال مما يزاول بها ، فكل نكد لاحق إنما هو بسبب ذنب سابق أقله التقصير .

وفي الحديث (لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)[1] فالدعاء سبب لدفع البلاء وجلب الرحمة ، كما أن الترس سبب لدفع السلاح ، والماء سبب لخروج النباتات من الأرض ، قال الضحاك : ما تعلم رجل القرآن ثم نسيه ، إلا بذنب ، وأي معصية أقبح من نسيان القرآن وتلا الآية ﴿ ويَعْفُوا عَنْ كثيرٍ ﴾ من الذنوب فلا يعاقب عليها ، ولولا عفوه وتجاوزه ، ما ترك على ظهرها من دابة ، وفي الآية تسلية لقلوب العابد ، وأهل المصائب ، يعني إن أصابتكم مصيبة الذنوب والمعاصي الموجبة للعقوبة الأخروية الأبدية ، تداركناها بإصابة المصيبة الدنيوية الفانية لتكون جزاء لما صدر منكم من سوء الأدب ، وتطهير لما تلوثتم به من المعاصي ، ثم إذا كثرت الأسباب من البلايا

(١) أخرجه الترمذي والحاكم ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٣٦١ .

على عبد ، وتوالي عليه ذلك ، فليفكر في أفعاله المذمومة ، لم حصلت منه حتى يبلغ جزآء ما يفعله مع عفو الكثير هذا المبلغ ، فعند هذا يزداد حزنه وأسفه وخجلته لعلمه بكثرة ذنوبه وعصيانه ، وغاية كرم ربه ، وعفوه وغفرانه ﴿ **وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ** ﴾ فائتين ما قضى عليكم من المصائب وإن هربتم من أقطار الأرض كل مهرب ، يعني إذا أراد الله ابتلاءكم وعقوبتكم فلا تفوتونه حيثما كنتم ، ولا تسبقونه ، ولا تقدرون أن تمنعوه من تعذيبكم ﴿ **وَمَالَكُمْ** ﴾ أي عند الاجتماع فكيف عند الانفراد ﴿ **مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ المحيط بكل شيء عظمة ، وكبراً وعزة ﴿ **مِنْ وَلِيٍّ** ﴾ يكون متولياً لشيء من أموركم بالاستقلال ، يحميكم من المصائب ﴿ **ولا نَصِيرٍ** ﴾ يدفعها عنكم ، وهذه الآية الكريمة داعية لكل أحد إلى المبادرة عند وقوع المعصية إلى محاسبة النفس ، ليعرف من أين أتي ؟ فيبادر إلى التوبة عنه ، لينقذ نفسه من الهلكة ، قال الإمام الواحدي رحمه الله : هذه الآية أرجى آية في كتاب الله ، لأن الله جعل ذنب المؤمن صنفين ، صنفاً كفر عنهم بالمصائب ، وصنفاً عفا عنهم في الدنيا ، وهو كريم ولا يرجع في الآخرة في عفوه ، فهذه سنة الله مع المؤمنين ، ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ** ﴾ دلائل وحدته تعالى ، وقدرته ، وعظمته ، وحكمته ، ﴿ **الجَوَارِ** ﴾ السفن الجارية ﴿ **فِي البَحْرِ كَالأَعْلاَمِ** ﴾ جمع عَلَم بمعنى الجبل ، وكل مرتفع على شيء أي كالجبال على الإطلاق ، لا التي عليها النار للاهتداء خاصة ﴿ **إِنْ يَشَأْ** ﴾ أي الله تعالى ، وهو شرط جوابه قوله ﴿ **يُسْكِنِ الرِّيحَ** ﴾ التي تجريها ﴿ **فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ** ﴾ عطف على قوله : يسكن وظل بمعنى صار ، وركدت السفينة إذا سكنت وثبتت ، أي فيصرن تلك السفن ثوابت بعدما كانت جواري برياح طيبة ، وحاصل المعنى : فيبقين ثوابت على ظهر البحر غير جاريات ، لا غير متحركات أصلاً ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ** ﴾ الذي ذكر من السفن اللاتي يجرين تارة ، ويركدن تارة أخرى ، على حسب مشيئة الله تعالى ﴿ **لآيَاتٍ** ﴾ عظيمة في أنفسها كثيرة في العدد ، دالة على ما ذكر من شؤونه ﴿ **لِكُلِّ صَبَّارٍ** ﴾ بليغ الصبر على احتمال البلايا في طاعة الله تعالى ﴿ **شَكُورٍ** ﴾ بليغ الشكر له على نعمائه ، باستعمال كل عضو من الأعضاء فيما خلق له ﴿ **أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا** ﴾ عطف والمعنى إن يشأ يسكن الريح فيركدن ، أو يرسلها فتغرق بعضها ، أي السفن بعدله ، وإيقاع الإيباق عليهن مع أنه حال أهلهن للمبالغة والتهويل ، يعني أن المراد إهلاك أهلها بسبب ما كسبوا من الذنوب ، موجبات الهلاك .

﴿ **وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ** ﴾ فلا يوبق أموالهم بناءً على العفو في قوله تعالى (ويعفو عن كثير) لما أن المعنى أو يرسلها فيوبق ناساً وينجي آخرين ﴿ **وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا** ﴾ عطف على علة مقدرة ، مثل لينتقم منهم وليعلم الذين يكذبون بالقرآن ويسعون في دفعه وإبطاله ، فيكون المعنى : وإن يشأ يجمع بين إهلاك قوم ، وانجاء قوم ، وتحذير قوم ﴿ **مَالَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ** ﴾ أي من مهرب من العذاب فكما لا مخلص لهم إذا وقفت السفن ، أو عصفت الرياح ، كذا لا مهرب لهم من عذابه بعد البعث ، فلابد

من الاعتراف بأن الضار والنافع ليس إلا الله ، وإن كل أمر عرض فإنما هو بتأثيره ﴿ فما أُوْتيتُمْ منْ شَيءٍ ﴾ مما ترغبون أيها الناس ، وتتنافسون فيه من مال ، ومعاش ، وأولاد ﴿ فمتَاعُ الحياةِ الدُّنْيا ﴾ أي فهو متاعها ، ومنفعتها ، تتمتعون ، وتنتفعون فيه مدة حياتكم القليلة ، فيزول ، ويفنى ، ﴿ وما عِنْدَ اللهِ ﴾ من ثواب الآخرة ،أشير إليه آنفاً ﴿ خيْرٌ ﴾ ذاتاً ، لخلوص نفعه ﴿ وَأَبْقى ﴾ زماناً حيث لا يزول ، ولا يفنى ، بخلاف ما في أيدي الناس ، وفيه إشارة إلى أن الراحات في الدنيا لا تصفو ، من الشوائب ، ولا تخلو منها وإن اتفق لبعضهم منها في الأحايين ، فإنها سريعة الزوال ، وشيكة الارتحال ، وما عند الله من الثواب الموعود خير وابقى من هذا القليل الوجود ، ﴿ للّذِينَ آمنُوا ﴾ أخلصوا في الإيمان ، وفي الحواشي السعدية : الظاهر أن اللام للبيان ، أي لبيان من له هذه النعمة ، وقد بينه أبو الليث في تفسيره بقوله : ثم بين لمن يكون الثواب فقال للذين آمنوا ﴿ وَعلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوكَّلُونَ ﴾ لا على غيره تعالى ، أي خصُّوا ربهم بالتوكل عليه فيما يعرض لهم من الأمور ، لا يسندون أمراً إلا إليه ، ولا يعتمدون إلا عليه ، وعن علي رضي الله عنه : أنه تصدق أبو بكر رضي الله عنه بماله كله ، فلامه جمعٌ من المسلمين فنزلت الآية ، وقد بين أن ثواب الآخرة مع كونه خيراً مما في الدنيا وأبقى ، يحصل لمن اتصف بصفات ، وجمع بينها ، وهو الإيمان ، والتوكل ، وما ذكر بعدهما ، فالمؤمن والكافر يستويان في أن الدنيا متاع لهما يتمتعان بها ، وإذا صارا إلى الآخرة ، كان ما عند الله خيراً للمؤمن ، فمن عرف فناء متاع الدنيا ، وتيقن أن ما عند الله خير وأبقى ، ترك الدنيا ، واختار العقبى ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴿ والّذِينَ يَجْتَنبُونَ كَبَائِرَ الإثْمِ ﴾ الإثم : الذنبُ ، والمعنى يجتنبون الكبائر من هذا الجنس ، ولكون المراد جنس الإثم لم يقل كبائر الآثام ، قال في كشف الأسرار : أضاف الكبائر إلى الإثم فإن إثم الصغيرة مغفور ، إذا اجتنب الكبيرة ، كما قال الله تعالى (إنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيئاتِكُمْ) وقال الراغب قوله (والّذينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الإثْمِ) وقوله (إنْ تَجْتَنِبُوا كبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ) قيل : أريد بها الشرك ، لقوله (إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) قال ابن عباس : كبير الإثم هو الشرك قال الإمام الرازي : هو عندي ضعيف ، لأن ذكر الإيمان يغني عنه ، يقول الفقير : لا يغني فإنه بالإيمان لا يحصل الاجتناب عن مطلق الشرك الشامل للجلي ، والخفي ، بل عن الجلي فقط ، وقد أطلق عليه السلام الشرك على الرياء حيث قال « اتقوا الشرك الأصغر » ﴿ والفَواحِشَ ﴾ وهي القبيحة ، أو المفرطة في القبح ، قال في القاموس : الفاحشة الزنى وما يشتد قبحه من الذنوب ، فيكون عطف الفواحش على الكبائر ، من عطف البعض على الكل ، إيذاناً بكمال شناعته ﴿ وإذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرونَ ﴾ والغضبُ : ثوران دم القلب وإرادة الإنتقام ، والمغفرة هنا بمعنى : العفو ، والتجاوز ، والحلم وكظم الغيظ ، والمعنى وهم يعفون ويتجاوزون ، ويحلمون ، ويكظمون الغيظ وقت غضبهم على

أحد ﴿ والَّذِينَ اسْتَجابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ ﴾ نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا له ، أي لرسول الله من صميم القلب كما هو المفهوم من إطلاق الاستجابة ، وإنما ذكر إقامة الصلاة ، ولم يذكر غيرها من العبادات كإيتاء الزكاة ، والصوم ، مثلاً لأنه ما بين العبد والإيمان إلا إقامة الصلاة ، كما أنه ما بينه وبين الكفر إلا ترك الصلاة ، فإذا أقام الصلاة فقد آمن وأقام الدين ، كما إذا تركها فقد كفر ، وهدم الدين وفي الحديث (أول ما يحاسب العبد يوم القيامة بصلاته ، فإن صلحت أفلح ، وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر)[1] ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىَ بَيْنَهُمْ ﴾ بمعنى التشاور ، وأصله من الشور وهو الإخراج ، تُسمى به لأن كل واحد من المتشاورين في الأمر ، يستخرج من صاحبه ما عنده ، والمعنى وأمرهم ذو شورى ، لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ، ويجتمعوا ، وكانوا قبل الهجرة وبعدها إذا حَزَبَهمْ أمر اجتمعوا وتشاوروا ، وذلك من فرط تدبرهم ، وتفقههم في الأمور ، وقيل هي على العموم : أي لا يستبدون برأيهم فيما لا وحي فيه من أمر الدين ، بل يشاورون الفقهاء ، وقيل في كل ما يعرض من الأمور ، قال علي رضي الله عنه : « نعم الموازنة المشاورة ، وبئس الاستعداد الاستبداد » وقيل أن من بدأ بالاستخارة وثنى بالاستشارة لحقيق أن لا يضل رأيه ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ من الأموال ، ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ أي في سبيل الخير ، ولا إلتفات إلى إنفاق الكافر ، فإنه لم يستجب لربه بالإيمان والطاعة ، فخيره محبط بكفره ، ثم إن الإنفاق لا ينحصر في المال بل يتناول كل برٍّ ومعروف كما قال عليه السلام (كل معروف صدقة)[2] والمراد ما عرف فيه رضي الله عنه تعالى من الأموال والأقوال والأفعال ، ﴿ والَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ والبغي الظلم ، والتجاوز عن الحد ، والانتصار طلب النصرة ، والمعنى إذا وصل إليهم الظلم أو التعدي من ظالم متعد ينتقمون ، ويقتصُّون ممن بغى عليهم على الوجه الذي جعله الله ، ورخصه لهم ، ولا يتجاوزون ذلك الحد المعين ، وهو رعاية المماثلة ، وأما غيرهم فليسوا كذلك ، فهذا هو معنى التخصيص هنا ، وهذا وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر أمهات الفضائل من الدين ، والتيقظ والحلم ، والسخاء ، وذلك لأن البغي إنما يصيبهم من أهل الشوكة ، والغلبة ، وإذا انتقموا منهم على الحد المشروع ، كراهة التذلل باجتراء الفساق عليهم ، وردعاً للجاني عن الجرآة على الضعفاء فقد ثبت شجاعتهم ، وصلابتهم في دين الله ، وكان النخعي رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول كانوا يكرهون أن يُذِلُّوا أنفسهم فتجتري عليهم السفهاء قال الشاعر :

وَلاَ يُقِيمُ عِلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ * إلاَّ الأَذَلاَّنِ عِيْرُ الحَيِّ والوَتِدُ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي والنسائي ، وله تكلة ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٣٤ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد والترمذي ، وتتمته (وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجهك منبسط إليه) الفتح الكبير ٢ / ٣٢٩ .

هـذا عَلى الخَسْفِ مُربُوطٌ برُمَّتِهِ * وَذَا يُشَجُّ فَلاَ يرْثي لَهُ أَحَدُ

أي لا يصبر على ظلم يراد في حقه إلا الأذلان اللذان هما في غاية الذل ، وهما الحمار المربوط على الذل بقطعة حبل بالية ، والوتد الذي يدق ويشق رأسه فلا يرحم له أحد ،وهذا الانتصار لاينافي وصفهم بالغفران ، فإن كلاً منهما فضيلة محمودة في موقع نفسه ، ورذيلة مذمومة في موقع صاحبه ، فالعفو على قسمين : أحدهما أن يصير العفو سبباً لتسكين الفتنة ، ورجوع الجاني عن بغايته ، فآيات العفو محمولة على هذا القسم ، فزال التناقض ، فمن أخذ حقه من ظالم غير معادٍ لأمر الله فهو مطيع ﴿ **وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها** ﴾ وهو بيان لوجه كون الانتصار من الخصال الحميدة ،وإطلاق السيئة على الثانية مع أنها جزاء مشروع مأذون فيه ، وكل مأذون حسن لاسيء ، لأنها تسوء من نزلت به ، أو للازدواج يعني المشاكلة كما في قوله تعالى (**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ**) وعلى هذا فالسيئة مقابل الحسنة والمعنى : أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة ، قال الحسن : إذا قال لعنك الله أو أخزاك فلك أن تقول اخزاك الله أو لعنك الله ، وإذا شتمك فلك أن تشتمه بما شتم مالم يكن فيه حد كلفظ الزنى ، أو كلمة لا تصلح فلا تجري المقابلة في الكذب ، والبهتان ، قال في التنوير : قال الآخر : يازاني ، فقال له الآخر : لابل :أنت الزاني ،حُدَّا ،بخلاف ما لو قال له مثلاً يا خبيث فقال أنتَ ،تكافئا ،﴿ **فَمَنْ عَفَا** ﴾ عن المسيء إليه جنايته أي ترك القصاص ﴿ **وَأَصْلَحَ** ﴾ بينه وبين من يعاديه بالعفو ، والإغضاء ، أي إذا كان الواجب في الجزاء رعاية المماثلة من غير زيادة ، وهي عسرة جداً ، فالأولى العفو والإصلاح إذا كان قابلاً للإصلاح ، بأن لم يصرّ على البغي ، وفي الحديث (مازاد الله عبداً بالعفو إلا عزاً)[1] ﴿ **فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ** ﴾ عِدَةٌ مبهمة منبئةٌ عن عظمة شأن الموعود وخروجه عن الحد المعهود ﴿ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ** ﴾ البادئين بالسيئة ، والمتعدين في الانتقام ، وإنما شرعت المجازاة ، وشرطت المساواة ، لأنه لا يحب الظالمين،وذكرأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان عند النبي ﷺ ، ورجل من المنافقين يسبه وأبو بكر لم يجبه ، ورسول الله ساكت يبتسم فأجابه أبو بكر ، فقام النبي عليه السلام وذهب ، فقال أبو بكر : يا رسول الله مادام يسبني كنت جالساً ، فلما أجبته قمت ، فقال النبي عليه السلام أن ملكاً كان يجيبه عنك ، فلما أجبته ذهب الملك ، وجاء الشيطان ، وأنا لا أكون في مجلس يكون هناك الشيطان ، فنزل فمن (عفا وأصلح فأجره على الله) وفي الحديث (إذا كان يوم القيامة نادى منادأين العافون عن الناس هلموا إلى ربكم وخذوا أجوركم ، وحق لكل مسلم إذا عفا أن يدخله الجنة)[2] ﴿ **وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ** ﴾ ولمن انتقم ، واقتص بعد ظلم الظالم إياه ، يعني في الحقوق المالية

(١) جزء من حديث رواه مسلم ، ولفظه (ما نقصت صدقةٌ من مال وما زاد الله عبداً ..) وانظر جامع الأصول ١١ / ٩ .

(٢) أخرجه الخطيب بنحوه عن ابن عباس ، وانظر الفتح الكبير ١ / ١٥١ .

﴿ فَأُولئِكَ ﴾ المنتصرون ﴿ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبيلٍ ﴾ بالمعاتبة أوالمعاقبة ، لأنهم فعلوا ما أبيح لهم من الانتصار ﴿ إِنَّما السَّبيلُ عَلى الَّذينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ أي يبتدئونهم بالإضرار أو يعتدون في الإنتقام ﴿ وَيَبْغُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ أي يتكبرون فيها تجبراً ، وإفساداً ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من الظلم ، والبغي بغير الحق ﴿ لَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ ﴾ بسبب ظلمهم ، وبغيهم ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ ﴾ على الأذى ﴿ وَغَفَرَ ﴾ لمن ظلمه ، ولم ينتصر ، وفوض أمره إلى الله تعالى ، وعن علي رضي الله عنه (الجزع اتعب من الصبر) ﴿ إِنَّ ذلكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ أي من معزومات الأمور ، مما يجب العزم عليه من الأمور بإيجاب العبد على نفسه ، لكونه من الأمور المحمودة عند الله تعالى ، والعزم : عقد القلب على إمضاء الأمر ، والآية في المواد التي لا يؤدي العفو فيها إلى الشر ، كما أُشير إليه ، فإن العفو مندوب إليه ، ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوباً إليه ، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي ، وقطع مادة الأذى (يحكى) أن رجلاً سبَّ رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله ، فكان المسبوب يكظم ، ويعرق ، ثم قام فتلا هذه الآية فقال الحسن : عقلها والله ، وفهمها إذ ضيعها الجاهلون ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ ﴾ يخلق فيه الضلالة من الهوى ، أو يتركه على ما كان عليه من ظلم الناس ﴿ فَمَالَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ من ناصر يتولاه من بعد خذلانه تعالى اياه ﴿ وَتَرَى الظَّالِمينَ ﴾ الخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية البصرية ، والظالمون المشركون والعاصون ﴿ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ ﴾ أي حين يرونه ، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ ﴾ بمعنى الرجعة إلى الدنيا ﴿ منْ سَبيلٍ ﴾ من طريق ، يطلبون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله عز وجل فلا يجابون ﴿ وتَراهُمْ ﴾ تبصرهم أيها الرائي حال كونهم ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْها ﴾ أي على النار المدلول عليها بالعذاب ﴿ خَاشِعينَ مِنَ الذُّلِّ ﴾ أي حال كونهم خاضعين حقيرين بسبب ما لحقهم من الذل ، والهوان ﴿ يَنْظُرون مِنْ طَرْفٍ خَفيٍّ ﴾ الطرف هو تحريك الجفن ، وعبر به عن النظر ، إذا كان تحريك الجفن يلازم النظر يعني : يسارقون النظر إلى النار خوفاً منها ، وذلة في أنفسهم ، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره ، لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ، ويملأ عينيه منها كما يفعل في نظره إلى المحابّ ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمنُوا ﴾ وجاهدوا في الله تعالى حق جهاده وربحوا على ربهم ﴿ إِنَّ الخَاسِرِينَ ﴾ أي المتصفين بحقيقة الخسران ، وهو انتقاص رأس المال ، وينسب إلى الإنسان وإلى الفعل ، وفي الأمور النفيسة كالصحة ، والسلامة ، والعقل ، والإيمان ، والثواب ، وهو الذي جعله الله الخسران المبين ، وكل خسران ذكره الله في القرآن فهو على هذا المعنى الأخير ، دون الخسران المتعلق بالأمور الدنيوية والتجارات البشرية ﴿ الَّذِينَ خَسِروا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْليهِمْ ﴾ بالتعريض للعذاب الخالد ﴿ يَوْمَ القِيامَةِ ﴾ أي يقولون لهم حين يرونهم على تلك الحالة

وصيغةُ الماضي للدلالة على تحقـقه والأهلون يفسر بالأزواج ، والأولاد ، وبالعبيد والإماء، وبالأقارب وبالأصحاب ﴿ **ألاَ إنّ الظَّالِمينَ** ﴾ أي المشركين ﴿ **في عذابٍ مُقيمٍ** ﴾ في الآخرة إلى الأبد ﴿ **ومَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أولياءَ يَنْصُرونَهُمْ** ﴾ بدفع العذاب عنهم ﴿ **مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ﴿ **وَمنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ منْ سَبيلٍ** ﴾ يؤدّي سلوكه إلى النجاة ﴿ **اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ** ﴾ إذا دعاكم إلى الإيمان على لسان نبيه عليه السلام ﴿ **مِنْ قَبْلِ أنْ يأتِي يوْمٌ لا مردَّ لَهُ مِنَ اللهِ** ﴾ أي من قبل أن يأتي من الله يوم لا يمكن رده ﴿ **مَالكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمئِذٍ** ﴾ أي مفر تلتجئون إليه ومالكم مخلص من العذاب ﴿ **ومَالكُمْ مِنْ نَكِيرٍ** ﴾ أي إنكار ما اقترفتموه ، لأنه مدون في صحائف أعمالكم ، وتشهد عليكم جوارحكم ، ولعل المراد الانكار المنجي وإلا فهم يقولون والله ما كنا مشركين ، وغير ذلك ، ولذلك تشهد عليهم اعضاؤهم ﴿ **فَإنْ أعْرَضُوا فَما أرْسَلْنَاكَ عَليْهِمْ حَفِيظاً** ﴾ توجيه إلى الرسول عليه السلام ، أي فإن لم يستجيبوا وأعرضوا ، عما تدعوهم إليه ، فما أرسلناك رقيباً ، ومحاسباً عليهم ، وحافظاً لأعمالهم ، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ **إنْ عَلَيكَ إلا البلاغُ** ﴾ أي ما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة ، وقد فعلت فلا يهمنك إعراضهم ﴿ **وإنّا إذا أذقْنا الإنسان مِنّا رَحْمةً** ﴾ أي نعمة من الصحة والغنى ، والأمن ﴿ **فَرِحَ بِها** ﴾ بطر لأجلها ، قال الكاشفي : اعلم أن نعمة الله ، وإن كانت في الدنيا عظيمة ، إلا أنها بالنسبة إلى سعادات الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر ، فلذلك سمى الإنعام بها إذاقة ، فالإنسان إذا حصل له هذا القدر الحقير في الدنيا فرح به ، ووقع في العجب ، والكبر ، وظن أنه فاز بكل المنى ولذا ضعف اعتقاده في سعادات الآخرة وإلا لاختار الباقي على الفاني ، لأن الفاني كالخزف مع أنه قليل ، والباقي كالذهب مع أنه كثير ﴿ **وَإنْ تُصِبْهُمْ** ﴾ أي الإنسان لأن المراد به الجنس ﴿ **سَيِّئَةٌ** ﴾ أي بلاء من مرض ، وفقر ، وخوف مما يسوءهم ﴿ **بِما قَدَّمَتْ أيديهِمْ** ﴾ بسبب ما عملت أنفسهم من كفرانهم بنعم الله ، وعصيانهم فيها ، وذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال تباشر بها ، فجعل كل عمل كالصادر بالأيدي على طريق التغليب ﴿ **فَإنَّ الإنْسَانَ كَفُورٌ** ﴾ كفر النعمة ، وكفرانها : سترها بترك أداء شكرها ، وأعظم الكفر جحودهم الوحدانية ، أو النبوة ، أو الشريعة والمعنى : فإن الإنسان بليغ الكفر ينسى النعمة بالكلية ، ويذكر البلية ، ويستعظمها ولا يتأمل سببها ، بل يزعم أنها أصابته بغير استحقاق لها ، واسناد هذه الخصلة إلى جنس الإنسان مع كونها من خواص المجرمين لغلبتهم ، فيما بين الأفراد يعني أنه حكم على الجنس بحال أغلب أفراده ، وتصدير النعمة بإذا ، مع إسناد الإذاقة إلى نون العظمة ، للتنبيه على أن إيصال النعمة محقق الوجود كثير الوقوع ، كما أن تصدير البلاء بإن وإسناد الإصابة إلى السيئة وتعليلها بأعمالهم ، للإيذان بندرة وقوعها ، (**للهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالأرْضِ**) أي يختص به ملك العالم

كله لا يقدر أن يملكه أحد سواه ، فله التصرف فيه ، وقسمة النعمة ، والبلية على أهله ، وليس عليهم إلا الشكر في النعمة ، والصبر في البلية ، والرضى والتسليم للأحكام الأزلية ﴿ **يَخْلُقُ ما يَشَاءُ** ﴾ مما يعلمونه ، ومما لا يعلمونه ، على أي صورة شاء ﴿ **يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إناثاً** ﴾ من الأولاد فلا يجعل معهن ذكوراً مثل ما وهب لشعيب ولوط عليهما السلام ، والهبة : أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض ، والوهاب هو الله تعالى ، لأنه يعطي كلاً على قدر استحقاقه ، ولا يريد عوضاً ، قدم الإناث لأنها أكثر لتكثير النسل ، أو لتطييب قلوب آبائهن ، إذ في التقديم تشريف لهن ، واياناس بهن ، ولذلك جعلن من مواهب الله تعالى ، قال في الكواشي : ويجوز أنهن قدمن توبيخاً لمن كان يئدهن ، ونكرن إيماءً إلى ضعفهن ليُرحمن فيحسن إليهن . قال في الشرعة : ويزداد فرحاً بالبنات مخالفة لأهل الجاهلية ، فإنهم يكرهونها ، وفي الحديث (من بركة المرأة تبكيرها بالبنات)[1] أي يكون أول ولودها بنتا حيث بدأ بالإناث ، وفي الحديث (من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كنَّ له ستراً من النار)[2] ﴿ **وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ** ﴾ من الأولاد ولا يكون فيهم إناث من غير أن يكون لذلك مدخل لأحد ومجال إعتراض ﴿ **أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإِنَاثاً** ﴾ والذكران جمع ذكر والمعنى : يقرن بين الصنفين فيهما جميعاً بأن يولد له الذكور والإناث .

﴿ **وَيَجْعَلُ منْ يَشاءُ عَقيماً** ﴾ فلا تلد ولا يولد له ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ تعالى ﴿ **عَليمٌ** ﴾ بليغ العلم بكل شيء مما كان وما يكون ﴿ **قَديرٌ** ﴾ بليغ القدرة على كل مقدور ، فيفعل ما فيه حكمه ، ومصلحة ، وعُلم أن الإنسان أما أن لا يكون له ولد ، أو يكون له ولد ذكر ، أو أنثى ، أو ذكر وأنثى ، وقد استوفى في الآية جميع الأقسام ، فالمعنى أن الله تعالى يجعل أحوال العباد في حق الأولاد مختلفة ، على ما تقتضيه المشيئة فيهن ، فيهب لبعض إما صنفاً واحداً من ذكر أو أنثى ، واما صنفين ، ويعقم آخرين فلا يهب لهم ولد قط ، فالأولاد ذكوراً واناثاً من مواهب الله تعالى وعطاياه ﴿ **وما كَانَ لِبَشَرٍ** ﴾ أي وما صح لفرد من أفراد البشر أنبياء وغير أنبياء يا محمد ﴿ **أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ** ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ **إلاَّ وَحْيَاً** ﴾ أصل الوحي : الإشارة السريعة ، وإنما سُمِّي الوحي لسرعته ، وقال الراغب : ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلي أنبيائه وحي ، فالوحي إما بإلقاء في الروع كما ذكر عليه السلام (أن روح القدس نفثَ في روعي) وإما بإلهام نحو قوله (**وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أن أَرْضِعِيهِ**) وإما بتسخير نحو قوله تعالى (**وأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ**) أو بالمنام كقوله عليه السلام (انقطع الوحي وبقيت المبشرات رؤيا المؤمن) فهذه الأنواع دل عليها قوله (**إلاَّ وَحْيَاً**) فمعناه : إلا بأنه يوحي إليه ويلهمه ، ويقذف في قلبه كما أوحى إلى

(١)أخرجه ابن عساكر عن واثلة بلفظ (من بركة المرأة تبكيرُها بالأنثى) الفتح الكبير ٣ / ١٤١ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في قصة المرأة التي دخلت على عائشة ومعها بنتان ، وانظر جامع الأصول ١ / ٤١١ .

أم موسى ، وإلى إبراهيم في ذبح ولده ، وإلى داود الزبور في صدره قاله مجاهد ﴿ **أَوْ مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ** ﴾ بأن يسمعه كلامه من غير أن يبصر السامع من يكلمه ، كما كلم الله تعالى موسى في طوى والطور ﴿ **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً** ﴾ أي ملكاً من الملائكة : إما جبريل ، أو غيره ﴿ **فَيُوحِيَ** ﴾ ذلك الرسول إلى المرسل إليه الذي هو الرسول البشري ﴿ **بِإِذْنِهِ** ﴾ أي بأمره تعالى وتيسيره ﴿ **مَا يَشَاءُ** ﴾ أن يوحيه إليه ، وهذ هو الذي جرى بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام في عامة الأوقات من الكلام ، وعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليَّ ، فيفصِمُ عني ، وقد وعيتُ عنه ما قال : وأحياناً يتمثل الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول ، قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصِمُ عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً)[1] ﴿ **إِنَّهُ عَلِيٌّ** ﴾ متعال عن صفات المخلوقين ، لا يأتي جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم ، إلا بأحد الوجوه المذكورة ﴿ **حَكِيمٌ** ﴾ يجري أفعاله على سنن الحكمة ، فيكلم تارة بواسطة ، وأخرى بدونها إما الهاماً أو خطاباً ﴿ **وَكَذَلِكَ** ﴾ أي مثل ذلك الإيحاء البديع أو كما أوحينا إلى سائر رسلنا ﴿ **أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا** ﴾ هو القرآن الذي هو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان ، حيث يحييها حياة طيبة ، أي يحصل لها به ما هو مثل الحياة ، وهو العلم النافع المزيل للجهل ، الذي هو كالموت ، وقال الراغب : سمي القرآن روحاً لكونه سبباً للحياة الأخروية الموصوفة في قوله (**وإن الدار الآخرة لهي الحيوان**) ومعنى (**مِنْ أَمْرِنَا**) روحاً ناشئاً ومبتدأ من أمرنا وقيل هو جبرائيل ، ومعنى ايحائه إليه عليه السلام إرساله إليه بالوحي ﴿ **مَا كُنْتَ تَدْرِي** ﴾ قبل الوحي في أربعين سنة ﴿ **مَا الْكِتَابُ** ﴾ أي أي شيء هو ﴿ **وَلَا الْإِيمَانُ** ﴾ أي الإيمان بتفاصيل مافي تضاعيف الكتاب من الأمور التي لا تهتدي إليها العقول ، ولا الإيمان بما يستقل به العقل والنظر ، فإن درايته عليه السلام له مما لا ريب فيه قطعاً ، وأهل العلم اجتمعوا على أن الرسل عليهم السلام كانوا مؤمنين قبل الوحي ، معصومين من الكبائر ، ومن الصغائر الموجبة لنفرة الناس عنهم قبل البعثة ، وبعدها فضلاً عن الكفر قال ابن قتيبة : لم تزل العرب على بقايا من دين إسماعيل عن الحج ، والختان ، والنكاح أو إيقاع الطلاق ، والغسل من الجنابة ، وتحريم ذوات المحارم بالقرابة ، والمصاهرة ، وكان رسول الله ﷺ على ما كانوا عليه في مثل هذه الشرائع ، وكان يوحد ويبغض اللات والعزى ﴿ **وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ** ﴾ أي الروح الذي أوحينا إليك ، والجعل : بمعنى التصيير وحقيقته أنزلناه ﴿ **نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ** ﴾ هدايته بالتوفيق للقبول ، والنظر فيه ﴿ **مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ وهو الذي يصرف اختياره نحو الاهتداء به

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب بدء الوحي ، وانظر فتح الباري ١ / ١٨ .

﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي** ﴾ تقرير لهدايته تعالى ، وبيان لكيفيتها ، أي وإنك لتهدي بهذا النور وترشد من نشاء هدايته ﴿ **إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ هو الإسلام ، وسائر الشرائع ، والأحكام ، والصراط من السبيل ما لا التواء فيه ولا اعوجاج ، بل يكون على سبيل القصد ﴿ **صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ خلقاً ، وملكاً ، وإضافة الصراط إلى الاسم الجليل ، ووصفه بالذي لتفخيم شأنه ، وتقرير استقامته ، وتأكيد وجوب سلوكه ، فإن كون جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى خلقاً ، وملكاً ، وتصرفاً مما يوجب ذلك أتم إيجاب ﴿ **أَلاَ** ﴾ كلمة تذكرة لتبصرة ، أو تنبيه لحجة ﴿ **إِلَى اللَّهِ** ﴾ لا إلى غيره ﴿ **تَصِيرُ الأُمُورُ** ﴾ أي أمور ما فيهما قاطبة ، بارتفاع الوسائط ، والتعلقات يعنى يوم القيامة ، ففيه من الوعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم ، والوعيد للضالين عنه مالا يخفى ، وقال في بحر العلوم : إلى الله تصير أمور الخلائق كلها في الدنيا ، والآخرة فلا يدبرها إلا هو ، حيث لا يخرج أمر من الأمور من قضائه جلَّ وعلا ، فيفصل فيها بين العباد بحكمة العادل ، وقضائه المبرم .

انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الشورى

فهارس المجلد الثالث

أولاً : فهرس المواضيع

ثانياً : فهرس أطراف الحديث

ثالثاً : فهرس الأبيات الشعرية

فهارس الجزء الثالث

أولاً : فهرس المواضيع

الموضوع — الصفحة

« سورة الحج »

- قال الإمام النيسابوري : جعل الله الكفار أكثر من المؤمنين ، ليريهم أنه مستغن عن طاعتهم .. إلخ ١٠
- قال موسى عليه السلام يارب : أيّ عبادك أعجز ؟ قال الذي يطلب الجنة بلا عمل ، قال .. إلخ ١١
- روى أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء البيت أمره الله بالأذان بالحج قال : يارب وما يبلغ صوتي .. إلخ .. ١٢
- قال مالك بن دينار : خرجت إلى مكة فرأيت شاباً يقول : يامن تسره الطاعات ولا تضرّه المعاصي .. إلخ ١٦
- حكي أنه احتضر رجل فإذا هو يقول : جبلين من نار ، فسئل أهله فقالوا : كان له مكيالان .. إلخ ١٦
- مر عامر برجل قد صلبه الحجاج ، قال يارب : إن حلمك على الظالمين أضرّ بالمظلومين .. إلخ ١٧
- قال ابن عباس رضي الله عنه : إن من أشراط الساعة إماتة الصلوات ، واتباع الشهوات والميل إلى الهوى .. إلخ ١٨
- قال سهل : اليسير من نور بصر القلب ، يغلب الهوى والشهوة فإذا عمي بصر القلب غلبت الشهوة .. إلخ ١٩
- قال مالك بن دينار : من لم يأنس بحديث الله عن حديث المخلوقين ، فقد قلّ فهمه ، وعمي قلبه .. إلخ ١٩
- قال أبو عبد الله الإنطاكي : دواء القلب خمسة أشياء : مجالسة الصالحين ، وقراءة القرآن ، وإخلاء البطن .. إلخ .. ١٩
- روي أن لقمان وعظ ابنه وقال يابنيّ : إن كنت في شك من الموت فادفع عن نفسك النوم .. إلخ ٢١
- روي أن عابداً رأى سليمان عليه السلام في عزة الملك فقال ياابن داود لقد آتاك الله .. إلخ ٢١
- روي أن إبراهيم عليه السلام رأى عاصياً في معصيته فدعا عليه وقال اللهم أهلكه ، ثم رأى ثانياً .. إلخ ٢٢
- روي أن أبا طلحة رضي الله عنه لما غزا في البحر فمات طلبوا جزيرة يدفنونه فيها فلم يقدروا عليها .. إلخ ٢٢
- قال بعضهم : الإنسان الكامل كالبحر فمن آذاه واغتابه فإنه لا يتكدر به .. إلخ ٢٢
- فائدة : إن الله كرّم الإنسان فنقله من عالم الجماد إلى عالم النبات ثم منه إلى عالم الحيوان ثم جعله ناطقاً .. إلخ ٢٣
- في الخبر : قل للقوي لا تعجبنك قوتك فإن أعجبتك قوتك فادفع الموت عن نفسك ... إلخ ٢٤
- روي أنه تكلم رجل في زين العابدين فقال له : إن كنتَ كما قلتَ فأستغفرُ الله وإن لم أكن .. إلخ ٢٥
- دخل سليمان بن عبد الملك الكعبة المشرفة فقال لسالم بن عبد الله ارفع حوائجك فقال ..إلخ ٢٧

« سورة المؤمنون »

- اعلم أن الجنان ثلاث : الأولى جنة « الاختصاص الإلهي » وهي التي يدخلها الأطفال الذين لم يبلغوا .. إلخ ٢٩
- السمر على ثلاثة أوجه : أحدها : أن يكون في مذاكرة العلم فهو أفضل من النوم والثاني .. إلخ ٣٧
- يحكى أنه لما انصرف هارون الرشيد من الحج ، أقام بالكوفة أياماً فلما خرج وقف بهلول .. إلخ ٣٨
- روي أنه لما أسلم ثمامة بن أثال ولحق باليمامة جاء أبو سفيان إلى رسول الله في المدينة .. إلخ ٣٩
- عن أبي يزيد البسطامي قال : كابدت العبادة ثلاثين سنة ، فرأيت قائلاً يقول لي : .. إلخ ٣٩

الموضوع — الصفحة

- قال يحي بن معاذ : إن للتوحيد نوراً وللشرك ناراً ، وإن نور التوحيد أحرق سيئات الموحدين ٤١
- قال الأصمعي : كنت أطوف بالكعبة في ليلة مقمرة ، فسمعت صوتاً حزيناً فتبعت الصوت .. إلخ ٤٣
- قال الترمذي الحكيم : إن الله خلق الخلق ليعبدوه ، فيثيبهم على العبادة ويعاقبهم على تركها .. إلخ ٤٥
- عن بهلول قال : كنت يوماً في بعض شوارع البصرة فإذا بصبيان يلعبون بالجوز واللوز .. إلخ ٤٥

« سورةالنور »

- قال عاصم بن عدي : أرأيت إن دخل رجل منا بيته فرأى رجلاً على بطن امرأته .. إلخ ٤٩
- روي أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فلما كان غزوة بني المصطلق .. إلخ ٥٠
- روي عن الحسن بن زياد وكان يلبس الصوف ويأمر بالمعروف ويرسل في كل سنة إلى بغداد عشرين ألف دينار .. إلخ ٥٥
- ذكر أن عمر رضي الله عنه كان يعسّ ليلة فاطلع من خلل باب فإذا شيخ بين يديه شراب وقينة .. إلخ ٥٧
- حكي أنه خرج أسد وذئب وثعلب يتصيدون ، فاصطادوا حماراً وحشياً وغزالاً وأرنباً .. إلخ ٦١
- قال الإمام الغزالي : النور هو الظاهر الذي به كل ظهور فإن الظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نوراً .. إلخ ٦١
- وعن أبي ثابت قال : كنت جالساً عند أبي جعفر الباقر فقال لي : أتدري ما تقول هذه العصافير ..إلخ ٦٤
- التسبيح على ثلاثة أوجه : تسبيح العقلاء ، وتسبيح الحيوانات ، وتسبيح الجمادات ... إلخ ٦٤
- روي عن عكرمة أن رجلين سألا ابن عباس رضي الله عنهما فقال : إن الله ستير يحب الستر .. إلخ ٦٩
- قال بعض أهل الحقيقة : ما ألهاك عن مولاك فهو دنياك ، فعلى العاقل أن يفكر ويحاسب نفسه .. إلخ ٧٢

« سورة الفرقان »

- قصة سهل مع اليهودي في طمر أسود فقال ألستم ترون الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر .. إلخ ٧٩
- قصة عقبة بن أبي معيط صنع طعاماً ودعا رسول الله إلى طعامه فلما قدّم الطعام أبى أن يأكل .. إلخ ٧٩
- قال أحمد بن أبي الجواري : كنت جالساً على غرفة فإذا جارية صغيرة تقرع الباب فقالت : جارية تسترشد الطريق .. إلخ ٨١
- قال أبو سليمان : من أتبع نفسه هواها ، فقد سعى في قتلها ، لأن حياتها بالذكر وموتها بالغفلة .. إلخ ٨٣
- فائدة : إن الله خلق الملائكة وعلى العقل جبلهم ، والبهائم وركب فيهم الشهوة ، والإنسان وركب فيه الأمرين .. إلخ ٨٣
- من كلام ذي النون المصري : ثلاثة من أعلام العبادة : حب الليل للسهر في الطاعة ، والخلوة بالصلاة والناس نيام .. إلخ ٨٥
- فائدة : اعلم أن الله جعل في سماء نفسك بروج حواسك ، وقمر قلبك منيراً بأنوار الروحانية .. إلخ ٨٩

الموضوع — الصفحة

● قصة يحيي عليه السلام مع إبليس عدو الله ومعه معاليق فسأله قال هذه الشهوات أصيب بهن ابن آدم .. إلخ ٩٠
● قال النهر جوري : من علامة من تولاه الله في أعماله ، أن يشهد التقصير في إخلاصه ، والغفلة في أذكاره .. إلخ .. ٩٢
● قال أبو إسحاق : رأيت رجلاً نصف وجهه مغطى ، فسألته فقال : كنت نباشاً فنبشت قبر امرأة .. إلخ ٩٤
● قال علي بن أبي طالب : الناس سفر ، والدار دار ممر لا دار مقر ، وبطن أمه مبدأ سفره .. إلخ ٩٧

« سورة الشعراء »

● قصة موسى عليه السلام مع فرعون حين أرسله الله ودق عليه الباب وأذن له بالدخول وأدّيا رسالة الله .. إلخ ... ١٠٠
● كان الرشيد حبس رجلاً فقال الرجل للموكل عليه قل لأمير المؤمنين : كل يوم مضى من نعمتك ينقص من محنتي .. إلخ ١١٤
● عن ابن عباس في قوله ﴿ **وتقلبك في الساجدين** ﴾ من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً .. إلخ ١١٥
● قال ابن الخطيب ذهب جماعة من الشعراء إلى الخليفة وقرأوا أشعارهم وأخذوا العطاء إلى الطفيلي .. إلخ ١١٥
● روي أنه لما يأس أبو بكر رضي الله عنه من حياته استكتب عثمان كتاب العهد ثم أفاق وقال استخلفت عمر رضي الله عنه ١١٧

« سورة النمل »

● الأنبياء معصومون من الذنوب وترك الأولى منهم كالصغيرة منا ، لأن حسنات الأبرار .. إلخ ١١٩
● فائدة : إن الله علم سبعة نفر سبعة أشياء : علم آدم أسماء الأشياء ، وعلم الخضر علم الفراسة .. إلخ ١٢٠
● يحكى أن سليمان عليه السلام مر على بلبل ففهم كلامه ، وصاح طاووس فقال يقول : كما تدين تدان .. إلخ ١٢١
● يحكى عن بساط سليمان عليه السلام أنه مر بحرّاث فقال : لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً ، فألقته الريح .. إلخ ... ١٢٢
● ذكر الإمام أن قتادة دخل الكوفة فقال سلوا عما شئتم وكان أبو حنيفة حاضراً فسألوه عن نملة سليمان .. إلخ ١٢٢
● حكي عن سليمان أنه أتم بناء بيت المقدس ثم خرج للحج وأقام بالحرم ما شاء ثم عزم المسير إلى اليمن .. إلخ ١٢٣
● قال جعفر الصادق : الدنيا أصغر قدراً عند الله وعند أنبيائه من أن يفرحوا بشيء منها .. إلخ ١٢٦
● الكرامة : ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة .. إلخ ١٢٨
● روي أن سليمان أمر قبل قدومها فبني له على طريقها قصر وأجري تحته الماء ، وألقى .. إلخ ١٢٨
● روي أنه كان لصالح عليه السلام مسجد يصلي فيه ولما قال لهم بعد عقرهم الناقة : إنكم تهلكون بعد ثلاث .. إلخ ١٢٩
● قال أبو يزيد دعوت الله ليلة فأخرجت إحدى يديّ من كمي دون الأخرى لشدة البرد .. إلخ ١٣٢
● قال يحيي بن معاذ : العارفون بالله أحياء ، وما سواهم موتى ، وذلك لأن حياة الروح .. إلخ ١٣٤
● ورد أن لا إله إلا الله مفتاح الجنة ولابد للمفتاح من أسنان ومن أسنانه لسان ذاكر .. إلخ ١٣٧

الموضوع | الصفحة

● حكي أن إبراهيم بن أدهم سُرَّ يوماً بملكته ونعمته ، ثم نام فرأى رجلاً أعطاه كتاباً .. إلخ ١٣٨

« سورة القصص »

● روي أنه قالت غواة من قوم فرعون هذا هو الذي يحذر منه فهم فرعون بقتله فقالت آسية .. إلخ ١٤٠
● قصة الشيخ أبي محمد الجويني دخل بيته مرة فرأى ابنه يرتضع ثدي غير أمه فاختطفه منها .. إلخ ١٤١
● روي أن قوم فرعون قالوا لأخت موسى من يكفل قالت : أمي ، فأتت بأمه وموسى على يد فرعون يبكي .. إلخ ١٤١
● نشأ موسى في حجر فرعون فبينما هو يلعب يوماً إذ رفع القضيب فضرب به رأس فرعون ، فغضب .. إلخ ١٤٢
● قصة موسى عليه السلام لما أصابه الجوع سأل الله ولم يسأل من الناس بعدما سقى للجاريتين ثم تولى إلى الظل .. إلخ ١٤٤
● روي أنه لما احتضر أبا طالب جاءه رسول الله ﷺ وكان حريصاً على إيمانه وقال : أي عم .. إلخ ١٥١
● قال الشيخ عبد الواحد : وجدنا في جزيرة شخصاً يعبد الأصنام فقلنا له : إنها لا تضر ولا تنفع فاعبد الله .. إلخ ١٥٣
● يحكى أن بعض أهل الله كان يُرى عنده في طريق الحج كل يوم خبز طريّ ، فقيل له في ذلك ، فقال .. إلخ ١٥٣
● سئل الشيخ أبو حامد عن بلاد بلفار كيف يصلون لأن الشمس لا تغرب عندهم إلا مقدار ما بين المغرب والعشاء .. إلخ ١٥٥
● حكي أن مالك بن دينار رحمه الله كان إذا قرأ في الصلاة ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ غشي عليه .. إلخ ١٥٦
● عن علي رضي الله عنه أنه كان يمشي في الأسواق وهو والٍ ، يرشد الضال ، ويعين الضعيف .. إلخ ١٥٨
● روي أنه لما خرج رسول الله ﷺ من الغار ، مهاجراً إلى المدينة ومعه أبو بكر رضي الله عنه عدل عن الطريق مخافة الطلب فلما أمن رجع إلى الطريق ونزل الجحفة فلما نزل اشتاق إلى مكة لأنها مولده وموطنه فنزل جبريل عليه السلام فقال له : أتشتاق إلى مكة قال : نعم .. إلخ ١٥٨

« سورة العنكبوت »

● قال أبو العباس : الغني : هو الذي لا يحتاج إلى شيء في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله .. إلخ ١٦١
● روي أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، لما أسلم قالت له أمه ياسعد : ما هذا الذي قد أحدثت ؟ .. إلخ ١٦٢
● أبي جهل يحرض على أذى كل من دخل في الإسلام سواء كان تاجراً أو ضعيفاً وكان بلال ممن يعذب في الله .. إلخ ١٦٢
● روي أن نوحاً عليه السلام بعث على رأس الأربعين ، ودعا قومه تسعمائة وخمسين عاماً ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة .. إلخ ١٦٤

الموضوع **الصفحة**

- عن عبيد بن خالـد رضي الله عنه أن النبي ﷺ آخـى بين رجلين فقتل أحدهما في سبيـل الله ثم مات الآخر بعده .. إلخ ١٦٤
- اعلم أن الله منّ على إبراهيم الخليل عليه السلام بهبة الولد الصالح ، ومنّ عليه بأن جعل في ذريته النبوة .. إلخ ١٦٦
- حكي أن بعض المتشيخين ادّعى الفضل ، بسبب أنه خـدم فلاناً أربعين سنة ، فقال واحد كان .. إلخ ١٦٨
- حكي أن رجلاً رأى خنفساء فقال ماذا يريد الله تعالى من خلق هذه فابتلاه الله بقرحة عجز عنها .. إلخ ١٦٩
- روي أن عمر رضي الله عنه أُتي بسارق فأمر بقطع يده ، فقال : لم تقطع يدي وكان جاهلاً بالأحكام .. إلخ ١٧٠
- روي أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول الله ﷺ ثم لا يدع شيئاً من الفواحش إلا ارتكبه .. إلخ ١٧٠
- حكي عن إبراهيم الخواص رحمه الله أنه أراد سفراً فأخذ ركوته فاتبعته فلما وافينا القادسية .. إلخ ١٧٥

« سورة الروم »

- قصة أبي بكر الصّديق مع أُبيّ بن خلف ، وما كان بينهما من الرهان ١٧٧
- من سوء التصرف أن يهيء الإنسان أمور شتائه في صيفه ، ويقصّر في إصلاح آخرته ١٧٨
- قال الحسن : لئن اجتمعوا في الدنيا ليتفرقن يوم القيامة ١٧٩
- لماذا خصص التسبيح في هذه الأوقات المذكورة ؟ ١٧٩
- معنى قوله تعالى ﴿ يخرجُ الحيَّ من الميت ويُخرج الميت من الحيِّ ﴾ ١٨١
- الآيات الآفاقية والأنفسية الدالة على وحدانية الله عز وجل ١٨٢
- اختلاف الصور والأشكال والألوان من دلائل القدرة الباهرة ١٨٢
- آداب النوم وما يقوله المسلم عند منامه وعند يقظته من النوم ١٨٣
- قصة ذي النون مع الفتى الذي رآه مستغرقاً في حب الله وجلاله ١٨٤
- حكاية عن العالم الذي سُئل ما الدليل على وجود الصانع الواحد ؟ قال : ثلاثة أشياء .. إلخ ١٨٧
- قال علي رضي الله عنه : المال حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة .. إلخ ١٨٨
- كان لقمان الحكيم إذا مرّ بالأغنياء يقول : يا أهل النعيم لا تنسوا النعيم الأكبر .. إلخ ١٨٨
- الطاعة كالشمس المنيرة تسري أنوارها في الآفاق ، وكذا النعمة تسري في الأقطار ١٨٩
- سأل بنو إسرائيل موسى : هل يصبغ ربك ؟ قال : يصبغ ألوان الثمار .. إلخ ١٩١
- قالت رابعة العدويـة : ما سمعتُ الأذان إلاّ ذكرت منادي يـوم القيامة ، وما رأيت الجـراد إلا ذكرتُ الحشر .. إلخ ١٩١
- قصة الشيخ الشبلي مع أصحابه لما كان جالساً يبكي تحت شجرة .. إلخ ١٩١
- قال علي : مات خُزّان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر .. إلخ ١٩٢

الموضوع — الصفحة

- رحم الله امرءاً كان قوياً فصرف قوته في طاعة الله ، أو كان ضعيفاً فكفَّ لضعفه عن معصية الله ١٩٣
- كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبرٍ يبكي حتى تبتلَّ لحيتُه ، فقيل له : تذكر النار ولا تبكي .. إلخ ١٩٣
- قصة الفتاة التي كانت تنوح على قبر والدها ، فقال لها الحسن : لا تقولي ذلك ولكنْ قولي .. إلخ ١٩٣
- احتضر عابد فقال : ما تأسفي على دار الأحزان والغموم ، وإنما تأسفي على ليلةٍ نمتُها .. إلخ ١٩٥
- لما مات أبو طالب بالغت قريش في الأذى لرسول الله ﷺ ، وقول الرسول « لا تبكي يابنية فإن الله مانعٌ أباك » ١٩٥

« سورة لقمان »

- الظفر قسمان : دنيوي ، وأخروي .. ولا عيش إلا عيش الآخرة ١٩٧
- قصة النضر بن الحارث واستهزاؤه بالإسلام ، وما نزل فيه ١٩٧
- الجنات عديدة ، جنة عدن ، ودار السلام ، وجنة النعيم .. إلخ ١٩٧
- المراد بلهو الحديث في الآية الكريمة الغناء والمزامير ، والأدلة على تحريمها ١٩٨
- حكم سماع الأشعار بالألحان والنَّغمات ١٩٩
- لقمان كان حكيماً ولم يكن نبياً ، ومما يؤثر من حكمه الشيء الكثير ٢٠٠
- كلام الغزالي حول الحكمة ، والحكم الشهيرة ٢٠١
- قال بعض العلماء : قوتُ الأجساد المشارب والمطاعم ، وقوت العقل الحكمة والعلم ٢٠١
- قصة الرجل الذي سأل عمر رضي الله عنه عن أمه العجوز الذي كان يطعمها ويوضئها ٢٠٣
- قصة المسافرين الذين نزلوا بريَّة فسمعوا نهيق حمار حتى أزعجهم ٢٠٣
- قال بعض الحكماء : إن افتخرتَ بثيابك فالجمال لها دونك ، وإن افتخرت بآبائك فالفضل فيهم ٢٠٥
- قصة بعض الملوك الذي أُهدي له قدح من فيروز مرصَّع بالجواهر ٢٠٥
- سأل الحجاج بعض جلسائه عن ألطف الأصوات عنده .. إلخ ٢٠٦
- نعم الله الظاهرة والباطنة كثيرة لا تكاد تحصى ٢٠٧
- الدنيا ساعة فاجعلها طاعة ، والله خلق الخلق ليربحوا عليه لا ليربح عليهم ٢٠٨
- قصة إسلام عكرمة بن أبي جهل ٢١١
- قصة ملك الموت الذي مرَّ على سليمان عليه السلام فجعل يطيل النظر إلى بعض الحاضرين ٢١٢
- خرج أبو هريرة يطوف في المدينة فوجد قبراً يُحفر ، فقال : لمن هذا ؟ قالوا : لرجل من الحبشة ٢١٢

« سورة السجدة »

- لا يُقال : الله خالق العقارب والأفاعي ، والقردة والخنازير ، بل يُقال : الله خالقُ كل شيء ٢١٥

الموضوع — الصفحة

● قصة أبي سليمان الداراني الذي نسى بعض أذكاره في إحدى الليالي ٢١٩
● قصة يحيى عليه السلام مع الشيطان وسؤاله : هل قدرت منّي على شيء .. إلخ ٢١٩

« سورة الأحزاب »

● من عادات الجاهلية اعتقادهم بأن العاقل اللبيب له قلبان في جوفه ٢٢٤
● أراد اليهود اللعناء قتل النبي عليه الصلاة والسلام بإلقاء صخرة عظيمة عليه وهو عندهم ٢٢٧
● قصة غزوة الأحزاب وما بعث الله على المشركين من الريح الشديدة .. إلخ ٢٢٨
● الهرب من المعركة لا يزيد في الآجال ، كما أن كثرة الجهد لا تزيد في الرزق ٢٣٠
● الرسول ﷺ هو الأسوة للمؤمنين في القول والعمل ، والسلم والحرب .. إلخ ٢٣٢
● لما رجع الرسول ﷺ من الخندق جاءه جبريل فقال : أوقد وضعتَ السلاح يامحمد .. ؟ ٢٣٤
● قصة علي رضي الله عنه مع يهود بني قريظة وما سمعه منهم من مقالة قبيحة في حق الرسول ٢٣٤
● قصة تخيير الرسول ﷺ لنسائه بين الدنيا وبين الآخرة وبدأه بعائشة .. إلخ ٢٣٥
● وجه تضعيف العذاب لأزواج النبي عليه السلام إذا حصل منهن ذنب ٢٣٦
● المتبرجات تبرج الجاهلية ، وما ورد في حديث الكاسيات العاريات ٢٣٧
● الآية الكريمة حجة واضحة على دخول زوجات الرسول في آل البيت خلافاً للرافضة ٢٣٧
● قصة الرجل الذي سبَّ وشتم الإمام زين العابدين وما قابله به من جميل اللفظ ٢٣٨
● قصة زيد بن حارثة مع زوجه زينب وطلبه من الرسول أن يأذن له بطلاقها ٢٣٩
● قول السيدة عائشة : لو كتم النبي ﷺ شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية ﴿ **وتُخفي في نفسك .. ﴾** ٢٣٩
● محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، وحين ينزل عيسى بن مريم لا يأتي بشرع جديد .. إلخ ٢٤١
● شبَّه الله نبينا ﷺ بالسراج المنير لوجوه : الأول أنه يستضاء به في ظلمات الجهل .. إلخ ٢٤٣
● قصة السلطان الغزنوي مع الشيخ الخرقاني وسؤاله عن أبي يزيد البسطامي ٢٤٤
● قصة الحجاج الذي سمع رجلاً يرفع صوته بالدعاء في طوافه ، وما كان من شأنه العجيب ٢٤٥
● الآية الكريمة تأديب للثقلاء ، وسئل الأعمش ما الذي أعمش عينيك ؟ قال : النظر إلى الثقلاء ٢٤٩
● كلام الإمام السيوطي عن الروح واتصالها بالبدن ، وفيه أمور نفيسة ٢٥٢
● قصة ابن السكيت مع المتوكل ، وما كان من سبب هلاكه بعثرة لسانه ٢٥٧
● ما هي الأمانة التي حملها الإنسان وعجزت السموات والأرض عن حملها .. ؟ ٢٥٨
● هل للجماد إحساس وشعور ؟ وكيف يكون تسبيح غير الإنسان من المخلوقات ؟ ٢٥٨

الموضوع	« سورة سبأ »	الصفحة

- بيان المواضع الستة التي يحمد فيها أهلُ الجنة ربَّهم سبحانه وتعالى ٢٦٠
- استهزاء كفار قريش بالنبي ﷺ ورميه بالكذب والجنون ٢٦٢
- وعيد الله لكفار قريش بأن يخسف بهم الأرض ، أو يُسقط السماء عليهم كِسَفاً كما أسقطها على أصحاب الأيكة ومعنى ذلك ٢٦٢
- تفسير قوله تعالى ﴿ **ولقد آتينا داود منّا فضلاً** ﴾ وبيان ما خص الله به نبيه داود من الفضل على سائر الأنبياء مطلقاً ٢٦٣
- استحباب تزيين الصوت عند قراءة القرآن ٢٦٣
- الدليل على تعلم أهل الفضل الصنائع وأن العمل بها لا ينقص بمرتبتهم ٢٦٣
- تسخير الله لسليمان عليه السلام الريح ٢٦٤
- حكاية سليمان مع الريح ٢٦٤
- حكاية الرجل السقّاء مع امرأة الصائغ ٢٦٤
- عمل الجن بين يدي سليمان حسب ما يريد ٢٦٤
- بيان أن حرمة التصاوير شرع جديد ، وأن اتخاذ الصور قبل هذه الأمة كان مباحاً وإنما حرم على هذه الأمة ٢٦٤
- موت سليمان عليه السلام ٢٦٥
- قصة قبيلة سبأ وما كانوا فيه من النعيم ٢٦٥
- قصة عبد الله بن المبارك عندما أراد أن يحج ٢٦٦
- إعراض أولاد سبأ عن أوامر الله وشكره فكان ذلك سبباً في إرسال الله عليهم السيل الشديد ٢٦٦
- بيان ما كان فيه أهل سبأ من النعم في سيرهم إلى القرى المجاورة لهم من الأمن والطمأنينة ٢٦٧
- كراهية أهل سبأ لطيب العيش والعافية والأمن فطلبوا الكد والتعب فأهلكهم الله بسبب ترك الشكر وشركهم بالله وتكذيبهم لأنبيائه ٢٦٨
- قوله ﴿ **حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم** ﴾ ٢٦٩
- موقف الظالمين يوم العرض الأكبر ، وما يكون بينهم من جدال ٢٧١
- قوله ﴿ **وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى** ﴾ ٢٧٢
- موعظة إبراهيم بن أدهم وبيان حال الدنيا والآخرة ٢٧٢
- حكاية السلطان مع وزيره المحسود ٢٧٣
- قوله ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه** ﴾ ٢٧٣
- قوله ﴿ **وما آتيناهم من كتب يدرسونها** ﴾ ٢٧٥
- قوله ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة** ﴾ ٢٧٥

الموضوع | الصفحة

- قوله ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ ٢٧٦
- حكاية إسلام النابغة ٢٧٦
- قوله ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت ﴾ ٢٧٧
- قوله ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ ٢٧٧

« سورة فاطر »

- حكاية ابن عباس في قوله ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ ٢٧٩
- قول أحد الكبار : الإلقاء إما صحيح أو فاسد ٢٧٩
- أقسام الملائكة وقوله ﴿ أولي أجنحة ﴾ ٢٧٩
- ذكر سبب زهد إبراهيم بن أدهم والشيخ الكرماني ٢٨٠
- قصة الشيخ أبي يعقوب البصري وطلبه للرزق ٢٨١
- رؤية العلاء بن زياد الدنيا في منامه وما كان منها ٢٨٢
- قوله ﴿ ولا يغرنكم بالله الغَرُور ﴾ ٢٨٢
- مثل الصالحين وما زينهم الله به وقوله ﴿ لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ ٢٨٣
- قوله ﴿ فلا تَذْهَبْ نفسك عليهم حسرات ﴾ ٢٨٣
- إرسال الله للرياح وإحياء الموات وقوله ﴿ فسقناه إلى بلدٍ ميتٍ ﴾ ٢٨٤
- بيان معنى الكلم الطيب ورفع العمل الصالح ٢٨٤
- بيان معنى المكر في قوله ﴿ والذين يمكرون السيئات ﴾ ٢٨٥
- قوله ﴿ وما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ﴾ ٢٨٥
- حكمة الله البالغة في خلق البحر المالح ٢٨٦
- قوله ﴿ ما يملكون من قِطمير ﴾ ٢٨٧
- قوله ﴿ وإن تدعُ مُثقلة إلى حملها ﴾ ٢٨٩
- تمثيل للمؤمن والكافر بالأعمى والبصير ٢٨٩
- قوله ﴿ وما أنت بمُسمعٍ من في القبور ﴾ ٢٩٠
- مسألة في قوله ﴿ وإن من أمةٍ إلا خلا فيها نذير ﴾ وقوله ﴿ لتنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم ﴾ ٢٩١
- بديع خلق الله في الجبال والثمار ٢٩٢
- قوله ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ ٢٩٣
- كلام جعفر الصادق في أقسام الذين أورثوا الكتاب ٢٩٤
- ذكر مآل المؤمنين وأنواع الكرامات التي اتحفهم الله بها ٢٩٤

الموضوع — الصفحة

- قوله ﴿ ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ ٢٩٥
- ذكر مآل الكافرين ومقالهم ٢٩٦
- بيان قوله ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ وكلام الغزالي ٢٩٧
- بيان قوله ﴿ لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ ٢٩٨
- الكلام على معنى المكر وأقسامه ٢٩٨
- ذكر رحمة الله وسعة حلمه ٢٩٩
- بيان قوله ﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ ٢٩٩

« سورة يس »

- بيان قوله تعالى ﴿ يس ﴾ وأقوال العلماء في معنى الأحرف المقطعة ٣٠٠
- تفسير قوله تعالى ﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾ وبيان أقوال العلماء ٣٠١
- تمثيل لحال الكفار عند إعراضهم بمن وضع في عنقه أغلال ٣٠١
- أقسام موانع النظر في الآيات والدلائل ٣٠١
- حكاية عمر بن عبد العزيز مع غيلان القَدَرِي وأمره بقراءة سورة يس إلى قوله ﴿ لا يؤمنون ﴾ ٣٠٢
- تفسير قوله ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ ومعنى ﴿ وآثارهم ﴾ ٣٠٣
- بيان العلماء لحكم صلاة الجماعة ٣٠٣
- تفسير قوله ﴿ في إمام مبين ﴾ ٣٠٤
- أمر الله تعالى رسول الله ﷺ بإنذار مشركي مكة بتذكيرهم قصة « أصحاب القرية » ٣٠٤
- بيان صفة إهلاك القرية ٣٠٧
- الحكمة في قوله ﴿ ياحسرة على العباد ﴾وبلاغتها ٣٠٨
- معنى قوله ﴿ أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ وحكاية ابن عباس مع من قالوا بعودة عليّ رضي الله عنه ٣٠٨
- بيان حكمة إكرام الخبز وعدد الصانعين فيه ٣٠٩
- حكمة ذكر النخيل دون التمر ٣٠٩
- رحمة الله تعالى في تفجير العيون وبيان أنواعها وفوائدها ٣١٠
- بيان معنى قوله ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها ﴾ ٣١٠
- أصناف خلق الله تعالى في البر والبحر وقوله ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ ٣١١
- نكتة لطيفة في قوله ﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ ٣١١
- تفسير قوله ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ وكلام العلماء في مستقر الشمس ٣١١
- الكلام على تقدير الله وقوله ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ٣١٢

الموضوع — الصفحة

- ذكر منازل القمر ومعنى قوله ﴿ كالعرجون القديم ﴾ ٣١٣
- حكمة الله البالغة في خلق الشمس والقمر وعدم إدراك الشمس للقمر ٣١٣
- أقوال العلماء في قوله ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ ٣١٤
- الرد على الطبائعيين في قوله ﴿ ولا هم ينقذون إلا رحمة منا ﴾ ٣١٤
- بيان قوله ﴿ وما تأتيهم من آية ﴾ وحكاية أبي حنيفة مع الأعمش ٣١٥
- جملة التكاليف ترجع إلى أمرين ، وبيان مقولة البخلاء دفاعاً عن بخلهم ٣١٦
- بيان مجيء الساعة بغتة والناس منشغلون مختصمون ٣١٦
- الكلام عن الموت وما يُسن قبله وبعده ٣١٧
- بيان قوله ﴿ فإذا هم من الأحداث إلى ربهم ينسلون ﴾ وذكر لطيفة ٣١٧
- ذكر نكتة في قوله ﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ وقوله ﴿ ينسلون ﴾ ٣١٧
- بيان ما أعد الله للمؤمنين في دار كرامته وقوله ﴿ في شغل فاكهون ﴾ ٣١٨
- نكتة نفيسة في قوله ﴿ في ظلال على الأرائك متكئون ﴾ ٣١٩
- لطيفة في قول بعضهم : جعل الله سبعة أشياء ثواباً لسبعة أعضاء ٣٢٠
- بيان امتياز المؤمن عن الكافر ٣٢٠
- معنى عبادة الشيطان في قوله ﴿ أن لا تعبدوا الشيطان ﴾ ٣٢١
- بيان معنى الختم وشهادة الأعضاء ٣٢٢
- وعيد الله للكفار بالمسخ والطمس ٣٢٢
- بيان قوله ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ ٣٢٣
- بيان رحمة الله في قوله ﴿ وذللناها لهم ﴾ ٣٢٥
- حكاية جماعة الكفار من قريش ومحاجتهم للنبي ﷺ في أمر البعث ٣٢٦
- بيان قدرة الله عز وجل في إحياء الموتى ٣٢٨
- من أدلة إحياء الموتى والبعث خروج النار من الشجر الأخضر ٣٢٨
- قوله ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ والفرق بين الملك والملكوت ٣٢٩

« سورة الصافات »

- معنى قوله ﴿ والصافات صفاً .. ﴾ ٣٣١
- كلام الغزالي في قوله ﴿ إن إلهكم لواحد ﴾ ٣٣١
- بيان قوله ﴿ لا يسَّمَّعون إلى الملأ الأعلى ﴾ ٣٣٢
- كلام حسن نفيس في قوله ﴿ فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ ٣٣٣

الموضوع — الصفحة

- معنى قوله ﴿ من طين لازب ﴾ ٣٣٤
- بيان قوله ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ ٣٣٤
- معنى ﴿ أزواجهم ﴾ في قوله ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ وكلام العلماء ٣٣٥
- حكاية جبريل حين أتى فرعون في صورة بشر ٣٣٦
- معنى اليمين في قوله ﴿ كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ ٣٣٦
- فائدة في قوله ﴿ وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ ٣٣٧
- سعة فضل الله الكريم بالمؤمنين في الجنة ٣٣٨
- بيان الاختلاف بين خمر الدنيا وخمر الجنة ٣٣٩
- قصة المؤمن والكافر ومآل كل منها ٣٤٠
- بيان أدنى وأعلى أهل الجنة منزلاً ٣٤١
- فائدة نفيسة في قوله ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ ٣٤١
- مآل المجرمين وما أعد لهم في جهنم ٣٤٢
- ذكر قصة سيدنا نوح عليه السلام ٣٤٣
- معنى قوله ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ ٣٤٣
- ذكر قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ٣٤٣
- مسألة في التعريض والكذب وقوله ﴿ إني سقيم ﴾ ٣٤٤
- الكلام على قوله ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ ٣٤٥
- بشارة الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بالغلام الحليم ، وما كان من شأنها ٣٤٥
- الكلام عن حكمة ذبح إبراهيم إسماعيل ٣٤٧
- بيان أن الظالم لا يعود على الصالح بعيب ولو كان ذا رحم وقوله ﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم ﴾ ٣٤٨
- ذكر قصة موسى وهارون عليهما السلام ٣٤٨
- قصة إلياس عليه السلام ٣٤٩
- قصة لوط عليه السلام ٣٥٠
- قصة يونس عليه السلام ٣٥١
- قوله ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ ٣٥٢
- قوله ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ﴾ ٣٥٢
- قوله ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ ٣٥٤
- قوله ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ٣٥٥
- كلام العلماء في قوله ﴿ وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين ﴾ ٣٥٦

الموضوع « سورة ص » الصفحة

- بيان قوله ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ ٣٥٨
- بيان قوله ﴿ ولات حين مناص ﴾ ٣٥٨
- بيان قوله ﴿ إن هذا الشيءٌ يراد ﴾ ٣٥٩
- معاندة الكفار للرسول ﷺ كانت بسبب الحسد ٣٥٩
- معنى قوله ﴿ وفرعون ذو الأوتاد ﴾ ٣٦٠
- معنى قوله ﴿ مالها من فواق ﴾ ٣٦١
- معنى قوله ﴿ وقالوا ربنا عجّلْ لنا قِطّنَا ﴾ وقول سهل التستري ٣٦١
- وبيان قوله ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ ٣٦١
- بيان معجزة سيدنا داود في سماعه تسبيح الكائنات ٣٦٢
- الكلام على صلاة الضحى ٣٦٢
- نبأ الخصمين الذين احتكما إلى داود عليه السلام وما كان من شأنها ٣٦٣
- بيان ما ينبغي أن يكون عليه الوعاظ تجاه الأنبياء وما دُسَّ عليهم ٣٦٤
- ذكر ما يجب على الإمام أو الحاكم أو القاضي ٣٦٤
- سعة رحمة الله في التمييز بين المؤمنين والكافرين في الآخرة ٣٦٥
- كلام الحسن البصري عن حفظ القرآن والعمل به ٣٦٥
- ذكر قصة سليمان عليه السلام ٣٦٦
- بيان أنعم الله على سليمان عليه السلام ٣٦٧
- ذكر قصة أيوب عليه السلام ٣٦٧
- بيان قوله ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحٰق ويعقوب ﴾ ٣٦٨
- ذكر ألوان النعيم التي أعدها الله للمتقين ٣٦٩
- ذكر حال أهل النار وما يدور بينهم من تلاعن وحوار ٣٧٠
- بيان قوله ﴿ ما كان ليَ من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ﴾ ٣٧١
- كلام الإمام الغزالي عن أقسام الروح ٣٧٢
- استكبار إبليس عليه لعنات الله عن السجود لآدم ، والكلام في ذلك ٣٧٣
- كلام أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في بث إبليس جنوده وأكثرهم حظوة عنده ٣٧٤

« سورة الزمر »

- قال الإمام الغزالي رحمه الله : الغفار هو الذي أظهر الجميل ، وستر القبيح ، وأول ستره .. إلخ ٣٧٦
- قال أبو سعيد الخراز : العبودية ثلاثة : الوفاء لله على الحقيقة ، ومتابعة الرسول .. إلخ ٣٧٧

الموضوع — الصفحة

- المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء ثم الرجاء إذا جاوز حده يكون أمناً ، والخوف .. إلخ ٣٨٠
- سمى النار ظلة لغلظها وكثافتها ، ولأنها تمنع من النظر إلى ما فوقهم .. إلخ ٣٨٢
- أحسن كل قول ما كان من الله أو لله أو يهدي إلى الله ، ومن جزى بالسيئة السيئة فهو .. إلخ ٣٨٣
- عن مالك بن دينار « ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلبه ، وما غضب الله على قوم .. إلخ ٣٨٥
- قال بعضهم : اعمل لدنياك بقدر مُقامك فيها ، واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها .. إلخ ٣٨٧
- لا تزال الخصومة بين الناس حتى تخاصم الروح الجسد فضرب لهما مثل الأعمى والمقعد .. إلخ ٣٨٨
- قال السيد جعفر الصادق رضي الله عنه : ما رأيت أحسن من تواضع الأغنياء للفقراء وأحسن .. إلخ ٣٨٩
- قال ابن عباس رضي الله عنه : إذا كان يوم القيامة ، بدّل الله الأرض غير الأرض وزاد في عرضها .. إلخ ٤٠٣
- قال الشيخ عز الدين : الملك لا سبيل له إلى معرفة باطن العبد في قول أكثرهم .. إلخ ٤٠٣

« سورة غافر »

- قال الراغب : المغفرة من الله أن يصون العبد عن أن يمسه العذاب ، والاستغفار طلب ذلك ٤١٢
- قال لقمان رحمه الله : « يابنيّ لا تكن الذرّة أيسر منك تجمع في صيفها لشتائها .. إلخ ٤١٤
- الخوارج : خرجوا عن طاعة علي رضي الله عنه عند التحكيم بينه وبين معاوية وقالوا إن الحكم إلا لله .. إلخ ٤١٥
- سمي يوم القيامة (يوم التلاق) لأنه تتلاقى فيه الأرواح والأجساد ، والأولون والآخرون .. إلخ ٤١٧
- القوي : هو الذي لا يلحقه ضعف في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ولا يدركه قصور .. إلخ ٤٢٠
- حكي أن شاباً كان يأمر وينهي فحبسه الحاكم في بيت وسد المنافذ ليهلك فيه .. إلخ ٤٢١
- سئل أبو حنيفة رضي الله عنه أي ذنب أخوف على سلب الإيمان ؟ قال : ترك الشكر وترك خوف الخاتمة .. إلخ ٤٢٢
- سئل أبو الفضل بن الجوهري أن يتكلم في شيء عن فضائل الصحابة فقال : ماذا ترون من قوم خصمهم الله .. إلخ ٤٢٤
- قال إبراهيم الخواص دواء القلب خمسة : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل .. إلخ ٤٢٦
- عذاب القبر هو عذاب البرزخ لأنه الغالب ، وإلا فكل ميت أراد الله تعذيبه ناله ما أراد به ٤٣٠
- روي أن أهل النار يبكون بكاءً شديداً حتى الدم ، فيقول مالك : ما أحسن هذا البكاء لو كان .. إلخ ٤٣٢
- الفرق بن الهدى والذكرى أن الهدى ما يكون دليلاً على شيء آخر . أما الذكرى فالتذكر .. إلخ ٤٣٢
- روي أن الصراط سبع قناطر فيسأل العبد عند القنطرة الأولى عن الإيمان .. إلخ ٤٣٤
- قال مالك بن دينار : صليت على جنازة فنمت فرأيت ملكين نزلا من السماء وقال اكتب من أهل النار .. إلخ ٤٣٥
- حكي أنه توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه أهل البصرة فقال الحسن للفرزدق .. إلخ ٤٣٩

الموضوع **الصفحة**

- عن بعض الحكماء : افتخر الكلأ في المفازة على الشجر فقال أنا خير منه يرعاني البهائم .. إلخ ٤٤٠
- قال حجة الإسلام : العجب منك أنك تدخل بيت غني فتراه مزيناً بأنواع التزيين .. إلخ ٤٤٣
- قال في الروضة : (صلى الحجاج في جنب ابن المسيب فرآه يرفع قبل الإمام ويضع رأسه .. إلخ ٤٤٤
- أصل البأس : الشدة والمضرة ، وحال البأس هو وقت معاينة العذاب .. إلخ ٤٤٤
- قال العلماء : الرغبة في الإيمان والطاعة لا تنفع إلا إذا كانت تلك الرغبة فيه لكونه .. إلخ ٤٤٥

« سورة فُصِّلت »

- معنى التنزيل في قوله ﴿ **تنزيل من الرحمن الرحيم** ﴾ ٤٤٦
- مسألة وجود كلمات أعجمية في القرآن وبيان قوله ﴿ **قرآناً عربياً** ﴾ ٤٤٦
- بيان أن القلب والسمع من منافذ المعرفة وقوله ﴿ **وقالوا قلوبنا في أكنة** ﴾ الآية ٤٤٧
- مسألة : هل الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ؟ ٤٤٨
- بيان معنى ممنون وقوله ﴿ **لهم أجر غير ممنون** ﴾ ٤٤٨
- مدة خلق السموات والأرض وحكمة ذلك ٤٤٩
- معنى قوله ﴿ **وتجعلون له أنداداً** ﴾ وأمر الله الرسول أن ينكر على الكفار أمرين ٤٤٩
- بيان قوله ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهي دخان** ﴾ ٤٥٠
- طاعة السموات والأرض لأمر الله وقوله ﴿ **قالتا أتينا طائعين** ﴾ ٤٥٠
- بيان وظيفة النجوم وقوله ﴿ **وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً** ﴾ ٤٥١
- كلام الشيخ النيسابوري عن خلق السموات والأرض ٤٥٢
- تهديد الله للكفار إن أعرضوا وقوله ﴿ **فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة ..** ﴾ وقصة عتبة بن ربيعة ٤٥٣
- ذكر قصة عاد وثمود وما كان من تكذيبهم ومآل أمرهم ٤٥٤
- معنى قوله ﴿ **في أيام نحسات** ﴾ ٤٥٤
- معنى الهداية في قوله ﴿ **فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾ ٤٥٦
- الإيمان والتقوى من أسباب النجاة ، وقوله ﴿ **ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ ٤٥٦
- ذكر حال أعداء الله يوم القيامة وشهادة أعضائهم عليهم ٤٥٦
- الكلام عن الظن وقوله ﴿ **وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ..** ﴾ ٤٥٩
- بيان قوله ﴿ **وقيضنا لهم قرناء ..** ﴾ وذكر القرناء وتزيينهم ٤٥٩
- بيان كيد الكفار في صدهم عن القرآن عن طريق التشويش والتصفيق . وقوله ﴿ **وَالْغَوْا فِيهِ** ﴾ ٤٦٠
- بيان حال ومآل المؤمنين المستقيمين وتنزل الملائكة بالرحمات عليهم وبشارتهم بالجنة ٤٦١
- بيان قوله ﴿ **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله** ﴾ وما قيل أنها في الأذان ٤٦٢

الموضوع — الصفحة

- بيان قوله ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ ٤٦٣
- بيان قوله ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ﴾ ٤٦٤
- معنى قوله ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ﴾ وذكر لطيفة في عدم جعل الشمس قبلة في الصلاة ٤٦٥
- بيان قوله ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ وحفظه عن إتيان الباطل إليه ٤٦٦
- بيان قوله ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته .. ﴾ ٤٦٧
- بيان أن القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين وعمىً وصمم على الكافرين ٤٦٧
- بيان سعة علم الله جل وعلا وقوله ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ ٤٦٩
- تبرؤ الشركاء ممن أشركوا بهم ، وبيان ضلال المشركين وقوله ﴿ ويوم يناديهم أين شركائي ﴾ ٤٦٩
- بيان طبع الإنسان في الرخاء والشدة وقوله ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير .. ﴾ ٤٧٠
- بديع صنع الله في خلقه وقوله ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ ٤٧١

« سورة الشورى »

- بيان أن دعوة التوحيد واحدة عند كل الرسل ، وقوله ﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك ﴾ ٤٧٣
- بلاغة قوله ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ﴾ ٤٧٣
- مسألة لطيفة في قوله ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ وفي الأرض كفار ٤٧٤
- بيان قوله ﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ ٤٧٤
- بيان قوله ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ ٤٧٥
- ومعنى قوله ﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء ﴾ ٤٧٦
- وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة في جميع الأمور ومنها الخلافية . وقوله ﴿ وما اختلفتم فيه من شيءٍ فحكمه إلى الله ﴾ ٤٧٦
- كلام نفيس في قوله ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ٤٧٧
- بيان قوله ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ووجوب لزوم الجماعة ٤٧٨
- الكلام على الإنابة وطريقها وقوله ﴿ ويهدي إليه من ينيب ﴾ ٤٧٩
- رؤى ابن المبارك في المنام ، فقيل له : ما فعل ربك بك ... إلخ ٤٨٠
- آفة الدين اتباع الهوى . وقوله ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ ٤٨٠
- بيان قوله ﴿ والذين يحاجُّون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة ﴾ ٤٨١
- في قوله ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ دعوة إلى الانتباه والاستعداد لذلك اليوم ٤٨٢
- بيان المفارقة بين حال الأبرار والفجار في تذكر يوم القيامة ، فالأبرار مشفقون والفجار مستعجلون استهزاءً ٤٨٢
- الدنيا مزرعة الآخرة وقوله ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نَزِدْ لَهُ في حرثه ﴾ ٤٨٣

الموضوع **الصفحة**

- حكاية الرجل الذي أمر عبده أن يزرع حنطة فزرع شعيراً .. إلخ ٤٨٣
- بيان قوله ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ ٤٨٤
- تغير الأحوال في الآخرة وقوله ﴿ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا ﴾ ٤٨٤
- بيان قوله ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ ٤٨٥
- بيان صدق الرسول في نبوته وقوله ﴿ أم يقولون افترى على كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾ ٤٨٦
- قبول الله تعالى لتوبة التائب مسلم كان أم كافر . وقوله ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ ٤٨٦
- بيان قوله ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ ٤٨٧
- بيان قوله ﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ﴾ ٤٨٧
- تذكرة حسنة في قوله ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ ٤٨٨
- بيان قوله ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ﴾ وبيان سعة عفو الله وكرمه ٤٨٩
- ذكر صفات المؤمنين كالتوكل واجتناب الفواحش .. إلخ ٤٩٠
- كلام حسن مفيد في قوله ﴿ وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها ﴾ ٤٩٢
- حكاية الرجل الذي كان يسب آخر في مجلس الحسن وما كان منهما .. إلخ ٤٩٣
- بيان حال الظالمين حين معاينتهم للعذاب ٤٩٣
- ذكر حال الإنسان في الرخاء والشدة وقوله ﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها .. ﴾ ٤٩٤
- تعدد واختلاف الناس في أمر الإنجاب حتى العقم من هبات الله عز وجل ومشيئته ٤٩٥
- ذكر صور الوحي وأنواعه وبيان أن القرآن روح من أمر الله تعالى ٤٩٥

ثانياً : فهرس أطراف الحديث

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
	« سورة الحج »	
٥	« يقول الله لآدم يوم القيامة ياآدم : أخرج بعث النار .. »	الترمذي
٦	« إن أحدكم يُجمع خلْقُه في بطن أمه أربعين يوماً ثم تكون علقة .. »	الشيخان وأبو داود والترمذي
٨	« إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين .. »	مسلم
٩	« جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين ، وإن بعضهم ليستتر ببعض من العُري .. »	أبو داود وأحمد والترمذي
١٠	« لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها منها .. »	أبو داود
١١	« أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت .. »	الشيخان
١٢	« من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة .. »	الشيخان
١٤	« هل تدري ما حق الله على العباد ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال .. »	الشيخان والترمذي وأحمد
١٨	« إن من أشراط الساعة إماتة الصلوات واتباع الشهوات .. »	هذا الأثر عن ابن عباس
٢٠	« قلت يارسول الله : أيُّ الأنبياء كان أول ؟ قال : آدم قلت .. »	أحمد في المسند
٢٢	« من خرج حاجاً فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة .. ومن خرج .. »	الطبراني في الأوسط
٢٦	« جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم »	
٢٦	« رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »	
٢٦	« إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم ، فإذا أتي أحدكم الغائط .. »	أحمد والنسائي وأبو داود وابن ماجه
	« سورة المؤمنون »	
٢٨	« لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه .. »	رواه الحكيم
٢٨	« إذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده .. »	الترمذي وأحمد
٣٠	« يابلال بم سبقتني إلى الجنة ، فما وطأت فيها موضعاً إلا سمعت خشخشتك .. »	الترمذي
٣٤	« صلى رسول الله ﷺ الصبح بمكة فقرأ سورة المؤمنين فلما .. »	

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣٨	« عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل .. »	البخاري وأبو داود
٤٢	« أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه ، وعقابه ، ومن شر عباده .. »	
٤٢	« صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر .. »	مسلم
٤٤	« تشويه النار فتقلّص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه .. »	أحمد والترمذي
٤٦	« كان عليه الصلاة والسلام إذا نزل عليه الوحي يسمع عنده دويّ كدويّ النحل .. »	الترمذي والنسائي وأحمد
	« سورة النور »	
٤٨	« إقامة حد بأرض خيرٌ لأهلها من مطر أربعين ليلة .. »	النسائي وابن ماجه وأحمد
٤٨	« أوله سفاح وآخره نكاح ، والحرام لا يحرم الحلال .. »	الطبراني والدارقطني وابن أبي حاتم
٤٩	« يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن قلبه ، لا تتبعوا عورات المسلمين .. »	أبو داود وأحمد
٤٩	« من ستر على مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة .. »	أحمد وابن ماجه
٥٢	« كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيهن خرجت قرعتها استصحبها .. »	الشيخان
٥٢	« من سن سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة .. »	مسلم والترمذي والنسائي وأحمد
٥٤	« بينما رسول الله ﷺ جالس إذ ضحك حتى بدت نواجذه .. »	الحاكم
٥٦	« جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله إني أكون في بيتي .. »	ابن أبي حاتم
٥٦	« لما خلق الله تعالى آدم ونفخ الروح عطس ، فقال : الحمد لله .. »	الترمذي والحاكم
٥٦	« حق المسلم على المسلم ست : يسلم عليه إذا لقيه .. »	الشيخان
٥٧	« اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة ، اصدقوا إذا حدثتم .. »	أحمد والحاكم وابن حبان
٥٨	« النظرة سهم من سهام إبليس مسموم ، من تركه أبدلته إيماناً يجد حلاوته .. »	الطبراني
٦٠	« لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي ، وكلكم عبيد الله ، وكل نسائكم إماء الله .. »	الشيخان وأبو داود
٦٠	« من أحب فطرتي فليستن بسنتي ومن سنتي النكاح .. »	البيهقي في السنن
٦٠	« يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر .. »	الشيخان
٦٠	« ثلاثة حق على الله عونهم المكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح .. »	الترمذي والنسائي
٦٢	« إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره .. »	الترمذي

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٦٥	« يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر بيدي الأمر .. »	الشيخان وأبو داود ومالك
٧٠	« إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه .. »	أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه
	« سورة الفرقان »	
٧٥	« إن ربي عرض على أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يارب .. »	
٧٥	« لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها شربة ماء .. »	الترمذي
٧٨	« دعوة المظلوم ترفع فوق الغمام .. »	
٧٩	« إنه يهون يوم القيامة على المؤمن ، حتى يكون أخف عليه من صلاة .. »	أحمد
٧٩	« حديث عقبة بن أبي حين صنع طعاماً لرسول الله ﷺ فأبى أن يأكل .. »	
٨٠	« المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل .. »	أبو داود والترمذي
٨٠	« لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي .. »	أبو داود والترمذي وأحمد وابن ماجه والحاكم
٨٠	« إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد ، قيل وما جلاؤها ؟ .. »	الحكيم الترمذي وابن عدي
٨١	« يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف : صنف على الدواب .. »	الترمذي
٨٥	« إذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عقد : .. »	الشيخان وأبو داود والنسائي
٨٥	« اللهم اجعلها لنا رياحاً ولا تجعلها ريحاً .. »	
٨٥	« التراب طهور المؤمن .. »	أبو داود والترمذي والنسائي
٨٥	« لا صلاة إلا بطهور .. »	أبو داود والنسائي
٨٦	« صلى النبي ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماء كانت من الليل .. »	الشيخان وأبو داود والنسائي والموطأ
٨٦	« جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم .. »	أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم
٨٦	« أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر .. »	ابن ماجه

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٨٨	« من قال كل يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة غفرت ذنونه .. »	الترمذي
٩١	« إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى منادٍ أين أهل الفضل .. »	
٩١	« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد .. »	مسلم وأبو داود والنسائي
٩١	« من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف ليلة ، ومن صلى الفجر .. »	مسلم وأبو داود
٩٢	« عليك بكثرة السجود لله ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها .. »	مسلم والترمذي والنسائي
٩٤	« سألت رسول الله ﷺ أيُّ الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك .. »	الشيخان وأبو داود
٩٤	« يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه .. »	مسلم وأحمد
٩٦	« إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع .. »	أحمد وأبو داود
	« سورة الشعراء »	
١١٥	« أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل .. »	مسلم وأصحاب السنن
١١٦	« اهجهم فو الذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل .. »	
	« سورة النمل »	
١٢١	« أنا سيد ولد آدم ولا فخر .. »	
١٢٨	« كم من أشعث أغبر ذي طمرين ، لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره .. »	البزار
١٣٤	« إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة .. في الخبر .. »	
١٣٤	« لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً ، فإني أريد أن أخرج .. »	الترمذي وأبو داود وأحمد
١٣٥	« هذا كتاب كتب الله فيه أهل الجنة بأسمائهم وأنسابهم .. »	الترمذي وأحمد
١٣٧	« إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس .. »	جزء من حديث ورد في الصحيحين
	« سورة القصص »	
١٤٩	« إن هذه مشية يبغضها الله إلا في هذا المكان .. »	
١٥١	« ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجلٌ كانت له جارية فعلمها فأحسن تعليمها .. »	الشيخان وأحمد والترمذي والنسائي

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
١٥٣	« من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا .. »	الترمذي
١٥٤	« يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ صبغة ثم يقال .. »	رواه مسلم
١٥٦	« يمكث أربعين يوماً في الأرض ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، .. »	مسلم
	« سورة العنكبوت »	
١٦٠	« كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين .. »	الإمام البخاري
١٦١	« ياابن آدم مرضت فلم تعدني ، قال يارب : كيف أعودك .. »	الإمام مسلم
١٦٣	« من سن في الإسلام سُنّةً فله أجرها وأجرُ من عمل بها من بعده .. »	الإمام مسلم
١٧٠	« يقول الله تعالى في الحديث القدسي : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني .. »	الشيخان والترمذي
١٧١	« لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وبكتبه وبرسله .. »	
١٧١	« القلب الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب .. »	الترمذي وأحمد
١٧٢	« تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفس محمد بيده لهو أشدُّ تفلتاً من الإبل .. »	الشيخان
١٧٢	« عرضت عليّ ذنوب أمتي ، فلم أر ذنباً أكبر من آية أو سورة من القرآن .. »	أبو داود والترمذي
١٧٦	« من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم .. »	
١٧٦	« من أخلص لله أربعين صباحاً انفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .. »	أبو نعيم
	« سورة الروم »	
١٨٠	« من قال حين يصبح وحين يمسي : سبحان الله وبحمده مائة مرة ، غفرت ذنوبه .. »	مسلم
١٨٠	« كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن .. »	الشيخان والترمذي
١٨٣	« بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم .. »	أبو داود والترمذي
١٨٣	« باسمك ربي وضعتُ جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها .. »	الشيخان
١٨٣	« الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور .. »	البخاري والترمذي
١٨٦	« كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين وأمروهم أن يشركوا .. »	مسلم
١٨٦	« ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه ، أو ينصرانه .. »	الشيخان والطبراني
١٩٠	« ما من أحدٍ ينصر مسلماً في موطن يُنتقص فيه من عرضه .. »	أحمد وأبو داود

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
١٩٣	« من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة .. »	أبو داود والترمذي
١٩٣	« إن القبر أول منزل من منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه .. »	الترمذي
	« سورة لقمان »	
١٩٦	« حصّنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، وأعدوا للبلاء الدعاء .. »	الطبراني وأبو نعيم
١٩٨	« لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ، ولا خير في تجارةٍ فيهن .. »	الطبراني والبيهقي
٢٠١	« من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .. »	أحمد وأبو نعيم
٢٠٢	« قال رجل : يارسول الله من أبرُّ ؟ قال : أمك ، ثم أمك .. »	أصحاب السنن
٢٠٢	« لا يشكرِ اللهَ من لا يشكرِ الناسَ .. »	أحمد وأبو داود
٢٠٥	« بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسُه ، إذ خسفَ الله به الأرض .. »	أحمد والشيخان
٢٠٦	« إذا سمعتم نهاق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان .. »	الشيخان والترمذي
٢١٢	« قال رجل : يارسول الله متى الساعة ؟ قال : وماذا أعددت لها .. »	الشيخان وأحمد
٢١٢	« الكيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجزُ من أتبع نفسه هواها . »	أحمد والترمذي
٢١٣	« من أتى كاهناً فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ .. »	أحمد والحاكم
	« سورة السجدة »	
٢١٧	« تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرتُ بالمتكبرين والمتجبرين .. »	الشيخان والترمذي
٢١٨	« عجب ربنا من رجلين : رجلٍ ثار عن فراشه ووطائه من بين أحبَّته .. »	أبو داود
٢١٨	« إن في الجنة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها .. »	الترمذي وأحمد
٢١٩	« إذا جمع الله الأولين والآخرين نادى منادٍ سيعلم أهلُ الجمع .. »	البيهقي في شعب الإيمان
٢١٩	« أعددتُ لعبادي الصالحين مالا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعت .. »	الشيخان والترمذي
	« سورة الأحزاب »	
٢٢٥	« من ادَّعى إلى غير أبيه .. فالجنة عليه حرام .. »	الشيخان
٢٢٦	« مثلي ومثلكم كمثل رجلٍ أوقد ناراً ، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها .. »	مسلم
٢٢٦	« لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده .. »	الشيخان
٢٢٧	« أنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد .. »	الترمذي في السنن
٢٢٧	« نُصِرتُ بالصبا وأُهلكت عادٌ بالدَّبور .. »	البخاري

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٢٣٧	« صنفان من أهل النار لم أرهما : قومٌ معهم سياط ، ونساءٌ كاسيات عاريات .. »	مسلم
٢٣٨	« من استيقظ من منامه وأيقظ امرأته فصلّيا جميعاً .. »	أبو داود والنسائي
٢٤٢	« من صلّى الفجر في جماعة ثم قعد يذكرُ اللهَ تعالى .. »	الترمذي
٢٤٢	« يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار .. »	الشيخان والنسائي
٢٤٥	« رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر .. »	الشيخان
٢٤٩	« إن من إجلال الله تعالى إكرامَ ذي الشيبة المسلم .. »	أبو داود
٢٥٠	« إياك والخلوة بالنساء ، والذي نفسي بيده ما خلا رجل بامرأة .. »	الطبراني
٢٥٢	« ما من أحدٍ يُسلِّم عليَّ إلاّ ردَّ اللهُ عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام .. »	أبو داود
٢٥٤	« من عادىٰ لي ولياً فقد آذنتُه بالحرب .. »	البخاري
٢٥٤	« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .. »	الشيخان والترمذي
٢٥٦	« قسم النبي ﷺ قسماً فقال رجلٌ : إن هذه القسمة ما أُريد بها وجه الله .. »	الشيخان
٢٥٧	« كان موسى يغتسل وحده ، فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر .. »	البخاري وأحمد
	« سورة سبأ »	
٢٦١	« لقد رأيت بضعاً وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أولاً »	البخاري
٢٦٣	« إن خير ما أكل المرء من عمل يده . »	البخاري
٢٦٤	« من صور صورة فإن الله معذبه . »	أحمد وأبو داود والترمذي
٢٦٥	« إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب أو صورة . »	ابن ماجه وأحمد والترمذي
٢٧٠	« فضلت على الأنبياء بستٍ ... »	مسلم والبخاري والترمذي والنسائي
٢٧٢	« دخل عمر على رسول الله ﷺ .. أثر في جنبه الحصير ... »	أحمد والحاكم
٢٧٣	« الخلق كلهم عيال الله ... »	أبو يعلي والطبراني والبزار
	« سورة فاطر »	
٢٧٩	« لله أشد أذَناً للرجل الحسن الصوت ... »	ابن ماجه والحاكم والبيهقي
٢٧٩	« زينوا القرآن بأصواتكم »	أبو داود والنسائي

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٢٨٠	« كان ﷺ يقول في دبر كل صلاة : لا إله إلا الله ... »	أحمد
٢٨٢	« الدنيا دار من لا دار له ... »	أحمد والبيهقي
٢٨٤	« أما مررت بوادٍ مُمْحِلاً ... »	أحمد والبيهقي وابن أبي حاتم
٢٨٩	« بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة »	مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه
٢٩٢	« أما والله إني لأخشاكم لله ... »	الشيخان
٢٩٤	« سابقنا سابق ومقتصدنا ناجٍ ... »	العقيلي وابن مردويه والبيهقي
٢٩٥	« ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ... »	الطبراني وابن أبي حاتم
٢٩٦	« أعذر الله إلى امرئٍ ... »	البخاري
٢٩٦	« أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين ... »	ابن ماجه والترمذي
	« سورة يس »	
٣٠٣	« لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد »	الدارقطني في سننه
٣٠٣	« صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته ... »	الشيخان وأبو داود والترمذي
٣٠٣	« لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ... »	مسلم
٣٠٣	« بشر المشائين في الظلم إلى المساجد ... »	أبو داود والترمذي
٣٠٨	« إن المستهزئين بالناس ... »	البيهقي مرسلاً
٣١٢	« يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه الشمس ... »	البخاري ومسلم والترمذي
٣١٦	« لتقومن الساعة والرجلان يتبايعان ... »	البخاري
٣١٨	« إن الرجل ليعطي قوة مائة رجل ... »	أحمد والدارمي
٣١٩	« إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين ... »	الترمذي
٣٢٠	« بينا أهل الجنة في نعيمهم ... »	ابن أبي حاتم وابن ماجه
٣٢٢	« هل تدرون مم أضحك ... »	مسلم والنسائي وابن أبي حاتم

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣٢٩	« اقرأوا سورة يس على موتاكم ... »	أبو داود وابن ماجه وأحمد والحاكم
٣٢٩	« إن لكل شيء قلباً ... »	البزار والترمذي والدارمي
	« سورة الصافات »	
٣٣١	« ألا تصفون كما تصف الملائكة ... »	مسلم وأبو داود والنسائي
٣٣٢	« اللهم إني أسألك باسمك الله ... »	أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم
٣٣٤	« عجب ربك من شاب ... »	
٣٣٥	« لا تزول قدما عبد يوم القيامة ... »	الترمذي
٣٣٦	« إذا اجتمع العالم والعابد يوم القيامة ... »	البيهقي
٣٤١	« حكي أن موسى عليه السلام سأل ربه ... »	مسلم والترمذي وأحمد
٣٤٢	« يا أيها الناس اتقوا الله ... »	الترمذي والنسائي وابن ماجه
٣٤٨	« يابني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم ... »	أحمد والترمذي
٣٤٩	« كنا نقول ورسول الله حيٌّ ... »	البخاري والترمذي وأبو داود
٣٥٧	« سبحان ربك رب العزة عما يصفون ... »	ابن أبي حاتم مرسلاً
٣٥٧	« من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه ... »	الترمذي وابن حبان
	« سورة ص »	
٣٦٠	« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً .. »	الشيخان والترمذي والنسائي
٣٦٢	« أحبُّ الصيام إلى الله صيام داود ، وأحب الصلاة . صلاة داود .. »	الشيخان وأبو داود والنسائي وابن ماجه

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣٦٢	« أم هانيء دخل عليها رسول الله ﷺ فتوضأ واغتسل ثم صلى الضحى .. »	البخاري
٣٦٢	« من صلى الفجر بجماعة ، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين .. »	الترمذي
٣٦٢	« صلاة الأوابين حين ترمِضُ الفصال من الضحى .. »	مسلم وأحمد
٣٦٣	« إذا جلس إليك الخصمان فلا تقضِ لأحدهما حتى تسمع من الآخر .. »	أحمد والحاكم والبيهقي
٣٦٤	« اللهم اكتب لي عندك بها أجراً واجعلها لي عندك ذخراً .. »	الترمذي
٣٦٦	« لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون .. »	الشيخان وأحمد والنسائي
٣٦٧	« نبينا ﷺ سئل عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وذي القرنين .. »	ابن كثير رواية ابن اسحاق
٣٦٧	« إن عفريتاً من الجن تفلّت عليَّ البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه . »	الشيخان
٣٦٩	« إن الله بنى جنة عدن بيده ، وبناها بلبنة من ذهب ولبنة من فضة .. »	البزار والطبراني وابن أبي الدنيا
٣٦٩	« يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين ، أبناء ثلاث وثلاثين سنة .. »	الترمذي
٣٧٠	« من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة .. »	مسلم والنسائي
٣٧١	« إذا قال العبد يارب اغفر لي ، قال الله : أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً . »	الشيخان
٣٧٤	« إذا أصبح إبليس بث جنوده ، فيقول : من أضل مسلماً ألبسته التاج .. »	مسلم وأحمد
٣٧٤	« أنا بريءٌ من التكلف وصالحوا أمتي .. »	الديلمي وابن عساكر
٣٧٤	« يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم .. »	الشيخان والترمذي والنسائي
	« سورة الزمر »	
٣٧٥	« والذي نفسي بيده لا يقبل الله عملاً شورك فيه ، ثم تلا الآية .. »	ابن مردويه
٣٧٥	« من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري فهو له كله وأنا برىء منه .. »	ابن ماجه وابن خزيمة والبيهقي
٣٧٧	« من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة .. »	أبو داود ومسلم والترمذي

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣٧٨	« أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال : لقد سألت عن عظيم . »	أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم والبيهقي
٣٧٩	« يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً .. »	مسلم والترمذي
٣٧٩	« أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال : أفلا أكون .. »	الشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد
٣٧٩	« تعرف إلى الله في الرّخاء يعرفك في الشدة واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك .. »	أحمد والترمذي والحاكم
٣٨٠	« كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي : سل .. »	مسلم وأبو داود والنسائي وأحمد
٣٨٠	« طلب العلم فريضة على كل مسلم .. »	البيهقي والطبراني وابن ماجه
٣٨١	« أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه .. »	البخاري وأحمد والنسائي وابن ماجه
٣٨١	« إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده .. »	ابن حبان والحاكم
٣٨١	« إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله عز وجل إذا أحبّ قوماً ابتلاهم . »	الترمذي
٣٨٤	« إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراءون الكوكب الدرّي . »	الترمذي وأحمد
٣٨٤	« من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه .. »	مسلم
٣٨٥	« إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح فقيل : ما علامة ذلك ؟ قال .. »	عبد بن حميد وابن مردويه وابن جرير
٣٨٥	« أما إنه ستكون فتنة .. »	الترمذي
٣٨٦	« ولا تنقضي عجائبه .. »	جزء من حديث الترمذي
٣٨٨	« أتدرون من المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع .. »	أحمد والترمذي
٣٨٩	« يامعاذ أخلص دينك يكفك القليل من العمل .. »	ابن أبي الدنيا والحاكم
٣٨٩	« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه أو يمجسانه .. »	الشيخان وأبو داود
٣٩٠	« إنما مثلي ومثل أمتي ، كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الجنادب والفراش .. »	الشيخان والترمذي
٣٩١	« إن مثل ما بعثني الله به من الهدى كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت .. »	الشيخان

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣٩١	« إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره فإنه .. »	الشيخان وأبو داود والترمذي
٣٩١	« ما ترددْتُ في شيء أنا فاعله كترددي في قبض نفس عبدي المؤمن هو يكره الموت .. »	البخاري وأحمد
٣٩٤	« تعرّف إلى الله في الرّخاء ، يعرفك في الشدة .. »	أحمد والترمذي والحاكم
٣٩٥	« إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم .. »	الترمذي
٣٩٥	« إنْ تغفرِ اللهم تغفرْ جمّاً وأيُّ عبْدٍ لك لا ألمّا .. »	الترمذي
٣٩٥	« ما أحب أن تكون لي الدنيا وما فيها بها .. »	أحمد
٣٩٥	« جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، .. »	الشيخان والترمذي
٣٩٧	« كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول « لو أن الله هداني .. »	أحمد والنسائي
٣٩٨	« الباقيات الصالحات : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله .. »	ابن كثير
٣٩٨	« أُتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض فعُرضتْ عليّ فقلتُ : لا بل أجوع يوماً .. »	أحمد والترمذي
٣٩٩	« يؤتى برجل يوم القيامة فيقال له : بم كان اشتغالك ؟ فيقول : بالقرآن .. »	مسلم والنسائي والترمذي
٤٠٠	« أتى حبر من اليهود رسول الله ﷺ فقال يا محمد : « أشعرت أن الله يضع .. »	الشيخان والترمذي والنسائي
٤٠٠	« ما السموات السبع والأرضون السبع في يد إلا كخردلة في يد أحدكم .. »	قول السلف
٤٠١	« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأنا أول من ينشق عنه القبر .. »	الترمذي
٤٠٢	« أول ما يحاسب به الرجل صلاته ، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم .. »	
٤٠٣	« الظلم ظلمات يوم القيامة .. »	مسلم والترمذي
٤٠٤	« يؤتى بالنبي نوح عليه السلام فيقال له هل بلغت ثم يسأل قومه هل بلغكم . »	معنى الحديث
٤٠٥	« الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما ألقيته في النار .. »	مسلم والنسائي والبزار أبو داود ومسلم بلفظ آخر
٤٠٥	« لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر فقال رجل .. »	أبو داود والترمذي
٤٠٦	« أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة وأنا أول من يستفتح باب الجنة .. »	مسلم

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٤٠٦	« أن أول من يقرع باب الجنة والجنة محرمة على جميع الأمم حتى أدخلها أنا وأمتي .. »	رواه أحمد بلفظ يقاربه
٤٠٦	« إن للجنة لثمانية أبواب ما فيها بابان إلا بينهما سير الراكب .. »	أحمد وابن أبي شيبه
	« سورة غافر »	
٤١٠	« المراء في القرآن كفر .. »	أبو داود
٤١٣	« إذا كان يوم القيامة نودي فيه أطفال المسلمين أن اخرجوا من قبوركم .. »	أثر موقوف على أنس بن مالك
٤١٥	« النبي ﷺ استعاذ من عذاب القبر .. »	الشيخان
٤١٦	« يخرج قوم من أمتي في آخر الزمان يحقر أحدكم صلاته في جنب صلاته .. »	الشيخان وابن ماجه وأحمد
٤١٦	« يؤجر ابن آدم في نفقته كلها إلا شيئاً وضعه في الماء والطين .. »	الترمذي
٤١٧	« إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيدهُ .. »	مسلم والنسائي والترمذي وأحمد
٤١٨	« بعثت أنا والساعة كهاتين .. »	أحمد والترمذي وأصله في الصحيحين
٤٢٣	« أخبرني بأشدّ شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ .. »	البخاري ورواية النسائي (حدثني بأشدّ شيء)
٤٢٥	« أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر .. »	ابن ماجه وأحمد والطبراني
٤٢٧	« إني ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة .. »	مسلم وأبو داود
٤٢٧	« يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صورة الذرّ ، يطؤهم الناس .. »	أحمد والترمذي
٤٢٧	« ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها .. »	الترمذي
٤٢٩	« إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي .. »	الشيخان والترمذي والنسائي
٤٢٩	« أهون أهل النار عذاباً رجلٌ في رجليه نعلان من نار .. »	مسلم
٤٣٠	« كان عليه الصلاة والسلام لا يصلي صلاة إلا وتعوذ بعدها من عذاب القبر . »	الشيخان

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٤٣٠	« من كف أذاه عن الناس كان حقاً على الله أن يكف عنه أذى القبر .. »	لم أره بهذا اللفظ
٤٣٣	« لا تقوم الساعة حتى يبعث دجّالون كذّابون ، قريب من ثلاثين .. »	الترمذي
٤٣٥	« كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحتُ مؤمناً حقاً . قال : إن .. »	أحمد
٤٣٥	« إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها .. »	أبو داود وابن ماجه والطبراني والحاكم
٤٣٦	« إن الله أدبني فأحسن تأديبي .. »	السمعاني
٤٣٦	« إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً .. »	مسلم والترمذي وأحمد
٤٤١	« كم عدد الأنبياء فقال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً .. »	أحمد
	« سورة فُصِّلت »	
٤٤٨	« استقيموا ولن تحصوا ... »	أحمد وابن ماجه والحاكم والبيهقي
٤٤٨	« شيبتني هود وأخواتها ... »	الطبراني
٤٥٢	« إنه اليوم الذي فرض على اليهود والنصارى فأضلته ... »	البخاري ومسلم
٤٥٢	« خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة .. »	مسلم والترمذي والنسائي
٤٥٣	« أكثروا من الصلاة عليّ في الليلة الزهراء ... »	البيهقي في السنن
٤٥٥	« إنكم أنما تنصرون بضعفائكم ... »	أحمد وابن حبان والحاكم
٤٥٥	« اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً ... »	البخاري
٤٥٦	« اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك ... »	الترمذي وأحمد
٤٥٦	« لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون ... »	الترمذي
٤٥٧	« ضحك يوماً ... عجبت من مجادلة العبد ربه ... »	مسلم والنسائي والبزار
٤٥٨	« إن كل شيء سمع صوت المؤذن من رطب ويابس يشهد له ... »	أبو داود والنسائي
٤٦١	« ما من مسلم يقتل ظلماً ... »	الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد
٤٦١	« ... قل ربيَ الله ثم استقم ... »	أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٤٦٣	« المؤذنون أمناء المؤمنين على صلاتهم ... »	الطبراني والبيهقي
٤٦٣	« المؤذنون أطول الناس أعناقاً ... »	مسلم وأحمد وابن ماجه
٤٦٤	« صل من قطعك واعفُ عمن ظلمك ... »	ابن النجار
٤٦٥	« ما منكم من أحد إلا ومعه قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ... »	مسلم
٤٦٦	« ألا أنها ستكون فتنة . فقلت ما المخرج منها يارسول الله . قال : كتاب الله ... »	الترمذي
٤٦٨	« إني حرمت الظلم على نفسي ... »	مسلم
٤٦٨	« من مشى مع ظالم ليعينه وهم يعلم ... »	الطبراني
٤٦٩	« مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا الله ... »	البخاري وأحمد
	« سورة الشورىٰ »	
٤٧٤	« ... ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله »	البخاري والترمذي
٤٧٥	« إن الله خلق للجنة خلقاً ... »	مسلم وأبو داود والنسائي
٤٧٥	« ... أتدرون ما هذان الكتابان ... »	الترمذي وأحمد
٤٧٥	« إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه .. »	البخاري ومسلم
٤٧٩	« ... وإن تقرب إليَّ شبراً تقربت منه ذراعاً ... »	البخاري والنسائي والترمذي
٤٨٠	« شيبتني هود وأخواتها ... »	الطبراني وابن عساكر
٤٨٠	« استقيموا ولن تحصوا .. »	أحمد وابن ماجه والحاكم والطبراني
٤٨٣	« من كانت نيته الآخرة جمع الله شمله ... »	الترمذي
٤٨٨	« لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ... »	الترمذي والحاكم
٤٩١	« أول ما يحاسب العبد يوم القيامة بصلاته ... »	الترمذي والنسائي
٤٩١	« كل معروف صدقة ... »	أحمد والترمذي
٤٩٢	« ما زاد الله عبداً بالعفو إلا عزاً ... »	مسلم
٤٩٢	« إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : أين العافون عن الناس ... »	الخطيب
٤٩٥	« من بركة المرأة تبكيرها بالبنات ... »	ابن عساكر
٤٩٥	« من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن ... »	البخاري ومسلم
٤٩٦	« .. أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ... »	البخاري

ثالثاً : فهرس الأبيات الشعرية

البيت		الصفحة
إذَا مَا تَمَنَّىٰ النَّاسُ رَوْحاً وَرَاحَةً	تَمَنَّيْتُ أَنْ أَشْكُو إلَيْكَ وَتَسْمَعُ	
• • •		ص ١٥
وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ	بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ	
• • •		ص ١٧
وَيَوْمٌ لاَ أَرَاكَ كَأَلْفِ شَهْرٍ	وَشَهْرٌ لاَ أَرَاكَ كَأَلْفِ عَامِ	
• • •		ص ١٩
تَعَوَّدَ بَسْطَ الكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ	ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهْ	
فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ	لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُهْ	
• • •		ص ٢٦
يَا مَنْ يُجِيبُ دُعَا المُضْطَرِّ فِي الظلَم	يَا كَاشِفَ الضُّرِّ وَالبَلْوَىٰ مَعَ السَّقَمِ	
قَدْ نَامَ وَفْدُكَ حَوْلَ البَيْتِ وانتَبَهُوا	وَأَنْتَ يَاحَيُّ يَا قَيُّومُ لَمْ تَنَمِ	
أَدْعُوكَ رَبِّي حَزِيناً هَائِماً قَلِقاً	فَارْحَمْ بُكَائِي بِحَقِّ البَيْتِ وَالْحَرَمِ	
إنْ كَانَ عَفْوُكَ لاَ يَرجُوهُ ذُوْ سَفَهٍ	فَمَنْ يَجُودُ عَلَى العَاصِينَ بِالكَرَمِ	
• • •		ص ٤٣
أَلاَ إنَّمَا الدُّنْيَا كَظِلٍّ سَحَابَةٍ	أَظَلَّتْكَ يَوْماً ثُمَّ عَنْكَ اضْمَحَلَّتِ	
فَلاَ تَكُ فَرْحَاناً بِهَا حِينَ أَقْبَلَتْ	وَلاَ تَكُ جَزْعَاناً بِهَا حِينَ وَلَّتِ	
• • •		ص ٤٤
أَرَىٰ الدُّنْيَا تَجَهَّزُ بِانْطِلاَقٍ	مُشَمِّرَةً عَلَى قَدَمٍ وَسَاقِ	
فَلاَ الدُّنْيَا بِبَاقِيَةٍ لِحَيٍّ	وَلاَ حَيٌّ عَلَى الدُّنْيَا بِبَاقِ	

البيت	الصفحة
كَـأَنَّ المَـوْتَ وَالحَـدَثَـانِ فِيهَـا إِلَىٰ نَفْسِ الفَتَىٰ فَرَسَـا سِبَـاقِ فَيَـا مَغْرُورُ بِـالـدُّنْيَـا رُوَيْـداً وَمِنْهَـا خُـذْ لِنَفْسِـكَ بِـالـوَثَـاقِ	
• • •	ص ٤٥
إِنَّ اللَّيَـالِي لَمْ تُحْسِنْ إِلَىٰ أَحَـدٍ إِلاَّ أَسَـاءَتْ إِلَيْـهِ بَعْـدَ إِحْسَـانِ	
• • •	ص ٧٢
أَحْسَنْتَ ظَنَّـكَ بِـالأَيَّـامِ إِذْ حَسُنَتْ وَلَمْ تَخَفْ شَرَّ مَـا يَـأْتِي بِـهِ القَـدَرُ	
• • •	ص ٧٢
وَرَاوَدَتْـهُ الجِبَـالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ عَنْ نَفْسِـهِ فَـأَرَاهَـا أَيَّمَـا شَمَمِ وَأَكَّـدَتْ زُهْـدَهُ فِيهَـا ضَرُورَتُـهُ إِنَّ الضَّرُورَةَ لاَ تَعْـدُو عَلَىٰ العِصَمِ فَـإِنَّمَـا أُمَّهَـاتُ النَّـاسِ أَوْعِيَـةٌ مُسْتَـوْدَعَـاتٌ وَلِـلآبَـاءِ أَبْنَـاءُ	
• • •	ص ٧٥
وَمَـا رُمْتُ الـدُّخُـولَ عَلَيْـهِ حَتَّىٰ حَلَلْتُ مَحِلَّـةَ العَبْـدِ الـذَّلِيـلِ	
• • •	ص ٩٢
نِعَمُ الإِلَـهِ عَلَى العِبَـادِ كَثِيرَةٌ وَأَجَلُّهُنَّ نَجَـابَـةُ الأَوْلاَدِ	
• • •	ص ٩٦
رَأَيْتُ أَخَا الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ ثَاوِيَاً أَخَا سَفَرٍ يُسْرَىٰ بِهِ وَهْوَ لاَ يَدْرِي	
• • •	ص ٩٧
كُنْ مِنَ الخَلْـقِ جَـانِبَـاً وَارْضَ بِـاللهِ صَـاحِبَـا قَلَّبِ الخَلْـقَ كَيْفَ شِئْـ تَ تَجِـدْهُم عَقَـارِبَـا	
• • •	ص ١٠٥

البيت	الصفحة
بِـــلاَدُ اللهِ وَاسِعَـــــةٌ فَضَـــــاءً	وَرِزْقُ اللهِ فِي الـــدُّنْيَـــا فَسِيـــحُ
فَقُـــلْ لِلْقَـــاعِـــدِينَ عَلَى هَـــوَانٍ	إِذَا ضَـــــاقَتْ بِكُمْ أَرْضٌ فَسِيحُـــوا

• • • ص ١٤٥

أَلاَ إِنَّمَـا الـدُّنْيَـا كَظِـلِّ سَحَـابَـةٍ	أَظَلَّتْـكَ يَـوْمَـاً ثُم عَنْـكَ اضْمَحَلَّتِ
فَـلاَ تَـكُ فَرْحَـانـاً بِهَـا حِينَ أَقْبَلَتْ	وَلاَ تَـكُ جَزْعَـانـاً بِهَـا حِينَ وَلَّتِ

• • • ص ١٦٤

نِعَمُ الإِلـــــهِ على العِبَـــــادِ كَثيرةٌ	وَأَجَلُّهنَ نَجـــــابـــــةُ الأَوْلاَدِ

• • • ص ١٦٦

قال الشاعر :

خُلِقْتُ مِنَ التُّرَابِ فَصِرْتُ شَخْصَـــاً	بَصِيرَاً بِـــالسُّؤَالِ وَبِـــالْجَـــوَابِ
وَعُـــدْتُ إِلَى التُّرَابِ فَصِرْتُ فِيـــهِ	كَـــأَنِي مَـــا خَرَجْتُ مِنَ التُّرَابِ

• • • ص ١٨١

أَعْمَيْتُ عَيْنِي عَنِ الـدُّنْيَـا وَزِينتِهَـا	فَـــــأَنْتَ وَالرُّوحُ شَيْءٌ غَيْرُ مُفْتَرِقِ
إِذَا ذَكَرْتُـــــكَ وَافَى مُقْلَتِي أَرَقٌ	مِنْ أَوَّلِ اللَّيْـلِ حَتَّى مَطْلِـعِ الفَلَـقِ

• • • ص ١٨٤

وقال محمد بن سابق :

فَكَمْ قَـــوِيٍّ مَتِينٍ فِي تَقَلُّبِـــــهِ	مُهَـــذَّبِ الرَّأْيِ عَنْـــهُ الرِّزْقُ يَنْحَرِفُ
وَكَمْ ضَعِيفٍ ضَعِيفٍ فِي تَقَلُّبِـــــهِ	كَـــأَنَّـــهُ مِنْ خَلِيـجِ الْبَحْرِ يَغْتَرِفُ
هَـــذَا دَلِيـلٌ عَلَى أَنَّ الإِلـــهَ لَـــهُ	فِي الخَلْـــقِ سِرٌّ خَفِيٌّ لَيْسَ يَنْكَشِفُ

• • • ص ١٨٧

يَـــا عَـــامِرَ الـــدُّنْيَـــا عَلَى شَيْبِـــهِ	فِيـــــكَ أَعَـــــاجِيبُ لِمَنْ يَعْجَبُ

البيت		الصفحة
مَـا عُـذْرُ مَنْ يَعْمُرُ بُنْيَـانَـهُ	وَجِسْمُـهُ مُسْتَهْـدِمٌ قَـدْ يَخْرَبُ	
• • •		ص ١٩٣
إِنَّمَـا الـدُّنْيَـا كَرُؤْيَـا فَرَّحَتْ	مَنْ رَآهَـا سَـاعَـةً ثُمَّ انْقَضَتْ	
• • •		ص ٢٠٥
تَرْجُـوْ النَّجَـاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهـا	إِنَّ السَّفِينَـةَ لاَ تَمْشِي عَلَى الْيَبَسِ	
• • •		ص ٢١٢
إِذَا مَـا حِمَـامُ الْمَوتِ كَـانَ بِبَلْـدَةٍ	دَعَتْـهُ إِلَيْهَـا حَـاجَـةٌ فَيَطِيرُ	
• • •		ص ٢١٣

قال الشاعر :

مَشَيْنَـاهَـا خُطَىً كُتِبَتْ عَلَيْنَـا	وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْـهِ خُطَىً مَشَـاهَـا	
وَأَرْزَاقٌ لَنَـا مُتَفَرِّقَـاتٌ	فَمَنْ لَمْ تَـأْتِـهِ مِنَّـا أَتَـاهَـا	
وَمَنْ كُتِبَتْ مَنِيَّتُـهُ بِـأَرْضٍ	فَلَيْسَ يَمُـوتُ فِي أَرْضٍ سِـوَاهَـا	
• • •		ص ٢١٣

وقال عبد الله بن رواحة :

وَفِينَـا رَسُـولُ اللهِ يَتْلُـو كِتَـابَـهُ	إِذَا انْشَـقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الفَجْرِ سَـاطِـعُ	
أَرَانَـا الْهُـدَىٰ بَعْـدَ العَمَىٰ فَقُلُوبُنَـا	بِـهِ مُـوْقِنَـاتٌ أَنَّ مَـا قَـالَ وَاقِـعُ	
يَبِيتُ يُجَـافِي جَنْبَـهُ عَنْ فِرَاشِـهِ	إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِـالْكَـافِرِينَ الْمَضَـاجِعُ	
• • •		ص ٢١٨
أَيُّهَـا الْمُنْكِـحُ الثُّرَيَّـا سُهَيْـلاً	عَمْرَكَ اللهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَـانَ ؟	
هِيَ شَـامِيَّـةٌ إِذَا مَـا اسْتَقَلَّتْ	وَسُهَيْـلٌ إِذَا اسْتَقَـلَّ يَمَـانِي	
• • •		ص ٢١٩

البيت	الصفحة
فَـإِنَّـهُ شَمْسُ فَضْـلٍ هُمْ كَـوَاكِبُهَـا يُظْهِرْكَ أَنْـوَارَهَـا لِلنَّـاسِ فِي الظُّلَمِ	
• • •	ص ٢٤٣
إِذَا حَـلَّ الثَّقِيـلُ بِـأَرْضِ قَـوْمٍ فَمَـا لِلسَّـاكِنِينَ سِـوَىٰ الرَّحِيـلِ	
• • •	ص ٢٤٩
أَدِّبُـوا النَّفْسَ أَيُّهَـا الأَحْبَـابُ طُرُقُ الـدِّينِ كُلُّهَـا آدَابُ	
• • •	ص ٢٤٩
سَـلاَمٌ مِنَ الرَّحْمَنِ نَحْـوَ جَنَـابِـهِ لأَنَّ سَـلاَمِي لاَ يَلِيـقُ بِبَـابِـهِ	
• • •	ص ٢٥٢
يَا مَنْ يُجِيبُ دُعَا الْمُضَطَّرِّ فِي الظُّلَمِ يَـا كَـاشِفَ الضُّرِّ وَالبَلْـوَىٰ مَـعَ السَّقَمِ شَفِّـعْ نَبِيَّـكَ فِي ذُلِّي وَمَسْكَنَتِي وَاسْتُر فَـإِنَّـكَ ذُوْ فَضْـلٍ وَذُوْ كَرَمِ	
• • •	ص ٢٥٣
فَـانْتَبِـهْ قَـدْ أُقِيمَتِ السَّـاعَـةْ إِنَّ عُمْرَ الخَـلاَئِـقِ سَـاعَـةْ	
• • •	ص ٢٥٦
فخـلِّ سبيـلَ العين بعـدكَ للبُكا فليس لأيـام الصفـاء رجـوعُ	
• • •	ص ٢٧٧
أحبـك حبين حب الهـوى وحبـاً لأنـك أهـل لـذاكا فـأمـا الـذي هـو حب الهـوى فـذكرّ شُغلت بـه عن سـواكا وأمـا الـذي أنت أهـلٌ لـه فكشفـك للحجب حتى أراكا ولا حمـدَ في ذا ولا ذاك لي ولكنْ لـك الحمـدُ في ذا وذاكا	
• • •	ص ٢٨٣

البيت	الصفحة
لا تُعجبن الجهولَ حُلَّتُهُ ... فإنه المَيْتُ ثوبُه كَفَنُ	
• • •	ص ٢٩٠
عليلاءُ لا تنزلُ الأحزان ساحتَها ... لَوْ مَسَّها حجرٌ مَسَّتْهُ سراءُ	
• • •	ص ٢٩٥
حلفتُ فلم أتركْ لنفسِكَ ريبةً ... وليس وراء الله للمرءِ مطلبُ	
• • •	ص ٢٩٧
أرى الحلمَ في بعض المواضعِ ذلةً ... وفي بعضها عِزّاً يُسَوِّدُ فاعِلَهُ	
• • •	ص ٢٩٩
ولله في كل تحريكة ... وتسكينة أبداً شاهد وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد	
• • •	ص ٣١١
ويوم لا أراك كألف شهرٍ ... وشهر لا أراك كألف عامِ	
• • •	ص ٣١١
مِحَن الزمان كثيرة لا تنقضي ... وسروره يأتيك كالأعياد	
• • •	ص ٣١١
أراني كل يوم في انتقاضٍ ... ولا يبقىٰ على النقصان شيءُ	
• • •	ص ٣٢٣
هل أنت إلا أصبع دميتِ ... في سبيل الله ما لقيتِ	
• • •	ص ٣٢٤

البيت	الصفحة
أنا النبيُّ لا كذب ... أنا ابنُ عبد المطلب	
• • •	ص ٣٢٤
باسم الإله وبه بَدَأْنَا ... ولو عبدنا غيره شقينا	
• • •	ص ٣٢٤
أعلمه الرماية كل يومٍ ... فلما اشتد ساعده رماني	
وكم علمته نظم القوافي ... فلما قال قافية هجاني	
• • •	ص ٣٢٧
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد	
• • •	ص ٣٣٢
أتفخر بانتسابك من عليٍّ ... وأصلُ البولة الماءُ القراحُ	
وليس بنافعٍ نسبٌ زكيٌّ ... تدنسُهُ صنائِعُك القِبَاحُ	
• • •	ص ٣٤٨
وما ينفع الأصل من هاشمٍ ... إذا كانت النفسُ من باهِلَه	
• • •	ص ٣٤٨
اصبرْ لكلِّ مُصيبةٍ وَتَجلَّدِ ... وَاعْلَم بأنّ المرءَ غيرَ مُخَلَّدِ	
وَإذَا اعْتَرتكَ وساوسٌ بمصيبةٍ ... فاذْكُرْ مُصابَكَ بالنَّبيِّ محمَّدِ	
• • •	ص ٣٨٧
عَنِ المرْءِ لا تَسلْ وسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي	
• • •	ص ٤٢٤
أيُّهَا المُنْكِحُ الثُرَيَّا سُهيلاً ... عُمْرُكَ اللهُ كيفَ يَلْتَقِيانِ	

البيت		الصفحة
هِي شَـــامِيَّـــةٌ إِذَا مَـــا اسْتَقَلَّتْ	وسُهَيـــلٌ إِذَا اسْتَقَـــلَّ يَمـــانِي	
• • •		ص ٤٣٤
لا تُكْثِرَنَّ مِنَ الجِمَـــاعِ فَـــإِنَّـــهُ	مَـــاءُ الحَيَـــاةِ يُصَبُّ فِي الأَرْحَـــامِ	
• • •		ص ٤٣٧
أَخَـافُ وَرَاءَ القبرِ ، إِنْ لَمْ يُعَـافِنِي	أَشَـــدَّ من القبرِ التِهَـــاباً وأَضْيَقَـــا	
إِذَا جَـاءَنِي يَـوْمَ القِيَـامَـةِ قَـائِـدٌ	عَنِيفٌ وسَـــوّاق يَســـوقُ فَرَزْدَقَـــا	
لقَـدْ خَـابَ مِنْ أولادِ آدمَ مَنْ مَشى	إِلَىٰ النَّـــارِ مَغْلُـولَ القِـلاَدَةِ أَزْرَقَـــا	
• • •		ص ٤٣٩
وَمَـــا إِيمَـــانُ شَخْصٍ حَـــال بـــأْسٍ	بِمقْبُـ ـولٍ لفقـــــدِ الأمْثَـــــالِ	
• • •		ص ٤٤٤
إن الجَـديـدَيْن في طـول اختـلافِهما	لا يَفْسُـــدَان ولكنْ يَفْسُـــدُ النـــاسُ	
• • •		ص ٤٥٥
نَـــذُمُّ الـزمـــانَ والعيبُ فِينَـــا	وَمـــا لِـزمَـــانِنَـــا عَيْبٌ سِـوَانـــا	
• • •		ص ٤٥٥
إن للهِ عبـــــاداً فطنـــــاً	طَلَّقُـوا الـدنيـا وخَـافُـوا الفِتَنَـا	
نَظَروا فيهـــا فلمـــا عَلِمُـــوا	أنهـــا ليست لحيٍّ وَطَنَـــا	
جعلـوهـــا لُجَّـــةً واتَّخَـــذُوا	صَـالِـحَ الأعمـــالِ فيهـــا سُفُنَـــا	
• • •		ص ٤٨١
ألا كلُّ شيءٍ مـا خـلا اللهَ بـاطـلُ	وكلُّ نعيمٍ لا محـــالـــةَ زائـــل	
• • •		ص ٤٨٤

البيـــت	الصفحة
ولا عيبَ فيهم غير أن سُيـــــــوفَهم بهنَّ فُلـــولٌ من قِرَاعِ الكتـــــائبِ	
• • •	ص ٤٨٥
إن الشبـــــابَ والفراغَ والجِـــــدَه مَفْسَـــــدةٌ للمرءِ أيُّ مَفْسَـــــدة	
• • •	ص ٤٨٧
ولا يُقيم على ضَيْمٍ يُراد بـــــــــه إلا الأَذَلاَّن عِيرُ الحيِّ والـــوَتِـــــدُ هـــذا على الخَسْفِ مربـوط بِرُمَّتِـــهِ وذا يُشَـجُّ فـلا يرثي لـــه أحـــدُ	
• • •	ص ٤٩١

كتب للمحقق
الشيخ محمد علي الصابوني

١ ــ المواريث في الشريعة الإسلامية على ضوء الكتاب والسنّة.
٢ ــ النبوة والأنبياء.
٣ ــ التبيان في علوم القرآن.
٤ ــ روائع البيان في تفسير آيات الأحكام.
٥ ــ من كنوز السنة.
٦ ــ مختصر تفسير ابن كثير.
٧ ــ صفوة التفاسير.
٨ ــ إيجاز البيان في سور القرآن.